

الأدب في بلاد الشَّعْرَة

عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك

الدكتور عمر موسى باشا

الأستاذ المساعد في كلية الآداب
بجامعة دمشق

المكتبة العباسية

دمشق

هذا الكتاب رسالة نال بها المؤلف درجة الدكتوراه في الآداب
بمدرسة الشرف الثانية من كلية الآداب بجامعة القاهرة في الثالث
من شهر حزيران (يونيه) سنة ١٩٦٤ .

أما لجنة المناقشة فكانت مؤلفة من الأستاذ الدكتور عبد
العزیز الأهواني المشرف على البحث ، والأستاذ الدكتور شوقي
ضيف ، والأستاذة الدكتورة سحر القلماوي .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

ان الافعال الكبر على هذا الكتاب من القراء حفرتني على تجديد طبعه ، وآبة ذلك انه كان من أوائل الدراسات العلمية الجادة والبحوث المتهجية المسببة لعصر هام جيداً امد مرتين من الزمن شهد أعظم الملاحم والاحداث التي مرت في بلاد الشام بدءاً من دخول الصليبيين وانتهاء من خروج التتار .

وفد أشار علي بعضهم بضرورة اخصار هذا الكتاب تسهيلاً للشداة من الباحثين ، ولم تكن هذه الفكرة لتلقى مني قبولا ، ذلك لان الثقافة الخصبة لا تكون في دراسة المختصرات ولكنها نجد مرعاها المربع في البحث المستفيض الذي اكتملت أصوله وتشعبت فنونه .

متلي في ذلك مثل العدماء فقد حكي عن الجاحظ أنه صنف كتاباً وبوبه أبواباً ، فاخذه بعض أهل عصره ، فحذف منه أشياء ، وجعله أشلاء ، فاحضره وقال له : « يا هدا ان المصنّف كالصور ، واني قد صورت في تصنيفي صورة كانت لها عيضان فمورتها ، أعمى الله عيني ، وكان لها اذنان فصلتتهما صلّك الله أذنك ، وكان لها يدان ففطعتهما ، قطع الله بذلك » حتى عدّ أعضاء الصورة ، فاعتذر اليه الرجل بجعله هذا المقدار ، وناب عن المعاودة الى مثله .

وحكي أيضاً عن ياقوت مثل هذا فقال : « وقد التمس مني الطلاب اخصار هذا الكتاب مراراً ، ولم أجسد لي على قصر همهم أولياء ولا انصاراً ، فما انفذت لهم ولا اربعون ، ولي على ناضل هذا الكتاب والمستفيد منه أن لا يضيع نصبي ، ونصب نفسي لسه ونصبي ، يتهدد ما جمعت ، وتشئت ما لغّثت ، وفريق ملثم معاسته ، ونفي كل علق نفيس عن معادنه ومكاملته ، باقتضائه واختصاره ، وتعطيل جيبه من حلته وانواره ، وغصبه اعلان

فضله وأسراذه ، قرب راعب عن كلمة غره متهالك عليها وزاهد عن نكتة غيره مشفوف بها ،
يمضي الركاب اليها ، فان أجبتني بردني جملك الله من الأبرار ، وان خالفتني فقد
عففتني والله حسيبك في عقبى الدار .

تم اعلم ان المختصر لكتاب كمن أقدم على خلق سوي فقطع أطرافه فتركه أشل البدين ،
ابتز الرجلين ، أعمى العينين ، أصلم الأذنين ، أو كمن سلب امرأة حليها فتركها عاطلاً ،
أو كان كالذي سلب الكمي سلاحه فتركه أعزل راجلاً (١) .

لن أقدم على فعل أمر أنكره الجاحظ ويافوت وغيرهما من الغدقاء ، فهذا الكتاب
وحدة متكاملة ، ومن العبث أن يختصر المرء شيئاً لأنه يكون قد شوه الصورة الحقيقية ،
وفقطع أوصال الجسد الواحد ، فيغدو جثة لا حراك فيها ، والأدب صورة تفيض بالنور
وجسد ينبض بالحياة ، ولا أدب بغير النور والحياة .

وعوداً على بدء ، فان كان الاختصار ينوه الأصل فان تغيير عنوان الكتاب يفقده كثيراً
من حقيقته ، ذلك أن هذا الكتاب طبع باسم « أدب الدول المتتابعة » لاعتبارات تدريسية
خاصة ، ولكني أثرت أن يعود العنوان الأصلي كما كان وكما بدأ وهو « الأدب في بلاد
الشام » وقد اشتمل على عصور الزنكيين والايوبيين وجزء من العصر المملوكي الأول ، وبهذا
تبقي الصورة دون تنويه ويبقى العنوان وفق الصورة الحقيقية الأولى للكتاب .

هذا هو الكتاب في طبعه الثانية بين يدي القارئ الكريم نرجو أن يغيد منه
والله حسبنا ونعم الوكيل .

مدخل البحث

جدير بنا ونحن في عتبة هذا البحث أن نحدد مفهومنا عن (الأدب في بلاد الشام) في القرنين السادس والسابع الهجريين الموافق للقرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، ثم نبين بعد ذلك سبب اختياره ، ونعرض للمشكلات والصعوبات التي اكتنفت عملنا الأدبي .

عرّف النقاد العرب القدماء الأدب ، وذكروا أنه هو ما يحسن من الأخلاق وفعل المكارم والفضائل ، كما هو معروف في العصر الجاهلي .

نحدث الشعراء الجاهليون وحكماؤهم كثيراً عن هذه المعاني ، ونوهوا بالفضائل الكريمة التي هي موضع فخرهم واعتزازهم ، حتى إذا جاء الإسلام ونشر تعاليمه السمحة ، انسع بالضرورة نطاق هذا المفهوم ، فشمل كثيراً من المعاني الجديدة ، كما يفهم ذلك من الحوار الذي جرى بين علي وابن عمه محمد صلى الله عليه وسلم . قال له وقد سمعته يخاطب وقد بني نهدي : « يا رسول الله نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وقود العرب بما لا نفهم أكثره » . فقال عليه الصلاة والسلام : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » .
وستل أيضاً : « فيم الجمال ؟ » فقال : « في اللسان » يريد البيان (١) .

(١) اس رثق : المدة ، ج ١ ص ٢٤١ .

هذا مفهوم الإسلام عن الأدب ، وقد تطور هذا المفهوم أيضاً بعد الإسلام بمدة طويلة ، وتغيرت المفاهيم تغيراً مابيناً ، واصطلح المولدون والمحدثون والمتأخرون على تسمية العالم بالشعر أديباً وعلوم العربية أدباء (١) ، وشملت هذه التسمية فأصبح لفظ الأدب يطلق على هذه العلوم وغيرها . يؤكد هذه النظرة قول المبرد في كامله أن كتابه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منثور ، وشعر مرصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة (٢) .

أما مفهوم النقد والأدباء في القرنين السادس والسابع الهجريين ، فلا يختلف كثيراً عما رأيناه بعد الإسلام ، ونستطيع من خلال ذلك أن نبين المفهومين معاً : المفهوم التقليدي وهو أن الأدب أدب النفس ، والمفهوم الجديد وهو أن الأدب أدب الدرس ، والأدب الحقيقي الحي ما كان صورة معبرة عن النفس الإنسانية في كل زمان ومكان ، وغايته الخلق والإبداع ، وما أصدق قول ابن الأثير الكاتب : شيثان لا نهاية لهما البيان والجمال (٣) ، فإذا فصلنا بينهما ، نكون قد جردناه من أقدس ما فيه من روح الحياة .

نخلص من ذلك إلى أن نعرض قصة الأدب في بلاد الشام ، في عصور الدول المتتابعة ، موضوع هذا البحث ، ونشير بادئ ذي بدء إلى أن لفظة سورية (٤) يختلف مدلولها الآن عما كانت تعرف به فهي في حقيقة وضعها تدل على رقعة ضيقة من الأرض لا تتجاوز في مداها ما بين مدينتي خناصره وسلمية . وقد

(١) الخفاجي : شفاء الغليل ، ص ٢٧ .

(٢) المبرد : الكامل في اللغة والأدب ، ص ٢ .

(٣) ابن الأثير : التل السائر ، ج ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٤) المروف عند القدماء أن لفظة سورية تقتصر على موضع محدد ما بين حاصره وهي بليدة من أعمال حلب تحاذي قنرين نحو البادية ، وسلمية الواقعة شرقي حماة والقريه منها (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ص ٢٨٠) .

أستخدم القدماء لفظ بلاد الشام (١) فهي نطلق على رقعة مسيحة من الأرض نمند ما بين العريش وأقصى ضفاف الفرات والجزيرة ، وتضم في بقاعها أقطارا شتى .

قشرت دراسة (الأدب في بلاد الشام) على القرنين السادس والسابع الهجريين وذلك لأهمية هذه الفترة الزمنية في التاريخ الإسلامي ، فهي فسدت شهدت أحداثاً كبرى ، أهمها سقوط بيت المقدس ، ووقوع الطراز الأخضر (٢) بيد الفرنجة ، وخراب بغداد وعراقها بيد التتار ، وتهديد الفرنجة الثغور المصرية بالاحتلال ، وقيام دول متتابعة ثلاث في الشام ومصر وغيرهما ، فتوحدت البلاد ، وتحرر بيت المقدس وطُرد الصليبيون ودُحر التتار ، وبذلك انتقذت البلاد من هذا الخطر الجاتم .

وطبعي جداً أن يخرج هذه الأحداث الكبرى الأدب العربي في هذا العصر من عقمه وجموده ليلم بما دهم البلاد وأصاب العباد من مصائب وكوارث . وغريب حقاً ألا يدرس حتى الآن هذا العصر دراسة جدية ، وألا يعطى حقه وقسطه ، وإنما نسهى إهمالاً وإعراضاً من الباحثين والنقاد ، في الوقت الذي نتهد عناية المستشرقين والمسنهريين ونهاقنهم على بحثه ممن يهتمهم الدراسات الشرقية والأبحاث الإسلامية .

وعسير على الباحث في هذا العصر أن يدرس أدب قطر معين . وذلك لعمام وحدة سياسية شاملة بصدت للخطر الخارجي الداهم . وفشت

(١) عرف ياقوت بلاد الشام . وذكر أن جدما من الغراب إلى الدريش المباحم للدييار المصرية وأما عرسها مصر حلي طي من نحو الصلة إلى بحر الروم : وما شامة ذلك من البلاد . وبها من اميات المدن : مسج وحلب وحماة وحسين ودمشق والبيت المقدس والمصرة . وبها الساحل : أنطاكية وطرابلس وعدا وسور وعسقلان وغير ذلك . ويسمى في الشام أيضاً البحر دمي : المصبصة وطرطوس وأذنه وأنطاكية . وحسب الغوامم من سمرقن والحداد ومراة . والبلقاء وغير ذلك . (ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٣١١ - ٣١٥) .

(٢) ذكر أبو شامة أن المعنى بالطراز الأخضر بلاد الساحل المطلقة على بلاد البحر من الداروم وعسرة وعسقلان وعكا وعيدا ، وسور وحسب وعم ذلك . (أبو شامة : الروستمر ص ٢٨ ص ١١٤) .

على خطر العزلة الجانب . وكانت الدول المتابعة الثلاث : الزنكية والأيوبية والمملوكية تحكم معظم هذه الأقطار ، وكانت مصر والشام قلة العالم الإسلامي في هذا العصر .

كما أننا نشاهد معظم الأدباء ، ينشأ أحدهم في قطر ، ويتلقى علومه في ثان ، وينبه أمره في ثالث ، وقليل منهم من ارتضى لنفسه العزلة الأدبية في بلده ، إذ لا قرار ولا استقرار في عصر مملوء بالخطوب والجسام والأحداث الكبار ، وإنما نشهد رحلات أدبية طلباً للعلم والإجازة وسعيًا وراء المجد والشهرة ، فالمأثور عن ملوك هذا العصر وسلاطينه وأمرائه أنهم كانوا يساعدون طلبة العلم والفقهاء ، ويوفرون لهم أسباب معاشهم ، ويبدلون لهم كل تشجيع .

تلك هي حال أدباء هذا العصر ، وتلك هي نشأتهم وثقافتهم ، ينتقلون في حواضر العلم المنتشرة في كل مكان هنا وهناك . وما كان الأدب العربي قط في يوم من أيامه مطبوعاً بالطابع القطري أو الإقليمي ، ومرد ذلك إلى اللغة والدين والتاريخ والثقافة المشتركة إذ تجعل من المستحيل علينا إبراز كيان أدب منفصل لقطر معين من الأقطار العربية ، زد على ذلك أن الثقافة الإسلامية في هذا العصر كانت تجمع شمل العناصر المتباعدة في إطار واحد من الثقافة المتشابهة والتوجيه الديني الخاص .

هذه كتب الأدب شاهدة على هذه الوحدة الثقافية الشاملة ، فهي لم تميز بين الأدباء عامة ، وإنما كانت تورد أخبارهم وأقاربهم ، سواء أكانوا في الشام أم في مصر أم في غيرها من البلاد .

توضحت هذه النظرة الأدبية الشاملة في أدبنا العربي خلال هذا العصر ، ولم أقنع بها إلا بعد أن هدنتني أبحاثي المتعلقة بهذا الموضوع ، وخلصت منها إلى الاعتقاد أن الأدب في الشام ما كان له أن يكون منفصلاً عن قافلة الأدب العربي في عصور الدول المتتابعة ، وإنما كان مظهرًا أغرق ، وصورة واقعية من أدب هذا العصر . ويؤلف مع الآداب العربية في شتى

الاقطار والأمصار الإسلامية صورة كاملة ، قلّ أن تختلف معانيها ،
أو تباين مبانيها .

ببقى علىّ أن أذكر أن الفضل في اختيار هذا البحث الهام يرجع
إلى أستاذي المرحوم الدكتور محمد كامل حسين الذي اقترحه عليّ قبيل
وفاته ، وذكر لي أن هذا الموضوع واسع جداً ، ومتشعب جداً ،
تكثر فيه الاتجاهات الأدبية المختلفة ، والمدارس الفنية المتباينة . وقد
مضى إلى بارئته راضياً مرضياً ، طيّب الله ثراه ، ونفعنا بذكراه ، وأسكنه
فسيح جناته .

كان هذا الموضوع حقاً كما نبتاً لي ، يضاف إلى ذلك أن أهمّ المصادر
التي احتاج إليها مخطوطة نادرة أو بعيدة المنال ، وقد بذلت أقصى جهدي
لتصوير بعضها والحصول عليه من البلاد الأجنبية .

كما واجهتني صعوبات جمة في بدء العمل ، لأن الدراسات حول هذا
الموضوع نزره محدود النطاق ضيقة الآفاق ، ولولا العون والتوجيه اللذان
حباني بهما أستاذي الكريم المشرف الدكتور عبد العزيز الأهواني لما استطعت
المضي فلماً في مسالك هذا البحث الشائك ، فقد أفسح أمامي محجة البحث
العلمي الموضوعي ، وأوصاني بالمنهجية العلمية في التفد . وبالذقة المتناهية
في التحري عن الحقائق الأدبية وكشفها ، كما أخص بالذكر الأستاذ الدكتور
شوقي ضيف ، فقد زودني بإرسادانه وقدم لي كل ما احتاج إليه ، حتى
استنقمت إلى هذا السفر وخرج بعد هذا العمل المتواصل والجهد الدائب
على هذا النسل . ولقد بذلت له معظم وقتي وصحتي ، واستنفدت لأجله
كل جهدي ودأبي ، واستفرقت في عملي المتواصل ليل نهار خلال أربعة
أعوام متوالات ، ليكون هذا البحث كما أرجوه عميقاً ودقيقاً ، فإن
كتب لي التوفيق فذلك بفيني وحسبي ، وإلا فما قصدت إلا العمل الخير ،
والله شهيد على ما أقول ، وهو وحده ولي الأمر والتدبير ، إنه على
كل شيء قدير .

الْبَيِّنَاتُ الْإِلَوِيَّةُ

الْمَامَةُ عَامَةً

الفصل الأول

التطورات السياسية والوحدة العربية

نحاول في هذا الفصل أن نعرض للتطورات السياسية العامة في بلاد الشام ، فنحدث عن الدول المتتابعة الثلاث التي ظهرت في هذه المرحلة الخطيرة من التاريخ الإسلامي ، وقد استطاعت أن تجمع أمورها ، وتظهر البلاد ، وبرد الغازين القادمين من الشرق والغرب على السواء ، ونقيم صرح وحدة عربية كبرى .

القسم الأول

الزكيون

٤٨٩ - ٥٧٧

نقتصر من ملوك هذه الاسره التركية على الدين حكموا بلاد الشام ، وهم قسيم الدولة آق سنقر ، وعماد الدين زكي ، ونور الدين محمود ، والصالح إسماعيل .

(١)

قسيم الدولة آق سنقر

كان في بدء أمره مملوكاً نركياً لدى السلطان السلجوقي الب أرسلان ، فدرج في كنفه وترعرع ، ورى مع ابنه جلال الدولة ملكشاه ، واستمرت صحبته له حتى ولى السلطنة بعد وفاة سيده ، فارتفعت منزلته ، وسمت مكانته ، ونبه شأنه فلقتب بقسيم الدولة (١) .

لم يرض الوزير نظام الدين الملك عن وجود منافس خطير على مركزه ، ورأى بثاقب بصره أن يبعده عن السلطان ليخلو له الأمر وينفرد بالحكم فلما تسلم مدينة حلب سنة ٤٨٠ هـ أهتبل الفرصة المناسبة واقترح عليه أن يقطعها إياها مع أعمالها ، وزاده حماة واللاذقية ومنبج (٢) .

لم يكتف قسيم الدولة بما أفاء الله عليه ، بل طمحت نفسه إلى توسيع رقعة ملكه ، وتولدت في ذهنه فكرة جمع شتات الشام كله ، فوضع يده على شيزر وأفامية وحمص والرحبة (٣) ، وشرع ينشر لواء الأمن بين ربوعها ، ففتك بالفسدين والعابثين ، فكان كلما سمع بمفسد عاث أو قاطع طريق أمر بالقبض عليه ، وصلبه على أبواب المدينة ليكون عبرة لغيره (٤) .

ذكر ابن الأنير أنه شرط على كل أهل قرية في بلاده أنه منى الخيد عند أحدهم قفل أو أحد من الناس غرم أهلها جميع ما يؤخذ من المال من قليل أو كثير ، فكانت السبارة إذا بلغت قرية من بلاده القوا رجالهم وباموا آمنين ، وقام أهل البلد يحرسونهم أنى أن يرحلوا (٥) .

لم يطل حكم آق سنقر ، فلقد توفي السلطان جلال الدولة ملكشاه

(١) أبو شامة : الروصتين ، ج ١ ص ٢٤ ، وابن واصل : معرج الكروب ، ح ١ ص ١١ .

(٢) أبو شامة : الروصتين ، ج ١ ص ٢٥ ، وابن واصل : معرج الكروب ، ح ١ ص ١٩ .

(٣) أبو شامة : الروصتين ، ج ١ ص ٢٥ .

(٤) ابن واصل : معرج الكروب ، ج ١ ص ١٩ .

(٥) أبو شامة : الروصتين ، ج ١ ص ٢٦ و ٢٧ .

بغداد سنة ٥٤٨ هـ . وطمع أخوه ناج الدولة نش صاحب دمشق ، في السلطنة بعده . وشرع بوسع فسحة ملكه . فملك مياواريين وديار بكر . ثم اتجه الى أذربيجان ، لكن السلطان الجديد ركن الدين بركبارق ، نجل ملكشاه ، لم يرض عن اتساع ملك عمه ، فجمع جنوده ، وسار إليه ليمنعه من البلاد .

وطبىعى جداً أن يصف آف سنفر في هذا السراح مع ابن ملكشاه . وفاء لحقه عليه وصحبته له . وسرعان ما عاد ناج الدولة الى بلاد النمام من فتوحه في أذربيجان واتجه صوب حلب سنة ٨٧٠ هـ ، والقى الجمعان في بل السلطان قرب نهر السبعين واحدم القتال بينهما وأسفر عن وقوع آف سنقر أسيراً . فلما أحضر بين سدي ناج الدولة قال له « لو ظفرت بي ما كنت صنعت بي ؟ » فأجابه : « كنت أرى فلك » قال : « أحكم عليك بما كنت بحكم على » ، فقتله صبراً (١) .

(٢)

عماد الدين زنكي

لم يخلف قسيم الدولة بعد مقتله غير ولد صغير هو عماد الدين ، وكان إذ ذاك في العاشرة من عمره (٢) ، ولقد رعى ممالك والده شأنه ، وهو طفل يتيم ، حتى خرج الأمير كربوقا من سجنه في حمص بعد مقتل تاج الدولة تتش ، وكان زميل والده في الكفاح .

استطاع هذا الأمير الأسير أن يسعبد بعض ما كان بيد صديقه قسيم الدولة ، فملك حران وماردين ونصيبين والموصل ثم أمر ممالكه بإحضار عماد الدين ، وقال : « هو ابن أخي ، وأنا أولى الناس به وبتربيته (٣) » .

ظل عماد الدين في رعاية أمراء الموصل حتى ولى أمرها شمس الدين جكرمش ، وهو أحد ممالك السلطان جلال الدولة ملكشاه ، فأحب عماد

(١) أبو سامة : الروستين ، ج ١ ص ٢٦ ، وابن واسل : معرج الكروب ، ج ١ ص ٢٨ .
(٢) أبو سامة : الروستين ، ج ١ ص ٩٤ ، وابن واسل : معرج الكروب ، ج ١ ص ١٢٥ ،
(٣) أبو سامة : الروستين ، ج ١ ص ٩٦ ، ٩٧ . (٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٩٧ .

الدين وأدناه ، وتبناه وبقي أنيراً عنده حتى مقتله سنة ٥٠٠ هـ .

بدأت أمارات النجابة والسُّجاعة تلوح عليه ، فقد أبلى خير بلاء في حروبه مع الفرنجة في بلاد الشام ، فأقض مضجعهم : وتحدثت بشجاعته الركبان ، وكان يعرف في عساكر العجم بزكى الشامي (١) .

كانت البلاد بدداً ، تتلاعب بها رياح الأعداء الغريباء من كل جانب وساء عماد الدين ما لقيه من تناحر الأمراء حول السلطنة والإقطاعات ، فوقف بعيداً عن هذه المشاحنات ، ولعله كان يبيت في نفسه أمراً ما ، فنسمعه يقول لأصحابه : « قد ضجرنا مما نحن فيه ، كل يوم يملك البلد أمير : ويؤمر بالنصرف على اختياره وإرادته ، فتارة نحن بالعراق ، وتارة بالنمام ، وتارة بالموصل ، وتارة بالجزيرة (٢) » .

ترك البصرة ومدينة واسط اللتين كان يتولى أمرهما ، والتحق بخدمة السلطان محمود ، فكان أنيراً لديه لمكانة والده عنده ، وقد حفظ له السلطان ذلك ، فكان الوحيد الذي رشحه ليولي أمر بلاد الشام الممزقة بعد أن شعر سلاطين السلاجقة بالخطر الماحق الذي يهددها ، وأنهم لا قبل لهم على حفظ ثغورها .

لعل من الخير أن أقف عند هذا الأمر فأورد ما قاله صلاح الدين محمد الباغسباني ، ونصر الدين جقر للقاضي بهاء الدين الشهرزوري وللوزير شرف الدين أنوشروان بن خالد : « إنه قد علمت أنت والسلطان أن ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها وقد قويت شوكتهم فاستولوا على أكثرها ، وقد أصبحت ولايتهم من ماردين إلى عريش مصر ، ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين (٣) » .

وافق السلطان على نولية عماد الدين لما يعرفه من شجاعته وكفايته فكتب منشوراً بذلك إلى الأقطار ، وبعث معه ابنه ألب أرسلان ، وجعل واليه

(١) أبو سامة : الروضين ، ج ١ ص ٢٨ .

(٢) أبو سامة : الروضين ج ١ ص ٢٩ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٣٠ .

(٣) أبو سامة : الروضين ج ١ ص ٣٠ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٣٣ .

الجدید زکی أتابکە ، ومن هنا افترس اسم هذه الأسرة المركبة الحاكمة بهذا اللقب الذي أطلق عليها فتشمل السابقين منهم واللاحقين .

يبدو لي أن عماد الدين لُقِبَ بالأتابكي من قبل منذ كان في الموصل (١) إذ كان في حصة أمره أتابك ابن السلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه، وبفهم من معنى هذا اللفظ أنه يحكم باسم مولاه الصفر : لكن الحكم كان في حقيقة الأمر بيده وحده

ابتهج الناس بتولي عماد الدين ، وعلموا « أن ذلك بداية سعادة : وأن أمر هذه الدولة عظيم (٢) » وكأنهم كانوا ينتظرون البطل الموعود ، نجود به الأقدار ، فينفذ بلاد الشام من برائن الفوضى والاضطراب ، وبدفع عنها عادة الصليبيين الذين كانوا يحتلون معظم المناطق القريبة من الطراز الأخضر السامي .

غادر عماد الدين العراق ، وتوجه صوب الشام ففتح جزيرة ابن عمر ونصيبين وسنجار وحران وعبر العرات ، ودخل حلب الشهباء . فخرج أهلها للقائه ، واستبشروا خبرا بقدومه ، كما وصلت في الوقت ذاته رسل للسلطان . ومعهم توقع سلطانى لعماد الدين بالموصل والجزيرة والشام (٣) . وأضاف سنة ٥٢٥ هـ إليه أمر العراق (٤) . وهكذا أصبح أمل الناس لينفذ البلاد مما هي فيه .

شرع بوحد البلاد في الداخل قبل تطهيرها من الفرنجة ، وراي بشاقب بصره أن بهادن جوسلين ، صاحب الرها ، لبثت أقدامه ، وجمع الأجناد ، وبهيباء البعوث ، فنازل دمشق مدة من الزمن ، غير أنه صرف النظر عنها عندما وردت رسل الخليفة العباسي الراشد تطلب نجده على السلطان السلجوقي مسعود ويأمره بمصالحة صاحب دمشق .

(١) ابن واسل : مغرر الكروب ، ج ١ ص ٩٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٥ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٠ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٣ .

فتح بارين ٥٣١ هـ

كان هذا النصدع في بلاد الشام بسبب الخلاف المستحكم بين الخلفاء والسلاطين والأمراء في بغداد والأطراف كافياً ليلم الفرنجة شعنهم ، وجمتمعوا على حرب عماد الدين ، لكنه فاجأهم بالحرب ، وبدأ يطهر البلاد ، وتوجه نحو قلعة بارين وحصرها ، وشعر الفرنجة بالخطر المحدث بهم ، فتسلل القسوس والرهبان منهم الى بلاد الروم والفرنجة يستنصرونهم على المسلمين ، وأعلموهم « أن زكى إن أخذ حصن بارين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت لعدم وجود المحامي عنها ، وأن همة المسلمين مصروفة الى فتح بيت المقدس (١) » .

اجتمع ملوك الفرنجة على حربه من جديد ، وتوجهوا نحو قلعة بارين ، وكان بينهم ملك المقدس ، فدارت رحى معركة حامية الوطيس فروا على أثرها ، ولاذوا بحصن بارين ، فضيق عليهم عماد الدين الخناق ، ومنع عنهم كل شيء ، فطلبوا منه الأمان وسلموه الحصن ونجوا بأرواحهم وتابع عماد الدين فتوحه خلال الحصار ، فاسترد منهم المعرة وكفر طاب وغيرهما (٢) . وقد خلد الشعراء هذه الهزيمة المنكرة وهذا الفتح الأغر ، فأكثروا من مدح عماد الدين ، البطل الموعود ، بفر القصائد .

تتالت الأحداث على غير ما بشتهي ، فخلع الخليفة الراشد ، وقام مقامه المفتى بالله ، فاضطر الى ابفاد القاضي كمال الدين الشهرزوري لمبايعة الخليفة الجديد .

أوجس الغرب خيفة من ظهور مثل هذا البطل في بلاد الشام ، وأخافته بوادر وحدة العرب والمسلمين تحب راية واحدة ، وتوالت صيحات الفرنجة هنا وهناك ، وخافوا على إماراتهم وممالكهم في الشرق فخرج ملك الروم لمساعدتهم سنة ٥٣٢ هـ ، وفتح ما وجده في طريقه ، وعزم على اكتساح مدينة حماة . لكنها صمدت أمام الهجمات ، فرأى أن يتحول عنها ويفتح حصن شيزر وهو على بعد مرحلة واحدة منها ، فاستنجد صاحبها أبو العساكر

(١) ابن واصل : مغر ج الكروب ، ج ١ ص ٧٢ ، ٧٣ ، وابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٢٠٠ .

(٢) ابن واصل : مغر ج الكروب ، ج ١ ص ٧٢ ، ٧٣ ، وأوشامة : الروضتين ، ج ١ ص ٣٤ .

سلطان بن منقذ بعماد الدين بعدما اجتمعت الفرنجة والروم على حربه ، واستمر الحصار أربعة وعشرين يوماً ، استخدمت فيه مختلف الأسلحة المعروفة آنذاك ، غير أن عماد الدين استطاع أن يمهر جموعهم ، وبأخذهم عن آخرهم ، وظفر بقسم آخر حملهم معه أسرى وهم بولون الأدبار .

حاول عماد الدين ، بعد هذا النصر الأغر منارلة دمشق وفتحها للمرة الثانية قبل متابعة حرب الفرنجة ، فحاصرها سنة ٥٣٤ هـ وبقي مده على حصارها ، وفي خلال ذلك توفي ملكها جمال الدين محمد بن بوري ، ونصب حلفاً له ابنه مجير الدين آبق بن محمد ، وقام بتدبير أمور دولة معين الدين أنر .

ولما طال الحصار بعث ملك دمشق يستدعي الفرنجة لحرب عماد الدين وبذل لهم مدينة بانياس ، أن هبوا لنجدة ، وقال لهم في مراسلة : « إن ملك دمشق يملك البيت المقدس ولا يترك لهم بلداً بالساحل (١) » .

كانت هذه الإشارة في رساله كافية لبؤلب الفرنجة جميعاً على حرب عماد الدين ، فهبوا فوراً لنجدة ، ونوجه صاحب أنطاكية الى دمشق ، والتحمت المعركة بين الفريقين ، وكانت الواقعة على المسلمين ، فبر معين الدين بوعده ، فدخل بانياس وقتل عاملها من قبل عماد الدين ، وسلمها للفريجة وفاء لهم (٢) .

فتح الرها ٥٣٩ هـ

لم يفت في عضد عماد الدين ما حدث له بعد تحالف ملك دمشق مع الفرنجة ، وقد اشند ساعدهم بعد هزيمته ، فترع جوسلين ، صاحب الرها ، يهدد المسلمين في شمال بلاد الشام ، وامندت غاراه فبلغت آمد ورأس عين والرفة ونصيبين ، بله البسلاد التي أصبحت تحت حكمه كالبيرة وسروج وغيرهما . ولقد توخى عماد الدين من فتح الرها البدء بتطهير البلاد

(١) ابن واصل : معرج الكروب ، ج ١ ص ٨٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٨ ، ٨٩ .

نهائية من احتلال الفرنجة ، كما ان هذه المدينة العظيمة تعتبر مقرهم المقدس بعد القدس وانطاكية ورومية والقسطنطينية (١) .
حاصرها نمائية وعشرين يوماً وملكها عنوة وقهراً ، وحرر الجزيرة وشمال الشام كله ، وكان هذا الحدث الهام كسابقه خلده الشعراء في قصائد كثيرة نظمت في هذه المناسبة .

حاول عماد الدين بعد فتوحه المظفرة تطهير البلاد في الداخل ، وقرر الا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره من الأمراء ، فاتجه صوب قلعة جعبر ، وحاصر صاحبها الأمير سالم بن مالك العقيلي ، كما حاصر قلعة فنك ، فبينما هو نائم هاجمه جماعة من خدامه ، وكان على رأسهم غلام ، افرنجي اسمه برتقش ، قطعنه ولم يجهز عليه ، وفر مع جماعته الى قلعة جعبر . فما كاد هذا النبأ يسري بين أصحابه ، ويهرعون اليه حتى لفظ آخر أنفاسه ، فحمل الى الرقة ، ودفن في أرض صفيين .

من الخير أن نذكر هنا العمل الجبار الذي قام به عماد الدين ذلك انه وحد البلاد من اقصاها الى ادناها لحرب الفرنجة الفزاة ، واسترد منهم أمنع حصونهم ، فلا غرابة إن حاول الفرنجة اغتياله عن طريق غلام منهم . يضاف الى ما ذكرت انه نشر الأمن في البلاد ، ورفع بين ربوعها لواء العدل بعد ان ران عليها الفساد أمداً طويلاً .

(٣)

نور الدين محمود

لن نقف عند أبناء عماد الدين جميعاً ، فنترجم لهم ، وانما سنكتفي بالتحدث عن ولده الثاني نور الدين ، فهو الذي يهمننا لأنه الملك الذي وحد جل بلاد الشام ، واستعاد معظم خططها من الفرنجة .

ولد سنة ٥١١ هـ ، ولما قتل والده غيلة نملك أخوه الأكبر سيف الدين غازي الموصل ، واكتفى بأخذ خاتم والده ، وكان حاضراً معه ، فسار الى

(١) أبو شامة : الروضين ، ج ١ ص ٣٦ ، ٣٧ ، وابن واصل : مفرج الخروب ج ١ ص ٩٤ ، وابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٢٨ .

حلب ونملكها بمساعدة أسد الدين شمر كوه (١) ، وكان قد قصد خيمته ، وقال له : « وقد رأيت أن أصيرك الى حلب وتجعلها كرسى ملكك ، وتجتمع في خدمتك عساكر الشام ، وأنا أعلم أن الأمر بصير جميعه اليك ، لأن ملك الشام يحصل بحلب . ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق (٢) » .

هكذا شطرت مملكة عماد الدين شطربن ، وكادت تقع الواقعة بين الأخوين ، حين بلغ نور الدين قدوم أخيه الى الشام : فلما وصله انقفا على الاجتماع خارج العسكر لبحث الأمر . نلافيا وتعانقا وبكيا ، وقال سيف الدين : « لم امتنعت من المجيء إليّ ؟ كنت بخافني على نفسك . والله ما خطر ببالي ما تكره : فلمن أريد البلاد ، ومع من أعبس ، وبمن أعتضد اذا فعلت السوء مع أخي وأحب الناس إليّ ؟ » .

استحيا نور الدين من أخيه ، وعاد الى خدمته : فأمره أخوه بالعودة ، وقال له : « لا غرض لي في مفامك عندي ، وانما غرضي أن تعلم الملوك والفرنج اتفاننا (١) » .

لم تكن مهمة نور الدين سهلة فلقد بدأت الرها بالعصيان بعد أن راسل جوسلين أهلها من الأرمن ، لكنه لم يمهله بل هرع اليها ففضى على العصيان في مهده (٢) .

أوجس الغرب خيفة من ظهور هذا البطل الجديد ، فسير حملة سلبية تانية سنة ٥٤٣ هـ . وقف نور الدين امام اطماعه بحزم وعزم ، ونازل ملك الألمان كونراد الثالث Conrad III ، وقد اشترك معه في الحملة ملك فرنسا لويس السابع Louis VII . اما معين الدين انر فقد خشي باس نور الدين فاستنجد بأخيه سيف الدين عاري ، وهكذا فشلت هذه

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٤٢ .

(٢) أبو شامة : الروض ، ج ١ ص ٤٦ ، ٤٧ .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٤٣ ، وأبو شامة : الروض ، ج ١ ص ٤٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١١١ ، ١١٢ ، وأبو شامة : الروض ، ج ١ ص ٤٩ .

الحملة ، وعاد ملك الألمان ومن معه الى بلادهم خائبين (١) .

تابع نور الدين جهاده فتوجه الى حصن حارم وكان بيد الفرنجة ، فحدثت موقعة عظيمة انتهت بقتل البرنس صاحب أنطاكية سنة ٥٤٤ هـ ، وحمل رأسه الى حلب ، وقد أكثر الشعراء من القصائد في نخلب هذا الحديث الهام .

لم يكن موقف ملك دمشق فيما مر معنا من أحداث ليساعد نور الدين على جمع شمل بلاد الشام وبستعد لمحاربة الفرنجة ، فيظهر بذلك البلاد نهائياً من هؤلاء المحتلين الطامعين الذين أقاموا لهم فيها عروش خمس ممالك لانسنية في الشرق الاسلامي .

أزمع أمره على القضاء على آخر ملوكها مجير الدين آبق ، الضعيف ، المستضعف الذي كان دمية بيد المتسلط على أمرها معين الدين أنر مملوك جده طفكتكين .

ولعل سبب عزمه القضاء عليه وقوفه حائلاً دون نجدة عسقلان حينما داهمها العدو ، يضاف إلى ذلك عجز دمشق عن الدفاع عن نفسها أمام الصليبيين الذين هاجموا أكثر من مرة ، وفرضوا عليها إتاوة سنوية ، فكان رسولهم يدخل دمشق في موعد محدد ، ويجبها من البلاد ، كما كانوا يختارون ما شاءوا من عبيدهم وإمائهم الذين نهبوا من شتى البلاد النصرانية خلال الحروب وغيرها ، فمن أحب المقام تركوه ، ومن أحب العودة سار الى وطنه طليقاً (٢) .

يتم نور الدين شطره قبلة دمشق سنة ٥٤٩ هـ وحصرها ، فبعث ملكها مجير الدين الى الإفرنج يستنجد بهم ، وبذل لهم الأموال الكثيرة ، ووعدهم بتسليمهم بعلبك إن هم أنجلوه ، غير أن نور الدين استطاع أن يدخل البلد

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٥٢ ، ٥٣ ، وابن واصل : معرج الكروب ج ١ ص ١١٢ ، ١١٣ ، وابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٤٩ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٩٤ ، وابن واصل : معرج الكروب ، ج ١ ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، وابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٧٤ .

وينسلمه ، ويقضي على ملك أسرة طفتكين المركبة ، وبذلك حقق وحدة بلاد الشام في الداخل ، وهي الأمل الذي ضحى من أجله أبوه وجده ، وأصبح ملكها بفر منازع .

وكان أول عمل قام به لؤلؤ القلوب حوله أنه جمع سروات القوم من أهل دمشق ، من فقهاء وقضاة وتجار ، فتاورهم في أمر بلدهم ، وأعلن أمامهم إبطال حقوق دار ، وسوق النبل ، وضمان الأنهار ، وكتب منشوراً بذلك ، وقرىء على المنابر بعد صلاة الجمعة (١) .

يقول أبو شامة المقدسي بصدد هذا الحدث الهام : « وألقى الإسلام جراحه بدمشق وثبتت أونداه ، وأيقن الكفار بالبوار ، وبوهنوا واستكانوا ، وصار جميع ما بالشام من البلاد الإسلامية بيد نور الدين (٢) »

ناع جهاده ليظهر سائر نفور الشام من الاحتلال ، ورأى بشاقب بصره أن يهوى خطه لاسترجاع بيت المقدس ، ورسخت هذه الفكرة جدياً في نفسه ، وأيقن أن لا سبيل إلى ذلك إلا بتوحيد شمل الأمة العربية في شطربها الكبيرين مصر والشام .

كان الفدر أسرع من نور الدين فيحدث في مصر أمر ، وبهرع أمير الجيوش فيها أبو شجاع شاور بن مجبر السعدي إلى دمشق ، وسنصر بنور الدين على منافسه ضرغام بن سوار الذي تغلب على الوزاره مكانه . وقتل ابنه في عهد الخليفة الفاطمي العاضد سنة ٥٥٨ هـ .

وسرعان ما تم الاتفاق بين نور الدين وشاور ، وشرط عليه أن تكون له في البلاد حصّة ، ويكون مسعراً تحت أمره ، وقد سير بالفعل أسد الدين سركوه إلى مصر بالعساكر التركية سنة ٥٥٩ هـ ، واستطاع بسرعة أن يخلع

(١) أبو شامة : الروضتين ، ح ١ ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) المصدر السابق ، ح ١ ص ٩٧ .

ضرغاما ويعيد الوزارة الى صاحبها شاور ، غير أنه أحس بالخطر على مركزه وعلى مصر الخلافة الفاطمية كلها ، فتنكر له وانقلب عليه وحنث بوعوده ، فلما سار أسد الدين الى مصر للمرة الثانية سنة ٥٦٢ هـ راسل شاور الإفرنج فهرعوا لنجدته ، واجتمعوا معه على حربه ، وخاف بعض عساكره من الهزيمة وهم لا يزيد عددهم على ألفي رجل ، لكن شرف الدين برغش ، وهو من المماليك النورية قال لهم عندما رأهم يفكرون في العودة الى بلاد الشام : « من خاف القتل والجراح فلا يخدم الملوك بل يكون فلاحاً ، أو مع النساء في بيته . والله لئن عدتم الى الملك من غير غلبة وبلاء تعذبون فيه ليأخذن إقطاعاتكم ، وليعودن عليكم بجميع ما أخذنموه الى بومنا هذا ويقول لكم : أتأخذون أموال المسلمين ، وتفرون من عدوهم ، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف بها الكفار (١) » .

استطاع أسد الدين بمن معه أن يقف أمام جموع شاور والفرنجية ، وعجب ابن الأثير عندما أرخ هذه الحادثة من « أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل (٢) » .

لم يجد شاور بداً من طلب الصلح ، وبذل له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد فأجابه الى طلبه ، وشرط عليه أن الفرنج لا يقسمون بمصر ولا يتسلمون قرية واحدة ، وعاد بعد ذلك الى بلاد الشام .

كان لا بد لشاور لكي يحافظ على مركزه ، ولا سيما أنه رأى ميل الخليفة العاضد لأسد الدين ، من الاستعانة بالفرنجية ، وبالفعل عقد معهم الصلح سنة ٥٦٢ هـ بعد خروج أسد الدين من مصر مباشرة ، واستقر الصلح على أن يكون لهم بالقاهرة شحنة ، وتكون أبوابها مع فرسانهم بأيديهم ، ليمنع نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم ، وتمة نص آخر في المعاهدة وهو أن يكون

(١) أبو شامة : الروضتين : ج ١ ص ١٤٣ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٤٨ ، وابن الأثير : الكامل : ج ١١ ص ١٤٣ .
(٢) المصادر السابقة .

لهم من دخل مصر كل سنة مئة الف دينار (١) .

وحد الفرنجة الفرصة سانحة لاحتلال مصر ، فراسلوا ملك بيت المقدس (٢) مري Amalric I واستدعوه لتملكها ، فتوجهت جيوشهم اليها اما شاور فقد أسقط بيده فأمر بإحراق القاهرة ، وبقيت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوما حاول خلالها استمالة ملك الفرنجة فما أفلح إلى ذلك سبيلا .

ضاق الخليفة العاضد بخيانة وزيره شاور ، فبعث إلى نور الدين يستغث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع خطر الفرنجة على مصر ، وأرسل في الكتب شعور النساء لاستشاره حميته ، وطلب منه أن ينقذهن من العدو المحتل (٣) .

وافت رسل الخليفة ووفود أهل القاهرة نور الدين وهو بحلب فاستدعى أسد الدين من حمص بالحال ، وأمره أن تجهز للمسير لأن الأمر خطير لا يحتمل التأخير ، وطلب إلى صلاح الدين يوسف أن يرافق عمه .

سار أسد الدين إلى مصر للمرة الثانية ، ودخل القاهرة سنة ٥٦٤ هـ ، فرحل الفرنج عنها خائبين واجتمع بعد وصوله بالخليفة العاضد وخلع عليه وعاد إلى خيامه بالخلعة العاضدية وفرح أهل مصر بقدومه .

رأى شاور هوى الخليفة معه فأوجس منه خيفة ، وسرعان ما تالت الأحداث ، فاتفق صلاح الدين مع عز الدين جردبك على قتله ، وتم لهما ما أراداه ، وحمل رأسه إلى الخليفة العاضد ، وأصبح أسد الدين وزيرا مكانه . اما صلاح الدين فقد أصبح مباشرا للأمور ومقررا لها ، وبيده زمام الأمر والنهي .

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٤٣ ، وابن الأثير : الكامل : ج ١١ ص ١٢٢ :
 (٢) هو أمريك الاول ، واسمه في المراجع العربية (مري) و (عموري) وند ولي الملك بعد وفاة ابيه بلدوين الثالث .
 Baldwin III
 (٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٥٥ ، وابن الأثير : الكامل : ج ١١ ص ١٢٦ .

لم يطل عهد أسد الدين في الوزارة ، فلفد توفي في العام نفسه وخلفه ابن أخيه صلاح الدين ، وكانت الخطبة بمصر أولاً للخليفة الفاطمي العاضد : فالملك العادل نور الدين .

لم يرض ببقاء الخلافة الفاطمية ، فبعث إلى عامله بأمره بقطع الخطبة فوراً للعاضد ، وطلب منه إعلان الخلافة العباسية من جديد ، فاعتذر بادئ الأمر لأنه خاف من الثورة عليه إن أقدم على هذه الخطوة الخطيرة . لكن نور الدين لم يقبل منه ذلك . وارسل إليه يلزمه في ذلك إلزاماً لا فسخه فيه .

بحين صلاح الدين فرصة مرض العاضد ففطعت الخطبة له سنة ٥٦٧ هـ وأقيمت شعائر الدعوة العباسية ، وقام رجل يعرف بالأمير العالم (١) في يوم الجمعة . ودعا في خطبته للخليفة العباسي المستضيء بنور الله (٢) ، وقيل إن أول من خطب للعباسيين بمصر هو شمس الدين بن أبي مضاء البعلبكي (٣) .

ابتهج نور الدين بهذا الكسب السياسي للخلافة العباسية ، وطلب إلى كاتبه عماد الدين إنشاء بشارة عامة تقرأ في العالم الإسلامي كله وبشارة خاصة تقرأ بحضرة الخليفة في بغداد ، وسرعان ما عادت البشارة بجوابها ، وهو في الحقيقة جوهر وحدة مصر والشام ، فقد وصل من بغداد أستاذ الدار العزيزة ، رسول الخليفة عماد الدين صندل الملقبوى ، وورد صحبته التشريف الشريف لنور الدين مكللاً بالأهبة السود والحلل الموشبة ، والطوق المذهب الثقبيل ، واللواء الجليل . شخص الرسول المذكور لدى نور الدين ، وحضر أكبر الدولة والخواص ، وكان يوماً مشهوداً ، فقسام موفق الدين خالد بن محمد بن صغير القيسراني وقرأ كتاب الديوان على مسمع الناس

(١) الأمير العالم هو اليسع بن عيسى بن اليسع الاندلسي ، وهو أول من خطب على منابر الفاطميين عند نفل الدعوة العباسية ، وقد تجاسر على ذلك حين نفيه سواه ، وله تاريخ سماه « العرب في آداب المغرب » قدمه لصلاح الدين . توفي سنة ٥٧٥ هـ .

(٢) أبو شامة : الروشتين : ١ ص ١٩٤ ، وابن واصل : مفرح الكروب : ج ١ ص ٢٠٠ ، وابن الاثير : الكامل : ج ١١ ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج ٥ ص ٣٤٣ ، وأبو شامة : الروشتين : ج ١ ص ١٩٢ ، ١٩٥ .

عامة ، ثم لبس نور الدين الفرّجية (١) ، وتقلد السيفين ، ووضع الطوق في عنقه وخرج راكباً من داخل القلعة ، واللواء الأسود منشور على رأسه ، وقدم له مركوبان : أحدهما لركوبه ، والآخر كان جنباً بين يديه محلى بحلّيته . وجمع له بين تقلد السيفين الإِسْعار بفلسده الإقليميين مصر والسام ، وخرج إلى ظاهر دمشق ونثر عليه الذهب ، وانتهى في سيره إلى الميدان الأخضر ، ثم عاد إلى القلعة (٢) .

عجّب الناس من تقليد الخليفة سيفين لنور الدين ، وقد روى صاحب الروضتين نقلاً عن برق العماد قوله ، « وسألت عن معنى تقلد السيفين فقبل هما للشام ومصر ، وللجمع له بين البلادين (٣) » .

كان أمل نور الدين من هذه الوحدة العربية التي جمعها له الخليفة العباسي بتقليده السيفين القضاء على الصليبيين واستعادة بيت المقدس ، أمينته القديمة منذ أمر بصنع منبر خشبي جمبل تحمله جيوشه الفاتحة إلى البيت المقدس . يؤكد هذه الفكرة ما جاء في جوابه للخليفة العاضد حين نعت إليه يهنئه برحيل الفرنج عن دمياط ، وكان قد ورد منه كتاب يستفيله من جنوده الأتراك ، فكسب إليه بعلمه : « أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات (٤) الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك . وأن الفرنج لا يخافون إلا منهم ، ولولاهم لزاد طمعهم في الدبار المصربة ، ولعل الله سبحانه ونعالى ييسر بهم فتح بيت المقدس (٥) » .

(١) نوع من العباء المنسرجل ، يصنع غالباً اليوم من الجوخ ، وله أكمام واسمه تنمدي أطراف الأصابع وهي غير مموجة أو مستوقفة ذكرها دوزي في معجمه الخاص بالبيات (ص ٢٢٧ ، ٢٣٤) .

(٢) أبو سامه : الروضتين : ج ١ ص ١٩٩ ، واس واصل : مفرج الكروب : ح ١ ص ٢١٨ ، ٢١٩ ، واس الأثر : الكامل : ج ١١ ص ١٣٩ .

(٣) أبو شامة : الروضتين : ج ١ ص ١٩٩ .

(٤) المسطاريات : نوع من الرماح ، وهي لفظة معربة عن اليونانية ذكرها دوزي في معجمه

(ملحق المااجم العربية ج ٢ ص ١١٣) .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب : ج ١ ص ١٨٣ .

بعث إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر ولفائسه عند الكرك ، فاعمد إليه ، وذكر له أنه لا يمكنه مغارقة مصر ، إذ لم يستتب الأمر له بعد ، فرجع نور الدين غاضباً محققاً ، وصرف نظره عن حصار الكرك .

يظهر أنه بيّث أمره ، وعزم على دخول مصر وطرد عامله صلاح الدين منها لأنه خشى أن يملكها ، ولا سيما أن معظم أفراد أسرته التحفوا به وفي مقدمتهم أبوه نجم الدين أبوب .

أما صلاح الدين فقد جمع أهله ومعهم أبوه وخاله شهاب الدين الحارمي وسائر الأمراء عندما بلغه عزم نور الدين على قسده ، وبحث المجمعون هذا الأمر الهام . وكل واحد منهم ادلى برأيه واجمعوا أمرهم على حربه إذا جاء ، لكن والده خالفهم جميعاً ، وطلب من ابنه الإذعان لأمره وعدم إفتاء سره . وشاء القدر أن يراب هذا الصدع في صرح الوحدة العربية . فقضى نور الدين بعلّة الخوانيسق سنة ٥٦٩ هـ . وانتهى النزاع بوفاته (١) .

(٤)

الصالح إسماعيل

كان الصالح إسماعيل حين وفاة والده صغير السن لا يتجاوز سن الحلم ، فاتفق أمراء أبيه على تملكه ، وأحضروا كتاب الله واجتمع القاضى كمال الدين الشهرزوري ، والأمير شمس الدين بن المقدم ، والطواشي جمال الدين ربحان أكبر الخدم ، والعدل شهاب الدين بن العجمي أمين الأعمال ، والشيخ إسماعيل خازن بيت المال ، وانفقوا جميعهم على وحدة الكلمة وجعلوا شمس الدين بن المقدم مقدم العسكر ، وإليه المرجع في الأمور كلها .

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٧ .

كوب ولاية الأطراف بما حدث : وطلبوا إليهم الحلف للملك الصالح وإقامته الخطبة باسمه . أما صلاح الدين فقد جلس بمصر للعراء ثلاثة أيام وأمر بإقامة الخطبة فيها للملك الصالح : وصرب باسمه السكة .

طمع سيف الدين غازي بن مودود ببعض ما بيد ابن أحيه . فأسوأى على الجزيرة ، وهرب الأمير سعد الدين بن كمشكين الخادم النائب بقلعه الموصل فوصل إلى حلب ، واجتمع بالأمير شمس الدين علي بن الداسة وأخوته . وتأمرؤا فيما بينهم على السير إلى دمشق وإحضار الملك الصالح إلى حلب ، وأصبح كمشكين مستبدا بأمر الملك الصغير .

أما شمس الدين بن المقدم فأقام بدمشق وإليه إهرة العساكر ، وانفرد جمال الدين ربحان بالقلعة ، وبقي القاضي كمال الدين مدبراً لأمر الدولة .

طمعت الفرنجة بالبلاد من جديد ، فحاصروا بانياس . عبر أن شمس الدين لم بقو على دفعهم ، فعقد معهم هدنة بعد أن قطعوا على المسلمين قطيعة ، فعجل إليهم حملها ، وتم الأمر بعد ذلك سنة ٥٧٠ هـ (١) .

كان هذا الحدث بدء الانقسام والضعف في بلاد الشام ، ورأى صلاح الدين ضرورة تدارك هذا الأمر الخطير قبل اسنفحاله ، فكتب الى القاضي كمال الدين بقول : « لو أن نور الدين يعلم أن بينكم من يقوم مقامى لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت لم يهتد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخلفه غيري ، وأراكم قد نفردتم بمولاي وابن مولاي دوني ، وسوف أصل إلى خدمتكم ، وأجازي إنعام والده بخدمة يظهر أنرها ، وأجازي كلا منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده (٢) » .

توجه إلى دمشق بعد أن استدعاه أصحاب الأمر في دمشق ليملكوه وأظهر حين وصوله أنه يريد خدمة الملك الصالح ، لكن مدبري أمره بحلب

(١) أبو نامة : الرونني : ج ١ ص ٢٣٣ ، وابن الأثير : الكامل : ج ١١ ص ١٥٣ .

(٢) ابن واسل : مغرر الكروب : ج ٢ ص ٧ ، وابن الأثير : الكامل : ج ١١ ص ١٥٣ .

بعثوا إلى الموصل سيف الدين غازي يستنجدون به ، وبعثوا إليه برسالة مع قطب الدين ينال بن حسان ، صاحب منبج ، فيها عنف وغلظ .

وصلت عساكر سيف الدين بقيادة أخيه عز الدين ، وانضم إليهم عسكر حلب ، وسارت هذه الجموع كلها لحرب صلاح الدين ، والتحم الفريقان عند قرون حماة ، لكن الهزيمة حانت بهم ، فولوا الأدبار وعادوا إلى حلب ، فلحقهم صلاح الدين ، وحاصرهم مدة مديدة .

حانت الفرصة لقطع خطبة الملك الصالح وإعلان قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام وغيرهما من البلاد ، فأزيل اسمه عن السكة في بلاده . ولما طال الحصار وأسله مدبرو أمر الملك الصالح بعقد الصلح ، على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ، ولهم ما بأيديهم ، فأجابهم إلى طلبهم وأرتحل عن حلب .

تلك هي آخر أيام الدولة الزنكية ، وقد حاول ملوكها أن يطهروا البلاد ، فحرروا كثيراً منها ، وبقي بعضها الآخر ينتظر التحرير ، وقامت الوحدة بين الأقاليم العربية التي وحدتها الآمال المشتركة والتاريخ الواحد ، إذ استطاع قواد نور الدين أن يفتتحو اليمن البلاد العربية السعيدة ، كما نعتها اليونانيون ، وهكذا اتسعت الدولة الزنكية فكان يخطب لموكها في الشام ومصر واليمن والحرمين ، وكانوا يستمدون سلطتهم من الخليفة العباسي في بغداد (١) ، ويحرصون على ذلك ، على الرغم من استقلالهم في دولهم .

(١) غريب جداً ما ذكره صاحب (أدباء العرب) بطرس البستاني (ج ٢ ص ٢٤٢) في حديثه عن الدولة الأيوبية قائلاً : « السلطان نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام من قبل الفاطميين » ، وأن الخليفة الفاطمي العاضد استنجد : « بعامله السلطان نور الدين بن زنكي ... » . وهذا غير صحيح البتة ، فلم يكن نور الدين عاملاً من عمال الفاطميين في بلاد الشام إطلاقاً ، وإنما كان يستمد سلطته من خليفة بغداد العباسي .

القِسْمُ الثَّانِي

الأَيُّوبِيُّونَ

٥٧٨ - ٦٤٨

ينتسب الايوبيون إلى شاذي^١ ، ولا يعرف عنه أكثر من ذلك ، وأصلهم من الأكراد الروادية ، وهذا القبيل فخذ من الهذبانسة^٢ . وهم من أشرف الأكراد وأقدم سكان العراق (١) .

أنكر فريق من ملوك الايوبيين كردبتهم ، وقالوا : إنما نحن عرب نزلنا عند الأكراد ونزوجنا منهم ، وأدعى بعضهم النسب إلى بني أمية ، وأن جدّهم شاذي بن مروان بن محمد ، فيكونون بذلك أحفاد آخر الخلفاء الامويين .
لا عجب إن رأينا سيف الاسلام أبا الفداء اسماعيل يخطب لنفسه بالخلافة في اليمن في عهد عمه العادل ، ويلقب نفسه بالامام الهادي المعز لدين الله أمير المؤمنين . لكن عمه أنكر عليه دعوته ، وقال : « كذب اسماعيل ، ما نحن من بني أمية أصلاً (٢) » .

أما بدء ظهور شأنهم فقد سبق ظهور دولتهم بزمان ، كما يتضح لنا ذلك في حياة الاخوين نجم الدين أيوب ، وأسد الدين شيركوه .

(١) أبو شامة : الروضتين : ج ١ ص ١٢٨ ، ٢١٠ ، واس واصل : مغرّج الكروب ، ج ١ ص ٣ - ٦ وابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٢٩ .
(٢) ابن واصل : مغرّج الكروب ، ج ١ ص ٣ :

(١)

نجم الدين أيوب

ولد نجم الدين أيوب بن شاذي والد الملوك الأيوبيين ، ببلد شبختان (١) ، وأقام في بادىء أمره مع أخيه أسد الدين شيركود في دوين ، وهى في أدنى بلاد أذربيجان مما يلي الروم ، وخدم السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه ، فولاه قلعة تكرت ، وقام في ولايتها أحسن قيام . ولما ولي السلطان مسعود الملك أقطع تكرت لمجاهد الدين بهروز شحنة بغداد ، فأقر عليها وإليها السابق نجم الدين .

انفق السلطان مسعود سنة ٥٢٦ هـ مع عماد الدين زنكي على مساعدته للحصول على السلطنة والاستيلاء على مقر الخلافة ببغداد ، ولما تلاقيا مع قراجه السافى ، وهو أتابك نجل السلطان محمود ، انهزم زنكى ، وقتل جماعة من أصحابه والتجأ وهو جريح الى سوق تكرت ، فحمل مع أخيه الى أعلى سورها ، وأقاما عنده خمسة عشر يوماً ، ثم ارتحلا الى الموصل .

حفظ زنكى لنجم الدين وأخيه هذا النصيح الحميد ، فلما نشب الخلاف بينهما وبين بهروز بسبب مقتل كاتبه النصراني تركا خدمته ، وسارا الى الموصل فلقتهما عماد الدين ، وأكرمهما اكراماً عظيماً ، وأقطعهما في شهرزور إقطاعاً حسناً .

رافق هذان الأخوان عماد الدين ، وصحباه في حروبه ببلاد الشام ، وشهدوا معه كثيراً من المعارك التى وقعت بينه وبين الصليبيين ، وقد أبلى أسد الدين خير البلاء في هذه الوقائع المشهورة .

ولما أصبحت بعلبك في حوزة عماد الدين ولاء عليهما ، حتى اذا قتل كاتبه مجر الدين أبى صاحب دمشق ، وطلب إليه تسليمها ووعد بإقطاعه قرى كثيرة بدمشق عوضاً عنها ، وبذل له الأموال الكثيرة : فوافق نجم الدين على طلبه ، وعاد الى دمشق ، وأصبح كبير أمرائها سنة ٥٤١ هـ .

(١) أبو سامة : الروستى ، ج ٢ ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .

(٢)

أسد الدين شيركوه

اتصل أسد الدين شيركوه بعد مقتل الشهيد عماد الدين بابنه نور الدين ، وكان يخدمه في حاة أبيه ، فأدناه وجعله من خاصته لما عرفه عن شجاعته ووفائه ، وأغدى عليه العطاء وأقطع قلعة حمص والرحبة ولما حاصر نور الدين دمشق طلب إليه أن يكتب أخاه نجم الدين لمساعدته على فتحها ، فأجابه الى مبتغاه وتم له الامر وفتحت دمشق ، وصار أعظم أمراء الدولة الزنكية .

لا غرابة ان رأينا نور الدين يختاره ليذهب الى مصر ، وبالفعل توجه اليها كما رأينا ثلاث مرات ، واستطاع في آخر مره طرد الفرنجة من مصر سنة ٥٦٤ هـ ، وخلع العاضد عليه خلع الوزارة بعد مقتل شاور ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش ، وكتب له منشوراً ، ووقع الخليفة بخطه على ظهره : « هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله ، فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذبل الافتخار بأنا عززت خدمتك الى بيت النبوة (١) » .

لم تغل وزارته ، فلقد أدركته فجأة منيته ، ولم يمض على توليه أكثر من شهرين ، وكأنما عجلت الأقدار بموته لتفسح المجال أمام البطل المرتقب الناصر صلاح الدين ، فيحرر البلاد نهائياً من احتلال الفرنجة وبني توحيد أخاليم البلاد العربية كلها بعد أن تم توحيد معظمها في عهد مولاه نور الدين .

(٣)

صلاح الدين يوسف

تشاءم نجم الدين من ولادة ابنه صلاح الدين سنة ٥٣٢ هـ عندما خرج طريداً سريداً من قلعة تكرت بعد اختلافه مع صاحبها بهروز بسبب كاسها .
النهراني على يد أخيه أسد الدين شيركوه .

(١) ابن شداد : النوار السلطانية ، ص ٢٥٨ .

نبه امره منذ سار اول مرة الى مصر مع غمه ، وصحبه أيضاً خلال مسيره الثاني ، وقد اظهر شجاعة منقطعة النظير حينما حوصر في الاسكندرية سنة ٥٦٢ هـ ، كما صحبه مكرها خلال مسيره الثالث سنة ٥٦٤ هـ .

رأى صلاح الدين ان الامر لن يستتب قبل انقضاء على شاور ، ويقال ان الخليفة العاضد زاره متنكراً في خيمته ، واسر له قتله ، فبيت الأمر مع عز الدين جرديك ونفذ ذلك كما رأينا ، وطبيعي جداً أن يكون صلاح الدين الوزير المنتظر بعد وفاة عمه ، على الرغم من معارضة الامراء الذين كانوا صحبته في مصر ، فاستدعاه العاضد من القصر ، وخلع عليه خلعة الوزارة ، وبذلك بدأت طلائع الدولة العربية الايوبية بالظهور ، فاستبشر الناس خيراً بيوسف الجديد .

اخلى صلاح الدين وده اولاده نور الدين بادىء الأمر ، لكنه صار يخشاه لئلا يسلبه ما بيده ، مادام نائبه وما دامت الخطبة والدعاء باسم سيده . تردد - كما رأينا - كثيراً في قطع الخطبة والدعاء للخليفة العاضد الذي ائتمنه ، ولكن نور الدين الح عليه في قطعها واصر على ذلك لان هذا العمل يكسبه زلفى الخليفة العباسي بفداد . وتعود سلطة الخلافة من جدد الى مصر ، ويحاول صلاح الدين ان يذعم موقفه فيها فيستدعي أهله وعشيرته الاقربين .

احس امراء القصر وعلى رأسهم الخصي مؤتمن الخلافة جوهر بخطورة الحال ، فكتبوا الفرنجة وعرف صلاح الدين المكيدة التي تحاك حوله ، فبعث بجماعة من جنده ، واغتالوا جوهر في قصره فثار عبيده من السودان ، فانهض إليهم أبا الهيحاء السمين ، واحرق دورهم بباب زويلة ، ففروا إلى الجزيرة ، فعبر اليهم الملك المعظم توران شاه ، وأبادهم عن بكرة أبيهم (١) .

بدأت الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين ، وكان وقوعها محتملاً كما رأينا ، لان هذا الملك العظيم الذي بيده يهر الانظار ، وبخاصة عندما كانت طلائع جيوشه على ابواب النوبة تحاصرها بقيادة أخيه المعظم توران

(١) ابن واصل : منج الكروب ، ج ١ ص ١٧٤ - ١٧٧ .

شاه ، فاحتل أقصى حصن لهم في الجنوب وهو أبريم سنة ٥٦٨ هـ ، ثم توجهت طلائع جند هذا الفاتح الايوبى نحو البلاد العربية السعيدة سنة ٥٦٩ هـ . وظهر انه لم فتحها خوفاً من نور الدين لتكون للأيوبيين مقراً ان اخرجهم من مصر ، غير انه لم يسرع في فتحها قبل ان يستأذنه فأقره على ذلك ليخلص اليمن من حكم عبد النبي أحد الخوارج ، وكان قد تغلب عليها وخطب لنفسه بعد قطع الخطبة العباسية .

سارت جنوده ، فوصلت مكة ، وتوجه منها الى زبيد فاحتلها ، ثم تغلب على اليمن كلها ، ووقع حاكمها أسيراً بين يديه وانتهى به المطاف في عدن جنوباً (١) .

كما توجهت عساكر صلاح الدين إلى المغرب بقيادة قراقوش ، غلام الملك المظفر تقي الدين عمر ، واشترك في هذا الفتح الترك وقبائل من العرب ، فاستولوا على طرابلس الغرب وكثير من بلاد شمال افريقية .

اشار نور الدين الى اهمية فوح قواده في كتاب بعث به الى الخليفة عندما التجأ اليه مقدم الارمن ابن لاون (ليون الثاني) (٢) ، ومما جاء فيه قوله : « ومن جملة حسنات هذه الايام الزاهرة ما تيسر في هذه النوبة من افساح بعض بلاد النوبة ، والوصول الى مواضع لم تطرقها سنانك الخيل الاسلامية في العصور الخالية ، وكذلك استولت عساكر مصر على برقة حتى حدود المغرب ، فظفروا من السؤال بعنقاء مغرب (٣) » .

لم يصف الحكم تماماً لصلاح الدين ، فدبرت مؤامرة كبرى لاعادة الخلافة الفاطمية واشترك فيها الشاعر عمارة اليمني ، والكاتب عبد الصمد والقاضي العويرس ، ودأى الدعاة ابن عبد القوي وجماعة من السودان ورجال القصر ، وتم الاتفاق على استدعاء الفرنجة من التسام وصقلية خلال تقيب

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) هكذا تسميه المراجع العربية ، وهو ليون الثاني صاحب أرمينية .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٣٥ .

توران شاه في اليمن ، ومما هو جدير بالذكر أن الطائفة الاسماعيلية ببلاد الشام اشتركت في تدبير هذه المؤامرة ، ذلك ان المتآمرين اتصلوا بصاحبهم سنان المقيم بقلعة مصياف ، وذكروا له ان الدعوه واحده والكلمة جامعة ، وأنه ما بين اهلها خلاف يجب به قعود عن نصره ، واسندوا منه من يقوم على الملوك غيلة وتب عليه مكيدة وحيلة (١) .

افتضح أمرهم ، فألقى القبض عليهم وصلبوا بين القصرين بالقاهرة ، وقضى على المؤامرة في مهدها .

مضى نور الدين الى ربه كما مر معنا ، ورأينا ابنه القاصر الملك الصالح أصبح دمية في ايدي اوصيائه في دمشق وحلب ، وان الفرنج شرعوا يهددون البلاد من جديد ، ولا بد لهذا الامر من مخرج يصون للبلاد وحدتها .

سار صلاح الدين الى دمشق ، وتسلم قلعتها ، وفرق ما فيها من الكنوز والأموال على الناس تأليفاً لقلوبهم . غير أنه لا بد له من مراسلة الخليفة العباسي المستضيء بنور الله ليعث له تقليداً يقره على مايبده من ملك مولاه نور الدين بعد موته ، ويطلق يده فيها ، كما ذكر في مراسلته جهاده ، وحادثه عن تشتيت بلاد الشام شيعاً واحزاباً ، واستقلال كل صاحب بلد ، واعرب له عن أسفه على حال بيت المقدس ومما قاله : « وعرفنا ان البيت المقدس إن لم تيسر الاسباب لفتحها ، وأمر الكفار إن لم نجرد العزم لقلعه وإلا نبتت عروقه واتسعت على المسلمين خروقه .. وإذا شدد رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده ، وبلغنا الى بمشيئة الله ، ويد كل مسلم تحت برده ، واستنقلدنا أسيراً من المسجد الأقصى الذي أسرى إليه بعبده (٢) » .

كما أخبره أنه قدم السام لاصلاح أموره ، وكفالة ابن نور الدين وخدمته وتخليصه من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويبالفون في ظلمه . وطلب في ختام مراسلته تقليداً جامعاً بمصر والشام واليمن والمغرب ، وكل ما يشمل

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٥ - ٢٩ .

عليه أولاية النورية ، وكل ما يفتحه الله للدولة العباسية بسيفه وسيف عساكره ، وإن يقيم بعده من أخ أو ولد تقليداً ينضم للنعمة تخليداً والدعوة تجديداً (١) .

وتحدثنا عن الحرب بين صلاح الدين وأنصار الصالح اسماعيل ، وأسفرت كما رأينا عن انقسام بلاد الشام بعد قيام الصلح بين الفريقين ، وبموجبه تكون دمشق وحمص وحملة وكفر طاب والمعة وبارين لصلاح الدين ، ولم يبق للملك الصالح غير مدينة حلب .

عاد صلاح الدين الى دمشق ، ووصلته خلع الخليفة من بغداد ، ومرسومه بولاية مصر والشام وغيرهما ، وبذلك تم اعتراف الخليفة الرسمي بحكمه خلفاً شرعياً لنور الدين .

لم يستطع توحيد الشام نهائياً تحت حكمه حتى بعد وصول تغلبيش الخليفة له ، ورأى أن يرجئ ذلك لوقت آخر مناسب ، فتغل راجعاً الى القاهرة . انتهز المواصله رحيله عن بلاد الشام فكانوا الفرنجة لبشغلوهم عن فصدته ، ورأى أنه لا بد من العودة لتوحيد الشام نهائياً والقضاء على معارضيه . وصل الى البيرة سنة ٥٧٨ هـ ، وكاتب ملوك الاطراف ، وأعلن لهم أنه « من جاء مستسلماً سلمت بلاده ، على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه ومساعدته على جهاد الكفرة (٢) » .

دانب له بلاد الشام كلها بعد أن نازل حلب ، وانفق مع صاحبها عماد الدين على اعطائه بلاد سنجار بدلاً من حلب ، وزاده الخابور ونصيبين وسروج والرفة . وهكذا دخل السلطان حلب وأطلق المكوس والضرائب كما فعل في دمشق ووزع الاموال على أهلها ، وجلس للهناء بفسح حلب . فقصده الشعراء . ومدحه بالقصائد الكثيرة .

(١) ابن واصل : مغرر الحروب ، ج ٢ ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) ابن واصل : مغرر الحروب ، ج ٢ ، ص ١١٥ - ١١٧ .

تحرير بيت المقدس

كان صلاح الدين يعمل على جمع شمل الامة العربية كلها ليحرر بيت المقدس جرياً على الخطة التي سلكها أسلافه ، واتماماً للرسالة السامية التي عمل لها عماد الدين من قبل ونور الدين من بعد ، وهو في كفاحه وجهاده انما يحاول أن يحقق الامل الكبير الذي جعل نور الدين يأمر الاختريني امهر النجارين في حلب بصنع منبر جميل يليق بالمسجد الاقصى لينقل اليه يوم فتحه ، وقد أوصاه أن يأتي على أحسن نعت يمكن (١) . وجدير بالذكر أن هذا الفنان أشرف على عدد كبير من عماله الصنائع الذين استغرقوا في إنجازهم بضع سنين .

مضى نور الدين الى ربه والمنبر ما زال في حلب ينتظر البوم الموعود ، حتى اذا جاء صلاح الدين اجتمعت الملوك والأمراء تحت رايته ، فوحدتهم الهدف المشترك وهو الجهاد الأكبر .

عرف الصليبيون وحدة العرب واجتماع شملهم في هذه المرة ، فانهزيم ريموند صاحب طرابلس الى صلاح الدين ، وأدركوا ضرورة تكتلهم أمام طلائع المسلمين . استهل حربه بفتح طبرية ، ثم تابع تقدمه فانهزم الصليبيون أمامه ، ولاذوا بتل حطين ، فأحاط بهم من كل جانب ، وهزمهم مجتمعين سنة ٥٨٣ ، فبكى صلاح الدين فرحاً بعد معركة حطين الخالدة ، وسجد لله شكراً ، وكان من جملة الأسرى الملك كي ، وأمير الكرك أرناط ، وأخو الملك جفري ، وصاحب جبيل أولك (٢) ، وهنفري بن هنفري (٣) ، وابن صاحب إسكندرونة ، وصاحب مرقية ، كما أسر قسماً عظيماً من فرسان الداوية (٤) ، والإستبارية (٥) والبارونية ، ومقدميهم (٦) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٢٠٩ ، وابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(٢) اسمه : Hugh II Embriaca , Lord of Jebail

(٣) اسمه : Hunphrey IV , Lord of Taron

(٤) الداوية : هم فرسان المعبد Templars

(٥) الاستبارية : هم جماعة من الصليبيين يطلق عليهم باللغة الفرنسية Hospitaliers

(٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٦٣ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٣٢ ، وأبو شامة : الروضين ، ج ٢ ص ٧٥ - ٨٠ ، وابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٢٠١ - ٢٠٣ .

أذن هذه المعركة بفتح بيت المقدس ، لأنها كانت نقطة تحول كبرى في التاريخ الإسلامي ذكر ابن الأثير أهميتها وخطورتها ، وأشاد بها قائلاً : « وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمثل هذه الواقعة (١) » .

يؤكد ذلك أنه لم يمض إلا بعض الوقت حتى فتح بيت المقدس ولحق المنبر النوري من حلب ليقام في المسجد الأقصى ، وقد نود ابن الأثير بأهمية فتحه فذكر بأن هذه المكرمة من فتح بيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب غير صلاح الدين (٢) .

هكذا بدأ الحلم العربي بتحقيق ، فقامت دولة عربية كبرى واسعة الأرجاء وممتدة الأطراف شملت الشام ومصر واليمن والحجاز وغيرها .

لم يكتف بما حققه قادته من فتوحات وانتصارات . فعزم على اكتساح الاقطار المجاورة لها وإضعافها كلاً تقوى على مهاجمتها ، فتكون مصدر خطر يهدد أمنها وكيانها .

وضع خطة هذا الأمر سراً خلال رحلة صيد مع أخيه العادل أبي بكر وابنه الأكبر والأفضل على وشاورهما في الأمر ، وقال : « قد تفرغنا من الفرنج وليس لنا في هذه البلاد شاغل ، فأى جهة نقصد ؟ فأشار عليه أخوه العادل بقصد خلاط ، وأشار عليه ولده الأفضل بقصد الروم ، فقال : كلاهما مقصر ناقص المهمة ، بل أقصد أنا بلد الروم ، وقال لأخيه : تأخذ أنت بعض أولادي وبعض العسكر وتقصد خلاط ، فإذا فرغت أنا من بلد الروم جئت إليكم ، وندخل منها أذربيجان ، وننصل ببلاد العجم فما فيها مسن يمنع عنها (٣) » .

لم تكن نفسه لتقف في طموحها عند هذا المدى ، بل كان يريد أن يجدد سيرة الفاتحين العرب ، فيطبق الآفاق برجاله ، ويحكم العالم كله . أسر بذلك لقاضيه بهاء الدين بن شداد عندما كان بودع أخاه العادل قرب عسقلان،

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٢٠٢ . (٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٢٠٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٢٣٧ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣٤٢ .

وهو عائد الى مصر ، فقال له : « في نفسي انه متى يسر الله تعالى فتسح بقية الساحل تسمت البلاد ، واوصيت ، وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائره ، واتبعهم فيها حتى لا ألقى على وجه الأرض من بكفر بالله أو أموت (١) » . بيد أن المنية عاجلته سنة ٥٨٩ هـ ، فقضى نحبه بدمشق دون أن يحقق هذه الأمانة الكبرى وهي فتح العالم كله .

خلفاء صلاح الدين

كان موته بدء تشتت الوحدة الكبرى التي أقامها بكفاحه المستمر طوال عشرات السنين ، وكان ذلك إيذاناً بانقسام ملكه بعده بين ورثته ، فالديار المصرية لابنه العزيز عماد الدين عثمان ، والشام لابنه الأكبر الأفضل نور الدين علي ، وحلب لابنه الظاهر غياث الدين غازي ، والكرك والشوبك وجعبر لأخيه الملك العادل سيف الدين محمد ، وحماة ونوابعها للملك المنصور محمد بن نقى الدين عمر ، وحمص والرحبة لأسد الدين شيركوه الصغير (٢) ، وأما إقليم اليمن فمستقر للملك ظهير الدين سيف الإسلام طفتكين بن أبوب أخى السلطان (٣) .

دب الخلاف بين ملكي مصر والشام : الأفضل والعزبز . فالأفضل أكبر أبناء صلاح الدين وهو المعهود اليه بالملك من بعده ، وكان قد استوزر ضياء الدين بن الأثير الكاتب ، مصنف المثل السائر ، فأغراه بطرد أمراء أبيه ، ففارقوه الى أخويه العزيز والظاهر . وأما في مصر فقد اجتمعت أكابر الأمراء وحسّنوا للملك العزيز الاستقلال بالسلطة ، وحرصوه على عزل أخيه ملك الشام ، ووافقوه عمه الملك العادل على ذلك ، واستطاعوا أن ينزعاه عنه سنة ٥٧٢ هـ .

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ١٧، وابن واصل : مفرج الكروب، ج ٢ ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

(٢) أبو شامة : الروضتين : ج ٢ ص ٢٣٨ ، وابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٣ ص ٧ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٢٦٦ .

هكذا دب النزاع ، واستشرى الخلاف ، لكن تربص العدو بهم في الثفور جعلهم يوحدون جهودهم ، فأجمعوا أمرهم على الملك العادل حسماً لكل خلاف ، غير أن الصراع ظهر من جديد بعد موته بين أولاده أنفسهم ، وزاد في حدته اتساع البلاد كثيراً ، فبلغت الفتوح الأيوبية في عهده أقصى همدان (١) .

طمع الفرنجة بالبلاد من جديد ، وحلموا بالعودة الى الشرق الإسلامي فافتحموا نفور هذه المملكة الكبيرة التي دب فيها الانقسام بعد موت بطلها الناصر صلاح الدين . هاجموا عكا سنة ٥٩٤ هـ ، وندفت سفنهم فامتلاً بها الساحل ، وقصدوا بيروت وبها عاملها عز الدين سامة ، فلما سمع بوصولهم الى صيدا آثر السلامة ، وتركها وسار بجماعته الى مكان آخر (٢) .

راد طمعهم بالمسلمين بعدما لمسوا تفرقهم ، فشرعوا ينسللون الى داخل البلاد ، حتى إنهم هاجموا حمص سنة ٦٠١ هـ ، وأخذوا النساء الفسالات من باب البلد ، ولولا شجاعة ملكها المنصور لما أبقوا من أهلها أحداً ، كما هاجموا ثغر دمياط سنة ٦١٦ هـ ، بيد أنهم هزموا أيضاً شر هزيمة .

نظام الخلاف كما قلنا بين أولاد العادل ، فتوجه الملك الكامل محمد صاحب مصر الى الشام لينزعه من أخيه الملك المعظم عيسى ، لكنه امتنع عن قصده بعد استنجاهه بأخيه الملك الأشرف موسى صاحب ميفارقين والبلاد الجزرية .

توجه الملك الكامل مرة ثانية الى دمشق بعد وفاة أخيه لينزع ملكها من ابنه الناصر صلاح الدين داود ، فاستنجد بعمه الأشرف ، لكن الفرنجة انتهزوا هذا الخلاف ، وطمعوا بالعودة الى بلاد الشام بعد موت صاحبها وظهور الضعف على ابنه ، فاحتلوا بلدة صور . والمؤسف أن يتفق عمنا الملك الناصر على خلع ابن أخيهما ويتهادنا مع ملك الفرنجة . « على أن يسلموا

(١) انظر : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٦ .

(٢) أبو شامة : الروشتين ، ج ٢ ص ٢٢٣ .

إليه بيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من بلاده ، ويكون باقى البلاد مثل الخليل ونابلس والغور وطبرية وغير ذلك بيد المسلمين (١) . هكذا تشرّد سكان بيت المقدس من المسلمين فبعضهم توجه الى دمشق وبعضهم الى مصر ، وبعضهم الآخر الى الكرك (٢) .

عرف أمراء الناصر داود هذه المؤامرة على حياة الملك ، وذلك بتسليم بيت المقدس للفرنج ، فدخل أكبر الأمراء عز الدين أيبك على داود ، وكان مجتمعاً مع الأشرف في خيمة ، فأخرجه لأنه عرف أنه يريد خداعه والتآمر عليه لأخذ دمشق . صبح ما نوقعه فقد وصلت من مصر عساكر الملك الكامل لنجدة الأشرف ، ووصل بعدها الملك نفسه ، فنأزلا دمشق ، وحاصراها مدة أربعة أشهر استسلمت بعدها فعزل الناصر داود ، ونولى ملكها الأشرف سنة ٦٢٦ هـ . أقام داود بالكرك ، فحارب المحتلين الذين وضعوا أيديهم على بيت المقدس مسلماً من عميه ، واستطاع أن يهزمهم نهائياً (٣) .

اتسم عهد الملوك الأيوبيين المتأخرين بالتناوب والتنازع فيما بينهم ، يهاجم بعضهم بعضاً ، وينزع أحدهم ملك أخيه أو ابن أخيه ، واصدق وصف لهم قول القاضي الفاضل : « أما هذا البيت فإن الآباء منه انفقوا فملكوا ، وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا (٤) » .

غرب نجم هذه الدولة الأيوبية النى أتمت رسالة سابقتها الزنكية في تحرير البلاد وتوحيدها في ظل دولة عربية كبرى على يد الناصر صلاح الدين ، لكن خلفاءه لم يستطيعوا حفظها ، فأضاعواها وذهبت ريحهم ، وخلفهم مواليتهم من المماليك فأنقدوا البلاد ، وأوصلوها الى شاطئ الأمان .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٧ .

(٢) أبو شامة : ذيل الروضتين : ص ١١٦ .

(٣) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ ، ص ٨٤ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٢٣١ ، ٣٣٢ .

القسم الثالث

المماليك

٦٤٨ - ٧٠٠

رأينا أن الحقبة الأخيرة من عصر الأيوبيين مشحونة بالاحقاد والضغائن ويكر المؤرخون أن الملك المعظم توران شاه ، نجل الملك الصالح نجم الدين أبوب ملك مصر والشام ، اختلف مع ممالك أبيه ، فعاملهم بقسوة واخذهم بالعنف ، كما أضاء من طرف آخر لأرملة أبيه شجرة الدر التي قدمت له من قبل مساعدة كبرى كي يتسلم السلطنة بعد أبيه ، فقد أخفت عن الأمراء نبأ موته لتحفظ له حقه في وراثة الملك عندما كان بعيداً عنه في حصن كيفا .

ذكر المقرئزي أنه لما ماتت حضرت زوجته شجرة الدر الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ ، والطواشي جمال الدين محسن ، وأعلمتهما وفاة الملك الصالح ، وأوصنهما بكتمان موته خوفاً من الفرنج ، وأما أمور الملك فقد صرفها الطواشي محسن حتى عودة توران شاه من حصنه في الموصل (١) .

(١) المقرئزي : الملوك ، ج ١ ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة

استفحل خطر الفرنج في هذه الفترة ، وبخاصة بعد احتلالهم دمياط . فاستنهل الملك المعظم حياته بمحاربتهم « وأبلى فيها خير بلاء » فهزمهم هزيمة منكزة في فارسكور والمنصورة سنة ٦٤٨ هـ ، وقبض على الملك لويس التاسع ، واقتاده أسيراً ، وسجنه في دار العاضى ابن لعمان بالمنصورة بعد أن كبل بعيد من الذهب ووكل امره إلى الطوائى صبيح المعظمي . بحفظه مكرماً غيبة الأكرام (١) .

كما أسر مع الملك الفرنسى أخوه وجماعة من خواصه كانوا في منيه .د.الله ، فأخذوا جميعاً برقابهم . أما عدد الأسرى الآخرين من الجنود فقد بلغ ثلاثين ألفاً (٢) .

أبهجت دمشق بهذا النصر . وجدير بالذكر أن الملك المعظم أخبر نائبه بدمشق جمال الدين موسى بن يغمور ، وبعث إليه بغفارة الملك الأسير لويس التاسع ، فلبسها احتفالاً بيوم النصر ، ونال من أسكرلاط أحمر ، وتحتة سنجاب ، وفيها بكلة ذهب (٣) .

لم بطل حكم الملك المعظم توران شاه ، فقد روي عنه أنه توعد زوج أيبه شجرة الدر بالسوء ، فبعثت للأمراء والممالك البحرية تحريضهم على قتله ، وتعدهم بإرضائهم بكل ما يمكن (٤) .

قنل الملك شر قتلة دون شفقة أو رحمة ، ومات حريقاً غريباً ، ومكثت جثته ملقاة في العراء ثلاثة أيام ، تنهشها الجوارح ، حتى تشفع رسول الخليفة في دفنه (٥) .

دالت دولة الأيوبيين ، ولما مضى على قيامها قرن من الزمن ، وانتقل الملك إلى مماليكهم ، وعلى رأسهم شجرة الدر التى كانت أول من حكم

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٣٦٦ .

(٢) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٨٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٤) ابن إياس : مدائع الزهور ، ج ١ ص ٨٨ .

(٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٢ .

بعد ان اجمع الأمراء على توليها امر الملك على ان يكون الأمير المملوكي
عر الدين بن أبيك مدبر المملكة معها (١) .

نلك هي أول ملكة في مصر والسام في التاريخ الإسلامي . وما عرف
مثل ذلك من قبل في تاريخ العرب إلا في عهد زنوبيا فدبما . وكانت الخطباء
ندعو باسم الملكة الجديده ولها . ونقول بعد الدعاء للخليفة العباسي :
« واحفظ اللهم الجبهة الصالحة . ملكه المسلمين . عصمه الدنيا والدين .
ذات الحجاب الجميل ، والسنر الحليل . والد المرحوم خليل : زوجته
الملك الصالح نجم الدين أبوب (٢) » .

كما نفس اسمها على النفود ، وكانت نوقع في مكانها باسم « والدة
خليل (٣) » .

بلغ الخليفة المستنصر بأمر الله مباينة شجرة الدر بالملك ، فغضب
على الأمراء المماليك ، وكتب إليهم يقول : « أعلمونا إن كان ما بقي
عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة ، فنحن نرسل لكم من
يصلح لها . أما سمعتم في الحديث عن رسول الله (ص) أنه قال : لا أفلح
قوم ولوا أمرهم امرأة (٤) » .

كما بحث هذا الموضوع الشيخ عز الدين بن عبد السلام في معرض
حديثه إذا ما ابلي المسلمون بولاية امرأة ، قولائها في نظره بلاء وش .

اجتمع القضاة والأمراء ، وأنصاروا على الملكة ان تتزوج مدبر أمر
ملكها ، فخلعت نفسها ، وباعت زوجها أنجديد ، غير أنها عندما رآه

(١) ابن إياس : بدائع الزهور، ج ١ ص ٨٩ ، وابن كسر : البداية والنهاية، ج ١٢ ص ١٩٩

(٢) ابن نعري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٣٧٢ ، وابن كسر : البداية والنهاية

ج ١٣ ص ١٩٩ ، والسيوطي : حرس المحاصرة ، ج ٢ ص ٣٤ ، وابن إياس : بدائع

الزهور ، ج ١ ص ٨٩ .

(٣) السيوطي : حرس المحاصرة ، ج ٢ ص ٣٤ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٨٩ ، والسيوطي : حرس المحاصرة ج ٢ ص ٣٤

يهوى غيرها تأمرت عليه ؛ وخنقته وهو في الحما بمساعدة بعض مماليكها .
انتقل الملك بعد ذلك إلى سيف الدين قطز لأن ابن الملك السابق كان
صغير السن .

تجري كل هذه الحوادث والبلاد تجابه خطرين في آن واحد ، خطر
الفرنجة الذين يريدون الانتقام واسترجاع ما كان لهم من ممالك لاتينية ،
وخطر التتار الطامعين الجدد الذين يريدون أن يطمسوا ما تبقى قائماً من
معالم الحضارة الإسلامية في مصر والشام بعد أن دمروا بغداد وقضوا على
كل ما فيها من عمران وحضارة .

في مثل هذه الحال تسلم المماليك زمام الحكم ، واستطاعوا على الرغم
من تنازعهم ، أن يحفظوا البلاد من شر الطامعين القادمين من الشرق والغرب
على السواء .

لن نتحدث عن كل سلاطين المماليك وسنكتفي بذكر أشهر من عاش
في العصر الذي يهمنا تأريخه وبحثه .

(١)

المظفر قطز

الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزّي (١) ، وهو ثالث سلاطين
المماليك بعد المعز والمنصور ، ولى السلطنة سنة ٦٥٧ هـ في الوقت الذي سار
فيه التتار إلى بلاد الشام ، ودخلوا حلب ودمشق ، وبعثوا برسلكهم إلى قطز
فقتلهم وحاربهم حرباً صادقة كسروا فيها شر كسرة في المعركة المشهورة في
عين جالوت . كان يكر مع جنده صائحاً : « والإسلاماه » ثلاث مرات ، ويدعو
ربه قائلاً : « يا الله ، انصر عبدك قطز على التتار (٢) » .

(١) ابن تفردي ردي : المنهل الصافي (مخطوط) ح ٣ و ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٤٨٠ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص
٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ .

هزم هولوكو شر هزيمة سنة ٦٥٨ هـ ، فدخل السلطان دمشق مظفراً ،
وطهر بلاد الشام كلها من فلولهم ، ووحدتها من جديد ، وأصبحت الدولة
تمتد من النيل الى الفرات .

تهياً لدخول مصر دخول الابطال الظافرين ، فازدادت القاهرة ابتهاجاً
بقدومه ، ولما طلع اليوم الذي يصل فيه نادى المنادي : ترحموا على الملك
المظفر ، وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس (١) .

أما قتله فقد حدث غيلة على يد بيبرس أحد قواده لانه رفض توليته
نيابة حلب ، ونزيع على السلطنة من بعده .

جمع التتار أمرهم من جديد بعد أن بلغتهم انباء مقتل قطز قاهرهم
ليفسلوا عن أنفسهم عار الهزيمة النكراء التي منوا بها ، فدخلوا حلب ووضعوا
السيف في رقاب أهلها ، وأحدنوا فيهم مقتلة عظيمة . ثم وصلوا الى حماة
ففلتق أبوابها في وجوههم ، غير أنهم غادروها الى حمص حيث اجتمعت
جيوش الجو كندار حسام الدين ، والملك المنصور صاحب حماة ، والملك
الاشرف صاحب حمص ، فنشبت معركة ضارية هرب على أثرها بيدرا أحد
قواد هولوكو (٢) .

لاحظ بيبرس بعد عودته الى مصر أن الرأي العام كان حانقاً عليه لقتله
مولاه ، فأراد أن يعيد ثقة الناس به ، ورأى أن يعيد الخلافة الاسلامية
ويجعل القاهرة مقرها .

(٢)

الظاهر بيبرس

رابع سلاطين المماليك واكبرهم ، عرف بحسن بلائه في معركة المنصورة

(١) المغريزي : السلوك ، ج ١ ص ٤٢٧ ، وابن كبر : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٢٢ .

(٢) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ، ج ١ و ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

التي هزم فيها الفرنجة في عهد الملك الايوبي توران شاه ، كما أظهر منتهى الشجاعة في حرب التتار بجانب مولاه قطز .

استطاع الظاهر بعد ان تفرد بالسلطان ان يسهم بدوره في دعم الوحدة العربية حتى عادت الشام ومصر والحجاز وغيرها من الاقاليم والثغور كما كانت في ايام صلاح الدين . واستطاع من ناحية اخرى ان يخضع بعض الامراء الذين سقوا عليه عصا الطاعة ، نذكر منهم سنجر الحلبي الذي نصب نفسه سلطانا ، وتلقب بالملك المجاهد ، لكنه أخضعه وواصل كفاحه شرقا وغربا لرد عادية الفرنجة والتتار .

تواردت الاخبار الى الظاهر وهو بدمشق عن زحف جديد قامت به طلائع التتار الى بلاد الشام ، فتوجه أولا الى الرحبة ، ومنها الى حمص فمنبج ، لكنهم فروا من لقائه . كما توجه بعد ذلك الى الفرات ليصد طائفة أخرى منهم نيف عددها على ثلاثة آلاف فارس ، نزلوا في الجزيرة على ضفاف الفرات ، فنقدم الظاهر لمهاجمتهم ، وخاضت عساكره الفرات ، وكان على رأسهم الامير سيف الدين بن قلاوون الالفى ، والامير بدر الدين بيبري ، ثم لحق بهما الظاهر نفسه . وحدثت معركة عظيمة سنة ٦٧١ هـ فلم ينج منهم إلا نفر قليل (١) .

كما سجل للظاهر انتصار آخر عليهم سنة ٦٧٥ هـ في افجادر بنند ، فحمل عليهم حملة رجل واحد ، فقتل معظمهم وأسر جماعة منهم ، ووجد بين الاسرى جماعة من اعيان الروم (٢) وقد مدحه الشهاب محمود في هذه المناسبة بقصيدة مشهورة .

خلف الظاهر بيبرس ابنه الملك السعيد محمد سنة ٦٧٦ هـ ، غير انه خلع بعد عامين وولي مكانه أخوه الملك العادل سلامش سنة ٦٧٨ هـ ، وكان في السابعة من عمره ، فاستبد بأمره المنصور قلاوون ، وخلعه بعد مائة يوم ونفاه الى الكرك .

(١) ابن نوري بردى : المجلد الثاني (مخطوط) ج ٢ و ٧٤ و ٧٧ .

(٢) ابن نوري بردى : المجلد الثاني (مخطوط) ح ١ و ٣٦١ .

(٣)

المنصور قلاوون

مؤسس هذه الاسرة الحاكمة ومن عظماء سلاطينها ، وقد أسهم في توطيد وحدة البلاد . خرج عليه نائبه بدمشق الأمير شمس الدين سنقر الاسقر ، وأعلن نفسه ملكاً على دمشق ، لكنه تمكن من القضاء عليه بارساله مملوكه طرنطاي ، فدانت له بلاد الشام من جديد . كما أسهم في الدفاع عن البلاد ، فصد جحافل الفرنجة والتتار الذين أعادوا الكرة على حلب فدخلوها وخربوها ، فأسرع الى لقائهم وهزمهم قرب حمص . أما الفرنجة فقد دهمهم في الساحل ، وحصر طرابلس أربعة وثلاثين يوماً ، فانزعها من أيديهم مع حصن المرقب ، وخربها عن آخرها وبنى قريبا طرابلس الحالية .

(٤)

الاشرف خليل

تولى السلطة بعد أبيه سنة ٦٨٩ هـ ، واستهل ملكه بحرب الفرنجة ، فحاصر عكا وافتتحها (١) ، وأزال كل ما بقي لهم من نفور وقلاع وممالك في الطراز الاخضر من بلاد الشام ، وأخرجهم من صيدا وانطرسوس وبيروت وعيليب وحور وجزيرة ارواد ، ولم يبق أمامه غير الروم في الشمال ، فتنازلهم في عقر دارهم ، وحاصر قلعتهم الحصينة سنة ٦٩١ هـ ، وكان بصحبته في هذه الفتح صاحب حماة الملك المظفر الايوبي ، وتم له أخيرا فتح قلعة الروم بعد أن جد في حصارها . وجدير بالذكر أن أحد كتاب سر السلطان عبد الله بن عبد الظاهر أرخ حياته ، وسجل فتوحه الرائعة في كتاب سماه (الاطراف الخفية) .

(١) ابن تغري بردي : المنهل العساي (مخطوط) ج ٢ و ٧٦ ، ٧٧ .

(٥)

الناصر محمد

ناصر الدين محمد بن قلاوون بن المنصور سيف الدين الصالحى (١) ، وهو آخر من نترجم لهم في عصر سلاطين المماليك وليس بآخرهم لاننا نؤرخ حتى نهاية القرن السابع الهجرى .

بويىع بالسلطنة للمرة الاولى بعد مقتل اخيه وهو في التاسعة من عمره ، وناب عنه في تدبير اموره نائب السلطنة كتبغا ، لكن الخلاف دب بينه وبين الامير سنجر الشجاعى وانتهى بمقتل الاخير ، ثم خلع الناصر بعد اربعة عشر شهرا من مبايعته . تولى كتبغا السلطنة ، ورحل الى الشام لينظم امورها فانتهز الامراء المماليك هذه الفرصة ، واجمعوا كلمتهم على خلعه سنة ٦٩٦ هـ ، وتولى حسام الدين لاجين السلطة حتى سنة ٦٩٨ هـ ، وقتل مع مملوكه منكوتر في ليلة واحدة .

تداول الامراء امرهم فيما بينهم ، واجمعوا رايهم على عودة الناصر محمد للملك بعد ان اقصى عنه اربع سنوات .

تقف عند هذه المرحلة من ولايته لتحدث عن حربه مع التتار ، إذ لم يستقر غير عام واحد حتى توالى عليه الانباء تحدثه عن ظهور غازان (٢) وقدمه الى بلاد الشام بعد ان استنهضته امراء التتار انتقاماً لهزائمها الماضية .

كان غازان قد جمع جنوده من المغل والكرج والعجم ، ولم يكن هدف هذه الحملة الكبيرة بلاد الشام فقط ، وانما أعدت عدتها لقصد الديار المصرية ذاتها (٢) .

(١) الصفدي ؛ اعيان العصر (مخطوط) ج ٢ و ٢٢٥ - ٢٤٠ .

(٢) محمود بن أرغون بن أبغا بن هولكو بن طولو بن جنكيز خان ، تولى الملك سنة ٦٩٤ هـ عوضاً عن القان بيدو بن هولكو ، وكان وزيره ومدبر ملكه زوج عمته الامر نوروز التركي ، فحجبه بالاسلام ، فاسلم عند بوليته الملك بخراسان على يد الشيخ المحدث صدر الدين ابراهيم بن سعد الله بن حموية الجويني وعمره اذ ذاك بضع وعشرون سنة (ابن عمري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٥٠٠ ، ٥٠١) .

(٣) ابن عمري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٥٠٠ ، ٥٠١ ، والصفدي ؛ اعيان العصر (مخطوط) ، ج ٢ و ٢٢١ .

وصل مقدم التتار غازان على رأس جموعه إلى حمص ، وخيم على واد اسمه (مجموع الروج) . أفبل الملك الناصر من مصر فدخل دمشق ، وتوجه على النوا لمقابلة التتار ، فهزموه هزيمة منكرا وقتلوا جماعة من كبراء امرائه المماليك . ولحقوا بالمسلمين ، فدخلوا دمشق فاتحين سنة ٦٩٩ هـ ، وخطب فيها لغازان في المساجد . ورفع في القابه ، وبولى قبجق الحكيم نبابة عنه ، وألزم بعض الرؤساء بالوزارده كالرئيس صاحب فخر الدين .

لم تستسلم قلعة دمشق لانها كانت معقلا حصينا ، ولم يقو غازان على فتحها ، وانما اكتفى بجبي الاموال الكثرة من اهلها ، فحملت الى خزائنه ، وأخذ كل ما وجده من الفلال والخيول والبغال ، وأحرق جامع النوبة بالعقبة ، وهدم كل ما حول المدينة من قصور ومنزهات كالدهشة وصفة بقرط . وصفة العافية ، وناصرية الجبل ، وبیمارستان القلعة ، وقتل من حي الصالحية أربعة آلاف نسمة ، وأسر أكثر من أربعة آلاف (١) .

تابع التتار تقدمهم الى شمال البلاد بعد هرب الناصر محمد الى العريش . فدخلوا حلب وكان اهلها قد لاذوا ببيوت الله يقرؤون البخاري أملا في السلامة والنجاة .

عاد غازان الى دمشق ، فانجفل الناس ، واقسموا أماكنهم في القلعة التي بقب صامدة لان نائبها أرغواش المنصوري حفظها من شره ، ونودي في الاسواق بضرورة الرحيل الى مصر لمن اراد السلامة والنجاة .

أما غازان فقد عسكر في غوطة دمشق مخيما حتى الثاني عشر من جمادى الاولى ، ثم ارتحل الى بلاده ، وخلفه نائبه قطلو شاه ، وعسكر بالقصير في فرقة من الفول .

أما الناصر محمد فقد جهز جيشه بمصر وسار صحبة الأمير سلار والأمير ركن الدين بيبرس ، كما استصحب معه الخليفة والفضاء الاربعة : فلموا

(١) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ح ٦ و ٢٢٣ وابن مغري بردي : النهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٥٠٠ .

شعث البلاد وأنشعوا الاطمئنان في نفوس الشعب بعد أن بلغ الخوف منهم مبلغه ، ولا سيما أن غازان توعد الناس بعودة ثانية قريبة (١) .

قطعت الخطبة لغازان وأعيدت للناصر محمد يوم الجمعة السابع عشر من رجب بعد إبطالها طوال مائة يوم (٢) .

أهلت سنة سبعمائة، وشرع غازان يجمع جموعه لفروزة جديدة، فوصلت طلائعه الى حلب وحاصرتها ، لكن قلعتها صمدت امامه ، فلما بلغت مسامع الناصر انباء هذا الزحف الجديد هب من مصر لتجديتها غير أن التتار رحلوا عندما سمعوا نبأ قدومه .

جمع غازان جمعاً عظيماً سنة ٧٠٢ هـ ونزل قريباً من الفرات وعبره . فالتحم القتال بعد وصول النجيدات المصرية ، فهزم شر هزيمة وأسر مقدم عساكره وقتل منهم خلق عظيم .

غضب غازان لما سمع نبأ هذه الهزائم ، فندب نائبه قطلوشاه وأمره بالتوجه الى دمشق فنزل قرب شقحب ، وتلاقى الفريقان بمرج الصفر ، واستمر القتال من العصر حتى غداة اليوم التالي ، وقد ركن التتار بعدها الى الفرار . والطريف أن غازان بعث بكتاب الى اهل الشام يقول فيه : « ماجئنا هذه المرة الا للفرجة في الشام (٣) » .

هدأت الحروب بعد ذلك في أيام الناصر محمد وبدأت علاقات المودة بين المسلمين والتتار تظهر بعد هوت غازان ، فكانت الرسائل لا تنقطع بينه وبين ملكهم أبي سعيد ، وكان كل منهما يسمي الآخر اخا وصارت الكلمتان واحدة، ومراسيم السلطان تنفذ في ديارهم ، ورسله تدخل بالاطلاب والطبلخاناه (٤)

(١) ابن تقي بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٥٠٠ .

(٢) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٦ و ٢٢٣ .

(٣) المصدر السابق : ج ٦ و ٢٢٨ - ٢٤٠ .

(٤) الطبلخاناه : معناه بيب الطبل ، ويشتمل على الطبول والابواق وتوابعها من الآلات ، وبحكم على ذلك أمر من أمراء البشرا ، يعرف بأمر علم ، يقف عليها عند ضربها في كل ليلة ، ويسمى أمرها في السفر ، وله رجال منهم المهنار ، والدبندار والمنفر والكوسي (العالمشندي : سبج الاعشى ، ج ٤ ص ١٢) .

والاعلام المنشورة (١١)

تكتفى بهذا القدر من التحدث عن الناصر محمد ، ونحن ما نزال في اوائل ولايته للمره الثانية ، وبذلك نكون قد استوفينا دراسة مشاهير سلاطين المماليك ممن يعيننا بحثهم .

ننتهي من هذا العرض التاريخي السريع لنقرر أن الحياة السياسية في هذا العصر شهدت تابع ثلاث دول خلال قرنين من الزمن تقريباً ، وأنها استطاعت على الرغم من كل الاختلافات الداخلية ، والتنازع حول الملك والسلطان ، أن تؤدي واجبها كاملاً في هذا الصراع الجبار مع الفرنجة والتتار ، حتى اذا جاء عصر المماليك رأنا البلاد قد تطهرت نهائياً من الطامعين المحتلين الذين قدموا من الغرب والشرق على السواء لاحتلال البلاد العربية واخضاعها لنفوذهم . والفضل كل الفضل في ذلك يعود لامر واحد ، وهو سعى ملوك الدول الثلاث المتتابعة لتوحيد شمل الأقاليم المجزأة في وحدة عربية كبرى ، رسخت جذورها في مصر والشام منذ أقدم العصور .

الفصل الثاني

المظاهر الاجتماعية العامة

نحاول أن نحدد مجال البحث في دراسة الحياة الاجتماعية العامة (١) ، قبل أن نشرع في تبيان مظاهرها بمختلف صورها واتجاهاتها ، ذلك أن دراستها تتطلب منا أن نوضحها بالتفصيل ، وليس هذا بمستطاع مادامت طبيعة بحثنا الادبي تقتضي منا أن نعرضها عرضاً شاملاً يحددها ، ويبرز معالمها العامة .

يجمع علماء الاجتماع على أن المقصود بها مختلف نواحي النشاط الانساني من الدين والعمل والاسرة والتعليم ، وما فيها من اعياد ومآتم وأفراح واثراح وشتى الامراض الاجتماعية وعللها .

لن نستطيع الامام بدراسة كل هذه المظاهر الاجتماعية العامة ، ونكتفى منها هنا بالتحدث عن الطبقات الاجتماعية والحياة الدينية ، ونختم حديثنا بالتحدث عن الاخلاق في هذا العصر وما يتعلق بها من علل خلقية متفشية بين الطبقات الاجتماعية والفئات الشعبية .

(١) اعتمدنا في هذا الفصل على بعض ما اورده في كتابنا « ابن نيانة المصري » ص ٣٢ ، وقد أصدرته دار المعارف في سلسلتها (مكتبة الدراسات الادبية) رقم ٣١ ، سنة ١٩٦٣

القسم الأول

فنا المجتمع

ليس النظام الطبقي السائد في هذا العصر بجديد ، ذلك أن أصوله الأولى صاعدة مع التاريخ القديم ، وفروعه منحدره مع تطوره المستديم ، وعسير على الباحث أن يفسر هذه الصورة الاجتماعية المعقدة .

لاغربة أن اخلف العلماء قدماً وحديثاً في تصنف طوائف المجتمع ، فمنهم من لا يرى غير طبقتين ، كما هو الحال عند ابن خلدون ، وقد أشار الى ذلك في مقدمته المشهورة . فذكر أن الملك سلطان ورعية « فالسلطان من له رعية : والرعية من لها سلطان » (١) .

نحا هذا المنحى المؤرخ المحدث لين بول ، فأشار الى طبقتين كبيرتين : اولاهما طبقة الممالك وهي اقلية عسكرية ممتازة ، وثانيهما طبقة تمثل سائر فئات الشعب ، وهي محرومة من كل نفوذ وبعيدة عن الحكم . وليس بيدها غير بعض الوظائف الدينية او القضائية ، وعليها واجب العمل في فلاحه الارض ودفع الضرائب الباهظة (٢) .

ومنهم من قسم المجتمع الى عدة طوائف، نشير بنسكل خاص الى المقريري الذي صنف في المجتمع سبع طوائف : الاولى أهل الدولة من الممالك، والثانية أهل اليسار من التجار ، والثالثة متوسطو الحال من السوق والباعة ، والرابعة أهل الفلاح ، والخامسة الفقهاء وطلاب العلم ، والسادسة أرباب الصنائع وأصحاب المهن ، والسابعة ذوو الحاجة والمسكنة (٣) .

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٨٨ .

(٢) هانور : دراسات في الحياة لاجتماعية ، ص ١٠ .

(٣) المقريري : اغاثة الامة بكشف الغبة ، ص ٧٢ .

أما معاصر المقريزي بيلوتي الكريتي *pilote de Crète* فقد قسم المجتمع الى ثلاث طوائف : طائفة المماليك ، وطائفة الشعب ، وطائفة الاعراب (١) ، وجدير بالذكر أن المقريزي أهمل الأخيرة منها .

يحسن بنا أن نتبنى تصنيف المقريزي على أن نضيف اليه طوائف أخرى أهملها المؤلف المذكور ، وهي طائفة الاعراب التي تداركها بيلوتي ، وأرباب الملل والنحل من الطوائف الأخرى ، وأهل الدمة من اليهود والنصارى .

(١)

الطبقة الحاكمة

تناوبت الحكم وتداولته في هذين القرنين ثلاث دول ، وكان توالي الحكم مصدر قوة لا ضعف ، كما أثبتت ذلك الاحداث الكبرى التي عرضنا لها من قبل .

قام الزنكيون فحكموا البلاد بعد أن ضعفت أمام هجمات الفرنجة الذين احتلوا معظم الطراز الأخضر من بلاد الشام ، وأسسوا فيه أربع ممالك لاتينية ، هي : الرها وأنطاكية وطرابلس والقدس ، ونم يكن غرضهم استخلاص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين وإنما كانوا يهدفون الى استعمار الشرق الاسلامي كله : وقد تبين ذلك في الخطاب الذي ألقاه البابا أوربانوس في مدينة كليرمونت الفرنسية سنة ١٠٩٥ م ، وجاء فيه : « أنها ليست لاكتساب مدينة واحدة ، بل لامتلاك أقاليم آسيا بأكملها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى ، فاتخذوا حجة البيت المقدس ، وخلصوا الأراضي المقدسة من أيدي المختلسين ، وامتلكوها أتم خالصة لكم من دون أولئك الكفار ، فهذه الأرض - كما قالت التوراة - تفيض لبناً وعسلاً » (٢) .

اعتمد الزنكيون الأتراك على أبناء جلدتهم ، وهم صنبة السلاجقة

(١) دراسات في الحياة الاجتماعية ص ١٠ .

(٢) بيلي : حياة صلاح الدين ، ص ٥٢ .

الأثرالك أيضاً ، فنحن نعلم أن آق ستقر جند نور الدين كان مملوك السلطان الساجوقى عضد الدولة ألب أرسلان فهم إذن مماليك السلاجقة الذين كان ييدهم أمر الخلفاء العباسيين : ويتولون السلطة الفعلية في الحكم نيابة عنهم .

كان امرهم بسر الى انحطاط عندما بدأ أمر الزنكيين يستفحل في بلاد الشام ، واستطاع هؤلاء الحكام أن يعيدوا الاطمئنان الى المسلمين بعد نفاقم خطر الفرنجة ويهددهم النرق الاسلامى كله ، بثله الاراضى المقدسة فى الحجاز . وكان أكبر نصر أحرزه عماد الدين هو فتح الرها .

وتبلغ البلاد أوج قوتها في عهد نور الدين ، ونتهياً لفتح ما تبقى من البلاد بأيديهم .

اعتمد الزنكيون على الأثرالك كما رأينا لأن « قنطاريات الفرنج ليس لها الا سهام الاتراك ، وان الفرنج لا يخافون الا منهم (١) » .

كادت هذه الدولة تنعسر من جديد ، ولما يتحقق حلمها الاكبر في النصر ، فتسلم القيادة بطل جديد قامت بقيامه دولة أيوبية ، هى من عنصر كردى ، ينسب للعرق الآرى ، ولغة الاكراد فارسية مشوبة بالفاظ عربية وخاندبة (أي عراقبة فديمة) ، وفي كل قرية من فراهم (ملى) ، وهر عندهم العالم الخبير بلغتهم .

حكم الابوبيون الاكراد البلاد رداً من الزمن ، ووزعت أقاليمها كما رأينا بين خلفاء صلاح الدين . وهؤلاء لم يكونوا أرقاء موالى كسابقيهم ، بل كانوا أحراراً يعتمدون في دعم ملكهم على أبناء جلدتهم وعلى غيرهم من المماليك .

أما الحكام الجدد الذين نقلوا على الامور بعدهم فهم ينتمون الى اصول مختلفة ، منهم الاتراك والجركس والروم والارمن وغيرهم ، فالسلطان قطز مثلاً هو ابن أخت ملك (مانجو بردي) الذي قضت عليه جيوش جنكيزخان،

(١) ابن واصل : معرج الكروب ، ج ١ ص ١٨٣ .

والسلطان قلاوون قفجاقى تركي من قبيلة (برج أوغلي) ببلاد القفجاق، والسلطان كتبغا مغولي الأصل ، جاء الى مصر أسيراً بعد موقعة حمص ٦٥٨ هـ ، والسلطان لاجين أصله من البلاد الواقعة على ضفاف البلطيق .

تلك هي حال بعض سلاطينهم ، فما بالك بأتباعهم من الارقاء . لقد كان السلطان يستري عدداً كبيراً وبسلمهم الى الطواشي المشرف على طبقة جنسهم ، ويصبح بعد ذلك في عداد الذين يؤهلون لخدمة الامراء أو السلاطين (١) .

ينال المملوك ثقافة خاصة منذ نعومة اظفاره ، فيربى تربية دينية على يد فقيه خاص يعلمه القرآن والحديث ، ويشرح له أحكام الاسلام ، ويزوده بأداب الشريعة ، وعندما يتجاوز هذه المرحلة يربى تربية عسكرية خاصة ، « والعادة كانت اقامة اولاد السلاطين وذريتهم بالقلعة ، لايتجاوز احدهم بابها ، ودام ذلك الى ان اطلقهم الملك الاشرف برسباي ، ورسم لهم بالنزول الى القاهرة (٢) » .

ان المؤهلات الشخصية هي التي تهىء صاحبها ليتدرج في معارج الرقي من رن رقيق حتى يصل الى مرتبة الامراء . أما الوظائف التي يليها هؤلاء فكثيرة ، منها نيابة السلطنة أو الاتابكية ، أو غيرهما من المناصب التي قصرت على امراء الممالك دون غيرهم من الطوائف الاجتماعية الاخرى . وإذا ما اسعفت الظروف احدهم وتب على مولاه فقتله - وهذا في الاكثر - أو خلعه وحل محله في الملك . استبد الامراء بأمور السلطان في بعض الاحيان ، وكانوا مصدر السلطة ، وهم الطبقة الحاكمة التي تهيمن على شؤون البلاد ، وقد ساءت أمورهم فيما بعد ، فتخلوا عن كثير من صفاتهم الحربية والخلقية ، وانغمسوا في المفاسد والفتن ، وتمادوا في الاعتداء على طوائف الشعب المختلفة .

هكذا كان الممالك ، وإلى هذا صار حالهم ، وعلى الرغم من كل مساوئهم فقد دافعوا بشجاعة منقطعة النظر ، وطهروا البلاد من احتلال

(١) القريوي : الخطط ، ج ٢ ص ٢١٨ .

(٢) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٦ ص ٦٧ .

الفرنجة وصدوا عنها جحافل التتار القادمين من قلب آسيا ، واستردوا عكا وغيرها من قلاع الشام مما تبقى بأيدي الفرنجة الصليبيين وطردهم الى ما وراء البحر .

(٢)

رجال الدين

لقبهم المؤرخون بأهل العمامة ، وهم طائفة متميزة من الشعب ، فقهت أمور الدين وتعاليمه وتضلعت من أحكامه ، ونالت - بالإضافة الى ذلك - حظاً وافراً من العلم والثقافة ، فكسب حب الطبقة الحاكمة واحترامها في معظم الأحيان .

نستطيع أن ننبين في هذه الطائفة فئتين : أولاها وليت الوظائف العامة التابعة للحكام كإمانة السر وكتابة التوقيع وتولي ديوان الانشاء ، والانشراف على الدواوين السلطانية الاخرى ، وثانيهما عكفت على عبادتها وديانتها ، وشغلت وظائف التدريس والقضاء والخطابة ، غير أن كثيرين منهم كانوا يعزفون عن تولي القضاء لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قاض في الجنة وقاضيان في النار » . وكان بعض من تولاه يشترط على السلطان شروطاً معينة ، وكثيراً ما كانوا يعرضون بالحكام اذا آتسوا منهم خروجاً على الدين وتجاوزاً على المصلحة العامة .

نقف قليلاً عند نور الدين لنقرر انضواءه تحت راية العدل حتى إن قاضيه كمال الدين التسهزوري كان يقاضيه كأي فرد من أفراد الرعية ، فيقف امامه الى جانب خصمه لئلا يظن أنه ظلمه (١) .

كما أمر ببناء دار العدل ، وجلس فيها ليفصل في الحكومات والخصومات وكان يحضر في الاسبوع مرتين ، وعنده القاضى والفقهاء (٢) .

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٨ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٦٩ ،
(٢) المصدران السابقان ،

ولا يعدم القضاء نصيراً آخر يشد به أزره ، فيحاذو صلاح الدين حذو مولاه ، غير أن العلاقة لم تكن طيبة مع القاضي كمال الدين منذ كان تتولى شحنة دمشق في عهد نور الدين لأنه كان يعكس مقاصده ، ويكسر أغراضه ، ويعترف عليه في أموره لنوحي الأحكام الشرعية (١) .

كان يقاوم عمه أسد الدين . ويرفع مظالمه لنور الدين الذي أمر ببناء دار العدل بعد ما كثرت الشكاوى حوله ، وسميت بدار الكشف أيضاً . ولعل المقصود من هذه التسمية الكشف عن المظالم .

مهما يكن من أمر هذا الخلاف فلقد قدم كمال الدين لصلاح الدين كل المساعدة لتمكينه من الاستلاء على دمشق بعد أن تبين له أن الأمراء عاجزون عن دفع العدو . فلم يمنعه خلافه معه من الاستنجاد به لحفظ البلاد تغورها ويعصون أمنها وحدثها . أشار على الأمير شمس الدين بن المقدم ، وهو القيم على تربية الملك الصالح ، وعلى جماعة الأمراء بالانقياد إلى طاعة صلاح الدين صاحب مصر والرجوع إلى رأيه لأنه أقوى منهم جميعاً لانفراده بملك أكبر إقليم في المملكة .

أقر صلاح الدين القاضي المذكور على القضاء كما كان من قبل ، وكان يستشير أحياناً حتى أدركه أجله ، فأوصى خلال مرضه بالقضاء لابن أخيه فجلس في مكانه ، وناب عنه في الحكم . لم يكن صلاح الدين راضياً عن ذلك ، مع العلم أن القاضي الجديد كان أثيراً لديه ، وكان قد خدمه في مصر ، وأنعم عليه وأقطعه أقطاعات سنينة هناك وكان يصحبه أيضاً في بلاد الشام .

ولعل سبب ذلك رغبته في استناد القضاء لرئيس الشافعية في زمانه الشيخ شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون الذي هاجر من حلب إلى السلطان ، فأنزله عنده في دمشق ، وحار فيما يفعله . شاور وزيره القاضي الفاضل ، فاجتمع بضياء الدين ، وأعرب له عن رغبة السلطان وأشار عليه بالاستعفاء ففعل ما أمر به وأعفي من منصبه ، وأبقيت عليه الوكالة الشرعية عن السلطان في بيع الأملاك .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٤٩ .

كان كثير من رجال الدين ينددون بالباطل عندما يرون السلطان برضى بالمنكر أو يسير في طريق الفساد . عرف عن سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام انه ترك الدعاء على المنبر لسلطان دمشق الملك الصالح اسماعيل بسبب تحالفه مع الصليبيين واستعانتهم بهم ليعضدوه على ابن اخيه صاحب مصر . وقد سمح لهم بدخول دمشق وابتيع السلاح منها واتفق معهم على تسليمهم صيدا والسقيف (١) وغيرهما من نفور الساحل سنة ٦٣٨ هـ . عزله الملك الصالح من الخطابة في الجامع الاموي ، وسجنه في قلعة دمشق وضيق عليه ، لكن جماعة العلماء أسخطهم ما يلقيه مجتهد العصر فتسفعوا له ، فأفرج عنه خوفاً من نقمة الناس عليه .

ترك دمشق صحبة شيخ المالكية الذي سجن معه جمال الدين أبى عمرو بن الحاجب وتوجها معاً الى الكرك ، فلتقاها صاحبها الناصر داود فأكرمهما غاية الاكرام ، وطلب اليهما البقاء عنده ، فأجابه الشيخ عز الدين : « هذا بلد ضيق عن علمي (٢) » .

ولما وصل القاهرة تلقاه الصالح ايوب وفوض اليه الخطابة في الجامع العمري ، وولاه قضاء مصر والوجه القبلي بعد وفاة ابن عين الدولة (١) ولم يلبث أن اختلف معه ، ولامه مرة على وجود حانة تباع فيها الخمر ويرتكب الناس فيها المنكرات (٢)

استمر على هذه الطريقة في معارضة السلطان حتى أقصى عن جميع مناصبه في القضاء وغيره . أما سبب عزله فيرجع الى خلافه مع الوزير معين الدين ، فغضب منه وعزل نفسه لكن السلطان رأى ان يعزله من الخطابة أيضاً لانه خاف أن يقول فيه ما قاله في الصالح اسماعيل (٤) ولم يبق له من وظائفه كلها غير التدريس في المدرسة الصالحية .

(١) ابن حجر : رفع الامر (مخطوط) و ١٦٨ ، وابن نوري بردي : النهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، وابن الوردي : تتمه المحصر ، ج ٢ ص ١٧١ ، والسبكي : طبقات الشافعية ، ج ٥ ص ٨٠ - ٨٣ .

(٢) ابن حجر : رفع الامر (مخطوط) و ١٦٨ .

(٣) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٤) ابن حجر : رفع الامر (مخطوط) و ١٦٩ .

أما في عصر سلاطين المماليك فكان موقفه من مبايعة الظاهر بيبرس مخالفاً لأنه لم يثبت لديه عتقه ، وكان موقفه أيضاً من بيع الأمراء معروفاً نكتفي هنا بالإشارة إليه (١) .

كان معظم رجال الدين يعلنون كلمة الحق أمام الملوك والسلاطين دون خوف في خطبهم ودروسهم ومواظهم . ذكر أن مجيد الدين اسماعيل الواسطي خطب مرة ، والظاهر بيبرس حاضر ، فقال له : « أنك لن تدعى يوم القيامة بأيهما السلطان ، لكن تدعى باسمك ، وكل منهم يسأل عن نفسه إلا أنت فانك تسأل عن رعاياك ، فاجعل كبيرهم أباً ، وأوسطهم أخاً ، وصغيرهم ولداً (٢) » .

وذكر عن ابن دقيق العيد أن السلطان لاجين لقيه مرة ، فقام وقبل يده ، فلم يزد على قوله : « أرجوها لك بين يدي الله تعالى (٣) » وقد رفض تولي القضاء في عهد كتبغا ، ولم يقبل ذلك إلا مكرها .

يضاف الى ما ذكر أن بعضهم رفض تناول أجر ، منهم القاضي عبد الرحيم البارزي الذي حكم نيابة حماة ، فلم يتناول للقضاء رزقاً (٤) .

أدت هذه الطائفة من رجال الدين أكبر خدمة للامة ، اذ كانت تدافع عن مصالح الشعب وحقوقه لأنها خرجت منه .

(٣)

طوائف الشعب

حاولت أن أجمع في هذه الطبقة طوائف الشعب المختلفة من الفلاحين والتجار والصناع وسائر العوام .

-
- (١) ابن حجر : رفع الامر (مخطوط) و ١٦٩ ، وابن شاعر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ١ ص ٣٦٦ ، والسيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٨٨ .
 (٢) ابن الوردي : نعمة المخصر ، ج ٢ ص ٢٢٥ .
 (٣) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٠١ .
 (٤) ابن نوري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ، ج ٢ ص ٣٢٥ .

ويظهر أن هذه الطوائف كانت تعامل معاملة واحدة لأن أي فرد منها مهما ارتفع منزلته ، أو نال حظاً وافراً من العلم أو المال فإنه ينظر إليه نظرة ازدراء واحتقار من الطبقة الحاكمة . يؤكد هذه الفكرة المثل المعروف في هذا العصر على السنة الناس وهو قولهم : « ما أنت إلا من العوام ، ولو كنت ابن عبد السلام (١) » .

يشكل الفلاحون السواد الأعظم من الشعب ، لكن الطبقة الحاكمة كانت تحتقرهم ، لأن الفلاح في نظرهما قن ملحق بالأرض ، يورث مع الاقطاع الذي يعمل فيه لدى سيده ، وكان في كل عهد تابعاً لاي متسلط اقطع الارض أو القرية أو المدينة التي يقطن فيها .

ساد نظام الاقطاع في ظل الدولتين الزنكية والايوبية . واستمر قائماً في عصر سلاطين المماليك ، وقد حافظ نور الدين على ما كان يقطعه جنده ، فإذا قتل أحدهم ، وخلف ولداً ذكراً ، أفر الاقطاع عليه ، وإن كان قاصراً جعل عليه وصياً حتى يدرك سن الرشيد (٢) .

تحدث المقرئ عن الفلاحين الاقنان المحرومين حتى من البيع أو العتق ، ومما قاله : « لا يعرف هذه (الأبدية) التي يقال لها الفلاحة ، ويسمى المزارع بالبلد فلاحاً فراراً ، فيصير عبداً لمن اقطع تلك الناحية ، إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ، ولا أن يعتق بل قن ما بقي ، ومن ولد له كذلك (٣) » .

يؤكد حقارة الفلاحة في هذا العصر ما ذكره أسامة بن منقذ عن والدته التي فضلت أن تقتل أخته الكبرى ، ولا تراها « مع الفلاحين والحلاجين (٤) » .

ليس فيما ذكرناه عن الفلاحة والفلاحين بحاجة لمزيد من البيان ، ففيه الفناء لنستدل على حياة هؤلاء المستضعفين في الأرض كما دعاهم ابن خلدون في مقدمته ، فذكر أن الفلاحة معاش المستضعفين ، ويختص منحها بالذل

(١) ابن شاعر : فوات الوفيات ، ج ١ ص ٣٦٧ .

(٢) ابن وصل : مفرج الكرب ، ج ١ ص ٢٨٠ .

(٣) المقرئ : الخطوط ، ج ٢ ص ١٣٨ .

(٤) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٢٥ .

والمسكنة^(١)، وإذا أراد أحدهم أن يشتتم الآخر نعتته بكلمة فلاح ، وبذلك تطورت هذه اللفظة فأصبحت خاصة بالشتم والنسب . كما أن ساداتهم أصحاب الاقطاع من الامراء والاجناد والأتراك والاكراد كانوا يستخدمونهم في اقطاعاتهم عنوة وقهراً . وصف تاج الدين السبكي هذه الحال وقال قولته المشهورة : « ومن قبائح دبوان الجيش الزامهم الفلاحين في الاقطاعات بالفلاحة ، والفلاح حر لا بد لأدمى عليه وهو أمير نفسه . وقد جرت عادة الشام بأن من نزع من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد الى القرية قهراً ويلزم بشد الفلاحة . والحال في غير الشام أشد منه فيها (٢) » . كما أنهم لم يكونوا يسمحون لهم بالتمتع حتى بأبسط مبادئ الحرية ، فقد روى المقرئ أن احداً من الفلاحين لم يكن يجرؤ في أيامه أن يلبس مئزرأ أسود ، ولا يركب فرساً ولا يتقلد سيفاً ، ولا يحمل عصا مجلبة بحديد .

أما الفلاح التي سقاها الفلاح بعرق جبينه فيذهب نصفها أو معظمها لاهل الدولة اولي الجاه والسلطان ، يؤكد ذلك مارواه أسامة بن منقذ على لسان بستاني من اهل معرة النعمان : « أن هذا البستان نصفه لي بحق عملي ، ولحمد بن مسعر نصفه بالملك (٣) » . يأخذ المالك النصف ، والنصف الآخر موزع بين الدولة والفلاح ، وقد أدى هذا النظام الى خراب القرى وتشرذم ابنائها من الفلاحين في المدن ، فانتشرت بسبب ذلك فئات مختلفة من شياطين اللصوص^(٤) ، وعبيد حرامية يقطعون الطريق ، ويدخلون العدو متسللين ، فيسرقون منهم الرجال ، ذلك أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون خيام العدو فيسرقون منهم الرجال^(٥) ، يضاف الى ذلك طوائف أخرى من الصعاليك وغيرهم . ومن الطريف أن نسمع نعتهم بأفواهم كما أورده أسامة ، فهذا احدهم يقول : « أنا رجل صعلوك وحيد ، أستسقي جوفي ، وكبرت حتى عجزت عن التصرف ، وبرمت بالحياة (٦) » . وهذا آخر يقول : « أنا رجل صعلوك ، ما لي شيء ، ولا لي من يدور بي سوى والدتي عجوز ضعيفة (٧) » .

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٩٤ .

(٢) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٣٤ .

(٣) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٧٢ . (٤) المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٥) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٤٥ ، وأسامة بن منقذ : ص ٧٩ ،

١٥٢ ، ٢٢٠ .

(٦) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٤٧ . (٧) المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

تلك هي حال هؤلاء المتشردبن الذين يتسكعون في البلاد ، فلا عجب اذا رأينا النساء العجائز تعولهم .

* * *

نمة فئة أخرى من الشعب ، لعلها أحسن حالا من غيرها وهي أرباب الصناعات والمهن الحرة ، فكانوا يؤلفون فيما بينهم نقابات خاصة ، تضم أعضاءها العاملين ، ولهم شيخهم الذي بدافع عن مصالحهم لدى تناسة (١) المدينة أو الطبقة الحاكمة .

تحدث الاسناذ عيسى اسكندر المعلوف في مقالة طويلة عن صناعات الشام ودمشق في العصور الوسطى (٢) .

نترك هاتين الفئتين لنلتقي مع فئة شعبية أخرى أحسن حالا من سائر الفئات ، وهي طبقة النجار ، أو كما يسميهم أسامة (البرجاسية) (٣) وقد وصف حالهم على لسان صديقه الافرنجي : « هذا رجل برجاسي (أي تاجر) لا يقاتل ولا يحضر القتال (٤) » .

قرب السلاطين هذه الطبقة الفنية لتمدهم بالمال حين الحاجة ، واتخذوا منهم أصحابهم ونداماهم ، وأنعموا على سروانهم بأمرة طبخائانه لكن غالبهم كانوا يعاملون كسائر أبناء الشعب فكانت الضرائب تفرض بكثرة عليهم غير أن بعض السلاطين كانوا يعفون الناس منها في بعض الأحيان تأليفاً لقلوبهم ، فقد اكتفى نور الدين وصلاح الدين من بعده بالخراج والجزية ، ورفعوا عن الناس المكوس والمفارم . أما الملك العادل والملك الأفضل فقد خلفا سبعمائة ألف ألف وسمائة ألف ألف دينار على

(١) مفردا تائي ، وهو صاحب الاملاك الواسعة . وقد استخدم هذه اللفظة أسامة في الاعتبار ص ١٧٩ .

(٢) محاضرات المجتمع العلمي العربي ، ص ٢٨٠ - ٣١٣ .

(٣) أصلها من لغة الفرنسية ، عرفها العرب عن طريق الحروب الصليبية أي :

Bourgeoisie

(٤) أسامة بن مقدر : الاعتبار ، ص ١٤١ .

التوالي . كما عرف عن الملك المعظم عيسى بن العادل انه ظلم الرعية بالمكوس ولما اعترض عليه فخر الدين بن عساكر عاقبه بانتزاع المدرسة التقوية والصلاحية بدمشق منه (١) .

يضاف إلى ما ذكر أن التجار كانوا يتولون إقراض الدولة للجهاد ، وكان ذلك بكفالة الخليفة ببغداد بموجب توقيع خاص كما جرى لصالح الدين عندما طلب مساعدة الخليفة ليدراً عن البلاد هجوم الفرنجة (٢) وكما كان بعض السلاطين يعتمدون الى مصادرة الاموال في ساعات المحنة وكان التجار في الغالب الضحايا الذين تؤخذ منهم أموالهم ، وقد ذكر انه استخرج من غالب الأغنياء ثلث أموالهم لاستخدام المقاتلة في الشام ومصر سنة ٧٠٠ هـ لصدد جحافل التتار (٣) . يضاف الى ذلك أن سلاطين المماليك فرضوا المكوس الكثيرة على الخمر وغيرها .

(٤)

الاعراب

أفردناها في طائفة مستقلة لان نمط حياتها خاص بها ، وهي منتشرة في بادية الشام تحيط بأطراف الهلال الخصيب ، وتفتن عن المرعى ، ولعلها كانت تشعر بالعزلة بالنسبة للحواضر ، كما يظهر أن هذه العزلة جعلتهم مصدر خطر يهدد الحواضر في بعض الاحيان ، بله طبيعة حياتهم التي تقتضي منهم حفظ بقائهم في السنين العجاف عندما تنحبس السماء ويجف المرعى ، وينعدم الكلاً فيتسلطون على قطع الطرقات وسفك الدماء (٤) .

يحسن بنا أن نشير الى أشهر القبائل العربية التي تعيش في بلاد الشام ، نذكر منها الفساسنة وقضاة وتنوخ واسد وآل مرة ، وآل عقبة، ونكتفي

(١) محاضرات المجتمع العلمي العربي ، مقالة الاستاذ محمد كرد علي عن الجباية في الشام

ص ٣٨ - ٧٤ .

(٢) ابن شداد : النوار السطانية ، ص ١٠٢ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢

ص ٢١٤ .

(٣) ابن الوردي : تمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٤٩ .

(٤) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٥٤ .

بالوقوف عند الاخرة منها لما لها من أهمية في هذا العصر وعلاقتها بسلطين المماليك .

آل فضل

عرب الشام وهم قبائل رحالة ما بين الشام والجزيرة ونجد ، ينتسبون الى قبيلة طى ومعهم أحياء من زبد و كلب ومذحج وغيرهم .

أورد العماد الكاتب في كتابه « البرق الشامى » أخبار آل فضل ، وقد رأينا أن نورد بالتفصيل قصة هؤلاء الامراء ، ونوضح علاقتهم بالطبقة الحاكمة . كما أن الزعامة على عرب الشام في بادىء الامر لم تكن لقبيلة دون أخرى ، فكان آل فضل في صراع دائم مع آل مرة ولم يصرح لاحد من اهل هذا البت بامرة على العرب بتقليد من السلطان الا من أيام العادل أخي السلطان صلاح الدين (١) . ويظهر ان آل فضل قدموا للحكام الايوبيين مساعدات كبيرة حتى تمت لهم الزعامة والغلبة على سائر قبائل الشام . كما أنه من الثابت لدينا أن أمير آل فضل الشيخ عيسى بن ربيعة كان يصحب الملك العادل بجموعه الكثيرة ، وقد نزل معه بمرج دمشق ، واستمر على ولائه للايوبيين مدى حياته .

خلفه ابنه حسام الدين مانع ، وبقي حتى توفي سنة ٦٣٠ هـ فقام ابنه مهنا بن مانع . ويظهر ان اعراب الشام وعلى رأسهم آل فضل أسهموا في طرد النار وكسرهم في عين جالوت ، ولذلك نرى قطز ينزع سلمبة من المنصور بن المظفر صاحب حماة ، ويفطعها لها اعترافاً له بفضلها .

ولى الظاهر بيبرس بعد موته ابنه عيسى ليكون خلفاً له حتى وفاته ٦٨٤ هـ . كما عين المنصور قلاوون ابنه مهنا بن عيسى ، وبقي أميراً على آل فضل حتى سنة ٧٣٤ هـ (٢) .

(١) ابن نوري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٣٦٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ و ١٦٠ ، ١٦١ .

آل مرة

كانوا ينازعون آل فضل الزعامة على العرب غير ان آل فضل استظهروا بالايوبيين عليهم ، فوالوهم على أحياء العرب جميعاً . ترك آل مرة مشاتيهم ، وانتقلوا الى حدود الشام قريباً من الجبال والتلال ، « وكان بينهم من تفارق العرب مندرجون في لفيفهم وخلفهم من ملحج وعامر وزبيد » . غير أن أكثر من كان مع آل مرة من أولئك الأحياء ، وأوفرهم عدداً بنو حارثة ، وهؤلاء كانوا يتنقلون في هذا العهد في نلال الشام لا يتجاوزونها الى القفار (١) .

آل عقبة

وهم عرب من البلقاء وحسبان والكرك إلى تخوم الحجاز ، وأشهر رؤسائهم الأمير بدر الدين شطي بن عبية ، وكان أثيراً لدى السلاطين ومقدماتاً عندهم ، حتى إن الملك الناصر كان يخلع عليه الأطلس الأحمر والطرز المزرکش (٢) .

لم تكن حياة الأعراب مستقرة لأنها صورة خالدة عن الرحيل الدائم للتفتيش عن مساقط الغيث ، وكثيراً ما كانت تحدث عندهم المجاعات في السنين الجندب ، وتقذف بهم في غزوات دائمة حفظاً لبقائهم . وصف أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار في معرض حديثه عن مهمة حربية قام بها لدى نور الدين من قبل وزير الخليفة الفاطمي الظاهر الملقب بالملك العادل سيف الدين على بن السلار ، إحدى القبائل الطائية من بني أُمّ شاهدها في طريقه و « قد يبست جلودهم على عظامهم لا يأكلون إلا الميتة (٣) » . ذكر السبكي أن كثيراً منهم لا يتزوج بعقد شرعي ، « ومن قبائحهم أنهم لا يورثون البنات ولا يمتنعون الزنى (٤) » .

(١) المصدر السابق ، ج ١ و ١٦٠ .

(٢) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٣ و ٧٢ .

(٣) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٢ .

(٤) السبكي : معبد النعم ومبيد النقم ، ص ٥٥ .

(٥)

أهل الذمة

أهل الكتاب المعاهدون ، من نصارى ويهود ، ولكل منهما فئاته الدينية الخاصة ، وكانوا يعيشون مع المسلمين في حصونهم وقلاعهم ، يحتمون بهم من غارات الأعداء ، وعليهم تأدية الجزية . استدللت على هذا مما ذكره ابن واصل عن نور الدين : « وكان يرسم نفقته الخاصة في كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطاس مصرية (١) » ، لكنهم في بعض الأحيان كانوا يفضلون التجمع في أحساء خاصة لكونهم أقلية بين المسلمين ، أو كانوا يقيمون في قرى خاصة بهم .

أشار ابن جبير إلى ذلك في القرن السادس الهجري في معرض حديثه عن مدينة دنيسر ، فلذكر بعد مفادته لها مروره على قرية كبيرة « تعرف بتل عقاب هي للنصارى المعاهدين الذميين (٢) » .

عامل الزنكيون أهل الذمة خير معاملة ، ولم يعرف عنهم أنهم أساءوا معاملتهم إلا ما عرف عن القائد السركي صلاح الدين الباغسباني الذي كان يظلم الناس جميعاً مسلمين وغيرهم ، فقد أثر عنه أنه سبى النصارى واليهود نساء وصبياناً في بعض الحصون التي استعادها جنده بعد أن أجهز على من فيه من المسلمين (٣) .

كما كانت الفتوح عاملاً هاماً من عوامل دخول كثير منهم في الحكم الإسلامي ووقوع كثير من بلادهم تحت حمايتهم .

نهج السلاطين الأيوبيون نهج أسلافهم في التسامح ، فعرف عن صلاح الدين أنه أدخل كثيراً من أهل الذمة في خدمته ، واتبع خلفاؤه من بعده

(١) ابن واصل : مفرح الكروب ، ج ٢ ص ٢٨٤ .

(٢) رحله ابن جبير ، ص ١٩٤ .

(٣) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٥٨ .

سبيله ، ذكر أن الصالح إسماعيل سير وزيره السامري الغالب على الذي
اسلم إلى الخليفة ببغداد ليشفع له في الصلح بينه وبين ابن أخيه سنة ٦٤٣ هـ
غير أن الخليفة رفض سفارته (١) .

تمتع أهل الذمة بحريتهم الدينية الكاملة ، فكانوا يؤدون صلواتهم ،
ويقومون بإجراء الطقوس الدينية في أعيادهم الخاصة (٢) .

تحدث ابن واصل عن سبت النور ، وذكر أنه كان للمسلمين أيام
الملك المعظم شرف الدين عيسى ديوان خاص على باب كنيسة القيامة يجبي
من كل زائر القطيعة المقررة (٣) .

أما في عصر سلاطين المماليك فقد لقي المعاهدون تضييقاً عليهم ، وسوءاً
في معاملتهم فحرم عليهم العمل في الدواوين ، وصرفوا عنها بمرسوم السلطان
النصور قلاوون سنة ٦٨٩ هـ . كما أمروا بتصفير عمائمهم ، فلا تتجاوز
سبعة أذرع أو عشرة ، على أن تكون عمائم النصاري زرقاً ، وعمائم اليهود
صفراً ، وعمائم السامريين حمراً .

يضاف إلى ذلك أنهم منعوا من ركوب الخيل والبغال ، ومن قرع
النواقيس ، وسبب ما حل بهم أن أحد المغاربة المتعصبين جلس بباب
القلعة ، فدخل بعض كتاب الديوان بعمائمهم البيض فأكثر المغربي من
توقيرهم واحترامهم ظناً منه أنهم من المسلمين ، وعندما علم أنهم من أهل
الذمة دخل على الناصر محمد ، وارتأى عليه تغيير زيهم لينميزوا عن
المسلمين (٤) .

أحدثت هذه المعاملة رد فعل لديهم وبخاصة في عهد بعض السلاطين
المتعصبين . روي عن الظاهر أنه عندما كان على الطور أرسل عسكرياً ،

(١) ابن الوردي : تمة المختصر ، ج ٢ ص ١٧٥ .

(٢) أسامة بن منقذ : المعصا ، وهو منشور في الكتاب الذي ألفه المستشرق هارنويغ
دورنبرغ عن أسامة في مجلدين (ج ٢ ص ٤٩٨) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٤) الصفدي : أمان العصر (مخطوط) ج ٦ و ٢٣٥ ، وابن إياس : بدائع الزهور ،
ج ١ ص ١٤٣ ، والسيوطي : حسن الحاضرة ، ج ٢ ص ١٧٩ .

فهدموا كنيسة الناصرة (١) ، وفي دمشق هدمت في درب الفواخير حتى اليهود . كنيسة القرابين ، على الرغم من أنهم اعترضوا لدى القضاة لأنها قدمة لا يجوز هدمها (٢) .

قابل أهل الدمة ذلك بالكيد للمسلمين ، فأحرقوا خفية بعض الأكنة المقدسة ، واختطف نصارى قارا بعض المسلمين ، وباعوهم للفرجة سراً ، فبلغ الظاهر فعلهم ، فنزل فارا ، وأخذ صبيانهم ممالك ، وبعث بهم إلى مصر ليربوا هناك ، فصار منهم أمراء وأجناد (٣) .

ابتهج أهل الدمة بدخول النصارى إلى بلاد الشام ٦٥٨ هـ ، فلما احتل هولاء حلب ، وأمعن فيها قتلاً ونخرياً ، نادى بالأمان ، ولم يسلم منهم إلا من التجأ إلى ستة أماكن أحدها كنيسة اليهود (٤) .

أما في دمشق فقد رحبوا بقدمهم ، وشرعوا يدقون النواقيس ، وأدخلوا الخمر إلى المسجد الجامع (٥) ، فلما خرجوا منها ، وأقبلت النجيدات من سحر أوقع المسلمون بهم وخربوا كنيسة اليعاقبة ، وأحرقوا كنيسة مريم وهي كبرى كنائسهم .

أما اليهود فلم يؤذوا المسلمين خلال هذه المحنة ولم يظاهروا التنازل عنهم . فضل بعض أهل الدمة في عصر سلاطين المماليك اعتناق الإسلام رغبة في العودة إلى مناصبهم في الدواوين ، وتخلصاً من هذا الضيق . نذكر منهم دنان اليهود الطبيب الكحال عبد السيد بن المذهب (٦) .

مهما يكن من أمر هذه الحوادث العارضة فمما لا شك فيه أن المسلمين كانوا يحسنون معاملتهم ، ويدافعون عنهم ، وقد ورد في الرسالة القبرصية التي بعث بها ابن تيمية إلى سرجواز ملك قبرص ما يؤكد ذلك وقد أشار فيها إلى أنه خاطب قائد التار غازان ونائبه قطلوشاه في إطلاق سراح جميع من معهم من اليهود والنصارى ، وبين له رحمة المسلمين لما في أيديهم من السبي ، كما أوصى النبي الكريم (٧) .

(١) ابن الوردي : تمة المختصر ، ج ٢ ص ٢١٦ .

(٢) ابن الوردي : تمة المختصر ، ج ٢ ص ٢١٨ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢١٨ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٠٣ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٠٦ .

(٦) الصفي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٢ و ٢٦٣ .

(٧) البيطار : حياة شيخ الإسلام ابن تيمية ، ص ١٩١ .

القِسْمُ الثَّانِي

الحياة الدينية

لا شك أن الديانات تحتل مكانتها الرئيسية في حياة الأمم والجماعات الإنسانية منذ أقدم العصور ، ولكل أمة عقائدها الخاصة ، تتفاعل مع الأيام والأقوام بين مد وجزر وتضييق . وكلما أخذت نصيباً أوفى من الحضارة كثر التفاعل الديني ، واحتدم الجدل مع أرباب الحكمة والفلسفات ، وذلك إما سعياً وراء الجمع بينهما ، وهذا بالطبع أمر مستحيل ، وإما لتكييف العقائد الدينية مع المظاهر الحضارية المستجدة . ويبقى هذا الصراع الأزلي مع جماعة المصلحين والمتحررين ، بله صراعها مع الإلحاد والزنادقة الذين يبدوون حيث ينتهى دور الدين في هذا المجال .

وعلى ضوء ما قدمناه نجد في بلاد الشام مظاهر دينية متباينة الاتجاهات ، تتوضح لنا في المذاهب السنية الأربعة ، والمذاهب الشيعية المختلفة . ومن خلال ذلك يتدفق تيار جارف من التصوف . فلا عجب إن رأينا في هذا البحران الديني طائفة من رجال الدين المصلحين ، هم الثمرات الياقوتية التي أبدعها هذا العصر .

(١)

المذاهب السنية

حكم السلاجقة بلاد الشام في أواخر القرن الخامس ومستهل القرن السادس الهجريين ، وكانوا في الحقيقة يمثلون سلطة الخلافة العباسية ، إذ كان الدعاء والخطبة للخليفة الذي « حصل له خلافة الله في أرضه (١) » .

لم يستطع السلاجقة حفظ البلاد ، فتخلى تنس عن بيت المقدس ، وأقطعه للأمير أرناق ، ومن بعده لولديه إيلغازي وسقمان ، واستطاع الفاطميون أخذه منه بالأمان سنة ٤٨٩ هـ .

طمع الفرنج ببيت المقدس حلمهم القديم ، فحاصروه خمسة وأربعين يوماً ، وملكوه في النهر المبارك لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢ هـ ، واستنحر القتال ، أسبوعاً كاملاً ، فاحتفى الناس بالمسجد الأقصى الذي بارك الله حوله ، فقتلوا فيه نيفاً وسبعين ألفاً من الذين اعتصموا ببيت الله الحرام فلم يرعوا حرمة إنسان ، وفتكوا بالأئمة والعلماء والزهاد ممن احب المجاورة لشرف الموضع (٢) .

تلك هي حال الدين في جنوب الشام ، وأما في شماله فليس الأمر بأحسن ، إذ أن الملك السلجوقي رضوان بن تتش صاحب حلب ، اعتمد على الشيعة في توطيد حكمه وتسيير أموره . استمر هذا الوضع طوال حياته ، فلما توفي ملك بعده ابنه ألب أرسلان ، وهو في السادسة عشرة من عمره فتحكم لؤلؤ الخادم فأبعد الشيعة عن الحكم وأمر بنهب بيوتهم وبذلك تعود الأمور سيرتها الأولى .

هكذا كان الوضع الديني في هذه الفترة صراعاً بين العقائد المختلفة فالشيعة يزدادون عدداً ، أكثر من السنيين (٣) الذين كانوا يحاولون الإبقاء على وجودهم أمام هذا التيار الجارف من التشيع بمختلف مذاهبه .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٧٠ .

(٢) ابن الوردي : تمة المختصر ، ح ٢ ص ١١ ،

(٣) رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٩ .

قام الزنكيون بعد ذلك ، واستطاعوا تطهير معظم البلاد المحتلة من الفرنجة ، وأحيوا المذاهب السنية بعامة ونصروا المذهب الحنفي بخاصة وجعلوه مذهب دولتهم الرسمي ، فلما تسلم عماد الدين المعرة من الفرنجة سنة ٥٣٩ هـ بعد انحلال دام نصف قرن من الزمن ، جاءه المعريون يطلبون إليه تسليم أملاكهم ، فاستفتى عماد الدين الفقهاء ، فأفتوه بما نص عليه المذهب الحنفي : وهو أن الكفار إذا استولوا على بلد وفيه أملاك للمسلمين ، خرجت تلك الأملاك من ملك أصحابها ، بصيرورة البلد دار حرب ، فإذا عاد البلد بعد ذلك إلى المسلمين كانت تلك الأملاك لبيت المال (١) .

رفض عماد الدين فتوى الفقهاء ، وأرجع كل أرض إلى صاحبها إذا أتى بكتاب يثبت أنه مالك الأرض . واستفتى مرة أخرى الفقهاء في الغدر ببهاء الدين سونج صاحب حماة والقبض عليه عندما حسن له ذلك صمصام الدولة خترخان بن قراجا صاحب حمص ، فأفتوه بذلك لكن ابن واصل انتقد هذه الفتوى وذكر أن من افتاه لا دين له (٢) .

أما ابنه نور الدين فقد عرف عنه أنه كان ضليعا في الفقه على المذهب الحنفي ، وكان ملوك الزنكيين جميعا يدينون بهذا المذهب إلا واحدا منهم ، كان على المذهب الشافعي وهو نور الدين أرسلان شاه (٣) .

يظهر لنا أنهم فضلوا وجود قاضي قضاة واحد في بلاد الشام ، فاخترأوا كمال الدين الشهرزوري لتولي هذا المنصب ، كما أسندت إليه بالإضافة إلى ذلك أمور الديوان والوزارة ، وعلق عليه تنفيذ الأحكام .

ناب عنه في القضاء بحلب ابنه القاضي محيي الدين أبو حامد محمد ، وأسندت إليه أيضا أمور النظر في الديوان . وناب عنه في حماة وحمص قاضيان من بني الشهرزوري ، هما حاكمان متحكما .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٣) ابن الوردي : تمة المختصر ، ج ٢ ص ١٣٠ ، ١٣١ .

يتبين لنا مما سبق ذكره أن للدولة مذهباً واحداً ، يمثلها قاضي القضاة الأعلى يقوم بأمور القضاء والديوان معاً ، ويمثله نواب في باقي البلاد .

أما في العصر الأيوبي فقد سطر المذهب الشافعي ، فالمعروف عن صلاح الدين ، أنه شافعي متعصب ، وكان الملوك الأيوبيون جميعاً شافعية إلا الملك المعظم عيسى فكان حنفيّاً (١) ، وأول عمل قام به صلاح الدين هو تطهير البلاد من طوائف الشيعة الفاطميين وغيرهم بعد المؤامرة الكبرى التي حيك ضدّه سنة ٥٦٩ هـ المار ذكرها . وقد قتل القاضي العويرس والقاضي عبد الله بن هبة وغيرهما من الفاطميين (٢) . ثم رتب بعد ذلك قضاة شافعية ، واشترى ابن أخيه نقي الدين منازل المعز ، وجعلها مدرسة للشافعية .

أصبح المذهب الشافعي مذهب الدولة الرسمي بعد القضاء على المذهب الفاطمي ، وقد تميز القاضي الشافعي بمميزات خاصة ، فكان يلبس الطرحة في المواكب الرسمية والدينية كما أنه كان القاضي الوحيد الموكل بالخطابة والصلاة بالسلطان (٣) .

أما في بلاد الشام فقد أبقي كل شيء على وضعه ، فأقر كمال الدين قاضي القضاء الحنفي على عمله لأنه لم يشأ سلبه المنزلة التي كان عليها أبام مولاه نور الدين ، ولا سيما أنه قدم له المساعدة للعودة إلى بلاد الشام وحكمها بعد اختلال أمر الملك الصالح .

يمضى كمال الدين إلى ربه ويقع صلاح الدين في مأزق حرج بعد أن ولي ابن أخيه ضياء الدين القضاء قبيل موته ، وأوصى له به ، كان في نفس السلطان أمر ، فهو شافعي يريد أن يوحد مذهب الدولة في إقليمها الكبيرين على السواء . أفضى بسرّه إلى قاضيه الفاضل واستنارده في أمره

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٤٤ .

(٢) ابن حجر : رفع الاسر (مخطوط) و ١٣٦ .

(٣) ابن تفردي : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ٢٦٥ .

فوافقه على ذلك ، وأشار على القاضي ضياء الدين بالاستعفاء من منصبه بناء على رغبة السلطان ، وأقيمت له الوكالة الشرعية عنه في بيع املاكه (١) .

اما نواب كمال الدين من آل الشهرزوري وغيرهم فلم يبق منهم غير القاضي الأوحيد داود ، فأقره السلطان على عمله ، وطلب من شرف الدين قاضي القضاة الجديد الذي عينه أن يستنيب عنه نائباً آخر يرغبه هو القاضي محيي الدين محمد بن الزكي ، وكتب لهذين النابيين توقيعاً سلطانياً (٢) .

استمر شرف الدين على قضاء الشام حتى سنة ٥٧٢ هـ ، فلما عاد من مصر في هذا العام ، سمع حديث الناس عن ذهاب بصره ، ورأى النقاش محتدماً بين الفقهاء حول جواز قضاء الأعمى أو عدمه ، ذاك أن بعضهم يذهب إلى أن الأعمى لا يصلح إطلاقاً لولاية القضاء .

دافع شرف الدين عن نفسه وصنف جزءاً في جواز قضاء الأعمى ، ورد فيه على اعتراض الفقهاء ، إذ لا يمتنع أن يعتمد على تعريف عدلين بمن يحضر من الخصوم ، كما في المترجمين بالنسبة للقاضي الأصم .

كان السلطان في حيرة من أمره ، فالفقهاء كلهم في جانب لا يجوزون قضاء شرف الدين وهو في طرف آخر يفني مجيزاً قضاءه ، ورأى أن يستشير القاضي الفاضل ، وهو بمصر ، فأعلمه خبر قاضي قضائه ، وذكر له لفظ فقهاء الشام بما حصل له من العمى ، وطلب منه أن يجتمع بالشيخ أبي طاهر بن عوف الإسكندراني ، ويسأله عما ورد من الأحاديث في قضاء الأعمى ، وهل يجوز أم لا (٣) ؟

ارتأى القاضي الفاضل عليه حلاً وسطاً ، ففوض القضاء إلى ولده محيي الدين أبي حامد محمد ، ويكون هو الحاكم الفعلي في الحقيقة ، ويظهر أنه نائب عن أبيه ، بحيث لا يظهر للناس صرفه عن القضاء . أخذ

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٥٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥١ .

السلطان براي قاضيه ، فأبقي في منصبه حتى سنة ٥٨٧ هـ وصرف عنه بنائبه محيي الدين بن زكى الدين الذي استمر عليه إلى آخر أيام صلاح الدين (١) .

وقد مر معنا أنه حرر بيت المقدس وأقام المنبر النوري في المسجد الأقصى في يوم أغرّ مشهود أقيمت فيه الخطبة والدعوة للخليفة العباسي بعد انقطاعها إحدى وتسعين سنة .

لم يكتف بما حققه . بل راسل ملك الروم وطلب منه إقامة الخطبة في جامع القسطنطينية وهو الجامع الذي شيد أركانه في العصر الأموي ، فلبى طلبه وسمح للمراكب الإسلامية الإبحار حاملة معها منبر الخطبة ، وبضم هذا الموكب الخطيب والقراء والمؤذنين ، فوصلوها ودخلوها وكان ذلك يوماً مشهوداً عند المسلمين هناك ، إذ اجتمع كثيرون من تجارهم والمقيمين منهم ، فرقي الخطيب المنبر ، وأقام الدعوة العباسية سنة ٥٨٥ هـ بعد إبطالها زمناً (٢) .

احتل التتار بغداد وقتل الخليفة العباسي ، وقد حاول سلاطين المماليك إحياء الخلافة العباسية في القاهرة ليستمدوا منها سلطتهم ويدعموا بها حكمهم .

حدث ذلك مرتين : المرة الأولى كانت عندما دخل مصر جماعة من العرب سنة ٦٥٩ هـ ، ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد ، ذكر أنه خرج من دار الخلافة حين ملكها التتار ، فعقد له الظاهر مجلساً ضم الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، والقاضي تاج الدين عبد الوهاب المعروف بابن بنت الأعز ، وشهد من معه من العرب أنه ابن الإمام الظاهر محمد بن الناصر ، فيكون على هذا النسب عم الخليفة المستعصم . أثبت القاضي صحة هذا النسب وبويع صاحبه بالخلافة ، ولقب بالمستنصر بالله أبي القاسم أحمد ابن الظاهر بالله محمد . بايعه الناس بعد مبايعة السلطان الظاهر بيبرس ،

(١) المصدر السابق، ج ٢ ص ٥١ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١١٥ ، ١١٦ ، وابن واصل : مغرر الكروب

ج ٢ ص ٣١٨ .

وجهن له ما يحتاج اليه وأنشأ له عسكرياً ، وأنفق عليه مبلغاً كبيراً من المال . غادر الخليفة والظاهر القاهرة ، وتوجها معاً إلى دمشق ، فنزل الظاهر بالقلعة ، والخليفة بجبل الصالحية ، غير أنه أبدى رغبته في التوجه الى بغداد واسترجاعها من أيدي التتار فودعه الظاهر ، وما هي الا فترة قصيرة من الزمن حتى وافت وفود الخليفة وكتبه تبشر بفتح عانة والحديثة ، وتشير إلى بدء توجهه الى بغداد . برزت اليه جيوش التتار ، فقتلته وأبادت أصحابه ونهبت ما معه (١) .

وأما المرة الثانية فكانت بعد عام واحد إذ حضر إلى القاهرة شخص آخر من احفاد خلفاء العباسيين ، اسمه أيضاً أحمد ، فاثبت صحة نسبه وبإيعه الظاهر أيضاً بالخلافة وتبعه القضاة والامراء ، ولقب بالحاكم بأمر الله أمير المؤمنين .

لم يسمح في هذه المرة للخليفة الجديد بمغادرة القاهرة كما حصل لسابقه وإنما ابقى في برج خاص محترزاً عليه ، لم يترك له من السلطة غير الخطبة باسمه والدعاء له .

أوضح السيوطي أهمية بعث الخلافة العباسية ، فذكر أن مصر حين سارت دار الخلافة عظم أمرها ، وكثرت شعائر الاسلام فيها ، وعلت فيها السنة وعفت فيها البدعة ، وصارت محل سكن العلماء ومحط الرجال الفضلاء (٢) .

لم يعتمد المماليك بعد بعث الخلافة على المذهب الشافعي كما كان الحال ، فلقد ساءهم استفحال نفوذ قضاته على كثير من أمورهم ، ووقوفهم أمام رغائبهم وأغراضهم .

حدث ذلك سنة ٦٦٥ هـ عندما عزل الظاهر قاضي القضاة الشافعي برهان الدين السنجاري ، وأعاد القاضي عبد الوهاب ابن بنت الأعز ، وطلب منه أن يستنبط عنه ثلاثة قضاة من المذاهب الثلاثة الاخرى ، اولهم يمثل

(١) ابن الوردي : تمة المحضر ، ج ٢ ص ٢١٢ .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٦٥ .

المذهب الحنفي ، وهو صدر الدين بن سليمان ، وثانيهم يمثل المذهب المالكي ، وهو نرف الدين عمر بن السبكي ، وثالثهم يمثل المذهب الحنبلي ، وهو شمس الدين محمد بن ابراهيم (١) .

شفع الظاهر هذه الخطوة بأخرى ، توخى فيها أن يجعل للمذاهب السنية الثلاثة كيانه خاصا بها ، فأدى هذا الامر الى تعدد القضاة بالاضافه الى القاضي الشافعي .

كانت العداوة مستحكمة بين الامير جمال الدين اندغدي العريزي ، والقاضي ناج الدين ابن بنت الاعز ، وكان هذا الامير يحط من قدر القاضي لتسودده في الاحكام ، وتوقفه في كثير من القضايا التي لا توافق مذهبه ، او تتنافى مع الشرع . حدث ذات مرة في مجلس السلطان نقاش حاد ، وتنافر بين الامير والقاضي بسبب قصة ظلامة رفعتها بنات الملك الناصر ، وفي ختام المجلس اعلن الامر ان القاضي يمثل المذهب الشافعي فقط . وطلب أن يعين من كل مذهب قاضياً . تبني السلطان رأي الامير ، فجعل من كانوا نواباً للقاضي الشافعي قضاة مستقلين (٢) .

أما في بلاد الشام فقد سحب الظاهر معه القاضي شمس الدين بن خلكان سنة ٦٥٩ هـ وولاه قضاء البلاد بعد عزل ابن سني الدولة الذي عينه من قبل مولاه قطز ، وبقي في بدء ولايته القضاء منفرداً ، فلما صدرت مراسيم السلطان فيما بعد باستنابة ثلاثة قضاة من المذاهب الاخرى ، ثم باستقلال كل قاض ، طبق الامر نفسه بعد عام واحد في دمشق (٣) ، حينما وردت مراسيم السلطان ، ونصت على أن يكون بدمشق أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة وصدرت ثلاثة تقاليد لشمس الدين عبد الله بن محمد بن عطاء الحنفي ،

(١) القريري : السلوك ، ج ١ ص ٧١ ، والسيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٩٩ .

(٢) القريري : السلوك ، ج ١ ص ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، والسيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢

ص ٩٩ ، ١٠٠ ، وابن بيري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٢١ ، ١٢٢ ، ٢١٨ .

(٣) النعمي : المدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ص ١١ ، وان الوردني : شعبة

المختصر ، ج ٢ ص ٢١٧ .

ولزين الدين عبد السلام الزواوي المالكي ، ولشمس الدين عبد الرحمن الحنبلي ، وكانوا من قبل نواباً لقاضي القضاة الشافعي شمس الدين بن خلكان .

امتنع القاضي المالكي عن ولاية القضاء ، فأنزم حتى قبل ، عزل نفسه ، فأنزم بها ثانية : فقبل بشرط الا يباشر أوقافاً ، ولا يأخذ جامكية على الحكم فأجيب الى طلبه . وامتنع كذلك القاضي الحنبلي شمس الدين عبد الرحمن عن قبول أجر على احكامه ، فأعفي من ذلك (١) .

حاول الظاهر بيبرس بعد هذه الخطوة الجريئة القضاء على كل الطوائف الدينية الاخرى عدا المذاهب الاربعة المذكورة ، فأمر سنة ٦٦٥ هـ الا يؤلى قاض ، ولا تقبل شهادة احد ، ولا يرنح للخطابة او الامامة من لم يكن مقلداً لاحد هذه المذاهب (٢) .

اشتد الصراع بين المذاهب المذكورة للحد من هيمنة ارباب المذهب الشافعي على القضاء ، وسلبهم زعامتهم الدينية التي كانت لهم في دولة الايوبيين اذ كانوا يعتقدون ان الحكم في مصر والشام لا يستقيم اذا كان السلطان غير شافعي . وضح السيوطي ذلك وذكر ان " أهل التجربة من أتباع المذهب الشافعي يعتقدون أن الاقاليم الشامية والمصرية والحجازية متى كان البلد فيها لغيرهم خرب ودثر ، ومتى قدم سلطانها غير اصحاب الشافعي زالت دولته سريعاً ، وكان هذا السر جعله الله في هذه البلاد كما جعله لمالك في المغرب ولابي حنيفة فيما وراء النهر (٣) . يعتقد أهل التجربة منهم أيضاً أن كل حاكم يتولى العرش ولا يكون شافعيًا فإنه سيقتل سريعاً ، ويسندلون على ذلك أن كل سلاطين المماليك كانوا من أتباع المذهب الشافعي إلا قطر فكان حنفيًا ، ومكث يسيراً وقتل بعد ذلك ، غير أن الواقع التاريخي يثبت أن جل

(١) النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ص ١١ ، ١٢ ، وابو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

(٢) الفريري : الخطط ، ج ٢ ص ١٠٠ .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٤ ص ١٦٦ .

سلاطينهم قتلوا أو خنقوا أو أفرقوا أو أحرقوا ، وندر منهم من مات حتف أنفه . و يرون أن من سعادتهم أن يكون جميع المبعوثين على رأس كل مائة سنة ممن يجدد دين الاسلام هم من الشافعية ، رأسهم عمر بن عبد العزيز في الفرع الاول ، وهو ليس بشافعي ، وخامهم بقى الدين بن دحيق العيسد في القرن السابع (١) .

هكذا تنبعنا مذاهب الطبقة الحاكمة وموقفها من المذاهب الاخرى ، ولعلنا نستطيع توضيح انتشارها عن طريق المدارس ففي دمشق في عهد صلاح الدين كان عدد مدارس القرآن السريفة سبعة والحديث بمانى عشرة والشافعية سبعة وخمسين ، والحنفية إحدى وخمسين ، والحنابلة عشرة ، والمالكية أربعة ، والطيبه ثلاثاً (٢) .

(١)

طوائف الشيعة

عرف الاقدمون الشيعة أنهم الذين شايعوا علماً على وجه الخصوص ، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية ، واعتقدوا أن الخلافة لا تخرج عن اولاده إلا لظلم أو تقيّة من عنده . غير أنهم اختلفوا في تعدية الامامة بعد وفاة زين العابدين علي بن الحسين لاختلاف ولديه زيد ومحمد الباقر . رفض شيعة الكوفة إمارة زيد وسموا رافضة ، ودعواهم في ذلك أنه تتلمذ على واصل بن عطاء إمام المعتزلة الذي كان يعتقد أن أحد الفريقين علماً أو معاوية كان على خطأ ، فهم لا يجوزون أخذه العلم ممن يجوز الخطأ على جده .

أما الشيعة الامامية فقد سافوا الامامة إلى جعفر الصادق بعد أبيه محمد الباقر غير أن خلافاً خطيراً وانقساماً كبيراً وقع بعد موت جعفر إذا

(١) الصدي : أعيان العصر (محطوط) ج ٦ و ٨٢ ، ٨٣ .

(٢) انظر حقائق تاريخية من دمشق في محاضرات المجمع العلمي العربي ص ١٤٠ - ١٦٧ .

خلف ستة اولاد ، اشتهر اسماعيل وهو أكبرهم وموسى الكاظم ، فالذين ساقوا الامامة في أبناء اسماعيل سمووا الاسماعيلية السبعية ، والذين ساقوها في أبناء موسى سمووا الامامية الاثنى عشرية .

ظهرت الشيعة في بعض بلاد الشام كغيرها من العالم الاسلامي ففي كتاب (الروضة والفضائل) لتساذان بن جبرائيل القمي رواية مسندة الى عمار بن ياسر وزيد بن ارقم تدل على انه كان في زمن الخليفة علي قرية في الشام عند جبل التشيخ تسمى (اسعار) ، وأهلها من الشيعة (١) .

يؤكد هذه الرواية كثرة الشيعة في جبل عامل ، وهم يعتقدون ان الذي هداهم إلى ذلك هو أبو ذر الغفاري صاحب علي ، حينما سيره إلى بلاد الشام ، وحجنتهم في ذلك أن هذا الامر متواتر بينهم سلفاً عن خلف . ومما يجعلنا نؤمن بذلك وجود مزارين لابي ذر في المكان نفسه . ففي قرية (الصرْفند) بين صيدا وصور مقام معروف باسمه ، وفي قرية (ميس) له مقام آخر .

لم يستطع الامويون الحيلولة دون انتشار التشيع ، ولعل هذه الكثرة القريبة من مشاهد أهل البيت دلالة واضحة على ما نذهب اليه ، وقد وصف لنا ابن جبير بعض هذه المعالم ، فذكر لنا أنهم احتفلوا في البناء عليها، ووقفوا لها الأوقاف الوفيرة ، وقد ذكر هذا المشهد المنسوب إلى علي في دمشق وقد بني عليه مسجد جميل رائع البناء ، وفي محرابه حجر عظيم ، شق نصفين ، وقد زعم الشيعة أنه انشق لعليّ إما لأمر من الأمور الالهية ، وإما لضربة بسيفه . وذكر منها أيضاً المشهد المنسوب إلى أم كلثوم ، ويقع هذا المشهد على بعد فرسخ من قرية تدعى راوية ، وقد بني عليه مسجد كبير . وذكر منها أيضاً مسجداً لسكينة بنت الحسين ، وقيل إنه لسكينة أخرى من أهل البيت . وذكر أنه توجد مقبرة خاصة بقبورهم ، تقع غربي البلد ، وفيها مسجد ضم قبرين لاثنيين من ولد الحسن والحسين (٢) .

(١) كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ص ٢٥٢ .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

لا عجب بعد كل ذلك إن اتخذت بلاد الشام دار دعوة ، وكان وجودها فيها عاملاً من عوامل بقائها واستمرارها بعيداً عن أعين الخلفاء ، ولا سيما في دور الستر للأئمة الإسماعيلية . وجدر بالذكر أن الامام المستور محمد ابن اسماعيل هرب من دماوند ، واخفى في ندمر سنة ١٩١ هـ ، فأصبحت هذه المدينة المنعزلة في قلب بادية الشام مركزاً هاماً للدعوة الشيعية ، وترع يبعث بدعائه إلى الاطراف المختلفة ، نذكر منهم الداعين المشهورين أبا سفيان والحواني اللذين أرسلهما إلى المغرب .

ومما هو بابت أيضاً أن امامين مستورين آخرين من أئمة الدعوة كانا يقيمان في سلمية من أعمال حماة ببلاد الشام ، ويوجهان الدعوة منها إلى كل مكان ، وهما الامام المستور عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الملفب بالرضي ، وابنه الامام المستور احمد بن عبد الله الملقب بالنقي ، وقد توفيا وقبرا فيها . فلما ظهر أمر الخلافة الفاطمية بمصر تم نقل فبريها إلى القاهرة (١) .

نخلص من كل ما مر بنا إلى أن نذكر أن الشيعة كانت منتشرة في بلاد الشام منذ عهد الاسلام الأولى ، وكانت في صراع مع المذاهب السنية لتحفظ بقاءها . فالمعروف أن المذهب الحنفي كان سائداً في حلب ، والشيعة فيها قلة ، فلما قدم الشريف أبو ابراهيم نغير الوضع ، فازدادت الشيعة عدداً ، وحصلت لها الفلبة بعد ذلك عندما قامت الدولة الحمدانية في حلب ودمشق والموصل والعواسم ، فتأصلت جذورها وبسقت فروعها ، فكان الأذان بـ « حي على خير العمل » ، وكانت الدعوة للأئمة الاثنى عشرية ، وكانت اسمائهم منقوشة على جدار صحن المدفن في سفح جبل جوشن بحلب الشهباء (٢) .

حاول السلاجقة استئصال شأفهم ، لكنهم أخفقوا في مسعاهم ، ففى وقت كان البلاد تجابه أخطاراً كبرى تهدد وجودها . وما لبث الفاطميون

(١) كتاب الازهار للداعي حس بن بوح الهدي البهروجي ، وقد نشره الدكتور عادل عوا في (منتخبات إسماعيلية) ص ٢٢٥ .

(٢) كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ص ٢٥٢ .

ان حلوا محل السلاجقة ، فعين الحاكم بأمره ولي عهده على بلاد الشام .
لا عجب إن انتشرت الطوائف الشيعية انتشاراً اقلق الرحالة ابن جبير
حينما زارها سنة ٥٨٠ هـ ، فلما دخل منبج شعر بالاطمئنان لان أهلها
« سنيون شافعيون ، وهي مطهرة بهم من أهل المذاهب المنحرفة والعقائد
الفاسدة ، كما تجده في الاكثر من هذه البلاد (١) » .

أما هذه المذاهب التي ألمح اليها والمنتشرة في الاكثر من هذه البلاد
فقد ذكرها في معرض حديثه عن مشاهد آل انبئيت : « وللشيعية في هذه
البلاد أمور عجيبة ، وهم أكثر من السنيين بها ، وقد عموا البلاد بمذاهبهم
وهم فرق شتى : منهم الرافضة ، ومنهم الامامية والزيدية ، ومنهم الاسماعيلية
والنصيرية ، ومنهم الفرابية ، إلى فرق كثيرة يضيق عنهم الاحصاء (٢) » .
تلك هي صورة عابرة عن التشيع في بلاد الشام ، وتكتفي بالإشارة
هنا إلى الطوائف الثلاث الاسماعيلية والنصيرية والدرزية ، فقد كان لها أثر
في الحياة السياسية والدينية والفكرية .

فرق المتصوفة

ازدهر التصوف في هذين القرنين ، وتطور تطوراً خطيراً أخرجه عن
حدود الدين وما دمننا في معرض الحديث عن الحياة الدينية ، فحري بنا
أن نجلي هذا المظهر الدينى الهام ، ولا سيما أننا نلمح في أدبنا ما يشعرنا
بطفيان هذه الموجة العارمة من التصوف الذي شمل حتى بعض السلاطين
وكثيراً من العلماء الذين أيدوه ، ونظروا إلى فقرائه نظرة إجلال واحترام ،
ونسبوا إليهم الخوارق مما لا يقبله عقل أو يقره دين . وقد أعجب بهم

(١) المصدر السابق ، ج ٦ ص ٢٥٨ .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٩ .

تاج المدن السكبي وقال : « حياهم وبياهم وجمعنا في الجنة نحن وإياهم (١) » .

بحسن بنا أن نعرض لاهم العوامل التي جعلت التصوف ينتشر انتشاراً سريعاً بين مختلف طوائف الشعب . ولو أمعنا النظر في الاخطار الخارجية الكبرى التي أحاق ببلاد الشام نكان لنا منها ما جعلنا نعتقد أنها كانت من العوامل الرئيسية في نموه . فالصليبيون القادمون من الغرب مضى عليهم حين من الدهر ، وهم يعمشون فساداً في الشام ومصر بعد أن أحلوا الطراز الأخضر التامى وتفوره المنفعة ، وهكوا حرمة أولى القبليين وناني الحرمين . أما التار القادمون من الشرق فشأنهم أدهى وأمر ، فلقد قوضوا معالم الحضارة الإسلامية ، فصوحت أزهارها الفبح في بغداد والبصرة والكوفة ، وقتل الخليفة والفقهاء والعلماء ، وانقلوا الى بلاد الشام بصيون الموت والدمار عليها كأنهم كانوا مع الصليبيين على موعد .

بضاف الى هذا الوقر الجانم على البلاد ما انتشر فيها من كوارث طبيعية ومما أصابها من أوباء وطواعين ، وما نخلها من غلاء ومجاعات . كل ذلك دفع المستضعفين من فقراء ومعوذين إلى اتخاذ التصوف سبيلاً ، والانخراط في تبارده الجارف ليكون لهم ملجأ بعصمهم من فسوة الحياة .

لا عجب أن رأينا نور الدين يبنى بيناً خشبياً منعزلاً إزاء صفة بداره في أعوام الزلازل بمسى فيه ويصبح ويخلو لعبادته وتهجدده ، وفعل صلاح الدين مثل نور الدين عندما كان في حماة (٢) .

لقبي التصوف كل تشجيع ، وقد اتر عن نور الدين أنه كان يحبهم فبنى لهم الربط والخوانق في جميع البلاد ، وكان يقربهم من مجالسه ، ويتواضع لهم ، ويدر عليهم الادارات الجبلية ، حتى أصبحت أماكنهم موضع أعجاب

(١) السكبي : معبد النعم ومبيد النعم ، ص ١١٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

الناس وهي « قصور مزخرفة يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر (١) » .
وصف لنا ابن جبير أيضا مكانا لهم يعرف بالقصر ، وهو صرح عظيم مستقل
في الهواء ، في أعلاه مساكن لم ير أجمل منها اشراقا ، وهو من البلد بنصف
ميل ، له بستان عظيم يتصل به ، وكان في الأصل متنزا لأحد الملوك الاتراك ،
فيقال إنه كان فيه إحدى الليالي على راحة ، فاجتاز به قوم من الصوفية ،
فهريق عليهم من النبيل الذي كانوا يشربونه في القصر ، فرفعوا الأمر لنور
الدين فلم يزل حتى استوهبه من صاحبه برسم انصوفية مؤبدا لهم (٢) . وروى
أيضا أنه أهدي له من مصر عمامة مذهبة من القصب الرفيع ، فلم يقبلها ،
وإنما أمر بها لصوفي جاءه آنثا .

عجب ابن جبير كل العجب من الصوفية في بلاد الشام عندما زارها في عهد
صلاح الدين في القرن السادس الهجري ، فوصفهم بقوله : « وهذه الطائفة
الصوفية هم الملوك بهذه البلاد لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها ، وفزع
خواطرهم لعبادته من الكفرة في أسباب المعاش ، وأسكنهم في قصور تذكرهم
قصور الجنان ، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل تعالى نعيم
الدنيا والآخرة . وهم على طريقة شريفة وسنة في المعاشرة عجيبة ، وسيرتهم
في التزام رتب الخدمة غريبة ، وعوائدهم من الاجتماع للسمع جميلة ، وربما
فارق منهم الدنيا رقة وشوقا ، وبالجملة فأحوالهم كلها بدعة ، وهم يرجون
عيشا طيبا هنيئا (٣) » .

نعتهم الناس بالفقراء (٤) ، إما لأن الفقر أنبتهم ، وإما لأنهم زهدوا في هذه
القصور التي يعيشون فيها . فبعد أن كانوا يخشون العدم والإملاق في بدء
تشردهم نراهم اليوم في رغد من العيش يرغبون في الفقر ، ويتكلفونه في معاشهم
ومظهرهم ويلبسون خرقة الزاهدين .

وصف أسامة بن منقذ في كتاب (العصا) رباطا للصوفية عند دار
الطواويس ، زاره صحبة معين الدين أنر ، وذكر أحوالهم ، وعجب من سكينتهم

(١) رحلة ابن جبير : ص ٣٣٣ .
(٢) المصدر السابق : ص ٣٣٤ .
(٣) المصدر السابق : ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .
(٤) القريري : الخطط ، ج ٤ ص ٣٢٩ .

وَحُشْوَعِهِمْ ؛ وَأَبْدَى سُرُورِهِ بِمَا رَأَى لِأَنَّهُ لَمْ يَطْلُعْ مِنْ قَبْلِ عَلَى حَيَاتِهِمْ الْخَاصَّةِ وَطَرِيقَتِهِمْ فِي التَّصَوُّفِ (١) .

اسْتَمَدَ الصُّوفُوفُ عُنَاصِرَهُ الْأَوَّلَى مِنَ الْإِسْلَامِ ، وَكَانَ الْمُتَّصِفُونَ الْأَقْدَمُونَ يَتَّقَتَصَرُونَ فِي زَهْدِهِمْ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالْمُفَكَّرِ فِي آلَاءِ اللَّهِ ، كَمَا كَانُوا يَكْتَبُونَ شَهَوَاتِهِمْ وَرَغَائِبَهُمْ ، وَبِرُضْوَانٍ مِنَ الْعَيْشِ بِمَا يَسُدُّ الرِّمَقَ وَبَقِيَمِ الْأَوْدِ ،

حَاوَلَ الْفَاطِمِيُّونَ أَنْ يَطْبَعُوا التَّصَوُّفَ بِطَائِعِهِمْ ، فَأَدْخَلُوا فِيهِ كَثِيرًا مِنْ عَقَائِدِهِمْ وَاتِّجَاهَاتِهِمْ . ذَكَرَ ابْنُ خَلْدُونُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَقَائِدِ الْأَسَاسِيَّةِ فِي التَّصَوُّفِ مَأْخُوذٌ مِنْ كَلَامِ النَّسْعَةِ وَالرَّافِضَةِ وَمَذَاهِبِهِمْ فِي كِتَابِهِمْ كَذَلِكَ فَانِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ آمَنُوا بِالْكَشْفِ ، وَفِيمَا وَرَاءَ الْحَسِّ ، وَنَوَغَلَ فِي ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ، فَذَهَبَ الْإِيمَانُ بِالْوَحْدَةِ وَالْحُلُولِ (٢) .

حَاوَلَ صِلَاحُ الدِّينِ بِدَوْرِهِ أَنْ يَنْشُرَ النَّصُوفَ السُّنِّيَّ بَعْدَ طُغْيَانِ مَذَاهِبِ الطَّوَائِفِ الشَّيْعِيَّةِ وَالْفَاطِمِيَّةِ فِي بِلَادِ الشَّامِ ، وَكَانَ يَحْضُرُ مَجَالِسَ الْمُتَّصِفِينَ ، وَيَسْتَمِعُ إِلَى أَقْوَالِهِمْ وَأَنَاشِيدِهِمْ . رَوَى قَاضِيهِ ابْنُ شَدَادٍ أَنَّهُ لَمَّا سَارَ مِنْ حَلَبٍ قَاصِدًا دِمَشْقَ اعْتَرَضَهُ ابْنُ أَخِيهِ الْمُظْفَرُ تَقَى الدِّينَ ، فَأَصْعَدَهُ إِلَى قَلْعَةٍ حِمَاةً ، وَاصْطَنَعَ لَهُ طَعَامًا حَسَنًا ، وَأَحْضَرَ لَهُ سَمَاعَ الصُّوفِيَّةِ (٣) .

نَسْنَتْنَجُ مِنْ عُنَايَةِ نُورِ الدِّينِ بِهِمْ ، وَرِعَايَةِ صِلَاحِ الدِّينِ مِنْ بَعْدِهِ لَهُمْ وَاهْتِمَامِ الْمَمَالِكِ بِهِمْ أَيْضًا أَنَّهُمْ كَانُوا لَهُمْ شَأْنٌ عَظِيمٌ فِي الْحُرُوبِ الصُّلْبِيَّةِ مِنْ قَبْلِ وَالْحُرُوبِ التَّتَرِبَةِ مِنْ بَعْدِ ، إِذْ كَانُوا سَتْنِيرُونَ النَّاسَ وَالرَّأْيَ الْعَامَ وَيَحْرُضُونَهُمْ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَهُمْ ، كَمَا نَرَى ، الدِّينَ نَشَرُوا الْإِسْلَامَ بَيْنَ النَّارِ أَنْفُسَهُمْ .

لَمْ يَسْنَطَعْ صِلَاحُ الدِّينِ الْحِيلُولَةَ دُونَ تَسَرُّبِ الْعَقَائِدِ الْمُخْتَلَفَةِ وَالْفَلَسَفَاتِ الدَّخِيلَةِ إِلَى التَّصَوُّفِ ، فَتَطَوَّرَ مِنْ شَكْلِهِ الْبَسِطُ إِلَى أَسْلُوبٍ خَاصٍّ فِي الْحِمَاةِ الدِّينِيَّةِ ، لَهُ أَمَاكِنُهُ الْخَاصَّةُ وَنَظْمُهُ وَطَرِيقُهُ الْمُخْتَلَفَةُ . سَاعَدَ سُلَاطِينُ الْمَمَالِكِ

(١) أَسَامَةُ بْنُ مَنْقَلَدٍ : الْعَصَا ، وَهُوَ مَنْشُورٌ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَلْفَهُ الْمُسْتَشْرِقُ هَارْدْنُورِغْ دِرَنْبُورْغُ مِنْ حَيَاةِ أَسَامَةَ فِي مَجْلَدَيْنِ . ح ٢ ص ٤٩٨ .

(٢) ابْنُ خَلْدُونُ : الْمَقْدَمَةُ ص ٤٧٣ . (٣) ابْنُ شَدَادٍ : الْوَادِعُ السُّلْطَانِيَّةُ ، ص ٧٧ .

على نشر التصوف ، واعترفوا به كطائفة دينية مستقلة ، فكان شيخ كل طريقة يعين بمرسوم من قبل السلطان ، ويخلع عليه ، وينزل من القلعة في حفل كبير تحيط به جمهرة من فقراء طائفته (١) . كما احترامهم ، فقبوا شيوخهم من مجالسهم الخاصة ، وفتحوا أمامهم أبواب قصورهم ، واستمعوا الى مناظراتهم مع كبار علماء العصر في مسائل شتى من أمور الدين . روي ان شيخ الفقراء الرفاعية صالح الأحمدى الرفاعي (المتوفى سنة ٧٠٧ هـ) قدم القاهرة من دمشق ، وحضر مجلس السلطان مراراً عديدة ، وناظر الشيخ تقي الدين بن تيمية ، فأحقيقه ، فقال له : « نحن ما ينفق حالنا إلا عند التتار ، أما قدام الشرع فلا (٢) » . بعنى كلامه أن للتتار فيهم اعتقاداً كبيراً ، وأن طريقتهم كانت رائجة عندهم ، وأن أقوالهم كانت مخالفة للشرع ، فعندما هاجم هولاء حلب ، واستحرق فيها القتل والنهب ، وأربقت الدماء لم يسلم من أبنائها بعدما نودي بالامان الا من التجأ الى الخانقاه الذي يقيم في زين الدين الصوفي (٣) .

نفق حالهم عندهم وبخاصة منهم هولاء ، فلا عجب ان رأينا الإسلام ينتشر بينهم على يد الطائفة الأحمدية ، وثابت أن (لانو كدار) أسلم في حياة والده على يد هذه الطائفة وقد روي عنهم أنهم دخلوا به النار وأخرجوه منها سالماً فوهبه لهم وسماه باسم مؤسس طائفتهم أحمد ، وكانت محاولته نشر الاسلام طوعاً أو كرهاً بين أمراء ابيه من أسباب قنله فيما بعد .

ولما هاجم قطاوشاه التتري دمشق واحتلها توجه لزيارة شيخ الصوفية الرفاعية صالح الأحمدى المار ذكره ، وأظهر له من المحبة ما لا يوصف ، ونفع الناس بذلك (٤) .

ان تطيل الوقوف عند التصوف السني الذي لم يخرج عن الاسلام ، وانما يحسن بنا الوقوف عند الطوائف الأخرى التي تطرفت في سلوكها وعقائدها وآرائها ، فاستمدت كثيراً من عقائد النصرانية وغيرها . ذكر نيكلسون أن كثيراً من نصوص الإنجيل ومن الأقوال المنسوبة إلى السيد المسيح عليه السلام

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٨٧ .

(٢) ابن عري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٢١٢ ، ٢١٣ .

(٣) ابن الوردي : نعمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٠٣ .

(٤) ابن تفرجي بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ١ و ١٦٨ .

مقتبس في أقدم تراجم الصوفية (١) . كما أنهم استمدوا من الفنوصية بعض مبادئها في المعرفة ، ومن البوذية كثيراً من العادات التي لا تزال منتشرة بيننا ، منها استعمال السبح النبي عرفها الاقدمون لدى الأخبار البوذيين من الهنود في ساعات الخلوة والدعاء (٢) .

أدى هذا التطرف الى ظهور جماعات من الصوفية ، اطلق عليها اسم المجاذيب أو الدراويش أو الحرافيش ، وقد ذاع أمرهم ، واشتهروا بأفعالهم الغريبة وأزيائهم العجيبة وأقوالهم التي ينفوهم بها . وفيها منتهى الكفر والإلحاد .

رسم الصفدي صورة صوفي في هذا العصر خلال ترجمته لعبد الله الفاتولة الحلبي الدمشقي (المتوفى سنة ٧٠٠ هـ) فذكر أنه «شيخ قد أسن، فقير حروفش، مكشوف الرأس منفوس ، عليه دلق رقيق ، بالي الخرقه دقيق ، قد تمكن منه الوسخ، ونبت فيه ورسخ قد جمعه من عدة رقايع، والتقطه من متباعد البقاع، لعبث به الأطفال فيزط ، وينهض لنا ونستهم وينط، له مجمره يستدفىء بنارها ويرتضى لبابها وعارها . وكان عاقلاً إلا أنه عن الصلاة لا يزال غافلاً ، والناس مع ذلك يذكرون له كرامات . ويسهون أنه يشاهد في الملكوت مقامات (٣) » .

لم يكن أمرهم قاصراً على ترك الصلاة والفرائض الدينية ، وإنما تطرفوا في أحوالهم وأقوالهم . ذكر عن الشيخ على الحريري أنه تزهد في دنس دنس وصدرت عنه في سلوكه أحوال وكشف ، وشاع أمره بين الناس ، فأقبلوا عليه كثيراً وكان يقول : « لو دخل مريدي بلد الروم وتنصر ، وأكل لحم الخنزير ، وشرب الخمر ، كان في شغلي (٤) » . كما أنر عنه أنه قال : « ذبحت بيدي سبعين نبياً وما اعتقدت أنني مخطيء (٥) » .

كفر رجال الدين هذه الطائفة المتطرفة من الدراويش واعتقدوا أن الخوارق التي يدعونها إن هي إلا أضغاث أحلام من كشف الشيطان وقد أروا كثيراً في عقائد بعض معاصريهم ، حتى إن الباجريقي كبير متصوفيههم أضل جماعة من

(١) نيكلسون : الصوفية في الاسلام ، ص ٢٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢ . (٣) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٣ و ٢٦٠ .

(٤) أبي الورد : تمة المختصر : ج ٢ ص ١٧٨ . (٥) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٧٨

العلماء وغيرهم . نذكر منهم صدر الدين بن الوكيل ، ومجد الدين التونسى ، فاجتمع العلماء برئاسة القاضي جمال المالكي ، فكفروه وحكموا بإراقة دمه ، ففر الى مصر وانقطع في الازهر الشريف (١) .

لم تقف هذه الفئة المتطرفة عند هذا الحد، وإنما حاولت ان تحيي المتصوفة الكبار اصحاب الطرق في قبورهم ، فذكروا عن انشيخ حياة ابن قيس الحراني انه احد الاربعة الذين يتصرفون في قبورهم كتصرف الأحياء ، وهم الشيخ عبد القادر الجيلاني ، والشيخ عدي ، والشيخ أحمد بن الرفاعي ، ونسبوا اليه طي المسافات البعيدة كلمح البصر (٢) .

قد يهون الأمر لو وقفت الصوفية عند هذا الحد لكنها أفسدت الناس معها حين أدخلت الحشيش في حياتها، فقرنت بها وسميت حشيشة الفقراء (٣)، فهي اول من اكتشفها واستعملها حتى غدت بحق داء العصر .

أما اكتشافها فقد ذكر المقرئزي أن الشيخ حيدر الذي كان يقيم في نساور من بلاد خراسان اول من عرفها وأدرك خصائصها ، وأوصى جماعته بصيانة هذا النبات الذي يدخل النشاط والسورور في أنفسهم ، وأخذ على طائفة الفقراء الإيمان ألا يعلم به أحد من عوام الناس ، وطلب منهم عدم إخفائه عن كل متصوف ، كما أوصى أن يزرع حول ضريحه بعد موته ، ولما وافته منيته سنة ٦٠٨ هـ في مكانه بزاوية الجبل سمح لهم ان يوقفوا ظرفاء الناس وكبارهم عليه (٤) .

انتقل هذا النبات من فارس الى العراق سنة ٦٢٨ هـ عن طريق ملوك البحرين ، ومنه انتقل الى الشام فمصر ، وعم انتشاره بعد ذلك في كل قطر ومصر ، وغدا موضوعا شعرياً طرقه المتصوفة في غزلهم الروحي وفضلوه على الخمر .

(١) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٦ و ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) ابن الوردي : تمة المختصر ، ج ٢ ص ٦٥ ، ٩٥ .

(٣) المقرئزي : الخطط ، ج ٤ ص ٣٢٩ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

انقسمت المتصوفة الى طوائف كثيرة ، ولكل منها شعارها المميز وطريفتها الخاصة ، فالرفاعية شعارها اللون الاسود والاحمدية شعارها اللون الاحمر . .
 لن نحدث عن الطوائف الصوفية كلها وانما نذكر طائفتين منهما ، وهما القلندرية والعدوية فقد كان لهما اثر كبير في الحياة الاجتماعية والسياسية في هذا العصر . اما القلندرية فلكونها ادخلت حسبسة الفقراء الى سائر الطوائف الصوفية ، فعم انتشاره بين مختلف الطبقات الاجتماعية في بلاد الشام . واما العدوية فلكونها اساس المذهب اليزيدي الذي اعنقه اكراد الشام ، وكاد يودي بحكم سلاطين المماليك .

الطائفة القلندرية

تنسب هذه الطائفة الصوفية الى عربى اندلسي اسمه قلندر يوسف ، ظهر في دمشق سنة ٦١٠ هـ ، وكانت كفيرها من فرق المتصوفة ، غير انها تطرفت في سلوكها بعدئذ على يد شيخها جمال الدين محمد بن يونس الساوجي الذي قدم دمشق ، وقرأ القرآن ، وتفقه في الدين ، وسكن جبل قاسيون في زاوية الشيخ عثمان الرومي ، فأعرض عن مباهج الحباة ، وبالغ في زهده ونقشفه حتى ترك زاويته ، وأقام في مفره يتعبد ربه . ثم انتقل الى قبة زينب بنت زين العابدين وتبعه جماعة من أصحابه كالشيخ عثمان كوهى وجلال الدركزى .

تطرف الساوجي في سلوكه فحلق وجهه ورأسه ، ولبس دلق شعر سنة ٦٢٠ هـ فانكر الناس عليه هذه الحال ودخل عليه أصحاب الشيخ عثمان ، فوجدوه في القبة ، فشتموه وقبحوا عليه فعله ، فلم ينبس ببنت شفة ، وانما ترك بلاد الشام وارتحل الى مصر ، وأقام في دمياط . غير أن أهلها أنكروا عليه بادىء الامر غرابة زيه ، بسد أنهم اعتقدوا صلاحه ، وأصبح قبره بعد موته مزاراً للمتصوفة (١) .

(١) النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ص ٢١٢ .

أما في الشام فقد خلفه في المشيخة القلندرية الدرزي ، وجاء بعده محمد البلخي ، وكان للظاهر بيبرس فيه اعتقاد كبير . فلما تسلطن طلبه فلم يحضر إليه ، فبنى له من مال الجامع قبة خاصة بالطائفة القلندرية وهي المعروفة باسم الزاوية القلندرية الدرزينية (١) ، وكان إذا قدم الشام بعطيهم ألف درهم وشقني بسط ، ورتب لهم أيضا تلابين غرارة قمح في السنة ، وفي اليوم عشرة دراهم لتصرف في شؤون معاشهم (٢) .

نمة طائفة صوفية أخرى دخلت الشام سنة ٦٥٥ هـ وهي الطائفة الحيدرية . وكان شعارها لبس الفراجي والطراير خلافاً للسنة النبوية وقد عرف عنهم أيضا أنهم كانوا يقصون لحاهم ، لكنهم يتركون شواربهم على خلاف السنة ، وذلك متابعة لشيخهم حيدر حين أسرته الاسماعيلية ، فقصوا لحيته ، وتركوا شواربه ، فاقتدى به جماعته .

لقبت هذه الطائفة بالقلندرية الحيدرية لأنها فعلت بعض ما فعلته سابقتها ويظهر أنها كانت تخالفها في طريقتها لان لها زاوية خاصة بها في ظاهر دمشق قريباً من العونية (٣) .

مهما يكن من أمر فقد انتشرت القلندرية بسرعة في الشام ومصر ، وسمت نفسها الملامتية . وحقيقة القلندرية أن أتباعها قوم طرحوا التقيد بالآداب الاجتماعية في المجالسات والمخاطبات ، وتهاونوا بأمر الصلاة والصوم والزكاة إلا الفرائض ، ولم يبالوا بتناول شيء من الملذات المباحة واقتصروا على رعاية الرخصة ، واعتزموها إلا يدخروا شيئاً وتركوا الجمع والاستكثار من الدنيا ، ولم يتقشفوا ، زاهدين متعبدين ، وإنما قنعوا بطيب قلوبهم مع الله تعالى ، واقتصروا على ذلك ، وليس عندهم تطلع إلى طلب مزيد سوى ما هم عليه من طيب القلوب (٤) .

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢١٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢١١ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢١٢ .

(٤) القربزي : الخطط ، ج ٣ ص ٣٠١ .

أما الفرق بين القلندرية ورببتها الملامية من حيث الاتجاه الصوفي فقد وضح المقريري ، وذكر أن الملامى يتمسك بكل أبواب البر والخير ويرى الفضل فيها ، إلا أنه يخفى أحواله وأعماله ، ويوقف نفسه موقف العوام في هيئته وملبسه سترا للحال حتى لا يفطن له (١) ، وهو مع ذلك يتطلع الى المزيد من العبادات .

أما القلندري فلا يتقيد بهيئة ، ولا يبالي بما يعرف من حاله ، وبما لا يعرف ، ولا ينعطف الا على طيب القلوب ، وهو رأس ماله (٢) .

لا غرابة بعدما تبين لنا من اختلاف فيما بينهم إن رأينا تطرف القلندرية في سلوكها حتى صاروا يخلقون شعرهم ولحاهم وحواجبهم وأهداب أجفانهم ، واستمروا على هذا الشكل المستشنع طوال القرن السابع الهجري .

انتقلت هذه الطريقة الى مصر وأسس أتباعها الزاوية القلندرية ، وتقربوا من الناصر حسن ، ولكن ساء ما شهدته من أشكالهم وأفعالهم ، فطلب إليهم التزام السنة في سلوكهم ، وأمر « بإلزامهم بزي المسلمين وترك زي الأعاجم والمجوس ، فلا يمكن أحد منهم من الدخول الى بلاد السلطان حتى يترك هذا الزي المبتدع واللباس المستشنع . ومن لم يلزم بذلك يعذر شرعا ويقلع من قراره قلعا (٣) » .

يظهر ان هذه الفرقة كانت أول من نقل حشيشة الفقراء واستعملته حتى دعي باسمها ، وليس من باب الصدفة انتقاد ابن كثير للسلطان عندما أمرهم بتركها هم عليه « وكان من اللائق أن يؤمروا بترك الحشيشة وإقامة الحد على مدمنها (٤) » .

(١) ابن الجوزي : تبليس إبليس ، ص ٣٦٣ .

(٢) المقريري : الخطط ، ج ٣ ص ٣١٠ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ص ٥٧٤ ، والمقريري : الخطط ، ج ٤ ص ٣٠٢ .

انظر كتاب الدكتور ابي العلا عفيفي عن الملامية .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٥٧٤ .

الطائفة العدوية

أسس هذه الطائفة الشيخ شرف الدين أبو الفضائل عدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن الحكم الأموي القرشي . ولد هذا القطب الصوفي في قرية (بيت الفار) من أعمال بعلبك ببلاد الشام سنة ٦٨ هـ تقريباً . وسحب بادیء أمره كبار المتصوفة في عصره : أمثال عقيل المنبجی ، وحماد الدباس ، وعبد القادر السهروردي ، وعبد القادر الجيلي ، وأبى الوفاء الحلواني وغيرهم . اعكف بعد ذلك في الكهوف والجبال والصحارى مجرداً سائحاً يأخذ نفسه بأنواع المجاهدات ، فأقبل الناس عليه وكثر مربده . وفي أواخر عمره توجه إلى (لالس) في جبال الهكارية (١) ، فأقبل عليه الأكراد الذين يسكنون هذه المنطقة ، ومالوا إليه ميلاً لم يعرف لصوفي قبله ، فهو أول من قصد بالزيارات وتربية المريدين ببلاد الشرق ، وقصدته الناس من سائر أقطار العالم الإسلامي . ويظهر أن هذا الاقبال الشديد عليه يرجع إلى أنه كان صوفياً حقاً ، إذ أبعده البدع التي غلبت على سلوك طوائف المتصوفة في هذا العصر كما رأينا . يؤيد ذلك ما ورد في الرسالة العدوية التي كتبها ابن تيمية المعروف بتشدهد في أحكام الدين ، فأثنى عليه ولم يذكره إلا بالخير والصلاح .

لم يخلف الشيخ عدي ذرية لعزوفه عن الزواج ، فخلفه أخوه في طريقته وهو صخر بن مسافر ، وكان مقيماً في بيت فار من بلاد الشام ولم يثبت عنه أنه هاجر إلى أخيه عدي . تفرق أولاد صخر في بلاد الشام ، فأقبل عليهم الناس ، ونزل بعضهم في الموصل ، وكان بينهم الشيخ شمس الدين الحسن بن عدي ، وقد لقب بتاج العارفين وكان معروفاً بالعلم والدهاء .

يعتبر شرف الدين الحسن نقطة التحول في الطائفة العدوية من أهداف السنة إلى مذهب جديد ، وضعت أصوله ، وبرزت عقائده ، وانقلب أخيراً إلى طريق للوصول إلى الملك وطرده سلاطين المماليك ، وإعادة الخلافة الأموية العربية باسم الدعوة لخليفة أموي جديد من نسل مروان بن الحكم .

(١) بلدة وناحية وقرى في جريدة ابن عمر يسكنها أكراد يقال لهم الهكارية .

ذكر ان شرف الدين اختلى ست سنوات صنف خلالها كتابين دينيين :
وهما (الجلوة لارباب الخلوة) و (مصحف رش) ، أى الكتاب الأسود . ومن
مطالعة ما في هذين الكتابين يتبين لنا ان هذه الفرقة الصوفية خرجت عن
الاسلام تماما(١) .

امران هامان لا بد من الوقوف عندهما لأنهما يؤلفان ركنين أساسيين في
عقيدة اليزيدية ، أولهما اعتقادهم بيزيد بن معاوية الذي سغل حيزاً كبيراً من
عقائدهم ، وسموا باسمه بعدئذ ، وثانها اعتقادهم بالنسبطين فلقد اجلوه
وعظموه لأنه في نظرهم اول الموحدين اذ لم يسجد لآدم من دون الله .

هكذا آل شأن الطائفة العدوية . فأصبحت مذهباً دينياً خاصاً فكثرتابعه
كثرة غريبة وسموا أنفسهم اليزيدية ، وهددوا الناس ، فخشى بدر الدين
أولاً صاحب الموصل بأسهم ، فقال لهم وهزمهم ، وأسر كثيرين منهم وصلب
منهم مائة ، وذبح مائة ، وأمر بتقطيع اعضاءهم وعلقها على ابواب الموصل ،
وارسل من نبس قبر الشيخ عدى الكبير ، فأخرجت عظام جثته وأحرقت .
لم يعتقد اليزيدية بموت الشيخ حسن ، ولا بد أن يرجع وهم ينتظرون
خروجه من جديد ليوفوا نذورهم ، ويقدموا زكواتهم المتجمعة لديهم .

سببت هذه الكارثة هجرة آل عدي من الموصل الى الشام ومصر ، نذكر
منهم زين الدين ابن أخي شرف الدين بن الحسن وابنه عز الدين أميران . أما
زين الدين فقد وفد الى دمشق فأنعم عليه بإمرة كبيرة ، وأكرم غاية الاكرام ،
لكنه عزف عن الامارة فتركها وانقطع في القرية التي نشأ فيها جده الاول عدي
الكبير على هيئة الملوكة ، فاقتنى الخيول المسومة واشترى الجواري الحسنان ،
وأكثر من الخدم والحشم وتأنق في الملبس والمشرّب .

خلف عز الدين أباه بعد رحيله ، فأصبح أميراً بدمشق ثم بصفد ثم عاد الى
دمشق ثانية ، وبيت في نفسه امراً فآثر العمل خفية ، وانسحب الى المزة بعد
تركه الامرة لينظم جماعته الأكراد ، فوفدوا عليه من كل انحاء البلاد يحملون

اليه صفايا أموالهم غير ان معظمهم اخذ يبيع ما يملك بثمن بخس ليشتري الخيل والسلاح وآلات الحرب استعدادا لليوم الموعود . أتم كل شيء ووعد سروات الاكراد بالنيابات الكبار وطلب الى جماعته النجوع في أرض اللجون لئلا يكتشف أمرهم ويفشى سرهم .

علم السلطان بأمرهم ، فأمسك الصوفية العدوية الدين كانوا في زاويتهم بالقاهرة (١) ، وطلب من تنكز نائبه ان يكشف أحوالهم ويبين سبب تجمعهم هناك ، فقبض على عز الدين ، وادع الاعتقال حتى مات (٢) وقد اعترف له ان جماعته « يريدون ان ينفردوا بالملكة (٣) » .

هكذا انقلبت الصوفية العدوية الى مذهب ديني ثم الى جماعة سياسية ولو نجح أمرها لاحتدت انقلابا خطيرا في مجرى الحياة السياسية ، اذ تعود بذلك الخلافة الاموية لاحد أحفاد مروان بن الحكم بتأييد القبائل الكردية . وغريب جدا ان يهمل مؤلف خطط الشام أمر اليزيدية ، وقد اتضح لنا انها كانت ذات أثر كبير في الحياة الدينية والسياسية على السواء .

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ص ٤١٤ .
 (٢) المفريزي : الخطط ، ج ٤ ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .
 (٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ص ١٤٤ .

القسم الثالث أخلاق العصر

أختتم في حديثي عن أخلاق العصر المظاهر العامة للحياة الاجتماعية ولعلمي قادر على تبيان الصورة العابثة للحياة العامة بعد أن رأينا صورتها الجسدية . كان عماد الدين شديداً في حكمه لا يتهاون في أمر المنكرات فقد عرف أنه كان شديد الفيرة على نساء الأجناد ، وكان التعرض لهن من الذنوب التي لا تفتقر .

بدأ بعامله البرطي الذي ولاه قلعة الجزيرة ، فبلغه عنه أنه يتعرض للحرم ، فأمر حاجبه صلاح الدين الباغسباني صاحب حماة ، أن ينهد إليه بفنة ويعاقبه على فعله بقطع ذكره وقلع عينيه عقوبة له لنظره إلى الحرم ثم بصلبه ، ففعل صلاح الدين ما أمره به وكان ذلك عبرة للناس جميعاً (١) .

خلفه ابنه نور الدين ، وكان أشد تمسكاً من أبيه ، ويأمر بتحريم الخمر في جميع أنحاء البلاد ، ويمنع إدخالها ، وكان يحد شاربها الحد الشرعي لا يستثنى من الناس أحداً (٢) ، لكنه كان يشجع اللهو البريء الذي يهدف إلى القوه والصحة كالفتوة والرياضة والرمي وغير ذلك . أما صلاح الدين فقد ذكر عنه أنه كان يشرب الخمر قبل أن يتولى الوزارة خلفاً لعمه أسد الدين شيركوه ، وقد اعترف بذلك قاضيه ابن

(١) ابن واصل : معراج الكروب ، ج ١ ص ١٠٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٤ .

شداد ، وأكد أنه تاب عن شرب الخمر بعد أن فوض الأمر إليه (١) ، وتسلفين
واعرض عن أسباب اللهو والمجون (٢) .

هذه سيرة مشاهير الملوك ، أما الناس فكانوا على دين ملوكهم ،
يجهرون باللهو والمجون إن آنسوا منهم هوى في ذلك ، وكانوا يستترون
إن وجدوا شدة وقسوة . وهكذا نجد الخمرات والمواخير تنتشر في
عهد ملك ثم تمنع وتهدم في عهد آخر .

يضاف إلى ذلك أن فقراء المتصوفة في بلاد الشام نشروا تعاطي
الحشيش بين الناس ، وهال الظاهر ببيرس ما رآه من انحلال خلقى
بعد انتشاره ، وما تبعه من مفاسد اجتماعية في البلاد فأصدر أمراً في كل
الأقاليم بهدم المواخير وإغلاق الحانات وإهراق الخمر وحرق الحشيش ،
طبق أمر الظاهر بشدة متناهية ، ويروي ابن إياس أنه أحضر ابن
الكازروني وهو سكران ، فأمر السلطان بصلبه وعلق الجرة والقدح
في عنقه (٣) .

لم تمنع هذه الشدة المتناهية انتشار الحشيش وفضله كثير من الناس
على الخمر لرخص أثمانه ، وتفنن به الأدباء والشعراء ، ونسبوه إلى مكتشفه
الشيخ حيدر .

وجدير بالذكر أن الذي زاد من سرعة انتشاره عدم ورود نص
صريح عن تحريمه ، فلا عجب أن رأينا بعض القضاة المتأخرين يجيز أكل
الحشيش كما أفتى بذلك القاضي جمال الدين الحلبي (٤)

شهدنا في هذا العصر المناظرات الدينية التي كانت تجري بين المسلمين
والنصارى ، وكان صاحب أرنون يشترك في هذه المناظرات ، ويروي
ابن شداد في كتابه النوادر السلطانية بعض هذه المناظرات (٥)

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٥ وابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٦٨ .

(٢) الذهبي : سير النبلاء (مصورة) ، ج ١٣ ، ل ٦٣ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٠٥ .

(٤) ابن حجر : رفيع الاصر (مخطوط) و ٢٧٩ .

(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٨٠ .

تمة مظهر آخر من مظاهر الأخلاق وهو أنتشار الزندقة بسبب الاحكام بين الدين والفلسفات الأخرى . وقد تأثرت بها الفرق الإسلامية المخلفة ، السنة منها والسيعية . فادت بالتالي الى ظهور جبل من الحكماء الذين فسدت عقائدهم ، ونهائون بالأديان السماوية ، وكانوا في حرب نسعواء معها . تهاون بعض السلاطين بأمر الزندقة ، فتركوا للناس حربة الرأي والاعتقاد ، وشدد بعضهم الآخر ، ومن هؤلاء صلاح الدين الذي كان يفيض الفلاسفة والمعتلة ، فقد ظهر في عصره الفيلسوف السهروردي وكان على خلاف مع رجال الدين ، فشددوا النكير عليه ، وأفتوا بإباحة دمه . غير أن صاحب حلب الظاهر غازي أبي قله ، فبعث إليه والده صلاح الدين يأمره بذلك ، ويلومه على إبطائه ، فأمر بخنقه في قلعة حلب سنة ٥٨٧ هـ (١)

لا بد لنا من بيان سبب قتله ، فقد قال له العلماء : إنك قلت في بعض كتبك : إن الله قادر على أن يبعث نبيا ، وهذا مستحيل ، فقال : « وما وجه اسحالته ؟ إن الله لا يمتنع عليه شيء » (٢) .

كثر مربدوه ونبعه جماعة كثيرة ، وخاف الفقهاء الفتنة بين الناس ، ولا سيما أن البلاد تجابه أخطارا خارجية كبرى ، فأفنوا بقتله مخافة أن يدعى النبوة ، إذ كان يقول لا بد أن أملك الأرض ، وهو صاحب القصيدة :

أبدا تحئن إليكم الأرواحُ ووصالكم ريحانها والراحُ
وقلوب أهل ودأدكم نشتا فكم وإلى كمال جمالكم تراتحُ

يضاف الى ذلك أنتشار الإباحية . بشكل واسع إذ لم نعهد لها مثيلا من قبل ، على الرغم من تشدد رجال الدين ومحاولة السلاطين القضاء على هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة بفرض عقوبة الموت ، ولهذا السبب كان الإباحيون يتخذون التصوف جنة ، وبتسشرون في مجونهم بلبوسه .

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٨ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ١١٤ .

وقد أشار إلى ذلك ابن الجوزي في معرض حديثه عن الصوفية الملامية السابق ذكرها ، فذكر أنه « قد اندس في الصوفية أهل الإباحة ، فتشبهوا بهم حفظاً للمأثم » (١) .



يبقى علينا بعد هذا العرض لمظاهر الحياة الدينية العامة أن نختمها بذكر الأعياد التي كانت تقام في مختلف المناسبات الدينية والاجتماعية ، كعيد الفطر والأضحى ، والابتهاج بإقامة الموالد النبوية ، وكانت هذه الاحتفالات تفوق حد الوصف والتصوير ، إذ كان السلاطين يبدلون في سبيل إحيائها الأموال الكثيرة ، ويمدون فيها الاسمطة للفقراء والمساكين ويوزعون عليهم الحلوى وغيرها ، وينثرون فيها الدراهم والدنانير .

نضيف إلى هذه الأعياد مشاركة الناس للطوائف الدينية الأخرى في أعيادها ، فقد ذكر أسامة في اعتباره أن بني منقذ كانوا ينزلون من حصن شيزر للتفرج على النصراني في عيد الفصح (٢) .

يضاف إلى ما تقدم احتفال بعض الناس بعيد النيروز ، وهو عيد تحتفل به الطائفة النصيرية العلوية ، وقد أخذته من الأعياد الفارسية ، وأصبح أحد أعيادها الدينية .

(١) ابن الجوزي : تلبس إبليس ، ص ٣٦٣ .

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٢٥ .

الفصل الثالث

التيارات الفكرية والعقائية

يبقى علينا الآن أن نعرض لبواغث النهضة العلمية والتيارات الفكرية والعقلية في هذا العصر الذي نؤرخه ، ونحدث عن إنتساء المدارس وإفامية دور العلم ، ثم نلقي بعض الضوء على اتجاهات الثقافة العامة ، ونختم هذا الفصل بالحدث عن المشاهير الأعلام في كل ناحية من نواحيها وأبرز آثارهم التي خلفوها .

القسم الأول

ازدهار النهضة العلمية

ازدهرت النهضة العلمية في بلاد الشام منذ العصور الإسلامية الأولى ، وقد قدمت أرض الأنبياء أعلام الدين ونوايغ الفكر وأساطين العلم في ظل الحضارة الإسلامية والثقافة العربية ، لكنها ما لبثت بعد ذلك حتى خيم عليها ركود موقت في أواخر القرن الخامس الهجري ، ولكن لم يطل لينه حتى تبلجت انوار نهضة كبرى على الرغم من الصراع الضاري مع الغرب الصليبي والشرق التتري .

زار ابن جبير بلاد الشام في طريق عودته إلى الأندلس بعد أداء

فريضة الحج في اواخر القرن السادس الهجري سنة ٥٨٠ هـ ، فشكا من كثرة فرقها الدينية المنتشرة آنئذ ، غير أنه أعجب كل الإعجاب عندما دخل دمشق ، فتحدث عن نهضتها العلمية ، ودهش من كثرة مساجدها ودور العلم فيها ، وفضلها على بلاد المشرق عامة ، وأوصى نشأة المغرب قصدها والنهل من علومها ومعارفها ، ومما قاله : « ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء ، ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل ، والمنتمين للطلب فالتسآن بهذه البلدة أكثر ، والاتساع أجود ، فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرجع إلى هذه البلاد ويتفرب في طلب العلم ، فيجد الأمور المعينات كثيرة (١) » .

ازدهرت هذه النهضة في عصر الزنكيين ، ولا سيما في دولة نور الدين الذي كان أول من أنشأ داراً للحديث في الإسلام ، وكان أول من عمم المدارس في أمهات بلاد الشام وعواصمه الثلاث : حلب في الشمال ، ودمشق في الوسط ، والقدس في الجنوب ، بلكه الحواضر الأخرى كحماة وحمص وبلبك وطرابلس وغيرها .

هذه صورة عابرة تمثل النهضة العلمية في إطار زمني ومكاني . أما عوامل بعثها فكثيرة يمكن حصرها في سبيلين اثنين : عوامل خارجية وعوامل داخلية .

أما العوامل الخارجية فقد بدأت عندما نكبت الحضارة الإسلامية في بغداد ، وطفى عليها سيل التتار النجاف ، فأتى على مشرق العالم الإسلامي ، فنكبت دار الخلافة ، ودخلها هولوكو ، واستباحها خلال بضعة وثلاثين يوماً سنة ٦٥٦ هـ وكثر عدد الضحايا ، فما أحصاهم عد . لم يكتف بذلك ، بل جمع العلماء والفقهاء والأعيان زاعماً أنه يريد عقد قران ابنة الخليفة ، فقتلهم عن آخرهم . نذكر منهم الأستاذار محيي الدين ابن الجوزي الذي صرع مع أولاده الثلاثة والشيخ يحيى بن يوسف الصرصري

(١) رحلة ابن جبیر ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

الضرير الشاعر وغيرهم كثير (١) .

لم تكنف النار بما ارتكبوا من جرائم بل تطاولوا إلى قصور الخلفاء ، فأحرقوا ما فيها من كتب نفيسة ، وروى عنهم أنهم بنوا بها بأمر هولاكو نفسه جسراً من الماء والطين عوضاً عن الأجر (٢) .

أما فلول العلماء المهاجرين الذين نجوا بأرواحهم فولوا وجوههم شطر مصر والشمام لبسهموا في النهضة العلمية المقبلة .

وهناك في المغرب كارثة أخرى بدأت تحل بالعرب ، ذلك أن الأندلس العربية انقسمت إلى دويلات ، وضعف أمرها ، فاحتل العدو كثيراً من بلدانها ، وفي كل مره تهاجر أفواج جديدة من العلماء إلى دمشق والقاهرة ، نذكر منهم مثلا ابن مالك وابن دحية وابن حيان .

نخلص إلى القول إن العلماء المهاجرين من مترق العالم الإسلامي ومقره وجدوا في الشام ومصر الملاذ الأمين ، فأقاموا فيها يستفيدون ويفيدون ، فنبه شأن بعضهم ، وأصبحوا كعبة القصاد ، نذكر منهم مثلاً قاضى قضاة دمشق ابن خلكان ، وإمام المحدثين بمصر صدر الدين البكري . كما أشار ابن جبر حينما زار المسجد الجامع بدمشق إلى أنه رأى فقيهاً مشهوراً من أهل إنشيلية يعرف بالمرادي ، كان يسند إلى سارية من سواريه ، لها وفف معلوم يأخذه المستند إليها للتدريس والمذاكرة (٣) .

وأما العوامل الداخلية التي أسهمت بدورها في هذه النهضة العلمية فنذكر منها بصورة خاصة تشجيع الطبقة الحاكمة من الملوك والأمراء .

نسجع الزنكيون العلم والعلماء . فلم نعرف في التاريخ العربي ببلاد الشام عصراً كثرت فيه المساجد ودور العلم كهذا العصر ، ولم نعرف في التاريخ الإسلامي من سبق نور الدين بإنشاء دار خاصة لدراسة الحديث النبوي الشريف .

(١) ابن نفي بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٥١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) رحلة ابن جبر ، ص ٢٢٢ .

كان أهل العلم عنده بمنزلة سامية ، يكرمهم ويحسن إليهم ، ويمنع أذى الناس عنهم . تحدث ابن واصل فذكر أنهم كانوا عنده في محل عظيم ، وأنه كان يجمعهم عنده للبحث والنظر ، واستقدمهم إليه من البلاد الشاسعة (١) . كما أنه كفاهم مؤنة عيشهم فأجرى عليهم الإدارات الكثيرة والصلات العظيمة (٢) .

شجع الأيوبيون كسلافهم العلم والعلماء أيضاً ، فلم يكن صلاح الدين بأقل من سابقه حذباً عليهم . ذكر قاضي عسكره بهاء الدين بن شداد أنه كان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار ، وكان بوصينا بأن لا نفعل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده ، وينالهم إحسانه (٣) .

يوضح هذا الأمر أيضاً ما جاء في كتاب بعث به إليه القاضي الفاضل : « وما يجب أن يعلم المولى أن أرزاق أرباب العمام في دولته إقطاعاً وراتباً يتجاوز مائتي ألف دينار بشهادة الله ، وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار (٤) » .

لم يكن اهتمام سائر ملوك الأيوبيين دون صلاح الدين . فقد عرف عن الملك المنصور الأول صاحب حمأة أنه كان من كبار العلماء ، وكان في خدمته من العلماء والفقهاء والنجاة وغيرهم قريب من مائتي متعمم (٥) .

وجاء سلاطين الماليسك ، فأظهروا عطفاً كبيراً على الدين وغيره على رجاله . كما كانوا يبالفون في الاكثار من انشاء المدارس ودور العلم ، ويتوخون من إقامتها جعلها مثوى لهم بعد موتهم .

هكذا كانت بلاد الشام في هذا العصر تنشر من مسجدها الجامع مع الجامع الأزهر في القاهرة أنوار المعرفة على العالم قاطبة في وقت كان الجهل يخيم على العالم الغربي كله .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٦ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٥ .

(٤) كرد علي : خطط الشام ، ج ٤ ، ص ٣٩ .

(٥) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

القسم الثاني

دور العلم والمساجد

لا شك أن المساجد كانت دور المعرفة والعلم منذ فجر الإسلام في بلاد الشام والعالم الإسلامي كله ، واستمرت تسهم بنصيب وافر في ازدهار النهضة الفكرية حتى نهاية القرن الرابع الهجري تقريباً ، وبدأت تقوم إلى جانبها أو بعيداً عنها مدارس خاصة لها نظامها وأوقافها وفقهاؤها ومدرسوها ومعيدوها .

كان للسلاجقة والفاطميون فضل السبق في إنشائها فقد عرف عن قاضي طرابلس الفاطمي الحسن بن عمار أنه أنشأ مدرسة جامعة على مثال دار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي في القاهرة سنة ٤٠٠ هـ .

كما أن السلاجقة بدورهم ساروا من قبل على سنة وزيرهم نظام الملك فبنوا أيضاً المدارس ، وقد عرف عن الملك ألب أرسلان أنه إذا وجد عالماً جليلاً شيد له مدرسة تقديراً لعلمه ، وأجرى عليها وقفاً لسد خلة المدرسين والمنتمين للطلب . حتى إذا جاء القرن الخامس رأبنا رشاً بن نظيف بن ما شاء الله أبا الحسن الدمشقي يقيم مدرسة خاصة لتعليم القرآن الكريم سنة ٤٤٤ هـ أسماها المدرسة الرشائية (١) .

حكم الزنكيون بلاد الشام ، فكثرت فيها دور العلم ، وقد عرف نور

(١) النعماني : المدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ١١ ،

الدين أنه كان لا يتصرف في شيء من هدايا الملوك الكثيرة ، بل كان إذا اجتمع منها شيء يصرفه ويخرجه إلى مجلس القاضي ، فيحصل ثمنه وينفق في عمارة المساجد المهجورة (١) .

لم يقتصر اهتمامه على بيوت الله وإنما تجاوزه إلى إنشاء المدارس المنظمة التي كثرت في هذا العصر كثرة غريبة ، فاستدعى من سنجار شرف الدين بن أبي عصرون ، أحد أعيان عصره ، وبنى له المدارس بحلب وحماة وحمص وبعليبك (٢) ، وفوض إليه أن يولي فيها التدريس من يشاء ولم يكتف شرف الدين بما شيده نور الدين ، وإنما أنشأ أيضاً مدرستين أولاهما بحلب ، وأخرهما في دمشق (٣) .

كما اهتم نور الدين بالحديث الشريف ، فأنشأ مدارس خاصة به ، ولم يعرف التاريخ من سبقه إلى ذلك ، وسميت باسمه ، نذكر منها النورية الكبرى والنورية الصغرى .

أما النورية الكبرى فقد وقف عليها وعلى من بها من المستغلبين بالحديث وقوفاً كثيرة ، وولى مشيختها إمام المحدثين في زمانه الحافظ أبا القاسم علي بن عساكر .

وصف ابن جبير هذه المدرسة خلال زيارته دمشق فذكر أنها قصر من القصور الأنيقة ، ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً (٤) .

وأما النورية الصغرى (٥) فكانت خاصة بالحنفية ، وتقع بجانب القلعة ، وقد درس فيها بهاء الدين عياك .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٨١ .

(٢) النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٤٠١ .

(٣) المصدر السابق : ج ١ ص ١١ .

(٤) رحلة ابن جبير ، ص ٣٣٣ .

(٥) النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٦٤٨ .

وفي حماة أنشأ مدرستين : الأولى للحنفية والأخرى للشافعية (١) ، كما بنى فيها جامعا على ضفة العاصي . والحق به بيمارستانا خاصا . وجدير بالذكر أن الداخل فبه شهاد في اعلى بابة قطعة حجرية ضخمة نقش عليها أن أحد الملوك وقف على طلبة العلم خمسة عشر ألف درهم في كل عام استجلابا لأدعيهم وإعانة لهم على طلب العلم (٢) .

أسهم نواب الزنكيين أيضا في بناء المدارس ، فقد عرف عن أتابك عسكر دمشق أمين الدين كمشتكين ، ونائب قلعة بصرى وقلعة صرخد أنه أنشأ المدرسة الأمنية وهي أول مدرسة للشافعية في دمشق (٣) .

أسهم الأيوبيون بدورهم في الاهتمام بدور العلم ، وقد أشار إلى ذلك الرحالة الأندلسي ابن جبير فذكر أنه رأى بدمشق عندما زارها عشرين مدرسة ومارسنانين ، بله المساجد الكثيرة ، تقوم بالإنفاق على من يؤمها طلبا للعلم من الأوقاف الكبيرة .

كما ذكر الرحالة المذكور أنه كان « للصبيان على قراءتهم جارية معلومة ، فأهل البجده من آبائهم ينزهون أبناءهم عن أخذها ، وسائرهم يأخذونها ، وهذا من المفاخر الإسلامية (٤) » .

أسس صلاح الدين المدارس الكثيرة في الشام ومصر ، نذكر مثلا المدرسة الصلاحية التي أنشأها في القدس الشريف ، وهي غير المدرسة الصلاحية القاهرة التي أنشأها بجوار ضريح الإمام الشافعي ، وقد سماها السيوطي بتاج المدارس .

وأسس أيضا أخوه أسد الدين شيركوه مدرسة في دمشق للحنفية

(١) ابن واصل : مفرح الكروب ، ج ١ ص ٢٨٢ .

(٢) كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ص ١٢٧ .

(٣) النعماني : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ١٧٨ .

(٤) رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٢ .

والشافعية ، وهي في الشرف القبلي ظاهر دمشق (١) . كما أن المظفر تقي الدين عمر أسهم في إنشاء دور العلم ، فقد عرف عنه أنه عندما كان في القاهرة اشترى منازل المعز وجعلها مدارس للشافعية كما رأينا ، وفعل مثل ذلك لما عاد إلى الشام فأنشأ المدرسة التقوية ، وهي من أجمل مدارس دمشق داخل باب الفراديس ، وكانت تسمى نظامية الشام (٢) ، وله في حماة مدرسة هائلة - كما يقول النعيمي - دُعيت باسم المدرسة المظفرية (٣) ، وقد تم بناؤها بعد أن أصبح ملكاً عليها .

سار خلفاء صلاح الدين على سنته ، فعرف عن ابنه الملك الظاهر صاحب حلب أنه عمرت في أيامه المدارس الكثيرة ، منها الظاهرية البرانية (٤) التي أنشأها بدمشق سنة ٦١٣ هـ . وجدير بالذكر أنه سمع بالإسكندرية من ابن عوف ، وبمصر من ابن برقي وبدمشق من الفضل البانياسي ، وحدث بحلب قبل أن يلي سلطنتها ثلاثين عاماً .

أجرى الظاهر الأوقاف الكثيرة على المدارس ، فعندما أنشأ قاضييه ابن شداد المدرسة الصاحبية قرر لها إقطاعاً جيداً ، واستدعى الفقهاء من كل الأمصار ليجمع حلب الشهباء كعبة العلم والعلماء .

وجاء الملك العادل فأسس المدارس الكثيرة ، نذكر منها العادلية الكبرى والعادلية الصغرى . أما العادلية الكبرى فيذكر ابن شداد أن نور الدين أول من أنشأها ، وتوفي ولم تتم ، ثم بنى بعضها الملك العادل سيف الدين ، وتوفي ولم تتم ، فأنتمها ولده الملك المعظم ، وأوقف عليها الأوقاف . غير أن النعيمي يخالف رأي ابن شداد ، ويقول : « رأيت أنا ما كان بناء نور الدين وما بعده منها ، وهو موضع المسجد والمحراب الآن ، ثم لما بناه الملك العادل أزال تلك العمارة ، وبنّاها هذا البناء المتقن

(١) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ١٥٢ ، ٤٧٣ .

(٢) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٢١٦ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٦ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٤٠ .

المحكم الذي لا نظير له في بنيان المدارس (١) . وعلق النعمي بعد ذلك مشيراً إلى مكان جمعه كتابه (المدارس في تاريخ المدارس) (٢) .

أما العادلية الصغرى فقد أنشأها ابنته زهرة خانون ، وشرطت للمدرسة مدرساً ومعيداً وإماماً ومؤذناً وبواباً وقما وعترين فقيهاً ، ووقفت الجهات المذكورة . . . منها ما هو على مصالح المدرسة ومصارفها (٣) .

أنشأ الملك المعظم ابن الملك العادل للحنفية المدرسة المعظمية (٤) لأنه يشتغل على مذهب أبي حنيفة وهو أديب فقيه ، يحفظ القرآن . وقد سمع المسند كله لابن حنبل ، وشرح الجامع الكبير في عدة مجلدات ، وأول من درس في هذه المدرسة مجد الدين قاضي الطور .

وإذا كان نور الدين رائد المهتمين بالحديث النبوي في العصر الزنكي فإن الأشرف موسى بن العادل رائدهم في العصر الأيوبي ، إذ أسس مدرستين كبيرتين خاصتين بدراسة الحديث النبوي وهما دار الحديث الأشرفية الجوانية ، ودار الحديث الأشرفية البرانية .

أما الأولى فكانت في الأصل دار الأمير صارم الدين قايمساز بن عبد الله النجمي ، فاشتراها الملك الأشرف وجعلها دار حديث ، وكان إلى جانبها حمام ، فخربه وبناه مسكناً للشيخ المدرس بها . وتم بناؤها سنة ٦٣٠ هـ وافتتحت ليلة النصف من شعبان ، وأملى بها الشيخ تقي الدين ابن الصلاح الحديث ، وقد جعل بها نعل النبي صلى الله عليه وسلم ، وجلس في هذه السنة يسمع صحيح البخاري .

درس في هذه المدرسة كبار علماء الشام من محدثين وغيرهم مثل ابن الحرستاني ، وأبي شامة المقدسي ، والنواوي ، وابن الوكيل ، وابن

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٥٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٥٩ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٦٨ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٨٥ .

الزملكاني ، والحافظ المزني ، والسبكي ، وابن كثير (١) .

وأما الثانية فكانت بسفح جبل قاسيون على حافة نهر يزبد . بناها أيضاً الملك الأشرف للحافظ جمال الدين المقدسي المتوفى سنة ٦٥٩ هـ ، وجملته شيخها ، وقرر له معلوماً ، فمات قبل الفراغ من بنائها وأول من درس بها القاضي شمس الدين بن أبي عمر (٢) .

وجاء الملك الناصر يوسف بن العزيز ، وملك دمشق وحلب ، وقد أسس دار الحديث الناصرية (٣) ، والمدرسة الناصرية الجوانية ، وهي داخل باب الفرايدس شمال الجامع الأموي . تم الفراغ من بنائها سنة ٦٥٣ هـ ، وأول من درس بها قاضي القضاة صدر الدين بن سني الدولة ، ثم ابنه نجم الدين ، ثم القاضي شمس الدين بن خلكان ، ثم الشيخ شمس الدين الفارقي (٤) .

لم يقتصر الاهتمام ببناء المدارس ودور الحديث على الملوك الأيوبيين ، وإنما تعداهم إلى نسائهم من الأميرات الخواتين . ذكر الرحالة الأندلسي ابن جبير ذلك فقال : « ومن الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة ، وتنفق فيها الأموال الواسعة ، وتعين لها من مالها الأوقاف (٥) » .

نذكر من الخواتين الأيوبيات ست الشام الخاتون أخت الناصر صلاح الدين التي أنشأت مدرستين للشافعية ، وهي الشامية البرانية والشامية الجوانية .

وأما الشامية الجوانية ففيها توفيت ست الشام ونقلت إلى تربتها في

(١) النسي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ١٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٩ .

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ١١٥ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥٩ .

(٥) رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٥ .

وأكثرها أوقافاً (١) ، وقد شرطت في وقفها الا يجمع المدرس بينها وبين غيرها ، وكان أول من درس فيها سنة ٦١٥ هـ شرف الدين عبد الله بن علي القرشي الدمشقي .

وأما الشامية الجوانية ففيها بوفيت ست الشام ونقلت الى تربتها في الشامية البرانية ، وكان قد وقفت بعض أوقافها على الفقهاء المستغنيين بها ، وعلى المدرسين فيها ، وشرطت أن يكونوا من أهل الخير والعفاف والسنة ، غير منسويين إلى شر أو بدعة (٢) ، وشرطت ألا يزيد عدد الفقهاء والمتفقهة بهذه المدرسة على عشرين رجلاً من جملتهم معيها وإمامها ، وذلك خارج عن المدرس والمؤذن والقيم (٣) .

نذكر من هؤلاء الخواين أيضاً من غير الأيوبيات زمرد خاتون ابنة الأمير جاولي وزوج تاج الملوك بوري ، وكانت تحفظ القرآن ، وتروي الحديث ، وتنسخ الكتب . وقد بنت المدرسة الخاتونية البرانية للحنفية بصنعاء الشام ، وهو مكان يطل على وادي الشقراء ، وهي من كبار مدارسهم وأجودها معلوماً (٤) .

أما المدرسة الخاتونية الجوانية ، فهي بمحلة حجر الذهب ، أنشأها الخاتون عصمة الدين بنت الأمير معين الدين أنر زوج نور الدين ثم صلاح الدين من بعده ، وكانت مدرستها خاصة بالحنفية كسابقتها (٥) .

أما رابعة الأميرات الخواتين فهي مؤسسة خاتون بنت الملك المظفر صاحب حماة ، وقد أنشأت فيها مدرستها الخاصة بها ، ووقفت عليها وقفاً جيداً وكنباً كثيرة (٦) .

(١) النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٢٧٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٠٢ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٠٣ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٠٣ .

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٠٧ .

(٦) كرد علي : ختل الشام ، ج ١ ص ٢٦٥ - ٢٦٧ .

ترك الملوك الأيوبيين لنقف قلبلا عند بعض العلماء والتجار الذين أسهموا بدورهم في بناء المدارس ، ونذكر منهم زكي الدين بن رواحة الحموي الناجر المعدل ، وقد أنشأ مدرستين كبيرتين للشافعية : إحداهما في دمشق والأخرى في حلب ، وشرط ألا يدخل مدرسته بهودي ولا نصراني ولا حنبلي حنوي (١) ، وأول من درس فيها القاضي شرف الدين أبو طالب عبد الله بن أبي بكر القرشي الدمشقي .

جاء عصر سلاطين المماليك ، وتنافسوا كسابقهم في إنشاء المدارس في دمشق فازدادت زيادة كبيرة ، حتى إن الرحالة ابن بطوطة عجب من وفرتها ، وذكر أنه لا يحيط أحد يحصرها لكثرتها (٢) ، وقال القلقشندي : إن هؤلاء السلاطين بنوا من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها (٣) .

نذكر منهم الظاهر بيبرس الذي أنشأ المدرسة الظاهرية الجوانية لتكون تربية له ، وكانت من قبل دار العقيقى مسكن نجم الدين أيوب والد الملوك الأيوبيين ، فاشتراها وبناها مدرسة ودار حديث سنة ٦٧٠ هـ ، واستغرق بناؤها سبع سنين ولم تتم ، وابتدأ التدريس فيها قبل تمامه للحنفية والشافعية ، وحضر درسها الأول يوم افتتاحها نائب السلطنة في دمشق أيدمر الظاهري ، ومعه العلماء والقضاة . وأول من درس فيها من الحنفية الشيخ صدر الدين بن سليمان ، ومن الشافعية الشيخ رشيد الدين الفارقي . أمر باكمال هذه المدرسة بعد وفاة مؤسسها الظاهر المنصور قلاوون (٤) .

اكتفينا في حديثنا عن المدارس في العصر الأيوبي بذكر التاجر الحموي المعدل ابن رواحه ، ونكتفي في حديثنا عن العصر المملوكي بذكر العالم المحدث الأمير علم الدين سنجر ، أحد نجباء الأتراك وأمرائهم ، وله مشاركة

(١) النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٢٦٥ - ٢٦٧ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ص ٧٠ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

(٤) النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٣٥١ ، ٥٤٣ .

جيدة في الفقه والحديث ، وقد وقف رواقه داخل باب الفرج دار حديث ومدرسة . وولى متبختها علاء الدين بن العطار ، وعند افتتاحها حضر عنده القضاة والأعيان وعمل لهم ضيافة (١) .

امتاز هذا العصر بظهور مدارس للطب ، وقد سبقت بلاد الشام غيرها في هذا المضمار ، نذكر منها مثلاً المدرسة الدخارية (٢) ، الواقعة قبلي الجامع الأموي . أنشأها مذهب الدين عبد الرحيم بن حامد المعروف بالدخوار سنة ٦٣١ هـ ، والمدرسة اللبودية النجمية (٣) ، وقد أنشأها نجم الدين يحيى بن محمد بن اللبودي سنة ٦٤٤ هـ ، والمدرسة الدنيسرية (٤) الواقعة غربي البيمارسنان النوري ، وقد أنشأها عماد الدين أبو عبيد الله محمد بن عباس الربيعي الرئيس الطبب الحاذق ، وقد سميت هذه المدرسة باسم المدينة التي ولد فيها وهي دنيسر .

نلاحظ أن الفضل في إنشاء المدارس الطبية يرجع إلى الأطباء أنفسهم ، وكانت تمد البيمارسنانات الكثيرة بمن تخرجه من طلبتها ، أما السلاطين فقد أكثروا بدورهم من هذه المشافي العامة ، نخص بالذكر منهم نور الدين والمنصور قلاوون وغيرهما .



بحسن بنا بعد هذا العرض المسهب لدور العلم أن نتحدث عن النظام المتبع فيها ، وكان كثير منها لا يقل عن الجامعات المعروفة في عصرنا من حيث نظام الدراسة وهيئة التدريس ، فان لكل مدرسة مدرسيها ومعيديها وإمامها ومؤذنها وخادمها وقيمها بالإضافة إلى طلابها الذين كانوا يدعون بالمتفقهة . وقد رأينا تفصيل ذلك في وفف المدرسة العادلية الصفري ، ورأينا طريقة توزيع الوقف على المسحقين .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٥ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣٥ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣٢ .

أما رأس هذه المدرسة فكان الشيخ الذي رسم السلطان أو من يئوب عنه بتعيينه ، وكان عادة من أقدم المدرسين وأرسخهم في العلم والدين .

قد يكون من المناسب هنا أن نذكر الفرق بين المدرس والمعيد ، ولكن تاج الدين السبكي كفانا مؤنة الحديث عن المدارس فقال : « وحق عليه أن يحسن إلقاء الدروس وتفهيمة للحاضرين ، ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقى عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات ، بل يدرسه ويأخذهم بالأهون فالأهون ، إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق (١) .

ثم تطرق إلى المعيد فقال : « المعيد عليه قدر زائد من سماع الدرس : من تفهيم بعض الطلبة ، ونفعهم ، وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة وإلا فهو والفقيه سواء (٢) » .

أما الطلبة المتفهمة فكان عددهم في معظم الأحيان محدودا بحسب شرط الواقف ، كما مر معنا في المدرسة العادلية الصغرى . وينقسم الطلاب إلى أقسام بحسب قدمهم في الدراسة والاختصاص ، فمنهم الفقيه المقيد ، وعليه أن يعتمد ما يحصل فيه بالدرس فائدة من بحث زائد على بحث الجماعة ، ولعله يعادل في نظمنا طالب الماجستير ، ومنهم الفقيه المنتهى ، وعليه من البحث والمناظرة فوق ما على من دونه كطالب الدكتوراه الآن .

أما سائر الطلاب فهم الجماعة العامة ، وهم فوق بعض درجات ، يتلقون مختلف العلوم الدينية وغيرها من العلوم اللغوية والتاريخية والجدلية .

ننتقل إلى طريقة تعليم الصبيان المبتدئين ، وهي تختلف في المشرق عنها في المغرب ، كما لاحظ ذلك الرحالة الأندلسي ابن جبير ، فتحدث عنها بالتفصيل خلال زيارته الجامع الأموي ، ورؤيته الحلقات الكثيرة فيه ، لا تنقطع ليل نهار ، ومما قاله : « وفي هذا الجامع مجتمع عظيم كل يوم إثر صلاة الصبح

(١) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١٠٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

لقراءة القرآن دائما ، ومثله إثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكثرية . يقرؤون فيها من سورة الكوثر الى الخاتمة ، ويحضر في هذا المجمع الكوثرى كل من لا يجيد حفظ القرآن وللمجتمعين على ذلك إجراء كل يوم ، يعبش فيه أكثر من خمسمائة إنسان . وعند فراغ المجمع السبعى من القراءة صباحا يستند كل إنسان منهم الى ساريه ، ويجلس أمامه صبى يلغنه القرآن ، وللصبيان على قراءتهم جراية معلومة . وتعلم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المتفرقة كلها إنما هو تلغين ، ويعلمون الخط في الاشعار وغيرها ، تنربها لكاتب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالانبات والمحو . وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة ، فبئسفصل من التلقين الى الكيب ، لهم في ذلك سره حسنة . ولذلك ما يتأنى لهم حسن الخط ، لأن المعلم له لا شتغل بغيره ، فهو يستفرغ جهده في التعليم ، والصبى في التعلم كذلك ، ويسهل عليه لأنه بتصوير يحذو حذوه (١) .

هذا القول غنى عن كل بيان ، ففيه الفناء ، والقول الوافي ، إذ يعرض لنا طرق أهل المشرق بعامة ، والشام بخاصة في التعليم . يبدوون بالقرآن تلاوة وبالشعر حفظا وخطا .

تلك هي الثقافة العامة في هذا العصر ، يتدرج الطالب في مراحل تعلمه حتى يصبح فعيها منتهيا ، ويختص بعلم من العلوم التي يؤثرها ، وينال إجازته العلمية ، ويشهد المدرس لطالبه أنه أتم دراسته ، وأصبح أهلا للتدريس والفتوى ، ويمنحه الاجازة العلمية ، فيذكر فيها اسم الطالب وشيخه المجيز ومذهبه وناريخ الإجازة وغير ذلك .

نتسير الى أنواع أخرى من الإجازات العلمية عرفها أبناء هذا العصر منها الإجازة بعراضة الكتب (٢) ، فيحفظ الطالب كتابا في الفقه أو الحديث أو الادب أو النحو أو التاريخ ، ثم يعرضه على مدرسه فيخبره فيه في عدة أماكن من الكتاب ، فإذا أحسن الاجابة ولم يخطئ فيه كتب له الإجازة في ذلك ، وقال فيها : « عرض علي فلان . . . » ، أو « عرض على وكثبه فلان » ، وتوقف قيمة الإجازة على شهرة الأستاذ المجيز .

(١) رحلة ابن جبر ، ص ٢٢٢ .

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٤ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

القِسْمُ الثَّالِثُ

نواحي الثقافة العامة

نشطت الحركة الثقافية في هذا العصر نشاطاً ملحوظاً ، ويضيق بنا البحث لو حاولنا الإلمام بكل الاتجاهات العامة . ولا نعرف في تاريخ الحضارة الإسلامية عصر خصب ثقافي ، ونضج فكري ، وغزارة في التأليف والتصنيف كمثل ما نشاهد في هذا العصر الذي نُورِخه .

والغريب حقا أن تبقى الدراسات الأدبية حوله نزرة ، والمؤسف أن تهمل آثاره المخطوطة ، إذ لا يزال معظمها في زوايا النسيان ينتظر الحانية التي تنفض عنه الغبار المتراكم على توالي السنين .

ظهر التخصص في التأليف عند الكتاب ، ومرد ذلك النضج في التفكير ، والتعمق في الأبحاث ، مما دفع السيوطي إلى تصنيف العلماء ضمن زمر خاصة بحسب العلوم التي يغلب عليهم فيها التأليف . ذكر فقهاء المذاهب الأربعة ، وخص كل مذهب بجماعة ، وذكر المحدثين ونقاد الحديث ، وأئمة القراءات وأئمة اللغة والنحو والصرف ، وأرباب المعقولات وأشهر المؤرخين والناهبين من الأدباء والشعراء .

سنحاول في هذه الدراسة أن نلم بثتى نواحي الثقافة العامة ، ونذكر أبرز

ما ألف في علوم اللغة العربية ، والعلوم الاجتماعية والتاريخية ، والعلوم العقلية والعلمية .

(١)

علوم الدين

لقيت العلوم الدينية كل الاهتمام في هذا العصر لما لمس العلماء والفقهاء من تأييد وتشجيع من قبل السلاطين والأمراء . فلا غرابة ان رأينا حركة نشيطة تناول إحياء علوم الدين في الأصول والفروع، وكان نتيجة ذلك حدوث ثورة دينية كان على رأسها إمام العصر الأكبر ابن تيمية . يؤده جماعة من تلامذته دعاة الإصلاح، وقد ظهر أثر ذلك في حركة التأليف التي شملت القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه .

القرآن الكريم

ما عرف العالم كله كتاباً دينياً حظي بالعناية والدرس والبحث ما حظي به القرآن الكريم ، فهو أول كتاب يتناول التأليف فيه تفسيره وقراءته وغريبه ومجازه وأمثاله ومفرداته وغير ذلك .

تميز هذا العصر بأن البحث في القرآن لم يكن تقليداً للمفسرين السابقين، وإنما كان يقايره قلبلاً أو كثيراً تبعاً للمذاهب الدينية أولاً ، والمفسرين أنفسهم ثانياً . أما الذين صنفوا في التفسير فهم كثيرون، نذكر منهم سليم بن أيوب (المتوفى سنة ٥٤٧ هـ) الذي صنف مجلداً كبيراً في تفسير القرآن (١) ، ومحمد بن ظفر

(١) كرد علي : خطط الشام ، ج ٤ ، ص ٤١ .

(المتوفى سنة ٥٦٥ هـ) الذي صنف - وهو في حماة - تفسيره « يثبوع الحياة (١) »
« والتفسير الكبير » ، و « إكسير كيمياء التفسير » ، وعز الدين بن عبد السلام
الذي صنف « التفسير والمجاز في القرآن » ، وعلي بن إبراهيم الفزوني (٢) ،
وهو تلميذ الزمخشري ، وقد فرغ من تفسيره للقرآن الذي سماه « تفسير
التفسير » في حلب سنة ٥٧٢ هـ . وسبط ابن الجوزي (المتوفى سنة ٦٥٤ هـ)
الذي صنف تفسيره « معادن الأبريز » في تسعة وعشرين مجلدا (٣) ، وشرف
الدين هبة الله بن البارزي (المتوفى سنة ٧٢٨ هـ) الذي صنف تفسيرين :
أحدهما « البستان » (٤) في ست مجلدات ، وله « الناسخ والمنسوخ » و
« بدائع القرآن » (٥) ، وتقي الدين أحمد بن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨ هـ)
الذي أقبل على التفسير إقبالا منقطع النظر ، فكان يأخذ في تفسير القرآن
أيام الجمعة على كرسي معتمدا على حفظه دون أن يستعين في الإلقاء بشيء .
ومن المفسرين أخيراً : قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة ، وقد قال عنه
السبكي في طبقاته : « حاكم الإقليمين مصراً وشاماً » ، وناظم عقد الفخار الذي
لا يسامى (٦) » ، وكان قد وضع تفسيراً سماه « كشف المعاني » .

أما قراءات القرآن ، فقد عني بها المسلمون منذ انزل على محمد (ص) ،
وقراه المسلمون على أحرفه السبعة ، لم تكن القراءات السبع متميزة حتى
قام الإمام أبو بكر أحمد بن مجاهد وكان على رأس المائة الثالثة ببغداد ، فجمع
قراءات سبعة من مشهوري أئمة الشام والحرمين والعراقين ، وهم أبو عبد الله
نافع إمام قراء المدينة بعد التابعين (المتوفى سنة ١٦٩ هـ) ، وعبد الله بن كثير
إمامهم في مكة (المتوفى سنة ١٢٠ هـ) ، وأبو عمر زبان بن العلاء أمامهم بالبصرة

(١) ابن الوردي : تمة المختصر ، ج ٢ ص ٨٧ .

(٢) السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٥٣ ، وابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣
ص ١٤٤ .

(٣) ابن تفرج بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٤٦١ .

(٤) الصفدي : أعيان مصر (مخطوط) ج ٧ و ٢٥٤ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٧ و ٢٥٤ .

(٦) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١٣٩ .

والكوفة (المتوفى سنة ١٢٧ هـ) ، وأبو عمار حمزة بن حبيب الكوفي (المتوفى بحلول سنة ٢٥٧ هـ) ، وعلى بن حمزة الكسائي (المتوفى سنة ١٨٩ هـ) ، وأبو عمران عبد الله بن عامر الحصبى الحميرى ، إمام أهل الشام في القراءة ، وقد ولد في البلقاء بقرية رحاب سنة ٨ هـ ، ودخل دمشق بعد فتحها ، وتوفي فيها سنة ١١٨ هـ .

يتضح مما تقدم عناية المسلمين بعلم القراءات منذ فجر الإسلام وكان لكل قارئ من القراء السبعة رواة يأخذون عنه أصول القراءة . حتى إذا جاء القرن السادس الهجرى ظهر في الاندلس القاسم بن قبره الشاطبى المقرئ الضرب (١) (المتوفى سنة ٥٩٠ هـ) ، ونظم في القراءات ورسم المصحف قصيدتين : هما « حرز الأمانى » و « الرائية » ، وقد وفد هذا المقرئ على مصر ، ودرس فيها ، فذاع صيته وانتهت إليه رئاسة الاقراء بمصر .

تناول علماء مصر والشام القصيدتين الشاطبيتين بالتقليد والشرح . فمن الذين قلدها ابن مالك ، إذ نظم قصيدة دالة في القراءات على طريقة الشاطبي (٢) وهى « قصيدة مرموزة في مقدار الشاطبية » (٣) ، غير أنها لم تشتهر شهرة سابقتها . ومن الذين شرحوها شهاب الدين أبو شامة المقدسى (المتوفى سنة ٦٥٥ هـ) ، وأحمد بن يوسف الحلبي (المتوفى سنة ٧٥٦ هـ) ، وهبة الله بن البارزى في كتابه « السرعة في القراءات السبعة (٤) » ، وعلم الدين السخاوى (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ) ، وكان قد قرأ الشاطبية على ناظمها ، وصنف شرح الشاطبية (٥) .

وأما أشهر القراء فهزم علم الدين القاسم بن أحمد المرسى شيخ القراء (المتوفى سنة ٦٦١ هـ) ، وكمال الدين إبراهيم بن فارس التميمي شيخ قراء

-
- (١) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٢١٢ .
 (٢) ابن تعري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ح ٣ و ١٩٠ .
 (٣) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ح ٧ ص ٢٤٤ .
 (٤) الصفدي : أمان العصر (مخطوط) ج ٤ ، ق ٢ ، و ٢٥٤ .
 (٥) ابن الوردي : ثمة المختصر ، ج ٢ ص ١٧٢ .

دمشق (المتوفى سنة ٦٧٦ هـ) ، وأمين الدين القاسم بن أبي بكر الإربلى
(المتوفى سنة ٦٨٠ هـ) .

الحديث الشريف

لن نبالغ ان قلنا ان هذا العصر هو عصر الحديث النبوي الذهبي ، ففيه
انشئت أول دار حديث في التاريخ الإسلامي ، وفيه نشهد المرأة تشترك في
إتقان علم الحديث رواية ودراية ، وبلغ الأمر ان بعض النسوة افردن بروايات
لم تسمع من غيرهن .

ولعل اهتمام السلاطين كان عاملا من عوامل هذه النهضة الحديثة ، نشير
منهم بصورة خاصة الى نور الدين وصلاح الدين . أما الاول فقد أثر عنه أنه
سمع الحديث واسمعه طلبا للأجر (١) ، وذكر عنه أنه حدث بحلب ودمشق عن
جماعة من العلماء أجازوا له : منهم أبو عبد الله بن رفاعة بن عذير السعدي
المصري وهو محدث رحلة ، روى عنه جماعة من فضلاء الشيوخ مثل أبي
الفضل أحمد ، وأبي البركات الحسن ، وأبي منصور عبد الرحمن بن هبة
الشافعي (٢) .

أشار ابن واصل الى اهتمام نور الدين بالحديث وتلاوته حتى في وقت
انشغاله بالحروب ، وحدث ذات مرة أنه قرىء بين يديه حديث مسلسل
بالتبسم فطلب منه بعض طلبية أن يبتسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادات
رواة الحديث ، فغضب من ذلك ، وقال : « اني لأستحيي من الله أن يراني
مبتسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج (٣) » .

كما ذكر أبو شامة ان الشيخ أبا البركات الحسن بن هبة الله لما حضر مع
عمه الحافظ أبي القاسم مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث مر في أثناء
الحديث ان النبي (ص) خرج متقلداً سيفاً ، فاستفاد نور الدين امرأ لم يكن
يعرفه وقال : « كان رسول الله (ص) يتقلد السيف! (٤) » ، ويشير الى التعجب

(١) أبو شامة : الروشتين ، ج ١ ص ٦ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٢ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(٤) أبو شامة ، الروشتين ، ج ١ ص ١١ .

من عادة الجند ، اذ هم على خلاف ذلك لأنهم كانوا يربطونه بأوساطهم . وفي
الغد اجتمع الناس تحب الفلعة ينتظرون ركوب السلطان ، فخرج نور الدين ،
وهو منقلد السف ، وجميع جنده كذلك .

لاعجب ان رأيناه بعد كل هذا الاهتمام ينشئ دور الحديث في بلاد الشام ،
وتلتها مصر بعد ذلك فأنشأ في القاهرة الملك الكامل الأيوبي اول دار للحديث .

وأما صلاح الدين فكان أيضا كثر السماع للحديث النبوي (١) . ذكر
قاضييه ابن شداد أنه كان يلو الحديث بنفسه ، وأنه كان يستحضره في خلوته ،
ويحضر نبيئا من كسب الحديث ، وبقروها ، فاذا مر بحديث فيه عظة وعبرة
رق قلبه ودمع عينه (١) .

كما ذكر ابن واصل أنه سافر الى الاسكندرية سنة ٥٧٧ هـ ، وقال
لأولاده : « نفتنم حياة الشيخ أبى طاهر بن عوف (٢) » ، فحضر عنده مع
أولاده ، وسمع عليه موطأ مالك بن أنس بروايته عن الطرطوشي في العشر الأخير
من شوال ، وتم له ولأولاده السماع .

كذلك كان شأنه في أيام السلم النزره في حياته الحافلة بالجهاد ، يختلسها
طلبا للأجر والتواب ، وكذلك كان شأنه في لبالي الحرب المتواصلة ، فقد ذكر
ابن شداد أنه ليلة فتح صفد سنة ٥٨٥ هـ كان بحرس مع جنده ، فروي له
الحديث المشهور في الصحاح : « عينان لا تمسهما النار ، عين باتت تحرس في
سبيل الله ، وعين بكث من خشية الله (٤) » ، فدمعت عيناه وبكى من خشية الله .

كثر المحدثون في هذا العصر كثرة غريبة ، وما جئنا في هذه الدراسة لنحيط
بهم جميعاً ، غير اننا نقف عند مشاهيرهم ممن كانوا رحلة المحدثين من كل

(١) اس شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨ .

(٣) ابن واصل : مفرح الكروب ، ج ٢ ص ١١٢ .

(٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٠ .

قطر. منهم محدث الشام ومؤرخها الحافظ أبو القاسم علي بن عساكر الدمشقي (المتوفى سنة ٥٧١ هـ) ، وكان من أعيان الشافعية ، وشيخ أئمة الحديث . ذكر أبو شامة أنه حضر مجلس صلاح الدين لما تملك دمشق ، فرأى فيه من اللفظ وسوء الأدب من الجلوس فبه ما لاحد عليه ، فشرع يحدث صلاح الدين ، كما كان يحدث سلفه نور الدين ، فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المحدثين وقلة استماعهم . فقام وبقي مدة يمتنع فيها عن حضور المجلس الصلاحي ، وتكرر من السلطان طلبه فحضر ، فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه عنه فقال : « نزهت نفسي عن مجلسك ، كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين ، تعلمونا الهيبة والوقار فاذا تكلم انصتنا ، واذا تكلمنا استمع لنا » (١) ، فطلب صلاح الدين الى اصحابه ألا يكون منهم ما جرت به عادتهم اذا حضر الحافظ .

لم يقصر هذا المحدث اهتمامه على حفظ الاحاديث ، بل كان حسن الكلام عليها (٢) ، الف فيها جملة كتب تتعلق بروايتها . منها ما كتبه في روايات أهل داريا ، وكفرسوسة ، وصنعاء دمشق ، والربوة ، والنيرب ، ومن حدث بها ، وأهل الحميريين ، وقبية ، ونذايا ، وبيت أرناس ، وبيت قوفا ، والبلاط ، وبيت سوا ، ودومة ، ومسرابة ، وحرستا ، وكفر بطنا ، ولاقانية ، وحجيرة ، وعين شرماء ، وجديا ، وطرميس ، وبيت لهيا ، وبرزة ، وذكر أيضا المحدثين من أهل منين وبعليك (٣) .

وهذا يدلنا على تقدم علم الحديث والعناية به في القرن السادس ببلاد الشام وغيرها في عصور الدول المتتابعة .

أوصى ابن عساكر طلبة الحديث بقصيدة له ، شرح لهم فيها أهمية علم الحديث وأنه أجل علم ، وطلب اليهم الرحلة في سبيله ، وسماعه من أفواه

(١) أبو شامة : الروشتين ، ج ١ ص ١٠ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٣) كرد علي : خطط الشام ، ج ٤ ص ٤٨ :

الرجال لأن ذلك أجدى عليهم من الصحف ، فقد ترمى وتضيع ، وقد تمزق
وتصحف (١) .

ومن محدثي هذا العصر أيضا تقي الدين عثمان بن الصلاح (المتوفى
سنة ٦٤٣ هـ) وكان أبوه من جلة مشايخ الافراد المشار اليهم ، اشتغل ببغداد
على شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون ، وبولى بعدئذ التدريس في المدرسة
الاسدية بحلب . أما ابنه تقي الدين فقد فرأ المذهب على عمر بن السوردي ،
وكرره عليه في صغره ، وتولى الإعادة لعماد الدين بن يونس بالموصل ، ثم
ارتحل في طلب الحديث الى خراسان ، وعاد بعد استكمال إجازاته ، فتولى
التدريس في المدرسة الناصرية بالقدس . ثم تولى التدريس في المدرسة الرواحية
بدمشق ، فذاع أمره ونشر ذكره . فبنى له الملك الأشرف دار الحديث
الأشرفية بدمشق كما مر معنا ، وولاه التدريس فيها ، كما درس أيضا في
المدرسة التي بنتها ست الشام زمرد خاتون . ومن مصنفاته « مناسك الحج »
و « إشكالات » وغيرها . وقد جمع فناويه بعض تلامذته (٢) .

ومنهم أيضا محيي الدين شرف الدين النووي ، ولد بقرية نوى من قرى
دمشق ، وبها نشأ . ولما صار في التاسعة عشرة من عمره قدم به أبوه الى
دمشق ، فسكن بالمدرسة الرواحية ، وكان معاشه من جراية المدرسة الموقوفة
كمعظم مدارس دمشق على طلبتها . حفظ النبيه وقرأ الصحيحين والسنن
الأربع ، وولي بعدئذ منيخة دار الحديث بدمشق ، فأبى أن يتناول من وقفها
شيئا . كما كان يملئ على المشايخ شرحاً وتصحيحاً اثني عشر درساً في إصلاح
المنطق ، وربما في أصول الدين (٣) .

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ١ ص ٢٣٥ ، وابن الوردي : تمة المختصر ،
ج ٢ ص ٧٨ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ١ ص ٣١٢ ، ٣١٣ ، وابن الوردي : تمة
المختصر ، ج ٢ ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٣) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ، ج ٣ و ٤٥٠ .

أشتهرت تصانيفه كثيراً في حياته ، نخص بالذكر منها « متن الأربعين حديثاً النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية » و « شرح مسلم » و « الارشاد في علوم الحديث » وغيرها من التصانيف .

ومن المحدثين أخيراً الحافظ جمال الدين يوسف بن أبي الزهر المزري محدث الشام ومصر ، وقد تضلّع من علم الحديث رواية ودراية ، وولّى دار الحديث الأشرافية . وكان عارفاً بتراجم رجال الحديث ، واليه تشد الرحال قال عنه ابن تيمية : « لم يل هذه المدرسة حين بنائها والى الآن أحق بشرط الواقف منه ، لأن الواقف قال : فإن اجتمع من فيه الرواية ، ومن فيه الدراية قدم من فيه الرواية (١) » .

أما طريقته في الرواية فذكر عنه أنه كان يترخص في الأداء من غير أصول ، ويصلح كثيراً من حفظه ، ويتسامح في دمج القارئ ولفظ السامعين ويتوسع ، فكان يرى أن العمدة على إجازة السمع للجماعة . وله في ذلك مذاهب عجيبة وكان يتمثل بقول ابن منك : « ويكفيك من الحديث شمه (٢) » .

ومن المحدثين القطب اليونيني ، وقد عرف عنه أنه جمع الأصول التي قابل عليها صحيح البخاري بحضرة ابن مالك ، وأمامه جماعة من العلماء بيد كل منهم نسخة معتمدة ، وعمل ابن مالك الضبط والتصويب في أحد وسبعين مجلساً .

نذكر بالإضافة إلى هؤلاء الاعلام محدثين آخرين : منهم هبة الله بن أحمد الأكفاني الأمين المحدث (المتوفى سنة ٥٢٤ هـ) ، ومسند دمشق الحسين الأسد (المتوفى سنة ٥٥١ هـ) ، والحسن بن هبة بن صصري التقلبي (المتوفى سنة ٥٨٦ هـ) ، وأبو طاهر بركات الخشوعي (المتوفى سنة ٥٧٨ هـ) ، وثقي الدين اسماعيل بن عبد الله الأنماطي (المتوفى سنة ٦١٩ هـ) ، ومحمد

(١) ابن تفردي بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٥٨ ؛

(٢) المصدر السابق .

بن عبد الوهاب السعدي (المتوفى سنة ٦٦٣ هـ) ومحمد بن جعوان (المتوفى سنة ٦٨٢ هـ) . ومسند دمشق موسى عبد القادر الجبلي (المتوفى سنة ٦١٨ هـ)



انصرفت النساء الى رواية الحديث انصرافا كلياً ، لم نعهد له مثيلاً في تاريخ الدراسات الاسلامية ، ولن نبالغ ان قلنا ان هذه الدراسة تضيق عن استيعاب أسماء المحدثات اللواتي عرفن في هذا العصر . نذكر منهن مسند الشام أم الفضل كريمة بنت عبد الوهاب بن علي القرشبة الزيرية المعروفة بـ (بنت الحقبقي) المحدثنة (المتوفاة سنة ٦٤١ هـ) ، وفاطمة بنت عساكر (المتوفاة سنة ٦٨٣ هـ) . وفاطمة بنت أحمد بن صلاح الدين يوسف (المتوفاة سنة ٦٧٨ هـ) ، وزينب بنت علي أحمد بن فضل الصالحية ، وعائشة بنت عيسى بن الموفق القدسي (المتوفاة سنة ٦٩٧ هـ) ، وخانون بنت يونس بن محمد بن العادل (المتوفاة سنة ٦٩٧ هـ) (١) ، وست الشام أم محمد صفية بنت الشيخ المحدث مجد الدين أحمد بن ميسرة الأزدي (المتوفاة سنة ٧٠٤ هـ) (٢) ، والسيدة الجليلة أم محمد تهدة ابنة الصاحب كمال الدين بن العديم (المتوفاة سنة ٧٠٩ هـ) ، وقد سمعت بحلب من الكاشغري حضوراً ، واجازها جماعة من المحدثين (٣) وقد انصرفت هذه المحدثات الى الرواية بعد ان تزهدت ، فترك اللباس الفاخر ، وانفردت بالرواية عن الشيخ ضياء الدين عمر بن سعيد الموصلبي حضوراً ، ولم يرو عنه سواها (٤) .

ومن المحدثات أخيراً ست الوزراء الشيخة المسندة رفيقة الحجار أم عبد الله بنت القاضي شمس الدين عمر بن المنجا التنوخية الدمشقية الحنبلية

(١) الصفدي : اعيان العصر (مخطوط) ج ٣ ف ١ ، و ٢٢٧ .
 (٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ق ١ ، و ٩٨ .
 (٣) المصدر السابق ، ج ٣ ، ق ١ ، و ٧٩ .
 (٤) المصدر السابق ، ج ٣ ، ق ١ ، و ٧٩ .

(المتوفاة سنة ٧١٧ هـ) ، وقد سمعت صحيح البخاري ومسند الشافعي من أبي عبد الله الزبيدي ، وسمعت من والدها جزئين ، وعمرت طويلاً وروت الكثير ، وحجت مرتين وقصدت بعد ذلك الديار المصرية . روت بدمشق والقاهرة الصحيح مرات كثيرة ، وقرأ عليها الحافظ أبو عبد الله الذهبي مسند الشافعي ، وهي آخر من حدث بالكتاب ، وسمع منها خلق كثير (١) .

الفقه الاسلامي

أسهم علماء هذا العصر بنصيب وافر في التأليف الديني ، لا فرق في ذلك بين تفسير أو حديث أو فقه ، وقد ظهر التخصص لدى بعضهم في موضوعات معينة من العلوم الدينية .

وفننا عند العلماء الذين غلب عليهم التفسير أو أخذوا منه بأوفر نصيب وعند العلماء الذين غلب عليهم الحديث رواية ودراية ، ولا يعنى هذا أنهم لم يؤلفوا في الفقه الاسلامي ، فلقد كان لهم بعض الآثار لأن فكرة الاحاطة في التأليف موجودة إلى جانب التخصص .

هكذا نجد من العلماء من ألف في فقه المذاهب الأربعة ، واختص جماعة منهم بالتأليف في مذهب معين منها ، فتناولوا دراسة مختلف الأمور النسي عرفت من قبل ، وقاسوا عليها أموراً كثيرة كما هو الشأن في أمر حشيشة الفقراء ، إذ قيست على الخمر لأنهما مسكران ، نص في القرآن على تحريم أحدهما وقيس الآخر عليه .

كما ساروا شوطاً بعيداً في شرح الأصول والمتون القديمة وفروعها ، ثم وقفوا عند التروح نفسها ، فوضحوها وذيّلوها بما فات الشراح من مسائل وتعليقات اقنضها المذهب ، واضطرتهم إليها الظروف الطارئة .

(١) ابن تنري بردي : المجلد الصافي (مخطوط) ، ج ٢ و ١٠٦ ، ١٠٧ .

كان للجامعات الدينية أثر كبير في ظهور هذا الفن من التأليف ، فكان التلخيص والاعادة وغير ذلك من السمات التي اقتصنوها التطورات العلمية في هذا العصر . فكنا متلا نتشهد البحث على ثلاث درجات : اولها بحث واسع ، وثانيها بحث متوسط وثالثها بحث موجز . ولكل فئة من الفقهاء والمتفقهة وضع هذا النوع من البحث . اذ ليس من فبيل الجمود والتكرار ، كما يذهب بعض النقاد . وإنما كان أسلوباً علمياً من أساليب البحث والدراسة في الجامعات الدينية والعلمية في هذا العصر .

نذكر من منساهير العلماء الأئمة المجتهدين مثل قطب الدين مسعود النيسابوري (المتوفى سنة ٥٧٨ هـ) ، وكان إماماً في العلوم الدينية ، وقد صنف عقيدة لصالح الدين ليقربها أولاده الصغار (١) .

ونذكر من العلماء عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء ، وكان في صراع دائم مع السلاطين والأمراء في الشام ومصر على السواء . انصرف إلى التدريس والتأليف ، ومن تصانيفه : « قواعد الاسلام » و « القواعد الصغرى » و « الأمالى » و « الفتاوى الموصلية » وغيرها .

ومنهم نقى الدين أحمد بن تيمية (٢) الحنبلي المصلح النائر الذي بقى عدة سنين بأبى أن يفتي بمذهب معين ، وإنما كان يعتمد على ما قام عليه الدليل عنده ، وهو الذى وقف وحده بجابه جمود علماء الدين ويجادلهم ، وتعقد من أجله المجالس في مصر والشام ، وبصرح بأرائه واجتهاداته دون لبس أو غموض ، وبؤبده الشعب في تورته وبندفع في نصرته ، ويلقى بسبب كل ذلك السجن والمحن على الرغم من أن الحق كان معه ، وقد وقف موقفه الجبار هذا في مسائل : منها اطلاق بالثلاث، وشد الرجال إلى قبور الانبياء والصالحين .

(١) ابن الوردي : سمه المختصر ، ج ٢ ص ٩٢ .

(٢) ابن نغرى بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ح ١ و ٨٥ ، ٨٦ ، وابن الوردي : تمة

المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ - ٢٨٩ .

أما الطلاق فقد كفر من بحلف به ، ويرى أن الطلاق بالثلاث لا يقع إلا بواحدة ، وأن الطلاق في الحبض باطل لا يقع .

وأما مسألة السفر وشد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين فكانت محنته الكبرى التي حبس من أجلها في سجن القلعة بدمشق ، واستفحل أمرها حتى منع من المطالعة والتأليف ، وما ترك له في سجنه كراسة ولا دواة ، فعكف على العبادة والتهجد حتى وافنه منيه بعد بضعة أشهر وشيعته الألوف من الناس من أبواب البلد الأربعة .

تبلغ تصانيفه في الفقه وغيره خمسمائة مجلد ، وقد أحكم أحوال الفقه وصنف فيه وحده المجلدات الكثيرة ، وذكر أن تلامذته جمعوا من فتاويه ست مجلدات كبار ، وله باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين فلا يتكلم عن مسألة إلا ويورد منها أقوال المذاهب الأربعة فيها ، لكنه لم ينف عندها ، بل كان يخالفها في كثير من المسائل المعروفة ، ويحتج لها بالكتاب والسنة . نذكر من مصنفاته « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » و « السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية » و « الفتاوى الموصلية » ، وغيرها كثير .

ومن مشاهير العلماء شرف الدين هبة الله بن البارزي قاضي حماة ، وهو من أسرة معروفة بالعلم ، اشتهر أمره ، وطلب مرات عديدة ليتولى قضاء الديار المصرية فأبى وقنع ببلده ، وانتهت إليه رئاسة المذهب ببلاد الشام . ومن تصانيفه الكثيرة « إظهار الفتاوى » و « تمييز السعيج » و « شرح الحاوي » وغيرها .

ومنهم تلميذ الغزالي على بن مسلم (المتوفى سنة ٥٣٣ هـ) (١) ، والشهرزوري (المتوفى سنة ٥٧٢ هـ) (٢) ، وموفق الدين بن قدامة (المتوفى سنة ٦٢٠ هـ) (٣) ، ومجد الدين بن العديم (المتوفى سنة ٦٧٧ هـ) (٤) .

(١) السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٤ ص ٢٨٣ .

(٢) كرد علي : خطط الشام ، ج ٤ ص ٤٢ .

(٣) السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٤ ص ٥٤ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٧٩ .

(٢)

علوم اللغة العربية

اهتم علماء العصر بدراسة علوم اللغة العربية كوسيلة من وسائل دراسة القرآن الكريم الذي أنزله الله على عبده بلسان عربي مبين ، و تناولوا المؤلف أيضاً في اللغة والحرف والبلاغة والعروض .

اللغة ومعاجمها

اتخذ ياقوت الرومي ، بعد أن اعتقه موله عسكر الحموي ، حلب موطناً له وكثيراً ما تردد اليها خلال رحله التجارية، ثم انتقل منها واستقر بعض الوقت في خوارزم ، فلما أغار عليها جنكيز خان سنة ٦١٦ هـ تحول عنها ، وعاد إلى حلب مسفره الاول في بلاد الشام بعد عتقه ، فعكف فيها على وضع تصنيفه المشهور (معجم البلدان) ، وانتهى من مسودته سنة ٦٢١ هـ ، ونشر في تببيضه سنه ٦٢٥ هـ ، وقدمه للوزير القاضي جمال الدين علي بن عبد الوهاب السباني ، وقد رتبته على الحروف الأبجدية ومن غير نظر إلى أصول الكلمة وزوائدها ، لأن جميع ما يرد إنما هي أعلام لمسميات مفردة ، وأكثرها اعجمية ومرجلة لا مساع للانسحاق فيها (١) .

عرف ياقوت أهمية معجمه ، فذكر في فاتحته وخاتمه القول نفسه وهو « وعلى ذلك فانني أقول ولا احتشم ، وأدعو الى النزال كل علم في العلم ولا انهزم : إن كتابي أوحده في بابي ، مؤتمر على اضراجه ، لا يقوم بإبراز مثله إلا من ايد بالتوفيق ، وركب في طلب فوائده كل طريق ، ففار تارة وأنجد ، وطوح بنفسه فأبعد ، وتفرغ له في عصر الشبيبة وحرارته ، وساعده العمر بامتداده وكفايته وظهرت منه أمارات الحرص وحركته (٢) » .

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ص ١٥ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ص ١٥ .

التمس منه طلابه في الشام اختصاره مراراً ، فأجابهم أن المختصر لكتاب
كمن أقدم على خلق سويّ ، فقطع أطرافه ، فركه أشل البدين ، أتر
الرجلين أعمى العينين أصلم الأذنين (١) .

هذا في فاتحته ، وأما في خاتمته فكان حديثه مؤثراً جداً ، إذ وصف
نفسيته ، وهو بودع بقايا أيامه في الحياة ، ويتمنى لو خرج كتابه ليرى
النور ، فسعد به ، ويقر عيناً قبل ذنو منيته (٢) . يضاف إلى معجمه
هذا كتابه « المشترك وضعاً والمختلف صقاً » .

ثمة عالم آخر كان شأنه في اللغة عجباً ، وهو ابن مالك إمام العربية
في عصره ، فكان فيها إليه المنتهى كما يقول الحافظ الذهبي وغيره (٣) يؤكد
ذلك مارواه الصفدي في حديثه عن أحد أموره المعجزة التي أدهشت الشهاب
محموداً بعد أن ذكر له ما انفرد به ابن سيدا صاحب المحكم عن الأزهري ،
وقال : « هذا أمر معجز لأنه يريد أن ينقل كتابين (٤) » .

صنف ابن مالك في اللغة عدة تصانيف ، منها كتابه « المثلث في اللغة » (٥) ،
وهو كتاب هام يدلنا على سعة اطلاع مؤلفه ، إذ يذكر لنا مجموعة كبيرة من
الألفاظ التي تختلف معانيها باختلاف حركات حروفها الثلاث .

نظم المؤلف كتابه نظماً حسناً في أرجوزة مؤلفة من ثلاثة آلاف بيت ،
سمّاها « إكمال الأعلام بمثلث الكلام » (٦) . كما نظم الكلمات المهموزة في قصيدة
أسماها « النظم الأوجز فيما يهمز » . ومن مصنفاته أخيراً كتابه « الاعتقاد
في الظاء والضاد » .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٥ ص ٤٥٧ .

(٣) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، (مخطوط) ح ٣ و ١٩٠ ، وابن شاعر : فوات
الوليّات ج ٢ ص ٢١٤ .

(٤) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ١٩٠ .

(٥) ابن الوردي : تمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٦) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ١٩١ .

ومن مشاهير لغوي هذا العصر حجة الدين بن ظفر الصقلي اللغوي النحوي (١) الذي وضع مصنفات لفوية كثيرة ، منها « التنقيب على ما في المقامات من الغريب » و « ملح اللفة » ، وهو فيما اتفق لفظه واختلف معناه . و « الاستنباط المعنوي » و « الاشتراك اللغوي (٢) » .

لم يقتصر المؤلف اللغوي على العلماء البار ذكرهم ، فهناك آخرون ممن لهم تصانيف مفردة نذكر منهم مجد الدين المبارك بن الأثير الذي صنف « النهاية في غريب الحديث » ، وبقع في خمسة عشر مجلداً ، وجمال الدين بن واصل الحموي الذي صنف مختصراً لكتاب ابن البيطار « الأدوية المفردة » .

النحو والصرف

اهتم علماء السام كغيرهم من علماء العصر بالأبحاث النحوية ، وكان لمبادئ المنطق ودراساته أكبر الأثر على المشتغلين بالنحو والصرف .

يمكننا القول إن فلسفة النحو العربي بدأت تتضح في النصائيف الجديدة بعد أن وضعت المنون وشرحت قواعدها ، ونوقشت مسائلها ، وتعددت مذاهبها وأوجهها ، لاختلاف العلماء أولاً ، وتباين الأقطار ثانياً ، بين بصرى وكوفي ، وبغدادى واندلسى ، وشامى ومصرى .

ساد في بلاد السام قبل هذا العصر في النحو المذهبان المعروفان « فهذه حلب تضم عالمين في زمن واحد : ابن جنى رأس مدرسة القياس السدي كان لمدرسة البصرة إمامها الأعظم ، وابن خالوية الكوفي المنزع ، صاحب كتاب « ليس في كلام العرب » الذي اتبع فيه السماع نافياً من اللفة ماجوزه

(١) السيوطي : بغة الوعاة ، ج ٢ ص ٥٩ .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٧ ص ١٠٢ .

نحاة البصرة (١) .

وجاء من بعدهما أبو العلاء ، وعرف عنه انه « وإن كان على الغالب سماعى النزعة ، كوفي الميل ، فانه كان كثيراً ما يضرب عن قدسية السماع صفحاً محاولاً أن يحكم فكره في كتبر من القضايا التى يتورع سواه من تحكيم الفكر فيها (٢) » .

يتضح أن المذهبين ازدهرا في بلاد الشام ، أما الاتجاه الكوفي فكان من ثمراته تطور علم القراءات وظهور مدارس خاصة به ، وقفها مؤسسوها لتعليم التلاوة ، بله الحركة النشطة لتعليم القرآن في الجامع الأموي كما مر معنا .

وكان من نمرات ذلك أيضاً العناية بالحديث الشريف وإنشاء مدارس خاصة به عرفت لأول مرة في التاريخ الاسلامى ، كما لاحظنا إسهام المرأة في العناية به وتبريزها في روايته ودرايته . وأما الاتجاه البصري فكان من ثمرات تطور فلسفة النحو والصرف ، ونشوء مدرسة مستقلة أخذت من المدرستين مآثره مقبولا ومعقولا ، فكانت تسير متعاضدة مع المدرسة النحوية الأندلسية والمدرسة النحوية المصرية .

ظهر في القرن السادس نحاة عدة ، منهم أبو عبد الله الطليطلي الذي كان في النحو سيئويه زمانه كما نعينه تلميذه أسامة ، وكان قد قرأ النحو عليه نحواً من عشر سنين ، في قلعة شيزر ، وكان من قبل متولياً دار العلم التى أنشأها الفاطميون بطرابلس ، فلما أخذها الفرنج أنقلد أبوه وعمه من جاء به مكرماً معزراً إلى شيزر ليتولى تأديب أمراء بني منقذ . أورد أسامة تلميذه في أعتباره قصة استاذة ، وذكر أنها جملة اعتراضية لا موضع لها من

(١) الانفاني : في أصول النحو ، ص ١٨٣ .

(٢) الطرابلسي : النقد واللغة ، ص ٢٠٩ .

سبأقة الحديث (١) .

ومن نحاة هذا القرن أيضاً أبونزار حسن بن نزار (المتوفى سنة ٥٦٨ هـ) وكان معجباً بنفسه . ويسخط على كل من يخاطبه بغير لقبه ملك النحاة . كان بارعاً في النحو ، وقد سافر إلى خراسان وكرمان لطلبه ، وآب من رحلته العلمية ، فاسنوطن دمنق يقرىء فيها النحو حتى تسنم فيها عرش النحاة ، فكان حقاً كما دعي ملك النحاة (٢) .

ومنهم أيضاً تاج الدين زبد بن الحسن الكندي (الموفى سنة ٦١٣ هـ) وهو بفدادي المولد ، نرعرع في دمشق وأقام بها .

ذلك عرض عابر لبعض نحاة القرن السادس ، حتى إذا أهلت بوادر القرن السابع نوضحت أمامنا معالم المذهب الشامى على يد النحوي الكبير جمال الدين محمد بن مالك الطائي الجاني . ولد في الأندلس في العام الأول من القرن السابع ، ودخل بلاد الشام سعياً وراء العلم في عهد الظاهر بيبرس وكانما فد سار على هدي ابن جبير الرحالة الأندلسي ، وافتن بما كتبه عند زيارته لبلاد الشام : « فهذا الترق بابيه مفتوح لذلك ، فادخل أيها المجتهد بسلام ، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد ، ويقرع سن الندم على زمن النضييع ، والله يوفق ويرشد (٢) » .

دخل هذا المجتهد بلاد الشام ، فوجد كل شىء ميسوراً أمامه ، فانصرف لتحصيل العلم ، وسمع بدمنق من مكرم وأبى صادق الحسن بن وضاح ، وأبى الحسن السخاوى وغيرهم . ثم استكمل ثقافته ونال الإجازة في علوم الدين ، وتخصص في علوم العربية ، فكان في اللغة إليه المنتهى . وأما في النحو والصرف فكان فيهما بخرأ لا يشق لججه(٤) . انقل إلى حلب وجالس ابن يعيش وابن عمرو وغيرهما . والمعروف انه نزلها في أول رحلته إلى

(١) أسامه : الاعتبار ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٢) ابن الوردي : شمة المختصر ، ج ٢ ص ٨٢ .

(٣) رحلة ابن جبير ، ص ٢٣٥ .

(٤) ابن شاعر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٢٨٤ .

الشام . وقد تصدر بعد ذلك للتدريس في دمشق بالمدرسة العادلية ، فاشتهر امره وسار ذكره ودلف إليه الطلاب من كل حذب ، فكان موضع الحب والاحترام ، حتى إنه كان إذا صلى في العادلية شيعه فاضي القضاة شمس الدين خلکان الى بيته (١) . كان امة وحده في علوم العربية ، أنقنها كما رأينا وعارض الشاطبية واهتم بعلوم اللغة فوضع فيها تصانيف عدة ، نم نظم بعضها غير أنه فاق أقرانه جميعاً في النحو والصرف .

حار أئمة العصر في امره لكثرة اطلاعه وشدة حفظه ، وسرعة استحضاره . فلم تكن شهرته في الحقيقة قائمة على تبحره في العلم وحده وإنما نعتقد أنه صاحب مدرسة نحوية جديدة ، كان فيها مجدداً لا مقلداً ، إذ كان لا يتقيد بمذهب معين ، ولكنه يختار ما يراه حسناً ومناسباً ، فكان يتوسع في قواعد النحو ، ويؤثر أن يدعم آراءه بما يؤيدها من شواهد القرآن أو الحديث أو المأثور من كلام العرب . لكنه كان أكثر ما يستشهد بالقرآن ، فان لم يكن فبالحديث ، فإن لم يكن عدل إلى شعر العرب (٢) .

تخرج من مدرسة ابن مالك النحوية جماعة من أعلام النحاة في بلاد الشام ، منهم ولده بدر الدين محمد ، وشمس الدين بن جعوان ، وشمس الدين بن أبي الفتح ، وابن العطار ، وزين الدين أبو بكر المزني ، والشيخ أبو الحسن اليونيني ، وأبو عبد الله الصيرفي ، وقاضى القضاة بدر الدين بن جماعة ، والعلامة شهاب الدين بن غانم ، وناصر الدين شافع وغيرهم .

أسف الناس كثيراً حين وفاته سنة ٦٧٢ هـ ، فلقد أحدث فراغاً كبيراً

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٨٤ .

(٢) ابن تقي بريدي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ١٩٠ وابن شاعر : فوات الوفيان

ج ٢ ص ٢٨٤ .

في بلاد الشام لأنه كان في النحو عند أهلها مثل الشافعي في الفقه (١) .

أهم مصانيفه بلا شك كتابه المشهور « تسهيل الفوائد » (٢) ، وهو يحتوى على قواعد نحوية كثيرة وفوائد هامة ، رأى أن بترجها لطلابه ليوضح لهم مذهبه ، بيد أنه توفي قبل اسكمال ترجمه ، فأنتم عمله من بعده أنير الدين بن حبان المغربي ،

يظهر أن ابن مالك لمس صعوبة سيوبه في « الكتاب » ، فحاول تبسيطه وتبسييره واختصاره للمعلمين مع استيعاب كل أبحاثه (٣) ، ورأى بشاقب بصره أن يجمع قواعد اللغة العربية بكاملها ، فصنف أرجوزتيه المشهورتين : الكبرى والصغرى ، أما الكبرى فهي « الكافية السافية » ، في ثلاثة آلاف بيت ، وشفعها بشرح خاص بها ، وأما الصغرى فكانت اختصاراً لسانقتها ، وهي في ألف بيت سماها « الخلاصة الألفية (٤) » .

أمران لا بد من الإشارة إليهما : أولهما أن الخلاصة الألفية استنفدت منه جهداً كبيراً حتى تيسر له فيها أن يستوعب بإيجاز كل ما أورده في أرجوزته الكبرى ، وكان ابنه بدر الدين قد لمس ذلك خلال شرحه لألفية أبيه ، فقال : « مازال أبى يخطط حتى نظم الألفية (٥) » . وتانى الأمرين أن فاضى القضاة شرف الدين هبة الله بن البارزي قال : « نظم الشيخ جمال الدين الخلاصة الألفية بحماسة عندنا برسم اسفالي فيها ، وكنت شاباً وخدمته ، ولقد رأيت بركة خدمتي له (٦) » .

(١) ابن الوردي : تنبيه المختصر ، ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٢) ابن تفرى بردى : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ١٩١ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٤٧ .

(٤) ابن تفرى بردى : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٩٩١ ، وابن الوردي : تنبيه المختصر ، ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٥) ابن الوردي : تنبيه ، ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٦) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٢٢ .

ثمة تصانيف أخرى لابن مالك ، منها « لامية الأفعال » وشرحها ، و « سبك المنظوم وفك المختوم » و « فعل فاعل » (١) و « المقدمة الأسدبة » وضعها باسم ولده الأسد ، و « إعراب مشكل البخاري » و « عدة اللافظ وعمدة الحافظ » (٢) وغيرها .

ومن نحاة هذا العصر المشهورين الشيخ موفق الدين أبو البقاء بن يعيش ابن علي الحلبي المعروف بابن الصائغ (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ) ، وله تصانيف مختلفة في النحو : أهمها « شرح المفصل » للزمخشري ، وشرح « تصريف الملوكي » لابن جني (٣) ، وكان استاذ ابن مالك المار ذكره ، فقد عرف عنه أنه نزل حلب في أول رحلته ، وتعلم له ، كما أخذ عن تلميذه ابن عمرون .

ومنهم أيضاً الشيخ علم الدين بن علي السخاوي (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ) ، ومن تصانيفه « المفصل في شرح المفصل » و « سفر السعادة وسفير الإفادة » ، وهو يعرض فيه لكثير من المشكلات النحوية وأبيات المعاني وبعض الفوائد اللغوية المختلفة وغير ذلك .

كما ذكر ابن الوردي أنه رآه بدمشق ، والناس يزدهمون عليه في الجامع للقراءة ، ولا يصح لأحد منهم نوبة إلا بعد زمن طويل . يقول : « رايته مرارا ، وهو راكب بهيمة ، يصعد إلى جبل الصالحية ، وحوله اثنان أو ثلاثة ، وكل واحد يقرأ ميعاده في موضع غير الآخر ، والكل في دفعة واحدة ، وهو برد على الجميع (٤) » .

نضيف إلى هؤلاء النحاة المختصين علماء آخرين صنفوا في النحو ، نذكر منهم الملك المؤيد أبا الفداء الذي وضع « الكناش » ، وهو موسوعة كبسرى

(١) ورد اسم هذا المؤلف في قوائم الوفيات كما يلي : (فعل وأفعل) .

(٢) ذكر ابن الوردي أنها جيدة ، وأنه شرحها فأجاد ، لكنها تنقص أبوابا (ج ٢ ص ٢٢٢) .

(٣) ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج ٢ ص ١٧٦ .

(٤) ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج ٢ ص ١٧٦ .

في مجلدات كثيره ، جمع فيها قواعد النحو والصرف والمنطق واللغة وغير ذلك (١) . وأما شامة المقدسى . وقد وضع « المقدمة » في النحو ، ونظم مفصل الزمخشري ، وابن ظفر الصفلي الذي وضع كتابه « القواعد والبيان » .

البلاغة والعروض

وصل عبد القاهر الجرجاني (المتوفى سنة ٤٧١ هـ) بعلوم البلاغة إلى الذروة في كتابه المسموون : « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » فلما جاء السكاكي (المتوفى سنة ٢٢٦ هـ) وضع كتابه المسموون « مفتاح العلوم » في النحو والصرف والبيان ، وأصبح من البيان المحور الذي يدور حوله التأليف البلاغي في هذا العصر . قام بدر الدين بن مالك (المتوفى سنة ٦٨٦ هـ) ووضع كتابه « المحباح » في البلاغة ، وجاء بعده جلال الدين القزويني (المتوفى سنة ٧٣٩ هـ) فليخص مفتاح السكاكي ، وسماه « تلخيص المفتاح » ، ثم شرح هذا الكتاب الذي لخصه ، وسماه « الإيضاح » أو « إيضاح التلخيص » .

نهج البلاغيون نهج الجرجاني والسكاكي وابن مالك والقزويني ، ويظهر أن البديع ، أحد فروع البلاغة الثلاثة ، بدأ يسقل كعلم خاص ، وكمذهب فنى استحوذ على أساليب إبداع هذا العصر ، فاهتم به الجيل الناشئ من الكتاب والشعراء اهتماماً منقطع النظير ، إذ ليس من قبيل المصادفة والعبث بالالفاظ قول ابن حجة في خزانته : « إن لكل زمان بديعاً » (٢) .

نسجل لابن المعنز (المتوفى سنة ٢٩٧ هـ) فضل السبق في استئلال البديع من علوم البلاغة ، فجعله في سفر خاص سماه « البديع » ، وجمع فيه سبعة من أنواعه ، وخلفه آخرون من علماء البلاغة ، نذكر منهم العسكري صاحب « الصناعمين » وابن رسيق صاحب « العمدة » ، وابن الأثير صاحب « المثل السائر » ، وأسامة بن منقلد صاحب كتاب « البديع » في نقد الشعر ، وقد جعله في خمسة وتسعين باباً .

(١) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١٢٦ .

(٢) ابن حجة : الخزانة ، ص ٥ .

ازدادت الأنواع تدريجياً ، وجاء الشعراء بدورهم فنظموا البديعيات ، وهي قصائد نبوية ، بحرهما البسيط ورويها الميم ، ولعل سبب اختيارهم حرف الميم هو اقتداؤهم بالبوصيري في برده المشهورة .

هكذا ابتداء عصر البديعيات فنظم زكي الدين بن أبي الإصبع بديعية ، فأوصل عدد ما أورده من الأنواع البديعية إلى السبعين ، وجاء صفى الدين الحلي بعده فأوصلها إلى مائة وأربعين نوعاً .

أما علم العروض فقد أسهم معظم علماء العربية فيه تدريساً وتصنيفاً ، نذكر منهم ابن مالك في كتابه « العروض » ، وهبة الله بن البارزي الذي صنف كتاب عروض أيضاً ، وجمال الدين بن واصل الذي شرح قصيدة ابن الحاجب في العروض والقوافي .

(٣)

العلوم التاريخية والاجتماعية

شهدت بلاد الشام حركة نشيطة في العلوم التاريخية والاجتماعية ، وكان للتطورات السياسية المعاصرة ، والأحداث الحربية المتتالية أثرها الفعال في العالم كله . فلا بدع إن رأينا طرق بحثه تبلغ ذروتها في العصر لأننا أصبحنا نشاهد المؤرخين لا يروون خبراً ، ولا ينقلون أثراً إذا لم تكن الرواية موثوقة ، وإذا لم يكن الراوي نفسه صحيحاً معدلاً ، شهد الحادثة نفسها أو رواها عن طريق رجال صدق ، إن لم يتمكن من رؤية ذلك عياناً .

عرفنا ذلك واضحاً لدى مشاهير مؤرخي العصر ، وتبيناً لذلك نقف عند اثنين منهم : أما الأول فهو بهاء الدين يوسف بن شداد مؤرخ حياة صلاح الدين ، ومما قاله فيه : « وكان الله قد أوقع في قلبي محبته وحبه للجهاد ، فأحبته لذلك وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين ، وهو يوم دخوله الساحل ، وجميع ما حكيتُه إنما هو روايتي عن أثق به ممن

شاهده . ومن هذا التاريخ ماسطرت إلا ما شاهده ، أو أخبرنى به من أثق خبره بقارب العيان (١) .

بظهر في هذا الأسلوب أثر علم الحديث في تطور البحث التاريخي وكذلك الأمر في ظهور فن الراجم والطبقات الذي عرف في هذا العصر .

وأما المؤرخ السابى الذي نقف عنده قليلا فهو أبو سامة المقدسى الذي كان يدرس التاريخ في حلقة خاصة في الجامع الأموي بدمشق . ذكر في مقدمة كتاب الروضتين المصادر التي اعتمد عليها في تأليفه ، ومن جملتها بعض ما سمعه من : « أفواه الرجال الثقات » ومن المدركين لتلك الأوفات (٢) .

لم يقتصر علم التاريخ على المؤرخين ، بل شمل الطبقة المثقفة كلها ، إذ غدا أحد العلوم الرئيسية التي لا بد لكل منقف من الاطلاع عليه لعلاقته الوثيقة بالدراسات الإسلامية والثقافة العامة في هذا العصر .

حاول أبو سامة أن يبسط بعض الكتب التاريخية التي امتازت بالتطويل في إيراد الأخبار ، واستخدام الأسلوب المسجع في عرضها لى « بفهم الكلام الخاص العام » (٣) ، فحذف منها بعض الأسجاع ، وأبقى ما استحسنته في مواضعه « ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع (٤) » .

ذلك هو أسلوب البحث التاريخي كما رآه بعض مؤرخي العصر بالاعتماد على الروايات الموثوقة ، والرواة المصححين ، وبخاصة منهم الذين شهدوا الحوادث بأمر العين .

ومن ناحية أخرى فإن الاتجاه امتد إلى الفئات الشعبية ، وصار الناس يستمعون في الحلقات المسجدية للمؤرخين الذين يعرضون عليهم أحداث الماضي البعيد والقريب ، بله الأحداث المعاصرة .

(١) ابن سداد : النوادر السلطانية ، ص ٧١ .

(٢) أبو سامة : الروضتين ، ج ١ ص ٥ .

نستطيع ان نحدد البحث التاريخي في ثلاثة مجالات : فمن المؤرخين من انصرف إلى بحث التاريخ الخاص ومنهم من انصرف إلى جمع التراجم وتأريخها وتصنيف الطبقات على اختلافها .

التاريخ العام

انصرف قسم من المؤرخين إلى التاريخ العام جرياً على أسلوب محمد بن جرير الطبري (المتوفى سنة ٣١٠ هـ) إذ كانوا يؤرخون الأخبار بحسب توالي السنين ، ولهذه الطريقة محاسنها ومساوئها : فمن محاسنها أنها تمد الباحث بكثير من الحقائق والوثائق التي تعينه على أبحاثه ، بيد أنها تشتت الوحدة التاريخية ، وتلك سيئة ، ولاسيما إذا امتد الخبر أكثر من عام واحد وفي أكثر من مكان .

نهج هذا المنهج بعض مؤرخي عصرنا ، منهم عز الدين علي بن الأثير في تصنيفه « الكامل في التاريخ » ، وابن العبري في كتابه « تاريخ مختصر الدول » ، وابن أبي طى (المتوفى سنة ٦٣٠ هـ) صاحب التاريخ و « طبقات العلماء » ، وسبط ابن الجوزي (المتوفى سنة ٦٥٤ هـ) صاحب « مرآة الزمان (١) » . ومن هؤلاء المؤرخين أيضاً صاحب حمة الملك المنصور ، وقد خلف عدة مؤلفات تاريخية ، منها « المصمار في التاريخ » ، وصاحبها أيضاً الملك المؤبد أبو الفداء المؤرخ المشهور صاحب « المختصر في أخبار البشر » ، وقاضي قضاتها شهاب الدين إبراهيم بن أبي الدم (المتوفى سنة ٦٤٢ هـ) ، وقد صنف للملك المظفر « التاريخ الكبير المظفري » في تاريخ الملة الإسلامية .

(١) ابن تنري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٤٦٢ .

التاريخ الخاص

تخصص فريق من المؤرخين بالتأليف في التاريخ الخاص ، وبلاحظ أن هذا الاتجاه لقي إقبالا كبيرا عليه ، ولعل سبب ازدهاره يرجع إلى ضعف الخلافة العباسية . ونسوء دول الأطراف . والدول المتابعة في مصر والشام .

من المؤرخين من تحدث عن تاريخ دولة عاصرها أو أدرك بعض أيامها ، أو شهد زوالها لأن عمر بعض دول هذا العصر لا يزيد على عمر الأفراد . ومنهم من تحدث عن تاريخ مدينة كانت حاضرة مملكة أو إمارة أو نيابة في بعض عصورها الذهبية .

نذكر من هؤلاء المؤرخين أحمد بن الأزرق الفارقي (الموفى سنة ٦٦٠ هـ) ، وقد صنف كتابه « تاريخ الفارقي » (١) ، وهو يضم تاريخ مدينتي آمد وميافارقين . ومنهم كمال الدين بن العديم ، وقد صنف « تاريخ حلب » . ومن الذين تحدثوا عن تاريخ دولة معينة من الدول المعاصرة أو عن حرب من الحروب ، أو شخصية من الشخصيات المشهورة ، المؤرخ السابق ذكره ابن الأثير ، وقد صنف تاريخاً في الدولة الأتابكية الزنكية ، وعرض فيه لكتب من أخبار صلاح الدين .

كما صنف أيضاً العماد الكاتب (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) ، كتابين مسجوعين : أحدهما « الفتح القسي في الفتح القدسي » ، وقد تحدث فيه عن حروب صلاح الدين وسيرته ، واستهله بسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة . والثاني « البرق السامي » ، وقد تحدث فيه أيضاً عن حروب صلاح الدين منذ دخوله دمشق ، وانتهى بوفاته .

يرى أبو شامة « أن العماد في كتابيه طويل النفس في السجع والوصف يمل الناظر فيه ، وبذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه » (٢) .

(١) يوجد من هذا التاريخ نسخة في مكتبة النصف البريطاني : كتب الأولى سنة ٥٦٠ هـ أي في حياة مؤلفها ، والثانية سنة ٥٧٢ هـ . طبع هذا الكتاب بالعاهرة سنة ١٩٥٩ م بحقيق الدكتور بدوي عبد اللطيف عوض .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٤ ، ٥ .

ومن تصانيفه أيضاً : « العتبى والعقبى » و « خطفة البارق وعطفة الشارق » .
كما صنف بهاء الدين يوسف بن شداد (المتوفى سنة ٦٣٢ هـ) سيرة
مولاه صلاح الدين في كتابه « النوادر السلطانية والحاسن البوسفية »
وفيه يتحدث عن حروبه بالتفصيل مع الصليبيين ، واستهله بفصل هام جداً ،
يتضمن سيرته والتحدث عن صفاته ومناقبه .

وصنف أبو سامة المقدسى كتاب « الروضتين في أخبار الدولتين »
واعتمد فيه على مادونه من قبله من المؤرخين كالحافظ أبي القاسم على ،
والرئيس أبي يعلى حمزة بن أسد التميمي ، وابن الأثير ، وابن شداد ،
والعماد الكاتب ، ثم تحدث عن طريقته في التاريخ ، كما شرحناها من
قبل (١) . لم يكتف بذلك بل وضع ذبلاً لتاريخ دمشق واختصره
مرتين (٢) .

نقف أخيراً عند مؤرخ مشهور « هو من بقايا أهل العلم الذي ختمت
به المائة السابعة » (٣) . قاضى قضاة حماة جمال الدين بن وأصل (المتوفى
سنة ٦٩٧ هـ) وقد قيل « إنه كان يستغل في حلقته في ثلاثين علماً
وأكثر » (٤) . اتصل بالظاهر بيبرس ، وأرسل سفيراً عنه إلى ملك الصقليتين
وامبراطور الرومانية المقدسة منفرد بن فريديك ، فصنف له « الأنبرورية »
في المنطق ، وكان قد أقام في مصر بضع سنوات ، شهد فيها بأمر عينه زوال
الدولة الأيوبية في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكأنما قد أحزنه
مسير الدولة المذكورة التي قهرت الصليبيين ، واستردت منهم بيت المقدس ،
فوضع كتابه المشهور « مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب » (٥) . أشار ابن
وأصل في هذا الكتاب إلى كتاب تاريخي آخر له ، هو « التاريخ الكبير » (٦) ،

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤ ، ٥ .

(٢) ابن نوري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٥٨٧ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ و ٥٧٨ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٣ و ١٥٨ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٣ و ١٥٨ .

(٦) في مفرج الكروب إشارتان إلى اسم هذا التاريخ : (ج ١ ص ٢٠٤ ص ٢٣٦) ،

وهو تاريخ عام ، أرخ فيه للعالم الاسلامي منذ عهد الرسول (ص) إلى السنة التي تولى فيها الصالح عرش مصر .

التراجم والطبقات

صنف قدماء المؤرخين تراجم رجال الصحابة ورواة الأحاديث ، ونظور الأمر بعدئذ فشملت تراجم أخرى في أعيان مدينة أو قطر في عصر معين وتراجم جامعة تضم مشاهير الأعلام بصورة شاملة .

أما في هذا العصر فقد ظهر أبو القاسم علي بن عساكر (المتوفى سنة ٥٧١ هـ) ، وألف « تاريخ دمشق » ، وهو كتاب جامع لتراجم علماء دمشق وقد رتب فيه بحسب الحروف الأبجدية . وألف ابن أبي طى (المتوفى سنة ٦٣٠ هـ) كتابه « طبقات العلماء » ، وابن أبي أصيبعة الدمشقي الطبيب (المتوفى سنة ٦٦٨ هـ) كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ، وعلي بن يونس القفطي ، المعروف بالقاضي الأكرم (المتوفى سنة ٦٤٦ هـ) كتابه « تاريخ الحكماء » .

وألف أخيراً ابن خلكان (المتوفى سنة ٦٨١ هـ) كتابه المشهور « وفيات الأعيان » ، وهو مجموع لتراجم الأعيان في العلم والادب والسياسة والقضاء ، وهو مرتب على الحروف الأبجدية . بمتاز هذا الكتاب بأن مؤلفه بذل أقصى جهده لتحقيق وفاة من يترجم له ، إذ ليس من قبيل المصادفة اختياره لفظة الوفيات في عنوانه . ومما يلفت النظر حقاً أن مؤلفه أهمل تراجم الصحابة والتابعين لكثرة ما قيل أو ألف حولها ، ولعل هذا يؤكد لنا الاتجاه الشعبي في التأليف عند مؤرخي العصر وعلمائه وأدبائه .

الجغرافية والفلك

لا بد لنا من الوقوف أخيراً عند العلوم الجغرافية والفلكية ، والإشارة إلى ازدهار علم تقاويم البلدان والأقاليم ، فنشط في هذا العصر نشاطاً ملحوظاً ، وكثرت فيها المصنفات .

نوه بشكل خاص بالمؤيد أبي الفداء ملك حماة ، فقد وضع كتابه المشهور « تقويم البلدان » ، وهو مؤلف فريد في نوعه ، تناول فيه بحث الجغرافية العامة ، فوصف الأرض وما عليها . وصنف الأقاليم ، وتحدث عن خطوط الطول والعرض .

وتناول هذا الموضوع بالبحث أيضاً ياقوت الحموي ، فحدث في مقدمة معجم البلدان عن صفة الأرض . وذكر ما فيها من الجبال والبحار ، ثم وصف الأقاليم السبعة واستقاقها واختلاف بقاعها ، وأنهى حديثه بذكر ما يتبع كلا من البروج الاثني عشرية من البلدان . نلاحظ هنا العلاقة بين الجغرافية والفلك عند العرب ، وهم - كما هو معروف - شديدو الاهتمام بالنجوم وبروجها منذ أقدم عصورهم .

ردى اسامة بن منقذ أن لوالده اليد الطولى في علم الفلك ، وكان يحرضه على معرفة منازل النجوم وأشكالها وبريه إياها ويعرفه اسماءها ويأمره بمعرفة « ما يطلع منها ويفرب » (١) .

نذكر من الفلكيين أبا الفضل بن ياسين الحلبي (المتوفى سنة ٦٠٤ هـ) وكان ضليعاً في علم الزيج ، ومؤيد الدين العرضي الدمشقي الذي تولى مهمة الإرساد في مرصد مراغة . نبغ من بعده ابنه شمس الدين بن محمد وكان أحد العلماء الفلكيين الذين استندعاهم نصير الدين الطوسي لبناء المرصد الأيلجاني . كما أقام نصير الدين أيضاً مرصداً فلكياً بدمشق ، وزوده شمس الدين بكرة جغرافية لا تزال حتى الآن محفوظة بمتحف درسدن في ألمانيا .

نشط علم الفلك في رعاية الملوك الأيوبيين في حماه ، وكان الملك المظفر نقي الدين محمود قد استدعى علم الدين قيصر ، المعروف بتعاسيف المهندس الرياضي (المتوفى سنة ٦٤٢ هـ) ، فبنى له أبراجاً فلكية ، وأقام طواحين مائية ما زالت قائمة ، وعمل له كرة خشبية مدهونة رسم عليها خارطة كبيرة ، وعين عليها جميع الكواكب المرصودة ، وقد ساعده في وضعها جمال الدين بن واصل المار ذكره (٢) .

(١) اسامة : الاعتبار ، ص ٥٦ .

(٢) ابن الوردي : تمة المحصر ، ج ٢ ص ١٧٤ .

نذكر أخيراً عبد الله الجماعيلي (الموفى سنة ٦٢٠ هـ) المخلص بعلوم
النجوم السيارة . ومعرفة منارها الخاصة بها ، وعلى محمود الشكري
(الموفى سنة ٦٧٠ هـ) وله البد الطولى في علم الفلك وحل التقاويم .

(٤)

العلوم العقلية والعناية

صدف كثر من العلماء عن الانسغال بالعلوم العقلية من فلسفة ومنطق
لأنها لقت مقاومة شديدة من رجال الدين وإعراضاً من السلاطين في معظم
الأحيان . غير أن العلوم العملية لقيت كل تشجيع ، فكثر الإقبال عليها ،
وأخذ العلماء منها بحظ وافر .

الفلسفة والمنطق

حاول بعض علماء هذا العصر دراسة الفلسفة اليونانية جرياً على سنة من
سبقتهم من فلاسفة العرب القدماء ، وعلى رأسهم الفارابي المعلم الثاني بعد
أرسطو المعلم الأول وكان قد عاش في بلاط سيف الدولة الحمداني .

ازدهرت العلوم العقلية في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، فترجمت
فيهما الآثار الفلسفية القديمة ، وكانوا أمناء عليها لأنهم يعتقدون أن الحكمة
أخبت الشريعة . ولا يمكن الحق أن يضاد حقاً آخر .

أما في هذا العصر فقد ازدهرت الفلسفة في أقطار معينة من العالم الإسلامي ،
فظهر مثل ابن الطفيل (الموفى سنة ٥٨١ هـ) صاحب القصة الرمزية المشهورة
« حى بن يفظان » . وابن رشد (الموفى سنة ٥٩٥ هـ) صاحب كتاب « فصل
المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » و « نهافت التهافت » في الرد
على كتاب الفزالي « تهافت الفلاسفة » .

لقيت الفلسفة في بلاد الشام كارسها الكبرى لأن الطبقة الحاكمة حالت بين
الناس وما يشتهونه من مائدة الحكمة التي بسطها أمامهم قدماء الفلاسفة من
معاصريهم .

لم تزدهر الفلسفة كثيرا في القرن السادس الهجري ، أما في القرن السابع فقد ظهر نابغة العصر سيف الدين علي الثعلبي الأمدى (المتوفى سنة ٥٢١ هـ) ، وكان أكثر العلماء معرفة بالعلوم الفلسفية والمبادئ المنطقية . وما كاد يشتهر أمره حتى قام رجال الدين ونسبوه إلى الانحلال والزندقة ، وأفتوا بقتله ، فآثر السلامة . وأعرض عن الحلقات العلمية والمناقشات الفلسفية ، وترك تدريسها واختفى في مدينة حماة ، لا يجرؤ على متابعة دراساته ، وقد صنف تصانيف عدة ، منها كتاب « الإحكام في أصول الأحكام » .

وظهر أيضاً اللبودي ، وكان « قدوة في العلوم الحكيمة » (١) ، وله مصنفات كثيرة في الحكمة والطب ، وقد جعله الملك الصالح نجم الدين أيوب ناظرا على الدواوين في جميع الأعمال الشامية .

عزلت هذه المحن الفلاسفة عن حلقاتهم العلمية في بلاد الشام ، فعاشوا منعزلين يصنفون آثارهم طي الكتمان ، ويخفونها عن العوام ، ويطلعون عليها الخاصة من أصدقائهم لأنهم كانوا يخشون على حياتهم .

نذكر على سبيل المثال اثنين من حكماء هذا العصر ، عاشا في قريتين من صرخد بعيدين عن الحواضر والحلقات العلمية : أحدهما نجم الدين القمراوي ، وثانيهما شرف الدين المتاني ، وكانا قد ذهبا إلى الموصل للقاء الفيلسوف كمال الدين بن يونس ، وحالا لفره في الحكمة دون أن يعرفهما ، فلمسا سألهما عن موطنهما ، وعرف منهما أنه الشام قال : « لا أشك أن أحكما النجم القمراوي ، والآخر الشرف المتاني (٢) » .

هكذا عاش فلاسفة الشام في هذا العصر ، آثروا السلامة لأنفسهم . وقد نعى ابن المطران الفيلسوف الطبيب على أهل زمانه فتورهم وزهدهم في العلوم وقلة مضائهم ورغبتهم في الكتب والآثار وتطير بتفاهم الخطب في هذا الشأن (٣) .

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ج ٢ ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

(٢) كرد علي : خطط الشام ، ج ٤ ص ٤٧ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٤٠ .

وعلى الرغم من كل هذا التضييق عليهم فقد كانت الفلسفة تروج أحياناً حينما تلمح بعض النتجيج من السلطان ، كما حدث خلال حكم الناصر داود، إذ سيطر في عهده الفلسفة كثيراً لأنه أظهر ميلاً لها وعطفاً على العاملين فيها .

ظهر في عصر هذا الملك الأيوبي عز الدين الحسن بن نجا الإربلي الرافضي (١) (المنوفى سنة ٦٦٠ هـ) ، وكان رأساً في علوم الأوائل ، جمع شمل الفلاسفة، واتخذ من بيته مجتمعاً فلسفياً يجتمع فيه الفلاسفة من المسلمين وغيرهم ، ويناقشون فيما بينهم ، حتى إنه كان يجهر بترك الصلاة ، ويعلم تفضيل علي على أبي بكر وعثمان .

بضح لنا من راجم أرباب المعقولات في هذا العصر شدة اهتمامهم بالمنطق والجدل ، لحاجتهم اليهما في المناقشات الدينية والمناظرات العلمية ، وفي البراهين والقواعد النحوية التي دفعتهم لإتقان هذا العلم وجعله أحد العلوم الرئيسية التي يجب أن يلم بها طالب المعرفة .

ومن العلماء من أخذ من ذلك بنصيب وافر ، نذكر منهم جمال الدين بن واصل ، وكان يدرس المنطق في حلقاته كعلم خاص ، وذكر أن أحد المناطق ، وهو نجم الدبم الكانبي المعروف بدبيران المنطقي ، أورد عليه اشكالا في المنطق . صنف ابن واصل « هداية الألباب في المنطق » و « الأنبرورية » (٢) : صنفها - كما رأينا - للإمبراطور صاحب العقليتين ، حينما أرسله إليها الظاهر بيبرس سفيراً عنه ، وذكر أنه حضر مجالسه الخاصة وكان يسأله عن مسائل من علم المناظرة ، فأجابه عليها وأعجب بعلمه وسعة اطلاعه .

الطب والهندسة

إن كانت المعقولات قد تضاعف شأنها في هذا العصر ، فإن العلوم العملية

(١) ابن تفرى : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٣٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ و ١٥٨ .

لقيت رواجاً كبيراً لتمده حاجة المجتمع إليها وبخاصة ماله علاقة بحياة الإنسان أو بأساليب الحرب أو غير ذلك .

ظهرت في القرن السادس مدارس طبية بجانب البيمارستانات العامة التي انتشرت في هذا العصر . نذكر من الأطباء علي بن هبة الله المعروف بابن النقاش (المتوفى سنة ٥٤٥ هـ) وكان أوحد زمانه في هذا العلم وله مجلس عام من المستقلين به ، وتلميذه أبا زكريا يحيى البباصى من أطباء صلاح الدين ، وعمر بن على البذوخ الدمشقي (المتوفى سنة ٥٧٦ هـ) ، وموفق الدين بن المطران (المتوفى سنة ٥٨٧ هـ) ، ورشيد الصوري ، والطبيب المشهور يوحنا بن بطلان .

وظهر في القرن السابع نجم الدين بن يحيى البودي (المتوفى سنة ٦٢١ هـ) صاحب المدرسة الطبية ودار الهندسة ، وقد اتصل بالملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكان « أوحد في الصناعة الطبية ، قدوة في العلوم الحكيمة » (١) ، ومهذب الدين يوسف بن أبى سعيد السامري (المتوفى سنة ٦٢٤ هـ) ، والصاحب أمين الدولة أبو الحسن بن غزال (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ) ، والدخوار مهذب الدين عبد الرحيم بن على صاحب المدرسة الطبية الثانية ، وابن البيطار ضياء الدين عبد الله بن أحمد المالقي (المتوفى سنة ٦٤٦ هـ) صاحب كتاب « الأدوية المفردة » ، وكان هذا الطبيب متصلاً بالملك الكامل ثم بابنه الملك الصالح .

ومن أطباء هذا القرن أيضاً ابن أبي أصيبعة موفق الدين أحمد بن خليفة (المتوفى سنة ٦٦١ هـ) صاحب كتاب « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ، وابن النفيس علاء الدين بن أبي الحسن القرشي الدمشقي شيخ الأطباء بمصر ، ويعقوب الحكيم (المتوفى سنة ٦٨٥ هـ) ، وهو من نصارى الكرك . صنف كتاب « الشافي في الطب » في أربع مجلدات ، وكتاب « العمدة في صناعة

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ج ٢ ص ١٨٥ .

الجراح » ، وهو مؤلف من عشرين مقالة علم ، وعشر عمل ، جمع فيه ما يحتاج إليه الجراح بحيث يفننه عن غيره من الكنب (١) .

أما علم العقاقير فما كان لينفصل عن علم الطب ، ويظهر أن هناك من تفرد بهذا العلم ، واختص بمعرفتها ليسهم بذلك في الحرب والتغلب على الأعداء .

أورد ابن واصل قصة عالم شاب سمي علياً ، وهو ابن عريف النحاسين وكان مولعاً بجمع آلات الزرايين ونحصيل عقافيرهم ، وقد انصل بصلاح الدين خلال حصار عكا سنة ٥٨٦ هـ ، ووعد به بكل جميل . دخل إلى عكا بعد أن استحضر من الأدوية التي يعرفها ، ثم طبخها في قدور خاصة من النحاس حتى صار ما فيها كأنه جمره النار ، ورمى أحد الأبراج فاشعل من ساعته ، وصار كالجبل انعظم من النار . ضج المسلمون بالتكبير والتهليل ، ثم رمى الثاني بالقدر الثانية ، والثالث بالقدر الثالثة ، فأحرق بذلك الأبراج جميعاً (٢) .

قدم صلاح الدين للزراق المال الكثير ، فرفض عطاءه ، وقال له : « فعلته لله ، فما أربد من سواه جزاء (٣) » . لكنه أوقف عليه قرية من خيبر قرى دمشق .

وبرع في الهندسة - كما رأينا - اللبودي ، وأنشأ دار الهندسة . ومن مشاهير المهندسين إبراهيم بن غنائم باني المدرسة الظاهرية الجوانية بدمشق ، ولا يزال اسمه منقوشاً على بشار الداخل إليها في زاوية المدخل ، وهو نفسه الذي هندس القصر الأبلق الذي قام على أنقاضه التكية السلیمانية في القرن العاشر الهجري .

ومنهم أبو الفضل عبد الكريم الحارثي المهندس الدمشقي (المتوفى سنة ٥٩٩ هـ) وهو الذي أصلح الساعة التي بجامع دمشق وهندس أبواب البیمارستان النوري .

(١) ابن بري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٤٢٧ .

(٢) ابن بري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٤٢٧ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ح ٢ ص ٣١٦ .

ونذكر أخيراً علم الدين قيصر الذي هندس للملك المظفر الأبراج الفلكية والطواحين المائية التي أقيمت على نهر العاصي في حماة حاضرة ملكه .



نلك هي إلمامة عامة حاولنا من خلالها دراسة مختلف مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية ، وقد تبين لنا من خلالها أن هذا العصر كان عصر وحدة عربية كبرى ، شملت مصر والشام وغيرهما من الأقاليم في مختلف الدول المتتابعة الثلاث التي تداولت الحكم .

كما اتضح لنا خلال دراسة الحياة الاجتماعية العامة وجود طوائف شعبية متباينة بالإضافة إلى الطبقة الحاكمة من السلاطين والأمراء . ولاحظنا أيضاً وجود مذاهب دينية متعددة وأشرنا إلى الصراع بينها حول العقائد وغيرها . يضاف إلى ما تقدم ما مر ذكره من التصوف والزندقة والإباحية ، وكان لها أثرها الهام في الحياة الاجتماعية .

وخلصنا أخيراً إلى بحث الحياة الفكرية ، وقد استرعى انتباهنا وجود كثير من المدارس ودور العلم ، مما أدى إلى ازدهار الثقافة في هذا العصر ، فكثر العلماء ، وشهدت البلاد حركة نشيطة في التأليف والتصنيف في مختلف النواحي الدينية والفكرية . كما تأكد لنا أن الحياة الفكرية لم تكن منفصلة عن سائر الأقاليم العربية الأخرى ، وإنما كانت مظهراً متمماً من مظاهر الوحدة الفكرية بين مصر والشام ، وقد لاحظنا تبادل العلماء وتنقلهم بينهما ، وسوف نزداد يقيناً في معرفة ذلك خلال دراسة (الادب في بلاد الشام) في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك .

البشائر الثاني

الشعر والشعراء في بلاد الشام

الفصل الأول

أعلام الشعراء

لا شك أن الشعر كان ديوان العرب (١) ، وأنهم اتخذوه سبيلهم لتصوير شتى مناحى حياتهم القبلية والاجتماعية والخاصة . ذكر الجاحظ أن العرب في جاهليتها تحال في تخليدها بالاعتماد على الشعر ، لأنه بفيد فضيلة البيان على الشاعر الراغب والمادح، وفضيلة المأثرة على السيد المرغوب إليه والممدوح به (٢) . وقد لمسنا اهتمامهم به وإقبالهم على جمعه وروايته وتدوينه أكثر مما فعلوا بالنثر . ولهذا السبب قدمنا دراسته ، واستهللنا به هذا البحث .

وضحح ابن الأثير أهمية الشعر العربي ، ونوه بذكره، وبين العوامل المختلفة التي جعلته في طليعة أدبنا العربي . إذ إن الأشعار أكثر ، والمعاني فيها أغزر ، وسبب ذلك أن العرب الذين هم أهل الفصاحة جبل كلامهم شعر ، فأودعوا أشعارهم كل المعاني . ثم جاء الطراز الأول من المخضرمين ، فلم يكن لهم إلا الشعر ، ثم استمرت الحال على ذلك ، فكان الشعر هو الأكثر (٣)

ولما كان الشعر هو الأكثر والأفضل ، رأينا أن نتحدث عن أعلام الشعراء في هذا العصر ، وقد اخترنا أحد عشر شاعرا مشهوراً : خمسة منهم في القرن السادس الهجري ، وستة في القرن السابع ، واسنوفينا دراستهم وحاولنا في بحثنا أن يكون الشاعر المختار ممثلاً للمذهب شعري معين في هذا العصر أو أحد رواده التابعين من الأعلام المشهورين .

(١) الجاحظ : الحيوان ، ج ١ ص ٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٧٢ .

(٣) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٨٥ .

ابن القيسراني

(٤٧٨ - ٥٤٨ هـ = ١٠٨٥ - ١١٥٤ م)

الْقَيْسَرَانِيُّ

حياته وآثاره

(١)

مراحل حياته

ولد الشاعر أبو عبد الله ، شرف الدين ، محمد بن نصر بن صغير (١) المعروف بـ « ابن القيسراني » في مدينة عكا سنة ٤٧٨ هـ (٢) ، وقد اختلف القدماء حول نسبه ، فأهل بيته وبعض أخوانه يرفعونه إلى الصحابي خالد بن الوليد ، بيد أن الجئنة من المؤرخين والنسابين يعتقدون أن نسله انقطع منذ

(١) وكامل نسبه : محمد بن نصر بن صغير بن داغر بن محمد بن خالد بن نصر داغر بن عبد الرحمن بن المهاجر بن خالد بن الوليد المخرومي .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٦ ، وياقوت : ارشاد الأريب ، ج ٧ ص ١١٢ ، وابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٠٢ ، والعماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ص ٩٦ ، والنعمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ص ٣٨٨ ، وابن القلائسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢٢ ، وابن الوردي : نعمة المختصر ، ج ١ ص ٥٤ ، وأبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٩١ ، والطباخ : أعلام النبلاء ، ج ٤ ص ٢٣٧ ، وابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٤ ص ١٥٠ ، والذركلي : الأعلام ، ج ٢ ص ٣٤٧ ؛

زمن بعيد (١) . ومهما يكن من أمره ، فلا يستطيع الباحث الحديث أن يجزم فيه بقاءه ، لكن رجلاً ينسب نفسه إلى خالد بن الوليد في عصر ساد فيه الأعاجم ، له بغير شك دلالة الخاصة وأثره العميق في نفسه ، وبالتالي في شعره .

كانت عكا في ظل الحكم الفاطمي ، وكان أمير جموشهم بدر الجمالي قد ولي زهر الدولة الجيوشي عاملاً عليها ليدبر أمورها ، ولم يطل أمده حكمه ، بل انحسر عنها عندما قصدها بلدوين (٢) ، صاحب بيت المقدس سنة ٤٩٧ هـ ، فهاجمها براً وبحراً وقتل من أهلها خلقاً كثيراً ، وسبى منهم جماعة أخرى ، وأقامدهم أسرى إلى ما وراء البحر .

انتقل الشاعر إلى فيسارية الساحل القريبة من عكا بعد أخذ الفرنجة لها (٣) ، فنشأ فيها ونسب إليها . لم يطل بقاءه فيها ، فهاجر إلى داخل البلاد بعد استيلاء الفرنجة على الطراز الأخضر الشامي ، فانتقلت أسرته إلى حلب (٤) ، واتخذها دار مقام (٥) .

استقر بادية أمره في دمشق ، فقرأ الأدب على توفيق بن محمد الدمشقي ، واتصل بشاعر الشام في عصره ابن الخطّاط ، وتأدّب عليه ، وتوثقت علاقته به ، ويبدو أنه لمس عنده موهبته الشعرية فعنى به وشجعه ، وبصره بمذهبه الفني ، واعتمد عليه وحده في رواية شعره ، كما صرح بذلك في ختام ديوانه بقوله : « إن كل ما رواه عنى فهو ما سمعته مني وقراه علي ، وما رواه غيره فلا يعتد به (٦) » .

-
- (١) ابن حلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٧ .
 (٢) بلدوين ، كما سماه العرب ، وهو بودوين Baudouin وقد فتح عكا سنة ١١٠٤ م .
 (٣) ابن كثير البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٣١ .
 (٤) المصدر السابق : ج ١٤ ص ٣١ .
 (٥) أنار مر الدين بن شداد إلى « دور بني القيسراني » في معرض حديثه عن مسجد بحلب نحاه العسطل قريبا منها ، وأسار أيضا إلى مجد آخر تجاه دار شهاب بن القيسراني (العلاقات الخطيرة ص ٦٠) .
 (٦) ديوان ابن الخطّاط ، ص ٣٣١ .

تابع الشاعر رحلته العلمية كعادة طلبة العلم في هذا العصر ، فسمع بحلب من هاشم بن أحمد ، وأبى طاهر الخطيب ، فاسكمل ثقافته ، وراح بطوف أرجاء البلاد متنقلاً بين الملوك والأمراء في دمشق وحلب وشيزر والموصل وغيرها .

تولى إدارة الساعات على باب الجامع الأموي بدمشق في عهد تاج الملوك بوري بن طغتكين ، ولم أجد له في مخطوطة ديوانه مدائح قالها فيه . وسبب ذلك أنه كان شاعراً مغموراً آنذاك . وطبيعى جداً أن يتجه لمدح أمراء شيرز من آل منقذ ، إذ إن أقدم مدحه المعروفة قالها في ملك شيرز عز الدولة أبى مرهف نصر بن على (المتوفى سنة ٤٩٢ هـ) وهو دون الرابعة عشرة من عمره ، وكان قد مدحه يهنئه بالسلامة من كلف أصابه ، ومما جاء فيها قوله :

كل دعوى شجاعة لم تؤيد	بكلام الكلام دعوى منحال
لا يرعك الصقال في السيف حتى	ينطق الفل شاهد للصقال
لو تكون السهام تحسن قصدا	عرجت عن مقاصد الآمال
غادر البأس في جبينك منه	ائرا لاح في جبين الهلال
لا يجلبى دجى الحوادث إلا	غرر الحرب في وجوه الرجال
في مقاديرها (١) تصاب المقادير	سم ، وثرى الأكفال (٢) في الأكفال (٣)

لم تطل إقامة الشاعر في دمشق ، لأنه كان على خلاف مع الأسرة الحاكمة التركية من آل طغتكين ، ولا يعرف على الضبط سبب هذا الخلاف ، وكل ما وصلنا أنه هجا تاج الملوك بوري بن طغتكين هجاء مرأ (٤) ، والمعروف أن الملك المذكور تولى دمشق من سنة ٥٢٣ هـ إلى ٥٢٦ هـ فبلغه ذلك ، فتنكر له ، وبعث يطلبه ، فلم يجد بداً من الهرب . فيمم شطره نحو الشمال والشرق إلى حلب والموصل ليجد الأمان لدى الملوك الزنكيين الذين بسطوا حكمهم على القسم الأعظم من البلاد .

(١) المقادير الأولى جمع مقدم مقدم ، وهو ما يستقبله من الوجه والمقادير الثانية جمع مقدم ومقدمة ، وهو الكثير الأقدام .

(٢) الأكفال الأولى : جمع كفل ، وهو من لا يثبت على الخيل والأكفال الثانية : جمع كفل ، وهو العجز .

(٣) الممدد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٣١ ، ١٣٢ .

اتجه الشاعر في هذه المرحلة من حياته إلى مدح أعيان دار الخلافة ، فمدح جلال الدين بن صدقة وزير الخليفة المسترشد (١) ، و ابن الأنباري سديد كاتب الإنشاء بديوان العزيز (٢) . كانت هذه المدح زلفت اقتضتها صلتة بالملوك الزنكيين ، وكان عماد الدين أول من مدحه من ملوكهم ، وكان بالطبع وزيره جمال الدين الأصفهاني السبيل الذي أوصله إليه . ويتحتم علينا كذلك أن نتحدث عن نور الدين خليفة أبيه بعد مقتله وهو على حصار قلعة جعبر ، ولابد له من مدح وزيره الآخر كمال الدين الشهرزوري . واصل ابن القيسراني إلى الموصل ليحظى بمطايا عماد الدين ، ورأى بشاقب بصره أن يتقرب أولاً من وزيره الجواد جمال الدين ، فنظم فيه القصائد ، ومدحه بمدح غفر كانت - كما يقول العماد - أجود ما سمع من منظومه في الأفاضل (٣) ، واختار له منها ثلاثاً ، لم يرد منها في الديوان غير واحدة ، ويحسن بنا الوقوف منها على ما يوضح لنا نفسيته ويبرز فنه . ولعل أقدمها قصيدته الدالية التي استهلها بنسيب تجاوز الثلاثة عشر بيتاً ، وانتقل بعدها إلى مدوحه ، ومما قاله :

وإذا الوفود إلى الملوك تبادرت فعلى جمال الدين وقد محامدي
ياحبذا هم إليك أصارني وعزيمة تقفو رياضة قائدي
أنا وضة تزهى بكل غريبة افرائدي من لم يفز بفرائدي ؟
إن ساقني طلب الغنى أو شاقني حب العلا ، فلقد وردت مواردني
ومتى عددت إلى نذاك وسائلني أعددت قصدي من أجل مقاصدي
حتى أعود من امتداحك حالياً وكانني قلدت بعض قلائدي (٤)

أورد العماد الكاتب قصيدة ثانية ، ذكر أنها من « جمالياته الفائقة
« الرائعة الرائقة » (٥) . وهي التي وردت في الديوان، يحسن الوقوف عندها

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٢٨ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٢٩ - ١٣١ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠٣ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠٤ - ١٠٦ .

(٥) المصدر السابق ج ١ ص ١٠٦ .

لأن الشاعر يصور فيها بعض حاله ، وينوه فيها بتسمعه ، ويتحدث عن مكانته بعد أن استهلها بتسبيب كان كسابقه في عدد أبياته ، ومما قاله :

ومروءٌ سَكَنَتْ خَواْفَقُ أَمْنِهِ لولا جمالُ الدِّينِ عَزَّ أَمَانُهُ
 أمحمدُ بنُ عليٍّ اعتنقَ الأَسَى . فكري فضاق بفارس مِيدَانُهُ
 مابالُ حادى المجدِ مغيرَ المدى . وأخو الهُوَيْنِ روضةٌ أعطَانُهُ
 وأنا الذي لَاعَيْبُ فِيهِ لِقَائِلُ ما لم يُقْلُ هذا الزمانُ زَمَانُهُ
 فهلُ المحامدُ ضامِناتُ عَنكَ لي معنىً على هذا البيانِ بَيَانُهُ ؟
 وهي القوافي ما تناظر بالندى إلا وقامَ بفضْلِها بِرِهَانُهُ
 ما كان بيتُ فضيلةٍ في فارس إلا ومن عريثتى سلماتُهُ (٥)

سحب الشاعر الوزير بعد أن أصبح أثيراً لديه خلال فتوح عماد الدين في بلاد الشام ، فهو ابنها البار ، وحرى به أن يكون رائده في بلده فأنشده وهو في الرقة جماليته الثالثة (١) ، وكان للملك العادل فيها نصيب لأنه بطل الفتح .

خلد الشاعر انتصاراته في بلاد الشام ، وشهد بأمر عينيه البطولة الإسلامية في هذا العصر الذي تميز بتوالي الحروب بين الشرق والغرب . وطبعي جداً أن تظهر قومية إسلامية تجابه الصليبيين حفظاً لبقائها ، وكان عماد الدين قد أزمع أمره على تخليص البلاد منهم ، فسار إلى الفرنجة سنة ٥٣٤ هـ وحاصر - كما رأينا - بارين أمتع حصونهم التي كانوا يحتلونها لأنها واقعة في داخل البلاد قرب حماة ، وكانت مصدر خطر يهدد سكانها .

خلد ابن القيسراني هذه المعركة في رائية مشهورة ، مطلعها قوله :

حذارِ منّا ، واتى ينفع الحذر ؟ وهي الصُّوَارِمُ ، لا تُنْبِئُ ولا تُنْذِرُ (٢)

ويشفع عماد الدين هذا النصر بآخر في أقصى الشمال سنة ٥٣٩ هـ ، فيفتح الرها البلد المقدس الخامس ، ويستشير هذا الفتح الشاعر ، فيخلده بقصيدة ثانية ، مطلعها قوله :

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠٩ - ١١١ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٣٤ ، ٣٥ .

هو السيفُ لا يفتنيك إلا جِلادُه ، وهل طَوَّقَ الأملاكَ إلا نجاده ؟ (١)

هكذا كان مبلغ إعجاب الشاعر بالبطل عماد الدين ، وكان يأمل أن يتحرر البيت المقدس على يديه ، لكن الأقدار كانت له بالمرصاد. فاعتيل وهو على حصار جعبر .

شُطِرَتْ مملكةُ العماد ، وقسّمتْ بين ولديه ، فاستقر ابنه الأكبر سيف الدين بالموصل ، وابنُه نور الدين في بلاد الشام . وكان من المحتم على الشاعر أن يتصل به ، فلقد كانت هذه الفترة من التاريخ الإسلامي نقطة تحول وانطلاق لظهور القومية الإسلامية التي كانت نتاج العصبية الصليبية . وأكد هذه الحقيقة الهامة الشاعر في كتاب بعث به إلى نور الدين وجاء فيه قوله : « سلامُ الله وحنائهُ ، ورافتُهُ وامتنائهُ ، وروحهُ وريحائهُ ، على من عصَمَ بعزّه العواصمَ ، وخَصَمَ بحجَّتِهِ الدهرَ المخاصمَ ، والجمَ بهيتِهِ العائبَ والواصمَ ، الذي انتَضَى في سبيلِ الله سيفُ الجهادِ وارتضى بعزِّ سلطانِهِ شعارَ العبادِ والزُّهادِ ، واهتدى إلى طاعةِ الله ، وليس غير الله من هادٍ ، ومن أصبحت أطرافُ البلادِ أطواداً لمملكته ، ومعاقلُ الكفار في عقالِ مملكته ، ومركزُ الشكر مراكزَ أعلامِهِ والويتِ ، ومن عادت به ثغورُ الشام ضاحكةً عن نفورِ النصر ، وممالكُ الإسلام متوجةً بتيجانِ الفخر ، وصعابُ الأمور متقادةً إليه بأزمةِ القهر ، ومن رأى الحكمَ دارسةً فبنى مدارسها ، وإلهمم يابسةً فسقى منابئها ومغارسها ، والمنابر شامسةً فأمكن من صهواتها فوارسها ، ومن عمر ربعَ السنين بعد ما عفا ، وأثقل من الفتن من كان منها على شفا ، ومن نشر أعلامَ الفضل ، وأنشر بعد الوفاة أيامَ العدل ، ومن أثار بوجهِهِ الإيمانَ وأخذ الناسُ به من الزَّمان توقيعَ الأمان (٢) .

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٢) أبو شامة : الروستين ، ج ١ ص ١٨ . ويجدر بالملاحظة هنا أنه اطلع عليها في ديوانه ، واختار بعض ما قاله فيه من شعر . لكن الديوان الذي بين أيدينا لا يحتوي على الرسالة المذكورة آنفاً ، فأثرنا إيرادها كاملة ، ولنا حولها رأي سنعرضه في حديثنا عن ديوان الشاعر .

يتضح من هذه الرسالة أن الشاعر كان معجباً بنور الدين لأنه أنقذ الدين ، وذاد عن العرين ، واستطاع أن يظهر بعض بلاد الشام ، ولم يبق أمانه غير بقايا من ملوكهم وأمرائهم وها هو ذا المنبر يُعده الاختريني كالحسن ما يكون لنقله إلى بيت المقدس عند تحريره .

سجل الشاعر فتوحه ، فلم يغادر من الوقائع صغيرة ولا كبيرة إلا وصفها ، فشمرة الذي قاله فيه خلال سبع سنوات سجل صادق وتاريخ ناطق ، يؤرخ فيه هذه الفتوح ويعبر عن شعوره وعواطفه .

ولعل أشد المعارك التي أبلى فيها نور الدين خير بلاء تلك التي حدثت سنة ٥٤٤ هـ ، فحرر حصن حارم ، ولقي صاحب أنطاكية البرنس عند إتب ، فقتله وحمل رأسه إلى حلب ، فأنشده ابن القيسراني مع الشعراء بباب الحديد قصيدة سجل فيها هذا الفتح ، ومطلعها قوله :

هذي العزائم ، لا تدعي التقضب وذي المكارم لاما قالت الكتب (١)

كما مدح الشاعر نور الدين في العام نفسه بقصيدة استحسناها العماد الكاتب « في فنائها لسلاستها في نظمها ورويتها ووزنها (٢) » ، ومدحه سنة ٥٤٥ هـ عندما وقع جوسلين في أسره ، وخلص البلاد من شره ، وحمله معه إلى حلب ، وكحل عينيه وأهلكه . دلت على إليه الشعراء ، وعلى رأسهم ابن القيسراني ، فمدحه بقصيدة ، استهلها بقوله :

دع ما ادعى من غره النهي والأمر فما الملك إلا ما جباك به الأمر (٣)

نكتفي بهذا القدر من علاقة نور الدين بالشاعر ، فقصائده فيه كثيرة ، وتقف أخيراً عند وزيره كمال الدين ، فلقد كان مضطراً بحكم صلته بالملك العادل أن يمدحه أيضاً . ويظهر أنه كان في هذه الفترة مستقراً في حلب ، فاتخذها دار إقامة لأنها كانت حاضرة البلاد قبل فتح دمشق ، ومما قاله يمدحه :

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١١٢ - ١١٤ ، وياقوت : إرشاد الأريب

ج ص ١٢٠ ، وأنو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٠

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١١١ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٥٧ - ١٥٩ ، وياقوت : إرشاد الأريب ،

ج ٧ ص ١١٢ - ١١٦ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٢٤ ، ١٢٥

ألم تر أن الشَّيبَ بين جوانحي أقام مقام الفضل عند أبي الفضل
إليك انتضى شوقي إليك عزيمة هي النُّصل تحت الليل أوسلة النُّصل
أبا الفضل كم لي في مساعيك نحلة الداء على الأفواه من ضرب النحل
فريدة لفظ في فريد محاسن فتلك بلا مثل ، وأنت بلا مثل (١)

ومن حلب كان يتردد إلى العراق ، وقد اختار لنا الشاعر في ديوانه
مقاطيع عملها عند قفوله من العراق إلى الشام يتشوق فيها السكن
والوطن (٢) وذلك سنة ٥٢٩ هـ ، ومنها قوله :

مرنأ في ديار بني عدي يجاذب لوعتي شرق وغرب
يتيمني بأرض الشام حب ويعطيني على بغداد حب
غرام طارف وهوى تليد لكل صباة في القلب شعب
ولا وأبيك ما هو مت (٣) إلا سرى لهما خيال لا يغيب
فكل هوى يطالبني بقلب وهل لي غير هذا القلب قلب (٤)

نتتهي مما تقدم معنا لنقرر أن الشاعر مدح زنكي سنة ٥٣٤ هـ حين
انتصر على الصليبيين في بعض المواقع ، وكذلك في سنة ٥٣٩ هـ حين استولى
على الرها ، ومعنى ذلك أنه أقام عنده وعند ابنه محمود منذ أوائل العقد
الرابع من القرن السادس الهجري . ومما هو جدير بالذكر هنا أن الشاعر
أستطاع تصوير سياسة نور الدين التي كان ينتهجها لتوحيد كلمة العرب
ضد الصليبيين من مثل قوله يتحدث عن أن استيلاء نور الدين على دمشق
بمشابة إنذار للغرنج بإبادة ملكهم :

(١) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) ورقة ٢٨ - ٣٢ ، وفي الديوان قصيدتان أخريان :
إحداهما بحث بها من حلب ، وثانيهما مدحه بها . كما أورد ياقوت مختارات من هذه
القصيدة في إرشاد الأريب .

(٢) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٥٩ .

(٣) هـوم : هو رأسه من الناس ونام قليلا .

(٤) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) ، و ٥٩ ، ٦٥ .

إِذَا مَا دِمَشْقُ مَلِكُكَ عَيْنَانَهُ تَيَقَّنْ مَنْ فِي إِيْلِيَا (١) أَنَّهُ الدَّبِيحُ

كما كان يتردد إلى أنطاكية ، ويطلع على أحوال البلاد المحتلة ، ويعجب كل الإعجاب بالنساء هناك ، ويخلد لنا أجمل المواضع التي استرعت انتباهه ، فسمها في ديوانه الثغريات (٢) ، وهي من أجمل قصائده الشعرية.

تلك هي لمحات خاطفة من حياة الشاعر في رحاب نور الدين بعد استقراره في حلب ، ولم يكن من السهل عليه أن يحظى بحبه وحده ، فلقد كان معاصره ابن مثير الطرابلسي منافساً خطيراً على مكانته لأنه كان مقرباً أيضاً من الزنكيين ، وكان يوكل إليه في بعض الأحيان مهمات السفارة بين ملوك حلب وملوك دمشق من آل طفتكين .

ويظهر أن ابن القيسراني هو الذي بدأه العداوة ، لأنه ، كما يرى العماد ، « وقع في مباراته ومجاراته في مضمار القريض ومناقضته ، فكأنهما جرير العصر وفرزدقه ، وهما مطّيع النظم ومشرقه ، ، وشى بالشام عرفهما ، ونشا عرقهما ، وكثر رياشها ، وتوفّر معاشهما ، وعاشا في غبطة ورفعة وبسطة (٣) » .

جرت محاولات لإصلاح ذات البين بين الشاعرين من قبل بعض معاصريهما ، وما كان ذلك ليتم ، ويظهر أن الشاعر لم يقو على رد هجائه ، وحرص مع ذلك على الإصلاح فما تهيأ له ذلك (٤) ، فأكتفى في الرد على ما قاله في هجائه بهذين البيتين :

ابن منير هجوت مني خيبراً أفاد السورى صوابه
ولم يضيّق بذلك صدري ؟ فإن لي أسوة الصحابة (٥)

(١) إيلياء : قصرها الشاعر لضرورة شعرية ، وهي اسم مدينة بيت المقدس ، قبل مناه بيت الله (ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٩٢) .

(٢) المصدر السابق ، و ٦٣ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٧٩ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢٢ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ١٧ ، وابن الوردي : تمة المختصر ،

هذان البيتان هما كل ما وصلنا من نقائض الشعارين ، وذلك أمرٌ يؤسف له حقاً لأنه يمثل مظهرًا هاماً من مظاهر النشاط الأدبي في هذا العصر .

لم تكن خاتمة الشاعر كما كنا نتوقع لها أن تكون ، فيقضي أواخر أيامه في رحاب نور الدين ولاسيما أنه كان من المعجبين به والمشيدين ببطولته . وسرعان ما اضطرب الأمور ، وتتغير الأحوال ، فيتوجه الشاعر إلى ملوك دمشق من آل ظفتكين الذين حرموه من قبل ، وكنا قد أشرنا من قبل إلى هجائه جد هذه الأسرة التركية تاج الملوك وفراره من دمشق خوفاً من القتل . أغلب الظن عندنا أن خلافاً كبيراً نشب بينه وبين نور الدين ، لا يعرف على الضبط سببه ، ولم يشر الأقدمون من قريب أو بعيد إلى كنه هذا التحول المفاجيء ، فهل كان نتيجة لعلو منزلة خصمه ابن منير على الرغم مما عرف عنه من التشيع المتطرف ، أو كان هذا بسبب آخر نجهله ؟ أغلب الظن أن هذه الفرقة كانت لأمر لم يكن للشاعر فيه يد ، وإنما كانت نتيجة لغضب نور الدين على شاعره لأنه مدح جماعة من الداء أعدائه ، ومنهم ملك جعبر علي الذي خلف والده مالك بن سالم العقيلي الذي كان مؤامرة أدت إلى مقتل والد نور الدين كما رأينا . وأورد ياقوت مدح الشاعر لعلني في معرض حديثه عن دير حافر :

الا كم ترامت بالس (١) بمسافر وكم حافر آدميت يادير حافر (٢)
وعند الفرات من يمين ابن مالك فرات ندى لا تختطى بالمعابر
إذا أوجه الفتيان غارت مياهها فوجه علي مأوه غير غائر (٣)

وأورد العماد مطلع نسيب مدحة لم يذكر اسم المدوح الذي قيلت فيه ، وإنما وقف فيها عند بيت التخلص .

ملاححة دانت القلوب له طوعاً كما دانت العلاء لعلني (٤)

(١) بالس : بلدة بالشام بين حلب والرقّة وهي قرب ضفة الفرات الغربية (ياقوت

معجم البلدان ج ١ ص ٣٢٨)

(٢) دير حافر : قرية بين حلب وبالس (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٥٠٤)

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥٠٤ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٥٣ .

تضافرت كل هذه العوامل فادت به إلى هجر الزنكيين ليعود إلى
الطفكتيين عزيزاً مكرماً ، وانصرف إلى آخر ملوكها مجير الدين أبى ،
وبين ملوك حلب ودمشق من العدا المستحكم ما يجعل مكانة الشاعر عالية
إذا ما التجأ إلى دمشق وآب إلى موطن شبابه .

لعبت النسياسة دورها في هذا العصر حتى عند الإعلام من مؤرخي الأدب ،
إذاً نلاحظ أن مدائح مجير الدين التي أوردها العماد أكثر عدداً من مدائح نور الدين ،
والأمر ما في نفسه يلاحظ أنه أورد مطالع النسيب ، وأهمل نعت الممدوح ،
فلم تسلم إلا مدحة واحدة من المدح الست بتمامها ، وفيها أشار
الشاعر إلى حساده :

كثر حسادي حتى لقبى تنبه الهاجد والغافل (١)

ويظهر أن الشاعر كان يتردد على ملوك دمشق خلال إقامته بحلب ،
ولما تقام الخلاف بينه وبين الزنكيين في أواخر حياته ، انتهز هذه الفرصة
ملك دمشق مجير الدين واستدعاه من حلب (٢) ، ولعل الشاعر لباه برغبة
نور الدين نفسه ، لأننا سنراه يفتحها سريعاً ، ومهما يكن من أمر فقد
قبل الدعوة ، وآب لموطن شبابه ، وحظي بقاء الملك وأنشده قصيدة نالت
إعجابه واستحسنها السامعون ، واشتراده من الشعر فأنشده مدحة ثانية
في المجلس نفسه ووصله أحسن صلة ، وعاد إلى منزله فعرضت له حمى
شديدة لم تمهله غير عشرة أيام ، ف قضى نحبه ليلة الأربعاء في الحادي
والعشرين من شهر شعبان سنة ٥٤٨ هـ ، وشيع إلى مثواه الأخير في مقبرة
باب الفراديس .

(٢)

آثاره الأدبية

أورد الدين ترجموا له طائفة مختارة من شعره ، ولا سيما العماد
الكاتب في خبرته وياقوت في إرشاده .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١١٧ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢٢ ، وياقوت : إرشاد الأريب : ج

أشار الأقدمون إلى ديوان الشاعر (١) ، فذكر العماد أنه اطلع عليه ونظر فيه ، واختار منه ما راقه ، وحلى به أوراق خريدته (٢) ، وذكر ابن خلكان أنه ظفر به وهو بحلب ، وجميعه بخطه ، ونقل منه أشياء حسنة رائقة (٣) ، وذكر أبو شامة أنه قرأ فيه ، ونقل منه رسالة كتبها الشاعر إلى نور الدين ، واختار بعض القصائد التي مدحه بها (٤) .

لا نعرف شيئاً عن هذا الديوان الكبير المشهور الذي يجمع معظم شعره وبعض رسائله ، غير أن للشاعر ديواناً آخر صغيراً (٥) ، اختاره من شعره ، وقصره على الثغريات ، وعلى مقطعات متفرقة عملها عند قفوله من العراق إلى الشام ، يتشوق فيها السكن والوطن بالإضافة إلى بعض المدح الأخرى ، وذكر في ختامه قوله « هذا آخر ما اختاره محمد بن نصر بن صغير القيسراني من شعره » (٦) . والغريب أن الشاعر أهمل إيراد قصائده الطنانة في مدح نور الدين (٧) وغيره ، واقتصر على بعض المدح التي قالها .

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٠٢ ، وابن كثير : البداية والنهاية

ج ١٤ ص ٣١ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٢٦ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٧

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٨ .

(٥) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ص ٧٦٨ ، وبروكلمان : Brock : Sl , 455

والزركلي : الأعلام ، ج ٧ ص ٣٤٧ .

(٦) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) ص ٨٤

(٧) ياقوت : إرشاد الأريب ، ج ٧ ص ١٦٢

النسبة الثانية

شعره ونهضة الفتي

(١)

أغراض شعره

نلمح في شعره اتجاهات عامة ثلاثة : تصوير الأحداث الكبرى في بلاد الشام ، والاتجاه التقليدي في المدح ، والتجديد في معاني الغزل والنسيب .

أحداث كبرى

صوير الشياير الأحداث الكبرى في عصره خير تصوير ، ووصف من خلال المدح الأبطال المسلمين وحروبهم ، ورسمها بدقة ، فكانت لنا صورة حقيقية عن الملاحم المستعرة بين المسلمين والفرنجة .

نستطيع القول إن المدح التقليدي المعروف خرج عن طوقه الأسر ، وتطرق إلى وصف هذه الأحداث خلال فترة مديدة من الزمن ولم يبق الشاعر كما كان كثير من سابقه أسير المعاني التقليدية المعروفة : جود ، وبأس ، وحلم ، وجد نفسه أمام صراع مرير تسترخض فيه المهج وتبدل له الأرواح في سبيل عقيدة وصبونا لوطن وطرذاً لمفتصب .

أدى الشاعر مهمته خير أداء ، فنصور هذه الأحداث الجسم ، ونظمها في شعره ، وخلدها على توالي الأيام ، شأنه في ذلك كأي مؤرخ . فلا عجب إن رأينا كتب التاريخ المعاصرة تتحدث عنها .

أشرنا إلى هذه الأحداث كما نقلها إلينا الشاعر بأمانة عندما عرضنا مراحلي حياته ، بيد أننا نحب أن نعرض هنا للبطل الذي كان يلوح في خيال الشاعر ويظن أن تحرير بيت المقدس سيتم على يديه . ظهر عماد الدين ، وحارب الفرنجة حرباً مريرة ، فخاطبه الشاعر قائلاً :

فقل للوك الكفر تسلم بعدّها ممالكنا إن البلاد بلاد
كذا عن طريق الصبح فلينته الدجا فيا طالبا غالا الظلام امتداده
ولله عزم ماء سيحان وزده وروضة قسطنطينة مستراذه (١)

لكن هذا البطل الموعود ما لبث أن قتل ، وخلفه ابنه نور الدين ، ويعاود
الشاعر أمّله ويضع فيه ثقته ، ويتمثله المهدي المنتظر :

وأظن أن الناس لما لم يروا عدلا كعدليك أرجفوا بالقائم (٢)
وينتظر الخلاص على يديه بعد توالي فتوحه المظفرة ، ويروي أن هذا
المهدي المنقذ سيملا الأرض عدلا كما ملئت جورا :

كأنى بهذا العزم لاقتل حده . وأقصاه بالأقصى وقد قضى الأمر
وقد أصبح البيت المقدس طاهرا وليس سوى جاري الدماء له طهر
وصلت بمعراج النبي صوارم مساجدها شفع مساجدها وتر (٣)

قلد الشاعر في بعض قصائده السابقين من الشعراء ، واقتبس منهم
كثيراً من معانيهم ، وهذا متعارف عليه في الشعر العربي إذ إن العبرة عند
النقاد ليست في الأخذ والسرقة الشعرية ، وإنما هي في حسن الأخذ وذلك
بالزيادة على المعنى بنكتة تحسنه وتجعله ملائماً للقرض المطلوب . ولا يعني
ذلك أن الشاعر لم يأت بجديد ، وإنما هو كأي شاعر آخر يقلد ويجدد ،
تحدوه في ذلك ظروفه الخاصة والحياة العامة ، كان هذا الاتجاه التقليدي
وما تبعه من تجديد في الأغراض والمعاني تطوراً ملحوظاً في مدح الشاعر ،
وهو لم يقتصر بحكم ظروفه الخاصة على مدح أبطال الأحداث الكبرى ، وإنما

(١) العماد الكاتب : الخريدة : ج ١ ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، وأبو شامة : الروضتين

ج ١ ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١١٢ - ١١٤ ، وياقوت : إرشاد الأريب ،

ج ٧ ص ١٢٠ ، وأبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٠ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٥٧ - ١٥٩ ، وياقوت : إرشاد الأريب :

ج ٧ ص ١١٢ - ١١٦ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

مدح غيرهم كنجير الدين أبق، وابن صدقة وزير الخليفة المسترشد، وسديد الدولة الأتابكي، والوزير الجواد جمال الدين، وبعض أمراء بني متقذ كمر الدولة، ومجد الدين مرشد، وابنه مؤيد الدولة أسامة.

التجديد في معاني الغزل والنسيب :

درج الشعراء في معظم الأحيان على استهلال قصائدهم بالنسيب، إذ تفتتح النفوس لدى سماعه، فتقبل عليه، وعلى هذه السنة جرى ابن القيسراني في مطالع بعض قصائده كما في هذه البائية التي أحب العماد الكاتب أن تحصل له بعد سماعه بيتين منها، أعجز فيهما، وأعجب، وأبدع وأغرب (١)، ومما جاء فيها :

سقى الله بالزوراء من جانب القرب مها وردت عين الحياة من القلب
عفائف إلا عن معاقرة الهوى شعبائف إلا في مغالبة الصب
عقائل تخشاهما عقيل بن عامر كواعب لا تعطى الذمام على كعب
إذا جاذبتهن البوادي مزينة من الحسن شبهن البراقع بالنقب
تظلمت من أجفانهن إلى الثوى سفاها وهل يعدي البعاد على القرب
ولما دنا التوديع قلت لصاحبي : حنانيك سر بي عن ملاحظة السرب
إذا كانت الأحداق نوعاً من الظبا فلا شك أن اللحظ ضرب من الضرب
هبوني تعشقت القراق ضلالة فاصبحت في شعب وقلبي في شعب
فمالي إذا ناديت يا صبر منجدا خذلت، ولبي إن دعا حرقه لبي
تقضى زماني بين بين وهجرة فحتام لا يصحو فؤادي من حب

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٢٤ ، وديوان ابن القيسراني (مخطوط)

(٢) الزوراء : أي مدينة الزوراء ، وسميت دجلة بغداد الزوراء ، ونقل ياقوت أن الزوراء مدينة أبي جعفر المنصور ، وهي في الجانب الغربي (معجم البلدان ج ٣ ص ١٥٥ ، ١٥٦) وفي المحيط الزوراء دجلة وبغداد لأن أبوابها الداخلة جعلت مزورة عن الخارجة (مادة زور) .

واهوى الذي يهوى له البدر ساجداً السبت ترى في وجهه أثر الترب
واعجب ما في خمر عينيه أنها تضاعف سكري كلما قللت شربي
إذا لم يكن في الحب عندي زيادة تخرجني فما فضل الزيارة عن غيب
فصرت إذا ما هزني الشوق نحوهم أخلت عذولي في الفرام على صحتي

تتسم هذه القصيدة ، وبخاصة منها مطلع النسيب ، بسمات يظهر
فيها جهد الشاعر في تصنعه البديعي ، ليتحلل من إطار التقليد ، ظناً منه
أنه يستطيع عن هذا السبيل أن يتفوق على غيره في أساليب الابتكار
والتجديد .

تحدث الشاعر عن نساء الحي وشبههن بمها الزوراء من جانب الغرب ،
ووصف بعد ذلك ساعة الوداع ، وهذا معنى مألوف في الشعر العربي . ثم
انتقل ليحدثنا عن سكره من خمر عينيه ، وعن صحبه وعوداه وعذائه ،
ويختتم كل ذلك ليصف لنا هزة الشوق إلى إحيائه .

وقف بعض النقاد الأقدمين من معاصريه معجبين ، ومنهم العماد
الكاتب الذي تحدث عن قوله :

واهوى الذي يهوى له البدر له ساجداً السبت ترى في وجهه أثر الترب

وقد ذكر أن الشاعر ألم فيه ببئس المعري :

وما كلفة البدر القديم قدينة ولكنها في الوجه أثر اللطم

فأخذه وشبهه بأثر الترب ، وقد أحسن في المعنى والصنعة . ووقف
الفقيه علي الخيني عند قوله :

إذا كانت الأخداق ضرباً من الطبا فلا شك أن اللخط ضرب من الضرب

فذكر أنه أعجب به ، واستدل به على معرفة الشاعر بالمنطق وكلام
الأوائل (١) . وعلق العماد على كلام الفقيه فقال : « ضرب من الضرب »
ضرب من الضرب ، بل أحلى منه عند أهل الأدب ، ونوع محدثات الطرب ،
والقاضيات بالعجب ، وما أحسن وقوع هذا التجنيس موقعه ، ووضع
المعنى فيه موضعه ، حتى قلت في هذا البيت ما أصنعه ! (٢) .

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٩٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٩٧ ، ٩٨ .

نستطيع من خلال هذه القصيدة ، ومن خلال هذا البيت بالذات ، أن نتيين صفة هامة تطبع غزله ونسيبه بطابع خاص ، فهو قد تحدث عن ظلمنا الأحداق وكثيراً ما نرى في شعره مثل هذه الصور التي استخدم فيها خياله تنافر الأضداد ، وكأن الحرب قائمة أبداً بين حبيب ظالم ومحب مظلوم :

لَا يَفْرُكُكَ بِالسَّيْفِ الْمَضِيءُ فَبِالظُّلُمِ مَا تَفْطَرْتَهُ مِنْهُ الظُّبَاءُ
حَدَقَ صَحْتَهَا عُلْتُهَا رِمَا كَانَ مِنَ الدِّمَاءِ الدِّمَاءُ
مَرْهَفَاتِ الْحَدِّ أَمَهَاهَا إِلَهَا وَقْضَاهَا لِلْمُحِبِّينَ الْقَضَاءُ
خَلَّ مَا بَيْنَ دُمَاهُنَا وَدُمِّي فَعَلَى تِلْكَ الدَّمَى تَجْرِي الدِّمَاءُ
فِي لَقْبَاءِ الْبَيْضِ الْبَيْضِ مَنِيَّ دُونَهَا لِلْبَيْضِ وَالسُّمْرِ لِقَاءُ (١)

لعب التصنيع دوره في هذه المعاني التي تصور لنا حبيب الشاعر الظالم وكأنه في حرب ضروس مع المحبوب المظلوم . تكررت أمثال هذه المعاني الحربية في غزله ، فالبواحيظ تطاعن ، والأعين تنوب عن الثغر (٢) ولا قلب إلا بالنواظر مقصود (٣) .

ثمة معان أخرى وضحت لنا كثيراً من الأشياء في صميم حياة الشاعر ، وقد ظهرت جليلة في حديثه عن الشيب الذي وخط عارضيه :

أَمَّا الشَّيْبُ فَطُفِيفٌ زَارِنِي وَمِضِي لَمَّا تَبَلَّجَ صَبِيحُ الشَّيْبِ مَعْتَرِضًا
وَمَا وَجَدْتُ الصَّبَا فِي طَوْلِ صَبْحَتِهِ إِلَّا لِبَسَ الْجَفِينِ الْكَرَى وَنَضًا
فَالآنَ صَرَخَ شَيْبُ الرَّأْسِ عَنْ عَذَلٍ مُحْضَرٌ ، وَلَمْ يَزِدْ عِنْدَكَ النَّصِيحُ مِنْ مَجْضًا
فَإِنْ تَبَيَّنَ سَحَابُ الْإِجْفَانِ هَامِيَةً فَعَنْ بَيْنَا بَارِقٍ فِي عَارِضٍ وَمَضًا (٤)

وفي قصيدة أخرى يخاطب الشاعر هندياً ، ويحدثها عن الزمان الذي أشعل رأسه شيباً :

(١) ديوان ابن القيراني (مخطوط) ، و ٣٠ ، والعماد الكاتب : خريدة القصر

ج ١ ص ٩٨ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٤٢ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٠ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٥١ .

ياهند ، مَنْ لأخي غرام ، ما جرى برق الثفور لطفه إلا جرى
أبكته شيبته وهل من عارض شمت البوارق فيه إلا امطرا
لاتنكري وضحا لبست قتيه ركض الزمان اثار هذا العثرا (١)

إن هذه الصورة تبرز لنا بعض صور التصنع البديعي ، وقد وضحت
لنا: شغف الشاعر بحسن التعليل ، فجعل الدموع مطراً للشيب الذي جعله
برقاً ، وتمثل في الشيب غبار الركض خلال العمر .

لا ينسى الشاعر ذكر الخمر جرياً على عادة الشعراء ، فأتى على
وصفها مقلداً غيره ، واستعاض عنها في شعره بخمر الشفاء والعيون :

يا معشرَ الفتيانِ ما عندكم في حاتمٍ زيدٍ عن الوردِ
آلى على الخمرة لا ذاقها ما عاش إلا زمن الوردِ
وقد مضى الوردُ فهل رخصة في أن يكون الوردُ من خدٍ (٢)

لقد استعاض عن الخمر بصرف معتقة في جفني الحبيب :

رنا وكان الباطلي المصفقا ترقق في جفنيه صرفاً معتقاً
وردٌ يداً عن ذي حباب مرثق وحيًا به من وجنتيه مروّقا
وبات وشمس الكأس في غسق الدجا تقابل منه البدر في بانه النقا (٣)

ينادي ساقيه أن يحبس عنه الكأس ، فقد عافها ، ويطلب إليه أن
يسقيه من خمر الالحاظ فتونا :

قل لمن اطلع شمس ال كاس من افق اليمين
احبس الكأس فقد عفا ت سلاف الزرجون (٤)
واسقني من خمر الحبا ظك كأساً من فتون
أنا لا أشربها !... لا بكاسات الجفون

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤١ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٣٥ .

(٤) الزرجون : الخمر والكرم أو قضبانه ، وهي معربة .

لا تلمني ، أين سكر الك خمر من سكر العيون (١)
 تلك هي بعض المعاني الطارئة على نسيب الشاعر وغزله وخمرياته ، بيد
 أن هناك غيرها أخذ منها الشاعر بنصيب قليل أو كثير . عرف شعراء هذا
 العصر التفزل بالعنصر التركي وغيره ، وقد ظهرت هذه البادرة وأضحى في
 شعرهم ، وطبعي جداً أن تتسرب إلى شعره ، فظهرت وأضحى في أماكن
 عدة (٢) ، ولكنه لم يتخذها تكاة له في كل أغزائه كما سنرى ذلك عند غيره
 وإنما عرض لها عرضاً عابراً تقليداً للمذهب شعراء العصر .

الثغريات

لأنعدو الحقيقة إن قلنا إن الثغريات أجمل ما في شعره ، وأغلب
 الظن أن هذه التسمية من اختراع الشاعر نفسه ، أو من تلامذته الذين
 طلب إليهم أن يرووا عنه ما اختاره لهم من ديوانه الكبير ، وقد وردت
 هذه التسمية في مختاره ، وذكر فيه أنه قالها خلال مروره بالعواصم ،
 ووصف بها مواضع استحسناها « وهي الثغريات » (٣) . ولكننا نحب أن
 نذكر أن هذه التسمية لم يكن سببها ما مر ذكره ، وإنما هو التصنع
 البديعي في معنى الثغر ، وذلك بدليل أن الشاعر في هذه المجموعة من
 شعره جانس بشكل لا نظير له في معاني الثغر المعروفة نذكر منها مثلاً قوله :

واحرَباً في الثغور من بلدٍ يضحكُ حسناً كأنه تُفَرُّ (٤)

وقوله :

ماذا بأظرف الغدِّ الثغير من بارقٍ على ثَفَرٍ (٥)

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٦٠ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٤٨ ، ١٥٣ .

(٣) ديوان ابن التيسراني (مخطوط) و ٦٠ .

(٤) المصدر السابق و ٦٣ .

(٥) المصدر السابق و ٦٥ .

وقوله :

أبرق* في الثفور من الثفور وفي تحر العدو* من النحور؟(١)

وقوله :

ياغزال* الثفور بالقُطان أنت من غال ذكره* نسياني
أسأل* السانحات* عنك* نهراً فإذا الليلُ جنَّ جنَّ جناني(٢)

اتخذ الشاعر من هذه المعاني المستحدثة ، وما فيها من تصنيع بديعي ، وتكلف جناسي وغيره موضوعاً خاصاً ، سبق فيه غيره ، وأكثر من ذكره ، وهو وصف الفرنجيات والروميات والتحدث من خلالها عن الثفور الإسلامية التي كانت تحت حكم الفرنجة ، ووصف بعض معالمها وكنائسها وحياتها الاجتماعية والسياسية خلال زيارته أنطاكية عام ٥٤٠ هـ .

لانعرف على الضبط سبب هذه الرحلة في أواخر حياته ، وكل مانعلمه أنه ارتحل إلى الشمال قاصداً أنطاكية « لحاجة عرضت له (٣) » ، ويفتن الشاعر بما يراه فيها من نساء فرنجيات ، ويسحر بالعيون الزرق والشعور الشقر . والغريب أنه كان يتصيد لقاءهن في الكنائس والأديرة ، ولذلك سوف نرى وصفه الرائع لهن من خلال حديثه عند مروره بها خلال رحلته الفريدة .

مر على عزاز ، وهو في طريقه إلى أنطاكية ، فوصف بنات الأصفر ،
ومما قاله :

أين عزّي من رَوْحتي بعزاز وجوّازي على الظباء الجوّازي؟(٤)

(١) المصدر السابق و ٦٥ .

(٢) المصدر السابق و ٦٧ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٩٩ .

(٤) الجوّازي : مفرداً جازنة ، وهي القبية لتجزئها بالرطب عن الماء ، أو بالعشب

عن الماء .

واليعافير (١) ساحبات المعافير (٢) علينا كالربرب (٣) المجتاز
 بعيون كالمهفات المواضي وقدود مثل القنا الهزاز (٤)
 ونحور تقلدت بثفور ريقها ذوب سكر (٥) الهواز (٦)
 ووجوه لها نبوة حسن غير أن الإعجاز في الأعجاز
 ذات خضر يكاد يخفى على الفا رس منه مواقع الميماز (٧)
 لاحظتني فانقض منها على قل بي طرف له قوادم بانز
 وسبتني لها ذوائب شعير عقدتها تاجاً على أبرواز (٨)
 من معيني على بنات بني الأص فر غزوا فإنني اليوم غاز (٩)

يتحدث الشاعر عن ذكرياته في عزاز ، وجوازه على نسوة من بنات
 الأصفر ، وتستعبده بعض المعاني التقليدية والتصنع البدعي في حديثه عن
 عيون كالمهفات المواضي ، وعن قدود كالقنا الهزاز ، وعن الثفور والنحور ،
 وعن حسن الوجوه ، وعن إعجاز الأعجاز . ثم ينفرد بعد هذا الوصف العام
 بذكر رومية لاحظته ، فأصاب قلبه بطرف انقض عليه ، له قوادم باز ،
 وسبته بسحرها وشعرها . وينتهي أخيراً ليتحدث عن هذا الجهاد الفريد
 في حب بنات بني الأصفر . أهمل الشاعر في ديوانه المختار جهاد الملوك في
 حروب الفرنجة ، وخلد جهاده في حبه لأن الجهاد الأول كان - كما يظهر -
 زلفى إلى الأبطال لنيل العطاء . أما هذا الجهاد فكان بين المحب المسلم
 والحبيبة الرومية .

(١) اليعافير : مفردا يعفور وهو الظبي .

(٢) المعافير في التاج يرد معافري منسوب الى معافر اليمن ثم صار اسماً للثياب بغير
 نسبة فيقال : معافر .

(٣) الربرب : التعليل من بقر الوحش .

(٤) الهواز تسع كور بين البصرة ولارس ، لكل كورة منها اسم خاص ويجمع على
 أهواز ولا تفرد الواحدة منهن هو .

(٥) خمصانة : ضامرة البطن .

(٦) الميماز : حديدة في مؤخر خف الرائف .

(٧) أبروديل : بفتح الواو وكسرهما ، وأبرواز ملك من ملوك الفرس .

(٨) ديوان ابن القيسرائي (مخطوط) ٧٨ و ٧٩ .

ويدخل الشاعر أنطاكية ، فيتحدث عن معالمها ، إذ هي أكبر ممالك الصليبيين في بلاد المشرق ، ويصف كنائسها ، ومن خلال ذلك يشيب بمن رأه من الفرنجيات ، ويتفنن بجمالهن الرائع . نقف مع الشاعر أولاً في وصف أنطاكية ، ونستمع إليه يصفها لنا قائلاً :

واحرَبَا في الثغورِ منْ بَلَدٍ يَضُنُّكَ حُسْنُ كَأَنَّهُ تُفَرُّ (١)
تَرَى قِصُورًا كَأَنَّهَُا يَبِيعُ نَاطِقَةٌ فِي خِلَالِهَا الصُّورُ
هَالَاتُ طَاقَاتِهِنَّ أَهْلَةٌ يَبْسِمُ فِي كُلِّ هَالَةٍ قَمَرُ
سَوَافِرُ كُلِّمَا شَعَرْنَ بِنَا بَرَقْعُهُنَّ الْحَبَاءُ وَالْخَفَرُ
مِنْ كُلِّ وَجْهِ كَأَنَّ صُورَتَهُ بَدَرٌ ، وَلَكِنَّ لَيْلَهُ شَفَرُ
فَهُوَ إِذَا مَا السُّلُوكُ حَارِبُهُ كَانَ لَتِلْكَ الضَّفَائِرُ الظَّفَرُ
فِيَا عَذُولِي فِيهِنَّ دَعِ كَلْفِي وَانْظُرِ إِلَى الشَّمْسِ هَلْ لَهَا طَرَرُ
سَرْتُ وَخَلَّقْتُ فِي دِيَارِهِمْ قَلْبًا تَمْنِيْتُ أَنَّهُ بَصَرُ
وَلَمْ أَزَلْ أَغْبِطُ الْمَقِيمَ بِهَا لِلْقَرَبِ ، حَتَّى غَبَطْتُ مِنْهُ سُرَا (٢)

نلاحظ أن الشاعر تحلل قليلاً من نصنعه البديعي ومن بعض ما رأيناه من صور تقليدية ومعان متداولة ، ولعل هذه التجربة العاطفية الجديدة في أواخر حياته أكرهته على التخلي قليلاً عما نعرفه من تكلف وتصنع ، لأن شعوره المتوثب ، وعاطفته المتقدة ، وقلبه المنفعل جعلته يعبر بصدق عما في نفسه من إحساس كإنسان ، وذلك أن هذا التعبير الصادق لا يستقيم أبداً مع التكلف والتصنع . فلا بدع إن رأينا الشاعر يتمنى في ختام قصيدته أن يقع أسيراً في هذه الثغور ليحظى بقرب الحسنات الفرنجيات ولقائهن في كنائسهن .

أعجب الشاعر بكنائس أنطاكية وبيعها ، فشبه بها قصورها المتسعة ، وميز بين كنائس النصارى من أهلها العرب ، وكنائس الفرنجة التي بنيت

(١) واحربا : يقال حربته أي دله على ما يحربه ، واحربته أي دلته على ما يفنسه من مدور يغير عليه . وقولهم : واحربا اتبا هو مأخوذ من هذا . قال ثعلب لما مات حرب بن أمية بالمدينة قالوا : (واحربا) ، ثم نقلوها وقالوا : (واحربا) . وقيل هي مأخوذة من حربته أي سلبه .

(٢) ديوان ابن التيسراني (مخطوط) ، و ٦٣ ، ٦٤ .

بعد الاحتلال . تحدث عن كنيسة السيدة « وهي قبة شاهقة البنيان عجيبة الوضع لنصارى أنطاكية خاصة دون الإفرنج » (١) ، ووصفها في قصيدتين من ثفرياته . يقول في إحداهما :

متى عَجَتَ يا صاحِ السَّيْدهُ فسلْ عن فُؤادي في الأثْدهُ
وقلِّبكِ حَذْرَهْ عنْ أنْ يُصَادَ فإنْ بها للهوى مَصيدُ
وجوهْ تباهي قناديلها ببهجة نيرانها الموقدِ
ترى كلَّ مُستضعِفٍ خَصْرَهْ إذا مادعا طرفه أنْجدهْ
وذاثَ روادفٍ عند القيا مَ تحسبُها أنها مُقْعَدَهْ
فيالي مِنْ ذلِكَ الزُّبُرِ قانِ إذا زرفنَ الليلَ أو جَعْدَهْ (٢)
به كلَّ نشوانةٍ لحظها يطلُّقُ بين يدي عَبيدَهْ
صوارمُ قاطعةٍ في الجفبو نَ فهي مجرّدةٌ مغمدهْ
فها أنا منْ في سبيل الفِرا م أوردَهْ الحبُّ ما أوردَهْ
فهل لدمٍ فاتٍ مِنْ طالب وهيهاتَ أعجزَ يومٌ غدَهْ
وكيف يجازى بقتل النفو س من لم يمد إليها يدَهْ (٣)

وتحدث الشاعر عن كنيسة أخرى ، وهي اللافرنج خاصة ، فقال :

بدينك يا قَسَّ بربارة وما بتَ تتلوهُ في الحنْدَسِ
أجرني مِنْ الصُّورِ الناطقاتِ متى قمنَ حولك في مِدرَسِ (٤)
إذا هنَ أقبلنَ وقتَ الصلَاةِ في كلِّ ثَونٍ مِنْ الأطلسِ
ترى كلَّ فائِنةٍ وجهُها معرّى بِشمسِ الضحى مَكتَسِ (٥)

ولم يكتف بالكنايس التي رآها في أنطاكية ، وإنما وصف الأديار المنعزلة ،

(١) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٦٨ .

(٢) الزبرقان : القمر في ليلة النهم ، وزرفن شعره : جعله كالزرافين ، وهي الحلق الصفيرة .

(٣) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٦٩ .

(٤) المدرس والمدراس . هو في الأصل الموضع الذي يقرأ فيه القرآن . ومنه مدرّاس اليهود ، وهو بيت تدرس فيه التوراة .

(٥) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٧٠ ، ٧١ .

كدير النصارى ، ودير سمعان (١) ، وهو على بعد فرسخين من انطاكية ،
ومما قاله في وصفه :

يا هل سمعتم بدير سمعان وما به للعيون من عان
أموقف للصلاة هيكله أم منبت من منابت البان
في كل غصن تفتحاً خجل تلقاك من مثلها ببستان
من ذات بشر تلوح في بشر وذات جان منها على جان
تسجد للشمس وهي معرضة في الأفق عنه بوجه غمران
وانصرفوا والفؤاد أثدة مع كل نصرانة ونصران
يا حسن عيد الصليب لو أن كان الدهر فيهم أعياد صلبان (٢)

فتن الشاعر بهذا الدير ، وطار له في عيد الصليب ، وما أكثر ما تحدث
في ثغراته عن الصليب ومعظمته :

أمعظمة الصليب وددت أني ودين الله عندكم صليب
إذا أقبلت قبلني حبيب أسر به وعانقني حبيب
وهل بيني وبين العود فرق يرى إلا التفجع والنجيب
هينني صورة نحيب عليها أجيب إذا دعيت ولا يجيب
فلم يسمع بأطراف من فتاة من الرهبان قوتها (٣) أديب
فلو قد ينسها نجاه لفظي لأمسى والنسيب له نسيب (٤)

نلاحظ أن الشاعر كان يعتمد دخول الكنائس ليمتع بصره بالراهبات
المتبتلات وبغيرهن من النساء المصليات اللواتي يلقاهن هناك ، فيعجب
بجمالهن الساحر ، ويرى فيه ضرباً جديداً من السحر القوي . فهو في
القصيدة السابقة يتحدث عن معظمة الصليب ، ويختتمها بالحديث عن
قديسها ، ومن خلال ذلك نلاحظ تشخيصه الرائع للصليب ، وهو في ذلك
يبدع لنا صورة شعرية في غابة الجمال الفني .

(١) المصدر السابق و ٧١ ، ٧٢ .

(٢) ديوان ابن القيسران (مخطوط) و ٧٣ ، ٧٤ .

(٣) نطن أن الشاعر أراد (الأيقونة) .

(٤) المصدر السابق و ٦٤ .

ويعجب الشاعر بالفواني النصرانيات اللواتي كن يترددن على الكنائس
ويصف منهن القديسات ، ويتحدث عن إعراضهن عن مباحج الحياة الدنيا
وانصرافهن إلى إقامة الصلوات :

كم بالكنائس من مبتلة^(١) مثل المهة يزينها الخفر^(٢)
من كل ساجدة لصورتها لو أنصفت سجدت لها الصور^(٣)
قديسة في جبل عاتقها طول وفي زئارها قصر^(٤)
غرس الحياء بصحن وجنتها ورداً سقى أغصانه النظر^(٥)
وتكلمت عنها الجفون فلو حاورتها لأجابك الحور^(٦)
وحكت مدارعها غداثرها (١) فأراك ضعفي ليلة قمر^(٢)

لم ينشد الشاعر الحب والجمال في الكنائس وحسب ، وإنما كان
يسمى وراءهما حيثما كانا ، ويلاحظ أن جمال العيون الزرق قد استهواه
بعد أن ملّ التغزل بعيون الأتراك الضيقة التي شاع كثيراً التحلث
عنها في هذا العصر ، كما تذكر في زرقتها سنان القنا الأزرق :

لقد فتنتني فرنجية^(١) تسيم العبير بها يعقب^(٢)
ففي ثوبها غصن ناعم وفي تاجها قمر مشرق^(٣)
وإن تك في عينها زرقاة^(٤) فإن سنان القنا أزرق^(٥)

ويقع الشاعر في حب جارية رومية حسناء تفني بالدف اسمها ماريّا
وهي من مولدات أنطاكية ، وكانت « خفيفة الروح في نهاية اللطف » (٥)
ومن أصواتها التي كانت تفايظ بها النصارى من ملتها ، وتستميل بها
قلوب المسلمين هذا اللحن :

(١) المبتلة : بتل. وببتل أى انقطع عن الدنيا الى الله وترك الزواج . والمبتلة أيضا
الجميلة كأنما بتل. حسنها على أعضائها أي قطع . والمقصود بالطبع هنا المعنى الاول .
(٢) المدارع : جمع مدرعة ، وهي هنا ثوب من الكتان يلبسه رجال الدين عند اليهود
والنصارى .

(٣) الممد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٢٠ .

(٤) ديوان ابن القيراني (مخطوط) و ٦٣ ، ٦٤ .

(٥) الممد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٠١ .

علقتُ بحبلٍ مِن حبالِ محمدٍ أمنتُ به من طارقِ الحدَثان (١)
لكنه ما ابتعد عنها حتى حن إلى لقاءها ، فبعث إليها يقول :

الا ياغزال الشفر هل أنت منشدي : علقتُ بحبلٍ مِن حبالِ محمدٍ
وياهل لذلك اليوم في الدهر ليلةٌ تعودُ ولو عادت عقيماً بلا غدٍ
فألقاك فيها هادي الكأسِ حادياً وحسبك مِن ساعٍ بها ومقرّدي
الا حبذا عاري المحاسنِ عاطلٌ محلىً بأثوابِ الملاحه مُرتدي
إذا ما الأماني ما طلتني بوعدها ذكرتُ له وصلاً على غيرِ موعدٍ
وعهدي بماريا ، سقى الله عهدها بما عندها من حاجة الهائم الصدي
وفي ذلك الزنار تمثالُ فضةٍ تنقُطُ خديه العيونُ بعسجد
فيالي مِن وجهٍ كقنديلٍ هيكلي عليه من الصلغين محرابُ مسجد
لقد أسرنني حيث لا أبتغي الفدا فقلُ في أسيرٍ لا يسرُ بمفتد (٢)

ينادي الشاعر حبيبته ماريّا ، وهي بعيدة عنه ، ويود لو يسمع لحنها المشهور ، ويتمنى أن يعيد الدهر لذلك اليوم ليلة العمر ، ولن يأسى بعدها إن جاءتة عميقاً بلا غد ، ويكفيه من الحياة أن يلقاها ، وقد حملت إليه الكأس دهاقا ، وأسمعته صوتها الساحر . وينتقل ليتحدث عن محاسنها وملاحظتها ، فيصف لنا مفاتن جسدها ، وقد تمثله في حلقة زنارها كتمثال من اللجين ، تنقُطُ خديه العيون بعسجد ثم يتغنى بعد هذا الوصف كله بوجهها المشرق في جنح ليل مجعد . وبذكر إعراضه أخيراً عن زجاجة الخمر لأن ماريّا سقته رضا بها من إناء مورد، وتأخذه النشوة، ويرسم لنا صورة الوجه والصلغين ، كان لحسن التعليل فيها أوفر نصيب في تصنعه البديعي : صورة وجه ماريّا المشرق ، وعلى طرفيه صلغاها الساحران ، وقد تمثّل الشاعر كل ذلك في صورة أحاطها بإطار ديني موفق ، يظهر من خلاله قنديل هيكلي بيعة متألّق في حندس الليل ، وعليه محراب مسجد مزخرف ، نمنمته الصنعة العريقة الأنيقة .

جمع الشاعر في هذه الصورة المبتكرة بين المعاني الإسلامية والنصرانية

(١) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) د ٧٤ .

(٢) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) د ٧٤ ، ٧٥ .

على حد سواء ، وقد لاحظنا مثل هذا الجمع كثيراً في شعر المتصوفين والزهاد كابن عربي وغيره .

أكثر الشاعر من هذه المعاني في شعره ، ولسنا بمبالغين إن قلنا إنه يبلغ من ذلك مبلغاً لم يترك شأوه فيها أحد من شعراء هذا العصر . من ذلك قوله في وصف حبيبته ماريًا :

إذا ما زرت ماريًا	فما سعدى ، وما ريًا
فتاة كقضيبي البا	ن يئنيها الصبا طيًا
تلوى ، كالمواعيد	أطالت عمرها ، ليًا
لها وجه مسيحي	ترى الميت به حيًا
إذا ما قابلته الشم	س لم تبصر به فيًا
فيما أحسن من أعر	ض إدلالاً ومن حيًا
انسين وخباك	فتى قلت له : هيًا
فلو نظهر وسم (١) الح	ب أبصرت له كيًا (٢)

تؤكد هذه القصيدة تأثر الشاعر بالمعاني المسيحية ، وتوضح لنا إعراضه عن المعاني التقليدية في الفزل والنسيب ، وذلك أنه لا يطرب لذكر سعدى وريا ، وإنما كل همه مغنية رومية من مولدات انطاكية .

لاحظنا في عرض شعره مذهب الفني ، كما عرفه معاصروه ، وكما نحاول أن نتعرف الآن في ختام هذا البحث .

تلمذ ابن القيسراني على شاعر عصره ابن الخياط ، وهو الذي اعتمده في رواية ديوانه لأنه آنس فيه التلميد العبقري الذي أئتمنه على التقيد بالمذهب الشعري المعروف ، وهو مذهب تصنع التطبيق والتجنيس .

وجدير بالذكر هنا أن هذا المذهب الشعري تطور حتمي للمدرسة الشعرية المعروفة في بلاد الشام من قبل ، وهي التي بدأت بأبي تمام وتلميذه البحتري من بعده ، وقد سئل عن نفسه وعن أستاذه فقال : « أغوص على

(١) الوسم : العلامة وأثر التي .

(٢) المصدر السابق ، ١٧٦ ، ١٠ .

المعاني ، وأنا أقوم بعمود الشعر (١) . علق الأملدي على جوابه بقوله : « وهذا الخبر هو الذي يعرفه الشاميون دون غيره (٢) » .

عرف النقاد الأقدمون في شعره هذا المذهب الذي كان منتشراً في بلاد الشام ، ولاحظوا إكثاره في قصائده من التصنع البديعي وبخاصة منه : الجناس والطباق ، وقد ذكر العماد الكاتب في وصف إحدى قصائده أنها « قطعة مجنسة في لطافة الهواء ، مالكة رق الأهواء ، خلصت من كلفة التكلف ، وصفا مشربها عن قذى التعسف ، فالأشعار المتكلفة المصنوعة قلما يتفق فيها الأبيات المطبوعة ، إلا أن يخص الله من يشاء بالخاطر العاطر ، والفكر الحاضر ، والقريحة الصافية ، والآداب الوافرة الوافية ، وربما يندر للنناظم مقطعات يرزق فيها القبول ، كهذه القطعة التي تسلب العقول (٣) » .

أصاب العماد في بعض هذا القول الحقيقة ، فالأشعار المصنوعة قلما يتفق فيها الأبيات المطبوعة ، وقد لاحظنا أن الشاعر كان يتخذ في بعض قصائده هذا المذهب ، ويظهر فيه التصنع والتكلف ، بيد أنه كان يقتصد في الصنعة أحياناً كما في تفرياته ، لأنه كان يستجيب لنداء العاطفة الصادقة . هكذا كان الشاعر في صناعته ، مطبوعاً تارة ومتصنعاً تارة أخرى ، وعلى ذلك ذاع صيته بين معاصريه فكان رائداً من رواد مذهب التصنع البديعي في هذا العصر .

(١) الأملدي : الموازنة ، ص ٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٩٨ .

ابن منير الطرابلسي

(٤٣٧ - ٤٥٨ هـ = ١٠٨٠ - ١١٥٣ م)

القبيل الأول

حياته وأثاره

(١)

مراحل حياته

انتشرت الدعوة الفاطمية في بلاد الشام في القرن الخامس الهجري كما رأينا ، وكانت طرابلس الشام الثغر الذي اتخذته دعاة الإسماعيلية منطلقاً لبث تعاليمهم ، وبسط سيطرتهم على هذه الرقعة التي حفظت لهم دعوتهم حيناً من الدهر ، وكانت الطريق التي أمد الدعاة الأوائل بالعون والأيد ، وكانت أيضاً المقر الذي اتخذوه لهم جنة في تدمير وسلمية اللتين كانتا مركز إشعاع للشيعة الإسماعيلية .

أنشأ الفاطميون المدارس الكثيرة ، وكانت طرابلس الشام مقر دار الحكمة ، وقد أنشئوها على غرار مثيلتها في القاهرة .

في هذه المدينة ، ولد الأديب الشاعر ، عين الزمان ، مهذب الدين ، أبو الحسين أحمد بن منير بن مفلح الطرابلسي (١) سنة ٤٧٣ هـ ، ذكر

(١) ابن خلكان : وقيت الأعيان ، ج ١ ص ٤٩ ، وابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج ٢ ص ٩٨ ، ٩٩ وابن الوردي : تنمة المختصر ، ج ١ ص ٥٣ ، وابن العماد : شذرات الذهب : ج ٤ ص ١٤٦ ، وابن كثير : البداية والنهاية : ج ١٠ ص ٢٣١ ، وابن تفرج : بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٢٩٩ ، وراغب الطباخ : أعلام النبلاء ، ج ٤ ص ٢٣١ ، وأبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٤٩ ، والدلجى : الفلاحة والمفلكون : ص ١١٢ ، والزركلجى : الأعلام ج ١ ص ٢٤٥ ، وسبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ١٣٢ ، والسيوطي : بغية الوعاة ، ج ٢ ص ٩٧ - ٩٩ .

المؤرخون أنه من أسرة فقيرة، وأن أباه كان ينشد القصائد في أسواق طرابلس، ويعني أشعار العونى، ولا نعرف على الضبط مذهبه، وأغلب الظن أنه كان متشيعاً، وأنه أحد اللصاة الذين كانوا ينشرون الدعوة عن طريق التقرب من العامة، وسبيلهم الأفضل نشر القصائد المذهبية والأغاني العامية بين الناس.

مهما يكن من أمر طفولة الشاعر التي لا نعرف كثيراً من أخبارها، فقد ترعرع في هذا الثغر المربط بالهدد بالأعداء من البر والبحر، وفي هذا البحران الديني، فحفظ كتاب الله، وتفقه أحكامه، ونال قسطاً وافراً من علوم اللغة والنحو والعروض والقوافي، وتفوق في الأدب، فنظم الشعر الفائق، واكتملت له عناصر الكمال والإبداع.

كان الشاعر يلقب بـ « الرثاء (٢) »، ومعنى ذلك أنه احترف في مطلع حياته الرفو وإصلاح الشباب.

أجمع الأقدمون على أنه كان شيعياً مفايلاً، وقالوا عنه إنه كان رافضياً (٣) خبث اللسان كثير الهجاء، فخافه الناس ورهبوه، واستمر على هذا النمط من الحياة في أوائل حياته حتى آن وقت ارتحاله.

عادة معظم الشعراء أن يرتحلوا في غلواء الشبيبة سعيًا وراء الشهرة، والاملا في اكتساب المعرفة والاستزادة من الثقافة، ولم يثبت لدينا أن الشاعر ارتحل قبيل الثلاثين من عمره.

والمعروف لدينا تاريخياً أن طرابلس بقيت محاصرة سبع سنوات من قبل الفرنجة حتى افتتاحها سنة ٥٠٣ هـ، وكان صاحبها يومئذ عماد بن محمد، فنزح أهلها إلى داخل الشام، وكان ابن منير أحد هؤلاء المهاجرين. بيد أننا لا نعرف مصير والده وأسرته إن كان قد تزوج في هذه المرحلة في حياته.

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨ ص ١٣٢، والسيوطي: بنية الوعاة

ج ٢ ص ٩٧.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١ ص ٤٩، وابن مسافر، تاريخ دمشق ج ٢ ص ٩٨

غادر وطنه أسفاً عليه ، فدخل دمشق بادئاً رحلته التي أكره عليها .
 واتصل بتاج الملوك بوري بن طفتكين ، فمدحه وحظي لديه ، لكنه اتخذ
 من مكانته عنده سبيلاً يهجو به أكابر الدولة وكرام أهلها ، فأحفظهم عليه ،
 وأثار سخطهم بهجائه المقلع وشعره الفاحش . نتساءل عن السبب الذي
 جعل علاقته سيئة مع مجتمعه الجديد بدمشق . قد يكون تشييعه من
 عوامل سوء الخلاف وقد يكون تقرب تاج الملوك له أول وفوده على دمشق من
 الأسباب التي ألبت عليه غيره من شعراء دمشق . مهما يكن من أمر ذلك
 فإن ممدوحه تغير عليه ، وأفلح أعداؤه في الكيد له ، فقبض عليه ، وألقي في
 السجن وأمر تاج الملوك بتعذيبه وقطع لسانه ، فتشفع به الحاجب يوسف
 ابن فيروز ، واستوهبه لحرمه ، وأمر أن يطلق سراحه واكتفى بنفيه
 من دمشق .

بقي الشاعر بعيداً عن حاضرة ملك آل طفتكين حتى وفاة تاج الملوك
 سنة ٥٢٦ هـ ، فلما ولي ابنه إسماعيل عاد ثانية إلى دمشق ، واستقر فيها
 مدة من الزمن ، لكن صاحبها الجديد سرعان ما تغير عليه فجأة أيضاً
 لشيء بلغه عنه أغلب الظن أنه من كيد حساده ، فاستدعاه ، وجد في طلبه
 بعد أن أصدر أمره بصلبه (١) ، بيد أنه عرف ما بيئت له ، فهرب من بيته ،
 واختفى في مسجد الوزير أياماً ، وكان خلال اختفائه يتردد على بيت
 صديقه إبراهيم بن محمد القيسي ، لئلا تدركه عيون الملك حتى تمكن من
 الخروج من دمشق ، ولحق بالبلاد الشمالية وتنقل بين حماة وشيزر وحلب
 ينتجع مراد الملوك والأمراء من الزنكيين والمنقذين .

تلك فترة غامضة في حياة الشاعر ، فما هو ذا ينفي للمرة الثانية لأنه
 بلغ مسامع الملك إسماعيل ، ويحكم عليه بعقوبة الموت صلباً ، لكن
 أصدقاءه ساعدوه على الفرار والنجاة بروحه . ولا تكون مغالين إن قلنا
 إن شيعته المتطرفة ، وجهره برأفضيته أمام الخواص والعوام أثارت عليه
 نقمة الناس وأحقتهم ، بلكه إقذاعه في هجائه الذي أربى به ذوي السلطان
 في الدولة ، فاتهم بالزندقة ، وعقوبتها الصلب ، وغيره ممن لقي محنته

(١) ابن مسافر : تاريخ دمشق ، ج ٢ ص ٩٨ .

من الفلاسفة والإباحية والمتصوفة كثيرون جداً في هذا العصر .

عاد إلى دمشق أيضاً بيد أننا لا نعرف على الضبط تاريخ عودته ،
فهل كانت في زمن إسماعيل نفسه أو في زمن خليفته محمود المقتول سنة
٥٣٣ هـ أو في زمن جمال الدين محمد بن بوري والد آبق ؟؟؟

المؤكد أنه عاد ، لكننا لا نملك البيئة لتحديد هذا التاريخ الهام من
حياته .

ويفر أيضاً للمرة الثالثة في عهد رابع ملوك آل طغتكين المظفر مجير الدين
آبق بسبب خوفه من وزيره مؤيد الدولة بن الصوفي ، وقد عرف عنه أنه
كان غشوماً ظلوماً ، فأقام في هذه المرة عند امراء شيزر من آل منقل .

وترددت إليه الرسل لتقنعه بالعودة إلى دمشق ، فوصل زين الدين
ابن حلیم رسولاً إليه ، ولقيه في شيزر ، ورغبه في العودة وخدمة المتحكم
بأمر دمشق مقدم جيشها معين الدين أنر الذي كان بيده أمر كل شيء بالبلاد ،
وهو الذي نصب نفسه وصياً على الملك لصغر سنه .

رفض الشاعر العودة وهو أشد ما يكون حرصاً عليها ، فلما فارقه
الرسول بعث إليه ثانية يستنهض همته للرجوع ، ويذكر له مصلحته فيه ،
ويقول له ، « لعلي أكون في إحضارك كأصف في إحضار عرش بلقيس (١) » .

اعتذر الشاعر ، وبعث كتاباً إلى صديقه زين الدين رسول الملك ، وذكر
له فيه كثرة أعدائه وتآمرهم عليه ، وحمل حملة شعواء على حساده الذين
كانوا يفضلون عليه ابن القيسراني ، وذكر في ختام الرسالة خوفه من الأعداء
المتربصين به في الطريق إلى دمشق ، وهو لا يمانع في العودة إن ضمن
له السلامة من اغتيال عدو دون خدمة المولى (٢) .

نمضي قدماً مع الشاعر ، فنقض في حماة وشيزر المرحلة الثالثة من
حياته ، وننتهز هذه الفرصة لتحدث عن شيعيته التي سببت له عدم
الاستقرار والخوف الدائم . كانت علاقته مع الناس مضطربة ، فهو شيعي
مفال ، وكان يجتسم نفسه عناء الرحلة إلى بغداد ليلقى نقيب الأشراف

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٩١ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٩٥ .

الشريف الموسوي ، وقد جهز إليه هدية بعث بها مع مملوكه تتر ، فقبل الشريف هديته واستحسن المملوك ، فأدخله في جملة الهدية ، وقصد أن يعوضه ذلك بأضعاف ، غير أن ابن منير لم يرض بالتخلي عنه « وهو معشوقه الذي اشتهر في الخافقين غرامه » (١) .

فكتب إليه على الفور قصيدة بعث بها إلى الشريف وقد تفضل في مستهلها بمملوكه تتر ، ويعرض في ختامها به قائلا :

إنَّ الشريفَ الموسوي . . . ابنَ الشريفِ أبي منصرٍ
أبْدَى الجُودَ ولم يَرُدَّ . . . إليَّ مملوكي تَتَرُ
واليتُ آلُ أمية . . . الطَّهرَ الميامينَ الفرزُ
وجحدتُ بيعةَ حيدرٍ . . . ورَجَعْتُ عنه إلى عُمَرُ
وإذا جَرَى ذكْرُ الصُّحَا . . . بةٍ بينَ جَمْعٍ واشتَهَرُ
قلتُ : المقدمُ شيخُ تَيْ . . . ثم صاحبه عُمَرُ
هذا الشريفُ أضلني . . . بعدَ الهدايةِ والنَّظَرُ
فاخشنُ الإلهَ بسوءِ فِعَا . . . ليكَ واحتدرِ كلَّ الحَذَرُ (٢)

نلاحظ في هذه القصيدة أن الشاعر على الرغم من تهديده الشريف الموسوي بمولاته لغير طائفته إن أصر على أخذ مملوكه ، كان يرى في أعماق نفسه أن التشيع هو (الهداية والنظر) .

كما كان الشاعر أحد سروات الشعر في عصره ، وكان على خلاف كبير مع ابن القيسراني السابق ذكره وغيره من الشعراء ، وجرت بينهما « مكاتبات وأجوبة ومهاجاة » (٣) ، وشبههما معاصروهما بـ « جرير العصر وفردقه » (٤) .

لجأ ابن منير إلى هجاء الشعراء الآخرين والناس ، لا رغبة في ذلك ، وإنما كان يقصد ترهيبهم وتخويفهم ، لأنه كان شيعياً ، وبهذا السلاح

(١) ابن حجة : الخزائن ، ص ٤٤٦ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٩ .

(٤) الساد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٧٩ .

استطاع أن يأمن شرهم ، ولكنه لم يسلم من كيدهم ، وكاد هجاؤه يكلفه حياته ، فنفى من دمشق مراراً ، وأمر بقطع لسانه ، وقضى عليه صلباً .
يظهر أنه رأى في أخريات حياته أن يخفف شيئاً من شدة تعصبه لشييعته ويلجأ إلى التقية ، إذ لم ينتفع بالجهر في علويته ، فأشهد عليه ابن يحيى أنه حموي . يؤيد ما نذهب إليه الرسالة الشعرية التي بعث بها إلى الشيخ تقي الدين أبي الخير أمين الملك سلامة بن يحيى البققي :

قل لابن يحيى مقال غير غور أشهد من الآن أنني حموي
لا رافضي غث أقيم على الـ شيخين سوق البهتان بل أموي
لم انتفع مذ أقمت في حلب طرفة عين بأنني علوي
وأن قلبي جـو لا يـامـ صيف دين ودائي من كربلاء دور
يصنع بي كهلهـا ويافعهـا ما يصنع الحنبلي بالثنوي
كأنما عاينوا معاوية يلوح من نقش فصـي الغروي
لا أدب عاطف على أدبي بل كل وجه دنوت منه زور
فالرزق لا مصقب ولا أمم حتى كآني خلت غير سور (١)

تؤكد هذه القصيدة أنه رافضي ، وأنه مغال في علويته ، وأنه لقي في سبيل عقيدته السوء من معاصريه ، وها هو ذا يتقرب من ابن يحيى كبير شيوخ حماة في عصره ، ويشهد على نفسه ليعلم أمام الناس أنه غدا حموي المذهب ، وما كانت الحموية مذهباً يتخذ ، يعني هذا أنه يرغب في الحماية ليعبد عن نفسه أذى المعاصرين ، ويتخلص من هذا الإعراض وهذه العزلة النفسية .

انتشرت هذه القصيدة ، ولقيت السخرية والإعراض من معاصريه ، فهم يعرفون تمسكه الشديد بعلويته على الرغم مما يلقيه منهم ، ويكتب جوابها صديقه الشاعر ابن قسيم الحموي قائلاً :

يا شاعراً أودعت أنامله درء القوافي كتابه التبتوي
ولو كشفناك لم تكن حبيب في مذهب ولا حموي

لو كان إبليس قبلَ لَاحٍ لَهْ آدمُ من نقشِ فصكِّ القَرَوِي .
لخبرَ ما شئتَ ساجداً وِعِناً لله طوعاً ، وكان غيرَ غَوِ
فأيُّ وجهٍ رآكَ ناظِرةً فازورَ ، لا مقبلَ بهِ وزَوِي
والدَّهرُ قد ماتَ حادثُه خَوْفاً ، فأتى يكونَ غيرَ سورِ (١)

يتضح من جواب ابن قسيم على قصيدته انه لم يكن صادق النية في دعواه النبوية ، وأنه لو أظهر ما في مكنون صدره لعرف الناس حقيقته .
لم يتخذ ابن منير جِمة دار إقامة وإنما اختار شيزر إحدى ضواحيها لتكون المنفى الذي اختاره لنفسه بعد فراره من دمشق .

تساءل عن سبب اختيار هذا الحصن بالدات ليكون المعقل الذي يأوي إليه ، وبلاذ الشام أمامه فسيحة الأرجاء ممتدة الأطراف ، إذ في كل مدينة ملك أو أمير .

أغلب الظن أن قربها من جبل العلويين ، وأن معظم الفلاحين فيها كانوا من سكان جبل المعبّد - كما يقول أسامة في اعتباره - كان السبب الذي جعله يفضل الإقامة عند أمراء شيزر بين جماعة من طائفته يعطف عليهم ويعطفون عليه .

مدح الشاعر من أمراء بني المنقذ أبا العساكر سلطان عم أسامة ، وقد روي ابنه أبو الفضل إسماعيل أن أباه أوصى بعمل طست من اللجين ، وأمر أن يكتب عليه بعض أبيات من شعره (١) .

صور خير تصوير طبع الناس وقلدهم ، وتحدث عن الأصدقاء وتقلبهم .
وود لو قبض الله له صديقاً يصطفيه ، وتمنى لو عدم الدهر الذي ولد فيه :

عَدِمْتُ دَهرًا وَلِدْتُ فِيهِ كَمْ أَشْرَبَ المرَّ مِنْ بَنِيهِ
مَا تَعْتَرِينِي الهمومُ إِلَّا مِنْ صَاحِبِ كُنْتُ أَصْطَفِيهِ
فَهَلْ صَدِيقٌ يَبَاعُ حَتَّى بُمُهْجَتِي كُنْتُ أَشْتَرِيهِ
يَكُونُ فِي قَلْبِيهِ مِثَالُ "يَشِيهِ" مَا ضَاعَ لِي فِيهِ
وَكَمْ صَدِيقٍ رَغِبْتُ عَنْهُ قَدْ عِشْتُ حَتَّى رَغِبْتُ فِيهِ (٢)

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٤٧٩ .

(٢) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج ١ ص ٩٩ .

عاش واحداً بغير صديق ، وشرب المر من ابناء زمنه ، وما أحلى الصورة
التي رسمها وهو في منفاه في شيرز للإنسان العظيم الذي رأى الخمول
نزله ، فترحل في قلاوات الأرض ، وأبى أن يقيم بين قوم ، ذنب الفضيلة
عندهم أن تكمل :

أخلى فصدّ عن الحميم وما اختلى ورأى الحمام يفصّه فتوسّلاً
ما كان واديه بأول مرتفع ذعرت طلاوته طلاه فأجفلاً
وإذا الكريم رأى الخمول نزله في منزل فالحزم أن يترحلاً
كالبدل لما أن تضاعل نوره طلب الكمال فحازه متنفلاً
ساهمت عيسك مرتعشك قاعداً أفلا قلّيت بهن ناصية الفلا
فارق ترق كالسيف سل فبان في متنيه ما أخفى القراب وأخفلاً
لاترض من دنياك ما أدناك من دنس وكن طيفاً حلا ثم انجلى
وصل الهجير بهجر قوم كلما أمطرهم عسلاً جنوا لك حنظلاً
من غادر خبث مفارس وده فإذا محضت له الولاء تأولا
الله علمي بالزمان وأهله ذنب الفضيلة عندهم أن تكملاً
طبعوا على لوم الطباع فخيرهم إن قلت قال ، وإن سكت تقولا
أنا من إذا ما الدهر هم بخفضه سامته هيمته السماك الأعزلا
واع خطاب الخطب وهو منحجم راع أكل العيس من عدم الكلا
زعم كمنبلج الصباح وراءه عزم كحد السيف صادف مقتلاً (١)

كان الشاعر خلال مقامه في شيرز يتردد إلى حلب ، يمدح الملوك
الزنكيين وأمرأهم ، وفضل الاستقرار فيها أخيراً ، فكانت نهاية مطافه
الطويل بعد هجرته من أول مرتع له ، إذ وجد في رعاية ملكها عماد الدين
وأبنته نور الدين من بعده ما صرفه عن كل ممدوح غيرهما ، فخصهما بفر
قصائده ، وخلد الفتوح الكبرى التي أفاءها الله على يديهما .

(١) ابن مسافر : تاريخ دمشق ، ج ١ ص ٩٨ ، ٩٩ والساد الكاتب : الخريدة ،

صورت مدحه الزنكية الصراع البطولي في هذا العصر فلم يقتصر على
نعبته صدقاً أو كذباً ، وإنما اتخذها ذريعة أبرخ فيها كفاح المسلمين ، وصور
معاركهم مع الصليبيين خير تصوير .

يكفي هنا أن نشير إلى القصائد التي نظمها الشاعر خلال حدثين هامين
شهدهما الشاعر عند فتح بارين وفتح الرها لنمدل على أهميتها من
الناحية التاريخية .

مدح الشاعر عماد الدين كفيره من الشعراء بعد موقعة بارين ، وصور
هذه المعركة بقصيدة مطلعها قوله :

فَدَتِكَ الْمُلُوكُ وَأَيَّامُهُا وَدَامَ لِنَقْصِرِكَ إِبْرَاهِيمُهَا (١)

ومدحه بعد موقعة الرها وفتحها ، وصور أيضاً هذه المعركة الهامة
بقصيدة ، مطلعها قوله :

أَيَا مَلِكًا أَلْقَى عَلَى الشَّرِكِ كَلْكِلًا أَبَاخَ عَلَى أَمَاتِهِ كَلْكِلَ الْبُكُلِ (٢)

ومدحه بقصيدة ثانية في المعركة نفسها ، وفيها يقارن الشاعر بينها
وبين عمورية ومعتصمها ، ويفضل الرها وعمادها . ومطلعها قوله :

صَفَاتُ مَجْدِكَ لَفْظٌ جَلٌّ مَعْنَاهُ فَلَا اسْتِرْدَ الَّذِي أَعْطَاكَ اللَّهُ (٣)

ومدحه بقصيدة ثالثة في فتح الرها وفيها يبالغ في تصنعه البياني
والبديعي ، فيعبث بالأعلام من أسماء ملوك الفرنجة وأمرائهم ، ويشق
الأفعال التي تتجانس معها والتي تصور هزيمتهم المنكرة أمام جند عماد الدين
ومطلعها قوله :

بِعِمَادِ الدِّينِ أَضْحَتْ عُزْرَةُ الدِّينِ بِنِ مَعْصُوبٍ بِهَا الْفَتْحُ الْمُبِينُ (٤)

نبه اسم الشاعر ، وذاع صيته في حلب الشهباء ، ونافسه ابن
القيسراني و « وقع في مباراته ومعارضته ، ومجاراته في مضمار القريض
ومناقضته (٥) » فقد روى قاضي السويداء أبو المجد أن ابن منبر كان يبت

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٣ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٩ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٩ - ٤٠ .

(٥) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٧٩ .

منافسه ، ويدكر له انه ماصحب أحداً قط إلا نكب بسبب سوء طالعه . وقد
اتفق أن عماد الدين غناه مفن على قلعة جعبر وهو يحاصرها قول الشاعر :
ويلي من المعر ض الغضبان إذ تَقَلَّ الـ واشى إليه حديثاً كله زُورُ
سَلَّمْتُ فازور يزوي قوس حاجبيه كَأَنِّي كَأْسُ خَمْرٍ وهو مخمور^(١)

فاستحسنها زكى وسأل عن صاحبها ، فقبل لابن منير ، فكتب إلى
والبي حلب ليسيره سريعاً ، فبعث به إليه ، ولما وصل وجد عماد الدين مقتولاً
فاضطر أن يعود إلى حلب صحبة صاحب حمص أسد الدين شيركوه وابنه
نور الدين ، فلما دخل المدينة رآه ابن القيسراني فقال له شامتاً : « هذه
بجميع ما كنت تبكتني به » (٢) .

اختص الشاعر بالملك الجديد نور الدين وخلص أيضاً في شعره ومدحه
الصراع الديني المرير بين المسلمين والفرنجة . استهل صلته به بعد معركة
الرها التي أعلنت العصيان عليه ، فمدحه بقصيدة مطلعها قوله :

مَلِكٌ ما أَذَلَّ بالفتح أرضاً قطَّ إلا أعزَّها إغلاقه^(٣)

ومدحه بقصيدة أخرى مطلعها قوله :

أَبداً يُنْكَبُ عن ضلالٍ سادراً بتقوب زتدرك أو تدل على هدى^(٤)

ومدحه بقصيدة ثالثة ، وهو يشهد رأس البرنس صاحب انطاكية
محمولاً قرب جسر الحديد بحلب الشهباء ، ومطلعها قوله :
أَقْوَى الضَّلَالِ وأَقْفَرَتْ عرصاته وعلا الهدي وتبَلَّجَتْ قسماته^(٥)

توثقت صلة الشاعر بالملك الجديد ، فخصه بمدحه الكثيرة ، واتخذ
من حاضرة ملكه مقامه ومستقره بعد النفي والتشرد ، بله إعراض الناس

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٩ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٤٩ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١ - ٢٢ .

(٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٥٨ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١

ص ١٢٢ : وابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٥٤ - ٥٥ .

وسوء معاملتهم له . أما مكان مسكنه فيقع في درب الفاخوري على باب
الجامع الكبير الشمالي (١) .

يظهر أنه أنيط به عمل في خدمة الملك ، إذ كان يصاحبه في غزواته
الكثيرة ، وكان يسفر أحياناً بينه وبين بعض ملوك عصره . ومن ذلك أنه قدم
صحبه سنة ٥٤٧ هـ عندما حاصر دمشق الحصار الثاني ، وكان أبوه عماد
الدين قد حاصرها من قبل سنة ٥٣٤ هـ في عهد ملكها جمال الدين محمد
ابن يوري . أما في هذه المرة فكان ملكها مجير الدين آبق بن محمد ، وكان
الخطر يهدد البلاد من قبل الفرنجة الذين استولوا على عسقلان وهي لمصر ،
وهددوا دمشق التي حالت بين نور الدين ونجدة مصر للدفاع عنها ،
فطمعوا بها واستضعفوا أهلها وفرضوا عليهم الإتاوة السنوية واستردوا منهم
أسراهم ، وكان رسولهم يجول كما يشاء في ربوع دمشق .

كان ابن منير رسولاً مبعوثاً من قبل نور الدين ، فوافى جلق موقفاً
من جانبه قبيل الاستيلاء عليها وتملكها ، فلقى مجير الدين وحظي لديه
بالوجاهة والكرامة في السفارة .

خرج بالأمس منها شريداً طريداً ، وقضى أيامه منفياً عنها ، وها هو
ذا اليوم يرجع إليها معزراً مكرماً ، يحمل رسالة أعظم ملوك المسلمين . دخلها
دخول المنتصر ، وكاد قبل اليوم يقطع لسانه ويلقى حتفه مصلوباً . كان
يتمنى أن يرى ملكه يدخلها فاتحاً فينقلها من حكم أسرة آل طفتكين حليفة
الفرنجة ، لكن المنية عاجلته وهو على حصارها ، فرجع إلى حلب صحبة
بعض الجند العائدين ، ومات فيها سنة ٥٤٨ هـ ودفن في جبل جوشن ،
قرب المشهد الذي يقع فيه (٢) .

(١) الطباخ : أعلام النبلاء ، ج ٤ ص ٢٣٦ .

(٢) ثمة رواية أخرى غريبة انفرد بها أبو الحكم عبيد الله ، وهي أن ابن منير توفي
سنة ٥٤٧ هـ ورائه بأبيات هزلية ، يفهم منها أنه مات بدمشق ، وهذا غير صحيح . (ابن
خلكان وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٩) .

(٢)

آثاره الأدبية

أورد مؤرخو هذا العصر شواهد مختارة من شعره في وصف الأحداث الكبرى من خلال مدحه كبار الأبطال المنتصرين ، كما أشار الأقدمون إلى ديوانه : فذكر ابن خلكان أن له ديوان شعر (١) ، وذكر أبو شامة أنه قرأ فيه قصائد بمدح نور الدين (٢) ، واقتبس منه شواهد كثيرة في تاريخه ، وبخاصة منها ما يتعلق بوصف الأحداث التاريخية . أما العماد الكاتب فقد تحدث عنه في معرض ترجمته له ، وقال : « ولم يتفق لي ديوانه لاختار مختاره ، وأمتار مشتاره ، وأجني من روض حسنه ورده وبهاره ، ورنده وعرايه ، وإنما التقطت أعلaque من أفواه المنشدين ، واستفتحت أغلاقه من أيدي الموردين ، وسأبت إن ظفرت بديوانه شعره كل ما يصدع به فجر فخره ، ويطلع منه بذر قدره . ويدل على سمو مناره ، ونمو أنواره ، وعلو ناره ، ورقة نسيم أسحاره ، ودقة سر سحره في معاني أشعاره ، وأخفر الخريدة من سخيها ، وأوفر لها الحظ من وافر رائقها ولطيفها ، وأجلو لناظرها طرف طريفها ، وأغني عن ثقلها بذكر خفيفها (٣) » .

شأننا شأن العماد نفسه ، فلم نظفر مثله بهذا الديوان المفقود الذي أدهشه قبل أن يطلع عليه ، وإنما التقط أعلaque من أفواه المنشدين ، واستفتحت أغلاقه من أيدي الموردين .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٤٩ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢١ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٧٨ .

القسم الثاني شعره ومذهب الفتي

(١)

أغراض شعره

يصور شعره الأحداث الكبرى التي شهدتها في هذا العصر ، كما يصور حياته الخاصة ، في معرض شكواه من الزمان وبنيه ، وقد برع في هجائه وغزله .

أحداث كبرى

مدح ابن منير ملوك عصره ، وأشاد بجهاد أبطاله ، وكانت مدحه الزنكية تطوراً جديداً في المعاني التقليدية ، كما رأينا الأمر نفسه عند منافسه ابن القيسراني ، وقد وصف مثله الأحداث الكبرى في بلاد الشام لأنها أصبحت الموضوع الرئيسي الذي يجب أن يلم به كل شاعر معاصر .
أشرنا إلى كل ذلك في معرض حديثنا عن حياة الشاعر ، وذكرنا أنه أسهم بدوره في الدعوة إلى تحرير بيت المقدس في غد قريب :

وغداً " يلقى على القدس بها ككل " يدرسها درس السدّين
بك يا شمس المعالي ردت الرُّوح في الميتين من دنيا ودين (١)

كان شعراء العصر لسان الشعب الناطق المعبر عن أمانيه ورغباته ، ولا ينكر لهم ذلك ، فكانهم كانوا يرسمون للبطل الممدوح الطريق التي تخلده في صفحات التاريخ .

هذا شأن مدحه الحربية ، صورة تاريخية من صور الجهاد ، أما سائر مدحه الخاصة فلن نجدنا الوقوف عندها طويلاً ، إذ لا جديد فيها يخرجها

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٤٠ .

عن المعاني التقليدية من مدح الممدوح بالبأس والجلود والحلم ، وأبرز ما يميزها هو الإغراق في التصنع البياني والبديعي .

غزل ونسيب

أعرض الشاعر في كثير من قصائده عن استهلالها بالنسيب ، وقد رأينا الأمر نفسه لدى معظم شعراء العصر ، وهذا تطور هام في عمود الشعر العربي ، بدأت طلائعه قبيل هذا العصر ، بيد أنه أصبح صفة مميزة فيما بعده . أما الغزل فقد اتخذ موضوعاً خاصاً ، ونظم مقطعات صغيرة وقصائد كاملة في هذا الغرض . وجدير أن نقف عندها قبل أن نوضح فنونها واتجاهاتها .

أعجب الأقدمون بقصيدته الغزلية المطولة ، إذ بلغت عدتها سبعة وثلاثين بيتاً : اخترنا منها عشرة الأبيات التالية :

من ركب البدر في صدر الرديني^١ وموّه السحر في حدّ اليماني^٢
 وأنزل الثير الأعلى إلى فلك مداره في القياء الخسرواني^٣
 طرف رنا أم قراب^٤ سل صارمه^٥ وأغيدت ماس أم أعطاف خطني^٦
 أذنتي بعد عزّي والهوى أبداً يستعبد^٧ اللثيث للظبي الكناسي^٨
 أما وذائب مسك من ذوائبه^٩ على أعالي القضيبي الخيزراني^{١٠}
 لو قيل للبدر من في الأرض تحسده^{١١} إذا تجلى ، لقال : ابن الفلاني^{١٢}
 إباء فارس مع لين الشام مع ال^{١٣} ظرف العراقي^{١٤} في الشطق الحجازي^{١٥}
 وما المدامة بالألباب لعب من فصاحة البدور في الفاظ تركي^{١٦}
 فلو بضرت به يصفى وأنشده^{١٧} قلت : النواصي يشجي قلب عذري (١)

يتغزل الشاعر بمحبيب له فارسي النجار، جمع فيه لين الشام وظرف العراق ونطق الحجاز ، وكان معجباً بهذه الصفات الجمالية ، وعبر عن هذا الإعجاب بصورة عبثت بها الصنعة التي ظهرت من خلال الأبيات المذكورة .

(١) ابن خلكان : وثبات الأعيان ، ح ١ ص ١٤٩ ، والطباخ : أعلام النبلاء ج ١

أسرف الشاعر في حبه فبلغ به درجة العبادة ، ورضي بفضاله بعد
هداه ، وأبى أن يكتمه لأنه يرى في الحب سناً .

لا وحبك لا عبدك سرّاً ليل صدغيك صير الليل ظهراً
وضح الأمر واستوى الناس فيه وافتضحنا ، فالحمد لله شكراً
أيها الصاحيان من كأس عيين غازلني حتى تطفحت سكران
اعذرا إن أردتما أو فلوما في بديع ، حسبي عذاره عذرا
واطلبها للجحود غيري فإني لست ممن يحب في الحب سراً
أنا ممن أجل خدته دنت للناس ، وفي حاله عبدت الشعري
فضلاي بعد الهدى في هواه هو عندي خير وأعظم أجراً (١)

يتخلّى الشاعر في هذه القصيدة عن قسط آخر من صناعته ، ويقترب
قليلاً من جمال الطبع ، فنحس بانفعالات شعوره ، وتوقد عواطفه لأنها
تتجلى هنا على حقيقتها دون عبث أو تمويه ، إذ كلما تعقدت الصنعة ،
احتجب عنا الشاعر خلف ستار ضيق من العبث اللفظي . ويتخلّى الشاعر
أيضاً عن قسط آخر من تصنعه ، ويستسيغ في غزله الأبحر المجزوءة إذ هي
أقرب إلى النفس ، وأبعد عن التكلف ، وأخف على اللسان ، كما في القصيدة
التالية التي أعجب بها العماد الكاتب وذكر أنها أطيّب نظم مسموع
في عصرنا :

يا بابي من وصل	ومل ممّا مطلا
زار وقد خاط الدجى	على حلاه حلالا
فكدت إجلالا له	أدمي يديه قبلا
فقلت : مولاي إلا	غير اليدين ؟ قال : لا
ودار ماء الحسن فو	ق وجنتيه خجلا
حتى إذا سرى سرى	وحين أحيا قتلا
يا حبذا الفزا	ل لو شفاني غزلا
فدنت من أبيته مذ	له وعليّه وجلا

بدر" إذا البدر سرى	فيه المحاق كمْلا
شمس إذا التمس خبت	تحت الكسوف اشتعلا
إذا تَلَطَّفْتُ قسا	وإن سالتُ بخيلا
ليت اعتدال قدّه	عطفه فعديلا
بل ليت صحن خدّه	من ذلك الخال خلا
فهو الذي قلب قل	بي في قوايب البلا
يا سائلي عن الهوى	وطعمه سئل من سلا
أسكرني الحب فما	أدري : أمر أم حلا ؟ (١)

لاحظنا في القصيدتين السابقتين أن الشاعر تغنى فيهما بالخال عرضاً ، وأكثر أشعاره الفزلية فيه ، وقد ردد هذا المعنى كثيراً في شعره (٢) واتخذ موضوعاً خاصاً يدور حوله ، وقد أسرف كل الإسراف في وصفه واختراع معانيه ، حتى يمكننا اعتباره صفة مميزة له في غزله ، لا يقدر أحد من الشعراء على مجاراته فيها .

كنا رأيناه قد اتخذ من الشعري معبودة له ، لأن لها من الخال بعض صفاته التي استمدها من لفظها لا معناها، جرياً على مذهبه الفني في التصنع البديعي ، وكنا رأيناه أيضاً يود لو خلا منه صحن خده ، إذ إنه حطم قلبه ، وقلبه في قوايب البلى والبلاء .

ولا بد لنا من أن نعرض لهذا المعنى الذي اختص به الشاعر ، فرسم للخيالان صوراً دقيقة جداً ، اقتطفنا بعضها من مقطعاته الفزلية المختارة ، ففي إحداها يقول : إن خال المحبوب جذوة متقدة من نار فؤاده :

أنكرت مقلته سفك دمي وعلا وجنته فاعترفت
لا تخالوا خاله في خدّه نقطة من صبغ جفن نطفت (٢)
تلك من نار فؤادي جذوة فيه ساخت وانطفت ثم نطفت (٣)

(١) العباد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٨١ - ٨٢ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٠ .

(٣) نطف : قطر قليلاً قليلاً

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٠ .

ويتصور الحسنُ نقاشاً ينقش بأنامله الدقيقة شامته على وجنة حبيبه ،
فيشمت بها حساده :

نقشَ الحسن على وَجَّتِهِ شامةً ، اشمّت حسّادي بها
كانَ قد أعوزها بستائه ثمّ لما أشرقت فيه انتهى (١)

ويخشى الشاعر أن يظن الخال نقط مسك ذاب من طرته ، ويؤكد أنه
حبة قلبه المسلوقة قد استوت على وجنته :

اتخّالَ الخالَ يعلو خدّه نقطَ مسكٍ ذاب من طرّته
ذاك قلبي سلبت حبيته واستوت خلاً على وجنته (٢)

ويخاطب محبوبه ، ويصور له حاله بعد أن سلبت حبة قلبه ، فزاد
سقاماً ونحولاً ، وكسبت وجنته لنحوراً وجمالاً :

سلبت حبة قلبي وصفتها لك خلاً
فقد كستني نحولاً كما كستك جمالاً (٣)

ويصور الشاعر أيضاً وجنته ، وقد نقشت بنقطة خاله ونبات عارضه ،
فبدت كأنها القرآن الكريم ، يقرأ به الناظر من مشق أقلام الملاحه أحرافاً :
يبدو فتقرأ في صحيفة خدّ من مشق (٤) أقلام الملاحه أحرافاً
ذو وجنة نقشت بنقطة خاله ونبات عارضه فخيّلت مصحفاً (٥)

لم يقف اهتمام الشاعر على وصف الخيلان، وإنما تجاوزها إلى الأصداغ
فتحدث عن عقاربها :

صدغه كرمه خمرٍ قسّمت بين خديه إلى نكهته
نثرت جفنيه منها نشوة توقظ العاذل من سكرته (٦)

(١) الممد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٨١

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٨٣ .

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٨٣ .

(٤) مشق في الكتابة : مد خروفتها وأسرع فيها .

(٥) الممد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٨٦

(٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٣

وتوقدت في الروض من وجناته نار الحياء يشبهها ماء الصبا
خطت سواقفه عليها رقية لتأثعين صلفه وتعتربا (١)

والطريف أن يخاف العقرب من تلطي الوجنتين ، فيتنقلص مؤثرا
السلامة :

تنقلص العقرب من صلفه عن خدته خوت تلطيه (٢)

انتهى مما تقدم لتؤكد أن الشاعر كان ذاتياً ومبتكراً في بعض المعاني
التي دارت حول الخيلان والوجنات والأصداغ .

ثورة وهجاء

كان شعره ثورة على مجتمعه وأصدقائه ، فهو ، كما رأينا ، شيعي
المذهب وكان مغالياً في علويته ومتطرفاً في رافضيته ، وقد لقي الإعراض ،
وتحمل الاضطهاد وحاول أن يتخلى ظاهرياً عن مذهبه ليصبح حموياً أموياً ،
لكن ذلك لم يفده ، فتابع ثورته على الناس وسلط عليهم سيف لسانه ،
فأخافهم ، واحفظ أكابرهم عليه ، وهم الملوك بقطع لسانه مرة وصلبه مرة
أخرى ، فخافه الشعراء المعاصرون ، ووقع القيسراني في معارضته ومباراته ،
لكنه لم يقو على الوقوف أمامه ، ولم ينته الخلاف بينهما إلا بموتهما معاً في
عام واحد . سماهما معاصروهما بجرير العصر وفرزده ، وقد أوجدا
معركة أدبية كبرى ، انتشرت أخبارها في شتى أنحاء العالم الإسلامي ، كما
ذكر ذلك العماد الكاتب ، وصرح بأنه كان ، وهو بالعراق ، يسمع أخبارهما ،
حتى أخبر بفروب النجمين وأقول الفرقدين (٣) .

أما شأنه مع الناس فقد علمته التجارب أن الهجاء سلاح ماض يشهره
في وجه خصومه ليدفع عن نفسه شرّتهم ، ويخيف غيرهم من الناس الذين
يقصدهم فيصلونه رهبة لا رغبة .

أما أسلوبه في هجائه فيظهر لنا بعض خصائصه من خلال هجوه بخيلاً
ويكتفي بالتحدث عن زغيف الذرة الذي يصنعه :

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٤

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٨٨ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٧٩ .

رَغِيفُهُ مِنْ ذَرَّةٍ يَصْنَعُهُ أَوْ أَصْفَرُهُ
 مَبْنِيًّا مَلْفُفًا مَبْنِيًّا مَبْنِيًّا
 لو جِازَ في عَيْنِ الْبَدِي يَأْكُلُهُ لِمَا دَرَى
 أَوْ يُلْعَقُ الصَّائِمُ الْآ فَمَا مِثْلُهُ مَا أَقْطَرَا
 كَيْتُمَا خَبَازَةٌ بِهِ تَجْدِي الْبُشْرَا
 نِهَاتٍ ، قَبْلَ : أَعْرَضَا تَجِدُهُ أَمْ جَوْهَرَا ؟ (١)

صورة رائعة لوصف رجل بخيل لو قارناها بصور معروفة لشعراء سابقين كالحطيئة وغيره لرأيناها قد فاقتها دقة وعمقا ، على الرغم من إقتصارها على وصف رغيف يأكله ، حجمه أصغر من ذرة ، وأبلس على الشاعر ، فلا يلري أهو عرض أم جوهر ؟ .

(٢)

مذهب الفني

نتهي من دراسة شعره لنقرر ، على ضوء ما مر معنا ، مذهب الفني ، ولعلنا لاحظنا من خلال أسلوبه أنه كان يعنى كل العناية بالتصنع البديعي ، وكان أميناً على مذهب التطبيق والتجنيس .

وغني عن البيان أن الشاعر ثقف أسلوبه ، ومتن تراكيبه ، فبلت جزلة عبث بها الزخارف ، فكثرت حيناً وتضاءلت حيناً آخر ، وهو بين هذين الاتجاهين ، يقترب تارة من الطبع السليم ، وينأى عنه تارة أخرى ، وقد لاحظناه في غزله يتجرد من بعض أساليب التكلف والتصنع .

وصف الشاعر أسلوبه في قصيدته الترية التي بعث بها إلى الشريف الموسوي ، وجاء في ختامها قوله :

وَالِيَكُمَا بَدْوِيَّةٌ رَقَّتْ لِرَقَّتْهَا الْخَضْرُ
 شَامِيَّةٌ لَوْ شَامَهَا قَسُ الْفَصَاحَةِ لَا قَتَحُ
 وَدَرَى وَأَيَقَنَ أَتْنِي بَحْرٌ وَالْفَاطِي دُرٌّ
 وَبَدِيعَتِي كَبْدِيعَةٍ عَذْرَاءٌ تَرْفُلُ بِالْحَبْرِ

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٩٠ .

حَبْرَتُهَا فَفَلَتَتْ كَرَاهٍ
وَالِىَ الشَّرِيفِ بِفَتْحِهَا
سِرِّ الرُّوضِ بِأَكْرَهٍ الْمَطَرِ
لَمَّا قَرَاهَا فَانْبَهَرَ (١)

يضاف إلى ذلك أنه كان يكثر من الزخارف البديعة ، ويعبث بأسماء
الأعلام الأعجمية التي كان يوردها في وصف الأحداث الكبرى ، ويشققها ،
ويشتق منها أفعالا سعيًا وراء المجاننية ، ويستخدمها في إيراد المعاني التي
يصور فيها هزيمة الصليبيين ، وقد وفق في بعضها ، لكنها بدت غريبة بعض
الغريبة ، وغرض الشاعر من ذلك التجديد عن هذا السبيل ، فبذل جهده ،
واستطاع أن يضيف للمذهب التصنع صورة جديدة من صورته .

مهما يكن من أمر فمما لا شك فيه أن الشاعر كان علماً كبيراً من أعلام
شعراء العصر ، سجل أحداثه الكبرى ، ومدح ملوكه وأمرأه ، وصور في
شعره أحواله ، ووصف حياته حلوها ومرها ، وكان أميناً على مذهب العصر
في التطبيق والتجنيس ، فأسهم بشكل فعال مع ابن القيسراني في قيادة
مذهب التصنيع البدعي ، ولكل زمن بديع كما يقول ابن حجة (٢) .

(٢) ابن حجة : الخزائن ، ص ١٤٨ .

(١) ابن حجة : الخزائن ، ص ٦ .

ابن قسيم الحموي

(٥٠٠ - ٥٤٢ هـ = ١١٠٥ - ١١٤٦ م)

القسم الأول

حياته وأثره

(١)

مراحل حياته

ولد شرف الدين ، أبو المجد (١) ، مسلم بن الخضر بن مسيلم بن قسيم التنوخي الحموي ، أوائل القرن السادس الهجري بحماة . وهو أحد شعراء العصر الثلاثة المشهورين بعد ابن القيسراني وابن منير المار ذكرهما « نبع في عصر شيخوختهما ، وبلغ إلى درجتها » (٢) .

لا نعرف كثيراً عن نشأته ، وكل ما يمكن ذكره أنه قضى طفولته الأولى في مسقط رأسه ، فحفظ القرآن الكريم ، وفقه علوم الدين ، فكان أحد فقهاء البارزين . ونال كذلك نصيباً وافياً من دراسة الأدب ، فعكف على نظم الشعر ، واشتهر أمره ، ونبه ذكره ، واتصل بأعلام الشعراء ، وطارحهم رسائله الشعرية ، وبخاصة منهم الشاعر المشهور ابن منير السابق ذكره ، وكانت تربطه به صداقة متينة ، كما يظهر في تلك المطارحات الشعرية الإخوانية . ولا نستغرب إن رأيتاه يشيد بحب آل البيت ويدافع عن الشيعة العلوية :

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٤٣٣ ، وابن واصل ، مفرج الكرب ، ج ١ ص ٨٢ ، وأبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٤ ، ٣٢ ، وابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٢٤ ، وسبط ابن الجوزي : مرآة الزمان (مخطوط) ج ١٠ و ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، وابن عساكر : تاريخ دمشق (مخطوط) مجلد ٩ ج ١٧ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٤٣٣ .

ويد بال محمد عليقت ميني فلست بغيرهم أرضى
 جعل الإله عليّ حبهم وعلى جميع عباده فرضاً
 فأثار ذلك من زنادقة حسداً ، فسموا حبهم رفضاً
 وعجبت هل يرجو الشفاعة من ينوي لآل محمد بفضا!؟^(١)
 حقاً إنه موقف إنساني نبيل يقفه هذا الشاعر الشاب ، فيدافع عن
 الروافض في عصر استند فيه التعصب ، ويعلن أن كل من يعاديهم ، يأخذ
 عليهم حبه للرسول صلى الله عليه وسلم وآله ، زبديق حسود .
 يظهر أنه كان حسن الحال ، وكان قانعاً بعمله في أحد مساجد حماة ،
 فلم يعرف عنه أنه ارتحل أو أكثر من الارتحال ، إذ لم يكن من المدح
 كمعاصريه ، وإنما أكثر من شعره الوجداني ، فتفزل كثيراً ، ويكفي ما اختاره
 العماد الكاتب من أغزاله ليعطينا الدليل على أن هذا الفرض استنفذ معظم
 ديوانه . ولا يعني قولي هذا أن الشاعر لم يتصل بملوك عصره وأمرائه ،
 فذلك أمر لا بد منه لكل شاعر شاء أم أبى ، وهكذا مدح الزنكيين ، وبعض
 وزراء آل طفتكين .

أحرز ابن قسيم أول نصر أدبي له عام ٥٣١ هـ ، وكان إذ ذاك في الثلاثين
 من عمره ، وذلك عندما حاصر إمبراطور الروم يوحنا الثاني^(٢) حصن شيزر
 قرابة أحد وعشرين يوماً « وكان المسلمون بالشام قد أشد خوفهم ، وعلّموا
 أن الروم إن ملكوا حصن شيزر ، لا يبقى لمسلم معهم مقام ، ولا سيما مدينة
 حماة لقربها » .

هرع عماد الدين للقائه ، فحال العاصي بينهما ، فأثر ملك الروم السلامة ،
 وارتحل في درب أفامية . عاد عماد الدين منصوراً بعد أن حصل على غنائم
 كثيرة ، وخلد الشعراء هذا الحدث الهام ، وكانت قصيدة ابن قسيم الوحيدة
 التي اقتبسها المؤرخون في كتبهم دون سائر القصائد الأخرى ، وهي لإعلام
 شعراء العصر ، ومطلعها قوله :

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥٣ ، ٤٥٤

(٢) يوحنا الثاني : اسمه الأصلي كاليو جوهانيز Calo johannes (١١١٨ -

١١٤٣ م) وهو من أسرة الكيسيوس كومينيوس Alexius comminus (نورمان بينز :

الامبراطورية البيزنطية ، ص ٦٨ ، وثبت أسماء الإباطرة الرومان الشرقيين لستيفن روتسمان

بعزمك أيها الملك العظيم تذل لك الصعاب وتستقيم (١)

التقى الشاعر بابنه نور الدين ، ومدحه بعد قضائه على عصيان الرها ،
واننى عليه معجباً ببطولته وتنبأ بفتح أنطاكية على يديه ، وكأنما كان يحثه
على تحقيق ذلك ، وتلك ظاهرة هامة نراها لدى شعراء العصر الذين وصفوا
الأحداث الكبرى ، بيد أن أجله لم يمهله ليرى نبوءته تتحقق على يد ممدوحه
بعد عامين اثنين من وفاته ، ومما قاله :

دلف الأمير لها فهباً لنصره منها مبارك طائر ميمونه
وغداً يكون له بأنطاكية مشهور فتح في الزمان مبيته (٢)
كان الشاعر يتردد إلى دمشق ، وقد قدم إليها في عهد ملكها مجير
الدين آبق ، ومدح مقدم جيشها معين الدين أنر بقصيدة مطلعها :
وكم ليلة عاطاني الراح بدرها ونادمني فيها الفزال المشنف (٣)

وذكر ابن عساكر أيضاً أنه « شاعر شاب قدم دمشق ، ومدح أتابك
زنكي (٤) » .

ومدح أيضاً بعض الأمراء الذين عرفهم نخس منهم الأمير بدر الدولة (٥)
وضاخب حماة صلاح الدين محمد بن أيوب التوتان (٦) ، وهو في مدحته
يتحدث عن يوحنا الثاني مرة ثانية ، ويشير إلى غايته من حصار شيزر
« ليحتوي حماة » و « يملك الشام عنوة » بعد ذلك .

ذكر العماد الكاتب أن ابن قسيم سبق فرزدق العصر ابن منير ، وجريده
ابن القيسراني ، إذ نبغ في عصر شيخوختهما ، غير أنه لم يعمر طويلاً ،
فاختصر فجأة ، وهو في أوائل العقد الخامس . وكأنما شعر بدنو منيته
عندما أبصر في عارضيه شعرات من قناع الشيب ، فأشدد :

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٤٧١ ، ٤٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

(٤) ابن مسافر : تاريخ دمشق (مخطوط) مجلد ٩ ج ١٧ ، ينظر في حرف الميم .

(٥) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٦٢ ، ٤٦٥ .

(٦) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٣٣ .

ومرتدٍ بقناع الشَّيبِ جاذبه من أطيئه عِنانَ اللذةِ القِدَمِ
قضى ولم يقضِ مِن عصر الصِّبا أرباً كأنما هو في أجفانه حُلْمٌ
لو كنت أعلم أن الدهرَ يعقبني بؤسى لما اخترت أن تهدي لي التَّعَمُّ (١)

لا نعرف البؤسى التي عاناها الشاعر في قوله ، ولعله أصيب بمرض عضال كان سبب موته ، ولما يقض من عصر الصبا أرباً .

لم يحدد العماد وفاته على الضبط ، وإنما ذكر أنها كانت سنة نيف وأربعين وخمسمائة (٢) ، وذكر غيره أنها كانت سنة إحدى وأربعين وخمسمائة (٣) . بيد أن العماد هدانا إلى عام وفاته ، وذلك في المختارات الشعرية الكثيرة التي اقتطفها لنا من ديوانه ، فقد أورد في مطلع إحدى قصائده أنه أنشدها سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة (٤) ، وهي الأغلب سنة وفاته ، وقد مدح بها معين الدين أنر بدمشق .

(٢)

آثاره الأدبية

اغلب الظن أن ديوان الشاعر مفقود ، أشار إليه من القدماء العماد الكاتب في الخريدة (٥) فذكر في ختام ترجمته قوله : « ونظرت في دبوان شعره ، فالتقطت فرائد دره ، وقلائد سحره ، وشجذت من غراره ما قبل الشجذ ، وأخذت من خلاصته ما استوجب الأخذ ، وأوردت لمحا من ملحه ، ونبدأ من منتقاة ومنتقحه » (٦) .

ويظهر أن الشاعر لم ينقح ديوانه بعد جمعه ، فظهر فيه بعض اللحن كما ذكر العماد ، ولعل مونه في عنقوان العمر حال دون تنقيحه .

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٣٣ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٣٤ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٣٣ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥٧ .

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٤٩ .

(٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٤٣ .

القسم الثاني

شعره ومذهب الفتي

(١)

أغراض شعره

صور ابن قسيم في شعره الأحداث الكبرى التي طبعت هذا العصر بطابعها الخاص ، وقد أسهم بدوره في مدح أبطالها وتاريخ حوادثها ، بالإضافة إلى مدحه التقليدية الخاصة ، كما كان لغزله وخمرياته وأوصافه نصيب كبير في شعره .

أحداث كبرى

تحدثنا عن هزيمة إمبراطور الروم يوحنا الثاني أمام عماد الدين ، وأشرنا أيضاً إلى عصيان الرها ، وتحدثنا من خلال ذلك عن تحريضه على فتح انطاكية . ولا نعدو جادة الحق إن قلنا إن الشاعر كان من أوائل الشعراء الذين سنوا هذه السنة في هذا العصر ، فكان يحرص على تذكير القادة بعد كل نصر بالمعركة المقبلة ، تمهيداً لاسترجاع بيت المقدس في وقت قريب .

جنبحت قصائد الأحداث الكبرى عن طابعها الشعري إلى عرض تاريخي مفصل ، واقتصرت على وصف ما يراه الشاعر أو يسمعه ، فأهمل في الغالب الاستهلال بالنسيب وذكر الأطلال ، وإنما كان يدخل الحرب من أوسع أبوابها لينقلها إلينا نقلاً أميناً كما يفعل المؤرخ تماماً لا يتميز عنه إلا بفضيلة الوزن . نتجاوز مدح الأحداث الكبرى لنقف عند المدح الخاصة ، وقد لاحظنا أنه كان يستهل بعضها بالنسيب ، وبعضها الآخر — كما في مدح الأمير بدر الدولة — غير مستهل به :

بكت الخطوب وتفرمجلك ضاحك' ونبا الحسام وسيف عزمك باتك'
يا بن الألى اغتصبوا الممالك بالقنا وإلى العلاء لهم الطريق السالك'
ولقد عجزت عن الهناء بدولة نحن العبيد لها ، وأنت المالك'
عريضة الأوصاف ذات مكارم جهر الكسير بها وعاش الهالك'
عجيمة قرنت بخير متوَّج زُفت إليه مدائح وممالك'
ملك إذا برقت أسرة وجهه ضحك المقطَّب واستنار الحالك'
فيفار منه البدر وهو سميته ويخاف فتكته الشجاع الفاتك' (١)

نلاحظ أن الشاعر كان مقلداً في أوصافه ، لم يخرج في معانيه عما ألفناه من قبل من نعت الممدوح بالجود أو البأس أو الحلم .

لا نخلو مدحه الخاصة المنسار إليها من استهلال بعضها بالنسيب التقليدي ، فنراه ينحو فيها منحى عذرياً تارة ، ومادياً تارة أخرى ، وتختلط مع هذين المنحيين اتجاهات أخرى تقليدية من وصف دار بكازمة (٢) ، وحي على الماء النمر ، ويذكر الخيام والظباء والأسد (٣) . كما نلاحظ ، بالإضافة إلى كل ذلك ، اتجاهات بحترية في وصف الطيف ، وفي عقارب الأصداغ ، وفي تشبيهه الحبيب بالشمس والقمر . يرقب الشاعر الطيف في ليله ، ويسأله عن محبوبة الهاجر :

ولقد رقيت الطيف أسأله عنكم ، فما صدقت مواعده'
والمستمر على قطيعته في الحب فاسدة عقائده'
ومن العجائب أن يزيد به داء السقام وأنت عائده' (٤)

ويهزأ ممن يثني يده على كبد حري أو حشى خفاق ، ويعجب من زعمهم أن مهجة الصب تجري في إثر دمع مراق ، ويرى من خلال شعوره أن الوجد الحقيقي هو تردد نفس المرء بين تراقيه . ويشتبه من كل ذلك

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٦٢ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٤٥ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٤٠ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٤١ .

ليعلل مبيته ، وهو يرتقب ، طيف الحبيب ، ويشيم برق اهل براق حلب
الشهباء :

لست ممّن يثني على كبدٍ حـدّ مـيّ يداً منه أو حشـيّ خفـاقٍ
كذبوا ، هل رأيتَ مهجة صبّ قَطُّ تجري في إثرٍ دمعٍ مـراقٍ
إنما الوجدُ أن تردّدَ نفسُ الـ مرءٍ شوقاً بين الحشـيّ والتراقي
ولهذا أبيتُ ارتقبُ الطيفَ وأشتاقُ برقَ أهلِ البراقِ (٢٤١)

ويعز عليه أن يؤرقه حبيبته ، فيجفو الوسن طرقة ويطلب إليه أن
يعاقبه بسوى الرقاد فلعل طيفاً منه يطرقة تحت الظلام :

يا مَنْ جفا طرفي فأرقه وخلا بقلبٍ حشوهُ جمرُ
عاقبٍ بسلبِ سوى الرقادِ فلي إلا على فقيد الكرى ، صبرُ
فلعل طيفاً منك يطرقتني تحت الظلام فيحنمُ الهجرُ (٢٤٢)

وتقع المعجزة فتتحقق أمنية الشاعر ، ويطل الحبيب بطيف خياله في
ليل شابت ذوائبه ، ولكن وشاة الصبح شرمت تزعجه بالبين :

أهلاً بطيفِ خيالٍ زارني سحراً فقمْتُ ، والليل قد شابت ذوائبه
أقبل الأرض إجلالاً لزوجته كأنما صدقت عندي كواذبه
وكبدتُ ، لولا وشاة الصبح تزعجه بالبين أصفى لما قالت خوالبه (٢٤٣)

وتشفله الأيام ، ولا يتلقى زائراً من خياله ، فينادي :
يا مريض الجفون إن سقام الـ أعين الثجلِ صحّة العشق
شفلتني الأيام أن اتلقى زائراً من خيالك الطراق (٢٤٤)

(١) براق : من قرى حلب تهد عنها نحو خمس فراسخ ذكر ياقوت أن أكثر من واحد مسير

أهل حلب حده أن بها معبدا يفصده المرضى والزمنى (معجم البلدان ج ١ ص ٢٦٦)

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٦١

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥١

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤٤

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤١

تلك هي قصة الخيال الطائف في شعره ، ويظهر أنه تأثر بالبحري ، واستمد منه بعض معانيه ، ولا بدع في ذلك وهو القائل :

كأنسي البحري أنشدته وهو ، على عظم شأنه ، الفتح (١)

ويحاكي معاصريه ، فيتحدث مثلهم عن عقارب الأصداغ ، وما كنا لنورد وصفه لها ، لو أنه جاء بها على الصورة نفسها التي عرفناها عند ابن منير الطرابلسي السابق ذكره ، ولكنه أغرب في وصفها ، وطبعها بطابع محلي محض ، هو مظهر من مظاهر النزاع التقليدي بين كل مدينتين متجاورتين فهو حموي ، ويزعم أن ليس في حمص عقرب :

وقد كان مفتوناً بمرسل ضلغته على وجنة كالبدر ليلة سعدته
فلما رأت أن ليس في حمص عقرب موأشطه ، أخفين عقرب خده (٢)

تلك هي مؤامرة المواشط على إخفاء عقرب الخد ، ويظهر أنهم أخفينها ليقتلن جيرانهم الحمويين بعقارب الأصداغ :

ولقد سنحن لنا بحمص جاذر عقلت ذوائبهن بالارساع
ما بالهم حجت عقارب أرضهم وقتلنا بعقارب الأصداغ (٣)

والظاهرة الهامة التي تسترعي انتباهنا في هذا العصر أن الشعراء أعرضوا عن التشبيب بالعنصر العربي ، وأكثروا من التشبيب بالعناصر الأعجمية ، ولا سيما العنصر التركي والرومي والفرنجي .

سلك الشاعر هذا السبيل ، فشبيب بمدلل نصراني ، وقد طبع نسيبه بطابع ديني ، لأنه أكثر فيه من ذكر الصفات الدينية ، ومما قاله :

يا من يعيب عليّ حب مدلل ترف بأردية الجمال نفيس
لا درّ درك ، هل أصابك عارض حتى رجعت بصورة المنكوس
قمر عصيت الله من كلفني به وتبعت طاعة شيخنا إبليس
ونقضت توبتي التي أبرمتها نقضاً أباح محرّمات كنوسي
يسطو وتفرسه المدامة بفتة ففديته من فارس مفروس

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٣٩

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٤١

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٥٦ .

قد كان يعتقد المسيح ويرتضي عند الصّباح بضجّة الناقوس
ولطالما حمل الصليب وعظّم الـ لاهوت بالتسبيح والتقدّيس
وأنى على مهل يقصّ طرائق الـ إنجيل بين شمامس وقسوس
وإذا رمى بالحظّ قال قتيله والدمع في الوجنات غير حبيس:
لولاك يا سقّم النواظر لم يكن ظبي الكيناس يصيد ليث الخيس (١)

صورة جديدة في الفزل العربي تؤكد ما قلناه من قبل في ثغريات ابن
القيسراني خلال وصفه الروميات والفرنجيات ، وقد رسمها الشاعر لحبيب
مدلل يعشقه ، وكان يعتقد المسيح ، ويرتضي ضجة الناقوس عند الصّباح ،
ويحمل الصليب ، ويعظّم اللاهوت تقدّيساً وتسبيحاً ، ويقصّ طرائق
الله من أجله ، فنقض توبته ، وتبع طاعة شيخه إبليس ، وأباح
الإنجيل بين الشمامس والقسوس . هذا هو الحبيب الذي عشقه وعصى
محرمات كثوسه .

يظهر أن الشاعر أباح حقاً هذه المحرمات ، فسلك سبيل الشعراء
الخمريين في هذا العصر ، وهم الذين اتخذوا من المذهب الخيامي أسلوباً لهم
في حياتهم الإباحية ، فعصوا الزمان ، وكل وكدهم لذة العيش ونسيان
الهموم في اكواب الخمر :

تدركا كلّ الأمانى	باكرا شمس القناني
شر على رغم الزمان	وخذا في لذة العيب
لذة في قلب الجبان	من عقارب تبعث النج
ج قميصاً من جمان	قهوة البسها المز
لاح في أحمر قنان	فهى من أبيض صاف
ت ثغور الأقحوان	كخدود الورد من تح
ق عن الغي نهاني	عاصيا الخلق إذا الخل
د دعاني فلعاني	وإذا الله إلى الرشد
بح مخلوع العنان	إنما البغية أن أص
س لتسبيح المثاني	ساجداً في قبلة الكا

حيث لا يعلم دهوري أبدا أين مكاني
وتكاد الكأس أن تخد ضب أطراف البنان
يا غزالاً شرب الرأ ح ثلاثاً وسقاني
آه للتريق الرحيق ب على الثغر الجماني
جل من أهبط ذا الحو ري من دار الجنان
فتعالى الله ما أح سن هذا التركماني (١)

ترك الشاعر وقاره ، وانغمس في إباحيته ، وأصبح مخلوع العنان ،
يسجد في قبلة الكأس لتسبيح المثالي والمثالث ، وانخرط في زمرة
الخلعاء من الشعراء الذين اتخذوا لهم في حياتهم فلسفة خاصة تمت ، بصلة
قوية للفلسفة الخيامية ، وهي أن العمر مستعار ، ومده قصير ، وعلى المرء
أن ينتهب اللذات ، ويسعد كاسات العقار والرضاب ، ويترك البكاء على
الماضي ويعرض عن ذكر الدمن وإطلال الدبار ، فتلك هي في نظرهم الحياة
الحقيقية ، يروح فيها طرباً يتعثر من سكره بفضل إزاره ، ويلقى ربه يوم
الدين ، ويكسب شفاعته ، وينال منه رحمة تسكنه دار القرار :

خير ما أصبحت مخلوع العذار فانف عنك الهم بالكأس المدار
قم بنا ننتهب اللذة في ظل أيام الشباب المستعار
إنما العار الذي تحذره أن تراني ، من لباس العار ، عاري
لا ، ومن داويت قلبي باسمه لا تدريعت بأثواب الوقار
والخير منه أن أشربتها في سنا الصبح على صوت القماري
وسعيد من تقضى عمره بين كاسات رضاب وعقار
في اصطباح واغتباق واقترا ب واغتراب وانتهاك واستتار
شفلته الراح أن تبصره واقفاً يندب أطلال الديار
نعم دنياه التي راح بها طرباً يعثر في فضل الإزار
فإذا مات التقى من ربه رحمة تسكنه دار القرار (٢)

تلك هي صورة بيئة رسمها الشاعر لجماعته من الخلاء الإباحيين الذين

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٤٩ - ٤٥٠ .

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٧٦ - ٤٧٨ .

كانوا يمثلون المذهب الخيامي في بلاد الشام ، وسنوضح ذلك بالتفصيل في حديثنا المقبل عن خمريات عرقله الكلبى .

مطارحات اخوانية

كان ابن قسيم وفيأ لإخوانه الذين محضهم خالص وده ، فعبر عن شعوره نحوهم بتلك القصائد الوجدانية والمطارحات الإخوانية .

قليل من الشعراء من نحا هذا المنحى الإنساني ، نذكر منهم أسامة ابن منقذ وسنعرض لهذا الأمر في موطنه من هذا البحث .

وجدير بالذكر أن الشاعر كان في مقطعاته الوجدانية يصف بعض الكتب التي كانت تردده من أخوانه ، فيبشهم بعض شئونه وشجونه ليخفف آلام فؤاده الموقح بالبين :

حيّ أنبأ فضضنت خاتمه عن مثل وشي الرياض أو أملح
يا كرم الله وجهه كاتبه عرض لي بالجفاء أو صرح
شج بالفاظه ، وخاطره بالدر من كل خاطر أسمع
حتى أتاني كتابه فشفى كل فؤاد بينه مقرح (١)

ونذكر من ذلك أيضاً قوله . وقد وصله بالكتاب ، فأزار منه طرفه ومسمعه :

وصل الكتاب فما فضضنت خاتمه حتى تأرجح طيبه وتضوعا
كالنوض إلا أن وشي سطورره أسنى ندى عندي وأحسن موقعا
فأزرت مني الطرف أحسن ما أرى منشوره والسمع أطيب ماوعى (٢)

لكن الذي يسترعي انتباهنا حقاً الصداقة الوثيقة التي تربط بين الشاعر وابن منير ، وكنا أوردنا قصيدته التي بعث بها إلى الشيخ تقي الدين سلامة بن يحيى يحدثه فيها عن إعراض الناس عنه بسبب علويته ، ويشهده على نفسه أنه قرر أن يكون حموياً أموياً . ويختار ابن قسيم لإيجابه

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥٥ .

على الروي والوزن كليهما ، فكان لنا من القصيدتين المتبادلتين كسب أدبي كبير ، يمثل لنا مظهرا فكريا ، وصراعا مذهبيا بين السنة والشيعة . كانت هذه الحادثة بدء صداقة بين الشاعرين ، ولا سيما أنها كانت إبان شهرته الأدبية ، وتستمر زمنا طويلا ، ويتبادلان مطارحات شعرية ، فيبعث ابن منير كتابا إليه يحدثه فيه عن سوء أحواله ، ويرد عليه ابن قسيم :

بعثت الكتاب فأهلا به يسر النواظر تنميقة
لئن أخجل الروض موشيه لقد فصيح الدر منسوقه
غريب الصناعة بجنيسه نفيس البضاعة تطبيقه
وواصلني بعد طول الجفا كما وصل الصب معشوقه
فزابل جفنى تأريقه وعباود غصني توريقه
وبت أراقب مسطوره كما راقب النجم عيوقه (١)
فلمّا بدت لي الفاظه تستر فكري وتلفيقه
وكاسد نقصي أخشى يرا م في فضلك نفيقه
أما خاف يهلك مستوره أما خاف يظهر مسروقه (٢)

توضح هذه القصيدة الجوابية مذهبين رئيسيين في أدب هذا العصر، مذهب ابن منير وجماعته ، ويجنح نحو التطبيق والتجنيص والإغراب في الصناعة ، ومذهب ابن قسيم وجماعته ، وهو يجنح نحو الانسجام والسهولة. وصف ابن قسيم المذهب الأول ، فذكر أن في كتاب صديقه التثنيق والتنسيق والحوشي والفريب ، والجناس والتطبيق . ويظهر الشاعر خلال ذلك تواضعه ، وتلك سنة معروفة عند الشعراء في آداب المخاطبة ، ويبين قصوره لأنه لم يشأ أن يتبع خطته في قصيدته الجوابية ، وإنما حافظ على مذهبه الأدبي الذي سنوضحه في ختام هذا البحث . ولم يستهل كذلك إخوانيته بنسب ، بيد أننا لاحظنا أنه استهل به غيرها ، فتحدث عن العقائل من عقيل ، ونحا في أسلوبه بعض منحى صديقه، وخلص من هذا النسب ليقول لنا بأسلوب عربي صميم ، ندعوه بأسلوب

(١) العيوق : نجم يتلو الثريا ولا يتقدمها .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٥٩ - ٦٠ .

الميم والباء : ميم (ما) الثافية العاملة عمل ليس ، والباء الزائدة في خبرها المؤجل بحسب رغبة الشاعر وطول نفسه :

وما وادٍ كأن يد الفواذي كسته قلائد الدرّ النضيد
حللن ، فما حللن به نظاماً وقد غادرته أرج الصعيد
يَضوعُ ترابه مسكاً إذا ما سجن عليه أذيال البرود
فبتن وما حططن به لثاماً يخلن حصاه من درّ العقود
بأحسن من صفاتك في كتاب وأنفس من كلامك في قصيد (١)

صحيح أن هذا الأسلوب قديم في مبناه ، غير أن الشاعر لم يكن مقلداً تماماً في معناه ، وهو بعد يؤكد ما ذكرناه من قبل ، ويوضح لنا أسلوبه السهل .

الوصف

لعل إعجابه بالبحثري حمله على التأثر بأسلوب وصفه ، فهو يستعمل كل مناسبة ليقف من بعض ما يراه موقف المصور الماهر خلال قصائده كوصفه الحرب في معرض مدح الأمير بدر الدولة (٢) . ولم يكتف بالوصف ، وإنما نظم مقطعات أخرى معدودة الأبيات ، كما وصف الباقلاء ، والشقيق ، والرمان ، والمائدة ، والسفرة ، والقطائف ، وقد لاحظنا ذلك أيضاً في وصف الفرس ، ووصف وقوع المطر على الماء وغير ذلك (٣) .

(٢)

مذهبه الفني

يمثل الشاعر في مذهبه الفني اتجاهاً جديداً في هذا العصر ، ضم فئة من الشعراء ، نذكر منهم الشاعر حماد الخراط (٤) وتقوم دعائم هذا المذهب على مجازاة الطبع السليم في النظم ، والابتعاد عن التكلف والتعقيد والتطبيق والتجنيس والحوشي والغريب .
وصف العماد الشاعر المذكور فقال : « ليس بالشام في عصرنا هذا

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٤٣ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٦٤ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤٣ ، ٤٤٨ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ .

(٤) حماد بن منصور البزاعي ، وهو أحد شعراء الخريدة ، توفي سنة ٥٦٥ هـ .

مثله رقة شعر ، وسلاسة نظم ، وسهولة عبارة ولفظ ، ولطافة معنى ، وحلاوة مفزى ، بأسلوب سائب للّب ، خالب للخياب ، وصنعة عارية من التكلف ، نائية من التعسف ، تترنح له أعطاف السامعين ، وتنبع رفته في رباض اللطف الماء المعين (١) .

ووصف العماد أسلوب ابن قسيم من قبل ، والغريب أنه أتى على الأوصاف نفسها ، ولعل في ذلك دلالة واضحة على أن الشاعرين يدينان بمذهب بياني واحد ، وسوف نرى في قوله مصداق ما نذهب إليه ، فقد ذكر أنه « ذو رقة للقلوب مستترقة ، وللعقول مستترقة ، ولطف للّب سائب ، وللخيل خالب ، وللضبر غالب ، ولدر البحر جالب ، ولد الفكر حالب ، وفي عقد السحر بعقوده نافث ، وبنسيم البحر في نسيمه عابث ، نهجه محكم ، ونسجه معلم ، ومذهبه مذهب ، وأسلوبه مهذب ، وحوكه رفيع ، وسبكه بديع (٢) » .

يتضح من كلامه هذا أسلوب الشاعر ومذهبه الفني الذي يعتمد على مجازاة الطبع السليم بخلاف القيسراني وابن منير : رقة ولطف ، وبعد عن الغريب ، بالإضافة إلى البناء السليم والتجسس الموسيقي الذي نشعر به من خلال أغزاله وخمراته ، وبخاصة منها تلك التي اختار لها الأبحر المجزوءة ، كما هو الشأن في القصائد التي عبر بها عن فلسفته الخيامية في الحياة .

هكذا يحتل ابن قسيم مكانته بين الشعراء « كان ثالث القيسراني وابن منير في زمانهما ، وسبقهما في ميلانهما ، نبغ في عصر شيخوختهما ، وبلغ إلى درجتهم وراق سحرهما سحره ، وفاق شعرهما شعره ، لكنه خاله عمره (٣) » ، فمات قبلهما بست سنوات ، وهو في مستهل العقد الخامس ، فان كان سابقاه جرير العصر وفرزدقه ، فهو أخطله الخيامي .

نلاحظ أخيراً أن هذا المذهب الفني الجديد الذي يجاري الطبع السليم كان نتيجة لطفيان مذهب التصنع البديعي المار ذكره ، ولعله وجد مجاله الخصب في مدينة حماة ، مما يؤكد ذلك ظهور الشرف الأنصاري فيما بعد ، واعتناق مذهب جديد ، فكان لنا من ذلك مذهب التورية والانسجام .

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ١٣٠ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٣٣ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٣٣ - ٤٣٤ .

عرفلة الدمشقي

(٤٨٦ - ٥٦٧ هـ = ١٠٨٣ - ١٠٩٧١ م)

القبيلة الأولى

حياته وآثاره

(١)

مراحل حياته

ولد الشاعر الخليل والشيخ النديم ، أبو الندى ، حسان بن نمير ابن عجل (١) ، في دمشق وفي بركة الجلاح ، أحد بطون قبيلة كلب ، سنة ٤٨٢ هـ ، وعرف باسم « عرفلة الدمشقي » و « عرفلة الأعور » و « عرفلة الكلبسي » .

أشار الشاعر إلى قبيلته (كلب) التي نسب إليها وعرف بها فسي إحدى مدائحه بقوله :

مولاي إنَّ « الكلبسيَّ » عرفلةٌ « مثل المعيدي صاحب المثل (١)

لا نعرف كثيراً عن أسرة الشاعر ولا عن طفولته ، وكل ما حفظه الأقدمون صورة بقيت في أذهانهم عنه كما عرفوه في مجونه ، فهو شيخ خليل ربعة ، قصير القامة ، حلو المنامة ، خفيف الظل ، لطيف النادرة .

أما صورة خلقتة فكانت حقاً كما قال « مثل المعيدي صاحب المثل » فسماعك به خير لك من أن تراه فقد كان مصاباً بالعور وقد لقب بعرفلة الأعور لأنه أصيب بالعور في شبابه ، ولا نعرف على الضبط حقيقة الحادثة

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٨٧ ، وسبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ،

ج ٧ ص ١٧ ، والكتبي : فوات الوفيات ج ١ ص ١٤٤ ، وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ،

ج ٦ ص ٦٤ ، والصفدي : الشعور بالمور (مخطوط) و ١٣١ ، والزركلي : الاعلام ،

ج ٢ ص ١٩١ .

(٢) ديوان عرفلة ص ٨٦ .

التي أفقدته إحدى عينيه وكل ما نعرفه أنه سافر إلى حلب (١) ، فاتفق أن ذهب عينه بها ، فقال :

جفائي صديقي حين أصبحت معداً وأخرني ذهري وكنت مقدماً
وسافرت جهلاً فأنعورت وإن أعد إلى سفرة أخرى قدمت على العمى
وكم من طبيب قال: ثبرا: أجبت: كذبت ، ولو كنت المسيح بن مريم (٢)

اتخذ عرقلة من معنى عوره موضوعاً شعرياً طريفاً ، وكأنه كان يريد أن يخفف من وقع هذه المصيبة على نفسه ، ومما قاله :

أقول ، والقلب فيهم وتعذيب : ياكل يوسف إرحم نصف يعقوب (٣)

تلك هي إشارة عابرة إلى عوره ، لكنها غير صريحة ، وإنما المح إليها تلميحاً ، بيد أنه لا يخشى التصريح بها كما في قوله يصف حبيباً له مديد القامة ، وهو قصيرها :

لي حبيب قسده	قد من السمر الرقاق
من رآه ورآني	قال : ذا غير اتفاق
أعور الدجال (٤) يمشي	خلف عوج بن عناق (٥) (١)

ثمة إشارة ثالثة إلى عوره ، أوردها في وصف حبيب له أحول :

(١) الصفدي : الشعور بالمرور (مخطوط) و ١٣٦ ، والديوان ص ٩٣ .

(٢) الصفدي : الشعور بالمرور (مخطوط) و ١٣٦ ، والديوان ص ٩٣ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٨٠ ، والديوان ص ١٣ ، وفيه

« نصف أيوب »

(٤) الدجال : رجل من يهود يكون في آخر الزمان ويدعي الألوهية ، وسمي لأنه بدجل

الحق بالباطل ، ويندعي الربوبية ، ومن صفاته أنه أمور ..

(٥) عوج بن عوق : هو نفسه عوج بن عنق ، وقد جاء في اللسان أنه « كان مع فراعنة

مصر ، ويقال له صاحب الصخرة أراد أن يلحفها على مسكر موسى عليه السلام ، وهو الذي قتله موسى » .

(٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٧ ، والديوان ص ٦٧

يا لائمي (١) هل رأيت أعجب من ذي عور هائم بذى حوّل
أقلّ في عينيه ويكثر في عيني ، بضد القياس والمثل (٢)

نلمح فيما مر معنا أن الشاعر استطاع بروحه المرحّة أن يجعل من هذه
الصفة صورة فكاهية ، تعوضه عما فقدّه ، وتثير في نفسه المعاني المستطرفة
من خلال قصره وعوره .

هذا كلّ ما نعرفه عن شاعر الأيوبيين في هذا العصر ، وهذا شأن كل
شاعر ، فنحن لا نملك في أغلب الأحيان من حياتهم إلا ما تستدعيه صلتهم
بالمملوك والأمراء من ممدوحيهـ المعاصرين .

يمثل الشاعر تلك الطائفة من الشعراء الماجنين ، أصحاب اللهو وأرباب
الطرب وعشاق الخمر ، فكان يحتسيها معهم في حانات الشام وأدياره ،
كدير مران أو في متنزهاته الكثيرة المشهورة ، كالنيرب وجيرون وسطرى
ومقرى وغيرها من الأماكن التي حفلت بالطبيعة الخلابة ، حيث التريض
الفناء ، والجدول المنسابة .

كان لا بد للشاعر بعد أن جفاه صديقه ، وأخره دهره ، وفقد ماله
وبلى بالعور ، من أن يرتحل عن بلاد الشام ، ويطوف في البلاد ، كما توضح
ذلك مدحه الكثيرة التي خص بها ممدوحيه الكثير قبل أن ينصرف إلى
المملوك الأيوبيين وأمرائهم في ختام حياته، فمنهم من وصله ، ومنهم من حرّمه ،
ومنهم من جازاه على شعره بالشعير :

يقولون : ليم أرخصت شعرك في الورى ؟

فقلت لهم : مذ مات أهل المكارم

أجازى على الشعر الشعير وإتته

كثير إذا استخلصته من بهائم (٣)

مدح في بادئ الأمر من عرفهم في دمشق ، وجدير بالذكر أنه كان
صغير السن في عهد ظهير الدين طفتكين التركي ، رأس ملوك دمشق الأتراك ،

(١) في الديوان : « يا عاذلي »

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٨٠ ، والديوان ص ٨٥ .

(٣) الصفي : الشعور بالموور (مخطوط) و ١٣٢ - ١٣٣ والديوان ص ٩٤

وكان إذ ذاك لا يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، وكان نائبه في الحكم الوزير بختيار السلار ، فلما توفي خلفه ابنه عمر .

اتصل عرقله بأسرة السلار ، فمدح من بنيه اسماعيل وظفر بقصيدة نقف عند مطلعها ، لنطلع على حياة الشاعر في هذه المرحلة .

لا تلمنى على الدُموعِ الجوارِي فهي عوني على فراقِ الجِوارِ
كم لثيمٍ يَلدُ بالعِشِ صفواً وكريمٍ يَفُصُّ بالأَكدارِ
لا بفي الوصلِ بالصدودِ خليل بـ كما الخمرُ لا يَفِي بالخمارِ
فاسقنيها لعلها تصرفُ الهـم م على طيبِ تَفْمَةِ الأوتارِ
خَنَدَريسا كاتها في دُجَى اللَّيْلِ لـ بأيدي السَّقَاةِ شمسُ النهارِ
إنما العيشُ في رياضِ دمشق بين أقمارِها وبينَ القمارِ
مثلما قد خلعتُ أثوابَ مدحي باختياري على بني بختيارِ (٢)
وكانَ الإلهُ ، جلُّ ، براهمُ مِن فَخَارِ والنَّاسِ مِن فَخَارِ (٣)

هذه المدحة من أوائل شعره ، خص بها وزراء الأسرة التركية الحاكمة، أما ملوكها فنخص بالذكر منهم جمال الدين محمد بن بوري ، وتلمح من خلال مدحه صورة ثانية لمظهر من مظاهر خلقه وحياته ، فهو يعترف فيها صراحة برقة دينه ، ويذكر إدمانه على شرب الخمر في حانات الشام ، ويشير من ذلك إلى وميض الشيب المبكر الذي وخط عارضيه :

لِمَن حَلَّةٌ ما بينَ بَصْرَى وصَرَخَدِ 'تروحُ بها خيلُ الجَلالِ وتفتدي
ونارُ' ، بلقبي مثلها ، لأهليها تُشَبِّهُ لِصِيفِ مُنْتَهَمٍ وَلْمُنْجِدِ
رعى الله يوماً ظِلَّ في ظِلِّ ابْنَكِ نديمي على زهرِ الرِياضِ ومُنْشَدِي
وكأساً سقانيها كقنديلِ بيعةٍ بها وبه في ظلمةِ اللَّيْلِ نهْدي
معتقةً مِن قَبْلِ شَيْثِ وآدَمِ مُحَلَّلَةً مِن قَبْلِ عِيسَى وأَحْمَدِ
صَفَّتْ كدموعي حينَ صَدَّ مَديرُها ورَقَّتْ كدَيني حينَ أَوْفَى بِمَوْعِدِ

(١) بختيار حصن الدولة السلار ، شحنة دمشق ، ونائب ظهير الدين طفتكن صاحبها

سنة ٤٩٧ هـ .

(٢) السباد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٢٠٧ ، والديوان ص ٤٧ - ٤٨ .

وفي الشيب لي عن الأعج الحب شاغل وقد كنت لولا الشيء طلاع أنجد
رمى شعري بعد السواد بأبيض وحظني من بعد البياض بأسود
فلأوجد إلا ما وجدت من الأسى ولا حمد إلا للأمير محمّد (٢)

كان الشاعر ينادم ملوك آل طفتكين ، ومجير الدين أبى آخر ملوك
هذه الأسرة قبل تملك نور الدين وكان أثيراً لديه ، فمدحه ووصف مجالس
الخمير ، وتحدث من خلال ذلك عن فلسفته في الحياة . روي أنه اقترح عليه
في ساق يهواه ، وهو في مجلس شرايه ، أن ينظم قصيدة يعارض بها
قول القائل :

شربت من دنائهم
من كل دن قدحا
فأنشده قوله :

من لي بساق أغيد	عذاره قد سرحا
كأنه بذر دجى	في كفه تمس ضحا
مازلت من مدامه	مفتيقاً مصطبحا
حتى غدت لأرى الـ	نمدان إلا شبحا
وقد عصيت في الهوى	من لام فيه ولحا
يا قلب كم تذكره	لا بارحتك البرحا
يا صاح يا صاح اسقني	من راحتي القدحا
واغتنم العيش فما	تبقي الليالي فرحا (١)

يتحدث عرقلة من خلال ذلك عن إيمانه بفلسفة الحياة الإباحية كما
يرأها أرباب الخلاعة والمجون ، فينادي بما نادى به معاصره الخيام ، ويطلب
أن نقتنم صفو الليالي لأن الحياة لا تستقر في حال ، ولن تبقى على إنسان
سعادته .

رحلة الشاعر

ترك دمشق وارتحل إلى الموصل وبغداد ، وعاد من تطوافه إلى دمشق
ليرتحل أخيراً إلى القاهرة .

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢٠٧ ، والديوان ص ٢٢ .

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٩٣ ، والديوان ص ١٧ - ١٨ .

نبدأ رحلتنا مع الشاعر إلى جعبر ، ففيها التقى بصاحبها ابن مالك ، ومدحه ، لكنه أخلفه ظنه فهجاه :

لحا الله ملكاً يحتويه ابن مالك وعاجله في ساحة القلعة القلع
فتى لست ترجوه ولست تخافه كدود الخلاء ما فيه ضر ولا نفع (١)
يمم الشاعر بعد ذلك شطره نحو ماردن ، وانتجع مراد صاحبها الأمير
حسام الدين تمر تاش بن نجم الدين يلفازي بن أرتق ، فمدحه بقصيدة
يقول في مستهلها :

هذا الحبيب وهذه الصهباء عدل المصّر عليهما إغراء
والأغيد الأمل يروقك منظرأ في سقيها والفادة المياء
يا قاتلا كاسي بكثرة ما نه ما الحي عندي والقتيل سواء
بالماء يحيا كل شيء هالك إلا الكئوس هلاكهن الماء
والراح ليس لعاشقها راحة ما لم يساعدنهم غنى وغناء
وبوجنتي وبوجنتيه إذا بدا من فرط وجدنا حيا وحياء
كيف الوصول إلى الوصال وبيننا بين ودون عناقه العنقاء
الله جبراني بجيرون ، ولي بلحظهم وبهم ظبا وظباء (٢)
تتابع رحلة الشاعر لنصل إلى آمد السوداء ، ذات الحجارة السود ،
ويلتقي فيها بمدير أمرها ابن نيسان ومدحه بقصيدة استهلها بوصف طبيعتها
ومظلمها قوله :

قومي اسمعي با هذه وتأملني رقص الفصون على غناء البلبل (٣)
وانحدر الشاعر إلى الموصل ، ولقي فيها الوزير الجواد الذي يفصده
الشعراء وغيرهم من كل حذب وصوب . والغريب أنه لم يمدح عماد الدين
زنكي ، وكل ما عرف عنه في مدح الزنكيين بيتان أشار فيهما إلى المدرسة
التي أنشأها الملك العادل نور الدين (٤) . يضاف إلى ذلك أنه كان يكتب
للملوك ، وقد عرفنا ذلك مما قاله سبط ابن الجوزي : « قال

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج. ١ ص ٢١٢ ، والديوان ص ٦٠ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٨٤ ، ١٨٥ ، والديوان ص ٢ ، ٣ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢١ ، والديوان ص ٨٠ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١ ، والديوان ص ٧٠ .

ابن النقاد الكاتب : كان فاضلاً كتب للملك دمشق ولنور الدين محمود (١) .
ويظهر أن خلاعته ومجونه ، مع ما عرف عن هذا الملك من الورع والزهد ،
كانا عاملين من العوامل التي سدت أمام الشاعر أبواب الزنكين .
التقى بوزيرهم المذكور آنفاً ، فمدحه بقصيدة استهلها بنسيب غريب
في محبوب له أحول كما مر معنا ، وانتقل إلى بغداد لا ليمدح الخليفة ، وإنما
ليمدح كاتب إنشائه ابن السيد الأتباري (المتوفي سنة ٥٧٥ هـ) وقد طلب
منه شقة من قماش يتخذ منها قميصاً جديداً :

حاجتي شقّة تشقّ على كـ لـ بغيض من الوري وحسود
ذات لون كمثل عرضك لاعر ضي ، وحظي من القريب البعيد
فابعثها صفيقة مثل وجهي جلّ من صاغ جلده من حديد
واجعلنها طويلة مثل قرني ولساني لأمثل قدّي وجيدي
كي أرى في الشام شيخاً خليعاً في قميص من العراق جديد (٢)

يكاد يكون شعر عرقلة في معظم أغراضه صورة معبرة عن حياته الخاصة
حتى في مدح نفسه ، فهو يصور في هذه الممدحة الأنبارية حاجته وخلقه وحياته
أكثر مما ينعت ممدوحه ، فهو شيخ الشام الخليع ، ويريد أن يعود من
العراق وقد ارتدى حلة جديدة تحمل بركة الخلافة .

كان لا بد للشاعر من زيارة مصر ، وقد تذكر قصة أبي نواس حينما
وفد على الخليلي القائم على خراج مصر ، فارتحل مثله وزيرها التتاعر ظلائع
بن رزيك الملقب بالملك الصالح ، ومما قاله :

وكانني أبو نواس إذا ما جئت مصر ، وأنت فيها الخصب
ولئن كنت مخطئاً في قياسي إن عذري ما قال قدماً حبیب
لو أراد الرقيب ينظر جسمي ما رآه من النحول الرقيب
مثل دار الزكي كيسي وكاسي وهي فقر كأنها ملّحوب (٣)

وتستند أواصر الصداقة بين الشاعر الخليع والوزير ، فيكثر من مدحه

(١) سبط ابن الجوري : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ١٨٠

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠١ ، والديوان ص ٣٥

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٨٧ ، ١٨٨ ، والديوان ص ١٠

ويعرض من خلالها بقصة ممدوحه ، يوم حدثت مؤامرة كبرى على الخليفة الفاطمي الظاهر ، وكان على رأسها وزيره عباس الصنهاجي ، فقتل الخليفة وهرب من في القصر من آله ، واستجاروا بطلائع بن رزيك فهب لنصرتهم ودخل القاهرة سنة ٥٤٩ هـ . ومما قاله في هذا الحادث مشيراً إليه في مستهل نسيبه :

طَافَ عَلَى الثُّمَانِ بِالْكَاسِ وَخَلَدُهُ مِنْ لَوْنِهَا كَاسِ
مُهْفَهُ الْقَامَةِ مَشُوقَهَا يَخْجَلُ مِنْهُ غَضَنُ الْأَسِ
دَعَصُ نَقَا تَحْمِلُهُ بَابَةٌ شَمْسُ ضُحَا فِي زِيٍّ شَمَاسِ (١)
تَحْكِي ثَنَا « الصَّالِحِ » أَنْفَاسُهُ وَضَلْغُهُ أَيَّامَ « عَبَّاسِ » (٢)

والمعروف عن الوزير طلائع أنه من شيعة العراق ، وقد وضع كتاباً اسمه « الاجتهاد في الرد على أهل العناد » ، وفيه يبسط قواعد التشيع وتعاليمه ، ويرد على المذاهب الأخرى ، وأغلب الظن أن الشاعر اطلع على هذا الكتاب ، فعلمت بذهنه بعض العقائد الشيعية فتأثر بها ، وظهرت في شعره واضحة كما في هذه المدحة .

قَفَّ بِجَيْرُونََ أَوْ بِيَابِ الْبَرِيدِ وَتَأْمَلْ أَعْطَافَ بَانَ الْقُدُودِ
يَانْدِيمِي غَتِيَانِي بِشِعْرِي وَاسْقِيَانِي بِنِيَّةِ الْعَنْقُودِ
عَرَّجَا بِي مَابَيْنِ « سَطْرِي » « وَمَقْرِي » لَا بِأَكْنَافِ عَالِجِ وَزُرُودِ
سَقْيَانِي كَأْساً عَلَى نَهْرِ « ثُورَا » وَذِرَانِي أَبُولَهَا فِي « يَزِيدِ »
أَنَا مِنْ شِيعَةِ الْإِمَامِ حُسَيْنٍ لَسْتُ مِنْ سُنَّةِ الْإِمَامِ وَلِيدِ
مَذْهَبِي مَذْهَبٌ ، وَلَكُنْشِي فِي بِلَدَةٍ زُخْرِفَتْ لِكُلِّ بَلِيدِ
غَيْرِ أَنْ الزَّمَانَ فِيهَا أُنِيقُ تَحْتَ ظِلِّ مِنَ الْفُصُونِ مَدِيدِ
وَرِيَاضٍ مِنَ الْبَنْفَسِجِ وَالنَّرِّ جَسْرٍ قَدْ غَطَّرْتُ بِمَسْكِ وَعُودِ
كَشْنَا الصَّالِحِ بْنِ رَزِيكَ فِي كَلِّ قَرِيبٍ مِنَ الدُّنَا وَبَعِيدِ (٣)

يظهر في هذه القصيدة ضعف إيمان الشاعر ومدى تأثره بالعقائد الشيعية

(١) نسياس : لفظة سريانية الأصل ومعناها الحادم ، أو من هو في خدمة العيس .

(٢) السباد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٢٠٩ ، والديوان ص ٥٤

(٣) السباد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ، والديوان ص ٣٢ ، ٣٣

يضاف إلى ذلك تطور جديد في البعد عن التقليد ، وخطوة جريئة على سنة أبي نواس في السخرية والهزء بما يتفنى به الشعراء القدماء ، وهذا يدلنا على الرغبة في تصوير البيئة كما يعانيها الشاعر .

مدح الأيوبيين

المعروف أن عرقلة شاعر الأيوبيين بلا منازع ، وأنه كان يناديهم في مجالس لهوهم وسمرهم . أحبوه وألقوه ، ونال عطاياهم الكثيرة ، حتى إذا انتقلت إليهم مقاليد الحكم اصطفوه لأنفسهم ، فنطق بلسانهم ، ووصف حالهم أتم وصف .

والمأثور عن صلاح الدين أنه كان يشرب الخمر عندما كان أحد الأمراء الأيوبيين ، وقد اعترف قاضيه ابن شداد بذلك في سيرته « النوادر السلطانية » ، وذكر أنه تاب عن شرب الخمر بعد أن فوض الأمر إليه (٢) ، وأعرض عن أسباب اللهو والمجون .

كان عرقلة صديق صلاح الدين، يحبه ويستحضره ويألف سماع أحاديثه فلا بدع إن خلد مجالس أنسه في الشام قبل تملكها ، وقد أنشده بديهاً أو أن الورد قوله :

يا حابس الكأس خيل الورد قد وردت شنبهاً وكمثاً ، أدر يا حابس الكأس
أقسمت ما الورد في الأزهار قاطبة إلا كمثل صلاح الدين في الناس
الوارث المجد من آبائه أبداً مثل الخلافة في أولاد عباس (١)

تولى صلاح الدين إيالة دمشق في عهد نور الدين ، وكان الفساد قد استشرى في آل طفتكين ، وكثرت حوادث السرقة والسطو ، فقال عرقلة :
لصوص الشام ، توبوا من ذنوب تكفروها العقوبة والفساد
لئن كان الفساد لكم صلاحاً فمولانا الصلاح لكم فساد (٢)

ونصحهم مرة أخرى متوعداً :

رويدكم يا لصوص الشام فإنني لكم ناصح في مقالي

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٥

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٢١٠ ، والديوان ص ٥٣ ، ٥٤

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٢ ، والديوان ص ٣٥ ، ٣٦

وإياكم من سمي النبي ي يوسف رب الحجا والجمال
فذلك منقطع أبدي النساء وهذا منقطع أبدي الرجال (١)

اختص الشاعر مؤلاه بمدحه ، ولم يضمن بها على آله المقربين ، فمنذ
أخاه توران شاه ، وابني عمه نصرًا وفتحاً ، ولدي أسد الدين شير كوه ،
رؤسهم .

اضطربت الحال في مصر ، واختلف وزيراها على السلطان ، ووفد شاورز
يطلب نجدة نور الدين على منافسه زرغام ، بيد أن صلاح الدين تردد
— كما رأينا — في الذهاب صحبة عمه ، وقد أسهم الشاعر بدوره في إقناع
مؤلاه :

إلامّ إلامّ فيك وكم أعادي وأمراض من جفالك ولن أعادا
لقد ألق الضنى والسقم جسمي وعيناي المدامع والسهادا
وقد أنساني الشيب الفواني فلا سعادى أريد ولا سعادا
وهل أخشى من الأنواع بخلا ويوسف لي ، فتى أيوب ، جادا
إلى كم ذا التواني في دمشق وقد جاءكم مصر تهادى (٢)

مضى صلاح الدين إلى مصر ، وقامت بعد وقت يسلا وحدة الإقليمين
بعد أن استتبت الأمور للدولة الأيوبية الناشئة ، ويصف عرفة الحال وهو
في دمشق قائلا :

أصبح المثلث بعد آل علي مشرقاً بالملوك من آل شاذي
وغدا التترق يحسد الغرب للقو م ومصر تهو على بغداد
ما حواها إلا بحزم وعزم من صليل الفولاذ في الفولاذ
لا كفرعون والعزير ومن كان بها كالخصيب والاستاذ (٣)

سير صلاح الدين هديته إلى نور الدين ، ولم ينس شاعره عرقلة ،
فبعث إليه الذهب ، وحمل رسوله سلامه وتحيته له ولأهل دمشق :

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٢ ، والديوان ص ٨٧

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، والديوان ص ٣٢ ، ٣٣

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٣ ، والديوان ص ٣٧ ، ٣٨

صلاح الدين قد أصابحت دنيا شقي لم يبيت إلا حريصا
أتى منك السلام لنا عموماً وجودك جاءني وحدي خصوصاً
فكنت كيوسف الصديق لما تلقى منه يعقوب القمص (١)

لم يكتب الشاعر بهذه الهدية لأن له في عنق مولاه ديناً سابقاً ، إذ وعده
ذات ليلة في أحد مجالسه أنه إن ملك مصر أعطاه ألف دينار ، بعث إليه
بالذهب وحده دون أهل الشام ، لكنه ما نسي نذره ، فبعث إليه يطالبه
بألف الدينار ، وكان يود لو يذهب إليه ، غير أنه يخشى الفرنجة الذين كانوا
عثرة في الطريق إليه ، وهو يخشى كذلك أن يموت قبل أن ترى عيناه الثروة
التي كان يحلم بها :

إليك ، صلاح الدين مولاي ، أشتكي زماناً على الحر الكريم يجوز
ترى أنصر الألف التي كنت واعدي بها في يدي قبل الممات تصير
وهيهات والإفرنج بيني وبينكم سياج ، قنيل دونه وأسير
ومين عجب الأيام أنك ذو غنى يميز ، وأني في دمشق فقير (٢)

يلوح نسج المنية أمام عينيه في أواخر عمره ، وألف الدينار نذر صلاح
الدين تفرجه بالمخاطرة ، فيرتحل إلى مصر ويلقى مولاه ، ويفرح بحلوله في
أرض الكنانة مرة ثانية ، فيخطب ساكنيها :

الحمد لله السميع المجيب قد هلك الشراك وضل الصليب
يا ساكني أكناف مضر أنا أبو تواسر والصلاح الخصيب (٣)
جاء يطلب النذر الذي له في عنق الصلاح ، فيعرض بذلك قائلاً :

قل للصلاح معيني عند إعساري يا ألف مولاي ، أين الألف دينار
أخشى من الأسر إن حاولت أرضكم وماتني جنة الفردوس بالنار
فجند بها عاضديت منسطرة من بعض ما خلف الطاغى أبو العار (٤)

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١١ ، والديوان ص ٥٧

(٢) الصفي : الشهور بالمرور (مخطوط) و ١٣٥ ، والديوان ص ٥٠

(٣) المصدر السابق ، ١٣٢ ، والديوان ص ١٣

(٤) المصدر السابق ، و ١٣١ ، والديوان ص ٤٩

و قى صلاح الدين ندره ، فأعطاه من خاصته ما عليه ، وأخذ له من
أخوته مثلها .
عاد الشاعر إلى دمشق محملاً بالذهب ، بيد أن المنية عاجلته بعد
وصوله ، سنة ٥٦٧ هـ (١) .

(٢)

آثره الأدبية

اطلع العماد على ديوان الشاعر (٢) ، واختار منه مجموعة أوردها في
خريدته مرتبة بحسب الحروف الأبجدية ، وقد وصفه في مستهل مختاراته
بقوله : « ثم وقع بيدي ديوان الشاعر ، فطالعت . وقصائده قصار ، وفي
النادر ان تزيد قصيدته على خمسة وعشرين بيتاً ، ومقطعاته على عشرة
أبيات ، وكلها نوادر وكلام مضحك ، فانتخبت منه هذه الأبيات ، واختصرت
حذراً من التطويل » (٣) .

كما نعرش على مختارات أخرى له في فوات الوفيات ، والشذرات وغيرها
من الكتب التي أرخت لهذا العصر أو ترجمت لرجاله . كما أشار أبو شامة في
الروضتين إلى ديوانه ، وذكر أنه اطلع عليه في معرض ذكره قصيدة بعث
بها إلى صلاح الدين (٤) .

(١) ذكر سبط ابن الجوزي أنه توفي ٥٦٨ هـ (مرآة الزمان : ج ٨ ص ١٧٨)

(٢) أصدر مجمع اللغة العربية بدمشق ديوان الشاعر بتحقيق أحمد الحندي .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٨٧

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٧٧

القَبْلُ الشَّيْبَانِي

شعره ومذهب الفتي

(١)

أغراض شعره

كان الشعراء الثلاثة السابقون يمثلون مظهرًا من مظاهر الحياة الكفاحية وبمما لا شك فيه أن الشيخ الخليع عرقله يمثل وحده مظهرًا أصيلاً من مظاهر الإباحية والحياة العابثة في هذا العصر ببلاد الشام .

امضى الشاعر جل أيامه في دمشق ، فلم يفادرها ليقيم في غيرها إقْلعة متصلة ، وإنما وجد فيها الحياة الماحنة التي تلائم طبيعته الإباحية العابثة ، ساعده على ذلك طبيعة جميلة وحانات كثيرة منتشرة في بلاد الشام ، كما وجد في مجالس ملاوكها وأمرائها ما شجعه على الاستمرار في هذا النمط من الحياة .

تضافت كل هذه العوامل على تكوين شخصيته الفنية ، فكان شعره بحق صورة من صور نواصي جديد ظهر في بلاد الشام .

كان الشاعر مجدداً في أغراضه ومعانيه ، وكان يهزأ بمن كانوا يتفننون به من ذكر الأطلال والديار ، ويستعيز عنها بجيرون ، ودمشق ، وخلق وسطرى ، ومقرى ، وباب البريد ، وغيرها من ربوع الشام ومتنزهاتها .

وصف بلاد الشام ، وذكر أنها وجنة الدنيا ، وخلد دمشق وجمالها ، ووصف طبيعتها وأوان الورد في أوائل الربيع :

هذا هو الزمن البديعُ المونقُ والعيشةُ الرغدُ التي هي تعشقُ
فعلامَ تصحو والحمّامُ كأنها سكرى تغني تارةً وتصفقُ
وتلومُ في حبِّ الديار جهالةً هيهات يسلوها فؤادُ شيقُ
والشامُ شامةُ وجنة الدنيا ، كما إنسانُ مقلتها الفضيضةُ جائقُ
هينَ آسِها لكَ جنةٌ لا تنقضي ومن الشقيقِ جهنمُ لا تحرقُ

سَيِّمًا وَقَدْ رَقِمَ الرَّبِيعُ رُبُوعَهَا وَشَيْئًا ، بِهِ حَدَقَ الْبَرَايَا تَحْدَقُ
 فِي نَرْبٍ ضَحِكْتَ تَفُورُ أَفَاحِهِ لَمَّا بَكَاهُ الْعَارِضُ الْمَثَلِقُ (١)

وما دام الشاعر قد اتخذ من الشقيق جهنماً فكانت بردا وسلاماً إذ
 هي لا تحرق ، ومن الآس جنات النعيم ، فلنستمع إليه يحدثنا عن الجنات
 المعجلة في دمشق :

أَمَّا دَمِشْقُ فَجَنَاتٌ مَعْجَلَةٌ لِلطَّالِبِينَ بِهَا الْوَلَدَانِ وَالْحُورُ
 مَا صَاحَ فِيهَا عَلَى أَوْتَارِهِ قَمَرٌ إِلَّا وَغْنَاهُ قَمَرِيٌّ وَشَحُورُ
 يَا حَبْذاً وَدُرُوعُ الْمَاءِ تَنْسُجُهَا أَنَامِلُ الرِّيحِ لَوْلَا أَنَّهُ زُورُ (٢)

ويغيب الشاعر لأمر عرض له في بعلبك ، فيتذكر غوطتي دمشق
 ويخاطب برقها :

يَا بَرْقَ حَيٍّ الْفُوطَيْنِ وَسَقَمَها مَطَرًا حَكَاهُ دَمْعِي الْمِسْفُوحُ
 كَيْفَ الْحَيَاةَ لِمَسْتَهَامٍ جِسْمِهِ فِي بَعْلَبَكْ ، وَفِي دَمِشْقِ الرُّوحِ (٣)

كما يذكر الشاعر في مواطن أخرى أسماء أماكن متفرقة ، ومتنزهات
 مشهورة .

يتفنى الشاعر أيضاً ببردى ، فيصفه وصفاً دقيقاً ، ويتحدث عن
 الطبيعة من حوله ، بيد أنه لا يأتي بأوصافه مجردة ، وإنما يبرزها حياة
 خلافة في خمرياته ، فنرى من خلالها مجانس سكره في ليالي أنسه :

دَمِشْقُ حَيَّتْ مِنْ حَيٍّ وَمِنْ نَادِرٍ وَحَبْذاً حَبْذاً وَادِيكَ مِنْ وَادٍ
 لِبَسِ النَّدَامَى نَدَامَى حِينَ تَنْزِلُهُ يَعْطُهُمْ شَادَنُ كَأْسًا عَلَى شَادٍ
 حَفَاً وَلِلْوَرَقِ فِي أَوْرَاقِهِ طَرْبُ كَأَنَّ فِي كُلِّ عَوْدٍ أَلْفَ عَوَادٍ
 يَا غَادِبًا رَائِحًا عَرَّجَ عَلَى بَرْدَى وَخَلَنِي مِنْ حَدِيثِ الرَّائِحِ الْغَادِي
 كَمْ قَدْ نَرَبْتُ بِهِ فِي ظِلِّ دَالِيَةٍ مِنْ مَاءِ دَالِيَةٍ تَنْبِيكَ عَنْ عَادٍ
 فِي جَنْبِ سَاقِيَةٍ مِنْ كَفِّ سَاقِيَةٍ فَامَتْ نَمَى بِقَدِّ غَيْرِ مُنَادٍ
 سَمَرَاءُ كَالصَّعْدَةِ السَّمَرَاءِ وَاضِحَةً يَشْفِي لِي شَفْتَيْهَا غُلَّةَ الصَّادِي (٤)

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢١٦ ، ٢١٧ ، والديوان ص ٦٨

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٤ ، والديوان ص ٤١

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٢ ، والديوان ص ٨

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٨ ، والديوان ص ٢٧

جمع الشاعر في شعره بين الطبيعة والخمر ، وكأنه كان يود لو ينسى
هموم حياته في مجالس لهوه :

لَا يَفِي الْوَصْلَ بِالصُّدُودِ خَلِيٍّ لِي ، كَمَا الْخَمْرُ لَا يَفِي بِالْخُمَارِ
فَاسْقِنِيهَا لَعَلَّهَا تَصْرِقِدِ الْهَمَّ عَلَى طَيْبِ نَفْمَةِ الْأَوْتَارِ
خَنْدَرِيْسًا كَأَنَّهَُا فِي ذَجَى اللَّيْلِ لِرَ بَأَيْدِي السُّقَاةِ شَمْسُ النَّهَارِ
إِنَّمَا الْعَيْشُ فِي رِيَاضِ دِمَشْقَ بَيْنَ أَقْمَارِهَا وَبَيْنَ الْقَمَارِي (١)

ويهرع إلى الأديرة القريبة من دمشق ، وفي رياضها وحاناتها ، فيجد
بغيته من صهباء معتقة وساقية حسناء ، ولا سيما في أيام الأعياد ، ومما قاله
يصف سكره في عيد الشعانين بدير مرّان :

وَفِي «دِيرِ مَرَّانَ» خَمَارَةٌ مِنَ الرُّومِ فِي يَوْمِ سَعْنِينِهَا
سَقَتْنِي عَلَى وَجْهِهَا الْمَشْتَهَى أَرْقًا وَأَعْتَقَ مِنْ دِينِهَا (٢)

يلاحظ أن الشاعر يضيف على وصف الخمر طابعاً دينياً محضاً ، وقد
استمد عناصره مما عرفه ، فلا غرابة إن رأيناه يشير إلى هذه المعاني
في قوله :

نَدِيمِي دَاوُ بِالْخَمْرِ الْخُمَارَا أَدْرُ كَأْسِي يَمِينًا أَوْ يَسَارَا
مَشْعُشَعَةً إِذَا مَا صَفَقَوْهَا بِمَاءٍ خَلَّتْهَا نُورًا وَنَارَا
لَهَا مِنْ مَوْلَدِي مُوسَى وَعِيسَى شَرَابٌ لِلْيَهُودِ وَلِلنَّصَارَى (٣)

لا يرضى عرقلة بغير الخمر المعتقة من قبل آدم وشيث ، والمحللة من
قبل نبوة عيسى ومحمد :

وَكَأْسًا سَقَانِيهَا كَقَنْدِيلٍ بَيْعَةٍ بِهَا وَبِهِ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ نَهْتَدِي
مَعْتَقَةً مِنْ قَبْلِ شَيْثٍ وَأَدَمٍ مَحْلَلَةً مِنْ قَبْلِ عِيسَى وَأَحْمَدٍ
صَفَتْ كَدُمُوعِي حِينَ صَدَّ مَدِيرُهَا وَرَقَتْ كَدِينِي حِينَ أَوْفَى بِمَوْعِدِ (٤)

وهو بعد كل هذا لا يكتفي بوصفها والتفني بها في الأديار والحانات

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٧ ، والديوان ص ٤٨

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٢٥ ، والديوان ص ١٠١ ، ١٠٢

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، والديوان ص ٤٦ ، ٤٧

(٤) الصفيدي : الشعور بالمرور (مخطوط) و ١٣٥ ، والديوان ص ٢٢

وأنما يتطرق إلى ذكر السقاة والندامي ، فيتحدث عن ساقيته الفسادة
اللمياء ، وساقيه الأغيد الألى ، ولا يكتفي بذلك بل يفصل في الحديث عن
قتل الخمر بالماء ، ومزجها بلمى الشفاه ووضاها :

يا ساقى الصهباء صيرفا لا تجر^(١) وامزج لنا الصهباء من أرياقه^(٢)

مدرسة خميرية جديدة في هذا العصر توزعت في الشرق الإسلامي ،
وكان لها موطنان : أولهما في فارس والعراق ، وكان عمر الخيام رأس
شعرائها ، وثانيهما في مصر والشام ، وكان عرقلة الكلبي رأس شعرائها .
انضح لنا مما مر معنا أن الحياة في نظر عرقلة الخليع خمر ولذة
وطبيعة ، فهو يقضى ليله ونهاره عاكفاً على الشراب في المتنزهات أو
الاديرة أو الحانات مع جماعته الملمنين ، ولا يفارق بين ليلة القدر التي هي
خير من ألف شهر وليلة الجمعة ، ويناديه على شرايه اثنان من صحابته ،
هما ابن أبي الدرداء وابن ملكداد :

أدر يا طلعة البدر	علينا أنجم الخمر
وقطّع ليلنا بالكأ	س حتى مطلع الفجر
كذا فليشرب الصهباء	ء مثلي يا ذوي الشعر
كذا في ليلة الجمع	ة بل في ليلة القدر
مع الفتيان في الحانا	ت بين الطبل والزمر
بحيث ابن ملكداد	وحيث ابن أبي الدرد
حرفان خرافان	بلا قدر ولا قيلند ^(٣)

هكذا كان يعيش الشاعر ، وكل وكده في حياته خمر وطرب ، ومجون
ولذة ، وعبث وإباحية ، وهو ينصح الناس ليفتنموا من الليالي صفوها
قبل أن يدهمهم الموت ، ولا خير عنده من قدح ينهله من راحتي ساقيه :

ما زلت من مدامه	مفتيقاً منصطحاً
حتى غدوت لا أرى الند	دمسان إلا شبحاً
يا صاح يا صاح اسقني	من راحتي القدحاً

(١) العمدالكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢١٦ ، والديوان ص ٦٦ ، والرواية فيه «درياقه»

(٢) العمدالكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢٠٦ ، والديوان ص ٤٦

واغتَنِم العيشَ ثَمًا تُبْقِي اللياليَ فَرَحًا (١)
ويُدْعُو نَدِيمه بعد صاحبه ليفيق من وسنه ، ويعاتبه على توانيته ،
ويذكره أن العمرَ مَبِيتَعارٌ :

نَدِيمِي قَمْ فَقَدْ صَفَتِ العُقَارُ وَقَدْ غَتَى عَلَى الْإِنِّكَ الْهَزَارُ
إِلَى كَمِ ذَا التَّوَانِي فِي الْأَمَانِي أَفَقْ مَا الْعَمْرُ إِلَّا مُسْتَعَارُ (٢)
تَمْضِي الْأَيَّامُ ، وَيُوشِكُ عَمْرُه أَنْ يَمْضِيَ ، وَهُوَ عَاكِفٌ عَلَى صَهْبَانِه ،
وَيَسِيرُ لِإِقْبَالِ الرَّبِيعِ فَيُطْلِقُ كَأْسَه ، وَتَتَرَاءَى نَذْرُ خَرِيفِ الْحَيَاةِ ، وَالْإِنْسَانُ
بَيْنَ رَبِيعِ حَيَاتِه وَخَرِيفِهَا فِي شُغْلٍ دَائِمٍ :

خَرِفَ الْخَرِيفُ ، وَآتَتْ فِي شُغْلٍ عَنْ بَهْجَةِ الْأَبَامِ وَالْحَقِيبِ
أَوْرَاقُهُ صَفْرًا وَقَهْوَتُنَا صَفْرَاءُ مِثْلُ التَّمَسْرِ فِي اللَّهَبِ
يَأْتِي بِهَا غَيْرِي وَاشْرِبْهَا ذَهَبًا عَلَى ذَهَبٍ بِلَا ذَهَبٍ (٣)
وَيَمُوتُ أَحَدُ إِخْوَانِهِ الْمَجَانِ ، وَهُوَ شَيْخٌ خَلِيعٌ جَاوَزَ الثَّمَانِينَ مِنْ عَمْرِهِ ،
فَيَصِفُ مَجْلِسَهُ بَعْدَ أَنْ افْتَقَدُوهُ ، فَيَكُونُ أَحْرَ بَكَاءٍ ، وَنَدْبِهِ الْكَاسَ وَالْقَيْنَةَ
وَالرَّأْوِقَ ، وَيَنْتَهِي آخِرًا لَيْلُومَ صَدِيقِهِ الْفَقِيدَ ، وَبَطْلَابَ مِنْ نَفْسِهِ أَنْ تَعْتَبِرَ
وَتَأْخُذَ « مِنْ التَّقَى خَيْرَ زَادٍ » (٤) .

يَصْعَبُ الْفَصْلُ بَيْنَ خَمْرِيَاتِهِ وَغَزْلِهِ ، وَهُوَ كَشَعْرَاءَ عَصْرِهِ يَكْثُرُ مِنْ ذِكْرِ
العنصر التركي ، ويعرضُ بجورهم :
يَابَنِي الْأَعْرَابِ إِنَّ الْـ تَشْرَكَ قَدْ جَارَتْ بَنُوها
عَقَرَبُوا الْأَصْدَاغَ حِينًا وَلَحِينِي ثَعْبَنُوها (٥)

كَمَا يَتَحَدَّثُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ أَغْزَالِهِ عَنْ مَوْلِدِ الْأَعْرَابِ الَّذِي كَانَ
مُتِمِّمًا بِمَوْلِدِ الْأَتْرَاكِ (٦) ، وَيُشِيرُ أَيْضًا إِلَى « مَا لِلْأَعْرَابِ طَاقَةٌ بِالْأَتْرَاكِ » مِنْ

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٣ ، والديوان ص ١٩

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٤ ، والديوان ص ٣٩

(٣) الشُّعُودُ بِالْمَوَدِّ (مَخْطُوطٌ) ، و ١٣٧ ، والديوان ص ٣٩

(٤) العباد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، والديوان ص ٣٧

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٩ ، والديوان ص ١٠٧

(٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢ ، والديوان ص ٩٠

الدوبيت (١) والملاحظ أن الشاعر كان يفتش عن اللذة حيثما وجدها ، وكان يصرح بذلك في شعره كما في قوله :

يقتلنَ تسلّ بالصَّهْبَاءِ عِنا على ضَرْبِ المِثَالِثِ والمِثَالِثِ (٢)

وأوضح من ذلك قوله الإباحي :

إني لأعشقُ ما يحويه برقعُها ولست أنقض ما نحوي السراويل (٣)

لقد شغل المجد المتنبّي عن اللذة ، وهو على شغفه بما في خمرها يعف:

إني على شغفى بما في خمرها لأعِف عما في سراويلها (٤)

يتمثل لنا هذا الانجاء الإباحي في وصفه لصفية الكردية ، وهي جارية كان يحبها :

عارضها حين تبدو عارضها وسلاها عن فؤادي : هل سلاها؟

بأبي جارية حائرة ما سفت غلّة قلبى شفتها

أتمنّى قبلّة في يدها وسواي في الهوى قد ملّ فاها (٥)

تلك هي فلسفة الشاعر في حياته : طبيعة وخمر ولذة ، وقد اتينا على ذكرها لنؤكد وجود مدرسة خمرية في بلاد الشام ، وهي مظهر هام من مظاهر المذهب الخمري المنتشر في الشرق الإسلامي في هذا العصر .

مهما يكن من أمر فعرقله رائد هذه المدرسة ذون منازع ، وقد تناقل أهل عصره شعره الماجن وغنوه في مجالس أنسهم وسمرهم ، إذ يعبر بحق عن حياتهم ومشاعرهم . ويجدر بنا ألا ننسى أن شعره هذا بما فيه من مؤثرات دينية من النصرانية وغيرها اترت كثيراً في شعر المتصوفة .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٨ ، والديوان ص ١٠٩

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٦ ، والديوان ص ١٠٣

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ح ١ ص ٢٢٠ ، والديوان ٧٧

(٤) ديوان المتنبّي ح ١ ص ٢٢٧

(٥) المصفي : الشعور بالعمور (مخطوط) و١٣٧ ، والديوان ص ١٠٧

(٢)

مذهب الفني

يتميز أسلوبه - كما رأينا في عرض شعره - بالرقّة المتناهية التي تقربه من النفس ، وبالطلاوة التي يشعر بها الإنسان وهو يردد شعره . أشار الأقدمون من معاصريه إلى ذلك ، وقد أكد ابن النقيّ الكاتب ذلك بقوله : « وله شعر رقيق ومعنى دقيق » (١) . ولعل سبب ذلك بعد الشاعر عن التعقيد في تراكيبه ، والإقلال من استخدام الزخارف البديعية الكثيرة ، يضاف إلى ذلك اختياره الأبحر المجزوءة ذات الجرس الموسيقي في بعض الأحيان ، وإدخاله بعض الألفاظ العامية أو العربية التي تتردد على السنة الناس .

لا بدع بعد هذا إن رأيناه يقتصد في التصنع البديعي ، فلم يتعمدها لذاتها كمذهب أدبي خاص كما رأينا عند ابن منير والقيصري ، ولكن طغيان هذا المذهب في هذا العصر أجبر الشاعر على الأخذ ببعض ما علق به ، لكن أرباب التصنع لم يرضوا بهذه الصورة من شعره فعده نواذر وكلاماً مضحكاً .

وليس شعره كما زعموا ، فلقد كان حقاً صورة أصيلة عن مظهر هام من مظاهر الحياة الاجتماعية ، واستطاع بهذا الكلام المضحك أن يعطينا صورة حياته الخاصة ، قل أن نجد لها نظيراً بين الشعراء الآخرين .

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ١٨٠ ، ١٨١

أسامة بن منقذ فارس الشام

(٤٨٨ - ٥٨٤ هـ = ١٠٩٥ - ١١٨٨ م)

القسم الأول

حياته وأثاره

(١)

مراحل حياته

وُلد « الأمير الكبير فارس الشام » (١) مؤيد الدولة ، أبو المظفر ، أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة ، سنة ٤٨٨ (٢) هـ .

كان والده قد تزهد وتخلّى عن الإمارة لأخيه أبي العساكر سلطان ، وقال : « والله لأوليتهما ، ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها » (٣) ، وعكف في ليله على نسخ القرآن وتلاوته ، وفي نهاره على الصيد رياضته المفضلة .

نشأ أسامة في أسرة تناقل أفرادها وتوارثوا الأدب والشعر والمجد والبأس ، ونال علومه في الدين واللغة عن كبار العلماء الذين استقدموا إلى شيزر من طرابلس وغيرها . نذكر من أساتذته إبا عبد الله الطليطلي ، وقد دعاه بسيبويه زمانه ، وأشار إلى أنه قرأ عليه نحو عشر سنين في شيزر ، وكان من قبل متولي دار العلم التي أقامها الفاطميون في طرابلس

(١) الذهبي : سير النبلاء (مصورة) ج ١٣ ل ٢٨

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٦٣ ، وياقوت : ارشاد الأريب ، ج ٣ ص ١٧٣ ،

والعماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٩٩ ، وابن مسافر : تاريخ دمشق ، ج ٢ ص ٤٠٠ ،

وأبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١١١ - ١١٣ ، ومقدمة الاعتبار ، ص ١ ، والذهبي :

سير النبلاء (مصورة) ج ١٣ ل ٣٨

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١١١ ، ١١٢

الشام ، فلما أخذها الفرنجة من المسلمين أنفذ أبوه وعمه من أتى به مكرماً ليتولى تأديب أمراء بني منقلد وتثقيفهم .
تحدث أسامة في كتابه « الاعتبار » عن استأذه هذا ، وكنا قد
تكلمنا عنه خلال عرضنا للحياة الفكرية عند الحديث عن علماء النحو في
هذا العصر (١) .

ذكر الأقدمون أنه كان يحفظ كثيراً من الشعر ، « قال السمعاني :
ذكر لي أنه كان يحفظ من شعر الجاهلية عشرة آلاف بيت » (٢) .
ظهرت بوادر شجاعته منذ طفولته فنراه يقتل أفعى في صفر ويحز
رأسها ، ونراه خلال رحلات الصيد يلقي أسداً فيضارعه ويرديه (٣) .
هكذا ربي أسامة هذه التربية الخاصة ، إذ كان في أنظار قومه أميرهم
المرتقب الذي سيتولى عرش شيزر بعد سلطان . بيد أن الأمور جرت
على غير ما يشتهي ، فتغير عمله عليه بعد أن رزقه الله ولداً ، وخشي عليه
بأسه ، ولا قدرة له عليه بعد موته ، ويقع الجفاء بينهما ، ويزمغ أمره
على ترك البلد الذي أحبه ، ففارق والديه وأخوته لأنه أبى أن يرى أحداً
فوقه ، وهو صاحب الملك الذي ائتمنه عليه أبوه ، فسلبته منه أطماع عمه ،
وكان مقرراً له قبل أن يرزقه الله البنين .

رأى أسامة بشاقب بصره أن يلتحق بعماد الدين زنكي الذي دوح ممالك
الفرنجة في بلاد الشام ، واشترك معه في حروبه ، وحالفه النصر في عدة
مواقع ، لكن الخطر دهم بلده فجأة سنة ٥٣٣ هـ ، فعاد مسرعاً ، ودافع عنه ،
وقهر أعداء المهاجمين من روم وفرنجة . هكذا دخل بلده مظفراً ، ولكنه
وجد أباه قد فارق الحياة قبل عامين ، وشعر بضرورة بقائه بين آله ليعوضهم
ما فقدوه من عطف أبيه .

أما عمه فقد شعر أن أركان ملكه بدأت تتصدع أمام ابن أخيه الفارس
الظافر ، فأظهر له الجفاء والبغضاء ، ويفسد الأمر عليه بعد أن رأى معظم
آل منقلد يميلون إليه . بلغ الخلاف منتهاه ، وأمره عمه بمفادرة شيزر ،
وخرجت صحبته أسرته وأنصاره ، فتشتوا في كل مكان ، لكن الله أراد لهم

(١) أسامة بن منقلد : الاعتبار ، ص ٢٠٨ ٢٠٩

(٢) الذهبي : سير النبلاء (مصورة) ج ١٣ ل ٣٨

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٣ ، ١٠٤

الخير إذ أخرجهم من ديارهم ، فلقد كانت على موعد مع القدر إذ أخذتها رجفة الزلازل ، فلم ينبج أحد من أهلها ، ويبكي أسامة قومه ، ويندب أقرباه في شعره :

حيّا ربوعك من ربّا ومنازل ساري الفمام بكلّ هامٍ هامٍ
وسقتك يادار الهوى بعد النوى وطغى تسفح بالهتون الهائل
أبكىك أم أبكى زمانى فيك أم أهليك أم شرح الشباب الراحل
درست منازلهم ، وأوحش منهم مانوس أنديّة وعزّ محافل
وها لهم ميسن عالم ومعالم وممنعات عقائل ومعافل
ذهبوا ذهب الأمس مامين مخبر عنهم ، وزالوا كالظلال الزائل
وبقيت بعدتهم حليف كآبة مستورة بتجمل ونحاسل
سعيدوا براحتهم وها أنا بعدهم في شقوة تضني ، وهم داخل (١)

وقف الشاعر على ربوع شيزر ، وتأمل مصيرها ، وتذكر طفولته وشبابه الراحل ، فبكاه بكاء مرّاً ، ولم يكتف بهذه القصيدة وإنما تحدث في قصيدة أخرى عن الحدث نفسه قائلاً :

ما استدرج الموت قومي في هلاكهم ولا تخرمهم (٢) مثني ووجدانا
ما روا جميعاً كرجع الطرف وانقرضوا هل ، ما ترى ، تارك للعين إنسانا
لم تترك الموت منهم من يخبرني عنهم فيوضح ما لاقوه تبياناً
هذي قصورهم أمست قبورهم كذلك كانوا بها من قبل سكانا
ويح الزلازل ، افنت معنري فإذا ذكرتهم خلتني في القوم سكرانا
أخبت على معنري الأدين فاصطلمت (٣) منهم كهولا وتباناً وولدانا
لم يحصهم حصنهم منها ولا رهبت بأساً تناذره (٤) الأقران أزمانا
بشو أبني ، وبنو عمي ، دمي دمهم وإن أروني مناواة وشاننا
يطيب النفس عنهم أنهم رحلوا وخلفوني على الآثار عجلانا (٥)

(١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥

(٢) تخرمهم : استأصلهم .

(٣) اصطلمته : استأصله .

(٤) تناذره الأقران : خوف بعضهم بعضاً منه وأنذره .

الادب في بلاد الشام - ١٦

(٥) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٣٠٧ - ٣٠٩

أقام أسامة في دمشق فقرّبه معين الدين أنر ، واعتمد عليه في إدارة دفة الملك ، فأحبّه الناس ، ونجح في سياسته ، ولكن هذا النجاح أكثر من حساده ومنافسيه ، فكثر الوشايات من حوله لإقصاء الشاعر عن معين الدين ، بيد أنه لم يسمع إليهم ، فاعترف الشاعر بجميله ، وعرض بذلك في مدحه :

معين الدين، كم لك طوق منّ بجيدي مثل أطواق الحمام
تعبدني لك الإحسان طوعاً وفي الإحسان رقاً للكرام
فصار إلى مودتك انتسابي على أني العظامي العظامي
الم تعلم بأنني لانتماي إليك رمى سوادي كل رام (١)
والولا أنت لم يصحب شماسي لقسم دون إعداء الحسام (٢)
ولكن خفت من نار الأعادي عليك فكنت إطفاء الزرام (٣)

حدثت الوفيعة بينهما ، وارتحل الشاعر إلى القاهرة ، وبخاصة بعد أن رأى حاكم دمشق بتصل بالفرنجة ليسالمهم خوفاً من نور الدين .

وصف أسامة هذه الحال خير وصف في قصيدة بعث بها إلى معين الدين بعد ارتحاله ، وصور فيها الدسائس والمؤامرات التي كانت تحاك حوله من قبل الساسة في دمشق ، وأعرب له فيها عن نصحه لمكانته من نفسه :

بلغ أميرى معين الدين مألكة (٤) من نازح الدار لكن ودّه أسم
هل في القضية يامن فضل دولته وعدل سيرته بين الورى علم
تضيّع واجب حقى بعدما شهدت به النصيحة والإخلاص والخدم
وما ظننتك تنسى حق معرفتي إن المعارف في أهل النهي ذمم
ولا اعتقدت الذي بينى وبينك من ودّ وإن أجلب الأعداء ينصرم
لكن ثقاتك ما زالوا بغشهم حتى استوت عندك الأنوار والأظلم
والله ما نصحوا لما استشرنهم وكلّهم ذو هوى في الرأي منهم
كم حرّفوا من مقال في سفارتهم وكم سعوا بفساد، ضلّ سعيهم

(١) سوادي : شخفي .

(٢) أصحب : انقاد .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٤) مألكة : رسالة ، والامم : القرب .

هَبْنَا جَنِينًا ذَنْبًا لَا يَكْفُرُ هَا عَذْرًا، فَمَاذَا جَنَى الْأَطْفَالُ وَالْحَرَمُ
الْقَبِيحُ فِي يَدِ الْإِفْرَنْجِ مُتَبَعًا رِضَا عَدَا يَسْخَطُ الرَّحْمَنُ فَعَبَهُمْ
هَلْ فَعَبَهُمْ رَجُلٌ يَفْنَى غَنَائِي إِذَا جَلَا الْحَوَادِثُ حَدُّ السِّيفِ وَالْفَنَمُ
وَلَسْنَا أَسَى عَلَى التَّرْحَالِ مِنْ بَلَدٍ شَهَبُ الْبَزَاةِ سَوَاءٌ فِيهِ وَالرَّخْمُ (١)

مهما يكن من أمر دمشق والمنسلطين عليها من بنى الصوفي ، فقد وصل
القاهرة في جمادى الثانية سنة ٥٣٩ هـ . وبصحبه والدته وزوجه وأخوه
محمد ، فأكرم الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله وفادته ، وجباه بإقطاع
سنى ، أتاح له الحبة الهنيئة على خير ما تكون :

نلتُ في مصر كلَّ ما يرتحى إلّا ملّ من رفعةٍ ومالٍ وجاهٍ
فاستردت ما خولتني ، وما أسدّ رعَ نقضِ الأمور عند التناهى
كنتُ فيها ، كائنٍ في منامٍ زال منه ما سرّ عند انتباهي (٢)

ابتعد أسامة في مصر عن كل الخلافات المستحكمة بين الخلفاء والوزراء،
ورأى بشاقب بصره أن يتعد عن كل نشاط مؤبد كان أو معارضاً .
انقضت أيام الخليفة الحافظ ، وهو راض بالركون إلى هذه الراحة بعد
الذي حدث له في دمشق من قبل .

ذكرت بعض المصادر القديمة انه اشترك في التآمر على الخليفة الجديد
الظافر بالله ، وانتهى الامر بقتل الخليفة المذكور ووزيره العادل بن السلار .
وهو ابن خلكان قد كر أن قدوم أسامة كان في عهد الخليفة المذكور (٣)
وانه هو الذى أحسن إليه ، فقابله بالتآمر عليه وقد وضّح هذا الموضوع في
معرض حديثه عن المحنة المذكورة .

ساعت الأحداث السياسية في مصر ، وكان يحسب انه سيجد فيها
راحة باله بعد ما شهدته في بلاد الشام ، لكنه رأى الصراع في القصر الفاطمي
على أسنده بين الخلفاء والوزراء ، وحتى بين الوزراء أنفسهم ، ونضيق الدنيا
في وجهه بعد أن شهد المآسى ، فالخليفة يقتل بيد عباس الصنهاجي ، ويقوم
حلائع بن رزيق فينتقم من القاتل ، وهكذا يستمر بحران هذا الصراع

(١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ١٤٦ - ١٤٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٣ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٦٣ .

السياسي ويحس الشاعر من خلاله باليأس فينشد :

هب أن مصر جنان الخلد ما اشتهدت له فوس^(١) فيها من اللذات موجود^(٢)
 ماذا انتقامي إذا كانت زخارفها موجودة^(٣) ، وحبيب النفس مفقود^(٤)
 وما الحياة لمن بانت أحبته رضا^(٥) ، ولا هو في الأحياء معدود^(٦)
 يأسى الشاعر على حاله وهو بعيد عن بلده ، ويتذكر أحبته ، ويتشوق
 إلى أوطانه وأوطاره :

يا مصر ، مآدرت في وهمي ولا خلدي ولا أجالتك خلواتي بأفكاري
 ما أنت أول أرض مس^(٧) تربتها جسمي ، ولا فيك أوطاني وأوطاري
 لكن إذا حمت الأقدار كان لها قوى^(٨) تؤلف بين الماء والنار^(٩)
 تقلبت به الدنيا ، وأرته من فنونها ألوانا^(١٠) ، فكانت له في حياته
 عظات وتجارب :

خمسون من عمري مضت لم^(١١) أعظم فيها كاني كنت^(١٢) عنها غائبا
 واثت علي بمصر عشر^(١٣) بعدها كانت عظات^(١٤) كلها وتجاربها
 شاهدت من لعب الزمان بأهله وتقلب الدنيا الرقوب عجائبا^(١٥)

تحدث أسامة عما شهده في مصر من الحوادث المفجعة التي حدثت في
 البلاط الفاطمي في كتابه الاعتبار^(١٦) ، ويظهر أن جفوة حدثت بينه وبين القصر ،
 إذ كان مطلقاً على كل ما جرى من اغتيال الوزير العادل ابن السلار بيد حفيد
 زوجته نصر بن العباس ، واغتيال الخليفة سرّاً بعد ذلك ، فأزمر أمره على
 الفرار من القاهرة ، وهرب منها ، ولم يكذب يبلغ دمشق إلا بشق النفس بعد
 أن تعرض له الصليبيون مراراً .

خلف أسامة وراءه صداقات متينة ، كانت تربطه بالعظماء من رجال
 الفكر والسياسة هناك ، وستفدو في المستقبل صلة وصل بين حكام مصر

(١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٦٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٥ .

(٤) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٨ .

والشام ، وكانت بحق مظهراً من مظاهر الوحدة العربية المرتقبة لتطهير الارض المقدسة .

تواردت عليه بعد رحيله رسائل الملك الصالح طلائع ، تبرئه من دم الخليفة الظاهر ، وتحدث عن غدر وزيره عباس ، وتندد بالجريمة التنعاء التي اقتردها (١) ،

كان هذا الوزير بحب اسامة ، فطلب اليه أن يعود ، ورغبه في ذاك ليقطعه أسوان ، ويتقوى به على محاربة الحبشة ، فلما بعث ، إليه يطلب منه تسيير أهله وأولاده كتب إليه يقول في جوابه : ترجع إلى مصر ، وأنت تعرف ما بيني وبينك ، وإن كنت مستوحشاً من أهل القصر ، فتصل إلى مكة ، وأنفذ لك كتاباً بتسليم مدينة أسوان إليك ، وأمدك بما تقوى به على محاربة الحبشة ، وأسير إليك أهلك وأولادك (٢) .

لم يرض بما عرض عليه وإنما ألح عليه ليسبر إليه أهله وأولاده فأرسلوا ، لكن السفينة التي أفلتهم أصابها عطب عند نهر عكا ، فوقت بيد الفرنجة ، فأخذوا كل ما فيها من أموال ، وكان مما أخذوه مكتبته الخاصة التي تحتوي على أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة ، ولم يأس على شيء مثل فقد مكتبته ، فقد قال : « إن ذهابها حزاة في قلبي ما عشت (٣) » .

أصبح الشاعر بعد هذه النكبة بحاجة ماسة إلى المال ، فكتب إلى صديقه الوزير طلائع يخبره بما حل به :

يا اخا البید والسرى ، واخي الدبر ، إذا عقتى أخ ونسيب
أنا أشكى إليك دهرًا لحا عو دي ، وأعراه ، فهو يسر سلبب
وخطوباً رمى بها حادث الدهر رسوا دي وكلهن مصيب
أذهبت بالدي وطارفي الطا ري فضاغ الموروث والمكسوب
فهو شغلران بين مصر وبحر ذا غريق فيء ، وذا منهوب (٤)
أسولى نور الدين على دمشق سنة ٥٤٩ هـ - وهو عام عودته من مصر ،

(١) ديوان أسامة بن مقعد ، ص ١١٣ .

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار : ص ٣٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٥ .

(٤) ديوان أسامة بن مقعد ، ص ١٦٣ .

ويظهر أن علاقته به على غير ما يرام ، إذ كان من أعوان الأسرة الحاكمة التركية السابقة ، وكان نورالدين نفسه ورعاً زاهداً لا يبتهج بالمديح لما علم من تزايد التسعراء (١) ، والناس مثله قد زهدوا له حتى غدت أيامه مثل شهر الصوم ، ليس فيها إلا الجوع والعطش :

أميرنا زاهد والناس قد زهدوا له ، فكل على الطاعات منكمش
أيامه ، مثل شهر الصوم ، طاهرة من المعاصي وفيها الجوع والعطش (٢)

نيف الشاعر على السبعين من عمره وغدا غير قادر على غزو الفرنجة ، ولكنه مع ذلك كان يتحامل على نفسه أحياناً ، وقد ذكر أنه ركب مع نور الدين ، واشترك معه في حصار قلعة حارم ، ويظهر أنها آخر مرة يشترك فيها بحرب ، صور أسامة حاله في هذا العام ، فقال :

لم تترك السبعون في إقبالها متى سوى ما لا عليه منعول
حتى إذا ما عامها عني انقضى ووطئ في العام الذي يستقبل
حطمت قواي ، وأوهنت من نهضتي وكذا بمن طلب السلامة تفعل
كم قد شهدت من الحروب ، فليتني في بعضها من قبل نكسي أقتل
والقتل أحسن بالفتى من قبل أن يلى ، وبفنيه الزمان ، وأجمل
وابيك ما أحجمت عن خوض الردى في الحرب ، يشهد إلى بذالك المنصل (٣)
وإذا قضاء الله أخرني إلى أجلي الوقت لى فماذا أعمل ؟ (٤)

سئم أسامة الحياة في دمشق لأن التقاليد الرسمية ، والواجبات المربعة تتطلب منه خدمة الملك والمشاركة في الحياة السياسية ، فغادرها متوجهاً إلى حصن كيفا ، وهو المكان الذي اختاره ليعتزل الناس ، وبكرس فيه نفسه ووقته للبحث والتأليف . أنجز بعض التصانيف التي أرخ فيها الحوادث المفجعة التي مرت عليه في حياته الحافلة بالآثر والبطولات ، فكانت عظات كلها وتجارب .

(١) أبو شامة : الروضين ، ج ١ ص ٢٢٩ .

(٢) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ١٥٨ .

(٣) المنصل : السيف .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

نعتقد أن الأمر على خلاف ما صورته الأقدمون ، وأغلب الظن أن هذه العزلة كانت لدوافع سياسية سببها خلافه مع نورالدين ، إذ لم يقبل وساطته للتفاهم مع الفاطميين الذين عرضوا عليه خطة موحدة بين مصر والشام لإنقاذ بيب المقدس ، فما أفلحت سفارته . كانت الرسائل الشعرية المبادلة بينه وبين الوزير الفاطمي طلائع صورة عن هذه الاتصالات غير المباشرة ، وسوف نعرض لهذا الأمر في حديثنا المقبل عن أغراض شعره .

مر على الشاعر حين من الدهر . وهو مقم في هذا البلد البعيد الذي آثره على دمشق ، حتى إذا دال دولة الزنكيين . وقامت دولة الأيوبيين ، وأصبح على رأسها الناصر يوسف صديقه القديم في ديوان نور الدين ، وأبناءه وقد ابتهج بهذا الحدث ، وقطع عزلته بعد أن جاوز الثمانين عندما استدعاه ، فعاد إلى دمشق ، وأكرم غاية الإكرام ، وأقطع داراً ، وأغدق عليه العطاء ، فحمد على طول عمره المتسبب لأنه لقي الصديق الحبيب :

حَمَدْتُ عَلَى طَوْلِ عَمْرِى الْمَشِيبَا وَإِنْ كُنْتُ أَكْثَرْتُ فِيهَا الذُّثُوبَا

لَأَنِّى حَيَّيْتُ إِلَى أَنْ تَلْقَيْتَنِي بَعْدَ الْعُدُوِّ صَدِيقاً حَبِيباً (١)

قربه الصديق الحبيب صلاح الدين من مجالسه ، واستمع إليه ينشده شعره ، واحتفظ بدوانه معه في أسفاره ، إذ هو معجب به كثيراً ، كان يستنصره في أموره ، ويكاتبه في غزوانه ، وبصف له وقائع مع الفرنجة ، كما كان ابنه عضد الدولة مرهف أنبراً لديه ، اتخذته أنيسه وجليسه .

بلغ من العمر عتياً ، ففقوس ظهره (٢) ، ودب على العصا (٣) بعد أن تخطته السبعون ، ورزقه الله ابنة على الكبر ، سماها أم فروة ، ففكر في حالها ومصرها بعد موته ، وأسبى لها ، إذ خاف عليها من البتم بعده ، لكنه أودعها ربه الكريم :

أَفْكَرْتُ فِي فَرِيَّةٍ مَا تَلَا قَسَى مِنْ الدُّنْيَا فَتَفْشَانِي الْهَمُومُ

وَنَصَبْتُ زَفَرْتِي أَسْفَاً لِعِلْمِي بِمَا بَلَقَى مِنَ الْبُؤْسِ التَّسَمُّ

وَقَدْ أَوْدَعْتُهَا رَبّاً كَرِماً وَمَا بَنَى وَدِيعَهُ الْكَرِيمُ (٤)

(١) أبو سادة : الروضى ، ج ١ ص ٢٦٤ ، والبيهان غير موحدين في الديوان

(٢) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٢٦٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٧٣ .

بيد أن الهموم بدأت تساوره من جديد بعد أن ساور الضعف أركانه ،
فراها وقد كبرت ، غير أنها لا تنفك كاسفة البال ذليلة ، تمرى أحزان أبيها
ودموعه ، فيتساءل عن مصيرها المظلم :

لما نخطتني السبعون معرضة وساور الضعف بعد الأيدى أركاني
وإذ خللت كان في شكري وفي صفى واسترجع الدهر ما قد كان أعطاني
رزقت فروة والسبعون تخبرها أن سوف تيمم عن قرب وتنعاني
وهي الضعيفة ما تنفك كاسفة ذليلة ، تمرى دمعي وأحزاني
ما كان ، عما ستلقاه وعن جزعى لما ستلقاه ، أغناها وأغنائي (١)

هكذا تخطته الثمانون ، وتلتها التسعون فشكا الكبر والشيخوخة ،
وتمنى الموت ، فقضى نحبها في الثالث والعشرين من رمضان سنة ٥٨٤ هـ ،
ودفن في سفح جبل قاسيون بدمشق على جانب يزيد الشمالي (٢) أحمد
فروع بردى .

(٢)

آثاره الأدبية

خلف أسامة آثاراً أدبية هامة ، نذكر منها كتاب « الاعتبار » ، وفيه
يصور بأمانة ودقة الحياة السياسية والاجتماعية التي عاصرها ، وأورد فيها
ما جرى له في حياته الخاصة الحافلة بضروب الشجاعة والفروسية .
أشار الدكتور شوقي ضيف إلى أهمية هذا الكتاب في معرض الترجمة
الشخصية ، وذكر أنه « مذكرات بديعة ، تصور لنا الفروسية العربية زمن
الصليبيين ، كما تصور حياة المسلمين لعصره ، وحياة الصليبيين أنفسهم »
(٣) . ويختم حديثه عن الكتاب المذكور قائلاً : إنه « فرصة لما يحوي من
مذكرات سياسية وحربية واجتماعية عن عصره ، وهي مذكرات نفيسة ،
ويزيد في نفاستها أن أكثر ما دون بها مما خبره بنفسه وشاهده بعينه (٤) » .

(١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٢٧٤ .

(٢) ابن خلكان : وفیات الاعيان ، ج ١ ص ٦٣ ، وياقوت : إرشاد الأريب ، ج ٣ ص ١٧٣ ،

وأبو شامة : الروضين ، ج ١ ص ٢٦٤ .

(٣) شوقي ضيف : الترجمة الشخصية ، ص ٩٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

ومن آثاره المطبوعة أيضاً كتابه « العصا (١) » ، وقد ذكر في مقدمته أنه فقد كتاباً يدور موضوعه حول ما فيل في العصا ، فأراد أن يضع كتاباً يضمه ما جمعه في الموضوع المذكور . ومنها أيضاً كتاب « لباب الآداب » ، وكتاب « المنازل والدبار » . وقد ذكر في مقدمته قوله : « دعاني إلى جمع هذا الكتاب ما نال بلادي وأوطاني من الخراب ، فإن الزمان جر عليها ذيله ، وصرف إلى تعفيتها دولة وحيله ، فأصبحت كأن لم نغن بالأمس من حشر العرصات ، قد دثر عمرانها وهلك سكانها ، فعادت مغانيها رسوماً ، والمسرات بها حشرات وهموماً ، ولقد وقفت عليها بعد ما أصابها من الزلازل ما أصابها ، وهي أول أرض مس جلدي ترابها ، فما عرفت داري ، ولا دور والدي وأخوتي ، ولا دور أعمامي وبني عمي وأسرتي ، فبهت متحيراً مستعيذاً بالله من عظيم بلائه وانتزاع ما خوله من نعمائه » (٢) .

أما في ديوان شعره فقد جمعه وصنفه خلال حياته بعد تجاوزه السبعين من عمره ، وتناقلته المحافل الأدبية ، فذكر ابن خلكان أن ديوان شعره منتشر في أيدي الناس وهو في مجلدين (٣) .

وصف العماد الكاتب ليلة كان فيها عند صلاح الدين ، وكان يذكر جماعة من شعراء هذا العصر ، ورأى عنده ديوانه « وهو به مشغوف ، وخاطره على تأمله موقوف ، وإلى استحسانه مصروف ، وقد استحسن قصيدة له طائية ، لو عاش الطائيان لأقرا بفضلها ، وأن خواطر المتكرين لتقصر عن مثلها ، على أن الشعراء المحدثين ما منهم إلا من نظم على رويها ووزنها ، واستمد خصب خاطره من مزنها » (٤) .

صنف الشاعر ديوانه بحسب الأغراض الشعرية المعروفة في خمسة أبواب : الفزل ، فالوصف ، فالمدح ، فالأدب ، فالرثاء . وختمها بمسمطات من شعره .

(١) نشر هذا الكتاب كاملاً في الدراسة التي قام بها المستشرق « درنبرغ » عن حياة أسامة .

(٢) أسامة بن منقذ : المنازل والدبار ، ص ١٠ - ١١ . طبع أخيراً في روسيا ، وهي ينشره ووضع فهرسه المستشرق الروسي أنس خالدوف .

(٣) ابن خلكان : وفیات الاميان ، ج ١ ص ٦٣ .

(٤) أبو نامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٤٧ .

إن مما يؤخذ على هذا التصنيف أن الشاعر اضطر لتجزئة القصيدة الواحدة ، وإيراد كل جزء منها في أحد الأبواب المذكورة .

يضاف أخيراً إلى آثاره الأدبية كتابه (البديع في نقد الشعر) ، وقد جاء في مقدمته قوله : « هذا كتاب جمعت فيه ما تفرّق في كتب العلماء المتقدمين المصنفة في نقد الشعر ، وذكر محاسنه وعيوبه ، فلهم الابتداء ، ولي فضيلة الاتباع » (١) .

اعتمد المؤلف في تصنيفه على كتاب (البديع) لابن المعتز ، وكتاب (الحالي) للحاتمي ، وكتاب (المحاضرة) للحاتمي ، وكتاب (الصناعتين) للعسكري ، وكتاب (اللمع) للعجمي ، وكتاب (العمدة) لابن رشيق . يستعمل هذا المؤلف على خمسة وتسعين باباً ، أولها باب التجنيس المفاير ، وختامها باب التهذيب والترتيب .

(١) أسامة بن منقذ : البديع في نقد الشعر ، ص ٨ .

القسم الثاني

شعره ونزبه الفني

يمثل شعر أسامة الدروة التي بلغها الشعر الوجداني المطبوع بالطابع الذاتي في هذا العصر ، إذ استطاع من خلاله أن يعرض لنا صورتين رائعتين : صورة توضح لنا حياته الأسطورية الخاصة ، وتبرز ما فيها من انفعالات وجدانية ، وصورة ثانية توضح لنا الأحداث الكبرى التي مرت فيها .

(١)

أغراض شعره

لن نتحدث عن كل أغراضه الشعرية ، وإنما سنعرض أبرزها ، وبخاصة منها تلك التي تصور حياته وعصره .

شعره الذاتي

نتدرج مع الشاعر في مراحل حياته ، فنراه شجاعاً يأبى الخسف والضميم ، لأن نفسه لا ترضى صاحباً يرضى اهتضامه :

أُسَامُ خُسْفًا ، نَمَ لَا أَبَى فَلَسْتُ إِذْنُ أُسَامِهِ
هَبْهَاتٍ لَا تَرْضَى الْمَعَا لِي صَاحِبًا يَرْضَى اهْتِضَامَهُ (١)

ويلقى نفسه في المخاطر دون أن يخشى العواقب ، وهو ابن خمس عشرة ، فخوض المعارك ، ويفري بصارمه الهام :

لخمسٍ عِشْرَةَ نَازَلْتُ الْكَمَاةَ إِلَى أَنْ شَبْتُ فِيهَا ، وَخَيْرَ الْخَيْلِ مَا قَرَحَا
بِصَارِمٍ مِنْ رَأَى فِي قَتَامٍ وَغَى أَفْرِي بِهَا الْهَامَ ، ظَنُّ الْبَرْقِ قَدْلَحَا
أَغْدُو لِنَارِ الْوَعَى فِي الْحَرْبِ إِنْ خَمَدَتْ بِالْبَيْضِ فِي الْبَيْضِ وَالْهَامَاتِ مُقْتَدَحَا

(١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ١٤٢ .

فسل كماة الوغى عنى لتعلم كم كرب كُشفت ، وكم ضيق ربى أنفسحا (١)

يُدريج عهد الصبا سريعاً ، وبمر شبابه الغض مرور السحاب ، وبأسى على انامه ، لأنه شغل فيها سعباً وراء المعالي والأمجاد ، فلم بِنمّتع بها كأثرابه ، وإنما ذكرهما وهو في قمة السبعين . وعاد بذكرياته عبر السنين ، بنذب صباه الغابر وتبابه الراحل :

دع مانهى التسيب والسبعون عنه فتر بالك الصبا والتسباب الغض قد درجا واعصص من فتك إخدان الصبا ورعاً ومن جهالة أيام الشباب حجا عذرت إذ جرت في ليل الشباب فهل عذرت وشيئك قد اذكى السرّجا وما اماءت بك الأيام إذ جعلت فودتك درا وكانا قبله سبجا (٢)

ويذكر صباه في مكان آخر من شعره ، ويود لو دام له رويقه ، واستمرت أوقاته :

لله در الصبا لو دام رونقه فما كأفاته في العمر أوقات (٣)

ويذكر أيضاً التسباب ، وتحدث عما عانى فيه من العثار :

وما كنت مقبلاً بالتسباب وهل كان إلا رداء معاراً
ولكننى ساءنى فقد هـ فواهاً له ، أي هم أثاراً
وما ساءنى أن أحال الزمان ليلي نهارة وجهلى وقاراً
ولكن يقولون : عصر الشباب يكون لكل سرور قراراً
وما زلت منذ ترديته كخابط ليل أعانى العثاراً
أكابد دهرأ يشيب الوليد وهما يشب بأحسنأ ناراً
فوجدنى أنى فارقت هـ ولم أبل ما يزعمون اختباراً (٤)

ويتغنى الشاعر وهو في الأربعين بهما معاً ، ويتمثل فكرة الخيام ، فيعد زمن السرور وحده عمره الحقيقي :

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٦٨ .

فالوا : نهته الأربعون عن الصِّبا واخو المشيب يجورُ ثُمَّتْ يهتدي
كم ظلٌّ في ليل الشبابِ فدلتْ وضحُ المشيبِ على الطريقِ الأقصد
واذا عُدَدَتْ سنيَّ ثم نقصتها زمنُ الهموم فتلك ساعة مولدي (١)

يقف الشاعر طويلاً عند السبعين ، فيتحدث من خلالها ، يبدأ منها
ويعود إليها . وكنا أوردنا بعض ما قاله في هذه المرحلة من عمره ، ونعرض
الآن لبعض ما يوضح الصورة التي نتلمسها ، ونرسمها خلال مراحل حياته
عامة . نراه يتحدث عنها حديث حكيم عارفته الأيام ، ووعظته التجارب ،
ثم ينتهي من ذلك ليعظ غيره :

ياشارب الخمر بعد النسيك والدين . وبعد ما تاب عما راب منذ حين
أفسدت دينك والسبعون أفسدت آلا . دنيا فلسن بذي دنيا ولا دين
وإنما أنت قحَّارٌ تكسّر لا برجي لنفع ولا ينعتد في الطين (٢)

ويخاطب ابن السبعين ، وهو يسوف توبته ويماطل ، ويطلب إليه
ألا تخذعه الأمانى ، فقد تحمل أوزار السنين ، وأشرف على الهرم والموت ،
وصوح المرعى ، ولم يبق إلا هشيم تجتويه العين بعد أن ولى زمن الربيع :
ما مع السبعين تسويفٌ فلا يخذعنك الأمل الوأهي الخدوعُ
قد تحملت على ضعفك من ثقل أوزارك ما لا تستطيع
وتفصت عنك أيام الصِّبا وعلا مفرقك الشيب التنيع
نم أفضت مدة الشيب إلى هرم يعقبه الموت الذريع
صوح المرعى ، فماذا ترتجي بعدما صوح مرعاك المريع
هل ترى إلا هشيماً ذاوياً تجتويه العين إن ولى الربيع (٣)

بحسن بنا ، ونحن مع الشاعر في عقد السبعين ، ان تقف على هذا
المرعى الداوي ، فنرى أغصانه الدابلة وأزهاره الميتة ، وأوراقه المتناثرة هنا
وهناك ، فأصبح غير قادر على الركوب والسعي إلى الحرب الأنرجلية خائتاه:

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٨٧ .

رجلاي والسبعون قد أوهنت
وكنْتُ إن ثوب دأعي الوغى
أشقى بالسيف دجى نفعها
أشقى الدياجي مرسل الشهب
أنازل الأقران يترديهم
من قبل ضربى هامهم رعبى
فلم تدع منى الليالي سوى
صبري على اللأواء والخطب
لقى الرزايا رابط الجأش في
أحدانها مجتمع الثوب
ما خانني عزمى ولا عزتي
صبري ، ولا ارتاع لها قلبي (١)

ويعجب الشاعر لما تأتيه به الأيام ، فيضطر إلى حمل العصا والاعتماد عليها :

فرجعت أحمل بعد سبعين العصا فاعجب لما نأتى به الأيام
وإذا الحمام أبى معاجلة الفتى فحياته ، لا تكذب ، حمام (٢)
ويصف عصاه أيضاً ، وقد تحملت عنه ثقله تحمل المتكاه ، لا لأنها
عجزت عنه ، ولكنها تجشمت حمل ما أبقى من أوزار شبابه الراحل :
حملت ثقلها بعد ما شبت العصا فتحملتته تحمل المتكاه
ومشت به مشي الحسير بوقره لا يستقل مقيداً بعشاره
ما آدها ثقلها ، ولكن ثقل ما أبقى الشباب علي من أوزاره
ورجائي معقود بمن أعطى أخا ال سبعين عهداً عتقه من ناره (٣)
وتنبو به عصاه ، وتخونه رجلاه حين يحاول صعود الحزون ، فيمشي
كما يمشي الوجي الوحل ، ويعذر عصاه :

إن ضعفت عن حمل ثقلها رجلي ورأيت عشارها في السهل
أمشي كما يمشي الوجي في الوحل مشي الأسير مثقلاً بالكبل
فللعصا عندي عذر المبلى إن عجزت أو ضعفت عن حملي (٤)
أما ظهره فيتقوس ويفغد كالقوس يمشي وعصاه التي تتقدمه هي
الوتر القائم .

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٧٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٧٢ .

إذا تقوَّسَ ظهرُ المرءِ من كبرِ فعادُ كالقوسِ يمسي والعصا الوترُ
فالموتُ أروحُ آتٍ يستريحُ بهِ والعيشُ فيه له التعذبُ والضررُ (١)
وأما بده فترتجف ، ويضطرب خطه ، ويعود كرة أخرى إلى السبعين
فينشد :

نكَّست في الخلقِ وحطتني ال سبعون لما أنْ علَتْ سُنِّي
وغيَّرت خطي فاضحى كما ترى ، وكم قد غيَّرت مني
والموتُ فيه راحةٌ من أذى ال دُنْيَا ، فما أغفله عني ؟ ! (٢)

خلد الشاعر إلى السكينة في بيته بعد تجاوزه الثمانين ، ولم يستطع
القيام أو النهوض والسير على عصاه ، فيضطر إلى الصلاة قاعداً ، ويتعذر
عليه السجود أيضاً فيشعر من خلال هذه الحال بدنو رحلته الأبدية :

ولمَّا تدعُ مني الثمانونَ مِنَّةٌ كَأَنِّي إِذَا رَمْتُ الْقِيَامَ كَسِيرُ
أَوْدِي صَلَاتِي قَاعِداً ، وسجودُها عليّ ، إِذَا رَمْتُ السَّجُودَ ، عَسِيرُ
وقد أنذرتني هذه الحالُ أَنِّي دَتْتُ رَحْلَةَ مني وحنَ مسيرُ (٣)

أعطانا الشاعر أجمل صورة يبدعها فنان في وصف مراحل حياته :
صباه وشبابه ، وقد مرا مرور السحاب ، ومشيبه الذي كان يتئد في مشيته ،
حتى إذا نيف على التسعين شرع ينتظر بدء رحلته الأبدية .
لم يكن ما ذكرناه كل شيء في حياة الشاعر ، فلقد عرضنا مظاهر منها ،
وسنعرض لمظاهر أخرى تجلّي شعره الذاتي :

تحدث عن الزلازل في شيزر وحماة ، وعن خروجه من مصر فاراً مع
وزير النصارى عباس الصنهاجي الذي اتهم ولده نصر بقتل الخليفة الفاطمي ،
ومما قاله :

فقلْ لمنْ أشمتهُ فراقُنا وسرّه أنْ جارَ دهرُ واعتدى
إنْ سركَ الدهرُ بنا اليومَ فهلْ أمنتْ أنْ يسرَّنا فيكَ غداً (٤)
ووصف حاله وهو بحلب الشهباء ، وقد بلغه نبأ انكسار مركب أسرته

(١) المصدر السابق ، ص ٢٦٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٤ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٥٢٩ .

(٤) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٦٧ .

عند عكا فلم يتمكنوا من الوصول إلى دمشق بأنفسهم إلا بعد أن أعطاهم ملك الفرنج خمسمائة دينار :

إلى الله أشكو قرقة دميت لها جفوني ، واذكت بالهموم فسميري
تمادت إلى أن لاذت النفس بالنسي وطارت بها الأسواق كل مطير
فلما قضى الله اللقاء تعرضت مساءً دهري في طريق سروري (١)

تلك هي صورة حياته ، يتمثل فيها الإباء العربي والعز المنيف والعزيمة
الماضية ، والكفاح المرير ليتبوأ المنزلة السامية التي خلق لها ، وربى من أجلها ،
وقد اتضح لنا ذلك من خلال هذه الأبيات :

إن يحسدوا في السلم من زلتى من العز المنيف
فبما أهين النفس في يوم الوغى بين الصفوف
فلطالما أقدمت إقبـدام الحتوف على الحتوف
بعزيمة أمضى على حد السيف من السيف (٢)

توضح هذه النظرة عند أسامة أن الإنسان لا ينعم بالسلم الحقيقي إلا
إذا أقام صرحه على الكفاح والنضال من أجل حياة أفضل وسلام أشمل .

يبلغ شعره الذاتي الدروة في بعض قصائده الوجدانية ، فالمعروف أن
أمراء بني منقذ توارثوا الشعر كإبراً عن كابر ، وكانوا يتخذونه وسيلة يعبرون
به عن كثير من المشاكل التي كانت تعترضهم . كان والد أسامة شاعراً ، بيد
أنه هجر الشعر بعد تزدهده وإعراضه عن تولي الإمارة ، ولم بمنعه ذلك في بعض
الأحيان من معاتبة أخيه سلطان بعد أن ساءت العلاقات فيما بينهما .

أما أسامة فقد أعرب عن عواطفه تجاه والده في شعره ، نذكر منه
القصيدة التي بعث بها إليه يستأذنه في الرحيل عن شيزر :

يا بن الألى جمع الفجار لبيتهم ما شئتوه من العطاء وفرقوا
أشكو إلى عليكهما ضاق عن كتمانه صدي وما هو ضيق
دعني وقطع الأرض دون معاشر كل علي لغير جرم محقق
قد أفسدوا عيشي على وعيشتهم فانا السقي بهم ، وبني أيضاً شقوا

(١) المصدر السابق ، ص ٨٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١٢ .

فاسمحْ ببعدي عنهمْ برضالكْ لي إن الذي ترضى عليه مؤفّق^(١)
 يرق والده لحاله ، ويأذن له بالرحيل عن شبر حسم للنزاع ، وإشاراً
 لسلامته ، فيلتحق بعماد الدين بالموصل كما مر معنا ، ويطول بعد ذلك بعهده
 ويتشوق إلى أسرته فيكتب إلى أبيه :

لا نفسدن نصيحتي بشقاق وأبيك ما السلوان من أخلاق
 وابلغ تحية نازح قدفت به أيدي النوى في أسحق الأفاق
 فد كان بالشامي يعرف برهة من دهره ، والآن فهو عراقى
 بي لوعتان عليك يضعف عنهما جلدي من الأشواق والإتفاق
 فالشوق أنت به العليم وغالب إلا شفاق مما انتفى ملاق^(٢)

ويجيبه والده بقصيدة . جاء فيها قوله :

تظن اني بعد بعدك باق اجزي عن الأشواق بالأشواق
 أبا المظفر دعوة تشفي الظما مني ، وإن أضحى بها إحراقى
 لم استكن أبدأ لخطب نازل إلا لبعدك ، فهو غير مطاق
 فإذا أطعت الوجد فيك أطاعني قلبي ، ويدي إن عصيت شفاقي
 فإذا ذكرتك خلت أنى شارب ثمل ، سقا من المدامة ساق^(٣)

تظهر العاطفة الوجدانية في قصائده التي بعث بها لابنه مرهف وإخوته
 بهاء الدولة ، وعز الدولة ونجم الدولة وغيرهم .

وصف الأحداث الكبرى

عرف أسامة في حياته الطويلة الحافلة بجلائل الأعمال كبار الأبطال
 المسلمين الذين قاموا بأعباء الحروب الكبرى في هذا العصر لتطهير بلاد الشام
 المحتلة ، وكنا قد أشرنا في وصف حياته إلى التحاقه بخدمة عماد الدين وأبنه
 نور الدين من بعده ، كما شهد شطراً من هذه الأحداث على يد صديقه صلاح

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣١ - ١٣٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

الدين . وطبيعي عند من يعمر قرناً من الزمن إلا قليلاً أن يلم بأهم أحداث عصوره ، فينترك فيها ، ويرسم سياستها بسيفه وقلمه . وفي خضم هذا الصراع ينبعث من أرض الكنانة صوت حبيب ، ويحاول الفاطميون أن يتقربوا من نورالدين ليسهموا معه في حرب الفرنجة وتحرير بيت المقدس .

بدأت الصلات السيئة فيبعث وزير الخليفة الفاطمي الملك الصالح طلائع بن رزيك رسالة شعرية إلى صديقه يذكر فيها وقائعه وسراياه إلى الفرنج ، وتسييره الجيوش ، وأسماء مقدميهما من المصريين الأبطال وهي ملحمة طويلة استهلها بهذا البيت :

أبى الله إلا أن يدين لنا النصر^١ ويخدمنا في ملكنا العز والنصر^٢
اطلع نورالدين على هذه القصيدة ، فأمر أسامة أن يجيب بمعان وقعت الإشارة إليها ، وطلب منه أن يعدد له كل الفتوح التي أفاء بها الله عليه ، واستهلها بقوله :

أبى الله إلا أن يكون لنا الأمر^٣ لتحيا بنا الدنيا ويفتخر العصر^٤
وتخدمنا الأيام فيما ترومه^٥ وينقاد طوعاً في أزمنا الدهر^٦
وتخضع أعناق الملوك لعزتنا^٧ ويرهبها منا على بعدنا الذكر^٨
بطاعتنا الله أصبح طوعنا ال^٩ أنام^{١٠} ، فما يعصى لنا فيهم أمر^{١١}
وما في ملوك المسلمين مجاهد^{١٢} سوانا^{١٣} ، فما يثنيه حر ولا قر^{١٤}
جعلنا الجهاد همنا واشتغالنا^{١٥} ولم يلهنا عنه السماع ولا الخمر^{١٦}
دماء العدا أشهى من الرّاح عندنا^{١٧} ووقع المواضي فيهم الناي والوتر^{١٨}
بنا أيّد الإسلام^{١٩} وازداد عزّة^{٢٠} وذلّ لنا من بعد عزته الكفر^{٢١}

ويشرع أسامة بعد خمسة وعشرين بيتاً من مقدمته الضافية ، فيشيد بالفتوح الكثيرة : ويهدد البلاد التي تم تحريرها على يد نورالدين . ونحدث عن ملوك الفرنجة الذين قتلهم أو أسرهم أو هزمهم . وينتهي من كل هذا العرض لذكر الأمل العظيم الذي يرقبه المسلمون ، وهو استعادة البيت المقدس والصخرة المشرفة :

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

ونرجعُ القدسَ المطهرَ منهمُ ويتلى بإذنِ الله في الصخرةِ الذكرُ (١)
ويستطرد بعد ذلك ليشيد بفضائل مولاه التي نعم بها أهل الشام ، من
رد أملاكهم إليهم ووضع المكوس عنهم ، فيقول :

بنا استرجعُ اللهُ البلادَ وأمنَ الـ هبادَ ، فلا خوفٌ عليهم ولا قهرُ
رددنا على أهل الشام رباعهمُ وأملاكهم فانزاح عنهم بها الفقرُ
فنالهمُ من عودها الخيرُ والفنى كما نالنا من ردها الأجرُ والشكرُ
ونحنُ وضعنا المكسَ عن كل بلدةٍ فأصبح مسروراً بمتجره السفرُ
واصبحت الآفاقُ من عدلنا حمىً فكدرَ قطاها لا يروّعها صقرُ (٢)

ينتهي أخيراً لبشير إلى موقف ملوك المسلمين ، ويندد بإحجامهم
وترددهم ، ويستطرد من كل ذلك لصف لنا زهد نور الدين وإعراضه عن
عرض الدنيا :

فكيف تسامنا الملوكةُ إلى العلا وعزَمهمُ سرَ ، ووقعائنا جهرُ
وإن وعدوا بالفزورِ نظماً فهذه رؤوسُ أعادهمُ بأسيا فثنا
وما قولنا عن حاجةٍ بل يسوؤنا إذا لم يكن في غزونا لهمُ أجرُ
ما كنا الذي لم تحوه كفُ مالكٍ ولم بعرونا تبه الملوكة ولا الكبرُ
عزفنا عن الدنيا على وجدها بنا فمنها لنا وصلٌ ، ومننا لها هجرُ
فقل للملوكة الأرض : ما الفخر في الذي تعدونه من فعلكم ، بل كذا الفخر (٣)

اختتم أسامة على لسان نور الدين قصيدة القصائد التي أرخت أهم
المعارك في هذا العصر ، وقد نيفت أبياتها على التسعين ، فصورت الأحداث
الكمري في صورة واحدة على لسان بطلها ، وما عرفنا شعراء الأحداث قبله من
نهج هذا النهج كابن القيسرائي وابن منير الطرابلسي وابن قسيبم الحموي
وغيرهم . وجدير بالذكر أن المناسبة التي نظمت فيها القصيدة المذكورة
اقتضت أن يكون أسلوبها على هذا النمط الفريد ، ولو أن الشاعر الخيار لكان
خطابه لصديقه على غير هذا الشكل ، كما سيتضح لنا ذلك من خلال حديثنا

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

عن بواذر الوحدة العربية الكبرى في شعر أسامة الذي بعث به إلى الملك الصالح جواباً عن كتبه المتبادلة فيما بينهما ، وهي بحق ثمرة الأحداث الكبرى في هذا العصر ،

كان الملك الصالح هو الباديء في هذه الدعوة المخططة لتوحيد نسل مصر والشام لطرد الفرنجة من البلاد الإسلامية قاطبة ، وقد جاء في القصيدة التي بعث إلى أسامة قوله :

فقلوا لنور الدين ، لا فلّ حدّه ولا حكمت فيه الليالي الفواشم
تجهّز إلى أرض العدو ولا تهن وتظهر فورا إن مضت منك حارم
بوقت أصاب الأرض ما قد أصابها وحل بها تلك الدّواهي العظام
وقد كان تاريخ الشام وهلكه ومن يحتويه أنه لك عادم
فقم ، واشكر الله الكريم بنهضة إليهم ، فشكل الله للحاق لازم
فنحن على ما قد عهدت نروعهم ونحلف جهداً أننا لا نسالم
وغارنا ليس تفتّر عنهم وليس ينجي القوم منها الهزائم
واسطولنا أضعاف ما كان سائراً إليهم فلا حصن لهم منه عاصم (١)

دعوة صادقة للوحدة يرسلها الوزير الشاعر إلى نور الدين ، ويطلب إليه التجهيز إلى أرض العدو لبدء المعركة الفاصلة ، وشرح له موقف مصر من الفرنجة ، ويخبره أنه لا يسالمهم . وأن الغارات لن تغر عنهم وأن الأسطول المصري تضاعف عدده .

أجابة أسامة عن هذه القصيدة ، فتحدث عن بأسه وشجاعته ، ووصف سراياه التي شرعت تدخل أرض المشركين ، واساطيله التي غزتهم في البحر وانتهى بعد كل هذا ليحدثه عن اليوم الذي يجتمع فيه الملكان المجاهدان تفتتح البلاد المغلوبة على أمرها ، ويقضى على الفرنجة :

وقد شمّر الملكان في الله طالبي رضا ، بعزم لم تعقه اللوائم
بجدة ، هو العضب الحسام وحدّه لعادية الأعداء والكفر حاسم
وقاما ينصر الدين ، والله قائم بنصرهما ، ما دام للسيف قائم
ومادون أن يقنّى الفرنج وتفتتح البلاد سوى أن يمضي العزم عازم (٢)

(١) المصدر السابق ، ص ٢٢٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .

تتوالى الرسائل الشعرية ، ويعرض فيها كلا الجانبين رأيه في حرب الفرنجة ، ففريق يرى الرب ، وآخر بمعجل بدء الحرب. بمثل الملك الصالح إلى أسامة قصيده جاء فيها قوله :

هـلّا بذلت لنا مقالا حين لم تبدل فِعْلا
سارت سرايانا لقصم دُر الشام نعتسف الرمالا
فلو أن نور الدين يجعل فعلنا فيهم مثالا
ويسبر الأجناد جهرا كي ينازلهم نزالا
ويقى لنا ولأهل دُو لته بما قد كان قالا
لرأيت للإفرنج طر سراً في معاقلها اعتقلا
وتجهروا للسمر تحذ والغرب أو قصدوا التمثالا
وإذا أبى إلا اطّرا حيا للنبجة واعتزالا
عدنا بتسليم الأمو ر لحكم خالقينا تعالى (١)

يفهم من هذه القصيدة أن نور الدين أخذ على نفسه العهد بالعمل على شن حرب واحدة نترك فيها جيوش مصر والشام لطرد الفرنجة . ويلاحظ أن الملك الصالح يلح عليه طالباً منه الإسراع بما اتفقا عليه ، وقد أجابه أسامة بقصيدة أخرى أكد فيها هذا العهد ، ومدح نور الدين وأثنى على فضائله ، ومما جاء في جوابه قوله :

يا اشرف الوزراء اخذ لاقاً وأكرمهم قَمَلا
فاسلم لنا حتى ترى لك في بني الدنيا مثالا
واشدّد بديك بود نو ر الدين ، والقي به الرجالا
فهو المحامي عن بلا د الشام جمعاً أن تُذالا (٢)
ومبيد املاك الفرنج وجمعهم حالاً فحالاً
ملك يتيه الدهر والى دنيا بدولته اختيالا
جمّع الخلال الصالحا ت فلم يدع منها خلا

(١) المصدر السابق ، ص ٢١٤ ، ٢١٥

(٢) بدال : نهان

فإذا بدا للناظرين من رأت عيونهم الكمالا
فبقيتم للـمسلمين من حمى ، وللدنيا جمالا (١)

صور لنا أسامة في شعره السياسي أجمل صورة للأحداث السياسية الكبرى المعاصرة ، وكان أميناً فيها كل الأمانة، فبلغ نور الدين رسائل صديقه الوزير طلائع ، وعبر عن شعور مولاه ، فصدق القول ، وأدى الأمانة .
لعلنا نسأل عما أحرزه أسامة من النجاح في هذه السفارة بين مصر والشام ، ومعروف أنها انتهت بالفشل ، وسبب ذلك مرده إلى الخلاف المذهبي بين الخلافتين العباسية والفاطمية .
مهما يكن من أمر هذا وذاك فقد اعتزل الشاعر حياته السياسية ففى ركن قصى من جزيرة ابن عمر في حصن كيفا . ولما توحدت مصر والشام في عهد صديقه صلاح الدين ، قطع عزلته وآب إلى دمشق بعد أن تم تطهير الأرض المقدسة .

(٢)

مذهبه الفثسي

يتضح مما تقدم معنا من شعر أسامة أنه لم يتخذ من مذهب الإبداع في التطبيق والتجسس وغبرهما سبيلاً ، على الرغم من أنه ألف كتاباً فى علم البديع ، وصنف فيه أقوال المتقدمين في نقد الشعر ، وقد أشار ابن أبى الإصبع إلى هذا الكتاب في كتابه « بدائع القرآن » .

نمة ظاهرة هامة في شعر تسترعي انتباهنا ، وهي أنه كان 'يثقف' أسلوبه ، ويعيد النظر في قصائده وتراكيبها لتسلم من كل وهن ولحن . فمن خلال هذه النظرة الخاصة نفسر رغبة أسامة في حذف بعض قصائده دبوانه ، أو الاستغناء عن بعض أبياتها ، فلا غرابة إن رأينا النقاد القدياء يقولون : « وله نظم في الدروة » (٢) :

وعلى الرغم من كل ذلك فهو لا يدعي الكمال لنفسه . ويطلب ممن يطلع عليه أن يستر عيبه :

كلما رددت في شعري النظر بان ذمى الصى فيه وظهر
لبس يرضنى ، ولا يمكنني جحد ما قد شاع منه واشهر

(١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٢٤٣

(٢) الذهبي : سير النبلاء (مصورة) ، ح ١٣ ل ٣٨

فأجبل الفكر في تقليله فإذا قل اختصرت المختصر
وبه ففقر إلى ذي كرم إن رأى ما فيه من عيب ستر^(١)

كما لاحظنا أن الشاعر قد استخدم التضمين بشكل يسترعي الانتباه، ولا سيما ما ورد منه في القصيدتين: الميمية والرائية، أما أولاهما فسبق لنا أن أوردنا بعض أبياتها في مدح معين الدين أنر وهو يعاتبه، وفيها ضمن كثيرا من الفاظ قصيدة المتنبي وتراكيبها وأشطرها في عتاب سيف الدولة، وكان في بعض الأحيان يورد شطرا البيت كاملا، وأما ثانيتهما فهي الرائية^(٢)، وكان يضمها بعض شعر أبي فراس الحمداني. يظهر أن الشاعر كان معجبا بالقصيدتين المذكورتين فأحب تضمين شعره بهما، نوبها بفضلهما، ولعل إعجابه بالشاعرين جعله يقتصر عليهما في أسلوبه المذكور، ولا نعدو الحقيقة إن قلنا إن شخصيته جمعت بين محاسن الشعارين.

نترك التضمين لنوضح فن المسمطات في شعره، وقد أفردته عن أبوابه والحقه بالديوان. ومن الشعراء الذين سمط شعرهم قيس بن ذريح، ومهيار الديلمي وقيس بن الملوح. كما سمط إحدى قصائده، وهي القصيدة الميمية التي عاتب بها معين الدين أنر بعد خروجه من دمشق.

تلك هي حياة أسامة عرضناها من خلال شعره، وهذا شعره وأدبه صورة رائعة عن ذاتيته وعصره، يمثل الأحداث الكبرى، ولو لم يكن لنا من شعره غير الذي ذكرناه لكان في مصاف الشعراء الخالدين. يبدو أن للشاعر إبداعا آخر في غير مجال الشعر فهو أديب كاتب، وكان من أوائل الذين أسهموا في نشوء الترجمة الشخصية في أدبنا العربي. ففي كتابه «الاعتبار» المار ذكره صورة لعصر يكاد يتمثل في شخص، وشخص يكاد يتمثل في عصر.

هذا هو أسامة الشاعر، وهو الأديب الكاتب، وهو الأمير البطيل «فارس الشام»^(٣)، وهو بعد هذا وذاك علم قد من أعلام الشعراء ففي هذا العصر.

(١) ديوان أسامة بن منقذ، ص ١٠

(٢) المصدر السابق، ص ٧٢

(٣) الذهبي: سير النبلاء (صورة)، ج ١٢ ل ٢٨

ابن الساعاتي

(٥٥٣ - ٦٠٤ هـ = ١١٥٩ - ١٢٠٩ م)

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ

حياته وأثاره

(١)

مراحل حياته

في دمنق الفيحاء ، ولد الشاعر أبو الحسن ، بهاء الدين ، على بن محمد بن رستم بن هردوز (١) ، والمعروف بـ « ابن الساعاتي » سنة ٥٥٢ هـ .

ينحدر من سلالة أسرة فارسية ، قدم والده محمد من خراسان ، وكان عارفاً بعلم النجوم وخبيراً بصنع الساعات الفلكية ، فاستخدمه نور الدين في عمل الساعات التي كانت عند باب الجامع الأموي ، فكان له من صنعها الإنعام الوافر (٢) ومن هنا جاء لقبه الساعاتي . افتخر الشاعر بأبيه فقال في إحدى قصائده :

وَرَنْتُ الْخُرَّاسَانِيَّ حُلْمًا وَنَائِلًا فَلَا قَلْبَ الْبَقِيَا ، وَلَا حَرْجَ الصُّنْدُرِ (٣)

اشتهر من بعده أخوه الأكبر رضوان ، وكان ضليعاً في علم الطب والحكمة ، وله فيهما التصانيف الكثيرة ، فاستوزره الملك الفائز ، ومن بعده ابنه الملك المعظم ، وهما ابنا الملك العادل .

(١) ابن سعيد الأندلسي : الفصول الیانة ، ص ١١٨ ، وابن خلکان : وفیات الامیان ، ج ١ ص ٣٦٢ ، وابن أبي أصيبعة : طبقات الاطباء ، ج ٢ ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، وسيط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٢ أخبار سنة ٥٧٩ هـ ، وابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٥ ص ١٣ ، وحاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ٢ ص ٢٤٦ ، ومقدمة ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ١ - ٤٤ ، والزركلی : الاعلام ، ج ٥ ص ١٥٠

(٢) ابن أبي أصيبعة : طبقات الاطباء ، ج ٢ ص ١٨٤

(٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ٢٩٤

أما الشاعر على فقد ذكر عنه ابن سعيد أنه لم ينشأ بدمشق في زمانه أبدع منه صوره (١) ، وكان أبوه على جانب كبير من اليسار ، فانصرف في صباه إلى الفروسية ، وبرع في اللعب بالترد والشطرنج ، ونال حظاً وافراً من الثغافة والأدب . ويظهر أن والده أراد إقصاءه عن هذا الجو العايب الذي كان يعيش فيه ، فزوده بالمال ، وسيره إلى آمد ، وقرأ فيها على الشاعر المشهور البديع الأسطرابي ، وكان يجنح في شعره إلى الفكاهة والمجون . روى ابن سعيد أنه « كان له ألف دينار فجعلها في حب (٢) بيت البديع ولم يفلقه ، فاتفق أن دخل السقاء وحمل الحب ، فوقع على الذهب فأخذه . ونفقه ابن الساعاتي فلم يجده ، فجزع وشكا ذلك للبديع ، فقال البديع ما اشتهر ، لما تضمنه من الإحسان وطريف المقصد » (٣) :

يامنْ إذا غابَ عنى لستْ أنساهُ ومَنْ أَصافيه ودَى حينَ ألقاهُ
إن كان مالك ماء الحبِّ الفه كما علمتْ ، فماء الحبِّ أفناهُ

سعى له استأذه في خلاص هذا المبلغ الذي كان يستعين به في غربته من السقاء . ويظهر أن الصداقة التي كانت تربط بين الشاعر الفلكي البديع الأسطرابي وأبيه بحكم المهنة الواحدة ، جعلته يبعث بابنه إليه ، ولا سيما أنه بالإضافة إلى ذلك شاعر معروف ، ولعله أراد من ذلك أن يجتمع له في تربية ابنه ما يريد ، فيبصره بالعلوم الفلكية التي توارثتها الأسرة وعرفت بها ، ويستمد منه أصول مذهبه الشعري .

عاد الشاعر إلى دمشق بعد أن استكمل ثقافته ، وخالط الكبراء ، ونادم الملوك ، وجالس السلاطين ، وهام فيه الجلة ، فقدم على جميع شعراء عصره ، وأبيح له ضرب طبولهم على عادة أهل المشرق كما يقول ابن سعيد (٤) .

توزعت حياة الشاعر في الدولة الموحدة ، قضى في الشام شطرها الأوفى ، وارتحل إلى مصر فاختمت بها بقية حياته ، وقد مدح خلالها أبرز رجال العصر من سلاطين ووزراء في الشام ومصر .

(١) ابن سعيد : الفصون اليانة ، ص ١١٨

(٢) الحب : الجرة الكبيرة أو الخابية

(٣) ابن سعيد : الفصون اليانة ، ص ١١٩

(٤) المصدر السابق ، ص ١١٨

المرحلة الأولى حياة الشاعر في بلاد الشام

انصل بالسلطين الأيوبيين ، وجل مدحه الشامية خص بها الناصر صلاح الدين ، وابنيه الأفضل صاحب دمشق والظاهر صاحب حلب . وقد استمرت صحبته لصلاح الدين خلال وجوده في بلاد الشام ، فمدحه بقصائد كثيرة ، ورد منها في الديوان ثماني عشرة ، لا خمس عشرة ، كما ذكر الأستاذ أنيس المقدسي في مقدمته (١) .

وجدير بالذكر ان الشاعر كان يرتحل صحبة السلطان أو بتوجه اليه ينشده مدحه في الانتصارات التي كانت تتجدد وتتوالى على يديه في كل حين .

من ذلك ما رواه سبط ابن الجوزي في أخبار سنة ٥٧٩ هـ أن صلاح الدين عاد من آمد ، ووصل عينتاب ، ونزل على تل خالد بعد قتال مرير ، فوفد عليه ابن الساعاتي ، ومدحه بقصيدة تحدث فيها عن انتصاراته ، وحثه على قصد حلب (٢) ، ونبأ له بفتح القدس في وقت قريب ، ومما جاء فيها قوله :

ما بعد لقياك للعافين من امل ملك الملوك وهذي دولة الدؤل
ذر الصّوارم في اغمادها فلقد جلوتها من دماء الهام في خيل (٣)
لولا مساعي صلاح الدين ما صلحت شم الممالك بعد الزيف والميل
فانهض إلى حلب في كل سابقة سروجها قلل تفني عن القل
بكر المعامل فاخطبها مكابرة بكل إلى اصم الكعب معتدل
غارث ، وحققك من جاراتها فشكت ما باله بافتضاضي غير محتفل
وليس يجمع اشتات العلا رجل من ليس يجمع بين القول والعمل
فليعلم القدس ان الفتح منتظر حلوله ، وعلى الآفاق فليطل (٤)

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ١٩ ، ٢٠

(٢) سبط الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ أخبار سنة ٥٧٩ هـ

(٣) جميل الدماء كاللغائف لليوسف ، وقال : يكفيها ذلك اغماد

(٤) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٣٨٢ - ٣٨٤

ويظهر أن الشاعر كان يصحب صلاح الدين عام الفتح القدسي ، وقد وصف لنا في شعره الذين أعجبوا به بعد ما راوه يحقق لهم حلهم المنشود منذ عشرات السنين .

جلتْ عزماتك الفتحَ المبيننا فقد قرئتْ عيونُ المؤمنين
رددتْ أخيدةَ الإسلامِ لما غدا صرفُ القضاء بها ضميننا
وهانَ بك الصليبُ وكان قدماً يعزُّ على العوالي أن يهونا
ومها طبرية إلا هديَّ ترفُّع عن اكفِّ اللامسينا
قضيتْ فريضة الإسلام منها وصدقت الأمانى والظنوننا
نهزُّ معاطفَ القدس ابتهاجاً ونرضي عنك مكة والهجونا
فلو أن الجهاد بطيق نطفأ لنادئك : ادخلوها آميننا
أعدت بها الليالي وهي بيضٌ وقد كانت بها الأيام جونا
فلا عدمَ التمامِ وساكنوه ظبياً تشفى بها الداء الدفيننا
فألميمٌ بالسواحل فهي صورٌ إليك والحق الهام المتونا
فقابُ القدس مسرورٌ ولولا سلك لك لكان مكتئباً حزيننا
أدرت على الفرنج رند تلاقى جموعهم عليك رحي طحونا
ففي بيسان ذاقوا منك بؤساً ربي صفد أتوك مصقديننا
لقد جاءتهم الأحداث جمعاً كأن حروفها كانت كميننا
وخانهم الزمان ولا سلامٌ فلست بمبغض زمننا خؤوننا
لقد جرّدت عزمنا ناصرياً يحدث عن سنه طور سيننا
فكنت كيوسف الصديق حقاً له هوت الكواكب ساجديننا
وإن تك آخرنا ، وخلاك ذمٌ فإن محمداً في الآخرنا (١)

يتوج هذا البطل انتصارانه بفتح بيت المقدس ، ويمدحه الشاعر مشيداً بما حققه للمسلمين من فتح أفر ، وبختتم مدحته معرضاً بالحادثة التي أتت على ماله :

(١) أبو شامة : الرونس ، ج ٢ ص ٨٤ ، وابن واصل : معرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٣٤

ودبران ابن الساعاني ، ج ٢ ص ٤٠٦ - ٤٠٨

أعيًا . وقد عاينتم الآلة العظيمي
وقد ساع فتح القدس في كل منطق
فليت دنى الخطاب شاهد فتحها
حبا مكة الحسنى وثنى ببشر
ومما كان إلا الداء لهما دواؤه
وأصبح نفر الدين جذلان بأسماء
سلوا الساحل المخشى عن سطواته
نجاوزت ما أعياء الجبال مناله
نصبت على الأعداء رأيا وراية
فللحق شمس لا تنفام بباطل
ولاية حال تذخر الشر والنظما
وشاع إلى أن أسمع الأسل الصما
فينسهد أن السهم من يوسف أصمى
وأطرب ذيتك الضريح وما ضمتا
وغير الحمار العنبر لا يعرف الحنما
والسنة الأغمار تؤسغه لثما
فما كان إلا ساحلا صادف اليمنا
فهل يقظة كانت مساعيك أو حلما
بفيدانهم من بعد رفعهم الجزما
وللعدل فيه آية تنسخ الظلما (١)

وبظهر أن الشاعر قد اشترك في هذه المعركة مع صلاح الدين ،
فقد تعرض في قصيدته لحادثة وقعت له ، وهو في طريقه إليه ، فأتت على
كل ماله ، وأصبح معدما ، ومما قاله في القصيدة المذكورة :

فيا كاشف الجلى ويا محيي الهدى وبا قاتل الباوى ، ويا كاسف الغمما
رمتنى الليالي ، والليالي مصيبة فكم لسهام الحزن في كبدي كلثما
وأصبحت من مالي وصبري معدما وفي أي باغي ثروة عدلت قدما
لقد جارت الأقدار في حكمها ولم تزل الأقدار تقهرنا حكما (٢)

ويحتمل أن يكون الشاعر قد فقد ماله قبيل المعركة الأخيرة حينما
التحق بصلاح الدين ، فسلبه الفرنجة ما كان يحمله .

اتصل الشاعر في هذه المرحلة من حياته بأبناء صلاح الدين وبخاصة
منهم ابنه الملك الأفضل نور الدين علي صاحب دة شق ، فمدحه بعدة قصائد
نشير إلى إحداها ، وقد أنشده أياها سنة ٥٨٢ هـ ، جاء فيها قوله :
أصبحت جلق به جنة الخلد سدر وباتت فسيحة الأكناف
إنما أنتم لنا يابني أبوب ركن ثؤمه بالطواف

(١) أبو سامه : الروضتين ، ج ٢ ص ١٠٦ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢

طَلْتُمْ الْعَالَمِينَ أَصْلًا وَفِرْعًا بِقَدِيمٍ مِّنْ مَّجْدِكُمْ أَوْ مُضَافٍ
وَوُجُوهٍ مَخْلُوقَةٍ مِّنْ حَيَاءٍ وَنَفُوسٍ مِّنْ جَوْهَرٍ شَفَافٍ (١)

استمرت صلته به بعد ارتحاله إلى القاهرة ولقائه هناك ، ذلك أن
الملك الأفضل نزع عنه أخوه ملك مصر العزيز ملك دمشق بالانفاق مع
عمه العادل .

لم تقتصر صلة الشاعر في هذه المرحلة على مدح الملوك والأمراء الإيوبيين ،
وإنما تعدتهم إلى كبار الوزراء والقضاة وغيرهم . نذكر منهم صديقه الوزير
الصاحب صفى الدين بن القابض ، وكانت تربطه به صلة متينة ، استمرت
مدى حياته وبعد ارتحاله إلى مصر ، فكان يبعث له بقصائده على البعد ،
نيف عددها على العشرين مدحة ، طبعت بطابع سَامِي في أوصافها كما في
القصيدة التي مدحه بها سنة ٥٨٢ هـ ، وقد وصف بربيع دمشق الناضر :

مَا جِلَّتْ الْفِيحَاءُ إِلَّا جَنَّةٌ فَبُضِّلَهَا وَحَى الْغَمَامُ الْمُنْزَلُ
كَمْ نِعَمٍ لِلْعَيْشِ فِي أَرْجَائِهَا يُفْصِحُ عَنْهَا سَهْلُهَا وَالْجَبَلُ
بِنَفْسِجٍ مِثْلُ الْخُدُودِ قَرَّصَتْ وَبَرَّجَسٍ مَا هُوَ إِلَّا الْمُقْلُ
بَكَى الْحَمَامُ فَالْثَرَى مَهْتَمٌ وَرَقَصَ الدَّوْحُ وَغَثَى الْجَدُولُ (٢)

اكتفينا بهذه الصورة من صور الزيع في هذه القصيدة ، ففيها نفحة
اندلسية ودياجية بحترية ، فهي خير تعبير عن طبيعة جلق الفيحاء .
جحد الشاعر هذه الطبيعة الساحرة ، وكفر بدمشقها ، ونادى
ممدوحه قائلا :

وطني أنت لا دمشق ، وأهلى نعمة منك أصبحت لى أهلا
كنت عونى بحيث لا يجد إلك صفاء الفيا ولا الخليل الخيلا
وانتجانى صرف الزمان فلما جاءنى مقبلا نذاك تولى
فلهذا اعتقدت مدحك فرضا ومدبج الأتار بعدك تقلا (٣)

ونذكر من ممدوحيه أيضاً القاضي الفاضل ، فقد خصه بمدحة

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٣٩٧ .

أنشده إياها لأول مرة يلقاها فيها بمخيم صلاح الدين علي ظاهر آمد سنة ٥٧٩ هـ ، وختمها بوصف سوء حاله في بلاد الشام :

وإني لأبى الضيمَ مِن كل صاحبٍ وأكرهُ قلبي أن يكونَ له خدنا
فإن بَلَدًا لم أقدُ فيه مكرًا نهضتُ فاعملتُ الجديلةَ البندنا (١)
وما شانَ فضلي بين أهلي خمولةٌ وقد بَلَقَتِ آياته الإنسَ والجنا
فإني كمودٍ الهندِ حين بدو حيه وقد عَبَقَتِ أنفاسه السهل والحزنا (٢)
بلغت مدحه التي خصه بها في مدةٍ بسيرةٍ اثنتي عشرة مدحة ، معظمها
كان خلال إقامته في بلاد الشام ، وكان صحبة السلطان . ويظهر من خلالها
أنه وعده بأمر ما ، فكتب إليه يستنجزه وعده : ولزم في هذه القصيدة
أن تكون في قافية كل بيت صفة لون واسمه :

أسلفتني أملاً هو الشمسُ المنيبُ مرةً والرَّمانُ دُجْجَةً سوداءُ
وقضاؤه يقضي بأن المدحة الـ خراء عنها المِنحةُ الخراء (٣)
ساعت أيامه كثيراً في بلاد الشام فلم ينل ما كان يتمناه ، وكثر حساده
وأعداؤه وتآلب عليه إخوانه وخلانه ، فعاش وحيداً لا يجد من أصدقائه من
يقاسمه سراء الحياة وضرأها . ظهر ذلك من خلال القصيدة التي مدح
بها نور الدين ، وجاء فيها قوله :

أبكتني الأيامُ منذُ ضحككتُ لي من نيوبٍ نوابٍ عَضَل
أفسدنْ خلاني فمالي في الـ سراءِ والضراءِ مِن خيلٍ
هيهات يمنحني قواضلهُ مَنْ باتَ يحسدني على فضلي (٤)
نبه شأن الشاعر ، وذاع صيته ، وعرفه القاضى والداني ، لكن
أصحاب السلطان حالوا بينه وبين مبتغاه ، فلم يمهّد إليه بمنصب يرضي
غروره وطموحه ، وعده القاضى الفاضل ، واستنجز منه وعده ، بيد أنه
أخلفه فباء بأذيال الفشل والخسران ، ونكب بالإضافة إلى كل ذلك بماله ،
فشكا إلى السلطان ما حدث له ، ويظهر أنه لم يحصل منه على ما يريد .
ضاقَت بلاد الشام في عينيه ، فأزمع أمره على الانحلال، إلى مصر .

(١) الحديلة : البدن النياق السمة

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٦٤

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٨٨

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٨ ، ٢٩ .

المرحلة الثانية

حياة الشاعر في مصر

اغلب الظن أن الشاعر توجه إلى القاهرة بعد تجاوزه السادسة والثلاثين من عمره ، وذلك سنة ٥٨٩ هـ ، إذ ثبت لدينا أنه كان في بلاد الشام قبل عام واحد ، وشهد توقيع الهدنة مع الإنكليز ، فمدح صلاح الدين في قصيدة منها قوله :

سلّ عنه قلب الإنكثير (١) فإنّ في خفقانه ما شئت من أنبائه
لولاك أمّ البيت غير مدافع وأسأل سيل نداءه في بطحائه
وبكت جفون القدس ثانية دماً لترثم الناقوس في أفنائه (٢)

نمة دليل آخر على صحة ما نذهب إليه خلافاً لراي الأستاذ أنيس المقدسي (٣) فقد ورد في مقدمة القصيدة التي مدح بها القاضي الفاضل بعد عودته من مصر قوله : « وفال يمدحه ، ويذكر قدومه ويعتب على تقصير وجده منه في حقه لأمر كان يجب عليه القيام به ، وذلك في سنة تسع وثمانين وخمسمائة (٤) » .

وصف الشاعر حاله وهو مرتحل عن دمشق بقوله :

ما سرت عن جلق أبغي البديل بها لولا طلابي محلاً في العلاء (٥) قدفا
طول المقام لأهل الفضل منتقصة والمسك لولا النوى ما أدرك الشرفا
لو لم تجرد سيوف الهند ما رهبت والدّر ماجل حتى فارق الصدفا
يلقى الخمول الفتى والفضل ملبسه تالله لو لم يتم البدر ما كسيفا
ذمّ الورى كل محمود وما تبعوا غير الأوائل فيما قيل والسلفا

(١) الانكثير : أي الانكليز

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٤٣ ، وديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٤١١

(٣) مقدمة ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ١٥

(٤) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٢٧

(٥) قدف . وتُقدف : يقال فلانة قدف أي تقاذف بمن يسلكها .

لَتَحْمَدَنَّ لِحَمَلِي الْعَيْسُ عَنْ بَلَدٍ أَبْكِيهِ مَا غَبْتُ عَنْهُ هَائِماً دَنِفَا
فَالْفَيْثُ أُولَا فِرَاقُ الْبَحْرِ مَا حُمِدْتُ لَهُ السَّحَابُ لَمَّا أَنْ بَكَى أَسْفَا (١)

نشعر بخلجات نفس الشاعر من خلال هذه الأبيات ، نفهمها يبرز
ضرورة سفره ، ويصف مسيره عن البلد الذي نشأ فيه ، ولقي منه العقوق
والجحود . ويورد عاملاً آخر ، وهو الخلاف المستحكم بينه وبين الآخرين .

وكان القاضي الفاضل أحد كبار رجال السلطان الذين تعرف عليهم
في بلاد الشام ، وهو الوحيد الذي بيده الأمر والنهي ، فاتجه إليه ومدحه
بقصيدة سنة ٥٨٩ هـ ، وعاتبه على تقصير جده منه في حقه لأمر كان
يجب عليه القيام به ، ومما قاله :

حنائيك يا عبد الرحيم شكاية تهزُّ بعطف الألميَّ الخلاجل
أظما وأنت البحرُ والعام مخضبٌ وأخشى وأنت السيف حتف الفوائل
وأحرمٌ من جدواك حتى شفاعته تعود بطلٍ لا تصوبُ بوابل
وقد أخذت مني السنون وحاجتي مرددة ما بين ماضٍ وقابل
وذوالحزم من يمسي كثير اصطناعه نتيجة أيام الحياة القلائل
تثبت ولا تسمع مقالة كاشح فإنني خليقٌ بالعلل والفواضل (٢)

التقى الشاعر ببعض ممدوحيه الذين عرفهم من قبل في بلاد الشام
أيضاً ، نذكر منهم ملك دمشق الأفضل نور الدين الذي أتخذ القاهرة
مقاماً له بعد أن نزح عنه أخوه العزيز ملك مصر وعمه العادل ملك دمشق ،
ومما قاله الشاعر في مدحه سنة ٥٩٥ هـ يصف حاله :

يا بن الملوك السابقين إلى العلل سبق الجياد إلى المحل الأبعد
أحسنت في الدهر المسيء بأهله وسمحت في الزمن البخيل الأثكد
وكسوتني حلل العلاء وربما عبث الزمان بما كسوت فجدد
فلأمنحك كل باقية إذا نفذ الثُّنَّارُ وجدتها لم تنفذ (٣)

أخلص الشاعر وده للملك الأيوبي العزيز عثمان الذي استقل بملك

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٧٤

(٢) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٣٠

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣٦

مصر بعد وفاذ أبيه صلاح الدين ، وقد مدحه بقصائد كثيرة نيف عددها على خمس ونلابن ، ويظهر أن الشاعر كان يحضر مجالس الملك الخاصة وينادمه على شرا به بين جواريه وغوانيه . يحسن بنا الوقوف على قصيدة أنشده إياها بدبها في مجلس كثير الرياحين والأترج ، وجاء فيها قوله :

وباغٍ كفانا كلّ باغٍ من الأسى وزف لنا بكرّ المنى وهى ناهد
إذ الندّ سحبٌ والسقاة أهلةٌ يدبر سموساً والكؤوس فراقد
وكم عاطلٍ من لذة زانٍ جيده ندى ملكٍ ضنّ الحما وهو جائد
فنى بعوالي سمره وسيوفيه تعزّزُ المعالي أو نهون الشدائد
دجى نقجه يسودّ منه سنا الضحا ونخضرُ من نعماه حتى الجلامد
شربنا لديه التبرّ والتبرّ ذائبٌ على صفحات التبرّ ، والبرجامد
لو أن الفواني أمكنتها تسفوفه لأضحت على اللبّات ، وهى قلائد
وبيضاء حمراء الأسيلين أرسلت ذوائب سودا هنّ عندي أساود
وما هي إلا قبلة من ملاحيةٍ لها بقلوب الزائرين مشاهد
بحيث نمائيل الرياحين عكفٌ لها وأباريق المدام سواجد
فأقسم أما الحسن منها فباهرٌ وأما ضجيع الخود منك فماجد^(١)

تصور هذه المدحة العزبية مجالس ملوك هذا العصر ، كما تشير عزيرية أخرى إلى إغراقه في لذاته ، وإدمانه على شرب الخمر ، ومما قاله .
فاهجر العاذلات وصلاً لأباً م صبوح إلى ليالى القبوق
فالأريب الذي إذا عصى الخا لق لم ينور طاعة المخلوق
ولكم ليلة ركضت إلى الندّ ات فيها ركض الجواد السبوق
ونجوم السماء كالخيل في الحل بة من سابق ومن مسبوق
وتداعى الصباح فالفجر في الأف ق لواء مضمخ بخلق^(٢)
أما صلة الشاعر بوزيره ابن مجاور فقدبمة العهد مد كان في بلاد الشام ، وقد مدحه بإحدى عشرة قصيدة ، نسير منها إلى استين كتب بهما إليه بعد أن تولى إحلال الوثام والسلام بين الأمراء الأبوبيين المتنازعين ، نأفلح في

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ١٠٣

(٢) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٨٢ - ٨٣ .
الأدب في بلاد الشام - ١٨

مسعاه بعد أن بذل قسطاً من ماله لإصلاح ذات البين . ونقف عند مدحة
ثالثة أنشده إياها وهو في بلاد الشام ، واختتمها مصوراً حاله في وطنه ،
وليس فيه سوى فضله غريباً :

وكلّ بات ذات وطن وأهلٍ وليس به سوى فضلي غريباً
ومن يكُ عالماً بالخلق علمي فليس بواجدٍ شيئاً عجيباً (١)
تلك كانت حاله في وطنه ، وأما الآن فقد تغير كل شيء في حياته
فأصبح شاعر البلاط الأيوبي ، وانقلبت حياته نعيماً :

يا حبذا زمنُ الوصالِ الآيبِ وتألفُ الأحبابِ بعد تجانبِ
وتبسمُ الأيامِ بعدُ تجهُمِ وتثبتُ الأحداثُ بعدُ توابِ
عاد الزمانُ كما عهدتُ إلى الرضا وأزالَ بالاعتابِ عتبَ العاتبِ
وصفتُ مواردَ عيشتي وحلتُ بها بعد الترنُّقِ سائفاتُ مشاربي
فركضتُ طيرفَ اللهوِ غيرَ مفكرٍ وسرحتُ في روضِ السرورِ ركائبِ
منِ بعدِ ماضاقِ الشامِ وأزمعتُ مصرأً نجائبُ ذي فؤادٍ واجبِ
وتبرجتُ غيدُ المنى وتأرّجتُ ريحُ الغنى ، وافترّ نفرُ مآربي (٢)

قد نعجب من هذا التغير المفاجيء في حياة الشاعر ، لكنه لا يعجب
من ذلك ، وهو في عتبة الخمسين من عمره ، فيخاطبنا :

لا تعجبن لطالبٍ بلغَ المنى كهلاً وأخفقَ في الشبابِ المقبلِ
فالخمرُ تحكُمُ في العقولِ مسنةً وتداسُ أوّلَ عصرِها بالأرجلِ (٣)

لم يمهلهُ القدرُ ، فسرعان ما نقص عليه سعادته ، وفجعه بأولاده
الثلاثة : مودود وعيسى ومحمود ، في وقت قريب متلاحق ، فندبهم بحزن
وحرقة ، ولم يتأخر عنهم فلحق بهم ، وقضى نحبّه في المحلة الكبرى التي
كان يقطنها بالقرب من القاهرة ، وذلك يوم الخميس الثالث والعشرين من
شهر رمضان سنة ٦٠٤ هـ ، ودفن بسفح جبل المقطم (٤) .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٩٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣٦ .

(٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٤ ، وابن سعيد : الفصول الياضة ، ص ١٢٣ .

(٤) ابن سعيد : الفصول الياضة ، ص ١١٩ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٣٦٢ .

(٢)

آثاره الأدبية

خلف ابن الساعاتي تراثاً شعرياً غزيراً ، فقد عرف عند معاصريه بالشهير المكثّر (١) ، كما ذكر ابن خلكان أن له ديوان شعر بدخل في مجلدين ، أجاد فيه كل الإجادة ، وديواناً آخر لطيفاً ، سماه « مقطعات النيل » (٢) ، بيد أن معاصره ابن سعيد الأندلسي ، وهو الوحيد الذي ترجم للشاعر بالتفصيل ، ونظر في شعره بدقة وإمعان ، يؤكد لنا أنه وقف على ديسوان شعره في أربع مجلدات ، وهو مملوء من المحاسن (٣) ، ويؤكد الذهبي أيضاً أنه بقع في مجلدين ، « وانتخب منه ديواناً صغيراً » (٤) وأغلب الظن أن مقطعات النيل هي هذا الديوان الصغير المشار إليه في قوله السابق .

نعتقد أن ديوانه المطبوع لا يضم كل شعره ، وذلك لأمرين اثنين : أما أولهما فهو أن معظم المدح الموجودة فيه لم يذكر منها غير الاستهلال بالنسيب حتى بيت التخلص ، وأما نائبهما فهو وجود كثير من قصائده في بطون كتب التاريخ مما لا نعر عليه في الديوان ، وقد استدعى هذا الأمر من محقق الديوان أن يلحق به بعض القصائد الأخرى .

(١) ابن سعيد : العيون اليانعة ، ص ١١٩ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٣٦٢ .

(٣) ابن سعيد : النصوص اليانعة ، ص ١١٨ .

(٤) الذهبي : سر السلاء (مصورة) ، ح ١٢ ل ١٠٨ .

القسم الثاني

شعره ومذهب الفتي

(١)

أغراض شعره

تتضح لنا في شعر ابن الساعاتي أغراض عدة ، نذكر في هذه المدرسة أبرزها ، فنعرض لمدحه التي صور بعضها الاحداث الكبرى ، إذ كان خاتم الشعراء الذين أرخوا لها ، ثم نتحدث بعد ذلك عن غزله ووصفه .

مدح وأحداث

كان لا بد للشاعر من سلوك سبيل المدح على سنن معظم الشعراء القدامى في أدبنا العربي ، فهم يعتقدون أنهم وحدهم الذين يخلدون بمدوحهم ذلك أن ما ينالونه تذهب به الأيام والسنون ، وأما المدح فتبقى خالدة تخلد بمدوحها .

تلك هي عقيدة الشاعر أيضا كما لمسناها من خلال مدحه الكثيرة ، وقد رأينا أن كثيرا منها قد اقتصر على مطالع النسيب ، وهذه ظاهرة تسترعى انتباهنا حقاً ، إذ لا نملك الدليل اليقين على الغاية منها ، اللهم إلا إذا اعتقدنا أنها رغبة الشاعر في اختصار ديوانه ، وهو — كما علمنا — مكثّر طويل النفس جداً في قصائده جرياً على سنة ابن الرومي من قبله . ولعلنا نجد في الخلاف حول عدد مجلدات ديوانه بين ابن سعيد وابن خلكان ما يفسر لنا هذه الظاهرة الهامة ويوضحها بعض التوضيح .

مهما يكن من الأمر فالجدير بالذكر أن بعض مدحه كالتي مدح بها صلاح الدين ، صورت لنا نهاية الأحداث الكبرى ، وقد رأينا ذلك في فتح

أمد وحلب الشهباء وطبرية ، بيد أن الشاعر يتميز عن غيره من الشعراء ،
فقد شهد انسنة الفراء التي تحرر فيها بيت المقدس ، فكان له شرف تخليد
هذا الحدث الأغر في الشعر العربي كما رأينا ذلك في حينه .

كما كانت مدحه وسيلة يفتخر فيها بنفسه ، ويشيد بجمال قصائده ،
ويتحدى بها أدياء عصره ، وهذه الظاهرة طبعت شعره بطابعها ، ويندر أن
نجد مناسبة دون أن ينير فيها إلى ذلك .

يعتقد أنه لن يضبره كونه موجوداً في عصر متأخر ما دام قد جاوز
في الإبداع ، كانوا قبله . من ذلك قوله في مدح الملك المظفر تقي
الدين :

ما تساني فربّ الولاد فقد جاوزت في الإحسان من قبلي
هذا خبر الأنبياء غدا وهو السفيح وسيّد الرسل (١)

ويعت به الفرور أحياناً فيخاطب الملك الظافر مظفر الدين الخضر بن
صلاح الدين في قصيدة سيرها إليه ، وكان على حصار دمشق سنة ٥٩٦هـ ،
وقال فيها :

ولست أمير النظم والنثر إن حدثت إلى غيرك الوجناء أو وصل الحبل
كفاهها جلالات أن فكري وليتها وأنتك با نجل الملوك لها بعل
فما كان مثلي « ابن الوليد » وإنما تقدم ميلاد ، ولا مثلك الفضل (٢)

إنه أمير النثر والنظم إذاً ، فاق غيره من شعراء عصره ومن هم قبله
ونرى في مكان آخر أنه يزري على الشاعر الجاهلي لبيد العامري ، وعبيد
ابن الأبرص وغيرهما (٣) .

ويخيل إليه أنه صار ملك المعاني ، كما حلا له أن ينعت نفسه في
القصيدة التي مدح بها الملك المظفر تقي الدين في دمشق سنة ٥٨٠ هـ ،
وقد أنشده إياها في داره :

خلف العزيز الملك يوسف بوسفا وخلفت أنت عزيز مصر يوسف
فالشمس والبدر المنير تلاهما نجم الهدى ، والنجم ليس به خفا

(١) ديوان ابن الساعى ، ج ٢ ص ٢٢ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٠٩ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٨٣ .

فاستجلبها عذراءً أيسرُ خطبها ما عنَّ خطبُ أن تصدَّ وتصدفا
زفَّتْ إلى ملكٍ المعالي زَفَّتْهَا ملكُ المعالي رَقَّةً وتلطُّفاً (١)

ثمة ظاهرة أخرى في مدحه تسترعي انتباهنا ، وهي أن الشاعر
كثير التحدث عن الحساد والحسد ، وهو دائم التشكي من أعدائه الذين
يناصبونه العداء في الشام ومصر على السواء ، ففي الشام تحدث عنهم إلى
صديقه الوزير صفى الدين بن القابض في معرض مدحه يهنئه فيها بحلول عيد
الفطر سنة ٥٨٢ هـ ، ومما جاء في ختامها :

ولست أقول للحساد هجراً كفى الحساد كبتاً ما أقول
إذا طُبعوا على شيءٍ فدعهم فتغييرُ الطبائع مستحيلُ
الوَمأ بعدما قدمت حقوقُ وماتت في القلوب لى الدخولُ (٢)
أعندهم سوائر شاردات لها سفرٌ وليس لها قفولُ
أوالها هي الأسحارُ طيباً وآخرها كما رقت الأصيلُ (٣)

وفي مصر أيضاً تألب عليه الأعداء والحساد ، فتحدث عنهم في القصيدة
التي مدح بها الظاهر مظفر الدين الخضر أحد أبناء صلاح الدين سنة ٥٩٥ هـ
بعد غيابه عنه لأمرها ، وجاء فيها قوله :

غبت وحسبي غيبتني عنك أسيُّ ينجذُ في جوانحي ويتهمُ
تقدمتني عصبيةً لو أنني أطعت فيك الشوق ما تقدموا
ينمقون القول ما غبت فإنَّ حضرتهم يومَ مقالٍ وجموا
فإن نطقت صمتوا وإن بدا ظللُ خفوا ، وإن أضأت أظلموا
فاطوا أحاديثَ القريض يابني الد عوى فما كلُّ طويٍّ (٤) زمزمُ (٥)

وينظم الشاعر قصيدة يفتخر فيها، ويمسح نفسه ويتحدث عن أمجاده
ويذكر آباءه وأجداده ويشيد بخراسانيته قائلا :

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٧٧ .

(٢) الدخول : جمع دخل وهو ما يداخل القلب من فساد أو غدر .

(٣) ديوان ابن الساعى ، ج ٢ ص ٣٠١ .

(٤) الطوي والطوية : البئر المطوية .

(٥) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٢٣

ورثت الخراسانيّ حلمًا ونائلًا فلا فلق البقيا ولا حرج الصدر
ونحن أناس ما انتضينا براعةً لذي فاقةٍ إلا أغرنا على الوفر
وما كان نظم الشعر عادةً مثلنا لمسألةٍ لولا الإرادة للفخر (١)

فهل صدق الشاعر في الإفصاح عن غرضه الحقيقي من نظم الشعر؟
لقد تبين لنا أن جل مدائحه كان لمسألة وفاقه ، بيد أننا لا نبخسه حقه إن
قلنا إن هذه القصيدة وحدها في الدبوان كانت الإرادة للفخر .

طبيعة ووصف

وصف الشاعر مظاهر الطبيعة الساحرة في بلاد الشام وبخاصة منها
متنزهات دمشق وروابيها ورياضها وأنهارها ، كما وصف بروقها ورعودها
وأطوارها .

نشاء الشاعر قبيل خروجه من دمشق أن يودع لحظاته الأخيرة فيها ،
فخرج لنزهة صحبة خلانه ، واجتمعوا على شرب الخمر في يوم جميل ، وفيما
هم كذلك أريدت السماء وأبرقت فانهمرت الأمطار وعكرت عليهم صفوهم ،
وطلب إليه خلال ذلك أن يصف لهم بديهاً هذا المنظر ، فأنشدهم قوله :

لله يوم التَّيرين (٢) ووجهه طلق وثفر التهور تفر أشنب

وكانما فنن الأراكّة منبرٌ وهزارها فوق الذّؤابة يخطب

والرعد يتدو والحي يسقي وغصن البان يرقص والخمائل نشرب

وكانما الساقى يطوف بكأسه بدر الدجى في الكف منه كوكب

بكر بها نقع الغليل ومعجب نقع القليل بجذوة تلهب

ينفضها ماء الغمام ويا له عجباً غداة الدجن وهو لها أب

حمرء حاربنا الصرّوف بصر فيها فزجاجها بدم الهموم مخضب

والفطر نبل والفدير سوابغ موضونة والبرق سيف مذهب (٣)

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٨٨

(٢) التبر : قرية مشهورة بدمشق في وسط البسان ، ذكرها وجيه الدولة بن حمدان

في شعر له ، وسماها التيرين بالثنائية (معجم البلدان ، ج ٥ ص ٣٢٠) .

(٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ١٦٨ ، وابن سعيد : الفصون الياضة : ص

نلاحظ في هذه القصيدة التصنع البديعي مذهب الشاعر الفني ، وهو أحد رواده ، فقد استخدم بكثرة مراعاة النظير . وبخاصة منها في البيت الأخير ، وهو في عرف البلاغيين أن يجمع الشاعر في الكلام بين أمر وما يناسبه كما يسمونه أيضاً التناسب والائتلاف والتوفيق والمؤاخاة والتلفيق (١) .

خلف الشاعر بلاد الشام وراه ، وظن أنه سيسلوها أبداً ، ولكن شوقه إلى مدارج طفولته ومرايع صباه وملاعب شبابه جعله يذكرها كثيراً ، ويندر أن نجد مطلع مدحة يخلو من ذكر منزهات دمنسق وما حولها من رياض وجداول وربا وقرى .

عبر الشاعر خير تعبير عن خلجات قلبه بعد أن افنقد بلاد الشام في القصيدة التي بعث بها إلى الأمير سيف الدين محمد بن تيمرك عند قدومه من دمشق إلى القاهرة رسولا ، وجاء في مستهلها قوله :

أشاقك برق بالشام يسام فدمعك لو يطفى الغليل سجام
نود الحشا إيماضه وهو جذوة وشناقه جفائي وهو حسام
أحبابنا بالفوطتين وجلتق سلام وهل يدني البعيد سلام ؟
ظننتم بنا السلوان لما سلوتم وفي ظنكم بالعاشقين إتمام
لقد قضت الأيام بالبعث عنكم وأخلق عهد منكم وذمام
فلانترجت في الدوح للورد وجنة ولا اهتز من هيف الفصون قوام
تجل صباباتي فأعذر فيكم ويجهل ما بى في الهوى فالام
واو أني غيضت في النيل أدمعي لأصبح ماء النيل وهو حرام
أسائل عنكم والسؤال صباية وأستعذب التذكار وهو غرام (٢)

تبلغ عبقرية الشاعر الوصفية ذروتها الإبداعية في قصيدة فريدة ، قصرها على وصف الليل ، فصوره تصويراً دقيقاً يعجز عن مثله فنان بارع ، إذ استطاع أن يبرز أدق المعاني وأسمائها من خلال أبياتها الفريدة ، ولم يكتف بالوصف المجرد وإنما أضفى عليه نفحة من شعوره الخاص وانفعالاته الوجدانية ، فعبر عن انقباضه ووحشته ، وأرب عن أحاسيسه وتأملاته ، ووصف سهادته وعينيته المؤرقتين .

(١) الدرويني : الايضاح ، ج ١ ص ٤٣ .

(٢) ديوان ابن الساعى ، ج ١ ص ٢٠٤ .

خليليّ ما بال النجوم كأنما أبي الليل أن تسري بأفق كواكبه
 تعظم واطفوغي ، وألقى بعاعه (١) وأقبل كالبحر الذي أنا راكبه
 أهاب عواديه وآمل خوضه وكيف يخوض اليم من هو هائبه
 إذا حلّ ظهر الأرض أولاه أشفقّت غواربها من أن تقلّ غواربه
 فلو أنه أمسى خضاباً لمعشر لسرّ خضيباً أن تشيب ذوائبه
 إذا فلت قد وثت وجازت صدورهُ أطلت علينا كالجبال مناكبه
 أضل بها الأندي اللوامس قصدها من التّمية حتى وقر الدرّ حالبه
 فلو طرقت أمّ الليالي بمثلها لذي حسب ما نظم الجزع ثاقبه
 كم استأذنت عيني على فجر خدره فما رُفع أستاره وهياذبه
 وليس بمرجوّ الصباح وهذه مشارقه مسودة ومفاربهُ
 أرى كل صبغ يصحب الدهر لونه سينصل إلا حنجه وغياهبه
 بفتّه فهابت أن تلمّ طيوفه وتسري وخافت أن تدبّ عقاربهُ
 ولم أر مثل الليل طوداً للاجيء مهالكه حفت بهنّ مطالبه (٢)

تلك هي صورة وصفية عابرة وقفنا حيالها مع الشاعر نتلمس دقائقها، ومعانيها ، ونكتفي منها بما اخترناه ، ونشير أخيراً إلى براعته الوصفية ، فنذكر مثلاً وصفه لعنارى ركه مع صحبه ، وشهد وهو على متنه فيضان النيل ، وقد هاج البحر الملح، والماء العذب كالطراز الأحمر في خضرته لا يختلط ماء أحدهما بالآخر ، على عظم موجهما وشدة الرياح (٣) .

نسيب وغزل

استهل الشاعر قصائده في كثير من مدحه بالنسيب وأهمله في بعضها الآخر ، وقد علل لنا سبب هذا الإهمال في إحدى قصائده التي مرت معنا من قبل في مدح صلاح الدين :

أغنى مديحك عن ذكر النسيب فما وقفتُ فيها على ربع ولا طلل

(١) ألقى بعاعه : أي ألقى كل ما فيه من ثقل .

(٢) ديوان ابن الساعاتي : ج ٢ ص ٣٣٣ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٦٩ .

وكنا أشرنا أيضاً إلى كثير من الملاح التي احتفظ الشاعر منها بمطالع
النسيب ، ووقفت فيها عند بيت التخلّص الذي وشاه باسم الممدوح أو
ببعض كنيته ولقبه المشهور بهما كما يستدعيه الوزن والقافية .

يتصف نسيبه بطول نفسه فيه ، وميله إلى الاستطراد في معظم الأحبان ،
حتى إنه ليلبغ أربعين بيتاً كما في القصيدة التي مدح بها الملك المظفر نقي الدين
عمر سنة ٥٨٥ هـ (١) .

يذهب الشاعر في نسيبه مذهب المعاصرين ، فيشيد بأوصاف الحبيب
الحسية المتداولة لدى المولدين والمتأخرين من الشعراء . كما يصف لنا أحوال
المحب من شدة العشق وجريان المدامع ، وخفقان القلب ، وما إليها من المعاني
المكررة ، بيد أنه يمتاز عنهم بمحاولة التجديد والابتكار في كثير من المعاني التي
طرقها . أحب الناس غزله ، فأنشدوه وغنوه في مجالس أنسهم وشرابهم ،
وقد اختار ابن سعبد الاندلسي بعض مطالع غزله واستهلالات نسيبه ، وذكر
أنها مما يفنى به ، منها قوله في القاضي الفاضل يستهل به مدحته :

لهفي على غصن النقا المتمايل يهتز معتدلاً وليس بعادل
لا يستفيق منازلاً عشاقه بفتور لظن كالفضاء النازل
فشعاره من فارس ونجاره من عامر ، ولحافظه من بابل
يا قلب عاشقه وسهم جفونه من الزم المقتول حب القاتل ؟
يلقاك من لدن النوام برامح ويصول من هدب الجفون بنابل
كالبدر سري في نجوم قلائد وظلام أصداء وسحب غلائل
ما جال دمعى بعد طول جموده إلا على ذاك الوشاح الجائل (٢)

يحسن بنا ما دما في معرض الحديث عن ظلام الأصداء وسحب الغلائل ،
أن ننتقل إلى المجلس العزيزي لنشهد الملك يستحسن قصة الجارية التي
صورت في خدها بالمسك حية وعقربا ، ويستمتع إلى وزيره ابن مجاور ينشده
ثلاثة أبيات في وصفها (٣) ، ويطرب الملك العزيز لها ويأمر من في مجلسه من
الشعراء بالقول فيها ، فأنشده الشاعر ما نظم به بديها :

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٧ .

(٢) ديوان ابن الساعني ، ج ٢ ص ٢١٥ ، وابن سعيد : الفصوص البيانة ، ص ١٢٢ .

(٣) ابن سعيد : الفصوص البيانة ، ص ٢٣ - ٢٤ .

يا ضرة القمرين في شرفيهما من أي شيء منك لم اتعجب
أقبلت مثل الشمس في غسق الدجى وحملت يرقاً ضاحكاً عن كوكب
كتبت بخدتها المواشط فتنة عمت عموم هواك من لم يكتب
ولقد سمعت وما سمعت بكتاب شبناً على صفحات ماء مذهب
وكانما رقم الجمال بكفه وجه الضحا بحريزة من غيب
جاء الكليم بآية من حية وأراك جئت بحية وبغرب (١)

نلمح في الأبيات السابقة صورة حية عن الفزل في هذا العصر ، فهذه
الجارية المعقربة والمنبعثة أنارت قرائع الشعراء ، وسلبت قلوبهم ، وفتقت
أخيلتهم ، فلم يكتف شاعرنا بما قالوه ، وإنما أستخدم قصة موسى الكليم
الذي « القى عصاه فإذا هي نعبان مبين » لكن آفة هذه الجارية أعظم من
آبنة إذ هي نعبان وعقرب معاً .

جرى الشاعر على سنة شعراء ، فتفزل بالعنصر التركيبي في مواضع
كثيرة من شعره (٢) ، نتوقف منها عند قوله :

يا ولادة القلوب والحسن من حكّ م غيد الأجال في الأجال (٣)
كل تركيبة المناسب فيها لح للفزال والرئبال
فدعاني من ذكر هند بني نه لم ولا كنت يا هلال هلال (٤)

وجرى أيضاً على سنة شعراء عصره ، فاعتنق مذهب الخمر ، ووصف
مجالسها - كما رأينا - وصفاً رائعاً ، وما أكثرها في شعره : فمنها التي
شهدها على ضفاف بردى ، ومنها التي شهدها على ضفاف النيل ، في حيزوته
وبرزخه وروضه ، ومنها التي جمعته على مائدة الشراب مع الملوك والأمراء
في السام ومصر السواء .

يلاحظ أن الشاعر تطرق إلى صورة جديدة ومعان مولدة ، مما خلفته
الحروب الصليبية كما في هذه الأبيات من قصيدة قصرها على وصف الطبيعة
وذكر الخمر :

(١) ديوان ابن الساعى ، ح ٢ ص ٦٦ ، واس سعد : الفصول الناعمة ، ص ١٢٩-١٣٠ .

(٢) ديوان ابن الساعى ، ح ٢ ص ٤٨ ، ٩٥ ، ٣٤٧ .

(٣) الأجال الأولى بقر الوحش والثانية هي الأعمار .

(٤) ديوان ابن الساعى ، ح ١ ص ١٨٣ .

قم نديمي فاسفك دم الزق فالأف صان في ماتم من الأطياف
وبكاء الراوق إذ تهقه الإب ريق من حسن نفمة الاوتار
ساجد للصليب منه وما بعد رفق دين الصليب والز تار
وكان الشقا طلت من الد ن دماء الهموم والأفكار
فادل أبيض الأماني من سو د اللبالي إن كنت طالب نار
فرماح الشموع قد شهرت بي ن الندامي أسنة من نار
فاغتنمها حرباً تكون مع اللي ل ، وبنفض جمعها في النهار (١)
جمعت هذه القصيدة بين الطبيعة والخمر من ناحية ، وشخصت كل
ذلك في صورة مأخوذة من الحرب من ناحية أخرى ، وطبعته بطابع نصراني
محض .

أغراض شتى

درسنا أبرز أغراضه الشعرية ، وبقي علينا أن نأتى على ذكر أغراض
شتى ، اقتضها المناسبات العابرة في حياة الشاعر ، فكان يأخذ منها قليلاً أو
كثيراً بحسب الموضوع أو المعنى الذي يريده ، وحسبنا منها هنا أن نقف عند
الهجاء والثناء .

أما الرثاء فإن الشاعر مضطر بحكم الوفاء لممدوحيه أن يذكرهم بعد
موتهم ، وشتان ما بين مديحهم ورثائهم ، فهو قصير النفس ، وكان يميل
إلى المعاني التقليدية فيسطو عليها ، وهذا بجنس بنا للقول إنه كان قصير
الباع فيه بالنسبة لهذا العدد الضخم من مدحه ، حتى إن هؤلاء الذين أطنب
في مدحهم كالملك عبدالعزيز لا نعثر لهم أبداً على مرثيات مؤلفة من أبيات
معدودة (٢) .

نستثنى مما تقدم من المراثي تلك التي خص أمناء الثلاثة ، وقد نظمها
في أواخر حياته ، وكانت خيراً من سابقتها ، فهي تمتاز بطول النفس وصدق
العاطفة وشدة الحسرة .

وأما الهجاء فقد وردت في ديوانه مقطوعات كثيرة ، يعبث فيها ببعض

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) ديوان ابن الساعى ، ج ٢ ص ٣٧٠ .

من يعرفهم ، نذكر منهم السديد ، وهو ذو أنف كبير (١) ، وابن الزرقوق ،
والزرزور (٢) وغيرهم .

وجدير بالذكر أن القاضي السعيد ابن سناء الملك كان له منها النصيب
الأوفى ، إذ خصه بتسع مقطوعات صغيرة (٣) ، وتظهر الخلاف بين الشعراء ،
ونسير إلى أن المنافسة الأدبية كانت على أشدها فيما بينهما .

ذكر ابن الساعاتي في إحدى هذه المقطوعات أن القاضي السعيد عبث
به في غيبته ، فبعث إليه بقول : « أما لو حضرت لأدب جنتك » (٤) ويبدى
له أنه يربأ بنفسه أن يسمعه هجاء يشينه . وذكر في مقطوعة ثانية أن أحدهم
أهداه بفلاً ، اسمه جمل ، فزل عنه وسقط على الأرض ، فأوحت إليه هذه
الحادثة التي سماها بوقعة الجمل مورياً بمقطوعة صغيرة طريفة (٥) . ويذكر
في مقطوعة تهكمية نالته كتابه « مصابد الشوارد » ، وختمها معرضاً به ،
« وأعجبه ضفدع صائد (٦) » .

اكتفينا من المقطوعات الساخرة بالإشارة إليها ، ونرى أن نقف عند
إحداها وبخاصة منها تلك التي أعجب بها ابن سعبد ، وقد داعب بها القاضي
المذكور وكان قد شيد قصراً تألق كثيراً في بناءه وزخرفته ، فكتب إليه يقول :

ما أنت إلا جنة إن كان في الآفاق جنة

قد ضمنت ألبائنه الثقلين من إنس وجنة

والوحش أجمعها وقب الخيل تمزج في الأعننه

صور تخف بأسطر أمثالها في الحسن فتنه

حاكت كتاب كليله فمتى ترى كأخيه دمننه ؟ (٧)

تؤكد الأبيات المذكورة ما ذكرناه من براعة الشاعر الوصفية ، يضاف
إليها هذا الأسلوب من التهكم والتعريض .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٣ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥٦ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ١١٥ ، ٢٨٠ ، وح ٢ ص ٣٨ ، ٣٩ ، ١٣ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .

(٦) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٧) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٣٩ ، وابن سعبد : الفصون البانعة ، ص ١٢٧ .

(٢)

مذهب الفنى

يبقى علينا بعد عرض شعره ان نلم شعث القول لنبرز من خلاله مذهب الفنى الذي اعتنقه ، ونبين من خلال ذلك خصائصه العامة . ولا ريب أنه يمثل أصدق تمثيل المدرسة البديعية ، إذ اتخذ من التصنيع البديعى مذهباً ، فتكلف كثيراً من فنونه ، وأخذ منها أوفر نصيب من معانيه ومبانيه . يضاف إلى هذه الزخارف غرابة صوره وعمق معانيه وقد انتبه إلى هاتين الصفتين ابن سعيد ، فقال : « وتصفحت شعره فوجدته يجمع الفاظ المشاركة الرقيقة ، ومعانى المغاربة الدقيقة ، فلا يخلو من صقل الكلام وغوص الفكر » (١) .

أما في صقل الكلام فيلاحظ أن الشاعر قد بالغ في الزخرفة اللفظية، فتصنع كثيراً من الصور البيانية والزخارف البديعية كما مر معنا في شعره ، ويلاحظ أنه تعشق من البديع خاصة فن مراعاة النظير ، وهو نفسه الذي أشار إليه ابن سعيد بعد أن أورد منه شواهد عدة ، وعقب على ذلك بقوله : « وهو أولع الناس بالتلفيق ، وجمع ما يقف عليه متفرقاً » (٢) .

وأما في دقة المعانى التى تحتاج إلى غوص الفكر وكد الذهن فيلاحظ ذلك في شعره واضحاً ، وبخاصة منه ما بوحى بإيهام التناقض في معانى البيت الواحد . وذلك كثير في قصائده . يضاف إلى ما ذكر خصب خيال الشاعر ، فقد ألحفتنا بصور متخيلة ، وأخرى مشخصة ، وهى توحى بعبقريته التصويرية ، وكنا قد أبرزنا كثيراً من هذه المعانى المذكورة في دراسة شعره . وبظهر أن الشاعر آنس في نفسه العبقرية التى ورثها عن خراسانيته ، وأشار إلى مكانته في الشعر العربى ، فبالغ كثيراً في تحديده الشعراء ، ورفع شعره فوق أشعارهم جميعاً ، ونعت مدحه بكؤوس السلافة وعقود الجواهر ،

(١) ابن سعيد : العيون النائلة ، ص ١٢٠

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

وكان يعتقد أنه ، على الرغم من كونه غير عربي ، يستطيع أن يتفوق على أقرانه في هذه الحلبة وأنه لا نظير له في ماضي الشعر وحاضره . ففي ختام مدحه إشارات كثيرة إلى هذا المعنى المكرر في شعره ، نذكر من ذلك قوله :

من كل أنسة الحديث بديعة في الحسن تهزأ بالفضال الثافر
عربية مع أنها لم ترب في نجد ولا عذبت بنفحة حاجر
فبيوت شعر أو كؤوس سلافة وسطور مدح أو عقود جواهر
لم يحل صدر الدهر قبل بمثلها كلاً ، ولا جبد الزمان الحاضر (١)

مهما يكن من غرور الشاعر ، وهي صفة نجدها كثيراً لدى أدباء هذين القرنين ، فمما هو جدير بالذكر أنه كان علماً من أعلام شعراء هذا العصر ، وأن شعره وحياته مظهران من مظاهر الوحدة الأدبية في عصر الأيوبيين بين الشام ومصر .

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ١٧٢ .

الشهاب الشاغوري شاعر دمشق

(٥٣٣ - ٦١٥ هـ = ١١٣٩ - ١٣١٨ م)

القسم الأول

حياته وأثاره

(١)

مرحل حياته

في (١) بانياس الساحلية (٢) ، ولد « شاعر دمتق » (٣) فتیان بن علی بن فتیان بن ثمال الأسدي الخزيمي (٤) ، المعروف بـ « الشاغوري المعلم » ، سنة ٥٣٣ هـ .

يظهر أنه اتخذ من حي الشاغور (٦) في دمشق سكناً له ، فأنشأ

(١) سبق أن نشرنا هذا البحث في مجلة المجمع العلمي العربي في الجزء الثاني من المجلد الحادي والأربعين سنة ١٩٦٦ .

(٢) وهي غير بانياس الداخلية ، وقد سماها ياقوت (بلنياس) بضمين وسكون النون ، وذكر أنها كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص على البحر (معجم البلدان ، ج ١ ص ٤٨٩) ، وضبطها صاحب المحيط (بلنياس) بكسرتين وسكون النون وذكر أنها مدينة حسنة بسواحل حمص (القاموس المحيط ، ج ٢ ص ٢٠٣) .

(٣) الذهبي : سير النبلاء ، ج ١٣ ل ١٥٣ .

(٤) نسبة إلى أسد بن خزيمه ، وهو أبو قبيلة من مضر ، وابن ربيعة بن نزار .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٠٨ ، وديوان ابن عنين ، ص ١١٩ ، وأبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٥٤ ، وابن تفرج : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ١٩٠ ، وياقوت : معجم البلدان في لفظة شاغور ج ٣ ص ٣١٠ ولفظة شوانس ج ٣ ص ٣٧٠ ، وبروكلمان Brock ، S1 : 456 والزركلي : الاعلام ، ج ٥ ص ٣٣٦ .

(٦) ذكر ياقوت أن الشاغور محلة بالباب الصفر مشهورة ، وهي في ظاهر المدينة (معجم

البلدان ، ج ٣ ص ٣١٠) .

فيه كتاباً لتعليم الصبيان في مطلع حياته بعد ارتحاله عن مدينته .
لا نعرف على الضبط سبب مغادرة بلده الساحلي الجميل ، وأغلب
الظن أنه بسبب الأخطار المحدقة به ، ولا سيما بعد احتلال الفرنجة الطراز
الأخضر الشامي ، وهو العامل نفسه الذي اضطر ابن القيسراني وابن منير
الطرابلسي على الهجرة من بلديهما قبله .

لا نعرف عن طفولته شيئاً يذكر ، شأننا في ذلك عند معظم من نترجم
لهم ، وكل ما يمكن ذكره أنه اشتهر أمره في دمشق ، وكانت له حلقة
خاصة في الجامع الأموي ، يقرئ النحو ، ويدرس الأدب ، وقد لقيه ياقوت
الحموي في أخريات أيامه بعد أن ناهز التسمين ، فسمع منه بعض
شعره ، وأعجب به كثيراً (١) .

خدم الشاعر الملوك الأيوبيين ، ومدحهم بفرقائهم ، وآثر أن يختص
ببعض أمرائهم الذين كانوا يجزلون له العطاء ، فتعلق بخدمة الأمير نور الدين
مودود بن المبارك شحنة دمشق ، وهو أخو عز الدين فروخ شاه ، وابن
أخي صلاح الدين الأُمه ، فمدحه بقصائد كثيرة ، وأطنب في ذكره ، فكتب
إليه صاحبه ابن عنين مداعباً :

يامن تلقب ظلماً بالشهاب وإن اضحى بظلمته قد أظلم الشهاب
لاتخدمتك من مودود دولته وإن تعلقت من أسبابها سببا
(فليس نبج فيها غير واحدة حتى يلف على خيسومه الذئبا) (٢)
لم يرتحل الشاعر عن دمشق إلا للإقامة في بعض ضواحيها القريبة
فسكن الزبداني ، واشتغل فيها معلماً (٣) ، وقد ورد في ديوان صاحبه ابن
عنين المار ذكره أيضاً أنه اجتاز بها ذات يوم ، وقصد مكتبه ليزوره فلم
يجده ، فأخذ لوحاً من أحد الطلبة وكتب له فيه :

أثبتت فما حظيت لسوء بختي بخدمة سبدي ورجعت خائب
إماماً ما يممناه إلا رجعنا بالزغائب والغرائب (٤)
أعجب الشاعر بطبيعة الزبداني الجميلة ، فوصف نلوجها وشدة قرها ،

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣١٠ .

(٢) ديوان ابن عنين ، ص ٢١٣ ، والبيت الثالث الذي ضمنه الشاعر هو من أبيات

الحماسة من قصيدة لمرة التميمي .

(٣) ديوان ابن عنين ، ص ١١٩ .

الأدب في بلاد الشام - ١٩

(٤) المصدر السابق ص ١١٩ .

ويلاحظ في حياته انه كان كثير الخمول ، يفضل الاستقرار على الانتقال ، وراضياً من الحياة بما قسم له ، مؤثراً السلامة على السعي وراء المجد والشهرة ، ثم يود بعد ذلك لو تبتسم له الأقدار عن حظ سعيد ، وهو قابع في كتابه يسعى ما بين الشاغور والجامع الأموي والزبداني ، ويتساءل قائلاً :

سلام تحركي والحظ ساكن ؟ وما نهنت عن طلب ولكن
أرى ندلاً تقدّمه المساوي على حرّ تؤخّرهُ المحاسن (١)

هكذا قضى عمره يرقب الحياة ، فلا يرى فيها غير التناقض ، فأثر العزلة في كتابه ، يسعى إليه الطلبة والأدباء ليلتقوا به حتى شاخ وهرم ، فتوفي سحر الثاني والعشرين من المحرم سنة ٦٥١ هـ (٢) ، ودفن بمقابر باب الصغير .

(٢)

آثاره الأدبية

للشاعر ديوان شعر مشهور (٣) ، وهو كبير فيه مقاطيع حسان (٤) وأغلب الظن أنه لم يجمع ديوانه في حياته ، وإنما قام بجمعه واختياره ابنه بعد ثمانية أعوام من وفاته ، وفي الهند نسخة وحيدة مخطوطة منه (٥) كتبت سنة ٦٢٣ هـ . وله أيضاً ديوان آخر صغير (٦) ، اقتصر فيه على ما نظمه وجمعه من الفن الشعري المستحدث المسمى بالرباعي ، والمعروف باسم « الدوييت » وهو مفقود ، ولا نعرف منه غير مقطوعة واحدة سنذكرها في معرض حديثنا عن الدوييت كأحد الفنون الشعرية المستحدثة في هذا العصر .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٠٨ .

(٢) نرحم ابن تغري بردي للشاعر في وفيات سنة ٦٢٧ هـ ، وذلك اعتماداً على رواية

الاسعدي ، بيد أنه رجح قول ابن خلكان (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٢٧٤ ، ٢٨٥) . كما أورد الذهبي تاريخ الوفاة نفسه في مصورة سير النبلاء (ج ١٣ ل ١٥٣) .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٢٧٤ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٠٨ .

(٥) في المجمع العلمي العربي صورة مصورة عن المخطوط المذكور برقم ١٤١ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٠٨ .

القِسْـرُ الشَّـائِي

شعره ومذهب الفني

(١)

أغراض شعره

في شعره وصف رائع للطبيعة الدمشقية ، تنجلى فيه بأزهى حللها ، وهو غالباً ما ينبعها بنسيب تقلبدي ، نم يخلص من كل ذلك لدحه المختلفة .

طبيعة دمشقية

وصف الشاعر الطبيعة الدمشقية وصفاً دقيقاً ، تطرق فيه إلى كثير من متزهاتها وغير ذلك ، فهو يضيف على وصفه طابعه الشامى ، ويقتصر منه على بيئة معينة ومكان معروف ، فلم يكن كسائر الشعراء يتحدث عنها ! حديثاً عابراً أو عاماً ينطبق على كل بيئة ويصلح لكل زمان .

أعجب بالزبداني فأقام فيها ، ونقل إليها كتابه ، فراقه فيها ثلحها المندوف في كانون شتائها القارس ، فأنشد يقول :

قد أجمد الخمر كانونٌ بكلِّ قدحٍ وأحمد الجمر في الكانون حين قدحٍ
ياجنّة الزبداني أنت منسفرةٌ عن وجه حسن إذا وجه الزمان كلح
فالشالج قطنٌ عليك الشحب نحلجته والجو ندافه ، والقوس قزح
متى نجل طرف الطريف من مرج قرينته لحاً تأتي بحسن ملح
تلقي النواظر من روض نواضرٍ في قلوبنا فرجاً من همها وفرح (١)

لا تخلو هذه الصورة من تصنع بديعي هام ، بيد أنها على الرغم من كل ذلك صورة حقيقية لمصيف قائم في مكان مرتفع شديد القس ، تعبت به الشلوج الكثيرة في أيام الشتاء .

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشهاب الشافورى ، ج ١ ل ٤٦ ، والديوان ص ٩٤ .

وفي قلب دمشق ، في باب بريدها ، جنة عارشة ، أعجب الشاعر بها
فتحدث عنها ، وأشار إلى ما حولها من متنزهات ، كالنيرب وجسر ابن
شواش ، والشرف الأعلى ، والقصر المنيف ، والمرج الأخضر ، ومما قاله :

يا حبذا جنة باب البريد (١) بها والحسن قد حُتِبَ منه حواشيه
فالمرجُ فالنهرُ فالقصرُ المنيفُ على الـ فصور بالشرفِ الأعلى فسانيه
فجسرُ جسر ابن شواش (٢) فنير بها تحلو معانيه لا نخلو مفانيه
كأنَّ في رأس عَليَّينَ ربوتهما يجري بها كونٌ سبحانَ منجريه
تلك المربع لا حنوى وكاظمة ولا العقيقُ ثواربه بواديه (٣)

تلك هي الطبيعة التي يرى الشاعر أن ينصرف إليها كل شاعر آخر
فكيف عن ذكر البوادي والعقيق ورضوى وكاظمة . صورة تشعر بالجدّة
التي أخذ بها الشاعر نفسه في وصفه ، ولو شفعها بنبضات قلبه كما في غيرها
لكانت عجباً ، ولكنها جاءت خفاجية الديباجة ، عبثت بها الصنعة الجناسية
جرياً على أسلوب العصر .

يحلون لنا بعد هذا التجوال في ضواحي دمشق ومتنزهاتها النائية أن
ندخلها مع الشاعر لنشهد طبيعتها عن كثب ، وقد تفتحت أكامها ، ورقّت
انسامها ، واختال ربيعها الضاحك ، فبدت رائعة الحسن تسر الناظرين :
نوح الحمام الورق في أوراقها دلّ أخا الشوق على أشواقها
فأظهر الدمع وأخفى زفرة خاف على البانات من إحراقها
لو بكت الورق ببعض دمه (٤) لامحت الأطواق من أعناقها
فأعجب لها شاكية باكية لم تسلك الدموع في آفاقها
ما أفرقت مهجته من الجوى لكنّه أشفى على فراقها
دع العريب والنقا وزينبا تجذب البين يرى نياقها
وعُجّ على دمشق تلف بلدة كأنما الجنّات من رُستافها

(١) ذكر ياقوت أنه اسم لأحد أبواب جامع دمشق وهو من أنزه المواضع وقد أكثر الشعراء

من ذكره ووصفه والتشوق إليه (معجم البلدان ج ١ ص ٣٠٦) .

(٢) ابن شواش : يقول ياقوت « شواش اسم رجل نسب إليه موضع في متنزهات

دمشق يقال له جسر ابن شواش » (معجم البلدان ج ٣ ص ٣٧٠) .

(٣) مصورة مخطوطة ديوان الشهاب الشافري ، ج ١ ل ١٢٤ ، والديوان ص ٥٩٠

(٤) في الديوان : « أدمعي » .

سقى دمشق الله غيثاً محسباً من: مُستهلّ ديمةٍ دقاقها
 مدينه ليس ينصاهي حسنّها في سائر البلدان من: آفاقها
 تودّ زوراء العراق أنّها منها ولا تُعزى إلى عراقها
 أهدت لها يد الربيع خلّة بديمة التفويف من خلاقتها
 بنفسجٍ مثل خلدودٍ أدميت بالقرص والتجميش من: عتاقها
 ونرجسٍ أحداقه رانبة عن مقل الفيدر وعن أحداقها
 تنزل المنشور من رياضها تنزل الأعلام من شبقاقها
 فأرضها مثل السماء بهجة وزهرها كالزهر في إشراقها
 مياهها يجري خلال روضها جرى النعابين لدى استباقها
 مسفرة: أنهارها ضاحكة نطالى الوجوه: لانطلاقها
 نسيم رتا روضها متى سرى نكّ أخا الهموم من وناقها
 قد ربع الربيع في ربوعها رسيب المني إلى أسواقها
 لاتسام العيون والأنوف من رؤيتها يوماً ولا استنشاقها (١)

استهل الشاعر بوصف طبيعة دمشق مطلع المدحة التي خص بمدوحه
 مودوداً ، فتحدث بادىء الأمر عن الحمام الورق ، وقارن بين حاله وحالها ،
 ووصف بعد ذلك ما بلقاه من الوجد والجوى ، وذكر أنه أشفى على الهلاك .
 ويخاطب صديقه بعد ذلك ، فيدعوه بصراحة إلى ترك التفني بزینب والعريب
 والنقا ، ويطلب منه أن يعرج على دمشق ذات الجنان والينابيع ، وينتهى
 من كل ذلك ليطلب في وصف ربيعها الذي ابتدعته قدرة خلاقتها ، ويصور
 بدقة البنفسج والنرجس ، والشقائق والمنشور ، ثم ينتقل لذكر الانسام
 ولا ينسى في ختام هذا الوصف إشراك حاسة أخرى غير البصر ليصل ما بين
 الطبيعة والنفس بلذة الاستمتاع ونشوة الجمال .

نسيب تقليدي

كان الشاعر في الغالب يتبع وصف الطبيعة بنسيب تقليدي كما في

(٢) المساد الكاتب : الحريدة ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٥٠ . وفي الديوان سبعة أبيات مختارة

فقط من هذه المصيدة وهي الاول والثاني والثالث والرابع والثامن والتاسع والعاشر ص ٢٨٨

القصيدة السابقة ، إذ تحدث بعد وصف الطبيعة عن شادن تحسده البدور ،
ثم تطرق بعد ذلك لوصف الممدوح .

لم يكن الشاعر مبدعاً في نسيبه وغزله كما في وصف الطبيعة وشتان
ما بينهما ، وإنما هما ضرورة اقتضتها طبيعة التقليد في الفن الشعري .

كان في نسيبه يجري في حلبة شعراء العصر ، وطبيعي فيمن طلب من
صديقه أن يعرض عن ذكر زينب والنقا والعريب ويحذو حذوهم فيتفزل
بظبي شادن من الترك :

وميض برق أرى في فيك أم شنبأ وهل رشف رصاباً منه أم ضرباً ؟
أفدي الذي ما أبى باللحظ سفك دمي لكن متى ما طلبت منه العطف أبسى
ظبي من الترك أصمتني لواظته وأسهم الترك إن أصمت فلا عجباً
يبدو بضدين في خديه قد جمعا ماء الشباب ونار الحسن فاصطحبا
فذلك الماء أبكى ناظري دماً وذلك الجمر أذكى في الحشا لهبا
شكا فؤادي من عبء الهوى تعباً كما شكا خصره من ردفه تعباً
يهز أعطافه دل الصبأ فترى غصناً من البان يشنيه النسيم صباً
يا مطلع البدر فوق الفصن معتدلاً يلوح ما بين شربوش وطوق قبا (١)
إعدل فإن رسوم الجور قد درست مذصار فينا مكين الدين محتسباً (٢)

ليس في هذا النسيب غير ما ألفه الناس في شعر هذا العصر : صور
تقليدية معروفة عن أوصاف مبالغ فيها ، وذكر أحوال المحب وعذابه وإنقااه
من لاعج الشوق وحرقة الجوى . يضاف إلى ما أسلفنا ذكره استخدام بعض
الألفاظ المعربة الشائعة على السنة العامة ، كما رأينا ذلك أكثر من مرة ، فمن
قبل استخدم الرستاق ، واستخدم في هذه القصيدة الشربوش ، وقد
ردت مراراً في ديوان شعره وغير ذلك كثير .

* * *

أما خمرياته فتكون تارة ضمن نسيبه ، وتكون أخرى مستقلة كما فسى
هذه القصيدة التي يقول فيها :

(١) الشربوش : قلنسوة طويلة ، وهي معربة عن الشربوش ، وتطلق على غطاء الرأس .
والقبا : وهي معصور القباء ، وهي ثوب يلبس فوق الثياب .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٢٥٤ ، وهذه القصيدة غير موجودة في الديوان .

قم فاجل بن الكرمه الخضراء في الكأس كالياقوتة الحمراء
 راح متى ما أشرقت كاساتها فاضت استعنتها على الجلساء
 في شربها من كل قلب شهوة فكانها خلقت من الأهواء
 وإذا انجلت في الليلة الليلاء هزمت ظلام الليل بالآلاء
 يا لائمى في شربها أغريتني باللؤم فيها غابة الإغراء
 يا حبذا هي في الخريف وغيره في سائر الأوقات والآناء
 ما العيش إلا في المدام وشربها لكن مع الظرفاء والعقلاء (١)

يظهر أن الشاعر كان يعرض في بيته الأخير بالشعراء الإباحيين ، وقد
 سلك في الخمرية سبيل عرقلة الكلبي إمام الجماعة في مذهبه الخمري ، وكنا
 قد وضعنا علاقة شعراء هذه المدرسة الشامية بشعراء المدرسة الخيامية .

مدح مختلفة

ينتهي الشاعر بعد مقدماته المستفيضة في وصف طبيعة دمشق ،
 والتخلص منه إلى النسيب التقليدي المعروف ليثني على ممدوحه ، ومن
 الخير أن نقتطف الأبيات التي مدح بها صاحبه مودوداً من القصبدة النسي
 استهللنا بها الحديث عن وصفه طبيعة دمشق ، وجاء فيها قوله :
 أشكو إلى الأشواق ما شكنه جلد حق إلى المودود من أشواقها
 حق لبدر الدّين أن نحسده على الغلا البدور في انساقتها
 كماله أحسن من كمالها فصين ، طول الدّهر ، عن محاقها
 قد خيم الربيع في ربوعها وسيقت المنى إلى أسواقها
 إختارته الله لخير أرضيه إذ ليس مثل الشام في آفاقها
 فقابل الشام برأي رثق الـ أمور بعد شدة انفتاحها
 ما غل في الحرب ، ولكن غلّ أي سدي عصب الكفر إلى أعناقها
 لا فتئت أيامه سعيدة لا ينك الدّهر قوى ميثاقها (٢)
 نسير إلى آخرين ممن مدحهم كالثّامر صلاح الدين ، وقد مدحه وهو
 في دمشق مراراً ، ولا بأس أن نقف عند القصيدة التي أنتده إياها في قلعة
 دمشق بعد فتح بيت المقدس ، وهي تبلغ نحواً من مائة بيت ومنها قوله :

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشهاب الشافري ، ح ١ ل ٩ ، والديوان ص ٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ل ١٢٥ ، والديوان ص ١٨٨ ، ٢٨٩ .

يا ناصرَ الإسلامِ فزت بموردٍ حَسَنَ النِّشَا(١) في العالمين ومصدر
فلقد رادت الشوك يوم لقيتهم وغدت للإسلام عينَ المنشر
وَأَرَيْتَهُمْ لَمَّا التَقَى الْجَمْعَانِ بِالْ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ هَوْلَ يَوْمِ الْحِشْرِ
ورددت دينَ الله بعدَ قنطوبه بالمسجد الأقصى بوجه مسفر (٢)

نكتفي بهذا القدر مما أوردنا من أغراض شعره وفنونه ، وننتهي
لنؤكد ما ذكرناه ، ونقول إن وصف الطبيعة الدمشقية كان أبرز أغراضه ،
وقد أبدع الشاعر فيه كل الإبداع . أما سائر شعره فكان شأنه فيها شأن
أي شاعر آخر من الشعراء المعاصرين .

(٢)

مذهب الفني

لاحظنا أن الشاعر كان يؤمن بالثورة على المعاني التقليدية في بعض
الأحيان ، وعلى الأساليب الشعرية الموروثة ، وبخاصة فيما يتعلق بهيكل
القصيدة العربية . فنظم في فن الرباعي « الدوبيت » ديواناً كاملاً لم يصلنا
منه مع الأسف غير رباعية واحدة اقتطفها ابن خلكان من الديوان المفقود .
ولم يكن يقتصر في تجديده على الهيكل المعروف ، وإنما كان يحاول
أن يخرج كما ذكرنا عن طوق التقليد الأعمى ، فقد كان يكره ذكر زينب
والعريب والنقا ، وتأخذ طبيعة دمشق بلبه ، فيعرض عن ذكر رضوى
وكاظمة والعقيق والبوادي جرياً على سنة أبي نواس من قبله .

نترك هذا وذلك لنقرر أن الشاعر نهج في مذهب الفني نهج شعراء
عصره ، فأخذ من التطبيق والتجنيس نصيباً ، بيد أنه لم يكثر منهما فسي
شعره ، وأخذ من الانسجام والسهولة نصيباً آخر ، فبدأ تصنعه جميلاً في
رونق الطبع ، ورشيقاً في قالب من الوضوح ، ودقيقاً في إطار من
الطبيعة والوصف .

هكذا جمع الشاعر في مذهب الفني بين اتجاهين معروفين في عصره :
اتجاه من سبقه من الشعراء أمثال القيسراني والطرابلسي وغيرهما ، واتجاه
من جاء بعده كالترف الأنصاري وابن عنين وغيرهما .

(١) النشا : الخبر والحديث النائع .

(٢) مصورة مخطوط ديوان الشهاب الشاغوري ، ج ١ ل ٦٧ ، والديوان ص ١٤٢ ، ١٤٣

ابن عنيش شاعر الشام

(٥٤٩ - ٦٣٠ هـ = ١١٥٤ - ١٣٣٢ م)

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ

(١)

مراحل حياته

في دمشق الفيحاء ، ولد الرئيس شاعر الشام ، أبو المحاسن ، شرف الدين محمد بن نصر الله بن الحسين بن عنيش ، يوم الاثنين تاسع شعبان سنة ٥٤٩ هـ (١) .

والمعروف عنه أن جده الأول أنصاري ، كان مقيماً في الكوفة ، ويؤكد هذا القول ما ذكره ابن الدبيثي أنه سمع الشاعر يقول : « إن أصلنا مسن الكوفة من موضع يعرف بمسجد بني النجار ، ونحن من الأنصار (٢) » .

-
- (١) ياقوت : إرشاد الأريب ، ج ٧ ص ١٢١ ، وابن خلكان : وفیات الأعيان ، ج ٢ ص ٢٥ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ١٣٨ ، وابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص ٥١ ، وابن علي الدلجي : الفلاحة والمفلوكون ، ص ٩٤ ، وابن الوردی : ثمة المختصر ، ج ٢ ص ١٦٤ ، ومقدمة الديوان ص ١ - ٢٤ ، وبروكلمان : Brock : 1,387 . Sl,551 والوركلی : الاعلام ، ج ٧ ص ٢٥ .
- (٢) ابن خلكان : وفیات الأعيان ، ج ٢ ص ٣٤٨ .

أما قول بعض المؤرخين إن أصله من زرع في حوران (١) فلا وجه له البتة ، إلا إذا أردنا من ذلك أن أسرته أقامت بعد هجرتها في زرع فترة من الزمن قبل رحيلها إلى دمشق نهائياً ، فلقلب بالزرعي ويظهر أن هذه النسبة أوهمت بعض من ترجم له ، فذكر أن أصله من حوران وأن أسرته عرفت فيها ببني غالب .

لا نعرف كثيراً عن طفولة هذا الشاعر ، وكل ما يمكن ذكره أنه نشأ في دمشق من أسرة فقيرة ، وكان منزله قبلي الجامع الأموي . كما أننا نجعل أحوال أسرته الخاصة، ولكننا نستطيع من خلال مقطوعة هجا بها أباه أن نوضح سوء حاله :

وجئتُني أن أفعلَ الخيرَ والدَّ ضئيلٌ إذا ما عدَّ أهلُ التَّناسبِ
بعيدٌ عن الحسنَى قريبٌ منَ الخنا وضيعُ مساعي الخيرِ جَمُّ المعايِبِ
إذا رمتُ أن أسمو صعوذاً إلى العلا غدا عرقه نحو الدنيَّة جاذبي (٢)

عكف الشاعر منذ صغره على التزود من مناهل العلم وانصرف إلى شيوخه فسمع من الحافظ أبي القاسم بن عساكر ، وكان يدرس بالزاوية الغربية من الجامع الأموي ، وتلمذ أيضاً على أبي الشناء محمود بن نعمة بن أرسلان الشيزري ، فقرأ عليه النحو والأدب ، وأخذ أيضاً عن قاضي دمشق كمال الدين الشهرزوري ، ثم ارتحل إلى بغداد، وسمع فيها من النيسابوري والفخر الرازي فيما بعد (٣) .

هكذا استكمل الشاعر ثقافته الخاصة ، وتزود من اللغة والأدب بأوفر نصيب ، حتى قيل عنه إنه كان يستحضر جمهرة ابن دريد، وفي شعره دليل على سعة ثقافته ، فنجد فيه كثيراً من مصطلحات العلوم من نحو وفقه وحديث وطب وهندسة وحساب وفلك .

لا نعرف كثيراً عن حياته الخاصة وأحوال أسرته ، وكل ما نستطيع قوله أنه كان له أخ يحبه ، وكان يكاتبه من الهند ، وابن أخت صغير كان

(١) ابن سردى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٢٩٣ .

(٢) ديوان ابن عنين ، ص ٢٣٩ . وياقوت الحموي : إرشاد الأريب ، ج ٧ ص ١٢٣ .

(٣) الدلجي : الفلاكة والمفلوكون ، ص ٩٤ .

بداعبه أحياناً ببعض الأبيات ، فبتعذر عليه النطق بها للثقة في لسانه .
أما أسرته وأولاده فلا دليل في شعره عليها البتة ، وإنما استطعنا أن
نقتبس بعض أخبارها من شاعر آخر لقيه في مصر ، وهو ابن الساعاتي المار
ذكره ، فقد جاء في ديوانه قوله : « وكتب إلى الشرف بن عنين جواباً عن
أبيات على وزنها ورويا تتضمن الهناء بالمولود المذكور آنفاً بديهاً :

قفى فاسمي محض النهى يابنة الفهم فقد خطبت أمّ البلاغة والحكم (١)

نستطيع بعد هذه المقدمة عن طفولته وصباه وأسرته أن ندرس مراحل
حياته ضمن ثلاث : نتحدث في أولها عن علاقته بالناصر صلاح الدين ، وفي
الثانية عن نفيه وارتحاله في الأمصار المختلفة . وفي الثالثة عن عودته
وتوليّه الوزارة .

الرحلة الأولى

في عهد صلاح الدين

قلنا إن الشاعر قد استكمل ثقافته الأولى في وقت مبكر ، ونظم الشعر
وهو ابن ست عشرة سنة ، ثم أصبح بعد ذلك أديباً لامعاً بين أدبائها ، لكن
طموحه كان بعداً ، فهو غبر راض عن والده الضئيل ، إذ لم يفسح أمامه
سبل المعالي والمجد ، فاضطر إلى تنشئة نفسه ، واعتمد على عصاميته ،
فكون ثقافته الخاصة ، وأصبح لا يقل في علمه وأدبه عن غسره من الذين
ينربعون في المجالس وينصدرونها . شرع يمدح الأمراء والسلاطين ، بيد أنه
لم ينل مبتغاه من حياة بحلم بها ، فأخفق في مسعاه ، وأزمع أمره على شق
طريق جديدة في معاشرته الناس لكسب رزقه ، فقرر بادية الأمر هجاء الطبقة
الحاكمة واتباعها من القضاة والحكام والوزراء والأمراء . نظم قصيدة
هجائية مطولة تنألف من خمسمائة بيت ، سماها « مقرّاض الأعراض » ،
وقد أعلن فيها حربه على مجتمعه وقل من سلم من الدماشقة وغيرهم من
شره ، وقد استهل هذه الهجائية بقوله :

أضائع تنطوى على كرب ومقلّة مستهلة الغرب
شوقاً إلى ساكني دشق فلا عدت ربّاهم مواطر الشحب (١)

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ١١٥ .

(٢) ديوان ابن عنين ، ص ١٧٩ .

تفنن الشاعر في هذه الهجائية ، ولم يتورع فيها عن الثلب والسب ، حتى إنه أورد من النعوت والألفاظ التي تستخدمها العامة ما لا يحسن إيرادها لم يكتف بما قرضه لسانه من أعراض الناس وإنما تناول في قصائد أخرى إلى هجاء السلطان صلاح الدين ووزيره الفاضل الغاضل ، ونائبه العماد الكاتب ، وخطيبه الدولعي ، وواعظه ابن باقا ، ومحتسبه عبد اللطيف ، وصاحب أمره ، وعارض جيشه وغيرهم ، وجاء فيها قوله

قد أصبح الرزق ماله سبب في الناس إلا البقاء والكذب
سلطاننا أعرج وكاتبه ذو عמש والوزير منحذب
وصاحب الأمر خلقه شرس وعارض الجيش داؤه عجب
عيوب قوم لو أنها جمعت في فالك ما سرت به شهب (١)

أحدثت هذه الأمور أسياء شديداً لدى السلطان وحاشيته ، فأنارت ضجة كبرى بدمشق ، فلم يمكن التفاضي عنها حفظاً لهيبة الدولة الأيوبية في الشام ومصر واليمن وغيرها ، فأصدر أمره بنفيه إلى الهند مدى الحياة. خرج الشاعر من دمشق مطارداً ليقوم في سفاه البعيد . فأسى على حاله ومستقبله ، وتساءل وهو مرئيل :

فعلام أبتدتم أخا نقي ؟ لم يترف إنما ولا سرقا
انفوا المؤذن من بلادكم إن كان ينفى كل من صدقا (٢)

أما الذي أقنع السلطان بنفيه فهو الموفق بن مطران أحد أعوانه المقربين ، وكان معروفاً بدمائة الخلق ، وهو أحد من هجا الشاعر وسخر منه .

نشعر من قراءة هذين البيتين أن الشاعر يعتقد أنه مظلوم وأنه ما تحدث في شعره بغير قول الحق ، إذا ساءت بعض الأمور ، فانتقد تصرف أولي الأمر ، وجأ بالشكوى المريعة لما رأى انقطاع أسباب رزقه . وكان نصيبه النفي والإبعاد لأنه هجا السلطان ، وقد حاول أن يطلعه على أحوال بطائنه وأفعاله .

(١) ديوان ابن مثنى ، ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٤ .

المرحلة الثانية مع الشاعر في منفاه

ارتحل الشاعر إلى منفاه البعيد ، واخذ يطوف في الافاق يشفق قلب الشرق كما يقول ، فمدح الرؤساء والأمراء الذين كان يلقاهم ، ولسان حاله :

عربب" إذا ما حلّ مصرأ أبى له وشيك النوى إلا ارتحالا" إلى مصر
فحتام لا انفك في ظهر سبب اهجر أو في بطن داوية قفر
اشفق قلب الشرق حتى كانني أفتش في سودائه عن سنا الفجر (١)

دخل الجزيرة والعراق ، ثم انتقل منها إلى خراسان وأذربيجان وغزنة وأحب لقاء الفخر الرازي ، فسير إليه قبل وصوله قصيدة جاء فيها :

ريح الشمال عساك أن تتحملنى خدمنى إلى صدر الإمام الأفضل
وقفى بواديه المقدس وانظري نور الهندي متألقاً لا يأتلى
من دوحة فخرية عمريّة طابت مفارس مجدها المتأثّل
مكيّة الأساب زاك أصلها وفروعها فوق السّمك الأعزل
لو أن رستاليس سمع لفظة من لفظه لعرته هزّة أفكل (٢)
ولحار بطليموس لو لاقاه من برهانه في كل شكل مشكل
فلو أنهم جمعوا لديه تيقنوا أن الفضيلة لم تكن للأوّل (٣)

كان الشاعر في نيسابور حينما وجه إليه هذه المدحة ، حتى إذا ما بلغ اقليم خوارزم هرع الى لقائه في هراة ، وهو يدرس في مدرسته هناك . أحب الشاعر حضور درسه ليأخذ عنه ، واليوم شات ، والبرد شديد ، والثلج يتساقط بكثرة فراى الجلة من العلماء يحبطون به ، وهو غارق في درسه ، فسقطت حمامة بقربه ، خوفاً من جارح كان يتعقبها في الجو ويطاردها ، فلما أمنت عاد الجارح من حيث أتى . أما الحمامة فقد أقعدها الخوف والقر عن الطيران ثانية ، فلما انتهى الدرس نهض الرازي وأمسك

(١) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٢) الأفكل : الرعدة ، وأخذه أفكل بالتوين إذا ارتعد من خوف أو برد ، ولا يبنى منه

فمسل .

(٣) ديوان ابن عنب ، ص ٥٣ ، ٥٤ ، بادوت : إرشاد الأريب ، ح ٧ ص ١٢٣ .

بها ، وریت عليها بعطف وحنان ، فتأثر الشاعر لهذا المنظر الإنساني وأنشده
بديها قصيدة ، منها قوله :

من نَبَأ الورقاء أن مطلقكم حرّم وأثك ملجأ للخائف
وقدت عليك وقد تدانى حثفها فحبوتها ببقائها المستأنف
جاءت سليمان الزمان بشجوها والموت يلمع من جناحي خاطف
قرم لواه القوت حتى ظلّه بإزائه يجري بقلب واجف (١)

تابع الشاعر رحلته من خورازم ، وبلغ بلاد ما وراء النهر ، وانتقل منها
إلى الهند منفاه الأخير مدى الحياة ، وفيها ألقى عصاه بعد مطاف طويل شقق
من أجله قلب الشرق ، يفتش في سويدائه عن سنا الفجر . كان دائم الحنين
إلى شامه ، فكل نسمة تمر به يحسبها آتية من تل راهط المظل على غوطتها
الخضراء ، فينادي متلهفاً :

الا يانسيم الرّيح من تل راهط (٢) وروض الحمى كيف اهتديت إلى الهند

لم تنقطع صلته بوطنه عن طريق أسرته ، إذ كان يرسل أخاه دوماً ،
ويشبه لواعج شوقه :

سامحت كتبك في القطيعة عالماً أن الصحيفة لم تجد من حامل
(وعذرت طيفك في الجفاء لأته يسري فينصبج دوننا بمراحل (٣))

ارتحل الشاعر من منفاه إلى اليمن فمر على عدن ، وتذكر في الأرض
العربية السعيدة أحبابه ، ويتمنى أن يعود إلى وطنه :

أحبابنا ، لا أسأل الطبف زروة وهيئات ، أين الدليميات (٤) من عدن؟ (٥)

مدح الشاعر ملكها سيف الإسلام طفتيكين بن أيوب أخا صلاح الدين ،

(١) ديوان ابن عني ، ص ٩٥ . قرم : مأخوذة من قرم إلى اللحم : أي اشتدت شهوته له .

(٢) روض الحمى ، وتل راهط : موضعان في غوطة دمشق وضواحيها ، ويقع تل راهط بمند
مرج العدراء ، ويقال له مرج راهط .

(٣) ديوان ابن عني ، ص ٧٣ .

(٤) الدليميات : اسم موضع في غوطة دمشق وضواحيها .

(٥) ديوان ابن عني ، ص ٧٨ ، وابن حلكا : وفات الاعبان ج ، ص ٢٥ .

ونال منه العطاء الجزل ، فاتجر به وحمل تجارته إلى مصر ، ويظهر أن ملكها العزيز رسم أن يؤخذ منه زكاة تجارته ، فعرض بذلك في شعره قائلا :

ما كلُّ من بتسمي بالعزيز لها أهلٌ ولا كلُّ برقٍ سحبهُ غدقه
بينَ العزيزِ بنِ (١) بونٌ في فعالهما هذاكَ بعطى، وهذا بأخذ الصدقة (٢)

اهتمت المحافل الأدبية في القاهرة بقدوم شاعر الشام المنفي ابن عنين ، وقد أثار ابن خلكان إلى هذه الزبارة في معرض حديثه عن ابن سناء الملك ، فقال : « وانفق في عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين ، وكان لهم مجالس يجري بينهم فيها مفاكيات ومحاورات بروق سماعها . ودخل في ذلك الوقت إلى مصر شرف الدين بن عنين ، فاحتفلوا به ، وعملوا له دعوات ، وكانوا يجتمعون على أرغد عيش ، وكانوا يقولون : هذا شاعر الشام ، وجرت لهم محافل سطرت عنهم ، ولولا خشية الإطالة لذكرت بعضها » (٣) .

والتقى الشاعر في القاهرة بابن الساعاتي، وقد هنأه بمولود له كما رأينا، وبعث إليه مع التهئة هدية مناسبة ، وكان في وداعه يوم سفره ، إذ كان الحرس شديداً ، وأبى أن يفارقه قبل أن ينشده أبياتاً يودعه بها في رحلته البحرية الشاقة ، منها قوله :

رَحَلْتَ فَلِلْعَلِيَاءِ بَعْدَكَ مَهْجَةٌ شِعَاعٌ وَشَأْنٌ مَا تَجِفُّ مَدَامَعُهُ
وَلَمَّا دَعَتْنِي لِلْوَدَاعِ نَوَازِعٌ مِمَّنِ الشُّوقُ أَنْ الشُّوقُ تَدْعُو نَوَازِعُهُ
لَقِيتُ وَفُودَ الرِّيحِ وَهِيَ زَعَاذِعٌ وَمِمَّنِ دُونَ لُجْجِ الْبَحْرِ تَلْقَى زَعَاذِعُهُ
وَمَا جَاشَ مِنْ أَذْيِهِ قَطُّ زَاخِرٌ كَعَلَمِكَ الْإِلَا وَالسَّمَاحُ طَلَائِعُهُ (٤)

لم يكن للشاعر أمل في العودة في حياة صلاح الدين ، حتى إذا قضى نحبه عاوده أمله من جديد في العودة من منفاه البعيد .

نجح الشاعر في عمله التجاري ، فربح الأموال الكثيرة ، وسافر إلى

(١) العزيزان : هما الملك العزيز طنكبن بن أيوب ، صاحب اليمن ، والملك العزيز

عثمان ، صاحب مصر .

(٢) ديوان ابن عنين ، ص ٢٢٣ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الاميان ح ، ص ١٨٩ .

(٤) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ١٠ .

الافاق في التجارة ، واصبح يملك ثروة كبيرة (١) ، وكان من الطبيعي أن يسعى للعودة إلى وطنه بعد وفاة صلاح الدين فوراً ، بيد أنه تريت بادىء الأمر لأن تجارته الواسعة التي امتدت اطرافها بين مصر واليمن والحجاز والهند تقتضى منه إنهاء كل أموره . فلما استخلص الملك العادل أخو صلاح الدين الملك لسه ولأولاده ، أزعج الشاعر أمره على الإسراع في العودة من منفاه . ولما بلغت مطاياه مشارف دمشق بعث بقصيدة إلى الملك العادل يصف له فيها غربته وآلامه ومشقاته ، وتحدث فيها عن شوقه إلى بلده ، وأخذ يستعطفه ويستأذنه لينال عفوهِ ويسمح له بدخولها ، ومما قاله :

فَارْقَتْهَا لَا عَنْ رِضَىٍّ وَهَجَرْتَهَا لَا عَنْ قِلَىٍّ ، ، وَرَحَلْتُ لَا مُتَخَيِّرًا
أَسْعَى رِزْقِي فِي الْبِلَادِ مَفْرَقٍ وَمِنْ الْعَجَائِبِ أَنْ يَكُونَ مُقْتَرًا
وَأَصُونُ وَجْهَ مَدَائِحِي مُتَقَنِّعًا وَكَثْفَ ذَيْلِ مَطَامِعِي مُتَسْتَرًا
أَشْكُو إِلَيْكَ نَوَى تِمَادَى عُمْرِهَا حَتَّى حَسِبْتُ الْيَوْمَ مِنْهُ أَشْهَرًا
لَا عِيشَتِي تَصْفُو وَلَا رَسْمُ الْهَوَى يَعْفو وَلَا جَفْنِي يَصَافِحُهُ الْكَرَى
أُضْحِي عَنْ الرَّبِيعِ الْمَرِيعِ مُخَلًّا وَأَبِيتُ عَنْ وَرْدِ الثَّمِيرِ مُنْفَرًّا
وَمِنْ الْعَجَائِبِ أَنْ تَقِيًّا ظَلَّكُمْ كُلُّ الْوَرَى وَتَبَدَّلَتْ وَحْدِي بِالْعَرَا (٢)

رق له الملك العادل ، فأعتبه ، وأذن له بالعودة ، فدخل دمشق ، وقال ساخرًا بأعدائه الذين سعوا بنفيه :

هَجَوْتُ الْأَكَابِرَ فَسِي جَلَّقٍ وَرُعْتُ الْوُضِيعَ بِهِجُو الرَّفِيعِ
وَأَخْرَجْتُ مِنْهَا وَلَكِنِّي رَجَعْتُ عَلَى رَغَمِ أَنْفِ الْجَمِيعِ (٣)

يذكر جامع الديوان أن الشاعر أنشد القصيدة السابقة لما عاد إلى دمشق وتقدم بها عند الملك المعظم ، وقد خصه والده بالبلاد الشامية كلها ، بعد أن اتسعت في عهده المملكة الأيوبية ، كما أعطى الملك الكامل الديار المصرية والملك الأشرف البلاد المشرقية ، والملك الأوحده سائر أولاده ما تبقى من البلاد .

(١) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ٥١ ، ٥٢ .

(٢) ديوان ابن عنين ، ص ٥ ، ٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٤ .

عاش الملك العادل آمناً بعد استقرار أمر الدولة العربية الأيوبية الكبرى،
وأصبح ملك الملوك من أبنائه ، فكان يتنقل بينهم ، وفي الغالب كان يصطاف
في الشام لكثرة الفواكه ووجود النخيل والماء البارد ويستتي في مصر لاعتدال
الطقس وقلة البرد .

عبر الشاعر عن هذه الأمور كلها في المدحة العادلية التي بعث بها إليه
قبيل دخوله دمشق ، وكنا قد أوردنا مطلعها ، ومما قاله بعد ذلك :

وله البنون بكل أرض منهم ملك يقود إلى الأعادي عسكرا
من كل وضاح الجبين تخاله بدرأ ، وإن شهد الوغى ففضنقرا
بين الملوك الغابرين وبينه في الفضل ما بين الثريا والنرى
نسخت خلائقه الحمدة ما أتى في الكنب عن كسرى الملوك وقبصرا
حلم تخف له العلوم وراءه عزم وراي يحقر الإسكندرا
لا تسمعن حدين ملك غيره يروى فكل الصيد في جوف الفراء (١)
سأت العلاقة بين الشاعر والملك العادل ، إذ ساءه أن يقطع الرسوم
والأرزاق التي كان التسعراء يتناولونها ، فقال فيه معرضاً :

إن سلطانا الذي نرتجبه واسع المال ضيق الإنفاق
هو سيف ، كما يقال ، ولكن قاطع للرسوم والأرزاق (٢)
لم ينف في هذه المرة عن دمشق لأن الملوك تعودوا منه ذلك ، ولأنه كان
يتمتع بمنزلة سامية بين أدباء عصره ، فهو لسان حالهم ، وإليه يحتكمون
فيما يشتجر بينهم .

استقر أمر الشاعر في دمشق ، وحظي لدى الملوك الأيوبيين ، وصار وافر
الحرمة موفور الكرامة عندهم ، ويظهر أنه فكر في التوبة ، فأعرض عن اللهو ،

(١) ديوان ابن عنين ، ص ٣ - ٨ ، والفرا : هو الحمار الوحشي ، وقد ضمن الشاعر
مثلاً عربياً معروفاً ، معناه أنه ليس مما يصيده الناس أعظم من الحمار الوحشي . انظر
مجمع الأمثال للميداني ج ٢ ، ص ١٣٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٣٩ .

وشرب الخمر ، ومال الى التقشف والزهد . افتقده الملك المعظم في مجلسه ،
وأخبره بخبره ، فبعث اليه نرداً وخمراً ، وطلب من حاجبه أن يقول له :
« سبح بهذا (١) » إشارة منه الى أن زهده رياء وتصنع ، فكتب اليه معاتباً ،
وعرض بقصة القاضي الذي خلعه :

يا ايها الملك المعظم سنة^١ أحدثتها تبقى على الأباد
تجري الملوك على طريقك بعدها خلع^٢ القضاة وتحفة^٣ الزهاد (٢)

وجدير بالذكر أن توبة ابن عنين وانقطاعه في أحد المساجد كانا احتياجاً
على ما فعله الملك المعظم الذي غضب على قاضيه زكي الدين بن محيي الدين ،
وأراد عزله فبعث اليه بقلنسوة صفراء وقباء أصفر ، وأمر أن يلبسهما في
مجلس حكمه .

يظهر أن الملك ندم على ما فرط بحق الشاعر ، وكأنه خشي هجاءه ،
فقربه في أواخر حكمه وولاه وزارته ، وأقامه مقام نفسه في ديوانه ، فأحسن
السياسة ، ونظم الدواوين ، واستمر في مهام الحكم حتى وفاته .

ويظهر أن مسؤوليته في الحكم جعلته يطلب من الملك المعظم اقالته فكتب اليه :

أقِلني عشاري واحتسبنيها صنيعة^١ يكون برحمها لك الله جازيا
كفى حزناً أن لست ترضى ولا أرى فتى راضياً عني ولا الله راضياً
ولست أرجي بعد سبعين^٢ حجة^٣ حياة وقد لاقيت فيها الدواهي (٣)

ولي الحكم الملك الناصر ، فأقره في عمله طوال مدة حكمه ، حتى إذا خلفه
الملك الأشرف عيسى نرك الحكم ، ولم يباشر بعدها خدمة .

ذكر المؤرخون أنه استبد بالأمر في أواخر أيام وزارته ، فكثر ظلمه ، وزاد
نفسه ، وسمح باستيراد الخمر الى البلاد ، ورمي بسبب ذلك بالزندقة

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٣٩٨ .

(٢) ديوان ابن عيين ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٣ .

وسب الأنبياء وترك الصلاة (١) ، ولقد أشار الشاعر فتيان الشاغوري الى بعض ما نسب اليه في بيتين نظمهما في هجائه وهما :

ابنُ عَنِينٍ في كل زَنْدَقَةٍ امسى واضحى فعَالِه مثلاً
لم يَنْفَتْسْ الا على قدح ولم يَبِتْ غيرَ رَاكِبٍ كَفَلَا (٢)

اغلب الظن عندي أن بعض هذه الأمور مدسوس عليه ، أشاعه منافسوه وأعداؤه في أواخر سني وزارته قبيل استعفائه من الخدمة . وقد داهمته المنية عشية الاثنين في العشرين من شهر ربيع الاول سنة ٦٣٠ هـ ، ودفن بمقبرة باب الصغير .

(٣)

آثاره الأدبية

ذكر أبو الفداء أنه « كان شاعر مفلحاً ، وديوانه مشهور » (٣) ، ولكن المعروف عنه أنه لم يهتم خلال حياته بجمع ديوانه ، وأنه كان ضئيلاً بشعره وقد لقيه الديلمي ببغداد ، وذكر أنه كتب عنه شيئاً من شعره ، فلذلك لم يدونه ، فهو يوجد مقاطيع في أبدي الناس ، وقد جمع له بعض أهل دمشق ديواناً صغيراً ، لا يبلغ عشر ما له من النظم ومع هذا ففيه أشياء لبست له (٤) ، أما جامع الديوان فهو محمد بن المسيب بن نهبان بن محمد الدمشقي الثعلبي ، وقد تم جمعه بعد وفاة الشاعر بثماني سنوات .

بضاف الى الديوان منظومته « مقراض الأعراض » ، وهي مؤلفة من خمسمائة بيت ، اختار منها جامع الديوان اثنين وخمسين بيتاً في باب الهجاء (٥) ، وقد تناقلها الناس منفردة عن ديوانه .

(١) الدلحي : الفلاكة والمفلوكون ، ص ٩٤ ، وياقوت : ارشاد الأريب ، ج ٧ ص ١٢١ .

(٢) ديوان فتيان الشاغوري ص ٥٨٥ ، وله أيضاً معطوعتان أحرمان في هجائه ص ٥١٧

و ص ٥٤٩ .

(٣) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٥٨ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٢٦ .

(٥) ديوان ابن عنين ، ص ٥٢ .

يتألف ديوانه من سبعة أبواب : هي باب المديح ، وباب الرثاء ، والباب الثالث في الحنين الى دمشق ، وقصائد هذا الباب مضمومة في الأصل الى باب الوقائع والمحاضرات ، فأفرد لها محقق الديوان باباً خاصاً ، كما ضم اليها ثلاث مدح، وقصيدة من باب الهجاء. والباب الرابع في الوقائع والمحاضرات والباب الخامس في الدعابة والتهكم والسخرية ، والباب السادس في الألفاظ ، والباب السابع في الهجاء وهو أكبر الأبواب .

يضاف الى الديوان والمقراض آثار أخرى ، منها تصنيفه « التاريخ العزيزي » (١) في سيرة الملك العزيز عثمان وهو مخطوط ، وكتابه « مختصرة الجهرة » (٢) .

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ص ٤٠٤ والبركلي : الاعلام ، ج ٧ ص ٣٤٨ ، وبروكلمان Brock : 1'387 . SI'551

(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ص ٢٢٨ .

القسم الثاني

شعره ونزاهته الفني

(١)

أغراض شعره

نستطيع أن نعرض شعر ابن عنين وندرسه من خلال أهم الأغراض التي نظمها ، وهي الهجاء والسخرية ، ووصف البعاد والحنين، والمدح والنسيب، ثم نختمها بذكر الألفاظ والأحاجي .

سخرية وهجاء

فطرت طبيعة الشاعر على السخرية والهجاء ، فبدأ بنفسه فهجاها (١) ، وثنى بأبيه (٢) ، وتناول بعد ذلك الناس أجمعين ممن راق له أن يسخر منهم بسبب أو بغير سبب ، أو يعرض بهم . وتناول على علبة القوم ، فلم يتورع عن هجاء خليفة بغداد العباسي ، حتى إن جامع ديوانه أسقط كلمات من بتى الهجائية المذكورة (٣) . كما تعرض الشاعر للملك العادل (٤) ، وللملك الأشرف (٥) ، وللملك المنصور (٦) ، ولم يكتف بذلك ، بل نظم هجائية مطوله

(١) ديوان ابن عنين ، ص ١٤٧ و ١٤٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٣٤٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

ذم فيها كل من عرفه ، وقد استخدم فيها بعض الالفاظ المضحكة والتعابير الصريحة ، ويظهر أن المدرسة التحامقية المعروفة كان لها اكبر الاثر في هذا النوع من شعره .

كنا ذكرنا أنه سمي هجائنه المشهورة «مقراض الاعراض» ، وقد تعرض فيها للقاضي الفاضل مرتين : جاء في الاولى قوله :

والعزُ عبدُ الرحيم سيدنا مَظيلس^(١) للقضاء بالشربِ
يظنُّ رائيه أَنه جردٌ مَطلعٌ رأسه من الثَّقبِ^(٢)

وجاء في الثانية قوله :

وحين أبصرتُ دولة الاحدب الـ مفاضلِ أربتْ على علا الشُّهبِ
فقلتُ للمفلسينَ ويحكمُ تحادبوا فهي دولةُ الحدبِ^(٣)

ولم يكن ذلك كل شيء ، فلقد هجاه ساخرآ بخمس مقطوعات اخرى ، نعته فيها ببعض النعوت المستهجنة، وصرح فيها ببعض الالفاظ الوضيعة^(٤) .

أما القضاة فكان لهم من هجائه النصيب الاوفى ، فلم يسلم أحدهم من لسانه ، وقد نعتهم بالفواحش ، والصق بهم أخس الصفات ، وبخاصة منهم ابن أبي عمرو وابن الزكي ، وابن الحرستاني ، والجمال المصري . من ذلك ما كتبه الى الملك المعظم يتهم قاضيه بالميل الى النساء :

أقولها لو بلفتُ ما عسى فالطبلُ لا يُضربُ تحتَ الكُسا
قاضيكَ إنْ لم تُقصه فاخصه أولا فلا يحكمُ بينَ النساءِ^(٥)

(١) مظيلس : مأخوذة من الطيلسان ، وهو كساء اخضر ، يلبسه الخواص من المشايخ والعلماء ، وهو من لباس العجم .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٨٨ - ١٩٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٣١ .

لم يكن في هجائه يبغى الشر دائماً ، وإنما كان يتخذه في بعض الأحيان طريقاً لإصلاح فساد مجتمعه ، أو للتعبير عن شعور إنسانى نبيل . من ذلك أن الملك المعظم أمر بنزح ماء خندق القلعة بدمشق ونال الناس من ذلك جهد عظيم ، فقال يخاطب الملك :

أرح من نزح ماء البرنج يوماً فقد أفضى الى تعب وعسى
ممر القاضي بوضع يديه فيه وفد اضحى كراس الدولعي^(١)

نلاحظ بالإضافة الى هذا الشعور الانسانى النبيل روح الفكاهة والدعابة في إطار من التصوير الفنى الرائع ، وبظهر هذا الاتجاه في معظم مقطوعات الهجاء لبخفف من لذه ، وهو يبدو أجمل ما يكون ظرفاً فيما قاله من ذلك لما أمر الملك العادل أن تسلسل أبواب الجامع الأموي، فخاطب الناس:

سلوه ان أجابكم سلوه سلوه : جن حتى سلسلوه
ولولا أنكم بقر حمير لما منعوكم أن تدخلوه^(٢)

ويشفق الشاعر على الجامع الأموي من نوابه القائمين على أمره ، إذ إنهم يأكلون أمواله بالباطل ، ويعرض مره نائية بسلسلة أبوابه فيسخر من خطيبه، وقاضي القضاة قائلاً :

لما رأى الجامع أمواله مأكولة ما بين نوابه
جن فمن خوف عليه غداً مسلسلا من كل أبوابه
وكيف لا تعتاده جنة وقد رأى المسنخ لأربابه
القرد في شبابه حاكم والتيس في قبة محرابه^(٣)
لم يكتف بقضاة بلاد الشام ، وإنما تجاوزهم الى غيرهم ، حتى إن

(١) المصدر السابق ، ص ٢٣٥ ، والدولعي هو خطيب دمشق .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٣ .

قاضي الهند في « دندوز » لم يسلم من سخريته ، إذ كان يعمل حائكا
فقال فيه :

لله قاضي دَيندوزَ فإنسه قاض إذا أسدى أطالَ وأعزّضا
لولا له لم تُستر ليث عورة فبنا ولا كانت صلاة تترتضي (١)

لم تقتصر روح الدعابة على غرض معين ، بل كانت تظهر في معظم
شعره وتبلغ روح الدعابة ذروتها في القصيدة التي نظمها على لسان جد
الحلوانية (٢) ، وكان يعمل أيضاً حائكا ، فجعلها فخراً يعتز به أحفاده ،
بيد أن باطنه تكمن فيه روح الدعابة والسخرية على أشدهما .

يسمو الشاعر أحيانا ، فيطفي عليه شعوره الانساني النبل ، ويبدو
لنا ذلك واضحا في مراثيه الفريدة التي رثى بها حمارا له مات في الموصل
وجاء فيها قوله :

ليلٌ بأوّل يومِ الحشرِ متصلٌ ومقتلةٌ أبداً إنسانها خضيلٌ
توى المصكّ الذي كنتَ آملته عونا وخيبَ فيه ذلك الأملُ
مكتملُ الخلقِ ، رجبُ الصدرِ منتفخُ الـ

جبينِ ، لا ضامرٌ طاوِر (٣) ولا سَقيلٌ
يطوي على ظمأٍ خمسا أضالعه في بيضة الصيف والرمضاء تشتعل
يرجعُ النهقُ مقرونا ويطرِبني لحناً كما يطرِبُ المزمومُ (٤) والرمْلُ
لو كان يفدني بمالٍ ما ضننتُ به ولم تنصنْ دونه خيلٌ ولا خولٌ
لكنّها خطّة لا بدّ يبلّغها هذا الوري كلّ مخلوقٍ له أجلٌ (٥)

(١) ديوان ابن عنين ، ص ١٢٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٣) سفل : مهزول ، والمصك : الغوي من الناس وغيرهم .

(٤) المزموم والرمل : لحنان معروفان في الموسيقى العربية .

(٥) ديوان ابن عنين ص ١٤٠ ، ١٤١ ، والخول : ما أعطاه الله من النعم والعبيد والاماء

وغير ذلك من الحاشية ، وهو يستعمل للفظ واحد للجمع والمذكر والمؤنث ، وربما قيل
للوّاحد : خائل .

مثل هذا الموضوع نادر في أدبنا العربي ، نذكر منه القصيدة التي رثى بها السئلبك فرسه التي كان يقال لها (النحاتم) (٢) ونذكر منه القصيدة التي رثى بها أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني ديكا له كان يحبه كثيراً ، وعلى الرغم من أن هذه القصيدة قلت في معرض الدعابة ، فمما لا شك فيه أن شيئاً من الشعور الإنساني السامي هز قلب الشاعر شفقة على هذا الحيوان الذي قدم له خدمة كبيرة في حياته .

وصف البعاد والحنين

لا شك أن طبيعة الشاعر الهجائية كانت سبب نغبه عن دمشق مدة من الزمن لا تقل عن عشرين عاماً ، قضاها كما رأبنا بعيداً عن وطنه ، وكان خلال ذلك دائم الاتصال بأخيه يكتب له ، ويصور في رسائله ما يكابده من لواعج الشوق ، وما يلقاه من عذاب البين ولوعة الفراق .

ذكرنا في عرض حياته بعض مظاهر حنينه ، فاستمعنا إليه من وراء النهر ومن أفاصي الهند ، ونستمع له الآن يستهل مدح سيف الإسلام طففتكين بوصف حنينه الى دمشق ، مستعيضاً به عن النسيب التقليدي :

حنين" الى الأوطانِ ليس يزولُ	وقلب" عن الأسواقِ ليس يحولُ
أبتُ واسرابُ النجوم كاتِّها	قنُقول تهادى إثرَهنَّ قنُقولُ
أراقبها في الليلِ من كلِّ مطلعِ	كأني برعى السائراتِ كفيلُ
فيالك من ليلِ نأى عنه صُبْحُه	فليس له فجرُ إليه يؤولُ
دمشقُ فبي شوقُ إليها مُبرِّحُ	وإن لَجَّ واشمَّ أو الحَّ عذولُ
وفي كبدي من قاسيونَ حَزَازةُ	تَزولُ رواسيه وليس تَزولُ

(١) ديوان ابن عنين ، ص ١٤٠ ، ١٤١ .

(٢) المبرد : الكامل ، ج ٣ ص ٦٩ .

إذا لاح برق من سني^(١) تدفقت
هي الغرض الأقصى وإن لم يكن بها
والله ما فارقتهما عن ملالة
ولكن ابت أن تحمل الضيم همتي
سألتم إن وافيتها ذلك الثرى
كسحب جفوني في الخدود سيول
صديق ولم يصف الوداد خليل
سواي عن العهد القديم يحول
ونفس لها فوق السماك حلول
وهيهات حالت دون ذلك حؤل^(٢)

هذه حال الشاعر وهو في اليمن السعيد ، ينبض قلبه باللوعة والحسرة
ويتأثر فيه الشوق الدفين ، ويتشوف منها إلى أرض الشام . أما في الهند
فشأنه أدهى وأمر ، إذ تعصف به الذكريات فيكتب إلى أخيه :

أن حن مشتاق ففاضت دموعه
نعم إنني صب متى لاح بارق
وما قيل قد وافى من الشام مخبر
وأعرض عن تسأل عنك خيفة
فكيف احتيالي بالليالي وصرفها
أحاول أن أمشي إلى الغرب راجلاً
غدت عزل شتى حواليه تعكف
من الغرب لا تنفك عيني تدرف
عن القوم إلا أقبل القلب يرجف
إذا خف كل نحوه يتعرف
بضد مرادي دائماً يتصرف
وأحداثها بي في فم الشرق تقلد^(٣)

تكتفى بهذا القدر من شعره في وصف بعباده ونخلص الى القول إن
الشاعر كان مبرزاً في هذا المضمار ، إذ استطاع أن يسمو بعواطفه نحو
آفاق الشعر الوجداني ، يتغلى عن مشاغل دنياه وتجارته ، ويعيش
في ذكرياته الخاصة كلما تذكر وطنه أو وصله من بلاد الشام رسول
أو كتاب .

مدح ونسيب

استهل الشاعر حياته الأدبية بالهجاء ، فأخاف — كما يقول — الوضع

(١) جبال دمشق المقابلة للبنان ، منها جبل الثلج (حرمون) وجبل (القلمون) .
وفي القاموس المحيط أنها واقعة بين حمص وبعلبك .
(٢) ديوان ابن عثيمين ، ص ٦٨ - ٧١ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٨٣ .

نسب الرفيع ، وأعرض عن مدح الأيوبيين ، إذ وجد نفسه فوق السماك
عزة وتكرماً ، فلم ينل كل ما كان ينمناه ، وكان مصيره النفي مدى
الحياة ، فندم على ما فرط بحق نفسه بعد أن عركته الأيام ، وتآلم
من معاملة الملوك الأعاجم الذين لقهم وهو في طريقه إلى منفاه البعد ،
ورأى البون شاسعاً بين معاملة هؤلاء ومعاملة أولئك ، وحينئذ فقط فكر
في مدح الأيوبيين ، وذم الملوك الأعاجم ، وكأنه يكفر عما بدر منه ،
فيجن إلى داره بدمشق من وراء النهر ، وتنهمر شؤنه ويخاطب
نفسه قائلاً :

أرى شأنك شأنهما انجاس	تجنب مقلتيك له النفاس
أحين ومن وراء النهر داري	حنين العود أوثقه العراس (١)
فكيف تبيت تطمع في مديحي	رجاء نوالها العجم الخساس
ولو أتى مدحت ملوك فومي	تراغت حولي النعم الدخاس (٢)
فإن الناس في طرق المعالي	لهم تبع وهم للناس راس
ملوك دأبهم شرف ومجد	وداب سواهم طرب وكاس
فلولا آل أيوب بن شاذي	لكان لمعهد الجود اندراس
هم تركوا صليب الكفر أرضاً	يداس وكان معبوداً يباس (٣)

أنصف الشاعر الأيوبيين لأول مرة في حياته بعد أن ذاق مرارة النفي ،
وعرف غيرهم من ملوك العجم الخساس .

مدح كما رأينا العادل وأبناءه ، وكانت مدحته التي مرت معنا قبل
دخوله دمشق من أعذب شعره وأرقه . إذ هي صورة جميلة من صور الحنين
والاعتذار والوصف والمدح في إطار واحد .

(١) العراس : الجبل الذي يشد به البعير من عنقه الى ذراعه .

(٢) النعم الدخاس : الكثيرة .

(٣) ديوان ابن عنين ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

أما المدح التي نظمها بعد ذلك لمدح الملك المعظم والملك العزيز فهي
أصدق ما قاله الشاعر في الملوك الأيوبيين عامة .

أحب الشاعر ملك اليمن الأيوبي سيف الإسلام طفتكين ، وأقام
عنده مدة ، وكان ينادمه على شرابه ، وقد طلب منه أن ينهض إلى
شرب المدام قائلاً :

يا بنَ الكرامِ الأولي	منَ السَّابِقينَ إلى المكارمِ
الأولينَ إلى الوغى	والآخرينَ إلى الغنائمِ
انظر إلى زهر الرّيب	مع كأنه زهرُ النّعمائِ (١)
والرّوضُ قد رقتْ وشا	نَحْ بردهِ كف الغنائمِ
وبدا الهلالُ كزورقِ	منَ فضةٍ في البحرِ عائِمِ
فانهض إلى شرب المدا	مِ ولا تطعْ في الرّاحِ لائِمِ
فندينا ثملُ القوا	مِ أغن ساجي الطرفِ ناعِمِ
ما شدّ بندَ قبائِه	إلا وحلّ بهِ العزائمِ (٢)

هذه المدحة هي في الحقيقة صورة حية من خمريات الشاعر ، وقد
بدت شيقة في أسلوبها راقصة في وزنها ، ولم ينل منها ممدوحه غير بيتي
المطلع أما سائرهما فهو مقصور على الزهر والربيع والروض والهلال
والمدام والنديم .

زالت الكلفة بين الملك والشاعر ، ويترامى إليه أن بعض أقاربه
يفريه بامتلاك ساحل الشام عوضاً عن اليمن ، فينبهه إلى خطورة هذا
الأمر ، ويبين له أن الساحل الذي يحتله الفرنجة لا يساوي مدينة عدن
وحدها ، كما ينتهز هذه الفرصة فيفسح أمامه أبواب الجزيرة العربية كلها

(١) النعمائم : النجوم .

(٢) ديوان ابن عين ، ص ١٠٠ ، ١٠١ .

ويحرضه على غزوها ، ويطلب منه تخليصها من اشرافها الذين سلبوا متاعه وهو في مكة ، وقد اشار إلى كل ذلك في قصيدته التي يقول فيها :

ولا تقل ساحلُ الإفرنجِ أملكه فما يساوى إذا قايستهُ عدنا
وما تريدُ بجسمٍ لا حياةَ له ؟ من خلّص الزّبدُ ما أبقي لك اللّينا
وإن أردتَ جهاداً روّ سبفك من فومٍ أضاعوا فروضَ الله والسننَا
طهرُ سيفك بيتَ الله من دنسٍ وما أحاطَ به من خسةٍ وخنا
ولا تقل إنهم من آلِ فاطمةٍ لو أدركوا آلَ حربٍ قاتلوا الحسنَا (١)

مدح الشاعر أيضاً الملك المعظم ، وكانت تربطه به مودة خالصة وصداقة وثيقة ، فهو صديقه الوفي ووزيره الأمين ، يستشيريه في كثير من الأمور ، وكان يقف منه معارضاً في بعض الأحيان ، حتى اذا لم يأخذ بمشورته طلب منه أن يقله من منصبه كما مر معنا .

كان الشاعر يبثه أشجانه في مدحه الكثيرة ، ويصور له ما لقيه في ماضي أيامه من عذاب الغربة ، وهو يشقق قلب الشرق .

كانت مصر كما رأينا أحد الأمصار التي حلها الشاعر ، وقد لقي فيها الحفاوة والإكرام من أدبائها وشعرائها ، واحتفل به ، وعملت له الدعوات كما يقول ابن خلكان .

ذكر الشاعر كل ذلك ، وحن إلى المجالس الأدبية على ضفاف النيل ، إذ كانوا يجتمعون به على أرغد عيش ، فكتب إلى الملك المعظم خلال وجوده بمصر من دمشق يحمله تحيته :

نحيةً مشتاقٍ بعيدٍ مزاره أبى شوقه أن يستقرّ قراره
إذا نفحةً مرّت به قاهريةً ذكت في الحشا بين الجوانح ناره
وما شام من أعلى المقطم جفنه سنا بارقٍ إلا توالى قطاره

أحنّ إلى مصرٍ ويا ليتَ أنّ لي إذا ذكرتُ مصرَ جناحاً أعارهُ
فأوى إلى ظلِّ ظليلٍ ونائلٍ جزيلٍ وملكٍ حالفَ العزَّ جارهُ (١)

هكذا كانت مدحه تضم في إطارها وصف الطبيعة ، والتغني بالخمير ،
والحنين إلى دمشق ، بالإضافة الى النسيب الذي نختم به هذه الدراسة .

استهل الشاعر قصائده بالنسيب في بعض الأحيان ، ونعت محبوبه
بالصفات المعروفة لدى شعراء هذا العصر ، وهو غالباً ما يكون من طباء
الترك (٢) ، فيتغزل بضيق العينين والمقل كما في قوله :

لا تعرضنّ لضيقِ المقلِّ فتبيتَ من أمنٍ على وجلٍ
وانركِ طباءَ التركِ سائحةً لا تعرضنّ لجبالِ الأجلِ
من كلِّ مائسةٍ منعمةٍ غرثى الأياطلِ فعمّةِ الكفلِ (٣)

يلاحظ أن الشاعر لم يقتصر على وصف طباء الأتراك وضيق مقلها ،
وإنما تعداها إلى التغزل بمحاسن هندي (٤) وزنجي (٥) ، كما راقته صباحة
الوجوه في خوارزم ، ولكن أقلقه مؤذنها (٦) ، فهو بذلك قد تأثر
ب نماذج مختلفة من الجمال الذي لم يعهده في بلاده خلال ترحاله وتنقله
في منفاه البعيد .

الأحاجي والألفاظ

يوجد في ديوانه باب كبير مستقل في الألفاظ ، وكان يطارح بها الأدباء
والشعراء في مجالس سمر الملك المعظم ، فهي مظهر من مظاهر اللهو
الفكري والنشاط العقلي بأسلوب شعري في هذا العصر . كان الأدباء

(١) ديوان ابن عنين : ص ٩١ ، ٩٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٠ ، ١٠٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠ ، ٤١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١١٢ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١١٢ .

(٦) المصدي السابق ، ص ٢٤٠ .

يكتبون إليه ويسألونه ، فنجيبهم شعراً ، ويحل لهم اللفز المطلوب ملمحاً أو
 مصرحاً بالجواب . كتب إليه الملك المعظم لغزاً في « الإسلام » :
 أي شيء تراه حقاً يقيناً حالما اعوجَّ في الزمان استقاماً (١)
 فأجابه الشاعر بديهاً مصرحاً بالجواب :

أيها السيد الذي جعل الشَّرَّ لك خطاماً وشيئاً الإسلاماً
 قد أتاك الجوابُ لا سكَّ فيه فاتخذني للمثلاتِ إماماً (٢)
 استخدم الشاعر الإلفاز للتعبير عن رأيه في كثير من أموره التي
 لا يستطيع الجهر بها ، فهو يستنقل العروض الدينية ، وبخاصة منها
 الصلوات الخمس ، وقد ألزم بها مراراً ، منها أنه لما خرج مع أصدقائه إلى
 كهف بسفح جبل قاسيون ، فصادفوا زاهداً هناك فقص سبأهم ، والزمهم
 الصلاة ، فأنشد في ذلك شعراً ذكر فيه أن الصلاة من المصائب التي لا تتقى (٣) ،
 ومرة ثانية لما دخل المسجد الأقصى وزار قبة الصخرة فشكا إلى الله مما
 يلاقيه : « كل أرض فيها على الناس سخرة » (٤) ، وأينما سار في بلاد الله
 ألفى « ثمَّ كهفاً وصخرة » (٥) . فلا غرابة إن كتب إلى الصلاح الإربلي في
 الصلوات الخمس ملغزاً ، يعبر عن رأيه الخاص في هذا الأمر الديني ،
 ويبيدي استيائه :

يا أولي العلم خبروني فإنني ضاقَ ذُرعي وضلَّ تاقبُ فهمي
 عن ثلاثٍ لزممتني أخواتٍ مفصحاتٍ نيطتْ بثنتين عجمٍ
 فاعجبوا من عجائزٍ لزممتني كلَّ يومٍ إتيانهنَّ برغمي
 لا ينجي الفرارُ منهنَّ في الـ بحرٍ ولا في ذرا الجبالِ الشَّمِ
 ولو أني طلقتهنَّ سرَّبلُ لـتُ بعارِ الدنيا وبؤتُ بأنمي
 ويحُ أعضاءي من زواجِ النَّصاري بسوى الموتِ لا يفرِّجُ همِّي (٦)

(١) المصدر السابق ، ص ١٥٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٣٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٣٩ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٦٦ .

تلك هي قصة الاحاجي والالغاز في شعره ، إذ هي مظهر من مظاهر أدب هذا العصر ، بيد أنه يتميز عن غيره أنه اتخذها دريئة يلصق من خلالها بآرائه في الدين والمجتمع والسياسة .

(٣)

مذهب الفني

يمكننا بعد عرض أغراض شعره أن نوضح مذهب الفني ، فهو فيه بنهج نهج الشعراء المعاصرين ، ويرسم الصور البيانية ويستخدم الزخارف البديعة ، بيد أنه لابالغ فيها كثيراً ، وإنما يقتصد في صنعها ، ويخرجها مخرجاً ليناً لئلا نطفي على طبعه السليم وأسلوبه السهل الذي ينحدر الى العامة في بعض الأحيان كما سنرى .

والمعروف عنه أنه كان ضليعاً في ثقافته ، وقد حاول أن يعكس هذه الصورة من خلال مرآة شعره ، فاستخدم مصطلحات علوم العربية، وبخاصة منها ما يتعلق بالصرف والنحو ، نذكر من ذلك قوله :

فداؤك كل من أمسى لبخل تده كائنه علم منادى (١)

وكتب الى ابن شكر :

ولانت إن رفع امرؤ من غيره كالمبتدا سبب ارتفاعك معنوي (٢)

وكتب الى صدر جهان :

لسم اخترتني وقد مت غيري ؟ انا حال ، وغيري استفهام ؟ (٣)

وكتب الى الملك المعظم :

أنا ك « الذي » أحتاج ما يحتاجه فاعنم نواي والنساء الوافي (٤)

وقال في عالم صرف من عمله :

ولا تغضبني إذا ما صرفت فلا عدل فيك ولا معرفه (٥)

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٩٩ .

ثمة ظاهرة ثانية في مذهبه الفني ، وهي عدم تحرجه من استعمال
الألفاظ العامية والتراكيب الشائعة المتداولة بين الناس ، إذ كان يهدف في
شعره الى التعبير الصادق عن نفسياتهم بأسلوب قريب من الأفهام الساذجة ،
وأدعى الى التصوير الفني في رسم الصور الساخرة ، فمن ذلك قوله :
لا الحاكم المصري^(١) ، ينفذ حكمه فبها عليّ ولا العواني^(٢) الموصلي^(٣)

وقوله أيضاً :

هم تركوا صليب الكفر أرضاً بداس^(٤) وكان معبوداً يباس^(٥)

يضاف الى الألفاظ العامية استخدامه التراكيب الشائعة مثل قوله «دق
حنك»^(٥) و « ما قصر »^(٦) و « ذقن »^(٧) . . .

وثمة ظاهرة ثالثة تسرعى انتباهنا ، وهي السهولة المتناهية المطبوعة في
أسلوبه ، ويظهر أن الأغراض التي كان يتناولها في شعره اضطرته الى هذا
النوع من التعبير المفهوم من الطبقة الشعبية ، ولا سيما أن هذا العصر ابرز
لنا فنونا شعبية كما سنرى في الفصل المقبل ، كان اللغة العامية فيها أوفر
نصيب . فمن ذلك قوله في معرض النكتة والإحماض :

هذا ابن هرون الذي في عصرنا لا يفلح^(٨)

(١) المصري : جمال الدين يونس بن بدران بن فيروز المصري ، المتوفى سنة ٦٢٣ هـ
وهو قاضي قضاة دمشق (البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ١١٥) .

(٢) ذكر محقق الديوان أن العواني لفظة عامية معروفة ، وما زال أهل دمشق
ينبدون بها كل من لا يؤمن شره من أعوان الحكومة ، ويظهر أن أصلها « أعواني » .

الموصلي : المبارك ابراهيم بن موسى المعروف بالمتعمد ، أصله من الموصل ، والمتوفى
سنة ٦٢٣ هـ (البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ١١٥) .

(٣) ديوان ابن عنين ٢ ص ٨٥ .

(٤) لفظة عامية من أصل فارسي أي يتقبل . ديوان ابن عنين ، ص ٣٣ .

(٥) ديوان ابن عنين ، ص ٢٠٩ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .

(٧) يقول محقق الديوان : من الشنائم أن تضاف لفظة ذقن الى ما لا يحسن ذكره .

(٨) ديوان ابن عنين ، ص ٢٢٩ .

يضاف الى ذلك استعمال الالفاظ البذيئة،حتى ان جامع الديوان حذف من هجاء خليفة بغداد بعض الالفاظ النابية التي لا يليق ذكرها .

وعلى الرغم من كل ذلك ، فما كانت هذه المآخذ لتقلل من اهميته كشاعر كبير من اعلام شعراء هذا العصر في بلاد الشام . يقول ابن خلكان : « كان خاتمة الشعراء لم يأت بعده مثله ، ولا كان في أواخر عصره من يقاس به (١) » .

ونحن نقف من أمثال هذه الأقوال المعممة موقف الحذر ، كما عودنا عليها النقاد القدماء . وما كنا لنبخس الشاعر حقه ، وإنما نريد أن نقول: إنه مبالغ في ذلك القول ، ولكن مما لا شك فيه أن الشاعر كان صادق التعبير في وصف حياته وذاته ، وأفصح عن آرائه في الناس كما خبرهم دون تحرج أو خوف .

وابن عنين بعد كل ذلك شاعر الشام في عصره ، إذ كان الناس يحتكمون اليه فيما يشتجر بينهم من خصام أدبي وخلاف نقدي ، فقد « كان من أخبر الناس بنقد الشعر » (٢) .

روى ابن خلكان أنه سئل مرة عن قصيدة للشاعر العكوك ، وأخرى لأبي نواس موازية لها في الوزن والقافية ، فلم يفضل إحداها على الأخرى ، وقال : « ما يصلح أن يفاضل بين هاتين القصيدتين إلا شخص يكون في درجة هذين الشعارين » (٣) .

ننتهي من كل ذلك لنقول ان ابن عنين كان أحد اعلام الأدب ، وكان يمثل الوساطة بين مدرسة التطبيق والتجنيس التي كانت سائدة قبله ، ومدرسة التورية والانسجام التي ستزدهر على يد الشرف الأنصاري .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٤٨ .

الشرف الأنصاري

شيخ الشيوخ

القبس الأول

حياته وآثاره

(١)

مراحل حياته

في دمشق الفيحاء (١) . وفي درب الكشك (٢) ، أحد أحيائها القديمة ولد الشاعر الكبير ، شيخ شيوخ حماة (٣) ، ورئيسها صاحب شرف الدبن (٤) ،

(١) سبق أن نشرنا هذا البحث بقسميه الأول والثاني في مجلة المجمع العلمي العربي في الجزئين الثاني والثالث من المجلد الأربعين لسنة ١٩٦٥ .

(٢) درب الكشك : أورد ابن عساكر ذكره في تاريخ مدينة دمشق مرتين ، أولاها عند حديثه عن « مسجد في درب كشك عند الأطباء » وكان الدرب قديماً يعرف بقرا قرون الحجري » ، وثانيهما عند حديثه عن « قناة في درب الكشك » (ج ٢ ص ٧٢ ، ١٥٩) .

ويقع درب الكشك في حارة اليهود الحالية بين محلي باب شرقي والشاغور جنوب الدرب المستقيم المتد من باب الجابية الى باب شرقي . وقد ذكر ابن شداد أن المدرسة المزية الجوانية واقعة بالكشك . (الأعلام الخطيرة ج ١ ص ٢١٥) .

(٣) انظر الى حديث اللقلقشندي عن مشيخة الشيوخ وخصائصها (صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣٧ ، ٢٣٨) .

(٤) السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٥ ص ١٠٨ ، وابن شاعر : فوات الوفيات ، ج ١ ص ٣٦٥ ، وأبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٢٣١ ، وابن تفردي بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٢٣١ ، والمنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٢٢٩ ، واليونسي : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) و ١١٩ ، وأبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٣ ، وابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٠٣ ، وابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ص ٣٠٩ ، والسيوطي : نفحة الوعاء ، ج ١ ص ٣٠٩ ، والصابوني : تاريخ حماة ، ص ١٣١ .

أبو محمد ، عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن بن محمد بن منصور بن خلف
الدمشقي ، المعروف بـ «ابن الرّفاء» ، ضحى الأربعاء في الثاني والعشرين من
جمادى الاولى سنة ٥٨٦ هـ .

- وهو عربي صميم من قبيلة أوس الأنصارية ، وكانت تسكن كفرطاب (١)
مع سكانها من بهراء وتنوخ ، وقد أشار الى نسبه في شعره بقوله :
وإذا ما الأوسُ عُددوا فإني من ذويهم في لبابِ اللبابِ (٢)
وأشار الى الأنصار بقوله :
إن كنت لم افتقد غمضي لفقدكم فلا وجدت من الأنصار أنصاري (٣)
هاجمت الروم والفرنجة هذه المدينة ، فستت شمل سكانها ، إذا
أخرجتهم من ديارهم ، فانتقل أبوه الى دمشق ، وجمع بين عمله التجاري
في سوق الخواصين والنيابة عن ضياء الدين الشهرزوري في القضاء والأوقاف
سنة ٦٨٢ هـ ، ثم انتقل أبوه بعد ذلك الى حماة ، وولي نظر أوقاف الملك
المنصور الاول بطلب منه ، وكان في الوقت نفسه ناظر أوقاف الخليفة العباسي .
يؤكد ذلك قوله للرئيسد المصري القائم على وزارة ماله لما امتنع عن الحضور
عنده : « وهذا ليس لك عليه اعتراض ، ولا وليته إلا بالإكراه ليكون ناظر
أوقاف الخليفة ناظر أوقافي » (٤) .

يؤكد هذا الخبر أنه انتدب من قبل الديوان العزيز ببغداد لعقد نكاح
بعض مماليك الخليفة على بعض جواريه ، فارتجل بديهاً أمام الحاضرين خطبة
من روائع خطب العقود (٥) ، إذ المعروف عنه أنه كان ماهراً في الخطابة والترسل

(١) كفرطاب : ذكر ياقوت أنها بلدة بين المعرة وحلب في برية معطشة ، وأهلها
ليس لهم شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار في الصهاريج (معجم البلدان ،
ج ٤ ص ٤٧٠) .

(٢) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٨ ، والديوان ص ٨٤ .

(٣) مصورة مخطوطة الشرف الأنصاري ، ل ٣٢ ، والديوان ص ٢١٠ .

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) و ١٣٨ . والملحق الثاني من الديوان ص ٥٩٢ .

(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) و ١٤١ . والملحق الثاني من الديوان

ومطبوعاً على نظم الشعر . وقد حاول أن يدرب ابنه عليه بتلك المطارحات الشعرية الجميلة منذ نعومة أظفاره .

كان شرف الدين معجباً بأبيه ، وقد أشار الى جلالة قدره وكريم محتده في معرض قوله يسخر به ويتحدث عن فومه الانصار الذين بايعوا الرسول تحت الشجرة :

تَفَرَّ كَالْحُمُرِ الْمُسْتَفِيرَةِ أَجْفَلَتْ هَارِبَةً مِنْ قَسُورِهِ (١)
 طلبوا شأوي ولما يلحقوا بعد لأي من غباري أثره
 من يسألني أسأله ومن رام حربي فأليه العذرة
 وأبي من قد علمتم قدره منجهر بالخطبة المسحفرة (٢)
 من يشاجرّه يصادف قومه جل من بايع تحت الشجرة (٣)

في مملكة حماة الأيوبية ، وفي بيئتها العلمية التي ازدهرت في عهد ملوكها من احفاد الملك المظفر تقي الدين ابن أخي صلاح الدين ، وفي عصرها الذهبي خلال حكم اكبر ملوكها المنصور الأول ، الأديب العالم الذي سمع الحديث في الاسكندرية عن الحافظ السلفي ، وصاحب النأليف المشهورة ، نشأ شرف الدين فاستكمل علومه الدينية والادبية بإشراف والده ، فقرأ القرآن الكريم برواياته المختلفة ، واشتغل بالادب على أبي اليمن زيد بن الحسن الكندي ، وسمع منه كثيراً (٤) ، حتى إذا نال قسطه من العلوم والمعرفة ، شرع يرتحل مستزيداً من ثقافته وعلمه ، والتقى بمشاهير العلماء في عصره ، نذكر منهم شيخه سيف الدين الأمدي ، وكان يكاتبه (٥) . كما ذكر ابن شاعر أن والده رحل به ، وأسمعه جزء ابن عرفة من ابن كلسب وأسمعه المسند كله من عبيد

(١) القسورة : الاسد .

(٢) المسحفرة : يقال اسحفر الرجل في خطبته أي مضى واتسع في كلامه ولم يتمكث .

(٣) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٣٥ ، والديوان ص ٢٢٣ .

(٤) اليونسي : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) و ١١٩ ، وابن شاعر : فوات

الوليانيات ، ج ١ ص ٣٦٥ .

(٥) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٩ ، والديوان ص ٨٦ .

الله بن أبي المجد الحربي (١) .

نظم الشاعر في بعض رحلاته عن حماة في أيام صباه قصيدة ، صور فيها

نفسيته ، ووصف طموحه الى المجد والمعالى :

أَملُ كتمانِ الهوى وهو واضح ودمعي يومَ البينِ بالسَّـرِّ بائحُ
لعمري ، لقد حاولتُ ما لا أنالهُ كما حاولتُ إمساكَ قلبي الجوارحُ
لعلَّ بعادي عن حماة بعيدني تخافُ السُّطامني وترجى المنائحُ
لأهزمَ جيشَ المالِ وهو عرممُ وادفع صدر الخطب والخطب فادح
على أنسي قد كنتُ فيها مكرماً براع لكراتي القرومُ (٢) الجحاجح (٣)
مقيماً بربعٍ الدَّيرِ جسمي وصحبتني وقلبي بربعِ القفرِ غادرٍ ورائحُ
يَهيجُ أشجاني به كلَّ ليلةٍ وتصرفني ، عما يقولُ ، النَّواصحُ
بدورٍ من البابِ المصراعِ (٤) ، طُلُعُ ومسكُ من البابِ المصراعِ فائِحُ (٥)

كان سعيداً في حماة خلال سني طفولته وصباه ، فأبوه قاضي قضائها
يثقفه ويرعاه ، وكانت ملامح النجابة تلوح عليه منذ صغره ، داعب الغرور
نفسه في مثل هذه السن المبكرة .

صحب والده ، فزار بغداد وغيرها ، وسمع فيها عن مشاهير علمائها
ومحدثيها ، وعاد الى بلاد الشام ، وتنقل في أرجائها فترة من الزمن ، وأثر
عنه أنه حدث بدمشق وحماة والقاهرة ، وانتهى به المطاف الى بعلبك فأقام
فيها وقتاً قصيراً ، تخرج على يديه تلامذة كثيرون ، منهم تلميذه ابن الموفق
البعلبكي وكان يكاتبه (٦) ، ويظهر انه ترك في هذه المدينة القديمة صداقات
وثيقة استمرت مدى حياته .

(١) ابن شاکر : فوات الوفیات : ج ١ ص ٣٦٥ .

(٢) القروم : جمع القَرَم ، وهو السيد .

(٣) الجحاجح : جمع الجحاجح ، وهو المسارع الى الكارم .

(٤) المصراع : صرع الباب أو البيت : جعله ذا مصراعين .

(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) و ٣١ ، وملحق الديوان الاول ص ٥٤٣ .

(٦) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ١٣ ، والديوان ص ١١١ .

لم تطل إقامته فيها طويلاً ، فرجع إلى حماة ، واستقر فيها نهائياً ونسب إليها ، ولقي الإقبال والتشجيع من ملوكها ، فنبه شأنه ، وسار ذكره في الآفاق ، فامه طلبة العلم ، وغدا كعبة القصاد ، يدلفون إليه لينالوا منه الإجازة من مختلف الأقطار والأمصار ، نذكر منهم : الدمياطي، وأبا الحسين، وابن الظاهري ، وبدر الدين بن جماعة . وعز الدين بن القاضي الفاضل ، وسبط ابن الجوزي ، وغيرهم كثير ، وكان بعضهم أكبر منه سناً ، وقد عده الأقدمون من أذكى بني آدم المعدودين (١) .

كانت منزلته العلمية في صعد مستمر، فأصبح يدعى بشيخ شيوخ حماة بجانب والده الذي كان قاضى فضاها ، فاحترمه ملوكها ، ونظروا إليه نظرة الإجلال والتقدير ، فاعتمدوا عليه في توطيد أركان ملكهم ، واستشاروه في كثير من أمرهم ، لأنه كان مستقيماً في سيرته .

مدح الشاعر الملك المنصور الأول بمدح كثيرة ، فهو وزيره وشاعره ، ولما ولدت له زوجته ولده محموداً ، لم يقتصر على مدحه بل مدحها بقصيدة مستقلة ، وذكر في عنوانها « وقال يمدح الملكة عصمة الدين مهناً » :

يا عصمة الدين والعليا والجود	لك الهناء بعز غير محدود
يامن غدت خير أملاك الزمان لقد	ولدت ملك البرايا خير مولود
ظفرت بالحمد من إذ أتيت به	مظفراً من بني أيوب محمود
وافى نبشّر من ميلاد إخوته	في إثره بالملك السادة الصيّد
فدام في ظلك الضائي ودمت له	ونلت منه وفيه كل مقصود
وإن يكن جاء بعد العيد مولده	فإننا كل يوم منه في عيد (٢)

مات المنصور الأول واضطرب أمر الملك من بعده ، فاستولى الملك قليج أرسلان على زمام الحكم سنة ٦١٧ هـ بمساعدة خاله الملك المعظم صاحب

(١) ابن شاعر الكبي : فوات الوفيات ، ح ١ ص ٣٦٥ ، والسبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٠٨ .

(٢) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٦٧ ، ٦٨ والديوان ص ٤٠٢ ، ٤٠٤ .

دمشق ، وهو ليس بصاحب الحق الشرعى ، ذلك أن اخاه العهود إليه بالملك كان غائباً بمصر في زيارة خاله الملك الكامل ، ولما عاد لتسلمه حذرته وخوفه من التعرض لأخيه ، لكن المظفر الثاني لم يكف عن المطالبة بحقه ، فحاصر حماة بمساعدة عمه ، وراسل حكامها خفية ، واتفق معهم أن يفتحوا له باب النصر في وقت السحر ، فتم له ما أراد ، ودخل المدينة مظفراً ، وتربع على عرش الملك سنة ٦٢٦ هـ .

كان الشاعر من انصاره ، وكان على رأس المهنيين ، فمدحه بقصيدة جاء فيها قوله :

تناهى إليك الملك واشتد كاهله	وحل بك الرّاجي فحلّت راحله
الا هكذا فليمنع الجدد مانع	الا هكذا فليبدل الرّفد باذله
سبقت الى ورد العلاك سابق	فما نال إلا فضل ما أنت نائله
إذا فاعل رام ارتفاعاً بفعله	ففعلك مرفوع لا تك فاعله
أبرّ تقى الدين جوداً وسوداً	فتمت عطاياه وتمت فضائله
فما لبني أيوب ملك مساجل (٣)	فأتنا كل يوم منه في عيـد (٢)

تؤكد هذه القصيدة أن الشاعر كان غير راض إطلاقاً عن حكم الملك المعتصب حق أخيه ، فعارضه وناهضه حتى عاد الحق الى نصابه وكان هذا الحدث فاتحة عهد جديد في حياته .

اختاره المظفر الثاني ليلى وزارته ، وبسوس أمور الملك بما عرف عنه من رجاحة العقل وأصالة الرأي وطيب الأحدوة ، فمدحه بقصائد كثيرة ، نذكر منها تهنئته بميلاد ولي هذه المنصور الثاني ، وجاء فيها قوله :

(١) ساجله : يراه أو فاخره أو عارضه في جري أو قول شعر .
(٢) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٦٧ ، ٦٨ والديوان من ٤٠٢ ، ٤٠٤ .

غدا الملك محروس الذرا والقواعد
 عليك تمنته الممالك حقة
 حيننا به يوم الخميس كانه
 وسميته باسم النبي محمد
 كاتي به في سدة الملك جالساً
 ووافاك من ابنائه وبينهم
 ألا أيها الملك المظفر دعوتي
 هنيئاً لك الملك الذي بقدمه
 بأشرف مولود لأكرم والد
 فأوفى عليها مرغماً كل حاسد
 خميس بدا للناس في شخص واحد
 وجدته (١) فاستوفى جميع المحامد
 وقد ساد في أوصافه كل سائد
 بأنجم سعد نورها غير خامد
 سيورى بها جدتي ويشته ساعدي
 ترحل عنا كل هم معاود (٢)

يتضح لنا مما تقدم أن شرف الدين كان مكين الصلة بالأسرة الأيوبية الحاكمة ، وهو في الواقع القاعدة الراسخة التي أقيمت عليها دعائم هذا الحكم المستقر بحماة ، وهو في غيرها يعتوره الاضطراب والنقلب حتى زال نهائياً ، وبقي وحده في حماة خلال عصر سلاطين المماليك .

تؤكد هذه الحقيقة فتبدو جلبة حين موت الملك المظفر ، وكان ولي عهده المنصور الثاني حدناً غراً لم تتجاوز العاشرة من عمره ، وتوجه الأنظار الى إقامة أوصياء على الحكم ، ويمر الامر بسلام ، ويكون الإجماع على الشاعر ليكون الرأس المدبر لهذا المجلس الذي أقامته أم المنصور غازية خاتون بنت الملك الكامل . وأما سائر أعضائه فهم الوزير بهاء الدين بن الساج ، والطواشي مرشد ، وسيف الدين طغرل . تربع المنصور على عرش ملكه بعد بلوغه سن الرشد ، وساد الأمن والاستقرار في ربوع المملكة ، حتى إذا ما توفيت غازية خاتون برز الخلاف على أشده بين الملك وأخيه الأفضل ، فعزم على أن ينتزع عن حماة ، وبغادر أخاه ، بيد أن شرف الدين قد تدارك بحكمه هذا الخلاف ، فاجتمع بهما ، وأزال ما كان عالقاً في خاطر بهما من سوء ، وعادت الأمور على خير مما كانت ، وساد ملك حماة السلام والوئام بين الأخوين .

(١) جداه : هما أبو أمه الكامل محمد ، وأبو أبيه المنصور صاحب حماة محمد أيضاً .

(٢) المصدر السابق ، ل ٢٥ ، ٢٦ ، والديوان ص ١٧٥ - ١٧٧ .

كان المنصور يحب وزيره الشاعر ، وكانت تربطه به صلة من الصداقة ،
فقد كتب إليه مرة يعاتبه فأجابه قائلاً :

برق سرى من غوادي جلق ففدا	لنوره مثل قدح النار في كبدي
أهدى إلي عتاباً من مليك هدى	أرق من والد يحضو على ولد
أودى بجوهر لفظي بعدكم عرض	أفنى الذي أبقت الأيام من جلدي
وسار في ركبكم قلبي وذبت ضنى	فاعجب لروح بلا قلب ولا جسد
حتى أتانى سال ، رد لي فرحي	فرحت أرفل في أثوابه الجدد (١)

أسهم شرف الدين بما له من مكانة في توطيد الصلات بين ملوك مصر والشام على السواء ، إذ كان أبعد نظراً من هؤلاء الذين كانوا يثيرون الخصومات ، ويرون ضرورة استقلال كل ملك ببلده ، ويود لو عادت الوحدة السياسية كما كانت في زمن صلاح الدين وأخيه العادل سيف الدين ، ولهذا السبب كنا نراه يتردد على دمشق والقاهرة في مهمات ملكه المنصور .

يؤكد ذلك أنه سافر إلى القاهرة صحبة الملك الناصر الثاني سنة ٦٤٧هـ ، وأغلب الظن أن سفره كان بسبب الخطر الداهم بعد استفحال أمر التتار القادمين من الشرق ، والذين باتوا يهددون معالم الحضارة الإسلامية في بلاد الشام بعد أن طرقت أبواب بغداد . ولم تمر أعوام معدودة حتى حدث ما كان في الحسبان ، فأحرقت بغداد ، واكتسحت جيوش هولاكو الغازية أرض الشام بعد عام واحد من سقوط بغداد .

فر الملك المنصور إلى مصر بحريمه وأولاده ، وطلب نجدة السلطان قطز ، فلبى طلبه ، وخرج على الفور معه ، إذ بات الخطر يهدد مصر نفسها، وهكذا التقى الجمعان ، وولى التتار الأدبار ، ولاذوا بأذيال الفرار ، وهرب معهم

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٢٤ ، والديوان من ١٦٩ .

نخسروشاه عامل هولوكو على خماة ، وعاد المنصور الى ملكه ، فأقبل عليه
شاعره شرف الدين مهنتاً ومادحاً :

رعت العدا فضمنت كل عروشيها ولقيتها فأخذت فل جيوشيها
نازلت أملاك التتار فأنزلت عن فحلها قسراً وعن إكديشيها
فعدا لسيفك في رقاب كماتها حصد المناجل في يبيس حشيشها
رويت أكباد القنا بدمائهم لنا أطال سواك في تعطيشتها
أقدمت مقتحماً على نشأها(١) تكسو الجياد رياشها من ريشها
دارت رحى الحرب الزبون(٢) عليهم فعدت رؤوسهم حطام جريشيها
وطويت عن مصر فسيح مراحل ما بين بركتها(٣) وبين عريشيها
حتى حفظت على العباد بلادها من رومها الأقصى إلى أجبوشها(٤)(٥)

وذكر هذه الواقعة الهامة الفاصلة في التاريخ الإسلامي ، في مدحة ثانية ،
جاء في قوله :

محمد خير ماجد يقظ يرضى هداه محمد القرشي
صادم جيش التتار مقتحماً ما جشأت نفسه ولم تجش
لما طغى كبشه تعمدة فصير الرأس منه في الكرشي

(١) النشأ : النبل والسهم ، واحده نشابة ، وقوم نشابة يرمون بالنشأ ،
والنشأ ، متخذه .

(٢) الزبون : حرب زبون شديدة يدفع بعضها بعضاً ، وأصل معناها الزبون من الأبل
والنوق الكثيرة تدفع بثغنا وجليها عند الحلب .

(٣) بركتها : نطن أنها بركة الحبش ، وهي أرض في وهدة من الأرض واسعة طولها نحو
ميل ومشرقة على نيل مصر خلف الغرافة (معجم البلدان ، ج ١ ص ٤٠) .

(٤) الأجبوش : جماعة الحبش .

(٥) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٤٣ ، ٤٤ ، والديوان ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

فأسلموا الشام بعدما طمعوا في ملك أرض الحجاز والحبش (١)

كما كان يترسل إلى الخليفة في بغداد وغيره من ملوك الأقاليم ، وكان مؤتمناً ومحبوياً لدى الجميع لنبل أخلاقه وسمو مقصده، وكانت له صداقات شخصية تربطه بكثير ممن عرفهم من ملوك عصره ، نخص بالذكر منهم الملك الناصر والملك الأمجد وغيرهما . وكنا أشرنا إلى أنه توجه إلى مصر صحبة الملك الناصر وكثيراً ما كان يرأسله ويكتب إليه بخطه رسائل يضمنها بعض شعره الذي ينظمه في مدحه ، وكان في بعض الأحيان يوفد إليه رسولاً يستدعيه ليقوم عنده بعض الوقت ، كما حدث ذلك عندما توجه إلى حلب وعمان .

حدث ذات مرة أن توجه الناصر إلى حلب ، فأرسل كاتبه يستدعيه للقاءه فحضر إليه ، وأقام عنده ، ثم عزم على العودة إلى حماة لخدمة مولاه ، فخرج الملك الناصر لوداعه، فلما أبعد عن البلد أقسم شرف الدين عليه فأنشده:

يا من يعزُّ علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم
فأجابه شرف الدين ببیت آخر من فصيحة المنبي نفسها :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم

فقال له : « والله لتعودن » ، فرجع وأقام عنده عشرين يوماً أخرى (٢) . تلك هي حبة الشاعر الوزير ، مرت بهدوء وسلام ، فأحبه الناس ، واصطفاه الملوك لأنفسهم ، ولم يعرف عنه أنه أساء إلى إنسان أو انتقم منه ، ولم يعرف عنه أنه اضطهد أو عزل من أحد مناصبه خلال حياته المديدة التي عاصر فيها معظم الملوك الأيوبيين في حماة ، وشملت في الوقت نفسه شطرين من تاريخ الأيوبيين والمماليك على السواء .

استمر على عمله مدى حياته حتى أيام المظفر الثالث، فوافته منيته ليلة

(١) المصدر السابق ، ل ٤٣ ، والدبران ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(٢) ابن تغري بردي : النهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٢٣٠ .

الجمعة الثامن من رمضان سنة ٦٦٢ هـ، ودفن بظاهر حماة في التربة الخاصة التي أعدها قبيل موته .

(٢)

آثاره الأدبية

نظم شرف الدين في حياته الشعر الكثير ، وقد عرف الأقدمون غزاه ، فأشار إلى ذلك قطب الدين البونيني بقوله : « وللشيخ شرف الدين أشعار كثيرة لا يجمعها ديوان ، وكان من حسنات الدهر ومحاسنه » (١) .

أشار الأقدمون إلى وجود ديوان له . فذكر ابن حجة أنه رآه ، وأخبر منه زاوية اتحف بها خزانته (٢) ، وذكر ابن نباتة المصري أنه اختار منه جملة ، وصنفها في مجموع خاص (٣) . توجد من هذا الديوان نسخة مخطوطة نفيسة بخط الشاعر نفسه في مكتبة بيازيد في استنبول ، ولكنها لا تجمع أشعاره الكثيرة ، إذ ثبت لدينا أن الشاعر أسقط منه قصائد كثيرة ، بل أنه أهمل إيراد حتى بعض الأبيات التي لم ترقه ، أو التي تحمل طابع المبالغة ، وهي مرتبة بحسب الحروف الأبجدية (٤) .

أشار الصفدي إلى وجود ديوان آخر له ، فذكر « أن له في لزوم ما لا يلزم مجلداً كبيراً » (٥) ، بيد أننا لم تهتد إلى مكان وجوده . واغلب الظن عندنا أن قصائد هذا الديوان موجودة في الديوان الأول المار ذكره (٦) . وآية ذلك أننا

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) و ١٣٨ .

(٢) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٥٦ .

(٣) انظر في كتابنا ابن نباتة المصري ، ص ٢١٩ .

(٤) كنا حصلنا على مصورة مخطوطة الديوان المذكور ، وقد أنبينا تحقيقه وشرحه ،

وتم نشره في مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦٧ .

(٥) ابن شاعر : فوات الوفيات ، ج ١ ص ٢٨٩ .

(٦) جمعنا مقتطفات هذا الديوان في اللزوميات في الفهرس ٦٢٥ - ٦٣٣ ؛

لاحظنا كثرة اللزوميات فيه بشكل يسترعي الانتباه ، حتى إنه كان في معظم الأحيان يشير إلى كل لزومية واردة فيه، ويكتب الحرف الذي التزم في القافية بالإضافة إلى الروي .

يضاف إلى ما ذكرناه أن الشاعر نظم هذه اللزوميات – على الأغلب – في أواخر حياته ، وأن معظمها يدور حول المعاني الدائمة التي عبر بها الشاعر عن نفسه وأحواله .

ثمة مؤلفات أخرى للشاعر ، أشار صاحب كشف الظنون إلى اثنين منها: أولهما «نظرة المعتوق إلى وجه المشوق» (١) ، وقد ذكر الزركشي أن العكس في التسمية أولى كما يتبادر ، وثانيهما « تذكّار الواجد بأخبار الوالد » ، وهو منظومة تحدث فيها عن والده وشبوخه ورحلته (٢) ، وقد أورد قطب الدين اليونيني شيئاً منه في ترجمة والده، وأشار إليه بقوله (٣) : « ووقفت على كتاب جمع فيه الشيخ شرف الدين المذكور أشياء من أخبار والده» (٤).

كما أن المصادر القديمة كذيل مرآة الزمان وفوات الوفيات وخزانة الأدب وغيرها أوردت في معرض ترجمته نماذج كثيرة مختارة من شعره ، بعضه مما لم يرد في مصورة مخطوطة الديوان الموجودة بين أيدينا .

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ٢ ص ١٩٦٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٨٢ .

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) و ١٣٨ .

(٤) نشرنا ما وجدناه من هذا الكتاب في الملحق الثاني من الصفحة ٥٧٧ حتى الصفحة ٦٠٦ .

القسم الثاني

شعره ومذهب الفني

(١)

أغراض شعره

نستطيع أن نتبين في شعره أغراضاً ثلاثة هي : مدح وأحداث ، ونسيب وغزل ، ومطارحات ، والغاز ، وزهديات ، ويقتضي منا هذا دراستها لنبين من خلالها مذهب الشاعر الفني ومكانته كرائد كبير لشعراء عصره في مذهب التورية والانسجام .

مدح وأحداث

في ديوان الشاعر قصائد نبوية متعددة ، مدح بها الرسول الكريم (ص) ، وجرى فيها على سنة من سبقه من الشعراء. أشار قطب الدين البونيني إلى نبوية غير موجود في الديوان ، وذكر أنها أول مدحة قالها فيه ، وأنشدها في حجرته النبوية الشريفة سنة ٦١٩ هـ ، وأورد ما قدمه الشاعر في طرتها ، وهو قوله : «مدحه العبد الضعيف عن حسن تدبيره ، القوي في سوء تقصيره ، المستوحش من انفرادِه بذنبه ، المستأنس إلى شفاعَةِ نبيه المشفقَةِ برحمَةِ ربِّه ، عبدُ العزيزِ بنُ محمدِ الأنصاري ، جعلَ اللهُ عليه.

عاجل جائزته ، مواصلة صالح العمل ، ومقاطعة كاذب الأمل ، والغنى عن
الضراعة بالقناعة ، والنوفيق لتلقي أوامره بالسَّمْع والطاعة ، وآجلها
استقامته ، على السُّراط المستقيم ، وإقامته في جنان النعيم المقيم ، وإدخاله
برحمته في عباده الصالحين ، اللهم آمين « (١) .

انتقد الشاعر في النبوية المذكورة صرف الشعراء مدحهم إلى الملوك طمعاً
بالإثابة والعطاء ، وطلب منهم أن يوجهوه في غير هذا السبيل المادي :

يا ناظم الدُرِّ الثمين ومهدي الن ظم الرصين لفاضل أو مُفضل
جانب مخادعة الملوك عن اللها فالمال يذهب والخاصة تنجلي (٢)

كانت هذه النظرة المثالية في نفس الشاعر يوم كان في ريق صباه وريعان
شبابه ، لكنه لم يصرف مديحه عن مخادعة الملوك كما ينصح غيره ، فلقد
مدح بعضهم ، وخص بشعره منهم من رآه أهلاً له ، لا طمعاً في جاهه ، ولا
سعيّاً وراء زخارف الدنيا ، وهو الذي كانت الملوك تراسله وتخطب وده .
نذكر منهم الملك الناصر الذي كان يكتبه ، ويضمن كتابه شعراً يمدحه به ،
ويخطه بيده فقط دون سائر الرسالة ، وقد حدث أن احتجب الناصر مرة
لأمر يهمة ، فعاتبه بقوله :

يا ملكاً تخضع الملوك له إن غاب عن دارها وإن حضرا
قد حسدت عيني الفؤاد على قريبك حتى أطالت السهرا
ولست أرضى لعدل مجدك أن يعطي تضاراً ويمنع النظرا (٣)

توجد في الديوان مدح ناصرية كثيرة ، نذكر منها هذه المدحة التي تفنن
الشاعر فيها ، فذكر نعوت المدح المعروفة من جود وحلم وبأس :

(١) ذيل مرآة الزمان (مخطوط) و ١٢٤ ، والملحق الاول من الديوان ص ٥٥٨ .

(٢) المصدر السابق ، و ١٢٤ ، والملحق الاول من الديوان ص ٥٦٠ .

(٣) مصبوبة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٣٧ ، والديوان ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

بك افتخر الأملاك من آل أيوب
 كفيتهم الأحداث طفلاً ويافعاً
 فكم ملك جبار سلبت بجحفل
 ودهياء في يوم عصيب أذرتها
 برزت لنا يا يوسف بن محمد
 جهاد إلى أهل المحارب محسن
 وما عرفت ترك الأعاجم ذلة
 جلالة ملك في جمال نبوة
 لك الله من ملك كريم مؤيد
 تجول الأماني والمنايا فتنتهي
 نظمت الدراري فيك لا الدرة مدحة
 وأرسلت مكتوبي إليك مسلماً

وعندك نالوا في العلاء كل مطلوب
 تبعد عدواً أو تجود بموهوب
 يوسع بالإقدام ضنك الأساليب
 على رأس ملك فيه بالتاج معسوب
 فخلنا ابن أيوب بدا وابن يعقوب
 وحسن به تسبي الدمي في المحارب
 لغريك مذ حلت بلاد الأعراب
 لأزهر مرجو العواطف مرهوب
 من الله محبوب المهابة محبوب
 إلى أمره في كل بشر وتقطيب
 لائق بحر زاهر بالأعاجيب
 وبالرغم مني أن بعثت بمكتوبي (١)

قصر شرف الدين جل مدحه على الملوك الأيوبيين الذين عاصروهم ، فهم
 في نظرة أعلى ملوك الأرض مقداراً ، وقد أشار إلى هذا المعنى في مدح
 الملك الأمجد :

أعلى ملوك بني أيوب منزلة وهم أجل ملوك الأرض مقداراً
 شههم الجنان إذا احمر القنا دلفوا يدعون منه على الأعداء سواراً (٢) (٣)
 كان الشاعر في معظم الأحيان ينظم في المناسبات الخاصة كالتهنئة بدخول
 السنة الهجرية ، أو بحلول شهر رجب ، أو رمضان ، أو أحد العيدين ، أو
 بالعافية والشفاء من مرض ، أو بمولود ، أو بالعودة من غزاة (٤) .

(١) المصدر السابق ، ل ٧ ، والديوان ص ٧٧ .

(٢) المصدر السابق ، ل ٣١ ، والديوان ص ٢٠٤ .

(٣) السوار الذي يواكب نديمه إذا شرب وهو سوار أي وناب معربد وهو هنا

الوثاب المقدام .

(٤) المصدر السابق ، ل ٢١ ، ٤ ، ١٥ ، ٣٦ ، ١١ ، ٢٤ ، ٢٣ .

الادب في بلاد الشام - ٢٢

وكان اثيراً لدى الملوك الأيوبيين الذين مدحهم ، حتى إنه كان يشد الملك
المظفر بعض مدحه ، وهما راكبان في الموكب الملكي (١) .

ونراه في مدحه يصف حياتهم في حربهم وسلمهم ، نذكر من ذلك القصيدة
التي مدح بها الملك المنصور ، ووصف ما يعاينه في الصيد رياضة ولهوا :

أكملت كل المناقب	ياخيرَ ماشرَ وراكب
تسابق الوحش حتى	تخاله كالجنائب (٢)
وكم ضربت عليها	من حلقة بالمقائب (٣)
جلبت فيها صنوف الا	ضداد ياخيرَ جالب
من خُمع ونعام	وإيل وقراهب
ومن وعول تباري	غزلانها والأرانب
وتشفل الأسد خوفاً	عن افتراس الثعالب
يا من يخاف وترجى	منه السطفا والرغائب
لك الصفات اللواتي	لم يحصها عد حاسب
كملت مذ كنت طفلاً	وزدت بعد التجارب
حتى قهرت الأعادي	بشأمننا غييرَ هائب
وارتحت للصيد لهواً	إذ لم تجد من تحارب (٤)

كما كان الشاعر يضمن مدحه وصف الأحداث الكبرى ، فينوه بذكر
انتصارات المسلمين على التتار في الوقائع الهامة التي حدثت في هذا العصر .
نذكر من ذلك مثلاً قصيدته التي مدح بها الملك المنصور الثاني ، وقد أشار
فيها إلى معركة عين جالوت المشهورة ، وجاء فيها قوله :

لك العُلا أعيّت المبارينا	تقرع منها الأبرار والعُونا
يا ملكاً لم تزل عزائمُه	تكف عنّا الأذى وتكفينا
انت المليك المنصورُ أشرفُ من	فاق البرايا عزّاً وتمكيننا

(١) المصدر السابق ، ل ٣٠ ، والديوان ص ٢٠٠ .

(٢) الجنائب : جمع جنيبة ، وهي الدابة التي تقاد الى جانب الفرس .

(٣) المقائب : جمع مقنب ، ويطلق على جماعة الخيل والفرسان .

(٤) مصبورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ١٠ ، والديوان ص ٩٥ - ٩٨ .

بعين جالوت خضت بحر وغى
 وكنت للجيش غرة شدخت
 اخذت نار الإمام (١) إذ فتكوا
 اذكرتهم ما صنعت قبلهم
 وما نجا منهم سوى خبر
 ياناصر الدين يا محمد ما
 تهن ما شئت من مدائحنا
 يخال فلك بالأسد مشحونا
 انوفهم فاثنوا مهاينا
 به وصالوا عليه عادينا
 «بكتبا» (٢) فاثنوا مولينا
 اسكن قازان خبره الصينا
 اولى بحمد من ينصر الدينا
 كما لنا من نذاك ماشينا (٣)

ننتهي مما تقدم معنا من مدحه لنقول : إنها كانت تمثل الحياة السياسية في هذا العصر ، وكان كما يظهر يؤيد سياسة ملوكه ، وقرهم على ما يراه انه الحق ، ففي إحدى مدحه المظفرة ذكر نصرته للملك الصالح (٤) ، وفي مدحة أمجدية هنا الملك الأمجد بقدمه عندما عاد الملك المعظم وشفى (٥) .
 يضاف الى ذلك أن مدحه تضمنت كما رأينا وصف الأحداث الكبرى وبخاصة منها الحروب المبررة ضد النار ، ولا نعرف بين شعراء العصر من عبر عنها مثله . كما لاحظنا في بعض مدحه أنه كان يعرض عن ذكر النسيب (٦) ، وفي بعضها الآخر كان يطيل نفسه فيها .

نسيب وغزل

أعجب الأقدمون بالركة المتناهية في شعره ، وبخاصة منه مطالع النسيب وقصائد الغزل ومقطعاته الغنائية ، فهو ينهج في معانيه بشكل عام نهج غيره ، بيد أنه لا يقتصر على اقتباس المعاني الشائعة منها ، وإنما كان يبتكر ويجدد

(١) الامام : خليفة بغداد العباسي المستعصم بالله الذي قتله التتار سنة ٦٥٦ هـ .

(٢) كتبا : مقدم عساكر التتار وقد قتل في وقعة عين جالوت .

(٣) المصدر السابق ، ل ٨٢ ، والديوان ص ٤٧٤ - ٤٧٦ .

(٤) المصدر السابق ، ل ٦ ، والديوان ص ٧٢ .

(٥) المصدر السابق ، ل ٤ ، والديوان ص ٦١ .

(٦) المصدر السابق ، ل ٤ ، والديوان ص ٦١ .

في بعضها الآخر ، وبخاصة منها ما يتعلق بتصنع النورية مذهب العصر في الشام ومصر على السواء .

تحدث عن خال وجنة الحبيب ، وعقارب الأصداغ ولبل الشعر . . كما وصف ذلة العاشق وبكائه ، وصدود الحبيب وإعراضه ، وتجنّي الرقيب على المحب ، ولوم العاذل والكاشح والرفيب .

لاحظ ابن حجة هذه الطريقة التي تفرد بها في شعر الغزل والنسيب ، فأعجب به لسلوكه هذه الطريقة الغرامية التي اعتبرها جرأً على سنة البلاغيين في التنويع مظهرًا جديدًا مبتكرًا في البديع ، وقد أشار إليها في معرض حديثه عن الانسجام ، فعرفه تعريفًا واضحًا بقوله : « المراد من الانسجام أن يأتي لخلوه من العقادة كانسجام الماء في انحداره ، ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة الفاظه أن يسيل رقة ، ولعمري إن طيور القلوب ما برحت على أفنان هذا النوع واقعة ، وبمحاسنه الفضة بين الأوراق ساجعة . وأهل الطريق الغرامية هم بدور مطالعه وسكان مرابعه ، فإنهم ما انقلوا كاهل سهولته بنوع من أنواع البديع ، اللهم إلا أن يأنى في ضمن السهولة من غير قصد . وغالب شعر الشيخ شرف الدين عبدالعزيز الأنصاري ماش على هذا التقرير (١) » .

اعتنق الشاعر في طريقته الغرامية غزلها ونسيبها مذهب الانسجام في معظم شعره ، وتجلت عبقريته في هيكل الفصيدة العام ، وفي إبياتها التي تكاد نذوب رفة ، ونطق بخفة الوزن وحلاوة الجرس الموسيقي ، فقد كان يحاول دوماً أن يختار لها البحر المجزوء والقافية الراقصة التي كانت لاتنسجم مع ما عرف به من سمت ووقار في حياته الرسمية . يظهر أنه كان بشعر بذنبه في استرساله متغزلاً ، لكن شيطان شعره يطفئ عليه ويندم حين لا ينفع الندم ، وحين يجد أمامه قصيدة جميلة ، يعز عليه أن

(١) ابن حجة : الخزائن ، ص ١٩٠ .

يقلد بها في زوايا الاهمال ، ويعزيه الشفاعة وخلاصة في يوم بعثه كما في
المصبده الغزلية التي نظمها على وزن قصيدة للفاضل :

لعيني كل يوم منه عبرة ففسجد جفنها لا نقص فيه
إذا قفل الوشاة أسلت دمعى علامة نسقوتي في الحب أني
فوتر الوصل لم يشفع بشأن وجفئك كحل من غير كحل
وصبري فبك ليس له وجود سألزم باب خمار النايبا
وقدما كنت مستورا إلى أن أظمت غوايتي وعصيت رشد ال
وما تنقى من الأذناس نفسي وأعجب حادئات الدهر أتى
وأطمع في خلاصى يوم بعثي

تصيرنى لأهل العشق عبرة وكم جهزت منه جيش عبرة (١)
فيغدو مرسلا في وقت فترة نقلت عليك لا عن طول عبرة
وهجرك مرة في إثر مرة وخذك أحمر من غير خمرة
ووجدي منك لا أحصيه كثرة ليطلق لى ، ولو في العمر سكرة
ليست من الخلاعة ثوب شهرة مناصح كرة من بعد كرة
ولو غسلت بصابون المعرة أحاول طاعة فتعود حنة
وما أخلصت في مثقال ذرة (٢)

جمعت هذه القصيدة الغزلية بين سحر المعاني وجمال الأسلوب : فأما
في المعاني فقد رأيناها يتحدث عن العبرات والوصال والهجران ، وصور
محاسن الحبيب ، وخلص إلى التحدث عن ضلاله في هواه ، ولزومه باب
خمار نناياه ورجائه في الخلاص يوم النشور ، وأما في أسلوبه فقد أخذ من
البديع محاسنه ، وجمع فيه من الوردية والأنسجام أوفر نصب ، وطبع
كل ذلك بطابعه الخاص ، ورمز في أسلوب التورية إلى جنب العسرة ،
والمرسل في غير فترة ، وباب خمار النايبا ، وصابون المعرة .

(١) وفي حديث عثمان أنه جهز جيش العسرة ، هو جيش غزوة تبوك ، سمي بها لأنه
ندب الناس إلى الفز في شدة القبط ، وكان ذلك وقت إنباع الثمرة وطبيب الظلال بعسر
ذلك عليهم وشق .

(٢) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ل ٣٧ ، ٢٨ ، والديوان ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

وما دام قد أضله شيطان هواه ، وطرق باب الخمار ، فلنستمع إليه
يحدثنا عن جارته ربة الخالين التي حوت حسن البداوة وجمال الحضارة ،
وذلك في مطلع نسيب مدحة مظفرية أنشده إياها وهما راكبان في الموكب
الملكي :

لنا من ربة الخالين جارة	تواصل تارة وتصد تارة
نؤانسني وتنفير من قريب	وتعرض ثم تقبل في الحرارة
وتلغطني بما يحلى سلوتي	ولكن ليس في جوفي مرارة
ومالي في القرام بها شبيه	وليس لها نظير في النضارة
وفي الوصفين من كحل وكحل	حوت حسن البداوة والحضارة
وفي خلخالها خرس ولكن	إذا أومأت تفهم بالإشارة
وقتل العمد قد قتلتها علماً	وما وصلت إلى باب الإجارة (١)
وقالوا : قد خسرت الروح فيها	فقلت : الرّيح في تلك الخسارة
بأسر نظرة أسرت فؤادي	كما نشأ اللهب من الشرارة
أطارت شمل حسن الصبر عني	بأحسن شملة من فوق طارّة
شمّرت إزارها عنها فصدت	فقلت : تقدمي ودعي الشمارّة
أدرت على مزرّرها عناقي	فبت ومعضمي للبدر دارّة
إذا استسقى بريقها نديم	أزالت خمّرها عنه خمارّة (٢)

نرى في المدحة المذكورة هذا المطلع الغزلي الرقيق ، فهو يحاول أن
ينسج خيوط قصته مع جارته الحسناء ، وقل أن يجاريه فيها شعراء

(١) الإجارة : مشتقة من أجر يأجر ، وهو ما أعطيت من أجر في عمل ، وباب الإجارة
أحد الأبواب المعروفة في الفقه وهو يسبق باب القتل ، وقد استخدم الشاعر بعض هذه
المصطلحات الفقهية ، ولعله أراد الإشارة إلى تمادي محبوبته في قتل محبوبها بالصد والهجران ،
دون أن تحاول الوقوف عند باب الإجارة تأكيداً لما في هذا الباب من منافع وذلك تشبيهاً
وتبشيراً وتوبيخاً .

(٢) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٣٠ ، والديوان ص ٢٠٠ - ٢٠٣ .

الغزل المشهورون ، إذ نلاحظ أنه بنحو فيه منحى مادياً محضاً بأسلوبه الرشيق الشيق ، بما فيه من انسجام بديعى وتورية جميلة .
تلك هى قصة جارتها المتخلة في معرض النسب ، بيد أن للشاعر قصة قصيدتين ، وكانت النهاية فاجعة البمة في حياة الشاعر ، لم يظن أحد لهما ممن عاصروه ، لكننا قرأنا قصتها في تضاعيف شعره : أما القصة الأولى فقد روى لنا قصة الجارية الحسنة التي عنفها ، وجاء فيها قوله :

سروري بساقية جاريته	ووجدني بجارية ساقية
أهز بهانيك عطف القريض	ليثني على هذه الثانية
سبتني كاسية بالجمال	فروحي عندي لها عاريت
على الجسم حاكمة بالضنى	وفي القلب أمرة ناهية
تراني إذا لم أزر ببنها	كأني بيت بلا قافية
تواصلني فأحوز المنى	وأجلس في الدست والحاشية
وتنأى فأجلس في مسجد	وحيداً والتفت بالبارية (١)
ولما سكوت البها الجوى	وعنه لها أذن وأعية
فقلت : بعيني هذا السقام	فقلت : على عينيك الواقية
أضحكة السنن لو زريني	عجبني لمقتسي الباكية
وإني ، وإن نسال مني الأذى	معافى إذا كنت في عافية (٢)

نبضات جديدة من الغزل الرقيق سكب الشاعر فيه قلبه وروحه ، فابتعد عن التقليد الذي عرفناه في غزل هذا العصر ، ونلاحظ أن الشاعر كان يعاني تجربة حب حقيقية لجاريته مارية (٢) التي كان يحبها كثيراً . أما نهاية هذه القصة فقد اختتمت بفرقها في نهر العاصي ، فرثاها بقوله :

(١) البارية : أورد صاحب اللسان ذكر الباري والبارياء ، وفسرها بالحصر المنسوج ، وهما من أصل فارسي معرب .

(٢) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٩٠ ، والديوان ص ٥٢٨ - ٥٣٠ .

(٣) عرفنا اسم هذه الجارية من أحد أسات القصيدة المذكورة ، ولم يرد في الديوان ،

ولما عثرنا عليه في ذيل مرآة الرمان (و ١٢٧) ، والملحق الأول من الديوان ص ٥٢٩ .

وجاريةٍ مُنذَ تملَّقتُها (١) نبذتُ إليها جميعَ العَلِقِ (٢)
 تملَّكتُها فاعتُراني لها غرامٌ تملَّكني فاسترقَ
 وقد كنتُ أغرقُ جَهاً وما كنتُ أخشى عليها الفَرَقَ
 وكنتُ أخافُ عليها العيونَ فقد حَقَّقَ النَّهْرُ ذاكَ الفَرَقَ (٣)

استخدم الشاعر في أغزاليه الأبحر القصيرة أو المجزوءة التي تثير في القصيد جرساً ناعماً ، وكان يختار لها القوافي المستساغة التي تولد في النفس النشوة والارتياح ، وتهزها هزة الثمل والطرب ، ومن خلال الأوزان والقوافي يسير الشاعر بخطاه الحثينة نحو الانسجام المنشود في شعره ، ويبلغ ذروة نضجه الفني المشفوع بالدابة والطبع السليم كما في هذه القصيدة الغنائية ذات الوزن الراقص :

رفقاً بروحي فهي لك وعلى السخي بما ملك
 أفضلُ بحقٍّ من اصطفا لك على السلاحِ وفضلُك
 وكأنَّ ربَّك في الجمال لـ على اقتراحي مثلك
 أحظاك منتهُ بمنصبٍ سواءك فيه وعدلك
 من فرٍّ من ذلِّ السؤا لـ فعزَّتي أن أسألك
 إن تحم طرفي أن يرا لك جعلتُ قلبي منزلك
 إني أغارُ إذا الأرا لك (٤) دنا إليك فقبلك
 ويروعي واشي النس يـ إذا ثنالك وميلك
 ما أقبح الصبرَ الجميل لـ بعاشقك وأجملك ! (٥)

(١) تملَّقتها : تملَّتها وتملَّ بها أي أحبها .

(٢) العَلِقُ : العَلِيقُ والملِّقة الثوب النفيس يكون للرجل ، والملقة قميص بلا كمين .

والعلقة للصدر تلبسها الجارية بتدل بها وتجمع قياساً على عِلَق .

(٣) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٦٢ ، والديوان ص ٣٧٤ .

(٤) الأراك شجر من الحمض يستاك به ، وهو شجر السواك . قال أبو حنيفة : هـ

أفضل ما استيك بفرعه من الشجر وأطيب ما رعته الماشية رائحة لبن .

(٥) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٦٣ ، والديوان ص ٣٧٨ .

تنبض هذه الغزلية الفنائية بالعاطفة الصادقة والشعور الفياض، وتتسم بالركة المتناهية التي عرف بها شعره ، ونلمح فيها مظاهر الانسجام بين اللفظ والمعنى من ناحية ، والوزن والقافية ، من ناحية أخرى حتى لبسعر الإنسان وهو يتلوها بإيقاع الجرس الشعري العذب ينساب من خلال حروفها وكلماتها وأبائها . وهى بالتالي تعبر عن نفسه الشاعر الحقيقية التي تنبض من خلالها ، وهى تختلف عن نفسية نرف الدين الوزير الكبير المعروف في كل الأوساط بالسمت والوقار . مهما احتجب النفس الإنسانية ، فلا بد لها حين تجد أمامها متنفساً أن تعرى على حقيقتها في حمى الأهواء ، وحينئذ لا يحجبها عن العاطفة الحقيقية منصب أو سلطان أو زهد أو ورع ، كما في هذه المقطوعة التي يقول فيها :

ابعدته وهو القريب جفوته وهو الجيب
فقد غريباً وانفردت بشوقه فأنا الغريب
يا من به دائي يط ومن به عيشي يطيب
خذ ما تناء من السرو ر فليس لي فيه نصيب^(١)

يؤكد ما نذهب إليه أنه كان يحضر مجالس الغناء الملكية ، وقد غنى مرة بين يديه لحن فأعجبه ، فنظم قصيدة على وزنه ، مطلعها قوله :

لا بد لي منهم ووفوا أو لم يفوا أو بخلوا بالوصل أو تعطفوا^(٢)

يظهر أن شعره كان ينشد في حلقات المنصوفة، ويفنى في مجالس الطرب، وكان يكرر في شعره بعض الالفاظ التي بنخلها المغنون تكاة لازمة لهم في أغنياتهم ، نذكر من ذلك قوله في قصيدة ، وقد ضمن البت المجزوء الأخير لفظة الليل أربع مرات ، يبدأ ليلته الأولى بابتداء غايته الزمانية في (من)

(١) المصدر السابق ، ل ٧ ، والديوان ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٢) المصدر السابق ، ل ٥٦ ، والديوان ص ٣٤٢ .

الجارة ، ويطيب سمره ولهوه ، فلا تأخذه سنة ولا نوم ، ويصل الليلة بالليلة ب (إلى) الجارة ، فلا يصحو إلا بعد انقضاء رابعة لياليه الأنصارية .

غرامى فيك لا يحصى بميزان ولا كيل
وأما دمع أجفاني فلا تسأل عن السيئل
وما أنس فلا أنسى مراحي ساحباً ذيلى
وإجلابى على اللذات ت بالرجل وبالخيئل
من الليل إلى الليل إلى الليل إلى الليل (١)

ولا بأس أن نقف عند قوله في قصيدة له تتميز بالركة وبصف فيها أغزاله التي تغنیه عن الحان الدف والمزمار ، ولعل في ذكرهما ما يؤكد لنا رأينا السابق في مجالس الطرب والفناء في هذا العصر وعلافة الشاعر بذلك :

وعمالك الله يا إلفي وإن بالغت في عسفي
أما تذكر إذ كفئ لك يوم الجزع في كفي
وما أنس فلا أنسى زمان اللهو والقصف
وإذ عطفتك مختال وميئال على عطفي
وإذ يسكنني ريق لك من خمرته الصرق
وإذ خدك قد زانت إذ زاد على الوصف
وأغزالي تغنيني عن المزمار والدف
وقد أصبحت لا أبص ر قدامي ولا خلفي
فوالهفني إذا لم يغ نني قولي : والهفني (٢)

يزداد الشاعر رقة في بعض مقطوعاته الغزلية حتى يصل بها إلى درجة من اللين ، تغدو أقرب ما تكون إلى الأسلوب العامي :

(١) المصدر السابق ، ل ٧٢ ، والديوان ص ٤٢٣ .

(٢) المصدر السابق ، ل ٦٦ ، والديوان ص ٣٩٩ .

لا وفقتُ بنتُ الحميصية دانية الدار ومقصية
صوفية المذهب لكنّها ناعمة الجسم حريّة (١)

آنس الشاعر في أغزاله هذه الرقة المتناهية التي طبع عليها والى نغمه
عن المزمز والدّف ، وقد صرح بها عرضاً في بيتين :
'جدّ لي بها ، يا سيّدي ، حلّة' تحلي بها عاطلٌ احوالي
أرقّ من قلبي ومن عبرتي وخدّ محبوبي وأغزالي (٢)
وجاء في قصيدة أخرى قوله :

أقسمت ما خدّه الفاني من الخجل أرقّ من دمعِي الجاري ولا غزلي (٣)

نلاحظ انه يعترف بهذه الرقة المتناهية ، فهو إذن سعمدها نصنعاً ،
على الرغم من أنها موجودة في شعره طبعاً ، وهذه الصفة هي التي أهله
ليكون رائد شعراء عصره في مذهب التورية والانسجام ، وسنوضح أهميته
في حديثنا عن مذهبه الفني .

الزهديات

في ديوان الشاعر مقطوعات وأراجيز وقصائد قالها في الزهد ، وهو
الغرض الحقيقي الذي ينسجم مع لقيه شيخ الشيوخ ، ولكنه لم يكن الأصل
في شعره ، وإنما كان استغفاراً وإجابة لما قاله في حياته من أغزال رفيقة حتى
إن أباه استغفر له ربه حينما سمع غزلاً له يوري فيه بأسماء بعض سور
القرآن فحتمه بببت فيه التشفع .

لا شك أن الشاعر في زهدياته كان يعاني صراعاً نفسياً عميقاً لأنه لم
يستطع أن يكبح جماح نفسه التي تصبو للحب والجمال فتغزل بعد أن تجاوز
الخمسين بشتيات في الخامسة عشرة :

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٧٢ ، والديوان ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، ل ٣٥ ، والديوان ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

(٣) المصدر السابق ، ل ٩٠ ، والديوان ص ٥٢٥ .

جاوزت خمسين ولي صبوة إلى بنات العشر والخمس
تقول نفسي كلما لمتها ما أقرب اليوم من الأمس (١)
كما أنه تطرق لبعض المعاني التي خرجت عن المألوف في الأغزال ، فمن
حقه إذا أن يقول الشعر في الزهد ، ومن حقه إذا أن يتشفع لنفسه بعد أن
تشفع له أبوه من قبل ، فيقول متزهداً :

أين القلوب الرواجف ؟ أين الدموع الذوارف ؟
على ارتكاب ذنوب لم يحصها وصف واصف
وقطع أيام عمر مثل البروق الخواطف
وخوف أهوال حشر تفوت كل المخاوف
فبك الدماء إلى أن تخال جفئك راعف
وارغب إلى الله تظفر من بره بلطائف
وازهبد بقلبك فيما عهدتك له ألف
ولا تموتن قنوطاً فللاله عواطف (٢)

إن رجاءه كبير في العفو والغفران ، فإن للاله عواطف شاملة ، ولذلك لم
يقنط من الرحمة لارتكابه ذنوباً كثيرة لم يحصها وصف واصف . فهو يطلب
منا أولاً أن نبكي دماً تكفيراً ، ثم تتبع البكاء زاهدين في كل ما الفناه وأحببناه
وحيث يمكننا أن نظفر من ربنا بلطائف بره .

والزهد عند الشاعر ليس مقصوداً على ما ذكره في القصيدة السابقة
وإنما يعتمد على قطع الإنسان كل علاقة له بالحياة الدنيا والاعراض عن مغرياتها
وزخارفها ، ذلك لأنها فاسدة مفسدة أضلت بنيها ، ومصيرها الفناء والموت :
المجد مشدود الأواخي (٣) فانفض له ودع التراخي

(١) الديوان ص ٢٦٥ .

(٢) الديوان ص ٢٤٤ - ٢٤٦ .

(٣) الأواخي : جمع الأخية ، وهي عود في حائط أو في جبل يدفن طرفه في الأرض ،
ويبرز طرفه كالحلقه شد فيها الدابة . والأخبة أيضاً الحرمة والذمة . نقول مثلاً : لفلان
أواخي وأسباب ترمي . وله عندي أخية أي مائة قوية ووسيلة قريبة .

لا تُشغَلْنَ عَنْ التَّحَرُّثِ — لِّلْ سَكُونِ إِلَى الْمَنَاحِ
وَتَرَحَّ مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا بِالْقَرَصِ وَالْمَاءِ النِّقَاحِ
ثَبُّ عَنْ زَخَارِفِهَا وَصُنِّ عَقْدُ الثِّبَاتِ عَنْ انْفِسَاخِ
وَالْمَوْتِ وَصَفِ جَامِعِ بَيْنِ الْقَشَاعِمِ وَالْفَسَاخِ
فَسَدُ الزَّمَانِ وَأَهْلُهُ فَاخْتَرِ لِنَفْسِكَ مِنْ تَوَاحِي
وَإِذَا رَجَوْتَ سِوَى إِلَهِهِ أَضَعْتَ بَذْرَكَ فِي السَّبَاحِ (١) (٢)

وجدير بالذكر هنا أن قصائد قافية الخاء كلها في باب الزهديات يضاف إلى ذلك القصائد والمقطوعات الأخرى الموجودة في الديوان ، فهل يعني هذا أن هذا الغرض لا يحتاج كالغزل إلى الرقة في الروي والقافية ، وحرف الخاء ليس من الروي المستساغ ، ولذلك ملأه الشاعر بقصائد زهدية تنسجم في التقشف مع هذا الروي ذي المركب الخشن والموسيقى الثقيلة .
يقترن الغزل عنده بالزهد أحيانا ، وقد عرفنا في زهد أبي العتاهية النورة على كل غزل ، وعرفنا في زهد أبي العلاء فلسفة الحياة الانسانية ، ولكننا لا نعرف بين الشعراء مثله من جمع الغزل والزهد في مقطوعة واحدة ، فمن ذلك قوله في جارية له اسمها مارية :

أوقعني في قيد أسر الهوى جارية أوصافها جامعة
ثالثة البدرين في حُسينها مَمَعَ أَتْهَا فِي تَسْكِيهَا رَابِعَةٌ
كَمْ جَنَنْتُ قَلْبِي فِي حُبِّهَا فَلَيْتَهَا كَانَتْ لَهُ تَابِعَةٌ
يَارِبْ غَفَرًا عَنْ ذُنُوبِي فَلِي نَفْسٌ عَلَى أَهْوَائِهَا نَازِعَةٌ
إِنْ ضَيَّقَ الدَّهْرُ خِنَاقِي فَمَا نَضِيقُ بِي رَحِمَتِكَ الْوَاسِعَةَ (٣)

ولعلنا لاحظنا مذهب الشاعر في التورية في رابعة العدوية ، المتصوفة الناسكة ، واختيار اسم هذه المتصوفة والتورية بها ينسجم مع ختام

(١) السَّاح : جمع سَبَّحَة ، وهي الأرض التي تعلوها الملوحة ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر . وقيل : هي الأرض ذاب نر وملح .

(٢) الديوان ص ١٤٥ .

(٣) الديوان ص ٣١٢ .

القصيدة في نداء الله ليغفر له الذنوب ، ولكنه لا يئأس من روح الله ، وإن ضيق الدهر بخناقه ، فرحمته أبداً واسعة ، يستجيب فيها دعوة الداعي إذا دعاه .

(٢)

مذهب الفني

استخدم الشاعر في طرائق تعبيره كثيراً من الأساليب البلاغية المستجدة في هذا العصر ، بيد أنه تفرد دون غيره بسلوك مذهب بلاغي معين في تصنعه البديعي ، فأبدع فيه كل الإبداع ، وقد أعجب الأدباء المعاصرون بهذا الاتجاه الجديد الذي يسير جنباً إلى جنب مع الاتجاه الذي بدت تبشيره قبيل ذلك في مصر على يد القاضي الفاضل وجماعته من بعده ، فنهجوا نهجه ، واقتدوا به ، وتداولوا معانيه ، ولا نبالغ إن قلنا إن معظم شعراء النصف الثاني من القرن السابع الهجري كانوا من تلاميذه ، فاستمدوا منه كثيراً من معانيهم الشعرية فكانوا عالة عليه .

نوه الصفدي بعقريّة الشرف الانصاري ، وأعجب بمذهبه الشعري ، وأشار إلى أهميته كأكبر شاعر عرفته بلاد الشام كما أجمع على ذلك معاصروه ، ومما قاله : « لا أعرف في شعراء الشام بعد الخمسمائة وقبلها من نظم أحسن من شرف الدين ، ولا أجزل ، ولا أفصح ، ولا أصنع ، ولا أسرى ، ولا أكثر ، وما رأيت له شيئاً إلا وعلقت به ، لما فيه من النكت والتورية الفائقة ، والقوافي المتمكنة ، والتركيب العذب ، واللفظ الفصيح ، والمعنى البليغ (١) » .

(١) ابن شاعر : نوات الوفيات ، ج ١ ص ٢٧٩ ؛

يلاحظ أن الشاعر أكثر من تصنع التورية في شعره ، وهي لباب
مذهبه الفني ، فهو لا يكتفي بإيرادها مره واحدة ، وإنما يكثر من ذكرها
ما وسع إلى ذلك سبيلا ، فهو رائد المذهب الرمزي في أدبنا العربي خلال
هذا العصر في بلاد الشام ، نذكر من ذلك التورية في رابعة العدوية :

أوقعني في قيدِ أسرِ الهـوى جاريةٌ أوصافها جامعة
ثالثةُ البدرين في حسنهما مع اثنا في تسكها رابعة (١)

وكنا أشرنا بالنفصيل إلى ما في شعره من توريات ، ونكتفي منها بهذا
القدر ، فهي منتشرة فيه كل الانشمار ، وقد عرف بين الأقدمين بهذه الصفة
المميزة . ويلاحظ من طرف آخر أن الشاعر حاول ان يوسع مدى التصنع
البديعي في باب التورية ، فلم يقتصر منها على ما عرفه البلاغيون ، وإنما
كان يحاول أن يوري بغير الالفاظ ، وذلك عن طريق عبثه اللفظي بالكلمات
والحروف ، والسواهد على ذلك كثيرة ، نذكر منها قوله وفد أنشد
الملك المنصور من شعر المتنبي بعضه :

(تملك الحمد حتى مافتخر في الحمد حاء ولا ميم ولا دال)
فعقب على ذلك بقوله :

يا أيها الملك المنصور يملكها أوصافه كاملات وهي أصناف
رفقت بالخلق حتى مالم يزرع في الرقيق : راء ولا فاء ولا كاف
وفزت بالملك حتى مالم يشر في الملك : ميم ولا لام ولا كاف
وكم كتائب رعت المارقين بها فيهن من الفات الخط آلف (٢)

انتشرت هذه الصفة كثيراً في شعره ، وغدت مظهراً مميزاً من مظاهر
مذهبه الفني ، نذكر من ذلك قوله يعبث بلفظه « شرح » :

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٥١ ، والديوان ٣١٢ .

(٢) المصدر السابق ، ل ٥٥ ، والديوان ص ٣٤٤ .

وقد خاني شرح الشُّباب وراعى مشيباً، وحالي منه شرح بلا خاء (١)
وقوله يعبت باسم ممدوحه « يوسف » الملك الناصر :

يُسمّى فيُعزى كلُّ مجدٍ وسُودٍ إلى يائه والوارِّ والسين والغاء (٢)

وقوله بعبت بلفظتي « الحب » و « الحسن » :

فلو أصبحت ذا حاءٍ وسين لما عئفت في حاءٍ وباء (٣)

كما نلاحظ بالإضافة إلى ذلك استخدامه التورية بالاصطلاحات النحوية،
نذكر من ذلك قوله :

ومُعربِ التلّظ لي من نحوه أبدأ حذفٌ وصرفٌ وإعلالٌ وتنكيرٌ
ولحظه ساكنٌ والقَدْ منتصبٌ والقرطُ مرتفعٌ والمِرطُ مجرورٌ (٤)

وقوله :

لا تسألوا صبكم عن حبه فله من الإضافة مايفني عن النسب
وراقبوا منه حالاً غيرَ حائلة كما عهدتم وقلباً غيرَ منقلب (٥)

كثرت المصطلحات النحوية وغيرها كثرة ظاهرة ، فقد استخدم معانيها ،
لا كما وضعت لها ، وإنما استخدمها بحسب مفهومه الخاص كمظهر من الرمز
والإيحاء ، من ذلك قوله :

مديحٌ نخيرتُ القوافي محلياً به رفعا والنصب والجزم والجرا (٦)
وقوله :

رفعتُ ذوي الإعراب من بعد خفضهم فأثنى عليك الرفع والنصب والجرا (٧)

(١) مسودة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٣٣ ، والديوان ص ٥٠ .

(٢) المصدر السابق ، ل ٢ ، والديوان ص ٥٢ .

(٣) المصدر السابق ، ل ٤ ، والديوان ص ٥٥ .

(٤) المصدر السابق ، ل ٢ ، والديوان ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٥) المصدر السابق ، ل ١٠ ، والديوان ص ٩٢ .

(٦) المصدر السابق ، ل ٣٠ ، والديوان ص ١٩٩ .

(٧) المصدر السابق ، ل ٣٦ ، والديوان ص ٢٢٨ .

وقوله :

إذا فاعلٌ رامَ ارتفاعاً بفعلهِ ففعلك مرفوعٌ بأتاك فاعلهُ (١)

ولم يكتف بذلك بل كان يحاول استخدام بعض المصطلحات العروضية أو البديعية منها قوله :

وبحرٌ طويلٌ الباعِ منسرحُ الندى بسيطُ المعالي وافرُ الفضلِ كامله (٢)

وقوله :

وَوَشَّتْ يدُ الأنواءِ برُددِ رياضهِ بفرائبِ التَّوشيعِ (٣) والتَّغْويفِ (٤)

بضاف إلى ما تقدم ذكره وجود الجرس الموسيقي الشعري في قصائده ، وقد رأينا أن الشاعر قد صرح برفة أغزاه ، ومصدر هذه الرقة في نظرنا حسن اختياره الألفاظ الجميلة المعبرة ، والقوافي ذوات الروي الموحي ، والأوزان القصيرة أو المجزوءة التي تلائم أغراضه ومعانيه . ذلك كله مع ما لاحظناه من تصنيع بديعي يؤلف الانسجام في مذهبه الفني ، وقد أشار إلى هذه الصفة من خلال قوله :

واسمعْ بديعَ نظمٍ لا يساجلُهُ جزلٌ من المدحِ في سهلٍ من الفزلِ (٥)

يتضح مما أسلفنا أن النرف الأنصاري كان رائد الشعراء الأول في مذهب التورية والانسجام ، وقد أشار ابن حجة في خزانته إلى الفرقتين اللتين اعتنقتا هذا المذهب في مصر والشام على السواء .

أما الفرقة الأولى فهي «العصابة التي مشيت تحت العصائب الفاضلة» (٦) بزعامة القاضي الفاضل ، ومن روادها الأوائل ابن سناء الملك ، وأبو الحسين

(١) المصدر السابق ، ل ٦٧ ، والديوان ص ٤٠٤ .

(٢) المصدر السابق ، ل ٦٨ ، والديوان ص ٤٠٥ .

(٣) التوشيع : وشع الثوب أعلمه وتوشيع الثوب أعلامه . التغويف : يقال ثوب مغوف أي رقيق أو فيه خطوط بيض .

(٤) المصدر السابق ، ل ٥٤ ، والديوان ص ٣٢١ .

(٥) المصدر السابق ، ل ٦٧ ، والديوان ص ٤٠٣ .

(٦) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٧٦ .

الجزار ، والسراج الوراق ، والنصير الحمامي ، وشمس الدين بن دانيال ، ومحبي الدين بن عبد الظاهر . وأما الفرقة الثانية الشامية « فإمام جماعتها الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري شيخ شبوخ حماة » (١) ، وكان من روادها أبرز شعراء النصف الثاني من القرن السابع وهم كلهم من تلامذته ، ساروا في الطريق التي سبقهم فيها .

أورد ابن حجة ذكرهم فقال : « وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم ، وتأزر نصرهم ، ولان في هذا النوع هصرهم ، وبعد حصرهم فيما أرادوه كما زاد حصرهم ، كل ناظم تود الشعرى لو كانت له شعراً ، ويود الصبح لو كان له طرساً ، والفسق مداداً ، والنثرة (٢) نثراً . منهم شرف الدين عبد العزيز الأنصاري ، والأمير مجير الدين بن تميم ، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي ، ومحبي الدين بن قرناص ، وشمس الدين محمد بن العفيف ، وسيف الدين بن المشد . . . » (٣)

ذكرني قول ابن حجة : « كل ناظم تود الشعرى لو كانت له شعراً » بقوله شرف الدين نفسه في وصف شعره :
 زِيْنْتُ مِنْ فِكْرِي سَمَاءَ الْعِلا مِنْكَ بِشَعْرِ يَخْجَلُ الشُّعْرَى (٤)
 ولا يكتفي الشاعر من وصف فنه الشعري بأنه يخجل الشعرى فحسب وإنما يرى أنه يزهد البحر بأبهى جواهره :
 ولي قصائد في مدحيه باهرة "تزهّدُ الحرّ في أبهى جواهره" (٥)
 غدت هذه القصائد المدبجة عرائس تجل عن نظرائها إذ توشحت بجواهر التورية :

(١) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٧٦ .

(٢) النثرة : نجم من نجوم الأسد ينزلها القمر . وفي التهذيب كوكب في السماء كأنه لطح سحاب خيال كوكبين تسميه العرب نثرة الأسد وهي من منازل القمر ، وهي في علم النجوم من برج السرطان .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(٤) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٣٨ ، والديوان ص ٢٣٨ .

(٥) المصدر السابق ، ل ٣٩ ، والديوان ص ٢٤٦ .

أجلو عرائسَ مدحِهِ فَتَجَلَّ عَن نَظَرِهَا إِذْ جَلَّ عَن نَظَرِائِهِ (١)

تتضح بعد ذلك أهمية هذا الشاعر في عصره ، وننتهي مما أسلفنا لنذكر أنه كان ذا طبع سليم ونهج قويم ، وقد أخذ من الانسجام سبيله ومن التورية وكده ، فأصبح صاحب مذهب أدبي هام ، شيع السحر اللفظي والجمال المعنوي دون تكليف ذميم أو تعسف ممقوت ، واستطاع بعقريته ومهارته الفنية أن يبعد النعقيد والإغراب عن الشعر العربي في هذا العصر بعد أن طغت عليه أساليب الصنعة والتصنيع والتصنع ، وهذا هو وحده السبب الذي جعله موضع إعجاب القدماء وتقديرهم ، فقدموه على من جاء قبله ، ومن جاء بعده من شعراء هذا العصر البديعي (٢) كما يقول المرحوم استاذنا التنوخي .

(١) المصدر السابق ، ل ٣ ، والديوان ص ٥٨ .

(٢) انظر البحث الهام الذي تحدث فيه المرحوم الأستاذ عز الدين التنوخي عن عصر

التورية وجمالها في هامش الايضاح (ج ١ ص ٩٤ - ٩٦) :

التلعفري

(٥٩٣ - ٦٧٥ هـ = ١١٩٧ - ١٢٧٧ م)

القبس الأول

حياته وآثاره

(١)

مراحل حياته

ولد الشاعر المقامر ، شهاب الدين ، أبو المكارم ، محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة الشيباني (١) بالموصل سنة ٥٩٣ هـ ، ولقب بالتلعفري نسبة إلى تل أعفر (٢) ، وهو موضع جميل يقع بين سنجار والموصل .
اختلف في ضبط نسبة اسم الشاعر ، فالمعروف أنها بفتح أوله واللام المشددة ، ولكن السيوطي صاحب (لب الباب) أورد ضبطه بفتح التاء واللام المخففة .

(١) ابن شاعر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٣٤٥ ، وابن الوردی : تنمة المختصر ج ٢ ، ص ٢٢٤ ، وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٥٥ ، والدلجي : الفلاحة والفلوكون ، ص ٦٥ ، وابن العماد : شذرات الذهب ج ٥ ، ص ٣٤٩ ، وبروكلمان : Brock I : 300 (257) SI'458 والروكلي : الاعلام ، ج ٨ ، ص ٢٥ ، وياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

(٢) ذكر ياقوت أن عامة الناس يقول : (تل أعفر) ، وأن خواصهم يقولون : (تل يفغر) . وقيل : إنما أصله (النسل الأعفر) لونه ، فقير بكثرة الاستعمال وطلب الخفة ، وهو اسم ريفي بين سنجار والموصل ، وفي وسط واد فيه نهر جار ، وهي على جبل منفرد ، حصينة محكمة ، وفي ماء نهرها عذوبة ، وبها نخل كثير . (معجم البلدان ج ٢ ، ص ٣٩) .

لا نعرف شيئاً عن أسرة الشاعر ، كما لا نستطيع أن نتبين من خلال شعره ما يوضح لنا طفولته وصباه وشبابه ، إذ إن ديوانه لا يحوي من مدحه الكثيرة التي قالها في حياته إلا على مطالع النسب ، حتى إنه لم يذكر بيت التخلص إلا في أربع منها . يمكن القول هنا أنه ينحدر من سلالة أسره نسيعة تمت بأصولها إلى سببان من ثعلبة ، وهي قبيلة عربية عدنانية من عرب الشمال .

نقف علومه الأولى في الموصل ، ونال قسطه الوافر من الثقافة والأدب بيد أنه ترك الموصل في مطلع شبابه ، وبوجه إلى بلاد الشام ، وأخذ بمدح فيها الملوك والأعيان ، وهو بعد لم يتجاوز العشرين من عمره ، ومما يؤكد لنا ذلك أن ياقوتاً الحموي أشار إلى ذكره في معرض حديثه عن بلدة تل أعفر ، وذكر أنه شاعر عصره ، وأنه مجيد (١) ، وهو بعد لم يتجاوز الثلاثين من عمره ، فالمعروف أن ياقوتاً الحموي توفي سنة ٦٢٦ هـ ، وأنه شرع في تبيض معجمه قبل وفاته بعام واحد وكان التلفري آنئذ في الثانية والثلاثين من عمره ، وهذا يعني أن شهرته كانت في أوجها .

ذكر ابن تفردي بردي أنه كان متقدماً بارعاً في الأدب وأنه « كان أديباً فاضلاً حافظاً للشعار وأيام العرب وأخبارها » (٢) .

لم يذكر الذين ترجموا له شيئاً عن علاقته بصاحب حلب الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي الذي تولى الحكم في المدة الواقعة بين سنتي ٦١٣ - ٦٣٤ هـ ، وقد عثرت في ديوان الشاعر على مطالع نسيب قصيدتين ، استدلت من بيتي التخلص أنه مدحه بهما ، وبتضح من النسب الذي استهلها به أنه كان يعنمد في شعره على التقليد خلال هذه المرحلة المبكرة من حياته . وأغلب الظن عندي أنه لم يعم في دمشق إلا بعد وفاة الملك العزيز ، فقد انتقل إليها من حلب ، ومدح صاحبها الملك الأشرف موسى

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٣٩ .

(٢) ابن تفردي : النجوم الزاهرة ج ٧ ، ص ٢٥٥ .

الذي تولى حكمها في المدة الواقعة بين سنتي ٦٢٦ - ٦٣٥ هـ ، ونال منه العطاء الجزل ، بيد أنه انغمس في الملذات والشهوات ، وعاشر أرباب الخلاعة والمجون ، وعكف على شرب الخمر ، ولعب الميسر ، وقد وصف حاله قائلا :

أَقْلَعْتُ إِلَّا عَنِ الْعُقُورِ وَتَبْتُ إِلَّا مِنْ الْقِمَارِ
فَالْكَاسُ وَالْقَمَرُ لَيْسَ يَخْلُو مِنْهُمَا يَمِينِي وَلَا يَسَارِي (١)

وكان كلما أعطاه ممدوحه الملك الأشرف بعض المال أنفقه على شرب الخمر أو قامر به ، وقد أدى ذلك إلى غضب مولاه عليه ، فطرده من دمتق ، فالتجأ إلى حلب ، والتحق بخدمة صاحبها الملك الناصر يوسف (٢) الذي خلف أباه الملك العزيز محمداً ، فأكرمه كل الإكرام ، وقرر له رسوماً ، وقربه من مجالسه الخاصة ، وحاول أن يصلح سيرته ، إلا أنه لم يقلع عن عاداته في المقامرة ، فكان يبدد كل ما يحصل عليه من المال حتى بات يعيش في فقر مدقع .

هكذا ساءت حال الشاعر كثيراً ، وبلغ به الأمر أنه قامر بشيابه ونعليه ، وقد حضر ذات يوم مجلس مولاه الملك الناصر ، وكان موجوداً فيه أحد شعرائه ، وهو شرف الدين سليمان بن بليمان الهمداني ، صاحب النوادر ، فقال في التلعفري قصيدة عرض فيها مقامرته بشيابه وأخفافه ، فلما فرغ من إنشادها قال له التلعفري : « ما أنا جندي حتى أقامر بأخفافي » ، فقال له شرف الدين : « بخفاف امرأتك » ، فقال : « مالي امرأة » ، فقال له : « لك مقامرة من بين الحجريين ، إما بالخفاف أو بالنعال » (٣) .

(١) ديوان التلعفري ، ص ١٨ . في رواية ثانية : (فالكأس والزهر) .
(٢) أورد ابن حجة ذكر أحد مجالس الملك المذكور في بحث الاكتفاء ، فقال : « وأظرف ... ما وقع لشهاب الدين التلعفري مع شمس الدين الشيرجي بين يدي الملك الناصر ، وما ذاك إلا أنهما حضرا بين يديه ليلة انس ، فانفق أن شمس الدين ذهب إلى ضرورة وعاد ، فأشار إليه الملك الناصر أن يصفع التلعفري ، وكان شمس الدين رجلاً ألعى ، فلما صفع التلعفري نهض على الفور وقبض على لحية الشيرجي ، وأنشد ارجعاً ، وبده فيها :
قد صفعنا في ذا المحل الشريف وهو ، ان كنت ترتضي ، تشرفني
قارث للبعد من مصيف صناع يارب يسع الندى والا خسريفي
هذان البيتان غير موجودين في الديوان (ابن حجة : الخزائن ، ص ١٥٩ ، ١٦٠) .
(٣) ابن تفردي بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

أسف الملك على الشاعر ، ورثى لحاله ، لكنه ضاق به ذرعاً ، فأمر
فنودي بين الناس في حلب التهباء : « من قامر مع التهباء التلعفري
فطعنا يده » (١) .

ضاقت الأرض على رحبها بالساعر بعد هذا النداء من قبل السلطان ،
فأنشد :

بنشرح الصّدرُ لمن لاعبني والأرضُ بي ضبقةٌ فزوجها
كم شوّشتْ شيوشنها عقلي وكم عهداً سقتني عامداً بنوجها (٢)

اسودت الحياة في عين الساعر بعد أن غضب عليه الملك الناصر ، ويظهر
أنه قطع عنه الرسوم التي قررها له . فضاقت عليه الأرض ، بيد أنه لم
يرجع إلى دمشق إلا بعد وفاة ملكها الأنرف سنة ٦٣٥ هـ .

وهكذا نرى الشاعر طربداً شربداً بين دمشق وحلب ، بعد أن فقد
كل أمل له في العودة إلى منزلته الأولى عند ملوكهما ، فأخذ بسجدي
بشعره ، وهو في دمشق ، وكان ينفق ما يحصل عليه في الميسر والخمر ،
حتى فقد ما يملكه كله ، وبات يقيم في أتون حمام ، وعلى الرغم من ذلك
فكان ينتد :

رضيتُ بما قَسَمَ اللهُ لي وفوّضتُ أمري إلى خالقي
لقد أحسنَ اللهُ فيما مضى كذلك يحسنُ فيما بقي (٣)

ويمضي شباب الساعر ، ولما يقض منه وطره ، وخطط المتيب عارضيه ،
فلقد أشعل شفاء الأيام رأسه نيباً ، وخبر الناس وعرف غسهم ، وعرك
الحياة وخداعها ، فأنشد قوله :

سلامٌ على عصر الشّبابِ الذي مضى وروحي بضافي ظلّه ما تملّت
عرّفتُ بها هذا الزّمانَ وأهله فرّحت بشيبي غافراً كلّ زلّةٍ
بلوّتُ الوريّ خُبراً فلم أرَ فيهم خيلاً سديداً عندهُ سدّ خَلّتي (٤)

- (١) ابن شاعر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٣٤٥ ، وابن تمري بردي : النجوم
الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٧٢ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٥٧ .
(٣) ديوان التلعفري ، ص ٢٩ .
(٤) ديوان التلعفري ، ص ٨ .

انتقل الشاعر إلى حماة ، ومدح ملكها المنصور الثاني سيف الدين محمد ،
ويستدل من النسب الذي استهل به مدحته المذكورة على قلق الشاعر
واضطراب حياته الخاصة كما في قوله :

نهاري كله قلق وفكر
يقتسمني الهوى كمدًا وحزنًا
فقم نخطب عروسًا بنت كرم
عجوز قد أسنت وهي بكر
مفرحة يفرّ الهم منها
إذا برزت وجئح الليل داج
وليلى كله أرق وذكر
فأمرهما لحتفى مستمر
لها الأموال والألباب مهر
ومن عجب عجوز وهي بكر
فليس يضمها والهم صدر
تبلى من سناها فيه فجر (١)

قضى الشاعر المرحلة الأخيرة من حياته ينادم ملك حماة المنصور الثاني
سيف الدين محمدًا ويسامره ، ولقي فيها الحفاوة والإكرام ، وحسن حاله
بعد أن أغدق عليه العطاء ، وكأنه آنس المنية تقترب منه ، فقال قبيل وفاته :
أحماء إن عهد أهلك أحكمت
لكنما أرف الرحيل وها أنا
أرض أروح بغيرها متعوضاً
أرى ترى عيني بمن تتعوض (٢)

كان ماقاله حقاً ، فقد أرف الرحيل ، وحانت ساعته ، فوافنه فيها
منيته سنة ٦٧٥ هـ ، وبذلك طويت هذه الصفحة من حياة الشاعر ، بيد
أنها سجلت لنا في سطورها قصة التلعفري شاعر الخمر والميسر .

(٢)

آثاره الأدبية

لا نعرف من آثاره الأدبية غير ديوانه ، وقد ذكر ابن تغري بردي أن
« ديوان شعره لطيف في غاية الحسن ، وهو موجود بأيدي الناس » (٣)

(١) المصدر السابق ، ص ١٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٥٧ .

وفد اختار منه بعض أبياته السيارة وموشحاته المشهورة . وجدير بالذكر أنه مطبوع مرتين ، فعمر طبعته الأولى تجاوز النمانين عاماً ، وعمر طبعته الثانية نحو من خمس وسنين سنة (١) . وقد خلصت من مطالعته إلى الاعتقاد أن ما بين أيدينا من شعره قليل من كثير مفقود ، وذلك لسببين انسيين :

أما أولهما فهو أن نمط حياته الخاص ، وإدمانه الشديد على الفمار والعقار جعلاه لا بهنم إطلاقاً بجمع شعره والعناية به في المراحل الأولى من حياته ، فنحن نعر على مختارات كثرة من شعره غير موجودة في ديوانه ، وسوف نعمل في المستقبل على استدراك ما نعر عليه إن تيسر لنا تحقيق الديوان ونشره .

وأما ثانيهما فهو أن بعض أخوان الساعر جمع ديوانه كما يظهر في المرحلة الأخيرة من حياته خلال وجوده في حماة ، ولم يبق من مدحه الكثير غير مطالع النسيب ، فقد كان يجتزئ منها ما يأتي من نعوت المدح بعد بيت التخلص ، وهكذا لم يسلم لنا من ديوانه غير مقطعات الغزل ومطالع النسيب ، يضاف إلى ذلك موشحة (٢) كتب بها إلى الأديب المصري شهاب الدين العازي (٣) جواباً على موشحة بعث بها الأخير إليه ، ومدحة أجاب بها صديقاً له بمصر (٤) ، كان قد بعث إليه قصيدة يذكره فيها ببعض ذكرياته هناك ، وقد حاولنا معرفة تاريخ رحلته هذه ، لكن المصادر التي بين أيدينا لم تسعفنا في ذلك ، ولعلها كانت في مراحل حياته الأولى .

(١) في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة نسخة مصورة من ديوان التلعفري بخط

اندلسي جيد كتب في القرن العاشر الهجري ، وعدد أوراقه ٢١ ، ورقمه ٣٣٩ (٢) .

(٢) أورد ابن شاعر الكتبي موشحة شهاب الدين كاملة خلال ترجمته للتلعفري (فوات

الوفيات ، ج ٢ ، ص ٣٤٩ ، ٣٥٠) .

(٣) شهاب الدين العازي ، هو أحمد بن عبد الملك ، وكان بزاراً في قيسارية جركس

في القاهرة ، وقد توفي سنة ٧١٠ هـ .

(٤) ذكر جامع الديوان أن هذه المدحة أجاب بها التلعفري شهاب الدين المذكور ،

وليس ذلك بصحيح إذ أن ابن شاعر أورد سبب نظمه القصيدة المذكورة ، وأنه أجاب بها

عن الدين بن أمسينا . (فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٣٥١) .

البَيْتُ الشَّابِي شعره ونزهبه الفني

(١)

أغراض شعره

لا نملك من شعره ما يسمح لنا بدراسة أغراضه كلها دراسة كاملة ،
وأغلب الظن عندي أنه لم يطرق فيه غير المدح، والوصف والطبيعة، والنسيب
والغزل ، والخمر .

المدح

نستهل حديثنا بذكر المدح ، والغريب أننا لا نجد بين أيدينا غير الموشحة
والمدحة المشار إليها آنفاً . أما مطلع الموشحة التي بعث بها إليه شهاب الدين
العزازي فهو قوله :

باتَ طرفي يتشكى الأرقا وتوالتْ أدمعي لا ترتقي (١)

ويقول فيها :

شاعرتْ فاقَ فحولَ الشعرا
بقوافٍ مثلِ إطراقِ الكرى
باسماتٍ تجتلي منها الورى
تفراً ييسمُ أو زهراً يرى

كلما لاحَ سناها مُشرقاً سجد الغرب لنور المشرقِ

أيها الموفي على عهد الزمن
كرماً محضاً وفضلاً ومنن
حاكه الخادم من غير ثمن
جالب الوشى لصنعاء اليمن

(١) أي لا ترتقيء بالهمز . يقال : رقأ الدمع : جف وسكن وانقطع .

فأستمعها زادك الله بقيا مدحة لم يحكيها ابن بقي (١)
 فأجابه التلعفري بموشحة جوابية ، مطلعها قوله :
 ليس يروي ما بقلبي من ظمما غير برق لائح من إضم.
 ويقول فيها :

العزازي الشهاب الثاقب
 شكره فرض علينا واجب
 فهو إذ تبلوه نعم الصاحب
 سهمه في كل فن صائب
 جائل في حلبة الفضل كما جال في يوم الوغى شهم كمي
 شاعر أبدع في أشعاره
 ومتى أنكرت قولي باره
 لو جرى مهيار في مضماره
 والخوارزمي في آثاره
 قلت : عودا وارجعا ، من أنتما ؟ ذا امرؤ القيس إليه ينتمي (٢)

والمدحة النائية بعث بها إلى صديقه بمصر عز الدين بن أمسينا ، جواباً عن
 قصيدة وردت منه ، سأله فيها عن حاله ، ويذكره بصفة حدث له هناك
 خلال وجوده بمصر ، ومما قاله :
 بأبي أنت ، يا خليلي ، وأمي أنت ، والله سيدي ، لي حسام
 كيف أخشى ذلي ولي منك عز
 أنت قوسي إذا رميت وسهمي فيه للنائب أعظم حسم
 نظمت فيك للمعالي عقسودا معجزات جميع نثري ونظمي
 الليالي عندي ظلام وظلم بعد ذا اللئى وذال (٣) الظلم (٤)

(١) ابن شاعر : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٣٥٠ .
 (٢) ديوان التلعفري : ص ٤٠ ، وابن شاعر : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٣٥١ .
 (٣) الظلم : بريق الأسنان وماؤها .
 (٤) ديوان التلعفري : ص ٤١ ، وابن شاعر : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٣٥١ .

أما المدح الأخرى فلم يبق منها غير ذكر اسم المدوح في بيت التخلّص ، ولم يصلنا من الاسماء غير اسم الملك العزيز ، ورد اسمه في مستهل نسبين ، واسم الملك الناصر الثاني محمد ، واسم غياث الدين ، وهى ما عثرنا عليه في الديوان من المدح .

لا جديد يطالعنا به من المعاني التي طرقها الشاعر في مدحه ، بد أن الجديد الذي يمكن أن نسجله هو استخدامه الموشحات في معرض المدح ، وهذا بالطبع يمثل تطور فن الموشحات المشرقية في هذا العصر ببلاد الشام ، واستخدامها في غير أغراضها المعروفة ، وسوف نأتي على ذكر ذلك في حديثنا المقبل عن الفنون الشعرية المستحدثة .

الوصف والطبيعة

لا بد لنا من التحدث عن النسيب ووصف الطبيعة ما دمنا في معرض دراسة مدح الشاعر ، وجدير بالذكر هنا أنه كان في المرحلة الأولى من حياته يقلد الشعراء القدماء ، وبستنّ سننهم في الصور والأخيلة والمعاني التقليدية والأساليب الجاهلية كما في قوله :

لولا بروق ^(١) بالعقيق	تغدو على عذباته وتروح
ما زاد قلبي لوعة ^٢ كلا ولا	أدنى خدودي دمعى المسفوح
ويح الصبا، حتّام يذكّرني الصبا؟	منها نسيم ^٣ كالعبير يفوح
خطرت، وقد أهدى لنا منها الشدا	غار ^٤ الغوير ورنده ^٥ والشّيح
يا أهل ودّي يوم ^٦ كاظمة ^٧ أما	عن وصلكم صبري الجميل قبيح
سرّتم وأسرّتم قلبي مهجّة ^٨	أودى بها التقرّيح والتبرّيح

(١) العقيق : اسم يطلق على أربعة وديان أعقة . قال ياقوت : « وقد أكثر الشعراء من ذكر العقيق ، وذكروه مطلقاً ، وبصمب تمييز كل ما قيل في العقيق » معجم البلدان ج ٤ ، ص ١٢٨ - ١٤١ .

اطمعموني في الوصالِ وليس لي إلا صُدودُ منكمْ ونزوحُ
هذي الجفونُ ، وإنما أين الكرى منها؟ وهذا الجسمُ ، أين الروحُ؟ (١)

نعثر في بعض الأحيان في ديوان الشاعر على أمثال هذه المعاني المطروقة
والألفاظ المكررة ، فسنة التقليد معروفة عند الشعراء في مطلع حياتهم الأدبية
أمر ظاهر كل الظهور منذ القدم ، وحتى الأفذاذ منهم ، حتى إذا بلغ الشاعر
نضجه الفني ، وامتلك نهجه الذاتي ، نراه يجدد في معانيه ، ويدعو خليله
الصاحب إلى هجر المنازل والديار ، والإعراض عن الرسوم والأطلال ، فليس
له في نعتها شأن :

يا صاح ، دعني من ذكر العقيق ومن منازلٍ ليس لي في نعتها شأن
مالي ، وما لرُبوعٍ لستُ أعرفها ؟ ما الحبُّ نعيمٌ ، ولا الأوطانُ نعيمان (٢)

ويتشوق السواق إلى مغاني السام ومرابعها ، وهو بعيد نازح في وادي
النيل ، ويتحدث عن طبيعتها الجميلة ، ويتغنى بذكر دمتق الفيحاء بخاصة ،
ويدعو لها بالسقيا من هامي الودق هتان ، فلقد أمضى في ظلال متنزهاتها ،
وعلى ضفاف برداها أجمل الأوقات وأسعد الساعات :

يهيج بالنيل بي شوقي إلى بردى إني ومن برده ظمآنٌ لهفانٌ
الله يا ورق في عاني الحشى وصبر صبر له من ربا جيرون جيران (٣)
يقول ، وهو بمصر عند حاجرها : ليس اللبانة إلا حيث لبنان
جادت لك يا شرف الميبدان سارية ولا تعداك هامي الودق هتان
ودبجت لك ياسطرى (٤) سطوراً رباً من الرياض لها بالزهر ألوان
وفاح يا وادي الشقراء منك شذا يضيع حين يذوق الورد والبان

(١) ديوان التلعفري ، ص ٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٣) جيرون بفتح الجيم ذكرها ياقوت ، وأورد أفعال القدماء فيها ، ثم قال :
« والمعروف اليوم أن باباً من أبواب الجامع بدمشق ، وهو باب الشرقي ، يقال له باب
جيرون ... وقال قوم : جيرون هي دمشق نفسها ... وقد أكثر الشعراء الأقدمون والمحدثون
من ذكره ... » معجم البلدان ، ج ٢ ص ١٩٩ .

(٤) من قرى دمشق .

وراقٍ ماؤك يا ثورا ولا برحت
ودام رفك يا باناس متصلا
تلك الجنان التي حبث التفت ترى
تدعوك فيها إلى اللذات أربعة
ظل ظليل وماء بارد غدق
تميل فوقك بالأطياف أفسان
حتى يرى كل ظام وهو ريان
قصرأ مشيداً به حور وولدان
بيع الحياة بها ما فيه خسران
وجوسق مشرف عال وبسان (١)

نلاحظ أن الشاعر لم يكتف بالإشارة إلى لبنان ، أحد جبال النمام العالية كما كان يعرف في هذا العصر ، وإنما تحدث عن نهر بردى ، وفرعيه المشهورين : ثورا وباناس ، وأشار إلى بعض رياضها الغناء ومربعها الفيح مثل وادي الشقراء ، وشرف الميدان وسطرى كما نلاحظ أن الشاعر تغنى في قصيدة أخرى بجبل قاسيون :

يا بارق الشام حي الأثل والبانا
وهات ما حملت عطفاك من خبر
سقت ليالك بالأحباب سارية
ولا تعدى الربا من قاسيون حيا
تلك الربوع التي لم تال مذ عميرت
وانقل حديثك عن لبني ولبنانا
فإن لي ربنا جيرون جيرانا
تعيد ظامى ذاك الترب ريانا
يعيد فوق الصياصي (٢) منه غدراننا
في الأرض للهو والأوطار أوطانا (٣)

يسترعي انتباهنا في مطلع القصيدة براعة الاستهلال كما يدعوه ابن حجة ، ونلاحظ من خلاله الصراع بين القديم والجديد : أما الأول فنلمحه في ذكر البارق والأثل والبان ولبنى ، وأما الثانى فنلمحه في الشام وجيرون ولبنان وقاسيون . . .

هكذا نجد الشاعر يمر في ثلاث مراحل حتى اكتمل نضجه الفني ونهجه الذاتي ، فلا غرابة إن رأيناه يعرض عن القديم ، فيجدد في معانيه ، ويأخذ منها بأوفر نصيب .

تلك هي لمحة عن تطور شعر التلغفري ومميزات وصفه ، وقد لمحنا من خلال ما مر معنا أثر طبيعة بلاد الشام في رقة الشاعر ، إذ تطور من نسيب

(١) ديوان التلغفري ، ص ٤٥ .

(٢) الصياصي : جمع صيص وصيصاء وهو الحصن أو كل ما امتنع به .

(٣) ديوان التلغفري ، ص ٤٨ .

تقليدي مطبوع بطابع بدوي إلى وصف واقعي لما حوله من طبيعة ساحرة
وجمال أخاذ .

النسيب والغزل

يختص بعض الشعراء بالإكثار من ذكر أوصاف معينة في أغزاليهم ،
تتطبعهم بطابعها الخاص ، وقد أشرنا من قبل إلى ابن منير الطرابلسي ، وذكرنا
أنه كان بكثير من التفني بذكر الخيلان ، ومعظم من جاء بعده من الشعراء
كانوا عالة عليه . أما التلعفري فكان يكثر من ذكر القدود والألحاظ وما حولها
مما يتعلق بها ، ونادراً ما تخلو قصيدة له من إيراد هذا المعنى الذي كان يتفنن
في نعتة بصور تكاد تكون غريبة ، نذكر من ذلك قوله :

حسبت شقيق الخد بالميلة الكحلا ونققت رمح القد بالطعنة النجلا
وأوترت قوسي حاجبيك ففوقت من النظر السامي إلى مقتلتي نبلا
عجبت لجفنيك التي نشطت لنا لتقتلنا ، وهي المضغفة الكسلى (١)

وبقول في قصيدة أخرى في المعنى ذاته ، ولكنه في حديثه عن سهام الألحاظ ،
يتصرها على أعين الأتراك ، ولقد عرفنا ذلك عند معظم شعراء العصر ، فغدا
التفزل بذلك صفة مستحبة لدى الناس ، إذ إنهم كانوا يفتنون بضيق العيون
وصغرها ، يضاف إلى ذلك أسهم الأتراك المعروفة بشدتها :

يا جاعلاً عينيه من أشرار تركي هوالك نهاية الأشرار
لم أدر حيث أراك تخطر مائساً أقوام قدك أم قضيب أراك ؟
أين المفر لعاشق متهتك صرعتهم أسهم أعين الأتراك ؟ (٢)

يحاول الشاعر أن يبين السلاح القوي الذي بملكه محبوبه ، فالقد في
نظره رمح مثقف ، يطمئن الطعنة النجلاء ، والحاجبان فوسان موتران يصوبان
سهام الأتراك القاتلة من الأعين الضيقة ، وهذه الصور مطبوعة بطابع القوة
والحرب ، وهي مبذولة بشكل لا نظير له عند شعراء العصر المملوكي . نذكر
من هذه الصور إحداها وقد تصور الشاعر فيها محبوبه يدعو للمبارزة
والنزال ، ويعجب خلال ذلك من سلاحه الذي يتصدى له به :

(١) ديوان التلعفري ، ص ٥٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

يدعو النزال ، وليس إلاّ قدّه رمح ، وإلا مقلتيه حسام (١)
كما يتصور الشاعر غصن قدّه وقد أورق بالدوائب ، ويرى أنه حمى
خدّه المورد بحسام اللحظ :

كلفت بأحوى من بني الترك أحور له غصن قدّ بالدوائب مؤرق
رشيق الثني والمعطف العس ال مرأشف يصمي طرفه حين يرمق
حمى بحسام اللحظ خدّاً مورداً غدت منه أكام الشقيق تشقق
له ناظر في ضميه وهو أسود عدو لأرباب الصبابة أزرق (٢)

تحدث الشاعر من خلال أبياته عن خسر المحبوب وعطفه وعارضه وقدّه
وحاول أن يشخص لنا ما يدور حولها من المعاني كما في قوله:

يارائشاً أسهماً من لحظ ناظره فوق فغير فؤادي ليس من هدف
سبحان معطيك خصرأ غير مختصر لي في العذاب وعطفاً غير منعطف
إذا شكوت لترثي لي وترحم ما تراه من جسمي المضنى ومن كلفني
يردني آيساً من ذاك عارضك الآ سي والمنثني من قدك الألف (٣)

تلك هي بعض المعاني العامة في غزل الشاعر وقد لاحظنا من خلالها أثر
العصر في اختيار هذه المعاني ، إذ انعكست عليها أحداث العصر السياسية
والاجتماعية والدينية وغيرها ، وذلك لأن المفاهيم الجمالية تختلف باختلاف
الزمان والمكان ..

الخمريات التلعفرية

لا بد من أن نلمّ بخمريات الشاعر ، إذ إنها لم تكن منفصلة عن غزله
ونسبته ، فالمعروف عنه أنه كان شاعر العقار والقمار ، وأنه يعد في الطليعة
من شعراء الخمر الأوائل ، فقد كان من رواد المذهب الخمري الخيامي في
بلاد الشام قاطبة .

سلك الشاعر نهج أبي نواس ، الخمري العربي الأول ، فكره مثله الوقوف
على الديار الدوارس ، وفضل التفني بذكر الخمر ، فهي عنده خير وأبقى :

(١) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

ياسافح^١ الاجفان^٢ في سفح^٣ اللوى
ليس الوقوف^٤ بنافع^٥ في دمنة^٦
قد كان ذلك سنة^٧ لدوى الهوى
أو ما ألد^٨ من الوقوف^٩ بدارس^{١٠}
من كل^{١١} سحار^{١٢} اللحاظ^{١٣} بشفره^{١٤}
وبخدره^{١٥} وبراحتيه^{١٦} مدام^{١٧}

وصف الشاعر الخمر وصف مدمن لها ، وقرن نعتها بالغزل ، ومعروف
عندنا أنه ما امتنع عنها قط ، فلقد أضاع بسببها معظم ما يملكه في دنياه ،
وعكف على معاقبها منذ مطلع شبابه حتى فارق حياته :

ربع^{١٨} علقت^{١٩} به ، وغصن^{٢٠} شبيبتي
لله عصر^{٢١} شبيبة^{٢٢} قضيت^{٢٣}ه
نضر^{٢٤} ، وفودي ليله لم يقمر^{٢٥}
في حيك^{٢٦} برحيق^{٢٧} صرف^{٢٨} مسكر^{٢٩}

كان الشاعر يقضي وقته في لعب الميسر ، ولعله أحد عوامل إدمانه على
الخمر ، إذ كان يستعين بها على دفع همومه ونسيان خسارته ، فيتجرع
كووسها ، وينفق عليها ما تبقى لديه من المال ، وقد أعرب عن هذه المعاني
في خمريته التي جاء فيها قوله :

نهاري كله قلق^{٣٠} وفكر^{٣١}
نقسمني الهوى كمدأ^{٣٢} وحنأ^{٣٣}
فقم^{٣٤} نخطب^{٣٥} عروساً بنت^{٣٦} (٤) كرم^{٣٧}
عجوز^{٣٨} (٥) قد أسنت^{٣٩} وهي بكر^{٤٠}
مفرحة^{٤١} يفر^{٤٢} الهم^{٤٣} منها
إذا برزت^{٤٤} وجنح^{٤٥} اللبل^{٤٦} داج^{٤٧}
فغيت^{٤٨} بكأسها وبها ، ولم^{٤٩} لا؟^{٥٠}

(١) الجام : اناء من فضة ، وهي مؤنثة ، وجميعها جامات ، وقيل جوم ، وتصغر
على جويمة .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣ .

(٤) العروس وبنت الكرم : من أسماء الخمر .

(٥) من الجاز العجوز وهي الخمر المعتقة .

(٦) البرق : الدراهم المضروبة .

يطوفُ بها علينا بدرُ تمَّ منيرُ عمرهُ خمسُ وعشر
لنا بكؤوسه وبمقلتيه كما حكمَ الهوى سكرُ (١) وسكرُ
نردُّ بها إليه ، وهي بيضُ ويأخذُها إلينا وهي حمُرُ (٢)

يعدُّ الشاعر التلعفري أحد رواد المدرسة الخمرية الشامية ، فهو يرى
أن الحياة لعب ولهو ، وخمر وميسر ، وعلى المرء ألا يتوانى عن التمتع بها ،
وعليه أن يصرف همومه ، ويبدد آلامه بصرف العقار :

كلُّ ربعٍ ليس يقضى وطرُ فيه ما ذلك عندي وطنُ
فاصرفِ الهمَّ بصرفِ (٣) دونها مرَّ في العمرِ عليها الزَّمنُ
ذاتِ أنوارٍ تجلَّتْ في الدُّجى عادَ مثلَ الصُّبحِ فيها الوَهْنُ (٤)
كلما طافَ بها السَّاقِ ترى الـ شمسَ بالبدرِ علينا تُقرنُ
فاغتنمها مِن يدي معتدلِ (٥) 'يخجلُ' الأغصانُ منه 'الفصنُ' (٦)

نلاحظ أن نعت الخمر يقتزن عند الشاعر في معظم الأحيان بالفضل
والنسيب ، فلا غرابة إن رأيناه يحوم حول نار الوجنات ، ويسكر من خمر
اللواحظ :

أدارتِ مِن لواحظها كؤوسا فأنستنا السُّلافُ (٧) الخندريسا (٨)
وأبدتْ خدَّها القاني فكنا هنالك لنارٍ وجنتها مجوسا

(١) سكرُ : الخمر أو النبيد وفيل : شرابٌ يتخذ من التمر والكسب والاس وهو
امر شراب في الدنيا .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤ .

(٣) الصِّرفُ : الخالص من الخمر أي محض غير ممزوج .

(٤) الوَهْنُ : نصف الليل أو بعد ساعة منه كالوهن .

(٥) أي ساق معتدل حسن القوام ويقال جارية حسنة الاعتدال أي القوام .

(٦) المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(٧) السلاف والسلافة : ماسال وتحلب قبل العصر وهو أفضل الخمر ،

(٨) الخندريس : الخمر .

فلم نرَ قبلها خُوداً (١) شموعاً (٢) تدبرُ بطرفها راحاً شموسا (٣)
فلا والله ما سلبت عقولاً لنا لكنّها سلبت نفوساً (٤)

وطبيعى جداً بعد ما مر معنا من خمريات الشاعر وأغزاله أن نخلص منها إلى
الاعتقاد أنه كان ينحو فيها منحى مادياً ونهجاً خلبعاً إباحياً كما في قوله :
من لي بمرسلة الخيال وقد جلا بالوصل ليل السخط للاء الرضا
لأعيد رمان النهود مكسراً منها وتفتح الخدود معضّضا (٥)

وعلى الرغم من ذلك كله فلم بعدم الشاعر بعض المسامحين الذين عذروه،
وغفروا له بعض مظاهر حياته الخاصة . منهم ابن تغري بردي الذي قال حين
ترجم له : « وانا مسامح البلعري على القمار لحسن ما قال من رائق
الأشعار » (٦) .

تلك هي بعض السمات العامة لأغزال الشاعر وخمرياته ، وقد آنسنا من
خلال عرضها أنه كان أحد رواد شعراء الخمر في بلاد الشام : فلم يكن ينعت
الخمر مقلداً غيره ، وإنما كان - كما رأيناه - مدمناً عليها ليله ونهاره ، وهكذا
قضى حياته نريداً طريداً ، صريع العقار واليف القمار ، حتى بات في أواخر
أيامه ، لا يجد له في بعض أحيائه مأوى يلوذ به غير أتون حقير في حمام مهجور .

(٢)

مذهب الفني

تحدثنا في فصل سابق عن اتجاه جديد عند شعراء هذا العصر ، جنح
فيه بعضهم إلى الإعراض عن الزخارف البديعية في مذهبهم الفني ، بيد

(١) الخود الحسنه الحلق الشابة او الناعمة .

(٢) الشموع : جاء في اللسان أنها « الجارية للعب الضحك الانسة ، وقيل : هي
المراحة الطيبة الحديث التي تقبلك ولا تطاوعك على سوى ذلك » .

(٤) الشموس من أسماء الخمر لأنها تشمس بصاحبها أي تجمع به . قال أبو حنيفة
سميت بذلك لأنها تجمع بصاحبها جموح الشموس فهي مثل الدابة الشموس ، وسميت راحاً
لأنها تكسب شاربها أريحية ، وهو أن يهش للعطاء ويخف له .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٧٣ م

أن بعضهم الآخر من أرباب هذا الاتجاه لم يستطيعوا الإفلات نهائياً من طغيانها ، فبدأ الانسجام الشعري واضحاً في إطار عام من الصنعة البديعية ، وكان التلعفري أحد هؤلاء ، فهو - كما رأينا - شاعر وجداني مطبوع ، لكنه لم يفلت من التأثير ببعض التيارات المعروفة في هذا العصر .

يلاحظ أن شعره يجنح بشكل عام إلى السهولة ، شأنه فيها شأن شاعر رقيق معروف هو بهاء الدين زهر ، وكان مطبوعاً بالطابع الوجداني الصرف ، فلقد قصره على المدائح والأوصاف والأغزال والخمريات ، وهي معظم ما بمألاً حياته وشعره ، فلا غرابة إن رأينا بعض القدماء يحفظ معظم شعره كما هو الحال عند ابن سعيد الأندلسي (١) .

ويلاحظ أيضاً ، على الرغم من انطباع شعره بالسهولة المتناهية ، أنه كان يتأثر ببعض المذاهب الشعرية والزخارف البدعية التي سادت في القرنين السادس والسابع الهجريين ، وكان أربابها يتكفون الجنس والطباق والاعتباس وغيرها .

استخدم الشاعر الجنس بكثرة في شعره (٢) وشواهد كثيرة ، نذكر منه قوله :

انتَ خالٍ مما يقاسيه قلبي من غريرٍ له على الخدِّ خالٌ
كلما عزَّ زاد ذلِّي وحالتُ ليَ فيه ، معَ الزَّمان ، الحالُ (٣)
وقوله :

حتَّام أرفلُ في هوائكَ وتفغلُ ؟ وعلام أهزلُ في هوائكَ وتهزلُ ؟
يا مضرماً في مهجتي بصدوده حرقاً لهنَّ يكادُ يذبلُ يذبلُ (٤)(٥)

(١) عرف الأدمون والنقاد رقة شعره ، فقد ذكر ابن حجة « أن الشيخ نور الدين علي ابن سعيد الأندلسي ... لما ورد إلى هذه البلاد اجتمع بالصاحب بهاء الدين زهر ، وتطفل على موائد طريقته الفرامية ، وسأله الارشاد إلى سلوكها ، فقال له : طالع ديوان الحاجري والتلعفري وأكثر من المطالعة فيهما ، وراجعني بعد ذلك ، فقاب عنه مدة ، وأكثر من مطالعة الديوانين إلى أن حفظ غالبهما ، سم اجتماعاً بعد ذلك وتذاكرا في الفراميات ... » (الخزائن ص ١٠) .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨ ، ٩ ، ١٥ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٢ .

(٤) يذبل : الثانية اسم جبل في نجد .

(٥) ديوان التلعفري ، ص ٣٨ .

وقوله :

يهيج بالليل بي شوقي إلى بردى إني ومن برده ظمآن لهفان
ودبجت لك ناسطرى سطور رُباً من الرياض لها بالزهر الوان
وفاح با وادي الشقراء منك شذاً يضيّع حين يَضوعُ الوردُ والبان (١)
استخدم الشاعر أيضاً الطباق بكثرة في شعره (٢) . وقد لاحظنا
أن شعراء القرن السادس بشكل عام جنحوا إلى استخدام الجناس والطباق
بكثرة ، فمن ذلك قوله :

له ، وهو مملوكٌ ، تحكمُ مالكُ كما ، وهو ظبيٌ ، فه صولةٌ ضيغمُ
يلوحُ كبدري طالعِ الثورِ مشرقِ بدا في دجى ليلٍ من الشعرِ مظلمِ
فلا طرفَ إلاّ في نعيمٍ وجنةٍ ولا قلبَ إلاّ في لظىٍ وجهنمِ
فينطقُ عن لفظٍ كدرٍ مبددٍ ويسيمُ عن تفرٍ كدرٍ منظمِ (٣)
وقوله :

كان عهدي بالخمير ، وهي حرامُ فبماذا صارتُ لديك حلالا ؟
أنا قصدي تقبيلَه إرصاداً كان رشفي رضابَه أم ضلالا ؟
حار مني في شرحِ حاله فكري كيف يسطو ليثاً ويعطو غزالا ؟
إن اطلعتُ الفرامَ فيه ، فيأني قد عصّيتُ اللوامَ والعدّالا (٤)

يضاف إلى الطباق والجناس ظهور الاقتباس بمختلف أشكاله في شعره

فمن الاقتباس القرآني قوله :

قالت محاسنُ وجهها لمحبّها : « لنوليئك قبلةً ترضاهَا » (٥)

(١) المصدر السابق ، ص ٤٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠ ، ١٤ ، ٢٣ ، ٣٥ ، ٤١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٤ . والأبيات المذكورة غير موجودة في هذه النسخة من الديوان وهي منقولة من طبعه ثانية للديوان .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦ . والأبيات المذكورة غير موجودة في هذه النسخة من الديوان ، وهي منقولة من طبعة ثانية له .

(٥) المصدر السابق ، ص ٥ . اسم الشاعر هذا المعنى من الشرف الأنصاري وسوف تشير إلى ذلك في مكانه من هذه الدراسة .

ويلاحظ في الاقتباس الحديثي أنه كان يستخدم مصطلحاته الخاصة كما هو معروف عند المحدثين ، فمن ذلك قوله :

ولا بَرَحَ الصَّبَا يروي صحيحاً
منازلُ للصَّبَا ما زال شملي
حديثَ رياضها ، وبها اعتلالُ
له فيها بمن أهوى اتَّصالُ (١)

وقوله :

حدَّثتهُ عن نجدٍ فلولا عَيْنُهُ (٢)
واستمل ما تمليه عِبةُ روضه
وعيونُها ما جَنَّ منه جنونهُ
سَحَرًا ، وترفعهُ إليه غصونهُ
فحديث أهل العشقر أنت أَمِينُهُ
وانقلْ اسانِدُ الهوى عن أضلعي
أعدِ الحديثَ عن الحبيب مكرراً
أخباره ، فالصبُّ هذا دينُهُ (٣)

ومن الاقتباس اللغوي والبلاغي وغيرهما قوله :

يا جوهرِيَّ الثغر لا ومضاعفٍ
عطفاً على ذي لوعة مبثوثة
من كسر جفنيك ما القلوب صحاحُ
منقاصر عن شرحها الإيضاحُ (٤)

وقوله :

عندي جوى ، يذرُ (٥) الفصيح مبلداً
القلب ليس من الصحاح فيرتجى

بلاحظ أن الشاعر ذكر الجوهري ومعجمه (الصحاح) ، وثعلباً وكتابه

(الفصيح) ، والزمخشري وكتابه (المفصل) ، وابن فارس وكتابه (المجمل) ،
والخليل الفراهيدي ومعجمه (العين) .

ومن الاقتباس النحوي قوله :

وإذا الثنيَّة أشرقَت وتيمَّمتْ
أرجاؤها أرجاً كنشرِ عبرِ

(١) المصدر السابق ، ص ٣٥ .

(٢) عين : بقر الوحش .

(٣) المصدر السابق ، ص ٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨ .

(٥) يذر : وذر الشيء تركه ولا يستعمل بهذا المعنى الأخير سوى المضارع والأمر فنقول ذره ويلذه أي دعه وأتركه وبدعه ويتركه ، فإذا أريد الماضي قيل ترك ، أو المصدر قيل الترك ، أو اسم الفاعل التارك .

(٦) المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(٣) ديوان اللغوى ، ص ٤٧ .

سَلْ هَضَبَهَا الْمَنْصُوبَ: أَيْنَ حَدِيثُهَا أَلْ مَرْفُوعٌ عَنْ ذَيْلِ الصَّبَا الْمَجْرُورِ (١)
وقوله :

قُلْ لِلصَّبَا سِرّاً : فَإِنْ لَمْ تَبْتَدِ يَضْحِي بِمَا تَفْضِي إِلَيْهِ مَذِيعاً
يَا ذَيْلُهَا الْمَجْرُورُ عَنْ بَانَ اللَّوَى أَلْ مَنْصُوبٌ ، هَاتِ حَدِيثُكَ الْمَرْفُوعاً (٢)
وَمِنَ الْإِفْنَابِ الْعَرُوضِيِّ قَوْلُهُ مُسْتَعْدِماً فِيهِ الْأَبْحَرُ الطَّوِيلُ وَالْمُنْتَارِبُ
وَالسَّرِيعُ وَالْمَدِيدُ :

كَمْ قَدْ مَضَى لَيْلُ الطَّوِيلِ مَدِيدُهُ بِرَقِيبِهِ مُتْقَارِباً وَسَرِيعاً (٣)
وقوله مستخدماً فيه المتقارب والوافر والمديد والطويل :

مُتْقَارِبٌ لِي مِنْهُ صَدٌّ وَافِرٌ فَمَدِيدٌ لَيْلِي لَا يَزَالُ طَوِيلًا (٤)
يلاحظ بالإضافة إلى ما مر معنا في مذهبه أنه كان يستخدم التدبيح ،
وهو عند البلاغيين ضرب من المفاصلة (٥) ، وهو إما أن يكون تدبيح كناية
أو تدبيح تورية ، وقد حاول التلعفري إبراز المعاني كما تخيلها في صورة جملة
من الألوان ، فمن التدبيح قوله :

شَفَقَى خَدَّ أَحْمَرَ ، صَبَحَى نَفْسَ رَمٍ أبيض ، لَيْلِي خَالٍ أَسْوَدٍ (٦)
وقوله بكنى فيه عن حظه الأسود والموت الأحمر :

وَجَعَلْتَ حَظِّي مِنْكَ خَالاً أَسْوَدًا وَأَذَقْتَنِي مَوْتًا كَخَدِّكَ أَحْمَرًا (٧)
فأسوداد الحظ كناية عن سوء الحال ، والموت الأحمر كناية عن الشدة ،
وقوله يذكر فيه النفر والخد والخال :

لَمْ أَدْرِ مِمَّا فَسَّاحَ لِي طَيْبُ التَّمْدَا فَأَمِيلُ مَيْلَ الْمُتَنَبِّهِ الْمَسْرُورِ
مِنْ خَدِّهِ الْوَرْدِيِّ ، أَوْ مِنْ خَالِهِ أَلْ سِنْدِي (٨) ، أَوْ مِنْ ثَغْرِهِ الْكَافُورِيِّ (٩)

(١) المصدر السابق ، ص ١٦ . ذكر ابن الوردي أن البت الثاني في غاية الحسن : فانه
قال المنصوب ، وهو منصوب ، والمرفوع وهو مرفوع ، والمجروح وهو مجروح . (ابن الوردي :
تنمية المخصر ، ج ٢ ص ٢٢) .
(٢) ديوان التلعفري ، ص ٢٤ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٥٢ .
(٥) الفزويني : الإيضاح ، ج ١ ص ٢٧ - ٣٢ .
(٦) ديوان التلعفري ، ص ١٠ .
(٧) المصدر السابق ، ص ١٧ .
(٨) نسبة إلى السند وهي بلاد بن الهند وكرمان وسجستان وهي على ضفة بحر الهند .
(٩) المصدر السابق ، ص ١٦ .

وقوله يصف الطبيعة مجلياً ألوانها :

أُتْسِيتَ بالخضراءِ أياماً زهت بكمالٍ بهجتها على أجناسها
ورياضٍ أربعها ، وحمرةٍ وردها وبياضٍ أنهرها وخضرةٍ آسها (١)

وقوله بصف العدو وزرقته والناظر وسواده :

حمى بحسامٍ اللّحظ خدّاً مورداً غدت منه أكامُ الشقيق تشققُ
له ناظرٌ في ضمنه ، وهو أسودٌ عدوٌ لأربابِ الصبابةِ أزرقُ (٢)

إن وصف العدو باللون الأزرق كناية عن شدة العداوة ، ويظهر أن هذا التنبيه مستمد من وصف أعداء المسلمين من روم وفرنجة ، ذوي العيون الزرق ، وهم الد أعدائهم منذ القدم .



نخلص مما تقدم معنا من دراسة مذهب التلعفري إلى أن نؤكد أمرين :
• أولهما أن شعره مطبوع بالسهولة المتناهية ، وذلك جرياً على ما ألفه
لدى بعض شعراء هذا العصر من أرباب مذهب التخلي عن الصنائع البديعية
في الشعر .

وثانيهما أنه على الرغم من ذلك كله لم يفلح في التخلي نهائياً عن الزخارف
البديعية والصور البيانية ، وقد رأينا وجود الجناس والطباق والاقتراس
وغيرها في شعره ، وهذا بالطبع نتيجة حتمية لتأثره بالشعراء الذين كانوا
يكثرون من التألق اللفظي وتكلفه ، بيد أن طبع الشاعر السليم أبعد عن
الإغراق في ذلك ، فبقي شعره ندياً في رونق أصالته ، ومثبعاً بشخصيته
ووجدانه وذاتيته ، فكان حقاً أحد الشعراء الذين استطاعوا في عصر التورية
أن ينفوا بعيدين عنها ، ولذلك لم يسلكه معاصروه ضمن مدرسة التورية
التي عرفناها في هذا العصر ، على الرغم من أنه قضى في حمأة المرحلة
الختامية من حياته ، وهى مدينة الشرف الأنصاري إمام شعراء مذهب

(١) المصدر السابق ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٧ .

التورية والانسجام في بلاد الشام ، وقد كان أثره كان ظاهراً في تصنع الصور البلاغية الأخرى كما رأينا شواهد ذلك في بحث مظاهر التأنق اللفظي الذي عرفناه في شعره من قبل ، وبخاصة الافتباس بأشكاله المختلفة ، بيد أنه في نظرنا قصر في كثير منها وكانت التورية في شعره غير مسساعة كثيراً . ذلك أنه لم يتخذها غاية في ذاتها ، كما كان الحال عند الشرف الانصاري .

مهما يكن من امر فما لا شك فيه أن السلفري أحد شعراء الطبع السليم الذين كانوا لا يستخدمون التأنق اللفظي إلا مكرهين ، إذ انهم يريدون أن يرضوا أذواق الأدباء الذين كانوا يقدرّون شاعريتهم بمقدار ما يتكلفونه منها ، وشأن السلفري في انسجام شعره الرائق وسهولة الفاظه شأن الشاب الظريف الذي كان أحد شعراء مدرسة التورية في بلاد الشام .

الشاب الطريف

(٦٦١ - ٦٨٨ هـ = ١٢٦٣ - ١٢٨٩ م)

القبس الأول

حياته وآثاره

(١)

مراحل حياته

ولد الشاعر المشهور ، شمس الدين (١) ، محمد بن عفيف الدين سليمان بن علي بن عبد الله بن ياسين العابدي المصري (٢) ، ثم الكومي (٣) ، ثم التلمساني (٤) ، في القاهرة في عثر جمادى الآخرة سنة ٦٦١ هـ لما كان والده صوفياً بخانقاه سعيد السعداء ، وكان بلقب بـ « ابن العفيف » ،

(١) ابن نفري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٨١ و ج ٨ ص ٢٩ ، ٣٠ ، وابن حجة : الخزائن ، ص ٢٧٧ ، وابن شاعر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٢٦٣ ، والصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٣ ص ١٢٩ ، وتاريخ ابن الفرات ج ٨ ، وبروكلمان (258) ' 458 ' SI ' 300 Brock I والزركلي : الاعلام ، ج ٧ ص ٢١ ، و ج ٨ ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٨٥ .
(٣) الكومي : في (فوات الوفيات) أنه كوفي الأصل ، وقد صوّب الزركلي صاحب الاعلام ذلك ، وقال : « انه من خطأ الطبع أو النسخ ، صوابه (كومي) بالمسم نسبة الى (كومة) ، وهي قبيلة صغرى ، منازلها بساحل البحر من أعمال (تلمسان) كما في ابن خلكان ، ويسمونها المغاربة « كومية » كما في المعجب » . (الزركلي : الاعلام ج ٣ هامش ص ١٩٣ ، ١٩٤) .
(٤) تلمسان : موضع في المغرب الاوسط ، وهو مؤلف من مدينين مجاورين ، احدهما قديمة اسمها أقادير ، والآخرى حديثة اسمها نافرز ، وقد اختطها المثلثون من ملوك الغرب وفي صبح الاعشى انها قاعدة مملكة المغرب الاوسط ، وهي تشمل على الجزائر الحالية اليوم ، ودار ملك بني عبد الواد من زناتة من قبائل البربر ، وطلت الى أواخر القرن الثامن للهجرة . (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤٤ ، والعلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ١٤٩ ، ١٥٠ ، وهامش النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٩) .

بيد أنه اشتهر وعرف بين معاصريه باسم « الشاب الظريف » ويظهر أن سبب هذه التسمية يرجع إلى ما عرف عنه من عبث و « لعب وعشرة وانخلاع ومجون » (١) كما صرح بذلك في مستهل مقامات العشاق .

كان أبوه شاعراً معروفاً (٢) ، وهو أحد المصوفة المشهورين ، وكان فاضلاً ، ويدعي العرفان ، ويتكلم في ذلك على اصطلاح الفوم ، كما كان منتحلاً في أقواله وأحواله طريقه ابن عربي (٣) وسلوكه ، وهو من القائلين بالوحدة والاتحاد . والمعروف عنه أنه قدم القاهرة من بلدة تلمسان في المغرب الأوسط ، وأقام عند صاحبه الشيخ شمس الدين الأيلي في خانقاه سعيد السعداء (٤) ، وفد وردت الإشارة إلى موطنه الأصلي في تلمسان في شعر ابنه شمس الدين :

فاستلم ، ولا تلتفت إلى مهج بها جوى قاتل وأشجان
ونم خلياً ، وقتل : كذا وكذا من كل ما اطلعت تلمسان (٥)

أغلب الظن عندي أنه تزوج ، وهو في مصر ، ورزق فيها ابنه نسي الدين محمد ، فقتضى فيها طفولته وصباه ، وفد أشار إلى ذلك في مستهل إحدى مدحه بقوله :

يا راقداً الطرف ما للطرف إغفاء حدث بذاك فما في الحب إخفاء
إن الليالي والأيام من غزلي في الحسن والحب أبناء وأنباء
وصفوة الدهر بحر والصفاسفن وللخلاعة إرساء وإسراء
ياساكني مصر شمل الشوق مجتمع بعد العراق وشمل الشكر أجزاء
كأن عصر الصبا من بعد فرقنكم عصر التصابي به للهو إبطاء
نار الهوى ليس يخشى منك قلب فتى يكون فيه لإبراهيم أرجاء (٦)

(١) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٨٥ .

(٢) قال ابن تفرج بردي : انه كان « من الشعراء المحيدين ، وله ديوان شعر كبير » ج ٨ ص ٢٩ ، يوجد منه نسخ كثيرة ، منها نسخة في دار الكتب الطاهرية مكتوبة سنة ٩٩٨ هـ ، ومنها نسخة أخرى مكتوبة بخط نسخي يمني سنة ٩٦٩ هـ ، ونفع في ١٣٦ ورقة ، وفي معهد المخطوطات العربية بالقاهرة نسخة منها مصورة رقم ٣٨٥ .

(٣) ابن تفرج بردي : المهمل الصاق (مخطوط) ج ٢ و ١٢٠ ، والنجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٩ . (٤) ابن ساكر : فواب الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٢٨ .

(٥) ديوان الشاب الظريف ، ص ٨١ . (٦) المصدر السابق ، ص ٣ .

تلك هي حياته في مصر ، بيد أنه فارقها ، وهو فتى ، بعد أن التحق أبوه بالخدم الديوانية ، وترك طريفته في التصوف . واستقر آخر أمره في ديوان المكس بدمشق ، واتخذ منزلاً لسكناه في جبل قاسيون ، وقد أشار شمس الدين إلى ذلك بقوله :

يا قطرُ عمّ دمشق، واخصّصْ منزلاً في قاسيونَ ، وحلّه بنباتِ
وترنمي يا وُزق فبه ، ويا صبا مُرّي عليه بأطيب النّفحاتِ
فيه الرّضا ، فيه الهوى، فيه الهدى فيه أصولُ سعادني وحياتي
فيه الذي كشفَ العمى عن ناظري وجلا شمسَ الحقّ في مرآتي
كفّ تمدُّ بجودهٍ نحوي وأخـ رى للسّماءِ بسائر الدّعوات (١)

في دمشق الفيحاء ، وفي مثل هذا الحنان الأبوي العظيم ، وفي مثل هذا الجو من التصوف والدين ، نشأ الشاعر العبقرى ، فنال ثقافته الأولى على يد أبيه وفي كنفه ، ولا سيما أنه كان من رجال التصوف وشعرائه الأعلام المشهورين ، فلا غرابة إن رأينا ابنه شمس الدين ينظم الشعر منذ نعومة أظفاره ، بيد أنه آنس في نفسه القدرة على ذلك ، ولقي كل تشجيع ، سواء أكان ذلك من أسرته أم من مجتمعه ، وهذا مما عجل ببدء حياته الأدبية في وقت مبكر جداً ، بعد أن تضافر لتنمية ذلك عاملان هامين : هما الوراثة والبيئة معاً ، وقد جاء في فوات الوفيات نقلاً عن شهاب الدين بن فضل الله : «وكان لأهل عصره ومن جاء على آثارهم أفنان بتسعره، وخاصة أهل دمشق، فإنه بين غمائم حياضهم رُبي ، وفي كمائم رياضهم حُبّي ، حتى تدفق نهره ، وأينع زهره» (٢) .

بلغ الشاعر قمة مجده الأدبي وهو بعد في شرح شبابه ، فانصل بكبار المتقدمين من رجال عصره ، فمدحهم بتسعره ، ويظهر أنه كان له اختصاص بابن عبد الظاهر (٢) ، فقد كان له من مدحه أوفر نصيب ، إذ أننا نعثر في

(١) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

(٢) ابن شاعر : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ .

(٣) عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي السعدي، قاض وأديب من أهل مصر ولد سنة ٦٢٠ هـ وتوفي سنة ٦٩٢ هـ له (الروضة الهية الزاهرة في خطط المعزية الفاهرة) و (سيرة الظاهر ببسرس) و (اللطاف الخفية) و (تائم الحبايم) وغير ذلك . وله شعر حسن . (الزركلي : الأعلام ج ٤ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤) .

ديوانه على ثلاث مدح بعث بها إليه وهو في القاهرة ، كما تطالعنا في ديوانه مدح أخرى مفرقات ، ولعل أبرزها وأهمها القصيدة التي مدح بها الملك المنصور الثاني سيف الدين محمداً ، صاحب حماة .

ذكر ابن الفرات في تاريخه أنه « شاعر مجيد ابن شاعر مجيد ، كتب طبفة ، وتعماني الكتابة وولى عمالة الخزانة بدمشق المحروسة » (١) .

لقي شعره رواجاً لدى الناس لسهولة وعذوبته ، واستطاع على الرغم من صغر سنه أن يصبح مرموقاً بين الشعراء المعاصرين المشهورين ، وهذا بفسر لنا إشارة معاصره إلى أن جماعة من خلطائه كانوا لا يرون عليه تفضيل شاعر ، ولا يرون له شعراً إلا وهم يعظمونه كالمناسير (٢) ، فمن الطبيعي إذن أن يتألب كثير من حساده ، ويضطر الشاعر إلى الرد عليهم ، ويصف حياته في هذه المرحلة بقوله :

ليت الليالى التي أولت بشاشتها إن لم تدم هبة الذات لم تهب
ما بالها غلبت حزني على فرحي والقت الجد بين النجج والطلب
ما اختص بي حادث منها فأغبنها كذاك شيمتها في كل ذي أدب
مالي وللشعراء المنكري شرفي وفوق درهم ما تحت مخشلي (٣)
إن غبت عنهم تباهوا في قصائدهم بغيبة الشمس تبدو زينة الشهب (٤)

ويفلح خصوم الشاعر الكثيرون في النيل منه ، ويحاولون الإقلال من شأنه أمام بعض ممدوحيه ، فيتنكر بعضهم له ، ويلحق به الذل والتسقاء فيأسى على حظه الشقي ، ويندب سبابه التعس وحاله السيئة كما جاء في مستهل إحدى مدحه الوزيرية :

أمل سعت أجد في إتمامه فعلام حل الدهر عقد نظامه؟ (٥)
وإلى متى يسعى الزمان لنقض ما أسعى بكل الجهد في إبرامه؟

(١) تاريخ ابن الفرات ، ح ٨ ص ٨٥ .

(٢) ابن شاعر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٢٦٢ ، ص ١٠ .

(٣) المخشلي والمخشب : وهما لفظتان للنبط فيما يشبه الدر من حجارة البحر وليس بدر ، أو هو على شكل خرز أبيض يشاكل اللؤلؤ يخرج من البحر وهو أقل قيمة منه . وردت هذه اللفظة في شعر المتنبي وقد أهملها الجوهري .

(٤) ديوان الشاب الطريف ، ص ١٠ ، ١١ .

(٥) النظام : السلك ، وهو خيط العقد .

وإذا الفتى قعدت قوائمه حفظه
 اذل في أيام من قد كان لي
 أين المروءة والقيام بحق من
 لا تحقرن صغير قوم ربما
 تعس الشباب فما سعدت بشرخه
 أمكلفي ذنب الزمان وليس لي
 الرزق أحقر أن أضيع مدتي

قام الردي من خلفه وأمامه
 ظن بنيل العز في أيامه ؟
 ألقى إليك ذمامه بزمامه ؟
 كبرت فضائله على أقوامه
 ولقد شقت بظلمه وظلامه
 ذنب يؤاخذني على إجرامه
 بالعدر عند سواكم وملامه (١)

ونرى الشاعر على الرغم من ذلك كله لا يقنطه اليأس ، ولا يكثر بما
 يحوكه حوله خصومه من الشعراء ، وإنما نراه يخاطب ممدوحه القاضي
 محيي الدين بن النحاس قائلا :

دعني وشعري ومن في جفنه مرض
 وخذ شواهد ما أملت من فكر
 فالدبر يحسن مثقوبا لناظمه
 وكلما قيل شعر أو يقال فما

فلم يزل مرض الأجفان تطبيبي
 تشني عليك بملفوظ ومكتوب
 وحسن لفظي در غير مثقوب
 أراه إلا رذاذ من شائبي (٢)

ويتمادى حساده في غيهم ، ويزورون عليه القول ، ويبالغون في إيذائه ،
 حتى يبلغ به اليأس مبلغه من نفسه الطموح ، فينادي قائلا :

كيف خلاصي من الذي أجد ؟
 ما قلت يوما : قد انقضى عدد
 قد عرفوا من أنا ؟ وعاقهم
 ما بلغوا ما حويت من أدب
 وزوروا قولهم ، وما صدقوا
 حاشا لمثل الأمير يسمع ما
 أو أنني أحرف (١) الفيا في من

قد أعوز الصبر عنه والجلد
 من الأعادي إلا أنسى عدد
 عن اعتراف بفضل الحسد
 فبالغوا في أذاي واجتهدوا
 في نقل شيء ، ضري به قصدوا
 قالوه عني وما به شهدوا
 خلقي ولا يستقر بي بلد (٥)

(١) المصدر السابق ، ص ٧٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦ . الرذاذ : المطر الخفيف . والشايب : جمع شوبوب ،
 وهو الدفعة من المطر .

(٣) ديوان الشاب الظريف ، ص ٣٢ .

(٤) حرف الشيء عن وجهه أي صرفه .

(٥) هذا البيت مستدرج من الطبعة الجديدة للديوان الصادرة في النجف الأشرف
 سنة ١٩٦٧ وهو غير موجود في الطبعة المعتمدة .

ما لي إلا يتسي أقيم به فلا يراني من بعدها أحد
والأرض إلا دمشق لي وطن والناس إلا الأمير لي سند^(١)
وهكذا نرى الشاعر يجمع أمره على اعتزال الناس في عقر داره ، فلا يراه
منهم أحد بعد أن دب اليأس في نفسه ، فعاجلته منيته المفاجئة ، ولما بسعد
بعد بأيام شبابه النضير ، ففضى نجه ، وهو في السابعة والعشرين سنة ٦٨٨ هـ
بعد أن نبه أمره وانتسر خبره ، فملأ الدنيا ونفل الناس في عصره ، فكانت
حياته القصيرة قصة العبقرية المفجوعة ، وأسطورة الشاعر الذي لم يهنا بالصبا
الربان ، ولم يتمتع بالشباب الغض .

(٢)

آثاره الأدبية

نلاحظ غزارة إنتاجه الشعري في وقت مبكر جداً من عمره ، فقد خلف
لنا ديوان شعر مشهور متداول بين أيدي الناس^(٢) وقد ذكر ابن الفرات
نقلاً عن الصفدي فيما أخبره به سيخه أثير الدين أبو حيان قال : « رأيت
ديوان ابن العفيف بخطه ، وهو في غاية القوة والقلم الجاري »^(٣) وأغلب
الظن في اعتقادي أن جماعة من خلطائه المعجبين بشعره من هواة مذهب
التورية والانسجام هم الذين قاموا بجمعه وترتيبه بحسب الحروف
الأبجدية^(٤) . يضاف إلى ذلك أن الشاعر كان ينسئ أحياناً بعض ما يروى
له كتابته نثراً ، فقد أثر عنه أنه أنشأ رسالة صغيرة في ورقتين ، أسماها
« مقامات العشاق » وهى منشورة في كراس خاص ملحق بديوان التلعفري ،
وهو يصف في مستهلها ولعه بالأراجيز في سن التمييز^(٥) ، ثم يتحدث عن حبه
وخروجه للرياض والتقاءه بعاشقين وحديثه معهما .

(١) ديوان الشاب الطريف ، ص ٣٢ .

(٢) ابن تفرى بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٨١ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٨٥ .

(٤) طبع ديوانه عدة طبعات نشر منها الى أربع قديمة الاولى سنة ١٢٨٧ هـ ، والثانية
سنة ١٣٠٨ هـ ، والثالثة سنة ١٨٨٥ م ، والرابعة في القاهرة عند صبح من غير تاريخ .
وأشير الى الطبعة الجديدة التي ظهرت في النجف الاشرف بتحقيق شاكر هادي شكر سنة
١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .

(٥) الشاب الطريف : مقامات العشاق ، ص ١ .

القبس إلى شعره وذهبي الفتي

(١)

أغراضه وشعره

يلاحظ في ديوان الشاعر انه طرق ثلاثة أغراض رئيسية هي : المدح والأغزال والخمريات ، ولا بد من وقفة عندها لتدرس بالتفصيل .

مدح مختلفة

يحتوي ديوانه على مدح مختلفة ، من جملتها مدحة نبوية ، استهلها بقوله :

أرضُ الأحبةِ من سفحٍ ومن كُثبٍ سقالكِ منهمرُ الأنوارِ من كُثبِ (١)

وسوف نلقي نظرة على هذه النبوية في معرض حديثنا عن المدح النبوية في فصل مقبل نظراً لأهميتها ، فهو يتحدث فيها عن العرب ، شأنه في ذلك شأنه في معظم مطالع النسيب ، فقد أعلن إيمانه بالعروبة في عصر كثر فيه التحدث عن الأتراك ، ولا سيما أن الطبقة الحاكمة من غير العرب ، فلم يخفه ذلك وإنما أعلنها صرخة عربية بقوله :

قومٌ همُ العربُ المحميُّ جارُهُم فلا رعى اللهُ إلا أوجهَ العربِ (٢)

(١) ديوان الشاب الطريف ، ص ٥ .

(٢) المصدي السابق ، ص ٥ .

أما المدح الأخرى فقد صورت لنا حياة الشاعر خير تصوير، إذ إنها عبّرت بشكل خاص عن ذاته وكثيراً ما تحدث فيها عن أعدائه وحساده ومناوئيه . كما توضح لنا ذلك في الشواهد الشعرية التي عرضنا لها من خلال بحث مراحل حياته .

لقد تأكد لنا أنه لم يمدح من سلاطين الممالك أحداً ، وإنما اكتفى بمدح الملك المنصور الثاني محمد صاحب حماة (١) ، وهو الوحيد الذي مدحه من ملوك عصره وسلاطينه ، وجاء في مدحته قوله :

والدهرُ للمنصورِ بعضُ عبيدهِ	والخافُ صرْفُ الدهرِ أمِ حدنانهِ
من مِخلَبِيه ومن إِسارِ قيودهِ	ملكٌ نداءهُ فكُنِي وانتاشني (٢)
حدثُ عن مبدي الندى ومعيدهِ	ملكٌ إذا حدثتُ عن إحسانه
والغُرُ من آبائِه وجدودهِ	سادَ الملوكَ بفضلِه وبِنفسِه
وثائِه اهتزت معاطف جودهِ	وإذا ترنمتِ الرواةُ بمدحه
تُ العالمَ العلويَّ في تأييدهِ	هاجرتُ نحو محمدٍ لما رأي
ونظمتُ درَّ مدائحي في جودهِ	وثبتتُ أعناقَ القوافي نحوهِ
لاخترت طولَ بقاءِه وخلودهِ	فلو انني خيَّرتُ من دهري المنى
عن محسنٍ مدحِ الملوك مجيدهِ	يا آلَ أيوبٍ جزيتم صالحاً
صبحٌ، وما فصَح الدجى بعموده (٣)	ونعمتم ما افترَّ عن نغرِ الضحى

تتسم مدحه بالإغراق والمبالغة في نعت المدوح ، وكانت تربطه بممدوحيه صداقات متينة الأواصر ، لعل سببها يرجع إلى أن أباه كان صاحب نفوذ ومنصب كبير في دمشق ، فلا غرابة إن رأيناه إذاً لا يفكر بما يفكر به غيره من الشعراء ، فهو بالطبع في كنف أبيه ورعايته ، وقد

(١) وهم جامع الديوان المطبوع في النجف ، فقال أنه المنصور محمد بن عثمان الأيوبي ، وهذا ليس بصحيح لأن الملك المذكور توفي سنة ٦٢٠ هـ أي قبل ولادة الشاعر ، والصحيح ما أثبتناه لأن المنصور الثاني توفي سنة ٦٨٣ هـ أي قبل وفاة الشاعر بخمس سنوات .

(٢) انتاشني : خلصني .

(٣) ديوان الشاب الظريف ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

كفاه مؤنة السعي وراء الرزق بجهد واهتمام ، كما يتضح لنا ذلك في مدح حسام الرازي :

وحبذا الشامُ إن سمت بحسبا م الدّين ، منها البطاحُ والكنبُ
من معشرٍ قد سمّوا وقد كرموا فعلاً ، وطابوا أصلاً إذا انتسبوا
يا ضاحكاً والحياة عابسةً ونابتاً والجبالُ تضطربُ
الدّهْرُ روحٌ وانت فيه قضيه ب البان غصناً وغيرك الحطبُ
خذلْ مدحاً لم اُردْ بها منْحاً حسبى أني إليك انتسبُ (١)

يلاحظ أنه في إغراقه ومبالغته يخرج أحياناً عن الحد المعقول كما بتضح لنا ذلك في القصيدة التي مدح بها الأمير ناصر الدين الحراني (٢) ، وجاء فيها قوله :

أعيذ قلباً ثوى حبّ الأمير به من أن يرى بسوى حبّيه ملتهباً
لا تنظر العين منه السيف منسلتاً (٣) إن فارق الفمّد حل الهام فاحتجبا
لو أقسم المدلج الساري (٤) على قمر باسم الأمير دعاه قطه ما غربا
ولو وضعت اسمه يوماً على ذكر (٥) طاحت رؤوس الأعداء وهو ماضربا
ولو تلوّت على ميت مناقبه ردّ الإله له الروح التي سلبا
ولو مزجت بماء الزمن ما اكتسبت من لطف شيمته ما غصّ من شربا
لما انتسبت إلى أبوابه كبرت لي همة صفّرت في عيني الرّتباً
لو رُمت أسحب أذيالي على فلك المدّ لي سبب من جوده سبباً (٦)

هكذا نلاحظ أن المبالغة في نعت الأمير الحراني وبيان بأسه وكرمه تبلغ حداً يخرج بالشاعر عن المعقول ، ويدنيه من المستحيل الذي لا يمكن تحقيقه ،

(١) المصدر السابق ، ص ١٢ .

(٢) هو ناصر الدين محمد بن الافتخار ، كان والياً على دمشق ، واستمعى منها ، ثم أكره على نيابة حمص فلم يطل نيابته بها ، وبقي سنة ٦٨٤ هـ .

(٣) في أصل الوضع ذكر السيف حدّه ، والمذكر من السيوف ذو الماء .

(٤) المنسلت من السيوف الصقيل الماضي الجرد . والغمد القرباب . والهام جمع هامة ، وهي الرأس .

(٥) المدلج السائر أو ل الليل ، والساري هو السائر في أي وقت من أوقات الليل .

(٦) ديوان الشاب الظريف ، ص ٧ ، ٨ .

بيد أن الشاعر عرف كيف يخرج من هذه النعوت بأسلوب الامتناع والوجوب .
 اعترف الشاعر بهذه المبالغة في مدحه ، وفارن نفسه بممدوحه ، فلم
 يجد بين الناس من يحوي المفاخر مثله ، ولا بين الشعراء من يقول مثله :
 ولي مدحٌ بالفتى فيها بلاغةٌ وانيتُ فيها بالذي أنا عالمُ
 ولي فيك آمالٌ عليك بلوغها فلا دافعٌ دون الذي أنت حاكمُ
 أبعدك يحوي المجد من هو فاخرٌ وبعدي يقول الشعر من هو ناظمُ
 وإن لساني ذو الفقار (١) عليه علاك ، فمن مثلي ومثلك غانم ؟ (٢)

نخلص مما تقدم معنا من مطالعة مدحه إلى أن تؤكد انها تمتاز بالمبالغة
 والاغراق ، كان يفرق ويبالغ إذا في نعت الممدوح حتى كان القول يجنح به
 إلى الشطط الذي لا يستسيغه عقل سليم ومنطق فويم :
 احبابنا ، ما الجزع ؟ ما المنحنى ؟ ما رامة ؟ ما الشعب لولاكم ؟
 ما قام هذا الكون إلا بكم ولا الوجود المحض إلا كم (٣)

مهما يكن من امر فجدير بالذكر هنا بالاضافة الى ما تقدم أن ثقافته
 الصوفية التي طبعه بها أبوه ، وترتبته الدينية الخاصة ، وغروره بنفسه ،
 وغلواء شبيبته ، كانت من العوامل التي أثارت حوله عاصفة هوجاء من
 الحساد والأعداء ، وطبعت بالتالي مدحه بطابعها الخاص .

أغزال وخمريات

لم يكن الشاعر في أغزاله وخمرياته مقلداً غيره من الشعراء ، وإنما
 صور من خلالها حياته الخاصة خير تصوير ، إذ استطاع أن يبرز دقائقها ،
 فتحدث عن مجونه وعبثه ، وقد أشار بعض معاصريه إلى جماعة من
 أصحابه ، كان يجتمع بهم ، ويقضي معهم أيامه ولياليه ، وكان إمامهم في

(١) ذو الفقار ، هو سيف العاص بن منبه ، قتل يوم بدر كافراً ، فصار الى النبي
 صلى الله عليه وسلم ، ثم صار من بعده الى ابن عمه علي بن أبي طالب .

(٢) ديوان الشاعر الظريف ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٥ ؛

مجونهم وعيهم ، كما يظهر في القول الذي استشهد به ابن شاعر الكتيبي في فواته : « وقد أدركت جماعة من خلطائه ، لا يرون عليه تفضيل شاعر ، ولا يروون له شعراً إلا وهم يعظمونه كالمساعر ، لا ينظرون له بيتاً إلا كالبيت ، ولا يقدمون عليه سابقاً حتى ولو قلت : ولا امرأ القيس لما باليت ، ومرت له ولهم بالحي أوقات ، لم يبق من زمانها إلا نذكره ، ومن إحسانها إلا تشكره » (١) .

تلك هي صورة عن حياة هذه الجماعة ، ولعلنا قادرون على توضيحها من خلال دراساتنا أغزال الشاعر وخمربانه . فقد كان المعبر الصادق عن هذا النمط من الحياة في هذا العصر .

نقف بادئ ذي بدء عند أغزال الشاعر ، فنجد أنها لا تختلف كثيراً عن نسيبه التقليدي ، إذ استطاع ببراعة ومهارة أن يتخذ من نسيب مديحه صورة حقيقية عن حياته الخاصة ، وقد ينسيه الغزل ذكر النسيب ، فيغدو غزلاً حقيقياً يمثل لدى الشاعر تجربة عاطفة خاصة كما في قوله :

صدقتم ، قدّه يحكي القضييا	الم تره حوى زهراً وطيباً ؟
ملأت يديه من ياقوت دمعى	وكنت محقت لؤلؤه نحيبا
ذهلت عن النسب به فباتت	محاسنه تعلمني النسيبا
أيا قمرأ ، أعد عندي طلوعاً	وإلا فاتخذ عندي مغيبا
وياليل الذوائب (٢) ظلت فاقصُر	وكن من تحت اخمصه (٣) قريباً (٤)

وهكذا نجد النسيب التقليدي يتضاءل حتى يكاد يكون كله غزلاً حقيقياً بعيداً عن كل تعقيد كما في مطلع المدحة التي جاء فيها قوله :

ياراقد الطرف ، ماللطرف إغفاء	حدث بذلك ، فما في الحب إخفاء
إن الليالي والأيام من غزلي	في الحسن والحب أبناء وأنباء

(١) ابن شاعر : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ .

(٢) اللوائب : جمع ذؤابة ، وهي الناصية أي شعر مقدم الرأس .

(٣) الأحمص من باطن القدم ما لم يصب الأرض .

(٤) دهبان الشاب الظريف ، ص ٩ .

إِذْ كُلُّ نَافِرَةٍ فِي الْحَبِّ آنَسَتْ وَكُلُّ مَائِسَةٍ فِي الْحَيِّ خَضِرَتْ
وَصَفْوَةُ الدَّهْرِ بَحْرٌ وَالصَّفَا سَفْنٌ وَلِلْخَلَاعَةِ إِرْسَاءٌ إِسْرَاءٌ (١)

وجاء في مطلع مدحة أخرى قوله :

لِي مِنْ هَوَاكَ بَعِيدَةٌ وَقَرِيبَةٌ وَلَكُ الْجَمَالُ بِدْبَعِهِ وَغَرِيبُهُ
يَا مَنْ أَعْيَدُ جَمَالَهُ بِجَلَالِهِ حَذَرًا عَلَيْهِ مِنَ الْعَيُونِ تَصْبِيهُهُ
إِنْ لَمْ تَكُنْ عِبْنِي فَإِنَّكَ نَوْرُهَا أَوْ لَمْ تَكُنْ قَلْبِي فَأَنْتَ حَبِيبُهُ
هَلْ حَرَمَةٌ أَوْ رَحْمَةٌ لِمَتِّمْ ؟ قَدْ قَلَّ فَبِكَ نَصْبِرُهُ وَنُصِيبُهُ
الْفِ الْقَصَائِدُ فِي هَوَاكَ تَفْزِلُ حَتَّى كَأَنَّ بَكَ النِّسِيبَ نَسِيبُهُ
هَبْ لِي فَوَادًا بِالْغَرَامِ تَشْبُهُ وَاسْتَبَقِ فَوَدًا بِالصُّدُودِ تَشْبُهُ
وَالنَّجْمُ أَقْرَبُ مِنْ لِقَاكَ مَنَالَهُ عِنْدِي وَأَبْعَدُ مِنْ رِضَاكَ مَغِيبُهُ (٢)
لَمْ يَبْقَ لِي سِرٌّ أَقُولُ ، نَذْبَعُهُ عَنِّي ، وَلَا قَلْبٌ أَقُولُ تَذْيِبُهُ (٣)

هكذا تتحول النسيب ، وينقلب إلى غزل حقيقي وتصوير فني لنمط من حياة الخلاعة في عصره من خلال شعره ، ولقد أدركنا من خلال ما مر معنا أهمية هذا التطور ، ولعلنا نستطيع أن نبين المذهب الخمرى الخيامي الذي سنشير إليه في فصل مقبل .

نكتفي بهذا القدر من النسيب والتشبيب اللذين استهل بهما الشاعر مدحه المختلفة ، ولا بد لنا في ختام ذلك من الإشارة إلى أنه كان يكثر من ذكر العرب والأعراب في عصر ساد فيه حكم فئات من غير العرب ، وقد لاحظنا ذلك في مستهل مدحه القاضي محيي الدين بن النحاس :

قف بالركائب أو سقها بترتيب عسى تسير إلى الحي الأعراب

(١) المصدر السابق ، ص ٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦ .

واسأل نسيماً ثفت أعطافنا أصلاً (١) : من أين جاءت أففيها خمرة الطيب
ياربلة الهودج المحمي جانبه إلام حبك يغريني ويغري بي؟ (٢)

أكثر الشاعر من ذكر العرب في مطالع النسب والأغزال (٣) على غير
العادة المنبئة في هذا العصر ، كما ورد في بعض الأحيان ذكر ظبي من الترك (٤)
اقتداء بأغلب الشعراء في هذا المعنى الذي اتخذوه نكاه لهم مستجده في
تشبيهاهم .

هكذا اشتهر التاب الظريف بأغزاله الرقيقة ، وكانت تجربة حقيقية في
حياته ، وقد حاول أن تكون بعبدة عن الكلف والتصنع ، ولكنها طبعت
بأسلوب التصوف ، إذ كان يكثر من الاصطلاحات المعروفة ، وهذا بالطبع
ثمرة ثقافته الدينية على يد أبيه ، أحد كبار المتصوفة من أصحاب الطرق
المشهورين ، وقد توضحت لنا هذه الميزة في قصيدته التي جاء فيها قوله :

حديث غرامي في هواك قديم وفرط عذابي في هواك نعيم
بما شئت عذب غير سخطك إنه وصدق ولائي في هواك أليم
تمثلتك الأشواق وهماً لخطري فيدركني بالخوف منك وجوم
وتقنع منك الروح لمح توهم فتحيي بها الأعضاء ، وهي رميم
هنيئاً لطرف فيك لا يعرف الكرى ونبأ لقلب فيك ليس يهيم
ولما جلاك الفكر يا غاية المنى فظل بقلبي مقعدي ومقيم
وما الكون إلا صورة أنت روحها وجسم بغير الروح ، كيف يقوم ؟
توهم صحبي أن بي مس جنة وأنكر حالي صاحب وحميم
فبحث بما القاه منك مصرحاً وما أنا لذات الفرام كتوم
ولما بدت في طور خدك جذوة ولاحت لقلبي عاد وهو كليم (٥)
يلذ لقلبي في هواك عذابه ولیم لا وبالأحوال أنت عليم (٦)

(١) أصل : جمع أصيل .

(٢) ديوان الشاعر الظريف ، ص ١٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٠ ، ٥٤ ، ١٤ ، ٥ ، ٨٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٥ .

(٥) يلاحظ هنا النورية بطور وكليم ، وكليم في الأصل هو مجروح ، والمراد هنا
أنه محروق .

(٦) المصدر السابق ، ص ٧٢ .

نلاحظ بوضوح كثرة الاصطلاحات الصوفية في إطار جمبل من التوربات
المسنّاعة بشكل يسترعي الانباه حفاً ، ونلمس ، ونحن نتلو هذه الأبيات ،
الرفقة المتناهية والانسجام الذي عرفناه من قبل في شعر الترف الأنصاري .
يضاف إلى ما تقدم أن الشاعر استطاع بمهارة أن يوّري في الأبيات الأخيرة ،
وسنوضح ذلك في دراسة مذهبه الفني .

استخدم الشاعر الأبحر القصرة أو الجزوة ذات الجرس الموسقى وذلك
زيادة في الرقة ، كما في قوله :

أيها الهاجرُ حُددتْ	نيّ ما أوجبَ هجرُكْ ؟
ما الذي ، لو جدتْ بالوصد	ل ، حبيبي ، كانَ ضرُكْ ؟
أيها الصّابرُ عتّيتي	لينني أعطيتْ صبرُكْ
أيها الجاهلُ قدري	أنا لا أجهلُ قدرُكْ
أيها الشاغلُ أسرا	ريّ ، ما أفرغَ سرُكْ !
يا محبيّاهُ أنار الـ	لّه في العالمِ بدرُكْ
قد يثنا منك خيراً	فكفانا الله شرُكْ (١)

نلاحظ في هذه المقطوعة الشعرية بعض السمات الصوفية ، ونكاد نشعر
بوزنها الراقص الذي تستسيغه النفس . فتقبله دون إجهاد فكري أو تكلف
عاطفي ، وانما نراه وقد بدت لنا نفسيته وهي ترتعس في حمى الأهواء ، حتى
إننا نراه يتضاءل أمام محبوبه ، فيصبح عبده الأمين :

أنتمْ لعبدِكمْ أحبّه	وله عليكمْ حقّ صحبّه
يا نائمينَ عن المسّه	لـ فارغينَ من الحبّه
والله ما عندي من الـ	سلوانِ عنكمْ وزنَ حبّه
قد كنتمْ أنسيّ فها	أنا بعدكمْ في دار غرْبّه
لا 'فرجّتْ' عن مهجتي	إن ملّتْ للسلوانِ ، كَرْبّه (٢)

هكذا نجد أن الشاعر يظهر بمظهر العاشق المستكين والمحب الذي يستسلم

(١) ديوان الشاب الظريف ، ص ٤١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤ .

بكلتيه لنزوات المحبوب ، فهو الأمر الناهي ، وهو العبد المطيع ، فاذا عبث
الخمير بعقله رأيناه يتخلى عن حديثه العذري ليتحدث لنا عن مجونه وخلاعته ،
كما في مقطوعته التي استهلها بقوله :

ناوليني الكأس في الصُّبحِ ثم غني لي على قدح (١)

وتعبت الأقداح بلبه ، فيطلب من صاحبتة أن تعانقه باليدين كما يفعل
الأحباب من الفرح ويطلب إليها أن تدع أزرار طوقها ليتمتع بصدرها الفتان
بالمخ ، ثم تذهب بعد ذلك بالأمان ، فلن يبيع بسرها وحبها ، وسوف ندرس
هذه القصيدة في فصل مقبل .

نلاحظ من طرف آخر أن الشاعر كان يمزج بين نعته الخمير وغزله
الخليع ، وكثيرا ما كان يجمع بين وصف الطبيعة ومجالسه الخاصة كما يظهر
لنا ذلك في مقطوعته التي كان يستدعي بها صديقا غاب عن مجلس أنسه :

يومٌ أتانا بردُهُ في بردَةٍ أضحى بها مثلَ الحديدِ المساءُ
والأرضُ قد بسِطتْ لحسنِ صنيعةٍ بالتَّلجِ في الأرضِ اليدُ البيضاءُ
فاحضرْ ، فنحن كما تحبُّ بمجلسٍ لو لم تغيبْ تمتَّ به السَّراءُ (٢)

هذا شأن الشاعر في يومٍ قرير متلج ، وهذا شأنه في كل يوم ، يجتمع
وصحابته ، ويشترك معهم في تجرع كؤوس العقار ، دون حسب أو رقيب ،
فقد اجتمع لديه الفراغ والشباب والجدة ، ولا عجب إن رأيناه ينغمس في
ملذاته ومفاسده ، ويقضي أيام شبابه ولياليه في متنزهات دمشق القريبة منها ،
أو البعيدة عنها على ضفاف جدول صغير في قرية القصير (٣) .

يا حبذا نهرُ القصيرِ ، ومغربا ونسيمُ هاتيكِ المعالِمِ والرُّبَا (٤)
وسقى زماناً ، مرَّ بي في ظلِّها ما كانَ أعدبُهُ لدِّي وأطيبا
أيامَ أولعُ بالخدودِ نقيَّةٍ والقَدِّ أهيفُ ، والمقبَّلِ أشبا (٥)

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤ . (٢) ديوان الشاب الظريف ، ص ٤ .

(٣) القصير : هي في الأصل بصنبر قصر ، وهو اسم يطلق على عدة مواضع ، والمقصود بها
هنا أول ضيعة لمن يريد حمص من دمشق ، وهي على نهر صفر جار . (ياقوت : معجم
البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٦٧) .

(٤) المعالِم آثار الديار .

(٥) أهيف : ضامر . والأشنب بارد الاستنان عذبها .

وأزور حانات المدام ولا أرى
مالي ، وما فاتت سني أصابعي
فلأهجرن أخا الوفار وشأته
ولأطلعن شمس كل مسرّة
يا صاحبي خذا مقالة مغرم
لم يخلق الرحمن شيئا عابثا
وتفنيا لا بالحطيم وزمزم
غير الذي قضت الخلاعة مذهبا
لم أقض بالذات أوطار الصبا
ولأركبن من الفواية مركبا
وأكون مشرق أفقها والمغربا
فول امرئ عرف الأمور وجربا
فالخمر ما خلقت لأن تنجبا (١)
بل بالحمى وبساكنيه وزينبا (٢)

اعترف الشاعر في هذه الخمرية بمذهبه في الخلاعة دون تستر أو خوف ، وأعلن أنه سيسير في طريق الفوايه ، وأنه سطلع شمس مسراته من خلل أكواب صهبائه ، حتى إننا نراه يتمادي في ضلاله وغيه ، ويعلنها صرخة في وجه من نصحه ليتترك إدمان الخمر ، ويتطرق من ذلك ليؤكد حقيقة نظريته ، ويعتقد أن الله لم يوجد لها لى بنجبتها البسر ، وهذا يخالف ما جاء صراحة في القرآن الكريم .

نتهي مما تقدم معنا من خمريات الشاعر وأغزاه لنؤكد أخيرا أنه كان في معظم الأحيان يجمعها معاً ، وهو بمنزل في عرفنا المدرسة الخمرية الخيامية التسامية في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، وهي كما نرى استمرار طبعي لمذهب شعراء الخلاعة الذين أتينا على ذكرهم .

(٢)

مذهب الفني

تقف الشاعر مذهب الشرف الأنصاري في التورية والانسجام واستطاع ان ينفخ الحياه في مذهبه بعد أن مر على وفاة رائدها الاول أكثر من عشرين

(١) ديوان الشاب الظريف ، ص ٤ . في الديوان : (لم يخلق الرحمن شيئا عابثا) ، والصواب ما أثبتناه .

(٢) استدركتنا هذا البيت من طعة الديوان الجديدة ص ٥٣ ، ولعل أحد النساخ اسقطه مدفوعا بشعور ديني .

سنة. وقد رأينا فيما أوردناه من شعره رفته الأسلوبية وعلوبته المستساغة، وهي دلالة على إيمان الشاعر بالانسجام، وهو أول مبادئ المذهب الأنصاري المذكور آنفاً.

أما التورية فقد كثرت في شعره، واستطاع بمهارته الفائقة أن يجعلها مستساغة في النفس بحيث لا تتعارض مع انسجاماته الشعرية، وقد اعترف شهاب الدين بن فضل الله بذلك، فقال: «رق شعره فكاد أن ينرب، ودق فلا غرو للقضب أن ترفض والحمام أن يطرب»، ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان، وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان، وأكثر شعره - لا بل كله - رشيق الالفاظ، سهل على الحفاظ، لا يخلو من الالفاظ العامية، وما تحلو به المذاهب الكلامية، فلهذا علق بكل خاطر، وولع به كل ذاكر^(١).

يؤكد هذا القول ما تقدم معنا من بيان حول مذهبه، ويوضح بالتالي أهميته كشاعر رائد، وكان على الرغم من صغر سنه، يجمع حوله حلقة من الشعراء من أصحاب هذا المذهب. ويقتدون به في نهجهم الشعري ومذهبهم الفني.

قلتُ ، وقد أقبل في حلة سوداء : من حلّ بأحشائي ؟
عرفتُ كلَّ النَّاسِ يا سيّدي أتسك أصبحت بسوداء (٢)
ومنها قوله في حبيب وافاه بثوب احمر :

وافى بأحمر كالشّقيق ، وقد غدا يهتزُّ فيه بقامة هيفاء
فعببتُ منه ، وقد غدا في حلة حمراء ، إذ مازال في سوداء (٣)
وقوله :

عذيري فيه من قمر يريك بخدّه الزّهرة (٤)
إذا قسارن بالأكو س ، إذ يعزّجها ، ثغرة

(١) ابن شاعر : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ .

(٢) ديوان الشاب الطريف ، ص ٥ . التورية واردة في سوداء لانه يحتمل أنه في حلة سوداء ، أو أنه في سواد القلب أي حبه .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥ .

(٤) العذير : العاذر والنصر ، ويقال عذيرك من فلان بالنصب أي هات من يمدرك ، ويقال : من عذيري من فلان أي من نصيري وعذير الرجل ما يروم وما يحاول مما يملر عليه اذا فعله والزهرة : الكوكب الأبيض، والزهرة من الكواكب السيارة ، وعند الأقدمين الهة الجمال .

أراك الذهب المصري فوق الفضة النقرة^(١)
وقوله :

تلاعب السحر على ردفيه أوقع قلبى في العريض الطويل
كم قلت من وجدي به مشفقاً ولي حشئ من هجره في غلب
لبس خيلاً لى ولكئله أضرم في الاحتساء نار الخيل
يا ردفه جرت على خضره رفقا به ما أنت إلا ثقل^(٢)

نكتفى بهذا القدر من بعض ماعثرنا عليه من شواهد التورية ، وسوف نعود إلى ذلك في معرض دراسة الشعر ، بيد أننا نؤكد من جديد ، أن الشاعر كان يحاول جهده أن يبرز زخارفه البديعية بعدة عن التكلف ، فجاءت ندية في رونق الطبع ، برفدها معين من العذوبة والرقّة المستساغة ، فكان الشاعر بحق من الشعراء البارزين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، واستطاع على الرغم من صغر سنه أن يحتل مكانة مرموقة بين الاعلام من شعراء التمام .

كان أدباء عصره وإبنائه المثقفون ينتظرون ميلاد شاعر جديد يسد الفراغ الكبير الذي تنفر بعد موت الشرف الأنصاري ، ولا سيما أنه خلف من بعده مذهباً بديعاً خاصاً ، سلك الشعراء سبيله ، واستنوا سننه ، ولكنهم لم يجدوا بغيتهم الحقيقية إلا عند ظهور هذا الشاعر الشاب الذي لقي عناء من أدباء عصره وحساده ، فلم يأبه لهم ، وإنما أقام حوله جماعة من أرباب مذهبه ، فساروا خلفه وتعصبوا له ، ولكن القدر لم يمهلهم كثيراً ، فانطوت فجأة هذه الصفحة الفراء من حياة هذا الشاعر ، ولكنها بقيت كوكباً لقا في سماء أدبنا العربي .

(١) المصدر السابق ، ص ٣٦ . النقرة من الذهب والفضة : القطعة المذابة ، وقبل هو ماسك مجتمعا منهما . والنقرة السبكة وجميعها نقر . ونسد النقر معروف ، قال ابن الأثير : النقر أصل النخلة ينفر وسطه ثم ينبذ فيه المر ويلقى عليه الماء فيصر نبذا مسكرا وكان أهل السامرة يفعلون ذلك .

(٢) ديوان الشاب الظريف ، ص ٦٥ ، ٦٦ . والتورية هنا بالردف واضحة مشira إلى حرف الـ ردف وهو كل مد قبل الروي كالآلف أو الياء ولا فاصل بينهما .

الفصل الثاني

أغراض وفنون

القسم الأول

المذاهب الشعرية المعاصرة

نلاحظ في هذا العصر مذاهب أدبية مختلفة ومدارس شعرية متعددة بعضها ينحو منحى تقليدياً ، وبعضها الآخر ينهج منهجاً وسطاً ، وبعضها الثالث يسلك سبيلاً جديداً . فنحن في هذا البحران الأدبي نشهد صراعاً بين التقليد والتجديد ، ونجد الأدباء والشعراء يختلفون في مقدار ما يأخذونه من هذا وذاك ، أو يجمعون ما بينهما ، أو يتخذون من أساليب الجدد والتطور ما يناسب أغراضهم الشعرية المستحدثة أو معانيهم المولدة التي استمدت من مظاهر الحياة المستجدة .

ونحن ، لكي نظهر هذا الأمر ، ونعرض للمذاهب الشعرية المختلفة ، لا بد لنا من وقفة عابرة عند مفهوم القدماء عن الشعر والشعراء .

(١)

آراء في الشعر

يحسن بنا أن نعرض تطور مفهوم الشعر عرضاً سريعاً عبر العصور حتى نصل به إلى هذا العصر الذي ندرسه ، وذلك لنضع الشعر العربي موضعه من هذا البحث .

يعتقد القدماء أن الشعر كالرسم والموسيقى والرقص نوع من أنواع التقليد للطبيعة كما يقول سقراط ، وقد بنيت هذه النظرية على تقسيم الوجود إلى عوالم ثلاثة : عالم المثل ، وعالم الحس ، وعالم الظلال ، ومن هذا الأخير يستمد الشعراء أخيلنهم وصورهم وأعمالهم الفنية .

أفام افلاطون صرح جمهوريته الفاضلة ، ورأى بإقرب بصره أن الشاعر النراجيدي محاك ، وهو كغيره من المقلدين يتبع ثلاث درجات عن عالم الحقيقة ، وهو لهذا السبب لا يريد في جمهوريته شعراء يثيرون اللذات والمتعة ، وإنما يريد منهم الطيبين الأخيار الذين يدعون الناس إلى الخير ، وترفعون عن مدح الناس ويقنصرون على تمجيد الآلهة .

تحدث القرآن الكريم عن هذه الطائفة من الشعراء الفاوين الذين بهيمون في كل واد ، فيجاوزون الحد مدحاً وهجاءً ، ويبالقون في الكذب ، واستثنى منهم « الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً » (١) .

وجاء بعده أرسطو ، وخالف أستاذه في نظريته ، ورأى أن المتعة يجب أن يستهدفها الشعراء في شعرهم ، وصرح في كتاب الشعر أن شعر الملحة والمأساة والمهابة تعد أنواعاً من المحاكاة حين نسميها بالنظرة الكلية .

عرف نقاد العرب الأقدمون بعض هذه النظريات الشعرية ، لكنهم لم يتخذوها سبيلهم في فنونهم وأغراضهم ومعانيهم ، واقتصروا على القصائد الغنائية ذات المدى المحدود مما يلائم حياتهم وطبيعتهم ونفوسهم ، إذ عرف عنهم أنهم لم يستسيغوا الملاحم الطويلة المعروفة في آداب اليونان والفرس .

لفتت « الإلياذة » نظر العرب من الأدب اليوناني ، فقد تحدث ابن الأثير عنها عرضاً ، ومما قاله : « فاوضني بعض المتفلسفين في هذا ، وانساق إلى شيء ذكر لأبي علي بن سينا في الخطابة والشعر ، وذكر ضرباً من ضروب

الشعر اليوناني ، يسمى « اللاغوزيا » ، وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبي علي ، ووقفني على مذكره ، فلما وقفت عليه استجھلته « (١) .

ولفتت الساهنامه نظر العرب أيضاً ، وهى أهم مؤلف فارسي استرعى انتباههم ، وقد ذكرها ألبساً في معرض حديث ابن الأثير عن الإطالة في الشعر العربي ، وذكر أن احتجاج الساعر إن احتاح إلى ذلك فإنه لا يجيد في الجميع ، ولا في الكثير منه ، بل يجيد في جزء قليل ، والكثير من ذلك رديء غير مرض . وخلص بعد ذلك الى القول : « وعلى هذا فإنى وجدت العجم يفضلون العرب في هذه النكتة المشار إليها ، فان شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً ، وهو شرح قصص واحوال ، ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم ، كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بنشاهنامه ، وهو ستون ألف بيت من الشعر ، ويشتمل على تاريخ الفرس ، وهو قرآن القوم ، وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس في لغتهم افصح منه ، وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها على أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة من بحر (٢) » .

تلك هي نظرة العرب الى الأديين اليوناني والفارسي ، فهم يعتقدون انهم أرباب الفصاحة والبيان ، بيد أنهم كانوا يستغربون خلو الأدب العربي من أمثال هذه الملاحم الطويلة كما رأينا ذلك عند ابن الأثير .

لا نشك أن الشعر العربي قديم في وجوده ، ذلك أن الهيكل الكامل للقصيدة العربية ليس وليد عصر جاهلي سابق ، أو إسلامي لاحق ، وإنما هو وليد العصور السحيقة في بوادي العربية القفرة ، وعلى الرغم من هذا القدم ، فاننا لانستطيع توضيح تطوره المستديم وتدرجه القديم مندطفولته في العصور الخالية حتى اكتماله في العصور الجاهلية المتأخرة النبي لانعرف منها شيئاً كثيراً . ولم يتبق لنا من الشعر الجاهلي كله ، الموضوع منه والصحيح ، إلا نظرات عابرات ، وشذرات مختارات في الشعر والشعراء .

لقد كانت القصيدة العربية إذآ تمثل ذروة النضج الشعري في الفكر

(١) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٣١٠ ، ٣١١ .

(٢) المصدي السابق ، ج ٢ ص ٤١٨ ، ٤١٩ .

العربي القديم ، فأصبح لها هيكل واضح الأصول ، مكتمل الجوانب ، ولا بد للشاعر العربي من أن يتبع هذا النهج المأثور ، ولننزم بما التزم به السابقون .

قال الحاتمي : « من حكم النسيب الذي يفتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجاً بما بعده من مدح أو ذم ، متصلاً به ، غير منفصل منه ، فإن الفصيحة مثلها مثل خلق الانسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب ، غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه ، ونعفى معالم جماله ، ووجدت حذاق الشعراء وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون من مثل هذه الحال اختراساً يحميهم من شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجة الاحسان » (١)

هكذا نهج الجاهليون نهج الأقدمين ، وجاء بعدهم الإسلاميون ، فحفظوا لهم تراثهم الباقي ، بيد أنهم وجدوا الحياة قد فتحت أمامهم سبلاً جديدة من المعاني المحدثنة والمولدة . وبدأت كتب النقد تتحدث عن المفاهيم الجديدة في الشعر العربي ، فهذا ابن فييبة في القرن الثالث الهجري يقول : « ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره ، وكل سرف خارجياً في أوله » (٢) .

ندبر ابن قتيبة الشعر فوجده على أربعة أضرب : ضرب حسن لفظه وجاد معناه ، وضرب حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى ، وضرب جاد معناه وقصرت الفاظه عنه ، وضرب تأخر معناه وتأخر لفظه (٣) .

أما قدامة فقد ألف كتابه نقد الشعر ، وعرفه بقوله : « انه قول موزون مفعف يذل على معنى » (٤) ، وذكر أن له صناعة تتوخى غاية النجويد والكمال (٥) . ولا شك أن قدامة كان مطلعاً على اللغة السريانية التي كانت

(١) ابن رشيق : العمدة ، ج ٢ ص ١١٧ .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج ١ ص ٧ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٧ .

(٤) قدامة : نقد الشعر ، ص ١٧ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١١ ، ١٢ .

همزة وصل بين العربية واليونانية ، يضاف الى ذلك أن معظم مؤلفات أرسطو في فن البلاغة نقلت الى العربية قبل تأليف هذا الكتاب ، ونحسب أن قدامة تآثر بأرسطو في كتابيه المشهورين : « الشعر » و « الخطابة » .

جاء بعد قدامة نقاد آخرون عالجوا هذا الموضوع الهام ، ونرى من الضرورة أن نقف عند الجاحظ في كتابه « الحيوان » ، ونتأمل قوله : « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ، والبدوي والقروي والمدني ، وإنما التأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، فانما الشعر صناعة ، وضرب من النسيج ، وجنس من التصوير » (١) . إنه يجمع في هذا التعريف بين النظرية اليونانية التي أشرنا اليها وهي أن الشعر ضرب من التقليد ، وبين النظرية العربية التي وضحنها وهي أن الشعر ضرب من الصناعة ، وهذه الصياغة التي نحدث عنها هي بالطبع أدق أنواع الصناعات .

أدى هذا المفهوم الجديد في الشعر العربي الى ظهور مدارس أدبية ومذاهب فنية متباينة ، يدور محورها حول مظاهر الصناعة والتصنيع والتصنع في أدبنا العربي . ونرى بعد هذه التوطئة أن نعرض للمدرسة التقليدية وتطورها ، ثم نعرض للمدرسة الأدبية الجديدة ، ونختم حديثنا بالتحدث عن الفنون الشعرية المستحدثة .

(٢)

المدرسة التقليدية وتطورها

سارت هذه المدرسة في طريقها المعروفة ، وقد وجدت لها في هذا العصر أنصارها الذين حفظوا لها طابعها التقليدي ، وتقيدوا بأسلوبها ومبادئها ، فالهيكل العام مازال مرعياً لدى الشعراء ، إذ إنهم كانوا يحاولون جهدهم

(١) الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ص ١٣١ ، ١٣٢ .

الحفاظ على العمود الشعري المعروف وبخاصة عند شعراء المشرق ، بيد أننا نجد نورث عارمة على هذه المدرسة التقليدية في المغرب والاندلس وغيرهما ، ونجد فيها الشعراء يحاولون التحلل من القيود والأغلال ، وكان ذلك بدء انطلاقاً في الشعر العربي . غير أننا نتساءل عن مدى النجاح الذي أحرزته في الإفلات من ضروب الوزن حيناً والقافية حيناً آخر ، وإهمال الإعراب واستخدام الألفاظ الدخيلة في كثير من الأحيان الأخرى .

نترك هذا الأمر لمكانه من هذا البحث ، فنقتصر على القول هنا : إن الشعر التقليدي ، حافظ لدى معظم الشعراء على طابعه المألوف ، لكن المعاني تطورت مع الزمن لتبدل الأحوال وتباين الأقاليم ، بله الأحداث الكبرى التي أدخلت كثيراً من المعاني الجديدة نتيجة للحروب والغزوات ، وسوف نسير إلى المدى الذي بلغه هذا التطور الجديد في شتى الأغراض الشعرية .

(٣)

المدرسة الحديثة واتجاهاتها

تطورت المدرسة التقليدية كما رأينا ، وأدى تطورها في بعض الأحيان إلى نشوء مدرسة حديثة ، انفصلت تماماً عنها ، وأدى بالتالي إلى ظهور مذاهب فنية متباينة ، نذكر منها مثلاً مذهب التورية والانسجام ، ومذهب التطبيق والتجنيس ، ومذهب الفنون الشعرية المستحدثة .

مذهب التورية والانسجام

لعل ظهور هذا المذهب يرجع لأسباب دينية تتعلق بتأويل المشتبهات من كلام الله تعالى وحديث رسوله الكريم (ص) وصحابته ، وهذا يؤيد الرأي

القائل بأثر المذاهب الدينية المعاصرة ، وأثر العقل والمنطق في ظهور هذا المذهب البياني الذي تطور فيما بعد تطوراً أخرجته عن غرضه الاصلى .

ذهب ابن حجة هذا المذهب في حديثه الضافي عن التورية ، وأورد قول الزمخشري : « ولا نرى باباً في البيان أدق وألطف من هذا الباب ، ولا أنفع ، ولا أعون على تعاطي تأويل المستبهمات » (١) .

كان القدماء لا يأبهون بالتورية إلا أن وقعت لهم عفواً ، نشبر من هؤلاء إلى النابغة الذبياني وعمرو بن كلثوم وعنترة العبسي ، ونقف قليلاً عند شعراء العصور العباسية كأبي نواس والبحري ، ثم نقف أخيراً عند أبي العلاء لنرى أن هؤلاء الشعراء استخدموا بكثرة التورية ، ففقدوا صورها ، بيد أنهم لم يتخذوها مذهباً خاصاً .

أما في القرنين السادس والسابع الهجريين فقد تطورت التورية وأصبحت بالتالي مذهباً شعرياً خاصاً ، سماه النقاد الأقدمون مذهب السحر الحلال الذي يجب أن يتحلى به كل شاعر ونائر ، وإلا عد مفصراً عن أقرانه في حلبة هذا الفن البديعي . ويمكننا أن نتبين في هذا المذهب اتجاهين : ظهر أولهما في مصر على يد القاضي الفاضل ، وظهر ثانيهما في بلاد الشام على يد الشرف الأنصاري ، وقد تتابع هذان الاتجاهان في مصر والشام ليقوم عليهما مذهب عربي واحد .

أكثر الشعراء من استخدام التورية ، وطبعوا شعرهم بطابعها الخاص ، وراوا أنها السحر الحلال الذي يجب أن يأخذوا منه ، فأصبحت غرضاً في ذاتها ، بعمل الشاعر من أجله شعوره وفكره ، إذ هي تعتمد على الجهد العقلي ، لكنها تبرز وقد اكنت بتوبها الرمزي الجميل ، ورفدت بمعين من العاطفة . نستطيع القول إن الشرف الأنصاري طبع التورية بطابع الانسجام

(١) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٤٠ ،

والسهولة كما رأينا في شعره ، وقد ظهر هذا الاتجاه في شعره بعامة وفي غزله بخاصة ، وانخذ من كل ذلك سبيله في مذهبه الفن ، وهو لهذا السبب قد احتل مكان الصدارة بين شعراء الشام قاطبة دون منازع . تحدث الصفدي عن هذا الامر بالنفصيل (١) ، وأسار ابن حجة إلى الانسجيمات في شعره وفي توريته بشكل خاص ، ورأى أن غالبه ماش على هذا التقرير (٢) ، كما رأينا ذلك من قبل . وهذه الصفة التي ميزت بين الاتجاه التسامي والاتجاه المصري في هذا العصر ، حتى إذا قامت الوحدة السياسية رأينا وحدة فكرية ناضجة ظهرت في القرن الثامن الهجري على يد ابن نباتة المصري (٣) .

مذهب التطبيق والتجنيس

اتخذ معظم شعراء القرن السادس الطباق والجناس البديعين مذهباً لهم في شعرهم ، وتعداهم إلى الأدباء عامة في أدبهم ، وتطور هذا الاتجاه لدى الشعراء المتأخرين ، فكنا بذلك أمام اتجاهين : اتجاه يميل إلى السهولة والانسجام ، وقد مر معنا ذكر ذلك ، واتجاه يميل إلى التصنع البديعي في بعض فنونه .

والمعروف لدينا أن ابن المعتز كان أول من أفرد للطباق والجناس في كتابه « البديع » بحثاً خاصاً ، واعتقد انهما موجودان في القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربي القديم .

وهم الدكتور محمد مندور في هذا الامر فقد اعتقد أن ابن المعتز تأثر بأرسطو ، واستمد منه مصطلحاته ، وذكر أن لفظة الطباق ما هي إلا ترجمة

(١) ابن شاعر : فوات الوفيات ، ج ١ ص ٢٨٩ .

(٢) ابن حجة : الخزنة ، ص ١٩٠ .

(٣) انظر في كتابنا ابن نباتة المصري ، ص ٢٩٢ .

للفظة اليونانية (Anti thesis) ، وأن لفظة الجناس هي ما يسميه أرسطو بالمشابهة (Paromoiwrsis) وأن لفظة الاستعارة التي تحدث عنها في أكثر من موضع في كتابه ما هي إلا ما سماه (Metphora) ، وبسواء بعد كل ذلك عن مصدر تلك الاصطلاحات (١) . يجب أن نفرق بين مصطلحات في علم البلاغة تقابل مصطلحات يونانية ، وبين أن الجناس والطباق والاستعارة في شعر شعراء العرب هي تأثر بأرسطو ، والثابت لدينا أن مسلم بن الوليد قد مات حين كان حنين صبياً .

مهما يكن من أمر فإن ابن المعتز استطاع أن يعرض لنا بمهارة الفنون البلاغية المذكورة ، ويستشهد عليها بما هو مأثور من أدب العرب ، ووقف عند المحدثين من الشعراء ، ونوه بما أنوا به من ذلك ، وبين بعض عيوبهم فيه .

تطورت في هذا العصر الفنون البديعية المذكورة ، فألفت فيها التصانيف الكثيرة ، وتعتمد اعتماداً كلياً على بديع ابن المعتز ، وتلحق به ما استجد من فنونه ومذاهبه .

اتخذ الشعراء كما رأينا من الطباق والجناس والاستعارة وغيرها مذهباً ، واقتصرت جماعة منهم على الطباق والجناس وحدهما ، وبالغت في استعمالهما حتى خرجت عن الغرض المقصود . لاحظ العمد الكاتب هذا الاتجاه ، وهو أحد أئمنه ، في الدواوين الشعرية التي جمع منها مخنارات خريدته ، وقد رأينا أنه كان يسير بالتفصيل إلى ما يمر معه منها ، فلا غرابة إن رأينا تنواهه قد طبعت بهذا الطابع . كما أشار أيضاً إلى كتاب « ملح الملح » لأبي علي سعد المعروف بالحظيري (الوراق) (٢) ، وأورد بعض ما عثر عليه من أبيات أو قصائد

(١) محمد مندور : النقد المنهجي ، ص ٤٥ - ٤٧ .

(٢) أبو المعالي سعد بن علي بن القاسم الأنصاري المعروف بالوراق الحظيري ،

المؤلف سنة ٥٦٨ هـ .

في التجنيس خلال ترجمته لابن القيسراني وابن منير الطرابلسي وغيرهما (١) .

مذهب الفنون الشعرية

تميز هذا العصر بظهور مدرسة خاصة للفنون الشعرية المستحدثة ، ونستطيع أن نتبين هذا التطور ضمن اتجاهين : أما الاتجاه الأول فقد شمل هبكل الأوزان الشعرية المعروفة ، وقد حاول المآخرون والمولدون أن يستنبطوا بحوراً جديدة من البحور الستة عتر المعروفة ، وذلك بعكس دوائر البحور المذكورة وكانت حصلتهم من هذه المحاولات ستة بحور جديدة أضيفت إلى ما عرف من قبل ، وهي المستطيل والممتد والمتند والمنسرد والمتوافر والمطرود (٢) .

وأما الاتجاه الثاني فيشمل الفنون الشعرية ، وقد حدث فيها تطور جديد على ما ألفه العرب ، فشمل اللغة والإعراب والوزن والقافية ، وهي تختلف في المدى الذي أخذت فيه من هذا وذاك . يقول الخفاجي في شفاء القليل : « واعلم أن المولدين كما غيروا الأبنية غيروا هيئة التركيب وأوزان الشعر » (٣) . وكان ثمرة ذلك تشعب فنون النظم إلى سبعة ، أشار إليها صفي الدين الحلي بقوله : « ومجموع فنون النظم عند سائر المحققين سبعة فنون ، لا اختلاف بين أهل البلاد ، وإنما الاختلاف بين المغاربة والمشارفة في فنين منها ، وسيأتى ذكرهما والسبعة المذكورة هي عند أهل المغرب ومصر والشام : الشعر الفريض ، والمونصح ، والدوبيت ، والزجل ، والموالي ، والكانكان ، والحماق ، وأهل العراق وديار بكر ومن يليهم يثبتون الخمسة منها ، ويبدلون الزجل والحماق بالحجازي والقوما ، وهما فنان اخترعهما

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٨٨ ، ١٢٣ .
 (٢) محمود مصطفى : أهدي سبيل ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .
 (٣) الخفاجي : شفاء القليل ، ص ١٠ ، ١١ .

البغاددة للغناء بهما في سحور شهر رمضان خاصة في عصر الخلفاء الراشدين من بني العباس «(١)» .

فرق صفي الدين بين الفنون العربية والملحونة منها ، فذكر « أن هذه الفنون السبعة منها ثلاثة عربية أبدأ لا يفتقر فيها اللحن ، وهى الشعر القريض ، والموشح ، والدوبيت ، ومنها ثلاثة ملحونة أبدأ ، وهى الزجل ، والكانكان ، والقوما ، ومنها واحد هو البرزخ بينهما ، يحتمل الإعراب واللحن ، وإنما اللحن فيه أحسن وأليق ، وهو المواليا «(٢)» .

ننتهي مما تقدم لنؤكد أننا نجد في أدبنا فنونا شعرية مستحدثة، اقتبسنا بعضها مما عرفناه في الأدب المغربي والاندلسي كالموشحات والأزجال، وبعضها الآخر اقتبسناه من بغداد وفارس كالدوبيت والمواليا .

أشار ابن تغري بردي إلى بعض هذه الفنون في معرض ترجمته لابن الخباز العامري «(٣)» ، وذكر أنه « كان ينظم سائر الفنون كالموالي والكانكان ، والدوبيت ، والبلايق «(٤)» .

ننتهي من كل ذلك لنوضح أهمية هذه الفنون كما اصطلح على تسميتها دارسوها القدماء ، وسوف نأتي على بحثها بالتفصيل بعد أن نعرض للاغراض الشعبية المعروفة في هذا العصر .

(١) الحلبي : المعامل الحالي ، ص ٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨ .

(٣) يحيى بن الخباز العامري الحموي ، تخرج على يد السراج الحار ، وقد توفي سنة ٧٧٣ هـ .

(٤) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٤١٣ .

القِسْمُ الثَّانِي

الأغراض التقليدية وتطورها

عالج شعراء هذا العصر أغراض الشعر العربي المعروفة ، واستحدثوا كما رأينا كثيراً من فنونه ، وطرقوا كثيراً من المعاني المولدة ، بيد أنهم لم يقفوا حياهم جامدين أو مقلدين ، وإنما حاولوا بمختلف الأساليب أن يتجهوا بها في سبل جديدة وفي آفاق مديدة ، إذ إن هذا العصر يتميز بأحداثه الكبرى التي مرت به ، وحدثت آناراً ظاهرة في المعاني الشعرية ، وتلاقى فيه التيارات المشرقة والمغربية ، لكنها لا تلبث أن تتشح بالصفات الني تطبع شعر هذا العصر بطابعها الخاص . ونحن بعد هذا نستطيع أن نبتين ميزات ذاتية تطبع كل ساعر بطابعها ، وكنا أشرنا إليها في مكانها من الدراسة ، وسنحاول جهدنا أن نفهم جزئياتها لنضعها بعد ذلك في إطارها العام الذي يشترك فيه الشعراء إذ كانت بحق الصورة الصادقة التي تعبر عن شعر هذا العصر أصدق التعبير .

تحدثنا في الفصل الماضي عن تراجم أعلام الشعراء ، وأشرنا من خلال ذلك إلى أغراضهم الشعرية المختلفة ، وسوف نعرض ذلك عرضاً عاماً ، فنقتصر منها على ذكر المدح والنبويات ، والملاحم والأحداث ، والنسيب والأغزال والمجون والخمريات ، والمطارحات والتستويات ، والأحاجي والألغاز .

(١)

المدح والنبويات

لا شك أن المدح أبرز الأغراض الشعرية التي طغت على الشعر العربي قديمه وحديثه، إذ إن أسلوب حياة القصور تحتم على معظم الشعراء ليكسبوا رزقهم أن يمدحوا الملوك والسلاطين والأمراء وغيرهم ، وسوف تقتصر في هذه الدراسة على بحث المدح النبوية ، والمدح الذاتية .

المدح النبوية

تطور المدح النبوي ، وأصبح أحد الأغراض الشعرية المعروفة منذ أواخر العصر الأيوبي وأوائل العصر المملوكي . ولا بد لنا من الإشارة الى العوامل التي ساعدت على نضج هذا النوع من المدح الديني وازدهاره ، فاضطراب الحياة السياسية في معظم الأحيان بسبب النزاع بين السلاطين والأمراء ، وسوء الحياة الاجتماعية في مختلف مظاهرها ، وتدهور الأوضاع الاقتصادية لأسباب كثيرة ، وجثوم الخطر على البلاد من قبل الأعداء الطامعين في الشرق والغرب ، إذ أن هذا العصر كان عصر الحروب الصليبية والتترية ، وهي كما رأينا حروب دينية مريرة، وقد وقف الشعراء يدافعون عن الاسلام ومقدساته امام الديانات الاخرى ، ويمدحون صاحبه الرسول (ص) على نحو ما نراه في همزية البوصيري المشهورة . هذه العوامل جعلت الناس يتشفعون بالرسول الكريم ليدفعوا عن أنفسهم ما يحل بهم . وجدير بالذكر أن بعض هذه العوامل كانت سائدة منذ القرن الرابع الهجري .

أدت هذه الأمور الى التوكل والاستسلام الكلي لما تأتي به الأحداث والمقادير ، والملاحظ أن الناس بدؤوا يتشفعون بالنبي الكريم منذ حكم الفاطميين ويتوسلون إليه كي يفرج عنهم الكرب ، ويكشف عنهم الغمة .

الرسول ، وتطورت هذه المدائح ، وبخاصة بعدما سخر الشعراء علم البديع لهذا الغرض ، فظهرت البديعيات النبوية ، وكانت ثمرة تطور المدح النبوي في عصر البديع .

ثمة عامل جديد بالإضافة الى ما ذكر أدى الى شُبوع هذا الفن ، فقد ذكر المؤرخون أنه ظهرت عند المدينة نار عظيمة ، وكانت نضىء بالليل من مسافة بعيدة جداً ، تحدث ابن الوردي وغيره عن هذا الأمر ، وذكر « أنها لم يكن لها حر على عظمها وسُدة ضوئها ، ودامت أياماً ، ونواتر شأن هذه النار ، ونظمت عند ظهورها مدائح في النبي (ص) (١) » . نذكر من هؤلاء الشعراء الذين نظموا في نار الحرة المشد سيف الدين علي بن قرغل ، وقد وصفها بقوله :

ولما نفى عني الكرى خبرُ التي	أضاءت بأحدرٍ ثم رَضوى ويدبَلِ
ولاحَ سناها مِن جبالِ قريظةٍ	لسكانِ تيمّا فاللّوى فالعقنقلِ
وأخبرتَ عنها في زمانِكَ منْذراً	بيومِ عبوسٍ قمطيرٍ مطوّلِ
ستظهرُ نارٌ بالحجازِ مضيئةٌ	لأعناقِ عيسٍ نحو بصرى لمجتلي
فكانتَ كما قد فلتَ حقاً بلا مِرا	صدقتَ، وكم قد كذبتَ كلَّ مُعطلِ (٢)
لها شرَرٌ كالبرقِ لكنْ شهيقتها	فكالرعدِ عند السامعِ المتأملِ
وأصبحَ وجهُ الأرضِ كالليلِ كاسفاً	وبدرُ الدجى في ظلمةٍ ليس ينجلي
وأبدتْ مِن الآياتِ كلَّ عجيبةٍ	وزلزلتِ الارضونَ أيَّ زلزلِ (٣)

أوحى ظهور نار الحرة هذا المعنى الذي طبع بعض المدح النبوية بطابعه . أما المعاني التقليدية فقد طرقتها الشعراء كثيراً في قصائدهم ومعظمها يدور حول المدينة المنورة والحجرة الشريفة ، وكانوا يتخذونها وسيلة ليكفروا بها عما بدر منهم ، ويكثرون من ذكر الأخبار المعروفة في حياة الرسول الكريم ومعجزاته ، كما عرفوها في القصص الديني الإسلامي ، وبخاصة منها قصة الإسراء والمعراج .

(١) ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج ٢ ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٢) المعطل : من يدين بمذهب التعطيل ، وهو الذي ينكر أصحابه صفات الله تعالى .

(٣) ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج ٢ ص ١٩٥ .

مدح ابن الساعاتي الرسول الكريم بقصيدة طويلة ، استهلها بوصف
الديار وذكر النسيب ، وخلص منه إلى النعوت النبوية بقوله :

وكيف أخل في دنيا وآخره	ومنطقي ورسول الله مأمول
هو البشير التذير العدل شاهده	وللشهادة تجريح وتعديل
لولاه لم تك شمس لا ولا قمر	ولا الفرات وجارها ولا النيل
ولم يجب آدم في حال دعوتيه	نعم ، ولم يك قابيل وهابيل
مرتّل الوحي يتلوه ويدرسنه	ولم يكن لكلام الله ترتيل
فسيّد الرسل حقاً لا خفاء به	ونافع في جميع الناس مقبول
بثت نبوته الأخبار إذ نطقت	فحدثت عنه تورا وإنجيل
أضاء هدياً وجنح الكفر معتكر	وجه حق ، وستر الشك مسدول
لم يور في أهله أهل العباء (١) ففا	ت القوم وحي بمناه وتزيل
الخمسة الغر لم نقض اجتماعهم	إلا وسادسهم في الجمع جبريل
فمنهم أخذ التنزيل أجمعه	في الكافرين وفي الباغين تأويل
فضيلتا شرف ما ناله بشر	أولى وأخرى بهم تردى الأضاليل (٢)

كما أن الشعراء يتخذونها نكاة يتحدثون فيها عن العرب بعد طغيان
سلطان الأعاجم على مقاليد الامور ، نذكر من ذلك مثلاً قول الشاب الطريف
في نبوية له :

أرض الأحبة من سفح ومن كتب	سقاك منهمر الأنواع من كتب
ولا عدت أهلك النائين من نفس ال	صبا تحية عاني القلب مكتب
قوم هم العرب المحمي جارهم	فلا رعى الله إلا وجه العرب
أعز عندي من سمعي ومن بصري	ومن فؤادي ومن أهلي ومن نسبي
لهم عليّ حقوق منذ عرفتهم	كأنني بين أمّ منهم وأب
إن كان أحسن ما في الشعر أكذب	فحسن شعري فيهم غير ذي كذب

(١) أهل العباء هم أهل البيت الخمسة الذين ألقى النبي عليهم عباة .

(٢) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ٤٨ ، ٤٩ .

يا ساكني طيبة الفيحاء هل زمن* يدني المحب لنيل الحب والأرب؟
أرض مع الله عين الشمس تحرسها فإن تغب حرسها أعين الشهب (١)

وقفت عنده هذه القصيدة لأن ناظمها لم يأبه بما عرف من اتجاه الشعراء إلى الإشادة بالعناصر الأعجمية من تركية وكردية في المدح والأغزال ، وإنما وقف يعلن إيمانه بالعنصر العربي ، حتى إن معظم أغزاله كانت تخالف شعر العصر ، اذ كان كثيراً ما يشبب بالنساء العربيات .

لاحظنا بالإضافة إلى ما مر معنا أن الشعراء كانوا يضمنون مدح الخلفاء وأشراف الشيعة بعض النعوت النبوية لصلتهم بالرسول الكريم ، نذكر من ذلك القصيدة التي مدح بها ابن الساعاتي الواقف الشريف الإمامية الناصره لدين الله أمير المؤمنين :

لقد خلف المبعوث خير خليفة
تدلّ له الأيام وهي عزيزة
إذا سار سدّ الأفق والأفق واسع
تجود لها صمّ الصخور مخافة
كبت دونهُ الابصار وهي حسيّة
ومن كان نور الوحي فوق جبينه
فروع إلى العباس تنمى أصولها
هو النسب الزاكي أناف بفضلها
ترى اليوم طلقاً حين يذكر جعفر (١)
له شرف البيت العتيق وزمزم
قؤول لما يرضي الإله فعول
وتصغر حيث الخطب وهو جليل
رماح وبيض عصبة وخيول
وشم الجبال الراسيات تزول
وخابت نفوس عندها وعقول
ننى كل طرف عنه وهو كليـل
وما خير فرع أسلمته أصول
وصي حوى سبق العلا ورسول
ويسمى إليه حمزة (٢) وعقيل (٣)
وما ساقه حادٍ إليه عجول (٤)

لقد تطورت معاني المدح النبوية منذ سنين كثيرة قبل القرن السادس الهجري ، فشملت آل النبي جميعاً من شيعة وعباسيين وفاطميين .

(١) ديوان الشاب الظريف ، ص ٥ ، ٦ .

(١) هو جعفر بن أبي طالب .

(٢) هو عميل بن أبي طالب .

(٣) حمزة بن عبد المطلب .

(٤) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ٥٢ ، ٥٣ .

المدح الشخصية

لا شك أن المدح ضرورة افتضتها حياة الشعراء ، وقد جروا فيها على سنة من تقدمهم ، وهو سبيلهم إلى معاشهم لينالوا به العطاء الجزل ، ويلفوا به أعلى المراتب لدى الخلفاء والسلاطين والأمراء . فإذا أتى الله أحدهم جدًّا ، فإنه يقدم على أقرانه ويصبح الأثير المفضل ، إذ لا بد في عرف الأقدمين لكل صاحب سلطان من شاعر يصطنعه ليمجده ويخلد مآثره في المناسبات والمحافل ، ذلك أن الزمن يمضي ، ويبقى الشعر وحده خالدًا يذكر الأمجاد والأحداث . ظهر هذا المعنى في شعر ابن الساعاني في قصيدة يمدح بها ابن القابض :

مدحٌ تذهبُ الليالي وتفنئ وتحوزُ البقاءَ والتخليداً (١)

وصف الشعراء ومدوحهم بصفات استمدوا معظمها من سابقهم ، فهم في جل مدحهم عالية عليهم ، إذ إنهم في نظرهم المثل الأعلى الذي يجب أن يحتذى فلا يجدون في أخذ المعاني أو سرقتها عيباً ، لكن العيب كل العيب أن يقصر الشاعر فيه ، فإذا ما أخرجه مخرجاً جديداً ، كان يضيف إليه ما يزينه ، أو يبعد عنه ما بتينه ، فذلك هو الشاعر المجيد حقاً .

مدح عرقلة الكلبي أبا علي بهاء الدين بن نيسان في آمد السوداء ، ومما قاله بعد وصف الطبيعة :

في حصنه غيثٌ ، وفوق حصانه	ليثٌ يكرّ على الكمأة بمسحل (٢)
متبسّم لعفاته قبل الندى	كالبرق يلمع للبشارة بالولي (٣)
يعطي المحجلة الجياد ، وكم له	في الجود من يوم أغرّ محجل
ويرد صدر السميري بصدرة	ماذا يؤثر ذابل (٤) في يدبل ؟ (٥)
وكأنته ، والمشرقي بكفته	بحرٌ يكر على العفأة بجدول (٦)

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٩٧ .

(٢) مسحل : غزم شديد صارم ، ويقال : ركب فلان مسحله وردمه إذا عزم على الأمر وجد فيه .

(٣) الولي : المطر يسقط بعد المطر . (٤) ذابل : رمح .

(٥) يدبل : هو جبل مشهور الذكر في نجد في طريقها .

(٦) العباد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، والديوان ص ٨١ .

يلاحظ أن جل هذه المعاني معروف لدى الشعراء منذ القديم ، فوصف
ممدوحه الجواد بالغيث والليث ، وأنه ذو بطش وبأس ، وأنه ينسم لعفاته
قبل العطاء ، وختم وصفه بصورة بتضح فيها التشبيه التمثيلي . كل ذلك
معروف لدى الشعراء إذ لا جديد فيه ، وإنما الجديد فيه حقاً ، والجدير
بالملاحظة ، عبت الشاعر بالصناعة اللفظية . ويلاحظ أن الشعراء عموماً
كانوا يشبهون ممدوحهم بالنيرين : الشمس والقمر ، وقد اشترك الشعراء
كذلك في هذا المعنى التقليدي الذي سبقهم إليه النابغة الذبياني وغيره من
شعراء الجاهلية والإسلام . نذكر من ذلك مثلاً قول ابن قسيم بمدح معين
الدين أنر :

ومستصغر في الله كلَّ عزيمةٍ ولو أنه منها على الموتِ مشرفُ
كانَ الملوكَ الفرَّحولَ سريرهِ نجومُ على شمس الظهيرةِ عكفُ
فإن تلقه تلقَ ابن هيجاءَ ، دهره يريكَ عِنانَ الدهرِ كيفَ يصرفُ
سخي جريءٌ لوذميَّ كَأَنَّهُ إذا ما بدا ، غيثٌ وليتُ ومرهفُ (١)

يتضح من الأبيات التي مرت معنا أن الشاعر استخدم المعاني نفسها
التي عرفناها قبل قليل ، ولا يعني قولي هذا أن الشعراء لم يأتوا بجديد
البتة ، وإنما كانوا يأتون بمعان جديدة من خلال الصور التقليدية المعروفة ،
نذكر من ذلك مثلاً قول ابن القيسراني بمدح مجير الدين آبق :

فكنتَ كالشمسِ سمتَ إذ سمتَ ونورُها في أفقها مائلُ
وأينَ ينأى في قلوبِ السورى من حُبِّه في كلِّها نازلُ (٢)

ثمة معان أخرى بالإضافة إلى هذه المعاني العامة المشهورة ، استخدمها
الشعراء في وصف أقلام الممدوح من الوزراء وكبار الكتاب ، وبيان مالها
من تأثير ، وهى بشكل عام لا تخرج في معظمها على التقليد الموروث وهى
قضايا من الواضوح ، لا تحتاج معها إلى شواهد ، وقدمر معنا كثير منها
في معرض الحديث عن تراجم الشعراء في الفصل الماضي .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥٨ .

(٢) العباد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٢)

الملاحم والأحداث

تميز هذا العصر بأحداثه الكبرى وملاحمه الخالدة التي طبعتها بطابعها الخاص ، واثرت فيه تأثيراً كبيراً ، شمل مختلف نواحيه وشتى مناحيه . بدأت هذه الاحداث بالصراع الطويل مع الغرب في الحروب الصليبية ، واختتمت بصراع آخر أقصر من الاول ضد المغول التتار القادمين من مجاهل آسيا ومفاوزها .

ولا بد لنا لكي نبرز هذه الملاحم والاحداث من أن نعرضها ضمن مرحلتين: اولاهما تشتمل على عصر الزنكيين والايوبيين ، والثانية تشتمل على عصر سلاطين المماليك .

ملاحم الزنكيين والايوبيين

تحدث الشعراء عن الحروب الصليبية ، وخلدوا معاركها في صليبياتهم، منذ بدا الزنكيون بتحرير الارض المقدسة وبلاد الشام حتى تم لهم النصر على يد الايوبيين من بعدهم ، وصوروا الصراع الديني العنيف بين الاسلام والنصرانية ، ومن خلال ذلك وصفوا احتلال الثغور ، وسقوط المعامل والقلاع ، وأشادوا بالابطال الذين صرعوا ، وتحدثوا عن أسر كثير من ملوك

الفرنجة وأبطالهم وأمرائهم ، وكانوا في بعض الاحيان مدفوعين الى ذلك رغبة في العطاء والحصول على نصيبهم من اسلاب المعارك والغنائم ، بيد اننا لانكر عليهم دورهم الفعال الذين قاموا به خير قيام ، وكان يرفدهم في ذلك معين ثر من العاطفة الصادقة والشعور الفياض .

وضح هذه النقطة استاذي الدكتور عبد العزيز الاهواني ذاكرا : « ان وجود إشارات لاحداث العصر في شعر هؤلاء الشعراء ، وخاصة ما انصل منها بأعمال الملوك والأمراء وحروبهم ، لا تعتبر كبيرة القيمة من الناحية الشعرية ، مهما أطل الشاعر فيها وأسرف ، اذا لم تكن وراءها ثروة عاطفية حقة قادرة على ان تنقل اليها احساساً صادقاً عند التساير في صورة رائعة تؤثر فينا وتوحى اليها ، وتجعلنا نعين تلك الاحداث » (١) .

يضاف الى ذلك ظهور بعض الدراسات الحديثة الهامة التي وضحت تأثير الحروب الصليبية في الأدب ، وقد استقلت ببحث ذلك كتب الدكتور احمد احمد بدوي والدكتور عبد اللطيف حمزة (٢) .

مهما يكن من امر ، فيجب أن نسجل لشعراء هذا العصر الفضل كله في وصف الملاحم الخالدة ، وتاريخ الاحداث الكبرى ، حتى إن بعضهم اتخذ منها موضوعاً خاصاً في شعره قصره عليه ، فلا غرابة ان رأينا أغلب شعر القيسراني والطرابلسي كان مقتصر على هذا الغرض ، ولا غرابة إن رأينا حكيم الزمان الجلياني يفرد مجموعة كبيرة من شعره ، ويقصرها على وصف أحداث القدس عام الفتح الاغر ، ويسميها المبشرات والقدسيات .

(١) الاهواني : ابن سناء الملك ، ص ٧ .

(٢) انظر كتاب (الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام) وكتاب (الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام) للدكتور احمد احمد بدوي ، وكتاب (الحركة الفكرية في العصرين الايوبي والملوكي الاول) ، وكتاب (ادب الحروب الصليبية) للدكتور عبد اللطيف حمزة .

أما المعاني التي تطرق إليها الشعراء في وصف هذه الملاحم والأحداث فكثيرة تختلف طبعاً باختلاف الشعراء ، وتتنوع بتنوع المعارك ذابها ، ونستطيع بقدر الإمكان أن نبينها من خلال دراسة مظاهرها العامة .

الصراع الديني

لعل أول ما يسترعى انتباهنا هنا ظهور الصراع الديني من خلال وصف أحداث العصر وملاحمه الخالدة ، فنرى الشعراء يرددون هذا المعنى في جل قصائدهم ، ويسيدون بالانتصارات الباهرة التي أعز الله بها الإسلام والمسلمين بعد ذلة وهوان .

نلاحظ هذا المعنى في مدح ابن منير الطرابلسي نور الدين بعد مقتل البرنس صاحب انطاكية :

أقوى الضلالُ واقفرتْ عرصاته	وعلا الهدى وتبلجتْ قسماته
وانتاشَ دينَ مُحَمَّدٍ محمودَه	من بعد ما غلبتْ دماً عبراته
ردتْ على الإسلامِ عصرَ شبابه	وثباته من دونه وبساته
أرسى قواعده ومدَّ عماده	صعداً ، وشيّد سورَه سوراته (١)

وعبر ابن القيسراني عن المعنى ذاته في المدحة التي مدح بها عماد الدين بعد معركة بارين وفرار الفرنجة ، ومما قاله :

حذارِ منا ، وأتى ينفعُ الحذرُ ؟	وهي الصوارمُ ، لا تبقي ولا تذرُ
وأين ينجو ملوكُ الشركِ من ملكٍ ؟	مَنْ خيله النصرُ ، لأبل جندهُ القدرُ

(١) ابن واصل : مفرج الكرب ، ج ١ ص ١٢٢ ، وأبو شامة : الروستين ،

ج ١ ص ٦٠ ، ٦١ .

وأصبح الدينُ لأعيناً ولا أثراً يخافُ ، والكفرُ لا عينُ ولا أثرُ
فلا تخفُ بعدَها الإفرنجُ قاطبةً فالقومُ إن نفروا الوى بهمُ نفرُ (١)

لم يقتصر الشعراء على تصوير الكفاح في معناه العام ، وإنما تجاوزوه
إلى معان جزئية كوصف المعالم الدينية التي تغيرت بحكم استعادة الأراضي
الاحتلة ، فوصفوا الكنائس المهدامة ، والصلبان المحطمة ، كما في القصيدة
التي مدح بها ابن منير نور الدين :

يا لها همّة ثغرٍ أضحكتُ من بني القلفرِ ثغورَ الشامتينِ
كم كنيسٍ كنستُ قد رامها منه بعد الروحِ في ظلِّ السنينِ
ومنارٍ يجتلي صلبانه بينَ بيضِ تباري في البرينِ (٢)

أكثر الشاعر المذكور من إيراد هذه المعاني ، فوصف الصليب ، وقد
بعث فيه الحياة :

أبا نورَ دينٍ خبا نوره ومد شاعَ عدلكَ فيه اتقَدُ
راك الصليبُ صليبَ القنْصاةِ أمينَ العِشارِ متينَ العمدِ (٣)

ويصوره في مكان آخر من شعره ، وهو يهوي محطماً :

طلعتْ نجومُ الحقِّ منْ آفاقها وأعادها كرهُ العصورِ كما بدا
وهوى الصليبُ وحزبه وتبخر الإ سلامُ منْ بعد التساقفِ أغيدا (٤)

ولما دخل الناصر صلاح الدين ببت المقدس مجد ابن الساعاتي - كما
رأينا - هذا الحدث ، فوقف يتحدث عن هوان الصليب :

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢١ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢ .

جلّت عزماتك الفتح المبينا فقد قرّرت عيون المؤمنين
 رددت أخيدة الإسلام لنا غدا صرف القضاء بها ضميننا
 وهان بك الصليب ، وكان قدماً نعزّ على العوالي أن يهونا (١)

تلك هي صورة مخمارة عن الكنائس والبيع والصلبان اقتبسناها من
 بعض شعراء العصر ، نقابلها صورة أخرى عن المساجد والقبب والمنابر
 والمصاحف ، وكثيراً ما كنا نلاحظ الجمع بين النقيضين ، نذكر من ذلك
 قول ابن القيسراني في معرض تهنئة عماد الدين بفتح الرها :

سمت قبة الإسلام فخرأبطوله ولم يك يسمو الدين لولا عماده
 فلا مطلق إلا وسدّ وثاقه ولا موتق إلا وحلّ صفاده
 ولا منبر إلا ترتج عوده ولا مصحف إلا أنار مداده
 وقلّ للوك الكفر تسلّم بعدها ممالكها ، إن البلاد بلاده
 من كان أملاك السموات جنده فأية أرض لم ترّضها جياده (٢)

تحدث أيضاً ابن منير الطرابلسي عن غزاة حارم ، وأشار إلى الفرنجة
 أعداء الإسلام الذين زرعوا النفاق والفساد في أرض الشام ، ويود لو أنطق الله
 المنابر ، ولو أطاقت التكلم لحمدته أعوادها عن خطبائها :

وإذا العدا زرعوا النفاق وأحصدا كيداً فعزمك ناقض حصّاد
 ألّبت دين محمد يانوره عزاً له فوق السها إسّاد
 إن المنابر لو تطيق تكلماً حمدتك عن خطبائها الأعواد (٣)

وهنا ابن منير أيضاً عماد الدين في المناسبة نفسها ، وذكر بعض هذه المعاني
 في المدحة التي خصه بها ، وجاء فيها قوله :

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ص ٤٠٧ ، وابن واصل : مفرح الكرب ، ج ٢

ص ٢٣٤ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٧ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠١ .

قلّ للأعادي ألا موتوا به كمدأ فالله خيبيكم ، والله أعطاه
 أين الخلائف عن فتح أتيح له مظلّل أفق الدنيا جناحاه ؟
 على المنابر من أنبائه أرج مقطوبة بفتيق المسك ربّاه
 فتح أعاد على الإسلام بهجته فافتّر مبسمه واهتزّ عطفاه (١)

توضح الآيات التي أوردناها بعض المعاني التي أشرنا إليها من قبل ، بيد
 أنها تنفرد بتحدي الخلفاء العباسيين والفاطميين وغيرهم ممن ولى الحكم على
 اختلاف الدعوات ، وكأنما لد الشاعر أن يكرر المعنى ذاته في فصدّة أخرى بقوله :
 لو جرّى الإنصاف في أوصافه كان أولها أمير المؤمنين (٢)

شهد ابن الساعاتي يوم الفتح الأغر الذي حققه صلاح الدين ، وقد كان
 حلم الأجيال ، وقد لاحظنا في شعره ظهور المعاني الدينية التي نحن بصدددها ،
 فلما خرب بيت الأحزان ، أحد حصون الفرنجة ، أنشد قوله :

وقفت على حصن المخاض وإثته لموقف حق لا يوازيه موقف
 وما رفعت أعلامك الصفر ساعة إلى أن غدت أكبادها السود ترجف
 كبا من أعاليه صليب وبيعة وساد به دين حنيف ومصحف
 صليبة عبّاد الصليب ومنزل الـ نزال ، لقد غادرتة وهو صفصف
 أيسكن أوطان النبيين عصة تمين لدى إيمانها وهي تحلف
 نصحتكم ، والنصح في الدين واجب ذروا بيت يعقوب ، فقد جاء يوسف (٣)

ولم يكتف ابن الساعاتي بالحديث عن القبب والمنابر والمصاحف كسابقه ،
 وإنما أضاف إليها معاني جديدة ، إذ أشرك معها في فرحها مكة والحجون ،
 كما في قوله :

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٩ .

(٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٤٠٩ ، وابن واصل : مفرح الكروب ، ج ٢

ص ٨٣ ، ٨٤ ، وأبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١١ ، ١٢ .

فُضِيَتْ فريضة الإسلام منها وصدقت الأمانى والظنوننا
تهزُّ معاطفُ القدس ابتهاجاً وترضى عنك مكة والحجوناً (١)
فلو أنَّ الجهاد بطقْ نطقاً لنادتك : ادخلوها آمنين (٢)

وبصف في قصدة أخرى المدينة المنورة . والحجرة النبوية المترفة ،
ويود لو شهد أبو حفص عمر عودة القدس إلى المسلمين :

وقد ساغ فتحُ القدس في كل منطق وشاع إلى أن أسمع الأسل الصمنا
فليت فنى الخطابِ شاهد فتحها فيشهد أن السيف من يوسف أصمى
حبا مكة الحُسنى وتنسى ببثرٍ وأسمع ذياك الضريح وما ضمنا
وأصبح ذاك الثغر جذلان باسماً والسنة الأعماد توسعه لثما (٣)

يلاحظ أن الشعراء لم يكونوا ليكتفوا برسم هذه الصور المستمدة من
الكفاح الديني ، وإنما كانوا يحرضون الأبطال المسلمين على استعادة الثغور
الإسلامية المحتلة وتطهير الطراز الأخضر التسامي .

استشارة وتحريض

تولى الشعراء مهمة التحريض على جهاد الفرنجة ، واستشارة همم الملوك
وعزائمهم ، وبث دعوة الجهاد والكفاح بين الناس ، وذلك لتحرير الثغور المحتلة
وإنقاذ بيت المقدس من سلطان حكمهم ، إذ إنه في نظر المسلمين أحد
الاماكن المقدسة التي تربط بالدين الاسلامي برباط وثيق ، ولا سيما أنه كان
أولى القبلتين ، وفيه نائي الحرمين والصخرة المقدسة التي عرج منها الرسول

(١) الحجون : جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها .

(٢) ديوان ابن الساعني ، ج ٢ ، ص ٤٠٧ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢

ص ١٩٨ ، وأبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٨٥ .

(٣) ديوان ابن الساعني ، ج ٢ ، ص ٣٨٥ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١

ص ٢٣٤ ، وأبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١٠٦ .

(ص) إلى السموات العلا ليلة الإسراء والمعراج .

بدأت الدعوة إلى تحرير بيت المقدس بأكثر من نصف قرن من الزمن منذ قيام عماد الدين زنكي ، وقد ظهرت الإشارة الى ذلك في إحدى مدح ابن منير الطرابلسي بعوله :

وغداً يلقى على القدس لها كل كل يدرسها درس الدارين^(١)
همة تسمى وتضحى عزيمة لبس حصن إن تحطه بحصين^(٢)

كان كل فتح من الفتوح الإسلامية مناسبة ينتهزها الشعراء لتذكير المسلمين بمناصرة الجهاد المقدس، فلما فتح عماد الدين الرها أنشد ابن الفيسراني قصيدة ، بمدح بها وزيره جمال الدين، وبتير فيها الى هذا الفتح ، ومما قاله:

أما آن أن يزهق الباطل وأن ينجز العدة الماثل
فإن يك فتح الرها لجة ساحلها القدس والساحل
فهل علمت علم تلك الديار بأن المقيم بها راحل
أرى القمص يأمل فوت الرما ح ، ولا بد أن يضرب الشائل
بقوي معارله جاهداً وهل عاقل بعدها عاقل^(٣)

كانت الآمال معلقة بعماد الدين لفتح القدس ، بيد أنه قتل على حين غرة بيد أحد غلمانه ، ويطمع الغرب من جديد في استعادة ما كان في حوزتهم من أيدي المسلمين، ولكن ظهور ابنه نور الدين كان الدعامة الراسخة التي أفسحت المجال واسعاً لمتابعة الكفاح المرير ضد الفرنجة الغزاة وجدير بالذكر أن الصراع كان أمرّ وأمضى ، إذ استطاع المسلمون أن يحققوا انتصارات واسعة، كما يتضح لنا ذلك من خلال ملاحظة أحداث العصر وملاحمه الضارية ، وقد رأينا الشعراء أشد حرارة في التحريض والاستشارة ، حتى إن نسوة الفتوح

(١) الدارين : يبس الحشيش ، أو حطام الرمي إذا تناثر وسقط على الأرض .

(٢) أبو شامة : الروضتين : ج ١ ص ٤٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٩ .

المتوالية جعلت نور الدين يأمر الآخرى بعمل منبر جميل لينصب في بت
المقدس يوم الفتح المرتقب .

لا بأس بنا ان نفد عند أشهر المعارك في هذه الفترة لنشهد التحريض
والاستنارة يبلغان أقصى المدى لدى شعراء العصر كما قلنا، فلما قتل البرنس
صاحب انطاكية عند حصن إتب (١) سنة ٥٤٤ هـ أكثر الشعراء من مدح نور
الدين وتهنئته بهذا الفتح ، وقد أنسده ابن الفسراني في جسر الحد يد بين
حلب وانطاكية قصيدة ، وجاء فيها قوله :

أفرت سبوك بالفرنجة راجفة	فؤاد رومبة الكبرى لها يجب
فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجب	يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
واذن لوجك في تطهير ساحله	فانما انت بحر لجيه لجب
يامن أعاد ثغور الشام ضاحكة	من الظبا من ثغور زانها الشنب
ما زلت تلحق عاصيها بطائعها	حتى أقمت وانطاكية حلب (٢)

ولما أسر جوسلين ، وكان كثر الغدر والمكر، أكثر الشعراء أيضاً في وصف
هذه الحادثة ، ومما قاله ابن القيسراني في إحدى قصائده مادحاً :

فسر واملأ الدنيا ضياء وبهجة	فبالأفق الداجي الى ذا السنا فقر
كاني بهد العزم لا فل حده	وأقصاه بالأقصى ، وقد قضي الامر
وقد أصبح البيت المقدس طاهراً	وليس سوى جاري الدماء له طهر
وقد أدت البيض الحداد فروضها	فلا عهدة في عنق سيف ولا نذر
وسلت بمعراج النبي صوارم	مساجدها شفع وساجدها وتر
وإن يتيمة ساحل البحر مالكا	فلا عجب أن يملك الساحل البحر (٣)

(١) إتب : بكسرتين وتشديد النون حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٧٣ ، ٧٤ .

وجاء في القصيدة التي مدح بها ابن منير الطرابلسي نور الدين بهنئه بفتح
أنطرسوس وبحمور قوله :

غسلَ العواصمَ أمسٍ منْ أدرانهمْ	واليومَ ردّ به السواحلُ بُورا
أخلى ديارَ الشرقِ منْ أوثانها	حتى غدا نالوئهنَّ نكسيرا
رفع القصور على نضائد هامهمْ	منْ بعد ما جعل القصورَ قبورا
غادرتْ أنطرسوسُ كالطرسِ أمحى	رسماً وحمراً ربوعها يحمورا
القي العصا فيمن أطاعَ ومن عصى	منهمْ ، ودمّر أرضهم تدميرا
لا يلههمْ أنْ قد مننتْ وشنّها	شعواء تصلي الكافرين سعبرا
باكرَ بركز فناً تنسف أسها	والخيلُ صورَ كي تزيركَ صورا
ونريكَ لامعةَ التريكِ بساحةٍ الـ	أقصى مطهرةً له تطهيرا
ضحكتْ لك الأيامُ ، واكتأب العدا	قلقاً ، فجئت مبشراً ونذيرا (١)

لم يفتصر التحريض والاستشارة على القصائد التي صورت هزائم
الفرنجة ، وإنما نتبين ذلك أيضاً في الحروب التي كانت تشن لتوحيد البلاد
وتخليصها من بعض حكامها المتمردين الذين كانوا يقفون عثرة في طريق النضال .
نذكر من ذلك مثلاً ما كتبه ابن القيسراني من حماة :

دمشقُ ، دمشقُ ، إنما القدسُ سرحةٌ	ومركزُها صرحٌ عليها ممرّدُ
حموها لكي يحموا ، وقد بلغ المدى	يرفرفُ في أرجائها ويُغرّدُ ؟ (٢)

ونجد مثل ذلك أيضاً في القصيدة التي مدح بها العماد نور الدين بعد
أن نزع منبج من صاحبها ابن حسان ، وجاء فيها قوله :

بشرى الممالك فتح قلعة منبج	فليهن هذا النصر كل متوج
وافى يبشر بالفتوح وراءه	فانهض إليها بالجيوش وعرج
أبشر ، فبيت القدس يثلو منبجاً	ولمنبج لسواه كالأنموذج

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٩٠ .

ما أعجزتك الشهب في أبراجها طلباً ، فكيف خوارج في أبرج
فانهض إلى البيت المقدس غازياً وعلى طرابلس و نابلس عسج
قد سرت في الإسلام أحسن سيرة مأثورة وسلكت أوضح منهج (١)

ولما توحدت مصر والشام في عهد نور الدين بعد قضاء عامله على مصر
صلاح الدين على الفاطميين بعث العماد اليه بهنئه بذلك :

إله درك نور الدين من ملك عدل لحفظ أمور الدين ملتزم
كانت ولاية مصر قبل عزها بكشف دولتها لحماً على وضم
فالنيل ملتطم جار على خجل جابر لبحر نوال منك ملتطم
وطهر القدس من رجس الصليب ونب على البغاة وثوب الأجل القطم
فملك مصر وملك الشام فد نظما في عقد عز من الإسلام منتظم (٢)

ولم يقتصر التعريض على الوقائع المذكورة آنفا ، وإنما كان يظهر حتى
في المدح الشخصية ، كما بنضح لنا ذلك في القصيدة التي هنا ابن منير
الطرابلسي نور الدين بحلول شهر رمضان ، وجاء فيها قوله :

فذاك من صام ومن أفطرا ومن سعى سعيك ، أو قصرا
أبقاك للدين والدين من خلاك في ليلهمما نيبرا
حتى ترى عيسى من القدس قد نجنا إلى سيفك مستنصرا (٣)

ويمضي نور الدين الى ربه ، وتعصف ريح الفتن بالبلاد ، وبقي الامر
على هذه الحال حتى قام صلاح الدين ، ففضى على الفتنة والفرقة ، وجمع
شمل البلاد بعد أن انتهر الفرنجة هذه الفرصة ، وطمعوا بالبلاد من جديد ،
بيد أنه فوت عليهم الفرصة السانحة ، وقد لاحظنا أن شعراء هذا العصر ،
وبخاصة منهم العماد الكاتب استطاعوا أن يؤثروا تأثيراً كبيراً في ميدان

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٥٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٧٥ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٥٧ .

التحريض والاستشارة لاتمام الدعوة لتحرير بيت المقدس . ولا بأس أن نورد على سبيل المثال ما ذكره العماد الكاتب في العصبده التي مدح بها صلاح الدين وقد عزاه فيها بوفاء عمه ، وجاء فيها قوله :

هزمتهم جنودُ المشركين بربعكم^١ فلم يلبثوا خوفاً ، ولم يمكثوا ذعرا
وما يرتوي الإسلامُ حتى تغادروا لكم^٢ من دماءِ الغادرين بها غندرا
فصَبُّوا على الإفرنجِ سَوَاطِ عذابها بأن يقسموا ما بينها القتل والأشرا
ولا تهملوا البيتَ المقدسَ واعزموا على فتحه غازين^٣ ، وافترعوا البكرا
تديمونَ بالمعروفِ طيبَ ذكركم^٤ وما الملكُ إلا أن تديموا لكم ذكرا (١)

كما مدح العماد الكاتب السلطان صلاح الدين بقصيدة يتشوق فيها الى دمشق ، ويظهر تأسفه عليها لبعده عنها ، وفيها قوله :

ويومُ الفرنجِ إذا ما لقوك^١ عبوس^٢ برغمهم قمطير^٣
نهوضاً إلى القدسِ يشفي الغليـلْ لْ ، بفتح الفتوح ، وماذا عسير^٤
سلِ الله تسهيلْ صعبِ الخطو بْ ، فهو على كل شيء قدير^٥ (٢)

ومدحه أيضا سنة ٥٧٢ هـ ، وجاء في مدحته قوله :

فسر ، وافتح القدسَ ، واسفك به دماءً ، متى تجرّها ينظف
وأهدِ إلى الإستبارِ البتارِ وهُدَّ السقوفُ على الأسقفِ
وخلصَ من الكفرِ تلكَ البلادِ يخلصك ربك في الموقفِ (٣)

ومدحه سنة ٥٧١ هـ بانتصاره على المواصله ، وجاء في مدحته قوله :

قد كانَ عزمكَ للاله مصمما فيهم فلاح - كما رأيتَ - فلاحه^١
وكانني بالساحلِ الأقصى ، وقد ساحت بنحر دمِ الفرنجة ساحه^٢
نجّوا البلادَ من البلاءِ بعدلكم فالظلم بادِ في الجميع صراحه^٣

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٧٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤٧ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٦٩ .

واستفتحوا ما كان من مستغلق فيها ، فربكم لكم فتاحه (١)
وجاء في ختام المدحة التي انتده اباها الشاعر سعادة الاعمى في دار
العدل بدمشق قوله :

فاسلم ، صلاح الدين ، وابق لدولة ذلت لدولتها ملوك زمانها
وانهض إلى فتح السواحل نهضة فادت لك الأعداء بعد حرانها (٢)

وجاء في المدحة التي هنا بها العماد الكاتب تقي الدين عمر في أحد
انتصاراته سنة ٥٨١ هـ ، قوله :

رددت كراديس الفرنج وكلهم لدى الأسر في غل الصغار مكردس
وبيضت وجه الدين يوم لقيتهم وأبيضكم من أسود القصر أشوس
أفاد دم الأنجاس طهر سيوفكم وما يستفاد الطهر لولا التنجس
شموس طبا تغدو لها الهام سجداً فلكه نصرانية تتمجس
ولا يفتح البيت المقدس غيركم وبيتكم من كل عاب مقدس
إذا ما تقي الدين صال نساقت لآقدامه من عصابة الشرك أرؤس (٣)

هكذا رأينا أن النحريض لم يقتصر على بيت المقدس وما جاوره من
الاماكن القدسية ، وانما شمل السواحل المحتلة ، كما كان الشعراء بطلون
بتحرير الثغور التي يهدد منها العدو الناس الآمنين ، ويفدرون بهم في
كل فرصة تسنح لهم . فلما ملك صلاح الدين حصون انطاكية ، وفتح
قلعة (برزيه) الحصينة (٤) ، مدحه الشهاب الساغوري، وحرصه على فتح مدينة
صور ، بقوله :

لما ملكت حصون انطاكية يؤس الصليب وحزبه من مظهر
برزت إلى برزيه عزمتك التي مدت يدأعن مطلب لم يقصر

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٥٣ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٧٢ .

(٤) هي (برزیه) . ذكر ياقوت أن العامة تقول (برزیه) ، وقال أنها « حصن

قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الفرنج بالحصانة »

معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٨٣ .

فتناولتْه بأيدها من باذخ في الأفق ذي مثل يروع مسير
فانهض لصور ، فهي احسن صورة في هيكل الدنيا بدت لمصور
ما سور صور عاصم منه وهل سور المعاصم عاصم لسور (١) ؟

اتضح فيما تقدم معنا من بحث ان الشعراء كانوا يرسمون للملوك والابطال الفاتحين خطط الفتوح ، فكما سقط حصن اناروا حميتهم لاسترداد حصن آخر قريب او بعيد ، ويبقى بعد ذلك كله أملهم الاكبر وحلمهم المرتقب : ألا وهو انتظار فتح القدس ، واستعادة الثغور المحتلة من ايدي الفرنجة . لقد كان للشعراء اكبر الاثر في الدعوة الى هذا الامر ، كما رأينا بشكل متصل ، فهم الذين اناروا العزائم ، وشحذوا الهمم في قصائدهم ، سواء منها التي وصفت الملاحم الخالدة وسجلت الاحداث الكبرى أم التي انشدوها في أغراض أخرى كما هو الحال في معرض النهضة أو المدح أو الرناء أو غيرها .

كان لهذه القصائد الملحمية وقع كبير على الناس ، فلقد استشارت حقاً حماستهم ، وجعلتهم يسنرخصون الموت ، ويقذفون بأنفسهم مجاهدين يطلبون الاستشهاد في سبيل رضوان الله ، وذلك ليؤدوا واجبه الديني كاملاً أمام الله والتاريخ والعالم .

تباشير وتهان وفتوح

لم يشهد التاريخ الاسلامي بعد فتوحه انتصارات تتوالى بسرعة كالتي شهدتها هذا العصر ، فكانت انباء الملاحم الخالدة تحمل الى مختلف الامصار ، فتزف الى الناس البشائر ، وكانت الشعراء تخلد ذلك كله بقصائد تنشد في حضرة الابطال الفاتحين ، أو تبعث اليهم من كل مكان لتنشد على مسامعهم . وكانت بشكل عام تتميز بصدق العاطفة وحرارتها ، وبعدها في اغلب الاحيان

عن الصنائع البدعية ، ذلك أن نشوة الظفر وضرورة تقديم القصائد تحتم على الشعراء أن ينعقدوا فيها عن التكليف ، فتبدو ريانة في ماء الطبع . من ذلك ما أنشده القيسراني أمام نور الدين بظاهر حلب بعد كسر الفرنجة على بفراس (١) وهزمهم إلى حصن حارم سنة ٥٤٣ هـ ، وجاء في قصيدته قوله :

تفى بزمانها الببضُ الحدادُ	وتقضي دينها السمرُ الصعادُ
وتدركُ ثأرها من كلِّ باغٍ	فوارسُ من عزائمها الجلالُ
جرت بالنصر أعلامُ العوالي	وليس سوى النجيع لها مدادُ
وطالتْ أرؤسُ الأعلاج خصباً	فنادى السيفُ قد وقع الحصادُ
أحطتْ بهم فكان القتلُ صبراً	ولا طعنُ هناك ولا طرادُ
وللابرنس فوقَ الرمح رأسُ	توسّدُ ، والسنانُ له وسادُ
ترجّل للسلام ففرّسوه	ولبس سوى العنابة له جوادُ
غضيفُ المقلتين ولا نعاسُ	وعابرُها وليس به سهادُ
فسر واستوعب الدنيا فنوحاً	فلا هضبُ هناك ولا وهادُ
ولا في باب فارسٍ غير نكلى	بفارسها يضيءُ بها الحدادُ
لأنطاكيةَ يحمى ذراها	وقد دانت لسطوتك البلادُ
وأذعنت الممالكُ واستحالَتْ	مليبةٌ لدعوتك العبادُ (٢)

وصف الشاعر في هذه التهنئة قتل البرنس ، وصوره تصويراً رائعاً ، وقد حمل رأسه فوق رماح المسلمين ، وطلب من نور الدين أن يتابع فتوحه المظفرة لكي يستوعب الدنيا كلها ، فلا يحول بينه وبين أفاصها حائل ، كما أشار إلى الحادثة نفسها ابن منير الطرابلسي في القصيدة التي هنا بها نور الدين وذكر ظفره بالبرنس وأصحابه ، وحمل رأسه إلى حلب ، وقد أنشده إياها بجسر الحديد :

(١) مدينة قرب أنطاكية على بعد أربعة فراسخ منها .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٥٦ .

أقوى الضلال' واقفرت' عرصاته'
وانتاش' دين' محمد' محمودة'
ردت على الإسلام عصر' شبابه'
ارسى قواعدَه ، ومدَّ عمادَه'
فتح' تعمّت السماء بفخره'
سبّقت' على الإسلام بيض' حجوله'
للّه بلجة' ليلة' محصت' به'
حط القوامص' فيه بعد قماصها'
صدم الصليب على صلابه' عوده'
وسقى البرنس وقد تبرّس' ذلّة'
فانقباد في خطم' المنيسة' أنفه'
ترك الكنائس' والكناس' لناهب'
لا زال هذا الملك' يشمخ' شأنه'
ما أخطأتك' يد' الزمان فدونه'
أنت الذي تحلي الحياة حياته'

وعلا الهدى ، وتبلجت' قسماته'
من بعد ما غلبت' دماً عبراته'
وئبائه من دونه وئبائه'
صعدا ، وشيد' سوره سوراته'
وهفت على أغصانها عذباته'
واختال' في أوضاعها جبهاته'
واليوم ذبح' وشيه ساعاته'
ضرب' يصلصل' في الطلى صغقاته'
فتفرقت' أيدي سبا خشباته'
بالروح مقمر ما جنت' غدراته'
يوم الخطيم ، واقصرت' ثرواته'
بالببيض نهب' ما حواه عفاته'
أبدأ ، ويلفت' في الحضيض وشاته'
من شاء فلتسرع' إليه هناته'
وتنهب' أرواح' القصيد هباته' (١)

نلاحظ في هذه القصيدة أن الصراع الديني المشار إليه آنفاً يتضح كل الاتضاح ، ويعود الشاعر بذاكرته إلى عصر صدر الإسلام ، ويتذكر من خلال هذه الانتصارات هاتيك الأيام الغر ، ويعظم الشاعر بطل الفتح شأنه شأن معظم الشعراء ، حتى نجده يغدو في نظر ابن منير الطرابلسي المهدي المنتظر وقائم العصر ، كما في القصيدة التي هنا بها نور الدين بالنصر يوم حارم ، وجاء فيها قوله :

حظيت من المعالي بالمعاني ولاذ الناس بعدك بالاسامي
زكا عرق العراق وقد تكتنى به ، وأطال من شمم الشام

وفي شجاءٍ حارمٍ شاجرتهم^١ سواهم كالسهمِ بكالسهمِ
فلو قد مثلَ الإسلامُ شخصاً لرشفَ ما وطئت من السلامِ
فاكذب مدّعين هفوا وغروا عن النور المبين بل التعامى (١)

كان الأبطال يطلبون من شعرائهم تخليد انتصاراتهم وتمجيد فتوحهم ،
إذ إنهم كانوا يقدرون أهمية هذه المرحلة في التاريخ الإسلامي ، ويدركون
أنها نقطة التحول الكبرى من الضعف الى القوة ، ومن الاستسلام والذلة
والخنوع الى المبادهة والهجوم والنصر ، فلا غرابة إن رأينا أبطال الملاحم
الإسلامية يسرون إلى الخطورة الكبرى الكامنة في هذه الحروب ، كما يتضح
ذلك في الكتب التي كانت سير بالبشائر إلى الخلفاء والأقاليم المختلفة ، ولا
غرابة أيضاً إن رأيناهم يطلبون إلى شعرائهم الذين كانوا يرافقونهم تخليد
هذه الملاحم الكبرى في فصائد الفتوح ، ففي الغارة التي شنّها كلب الروم
على رواد من أعمال حوران ، قال العماد الكاتب : « وكنت راكباً في لقائهم
مع الملك العادل ، وهو يقول : كيف تصف ما جرى ؟ فمدحته بقصيدة :

عقدت بنصرك راية الإيمان
يا سالب التيجان من أربابها
محمود المحمود ما بين الوري
أحلى أمانيك الجهاد وإنه
كم بكر فبح أولدته ظنباك من
كم وقعة لك بالفرنجة حديثها
قمصت قومصهم رداء من ردى
وملكت رق ملوكهم وتركتهم
وجعلت في أعناقهم أغلالهم
يا خيبة الإفرنج حين تجمعوا
وجلوت - نور الدين - ظلمة كفرهم

وبدت لعصرك آية الإحسان
حزت الفخار على ذوي التيجان
في كل إقليم بكل لسان
لك مؤذن أبداً بكل أمان
حرب لقمع المشركين عوان
قد سار في الآفاق والبلدان
وقرنت رأس برنسم بسان
بالدّل في الأحقاد والأشجان
وسحبهم هوناً على الأذقان
في حيرة ، وأتوا إلى حوران
لما أتبت بواضح البرهان

اصبحت للاسلام ركناً ثابتاً
 قل : أين مثلك في الملوك مجاهد ؟
 دانت لك الدنيا ، فقاصيها إذا
 فمن العراق إلى الشام إلى ذرا
 لم تله عن باقي البلاد وإنما
 للروم والإفرنج منك مصائب
 أذعنت لله المهيمس إذ عنت
 سير لو أن الفتح ينزل أنزلت
 والكفر منك مضعع الأركان
 لله في سر ، وفي إعلان
 حققته لنفاذ أمرك دان
 مصر إلى قوص (١) إلى أسوان
 الهالك فرض الفزو عن همدان
 بالترك والأكراد والعربان
 له أوجه الأفلاك بالإذعان
 في شأنها سور من القرآن (١)

نلاحظ في هذه القصيدة العمادية إشارة الشاعر الهامة الى وحدة البلاد التي تضم شمل العراق والشام ومصر حتى قوص وأسوان وغيرها من البلاد العربية في هذا العصر ، كما يتضح لنا تضافر كافة الأجناس من عرب وأكراد وإتراك للقضاء على الروم والفرنجة . ونلاحظ من طرف آخر أن الشاعر انتهى على ممدوحه كل النناء ، وحباه بغر قصائده القدسية ، إذ هو الذي قد مهد السبيل ، وحرر النفور المحتلة ، وذلك انتظاراً لليوم الموعود الذي سيتحقق بفتح بيت المقدس ، وقد آذن الله بالنصر بعد موقعة حطين الخالدة .

ملحمة حطين الخالدة

لا شك أن معركة حطين الخالدة كانت الموقعة الفاصلة والملحمة الخالدة في التاريخ الاسلامي : وقد أكثر الشعراء في التحدث عنها ، والتغني بها ، والإشادة ببطلها الكبير صلاح الدين ، نذكر منهم العماد الكاتب ، فإنه وصف هذه الملحمة في بضع قصائد ، وأشار اليها في عدة مناسبات ، منها فتح نابلس ، وفتح القدس . أما أشهر قصائده الحطينية فهي قصيدته السينية

(١) قوص : ذكر ياقوت أنها مدينة كبيرة عظيمة واسعة ، وهي نوبة صعيد مصر ، ومحط التجار القادمين من عدن ، وهي شرقي النيل (معجم البلدان ، ج ٤ ص ٤١٣) .
 (١) أبو شامة : الروشتين ، ج ١ ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ ،

التي جاء فيها قوله :

يا يومَ حطينَ ، والأبطالُ عابسةٌ وبالعجاجةِ وجهَ الشمسِ قد عيسا
رايتَ فيها عظيمَ الكفرِ محترقاً معفراً خدّةُ والأنفِ قد تعسا
يا طهرَ سيفِ برى رأسِ البرنسِ فقد أصابَ أعظمَ من بالتركِ قد نجسا
عرى ظباهُ من الأغمدِ مەرقةُ دماً من التركِ ردّاها به وكسا
من سيفهُ في دماءِ القومِ منعّسٌ من كلِّ من لم يزل في الكفرِ منعّسا
افناهم قتلهمُ والأسرُ فانتكسوا وبينَ كفرهمُ من خبثهمُ كنسا(١)

أنشاد العماد في هذه القصيدة الى ابرنس الكرك ، ولىح الى حادثته المشهورة مع صلاح الدين ، وهو من جملة من وقع في الأسر يوم حطين ، وكان السلطان قد استحضر الأسرى من ملوك الفرنجة وامرائهم ، واقعدهم في الدهليز ، واستحضر منهم الابرنس بصورة خاصة ، إذ إنه قد غدر بقافلة المسلمين التي كانت متوجهة من مصر الى الشام، وقال لأصحابها متهمكماً : « قولوا لمحمدكم يخلصكم » فابتدره السلطان قائلاً : « ها انا انتصر لمحمد (ص) » (٢) ثم عرض عليه الاسلام تكفيراً لما اذنب فأبى ، فضربه السلطان بيده ، وأجهز عليه من بيده من جنده ، وذلك وفاء لنذره الذي قطعه على نفسه ، وأشهد الله عليه ان هو ظفر به .

تحدث العماد أيضاً عن هذه المعركة في قصيدة سينية أخرى ، وجاء فيها قوله :

سحبت على الأردنّ ردناً من القنا رُدِينةً ملنداً وخطيةً ملنسا
حططت على حطينَ قدرَ ملوكهم ولم تبق من أجناسِ كفرهم جنسا
ونعمَ مجالُ الخيلِ حطينَ لم تكن معاركها للجردِ ضرساً ولا دهسا
غداةُ أسودَ الحوبِ معتقلو القنا أساودُ تبغي من نحورِ العدا نسا

(١) المصدر السابق ج ٢ ، ص ٨٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

كسرتهم إذ صحّ عزمك فيهم
بواقعة رجّت بها الأرض جيشهم
بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم
وقد طاب ريانا على طبرية
ونكستهم إذ صار سهمهم
دماراً كما يست جبالهم بسنا
ولم ترض أرض أن تكون لهم رمسا
فيا طيبها رياً ، وياحسنها مرسى (١)

هكذا وقف بنا الشاعر على ضفاف طبرية التي شهدت امر الملاحم . وقد
طاب له الوقوف فيها يتذكر حطين الخالدة ، وشهد التاريخ بخلده على صفحة
هذه البحيرة الهادئة .

لا بأس بنا أن نقف مع شاعر آخر هو ابن الساعاتي ، وقد دخل مدينة
طبرية نفسها بعد سقوطها بيد صلاح الدين ، وأنشده قصيدة جاء فيها قوله :

جلت عزماتك الفتح المبينا
رددت أخيدة الإسلام لما
وهان بك الصليب وكان قدما
وما طبرية إلا هدي
قضيت فريضة الإسلام منها
تهز معطف القدس ابتهاجا
فلو أن الجهاد يطيق نطقا
أعدت بها الليالي وهي بيض
فألم بالسواحل فهي صور
فقلب القدس مسرور ، ولولا
أدرت على الفرنج وقد تلاقى
ففي بيسان لا قوا منك بؤسا
لقد جاءتهم الأحداث جمعا
وخانهم الزمان ، ولا ملام
لقد جردت عزما نصريا
فقد قررت عيون المؤمنين
غدا صرف القضاء بها ضمينا
يعز على العوالي أن يهونا
ترفع عن أكف التلامينا
وصدقت الأمانى والظنوننا
وترضي عنك مكة والحجوننا
لنادتك : ادخلوها آمينا
وقد كانت بها الأيام جونا
إليك ، والحق الهام المتونا
سطاك لكان مكثبا حزيننا
جموعهم عليك رحي طحونا
وفي صفد أتوك مصفدنا
كان صروفها كانت كميننا
فلمست بمفضل زمننا خوونا
يحدث عن سناه طور سينا

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٩ .

فكنت كيوسف الصديق حقاً له هوت الكواكب ساجدين (١)
وإن تك آخراً ، وخلال ذم ، فإن محمداً في الآخرين (٢)

نوه الشاعر بهذا الفتح المبين، وأشاد بالبطل الكبير صاحب النصر الاغر،
ثم وقف عند طبرية يغنى بما حققه ممدوحه في جهاده الأكبر وود لو انطق
الله الجهاد ، وعبر عن نداء مدينة القدس . وفي هذا التنبؤ ما فيه من
براعة ومهارة فنية نثر الحياة في نفس السامع . وقد أشار الشاعر في هذه
القصيدة إلى صليب الصلبوت ، وهو الصليب الأكبر الذي يقدسونه ،
ويعتقدون أن المسيح عليه السلام صلب عليه ، وقد وقع في حوزة المسلمين
بعد معركة حطين الخالدة . كما دعا ابن الساعني على عادة شعراء هذا العصر
الى فتح بيت المقدس وتطهير بقية الساحل والطرز الاخضر الشامي من احتلالهم .

تحرير بيت المقدس

أذنت موقعة حطين الخالدة بتحرير بيت المقدس بعد أن بقي نيافاً وتسعين
سنة بيد الفرنجة ، وكان ذلك سنة ٥٨٣ هـ . وهي السنة الغراء التي سجل
فيها صلاح الدين يوسف أروع انتصارات المسلمين في هذا العصر .

أكثر الشعراء من نظم القصائد القدسية التي تخلد هذا الحدث الأكبر
حتى إن بعضهم قصر معظم شعره على التغني بفتح بيت المقدس في قصائد
خاصة أسماها (القدسيات) كما سنرى ذلك في شعر أبي الفضل الجلياني .
أبرز الشعراء الذين وصفوا هذه الملاحم الخالدة هو العماد الكاتب وزير
صلاح الدين في بلاد الشام ، وقد أورد منها جملة في أواخر كتابه البرق
الشامي ، ومن قصائده التي هنأ فيها بفتح بيت المقدس ، وهو مخيم عليه ،
قصيدته التي جاء فيها قوله :

(١) إشارة الى قوله تعالى : « اذ قال يوسف لاييه : يا ابت اني رايت احد عشر
كوكباً والشمس والقمر رايتهم لي ساجدين » سورة يوسف ٤/١٢ .
(٢) ديوان ابن الساعني ، ج ١ ، ص ٣٨٢ - ٢٨٤ ، وأبو شامة : البروضتين ،
ج ٢ ص ٨٤ .

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا
فلا عدت أيا منّا منه مشرقاً
جنودك أملاك السماء وظنّهم
فلا يستحقّ القدس غيرك في الوري
ومن قبل فتح القدس كنت مقدساً
وطهرته من رجسهم بدمائهم
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها
وعادت ببيت الله أحكام دينه
وقد شاع في الآفاق عنك بشارة
جری بالذي تهوى القضاء وظهرت
توكل على الله الذي له أصبحت
ودمر على الباقيين واجتأصلهم
وإن بلاد الشرق مظلمة ، فخذ
وبعد الفرنج الكرك ، فاقصد بلادهم
أقامت بغاب الساحلين جنودكم

وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى
ينير بما يولي ليالينا الدُمس
عدائك جنّ الأرض في الفنك لا الإنسا
فانت الذي من دونهم فتح القدس
فلا عدت أخلاقك الطهر والقدسا
فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجسا
والبستها الدين الذي كشتف اللئسا
فلا بطركاً (١) أبقيت فيها ولا قسنا
بأن أذان القدس قد أبطل النقسا
ملائكة الرحمن أجنادك الخمسا
كلّاته درعاً وعصمته نرسا
فإنك قد صيرت دينارهم فلسا
خراسان والنهرين والترك والفرسا
بعزيمك وإملاً من دمائهم الرّمس
وقد طرّدت عنه ذئابهم الطلسا (٢)

نلاحظ في هذه القصيدة القدسية أن الشاعر أنى على صلاح الدين كل
الثناء ، إذ هو أهل لأكثر من ذلك بعد العمل الجبار الذي خلده على مدى
الدهر ، ونلاحظ أيضاً أنه يرسم للبطل الظافر الخطّة التي يجب أن ينتهجها
بعد فتح بيت المقدس ، فلا يقعه هذا الظفر عن متابعة الفتح ، ولا يعيب به
الغرور ونشوة الظفر ، وطلب إليه أن ينقل بلاد الشرق كلها من فساد حكامها
الأغراب الذين لا يرون في الحكم إلا ذريعة لتحقيق رغباتهم ومآربهم الخاصة

(١) البطرك : مقدم النصارى ، وقيل : هو البطريق نفسه كما جاء في القاموس ، وهو من
الدخيل ، وقد نقل صاحب اللسان أيضاً أن « البطرك السيد من سادات المجوس » انظر في
اللسان مادة (بطرك) و (بطرق) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .

دون أي اعتبار لهذه الشعوب المستضعفة والمغلوبة في كل إقليم من أقاليم العالم الإسلامي ، كما ذكره بضرورة استعادة الكرك، وذلك لبتهم تحرير البلاد المحتلة من حكم الفرنجة .

زفت البشائر وسيرت أخبار النصر الى كل مكان ، نذكر منها البشارة التي بعث بها صلاح الدين الى الخليفة العباسي الناصر في بغداد : وانا في قصبة قدسية ، نظمها العماد ، وجاء فيها قوله :

ابشرْ بفتح - أمير المؤمنين - ائى	وصيته في جميع الارض جواب
أحيا الهدى ، وأمات الشرك صارمه	لعد تجلى الهدى ، والشرك منجاب
بفتح القدس للاسلام قد فتحت	في فمع طاغية الإشرار أبواب
ففي موافقة البيت المقدس لل	بيت الحرام لنا تيه وإعجاب
والصخر والحجر المنوم جانبه	كلاهما لاعتمار الخلق محراب
نفي من القدس صلباناً كما نفيت	من بيت مكة أزلام وأنصاب (١)

ومن الشعراء الذين خلدوا ملحمة بيت المقدس ابن الساعاني ، فلقد مدح صلاح الدين متسليداً بما حققه للمسلمين من نصر مؤزر ، وجاء في مدحته قوله :

أعياء ، وقد عاينتكم الآية العظمى ؟	لأية حال تذخر الشر والنظما ؟
وقد ساغ فتح القدس في كل منطق	وشاع الى أن أسمع الأسل الصمنا
فليت فتى الخطاب شاهد فتحها	فيشهد أن السيف من يوسف أصمى
وما كان إلا الداء أعياء دواؤه	وغير الحسام العضب لا يعرف الحسما
وأصبح ثغر الذين جلدان باسماء	والسنة الأغماذ توسعه لثما
سلوا الساحل المخشي عن سطواته	فما كان إلا ساحلا صادف اليمنا
تجاوزت ما أعياء الجبال مناله	فهل يقظة كانت مساعيك أو حلما ؟
نصبت على الاعداء رأياً وراية	يفيدانهم من بعد رفعهم الجزما

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

فللحق شمس لا تنفام بباطل. وللعدل فيه آية تنسخ الظلماء (١)

نلاحظ في هذه الملحمة القدسية أن الشاعر أعرب عن فرحته الكبرى ، ولم يكتف بذلك ، وإنما سما إلى آفاق الحكمة الخالدة ، وذكر الفرنجة أن شمس الحق لا بد أن تشرق وتعم البرية كلها ، وأن آية العدل ستنسخ كل جور وظلم . كما نمنى في هذه الملحمة القدسية أن يشهد عمر بن الخطاب هذا النصر الأغر ليكون شاهده العدل ، وقد أعرب عن المعنى نفسه في قدسية نائية بقوله :

هو الفاتح البيت المقدس بعد ما تحامته سادات الدنيا ومسودها
فضيلة فتح كان ثاني خليفة من القوم مبيدتها ، وأنت معيدها (٢)

هكذا يقارن الشاعر بين الفتحين ، هما في نظره فضيلتان ، أولاهما كانت على يد ثاني الخلفاء الراشدين عمر ، وبانيهما على يد الناصر صلاح الدين ، الذي استطاع بجهاده أن يعيد الحق إلى نصابه ، فتشرق شمس الوضاعة ، وتنزل آيته العظمى لتنسخ ضلال الفرنجة . وتعيد البيت المقدس ليكون ما كان تحت راية الإسلام بعد أن عصفت به ريح الخطوب كما يقول الشاعر في قدسية ثالثة :

عصفت به ريح الخطوب زعازعاً فلقين طوداً لا تخف أناته
هو منقلد البيت المقدس بعد ما طالت ، فما وجد الشفاء شكاته
بيت تأسس بالسكون ، وإنما عند الزحاف تحركت سكناته
أمشتت الأعداء ، وهي جحافل عن شمل دين جمعت أشتاته
أوتيت عزماء في الحروب مسدداً لا زيفه يخشى ولا هفواته
أحسن بالبيت العتيق ويثرب ولك الفعال كثيرة حسناته

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٢٤ ، وأبو شامة : الروضتين ،

ج ٢ ص ١٠٦ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١٠٧ .

هذي سيوفك محرمات* دونه لبكائن* تبسّمت حجراته (١)

شاعر ثالث أيضاً ، من أصل أندلسي ، مقيم في بلاد الشام ، صرف معظم شعره لنظم الملاحم القدسية هو أبو الفضل الجلياني (٢) الملقب بحكيم الزمان ، فقد نظم قدسياته المشهورة ، وسماها (ديوان المبشرات والقدسيات) . وصف ابن أبي أصيبعة هذا الديوان ، وذكر « أنه نظم وتدبج وكلام مطلق » . يشتمل على وصف الحروب والفتوح الجارية على يد صلاح الدين أبي المنفر يوسف بن أيوب فاتح بنت المقدس في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة « ، وأعرض في نظمها عما عرف عنه في عمل الأشعار وتكلفها وتصنعها على شكل دوائر وأشجار وصور ، وترك لطبعه وشاعريته العنان ، فكانت قدسياته بحق أجمل شعره ، إذ إنه نظمها تخليداً لهذا الحدث الكبير ، لا طمعاً في مفهم ،

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .

(٢) هو عبد النعم بن عمر بن حسان الأديب الطيب الشاعر ، وينسب إلى جليانة الأندلسية ، من أعمال وادي باش . ذكر ياقوت أنه سكن دمشق ، وأنه كان يجلس بالبلادين على دكان بعض العطارين ، إذ كانت معيشته الطب ، وأنار إلى أنه قد لقيه ووقفه على أشياء عجيبة في عمل الأشعار ، يعمل في ذلك دوائر وأشجاراً وصوراً ، ويستخرج منها الرسائل والكلام الحكمي مكتوباً في خلال الشعر . يضاف إلى ذلك أن القطعة الواحدة كانت نقرأ بعدة قواف . مات بدمشق سنة ٦٠٣ هـ . له من الآثار الشعرية والنثرية عشرة كتب ، هي ديوان الحكم وميدان الكلم ، وهو نظم ، وديوان المشومات إلى الملا الأعلى ، وهو نظم ، وديوان أدب السلوك ، وديوان نوادر الوحي ، وديوان تحرير النظر ، وسر البلافة وصنائع البديع في فصل الخطاب ، وديوان المبشرات والقدسيات ، وديوان النزل والتشبيب والموشحات والدوبيني وما يتصل به ، وهو نظم ، وديوان شبهات والناز ورموز وأحاج وأوصاف وزجريات وأغراض شتى ، وهو نظم ، وديوان ترسل ومخاطبات في معان كثيرة وأصناف من الخطب والصدور والأدعية . يضاف إلى ذلك كتاب منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر من خصائص الملك الناصر صلاح الدين يوسف ألفه سنة ٥٦٩ هـ . وتعالق في الطب ، وصفات أدوية مركبة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٥٧ وابن أبي أصيبعة : هيون الأبناء ، ج ٢ ، ص ١٥٧ - ١٦١) .

ولا سعيًا وراء عطاء (١) :

أشار العماد الى قصائده القدسية ، وذكر أنها جباد طوال كثيرة الفوائد ، كما اطلع عليها أبو شامة المقدسى ، وأعجب بها كثيراً ، ونقل منها في كتاب « الروضتين » جملة لا بأس بها ، ونرى من الواجب علينا أن نعرض ، ونبرز أهم ما فيها من المعاني القدسية .

تحدث أبو الفضل عن البطل صلاح الدين ، وذكر أنه لم يزل من أول ما ولي الأمر في مصر يعلم أنه مؤيد بعناية الله سبحانه ، وأشار الى ما جاء في شعره من التبشير القدسيه النبي نبا بها من خلال مدحه ، وذكر أنه سيفتح بيت المقدس على يديه .

امتدح أبو الفضل صلاح الدين سنة ٥٦٥ هـ بقصيدة نيفت على مائة بيت وجاء فيها قوله في التبشير :

لتظفرن بما لم يحود ملك	أبا المظفر حظاً خطئه الأزل
دليل ذلك آراء لك اقترنت	بالحزم والعزم لم يخصص بها الأول
قد ساد إسكندر أهل الزمان معاً	في سنّ عشرين ، وامتدت له الحيل
وافى الثلاثين والاقطار أجمعها	طوعاً له ، وملوك الأرض والملل (٢)

وامتدحه سنة ٥٦٧ هـ عند قفوله من غزاة غزة ، وجاء في مدحته قوله :

أبا المظفر ، فاهناً حظاً منتخب	أخرى الزمان لدين كاد ينبت
زهدت فيما سبى الأملاك منكدر	علماً بملك نعيم ، ما به كدر
وطبت نفساً عن الدنيا وزخرفها	وجئت تقدم حيث الهول والخطر (٣)

وامتدحه سنة ٥٦٨ هـ بقصيدة نيفت على مائة بيت ، وجاء فيها قوله في التبشير :

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ج ٢ ص ١٦١ .
 (٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١١٥ .
 (٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١١٦ .

أرى الرؤية الصفراء، يرمى اصطفاؤها بني أصفر بالرافعات الهاذم
فتسبي فلسطيناً ، وتجبي جزائراً وتملك من يونان أرض الأساحم
وتعنو له الأملاك شرفاً ومغرباً بدا حكمت حذاق أهل الملاحم (١)

نلاحظ أن أبا الفضل كان يستشير صلاح الدين في تبشير مدحه، ويحرضه
على فتح بيت المقدس ، ويتنبأ له بمسقبل عريض زاهر ، يملك فيه العالم
كله ، ودليله على ذلك ما حكمت به حذاق أهل الملاحم .

وامتدحه سنة ٥٨٢ هـ ، وهناه بالعافية من مرض عرض له ، في قصيدة
بعث بها إليه من غزه ، وهو على حمص ، وجاء فيها قوله :

فيا ملكاً ، لم يبق للدين غيره	وهت عمد الإسلام، فاستدد لها دعما
فشوم فريق الشرك في الشام طائر	فقص جناحه بأقصى القوى قصما
خصصت بتمكين، فعم العداردى	فإنهم يأجوج ، أفرغ بها رداً
إذا صفرت من آل أصفر ساحة	مقدس ضاهت فتح أم القرى قدما
فذا المسجد الأقصى ، وهمتك العلا	وعزمتك القصوى، ورميتك الصما
فما هو إلا أن تهتم ، وقد أتت	فتوح ، كما فاض الخضم الذي طما
وان أنت لم ترد الفرنج بوقعة	فمن ذا الذي يقوي لبيائها هدماً؟
وليس كفتح القدس منية قادر	وما إن تلقاها سوى يوسف جزماً (٢)

نلاحظ أن التحريض يستد كثيراً ، إذ إن النصر أصبح قاب قوسين أو
أدنى ، ذلك أن الله خصه بقوة وتمكين من لدنه ، وأنه كتب على فريق الترك
الذل والهوان ، ويخلص أخيراً الى تذكيره بالواجب الملقى على عاتقه ، وهو
طرده الفرنجة ، فهو البطل الوحيد القادر على القضاء على الباطل ، وهو الذي
بيده مقاليد فتح بيت المقدس .

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٦ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٦ . والأساحم جمع الأسحم وهو الأسود .

وكان الشاعر يكرر التحريض والاستثارة في كل مناسبة ، وقد بلغ القمة في المدحة التي أنشدتها بين يديه قبل عام واحد من الفتح الأغر ، وجاء فيها قوله :

الله أكبر ، أرض القدس قد صفت
أسباط يوسف من مصر أتوا ولهم
لهم فلسطين ، إن يخرج عداتهم
حتى بنيت رتاج القدس منفرجاً
واستقبل الناصر المحراب يعبد من
وجاز بعض بنيه البحر تجفل من
حتى يوحد أهل الشرك قاطبة
ولابن أيوب في الإفرنج ملحمة
ومن أحق بملك الأرض من ملك
من آل أصف ، إذ حين به حانوا
من غير تيه بها سلوى وأمنان
عنها ، وإلا عدت بيض وخرسان
ويصعد الصخرة الفراء عثمان
قد تم من وعده فتح وإمكان
غاراته الروم والصقلاب واللان (١)
ويرهب القول بالثالث رهبان
دلت عليها أساطير وحسبان
كأنه ملك في الخلق حنان (٢)

هذه التبشير القدسية ، وهذه الآمال العريضة بملك العالم كله ، قد سبقت الفتوح والبشائر ، ولا بد لنا في معرض القول من تبيان المقصود بالتبشير والبشائر ، وإن كان اللفظان يؤديان معنى واحداً من حيث الأصل ، بيد أن القدماء قصروا لفظة التبشير القدسية على ما جاء من قول سابق يؤكد فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين أو غيره ، وأما البشائر فقد قصرت على القصائد أو الرسائل التي كانت تسير حاملة أخبار الفتوح .

تحقق الحلم الأكبر والامل العظيم ، وصدقت تبشير الشاعر القدسية منذ سنين بعيدة ، ففتح بيت المقدس ، وحملت البشائر السلطانية الى كل

(١) الصقلاب : معناها في الاصل الرجل الأبيض أو الأحمر ، والصقابة : جبل حمير الألوان سهب الشعور يتاخمون بلاد الخزر في أعالي جبال الروم . ذكر ياقوت أن الصقلاب بلاد بين بلنار وشمسطنية وتنسب اليهم الخرم الصقابة . اللان : بلاد واسعة قرب باب الابواب في طرف أرمينية مجاورة للخزر .
(٢) أبو شامة : الروافضين ، ج ٢ ، ص ١١٦ .

مصر ، فهُزِنه نِسْوةُ النصر ، وأنْبرى بنظم قُدسيّاته الخالدة ، يتغنّى فيها
بهذا الحدث الاغر ، وينوه فيها بالبطل صلاح الدين الذي كان له شرف الفتح
الذي خلده مدى الدهر .

نختار من قدسيات الشاعر أبي الفضل « القدسية الكبرى » ، وقد بلغ
عدد أبياتها مائة واثنين وخمسين بيتاً ، وجاء فيها قوله :

تصاريفُ دهرٍ أعربتْ لِمَن اهتدى	وبسطةُ امرٍ أغربتْ مَن تمرّدا
لسرعةٍ فتح القدس سرّ مغيبّ	وفي سرعةٍ الإفرنج معتبرٌ بدا
أتوا كجبالٍ أبرمتْ لإسارنا	فسقناهم فيها قطيناً مجددا
وساموا تجاراً تشترينا غواليأ	فبعناهم بالرخص جهراً على النداء
وجروا جيوشاً كالسيول على الصوى	فأضتْ غشاءً في البطاح ممددا
وقالوا : ملوكُ الارض تحت قيادنا	إذا الكل منهم في القيود تعبدا
وقد أقطع الكندُ العراق موقعا	فأودعَ سجناً وسطَ جلقٍ مؤصدا
وأقسمَ أن يسقي بدجلة خيله	فما وردَ الاردنَ إلا مصفدا
فكم واثقٍ خجلان قهقه خصمه	وكم سائقٍ عجلان قهقه متعدا
أنى الكندُ من إسبان يحمي قمامة	فكان تقضي ملكه قبل يبتدا
فما عقدَ الرايات إلا محللاً	ولا حللَ الرايات إلا معقدا
ووقعة يوم التل (١) ، إذ قبضتْ به	جبابرةُ الإفرنج حيرى وشرّدا
عليهم مَن البلوى سرداقُ ذلةٍ	ومن ذلّ ماتت نفسه فتقيّدا
ترى المنسر الديويّ يلقي سلاحه	وينساقُ ما بين السبايا ملهّدا
يباعون أسراباً شرائح أحبل	كشلة عصفور من الريش جرّدا
فتلقى نصارى جلق في ماتم	يُسرّونها إلا شجىً وتنهّدا
الم ترّ للسلطان صدق ندره	دمُ الغادرِ الإبرنس فاقْتيد أربدا
وباشره بالقتل وسطَ جنابه	وعاينه الكندُ المليك فأرعدا

(١) يوم التل : أي يوم معركة تل حطين .

وضاقت بنفس القمصر الأرض مهرباً
وما طرقَ الأسماعَ من عهد آدم
اتوا وادباً ما زالَ ينفي خبائثاً
به جثمت أصحابُ أيكَة وهي في
أرى اللهُ فبه معجزُ النصرِ مخلصاً
ومن عجبٍ خمسون ألف مقاتلٍ
فأدركه الموتُ المفاجيءُ مكمداً
كملحمة التلِّ التي تلت العدا
ويُصفي بعقَى الدار طائفة الهدى
ذراه ، وذا فيه شعيبٌ تأييداً
لأمر صلاح الدين في الناسُ مخلداً
سبتهم جيوش ليس فيهما من ارتدى (١)

نلاحظ أن الشاعر في هذه الملحمة القدسية استطاع أن يعرض لنا بدقة
وقعة القدس وملحمة تل حطين ، ووصف لنا هزائم الفرنجة المتكررة ، وأشار
الى وفاء صلاح الدين بندوره ، وهو قتل الإبرنس بيده كما ذكرنا ، لأنه غدر
بقوافل المسلمين الآمنة ، وشتم الرسول (ص) ، وكان قد أزمع أمره على
المسير الى تيماء ، ومهاجمة المدينة المنورة سنة ٥٧٧ هـ .

ونختار من قدسيات أبي الفضل الجلياني قدسة نانية ، هي « الفتحية
الناصرية » ، وجاء فيها قوله :

في باطن الغيب مالا تدركُ الفكرُ
مالي أرى ملك الإفرنج في قفصٍ
والإستبار الى الداوينة التأموا
والنفس مولعة عجباً بسيرتها
يا وقعة التلِّ ما أبقت من عجبٍ
ويا ضحا السبتِ ما للقوم قد سبتوا
ويا ضريح شعيب ، مالهم جثموا
حطّوا بحطّين ملكاً كافياً عجباً
أهوى إليهم صلاح الدين مفترساً
أملى عليهم فصاروا وسط كفتيه
فدوا البصرة في الأحداث يعتبرُ
أين القواضب والعسالة السمرُ ؟
كانهم سدّ ياجوج إذا اشتجروا
وفي المقادير ما تسلي به السيرُ
جحافلٌ لم يفت من جمعها بشرُ
تهودوا أم بكأس الطعن قد سكروا ؟؟
كمدين أم لقوا رجفاً بما كفروا
في ساعة زال ذاك الملك والقدرُ
وهو الفضنفر أعدى ظفره الظفرُ
كسرب طير حواها القانص الذكرُ

وانجز الله للسلطان موعده
وعاين الملك الإبرنس في دمه
راى مليكاً ملوك الأرض تتبعه
إذا بدا تبهر الأعيان هيبته
تقدم الجيل في أخرى الزمان به
أما رأيتم فتوح القادسية في
والحق يعرس ، والطفيان منتحب
هذا المليك الذي بشرى النبي به
أنسى ملاحم ذي القرنين ، واعترفت
أعين إسكندر بالخضر ، وهو له
وصنع ذي العرش إبداع بلا سبب
بيننا سباياه تجلى في دمشق إذا
إزاه زعماء الساحلين معاً
ينلوهم صلبوت سيق منتكساً
ونحن في ذا ، وذا طير صحيفته
تغزو أساطيلنا منها صقلية
من ذا يقول : لعل القدس منفتح
أبو المظفر ينويها ، فخذ سفناً
يسبي فرنجة من أقطارها ، وله
وبعض أبنائه بالقدس منتدب
براية تخرق الأرض الكبيرة في
قالوا أطلت مديحاً فيه ، قلت : كما

ونذرته في كفور دينه البطر
فمات حياً ، وحياً ، وهو يعتذر
والنجم يخدمه ، والشمس والقمر
ويخفي ، وهو في الأذهان مشهر
على صدور علا من قبلنا صدروا
أكناف لوبية تجلى ، وذا عمر (١) لا
والكفر يطمس والإيمان مزدهر
في فنة البغي للإسلام ينتصر
له الرواة بما لم ينمه أثر
عون من الله يستغني به الخضر
فلا تقل : كيف هذا الحادث الخطر؟
ملك الفرنج مع الأتراك محنجر
مصقدين بحبل القهر قد أسروا
وحوله كل قسيس له زبر
بفتح عكا التي سدت بها الثغر
فتدعر الروم والصقلاب والخزر
إليك ، بل سفر يعقوب له السفر؟
من باب عكا الى طرطوس تنتشر
مع المجوس حروب قدحها سعر
وبعضهم رومة الكبرى له وطر
جمع تقول له الأجسام : لا وزر
بدأت ، فالصب للمحبوب مدكر (٢)

(١) لوبية : ليس المقصود بها ليبيا المعروفة حالياً والتي يعنيها ياقوت بقوله : انها واقعة بين الاسكندرية وبرقه وانما المقصود بها اسم موضع موجود في فلسطين قرب بحيرة طبرية ، وهذه من المواضع التي لم يوردها ياقوت في معجمه . أو هو الموضع الذي ذكره باسم (لوبيا) وقال انه « اسم موضع أعجمي » ولم يحدد مكانه .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

نلاحظ في هذه الملحمة القدسية أن الشاعر وصف حال الفرنجة السيئة بعد وقوعهم في ذل الأسر ، وقد حاول من خلالها أن يحرضه على تحرير ما بقي من الثغور الإسلامية تحت حكم الفرنجة ، كما نلاحظ من طرف آخر أن الشاعر كان يخطط للبطل خطة المسفيل ، فأمامهم الفتوح الكبرى في بلاد الروم والصقلاّب والخزر ، وعند بعض ابنائه رغبة قوية في الاستيلاء على رومية الكبرى ، وهكذا يبدو لنا الانر الكبير والدور الخطير الذي لعبه الشعر في أحداث العصر الكبرى ، وكان صلاح الدين بالطبع البطل الأسطوري ، صاحب الملاحم القدسية الخالدة في التاريخ الإسلامي ، وقد عبر لنا عن هذا الشاعر نفسه في إحدى قدسياته بقوله :

يا فاتحَ المسجدِ الأقصى عليّ بهم وقانصَ الجيشِ لا يحصى بقفزته
أبشر بملكٍ كظهرِ الشمسِ مطلع على البسيطةِ فتّاحِ بنشرته
حتى يكونَ لهذا الدينِ ملحمة تحكي النبوةَ في أيامِ فترته (١)

يضاف الى ما تقدم ان الشاعر المذكور كان يسير مدحه التي كان يستشيرها بها من دمشق الى أرض المعركة ، نذكر من ذلك مثلاً قصيدته التي سماها التحفة الجوهريّة ، فقد وجهها الى مخيمه بظاهر عكا ، وهو محاصر للفرنج المعتصمين بها ، فعرضت على مسامعه سنة ٥٨٧ هـ ، ومطلعها قوله :

رفاهيةُ الشُّهُمِ اقتحامُ العِظائِمِ طلاباً لعزٍّ أو غلاباً لضائِمِ (٢)

خلد الشاعر فتيان الشاغوري هذا الحدث أيضاً في شعره ، وصور بطولة صلاح الدين أروع تصوير ، ونعته برب الملاحم الخالدة التي لم يؤرخ مثلها العلماء في قديم العصر والازمان في القصيدة التي أنشده إياها في قلعة دمشق ، وقد استهل قدسيته بقوله :

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ج ٢ ص ١٥٧ .

كسرت' على كسرى لعدلك دولة' أهدى صلاح الدين للإسلام إذ رب' الملاحم لم يؤرخ مثلها الـ خلعت' عليه خلة الملك النبي راياته صفراً تردن وتنشي لم' لم' بدن' شوس' (١) الملوك له' وقد واستنفذ الببت' المقدس' عنوة' وأريتهم لما التقى الجمعان بالـ ورددت' دين' الله بعد قطوبه وأعدت' ما أبداه' قبلك فاتحاً حتى جمعت' لعشر' الإسلام بيـ فلصخرة' البيت المقدس' كفؤها الـ فكأنه إنسان' عين' صورة'

قصرت مهابتها تطاول' قيصر أردى قبيل الكفر' ما لم' يكفر علماء' قدماً في قديم الأعصر زادت بهاء' بالطراز' الأخضر حمراً تمج' نجبع' آل الأصفر ملك' السواحل' في ثلاثة أشهر من كل ذي نجس' بكل مطهر بيت' المقدس' هول' يوم' المحشر بالمسجد الأقصى بوجه' مسفر عمرو' ، فانت شريكه في المنجر من الصخرة' العظمى وبين الشعر حجر' المفضل' عند' أفضل' معشر يلقاه' أسوده' بمعنى أنور' (٢)

هكذا أصبح فتح بيت المقدس ملحمة شعرية رائعة ، يتغنى بها الشعراء ، ويمدحون بطلها الأسطوري صلاح الدين ، يحذوهم في ذلك أمل منتظر ، وفد طال ترقبهم له ليروه يتحقق . مضى ابن قسيم الحموي وابن القيسراني وابن منير الطرابلسي وقضوا نجبهم وهم يتغنون بذكره ، وينظرون تحقيق هذا الأمل الكبير .

لا عجب إن رأينا الشعراء اللاحقين الذين شهدوا هذا الحدث الأكبر يمجّدون ويقدسون البطل صاحب النصر المبين ، وهو الذي هيا الله تحقيق هذا الحلم على يديه . لقد أثنوا عليه كل النناء ، وتوقعوا أنه سيكون مالك

(١) شوس : جمع أشوس ، وهو الشديد الجريء في القتال .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٨ ، ١١٩ . وديوان فتیان الشافوي

الأرض كلها ، وأنه القائم المهدي المنتظر الذي سيملا الأرض عدلاً ورحمة بعد أن ملئت ظلماً وجوراً .

أشار إلى هذه المعاني رشيد الدين أحمد بن بدر النابلسي^(١) في قدسيته النبي جاء فيها قوله .

هذا الذي كانت الآمال تنتظر
بمثل ذا الفتح ، لا والله ، ما حكيت
حين به حان هلك المشركين فيا
الآن قمرت جنوب في مضاجعها
يا بهجة القدس إذ أضجى به علم الإ
يا نور مسجده الأقصى ، وقد رفعت
شنان مابين ناقوس يدان به
الله أكبر ، صوت تقشعر له
يا مالكة الأرض مهدها فما أحد
ما خضر هذا الطراز الساحلي ثرى
أضجى بنو الأصفر الأنكاس موعظة
صاروا حديثاً ، وكانوا قبل حادثة
سلبتهم دولة الدنيا وعيشتها
هذا الذي سلب الإفرنج دولتهم
مراكز ما اختطأها الخوف مذممة

فليوف الله أقواماً بما نذروا
في سالف الدهر أخباراً ولا سير
الله طيب العشايا منه والبكر
ونام من لم يزل حلفاً له السهر
سلام من بعد طي ، وهو منتشر
بعد الصليب به الآيات والسور
وبين ذي منطق يصفى له الحجر
شم الذرا ، وتكاد الأرض تنفطر
سواك من قائم للمهد ينتظر
إلا لتعلو به أعلامك الصفر
فيها لأعدائك الآيات والنذر
على الورى يتقيها البدو والحضر
حتى لقد ضجرت من وفدهم سقر
وملكهم يا ملوك الأرض ، فاعتبروا
عاماً ، ولا ريع أهلوها ولا ذعروا^(٢)

أنارت هذه الفتوح الكبرى نائرة الغرب ، فخرج ملك الألمان لنصرة فلول الفرنجة المختبئين في بعض الثغور النائية على الساحل بعد فتح بيت المقدس ، وذلك سنة ٥٨٥ هـ ، وقد أنبرى الشعراء المسلمون من جديد يشحنون

(١) رشيد الدين ، أبو محمد ، عبد الرحمن بن بدر النابلسي (المتوفى سنة ٦١٩ هـ)
وهو أحد الشعراء الجيدين في مدح بني أيوب ، (ابن شاعر : فوات الوفيات ج ١ ص ٢٥٥) .
(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١١٨ ؛

الهمم ، ويستثيرون الناس للجهاد ، ويحرضون صلاح الدين على استئصال شأفتهم نهائياً من بلاد الشام ، نخص بالذكر منهم ابا الفضل الجلياني شاعر الفتوح القدسية ، فقد خاطبه في هذه المناسبة قائلاً :

يا منقلد القدس من ايدي جبابرة
فاكذبوا كذبهم في وصف ربهم
أما رايت ابن أيوب استقل بما
هاج الفرنج ، وقد خاروا لفتكه
لما سبى القدس قالوا : كيف تتركها؟
فكم مليك لهم شق البحار سرى
وكم ترحل منهم فيلق بفلأ
استصرخوا الأهل والعدوى تمزقهم
هم الفراش لهيب الحرب تصرعه
سيفاً أمام فلسطين برى أمماً
كم أعدوا ، وكم قد قل جمعهم
وإنما اسم صلاح الدين يذكر في

قد أقسموا بذراع الرب ندخله
وصدق الوعد مأموناً محوله
يعيي الزمان وأهليه نحمله
فاستنفروا كل مرهوب تغفله
والرب في حفرة منها نمثله
لينصر القبر ، والأقدار تخذله
إلى الخوامع الفاه ترحله
واستكثروا المال ، والهيجا تنفله
وكلما لج صدماً جل مقتله
خلف البحار لقد أمه صيفله
من غير ضرب ولا طعن يزيله
جيش العدو فيسبيهم تخيله (١)

هكذا كانت حال أعداء المسلمين ، وراوا أنهم لا قبل لهم بصلاح الدين ، وفضلوا مراسلته وعقد الهدنة معه بعد الحروب المريعة التي صدعت شملهم وبددت ممالكهم اللاتينية ، وكان ملك الانكلبز صاحب هذه الفكرة ، حتى لقد حاول أن يزوج شقيقته الكبرى من الملك العادل ليعيدوا بذلك ما كانوا يطمعون فيه صلحاً . عقدت الهدنة سنة ٥٨٨ هـ ، وتم الصلح بين الطرفين ، وقد أشار ابن الساعاتي الى ذلك في قصيدة مدح بها صلاح الدين ، وجاء فيها قوله :

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥١ .

منعت: ظبهاه المنحنى بأسوده واشدد ما أشكوه فتك: ظبائه
فعلت: منا، وهي الصديق ، لحاظها كظبا صلاح الدين في أعدائه
لولاك أمّ القدس غير مدافع واسال سبل نداه في بطحائه
وبكت: جفون القدس نانية دما ليرثم الناقوس في أفنايه (١)

تلك هي ملحمة بيت المقدس في سعر هذا العصر، وقد اسطعنا ان نعرضها
من خلال نباشير الشعراء قبل فنحه بعشرات السنين ، تم جليناها من خلال
الفتوح والاحداث الكبرى ، واختتمناها بذكر البسائر والتهاني في العام الاخر .

نخلص مما تقدم معنا من ملاحم قدسية الى القول ان سعر هذا العصر
اسهم كل الاسهام ، وشارك اقصى المشاركة في هذا الكفاح الجبار خلال قرن
من الزمن تقريبا ، حتى ان بعضهم كان بصحب الجيوش الفاتحة ، وبعضهم
الآخر كان بحارب بصدق واخلاص . وهذا يدلنا على ظهور الوعي بين مخلف
الطبقات الاجتماعية ، إذ كانت تعتقد ان الواجب يقتضى الا تتوانى عن بذل
أي شيء في سبيل المعركة الكبرى التي نهم كل انسان ، كانت الحروب قبل
هذا العصر مقتصره على الطبقة المختارة من الجنود الذين كانوا يحاربون سعيا
وراء المغانم . اما في هذا العصر فقد تغيرت الحال ، وكان لرجال الدين اكبر
الاسر في نشر هذا الوعي ، ونسجيع الناس على طرد المحتلين الفاصبين .

ابطال الفتوح

مجد الشعراء في هذا العصر ابطال الحروب ، وخلصوا فوحيهم في
ملاحمهم الشعرية الخالدة ، ولم ينسوا الثناء عليهم وتخلبدهم بعد موتهم في
مرانيهم التي سطرت مناقبهم ، وعددت مآثرهم ، وأشارت من خلال ذلك
الى الفراغ الكبير الذي شغل بفقدهم ، وذلك ختية عودة الفرنجة الى البلاد
المحررة ، ولا سيما انهم يتربصون بالمسلمين الدوائر ، وبنهزون كل فرصة
تسبح لهم على حين غرة .

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٩٤ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢

أما المعاني التي طرقها الشعراء في قصائدهم فكثيرة ، لعل أبرزها هنا وصف شجاعة الأبطال ، وبصويرة شدة بأسهم وفوتهم الخارقة . والاشارة الى رسوخ حكمهم ونسرتهم لواء العدل والامن بين ربوع البلاد التي كانت مغلوبه على أمرها . تم بيان نصرتهم للدين وخذلانهم للشرك والكفر . بضاف الى هذه المعاني بعضها الآخر الذي نعرفه لدى الشعراء من وصف أبطال الفئوح بالوجود والحلم والاناة وغيرها من السمات التقليدية المعروفة قديما وحديثا .

صور ابن منير الطرابلسي بطولة عما دالدين ، فكان في نظره الموت الذي يعنك بأعدائه وببطس بهم . ثم تحدث عن عدله في أقطار الأرض التي تحررت أو التي ستحرر بعد حين على يده . كما في المدحة التي جاء فيها قوله :

قل لعمري غرهم إمهاله	ستذوقون شذاه بعد حين
إنه الموت الذي يدرك من	فر منه فسحا للعاملين
وهو يحيا ممسكا عروته	إنها جبل لمن تاب متين
من يطع بنج ، ومن يمكر يكن	من غداة عبرة للآخرين
بك يا شمس العالي ردت ال	روح في الميتين من دنبا ودين
اقسم الجد بأن تبقى لكى	تملك الأرض بمينا لا يمين
وتفيض العدل في أقطارها	منسبا مؤلم عسف الجارين
لا تزل دارك كيف انتقلت	كعبة محفوفة (١) بالطائفين
كل يوم ينجلي جيدها	من نظيم المدح بالدر الثمين
كلما اخلص فيها دعوة	لك قالت السن الخلق : امين (٢)

تتضح لنا في هذه المدحة بعض الصفات التي كان الشعراء يطلقونها على ممدوحهم . وابن منير في هذه القصيدة لا يجد خيرا من صورة الموت لينعب بها ممدوحه ، ولم يكتف بذلك ، وإنما اضاف إليها صورة أخرى كان تنوخي

(١) في الأصل : محفوظة وصوابها ما ابتدأه .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٤٠ .

من ايرادها إحاطته بهالة من العظمة والجلالة ، وتقابل هذه الصورة هالة أخرى من العبوس والتجهم والترهيب ، وكأنما كان الشاعر يحاول أن يقصر الصورة الاولى على المسلمين ترغيباً واعجاباً ، والصورة الثانية على الفرنجة ترهيباً لهم وبياناً لشدة بطشه وبأسه اذا ما سولت لهم انفسهم الحرب من جديد .

مدح الشاعر نفسه عماد الدين أيضا بفصيحة بانية ، وهو بالرقعة سنة ٥٣٧ هـ ، وجاء فيها قوله :

يا بدر' لا أقبل' ولا محاق'	ولا يرم' مشرقك الإشراق'
إن الرعايا ما سلمت في حمى	للخطب عن طرقتة إطراق'
غرسـت بالعدل لهم خمائلا'	ترتع' في حديقها الأحداق'
يا هضبة الدين التي عاذ بها	فعاد' لا بفت' ولا إرهاق'
لو لم تحطه راجلا' وقافلا'	أصبح لا شام' ولا عراق'
عماد' دين' مذ أقام زيغه	حيا ومات الشرك' والنفاق'
يا محيي العدل الذي في ظله	تسرلت' زينتها الآفاق'
لا سلبت' منك الليالي ما كست'	ولا عرت' جدتك الأخلاق' (١)

خلف نور الدين أباه عماد الدين ، وانم خطته في الفتح لتحرير الأمصار والثغور المحتلة ، وأسهم الشعراء بدورهم في تمجيده وتخليده ، نذكر من ذلك المدحة التي صور فيها ابن القيسراني بطولته عندما سار الى بصرى ، وقد اجتمع الفرنج آنئذ بقضهم وقضيضهم ، وأزمعوا أمرهم على قصد بلاد الاسلام ، ولكنهم ولوا الأدبار مشثنين بين قتيل وجريح وأسير ، وجاء في مدحته خلال المناسبة المذكورة قوله :

وكيف لا نثنى على عيشنا الـ	محمود ، والسلطان محمود'
فليشكر الناس' ظلال المنى	إن رواق العدل' ممدود'
وتيرات' الملك' وهاجة'	وطالع' الدولة مسعود'
وصارم' الإسلام لا يثنى	إلا' وشلو الكفر مقودود'

مناقب لم تك موجودة
مظفر في درعته ضيفم
نال المعالي مالكا حاكما
نرثشف الأفواه أسيافه
وكم له من وقعة يومها
قد حصن حص الحق ، فما جاحد
فكل مصر بك مستفتح
إلا ونور الدين موجود
عليه تاج الملك معبود
فهو سليمان وداود
إن رضاب العز مورود
عند ملوك الترك متهود
في قلبه بأسك مجعود
وكل نغر بك مسدود (١)

هكذا نشهد الشعراء ينعتون ممدوحهم بأفضل النعوت . وكانوا من خلال ذلك يصفون الفرنجة ، وبشيدون بالفتوح المختلفة التي كانت تنوالى على المسلمين كما في المدحة التي أنشدها ابن منير الطرابلسي سنة ٥٤٧ هـ ، وجاء فيها قوله :

لقد أوطأت دين الله عزاً
فقمت بنصره ، والناس فوضى
وملت على معاقلهم فخرت
بصر خد الحطيم (٢) وفي عزاز
ولو لم تعترف وتشم أمسى
صبت على الصليب صليب بأس
ويوم بالعريمة كان حتفاً
وهاب وقورس وبكفر لاثا
بقاؤك خير ما يرجوه راج
أديم الشعريين له رغام
قاماً ذم ما اقترفت فقام (٣)
ولاء مثلما انتقض النظام
وقائع هز مشهدها الأنام
وأصبح لا عراق ولا شام
قواه تحت كللكه حطام
على الإشرار أمقره العرام
ذممت وانت للجلى ذمام
وأفنع ما يبل به أوام (٤)

(١) أبو شامة : الروضين ، ج ١ ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) الفحام : الجماعة من الناس ، لا واحد له من لفظه .

(٣) الحطيم : هي حطين ، لم يذكرها يادوب واكنى بذكر الحطيم المعروف بمكة ، وقد أوردها ابن ترداد في الأعلام الخطيرة : « حطين : ويقال حطيم قرية بها قبر شعيب وقبر زوجته ، على ما قيل » ج ١ ص ٢٨٢ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٨ .

تؤكد هذه المدحة مع ما سبقها أن الصراع الديني الذي أشرنا إليه آنفاً كان على أشده في الحروب المريرة التي شهدتها هذا العصر ، وكانت مدح الكفاح صورة حقيقته عن الأحداث الكبرى التي طبعت الشعر بطابعها المميز ، فقد كان الكفاح والقتال غرة على الدين الحنيف بعد أن هبض جناحه ، فارفع لواؤه وشد أزر التربة الإسلامية . عبر عن هذه المعاني عرفلة في السبحة التي مدح بها مجير الدين صاحب دمتق بقوله :

مَنْ قَاتَلَ الْإِفْرَنْجَ دَبْنًا غُبْرَةً وَالْخَيْلُ مِثْلُ السَّيْلِ عِنْدَ الْمَشْهَدِ
رَدَّ الْأَمَانَ بِكُلِّ نَدْبٍ بِأَسْلٍ وَمِنَ الْجِيَادِ بِكُلِّ نَهْدٍ أَجْرَدِ
وَمِنَ السُّبُوفِ بِكُلِّ عَضْبٍ أَبْيَضٍ وَمِنَ الْعِجَاجِ بِكُلِّ نَقْعٍ أَسْوَدِ
حَتَّى لَوَى الْإِسْلَامَ نَحْتًا لَوَائِهِ وَغَدَا بِحَمْدٍ مِنْ شَرْبَعَةِ أَحْمَدِ (١)

كان الناس ينسرون بفراغ كبير خطر عندما بطرق أسماعهم فجاء مصرع أحد الأبطال المجاهدين ! وفجعه نبا موت أحدهم ، ذلك أنهم كانوا يخشون غره العدو الذي يربص بهم الدوائر . وقد عبر السعراء في مراتب الأبطال عما يساور نفوسهم من وجل على مستقبل البلاد ، فيكونهم أحر البكاء ، ويندبونهم بحرقة ذاكرين مآثرهم ومناقبهم وما خلفوه من طيب الأحداث وجميل الذكر .

لا بأس علينا إن وقفنا مع الشعر في هذا العصر نشهده وهو يتفجع على الأبطال الثلاثة الخالدين عماد الدين وابنه نور الدين ومن بعدهما صلاح الدين . أما عماد الدين فقد أشرنا إلى مقنله على حين غرة بد برتقش أحد غلمانة الفرنجة ، ورثاه السعراء نخص بالذكر منهم العماد الكاتب الذي رثاه بتصيدة جاء فيها قوله :

كَذَاكَ عِمَادُ الدِّينِ زُنْكَى تَنَافَرَتْ سَعَادَتُهُ عَنْهُ ، وَخَرَّتْ دَعَائِمُهُ
وَكَمْ مَعْقَلٍ قَدْ رَامَهُ بِسُيُوفِهِ وَشَامِخٍ حَصَنَ لَمْ تَفْتَهُ غَنَائِمُهُ

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٤ .

وكانت ولاية الأرض فيها لأمره
وأمن من في كل قطر لهيبة
وظالم قوم حين بذكر عدله
وأصبح سلطان البلاد بسيفه
وزاد على الأملاك بأساً وسطوة
فلما تناهى ملكه وجلاله
أتاه قضاء لا ترد سهامه
وأضحى على ظهر الفراش مجدلاً
وقد كان في الجيش اللثام^(١) مبيتة
وسمر العوالي حوله بأكفهم
وكم رام في الأيام راحة سره
وكم ملك للسفر آمن سبله
وكم ثغر إسلام حواء بسيفه
فمن ذا الذي يأتي بهيبة مثله
فلو رقيت في كل مصر بذكره

وقد أمنتهم كتبته وخواتمه
براع بها أعرابه وأعاجمه
فقد زال عنهم ظلمه وخصائمه
ولبس له فيها نظير يزاحمه
ولم يبق في الأملاك ملك تقاومه
وراعت ولاية الأرض منه لوائمه
فلم تنجئه أمواله ومغانمه
صريعاً تولى ذبحه فيه خادمه
ومن حوله ابطاله وصوارمه
نذود الردى عنه ، وقد نام نائمه
وهمته تعلو وتقوى شكائمه
ومسرح حي لن تراع سوائمه
من الروم لما أدركته مراحمه
وينفذ في أقصى البلاد مراسمه
أراقمه ذلت هناك أراقمه^(٢)

نلاحظ في هذه المثنوية أن العماد طرق فيها معاني المدح نفسها ، وطبيعي
جداً هذا التسابه ، اذ « لبس بين المثنوية والمدحة فصل ، الا ان بذكر في اللفظ
ما يدل على أنه لهالك » (٣) .

مضى نور الدين الى ربه أيضاً بعد الفتوح الكبرى التي حققها خلال
حياته ، وكانت الابصار قد علقّت به أملها في اليوم الموعود الذي ينحدر فيه
بيت المقدس .

(١) اللثام : الجيش الكثير الذي يلثم كل شيء ويعتمر من دخل فيه أي يغيبه
ويستغرقه ، ويقال أيضاً : جيش لثام .
(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١٠ ص ٤٥ ، ٤٦ .
(٣) قدامة : نقد الشعر ، ص ٩٨ .

كان موته فاجعة كبرى أصابت الناس جميعاً ، فلأ غرابة أن رأينا العماد يرثيه أكثر من مره ، ويحسن بنا الوقوف عند احدى مرائيه ، وقد ذكر في مستهلها أنه سئل نظمها بعد عودته الى دمتق من الموصل ، وبعني هذا بصريح العبارة أن الناس يلهجون بذكره ، ويأسفون على أيامه ، ولا سيما بعد أن طمع الفرنجة بالبلاد من جديد لما رأوا اختلاف الامراء في عهد الملك الصالح اسماعيل فبل أن يلي صلاح الدين أمور البلاد . أما المرنية فجاء فيها قوله :

والدهرُ في غمٍ لفقد أميره
فليندب الإسلامُ حامِيَ أهله
إذ كان هذا الخطبُ في مقدوره
ما أعظم المقدارَ في أخطاره
قرت نواظرهم لفقد نظيره
ما أكثر المتأسفين لفقد من
أو ما كفاه الموتُ في تذكيره
ما أغوص الإنسانُ في نسيانه
لله طوعاً عن خلوص ضميره
فلقد أصيبَ بركنِيه وظهيره
من للهدى يغني فكاك أسيره
من ينصرُ الاسلام في غزوانه ؟
من للزمان مسهلاً لوعوره ؟
من للفرنج ومن لاسر ملوكها ؟
من للخطوبُ مذلللاً لجماحيها ؟
من لليتيم ومن لجبر كسيره ؟
من للكريم ومن لنعش عثاره ؟
ووفوده ، من للحجا ووفوره ؟
من للعلا وعهودها ، من للندي
يخبو وليلُ الشرك في ديجوره
ما كنتُ أحسب نورَ دين محمد
يخلو الشرى من زوره وزئيره
عن محفل متشرف بحضوره
أعزز علي بليث غاب للهدى
مذ غيبتُ غاض الندي ببجوره
ولقد أتى من كنت تؤمن سربه
وقع له بالأمن من محلدوره
ولقد أتى من كنت تؤثر قربه
فأدم له التفريب في تقريره
والجيشُ قد ركب الغداة لعرضه
فاركب لتبصره أوان عبوره
أنت الذي أحييت شرع محمد
وقضيت بعد وفاته بنشوره
كم قد أقمت من الشريعة معلماً
هو منذ غبت معروض لدثوره

ثم قد أمرت بحفر خندقٍ معقلٍ
 كم قبصرٍ للروم رمت بقصره
 أوتبت فنح حصونه وملكت عقه
 ازهدت في دار الفناء وأهلها
 أوما وعدت القدس أنك منجز
 فمتى تجير القدس من دنس العدا
 يا حاملين سريره مهلاً فمن
 يا عابرين بنعشيه أنشقتهم
 نزلت ملائكة السماء لدفنه
 ومن الجفاء له مقامي بعده
 حيالك معتل الصبا بنسيمه
 ولبست رضوان المهيمن صاحباً
 وسكنت علبين في فردوسيه

حتى سكنت اللحد في محفوره
 إرواء بيض الهند من ناموره (١)
 سر بلاده وسبيت أهل قصوره
 ورغبت في الخلد المقيم وحوره؟؟
 ميعاده في فنحه وظهوره؟
 وتقّدت الرحمن في تطهيره؟
 عجب نهوضكم بحمل بُيره! (٢)
 من صالح الأعمال نشر عبيره؟
 مستجمعين على شفير حفيره
 هلاً وفيت وسرت عند مسيره؟
 وسقاك منهل الحبا بدروره
 أذبال سندس خزّه وحريره
 حلف المسترّة ظافراً بأجوره (٣)

لا حظنا في هذه المرية أن العماد صورّ أروع تصوير الفراغ الكبير الذي أحدثه موت نور الدين ، وأشار من ثم إلى الخطر الكبير الذي يتهدد البلاد ويصيب العباد ، وذكر بيت المقدس وكان يرقب فتحه على يديه ، ولكنه مضى إلى بارئه راضياً مرضياً ، فأسي الشاعر عليه ، وخاطب حملة سريره ونعشه ، وطلب اليهم أن يتحملوا قليلاً ليودع مولاه وداعه الأخير .

خلف صلاح الدين المليك الراحل نور الدين ، وأتقد البلاد من الفوضى التي حلت بها والاختطار النى ألت بها في عهد حكم ابنه الملك الصالح إسماعيل ، ووحدتها من جديد ، وحقق للمسلمين حلمهم المنشود وأملهم المرتقب منذ

(١) تامل : أي تأموره بالهمز ، وهو القلب نفسه أو دمه أو حياته ، وقيل النفس ، وقد ذكر صاحب اللسان أن هذه الكلمة سريانية الأصل .

(٢) بُير : جبل معروف عند مكة ، وهناك أربعة آبرة : بُير غيناء ، وبُير الأعرج ، وبُير الأحصب ، وبُير حراء .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

نيف وتسعين عاماً ، بيد أنه قضى نحبه بعد ستة أعوام من عام الفتح الاغر ،
فندبه العماد الكاتب ، وبكاه أحر البكاء في مرتبته التي بلغ عدد ابيانها مائتين
واثنين وثلاثين بتاً ، وجاء فيها قوله :

شمل الهدى والملك عم شتاته
أين الذي مذ لم بزل مختية
أين الذي كانت له طاعاتنا
بالله ، أين الناصر الملك الذي
أين الذي ما زال سلطاناً لنا
أين الذي شرف الزمان بفضله
أين الذي عنت الفرنج لبأسه
من في الجهاد صفاحه ما أغمدت
من في صدور الكفر صدر قناته
لذ المتاعب في الجهاد ولم تكن
في نصره الاسلام يسهر دائماً
لا تحسبوه مات شخص واحد
ملك عن الاسلام كان محامياً
الدين بعد أبى المظفر يوسف
جبل تضعع من تضعع ركنه
ما كنت أعلم أن طوداً شامخاً
ما كنت أعلم أن بحراً طامباً
من لليتامى والارامل راحم
لو كان في عصر النبي لأنزلت
لضريحه سقيا السحاب فان نغب
وكعادة البيت المقدس يحزن الـ
من للثغور وقد عداها حفظه

والدهر ساء وأقلعت حسناته
مرجوة رهباته وهباته ؟
مبدولة ولربته طاعاته ؟
لله خالصة صفت نبائه ؟
يرجى نداءه ، وتبقى سطواته ؟
وسمت على الفضلاء تتريفاته ؟
ذلاً ، ومنها أدركت ثرائه ؟
بالنصر حتى أغمدت صفحاته
حتى توارت بالصياح قناته
مذ عاش قط لذاته لذاته
ليطول في روض الجنان سناته
فمماز كل العالمين مماته
أبداً إذا ما أسلمته حماته
أنوت قواه ، وأقفرت ساحاته
أركاننا وتهلنا هدايته
بهوي ولا تهوي بنا مهواته
فيما يطم وتنتهي زخراته
متعطف مفضوحة صدقائه ؟
في ذكره من ذكره آياته
تحضر لرحمة ربّه سقياته
بيت الحرام عليه بل عرفاته
من للجهاد ولم تعد عاداته ؟؟

بكتِ الصوارمُ والصواهل إذ خلتِ
وبسيفه صداً بحزنٍ مصابه
يا وحشنا للبيض في اغمادها
يا وحشة الإسلام يوم تمكثُ
ياحسرتنا من يأسر راحه الذي
مألتُ مهابتُهُ البلادَ فإنته
ما كان أسرعَ عصره لما انقضى
لم أنس يوم السبتِ وهو لما به
والبترُ منه تلبجتْ أنواره
ويقول: لله المهيمن حكمة
وقفَ الملوكُ على انتظارِ ركوبه
كانوا وقوفاً أمس تحتَ ركابه
والقدسُ طامحةٌ إليك عيونه
والغربُ منتظرُ طلوعك نحوه
والشرقُ يرجو غربَ عزمك ماضياً
كم جاءه التوفيقُ في وقعاته
يا راعياً للدين حين تمكثُ
أرضيتَ تحتَ الأرضِ يا من لم يزل
فارقنتَ ملكاً غير باقٍ متمبهاً
أعزّزْ على عيني برؤيةٍ بهجةٍ الد

من سبلها وركوبها غزواته (١)
إذ ليس بثفى بعده صديانه
لا تنتضيها للوغى عزماته
في كل قلبٍ مؤمنٍ روعانه
يقضي الزمانُ وما انفضتْ حراته
أسدٌ وإن ببلاده غابانه
فكأنما سنواته ساعاته
ييدي السبات ، وقد بدت فثيانه
والوجهُ منه تالأتْ سُبْحانه
في مرضةٍ حصلت بها مرضانه
لهم ، ففيم تأخرتْ ركباته ؟
واليوم هم حولَ السريرِ مُتَساتِه
عجلٌ . فقد طمعت له عبراته
حتى تفيء إلى همداك بغائه
في ملكه حتى تطيعَ عصاته
من كان بالتوفيقِ توقيعائه (٢)
منه الذئابُ ، وأسلمنه رعائه
فوق السماءِ عليه درجائه ؟
ووصلتْ ملكاً باقياً راحانه
نيا ، ووجهك لا ترى بهجائه (٣)

(١) الصواهل : مفردا الصاهل والصاهلة ، وهي الخل ، وقد استق هذا اللفظ من الصهل ، وهو حدة الصوت مع بحج .
(٢) وجد بخط العماد في حاشيه ديوانه أن علامة بوميع صلاح الدين « الحمد لله وبه توفيقه » وهذا الذي قصده في البيت المذكور .
(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٢١٥ ، ٢١٦ ، ١٠

وكانت المروية العمادية خاتمة الملاحم الناصرية الخالدة ، ولعلنا استطعنا من خلالها أن ندرك هذا الفراغ الكبير الذي شغل بموت صلاح الدين ، كما نلاحظ أن العماد أدرك بثاقب بصره عظم المصيبة التي حلت بالمسلمين بعد وفاته ، وأشفق على مصير بيت المقدس ، وأسى لحاله ، وصوره وفند طمحت إليه عيونه كأنه كان يخشى المستقبل المجهول الذي ينتظره .

لم تكن المروية في الحقيقة بكاء صلاح الدين ، وإنما كانت صورة واقعية عن الأحداث الكبرى في هذا العصر ، وهكذا نجد المراثي والمدح الحربيين تخرج عن نطاقها التقليدي إلى نطاق جديد ، فأصبحت تنبض بالعاطفة الصادقة والتسور الفياض ، وتعبر عن المشاعر العامة ، وتصور الكفاح والجهاد ضد الفرنجة خير تصوير .

نتهى مما تقدم معنا للقول إن تمجيد الأبطال في المدح الحربية وتخليدهم بعد موتهم كانا صورة واضحة عن أحداث العصر الكبرى ، وكانا جذوة أوقدت الحماس والشجاعة في صدور الناس ، ففدا الجهاد والكفاح والدفاع عن حياض الوطن التل الأعلى لكل امرئ في هذا العصر الذي نؤرخه .

وصف الفرنجة

أفلح الشعراء في وصف الفرنجة وتصوير حالهم من خلال ملاحظتهم الشعرية الخالدة التي سجلت أحداث العصر الكبرى بكل أمانة ودقة ، واستطاعوا بمهارة فائقة أن يعرضوا لنا مختلف صور حياتهم الدينية والاجتماعية والسياسية والحربية ، فتحدثوا عن خداعهم ونكثهم بالعهود والوعود ، ووصفوا هزائمهم المتوالية خلال قرن من الزمان تقريباً ، وعرضوا لنا صوراً مفصلة عن سباياهم وأساراهم وقتلاهم ، وقد لاحظنا من خلال ذلك وصف كثير من عاداتهم وتقاليدهم ، وتحدثوا عن مذاهبهم الدينية

وعقائدهم المتخلفة ، وقارنوها بالعقائد الإسلامية . يضاف الى ما تقدم وصف سقوط المدن المحتلة بين ايدي المسلمين . وقد رأينا الأثر الكبير الذي أحدثه الشعراء في نفوس الأبطال عندما كانوا يستيرونهم ويحرضونهم لبتقذوا الثغور المحتلة، إذ كانت تتردد على سنتهم، فيصورونها ويشخصونها بشكل رائع ، ويودون لو تتحرر في يوم قريب .

مدح ابن القيسراني نور الدين عند قدومه إلى سنجار ، وجاء في مدحته قوله :

وَعَدَتْ جِيادُكَ بِالشَّامِ مَقِيمَةً	ولها بأطراف الدروب مغار
هَمِمٌ سَبَقَتْ بِهَا إِلَى مَهْجِ الْعِدَا	صرف الردى ومسيرة إحضار
وَأَرَى صِيَاحَ الْقَمَصِ كَانَ خَدِيعَةً	فطفى وجارٍ وليس تمَّ وجار
خَانَ الصَّنِيعَةَ غَيْرَ مُحَقَّقٍ بِهَا	والخير يهدم ما بنى الختار
ذُئِبَ إِذَا مَا غَبْتَ أَقْدَمَ عَابِثًا	إقدام من لم يدين منه قرار
أَمْضَى السَّلَاحَ عَلَى عَدُوِّكَ بِغِيهِ	بالقدر يطعن في الوغى الفدار
فَاحْشَمُ عَنَادِ ذَوِي الْعَنَادِ بِجَحْفَلٍ	كالليل فيه من الصفيح نهار
جُنْدٌ عَلَى جُنْدٍ أَمَامَ صُدُورِهَا	صدر عليه من اليقين صدار
قَدْ بَايَعَ الْإِخْلَاصَ بِنِعَةِ نَصْرَةٍ	ولكل هادي أمة أنصار
مَلِكٌ لَهُ مِنْ عَدْلِهِ وَوَفَائِهِ	جيش به تُستفتح الأمصار
وَإِذَا انْتَضَتْهُ إِلَى الثُّغُورِ عَزِيمَةً	قامت مقام جنوده الأخبار (١)

نلاحظ في هذه القصيدة أن الشاعر يتحدث عن وصف عُذر القمص وخداعه وخيائنه ، وقارنها بما عرف عن نور الدين من وفاء ونبل وعدل .

ونلاحظ أيضا في القصيدة التي انتدها ابن منير الطرابلسي سنة ٧٤٥ هـ يمدح بها نور الدين في حلب وصف بعض ملوك الفرنجة والإشارة إلى ما وقع لهم معه ، وجاء فيها قوله :

صبحوا محلقة البرنس بحالق
ما زال يغلب من بقاء ضلاله
ملقى بوحن الأرمين تزيلت
دون الأرنت سحت به نجداته
واته تحلب جوسلين جنائب
أسرته لا منعت سراه وغره
لا تل بأشره ولا كيسونه
ضمنت شقاوته سعادة صافح
ما زال بفدر نم يفدر قادراً
حرس الضباب من القلوب ضبابه
حتى اتبح من الهدى غلابه
آراؤه وتزايست الأبنه
ونجاده وقرباه وقرباه
هبت فقل إلى القتال هبابه
بالقاع إن رام الورود سرابه
سدت منى عنه ولا عتابه
غطى على إغنايه إعتابه
حتى آتاه بجامح أصحابه (١)

تحدث الشاعر عن قتل الإبرنس صاحب انطاكية سنة ٥٤٤ هـ ، وعن
دون الأرنت (آرنولد) ، ثم وقف عند جوسلين صاحب نل باشر ، فذكر غدره
وشقاوته ووقوعه أخيراً في الأسر ، وقد ذكر المؤرخون أن نور الدين أمر أن
يحمل إلى حلب ، وأمر بنكحيل عينيه وإهلاكه عقاباً له بسبب غدره بالمسلمين
ونكثه العهد .

وصف السعراء أيضاً هزائم الفرنجة المنكرة ، وتفننوا في وصف قتلاهم
الصرعى ، وفتنوا بسباياهم الحسان ، وأساراهم وهم يساقون في سلاسل الذل
والهوان ، وقد أشار ابن الفيراني إلى بعض هذه المعاني في القصيدة التي
مدح بها تاج الملوك بوري ملك دمشق ، وقد أنسده إياها بعد كسرة الفرنج
على دمشق في أواخر سنة ٥٢٣ هـ ، وجاء فيها قوله :

الحق مبتهج ، والسيف مبتسم
اتبعت جن سراياهم مضمرة
وادبر الملك الطاغى يزعه
وافوا دمشق فظنوا أنها جدة
ومال أعداء مجير الدين مقتسم
فيها نجوم ، إذا جد الوغى رجموا
حر الأسنة ، وهو البارد الشيم
ففارقوهم ، وفي أيديهم العدم

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٨٧ ، ٨٨ .

وأيقنوا مع ضياء الصبح أنهم إن لم يزولوا سراعاً زالت الخيم
فغادروا أكثر الفربان وانجفلوا وخلفوا أكبر الصلبان وانهمزوا
مستسلمين لا يدي المسلمين وقد أغرى القنا بتمادي خطفهم نهم
وحاولوا المسجد الأدنى فما عبرت عن مسجد القدم الأقصى لهم قدم^(١)

صورة دقيقة عن تطويق الفرنجة مدينة دمشق وقد وصفهم الساعر حين
ولوا الأدبار ، وخلصوا وراءهم صليبهم الأكبر لا يلون على شيء . مثل هذه
الصورة كثيرة في أدب هذا العصر ، ولعل أجملها هذه الاوصاف التي طالعنا
في قصيدة ابن رواحة الحموي التي مدح بها صلاح الدين بعد وصول أساطيل
نصري دمياط والإسكندرية نحمل سى الفرنجة سنة ٥٧٢ هـ في عيد النحر ،
وقد أربت على الالف عدة من وصل في فيد الإسماعيل وعرض فيها بما حباه
الملك الناصر من العبيد والاماء ، وجاء فيها قوله :

لقد خبر التجارب منه حزم وقتب دهره ظهراً لبطن
فكف الكفر أن يطفى بمكر يحتر كل ذي فكر وذهن
فساق إلى الفرنج الخيل براً وأدركهم على بحر بسفن
لقد جلب الجواري بالجواري يمدن بكل قد مرجح^(٢)
زهت إسكندرية يوم سيقوا ودمياط إلى المينا بغن
يرون خياله كالطيف يسري فلو هجموا أتاها بعد وهن
أبادهم تخوفه فأمسى مناهم لو تبیتهم بأمن
تملك حولهم سرقاً وغريباً فصاروا لاقتناص تحت رهن
أقام بال أيوب رباطاً رأت منه الفرنج مضيق سجن^(٣)

لم يقتصر الشعر على ذكر خداع الفرنجة ، ووصف هزائمهم المنكرة
وسباياهم المشتة وأسراهم الذين يرسفون في أغلال العبودية ، وإنما تجاوز

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) مرجح : مشتة من أرجح أي مال واهتز .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٠ والعماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٤٩١-٤٩٦ .

ذلك الى وصف كثير من عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ، وقد اشار ابن رواحة في القصيدة التي اتينا على ذكرها آنفا الى طائفة من الفرنجة ، هي الدواية(١) ، وكان اتباعها من عتاة الصليبيين المحاربين الذين زهدوا في الحياة الدنيا ، وترهبوا في معابدهم ، وأعرضوا عن مقاربة النساء ، وقصروا حياتهم على العبادة والحرب ، ولذلك كانوا يدعون فرسان المعبد ، اما هذه الاشارة في شعر ابن رواحة اليهم فجاءت في قوله :

ارى دوايئة الكفار خافت به داءٌ يضعفُ كلَّ متن
ابوا نسلا مخافة نسل بنت تفارق دينهم او قنلة ابن
فقد عقموا به من غير عقم كما جنبوا به من غير جنب
ومن افناهم عدما حقيق بحمد مثلما وجدوا ويفني(٢)

وورد ذكرهم ايضا في شعر ابي الفضل الجلياني خلال إحدى قدسياته :

ووقعة يوم التلّ إذا قبضت به جابرة الإفرنج حيرى وشرّدا
ترى المنسر الديويّ يلقي سلاحه وينساق ما بين السبايا ملهّدا(٣)

ثمة طائفة ثانية هي الاستبارية(٤) وقد ورد ذكرها في شعر هذا العصر ايضا ، فمن ذلك قول العماد الكاتب :

فسر واقتح القدس واسفك به دماء ، متى تجرّها ينظف
واهّد الى الإستبار البتار وهّد السقوف على الاسقف
وخلص من الكفر تلك البلاد يخلصك ربك في الموقف(٥)

(١) الدواية : طائفة من الفرنجة ، يدعى اتباعها بفرسان المعبد (Templars)

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٤٩٥ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١١٧ ، ١١٨ . ملهّد : دليل مستضعف .

(٤) الاستبارية : طائفة ثانية من الفرنجة المحاربين اسمها مشتق من اللفظة الفرنسية (Hospitaliers) ، وهي في اللغة الانكليزية (Hospitalors)

(٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٦٦ .

رأى صلاح الدين أن المصلحة تقتضى تطهير البلاد من هاتين الطائفتين المتعصبتين اللتين غدرتا بالمسلمين ، فأمر بعد تحرير بيت المقدس باحضار كل داوي وإستباري يعثر عليه ليمضي فيه حكم السياف ، وجعل لكل من أتاه بأسير خمسين ديناراً . وما ضرب عنق احدهم حتى عرض عليه الإسلام فامتنعوا الا بعض الافراد الذين اسلموا وحسن إسلامهم (١) .

أشار الحكيم أبو الفضل الجلياني إلى هاتين الطائفتين معا في المدحة الفتحية الناصرية بقوله :

مالي أرى ملكَ الإفرنجِ في قفصٍ أين القواضبُ والعسالة السُمرُ ؟
والإستبارُ إلى الدوايئة التأموا كأنهم سدُ ياجوجِ إذا اشتجروا
والنفسُ مولعةٌ عجبا بسيرتها وفي المفادير ما تسلي به السيرُ (٢)

تحدث الشعراء عن عقائد الفرنجة ، وقد اشرنا من خلال ذكر الكفاح الديني الى بعض هذه العقائد ، وقارنوها بالعقائد الاسلامية ، فتحدثوا عن الايمان والشرك ، وعن التوحيد والتثليث . جاء في المدحة التقوية قول العماد الكاتب :

رَدَدْتُ كِرَاديسَ الفرنجِ وكلّهمْ لدى الأسرِ في غلّ الصغارِ مكردسْ
وبيّضْتُ وجهَ الدينِ يومَ لقيتهمْ وأبيضكمْ من أسودِ القصرِ أشوسْ
أفاد دم الأنجاس طهر سيوفكم وما يستفاد الطهر لولا التنجسْ
شموسْ ظبا تغدو لها الهامُ سجداً فله نصرانيةٌ تنمجسْ
ولا يفتح البيت المقدسَ غيركمْ وبيتكمْ من كل عاب مقدسْ
لهم كل يومٍ في جهادٍ مثلثْ إذا نصروا التوحيدَ فيءٌ مخمسْ

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٢) أبو شامة : الروضين ، ج ٢ ص ١١٥ .

إذا ما تقي الدين صال تساقطت لأقدامه من عصبة الشرك أرؤس (١)

وجاء في القصيدة النى مدح بها فنيان الشاغوري صلاح الدين قوله :

لما ملكت حصون انطاكية بنس الصليب وحزبه من مظهر
أرديت كل مثاثر متكبر بموحّد متواضع ومكبر (٢)

وجاء أيضا في القصيدة التي مدح بها ابن منبر الطرابلسي نور الدين قوله :

غضبان أقسم لا يشيم حسامه والأرض تحمل في الكفور كفورا
غسل العواصم أمس من أدرانهم واليوم ردّ به السواحل بُورا
أخلى ديارَ الشرك من أوانها حتى غدا تالونهنّ نكيرا (٣)

عرض الشعراء أيضا بعض العقائد النصرانية من خلال وصف الأحداث

الكبرى ، ففي القصيدة التي مدح بها أبو الفضل الجلياني صلاح الدين قوله :

يا منقذَ القدس من أيدي جبابرة قد أقسموا بذراع الربّ ندخله
فأكذبوا كذبهم في وصف ربهم وصدق الوعد مأمونا محوله
هاج الفرنج ، وقد خاروا لفتكتيه فاستنفروا كل مرهوب تغلغله
لما سبى القدس قالوا : كيف تتركها والرب في حفرة منها تمثله
فكم مليك لهم شقّ البحار سرى لينصر القبر ، والأقدار تخذله (٤)

يقابل ذكر هذه القصائد وصف الأديرة والصلبان والأنجيل والبيع وغيرها

من الصور التي أتينا على ذكرها مفصلة في بحث الكعاح الديني .



لم يكتف الشعراء بما أتينا على ذكره ، وإنما كانوا من خلال وصف
الفرنجة يحاولون أن يصفوا لنا الشغور الإسلامية ، وهي تنفض عنها آثار
الاحتلال ، فيشخصون المدن المحتلة الأخرى ، وهي تشملل كأنها تنتظر يومها
الموعد الذي نعود فبه الى المسلمين .

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣٢ ، والديوان ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥١ .

مدح ابن منير الطرابلسي نور الدين بعد استيلائه على حصن أفامية؛ وهو على بعد مائة مرحلة من حماة ، وجاء في مدحنه قوله :

في كل يومٍ من فنوجك سورة
أدركت ثأرك في البفاة وكنت يا
حنى إذا استملك أشرق سورها
خرّ الصليب ، وقد علت نعماتها
لما وعاه سمع أنطاكية
فاليوم أضحت تسندم مجيرها
علمت بأن ستذوق جرعة أختها
ماض إذا قرع الركاب لبلدة
للدن يحمل سفره أسفارها
مختار أمة أحمد مختارها
عزا ، وحلائها سنالك سوارها
واستولت صلوانه تكرارها
سرت الوقار ، وكثفت أسارها
من جوره ، وعدت تدم جوارها
إن زرّ أطواق الباء وزارها
القت له قبل القراع إزارها (١)

تلك هي صور عابرة اقتطعناها من الأحداث الكبرى عن الفرنجة في هذا العصر نورخه ، وقد استطعنا من خلالها أن نصف أحوالهم ، ونعرض غدرهم وخداعهم وهزائمهم وأسارهم وسبابهم ، كما وضحنا بعض تقاليدهم وعاداتهم . . . وختمنا حديثنا بالإشارة إلى وصف سقوط المدن المحتلة بيد المسلمين .

نتهي من ذلك كله لنؤكد من جديد أن الشعر في هذا العصر خرج عن نطاقه التقليدي ، وادى واجبه كاملاً في حومة الصراع المرير ، وكان ذا أثر كبير في تهبئة النفوس ، ونحريضها على الجهاد ، واسنارتها لتحرير بيت المقدس .

ولا يغربن عن أذهاننا أن الأبطال المسلمين كانوا يتأثرون بما يقوله الشعراء على السنة الناس ، وكانوا يتسابقون لإحراز مكرمة فتح بيت المقدس ، إذ إنه سيكون صفحة خالدة لهم في سجل التاريخ ، وستصبح ماثرة تخلدهم عبر السنين .



يبقى علينا أن ننوه أخيراً بأناشيد الجهاد التي ظهرت في هذا العصر ، وهذه ظاهرة جديدة في الشعر العربي ، نجد بنا الوقوف عندها ، فقد ذكر العماد الكاتب أن نور الدين سأله أن يعمل له دوبتات (رباعيات) في معنى الجهاد ، وطلب منه أن ينظمها على لسانه ، وهذا أمر له أهميته في نظرنا ، إذ إننا نعتقد أنه كان يهدف من ذلك إلى إثارة الناس واستنفارهم ليجاهدوا في سبيل الله ، فإذا ما كان نشيد الجهاد على لسان البطل نفسه ، فإنه سيكون حتما أوقع في النفس وأقرب إلى القلب أمام الناس وعلى مسمع من الجنود المحاربين ، وسوف ندرس أناشيد الجهاد الرباعية في معرض حديثنا عن الفنون الشعرية المسنحثة في فصل مقبل .

ملاحم سلاطين الماليك

تجاوز ملوك الزنكيين والأيوبيين لنسجل لسلاطين الماليك تطهير ما تبقى من الثغور الساحلية تحت حكم الفرنجة ، فقد صور شعراؤهم أيضاً هذا الصراع الديني المربر : وسجلوا لهم الفضل في تطهير الساحل ونفوره نهائياً من بقاياهم .

الشعر والحروب الصليبية

مدح الشهاب محمود المنصور قلاوون حين خرج من مصر ، وافتتح طرابلس الشام ، وأمر بتخريب حصنها . ومما قاله :

علينا لمن أولئك نعمته الشكر لأنك للإسلام - ياسيفه - ذكر
ومنا لك الإخلاص في صالح الدعا إلى من له في أمر نصرتك الأمر
ولله في إعلاء ملكك في الوري مراد وفي التأييد يوم الوغى سر
الا هكذا ياوارث الملك فليكن جهاد العلاما توالى به الدهر
نهضت إلى عليا طرابلس التي أقل عنهاها أن خندقها البحر (١)

ذكر ابن تغري بردي أن القصيدة طويلة كلها على هذا المنوال ، وأشار إلى أن الشعراء عملوا في الفتح عدة قصائد ، إذ إن أخباره كتبت فيها البشائر والتهاني ، وزينت المدن وعملت القلاع في الشوارع (٢) .

افتتح السلطان قلاوون قلعة المرقب الحصينة في العام نفسه ، وعملت الشعراء في ذلك أيضاً عدة قصائد ، نخص بالذكر منها قصيدة الشهاب محمود ، أشار إليها ابن تغري بردي ، وأننى عليها ، وجاء فيها قوله :

الله أكبر ، هذا النصر والظفر هذا هو الفتح لا ما تزعم السير
هذا الذي كانت الآمال إن طمحت إلى الكواكب نرجوه وتنتظر
فانهض ، وسر ، واملك الدنيا فقد نحت شوفا منابرهما وارتاحت السور

(١) ابن تغري بردي : النجوم الراهرة ، ج ٧ ص ٣٢٣ ، ٣٢٤٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٧ ص ٣٢٢ .

وكيف تمنحه الأيام مملكة
وكيف يسمو إليها من تأخر عن
غرا العدا منك حلم تحت هيم
لها، وإن أشبهت لطف النسيم نرى
أوردتها المرقب العالي (١) وليس سوى
كانته ، وكان الجو بكنفه
يختال كالغادة العذراء قد نظمت
لها الهلال سوار والسها شنف
تعلو الرياح إليه كي تحيط به
وبومض البرق يهفو نحوه ليرى
وليس بروى بماء السحب مصعدة
واضرمته حوله نار لها لهب
كأنها ، مجانيق الفرنج لها
وكم شكا الحصن ما بقى فما اكرت
وللنقوب ديب في مفاصله
أضحى به مثل صب لا تبين به
ركبت في جندك الأولى إليها ضحا
قد زال ، تجلى قواه عن قواعده
وساخ وانكشفت أقبازه وبدا
فمال يهوي إليهم كل ليث وغى
إن لم يؤف الورى بالشكر ما فتحت

كانت لدولتك الفراء تدخر
إسعاده منجدك القدر والقدر
لأشقر البرق من تحجيلها غرر
معنى العواصف لا تبقى ولا تد
ماء المجرّة في أرجائها نهـر
وهم تمثله في طبتها الفكر
منه مكان اللآلي الأنجم الزهر
والقلب قلب ومسود الدجا طرر
خبرا ، وتدنو وما في ضمنها خبر
أدنى رباه ويأتي وهو معتذر
إليه من فبه إلا وهو منحدر
من السيوف ومن نبل الوغى شرر
فرائس الأسد في أظفارها الظفر
يا قلبها أحديد أنت أم حجر
تثير سقما ولا يبدو له أثر
نار الهوى ، وهي في الأحشاء تستعر
والنصر يتلوك منه جندك الآخر
وخر أعلاه نحو الأرض بتدبر
لديك من مضمرات النصر ما ستروا
له من البض ناب والقنا ظفر
يداك فالله والأملاك قد شكروا (٢)

(١) المرفب : في معجم البلدان أنها « بلد وقلعة حصنة شرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة (بطنياس) » ج ٥ ص ١٠٨ .

(٢) ابن نوري بردي : المهمل الصافي (مخطوط) ج ٢ ، ص ٧٦ ، ٧٧ ، والنجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

نلاحظ في هذه الملحمة الجديدة أن الشاعر يصف لنا بدقة متناهية قوة هذا المعقل ومناعته ، ثم يتحدث عن شجاعة المنصور قلاوون وضراوة المعركة التي خاضها حتى كسب الله فيها النصر للمسلمين .

تهجد الشاعر نفسه آخر بقايا الفرنجة في بلاد الشام تولي أديارها في البحر شديدة طريده بعد أن أفسح الملك الأشرف صلاح الدين خلبس عكا ، واختمن الملحمة الخالدة بين المسلمين والصليبيين بعد أن مضى على بدئها قرنان من الزمن تقرباً .

الف أحمد بن علي الحريري كاتباً عن هذا الموضوع باسم (الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاحين) وقد اختتم الكتاب بذكر هذه الملحمة التي طرد فيها الفرنجة ، وأورد بعد ذلك وصف قدوم الأشرف إلى دمشق ، « وفي سنة تسعين وستمائة تجهز الملك الأشرف خليل لفزو عكا ، ونازلها في شهر ربيع الأول ، وتنظف الشام من الفرنج في تلك السنة . والله تعالى الحمد . ثم قدم السلطان إلى دمشق مؤيداً منصوراً ، وزنت دمشق ، وكان يوماً مشهوداً ، وقال المولى الرئيس الفاضل شهاب الدين محمود بن سليمان الموقع قصيده ، وانتدها للملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون يوم فتح عكا . وهي في روى قصيده أبي تمام في المعتصم لما فتح عمورية » (١) .

فمن حق دمشق الفجاء التي استقبلت القائد المنصر ، ومن حق القومية العربية التي انصرت وارتفعت بها راية الاسلام على يد سلاطين المماليك ، أن نقف عند هذه القصيدة التي عارض فيها هذا الشاعر ملحمة عمورية أبي تمام ، وكان التاريخ بعيد نفسه حين يقول :

الله أكبر ذلّت دولة الصليب وعزّ بالترك دين المصطفى العربي
ما بعد عكا وقد هددت قواعدها في البحر للشرك عند البر من أرب

(١) الحريري : الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاحين (مخطوط) ق ١٤٥ .

عقيلة" ذَهَبَتْ أَيَدِي الدُّهُورِ بِهَا
 لَمْ يَبْقَ مِنْ بَعْدِهَا لِلْكَفْرِ مَذْخَرِيَّتْ
 أَمْ الْحُرُوبِ فَكَمْ قَدْ أَنْتَبَيْتْ فِتْنِ
 سُورَانِ : بَرٌّ وَبَحْرٌ حَوْلَ سَاحَتِهَا
 مَصْفَحٌ بِصَفَاحٍ حَوْلَهَا شَرْفٌ
 مِثْلُ الْغَمَامِ تَهْوِي مِنْ صَوَاعِفِهَا
 يَا يَوْمَ عَكَا لَقَدْ أَنْسَيْتَ مَا سَبَقَتْ
 أَغْضَبْتَ عَبْدًا عَيْسَى إِذْ أَبَدْتَهُمْ
 وَخَاضْتَ الْبَيْضَ فِي بَحْرِ الدِّمَاءِ كَمَا
 أَجَرْتَ إِلَى الْبَحْرِ بَحْرًا مِنْ دِمَائِهِمْ
 بَشْرَاكَ يَا مَلِكَ الدُّنْيَا لَقَدْ شَرَفْتَ
 مَا بَعْدَ عَكَا وَإِنْ لَأَنْتَ عَرَبَكْتُهَا
 أَنْيَتَهَا يَا صَلاَحَ الدِّينِ مَعْتَقِدًا
 أَدْرَكْتَ ثَأْرَ صَلاَحِ الدِّينِ إِذْ غَضَبْتَ
 كَأَنَّمَا كُلُّ بُرْجٍ حَوْلَهُ فَلَكْ
 فَفَاجَأَتْهَا جُنُودُ اللَّهِ يَقْدُمُهَا
 لَيْثٌ أَبَى أَنْ يَرُدَّ الْوَجْهَ عَنْ فَرْقِ
 كَمْ رَامَهَا وَرَمَاهَا قَبْلَهُ مَلِكٌ
 لَمْ يَلْهَهِ مَلِكُهُ بَلْ فِي أَوَائِلِهِ
 لَمْ تَرْضَ هِمَّتُهُ إِلَّا الَّذِي قَعَدَتْ
 فَأَصْبَحَتْ وَهِيَ فِي بَحْرَيْنِ وَافِفَةٌ
 جَيْشٍ مِنَ التُّرُكِ تَرَكَ الْحَرْبَ عِنْدَهُمْ
 وَجِئْتَهُمْ بِجِيُوشٍ كَالسِّيُولِ عَلَى
 فَدَمْتَ فِينَا عَزِيزَ النَّصْرِ مَبْتَهَجًا

دَهْرًا وَشَدَّتْ عَلَيْهَا كَفًّا مَغْتَصِبِ
 فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مَا يَنْجِي سِوَى الْهَرَبِ
 شَابَ الْوَلِيدُ لَهَا هَوْلًا وَلَمْ تَشِبْ
 دَارًا فَادْنَاهُمَا أَذْنَى إِلَى الْعَطَبِ
 مِنَ الرَّمَاحِ وَأَبْرَاجٍ مِنَ الْيَلْبِ (١)
 بِالنَّبْلِ أضعافٌ مَانِهْوِي مِنَ السُّحْبِ
 بِهِ الْفَتْوحُ وَمَا قَدْ خُطَّ فِي الْكُتُبِ
 لِلَّهِ أَيُّ رِضَاً فِي ذَلِكَ الْغَضَبِ
 أَبَدْتَ مِنَ الْبَيْضِ الْإِسَاقَ مُخْتَضِبِ
 فَرَاخَ كَالرَّاحِ إِذْ عَرَفَاهُ كَالْحَبِّ
 بِكَ الْمَمَالِكُ وَاسْتَعْلَتْ عَلَى الرَّتَبِ
 لَدَيْكَ شَيْءٌ تَلَاقِيهِ عَلَى تَعْبِ
 بَأَنَّ ظَنَّ صَلاَحِ الدِّينِ لَمْ يَخْبِ
 مِنْهُ لِسَرٍّ طَوَاهُ اللَّهِ فِي اللَّقَبِ
 مِنَ الْمَجَانِيقِ تَرْمِي الْأَرْضَ بِالشُّئْبِ
 غَضَبَانِ اللَّهُ لَا لِلْمَلِكِ وَالشُّئْبِ
 يَدْعُونَ رَبَّ الْوَرَى سُبْحَانَهُ بِأَبِ
 جَمُ الْجِيُوشِ فَلَمْ يَظْفَرْ وَلَمْ يُصَبِ
 نَالَ الَّذِي لَمْ يَنْكُهُ النَّاسُ فِي الْحَقَبِ
 لِلْعِجْزِ عَنْهَا مَلُوكُ الْعُجْمِ وَالْعَرَبِ
 مَا بَيْنَ مُضْطَرَمِّ النَّارِ وَمُلْتَهَبِ
 عَارٍ وَرَاحَتِهِمْ ضَرْبٌ مِنَ الْوَصَبِ
 أَمْشَالُهَا بَيْنَ أَجَامٍ مِنَ الْقَصَبِ
 بِكُلِّ فَتْحٍ قَرِيبِ النَّجَجِ مَرْتَقَبِ (٢)

(١) اليلب : الفولاذ وخالص الحديد ، ويطلق على الدروع والترسة ، وهو اسم جنس ،
 والواحد من ذلك يلة .

(٢) المصدر السابق ق ١٤٥ ، ١٤٦ ، وقد أورد ابن تغري بردي بعض هذه القصيدة في
 المنهل الصافي (ج ٢ ص ٧٥ - ٧٧) .

افتتح الشاعر قصيدته بما يجب أن ينتهي به ، ولكن فرحة النصر جعلته يستهل قصيدته بالبثري العظيمة حينما ذلت دولة الصلب وعز دبن النبي العربي على يد المماليك . ولا شك أن في عزة الدين العربي عزة العرب والعروبة والاسلام .

وصف نفر عكا الحصين ، وأشار الى سوربها اللذين بحمانها : سور من بر وسور بحر ، فلا غرابة ان استعصت في ماضيها على الناصر صلاح الدين يوسف ، وكان الله أودع سرّاً في هذا اللقب الذي انتقل للاشراف صلاح الدين خليل ، فكان سميّه في اللقب . وبذلك بتحقيق ذلك السر الالهي في هذا الفتح الكبير ويفسر امتناع هذا الثغر الحصين من قبل لان الاقدار تنتظر سمي صلاح الدين لهذا اليوم الموعود والفتح الاغر .

أفصح الشاعر في وصف هذه الملحمة ، ووصف المحاربين وصفاً دقيقاً ، فأنسار الى كثرة عددهم ، وذكر السيوف والرماح والمجانيق والابراج والاسوار . فكان مصوراً أميناً لكل دقائق هذه الموقعة ، وقد أبرز من خلالها فعال هذا السلطان الذي جاء بجيوش كالسبول ، وحقق ما عجز عنه ملوك العرب والعجم .

هكذا نشهد اندحار الفرنجة وطردهم نهائياً من بلاد الشام على يد سلاطين المماليك الذين لم يبعوا لهم شبراً من أرض كان تحت حوزتهم ، ولم يكتفوا بذلك بل التفتوا الى الروم أنفسهم وحاولوا القضاء على كل ماتبقى لديهم في بلاد الشام من أماكن خاصة بهم وذكر ابن تغري بردي أن الملك الاشراف خرج ثانية سنة ٦٩١ هـ إلى قلعة الروم (٢) ، وبها مقام بطرك الارمن

(٣) قلعة الروم : قلعة حصينة في غربي الفراء مقابل البيرة بينها وبين سميساط ، ذكر يانوت أن بها مقام بطرك الارمن خليفة المسيح عليه السلام ، واسمه بالارمنية كافيكوس ، وهذه القلعة في وسط بلاد المسلمين ، وأشار الى أن بقاءها في يد الارمن مع أخذ جميع ما حولها من البلاد لقلّة جدواها ، فانه لا دخل لها ، وأخرى لاجل مقام رب الملة عندهم ، فانهم يركونها كما تترك البيعة والكنائس في بلاد الاسلام . (معجم البلدان ، ج ٤ ص ٣٩٠ ، ٣٩١) .

ومعه الملك المظفر الثالث صاحب حماة ، فحصرها وجدّ في حصارها حتى تم فتحها ، وقد خلد هذه الوفقة الهامة الشهاب محمود في الفريدة النبي استهلها بقوله :

لكّ الراية الصفراء يتقدمها النصرُ فمنّ كبفأذْ إن رآها وكيخسرو (١)

هكذا كان الشعراء يتعنون بالراية الصفراء الى انضوى تحت لوائها ملوك الدول المتتابعة : الزنكية والايوبية والمملوكية ، حتى نم لهم النصر فطردوا الفرنجة الصليبيين ، وغزوا بلاد الروم واحتلوا فلعنتهم المقدسة ، مقر بطركهم الاكبر خليفة المسيح عليه السلام .

ولئن كان للماليك فضيلة طرد الصليبيين ، فمما لا شك فيه أن لهم الفضل الكبير في دحر النار الغادمين من الشرق وكسر شوكتهم في الفترة التي تعيننا دراستها ويهمننا بحثها .

الشعر والحروب التتريسة

لقد شهد هذا العصر صراعاً آخر ضد الغزاة الجدد القادمين من مغازات آسيا ، فلم تكد تنتهي بلاد الشام من حروبها الصليبية حتى فاجأنا النصار على حين غرة ، وانتقلت المعارك الى بلاد الشام بعد أن قوضوا معالم الحضارة في الشرق الاسلامي ، بيد أن هؤلاء الغزاة الجدد لم يستطيعوا الاقامة فيها إذ أنهم شهدوا هزائمهم تتوالى بعد اندحارهم في وقعة عين جالوت الخالدة .

أسهم ملوك حماة الايوبيون في دحر جيوشهم ، وكنا ذكرنا من قبل أن ملكها المنصور الثاني فر الى مصر بحريمه وأولاده ، وطلب نجدة السلطان قطز ، فخرج معه وحارب بجانبه ، وكانت له اليد الطولى في دحرهم .

نحدث الشرف الانصاري عن معركة عين جالوت عدة مرات في مدح الملك

(١) ابن نوري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ ص ٧٥ ، ٧٦ .

المنصور ، ونوه بها كثيراً ، فصور لنا هذه الملحمة العربية الخالدة بين المسلمين والنصارى في فريدة مطلعها :

لكَ في الندى وردى ذوي الاشراك شيمٌ تفوق بها على الأملاكِ

وجاء فيها قوله يصف المنصور الثاني وأثره في هذه الملحمة في الأيام الثلاثة التي احتدمت فيها المعركة وهي يوم الأربعاء والخميس والعروبة أي الجمعة :

لما شكَا دينُ الهُدَى : شكيه
دعت المعالي يا أباهَا دعوةً
جردت يوم الأربعاء عزيمةً
واقمت في يوم الخميس مبالغاً
ووفقت في يوم العروبة موقفاً
فبَدَتْ أبطل التار بصولةً
وأطرت منهم هامَ كلِّ مندجٍ
فالطعن والطاعون أسلمهم إلى
بَرَدَتِ أكبادُ الورى بقواضير
أضحكت سنَّ نفورنا من بعد ما
غادرتهم صرعى كأنَّ كماتهم
ثم ارتحلت إلى دمشق موضحاً
ورجعت في غرر الجيوش مُعاجلاً
فلقد انمت المحصناتِ أوامناً
سلمت مهجة كلِّ برٍّ مسلمٍ
نوّهت باسمك في سماءِ مدائحٍ
نسبي العقائل والعقول جميعها
فلك الهناء بما منحت ولا يزل

بشديد بأسك والسلاح الشاكي
لزمت عليك فقلت لها لبّاك
خفيت عواقبها عن الإدراكِ
في الجمع بين طوائف الأتراكِ
أوسعت فيه الفنك بالفتاكِ
تركتهُم كالصيدِ في الأشراكِ
للهِ كلَّ موحدٍ سقّاكِ
حربٍ كأشداق المخاضِ دراكِ
قلدت عليهم كالضرامِ الداكي
ظفروا بها فبكى عليها الباكي
في المرج صرعى من سلافٍ « حنّاك » (١)
سبلَ الرشادِ المحض للسُّلّاكِ
منّا رهانَ نفوسنا بفِكَاكِ
ولقد أقمت شعائر النشاكِ
وهزمت كلَّ مُعاند أفتاكِ
أعلتته فوق مجرّةٍ وسِمّاكِ
من صائغٍ لنضارها سبّاكِ
يجري بسعالك دائرُ الأفلاكِ (٢)

(١) هناك : حصن كان بالمرّة ، وقد ذكر ياقوت أن « شعراء المرّة يكثر من ذكره في

غزلهم » ، ويظهر أنه كان مشهوراً بالخمر . ر معجم البلدان ، ج ٢ ص ٢٠٩ .

(٢) الملحق الأول من ديوان الشرف الانصاري ، ص ٥٥٦ ، ٥٥٧ .

هكذا صور لنا الشاعر هذه المعركة في أيامها الثلاثة في أواخر شهر رمضان المبارك ، ثم تحدث لنا كيف أوقع الهزيمة بالتنار فترك معظمهم صرعى ، وأخذ أبطالهم أسرى مقدين ، ثم وصف لنا ارتحال ممدوحه الى دمشق موضعاً سبل الرشاد المحض للسلاك .

ويتحدث الشاعر في هذه القصيدة عن أحوال الناس بعد هذه الهزيمة المنكرة التي حلت بالتار فنامت النساء المحصنات آمناً بعد الرعب والخوف ، ووقى مهج المسلمين الأبرار من هؤلاء الفزاة الأشرار .

لقد وفق الشاعر حقاً في رسم هذه الصورة ، ولو حاول مصور أن يبرزها لنا في إطار فنى كما هي الحقيقة لم يستطع أن يبرز على الشاعر شيئاً جديداً إن لم يقصر عنه ، ولعلنا استنفعنا فهم مراحل هذه الملحمة كيف بدأت يوم نوذي بالنفير والجهاد ، وتجمعت طوائف الكماه الذين اسنرخصوا الموت وكان يوم الاربعاء يوماً متسهوداً ، يوم أعلنها صرخة مدوبة وجرى عزمه ، وامتدت المعارك يوم الخميس حتى آذن الله لهم بالنصر يوم العروبة ، يوم الجمعة حيث النقى الجمعان ، في الثامن والعشرين من رمضان وكان النصر المؤزر في عين جالوت على بطاح فلسطين العربية .

هذه صورة المعركة أبان دوران رحاها ، ولكن لانبث أن تخف وتهدا ، ويتابع الأبطال المسلمون تفييد الأبطال من التتار .

إن صورة القتلى من كماتهم في المرج كأنهم صرعوا بخمره (حناك) هناك وفي القسم الآخر من الايات يعطينا الشاعر صورة الطمانينة التي أعادت من جديد الى البلاد فنام الناس مطمئنين ، وعاد الناس الى مساجدهم يقيمون شعائر دينهم شكراً لله على ما أفاء من النصر المؤزر .

ويختتم الشاعر الايات من وصف هذه الملحمة بذكر مدح المنصور الثاني محمد الذي كانت له اليد الطولى في القضاء على التتار بعد أن حث السلطان المملوكي قطز على الحضور معه من القاهرة لاسترجاع ما احتل من الشغور التسمية لان الخطر لن يقف هنا ، وإنما قد استفحل وسوف يمتد الى مصر والمغرب كله .

كما تحدث الشاعر الانصاري عن ذلك أيضا في قصائد أخرى في مدائح المنصور الثاني ونوه خلال ذلك بمعركة عين جالوت . ووصفها بدقة في بعض مدحه ، كما رأينا وقد أشار الى الامام خليفة بغداد العباسي المستنصر بالله الذي قتله التتار قبل عامين ومما قاله :

بعين جالوت^(١) خضت بحر وغي^١ يُخال فلکاً بالأسد مشحونا
وكنت للجيش غرة^٢ سُدِخت انوفهم ، فانشنوا مهايينا
اوسعت فيه التتار ضرب طلي^٣ هداً وطعنا يُخال طاعونا
اخذت ثار الإمام إذ فتكوا به ، وصالوا عليه عاديينا
اذكرتهم ما صنعت قبلهم^٤ بكتبنا^(٢) ، فانشنوا مؤلينا
وما نجا منهم سوى خبر^٥ اسكن قازان^(٣) خبره الصينا^(٤)

عاد الملك المنصور الى ملكه بعد ان ولى التتار الادبار ، وهرب خسرو شاه عامل هولوكو على حماة ، فأقبل عليه شاعره الشرف الانصاري مهنتاً :

رُعت العدا فضمت تل^١ عروشيها ولقيتها فأخذت فل^٢ جيوشيها
نازلت أملاك التتار فأنزلت^٣ عن فعلها قسراً وعن إكديشيها
فغدا لسيفك في رقاب كمتيها حصد المناجل في يبيس حشيشها
رويت أكباد القنا بدمائهم^٤ لما اطل سواك في تعطيشيها
أقدمت مقتحمأ على نشأ بها تكسو الجياد رياشها من ريشها
دارت رحى الحرب الزبون عليهم^٥ فغدت رؤوسهم حطام جريشيها
وطويت عن مصر فسيح مراحل^٦ ما بين بركتيها^(٥) وبين عريشيها

-
- (١) عين جالوت بليدة لطيفة بين بسان ونابلس من أعمال فلسطين .
(٢) الأمير كُتُغانوين مقدم عساكر التتار ، وكان عظيماً عند التتار مقدماً عندهم يعتمدون على رأيه وشجاعته وتدبيره ، لانه كان خبيراً بالحروب وافتتاح الحصون والاستيلاء على الممالك ، وهو الذي فتح معظم بلاد العجم ولا يخالفه فيما يشير اليه ، وكان مقتله في عين جالوت في المصاف يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان سنة ٦٥٨ هـ .
(٣) ابن تفردي بردي : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٩٠ ، ٩١ .
(٤) قازان : لعلها قاسان بالسين المهمله مدينة واقعة وراء النهر على حدود بلاد الترك . والمرجح هنا ان قازان اسم أحد قواد التتار الذين اشتركوا في معركة عين جالوت .
(٥) مصوره مخطوط ديوان الشرف الانصاري ، ل ٨٢ ، والديوان ص ٤٧٥ .
(٦) بركتها : نفلن أنها بركة الجيش ، وهي أرض في وهدة من الارض واسعة طولها نحو ميل ، ومشرفة على نيل مصر خلف القرافة (معجم البلدان ، ج ١ ص ٤٠١) .

حتى حفظت على العباد بلادها من رومها الأقصى إلى أحبوشها (٢) (٣)
كما أشار الشاعر المذكور إلى هذه الموقعة الفاصلة في مدحة نالته :
جاء فيها قوله :

محمد خير ماجد يقظ
يرضى هداه محمد القرشي
صادم جيش التتار مقتحماً
وأجشأت نفسه ولم تجش
لما طفى كبشته (٢) تعمده
فصبر الرأس منه في الكرش
فأسلموا الشام بعد ما طمعوا
في ملك أرض الحجاز والحبس (٤)

خلفت هذه الموقعة في نفوس التتار أثراً كبيراً ، إذ إنها كانت فاتحة
هزائمهم على يد المسلمين بعد أن دكوا معالم الحضارة في بغداد ، وفتكوا
بالخليفة العباسي ، ولم ينورعوا عن فنل العلماء ورجال الدين ، فلا غرابة
إن رأيناهم يعيدون الكرة ليفسولوا عنهم عار الهزيمة النكراء التي لحقتهم في
بلاد الشام ، بد أن الظاهر هزمهم أيضاً على ضفاف الفرات ، وعبر النهر
وراءهم ، واستأصل شأفتهم بعد أن أغرق معظمهم ، وأجهز على من بقي منهم .

نظم الشهاب محمود قصيدة يمدح بها السلطان في هذه المناسبة ،
واستهلها بقوله :

سر حيث شئت لك المهيمن جار
واحكم فطوع مرادك الأقدار
لم يبق للدين الذي أظهرته
يا ركنه عند الأعادي ثار
لما تراقصت الرؤوس وحركت
من مطربات قيسك الأوتار
خضت الفرات بسابح أقصى منى
هوج الصبا من نعليه آثار
حملتك أمواج الفرات ومن رأى
بحراً سواك ثقله الأنهار

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٤٣ ، ٤٤ ، والديوان ص ٢٧٠ ، ٢٧١

(٢) الاحبوش : جماعة الحبش والمراد هنا بلاد الحبشة .

(٣) كشه : كبش القوم رئيسهم وسيدهم وكبش الكتبية : فائدها .

(٤) المصدر السابق ، ل ٤٣ ، والديوان ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ :

وتقطعت فرقا ولم يك طودها
رشت دماؤهم الصعيد فلم بطر
شكرت مساعيك المعقل والورى
هذى منعت ، وهؤلاء حميتهم
فأملان الدهر فيك مدائحا
إذ ذاك إلا جيشك الجرار
منهم على الجيش السعيد غبار
والنرب والأساد والأطيار
وسقيت نلك وعم ذاك الإيسار
بقى بقت وتذهب الأعصار (١)

نلاحظ في هذه الملحمة ضراوة المعركة التي نسبت على ضفاف الفرات مما يلي الجزيرة ، ونشهد فيها التساعر بصف لنا بدقة هزيمة التتار ، فيتحدث عن شجاعة الظاهر بيبرس ، ويذكر خوضه الفرات خلفهم ، ويقسم أنه سيملا الدهر بمدح تبقى ما بقت العصور .

وما أكر الشعراء الذين تحدثوا عن هذه المعركة . ولا سيما أن الفرات اقترن بها ، إذ كان حومة الملحمة ، فأخذوا تتفنون بوصفها ، نذكر منهم الشيخ ناصر الدين حسن بن النقيب الكناني (المتوفى سنة ٦٨٧ هـ) ، وكان حاضرا هذه الوفاة ، ومما قاله :

ولما ترامينا الفرات بخيلنا سكرناه منا بالقوى والقوائم
فاوقفت التيار عن جريانه إلى حيث عدتنا بالفنى والغنائم (٢)

وتحدث شعراء آخرون أيضا عن بطولة الظاهر بيبرس في حربه مع التتار ، نذكر منهم موفق عبد الله بن عمر الانصاري (٣) ، ومما قاله في ذكر المغول :

الملك الظاهر سلطاننا نقديه بالأموال والأهل
اقتحم الماء ليظفي به حرارة القلب من المغفل (٤)

(١) ابن نرى بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٥٩ ، ١٦٠ والنهل الصافي (مخطوط) ج ١ ص ٣٦٥ .

(٢) ابن نرى بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٥٩ ، ١٦٠ ، والنهل الصافي (مخطوط) ، ج ١ و ٣٦٥ .

(٣) موفق الدين أبو محمد عبد الله بن عمر بن نصر الله الانصاري ، كان أديبا فاضلا له مشاركة في علوم كثيرة ، وقد عرف أنه كان حيا الحاضرة حلو النادرة . توفي سنة ٦٧٧ هـ (ابن نرى بردي : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٨٢ و ١٦٠) .

(٤) المصدران السابقان ،

تلك هي المرحلة الأولى من حروب المسلمين والتتار ، انتصارات متواليات
غرّ أفاءها الله على المسلمين ، وهزائم منكرة على أعدائهم التتار ، إذ كانوا
يتلقون الضربات القاصمة على يد الظاهر .

أجمعوا أمرهم من جديد سنة ٦٧٥ هـ ، واجتمع عسكر الروم والتتار
مع البراواناه على نهر جيحان ، فوردت الاخبار على الملك الظاهر باجتماعهم ،
فنهض إلى اقجادربند ، وقطع الطريق في نصف نهار ، فلما تكاملت عساكره .
حملوا عليهم حملة رجل واحد ، وانصر المسلمون انتصاراً عظيماً ، واحاطوا
بهم من كل جانب ، وقتلوا منهم مقلنة عظيمة ، ووقع بيدهم عدد كبير من
الاسرى ، وقد عثر بينهم على جماعة من اعيان الروم والتتار .

خلد الشعراء هذه الملحمة الجديدة ، وعملوا فيها مدائح كثيرة ، لعل
أبرزها الملحمة التي نظمها الشهاب محمود ، وجاء فيها قوله :

كذا فلتكن في الله تمضي العزائم	وإلا فلا تجفو الجفون الصوارم
عزائم حاذتها الرياح فأصبحت	محلقّة تبكي عليها الغمام
سرت من حمى مصر إلى الروم فاحتوت	عليه وسوراه الظبأ واللهازم
بجيش تظل الأرض منه كأنها	على سعة الأرجاء في الضيق خاتم
كتائب كالبحر الخضم جادها	إذا ما تهادت موجّه المتلاطم
تحيط بمنصور اللواء مظفر	له النصر والتأييد عبد وخادم
ملك يلوذ الدين عن عزماته	بركن له الفتح المبين دعائم
ملك لا بكار الاقاليم نحوه	حين كذا تهوى الكرام الكرائم
فكم وطئت طوعاً وكرهاً جياده	معاقل قرطاهها السها والنعائم
ملك له للدين في كل ساعة	بشائر للكفار منها ماتم
جلا حين أقذى الكفر للهدى	ثغوراً بكى الشيطان وهي بواسم
إذا رام شيئاً لم يعقه لبعدها	وشقتها عنه الإكام الطواسم
فلو نازع النسرين امرأ لناله	وذا واقع عجزاً ، وذا بعد حائم (١)

(١) النسران : كوكبان يقال لأحدهما : النسر الواقع وللآخر النسر الطائر .

ولما رمى الروم المنيح بخيليه
 يروم عقاب الجور قطع عفايه
 وسالت عليهم ارضهم بمواكب
 ادارت بهم سوراً منبعا منترفا
 من الترك اما في المفاني فانهم
 غدا ظاهراً بالظاهر النصر فيهم
 فاهووا إلى لثم الاسنة في الوغى
 وصافحت البيض الصفاح رقابهم
 فكهم حاكم منهم على ألف دارع
 وكم ملك منهم رأى وهو موثق
 فلا زلت منصور اللواء مؤبداً

ومن دونه سد من الصخر عاصم
 إليه فلا تقوى عليه القوادم
 لها النصر طوعاً والزمان مسالم
 بسمير العوالي ماله الدهر هادم
 شموش وأما في الوغى فضاغم
 نبذ الليالي والعدا وهو دائم
 كأنهم العشاق وهي المباسم
 وعانقت السمر القودود النواعم
 غدا حاسراً والرمح في فيه حاكم
 خزائن ما بحويه وهي غنائم
 على الكفر ماناحت وأبكت حمائم (١)

هذه ملامح عامة عن الملاحم الاسلامبة ضد التتار في المرحلة الاولى ، بيد
 ان الآية انقلبت في المرحلة الثانية ، وذلك حينما جاء غازان واحمل بلاد الشام ،
 ودخل دمشق ، وخطب له على المنابر . وخرج منها بعد هدم مغانيها ، ونهب
 اموالها . وقد وصف علاء الدين الاوتاري ما حل بها في قصيدة جاء فيها قوله :
 طرقتهم حوادث الدهر بالقتل ونهب الأموال والأولاد
 وبنات محجبات تقضت في ذراها الأيام كالاعيان
 حرّ قوها وخرّبوها وبادت لقضاء الإله رب العباد (٢)

هكذا خلد شعراء عصور الدول المتتابعة هذه الاحداث الكبرى التي
 ظلت مستمرة ، فلقد هزتهم الانتصارات المظفرة . بيد أن الآية تغيرت كما
 رأينا في اواخر هذا العصر الذي تؤرخه . ولا يعني فولي هذا أنهم فعلوا ذلك
 كله رغبة في العطاء فحسب ، ولكنهم إنما أدوا واجبه القومي بكل حماس

(١) ابن شري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ والمهل

الصافي (مخطوط) ، ج ١ ص ٣٦٦ .

(٢) كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ص ٣٧٦ .

واندفاع ، يحدوهم إلى ذلك دافع ديني قوي لاداء مهمة الجهاد المقدس ، ويدفعهم إلى ذلك ايضاً شعورهم بالمسؤولية العظمى الملقاة على عواتقهم ، إذ إنهم كانوا صوت الحق ولسان الخلق ، وفد استطاعوا ان يصوّروا بمهارة وأمانة هذه الاحداث الكبرى . سواء اكانت ضد الصليبيين أم ضد التتار ، وأعربوا فيها عن عواطفهم الصادقة ، وعبروا عن متاعرهم وصداها في نفوسهم ، فكانت ملامحهم ومدحهم صورة رائعة عن شعر هذا العصر ، إذ خرجت عن نطاقها التقليدي . كان معظم الشعراء الذين طرّقوا هذه المعاني يشهدون بألم أعينهم هول هذه الاحداث ، واشترك بعضهم فعلاً في الجهاد المقدس ، فكانوا يسرون جنباً إلى جنب مع الابطال الفاتحين .

لقد احسنا ونحن نطالع ملامحهم بصدق اللفظة وحرارة العاطفة ، يحدوهم الى ذلك شعور ديني عارم وحب عميق لارضهم السليبية ونفورهم المحلّة ، واستطاعوا بقصائدهم أن يسنّروا الناس على الجهاد والنفير ، ويحضّوهم على الدود عن حياض الوطن ، ويحثّوهم على استرداد بيت المقدس وغيره ، وطرد العدو القادم من الشرق والغرب .

وهكذا نستطيع أن نسجل للشعر فضله ، فقد كان حقاً صورة صادقة عن الملاحم الاسلاميّة والاحداث الكبرى ضد الفرنجة والتتار ، إذ انه أدّى واجبه كاملاً سواء اكان ذلك في الاستشارة والتحريض أم في وصف الانتصارات والفتوح الكبرى أم في تزجبة البسائر والبهاني ، وهو بعد هذا كله صفحة مشرقة للقومية العربية .

النسيب والغزل

أخذ الشاعر في هذا العصر نصيبه من المدح ليكسب رزقه ، وأخذ منه شعره نصيبه من النسيب والغزل ، لا ليبر عن شعوره فحسب . وإنما لبقلد حيناً ويجدد حيناً آخر . فكان يأتي بصورة معروفة ومعان منداولة بزبدتها أو يغير فيها أو ينقلب عليها . مهما يكن من أمر فإن الشاعر اتخذ النسيب نكأة له يخلص منه إلى ممدوحه ، ولكنه صرف قسماً من شعره فقصره على الغزل وحده ، وحاول أن يجدد في المعاني التي استحدثتها . وسنرى مدى نجاحه في هذا المضمار بعد أن نبسط بوضوح كل ذلك .

تطرق الشاعر في هذا العصر - بالإضافة الى النسيب والغزل - إلى نعت الخمر ، وذلك جرباً على سنة الشعراء المبرزين في هذا المضمار وقد جرت على السنة الشعراء ، سواء عندهم أشربوها أم لم يشربوها ، إذ غدت تشكل معنى واحداً ننم معاني النسيب والغزل ، ويندر أن نجد شعراً مجرداً منها ، فنعت الخمر يستدعى ذكر الساقى والساقية ، ومن وصفهما بلج الشاعر في باب النسيب والغزل ، ويأخذ منهما نصيبه . وسوف نقتصر في بحثنا توضيحاً لما قدمنا على التحدث عن تطور النسيب التقليدي والتجديد في معاني الغزل والإبداع في نعت الخمر .

التطور في معاني النسيب

لاحظنا أن معظم الشعراء حاولوا في مطالع النسيب أن يخرجوا على المعاني التقليدية المعروفة ، فأعرضوا عن ذكر الدمن والاطلال والرسوم في معظم الأحيان اقتداءً بأبي نواس الذي كان يسخر ممن يقف على ديار الإحبة قائلاً :

عاج الشقي على دار يسائلها وعجت أسأل عن خمار البلد (١)

وشعراء هذا العصر سخروا بدورهم أيضا من الشعراء الاقدمين الذين كانوا بنفنون بذكر اطلال الاحبة الدائرة في ملاعب عالج . ورمال كاظمة ، واكناف زرود ، ووادي الفرى ، ومربع رضوى والعقب . وكرهوا ذكر زينب والرباب وهند والعرب ...

استعاضوا عن ذلك كله بوصف ما حولهم من بقاع جميلة وطبيعة خلابة ، ورياض غناء ، وبساتين وارفة ، امتازت بها بلاد الشام وغيرها ، وقد رأينا كثيراً من هذه الاوصاف لدى دراسة اعلام الشعراء .

هذا عرفة يتحدث عن الحلة ما بين بصرى وصرخد ، ويطلب من صديقه الوقوف بباب البريد وباب جيرون :

قف بجيرون او بباب البريد وتامل اعطاف بان القدود (٢)

ويخاطب نديمه بعد ذلك :

يا نديمي غنياني بشعري واسقياني بنية العنقود
عرجا ما بين سطرى ومقرى لا باكناف عالج وزرود (٣)

وهذا ابن عنين يرتحل بعد نفيه . ويمر في بعض هذه الامكنة التي اخذت بألباب الشعراء الاقدمين . لكنه لم يعجب بها ، إذ لم تستثر شاعريته ، فأعرض عنها ، ولما عاد إلى دمشق تحدث عن هذا المعنى فقال :

تلك المنازل ، لا اعققة عالج ورمال كاظمة ولا وادي القرى (٤) (٥)

(١) ديوان ابي نواس ، ص ٤٦ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٢٠٠ ، والديوان ص ٣٢ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٢٠٠ ، والديوان ص ٣٢ .

(٤) اعفة : جمع عقيق ، وهو اسم واد ، وعالج رمال بين ميد والقرى على طريق مكة ، وكاظمة على سف البحر في طرفي البحرين من البصرة ، ووادي الفرى بين الشام والمدينة من اعمال المدينة .

(٥) ديوان ابن عنين : ص ٤٠ .

وهذا فتيان الشافوري بفرق في وصف دمشق ، ويذكر منزهاتها ،
وينتهي من وصفها قائلا :

تلك المربع ، لا رَضْوَى وكاظمة " ولا العسق " تواريه بواديهِ (١)

كما يدعو الشاعر نفسه في قصيدة أخرى إلى الإعراض عن ذكر العريب
والنعا ورينب ، ويسخر منها . ويتركها تجذب للبين برى نياقها :

دع العريب والنعا وزينبا تجذب للبين برى نياقها
وعسج على دمشق ثلث بلدة كأنما الجنات من رستاقها (٢)

وهذا الملك الناصر الثاني صلاح الدين يوسف بن محمد يشناق الى حلب
ومنازلها :

سقى حلب الشهباء في كل لزبة سحابة غبث نوؤها ليس بقلع
فتلك دباري لا العقيق ولا الغضا وتلك ربوعي لا زرود ولعلع (٣)

وهذا الشهاب التلعفري يتعجب من حديثه عن ربوع لا يعرفها فضرب
عن ذكرها بقوله :

ياصاح دعني من ذكر العقيق ومن منازل ليس لي في نعتها شان
مالي ومالربوع لست أعرفها ما الحب نعم ولا الأوطان نعمان
لولا الروادف تهتز القدود بها ما شاقني الرمل من يبرين والبان
أجل ولولا الظباء النافرات لما سألت هل سحت بالجزع غزلان (٤)

وهذا ابن الساعاتي يطلب من خليليه أن يعرضا عن ذكر هند بني نهد ،
وهلال هلال :

(١) مصورة مخطوطة ديوان فتيان الشافوري ، ج ١ ل ١٢٤ ، والديوان ص ٥٩١ .

(٢) العباد الكاتب : الخريدة ح ١ ص ٢٤٨ .

(٣) ابن نفري بردي : النجوم الراهية ، ج ٧ ص ٢٠٥ .

(٤) ديوان التلعفري ، ص ٤٩ .

فدعاني من ذكر هند بنى نهـ ، ولا كنت نا هلال هلال (١)

يظهر أن نساء الفرنجة كان لهن دور كبير في صرف الشعراء عما ألفوه ،
فهذا ابن القيسراني يعتق جارية اسمها مارية ، وهى حسناء فرنجية من
مولدات أنطاكية ، وتنسيه ذكر سعدى وربما :

إذا ما زرت ماريـا فما سعدى وما ريـا
لها وجهـ مسبحىـ ترى الميـت به حيـا (٢)

نلك هى ثورة شعراء هذا العصر على مفدسات الاقدمين ، إذ إن ظروف
بيئاتهم وطبيعة حياتهم تطلبت منهم الخروج على ما ورثوه ، ورائدهم في ذلك
من قبل أبو نواس ، فكانوا في واقع الامر يحاولون متابعة خطوات التورة التي
أعلنها بقوله :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم
نصف الطلول على السماع بها افذو العيان كانت في الحكم ؟
وإذا وصفت الشيء متبعاً لم تخل من غلط ومن وهم (٣)

تركوا مثله صفة الطلول كما وأينا ، لكنهم لم يقتصروا على وصف الخمر ،
وإنما وصفوا الطبيعة الجميلة التي تحيط بهم ، وصفوا دمشق ومنتزهاتها
وبرداها ، ووصفوا العاصي وضعافه ونواعيره ، ووصفوا جبل لبنان الاشم .
نذكر من ذلك نسيب قصيدة مدح بها الشرف الانصاري الملك الامجد :

لم ينسـه البعد روح الأنسـ عندكم فلم يجدد لعهد القرب تذكـارا

(١) ديوان ابن الساعني ، ج ١ ص ١٨٢ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٩٩ .

(٣) ديوان أبي نواس ٢ ص ٥٧ .

سنا هواكم إلى « لبنان » أرشده^(١) فلم يقل: يا لبيني أوقدي النار^(٢)

وفوله أيضاً :

سقباً لأوطارٍ وأوطان بين « سَير » لي « ولبنان »
وعيشة قضيتها وادعاء ما بين خيلان وأخوان
أركض أفراس التصابي من اللذات في أرحب ميدان^(٣)

ترك الشعراء مثله التغنى بأسماء المحبوبات كما رأنا ، وكأنهم اتخذوا

قوله سنة يتبعونها:

لأتبك ليلي ، ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد^(٤)

لكنهم لم يقنصروا على شرب الخمر، وإنما أكثروا من ذكر أسماء محبوبات

حقيقيات كما في القصيدة التي استهلها ابن القيسراني بذكر مارية الفرنجية ،

وكما في القصيدة التي نحدث فيها الشرف الانصاري عن شامية :

شامية شامت يمانى لحظها عليّ وانضاني بمرأى ومسمع

بذكرني لمع لالبروق ابتسامتها فنرعد أحشائي وتنهل أدمعي^(٥)

تلك هي بعض مظاهر التجديد في نسيب هذا العصر ، وثمة معان أخرى

تضمنها النسيب ، وهي موجوده في معاني الغزل .

التجديد في معاني الغزل

حافظ شعراء هذا العصر على مفاهيم الجمال التقليدية عند العرب

قديماء ، بيد أنهم جعلوا مناهجهم تتطور بما يتلاءم مع بيئتهم وعصرهم ، وبما

ينجدهم من صور حضارية زاهرة ، تأثرت بما عرف عند الشعوب الأخرى ،

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٣٠ ، والديوان ص ٢٠٤ .

(٢) المصدر السابق ، ل ٨٥ ، والديوان ص ٤٩٢ .

(٣) ديوان أبي نواس ٢ ص ٢٧ .

(٤) مصورة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٤٩ ، والديوان ص ٣٠٥ .

بحكم الحروب التى طبعت هذا العصر بطابعها ، وبحكم العلاقات التجارية المستمرة .

وعلى الرغم من كل ذلك فانهم بشكل عام كانوا اوفياء على ما ورثوه ، فنجدهم بصورون الحبيب . ويتحدثون عن جماله ، فبكررون الاوصاف ذاتها ، ويذكرون ما فعله بهم . يضاف إلى ذلك ما يعترض الحبيب والمحب من افنضاح أمر هواهم ، ووصف البعاد والهجران ، والاشارة الى العذال والوشاة وغير ذلك .

نجد الشاعر العربي في كل ذلك نعبد اوصاف من سبقه ، ولا يعنى هذا انه لم بات يجدد البتة ، فسوف نفق أخيراً عند بعض معانيه المستحدثة كالتشبيب بالفرنجيات والروميات بالاضافة الى العناصر الاخرى من الاتراك والاكرد الذين حكموا البلاد في هذا العصر .

أوصاف الحبيب

تحدث الشعراء عن الحبيب ، فوصفوا محاسنه ، ولم يتركوا شيئاً منها دون أن يعرضوه عرضاً موجزاً أو مستفيضاً ، حتى تتابعت الاوصاف والنعوت ، واسنوى فيها السابقون واللاحقون من محدثين ومولدين ومتأخرين .

أحاطوا بطلعة الحبيب ومحياه ، فنظروا نظرة كلية ، ونظرة جزئية ، وتحدثوا من خلال ذلك عن الشعر ، والجبين ، والعينين ، والالفاظ ، والخيال ، والوجنتين ، واللمى ، والشفاه . ولم ينسوا خلال كل ذلك ذكر ما يتعلق بالوجه كالعذار ، والسوالف ، وعقارب الاصداغ .

قل التحدث عن الحبيب العربي ، فلم يكتف الشعراء بالإعراض عن أسمائه كما رأينا في بحث النسيب ، وإنما تغزلوا بعد غلبة العناصر التركية والكردية بما يرضي ملوكهم وأمرأهم . والغريب أن الشباب الظريف لم يتحدث في

معظم اغزاله الا عن حبيب عربى ، صوره في إطار عربى تقلبدي محض ، وهو بذلك يخالف الاتجاه العام المعروف لدى شعراء العصر كما في قوله :

قف بالركائب أو سئفها بترتيب عسى تسير إلى الحى الأعراب
واسأل نسباً ثقت أعطافنا أصلاً من ابن جاءت فففيها خمرة الطيب
يا يارب الهودج الحمى جانبه إلام حبك يغريني وبغري بي ؟ (١)

ندر من الشعراء من لم يلم بذكر الحبيب التركي، فان هذا النعت الجديد أصبح منداولا بكنزة بينهم حتى غدا مبتذلا .

هذا ابن منير عرض له في « ألفاظ تركي » (٢) ، وهذا ابن قسم يتحدث عن « هذا التركمانى » في « القباء الخسروانى » (٣) ، وعن « تركى النجار » (٤) ، وهذا ابن الساعاتي يتحدث عن « تركي المناسب » (٥) و « تركية المناسب » (٦) و « بدر من الترك » (٧) و « تركى النجار » (٨) وهذا عرقلة الكلبى يتحدث عن « مولد الاتراك » (٩) ويذكر في إحدى رباعياته أنه « مالاعراب طافة بالاتراك » (١٠) ، وهذا فتيان الشافورى يتحدث عن حبيب ما أبى باللحظ سفك دمه :

أفدي الذي ما أبى باللحظ سفك دمي لكن متى ما طلبت العطف منه أبى

-
- (١) ديوان الشاب الطريف ، ص ١٤ .
 - (٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ١ ص ٤٩ .
 - (٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٤٤٧ ، ٤٧٨ .
 - (٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥٠ .
 - (٥) ديوان ابن الساعى ، ج ٢ ص ٤٩ .
 - (٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٨٢ .
 - (٧) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٩٥ .
 - (٨) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٤٦ .
 - (٩) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٢٢٢ .
 - (١٠) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٨ .

ظبي" من الترك اصمتني لواظظه وأسهم الترك إن اصمت فلا عجا^(١)
تذكرنا أسهم الترك هذه بما مر معنا من « ان فنطاريات الفرنج ليس
لها الا سهام الاتراك »^(٢) .

وهذا ابن عنين أخيراً نحدث عن « ظاء الترك »^(٣) ، و « مباس القوام
من الترك »^(٤) ، ولا يكتفي من ذلك بالإشارة العابرة كغيره من الشعراء كما
مر معنا ، وإنما يتحدث عن صفة مميزة ، وهي صغر العينين ، وضيق القفل ،
وهذا المعنى جديد في شعرنا العربي ، وقد ألم به في مطلع قصده له :

لا تعرِضَنَّ لضيقِ القفل فتبيتَ من أمنٍ على وجَلٍ
واتركَ ظيباءَ التركِ سانحةً لا تعترضُ لجبائلِ الاجلِ
من كلِّ مائسةٍ منعمةٍ عرّتى الاياطلِ^(٥) فعمةِ الكفلِ^(٦)

تطرف الشاعر نفسه ، فلم يكتف بالتحدث عن الاتراك كغيره من شعراء عصره ،
وإنما تجاوزهم ، فنزل بفتى هندي^(٧) ، وغلام أسود .

وهذا التلعفري يتغزل بحبيب فارسيّ الاصل ، بيد أنه عربيّ في زيّه
حبشي شعره^(٨) ، وهو من بني خاقان^(٩) .

يلاحظ أن بعض الشعراء الذين شهدوا الحروب الصليبية ، وتنقلوا في الشفور
المحتلة ، انجهوا وجهة جديدة ، لم نعرفها من قبل في الشعر العربي ، حتى
إن شاعراً كابن القيسراني قصر طائفة من أجمل شعره على التحدث عن

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٤ . وهذان البيتان غير موجودين في الديوان .

(٢) ابن واصل : مغرّج الكروب ، ج ١ ص ٣٤ .

(٣) ديوان ابن عنين ، ص ٣٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٤ .

(٥) الاياطل ، جمع ايطل أي الخامرة .

(٦) ديوان ابن عني ، ص ٤٠ .

(٧) المصدر السابق ص ١٠٩ .

(٨) ديوان التلعفري : ص ٤٦ .

الفرنجيات ، وسمى فصائده المذكورة الثغريات ، وكنا قد وقفنا عندها طويلاً ،
 وشرحناها بالتفصيل خلال ترجمه الشاعر المذكور ،
 لم يقتصر الامر على وصف المحبوب الفرنجي ، وإنما تفداه الى اقتباس
 بعض معاني الحرب ، واستخدامها في الغزل ، نذكر من ذلك قول الشرف
 الانصاري :

ملاَمَكْ في الهوى يُغري وُشجى فهلْ مِنْ عاذِرٍ لى مِنْكَ يُنْجى ؟
 أما مِنْ مُسلمٍ ينْهالكُ عنيْ فإنى مِنْكَ في أسْرِ الفِرْنِجِ (١)
 ونذكر ايضاً قول اللعفري :

حميتْ شُقبَقَ الخَدْ بِالْمَقْلَةِ الكَحْلَا ونَقِثَتْ رَمَحَ القَدِّ بِالطَعْنَةِ النَجْلَا
 وأوتِرَتْ قوسي حَاجِبِيكَ ففَوِّقَتْ من النظر السَّامِي الى مَقْلَتِي نَبْلَا
 وأطلعتْ مِنْ جِيْشِ الجَمَالِ طلائِعاً فما رخص الاسرى ، وما اكثَرُ الفَتْلَى ! (٢)

ولاحظنا بالاضافة الى ذلك وجود عنصر ثالث غريب ، وهو ظهور بواذر
 الغزل بالعنصر النثري كما هو الشأن عند ابن منير الطرابلسي .

هكذا نجد الشاعر في هذا العصر يخرج في موضوعاته عن المعاني التقليدية
 فهو يعرض عن التغزل بالحبيب العربي ، ويتطرق بحكم ظروفه الخاصة الى
 العنصر التركي والكردي والفارسي والفرنجي والنتري ، حتى تطرف بعضهم
 فشهب بالعنصر الهندي وغيره .

هذا فيما يتعلق بشخصية من تغزل به الشعراء ، ويبقى علينا أن نقف
 عند الاوصاف العامة التي خص بها .
 أما الوجه فقد شبه بالبدر تارة ، وبالشمس تارة أخرى ، وفي ذلك يقول
 ابن منير :

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ١٣ ، والديوان ص ١١٤ .
 (٢) ديوان التلعفري ، ص ٥٠ .

قمرٌ ما طلعتْ طلعتْهُ فطُ إلا سجدَ البدرُ لها
لهبي السخَطِ مائى الرضا فهو المعشوقُ كيف اتجها (١)

وبجمع الشاعر في وصفه بين الشمس والقمر :

يا حبذا ذاكَ الفزا لَ لو شفاني غزلا
بدرٌ إذا البدرُ سرى فيه المحاقُ كمُثلا
شمسٌ إذا الشَّمسُ خبتْ تحتَ الكسوفِ اشتعللا (٢)

يلاحظ أن الشاعر فضل حبيبه على النيرين معاً لأنه لا يصاب بالكسوف
كالشمس ، أو المحاق كالقمر ، ولكن هل نسي كسوف الموت ومحاقه ؟ صيغ
البدر على صورة الحبيب ، فلا فخر له إذا :

قمرٌ لا فخرَ للبدرِ سوى أنه صبيغٌ على صورته (٣)

لم يكتف أسامة بتشبيه طلعة الحبيب بالشمس والقمر ، وإنما وضع
الصورة الجمالية ، فقصر صفة الشمس على الحبيب في النهار ، وصفة القمر
عليه في الليل :

أنا أفدي مفري بصدي وهجري وهو شمسي ضحاً ، وفي الليل بدري (٤)

ويقول أيضاً في قصيدة أخرى :

أجتلي منه في ضحا اليوم شمساً وأرى منه في دُجا الليل بدرًا (٥)

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٨١ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٢ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٣ .

(٤) ديوان أسامة بن منقذ : ص ٢١ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٢ .

ويلاحظ أنه يقرن شمس الحبيب بليل شعره ليعطينا من هذه الصورة
المناقضة معنى جميلاً .

شمس "ليل" فاعجب لشمس ضحاً تشرق ، والليل راكد يدجو (١)

ويعبر عن المعنى ذاته في قصيدة أخرى ، ولكن الغريب أنه بنخيلها وهي
قائمة في أعلى بان في كشب من الرمل :

هي الشمس تبدو في رداء من الدجا على خطوط بان في كنيب من الرمل (٢)

أما التلعفري فيود لو تنطق الشمس فتحدث عن محاسن حبيبته ،
لكن الله قد أنطقها كما شاء الشاعر :

لو تنطق الشمس قالت وهي صادقة ما في فيها ، وما في الذي فيها
هبني أمائلها نوراً وفرط سننا من أين أملك معنى من معانيها (٣)

والاغرب من صورة الشمس تشخيص القمر ، وقد خر ساجداً أمام
المحبوب :

لك وجه جل من صورة لو رآه بدر تم لسجد (٤)

والاغرب منها صورته وهو يحثو التراب في وجه البدور الكوامل :
وما كلف الأقمار إلا لائته حثا الثرب في وجه البدور الكوامل (٥)

نتجاوز حديث الوجه والشعر بشكلهما الكلي لننحدث عن العيون وسهام
الالفاظ الفاتكة من نظراتها . يقول ابن الساعاتي :
وأحور في عينيه هاروت بابل رمى فاتقينا نبله بالمقاتل

(١) المصدر السابق ، ص ٩ .

(٢) ديوان : سامة بن منقذ ، ص ٣٧ .

(٣) ديوان التلعفري ، ص ٦٠ .

(٤) العماد الكاتب ، الخريدة ح ١ ص ٤٤٤ .

(٥) ديوان ابن الساعاتي ، ح ٢ ص ٢٧ .

يدافع عن الحافظ بجفونه ولم أر جفناً صالاً دون المناصِلِ (١)
ويتحدث ابن قسيم عن اللاحاظ :
تقلد من الحافظ مثل غضبه فأصبح يعتد الجفون من القرب

ويتحدث الشاعر نفسه عن سقام الاجفان :
أما والذي أهدي الفرام الى القلب لقد فتنتني بالحمى عين السرب
ومتنا ولكن عن جفون مريضة عرفن مكان الحب من كبد الصب (٢)

وأطال الشعراء في حديثهم عن مرض الاجفان وتكحلها بالسقام . من ذلك
قول ابن القيسراني :

به كل نشوانة لحظها يطرق بين يدي عريضة
صوارم قاطعة في الجفو ن فهي مجردة مغمدة (٣)

ويتحدث الشاعر نفسه في مطلع إحدى قصائده عن علة الحلق وصحتها :
لا يفرئك بالسيف المضاء فالظبا ما نظرت منه الظباء
حلق صحتها علتهها ربما كان من الداء الدواء
مرهفات الحد أمهاها المها وقضاها للمجبن القضاء (٤)

تلك هي معان تكررت عند شعراء هذا العصر ، إذ لا جديد فيها ، وإنما
كانوا بدورون في الفلك نفسه الذي دار فيه السابقون منهم ، ونحن نكتفى
منها بهذا القدر ، لنعرض صوراً أخرى عن الوجنات كما وصفها شعراء هذا
العصر . تحدثوا فيها عن جمال الخدود ، وشبهوها بالورود الأرجوانية
وسقوها بماء الملاحه ، وأرثوا فيها نيران الحياء . يقول الشرف الانصاري :

-
- (١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٧ .
(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٣٦ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٣٥ .
(٤) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٦٩ .
(٥) المصدر السابق ، و ٣٠ .

في خدك^١ اللهبي^٢ الأرجواني^٣ ورد^٤ بغير لحاظي غير مجنبي^٥
ملكتني بجمال^٦ ضم^٧ جملته^٨ قضيب^٩ بان^{١٠} عن الأدناس مثني^{١١} (١)

ويقول أسامة أيضاً :

في وجهه ماء الملاحاة^{١٢} حائر^{١٣} وبخده ورد^{١٤} الحيا لم يتقطف^{١٥}
فكان^{١٦} وشي عذاره^{١٧} في خده^{١٨} نمل^{١٩} سرّب^{٢٠} فوق ورد^{٢١} مضغف^{٢٢} (٢)

ويتحدث عن نار الحياء • لكنها بغير لهب :

نار^{٢٣} الحياء بخدينه^{٢٤} بلا لهب^{٢٥} قد مازجت ماء حسن غير منسكب^{٢٦} (٣)

ويجمع ابن قسيم بين الماء والنار :

كان^{٢٧} بخده ماء^{٢٨} وناراً^{٢٩} تولد^{٣٠} منهما لبل^{٣١} العذار^{٣٢}
سقالك^{٣٣} على تورّد^{٣٤} جلتار^{٣٥} الـ خدود^{٣٦} مدامة^{٣٧} كالجلتار^{٣٨} (٤)

اتخذ غيره من الشعراء وجنة الحبيب كأسه ، فينادي ابن القيسراني :

يانديمي^{٣٩} وكأسي^{٤٠} وجنة^{٤١} ضرت^{٤٢} جنتها^{٤٣} باللحاظ^{٤٤} الرقيب^{٤٥}
لا تظن^{٤٦} الورد^{٤٧} ما يسقي^{٤٨} الحيا^{٤٩} إنما الورد^{٥٠} الذي يسقي^{٥١} الحياء^{٥٢} (٥)

تفنن الشعراء في وصف حياء الحبيب وخفّره ، من ذلك وصف أسامة

أمواه الحباء من خجل العتاب :

وعرته^{٥٣} من^{٥٤} خجل^{٥٥} العتاب^{٥٦} كآبة^{٥٧} زادت^{٥٨} محاسن^{٥٩} وجهه^{٦٠} أنوارا^{٦١}
ورأيت^{٦٢} أمواه^{٦٣} الحياء^{٦٤} بخده^{٦٥} فترقفت^{٦٦} حتى^{٦٧} استحالت^{٦٨} نارا^{٦٩} (٦)

(١) مسورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٩٠ ، والديوان ص ٥٣٠ .

(٢) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٢٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ح ١ ص ٤٤٦ .

(٥) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٣٠ .

(٦) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٢٠ .

وكانوا كثيراً ما يجمعون بين هذه النعوت المتفرقة في صورة واحدة كما
في شعر الشرف الانصاري :

قسماً بشمس جبينه « وضحاها » ونهار مبسمه « إذا جلاها »
وبنار خدييه المشعشع نورها ولبيل صدغيه « إذا يفسهاها » (١)

تفن الشعراء في رسم الصور الفرعة المكملة ، وبخاصة عشاق الخيلان
منهم ، نشير بصورة خاصة الى ابن منبر الطرابلسي ، فهو بحق ساعر الخيلان
بلا منازع ، اذ تحدث عنها في شعره كثيراً ، ولا بأس أن نعف عند بعض صورته:
نقش الحسن على وجنتيه شامة أشمت حسادي بها
كان قد أعوزها بستانه لم لما أشرفت فيه انتهى (٢)

وجاء شرف الدين الانصاري ، فطبع الخيلان بطابع بديعي جناسي ، نذكر
من ذلك قوله في ربة الخال :

يا ربة الخال كفتي عن عتاب فتى جم الوفاء كريم العم والخال (٣)

تم وصف لنا خدأ تعالى أن يقبل :

منع العاشق خدأ يتعالى أن يقبل
حسد الصدغ عليه فتأوى وتبلى
خلت فيه الخال قلبي إذ غدا في النار يشعل
كيف أسلوه ؟ وليلي جعل الآخر أول (٤)

كما تحدث الشاعر نفسه عن ربة الخالين :

لنا من ربة الخالين جارة تواصل تارة وتصد تارة (٥)

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٨٩ ، والديوان ص ٥١٥ .

(٢) العماد الكاتب : الحريدة ج ١ ص ٤٤٦ .

(٣) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٦٩ ، والديوان ص ٤١٢ .

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) و ١٢٩ .

(٥) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٣٠ ، والديوان ص ٢٠٠ .

وورى بالخالين ، وقرنهما بذكر العمين ، وهو موجود في عمان ؛
اندي حبيباً منذ واجهتهُ عن وجه بدر التّم اثْناني
في خدهِ خالانٍ لولاهما ما يتّ مفتوناً بعمّان (١)

أما ابن الساعاني فلم يكتف بخال واحد كابن منير ، أو بخالين كالشرف
الانصاري ، وإنما نخيل في وجنبي حبيب أغن معسول المرافف كثيراً من
الخيالان تحير عقل الناظر المتعجب :

وأغنّ معسول المرافف أشنبِ صانُ الجمال بهجرةٍ وتجنّبِ
يبدو وللخيالان في وجناتيه معنىٌ يحيرُ ناظرَ المتعجبِ
وجهٌ كما سقر الصّباح لثامتهُ فعلامٌ فيه بقيةٌ من غيبٍ (٢)

جمع ابن منير بين صحيفة الخد ، ونقطة الخال ، ونبات العارض في
صورة مطبوعة بطابع ديني ، ذلك أن هذه المحاسن المشار إليها إنما تجمعت في
طلعة حبيبه ، فحسبها القرآن الكريم ، وهذا التخيل مظهر هام جداً من
مظاهر استخدام الصور والمعاني الدينية إسلامية وغير إسلامية في الغزل .

لم يكتف الشعراء بهذه الصور التي رسموها للوجنات والخيالان ، وإنما
احاطوها بإطار فني مزخرف من العذار والأسداغ ، وتخليلوا فيها العقارب
والشعابين وغيرها .

أما العذار فهو صفحة منمقة بأجمل الخطوط يقرأ فيها الشاعر ما يخطه
خياله ، وقد قرأ فيه الشرف الأنصاري الواو والنون :

قرأتُ خطَّ عذاريه فاطمعتني بواوٍ عطفٍ ووصلٍ منه عن كُتّبِ
وأعربتُ لي نونُ الصّدغِ معجّمةً بالخالٍ عن نجحٍ مقصودي ومُطلبِي (٣)

(١) ابن تفردي بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ، ج ٢ و ٣٣٠ ، وملحق الديوان
الاول ص ٥٧١ .

(٢) ديوان ابن الساعاني ، ج ٢ ص ٦٦ .

(٣) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٩ ، والديوان ص ٩١ .

بيد أنه يؤخذ مسجوراً بنون الصدغ ، فيعبد ربه على ذلك الحرف :
يلوحُ لعيني ماشقاً نونَ صدغِهِ فأعبدُ خلاقي على ذلك الحرف (١)

ويزداد عجب الشاعر نفسه لدى رؤيته صدغاً معقرباً ، فيقدس رب الجمال :

قلتُ وقد عقربَ صدغاً له عن مشقةِ الحاجرِ لم يحجبِ :
قدّستُ ياربَّ الجمالِ الذي التفَّ بينَ النونِ والعقربِ (٢)

رسم ابن الساعاتي سورا للصدغ ، تختلف عما رآناه ، كما في قوله :
يزهي بصدغٍ لو حظيتُ بعطفِهِ ما ذُبتُ منْ شوقي إلى معطوفِهِ
ولحسنِ خطِّ في صحيفةٍ خدّه رَقَمَ الضحّا بالجنحِ نظمَ حروفِهِ (٣)

وتخيل ابن منير كرمه عارشة في صدغه :
صدغه كرمه خمرٍ قسّمتُ بين خديهِ إلى تكهتِهِ (٤)

وهو لا ينسى خلال ذلك ما خطنه سوائفه على الوجنات من رقى عندما

شهدت الصدغ بتثعبن ويتعقرب :

وتوقدت في الروض من وجناتِهِ نارُ الحياءِ يشبها ماءُ الصبّا
خطتْ سوائفه عليها رقيةً لما تثعبنْ صدغُهُ وتَعقربا (٥)

جری عرقلة في هذا المضمار أيضاً ، فنأدى بني الأعراب يستجير بهم

من الترك :

يا بني الأعرابِ إن التركَ قد جارتْ بنوها

(١) المصدر السابق ، ل ٥٥ ، والديوان ص ٣٣٥ .

(٢) المصدر السابق ، ل ٧ ، والديوان ص ٧ .

(٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ١٠٢ .

(٤) العماد الكاتب : الحريدة ، ج ١ ص ٨٣ .

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٤ .

عَقَرَبُوا الْأَصْدَاغَ حَبْنًا وَلِحَيْنِي ثَعْبَنُوهَا (١)

وكانما قد سحره ما قرأه في هذا اللون من لام وواو ونون : لام العذار ،
وواو الصدغ . ونون الحاجب كما في هذه الرباعية :

أَقْسَمْتُ بِوَائِ صَدَغِ هَذَا الْحَاجِبِ فِي لَامِ عِذَارِهِ وَنُونِ الْحَاجِبِ
لَوْ عَايَنَهُ ابْنُ مَقْلَةٍ (٢) وَالصَّاحِبِ (٣) قَالَا عَجَبًا لَدَيْهِ : جَلُّ الْكَاتِبِ (٤)

استخدم الشعراء الصور الدنيئة في وصف الاصداغ ، وقد اتبعنا ابن
القيسراني بصورة فنية في معرض حديثه عن الصدغين ، واخرجهما مخرجا
موفقا بتصنعه حسن التعليل . وذلك في القصيدة التي سبب فيها بمارية :

وَقَدْ غَلَبَ الْمَصْبَاحُ فِيهِ عَلَى الدَّجَا سَنَا قَمَرٍ فِي جَنَحٍ لَيْلٍ مُجَعَّدٍ
فِيَالِي مَنْ وَجْهٍ كَقَنْدِيلٍ هَيْكَلٍ عَلَيْهِ مِنَ الصَّدْغَيْنِ مُحْرَابٌ مُسَجَّدٍ (٥)

استخدم أسامة بن منقذ المعاني المدنية في صورة موفقة من الكعبة والحج
كما في قوله :

فِي وَجْهِهَا كَعْبَةُ الْجَمَالِ فَلِلنَّعْبِ نِ إِلَى حَسَنِ وَجْهِهَا حَجٌّ (٦)

لم يقف الشعراء كلهم من هذه المعاني المار ذكرها موقفاً واحداً ، ذلك أني
لاحظت اختلافاً بينها ، إذ إن بعضهم كان يضيف عليها طابعا محلبا معروفا كما
رأينا ، نذكر من ذلك ابن قسيم الحموي ، فقد تحدث عن حبيب مرسل

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن مقلة : محمد بن علي بن الحسين بن مقلة وزير من الشعراء الادباء ويضرب
بحسن خطه المثل ، وقد توفي سنة ٣٢٨ هـ .

(٣) هو الصاحب اسماعيل بن عباد وزير غلب عليه الادب ، ولقب بالصاحب لصحبته
مؤيد الدولة ، وتواقيعه آية الابداع في الانشاء توفي سنة ٣٨٥ هـ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٨٩ .

(٥) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٧٥ .

(٦) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٩ .

الصدغ ، ونطرق إلى ذكر مواشطه اللواتي « أخفين عقرب خده »^(١) لما راين
 أنه ليس في حمص عقرب ، وقتلنه « بعقارب الإصداغ »^(٢) .

يحسن بنا ان نذكر هنا نعاين الذوائب وهي تتدلى على الكتفين . ويظهر
 ان عرقلة كان يخشى اذاها وهي تتلوى على كنفه حبيبه :
 أخشى على كتفيه من ذوائب وكيف لا اتخشى وهي ثعبان لا^(٣)
 اما أسامة فقد راعه ذلك الحاوي الذي تخيله :
 وانظر الى الأغصانِ حَا ملةً شموساً في غياهبِ
 من كل حاورٍ قد تكتئفهُ نعاينِ الذَّوائبِ^(٤)
 تلك هي محاسن الحبيب كما تخيلها وصورها شعراء هذا العصر .
 ويبقى علينا لنتم هذه الصورة ان نتحدث عن الثغور والارياق والشفاه .

لعل أبرز ما يلفت النظر ان الشعراء كانوا ينتهزون هذه المناسبة في شعرهم
 ليتحدثوا عن الصهباء واكوابها من خلال اوصافهم ، نبدأ بحديث الثغر والريق
 والكأس ، فنستمع الى الشرف الانصاري حين المّ به طيف حبيبه :

لم انسَ ليلةً طافت بي عواطفه^١ فزارني طيفه صدقاً بلا كذبِ
 وكأس ثغرٍ شهيقٍ منذ فزت به^٢ قلتُ : العفاء على كأسِ ابنة العنبِ
 ورحمت لم أدر عقلي هل فجعت به^٣ من نخوة العز أو من نشوة الطرب لا
 أقسمتُ ما في ضروب السكر أبلغ من^٤ كأسِ بريقٍ له أحلى من الضَّرْبِ
 نشوان أسألُ عن قلبي فينكره^٥ تيهاً ويسألُ عني ، وهو أعرف بي^(٥)

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٤٤٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥٦ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٤ .

(٤) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٥ .

(٥) مسودة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٩ ، ١٠ ، والدبوان ص ٩٢ .

ولُستمع إلى الشاعر نفسه يصف لنا رضاب غادته :

أيُّها الرِّيقُ مِنْ شَكْرٍ (١) سَكَّرَ أَنْتَ أَمْ سَكَّرَ ؟
أرشفَتنيك غِداةَ تَقْمَرُ (٢) الشمسُ والقَمَرُ (٣)

ونستمع إليه أيضا يسأله شربة من ريقه :

سألتُهُ مِنْ رِيقِهِ شَرْبَةً أطفئ بها من ظمئي حَرَةً
فَقَالَ : أَخْشَى ياشَدِيدَ الظَّمَا أَنْ تَتْبَعَ التَّرْبَةَ بِالْجَرَّةِ ! (٤)

تحدث أسامة عن دور الثغر وأقاحه ، وجمع بين الريق والرحيق :

وثَفَّرَ أَمْ لَالٍ أَمْ أَقْصَحَ وَرِيقٌ أَمْ رَحِيقٌ بَنْتُ دَنْ ! (٥)
ويذوق الشاعر كسابقه ريق الرحيق ، فاذا هو سَعِيرٌ فِي كَبَدِهِ ، وَثَلَجٌ فِي فَمِهِ :

رَحِيقٌ رِيقٌ عَذْبٌ ، ففِي كَبَدِي مِنْهُ سَعِيرٌ ، وَفِي فَمِي تَلْنَجٌ (٦)

كما تحدث الشعراء - بالإضافة إلى ذلك - عن ضيق الثغر ، فشبهوه

بالخاتم ، وقد ألم ابن القيسراني بهذا المعنى في قوله :

لله مَوْقِفْنَا ، وَقَدْ ضَرَبَ الدَّجَا سِتْرًا عَلَيْنَا مِنْ جَفَوْنَ النَّائِمِ
وَفَمِي يُقْبَلُ خَاتَمًا فِي كَفِّهِ قَبْلًا تَفَالُطُ عَنْ فَمٍ كَالْخَاتَمِ
كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى مَرَاشِفِ نَفْسِهِ عَيْنُ الرَّقِيبِ قِدَاةُ عَيْنِ الْحَائِمِ (٧)

أما ابن منير فيموت سكرًا ، ولا يعرف سبب سكره ، هل كان من خمر

رضاب شفتيه أم من ريقه :

(١) شَكَّرَ : جمع شكر ، وشكَّرَ الكرم قضاياه الطوال أو الاعالي ، وقال أبو حنيفة

الشكير هو الكرم يفرس من قضيبه .

(٢) تَقْمَرُ : تغلب .

(٣) مصوغة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٣٤ ، والديوان ص ٢٢٠ .

(٤) المصدر السابق ، ل ٣٨ ، والديوان ص ٢٤٠ .

(٥) ديوان أسامة بن مقد ، ص ٤٦ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٩ .

(٧) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١١٢ .

أيُّها الراقِدُ عندي سهرٌ يكمدُ الواشني ويُبكي العاذلينُ
متّ سكرًا ، أفمينُ كأسٍ طلاء راقٍ لي ربك أم من سفينُ ؟ (١)

نكتفى بهذا القدر مما استوحاه شعراء العصر من محيا الحبيب ، وكانوا كثيرا ما يضعون هذه الصور الجمالية في أعلى غصن ماس ، من فدممتوق تحط به كئبان من الازداف العيلة . اخذ الشعراء هذه المعاني من سابقهم ولم يغيروها كثيرا . اذ انهم حفظوا لنا هذه الصورة التقليدية ، لان مفاهيم الجمال عند الامم لا تتغير بسرعة . وصحيح أن الشعر العربي شهد أنماطا مختلفة من محاسن الفرنج والترك والتار ، وصحيح أيضا أن بعضهم صوره نصورا امينا ، بيد أن الجلة من الشعراء صانوا هذا المفهوم التقليدي ، فكان شعرهم في حقيقته صوره مكرره في معظم جزئياتها وكتيباتها .

وصف فتبان الشاغوري القد والخصر والردف بقوله :

شكا فؤادي من عبء الهوى تعباً كما شكا خصره من ردفيه تعباً
بهز أعطافه دل الصبا فتري غصناً من البان يثنيه النسيم صبا
يا مطلق البدر فوق الغصن معتدلاً يلوح مابين شر بوش وطوق قبا (٢)

ووصف عرقة الكلبى ذلك أيضا بقوله :

قوموا انظروا واعذروا يا غافلين الى بدر تبادر من أفلاك ازرار
على قضيب اراك في كتيب نقأ تهزّه خطرات ذات اخطار
مارامت الروم ، والاتراك ما تركت أدق من خصره في عقد زتار (٣)

وهام ابن الساعاتي أيضا بالقدر ، وهوي من اجله نسيم الشمال :
أبى الحسن إلا أن أهيم بقده فمن أجله أهوى نسيم الشمال

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٥ والابيات غير موجودة في الديوان .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٥ ، والديوان ص ٤٣ .

ولولا تثنيه لما بت سامعاً إلى كل غصن شائقات بلايلي
إذا أطرب الاسماع نطق نطاقه فيا خجلة اللاحي وعي العواذل (١)

ونغدو القوام في ذهن الشاعر رمحا مترعا نقتل العشاق :
وهبفاء تقتل عشاقها برمح القوام وسيف الحور (٢)

ويجمع أسامة بين الدعص والغصن :
غصن ودعص فالغصن من هيف يميس ليناً ، والدعص يرنج (٣)

ويغرب ابن القيسراني ، فيبالغ في وصف قتل الاردا ف حتى بحسبها
الناظر انها مقعدة :

تري كل مستضعف خصره إذا ما دعا طرفه أنجده
وذا تر روادف عند القيا م تحسبها أنها مقعدة (٤)

نستطيع من خلال هذا المثل البديع الذي رمز الى مفاهيم العرب عن
الجمال ، ومن هذه الصورة التي رسمناها لصورة الحبيب ، القول ان شعراء
هذا العصر اخذوا من الشعر العربي القديم كثيرا من المعاني التي اتينا على
ذكرها ، بيد أنهم مع كل ذلك لم يتعبدها تماما ، وانما عبروا عن كثير من
المعاني الجديدة المستحدثة التي استدعتها طبيعة حياتهم وما فيها من أحداث
وأحوال وتطور في الحياة الاجتماعية .

احوال المحب

ننتقل بعد ذلك لنصف احوال الشعراء المحبين الذين أضناهم العشق ،
فنحلت - كما يزعمون - منهم الاجسام ، واشتد حزنهم وجرت عبراتهم ،

-
- (١) ديوان ابن الساماني ، ج ٢ ص ٢٧ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٧ .
(٣) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٩ .
(٤) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٦٩ .

وتأثرت شوقهم ، فنحا بعضهم في وصف حاله منحى الشعراء العذريين ، ونحا بعضهم الآخر منحى الشعراء الماديين . وصف الشرف الانصاري حاله بعد أن أبعدته وجفاء حبيبته ، كما مر معنا ، ونراد في قصبده أخرى يعلن أنه غدا في الحب أماما ويورد حوارا لطيفا يخاطب به الحبيب الهاجر :

أنا في الحب إمامٌ فإذا	صرتَ مِنّ أبنائه فاخضع لديّ
لا سلّ غيري عن شرع الهوى	وخذِ التنزيلَ فيه عن أبى
وبلبسان لباناتٍ لنسا	عند حيّ ذكرهم في القلب حيّ
واختصر في شرح أشواقي فإن	رمتَ إسهاباً فوكل مقلتي
سادتي فارقتكم فاستبلت	بنواكم راحتي من راحتي
فاجبروا قلبي بشيء منكم	فلقد أوتيتهم من كل شيء
قلت : قد أضنيت جسمي ، قال : قد	قلت : كي نذهب روحي ؟ قال : كي
قلت : أفديك بنفسي ، قال : مه !	ما أليك الأمر فيها بل إلي (١)

أما أسامة بن منقذ فقد سأله أحد الناس عن حاله فأجاب :

ياسائلي عما ربه	سرّ المحبّ علانيه
انظر إلى جسدي لتخ	برك العظام العاريه
عن مهجة بالهجر قد	تلفت وعين جارية
وصبابة لا أستطيع	ع ابتها هي ما هيّه
ولمن الوم ؟ وإنما	عيني على الجانيه (٢)

كان الحبيب في معظم الاحيان كما تخيله الشعراء قاسيا لا يلين ولا يرحم ، فوصله عند عنقاء مغرب ، ووصله أبعد من السها والفراق :

(١) مصودة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٩٠ ، والديوان ص ٥٢٤ .

(٢) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٥٢ .

اتزالك يعطفك العتابُ وقلمًا يثني العتابُ عنان قلبٍ شاردٍ
هيهاتَ وصلكُ عند عنقا مغرب ورضاكُ أبعدُ من سها وفراقدا (١)

بالغ الشعراء في وصف الضنى والسقام ، حتى ان عرقلة تصور نفسه
وقد غدا شبعا :

عندي إليكم من الأشواق والبرحاً ماصيرَ الجسم من فرط الضنى شبعا
أحبائنا لانظنثوني سلوتكم الحال ما حال والتبريح ما برحا
لو كان يسبح صبّ في مدامعه لكنت أول من في دمعته سبحا (٢)

ويفرق ابن قسيم في المبالغة ، فيغدو بلا قلب وبلا جسد :

يا أين الصبر فأنشدته وعساي أدل على الجلد
ظعن الأحباب وعندهم قلبي سلبوه ولم يغسدا
وبراني السقم بهم فبق ست بلا قلب وبلا جسد (٣)

ان العلاقة بين الحبيب الظالم والشاعر المحب المظلوم علاقة مولى وعبد
وسيد ومسود ، وهذه ظاهرة هامة معروفة في الشعر العربي قبل هذا العصر
ولكن الشعراء في هذا العصر أسرفوا فيها كل الإسراف فأصبحنا نعثر بكثرة
على القاب الاجلال والتعظيم ، وقد سرت عدواها الى الاغزال بشكل يلفت
الانظار . سمعنا الترف الانصاري من قبل يخاطب حبيته بقوله « سادتي » ،
وهذا ابن منير يخاطب حبيبه بقوله : « مولاي » :

مولاي قد ذبت صبرا وكم تذيب مطالا
ما كان عهدك إلا مثل السلو محالا (٤)

ويقول في قصيدة ثانية بعد ان عطف عليه حبيبه :

(١) المصدر السابق ، ص ١٢ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٨٢ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٤٥ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ٨٣ .

بأبي بمن صد عنى وصدف^١ ثم لما ملّ من هجري عطف^٢
قلت : مولاي أحق ما أرى بعدما حكمت في روعي التلف ؟
قال : من أحمد شيء في الهوى عقب الصبر وتأمل الخلف^٣
نحن نحى من أمتنا كرماً وعفا الله لنا عما سلف^٤ (١)

نلاحظ أن المبالغة تبلغ منتهاها بالإضافة الى لفظة الفخيم، اذ ان الحبيب غدا يحبي ويمبت ، وتلك هي صفة الله عز وجل . يجب الا يقب عن أذهاننا ما رأيناه من الاصطلاحات والمعاني الصوفية التي أدخلها الشعراء في نسبهم واغزالهم كما رأينا ذلك بالفصيل في شعر الشاب الطريف وهي موجودة بشكل بارز في شعر ابن عربي . وهكذا نستطيع أن نتبين أثر الشعر الصوفي في تطور معاني النسيب والغزل في شعر هذا العصر ، ولنا في شعر نجم الدسن بن سوار الدمشقي (٢) المتوفى سنة ٦٧٧ هـ خير دليل ذلك .

عشرات الحب

تعرض المحبين من الشعراء عشرات كثيرة ، وقد وردت في شعرهم بشكل ظاهر ، اذ شكوا من المتطفلين عليهم ، ونعتوهم بأقبح النعوت ، وسموهم بأسماء مختلفة : منهم العدول، والرقيب، والواشي، والكاشح وغير ذلك . ومن النادر أن يتغزل الناصر دون أن يأتي على ذرهم من قريب أو بعيد ، اذ ان ذلك يعد في نظرهم من المعاني الاصلية التي لا يتم الغزل أو النسيب بدونها .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٦ .

(٢) ابن تفردي بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٢٨٣ .

العدول والرقيب

يجدر بنا أن نفرق بين هذه الاسماء ، وان تداخلت معانيها في عرف الشعراء . والظاهرة العامة أنهم كانوا يفرقون بينها ، فأما العدول فقد تكرر ذكره أكثر من غيره ، اذ هو أقرب الناس الى الشاعر . لانه يكون في غالب الاحبان الناصح اللائم الذي كان يشفق على حاله كما وصفناها من قبل ، وذلك ان صدق الشاعر في دعواه ، وهو على الرغم من نصحه ولومه ، فانه كان معرضا لثورة الشاعر عليه ونعته بمختلف النعوت ، اذا كان بذلك يذكي صبابهم ويجدد ذكرياتهم كما يقول أسامة :

بنفسي عدولٌ لامَ فيكمُ فردٌ لي بذكركمُ روح الحياةِ عدولٌ
لحي ناصحاً فيكمُ فأذكى صبابتي وتذكي الرياحُ النارَ وهي بليلى
أسوفُ صعيدِ الأرضِ إذ وافق اسمه صعيداً بهِ أهلُ الحبيبِ نزولُ
وأغدو على «أسوان» أسوان في الحشا لبعدي عنها لوعةٌ وغيليلُ (١)

وتسوء العلاقة بين الشاعر ومحبيه ، ويتمت به عاذله لانه لم يستمع الى نصحه ، فيخطبه قائلاً :

انظرُ شماتةَ عاذلي وسروره بكسوفِ بدري واشتهارِ محاقه
غطى ظلامُ الشعرِ من وجناته صبحاً تضيءُ الأرضُ من إشراقه
وهو الجهولُ يقولُ : هذا عارضُ هو عارضُ لكنْ على عشاقه (٢)

وتزداد العلاقة سوءاً بينهما فيأسى أسامة قائلاً :

ويحُ العواذلُ ، لا خلاقَ لهمُ وهَمّوا ، ولم تصدقهمُ الفكرُ (٣)
ويصرح عرقلة لعواذله بأنه يجب حبيبه ، ويسخر من تساؤلهم عن

(١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٩٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٩ .

سبب حبه :

قالَ العواذلُ ، ما الذي اسنحسنتهُ منه ؟ وما يسبيك ؟ قلت : جميعه (١)

ويوضح سبب ثورة الشعراء هذه على عدالهم ، فينادي ببناء أسامة :
 ويحَ العواذلُ ، هل يُفشي نورهُ أبصارهم ، أم كبفَ يخفى يوح ؟ (٢)
 لاموا وقد نظروا ملاحه وجهه واللومُ في الوجه المليح قببح (٣)
 أما شرف الدين الانصاري ، فيخاطب عاذله ، ويود لو ذاق حرارة الحب
 مثله ، فهو خلو منه حين يلوم وبعذل :

يا عاذلي ليس مثلي مَن تخادعهُ ولبس مثلك مأموناً على عذلي
 ما دمتَ خلواً فلا تنفك متهماً اعشق وقولك مقبول علي ولي (٤)

ويلح العذول في تعنيفه ، فيخاطبه الشاعر محققاً :

حتامَ تعذلتني وحتى ؟ هو ما علمت وما جهلنا
 حب لو انك ذقتَه لعذرت فيه من عذلتنا
 فدع السفاهة لي أنا وخذ الرشاد إليك أنتنا
 أو لا فأسعدني على شوقٍ سهرت له ونمتنا (٥)

ويظفر الشاعر بعذوله بعد مغالبة ، لكنه يعاقب من حبيبه بالتيه :
 إذا دنا فالدلال يبعده وإن نأى فالخيال بدنيه
 غالبت من عذلي جابرة فكيف عوقبت منه بالتيه ؟ (٦)

(١) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٨٢ .

(٢) يوح : ويوحى من اسماء الشمس .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٩٢ .

(٤) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٦٧ والديوان ٤٠٠ .

(٥) المصدر السابق ، ل ١١ ، والديوان ص ٩٩ .

(٦) المصدر السابق ، ل ٨٧ ، والديوان ص ٥٠٤ .

وأما ابن الساعاتي فانه يذكر عاذله بعدم جدوى لومه ، إذ يخاطب منه
غير السميع :

اعاذلْ عدَّ عن عدلي ولومي فانت مخاطبٌ غيرَ السميعِ
وإنك ما علمتْكَ من أناسٍ حوتْ أَقلامُهُمْ رِقَّ البديعِ
فهل خاطبت أبلغَ من سقامي ؟ وهل شافهت أفصحَ من دموعي؟^(١)

قد يرق العاذلون أحيانا فيشفقون على المحب من عذابه ، « وأدهى
الحبَّ ما رِقَّ منه العذولُ »^(٢) .

هذا هو العذول كما نخيلناه من خلال شعر هذا العصر ، وعلى الرغم من
كل ما وصفه به الشعراء ، فإننا نشعر بصدق العاطفة نحوه . إذ هو في الغالب
الناصح اللائم الذي حكم عقله لينقذ الشاعر من سفائه وعذابه .

كان الشاعر - بالإضافة الى العذول - يخاف عين الرقيب ، فقد كان
يقض مضجعه ، لئلا يفتضح أمره ، ويشيع ذكره . يقول أسامة :

راقبتْها العيونُ يا ليتها ليسَ تنظرُ
فهو من خشيةِ المرا قبرٍ يهوى ويهجرُ^(٣)

ويتحدث عرقله عن الرقيب في معرض وصفه نحول جسمه :
لو أرادَ الرقيبُ ينظرُ جسمي ما رآه من النحولِ الرقيبُ^(٤)

أما ابن قسيم فيخالف شعراء العصر ، فيمدح الرقيب قائلا :
عابوا الرقيبَ ، ولولاهُ لما حُمدتْ عواقبُ الحبِّ ، وانسأغت مشاربهُ
ولست أعدلهُ فيما يحاولُ من حفظِ الأجرةِ ، بل لا كان عائبهُ

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٨ .

(٣) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ١٦ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ج ١ ص ١٨٨ .

إنني لأعشقُ عذالتي ، على كلفني به ، ويحسنُ في عيني مُراقبتهُ (١)
 وضح لنا الشاعر معنى الرقيب ، فهو الحافظ الأمين الذي يرسل من
 قبل آل المحبوب ، ليحرسه من كل طارئ وعارض .

تلك هي صور عابرة عن العذول والرقيب ، أو العذول الرقيب إن صح
 التعبير .

الواشي والكاشح

تحدث شعراء هذا العصر أيضاً عن الواشي والكاشح ، وهما شخصيتان
 لهما مكانهما في مسرح الشعر العربي ، وتختلفان عما رأيناه في حديثنا عن
 العذول والرقيب .

نحن نعلم أن الواشي كان مكروها عند الشعراء ، إذ أنه كان ينم عليهم ،
 وقد أشار ابن القيسراني إلى هذا المعنى بقوله :

نلحى الوشاة وإن بين جفوننا لمدامعاً تسعى لها بنمائم
 يا أيها المغرّى بأخبار الهوى لا تخذعن عن الخبر العالم (٢)

ويصور في مكان آخر من شعره الوشاة بقوله :

ونهت مدامعي الوشاة فراهم شاكراً صابته بطرف جامد
 ولو أنهم سمعوا اليئة (٣) عبرتي في الحب لا تهموا يمين الشاهد (٤)

ويتحين الشعراء غفلة الوشاة أو غيبتهم ليكسبوا عبراتهم :

لعيني كل يوم منه عبرة تُصيرني لأهل العشق عبرة

(١) العماد الكاتب الخريدة ج ١ ص ٤٣٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١١٢ .

(٣) الالة ، والالة ، والالة والالية على نعليلة ، والالاء كله : اليمين وتجمع على الإباء .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠٣ .

فمَسْجِدُ جَفْنِهَا لَا نَقْصَ فِيهِ وَكَمْ جَهَّزْتُ مِنْهُ جَبِشَ عُسْرَهُ
إِذَا غَفَلَ الْوَشَاةُ أَسَلْتُ دَمْعِي فَيَفْدُو مَرَسَلًا فِي وَقْتِ فِتْرِهِ
عَلَامَةٌ شَقَوْتِي فِي الْحَبِّ أَتِي نَقَلْتُ عَلَيْكَ لَا عَنْ طَوْلِ عِشْرَةِ^(١)

قد يفلح الوشاة في الإيماح بين الشاعر ومعشوفه ، فنحدث الجفوه ،
ويقع الخصام ، وهذا امل الواشي . وفي ذلك يقول أسامة :

أَطَاعَ مَا قَالَهُ الْوَاشِي وَمَا هَرَفَا فَعَادَ يَنْكُرُ مِنَّا كُلَّ مَا عَرَفَا
وَسَدَّ حَتَّى اسْتَمَرَ الْهَجْرُ مِنْهُ فُلُو أَلَمْ يَبْيَأْ مِنْهُ طَيْفٌ فِي الْكُرَى صَدَفَا^(٢)

كرر أسامة كثيراً من ذكر الوشاة واحوالهم ، كما ينضح ذلك في ديوانه^(٣)
أما ابن منير فكانت تورته عليهم شديدة . إذ إنهم اسنطاعوا أن يوغروا
صدر حبيبه ، فقال :

بِاللَّهِ يَا هَاجِرِي بَلَا سَبَبٍ إِلَّا لِقَوْلِ الْوَشَاةِ إِذْ زَعَمُوا
هَلْ قُلْتُ لِلطَّيْفِ : لَا يَعَاوِدُنِي بَعْدَكَ ، أَمْ قَدْ وَفَى لَكَ الْحُلْمُ ؟
يَا رَبِّ خَذَلِي مِنَ الْوَشَاةِ إِذَا قَامُوا وَقَمْنَا لَدَيْكَ نَحْتَكُمُ^(٤)

نتبع حديث الوشاة بالكاشحين . فأمرهم خطير بالنسبة للشعراء ، لأنهم
يضمرون لهم العداوة والبغض في نفوسهم ، وما سموا بذلك إلا لأنهم يطلون
كشحهم على البغضاء . تحدث أسامة كثيراً عنهم في ديوانه ، وذكر أنه كان
يخشى على سره من أن يشيع ويذيع :

وَلَكِنْ خَشِيتُ الْكَاشِحِينَ فَإِنِّي عَلَى سِرِّنَا مِنْ أَنْ يَذِيعَ شَفِيقُ

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٣٧ ، ٣٨ ، والديوان ص ٢٢٦ .

(٢) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٢٧ .

(٣) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ١٦ ، ٢٥ ، ٣٣ ، ٤٥ .

(٤) العماد الكاتب الخريدة ، ج ١ ص ٩١ .

فأصبحتُ كاليهمان عاينَ مورداً ، وبروداً ، ولكنْ ما إليه طريقُ (١)

تلك هي بعض ما كان يعترض طريق الشعراء في الحب من عثرات ومنغصات ،
أتبنا على ذكرها بدقة ليكون الصورة التي نرسمها كاملة .

ولا بد لنا في ختام بحثها من الإشارة الى أن الشعراء عظموا الجمال لانه
لا نهاية له ، ولأن فيه سرا الهيأ لا يدرك كنهه .

وغدا في نظرهم ولاية كبيرة ، له ملك ودولة وسُلطان (٢) ، وكان المحبوب
صاحب ذلك كله ، عنده جنده وأعدائه . يأمر وينهي ، ويسلط عدوانه على
رعيته ، وفي هذا المعنى يقول التلعفري :

‘جرت لما ملكتُ ، فاعدلْ ، فما اقتدِ سبَحَ في ذا جمالكِ العدوانا
ما اتخذتُ الملاحَ جنداً إلى أنْ ‘قمتُ بالحسنِ فيهمُ سلطانا (٣)

لكن شأن الجمال شأن كل دولة تدليها الايام ، وتذهب بها السنون ،
فيفيض ماء الجمال ، وتبلى رياض المحاسن :

قلْ لمنْ تاه بالجمالِ علينا : ما عسى دولة الصُّبا أنْ تدوما
عن قليل ترى قوامك الـ مائسَ قد عاد ذا اعتدالِ قوما
وترى طرفك السقيمَ وقد صـ حَ كأنْ لم يكنْ مريضاً سقيما
وترى جمرَ وجنتيكَ وقد عا دَ رماداً وبقلهْن (٤) هشيما
وئنادي : عدلْ من الله إنْ أصـ سبَحَ ذاكَ النهارُ ليلاً بهيما (٥)

تلك هي قصة الجمال في الشعر العربي بين صباه وهرمه ، أبرزناها

(١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٣٢ .

(٢) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٣٢ .

(٣) ديوان التلعفري ص ٤٨ .

(٤) البغل في الاصل هو كل نبات اخضرت له الارض . ومن المجاز قولنا : بقل وجهه

الغلام وبقل وأبقل أي خرج شعره ، وكره بعضهم التشديد .

(٥) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٤٢ .

بدقة وأمانة ، وقد أشرنا الى ما أخذه الشعراء من سابقهم ، وما جدوده من وحي قرائحهم وبيئتهم ، ووفاء منا للبحث لا بد لنا من وقفه أخيرة لدراسة الغزل المذكور في شعر هذا العصر .

الغزل المذكور

يلاحظ ظهور الغزل المذكور في الشعر ، وقد عرفناه لدى معظم الشعراء اذ كانوا يكثر من ذكر أسماء الغلمان والفنانيان في غزلهم تقلبدا للمحدثين والمولدين من الشعراء الذين نهجوا نهج أبي نواس .

تحدث ابن رشيق عن هذا الامر . فذكر ان «منهم من يكون فوله في النساء اعتقادا منه ، وان ذكر فجربا على عادة المحدثين وسلوكا لطريفهم لئلا يخرح عن سلك اصحابه ، وبدخل في غير سلكه وبابه ، او كناية بالشخص عن الشخص لرقته أو حب رساقته » (١) .

عرف عن الشاعر ابن دفتر خوان (٢) أحد شعراء القرن السادس الهجري انه نظم ديوانا شعريا كبيرا ، تغزل فيه بألف غلام ، وسماه « الغلمان (٣) » . وعرف أيضا عن ابن منير الطرابلسي انه « كان مولعا بفلام يعرف بابن العفريت ، وفي خده خال » (٤) ، كما كان مولعا بمملوك له اسمه تتر ، وقصته

(١) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ١٩٨ .

(٢) علي بن محمد بن الرضا بن محمد بن حمزه بن أميركا ، الشريف أبو الحسن الحسيني الموسوي الطوسي ، المعروف بابن دفتر خوان . ولد في حماة سنة ٥٨٩ هـ ، وكان أدبيا بارعا . ومن بصانيفه : « شاهناز » ، وهو كتاب فيه أسئلة منظومة وأجوبتها منشورة بين حكيمين طبيعى والهي . ومنها « الطلائع » و « الموجزة في الرسائل الملقاة » ، وقد ذكر في ختامه : « وهو ثمان وأربعون كتابا وضعته » . ومنها « الهاديان » ، وهو في آداب الرائر وآداب المزور . توفي بحماة سنة ٦٦٥ هـ .

(٣) ابن تغري بردى : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٣٨ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٨٠ .

فيه مشهورة تناقلتها بعض الكتب القديمة . ذكر صاحب تزيين الاسواق أن له قصيدة رائية طويلة تعرف بالثرية، وقد أوردها ابن حجة كاملة في خزائنه، وأشار في مقدمتها إلى أنه هاجر إلى مدينة السلام بغداد ، وجهر إلى الشريف الموسوي ، نقب الاشراف فيها هدبه مع مملوكه نسر ، فقبل الهدية ، واستحسن المملوك . وادخله في جملة الهدية ، وقصد أن يعوضه بأضعافه ، فثارت ثورة الساعر ، وكتب اليه على الفور قصيدته الثرية المذكورة ، وفيها يعاتبه ، ويعلن أنه سبترك مذهبه الشيعي كما ذكرنا في مكانه من هذا البحث، وقد استهلها يتغزل بغلامه نتر :

عذَّبْتُ قَلْبِي يَا نَتْرَ	وَأُطَرْتُ نَوْمِي بِالْفِكْرِ
هَذَا الشَّرِيفُ أَضَلَّنِي	بَعْدَ الْهَدَايَةِ وَالنَّظَرِ
فَاخْشَ الْإِلَهَ بِسَوْءِ فَعْلِ	لِيكَ وَاحْتَذِرْ كُلَّ الْحَذَرِ
رَدَّ الْغِلَامَ وَمَا اسْتَمَ	رَّ عَلَى الْجُحُودِ وَلَا أَصْرَ
وَإِثَابَنِي وَجَزَيْتِهِ	شُكْرًا ، وَقَالَ : لَقَدْ صَبَرَ (١)

أما معاصره ابن الفيسراني فقد عرف عنه أنه تغزل بغلام يهودي صيرفي (٢) وغلام قد التحى (٣) ، فمن ذلك قوله :

فِي بَنِي الْأَسْبَاطِ ظَبِي	مَالِكٌ رِقَّةً الْأَسْوَدِ
صِيرْفِيٍّ فِي غِرَامِي	فِي صُرُوفٍ وَتَقْوَدِ
أَنَا فِي الدَّنَنِ حَنِيفٌ	يَّ فِي الْحَبِّ يَهُودِي (٤)

(١) ابن حجة : الحزانة ، ص ١٤٦ - ١٤٨ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٤٥ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤٥ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤٠ ، ١٤١ ،

وعرف عن ابن قسيم أنه تغزل بغلام مجدور^(١) وفي آخر مغرى بالبدال^(٢) ،
كما عرف عن ابن عنين أنه تغزل بغلام أسود^(٣) ، وفتى من الاثرالك^(٤) ، وغلام
هندي^(٥) . أما ابن الساعاتي فقد تغزل بغلام ساق ، أبصره عند أحد الرؤساء
وببده مبخرة . فكان كل نديم يتناول منه كأسه ، وهو يحييه بالبخور :

وساقٍ طيلاً قاسٍ عليّ فؤادُهُ فما شئتَ منْ منعٍ لديه ومنْ منعٍ
ولو لم تكنْ قوتَ النفوسِ صفاتهُ لما جمعتَ بين الحلاوةِ والمنعِ
إذا ما حبا ربَّ النديّ بكأسِهِ وريأهُ فانظرْ ما يجلّ عن الشرحِ
إلى النّجمِ يسقي الشمسَ بدرأسماؤه سحابُ بخورٍ في إناءٍ من الصّبحِ^(٦)

ولم يتورع الشاعر المذكور عن التغزل بصبي متعبد كان يجلس في جامع
دمشق ، وعلبه ثوب واسطي ملون ، فقال فيه :

وغزالٍ لاحَ في حلّةٍ جمعتَ منْ كلِّ لونٍ مقترحٍ
أشرقتْ ألوانها منْ وجههِ فهو مثلُ الشّمسِ في قوسٍ قزحٍ^(٧)

أغرب بعض الشعراء في هذا الباب ، حتى ان الشاب الظريف تغزل بمليح
قلندريّ صوفي^(٨) ، وبغلام بدوي ، قال فيه :

بدويّ كم جدّلتْ مقلّته عاشقاً في مقاتلِ الفرسانِ
ذو محيا يصيحُ : يا لهلالٍ ولحاظٍ تقولُ : يا لسانٍ^(٩)

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٣٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٦٧ .

(٣) ديوان ابن عنين ، ص ١١٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

(٦) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٩٠ .

(٧) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١ .

(٨) ديوان الشاب الظريف ، ص ٢١ .

(٩) ابن حجة : الخيانة ، ص ٢٧٣ .

نقف أخيراً عند شرف الدين الانصاري ، فنذكر غزله بمسمع مغن رومي اسمه موزون ، وقد أشار من خلاله إلى أسماء سور من القرآن الكريم بلغ عددها اثنتي عشرة سورة :

روحى فداؤك ياموزون من «قمر»	تهتكى فيه معدود من الفرص
ظبي من «الروم» نسج العنكبوت له	عهد فكم زمر قد ساق في غصص
اظللنت «أحزابتنا» ياسين غرته	فاعجب لمفتبس للنور مقتنص
سبحان مورثه من حسن بوسف ما	لم يبق في الحجر لي والصبر من حصص
أقام للشعراء العذر عارضه	فكم له في ديبب النمل من قصص (١)

اشفق والد الشاعر على ابنه من عبثه في القريض بسور القرآن ، فطلب منه أن يبادر الى التوبة كما روى اليوناني :

« قال الشيخ شرف الدين ، رحمه الله ، وأنشدت والدي الابيات فاستحسنها وقال بديها :

بادر إلى « توبة » عنه تنيلك من ذي الطول في «الحشر» أجزأ غير منتقص (٢)

هكذا تشفع والده له ، ولكنه كان مثله أسير الصنعة البديعة فاستخدم سورتي التوبة والحشر .

ويقول في مكان آخر من ديوانه :

ملكت رقي غلاماً به سلوت الغلامه
عاملت فيه عدولي بالکید لا بالكرامه (٣)

تلك هي صورة من الغزل المذكور في هذا العصر ، لكنها لا تعبر تماماً عن الواقع ، اذ ان الغزل المذكور لم يكن في معظم الاحيان الا تقليدا للمحدثين السابقين من الشعراء ، فغزل السرف الانصاري شيخ السبوح المعروف بجلالة قدره ورفعة منزلته هو من باب العبث البريء ، وهو ضرب من التصنع

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٤٥ ، والديوان ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٢) اليوناني : ذيل مرآة الزمان و ١٢٢ .

(٣) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٧٧ ، والديوان ص ٤٥٢ .

أبديعي لأظهار الحذق ، ذلك ان طبيعة الشعر العربي ، ونظرية التقليد في
الآخذ استدعت وجود مثل هذه الظاهره واستمرارها في هذا العصر .

وصحبح أنه وجد شعراء ماجنون كابن منير ، وعرقلة : وابن دفر خوان
وغبرهم ، -رجوا عن الجادة المستقبمة في حباتهم ، بد أن معظمهم كانوا -
كما يقول ابن رشيف - يسلكون هذا السبيل جريا على سنة المحدثين
والمولدين من الشعراء نقليدا لا اعتقادا .



(٤)

انحمرّايست والمجون

كانت الحياة الاجتماعية سبب شرب الخمر ، اذ كان منتشرًا على نطاق واسع في هذا العصر بين سائر الطبقات . وكان الناس يشربونها جهرا دون خوف ، فلا غرابة ان رأينا السعراء يتفنون بذكر الخمر ، ووصفونها وصفا رائعا ، سواء في ذلك شاربوها أو واصفوها ولا غرابة ان رأينا في اللغة العربية أكثر من مائة لفظة مطلقة على الخمر من أسماء أو نعوت نابت مناب الاسماء . كما كان لطبيعة الشام بتشكيل عام ، وكثرة الأديار والحانات والمنتزهات ، أثر كبير ساعد على شرب الخمر بالإضافة الى الحشيش في خلوات خاصة بعيدا عن أعين المتزمتين من رجال الدين وغيرهم . أما غير المتزمتين منهم فانهم يجدون في حديث الخمر والمجون موضوعا مستطرفا . كتب بعضهم الى القاضي محمد بن عبد الرحمن بن قربة البغدادي فتيا ، وهي : « ما يقول مولانا القاضي - أيده الله تعالى - في رجل سمى ولده (مداما) وكناه (أبا الندامي) وسمى ابنه (الراح) ، وكنّاها (أم الأفراح) ، وسمى عبده (الشراب) ، وكنّاها (أبا الإطراب) ، وسمى وليدته (الفهوة) ، وكنّاها (أم النشوة) ، أيتهى عن بطالته ، أم يؤدب على خلّاعته ؟ ! » .

فكتب في الجواب : « لو بعث هذا لأبي حنيفة ، لجعله خليفة ، ولعقد له رايه ، وقاتل من تحتها من خالف رايه ، ولو علمنا مكانه ، لقبّلنا أركانها ، فان أتبع هذه الاسماء أفعالا ، وهذه الكنى استعمالا ، علمنا انه قد أحيا دولة المجون ، وأقام لواء ابنة الزّرجون ، فبايعناه ، وشابعناه ، وان نكنّ اسماء سمّاها ، ماله بها من سلطان خلّعنا طاعته ، وفرّقنا جماعته ، فنحن الى امام فعتال ، أحوج منا الى امام قوّال » (١) .

هذه هي قصة قضائهم وفقهائهم وموقفهم من المدمنين من شعرائهم

وأدبائهم ، ولا غرابة ان رأينا بعض السلاطين يفرض عقوبة الموت على من يوجد في حال السكر .

لقد كان لاهل الذمة من اليهود والنصارى أثر في رواج الخمر واقامة الحانات هذا بالاضافة الى كهوف الخمر في الاديرة .

ولقد أدخل بعض الشعراء في وصف الخمر كثيراً من المعاني والالفاظ المقتبسة من النصرانية وغيرها ، كما يتضح لنا ذلك في احدى خمرات التلعفري التي جاء فيها قوله :

عجّ حينَ تسمعُ اصواتَ النواقيسِ
من جانبِ الدَّبرِ تحتِ اللّيلِ بالعيسِ
وانزلْ بحانةِ يوحنا وصاحبهِ

يوشعُ وتوما وكركرُ ثم كركيسِ
صَفَتْ فرَقَّتْ وراقتْ وهي ذاتُ سناً
تجلّ في الوصفِ عن عيبِ وتدنيسِ
مستخبراً عن كَميتِ اللونِ صافية

قد عَقَّتْهَا أناسٌ في النواويسِ (١)
مرّةً الزَّمانُ عليها فهي تخبرُ عن

ما كان مِن آدمٍ قدماً وإبليسِ
تري الرّهّابينِ صرعى مِن مهلبتِها
إذا بدتْ بين شَمَّاسٍ وقسيسِ
تنلّي الأناجيلُ تعظيماً إذا حضرتْ

لهما بأشرفِ نسبٍ ونقديسِ

(١) النواويس والنواوس : مقبرة النصارى ، وهي من الالفاظ الدخيلة العربية ، ويطلق على حجر منقود تجعل فيه جثة الميت ، ويجمع على نواويس .

لها احاديث ترويهـا إذا مـزجت
 في كأسهـا عن سليمان وبلقيس
 لو ذاق منها غزال السـرب مـمضـة
 لخافهـ من سـطاهـا ضيغـم الخيس
 يسعى بها من نصارى الدّير بدر دجأ
 يمسى في فتية مثل الطّواويس
 فاصرف بها صرف خطب الدهر مقتنماً
 ما دامت الشمس مع تلك الشماميس (١)
 واحذر ملاك قلال الدّير مجنلياً
 كأس المدامة إلا فارغ الكيس (٢)

يضاف الى العاملين السابقين قيام فلسفة جديدة في هذا العصر تمتد جذورها إلى عصر أبي نواس ، وكان اربابها يعتقدون أن الحياة قصيرة المدى ، فيجب الا بضيعها الانسان سدى ، وانما علينا أن ننهـب منها كؤوس اللذات ، ونروي غلتنا من افوايق الحياة ، والا نضيعها في حزن دائم وآلم مرير ، ولا سبيل لنسيان كل ذلك الا بشرب الخمر ، فهي تطرد الهموم ، وتجعل الشقاء سعادة ، والوحشة انساً .

انتشرت هذه المدرسة الخمرية بادىء الامر في بلاد العجم ، وكان عمر الخيام رائدها الاول هناك ، وظهرت في الوقت نفسه في بلاد التـام مدرسة خمرية جديدة تنادي بالفلسفة الخيامية ذاتها . وكان رائدها عرقلـة الكلبي وغيره من شعراء هذا العصر .

ولم يكن الامر ليقصر على شرب الخمر ، فلقد انتشر الحشيش عن

(١) صرف الدهر بفتح الصاد وصروفه أي نوائبه وحلثانه .

(٢) ديوان الـلعفري ، ص ٢٠ ، ٢١ . استدركنا من طبعـة أخرى مما لم يرد في هذه الطبعـة . والقلال والقلل : جمع قلّة ، وهو الحبّ العظيم ، وقيل : الجرّة عامـة ، وقيل : الكوز الصغير ، وقيل : هو اناء للعرب كالجرّة الكبيرة .

طريق المتصوفة على نطاق واسع وأصبح موضوعاً جديداً عند شعراء هذا العصر .

سادت نتيجة لذلك حياة العبث والمجون والإباحية ، وكان الناس يفرقون في هذه الحياة جرياً على سنة ملوكهم وأمرائهم وشعرائهم . وبقي علينا بعد أن عرضنا للمدرسة الخمرية التامة أن نتحدث عن مجالس الخمر ، ونلم من خلالها بذكر أحوال سقاتها وشاربيها .

مجالس الخمر

وصف الشعراء مجالس الخمر ، وتحدثوا من خلالها عن وصف الطبيعة نذكر منهم ابن الساعاني ، وقد حضر قبيل ارتحاله مجلس خمر بالنرب ، وحدث مطر ورعد وبرق ، فأشدد بديها :

لله يومُ النّيرِينِ ووجهه	طَلَقَ ونغرُ اللّهُو ثغرُ أَشْنِبُ (١)
وكانما فننُ الأراكِ مِنبرُ	وَهزارها فوقَ الدّوابة يخطبُ
والرّعدُ يشدو والحيّا يسقي وغص	ن البانِ يرقصُ والخمائلُ تتربُ
وكأنّما السّاقِي يطوفُ بكأسه	بدرُ الدّجّا في الكف منه كوكبُ
بكرُ بها نقعُ الغليلِ ومعجبُ	نقعُ الغليلِ بجذوةٍ تتلّهبُ
يفتضّها ماءُ الغمامِ وياله	عجباً غداةُ الدّجنِ وهو لها أبُ
حمراءُ حاربنا الصّروفَ بصرِها	فزجاجُها بدمِ الهمومِ مخضبُ
والقطرُ نبلُ والغديرُ سوابغُ (٢)	موضونة (٣) والبرقُ سيفُ مذهبُ (٤)

اجتمع في هذا المجلس الخمري وصف الطبيعة والساقى والخمر ، ولم يكتف بوصف الطبيعة ، وإنما أتى بصورة أخرى ، جمعت التناقض .

(١) أشنب : يقال شنب الرجل كان أبيض الاسنان حنبا ، فهو أشنب وشانب وشنب ومشنب .

(٢) السوابغ : الدروع ، مفردا سابغة ، ودروع سابغة .

(٣) موضونة : الدرع المقاربة السج بالخواهر .

(٤) ديوان ابن الساعاني ، ج ٢ ص ١٦٨ .

وتحدث الشاعر نفسه عن مجلس آخر في ندي خاص شهده مع صحبه :

يا لقلبي من نعمة الأوتار	وصنوف الرّيحان والأزهار
وندياً شهدته فلكاً تط	لح فيه الاقداح مثل الدراري
ففراق ما بين لهوك والهـ	مّ وجمع ما بين ماء ونار
وكأن السقاة أقمار ليل	سائرات تدير شمس نهـار
فقدود في نشوة وجفون	في فتور وأوجه في احمرار
إن تخالف في أنها الشمس فانظر	نورها إذ خبت على الأقمار (١)

ترك هذه المجاس جانباً لتحدث عن الصهباء ، وقد أبدع ابن قسيم في وصفها :

باكرا شمس القناني	تدركا كلّ الاماني
وخذا في لذة العيـ	شر على رغم الزمان
من عقار تبعث النـجـ	دة في قلب الجبان
قهوة البسها المزـ	ج قميصاً من جـمان
فهي من أبيض صافـ	لاح في أحمر قان
كخدود الورد من تحـ	ت تغور الأقحوان
عاصيا الخلق إذا الخلـ	ق عن الفي نهاني
وإذا الله إلى الرشـ	د دعائي قدعاني
إنما البغية أن اصـ	بح مخلوع العنان
ساجداً في قبلة الكأـ	س لتسبيح المثاني
حيث لا يعلم دهري	أبدأ أين مكاني (٢)

أما شرف الدين فقد تحدث عن الخمر ، واتخذها سبيلاً ليتفزل بحبيبه وقد وفق كل التوفيق في الجمع بين معاني الخمر ومعاني الفزل ، وأضفى عليها من مذهبه في الانسجام والتورية ما جعلها عذبة مستساغة :

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٦٥ .
(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٧٦ و ٤٧٧ .

قُمْ فاصطَبِخْهَا وَأَرْجِ سِرِّكَ صَبَّحَكَ اللهُ بِمَا سَرَّكَ
وعاطني منها المدامَ التي اشربُ منها دائماً سِرِّكَ
يا يوسفَ الحسنَ الذي وصفهُ أنْ يَمْلِكَ الناسَ ولا يُمْلِكَ
إنْ دَمَعَتْ عيني فَمَنْ أَجَلُهَا بكى على حالِي مَنْ لا بكى
أوقعني إنسانها في الهوى « يا أيها الإنسانُ ما غرَّكَ » ؟ (١)

سار عرقلة الكلبي في مذهبه الخمري على هدي ابن فسيم ، لكنه عاش مخلوع العذار فهو يمثل بحق الشاعر الخليع الذي أخذ من المجون والخلاعة أوفر نصب ، وكان رائد الإباحين في سلوكه وأسلوب حياته . فان كان السابقون يتفنون بالخمير صوفية أو تقليدا ، فانه يخلف كل الاختلاف ، إذ ثبت لدينا أنه يمثل جماعة إباحية من أرباب المدرسة الخمرية الشامية . كانوا يسعون وراء الخمر واللذة والحياء ضاربين بالتقاليد والاعراف عرض الحائط . انها تعيش بومها وحسب ، تبحث عن السعادة ، وكل وكدها طرب وجلد تسهر حتى مطلع الفجر ، وسواء عندها ليلة الجمعة أو ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر :

أدِرْ يا طلعةَ البدرِ علينا أنجمَ الخمرِ
وقطع ليئنا بالكأ سر حتى مطلعَ الفجرِ .
على فتانةِ العنبرِ سن والخسدينِ والشرِ
لنا في وجهها قمرٌ ومن نعماتها قمري
كذا فليشرب الصهباءُ مثلي يا ذوي الشعرِ
كذا في ليلة الجمعِ ع بل في ليلة القدرِ
مع الفتيان في الحسانا ت بين الطبل والزمرِ
بحيث ابنُ ملكسداد وحيث ابن أبي السدرِ

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٦٤ ، والديوان ص ٢٨١ .

حَرِيفَانِ حُرَافَانِ بَلَا قَدَرٍ وَلَا قَدَرٍ (١)

تلك هي طائفة من الشعراء الخلعاء ، يمتلها عرقلة ، إذ إنها عاشت حياته ، وجدير بالذكر أن الخلاعة لم تكن إلا نمطاً خاصاً من الحياة وتعبيراً عن فلسفة إباحية قائمة بداتها . أشار عرقلة في مستهل إحدى خمرياته الى هذه الفلسفة بقوله :

نديمي قم فقد صفتِ العقَّارُ وقد غنَّيَ على الأيك الهزارُ
إلى كم ذا التواني في الاماني ؟ أفقَّ ما العمرُ إلا مستعار (٢)

كما دعا التلعفري تديمه الى الأمر نفسه ، وتعجب من توانيه عن اللهو إذ يرى أن الخمر ذات معنى لا يدركه العقل :

يا نديمي ، كم ذا التَّوَانِي عن الله سور ، وهذي المدامُ والاوتارُ
فاصرفِ الهمَّ ، إنَّ المَ بصرُفِ (٣) ذات معنى ، فيها العقول تحارُ
واغتنمها مِن كفَّ ظليبةٍ خِدرِ في يديها من صِبغِها آثارُ (٤)

صور الشاعر عرقلة في فلسفته انتقضاء الايام ، وتقلب الفصول وتعاقب الايام ، والناس في شغل عن بهجة الحياة :

خرفَ الخريفُ ، وأنت في شغل عن بهجةِ الايام والحقبِ
أوراقه صفراً وقهوتنسا صفراءُ مثل الشمسِ في لهبِ (١)
كما دعا ابن الساعتي الى انتهاب اللذات :

وقم ، نهبِ اللذاتِ قبلَ فواتِها فائك غمرُ لم تذُقْ لذَّةَ النهبِ

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢٠٦ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٤ .

(٣) الصرف : نكر الصاد الخالص من كل شيء ، وشراب صرف أي محض غير ممزوج .

(٤) ديوان التلعفري ، ص ١٥ .

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٨٥ .

فيانعمة الحسنی بوجه مديرها وإن كان صرّف الدهر بالغ في الذنب (١)

استمرت هذه المدرسة الاباحية في فلسفنها الخاصة طوال القرن السابع، وقد أغرقت في عينها ومجونها ، وكانت ترى ان دواعي اللذات توجد في اربعة اشياء ، أشار اليها اللعفري بقوله :

تلك الجنان التي حيث التفت ترى قصراً مشيداً به حور وولدان
تدعوك فيه إلى اللذات اربعة بيع الحياة بها ما فيه خسران
ظل ظليل ، وماء بارد غدق وجوسق مشرف عال وبسنان (٢)

ولم تكن لتقتصر على جماعة معينة من الشعراء وانما غدت موضوعاً مستطرفاً يتسابق فيه الشاعر الخلبع كمرقلة واللعفري ، والشاعر الرزبن كابن فسيم والشرف الانصاري ، ذلك لان النغلبد وطرق سائر الابواب الشعرية كانا أهم العوامل في هذا الانحاج . يضاف الى ذلك ان المتصوفة من الشعراء وغيرهم كانوا ينخدونها سبيلا في شعرهم ليحلفوا بنتوتها في آفاقهم العليا ، وفد ظهر لنا هذا الاتجاه في شعر ابن عربي وموشحائه كما سنرى ذلك .

تلك هي المدرسة الخمرية الشامية ، بدت طلائعها في شعر ابن قسيم ، وقد توفي بعد عمر الخيام بربع قرن من الزمن ، وبلغت ذروتها في شعر عرفلة الكلبي وابن الساعاتي والتلعفري وغيرهم ، وبذلك نستطيع القول ان هذه المدرسة الخمرية تابعت خطا المدرسة الخامية التي ظهرت في فارس .

نشير اخيرا الى أن المجون أصبح بتطور الزمن غرضاً خاصاً فائماً بذاته، فاستقل عن سائر الأغراض الاخرى ، وأصبحنا نجد في نعب الخمر قصائد خاصة بها ، وحتى صرنا نجد في الدواوين الشعرية أبواباً في الخمریات .

(١) ديوا ابن الساعدي ، ج ١ ص ١٤٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٥ . وجوسق : هو العمر أو الحصن ، أو هو تبييه بالحصن ،

وهو معرب عن الفارسية وأصله « كوشك » .

ذكر أن الاسعدي (١) الشاعر أفرد من خمرياته وهزلياته ديواناً خاصاً
اسماه « سلافة الزرجون في الخلاعة والمجون » (٢) .
هكذا نرى المدرسة الشامية طبعت فيما بعد بطابع الخلاعة والمجون كما
يظهر لنا ذلك في إحدى خمريات الشاب الظريف :

ناوليني الكأس في الصُبْح	تم غني على قدح
وادي ري سس وجهك لي	فضياء الشمس لم يُلح
واسغلي كفتيك في وتر	لا تهديها إلى الصُبْح (٣)
وإذا أطربنني وبسدا	نانسنائي حال مفتضحي
عائقيني باليدين كما	يفعل الأجباب من فرح
وإذا عانقت من طرب	غصن قد منك متشبح
فضمي أزراو طوقك عن	صدرك الفتان بالملح
ثم روحي بالأمان قمث	لي بسر قط لم يَبْح (٤)

تلك الخمرية الغزلية الماجنة تصور لنا نمطاً من الحياة في هذا العصر
وتوضح لنا انتشار الغناء والطرب بشكل واسع جداً ، وما أكثر ما تحدث
الشعراء عن المفين والمفنيات ، والمسمعين والمسمعات . كما نلاحظ أن
الشاعر يدعو حبيبته لتترك السبج ، وتشغل أناملها بالأوتار . وكأنما كان
يشفق على حبيبته من عدوى التصوف الذي انتشر بين نساء العصر ، وقد
مر معنا في شعر نرف الدين الانصاري تعريضه ببنت الحمصية المتصوفة
الحسنة .

تلك هي صورة صادقة عن المدرسة الخمرية الشامية ، ونخلص مما
تقدم معنا من شعر شعرائها إلى القول : إن كل وكدها من الوجود خمر
وامرأة ومجون وطرب .

(١) نور الدين ، أبو بكر ، محمد بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الصمد بن رستم
الاسعدي ، ولد سنة ٦١٩ هـ ، وكان من ندماء الملك الناصر صاحب حلب ، وأحد شعرائه
المقربين ، وله به اختصاص ، وكان شاباً خليعاً مستهتراً غلب على شعره العث والمجون ،
وقد توفي سنة ٦٥٦ هـ . وللشاعر ديوان منه نسخة مخطوطة خزائنية ، وهي في ١٤٧ ورقة ،
وفي معهد المخطوطات بالقاهرة نسخة مصورة رقم ٣٩٩ .

(٢) ابن توري بردي : النهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٦٩ .

(٣) السبج : جميع سبجه ، وهي خرزات منظومة في سلك م

(٤) ديوان الشاب الظريف ، ص ٢٤ .

المطارحات ولشتويات

تحدثنا عن بعض أنواع المطارحات الوجدانية والرسائل الأخوانية خلال تراجم الشعراء ، نشير منها إلى ما كان بين أسامه وابنه وأبيه ، وبين ابن قسيم وابن منر ، وبين نurf الدين الانصاري وأبيه . وبظهر أن المطارحات بين الشعراء وآبائهم غدت مظهراً معروفاً في شعر هذا العصر ، إذ إن ظهور اسرات ورثت الادب كابرأ عن كابر كان أمراً معروفاً بكثرة . ولعل هذا التطور الجديد كان عاملاً من عوامل ازدهار المطارحات الوجدانية بين افراد الاسرة نفسها . نذكر من ذلك القصيدة الفريدة التي كتب بها الساب الظريف إلى ابيه وجاء فيها قوله :

ابداً بذكركَ تنقضي أوقاتي	مابين سمّاري وفي خلّواتي
يا واحد الحسن البديع لذاته	انا واحد الأحزان فيك لذاتي
وبحبّك اشتغلت حواسي مثلما	بجمالكَ امتلات جميع جهاتي
حسبي من اللذات فيك صباة	عندي اشتغلت بها عن اللذات
ورضائي أنكَ فاعل برضالك ما	تختار من محوي ومن إثباتي
يا حاضراً غابت به عشاقه	عن كل ماضٍ في الزمان وآت
حاسبت أنفاسي فلم أرَ واحداً	منها خلا وقتاً من الأوقات
ومدلهين حجت عنك قلوبهم	فهم من الأحياء كالأموات
لما بكوا وضحكت أنكر بعضهم	شاني ، وقالوا : الوجد بالعبّرات
فاظنهم ظنوا طريقك واحداً	ونسوا بأنك جامع الأشتات
يا قطر عمّ دمشق وأخصص منزلاً	في قاسيون (١) وحلّه بنبات
وترثمي يا ورق فيه وياصببا	مرّتي عليه بأطيب التفحات

(١) قاسيون : يقول ياقوت : « الجبل المشرف على مدينة دمشق ، وفيه عدة مناور وفيها آثار الانبياء وكهوف ، وفي سفحه مقبرة أهل الصلاح ، وهو جبل معظم مقدس يروى فيه آثار ، وللصالحين فيه أخبار ٠٠٠ وبه منارة تعرف بمسرة الدم ، يقال بها قاتل قابيل أحاه هابيل . وهناك شبيه بالدم يزعمون أنه دم باقر الى الآن وهو يابس ، وحجر مثلث يزعمون أنه الحجر الذي فلق به هامته ، وفيه منارة الجوع يزعمون أنه مات بها أربعون نبياً » معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

فيه الرضا، فيه الهوى، فيه الهدي
فيه الذي كشف العمى عن ناظري
فيه الأب البرء الشفوق فدينه
كفد تمد بجوده نحوي وآ
وإذا جنيت بسياي عدّها
وإذا وقيت بوجنتي نعاله
أبى وإن جل النداء وقلّ مق
أنى النفقت رأيت منك محاسن
وأرى الوجود بأسره رجع الصدى
فعليك منك مع الأصائل والضحا

فيه أصول سعادتي وحياتي
وجلا شمس الحق في مرآتي
من سائر الاسواء والآفات
خر للسماء بسائر الدعوات
كرماً وإحساناً من الحسنات
عديت تقصيري من الزلات (١)
داري فداء العبد للسادات
إن ملّت نشواناً فهنّ سقائي
وأرى وجودك منشأ الأصوات
تتلى أجل تحية وصلاة (٢)

يلاحظ في هذه القصيدة التي قل أن يوجد لها نظير في رقتها وعاطفتها
الصادقة بعض التعابير الصوفية الخاصة ، ولا نغالي ان قلنا إنها مطبوعة
بطابع صوفي أسلوباً ومعنى . ويلاحظ بالاضافة الى ذلك ما فيها من سهولة
في التعبير وبعد عن التصنع البديعي ، إذ ان الشاعر كان أحد رواد مذهب
الانسجام والنورية ومن أتباع الشرف الانصاري رأس هذه المدرسة البديعية .
والطريف أنه استهل نظمه الشعر بمدح أبيه ، وهو بعد لم يتجاوز الخامسة
عشرة من عمره . ذكر اليونيني أنه سأل والده عن عمره ، فأطلع عليه مكتوباً
في زاوية خاصة من أحد كتبه ، فانصرف الى حجراته الخاصة التي كان يخلو
فيها بنفسه ، فنظم ببيتين على الفور كتب بهما إليه :

ياربّ ، قد أوجدت قبلي أبي
فاجعله بعدي باقياً مثلها
فأجابه في الحال ، وكتب إليه :

لا ، بل أموت ، وتحيا
حتى تصرف صرف السر

في هذه الدنيا بعشرين
وارحم محبياً ، قال : آمين

في غبطة خير محب
مان أمراً ونهيها (٣)

(١) أخطأ الشاعر في قوله (عديت) وصوابها (عددت) ، ولكن لا يستقيم الوزن ، وهذا
بسبب ارتكاب هذه الصلابة القبيحة .

(٢) ديوان الشاب الظريف ، ص ٢٣ .

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) ، ١٤١ هـ .

يضاف الى ماتقدم ظهور الشتويات الشعرية ، وهي قصائد إخوانية وجدانية ، يبادلها الشعراء للتسليّة خلال أيام الشتاء الطويلة في بلاد الشام من ذلك ما كتبه العماد الكاتب إلى الامام شرف الدين أبي سعد عبد الله بن أبي عصرون فائلاً :

أيا شرفَ الدينِ إن الشتاء بكافاته كفاً آفاته
وكفئك من كرم كافها لقد كفلت لي بكافاته
وإنك من عرفه شكرنا غدا عاجزاً عن مكافاته

فكتب إليه شرف الدين في جوابها :

إذا ما الشتاء وأمطاره عن الخير حاسبة رادعه
فكافاته الست أعطيتها وحوشيت من كافه السابعة
وكف المهابة والاحتشا م لكفي عن بره مانعه
وهمّة كل كريم النجا ر بميسور أحبابه قائمه
ونفسي في بسط عذري إلي ه جعلت الفداء له طامعه
وشوقي إلى قريبه زائد ومعدرتي - إن جفا - واسعة

لم يكتف العماد بالوقوف عند هذا الحد من هذه المطارحات الشتوية وإنما كتب الى شرف الدين جواب جوابه :

أيا من له همّة في العُلا لذرّوتها أبداً فارع
ومن كفته ديمة ماتزا ل بالعرف هامية هامعه
وللفضل في سوق أفضاله بضائع نافقة نافعه
وهل كابن عصرون في عصرنا إمام أدلتته قاطعه
فجبر فوائده جمّة وبحر موارد واسعه
أيا شرفَ الدين شرفتني بإهداء رائع رائع

(١) أبي شامة : البروقتين ، ج ١ ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

أطعتُ أوامرَكَ الساميا تِ ، وما برحتُ همتي طائعهُ
أرى كلَّ جارحةٍ لي تو دُ لو أنها أذنُ سامعهُ
وأما الشتاءُ وكافاته وكفك عن كافيه الرابعه
فنفسي منزّهةٌ بالعفا فر عنها وفي غيرها طامعهُ
وماذا تطيقُ إذا لم تكن بميسورٍ سيّدنا قائمهُ (١)

ومن الاخوانيات أيضاً ما كتبه نشو الدولة أحمد بن نفاذة إلى العماد الكاتب يدعوهُ الى دمشق في فصل الربيع ، وقد دخل أوان المشمش ، فعرض العماد قصيدته على السلطان صلاح الدين ، وطلب أن يسمعه جوابها ، فلما أنشده قصيدته انتقد تشبيهه الورق باللجين ، اذ انه غير موافق لأن الورق أخضر (١) .

تلك هي لمحات من بعض ما وقفنا عليه من المطارحات الوجدانية ، والقصائد الاخوانية ، والشتويات الشامية ، وهي صورة من الشعور الانساني النبيل ، وهي في الحقيقة الشعر النابع من أعماق النفس ، لا سعيّاً وراء مغنم ، ولا رغبة في عطاء أو منزلة أو الحصول على جاه وسلطان .



اغراض مختلفة

يبقى علينا بعد أن عرضنا لابرز الاغراض الشعرية التي تناولها شعراء هذا العصر أن ننسب الى اغراض سُنَى ، اهمها الاحاجي والالغاز والهجاء والرثاء .

الاحاجي والالغاز

أما الالغاز فلم يسلم منها شاعر ، ولم يخل منها ديوان ، وقد تحدث عنها ابن رشيق في عمدته فذكر أن « من أخفى الاشارات وأبعدها اللغز ، وهو أن يكون للكلام ظاهر عجب لا يمكن ، وباطن ممكن غير عجب » (١) ، وأشار بعد ذلك الى ابضاح سبب التسمية ، فذكر أن اشتقاق لفظه من الغز الربوع ولغز ، وذلك اذا حفر لنفسه مسنقيماً ، ثم أخذ يمئة ويسرة . يورى بذلك ، ويعمي على طالبه . اشتهر بعض الشعراء بفن الالغاز ، نذكر منهم ابن عنين ، وقد أفرد له جامع ديوانه باباً كبيراً ، وهو الباب السادس ، والمعروف عنه أنه كان يطارح بها الندماء والادباء في مجالس سمر الملك المعظم ، كما كان الناس يكتبون اليه ، فيجيبهم على ما سألوه من حل الالغاز شعراً ، ولهذا كان باب الالغاز أكبر أبواب ديوانه .

ونذكر من هؤلاء الشعراء الشرف الانصاري ، وكان يطارح بها أباه ، وقد ذكر أنه كان يكتب إليه ما يريد حله ، فيجيبه أبوه على ما سأل والحبر لم يجف بعد . كتب إليه مرة :

(١) ابن رشيق : العمدة : ج ٢ ص ٣٠٧ .

ما قائم في المخرج يذهب طورا ويجي
لست تخاف شره ما كان غير مرتج

فكتب أبوه على ظهر الورقة نفسها : « ذهاب ومجيء ، وخوف وشر ،
هذا باب من الخصومة ، ولو قلت : لست تخاف منه ، كان أجود وأليق ،
وخيراً من الشر وأصدق » (١) .

نظم بعض شعراء هذا العصر قصائد خاصة في اللغز ، بحسن أن ندعوها
« ذوات الالغاز » نذكر منها لغزية ابن الساعاتي ، وقد استهلها بقوله :
لقد أصبحت في سلطان ملك مجيد ليس يوصف بالقياس (٢)
لا حظنا في هذه اللغزية أنه لا يخلو بيت من أبياتها من لغز إلا في النادر .
نذكر أخيراً أن مصورة مخطوطة ديوان الملك الناصر تحتوي على باب
في اللغز ، وهو الباب العاشر من الديوان المذكور (٣) .

الهجاء

يبقى علينا أن نعرض بشكل مجمل لبعض الأغراض الأخرى المعروفة
في هذا العصر كالهجاء والثناء .

أما الهجاء فقد عرفنا صوراً كثيرة من مظاهره ، نذكر من ذلك مثلاً ابن
منير الذي لم ينج أحد من هجائه ممن كان على صلة بهم ، ورأينا كيف أهدر
دمه وهرب من دمتق . ونذكر ابن عنين ، وكنا قد تحدثنا عن هجائه

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) و ١٣٢ .

(٢) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ٢٣٤ .

(٤) مصورة مخطوطة ديوان الملك داود المسمى « الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية » ،
جمعه اسه ، وقدم لحياة والده ، وذكر نسبه ، وأورد نشره من أول الكتاب حتى اللوحة
١٢٢ ، وانتقل إلى الشعر وقسمه إلى عشرة أبواب : الباب الأول في الإلهيات =
= والرهديات ، والباب الثاني في المديح وفيه الحماسة والفخر ، والباب الثالث في عتاب
الاصحاب والاستنصار عليهم بالله ، والباب الرابع في المراثي ، والباب الخامس في الشوق إلى
الأخوان والحنين إلى الاوطان ، والباب السادس في النسيب ، والباب السابع في النزل ،
والباب الثامن في الخمریات والباب التاسع في الطرديات ، والباب العاشر في اللغز .

المقدّم . ووقفنا عند هجائيته المشهورة « مقراض الاعراض » ، وهي القصيدة التي انتشرت بين الناس انتشاراً كبيراً ، ولم يتورع الشاعر فيها عن هجاء سروات الناس وأشرفهم وقضائهم وعلمائهم وسلاطينهم ، وقد أوردنا نماذج من ذلك في شعر ابن عنين وغيره ، وربنا أن ذلك كان صورة عن انعكاسات المجتمع ، وهذا يدلنا على أن الشعر كان ونبقة اجتماعية صورت لنا الحياة الاقتصادية في مختلف صورها ومظاهرها كما توضّح لنا في الفصل السابق .

يضاف الى ما ذكر ظهور نوع من النقائض السعريّة بين الشاعر المار ذكره ابن منير ومعاصره ابن القيسراني ، وكنا ذكرنا أن معاصريهما شبهوهما بجرب العصر وفرزده ، ولم يفرق بينهما إلا الموت حينما دهمهما في عام واحد .

الرثساء

وأما الرثاء فكان كالهجاء لا نجد فيه جديداً يستحق الوقوف عنده طويلاً ، إذ أنه تقليديّ بحث ، اللهم إلا ما لاحظناه عند أسامة بن منقذ في رثاء أهله ، وبكاء موطنه شبر بعد أن عبت بها الرلازل التي لم يبق أحداً من آله وعشيرته ، وكانت سبباً في تأليفه كتابه المشهور « المنازل والدار » ، وقد رأينا ذلك في حديثنا عن آثاره الأدبية . يضاف الى ما ذكر ظهور فن رثاء المدن والثغور الساقطة في أيدي الفرنجة ، ورثاء أبطال الحروب الصليبية وتمجيدهم وإستشاره المسلمين من ورثتهم لنصرة دين الله ، وقد وقفنا عند هذا الغرض خلال بحث الملاحم والاحداث .

ننتهي مما تقدم معنا من بحث لنؤكد أن شعراء العصر نظموا في أغراض الشعر المختلفة ، وفنونه التقليدية المعروفة ، وقد لاحظنا أنهم كانوا يتعبدون أحياناً معاني القدماء وصورهم ، وكانوا أحياناً أخرى يبرزونها في إطار جديد ولدته في أنفسهم أحداث العصر الكبرى ، وبطورات الحياة الاجتماعية في مختلف مظاهرها العامة ، وسوف نرى أن الشعراء كانوا أكثر جرأة في تخطي المألوف ، وفي الثورة على المعاني التقليدية والأساليب المتبعة في حديثنا المقبل عن الفنون الشعرية المستحدثة في هذا العصر .

القِسْمُ الثَّالِثُ

الفنون الشعرية المستحدثة

شهد هذا العصر تطوراً كبيراً في مجرى الحياة الأدبية ، فثمة تبار أدبي تقليدي موروث استمد أصوله من التراث العربي الصميم ، وسار فيه الشعراء على هدي من سبقهم ، فنهجوا نهجهم ، وأضافوا إليه ما استجدوه من المعاني المولدة التي اقتضتها حياتهم وضرورات عصرهم .

وثمة تيار أدبي آخر استمد أصوله من المشرق والمغرب على السواء ، بالإضافة الى المصادر المحلية المؤثرة . أما المشرق فأمره معروف ، إذ إن بغداد كانت حاضرة العالم الاسلامي ومركز الخلافة العباسية ، وكانت قبلة العلماء ومهوى الفئات الاعجمية من سائر الأمصار . وأما المغرب فأمره هام ، فإن كانت « بضاعتنا ردت إلينا » كما قال ابن عباد عندما اطلع على العقد الفريد ، فمما لا شك فيه أن هذه البضاعة النفلبدية حملت إلينا مع أصحابها بعض هذه الفنون الشعرية ، وأطلعت المشاركة على أنماط وأساليب جديدة في التعبير .

لقي هذا الاتجاه مقاومة عنيفة في صراعه مع اللغة الفصحى ، وأهمله المؤلفون القدماء ، لأنه خرج عن طوق الأساليب الفصيحة الموروثة ، وقد وضع هذا الامر الهام صاحب المعجب في حديثه عن ابن زهر بعد أن تمثل ببعض شعره فقال : « وأما الموشحات خاصة فهو الامام المقدم فيها وطريقته هي

الغاية القصوى التي يجري كل من بعده اليها ، هو آخر المجيدين في صناعتها ،
ولولا أن العادة لم تجر بإيراد الموشحات في الكتب المجلدة والمخلدة لأوردت له
بعض ما بقي على خاطري من ذلك «(١)» .

وصلتنا الموشحات وغيرها من الفنون الشعرية من المشرق والمغرب على
السواء فمن المشرق جاءنا الرباعي والمواليا ، ومن المغرب جاءنا الموشحات
والأزجال ، وهذه الفنون الاربعة التي أشرنا اليها هي أهم ما انشر في بلاد
الشام وغيرها في هذا العصر .



(١) التميمي : المعجب ، ص ٥٦ .

(١)

الموشحات المشرقية

ظهرت الموشحات في الاندلس في أواخر القرن الثالث الهجري ، وقد ذكر ابن بسام أن « أول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقتنا واخترع طريقتها فيما بلغنى محمود بن حمود القبري الضرير (١) ، وكان يصنعها على أشطار الأشعار ، غير أن أكثرها على الأعاريض المستعملة . تأخذ اللفظ العامي أو العجمي وبسميه المركز ، وبضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ، ولا أغصان » (٢) .

تباينت الآراء حول نشأة الموشح « فيذهب البعض الى أن أصل الموشح أندلسي محلي ، ويذهب البعض الآخر انه الى جليقي ، ويذهب نفر ثالث الى أن أصله البعيد روماني (Romanica) ، بل قال بعضهم : إن الموشحات أتت الاندلس من بغداد وان أصلها يلتبس في الرباعيات العربية الفارسية ، وأخيراً حاول ميلياس فلبكروسا (Milios Vilicrosa) أن يجد علاقة ما بين الموشحة والزجل من ناحية والفن الشعري العربي المعروف بالزمون (Pizmon) والسبيحات اللاتينية التي بردها جمهور المصلين عقب كل فقرة من فقرات

(١) رجح أستاذي الدكتور عبد العزيز الأهواني اسم « محمود » كما جاء في بعض نسخ اللخيرة ، وكما أيده نقل ابن خاتمة في أزهار الرياض (ج ٢ ص ٢٥٢) .

(٢) ابن بسام : اللخيرة ، ق ١ ، ج ١ ص ٢٢١ .
وهم آنخل في كتابه « تاريخ الفكر الأندلسي » ص ١٥٣ « فذكر نص ابن بسام المذكور وأورد فيه اسم مقدم بن معافى ، ولعله أراد أن يصبوب النص كما أورده ابن خلدون في مقدمته التي ذكر فيها أن المذكور أول من اخترعها . ولوحظ أيضاً أن الدكتور جوده الركابي في كتابه « تاريخ الأدب الأندلسي » حاول الوفاق بين رواية ابن بسام ورواية ابن خلدون ، فذكر أن تحريفاً قد طرأ على الاسم الثاني ، وحولت كلمة « القبري » الى « الفريري » واعتقد أن مقدم بن معافى هو نفسه حمود القبري ، لكن الحريف في النسبة لا يكفي وحده لمثل هذا الاعتقاد الجازم في تشابه الاسمين .

الترتيل الديني (Respons Aria Latino) ، وهي في الغالب آيات من الكتاب المقدس (١) .

أثبتت الدراسات القيمة التي قام بها أستاذي الدكتور عبد العزيز الأهواني بما لا يدع مجالاً لأي شك أن ظهورها كان متصلاً بالفناء ، مرتبطاً بالأغاني الشعبية (٢) . وفي معرض ذكره الأغاني الشعبية نحدث عنها بالتفصيل ، وذكر أنها قديمة العهد ، وأن الحياء الاجتماعية بمناسباتها المرحية والمحنة ، قد حثمت التعبير الجمالي الذي يسنعين بالآلة الموسيقية وبالتنظيم اللفظي ، فاصطنع فن بجمع بين هذين الجانبين . الموسيقى واللغة هو ما نستخدم على تسميته بالأغنية الشعبية (٣) .

والمعروف أنه نشأت في الأندلس نهضة غنائية سبقت ظهور هذا الفن على يد زرياب الذي قدم من المشرق ، وكان له الفضل الكبير في إدخال كبر من الحسنيين على أساليب الغناء وتطوير الآلات الموسيقية .

وضح ذلك أستاذي الكبير الدكتور عبد العزيز الأهواني ، فذكر أن الخرجات عامة لها مصدر شعبي تتمثل في أغان تنشدها النساء في البيوت ، فبأخذ الوشاحون مطالعها ويقلدونهن ، وجدير بالذكر أن أهالي الأندلس تأثروا بالأغاني العامية التي عرفت قبيل الفتح وخلالها . كما أن شعراء التروبادور كانوا معروفين ، وكانوا ينشدون قصائدهم المسماة (Ballades) أو الأغاني الوجدانية (Chansons Courtoises) وقد لوحظ أن أسلوب هذه القصائد يشبه بعض الشبه أسلوب الموشحات .

لا شك أن الموشحات تأثرت بهذه الأغاني الشعبية التي لم تكن عربية تماماً ، وقد أشار إلى ذلك أسناذي ، ونوه بأهمية وجود الخرجات الاعجمية ، وذكر بعض ما أورده منها أن شعراً إسبانياً عاماً كان موجوداً في الأندلس ، وأنه

(١) آنخل بالنشا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٢) الأهواني : الرجل الأندلسي ، ص ٣ ، وابن سناء الملك ، ص ١٧٦ .

(٣) الأهواني : الرجل في الأندلس ، ص ١ .

كان معروفاً مفهوماً لدى عدد من نقاد الشعر العربي في تلك العصور (١) .
 نستطيع القول إنه توجد لهجة عامية أعجمية تأثر بها الشعر الأسباني الشعبي ، واستمدت منها الموشحات كثيراً من الخرجات والنعاير ، وقد أدت الأبحاث التي قام بها الأسناذ خليان ريبيرا للاعتقاد أن أهل الأندلس الإسلامي كانوا يستعملون العربية الفصحى كلفة رسمية في المدارس ، ويكتبون بها الوثائق وما إليها ، أما في شؤونهم اليومية وأحاديثهم فيما بين بعضهم وبعض فكانوا يستعملون لهجة من اللاتينية الدارجة أو العجمية (El-Romance) (٢) .

انتشرت الموشحات في الأندلس بعد أن لقيت الاستحسان والقبول، وحاول الشعراء في القرن الرابع الهجري أن يلفوا بها مستواها الفني اللائق ، وكانت محاولاتهم خلال هذا القرن تتعثر ، وتلقى بعض المقاومة ، حتى جاء عبادة بن ماء السماء ، فكان « شيخ الصناعة وإمام الجماعة ، سلك إلى الشعر مسلكاً سهلاً ، فقالت له غرائب : مرحباً وأهلاً » (٣) .

يظهر أن هذا الفن الشعري الجديد لم ينتقل إلى المشرق إلا بعد بلوغه مرحلة نضجه الفني ، لكن طلائعه تسربت مع القادمين من المغرب ، فعرف في العصر الفاطمي (٤) ، ويعتقد أن الأدباء والمتصوفة والفقهاء حملوا معهم دواوين الوشاحين المشهورين .

وجدير بالذكر أن القاضي السعيد ابن سناء الملك كان الانطلاقة الحقيقية لفن الموشحات في مشرق العالم الإسلامي ، فلقد حاول دراسة هذا الفن وتوضيح مسالكه وتدليله أمام المعجبين به ، ولم يكتف بذلك وإنما أورد لهم نماذج من الموشحات الأندلسية المشهورة ، وشفعها بموشحات أخرى من

(١) الأهواني : الزجل في الأندلس ، ص ٥٠ ، ٥١ .

(٢) آنخل بالنشيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ١٤٢ .

(٣) ابن بسام : اللخيرة ، ق ١ ، ج ٢ ص ١ .

(٤) الدكتور محمد كامل حسين : دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ، ص ١١٤ .

نظمه ، وحاول أن يتفوق فيها على الاندلسيين أنفسهم ، فيزيد في عدد الفقرات أو الاجزاء التي تتألف منها الاقفال ، وأوصل بعضها الى أحد عشر قصلاً (١) .

درس أستاذي الدكتور عبد العزيز الاهواني موشحات ابن سناء الملك وتبين له من خلال بحثها أن « الاصول الفنية والمعنوية التي رجع اليها الشاعر حين كان ينظم قصائده هي التي رجع اليها في نظم موشحاته » (٢) .

شهدت بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجريين ازدهاراً كبيراً في نظم الموشحات وقد أرخ صلاح الدين الصفدي أسماء المشهورين في كتابه « توشيح التوشيح » (٣) بمصر والشام، وممن ذكرهم « من شعراء الشام : السراج عمر بن مسعود الكناني الحلبي ، المعروف بالمحار ، والتشيخ صدر الدين محمد بن الوكيل ، واحمد بن حسن الموصلي ، وهو من المكثرين » (٤) . والغريب أن الصفدي لم يسر البتة الى أصحاب الموشحات من المتصوفة ، وبخاصة منهم شيخهم الأكبر محيي الدين بن عربي وكان لهم فضل كبير على هذا الفن في بلاد المشرق كلها .

ظهور الموشحات الصوفية

لا شك أن ابن سناء الملك قد أسهم بقسط وافر في نقل الموشحات الى بلاد المشرق ، ولا شك أيضاً أن كتابه دار الطراز كان بحق التجربة العملية التي فتحت المجال واسعا امام الشعراء في هذا العصر ، وهكذا انتشرت في مصر على شكل واسع ، وكانت من قبل ضمن نطاق محدود .

(١) ابن سناء الملك : دار الطراز ، ص ٣٩ .

(٢) الاهواني : ابن سناء الملك ، ص ٢١١ .

(٣) أول العناوين التي أعدها ابن سناء الملك لكتابه « دار الطراز » ، وكان من حفظ الصفدي فيما بعد . ينظر في الكتاب المذكور ، ص ٣٨ .

(٤) مخطوط الاسكوريال ، رقم ١٣٨ ، نقلاً من هامش كتاب ابن سناء الملك للدكتور عبد العزيز الاهواني ، ص ١٩٢ .

أما في بلاد الشام فيظهر أن الأمر على غير ما رأينا، إذ أن الشعراء اقتبسوا هذا الفن أيضاً ، لكنه كان مطبوعاً بطابع صوفي في بادئ أمره ، إذ أن محيي الدين بن عربي الذي عاصر ابن سناء الملك قد ساعد كثيراً على إدخال الموشحات إلى بلاد الشام ونشرها بشكل واسع جداً بين جماعة الصوفية الفقراء ، والفئات الشعبية . ويكفي أن نشير إلى أن ديوانه الذي وضعه في أواخر حياته بعد استقراره وإقامته في دمشق ، يحتوي على ست عشرة موشحة ، وهي تعادل بالضبط نصف موشحات ابن سناء الملك الا قليلا .

ان انتشار التصوف في بلاد الشام بشكله الواسع ساعد كثيراً على رواج هذا الفن الشعبي الجديد كما هو الحال في مصر ، وقد أشار إلى ذلك أستاذي فذكر أن « عصر ابن الملك سناء قد عرف المتصوفة الذين ينظمون معانيهم الصوفية في الموشحات » (١) . تعرض بعد ذلك للموشحات الزهدية عند ابن سناء الملك ، ووقف عند المكفر منها ، ونوه خلال ذلك بموشحات ابن عربي ، وذكر أنها « تجنح إلى السهولة واليسر والبعد عن التكلف والتعقيد » (٢) .

حاول ابن سناء الملك أن يطبع هذا الفن بأساليب المشاركة . بيد أن ابن عربي الاندلسي الذي تقف هذا الفن في مرابع طفولته وصباه ونسبائه ، كان أكثر توفيقاً من سابقه في هذا المضمار ، ومن حقه علينا أن نقف عند موشحاته لنبين خصائصها المميزة ، ونذكر قيمتها الفنية في شعر هذا العصر . وأثرها في نشوء الموشحات المدحية والفزلية عند السراج المحار وسائر وشاحي بلاد الشام .

موشحات ابن عربي

المعروف أن الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي قد استقر بعد خروجه من الاندلس ونطوافه الطويل في بلاد الشام ، في المرحلة الأخيرة من حياته ، وذلك في بعض العقود الأربعة الأوائل من القرن السابع الهجري .

(١) الأهواني : ابن سناء الملك ص ١٩٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

ألف المتصوف المذكور في هذه الفترة « الديوان الأكبر » سنة ٦٢٩ هـ وهو ثاني ديوان له . وجدير بالذكر أن ديوانه الأول « ترجمان الاشواق » وضعه في مكة سنة ٥٩٨ بعد أن توفت علاقته بأسرة أبي خاشة ، امام مقام إبراهيم ، وتعلق بحب ابنته الحسناء نظام (١) .

يحتوي ديوانه الأكبر على ست عشره موسحة وزجل واحد ، وقد نوه استاذي عبدالعزيز الأهواني بأهمية موسحاته فذكر أن بعضها « توغل في المعاني الصوفية ، وتستخدم من الالفاظ والتراكيب مالا يستطيع فهمه الا من عرفوا مذهب ذلك الصوفي في وحدة الوجود ، وقد ترف وتخف ويكثر فيها الغزل الذي يحتمل الرمز والتوجيه بحيث تصبح قريبة من كل نفس » (٢) .

أما النوع الأول من هذه الموشحات فنعثر فيه على الطابع الشخصي لابن عربي في فنه ، ونستطيع القول انه كان الرائد الأول في المشرق والمغرب على السواء ، فهو الذي وجهها وجهنها الصوفية، ووشحها بالمعاني الرمزية وبذلك أدى خدمة كبيرة لجماهير الفقراء الذين يلحنونها وينشدونها في حلقاتهم الخاصة ، ويتخذونها سبلا يصلهم بالعالم العلوي بعد أن بتجردوا من أدران العالم الدنيوي ، ويعوجوا بأرواحهم على السموات العلا ليتحدوا بالذات الالهية ، وذلك بالفناء فيها . نقرأ هذه المعاني في موشحه ذي الرأس :

اطور إلى المهيمن الطرقا عساك يوماً نحوها ترقى

غريزة الإنسان قد ذلت

عساكر الأحوال قد حلت

أهلة الأسرار قد جلت

وصيرت قلبي لها شرقاً وأضلعي لبدننا أفقا

أخرق سفين الحس يا نائم

واقتل غلاماً إتك الحاكم

ولا تكن للحائط الهادم

(١) آنخل بالنشيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٢٧٤ .

(٢) الأهواني : ابن سناء الملك ، ص ١٩٧ .

وافْتَقَ سَمَوَاتِ الْعِلَالِ فَتَقَا وَارْتَقَى أَرْضِي جَسْمِهَا رَتَقَا

سَفِينَةُ الْإِحْسَاسِ أَخْرَقَهَا

وَعَرَوَةُ الشَّيْطَانِ أَوْثَقَهَا

وَصُورَةُ الْإِنْسَانِ أَطْلَقَهَا

وَهُمْ فِي ذَاتِهِ عَشَقَا وَنَادَاهُ : رَفَقَا بِهَا رَفَقَا

خَلِيفَةُ الرَّحْمَنِ قَدْ جَلَى

عَنْ أَنْ يَرَى بِالسَّجْنِ قَدْ حَلَا

أَوْ مَدْبِرًا عَنْهُ إِذَا وَلَّى

قَدْ أَحْكَمَ اللَّهُ بِهِ الْخُلُقَا فَجَلَّ أَنْ يَحُولَ أَوْ يَشْقَى

يَا سَائِلِي عَنْ كُنْهِ مَا أَجْمَلُ

مَنْ حَبَّ مَوْلَى لَمْ يَزَلْ يُحْمَلُ

فَقَنَنْتُ أَشَدَّوه كَمَا أَنْزَلُ

الْقَى الْهَوَى بِالْقَلْبِ مَا الْقَى فَلَا تَسْلُ عَنْ كُنْهِ مَا الْقَى (١)

كما نطلع على المعاني الصوفية ذاتها في موشح آخر مشهور مطلعُه قوله :

تَدْرَعُ لَاهُوتِي بِنَاسُوتِي وَحَصَّلَ مُوسَى الْيَمَّ تَابُوتِي

فَمَنْ قَالَ عَنِّي : إِنِّي الْعَبْدُ

وَقَدْ صَحَّ أَنِّي الْمَلِكُ الْفَرْدُ

فَرَبِّ عَلِيمٍ غَرَّهُ الْجَحْدُ (٢)

يصرح في هذه الموشحة أيضا عن وحدة الوجود وعن فنائه واتحاده في الذات الإلهية ، وقد وفق في إبراز هذه المعاني في موشحاته أكثر منه في شعره .

(١) ديوان عربي ، ص ٢١٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٨٩ .

وأما النوع الثاني منها فقد عبر فيه عن معانيه الصوفية بطريق غير مباشر، فاستخدم الغزل الصوفي الرقيق الذي تستسيغه النفس الإنسانية ، وتتعلق ما فيه من رمزية عجيبة ورقة مستساغة ، وموسيقى مطربة . يضاف الى ذلك ان هذا الغزل المصعد يعتمد على ينبوع ثر من عتق حقيقي : صعد الى الحب الالهي . وبظهر ان حب نظام ، ابنة إمام مقام إبراهيم . قد زاد من لوعة الشاعر وأضفى على موشحاته العذوبة . وهذا بدعني للقول ان كل ما في ديوانه الاكبر بما فيه من موشحات اسنمد وحي غزله من ابنة الامام الحسناء المكية نظام . ولا خير في ذلك لان عسق الجمال في مذهب المصوفة مباح ، اذ إنه قبس من نور الله ، وهو كما يقول السرف الانصاري سحر الهي . فلا غرابة ان راينا الشاعر يستهل مطلع موشحة له باسم ديوانه الاول الذي خلد فيه ذكر نظام :

ترجمان الاشواق عرّفتني بالكريم الخلاق
لاله الحق
همّني في السبق
بخيول الصدق (١)

اتخذ الشاعر حب نظام تكاة له في عشقه الالهي واستوحى من جمالها الانساني معاني الجمال الالهي، لانه يعتقد أنه فاض من جماله الخالد ، وعشقه هذا الجمال إنما هو النفحة القدسية التي تكشف امام وجدانه أنوار الجمال الابددي في الذات الالهية الخالدة .

وجدير بالذكر والملاحظة هنا ان هذا النوع من موشحاته بعضه مبتكر في معانيه ، وبعضه الآخر عارض به بعض الموشحات الاندلسية المشهورة التي حفظها أيام صباه في أندلسه ، وحملها معه الى بلاد الشام ، نذكر من النوع الاول موشحه الاقارع الذي يقول فيه :

(١) المصدر السابق ص ٤٤٦ .

مُتِيْمٌ بِالْجَمَالِ قَدْ شَفِيفَا
 قَدْ اَمْتَطَى السُّهْدَ فِيهِ وَالْاَسْفَا
 حَتَّى إِذَا مَا اَنْتَهَى لَهُ وَقْفَا
 بِشَكْوِ الْجَوَى وَالسُّهَادِ وَالْخَبَلَا وَدَمْعُهُ فَوْقَ خَدَّهِ انْهَمَلَا سَالَا
 يَا حَسَنَهُ وَالظَّلَامَ قَدْ نَزَلَا
 يَتْلُو كِتَابَ الْحَبِيبِ مُنْتَهَلَا
 وَدَمْعُهُ لَا يَزَالُ مِنْهَمَلَا
 حَتَّى إِذَا مَا صَبَاحَهُ اَتَصَلَا بَلِيلَهُ وَالظَّلَامَ قَدْ رَحَلَا مَالَا
 لَا عَذْرَ فِي عَذَابِي يَا كَبِدِي
 إِذَا لَفِيتَ الْحَبِيبَ فِي الْخَلْدِ
 وَأَنْتَ تَشْكُو صَابَاةَ الْكَمَدِ
 وَلَمْ تَذُوبِي شَوْقاً إِلَيْهِ وَلَا وَكَلَّ مَنْ ذَابَ فِيهِ إِذْ وَصَلَا غَالَا
 عَجِبْتَ مَنْ لَوْعَتِي وَمَنْ كَمَدِي
 وَمَنْ عِنَادِي وَمَنْ قَوَى جَلْدِي
 وَمَنْ بِهِ قَدْ شَفِيفَتْ فِي خَلْدِي
 فَصِلْ بِهِ يَا فُؤَادَ إِنِّ وَصَلَا فَكَلَّ مَنْ بِالْمَهِيمِ (١) اِتَّصَلَا صَالَا
 إِنِّ كَانَ لَا بُدَّ بَيْنَهُ الْمُحْتَوَمُ
 حَسْبِي اِتَّصَالَ الْعُلُومِ بِالْمَعْلُومِ
 فَاسْتَمِعُوا جِوَرَتِي شِدَا الْمُحْرُومِ
 أَوْدَعْنِي يَوْمَ بَيْنِهِ خَبَلَا لِأَصْبِرَ لِي بَعْدَهُ وَقَدْ رَحَلَا لَالَا (٢)

أما النوع الثاني من موشحاته فهي التي قلد بها معارضاً بعض الموشحات
 الاندلسية المشهورة التي حملها معه من الاندلس ، وكانت معروفة في المشرق

(١) المهيمن والمهيم من أسماء الله تعالى ، بمعنى المؤمن من آمن غيره من الخوف وهو
 مؤمن بهمزين ، قلبت الهمزة الثانية ياءً ثم الاولى هاءً أو بمعنى الأمين أو المؤمن أو الشاهد.

من قبل . اشار استاذي الدكتور عبد العزيز الاهواني الى اثنتين منها ،
اولاهما الموشحة التي مطلعها قوله :

عندما لاح لعيني المتكا ذبت سوقا للذي كان معي (١)
وقد عارض بها ابن زهر في موشحته المشهورة :
ايها السافي إليك المشتكى قد دعونساك وإن لم تسمع
وثانيتها الموشحة التي مطلعها قوله :

سرائر الاعيان لاحت على الأكوان للناظرين
والعاسق الغيران من ذلك في بحران (٢) يهدي الأنين (٣)

عارض الشاعر في هذه الموشحة ابن بفي في موشحه المشهورة . ومطلعها:
بالله يا جنان اجن من البسنان الياسمين
وخل ذا الريحان بحرمة الرحمن للعاشقين

وجدري بالذكر ان ابن عربي جعل مطلعى الموشحين اللذين عارضهما
خرجين في موشحيه المذكورين آنفا . بيد أنه غير فبهما بعض التغير لتلائم
معانيه الصوفية الرمزية . ومهد لهما . ففي ختام موشحه الاول قوله :

ايها الساقى اسقني لا تأتلي (٤)
فلقد اتعب فكري عذلي
ولقد أنشد ما قيل لي :

(١) ديوان ابن عربي ، ص ٣٩٢ ، ٣٩٣ .

(٢) بحران : في اللسان ان اطباء يسمون النير الذي يحدث للعليل دفعة في الامراض
الحادة بحرانا ، ويقولون : هذا يوم بحران ، ويوم باحوري على غير انقياس ، فكانه منسوب
الى باحور وباحوراء مثل عاشور وعاشوراء ، وهو سدة الحر في رموز ، وجميع ذلك مولد .

(٣) المصدر السابق ، ص ٨٥ ، ٨ .

(٤) الا والى وائتلى في الامر قصر واطل يقال : لم يال جهدا .

أيُّها الساقى إليك المشتكى ضاعت الشكوى إذا لم تنفع (١)

وفي ختام موشحه الثاني قوله :

وغلّت في بستان الأنسر والقرب لمكنسه
وفقام لي الريحان يختال من عجب في سندسه
أنا هو يا إنسان مطيب الصب في مجلسه
جنان يا جنّان اجن من البستان الياسمين
وحللّ الريحان بحرمة الرحمن للعاشقين (٢)

ثمة موشحة نالته في ديوانه ، ومطلعها :

حقائق القرب رؤية الملك
وهو حجاب المهيمن الملك
إذا انجلى عنك غيبه النفس
وهب عرف من روضه القدسي
فانت الحان بلا لحن
على الاوثان ولم تكن (٣)

عارض بها ابن بفي ، الوشاح الاندلسي ، في موشحنه التي مطلعها :

الحب يجنيك لذة العذل
واللوم فيك أحلى من القبل
وإن لو كان جدّ بغي
كان الإحسان من الحسن (٤)

استخدم ابن عربي خرجة ابن بفي نفسها في المقطوعة الأخيرة من موشحه فقال :

(١) ديوان ابن عربي ، ص ٩٣ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٨٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٠ .
(٤) ابن ساء : داب الطرار ، ص ٨١ .

با عود الزّانُ قمّ ساعدني
طاب الرّمانُ ليمّن بجني^(١)

جمع ابن عربي في موشحاته بين المعاني الرمزية المفرقة في صوفيتها ،
والاوازن الموسيقى الراقصة . فأخرجها بأسلوب عذب رقيق جمع بين جمال
الطبيعة الشامبة . والطبيعة الاندلسية في تقليده وجدده . بضاف الى
ذلك غزل صوفي رقيق الحواشي يستمد معينه من عنق حفيفي مصعد .
فيضفى عليه طابعا رمزيا فريدا قل أن نجد له نظيرا في أدبنا العربي . ويجدر
بنا أن نلاحظ هنا أن ابن عربي وفق في موشحاته أكثر منه في شعره . لكنه
يكن لبثغيد تماما بما تقيد به غيره من الوشاحين الاندلسيين . فلم يجعل
خرجاته عامية . كما فعل ابن سناء الملك . ولعله تسامح في هذا الشرط
الواجب . وأوردها سهلة فصيحة معربة لان « الفاظها غزله جدا » هزازه
سحارة خلابة بينها وبين الصبابة قرابة » (٢) .

لم ينافس ابن عربي كابن سناء الملك في الزيادة على ما عرف عند مشاهير
الوشاحين الاندلسيين ، من حيث عدد الاقوال والابيات والفقرات . ويجب
الا ننسى أنه كان أول من أكثر في الموشحات من تضمين الايات القرآنية أو
الانساره الى القصص الدينية المعروفة أو الكلمات الدالة على بعض الآيات ،
كما في قوله في : « سبح اسم ربك الاعلى (٣) » و « أرني أنظر اليك (٤) » و « مطلع
الفجر (٥) » و « الشفع والوتر (٦) » و « لم يكن (٧) » و « فالحق الإصباح (٨) » .

(١) ديوان ابن عربي ، ص ٢١١ .

(٢) ابن سناء الملك : دار الطراز ، ص ٣١ .

(٣) ديوان ابن عربي ، ص ٨٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣١٣ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٤٥٢ .

(٨) المصدر السابق ، ص ١١٤ .

وقد يقتضيه الامر في بعض الاحيان تفسير نص الآية كما في قوله : « النصر والفتح (١) » و « عند ذي حجر (٢) » . . . كما كان يستخدم أسماء السور القرآنية ، من ذلك قوله : « في النجم (٣) » و « في الطور (٤) » و « في سورة الفدر (٥) » .

لا ننسك أن هذا التضمين الكلي والجزئي ، والكامل والمعدل لايات القرآن وسوره كان بحق عاملا من عوامل الرمزية الصوفية في موسحاته . اذ انها توجد فيها رفة الديباجة ورشافة الالفاظ وموسيقى الوزن الراقص .

الموشحات في بلاد الشام

اتضح مما تقدم معنا أن النصوص في بلاد الشام كان له اثره البين في انتشار فن التوشيح على نطاق واسع في الاوساط الادبية . فاقبل عليه الناس بعد ان استمعوا اليه وعرفوه من خلال الاناشيد الدينية . وقد اجتمع لهم فيها الغزل والغناء والالحان . وهى ما تسعى اليه دوما الفئات الشعبية المختلفة وغيرها في مجالسها الخاصة .

عرفت الموشحات في بادئ امرها على افواه فقراء المتصوفة . وسمعوها من الاندلسيين الكثيرين الذين يؤمون بلاد الشام كما ذكر ابن جبير ، وقد اخذت عن طرق أخرى . فأحبها العامة ، وانسدتها في مجالس الانس والسمر . ولا شك ان الشعراء احبوا ان يقلدوا الموشحات كفن جديد لقي رواجاً كثيراً لدى العامة والخاصة . فعمدوا الى التعبير عن اغراضهم الخاصة بهم ، بالإضافة

(١) المصدر السابق ، ص ٤١٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٨ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٤١٤ .

الى المعاني والاغراض الاصلبة التي وضع من أجلها .

يبدو لي أن القرن السادس لم يشهد محاولات ناجحة في بلاد الشام ،
حتى اذا شارف هذا القرن على الانتهاء رأينا ابن سناء الملك ببسط في مصر
أمام الشعراء أساليب هذا الفن . ورأينا ابن عربي من بعده ببسط في بلاد
الشام أمام الشعراء نماذج من الموشحات ، وبلغت أنظارهم الى مواطن الجمال
في التعبير الصادق عن النفس والوجدان بعيدا عن مغربات الحباه .

انتشرت الموشحات ببلاد الشام في القرن السابع الهجري . ومن أقدم
ما وصلنا منها بعد ابن عربي موشحة نظمها الشهاب التلعمرى في مدح الاديب
شهاب الدين العمادي العزازي(١) جوابا عن الموشحة التي كتبها له :

ليس بروي ما بقلبي من ظمّا غير برق لائسج من إضم.

إن تبدئ لك بان الأجرع

وأيالات النقا من لتلعج

يا خليلي قف على الدار معي

ونأمل كم بها من مصرع

واحترز واحذر فأحداق الدمي كم أراقت في رباهما من دم

حظّ قلبي في الفرام الولّـه

فعدولي فيك مالي وله

حسبي الليل فما أطولـه !

لم يزل أخـره أوّلـه

في هوى أهـب معسول اللمى ربقه كم قد شفى من ألم

(١) شهاب الدين ، أحمد بن عبد الملك العزازي ، وكان بزازا في قيسارية حركس في
القاهرة توفي سنة ٧١٠ هـ . (ابن شاعر الكسي : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٢٤٥ - ٢٥١) .

سأئلى عن أحمدٍ مما حوى
منّ خلالٍ هى للداء دوا
ما سواد وهو يا صاح سوى
ناشرٍ من كلّ فنٍ ما انطوى

بحرٍ آدابٍ وفضلٍ قد طما فاخشن منّ نيارهٍ الملتطمِ
العماديّ الشهابِ الثاقبِ
تكرهٍ فرضٍ علينا واجبِ
فهو إذ تبلوه نعم الصاحبِ
سهمهٍ في كلّ فنٍ صائبِ

جائلٍ في حلبةِ الفضلِ كما جبالٍ في يومِ الوغى شهيمٍ كمي
شاعرٍ أبدعٍ في أشعارهٍ
ومتى أنكرت قولي بارهٍ
لو جرى مهيارٍ في مضمارهٍ
والخوارزميّ في أنسارهٍ

قلتُ : عودا وارجعا ، منّ أنما ؟ ذا امرؤ القيسِ إليه ينتمى ! (١)

هكذا أسهمت مصر والشام معا في ازدهار هذا الفن الجديد ، ومهما يكن
من أمر فقد تطور الفن المذكور ، وأخذ به شعراء كثير . نذكر منهم السراج
المحار ، وصدر الدين محمد بن الوكيل . وأحمد بن حسن الموصلى ولا بد لنا
من وقفة عند أولهم الذي لقبه القدماء دون غيره بصاحب الموشحات (٢) .

(١) ابن تفرى بردى الدبوان ص ٤٠ ، والنجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، وابن

شاعر : نوات الوفيات ج ٢ ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .

(٢) ابن شاعر : نوات الوفيات ، ج ٢ ص ١٣٩ .

موشحات السراج المختار

أكثر السراج (١) من نظم الموشحات حتى عرف بها . وقد استخدمها في المدح بعد استخدامها في الغزل . فمن غزل صوفي الى غزل مادي . ومنه بعد ذلك الى المدح وسائر الفنون الشعرية المتشعبة التي تنلاء مع هذا الفن المستحدث . فاذا كان ابن عربي الرائد الاول ، فلا شك أن السراج المختار كان الثاني . وكان نقطة التحول ، اذ كان ينزاعه اسلوبان : اسلوب ابن عربي الرفيق الرشيق . واسلوب مدرسة العصر في التصنع البدعي . فهو في موشحاته يجمع بين تيارين :

نراه نازع برق ويلين ، واخرى يصعب ويتعقد . وسوف نعرض لهذين الامرين بعد بحث الغزل والمدح في موشحاته .

الموشحات الغزلية

لاشك أن الشعراء عامة اتخذوا من هذا الفن سبيلا يعرضون فيه أغزالهم . فهم قد وجدوا فيه منطلقا أمامهم اذ رأوا فيه طريق الافلات من أسر الغافية والتحرر من عبوديتها .

أعرض السراج المختار بدوره عن السعر القريض ، واتخذ هذا الفن سبيله . وسخره لأغراضه الخاصة . وكان الغزل أحدها وأهمها . لكن المعاني كانت في

(١) أبو الخطاب ، سراج الدين ، عمر بن مسعود ، الحلبي الكشاني ، المعروف بالمحار وقد لقب بذلك لانه كانت له بالمحار حصونه . سكن هذا الوشاح حماد ، وشأ فيها ومدح ملوكها الأيوبيين ، نحى بالذكر منهم المنصور الثاني ، والمظفر الثالث ، والافضل والد المؤيد أبي العلاء ، وإخاه بدر الدين حسنا وغيرهم . بوى يمدح سنة ٧٠٠ هـ . (ابن نرى بردي : النهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٤٨٧ ، وابن ساكر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ١٣٩) .

معظم الاحيان هي نفسها التي عرفناها في اشعار المعاصرين ، بيد أن مجال التعبير عنها أرحب . وأوسع مدى . نقول في موشح له :

'نرى دهر' مضى بكم' يؤوب' شبيبا
ويضحى روض' آمالي الجديب' خصيبا
عسى صبّ تملكه هواه
يعاود' جفن' مقلته كراه'
ويبلغ' من وصالكم' مناه'
ويرجع' دهرنا عتبا جناه'
وبجمع شملنا حسن' وطيب' فريبا
وبصبح' حيث أدعوه الحبيب' مجيبا
أرى امد' الصدود بكم' نمادى
وكم 'لنت' الفؤاد فما أفادا
وتأبى عبرني إلا اطرادا
ونار' صبايتي إلا انتقادا
فخذي ردة' الدمع' السكوب' خضيبا
وفلبي كاد اشواقا بدوب' لهيبا
وبى رشأ' بناظره يصول'
حسام' في ضرائبه العقول'
على وجناته' لدمي دليل'
ولكن' ما إلى قود' سبيل'
حبته من' ضمائرها القلوب' نصيبا
فكان' لها وإن' كرهه الرقيب' حيبا
غزال' وهو في المعنى هلال'
قريب' وصلته ما لا ينال'

وغصن^١ راح^٢ يعطفه الدلال^٣
 كذا الأغصان^٤ تشبها الشمال^٥
 إذا مالت^٦ بعطفه الجنوب^٧ هبوبا^٨
 تشبى في غلائله^٩ القضييب^{١٠} رطيبا^{١١}
 كلفت^{١٢} بحبه^{١٣} حلو المعاني^{١٤}
 أعانى في هواه^{١٥} ما أعانى^{١٦}
 أراه^{١٧} وإن تباعد^{١٨} عن عياني^{١٩}
 كبد^{٢٠} التمر قاص^{٢١} وهو دان^{٢٢}
 إذ^{٢٣} برينا حين تطلعه^{٢٤} الجنوب^{٢٥} عجيبا^{٢٦}
 جمالا^{٢٧} لا يكلفه^{٢٨} الغروب^{٢٩} مغيبا^{٣٠} (١)

لم تبلغ الصنعة البيانية في هذه الموشحة مبلغها من غيرها • فهي تجنح
 بشكل عام الى الافلات من بعض القنود • بيد انها تتعثر احيانا أمام ما تعودده
 التساعر من أساليب وتراكيب كما في الموشح الذي اسنله بهذا القفل :

ما ناحت الورق^١ في الفصون^٢ إلا^٣
 هاجت^٤ على تفريد^٥ هالوعة^٦ الحزين^٧

وجاء في سمطيه الاخيرين قوله :

تفتر ^١ عن جوهر ^٢ تمين ^٣ جلا ^٤	السمط او القفل المقطوعة
ان ^٥ بجتلى ^٦ بحمي ^٧ لعضب ^٨ في الجفون ^٩	
احببته ^{١٠} ناعم ^{١١} الشماثل ^{١٢} مائل ^{١٣} في برده ^{١٤}	الفصن او البيت
في ^{١٥} انفس ^{١٦} العاشقين ^{١٧} عامل ^{١٨} عامل ^{١٩} من قد ^{٢٠}	
برنو ^{٢١} بطرف ^{٢٢} إلى ^{٢٣} المقاتل ^{٢٤} قاتل ^{٢٥} في غمده ^{٢٦}	

(١) ابن بري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٤٨٧ ، وابن سائر : مواب
 الوفيات ج ١ ص ١٣٩ .

امطاعن الأسد في العربن فعلا
 واقتلا لعاشقيه من المنون
 عليته كامل المعاني عاني طليبي به
 مبلبل البال قد جفاني فاني في حبه
 كم بت من حيث لا يراني راني لقريه (١)

نلاحظ أن الشاعر قد نصنع في هذه الموشحة ، واستنفد فيها جهده حتى استقام له هذان البنان من أبيانها الخمسة ، اذ اسنطاع أن يشفق الاجزاء البالية من بعضها ، فاشتق (مائل . عامل ، فائل . عان ، فان . ران) من أعجاز الكلمات التي سبقتها وهي على الترتيب (السمانل ، عامل ، المقائل . المعاني ، جفاني . يراني) . أما بغبة الايات فلم يفلح في كل اجزائها لكون الانسحاق والوليد كما يريد ، وكان بإمكانه أن يوغل في تكلفه وتصنعه حتى يستقيم له الوزن والصيغة كما يرغب . ولكنه آثر أن يبقى على بعض خفقات قلبه في هذه الموشحة .

هكذا كان السراج المحار ينردد بين طبعه وتصنعه في مذهبه الفني ، وقد يتضائل النصنع احيانا في موشحاته ، فنجنح الى اللين كما في هذه الموشحة :

مذ شمنت سنا البروق من نعمان باتت حدفي
 نذكسى بمسيل دمعها الهتمان نار الحرق
 ما أومض بارق الحمى أو خفقا
 إلا وأجد لي الأسى والأرقا
 هذا سبب لمحنني قد خلقا
 أمسي ووميضه بقلبي العاني بادى القلق
 لا أعرف في الظلام ما يفساني غير الأرق

(١) ابن نوري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٤٨٧ - ٤٨٩ .

أضنى جسدي فراق' إلف' تر' حـ
 أفنى جلددي ودمع عيني تر' حـ
 كم صحت' وزند' لوعتي قد قد' حـ
 لم تبق' بد' السقام' من' جثمانى غير' الرمق
 ما أصنع' والسلو' متني فان' والوجد' بفي
 أحوى فمر' أجلو مذاق' القبل
 لن يكحل' طرفه بغير' الكحل
 تركي' باللحظات' بابلي' المفل
 زاهى الوجنت' زائد' الإحسان' حلو' الخلق
 عذب' الرشعات' ساحر' الأجفان' ساجي' الحديق
 ما ماط' لثامه وأرخى شعره
 أو هز' معاطفا رنابقا نظيره
 إلا ويقول' كل' رأى نظره' :
 هذا قمر' بدا بلا نقصان
 أو شمس' ضحا في غصن' فتان
 تحت الغسق
 غصن' ورق
 ما أبدع' معنى' لاح' في صورته
 ريحان' عذاره على وجنته
 لما سقى الحيسا من ريقته
 فاعجب' لنبات' صدغه الريحاني
 من حيث سقى
 لم يحرق' (١)
 يضحى ويبعث' وهو في النيران

نلاحظ أن الوشاح المذكور لم يتخل قط عن تصنعه ، فقد تكلف الناصع
 البديعي كما في قوله : (أضنى جسدي) و (أفنى جلدي) .

(١) النواحي : مقود اللال (مخطوط) و ١٥ .

استخدم الوشاحون المعاني والصور التقليدية في أغزاليهم، فكانوا يحاولون
جهدهم أن تكون ذات طابع غنائي، وهي المزه الوحيدة التي بقيت سالمة لهم،
حتى أن بعض الوشاحين كسمس الدين الدهان كان يجيد فن الإيقاع الموسقى.
والضرب على القانون، وكان ينظم فضائده وبلحنها بالإيقاع على الضروب
المختلفة - لقد ساعدتهم انطلاقتهم من أسر القافية إلى جمع مزيد من الصور
والمعاني أكثر مما كانوا يستطعون إيرادها في الشعر القريض، كما سنرى
ذلك في الموشحات المدحية -

الموشحات المدحية

لم يقتصر السراج المحار على الغزل في موشحاته، فهو شاعر الملوك
الأيوبيين بمملكة حماة، ومفروض عليه أن يقدم لهم المدح في المناسبات المختلفة
ليجري عليه رزقه، وبظهر أن هؤلاء الملوك قد أحبوا هذا الفن الجديد بعد
أن طربوا له في مجالس أنسهم وسمرهم، وعلى الشاعر الذي أطربهم بأغزاله
أن يمدحهم، وهكذا تتم نقلة الموشحات من حلقات الذكر إلى مجالس الأنس
حتى ينتهي مطافها إلى قصور الأمراء والملوك. وقد حفظت لنا بعض هذه
الموشحات التي استخدمها الشعراء في المدح. نذكر منها موشحة السراج
المحار المشهورة التي مدح بها الملك المنصور الثاني محمداً، وقفل مطلعها:

جسمي ذوى، بالكمد، والسهر، والوصب، من جان
ذي شنب، كالبرد، كالدرر، كالحب، جماني

استفد الشاعر الاسماط الاوائل الاربعة في النسب، وانتقل في خامسها
لمدح قائلاً:

إن صال بالهجر وصد رحت بصبري مرتدي
عنه وإن طال الأمد إلى ذرا محمداً
وكف بختي من قصد ملكاً كريم الحنيد
الملك المنصور قد سبها سماء السودر

لم استوى ، بأجرد ، مضمر ، ومقتضب ، عانى
 ذي شطب ، مهثد ، وسهري ، مضطرب ، مرآني
 ملكاً علت همانه من فوق هام المشتري
 وبخلب راحاته سحّ السحاب المطر
 وعوذت راياته محكمات السور
 بدر بدت هالاته من الصباح السفر
 نحت لواء منعقد ، بالظفر ، في موكب ، فرساني
 كالأشهب ، في الأسعد ، كالأفمر ، في أعذب ، سبجاني
 يا مالكاً دون الوري تخطبه الممالك
 ومالكاً إذا سرى تحببه الملائك
 بعض عطالك هل ترى جادت به البرامك ؟
 فاسجلها من عمرا نغر منهاها ضاحك
 لا نجوى ، كالشهد ، كالسكر ، كالضرب ، معاني
 كالشعب ، كالعسجد ، كالجهر ، من حلب ، كيناني (١)

يلاحظ أن الشاعر ضبق على نفسه في أفعال الموشحات ، ويلاحظ أنه كان يحاول أن يجري مع الطبع في أبياته أكثر من أفعاله ، ففيها تكلف الأجزاء ، وتكلف القوافي ، وهو يحاول أيضاً أن يجعل كل قفل مؤلفاً من شطرين مجزئين ، وفي كل شطر خمسة أجزاء ، ولكل منها قافية على نمط قافية الجزء الذي يناظرها من أفعال الموشح وأشطاره وأجزائه ، كما يلاحظ أن الشاعر لم ينه الموشح بالغزل على عادة الموشحين الاندلسيين وإنما استغرق في مدحه الاسماط الثلاثة الأخيرة بالإضافة الى الخرجة .

حاول المتأخرون من شعراء المشاركة أن يوفقوا بين المذاهب الشعرية المعاصرة وفن الموشحات ، وما كان هذا الأمر ليتم لهم ، وقد أثر عن ابن حزمون الاندلسي قوله : « ما الموشح بموشح حتى يكون عارياً من التكلف » (٢) .

(١) ابن شاعر : نوات الوفيات ، ج ٢ ص ١٣٩ .

(٢) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٦ ف ١ د ١١٣ .

كان ابن عربي يدرك هذا الاتجاه في الفن المذكور بسليقته لانه ربيب
الاندلس، فلا غرابة ان وجدنا موشحاته تفيض رقة وعذوبة ، وهي — بالإضافة
الى ما ذكر — تمثل المذهب الصوفي الرمزي في أدبنا العربي من بعض وجوهه .
اشار الصفدي الى انشار فن نظم الموشحات بين الشعراء ، وذكر ان
بعضهم اخذ قول أبي نواس :

اما ترى الشمس حلت الحملا وطاب وزن الزمان واعتدلا

فجاء الى آخره ، وذيله بنوشيجة على روي الباء ، فقال : « فانرب »

كنا نود لو ذكر لنا اسم صاحب الموشح الذي ضمن قول أبي نواس
المذكور ، واغلب ظننا انه مغربي، ومما يؤكد لنا ذلك ان لابن سهل الاندلسي (١)
موشحة على هذا الوزن، ختمها بالتوشيجة المذكورة، ومما قاله في سمط المطلع:

روض نضير وشادن وطبلا فاجن زهر الربيع والقبلا واشرب

يا ساقيا ما وقيت فتنته

جلت كؤوس الرحيق صورتته

فمثلت ثغره ووجنته (٢)

وصف الصفدي اقبال الشعراء على هذا الاسلوب ، وذكر انه « لما فتح
هذا الباب لاهل النظم طاروا اليه زرافات ووحدا ، ودخلوه ارسالا لخفته
وعذوبته ، وغالب من نظم فيه لزم الباء في التوشيجة ، وبعضهم عملها دالا ،
وبعضهم عملها فاء » (٣) .

فمن لزم الباء من شعراء الشام التاب الظريف في موشحة له، يقول فيها:

(١) ابو اسحق ابراهيم بن سهل الاشبلي، ولد سنة ٦٠٩ هـ ، ومات غريقا سنة ٦٤٩ هـ .

(٢) ديوان ابن سهل ، ص ٣٤ ، والصفدي امان العصر (مخطوط) ج ٦ ق ١ و ١٤٤ .

(٣) الصفدي : اقبال العصر (مخطوط) ج ٦ ق ١ و ١١٣ .

بدرٌ عن الوصلِ في الهوى عدلاً مالي عنه إن جارَ أو عدلاً مذهبٌ
 مُترَكٌ التحظ لفظه خُنتُ
 إليه تصبو الحنسى وتنبعثُ
 اتكوا إليه ولسن يكثرُ
 دعا فؤادي بأن يذوبَ قِلاً الموتُ واللهِ مِنّ مقالي : لا أقربُ
 لم يبق لي مفلةٌ ولا كبدُ
 والقلبُ فيه أودى به الكمدُ
 وليس يلتقى لهجره أمدُ
 لا تعجبوا إنْ غدتُ محنملاً قلبي إنْ كان عنه سلا أعجبُ
 بالحسنِ كلَّ العفولِ قد نهبا
 والحزنِ كلَّ القلوبِ قد وهبا
 شمسٌ ولكنني لديه هبّا

وممن لزم في التوشيح الفاء الوشاح المشهور شمس الدين الدهان (٢) ،
 يقول فيها :

يا يابى غصن بانهٍ حملاً بدر دجا بالجمالِ قد كملأ أهيفُ
 فريد حسنٍ ما ماسٍ أو سَقَرَا

(١) ديوان الشاب الظريف ، ص ٨٦ ، وابن شاعر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٢٦٧ ،
 وابن نوري بردى : المهمل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٢٢١ ، والصنفدي : أمان العصر
 (مخطوط) ج ٦ ق ١ و ١٦٦ .

(٢) شمس الدين محمد بن عمر المارني الدهان ، كان يعايي صناعة الدهان ، وقد عرف
 عنه أنه كان ينظم الشعر ويلحنه بالإيقاع على الضروب المختلفة ، وكان يجيد فن الإيقاع والصرب
 على القانون . وعرف عنه أنه عمر في ربوة دمشق مكاناً جميلاً ، واحده مجلساً للهو والطرب ،
 إذ يجتمع فيه أصحابه ، ويأخذون عنه الألحان ، وقد توفي بدمشق سنة ٧٢١ هـ (الصنفدي :
 أمان العصر (مخطوط) ج ٦ ق ١ و ١٠٤ ، وابن نوري بردى : المنهل الصافي (مخطوط)
 ج ٣ و ٢٢١ .

إلا أغارَ القُضيبُ والقَمُرا
 يدي لنا بابتساميه دُرُرا
 في شهدٍ لذّة طعمه وحلا كانَ أنفاسه نسيمٌ طِلا قرّفُ
 موردُ الخدّ فارسُ المقلّ
 يفوق ظبي الكِناسِ بالكحلِ
 وينشئ كالقُضيبِ في الميَلِ
 من فوقِ ردفٍ مثل الكُثيبِ علا نبط بخصر كأضلعي نحلا مُخطفُ
 ظبيّ من التركِ يقنصُ الأُسدَا
 مقرطق (١) قد أذابني كمدا
 حاز بديعَ الجمالِ فانفردا
 واهأ له لو أجارَ أو عدلا لمستهامٍ بهجره نحلا مندنفُ
 غزالُ سربٍ جماله شَرَكُ
 سترُ اصطباري عليه منتهكُ
 لكلّ قلبٍ هواه منتهكُ
 علّمَ قلبي الولوعَ والفرلا طرفٌ له بالفتورِ قد كحلا أوطفُ
 لله يومٌ به الزمانُ وفي
 إذ منّ بالوصلِ بعد طولٍ جفا
 حتّى إذا ما اطمأنّ وانعطفَا
 أسفرَ عنه اللثامُ ثم جلا وردأ بغيرِ الحاظِ منه ولا يقطفُ
 فظِلنُ من فرطِ شدة الترحِ
 إذ زارني والرقيبُ لم يُلجِ
 الشمُ أقدامه من الفرحِ

(١) مقرطق : مشتقة من القرطق ، وهو التباء ، معرب كونه الفارسي ، وقرطقتة
 لمقرطو أي البسته إياه فلبسه ؛

وقلتُ إذْ عن صدوده عدلا : أهلاً من بعد جفوةٍ وقبلاً أسعف^(١)

هذه صورة واضحة عن الموشحات في بلاد الشام ، وكنا لاحظنا أن بعضها كان ينسم بالعدوبة والخفة في أوزانها الرافضة كموشحات ابن عربي والشاب الظريف وغيرهما . وبعضها الآخر كان ينسم بالاغراق في الصنعة والتكلف كموشحات سراج الدين المحار وسمس الدين الدهان وغيرهما .

اطلع المغاربة على نمرات هذا الفن في بلاد الشرق ، وفارنوها بما عندهم ، فوجدوا تباينا كبيرا بينهم وبين المشارقة ، اذ لمسوا في موشحاتهم اسر السكلف . وهو - في حنفية الامر - متوقع حدوثه ، ذلك أن المذاهب الشعرية البديعة لا بد لها من أن تؤثر قليلا أو كثيرا في هذا الفن الجديد . ولم يعد ابن سعيد الاندلسي (الموفى سنة ٦٨٥ هـ) الحقيقة حين قال في كتابه « المنطف من ازاهر الطرف » :

« اما المشارقة فالتكلف ظاهر على ما عانوه من الموشحات » (٢) .
استرعت هذه الظاهرة الهامة انتباه هذا الناقد ، لكن ذلك لا يعني أن المشرق ما عرف في ادبه بعض الموشحات الصوفية أو الغزلية أو الخمرية انعدم فيها التصنع ، وظهرت في بعضها نفحات اندلسية شديدة .



(١) الصفدي : اعيان العصر (مخطوط) ج ٦ ق ١ و ١١١ ، وابن تفردي يردى : المنهل الصافي الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٢٢١ ، والنواجي : عقود اللالي (مخطوط) و ١٠ .
(٢) الاهواني : ابن سناء الملك ، ص ١٩٣ .

(٢)

الأزجال العباسية

انتقل فن الزجل من مغرب العالم الاسلامي الى مشرقه ، وقد لقي اقبالا عليه من الجماهير بعامه ، واستحسانا من الادباء الذين فلدوه بخاصة .

عرفت بلاد الشام هذا الفن ، فلقى رواجاً ، فاستشر امره ، وظهرت طبقة شعبية من الادباء الزجالين ، وجعلوا المبرز بينهم قيما او اميرا عليهم ، وشرعوا يتحدثون الشعر العربي نفسه .

أبرز من درس هذا الفن الجديد استاذي الكريم الدكتور عبد العزيز الاهواني في كتابه عن الزجل في الاندلس ، فهو يعتقد « ان الشبه كبير بين التوشيح والزجل في اكثر من ناحية ، وخاصة في الشكل الخارجي وفي الاوزان ونظام القوافي ، وكذلك في بعض موضوعات القول والمعاني » (٢) ، وهو -بالإضافة الى ذلك - يعتقد ، ويذهب « الى القول بوجود اصل مشترك . ظهر في البيئة الاندلسية منذ عهودها القديمة ، كان له الفضل في ظهور التوشيح . وكان له اثر في اسقلال الزجل وتطوره . ذلك الاصل هو الاغنية الشعبية » (٣) .

ظهر الرجل بعد الموشح . على الأرجح . في اواخر القرن الرابع الهجري ، وتطور على ايدي زجالين منهورين ، ولعل أبرز من أسهم في تخلص الرجل من النوسيح في القرن الخامس الهجري الزجال المنهور أخطل بن نمارة ، حتى اذا جاء القرن السادس ، بلغ الزجل عصره الذهبي على يد أبي بكر بن قزمان شيخ الصناعة . وقد عاش في النصف الاول من هذا القرن في عهد دولة

(١) الاهواني : الزجل في الاندلس ، ص ٢ ،

(٢) المصدر السابق ، ص ٣ ،

المرابطين ، وعلى يد خليفته من بعده مدغثيس أحمد بن الحاج ، وقد عاش في النصف الثاني من هذا القرن في عهد دولة الموحدين .

أما في القرن السابع الهجري فقد حاقبت المصائب بالاندلس . وانجبت الأزجال نحو التصوف ، وبدأت تنحدر في طريق الضعف . أما في المشرق فقد شهدت رواجاً وازدهاراً ، وبخاصة في السام ومصر على السواء . إذ أفبلت عليه الفئات الشعبية المختلفة . ذلك أنه كان ينصف بالسهولة أولاً . ويحلل من قيود الأعراب واللغة نانياً ، ويعبر عن نفسياتها تعبيراً مباشراً باللغة العامية ، الني ينظم فيها .

انتشار الأزجال في بلاد الشام

لقد بدأ الزجل في المشرق من النقطة التي وقف عندها في المغرب ، وبظهر أن التصوف الذي كان منتشرًا على أوسع نطاق كان أحد عوامل انتشاره سريعاً وبخاصة على يد أقطاب المتصوفة في هذا العصر كإبن عربي وغيره من الزجالين الذين اشتهروا في بلاد الشام . وكالسنستري الذي تأثر بإبن عربي ، وخلفه في مذهبه الصوفي ، واستقر بعد ذلك في مصر .

لعل أقدم ما وصل إلينا من الأزجال الشامية الني مهدت الطريق لمن جاء بعد ذلك الزجل الرمزي الوحيد الذي عثرنا عليه في ديوان إبن عربي ضمن موشحاته ، وقد أورد فيه الفاظ الجواهر لأبي حامد الغزالي :

يا طالب التحقيق	انظر	وجودك
مطلع { ترى جميع الناس	عبيد عبيدك	
قعدت في ساحل	البحر	الأخضر
الفن { أرميت لي أمواجه	الدر	الأزهر
فقلبت : لا تفعل	يا قوتي	الأصفر

القل { وارم فيه تطلع إلى محييدك

* * *

ارمات لي فالحين	مع در اكهب
فقلن : افيني	عنبرك الاشهب
قالت : نعم إن كان	تعمل لي مركب
من عودك الفواح	وخذ نريدك

* * *

زبرجدك اخضر	ومسك اذفر
ودرياقك الأكبر (١)	الله اكبر !
فانا والمطلوب	وقال وعزّ
لمن تردني قل	إليك نريدك

* * *

وامشي على الساحل	واطلب واقتش
فان لقيت إنسان	أعمى وأعمش
وقال : لمن تطلب ؟	فقل : لسيدك

* * *

يا طالب الصنعة	دبر حياتك
وانظر إلى الإكسير	على صفاتك
تجده من ذاتك	يسري لذاتك
مربع التركيب	على وجودك

* * *

(١) فطن انه يقعد على الاغلب الرياني .

كبريتك الأحمر	لقد معلوم
وهو على التحقيق	أجل معلوم
خفى ظهر للعين	مرموز ومفهوم
فذاب قد بان	حوار وزبدك
وعمت أسراره	أركان جديده

* * *

العبد إذا فرط	لا بد بنسبم
ويعمل الحيلة	ولا يفيد ثم
فقلت : قال قبلك	من قدم تقدم
من أول العاشور	انظر فعيده
الحيلة وقت الضيق	ما ليس يفيدك (١)

* * *

يظهر أن ابن عربي رمز في هذا الزجل الى ما جاء في كتاب احياء علوم الدين للغزالي عن الفاظ الجواهر في معرض حديثه عن الحور والجنان يوم القيامة . وهذا الزجل مؤلف من المطامع وسبع مقطوعات ، وكل مقطوعة مؤلفة من غصن وقفل . وقد جعل ففلي المقطوعتين الاخيرتين مزدوجتين كما جاء في قفل المقطع ، وخالف بذلك سائر المقطوعات السابقة التي جاءت رباعية ، ويظهر أن هذا الاسلوب الرباعي ساد فيما بعد بدليل أن قفل المقطوعة الرابعة :

مربع التركيب على وجودك

يشابه كثيرا قفل زجال كبير هو علاء الدين بن مقاتل ، وقد ظهر أمره في أواخر القرن السابع . ومما قاله يخاطب ابا الفداء في مجلس اجتماع فيه ابن نبأة المصري وصفي الدين الحلبي :

(١) ديوان ابن عربي ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

من كل بيت مربّع ملحون بألف معرب^(١)

مهما يكن من أمر فجدير بالذكر أن الزجل أنسر في بلاد الشام في مجالس المتصوفة . ولا يمنع هذا أنه كانت قبل ذلك محاولات مبدئية . ويظهر أنها لم نشتهر وبكتب لها النجاح ، إذ أننا لم نعتز على أقدام من زجل ابن عربي .

درس المتارقة هذا الفن كالموشح ، وحاولوا أن يتعرفوا أسرارهم وبقلدوا أساليبهم . وكما فعل ابن سناء الملك في كتابه « دار الطراز » لشرح طريقة عمل الموشحات . وإبراد نماذج مختاره منها ، فإن الشاعر صفى الدين الحلبي قام بالدور نفسه بالنسبة لفن الزجل في كتابه الهام : « العاقل الحالي والمرخص الغالي » .

وضح لنا الفرق بين الموشح والزجل ، فذكر أنه 'سمى' « كل ما أعرب موشحاً ، وكل ما خلا من الأعراب زجلاً . وما اشترك فيه الأعراب والالحن مزناً في أي فن قصد الناظم »^(٢). كما فرق الشاعر بين الزجل والبليق فقال: « وقد قسموه إلى أربعة أقسام ، يفرق بينهما بمضمونها المفهوم لا بالأوزان والوزوم ، فلقبوا ما تضمن الغزل والنسب والخمر والزهرى زجلاً ، وما تضمن الهزل والخلاعة والاحماض بليقاً . وما تضمن الهجاء والثلث قرقياً ، وما تضمن المواعظ والحكمة مكفراً ، وأطلقوا على كل ما أعرب بعض ألفاظه، من هذه الفنون لقب المزتم^(٣) » .

يظهر أن النوع الثاني من الزجل المعروف بالبليق نشأ في مصر والشام ، بدليل أن اسمه مستق من اسم طائر جميل يدعى بالطائر الأبلق ، وهو معروف بكثرة في بلاد الشام بأبي بليق . ويجمع ريشه بين اللونين الأسود والأبيض . حاول الحلبي في كتابه المذكور أن يقتصر على الحديث عن أسلوب الزجل ما

(١) النواحي ؛ عقود اللآلي (مخطوط) و ٢٠ وابن حجة : الخزائن ، ص ٤١ .

(٢) الحلبي : العاقل الحالي ، ص ١٢ .

(٣) الحلبي : العاقل الحالي ، ص ١٠ .

يجوز فيه وما لا يجوز ، واهمل النحدث عن الزجالين أنفسهم ، فأشار الى أسماء بعضهم ، واكتفى بتواهد قليلة من أزجالهم . كنا نود لو ذكر شيئا عن نضج فن الرجل في المشرق ، ولا سيما انه كان معاصرا لفرد الازدهار . بيد انه لم يفعل . ونحن نجد بين ابدنا ما يؤكد اشنهار هذا الفن . لكننا لا نملك دواوين شعرائه لنعرضها على بساط البحث . وجدير بالذكر أن متشاهير الزجالين كانوا من الطبقات التعبية الكادحة التي تعمل في الصناعة أو التجارة .

لا نعرف من زجالي هذا العصر غير انين أدركا من القرن السابع شطرا منه وافيا . فقضى أحدهما جل حياته . وقضى ثانيهما شرح شبابه وهما الامتساطي وابن مغال .

أما الامتساطي (١) فلا نعرف عنه الا قليلا ، وهو أنه كان « قيم وفته في الازجال والبلاليق » (٢) . كما ذكر صفي الدين الحلبي أنه كان « قم الشام » (٣) في الزجل ، وأشار الى أنه أرسل اليه زجلا مدبجا . وقد أجابه على الوزن والقافية بزجل مطلعته قوله :

أش تجد لك بقتلي غبطه يا الذي نعشوق

لو ندع ما تبقى من عمري كان عليك ننفقو

وجاء بعد ذلك قوله :

لس لنا إلا أن نسير الأزجال للأديب الأجل

أحمد الامشاطي أديب الشام وإمام الزجل

من إذا ما مدحتو قال الناس : يا ما تلقى خجل

(١) تهاب الدين ، أحمد بن عثمان الامشاطي ، ولد سنة ٦٦٥ هـ تقريبا ، وكان قيم الشام في وقته في الازجال والبلاليق وغير ذلك من الفنون . توفي في شهر رمضان سنة ٧٢٥ هـ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ص ٢٠١ .

(٣) الحلبي : المعامل الحالي ، ص ١٠٥ .

ون طلب وصفو شعري قال فكري : صب لذا محمقو
اش تصف خلقو او سماح كفو او درر منطفو

* * *

يا بن عثمان انت هو ابن قزمان بل هو إليك اعتزى
لو اقاموا القاف مقام العين وابدلوا الشايزا
كان يقولوا الصحيح ، وكان من قال لن يضب لو جزى
إنما الناس في اكثر الألفاظ بالصواب برهقو
وانا ما كان درت بهذا المعنى قبل نتحققو (١)

أشار الطلي في المقطوعة الأخيرة من زجله الى ان هذه الخرجة « هي مطلع
زجل ابن قزمان الذي نظم الاديب احمد الامساطي زجله تبعا له (٢) » .
لا نعرف من أزجال الامساطي قيم الزجالين في عصره غير المقطوعة الاولى
من زجل بقول فبه :

لك خد ما آخ	قد حاز ملج
روضو اصطبج	فيه واغتبق
خال من سبج	اسبى المهج
زهر و خرج	واظهر فرج

من هام به ليس يلام (٣)

وقد ذكر عنه أنه عايا بهذا الزجل ابن مقاتل . وأول زجله قوله في
المقطوعة الأولى منه أيضا :

(١) الحلبي : المعامل الحالي ، ص ١٠٥ - ١٠٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ص ٢٠١ .

طرفي لح بدر انضج
لي فيه ملح ما هو حدق
إذا اختلج فبه الدعج
يسبى المهج ولا نسج
قام عذار ولام (١)

وأما ابن مقاتل (٢) ، فهو أمر الزجل في عصره ، وهو بعد بمثل عصره الذهبي وقد ذكره ابن حجة كثيراً في خزائنه . ونوده بأمره . فقال : « إذا ذكر الزجل كان ابن بجدنه ، وأبا عذرتة ، وممن سلمت إليه مقابلته هذا الفن (٣) » .

كان حفظنا من هذا الزجال في العصر الذي ندرس شبابه وفردة نضجه ذلك أنه قضى شطر حياته الأوفى في العصر الذي يليه . ولا بأس أن نفق فنره عنده ، إذ إنه يمثل في الواقع مرحلة ختامية متممة للادب في هذا العصر . وجدير بالذكر أنه اتجه بهذا الفن نحو الاساليب البديعية كما رأينا الاتجاه نفسه من قبل في فن التوشيح .

ذكر ابن حجة عدة أزجال له ، فأورد منها في باب الجناس اللفظي زجله الذي جأنسه بالغاء والضاد وذكر أنه لم يسبق إليه ، ومطلعه قواه :
إن مع معنوفي جفسون ولحافظ
لو رآهم عابداً لهام وحاض (٤)

وهو مؤلف من أربع مقطوعات بالاضافة الى المطلع . ان كان ما أورده ابن حجة كاملاً . وذكر منها أيضاً في الجناس اللفظي المقلوب الذي التزمه

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠١ .

(٢) علاء الدين ، علي بن مقاتل بن عبد الخالق الحموي : الساجر الزجال ، ولد بحماه سنة ٦٧٤ هـ ، وغلب عليه نظم الأزجال دون غيرها ، فاشهر بها وأصبح أمامها ، وقد توفي سنة ٧٦١ . (ابن نغري بردي ، المنهل الباني (مخطوط) ، ج ٢ و ٥١ ، وابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ ص ١٢٣) .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

في جميع الخرجات ، وقد مدح به الملك المؤيد أبا الفداء ومطلعه قوله :

قلبي بحب نيساه لبس بعشق إلا إيساه

وختامه قوله المشهور الذي يتحدث به اللغة الفصحى :

كم خصم في المقاتل صابوا ابن مقاتل
وكم ذا في المحافل قد أنسالو جحافل
من كل بيت مرتسع ملحون بألف معرب (١)

ونقف عند زجل غزلي أورده ابن مبارك شاه في سفنته ، ورنه
مستفعلانان ، ومطلعه قوله :

محبوبى يهنيك جماله وتملك شيئين لغيرك ما تليق

الله يهنيك

ما عدت تقرأ جوى حوى در الحقائق
ولك عيون سيفين جوا هو لا سوارق
لكن وحياتك حواليتها طوا رق لها طوارق (٢)

ونذكر له أخيراً زجلاً مشهوراً أيضاً ، قاله في مליح خياط ، وقد
النزم فيه التوجيه بصناعة الخياطة (٣) ، ويبلغ عدد مقطوعاته إحدى
عشرة ، ومطلعه قوله :

نهوى خياط سبحان تبارك من بالجمال جملو
بالمفصل وآيسة الكرسى نرقى شكلو الحلو

(١) الواحي : عقود اللالي : (مخطوط) و ٢٠ ، وابن حجة : الخزائن ، ص ٤٠ ،
وابن مبارك شاه : السبعة (مصورة المخطوطة) ل ٥٧٥ .
(٢) ابن مبارك شاه : السفينة (مصورة المخطوطة) ل ٥٧٥ .
(٣) الواحي : عقود اللالي (مخطوطة) و ٢٠ .

وَنَعْرُضُ فِي الْمَقْطُوعَةِ الْآخِرَةِ بِذِكْرِ أَضْدَادِهِ وَخُصُومِهِ فِي دِمَشْقَ :

ذَا الزَّجَلُ قَاسِيُونَ عَلَى الْأَعْدَا جَدَ مَا فِيهِ سَخْفًا
وَعَلَى أَرْبَابِ الْمَعْرِفَةِ رِشْن النِّعَامَاتِ أَخْفَا
لِلصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ فَعِلَ عَنِّي وَاحْذَرِ أَحْذَرِ نَخْفَا
كَمْ زِيَادَةٌ عَلَى وَإِنْ كَسَا سَتُّهُوا بِعَمَلُوا
هَذَا الْأَبْلَقُ وَالشَّقَرَا وَالْمِيدَان أَرْكَبُوا وَادْخُلُوا (١)

أورد ابن حجة هذا الزجل في باب التوجيه . وأشار إلى أن بعض من أدركه من الأعيان أخبره « أن هذا الزجل دخل إلى بلاد المغرب وعاد مخلقاً بالزعران (٢) » .

حكم المغاربة على الموشحات الشرقية بأنها متكلفة يغلب عليها النصنع ، واليوم يشهد مسرفى على الزجل المترقي . ويبين أن بضاعتهم من هذا الفن دخلت بلاد المغرب ، وردت إليهم ، فأعجبته . وعادت بعدها إلينا مخلقة بالزعران .

ضاعت معظم أزجال هذا الزجال الكبير ، وهي كثيرة . كانت مجموعة في ديوان كبير مؤلف من مجلدين (٣) . لقي هذا الفن إقبالا كبيرا من الطبقات التسعبة ومن جمهور الأدباء والنقاد ، وجدير بالملاحظة أن كتب الأدب أدخلت هذا الفن في شواهدا ، حتى إن الشيخ شمس الدين بن الصائغ أورد في شرحه الذي سماه « رقم البردة » شيئاً من محاسن أزجال عصره على بعض أنواع البديع (٤) . ونجد الأمر نفسه عند ابن حجة ، فقد أورد كثيرا من أزجال ابن مقاتل في حديثه عن الجناس اللفظي والمقلوب (٥) ، وعن

(١) ابن حجة : الخزائن ، ص ١٤٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤١ .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ ص ١٣٤ .

(٤) ابن حجة : الخزائن ، ص ٥ ، ٢٨ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٨ - ٤٠ .

التوجيه (١)، وعن ذكر العكس (٢) ، وغر ذلك . وقد أورد بعض هذه الأزجال كاملة ، وهي التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة .

كما أشار خلال ذلك إلى طرق قراءة الزجل وكتابته . فذكر قوله « كأني بمتأمل نظر في رسم كتابة هذا الزجل ، فأنكره لبعده عن رسم الالفاظ المعربة الخالية من اللحن ، ويعذر في ذلك من ليس له إلمام بمصطلح رسمه ، ومن رسمه على غير هذا الطريق لم ينفذ له مرسوم فانه يؤديه الى خطأ وزنه وإعراب لحنه » (٣) .

تطور فن الزجل ، فقد كان الزجالون ينظمونه دون ان يتكلفوا فيه التصنع البديعي ، وقد أشار صفي الدين الحلبي إلى هذا الامر ، وأظهر فضل المتأخرين منهم على المتقدمين بسلامة النظم ورقة اللفظ ، والبعد عن الركائز . وتتبع صنائع البديع ، واستطرد بعد ذلك قائلا : « تنبعت أزجال المتقدمين ، ولم أجد لهم لفظة تجنيس ولا تطبيق ، ولا تورية ولا توجيه . ولا لفظة واحدة قصد بها الناظم صنعه من صنائع البديع ، فمثل أزجالهم عندي لرفة الفاظها ومثل أزجال المتقدمين كمثل أشعار المولدين وأشعار الجاهلين في رقة الالفاظ ووحشيها ، لا في الصحة والسقم ، ولقد رأيت جماعة منهم يعيبون الفاظ القدماء لبعدها عن الصنائع وسلامة الالفاظ ، وأنا على مذهبيهم ، وللناس فيما يعشقون مذاهب » (٤) .



نخلص مما تقدم معنا الى القول ان الزجل أصبح فناً مستقلاً يجمع بين طبقة من الادباء والفئات الشعبية المختلفة ، فهو أولاً صورة عن الادب

(١) المصدر السابق ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

(٤) الحلي : العاقل الحالي ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

التسعيبي الذي فرض على طبقة الادباء بحكم انتشاره الكبير ورواجه بين الناس؛ وكان معظم المبرزين من رجاله هم من أصحاب الحرف كالتاجر ابن مقاتل ؛ والامشاطي شهاب الدين احمد . وهو بعد ذلك صورة عن بعض الانجاهات الادبية الجديدة في هذا العصر ؛ فاخذت بزمامه فئة من الادباء والمنقذين ؛ فطبعته بطابع العصر ، وادخلت فيه المذاهب البيانية والبديعية والاسلوبية ؛ وحسبت، أنها تستطيع ان تتفوق على ازجال المغاربة ، وفي هذا القول نظر .



(٣)

الرَّباعِيَّاتُ أَوِ الدَّوْبِيَّاتُ

فن شعري جذب عرّفه العرب في المشرق ، وانتشر في بلاد الشام ومصر وغيرهما ، وكان معروفا من قبل عند الفرس باسم « الدوبيت » ، ينظمونه بلغتهم الخاصة . ومعروف ان الجزء الاول من اسمه معناه اثنان ، وهو مؤلف من بيتين اثنين ، وقد سماه العرب باسم الرباعي لكونه مؤلفا من أربعة مصاريح ، وسموا الواحدة منه (رباعية) . وأوزانه كثيرة أشهرها :

(فعلن متفاعلن فعولن فعلن) (١)

وأما أنواعه فثلاثة : اولها يكون بأربع قواف كالمواليا ، وثانها يكون بثلاث قواف ، وبدعى اعرج ، وثالثها يكون بأربع أيضا ، ويسمى مردوفا ، وهي كلها على وزن واحد ، ويتميز من غيره لتحليله بالاعراب ونسجه على منوال لفظ الاعراب (٢) .

ادخل الدكتور جوده الركابي قضية الزحاف الذي يطرا عليه ، فوجد ان عددها قد بلغ أربعة وعشرين نوعا (٣) .

انتشر هذا الفن الاعجمي ، وأكثر الشعراء من نظمته ، وخصصوا له دواوين مستقلة لاهميته في هذا العصر ، ونذكر من ذلك أن الشهاب

(١) : المعامل الحالي ، ص ٦ .

(٢) الرجوي : بلوغ الامل (مخطوط) و ١٩ .

(٣) الركابي : Rikabi : Poesie Profane, P 186

(٢) الركابي :

الشافغوري الشاعر المار ذكره، نظم ديوانا خاصا « جمع ما فيه دوبيت » (١) ،
وقد رآه ابن خلكان ونقل منه قوله :

الوردُ بوجننيك راهِ زاهرُ والسحرُ بمقتليكُ وافٍ وافرُ
والعاشقُ في هوالك ساهٍ ساهر برجو ويخافُ ، فهو شاكِرُ شاكِرُ (٢)

كما أشار ابن أبي أصيبعة في ترجمة حكيم الزمان عبد المنعم الجلياني
خلال ذكره تصانيفه الى « ديوان الغزل والتشبيب والموشحات والدويبي
وما ينصل به » (٣) .

وللعلماد الكاتب أيضاً « ديوان صغير ، جمعه دوبيت » (٤) ، وقد روى
أبو شامة أمثلة منه في معنى الجهاد ، فالها على لسان الملك العادل نور الدين .
وهي قوله :

للفزور نشاطي ، وإليه طرّبي مالي في العيش غيره مِنّ أربِ
بالجدّ وبالجهادِ نجحُ الطلبِ والراحةُ مستودعةٌ في النعبِ

وقوله :

لا راحةَ لي في العيش سوى أن أغزو وسيفي طرباً إلى الطلى يهتزُ
في ذلّ ذوي الكفرِ يكونُ العزُ والقدرةُ في غيرِ جهادِ عجزُ

وقوله :

أقسمتُ سوى الجهادِ ما لي أربُ والراحةُ في سواه عندي تعبُ
إلاّ بالجد لا ينالُ الطلبُ والعيشُ بلا جهادِ جدّ لعبُ (٥)

(١) ابن خلكان : وفيات الاميان ، ج ١ ص ٤٠٨ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاميان ، ج ١ ص ٤٠٨ .

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء ، ج ٢ ص ١٦١ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ١ ص ٧٧ .

(٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٠٧ .

كما عثرنا على مقطوعتين رباعيتين من الديوان المذكور ، إحداهما قالها
في رثاء الناصر صلاح الدين :

قالَ الملكُ الناصرُ : مَنْ كَتَفَنِي في الجودِ بغيرِ صفتي فما أنصفتني
ما يعلمُ أنَّ ذلكَ الملكَ فني لم يبقَ مِنْ الجودِ إلا كَفَنِي (١)

والرباعية النائية قالها يتشوق اوان المشمش في دمشق :

المشمش لانتظارنا مصفرُ والروض إلى لقائنا مفترُ
فمُ نقتنمُ الوقتَ فهذا العمرُ لا لبثَ له فمن به يفترُ (٢)

وجدير بالذكر أن الرباعيات الست هي كل ما وصلنا من الديوانين
المذكورين آنفاً ، ويلاحظ أنها من النوع الاول :

ومن هذا النوع أيضاً قول ابن قسيم :

يا مَنْ سلبَ الفؤادَ ، أين العوض ؟ أصميتَ ، وقلَّما أصيبَ الفرضُ
إن كانَ بكيدِهِ لك المعترضُ فالجوهرُ أنتَ ، والأناهُ العَرَضُ (٣)

ومنه قوله الكلبى :

ويلاهُ على المفهفِ الميَّاسِ ما أحسنه ، وهو بقلبِ قِياسِ
يهتز كأنه قضيبُ الأسِ سكران ، لم يذُقْ حميَّ الكاسِ (٤)

ومنه قول التلعفري :

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢١٤ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٢١١ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٥٤ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٥٤ ، وقد أورد شواهد مختارة
من رباعيات عرسله ، نشر منها الى مقطوعاته الواردة في الصفحة ١٨٩ ، ١٩٤ ، ٣١٨
من الجزء الاول .

ما أحسنَ ما يكونُ منْ تهـواه
أوصيكَ إذا تنرجستَ عيناها
في حضنك والنعاسُ قد غشَّاه
قمْ مصَّ لسانته وقبِّلْ فاه (١)
ومنه قول الوداعي :

لما حجبَ الكرى عن الأماقِ
ناديتُ وقد تزايدتْ أشواقِي :
ما أحسنه ، وهو بقلب قاس
يا غصنُ رضيتُ منك بالأوراقِ (٢)
لاحظنا في الرباعيات المذكورة أنفا ان حرف الروي في قوافي المصاريع
الأربعة واحد لم يتغير ، ويظهر ان التسعراء أكثروا من هذا النوع .

ومن النوع الثاني قول الوداعي نفسه :

يا غصنَ نقأَ أينعَ بالأزهار
ريحانُ عذارِك الذي تيمني
يا الطِفْ من نسيمةِ الأسحارِ
منْ ولَّده مِن قلمِ الأشعارِ (٣)
ومنه قول ابن دمرتاش (٤) :

الصبُّ بك المنعوبُ والمنصوبُ
يا من طلبتَ لحاظه سفكُ دمي
والقلبُ بك الملسوبُ والمسلوبُ
مهلا ، ضعفَ الطالبُ والمطلوبُ (٥)

ومنه قول الشاب الظريف :

قاسيتُ بك الغرامَ والهجرَ سنينَ
ما بين بكاءٍ وأنينٍ وحنينَ

(١) ديوان التلعفري ، ص ٦ .

(٢) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٨٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٨٢ .

(٤) محمد بن محمد بن مكي بن عيسى بن دمرتاش الدمشقي ، العدل شهاب الدين ،
أبو عبد الله . كان في شبيبته جنديا في حماة ، وخدم ملكها المنصور ، وكان صديقا للشاعر
محيي الدين محمد بن نعيم ، وهو الذي دخل بسببه الجندية ، وبقي في حماة عشرين عاما ،
ولما أسن ترك الجندية ، ودخل في رعي العدول ، وجلس بمركز الرواحية حتى توفي سنة
٧١٣ هـ . اشهر هذا الشاعر بنظم المقطوعات الصغيرة ، وقد وصفها الصفدي بقوله : « إذا
دعا المعنى الغامض كان له مجيبا ، وإذا نظمه كان عجيبا » . له فوص على المعاني ، والفاظه
أطرب من الثالث والثاني ، له مقابلع أعذب من أيام الوصال ، وأشهى من جيب كرمته منه
الخصال » (الصفدي أعيان العصر (مخطوط) و ٢٨٢) .

(٥) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) و ٢٨٧ ، والوافي بالوفيات ، ج ١ ص

ارضيك ولا تزداد إلا غضيباً^(١) الله - كما أبلى بك القلب - يعين^(٢)

ومنه قول التلعفري :

لو بات بما اجنثه مكثرتنا ما خان^(٣) . ولا كان لعهدي نكثنا
يبدو فيقول كل من ينظره^(٤) : سبحانك ما خلقت هذا عبنا^(٥)

نلاحظ في معظم الرباعيات التي اوردناها ان السعراء يحاولون ان يعطونا صورة عن المحبوب . ويعبرون عن عواطفهم ومشاعرهم ، فهي بحق ومضة صادرة من أعماق النفس . وكثرا ما كان الحوار بارزا فيها ، وكأنها ترمز لنا بايجاز خلال قوافيها الرباعية والثلاثية لما يريد ان يعرفنا به من صورة المحبوب او حواره او احواله . يضاف الى ذلك ظهور التصنع البديعي في بعض الاحيان .

كما كان للمنصوفة نصيب ايضا في الدوبيب . فنظموا فيه كثيرا من معانيهم ، فهو بأسلوبه وشكله بلائم تماما المعاني الرمزية والتعابير الخاصة التي نعر عليها في كتب المتصوفة .

ترجع اهمية هذا الفن الذي حدا بالعماد الكاتب والشهاب الشاغوري ان ينظما فيه ديوانين ، الى انه يعبر عن رغبة اكيدة لدى طائفة من الناس الذين تقبلوه وطائفة من السعراء الذين استهواهم للتحرر من قيود الوزن والقافية في الشعر العربي .

يضاف الى ما ذكر ان هذا النمط الاعجمي بحمل طابعا غنائيا محببا ، ولا اعدو الحقيقه ان قلت ان هذا الفن وجد ليكون مادة غنية بالعواطف والاغزال ، ويستمد منه المقنون ما يريدون غناءه وتلحينه من مقطوعاته .

(١) ابن شاعر : فوات الوفيات ، ح ٢ ص ٢٦٧ ،

(٢) ديوان التلعفري ، ص ٦ .

(٤)

المواليات الشعبية

فن مشرقى آخر جديد ظهر بين الطبقات الشعبية ، وقد ذكر في نشوئه ان اول من نطق به اهل واسط (١) ، وقد ذكر صفى الدين انه « سمي بهذا الاسم لأن الواسطيين لما اخترعوه ، وكان سهل الناول لقصره ، نعلمه عبيدهم المتسلمون عماره بساتينهم . والفنول . والعامره ، والابارون ، فكانوا يغنون به في رؤوس التخييل ، وعلى سقى المياد . ويقولون في آخر كل صوت مع الرنيم : يامواليا ! إشارة إلى ساداتهم فغلب عليه هذا الاسم » (٢) .

المعروف ان هذا الفن كان في بدئه معرباً ، وله وزن واحد ، وأربع قواف على روي واحد ، وقد اقتطعه الواسطيون من بحر البسيط ، وجعلوه بيتين وقفوا شطر كل بيت منها . وسموا الأربعة صوتاً (٣) ، واستخدموه في الغزل والمدح والهجاء (٤) .

انتقل هذا الفن الى بغداد ، فاستعمله عامتهم (٥) ، فلعنقوه ونقنحوه ورقنقوه ودقنقوه ، وحذفوا منه الاعراب ، واعتمدوا على سهولة اللفظ ورشاقة

(١) وضع الرجوي الحلاف حول تسمية هذا الفن ، فذكر انه سمي به لموالاة بعض فوائيه بعضاً ، وقيل : لان اول من نطق به موالى بني برمك ، أو لانه كان أحدهم اذا نعى مواليه يقول : يامواليا ، يامواليا ، كما نقل عن الجلال ، فهو على الاول (موالى) بضم الميم وفتح الواو وكسر اللام على صيغة الجمع ، أو (مواليا) بزيادة ياء المكلم ، وادغام الياء في الياء ، ولحقق الالف للاشباع ، ويحتمل عدم شديده الياء بخفيفا فاني لم أر نصاً على ضبطه ، (الرجوي : بلوغ الامل ، ر ٢٠) .

(٢) الحلبي : العاقل الحالي ، ص ١٣٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨ .

(٥) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٥٧ .

المعنى ، ونظموا فيه الجد والهزل ، والرقيق والجزل (١) . ويظهر أن حادثة البرامكة ساعدت على سرعة انتشاره بين الناس ، فقد ذكر أن هرون الرشيد لما أمر بقتل جعفر البرمكي أمر ألا يرتى بشعر ، فرنته جارية له بهذا النوع من الشعر ، وجعلت تنشده وتقول : « ياماليا » كما كان يقول أهل واسط ، وكانت تنشد بعد ذلك :

يا دار ، أين ملوك الأرض ؟ أين الفرس ؟

أين الذبن حموها بالقنا والنرس ؟

قالت تراهم ريم تحت الاراضي الدرس

سكوت بعد الفصاحة ، السنتهم خرس (٢)

ومن بغداد انتقل هذا الفن فشاع في سائر الامصار ، وقد عرف في مصر والشام وغيرهما .

ذكر ابن خلدون أنه عرف في مصر بين أهلها ، وانهم « أتوا فيه بالفرائب . وتبحروا فيها في أساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية . فجاؤوا بالمعجائب » (٣) .

وعرف هذا الفن في بلاد الشام ، وقد نظمه الشعراء ، ولحنه المفاون ومن الشعراء الذين عثرنا لهم على بعض المواليا الحكيم (٤) ابن السويدي (٥) (٦) ، وكان أسرع الناس بديهة في قول الشعر ، ومما قاله في هذا الفن :

(١) الحل : الماثل الحالي ، ص ١٣٣ .

(٢) الرجوي : بلوغ الامل (مخطوط) و ٢٠ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٥٧ .

(٤) عز الدين ، أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن طرخان الحكيم الانصاري ، المعروف بابن السويدي ، شيخ اطباء دمشق . ولد سنة ٦٠٠ هـ ، وكان بالاضافة الى تعلمه من الطب ادبا مشهورا ، وقد ذكر معاصروه أنه كان أسرع الناس بديهة في قول الشعر وأحسنهم انشادا . ومن مؤلفاته « الباهر والجواهر » و « التذكرة الهادية » في الطب (ابن تفرج بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ١ و ٣٢ ، ٣٣ ، والنجوم الزاهرة ، ح ٨ ص ٢٨) .

(٥) ابن تفرج بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ١ و ٣٢ ، ٣٣ ، والنجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٨ .

(٦) السويدي نسبة الى السويدياء وكان أبوه تاجرا بها . انظر تاريخ الاسلام الذهبي .

البدْرُ والسعدُ ، ذا شيهكُ ، وذا نجمكُ

والقدُ والحسنُ : ذا رمحكُ ، وذا سهمكُ

والنفضُ والحبُ : ذا قسمى ، وذا فسمكُ

والمسكُ والحسنُ : ذا خالكُ . ودا عمك (١)

والطريف عند ابن السويدي انه حاول أن ينهكم على اللغة الفصحى .
كما رأينا عند الرجال ابن مقاتل . وذلك على لسان فتاة حدثت أختها ،
وغرضها أن تعبت به :

ذي قايلة لأختها ، والقصد تسمعنا : ما النحو ؟ قالت لها : نحنا بأجمعنا
الرفع النصب : نا و انت . ومن معنا للجر ، والزوج حرف جاء للمعنى (٢) ،

يلاحظ في هذه المقطوعة التعبير الساذج عن نفسية فتاة عابثة ، حاولت
أن تداعب حبيبها وهي تتعرض له وتسمعه صوتها ، وما عرفنا في الشعر
العربي مثل هذا الأسلوب في مخاطبة الفتاة من تحبه إلا نادراً .

لم يقصر شعراء المواليا هذا الفن على العزل ، وإنما استخدموه في بعض
الاغراض الأخرى . نذكر من ذلك المواليات التي نظمها الشيخ رشيد الدين
سعيد بن علي البصراوي في الزهد :

كيف اعتمدت على الدنيا وتجريبك أراك فلك تراها كيف تجري بك
ما زالت الخادعة تدنو فتغري بك حتى رمتك بإبصادك وتغريبك (٣)

ذكر السيوطي انه يجب في هذا الفن اللحن ، وعليه فتجوز فيه استعمال
الالفاظ الجارية في مخاطبة العوام من الناس لفظاً وخطاً معاً لانك نظمت

(١) ابن نفعي بردي : المهمل الصافي (مخطوط) ج ١ و ٣٢ ، ٣٣ ، والنجوم الزاهرة :

ج ٨ ص ٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ و ٣٢ ، ٣٣ .

(٣) ابن نفعي بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٦٧ .

به حسب التخاطب، وأخذت تكتب على قوانين الرسم المقيدة مراعى الحروف لغيرت وضع ما نطقت به ، وخالفت حروفه ، وكسرت وزنه ، وفوت غرض الناظم عليه من تجنيس وغيره (١) .

أورد ابن حجة في خزائنه بعض مقطوعات المواليات في معرض حديثه عن التوجيه (٢) وغيره ، وأخبر للمعمار عدة مقطوعات أخرى من هذا الفن (٣) .

تلك هى صورة عن هذا الفن المستحدث ، وقد لقي إهمالا ممن تصادوا لدراسة الشعر الابوي ، فهو معروف حتى الآن بين الفئات الشعبية المختلفة في البلاد العربية ، ينظمونه ويغنونه .



(١) الرجوي : بلوغ الامل (مخطوط) و ٢١ .

(٢) ابن حجة : الخزانة : ص ١٧٤ ، ١٧٦ ، ٢٥٢ ، ٢٩٠ ، ٤٢٩ ، ٤٩١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٩٠ .

المسمطات والمنحسبات

ظهر فن التمسط في أواخر القرن الرابع الهجري . وانتشر في القرن الخامس ، ولا يعرف على الضبط من هو أول من اخترع هذا الفن الجديد ، ونظم فيه أوائل المسمطات التعرية . ولعل أول من تحدث عنه ابن رشيق في عمده ، وذلك في باب التقفية والتصريع ، فتحدث عن نوع غريب من الشعر سماه الناس « الفواديسي » (١) وتحدث بعد ذلك عن الشعر المسمط .

نشأ هذا الفن نشأة شعبية بادىء أمره بدليل أن ابن رشيق ذكر أنه لم ير فيه متقدماً حاذقاً صنع شيئاً منها « لأنها دالة على عجز الشاعر وقلة قوافيه ، وضيق عطنه » (٢) .

والغريب أن النقاد ينسبون إلى امرئ القيس قصيدة مسمطة (٣) شك بعضهم في نسبتها إليه ، وأغلب الظن أن منتحلها حاول من خلال ذلك أن يرفع من قيمة القصائد المسمطة بعد أن لقيت مقاومة فحول الشعراء .

مهما يكن من أمر ذلك ، فقد انتشر هذا الفن في بلاد الشام . وعرف عند أسامة بن منقذ وغيره .

أما نسبة هذا الفن فيذكر ابن رشيق أن اشتقاقه من المسمط ، وهو أن تجمع عدة سلوك في ياقوتة أو خرزة ما ، ثم تنظم كل سلك منها

(١) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ١٥٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٧ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٧ .

على حدثه باللؤلؤ سيراً ، ثم تنظم أيضاً كل سلك على حدثه ، وتصنع به كما صنعته أولاً إلى ذلك . ثم يتم السمط (١) .

وضح أبو القاسم الزجاجي سبب هذه التسمية ، وعلل التشابه بين الاسم والمسمى بقوله « وإنما سمي بهذا الاسم تشبيهاً بسمط اللؤلؤ ، وهو سلكه الذي يضمه ويجمعه مع نفرق حبه ، وكذلك هذا الشعر لما كان متفرق القوافي منعفاً بقافية تضمه وترده إلى البيت الأول الذي بنيت عليه في القصيدة ، صار كأنه سمط مؤلف من أشياء متفرقة » (٢) .

والقافية المقررة في السمط تسمى عمود القصيدة (٣) ، وهو بعد هذا على أنواع تختلف باختلاف عدد الأقسام زيادة ونقصاناً ، واسهلالها بالآبيات ، وأفضلها في نظر ابن رشيق ما توخى الشاعر فيه الاعتدال .

أما أشهر هذه الأنواع فهو المنسوب إلى امرئ القيس ، وهو أن يبتدىء الشاعر ببيت مصرّع ، ثم يأتي بأربعة أقسام على غيره قافيته ، ثم يعيد قسماً واحداً من جنس ما ابتدأ به ، وهكذا إلى آخر القصيدة (٤) .

كثرت في هذا العصر المسططات وتعددت أنواعها ، فقد عرف منها الخمسمات وهي أشهرها ، والمربعات وهي غير الرباعي المار ذكره ، والسبعيات .

نظم أسامة أربع قصائد في فن المسططات ، أفرداها عن أبواب ديوانه ، وألحقها به ، وقد اتخذها أسلوباً خاصاً ، وهو أنه كان يختار قصيدة لشاعر معروف ، ويجعل آبياتها أو بعضها الوحدة الثانية التي تشترك في سمط القافية الموحدة . وأما الأقسام الثلاثة التي تسبق البيت فهي على قافية

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٤ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٥ .

(٤) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ١٥٤ .

الشطر الاول ، كما يتضح لنا ذلك في القصيدة التي سمط بها ميمته المشهورة (١) وجاء في مقطوعتها الاولى قوله :

توهم ما اراني الدهر ام حلُم
وصبوة كل هذا الوجد ام لم
احببت قوماً ، وإفراط الهوى ندم
ولنا ، فلما رجونا عدلهم ظلموا فليتهم حكموا فينا بما علموا
كم رُضت نفسي بالسراوان ، فامنعنا
وكم اضاعوا موانيق الهوى ، ورعت
فما نقت عليهم غدره فضعت (٢)
ولا أضعت لهم عهداً ولا اطلقت
على ودائعهم في صدري التهم (٣)

يتألف هذا السمط من خمس وأربعين مقطوعة ، تتألف كل واحدة من وحدتين : اولاهما تشمل الاقسمة الثلاثة الاوائل ، وهي على قافية الشطر الاول من البيت الذي يؤلف الوحدة الثانية . ويلاحظ أن الشاعر في المقطوعة الاولى جعل القافية في الاقسمة مصرعة ليلآئم بينها وبين بيت القصيدة التي ضمن بها مسمطه . ويلاحظ كذلك أنه استوفى معظم أبيات قصيدته المتسار إليها في المسمط المذكور ، وأهمل منها بيتين اثنين ، وهذا يعني أن الشاعر لم يكن في مسمطاته ليستوفي القصائد المضمنة كاملة ، وانما كان يختار منها ما يلائم أغراضه ، وينسجم مع أسلوبه وقوافيه .

سمط الشاعر بالاضافة الى هذا السمط قصائد غيره من الشعراء ،

(١) ديوان اسامة بن منقذ ، ص ٤٠ .

(٢) ضمت : أي اختبأت واستترت .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٢١ .

فنحن نعثر على ثلاثة مسمطات أخرى ، سمط في أحدها قصيدة لمهيار
الديلمي (١) وفي ثانيها قصيدة لقيس بن الملوح (٢) . وفي ثالثها قصيدة لقيس
ابن ذريح (٣) وهي كل مافي ديوانه من هذا الفن :

نقف أخيراً عند نوع آخر من المسمطات لم يعتمد فيه الشاعر على تضمين
بعض شعر القدماء ، وإنما كان يأتي في المسمط بخمسة أقسمة تم بخمسة
أخرى في وزنها على قافية غيرها ، وتحد القسم الخامس مع القسم
الخامس من المقطوعة الأولى في القافية . وأكثر ما تستعمل في بحر الرجز (٤) ،
وقد تكون من غيره كما في الخمس الذي اقترح على الشرف الانصاري نظمه .
وجاء فيه قوله :

اكابدُ وجداً في هوالك مجدداً وأخفى عن الواشين دمعاً مردداً
وأظهر للعدال عنك تجلداً « نهاري نهار الناس حتى إذا بدا
لى الليل هزتنى إليك المضاجع »
حلفت بشفر منك لي نهبة وعذب رضاب ليس لي منه نغبة
وتلك يمين عند مثلي صعبة « لقد بُتت في القلب منك محبة
كما بُتت في الراحتين الاصابع »

وفي ديوان ابن الساعاتي مخمس مدح به الملك العزيز عثمان ، وهو الذي
اقترحه عليه ، فاستهله بقوله :

خليلي من سعد قفا فتأملا بقيّة ما أضنى الفراق وانحلا
وجسماً مقيماً بعد صبر ترحلاً أما واللتى وجداً ساكنة الملا
لقد ضاق باع الصبر أن احتملا

(١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٣١٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣١١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣١٤ .

(٤) ابن رشيق : العيدة ، ج ١ ص ١٥٦ .

(٥) مصوره مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٥٠ ، والديوان ص ٣١٣ ، ٣١٤ .

وختمه بالمقطع الحادي عشر الأخير ، وهو قوله :
 أجاز فأضحى كل نادٍ به ندرٍ فما طال منه عمر وغنرٍ إلى غدٍ
 وأغنت أبادي كفه كل ذي يدٍ فلولا انقطاع الوحي بعد محمدٍ
 لكان نبياً في السماحة مرسلًا (١)

لاحظنا في الخمسين السابقين أنهما نظما تلبية لاقتراحين عرضا على
 الشاعر بن ، قلبيا الرغبتين ، وسوف نلاحظ أن الشاعر في هذا العصر كان
 يستجيب لكل ما يطلب منه ، ولا سيما القصائد التي يشترط فيها بعض
 الشروط كما سنرى في بحث خصائص الشعر الاسلوبية . ولاحظنا أيضا
 محاولات الانطلاق في القوافي والاوزان ، ورأبنا أنها كانت بعبدة المدى في بعض
 الفنون المستحدثة ، حتى إن الشعراء جنحوا إلى تنويع القوافي غير ماورد
 منها في آخر كل مقطع ، وهو ما سماه ابن رشيق عمود القصيدة .

نخلص من حديثنا عن الفنون المستحدثة الى القول ان بعضها كالوشح
 والدوبب حافظ على قواعد الاعراب . واقتص على مخالفة العرب في اوزانه
 وقوافيه ، وبعضها الآخر أهمل قواعد الاعراب تماما كما هو الحال في الزجل
 والموالي والقوما والكان كان .

تحدث الصفي الحلبي عن الفنون الاخيرة فذكر ان « إعرابها لحن ،
 وفصاحتها لكن ، وقوة لفظها وهن ، حلال الاعراب بها حرام ، وصحة
 اللفظ بها سقام ، يتجدد حسننها إذا زادت خلاعة ، وتضعف صنعتها إذا
 أودعت من النحو صناعة ، فهي السهل الممتنع ، والادنى المرتفع . طالما
 أعيت بها العوام الخواص ، وأصبح سهلها على البلغاء يعناص ، فان كلف
 البليغ منها فنا تراه يريغه ، ويتجرع ولا يكاد يسيفه ، فمسرقتها بالطبع

السليم ، وآفتها من الفهم السقيم (١) » ،

نلاحظ في هذا القول الصراع بين الشعر الملحون والسعر القريض إذ
« حلا لحنه على كل معرب ، وصار حفظه الى الافهام أدنى وأقرب » (٢) ،
كما زعم أصحابه . وقد تطور هذا الامر في القرن الثامن الهجري ، فبدأ
الصراع سافراً بعد أن لقيت هذه الفنون إقبالا عليها من الطوائف الشعبية ،
وأدى الى ظهور جيل من الادباء الذين أسهموا بنصيب وافر في تطور هذه
الفنون تطوراً باعد كثيراً بينها وبين اللغة العربية الفصحى .



(١) الحلبي : المعامل الحالي ، ص ٦ .
(٢) النّبواني : دفع الشك والميل في تحرير الفنين (مخطوط) و ٢ .

الفصل الثالث

الأساليب والمذاهب الفنية

شهد الشعر في هذا العصر تطوراً خرج به في بعض الاحيان عن أساليبه التقليدية ، اذ انه لم يبق ملكاً للطبقة المثقفة ، وانما سعى الى العوام من الناس ، فكان ذلك بدء انطلاقة جديدة ، فرضت وجودها على الادب ، وكان لابد للنقاد من الوقوف امام هذه التيارات الجديدة ، ووضعها موضع الاعتبار، وقد دفعت بعض كبار الادباء والنقاد الى تبنيها والاسنشهد بها جنباً الى جنب مع المأثور من الشعر والنثر .

ولقد تنازع الشعراء مذاهب فنية متباينة في الصناعة الشعرية ، سادت في هذا العصر ، وبلغت مرحلة نضجها الفني ، لكن الذي يجب ان نقف عنده ونشير اليه ، هو ان البديع طغى على كل المذاهب الفنية المعاصرة ، فأصبح هذا العصر يعرف بعصر البديع ، وليس من باب العبث اللفظي قول ابن حجة : « إن لكل زمان بديعاً تمتع بلده الجديد » (١) .

ذلك هو داء العصر إن صحت هذه التسمية ، وقد سرت عدواه بين الشعراء ، فكانت بين أيدينا دواوينهم ناطقة ، تشهد لنا فيها أساليبهم ومذاهبهم الفنية .

(١) ابن حجة : الخزائن ، ص ٥ ،

عرف البديع في أواخر القرن الثالث الهجري ، وابن المعتز أقدم من ألف في هذا العلم ، فقد وضع فيه كتابه المشهور «البديع» سنة ٢٧٤ هـ ، وجاء فيه قوله : « فاما العلماء باللغة والتعريف القديم فلا يعرفون هذا الاسم ، ولا يدرون ما هو ، وما جمع فنون البديع ولا سيفني إليه أحد » (١) .

وفي هذا القول كما يبدو بعض المبالغة والاعتداد ، اللهم الا اذا قصد ابن المعتز الجمع في إطار علم ، إذ إن العلماء من عرف شيئاً من ذلك ، بله أن ابن المعتز نفسه اسند كثيرا من أنواع البديع والبيان ممن سبقه .

مهما يكن من أمر هذا وذاك ، فالجدير بالذكر أنه أختار خمسة أنواع ، وأفرد لكل منها باباً خاصاً في مؤلفه ، وجعل ما عداها وجوهاً مستحبة من محاسن الكلام .

جاء صاحب الصناعتين ، أبو هلال العسكري (المتوفى سنة ٣٥٩ هـ) ، وجمع في كتابه سبعة ولانين نوعاً ، وخلفه صاحب العمدة ابن رشيق (المتوفى سنة ٤٥١ هـ) ، وجمع مثلها في كتابه المذكور ، غير أن معاصره عبد القاهر الجرجاني (المتوفى سنة ٤٧١ هـ) لاحظ ازدياد التكلف البديعي بين الشعراء المتأخرين فندد بذلك : « وقد تجد في كلام المتأخرين الآن كلاماً ، حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع الى ماله في البديع الى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ، ويقول ليبين ، ويخيل اليه أنه اذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء » (٢) .

ازدادت الانواع البديعية في القرنين السادس والسابع الهجريين وما بعدهما ، ففي مصر ظهر زكي الدين بن أبي الاصبع (المتوفى سنة ٦٥٤ هـ) فوضع كتابه المشهور « تحرير التعبير في علم البديع » ، وقد رفع أنواعه إلى التسعين ، وذكر أن كتابه المذكور ليس له نظير . أما في بلاد الشام فقد

(١) ابن المعتز : البديع ، ص ١٠٦ .

(٢) الجرجاني : أسرار البلاغة ، ص ٦ .

بلغ علم البديع ذروته في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن على يد خطيب دمتق وقاضيه جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني (المتوفى سنة ٧٣٩ هـ) وقد صنف كتابه « تلخيص المفتاح » ، وهو تلخيص كتاب « مفاح العلوم » للسكاكي . ثم شرحه بعد ذلك بكتاب آخر سماه « الإيضاح » ، وهو كما نعتة السيوطي من أجل المختصرات . وأهمية هذا الكتاب ان مؤلفه لم يزد عدد الأنواع البديعه. وإنما قصرها على سبعة وأربعين .

فتن الشعراء بعلم البديع : وباروا بما صنفه علماء البلاغة من أنواعه حتى إذا شارف القرن السابع على الانتهاء تمخض عن ظهور فن جديد هو البديعات النبوية ، وكان صفى الدين الحلبي رائد الشعراء في هذا المضمار ، فنظم بدبغنه المسهورة ، واستهلها بقوله :

إن جئت سلعاً فسل عن جيرة العلم وافرا السلام على عرب بذي سلم

وهي بديعة نبوية على بحر البسيط . رويها الميم . وقد جمع فيها مائة وأربعين نوعاً من أنواع البديع . وجعل كل بيت منها شاهداً على نوع منه . قلد الشعراء الحلبي ، وسماهم ابن حجة نظام البديعات . وذكر أنهم « التزموا أن يكون كل بيت منها شاهداً على نوعه بمجرد » ، ليس له تعلق بما قبله ، ولا بما بعده » (١) .

هذا التكلف البديعي ، وهذا التصنع الأسلوبي مظهران هامان من مظاهر المذاهب الفنية في الشعر العربي في عصور الدول المتتابعة ، ومن حق البحث علينا أن نفيها فسطها من الدراسة ، فننحدث عن التصنع البلاغي ، ثم نوضح هياكل الفصائد وقوافيها وأوزانها ، ونعرض أخيراً لدراسة عامة تتناول الألفاظ والتراكيب والأساليب .

(١) ابن حجة : الخزانة ، ص ١٦٠ .

القسم الأول

التصنيع البلاغي

تصنع الشعراء في أشعارهم الصور البلاغية ، فهي في نظرهم مجال التنافس وسبيل الابتكار، والحاذق منهم من يقع على صورة جديدة يخترعها، أو صورة يستمدّها من غيره ، يزيد عليها ما يزينها، أو ينقص منها ما يسيئها، ولا بد لنا لتوضيح صنعة الشاعر في هذا العصر من وقفة عند تصنع الصور البيانية والزخارف البديعة .

(١)

تصنع الصور البيانية

تحدث البلاغون كثيراً عن علم البيان ، أحد علوم البلاغة الثلاثة ، إذ إنه يمثل في نظرهم الأداة الأسلوبية التي تنفث السحر في الصورة الجمالية. التي يبدعها الشعراء ، وراوا أن هذه الصورة تتجلى فيما يبرزونه فيها من ضروب القول وأفانين الكلام .

بين الجرجاني أهمية القول في التشبيه والتمثيل والاسنعاره ، فذكر «أن هذه اصول كثيرة . كان جل محاسن الكلام - إن لم نقل كلها - متفرعة عنها ، وراجعة إليها ، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها . واقطار نحيط بها من جهاتها» (١) . بد أن علماء البلاغة البدعيين رأوا أن هذه المظاهر الفنية الثلاثة لا يمكن بآية حال أن تكون الصورة الجمالية المثلى ، إذ لا فائدة منها ما لم تكن وسيلة للإبانة عن النفس الإنسانية . ويعود الفضل في ذلك إليهم ، فقد خرجوا بهذا العلم من حيزه الضيق ليعبروا عن المشاعر دون تكلف أو تصنع ، وسموا ذلك حسن البيان ، وهناك فرق بينه وبين البيان نفسه . وقد استخدم ابن حجة هذه التسمية أكثر من مرة في خزانته (٢) . ومما قاله : « حسن البيان قالوا : هو عبارة عن الإبانة عما في النفس بعبارة بليغة بعيدة عن اللبس . إذ المراد منه إخراج المعنى الى الصورة الواضحة ، وإبصاله الى فهم المخاطب بأسهل الطرق . وقد تكون العبارة عنه تارة من طريق الإيجاز . وطوراً من طريق الاطناب بحسب ما تنفيذه الحال . وهذا بعينه هو البلاغة وحقيقتها » (٣) .

هكذا يتضاءل في نظر البدعيين علم البيان ، فندرجونه ضمن أنواع البديع ، ويكتفون منه بحسنه . ومن خلال هذا الفهم الجديد نجد الجاحظ وابن رشيق يظهران عجزهما عن الإحاطة به (٤) .

يتضح مما تقدم معنا حقبة الصراع بين البلاغيين من أرباب الصنعة البيانية وبين البدعيين الذين الحقوا علم البيان بمذهبهم بعد أن غيروا مفهومه التقليدي ، ونحووا فيه منحى جديداً . وكان أولى بهم أن يخرجوا علم البديع نفسه من رتبة التكلف . مهما يكن من أمر هذا النباين ، فسوف نعرض للصور البيانية المعروفة من تشبيه ومجاز وكناية .

(١) الجرجاني : أسرار البلاغة ، ص ٢٠

(٢) ابن حجة : الخزانة ، ص ٥٨ ، ٤٥٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٦ .

(٤) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ٢٢٧ .

التشبيه

هو الدلالة على مشاركة امر لآخر في معنى (١) ، وقد ميز الجرجاني بين التشبيه العادي الموجود في كلام العامة ، والنسبيه الفني الذي لا نراه إلا في الآداب والحكم الماثورة (٢) .

عرف التشبيه عند الاقدمين في شتى الأمم « فهو - في حقيقة الامر - صادر بشكل عفوي عن النفس بحكم علاقتها بالأشياء ومقارنتها بها ، ولذلك كان أبسط البلاغية المعروفة لدى الشعوب في مختلف آدابها .

أشار أبو هلال العسكري الى أهمية التشبيه فذكر انه « يزيد المعنى وضوحاً ، ويكسبه تأكيداً » ولهذا ما اطبق جمع المتكلمين من العرب والعجم إلا عليه ، ولم يستغن أحد منهم عنه « (٣) .

وطبيعي ان نجد في شعر هذا العصر صوراً من التشبيه، فذلك امر فطري في النفس الإنسانية . وقد قلد الشعراء ابناً من سبقهم ، فجاءوا بصورة منكلفة بعيدة عن نبضات الحياة ، ولكنهم - بالاضافة إليها - ولدوا صوراً جديدة في التشبيه ، نلاحظ فيها إبداع خيالهم وغرابة تفكيرهم .

لن نستطيع استيعاب صور السببه التقليدية . فهي كثيرة جداً في شعر هذا العصر ، وبخاصة ماجاء منها في المدح والاغزال . يقول عرفة في مدح بني السلال :

معشر كالغيوث في حلبة السبِّ لم وفي الحرب كالليوث الضواري
نفلوب كأنها من جبال واكفر كأنها من بحار
وكان الإله : جل ، براهم من فخار ، والناس من فخار (٤)

(١) الفروبي : الايضاح ، ح ٢ ص ٧ .

(٢) الجرجاني : اسرار البلاغه ، ص ٧٥ .

(٣) العسكري : الصناعين ، ص ٢٤٣ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، ح ١ ص ٢٠٨ .

ويهجو الشاعر إنساناً وعده بخروف وما وفى بوعدده فيقول :

لك وجهه كأنه الـ	بدر' ، لكن إذا كُشف
وفوأم كأنه الـ	غصن' ، لكن إذا قُصف
وعذار كأنه الـ	نمل' ، لكن إذا نُف
وبنان كأنه الـ	بحر' ، لكن إذا نُسف (١)

أما في الغزل فقد كُرت فيه التشبيهات المعروفة منذ القدم ، ومما قاله ابن قسيم الحموي :

سُفرت فُخلب سوادٌ مِعْجَرها (٢) ليلاً تَفْنَعُ جَنَحَه بِدَر'
 برزت لنا يوم الوداع وقد بهر الكواعب حولها الخطر'
 فكأنتها شمس الضحا طلعت وكأنهن كواكب زُهر' (٣)

لم يقتصر الشعراء على هذا النوع من تشبيه صورته بحسبه بأخرى . وإنما كانوا يحاولون تشخيص المعاني المجردة . فتبدو كأنها حفيضة ملموسة كما في قول ابن منير :

زعم كمنبلج الصباح وراءه عزم كحد السيف صادف مقبلاً (٤)

تحدث ابن حجة عن هذا النوع من التشبيه التقليدي . وذكر أنه أعرض عنه في خزائنه ، واكتفى من التشابيه بما خف على السمع ، وعذب في الذوق ، وارتاحت له النفس . وسبب ذلك عنده « أن التشابيه التي تقادم عهدها للعرب رغب المولدون عنها . فانها مع عقادة التركيب لم تسفر عن بديع معنى إلا ما قل ونذر » (٥) .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٥ .

(٢) المعج : نوب شدة المرأة على رأسها .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥١ .

(٤) ابن حجة : الخزانة ، ص ١٨٣ .

(٥) ابن حجة : الخزانة ، ص ١٧٤ .

نلمح في قوله ثورة على ماورثه الشعراء من صور تقلبديّة ، تقادم عهدها
واخلقت جدتها ، ويظهر أن المولدين من الشعراء نهجوا في التشبيه سبيلا
يلائم مذهبهم الفني .

لن نفصل في انواع التشبيه كلها ، وإنما نحب ان نسير في هذه الدراسة
الى اهم مآثره بارزاً في شعر العصر . فنعرض لبعض التشبيهات الغريبة
المولدة وبخاصة ما ورد منها في التشبيه البليغ . والتمثيلي ، والضماني ،
والعكوس .

فمن التشبيهات الغريبة قول ابن الساعاتي يصف أصحابه وهم على
النياق ، وقد أخذتهم سنة من الكرى .
وسحبي نشاوى من نعاس كأنهم على شعب الأكوار انمل حاسب (١)
ومنها قوله ايضاً :

وقالوا : هجالك الصديق الصدوق وذلك عين العجيب العجائب
فقلت لهم : إن هجو العجيب لكابن الغمام بنبت العجائب (٢)

لم يكتف الشعراء بالسعي وراء الاغراب في المعاني ، وإنما عمدوا ايضاً
الى تنخيصها في صور مبتكرة . كما في صورة الورد التي رسمها مجير الدين
بن تميم :

سبقت إليك من الحقائق وردة واتتك قبل أوانها نطفيلاً
طمعت بلثمك إذ راتك فجمعت فمها إليك كطالب تقبيلاً (٣)

ومن لطائف التشبيه الغريب قول ابن قرناص :

من لقلبي من جور ظبي هواه لي شغل عن حاجر والقويق (٤)

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٢٥٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣ .

(٣) ابن حجة : الخزائن ، ص ١٧٦ .

(٤) القويق : نهر مدينة حلب الشهاء ، ومخرجه من قرية تدمي (سبتات) ، (ياقوت) ؛

معجم البلدان ج ٤ ص ٤١٧ ،

خَصْرُهُ تَحْتَ أَحْمَرِ الْبَنْدِ يَحْكِي خَنْصَرًا فِيهِ خَاتَمٌ مِنْ عَقِيقٍ (١)

وعمد الشعراء - بالإضافة الى الاغراب والتشخيص - الى صور جديدة من النسب ممتزعة من حياتهم الخاصة أو ببئتهم العامة ، نذكر من ذلك صوره الأصل ، وفد رسمها الشاعر بدقة متناهية :

ونهر إذا ما الشمس حان غروبها ولاحت عليه في غلائلها الصففر
راينا الذي ابقت به من شعاعها كانا أرقنا فيه كاسا من الخمر (٢)

كانت هذه الصور المبتكرة منتزعة من حياتهم ، ومما يحبط بهم من طبيعة ، ولا نستغرب وصف الناعورة لشاعر حموي هو ابن تميم :

وناعورة قد ألبست لحياتها من الشمس نوباً فوق أبوابها الخضر
كطاوس بستان تدور وتنجلي وتنفض عن أرياشها بلل القطر (٣)

أكثر الشعراء من صور التشبيه البليغ ، فهو الوجه المختار في مذهب جمهور البلاغيين ، ولعل اطرف صورة من هذا التشبيه ما ذكره ابن الساعاتي لما مر بنواحي صيداء ، فرأى مروجاً كثيراً نباتها النرجس ، وانفق أن هرب بعض الأسرى منها ، ولحفته الخيل ، فردته من الموضع الذي كان فيه فقال :

لله صيداء من بلاد لم تبقر عندي هما دفينا
نرجسها حليلة الفيافي قد طبقت السهل والحزونا
وكيف ينجو بها هزيم واراضها تنبت العيونا (٤)

ومن التشبيه البليغ قول الشاعر نفسه في وصف روضة :

ولقد نزلت بروضة حزينة رعت نواظرنا بها والأنفس
ما الجو إلا عنبر ، والدوح إلا جواهر ، والأرض إلا سندس

(١) المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

(٢) ابن حجة : الخزائن ، ص ١٧٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

(٤) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ١٦٨ .

سفرت شقائقها فهم الأقحوا ن' بلثمها فرنا إليه النرجس'
فكأن ذا نفر' . وذا خد' يحا وله' . وذا أبداً عبون' تحرس (١)

ومن ذلك قول ابن فرناص الحموي :

لقد عقد الربيع نطاق زهره يضم لفصنه خصرأ نحيلاً
ودب' مع العنسي عذار' طلل' على نهر حكى خدأ أسيلاً (٢)

ومن ذلك قول مجبر الدين بن نمم :

غدبر' دار' نرجسه' عليه ورق' نسبته وصفا وراقا
تراد' إذا حلت به لورد' كان' عليه من' حذر' نطافاً (٣)

نفن سعاء هذا العصر في رسم صور جديده من التشبيه . وقد مر معنا شيء منها . ولاحظنا في بعضها التكلف والإغراق في الصنع الببائي .

فرق الجرجاني في أسرارده بين التشبيه والمثيل . وعقد لهما فصلاً مطولاً وذكر أن التشبيه عام . والمثيل اخص منه . وليس كل تشبيه تمثيلاً (٤) . كما أنه بين أهمية هذا النوع . وبخاصه ما حاء لصوير السبه بين المخلفين في الجنس مما يحرك فوى الاستحسان . ويثير الكامن من الاستظراف (٥) . وينتهي من ذلك ليذكر لنا « أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين . حتى يختصر ما بين المشرق والمغرب . ويجمع ما بين المنسئم والمعرق . وهو بريك للمعاني الممنلة بالأوهام تبها في الأسخاص الممانلة والأشباح القائمة . وبنطق لك الأخرس . وبعطيك الببان من الأعجم . وبربك الحبة في الجماد » (٦) .

أكثر الشعراء في التشبيه التمثيلي من استخدام الصور المستمدة من

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٦٤ .

(٢) ابن حجه : الخزائن ، ص ١٧٩ .

(٣) ابن حجه : الخزائن ، ص ١٧٩ .

(٤) الجرجاني : أسرار البلاغة ، ص ٧٥ .

(٥) المصدر السابق . ص ١١١ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١١١ .

الطبيعة ، فقد وصف عرقله الكلبى سماء ازهرت كواكبها في دجا الحندس :
 كأنَّ السماءَ وقد ازهرتْ كواكبُها في دجى الحندسِ
 رياضُ البنفسجِ محمّيةٌ ففتحُ فيها جنى النرجسِ (١)

ووصف ابن الساعاتى البدر وقد جلاه الفدير :

أما ترى البدر بجلوه الفدير وقد جفت به قنُصُ بالنتور في لثُم
 كخوذهِ فوق درعٍ حولها أسلٌ سُمُرُ أسنتُها مخضوبةٌ بدمِ (٢)
 يلاحظ في هذه الصورة استخدام الصور الحربية بشكل ملف للنظر .
 وهذا معروف بكثرة في هذا العصر كما رأينا ذلك في دراسة الغزل .

ووصف عرقله البدر بغير هذه الصور . فاستمد صوره من الحياة
 الاجتماعية في عصره :

أما ترى البدرَ في السماءِ وقد حاولَ من بعدِ نَمتهِ نقصَه
 بينا تراهُ كخشكنا نكةٍ (٣) حتى تراهُ كأنه قرصه (٤)

أكثر الشعراء من وصف البدر . وقد ذكر ابن حجة كثرة الاوصاف
 والصور التي دارت حوله . وأشار الى انهم وصلوا في تنبيهه الى السبعين (٥) .
 لم يكفوا في اوصافهم بما اخذوه من صور معروفة ومندولة بين الناس
 عامة . وإنما استمدوا بعضها من اضطراب الحياء السياسية . ومن تجاربهم
 في الحياء . روي عن أسامة بن منقذ انه رأى معتر الممل يتجاذب زهره .
 كلما أخذتها نملّة انتزعتها منها أخرى :

شاهدتُ نملًا قد تجاذبَ زهرةً ذا قد نَمَلَكها . وهذا يسلبُ
 مثلُ الملوكِ نجاذبوا الدُّبّا ، فما حصلنَ لقلوبِهم ولا منَ يقلبُ (٦)

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢٠٩ .

(٢) ديوان ابن الساعاتى ، ج ٢ ص ١٦٢ .

(٣) الخشكناكة نوع من الحلوى ، والعرصة : حلوى من العجين والسكر والشاء .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢١١ ، وديوان عرقله ، ص ٥٧ .

(٥) ابن حجة : الخزائن ، ص ١٧٥ .

(٦) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٢٤٦ .

وهذه صورة أخرى لاسامة منتزعة من صميم حياته ، يقول فيها :

قَسَمَ الهوى دهرَ المَرَّوعِ بالثَّوى شطربن بين شُؤْنِهِ ونسْجُونِهِ
هو في الدَّجَا كالتَّسْمَعِ يَقْطُرُ دمعُهُ ناراً ، فنحرقهُ مِياهُ جَفُونِهِ
فإذا بدا وَضَحُ الصَّبَاحِ رَأْيُهُ مثلُ الحَمَامِ نوحُ فوق غصُونِهِ (١)

أما التشبيه الضمني فهو أدق من التشبيه التمثيلي ، ويختلف عند أن ملامح الشبه تفهم من قرائن الكلام، إذ إنها لا تعتمد على صور التشبيه المعروفة وإنما تلمحها من خلال معانيها الخفية . والغاية من هذا التشبيه الدلالة على أن المنبذ ممكن . فكان لا بد من الاعتماد على سند عقلي أو برهان منطقي يسد الفراغ الذي أحدثه هذا الأسلوب الجديد .

عقد الجرجاني فصلاً في مواقع النمثل وتأثيره . وذكر أنه « إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو برزت هي باختصار في معرضه، وتقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار له من أقاصي الأفئدة صباغة وكنفا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً (٢) .

وعقد القزويني فصلاً في أغراض التشبيه وذكر في تعريف التشبيه الضمني أنه يكون في كل أمر غريب يمكن أن يخالف فيه ويدعى امتناعه (٣) . من ذلك وصف ابن الساعاتي حياته بين بدايتها ونهايتها، وشبهها ، في الحاليين بالخير، وأوجد من صورة هذا التشبيه علاقة منطقية للدلالة على صحة المنسب وامكانه، وأخرج هذا التشبيه من نطاق التقليد إلى الجدة والإبداع :

لا تعجبنَّ لطالب بلع المنى كهلاً ، واخفق في الشباب المقيبل

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

(٢) الجرجاني : أسرار البلاغة ، ص ٧٢ ، ٩٣ .

(٣) القزويني : الإيضاح ، ج ٢ ص ١٥٠ .

فَالْخَمْرُ تَحْكُمُ فِي الْعُقُولِ مُسْنَةً* وتُداسُ أَوَّلَ عَصْرِهَا بِالْأَرْجْلِ (١)
 اسْخُذْ السَّعْرَاءَ هَذَا التَّشْبِيهِ الْمُنْطَقِي فِي بَعْضِ الْحُكْمِ وَالْأَمْثَالِ لِأَنَّ مَا
 فِيهَا مِنْ حِجَاجٍ وَجَدَالٍ يَجْعَلُهَا مَلَأْمَةً لِيَنْقَبِلَهَا الْعَقْلُ ، كَمَا فِي قَوْلِ ابْنِ الْمَيْسَرَانِي :
 إِذَا مَا خَدَمْتَ كِبَارَ الْمُلُوكِ فَأَوَّلُ مَا تَشْرَبُ الْحَاشِيَةَ
 فَكُنْ جَارِيَّ الْمَاءِ يَسْقِي الرِّيَاضَ فَأَوَّلُ مَا تَشْرَبُ السَّاقِبَةَ (٢)

وتحدث ابن الساعاني عن صاحب المجد الرفيع ، وأوصاه أن يبعد الكبير
 عن نفسه ، ويطلب إليه أن يكون سخياً بليين عطف جوده :
 إِذَا كُنْتَ ذَا مَجْدٍ رَفِيعٍ فَلَا تَهَنْ بِكَبِيرٍ ، فَرَبَّ الْكَبِيرِ سَوْفَ يَهُونُ
 وَلِيْنُ عَطْفٍ جَوْدٍ ، إِنْ هَزَزْتَ فَإِنَّهُ عَلَى الْهَزِّ أَعْطَافُ الرَّمَّاحِ تَلِينَ
 فَإِنَّ أَعَالِي الدُّوْحِ تَهْصِرُهَا الصَّبَا فَتَخْضَعُ فِي عَلَائِهَا وَتَدِينُ (٣)
 اسْخُذْ أَسَامَةَ هَذَا النُّوعِ مِنَ التَّشْبِيهِ كَثِيراً فِي شَعْرِهِ ، وبِخَاصَّةٍ مِنْهُ
 مَا وَرَدَ فِي بَابِ الشُّوَاهِدِ وَالْأَمْثَالِ ، كَمَا فِي حَدِيثِهِ عَنِ الصَّبْرِ وَالْفَرَجِ :

اصْبِرْ إِذَا نَابَ خُطْبٌ ، وَانْتَظِرْ فَرَجاً
 يَأْتِي بِهِ اللَّهُ بَعْدَ الرِّيسَةِ وَالْبَاسِ
 إِنَّ أَصْطَبَارَ ابْنَةِ الْعَنْقُودِ ، إِذَا حَبِسَتْ
 فِي ظِلْمَةِ الْقَارِ ، أَدَاهَا إِلَى الْكَاسِ (٤)

نَقَفَ آخِيراً عِنْدَ نَوْعٍ غَرِيبٍ مِنَ التَّشْبِيهِ وَهُوَ الْمَعْكُوسُ ، وَيُؤْتَى بِهَذَا النُّوعِ
 لِإِبْهَامِ أَنَّ الْمُسَبَّحَ بِهِ أَتَمَّ مِنَ الْمُسَبَّحِ فِي وَجْهِ الشَّبهِ ، وَقَدْ بُوِّتِيَ بِهِ لِبَيَانِ الْإِهْتِمَامِ
 بِهِ ، وَإِظْهَاراً لَشَأْنِهِ ، وَقَدْ سَمَّاهُ الْقَزْوِينِي إِظْهَارَ الْمَطْلُوبِ (٥) .

(١) ديوان ابن الساعاني ، ج ٢ ص ١١٧ .
 (٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٥٦ .
 (٣) ديوان ابن الساعاني ، ج ١ ص ١٢٧ .
 (٤) ديوان أسامة بن منقذ ، ج ١ ص ٢٧٥ .
 (٥) القزويني : الإيضاح ، ج ٢ ص ٦٦ .

فتن التسعراء بهذا النوع من التشبيه . إذ هو في الحقيقة مظهر من مظاهر
تصنعهم البلاغي ، فكل غريب بديع ، وكل جديد من . والعبري منهم من
سلك في أسلوبه مذهبا لم يسبق إليه ، حتى ولو أدى به ذلك الى الكلف
والإبهام والاعراب .

جرت العادة - كما رأينا - أن يتشبه وجه الكاعب الحسناء بطلعة البدر ،
بيد أن ابن الساعاتي على غير العادة عكس هذه الآية . وشبه البدر نفسه
بخريذة حسناء :

ولقد رأيتُ البدرَ تحت غمامةٍ يخفى ، ويبدو حيثما يتقشّع
فكأنه خلل السحاب خريذة حسناء تحجب وجهها وتطلع (١)
وجرت العادة أن تشبه النهود بالرمان ، لكن ابن قسيم عكس التشبيه فقال :

ومحمره من بنات الفصو ن يمنعها ثفلها أن تميدا
منكسة التاج في دسنها تفوق الخدود ، وتحكي النهودا
تفضّ فنمرّ عن مبسم كأنّ به من عقيق عقودا
كأنّ المقابل من حبها تغور نقبل فيها خدودا (٢)

تلك هي نظرة على صور التشبيه اقتبسناها من شعر هذا العصر وقد
حاولنا من خلالها أن نبرز ما فيها من تجديد وغرابة وتصنع ، ولن ننم لنا
هذه الصورة ما لم نعرض للاستعارة لأنها ذات علاقة وثيقة بالتشبيه .

الاستعارة

اللغة في صراع دائم بين الحقيقة والمجاز ، فمنها تتولد المعاني
الجديدة ، وتتطور في مداها الواسع مع الزمن ، وتعتمد أكثر ما تعتمد على المجاز
لأن « المجاز أبداً ابغ من الحقيقة » (٣) . فالمعاني لا تقنع بالبقاء في حقيقتها ،

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ح ١ ص ٢٧٥ .

(٢) العماد الكاتب : الحريدة ، ج ١ ص ٤٤٣ ، ٤٤٤ .

(٣) الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص ٤٣ .

إذ النفس الإنسانية تضيق بها . وتوق الى الخروج بها عن مصطلحاتها المحدودة الى آفاق مبددة من المعاني التي تصور في اطر جديدة من التعبير الفني المجازي .

عرف الجرجاني الاسنعة فذكر انه يكون للفظ أصل . ثم ينتقل عن ذلك الأصل (١) . ووضح هذا الحد العام . فيذكر ان الاسنعة ليست نقل اسم من شيء الى شيء . ولكنها ادعاء معنى الاسم لشيء (٢) .

أما القزويني فقد اعتبرها الضرب الثاني من المجاز . وذكر ان علاقته . تنسبه معناه بما وضع له « (٣) » .

إن الاسنعة اذا ضرب من ضروب المجاز . فكل اسنعة مجاز حكما ؛ ولكن ليس كل مجاز اسنعة (٤) . وعددها ابن رشيقي أول أبواب البديع (٥) . وليست كما ذكر . وذكر أنها أفضل المجاز . وليس في حلّي الشعر أعجب منها . وهي من محاسن الكلام اذا وقعت موقعها . ونزلت موضعها (٦) . وهي بطبيعة الحال ذات علاقة وثيقة بالتنبيه كما ذكرنا . ويرى الجرجاني انك كلما زدت إرادتك التنبيه إخفاء . ازدادات الاسنعة حسنا . حتى انك تراها أغرب ما تكون اذا كان الكلام قد ألف تاليفا . ان أردت ان نفصح فيه بالتنبيه . خرجت الى شيء يعافه النفس . وبلغه السمع (٧) .

عرفت الاسنعة في الشعر سليقة وطبعا . ولكنها بعد نضج علوم البلاغة أصبحت غاية في ذاتها ، يفتش عنها الشعراء . وتعتمدونها في صورهم ومعانيهم ليزيدوها شرفا . وكثيرا ما كانوا يضلون السبيل اليها ، فيبدو مبذلة تنسحق

-
- (١) الجرجاني : أسرار البلاغة ، ص ٢٠٧ .
 - (٢) الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص ٢٣٢ .
 - (٣) القزويني : الإيضاح ، ج ٢ ص ١٥٠ .
 - (٤) الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص ٢٤٨ .
 - (٥) ابن رشيقي : العمدة ، ج ١ ص ٢٣٩ .
 - (٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٩ .
 - (٧) الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص ٢٤١ .

عن قمنها الجمالية . أشار الجرجاني الى الاستعارة في حالبها فذكر قوله :
« ترى في الاسنعة العامي المتدل ، والخاصي النادر الذي لا تجده في كلام
الفحول ، ولا يقوى عليه الا أفراد الرجال » (١) .

كما لاحظنا فيما أوردناه من شواهد شعرية أنماطا مختلفة من الاستعارات
منها العامي المتدل ، والخاصي النادر . فنراها مطبوعة ناره . ومتكلفة أخرى
ونادرا ما تخلو منها قصائدهم .

وصف ابن منير الطرابلسي الكتاب الذي بعث به صديقه زين الدين بن
حليم يستدعيه من تيزر . ويستنهضه للرجوع الى دمشق ومما قاله :

ورد الكتاب ، فداه أسود ناظر
ليل من الألفاظ يشرق تحتَه
عكفت ذخائره عليه تبدد
فلق المعاني ، فهو أبيض أسود
يفتر عن درر كعاد ععودها
من لين أعطاف تحل وتغعد (٢)

وتحدث عرقلة عن صاحبه صفة الكردية . وقد عزمت على السفر :
تقول صفة ، والصفو منها
وقد سمرت لنا عن بدر تم
غداة البين وانتقبت هلالا
أتصبر إن هجرنا أو بعدتنا ؟
فقلت : نعم ، وقال القلب : لا لا (٣)

ووصف ابن قسيم طيف خيال زاره سحرا . فقال فيه :
أهلا بطيف خيال زارني سحرا
أقبل الأرض إجلالا لزورته
فقلت : والليل قد شاب ذوائبه
كأنما صدقت عندي كواذبه
وكدت لولا وشاة الصبح تزعجه
بالبين أصفي لما قالت خوالبه (٤)

نخلص مما أوردناه من ضروب التشبيه الى القول ان الشعراء يصنعوا
الصور التشبيهية المختلفة في أشعارهم ، وأغربوا فيها كل الأغراب ، ولم
نقفوا عندهم ، وإنما شفعوها بأساليب أخرى من علم البيان كما هو الشأن
في الكناية .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٢٤ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٩٢ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٥ .

الكناية

ضرب نالت من ضروب البيان . وقد أعجب بها القدماء كثيراً ، فذكروا أنها فن من القول دقيق المسلك لطيف المآخذ ، فيها محاسن تملأ الطرف ، ودقائق تعجز الوصف (١) .

عرفها البلاغيون فذكروا أنها ارادة المتكلم اثبات معنى المعاني . فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن بجيء الى معنى هو ردفه في الوجود فيوميء اليه ، ويجعله دليلاً عليه (٢) . ولعل مصدر اعجابهم بها أن الكناية عن المعنى ابلغ من الافصاح ، والتعريض اوقع من النصريح (٣) ، ويظهر من تتبع سور الكناية أن العرب استمدوا بعض أصولها من آداب اللغتين السريانية والفارسية .

يقول ابن الأثير الكاتب : « واعلم أن هذين القسمين من الكناية والنعرش قد وردا في غير اللغة العربية . ووجدتهما كثيراً في اللغة السريانية ، فإن الإنجيل الذي في أيدي النصارى قد أتى منهما بالكثير » (٤) وأشار الى ما وجده من الكناية في لغة الفرس (٥) ، وهذا يدلنا على تمازج الثقافات الإنسانية في كل زمان ومكان ، ويرفض بالتالي رأي من يذهب بأن اللغة العربية وآدابها كانت نسيج وحدها لم تتأثر كثيراً بما حولها من ثقافات متباينة .

لن نتحدث عن أقسام الكناية المعروفة ، فهذه موطنها كتب البلاغة ، وإنما نكتفى منها بما طرأ عليها في هذا العصر من مفاهيم جديدة أدخلها عليها أئمة البديع ، وهي موضوع اهتمامنا الآن .

(١) الجرجاني : دلائل الامجاز ، ص ١٦٥ .

(٢) ابن حجة : الخزانة ، ص ٣٦٠ .

(٣) الجرجاني : دلائل الامجاز ، ص ٤٣ .

(٤) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ٢ ص ٢١٥ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢١٥ .

يرى علماء البيان أن الكناية هي الإرداف بعينه كما هو في التعريف السابق ، بد أن علماء البدع كقدامة والحامى والرماني افردوا الإرداف عنها ، وذكروا أن الفرق بينهما جليّ ظاهر ، كما يرون أن الإرداف عبارة عن تبديل كلمة بردفها ، والكناية هي العدول عن التصريح بذكر النسيء الى ما يلزم (١) .

دافع ابن حجة عن ائمة البديع ، اصحاب مذهب التفريق بين الكناية والإرداف ، وذكر في تبيان ذلك أنهما اذا كانا شيئاً واحداً ، فالواجب اختصارهما . ولكن فات ابن حجة ما قرره من قبل : وهو أن لكل زمان بدعاً ، وأن البدعيين من أصحابه كانوا يتنافسون في توليد الانواع البديعة المخترعة . وأن التفريق بينهما كان بدافع الإنكار . حتى ولو كانا شيئاً واحداً ليكون لهم في ذلك فضيلة إيجاد نوع جديد . كما فات ابن حجة أنه يتحدث من خلال بديعية خزانته ، وأنه كان يتقيد بأسلوبه .

أورد الشعراء صوراً مختلفة من الكتابة . وقد استمدوا بعضها مما عرفوه من سابقهم ، وبعضها الآخر نلمح فيه آثار الابتكار والتوليد . مدح ابن رواحة (٢) صلاح الدين الأيوبي في عيد النحر سنة ٥٧٢ هـ ، وقد عرض فيها بالفرنجة المقيمين بين مصر والشام :

تملك حولهم شرقاً وغرباً فصاروا لاقتناص تحت رهن
أطاف عليهم من كل فج فبائل يقبلون بكل وهن

(١) ابن حجة : الخزانة ، ص ٣٧٦ .

(٢) أبو علي الحسين بن عبد الله بن رواحة ، المعروف بابن خطيب حماء ، وهو من نسل عبد الله بن رواحة شاعر النبي (ص) . ولد سنة ٥١٥ هـ ونشأ في حماء ، وبصدر بعد ذلك للاحتساب وازراء الادب وفعه الشافعي فيها . كان يردد على نور الدين كل عام وينشده فصاحبه فيما يعق من الوقائع ، وقد جعل له من انعامه اذاراً يكفيه ، وكان يقبله ، ويقبل علمه . سافر الى مصر في زمان الصالح بن رزك ، وأسر وهو في طريق العودة من مل فرنج سفله ، فبقى عنده مدة . وسعى في اطلاق سراحه ، فأفلح في ذلك وعاد الى حماء . سافر الى مصر ثانية في عهد الباصر صلاح الدين ، فمدحه ونال عطاءه وأصابه كثر من الاماء والمبيد . ذكر أنه حصلت له الشهادة علي عكا سنة ٥٨٥ هـ :

اقامَ بآلِ اَيُّوبِ رباطاً راتِ منه الرّنجُ مضيقَ سِجْنِ
فهمَ للدينِ والدنيا جبالاً رواسٍ لا تُرى ابداً كعِهنِ
وخافتهمُ ملوكُ الناسِ جمعاً فلمْ تَقْلِبْ لهمْ ظَهْرَ المِجَنِّ (١)

ومما جاء في الكناية في شعر عرقلّة فوله بمدح ابن نيسان :

في حصنِه غيثٌ ، وفوقَ حصانِه ليتَ بكَرٍّ على الكُماةِ بمسحِلِ (٢)
متبسّمٌ لعفائِه قبلَ الندى كالبرقِ يلمعُ للبشارةِ بالولي (٣)
يعطي المحجّلةَ الجيادَ وكم له في الجودِ من يومٍ أغرَّ محجّلِ (٤)

ومن ذلك قول فيان النساغوري بمدح العماد الكاتب :

كانَ فاراتِ مسكٍ وسطها فريت (٥) فنشرها باماني النفسِ منتشرٌ
نسقَ النسيمُ على رفقِ سفائقها فضرّجتِ بدمٍ لكنّه هدرٌ
'فضب' الزّبر' جدمها حملتِ صدف الـ بافوتٍ ، فيها فتيتُ المسكِ لادرر (٦)

نكتفي بهذا القدر من شواهد الكتابة في هذا العصر ، ونكون بذلك قد
أتينا على ذكر أبرز الصور البيانية التي تهمن ، بيد أننا كنا نلمح في خلال ما
مر معنا إكثار الشعراء من إيراد الزخارف البديعية موضوع بحثنا الآن .

(٢)

تصنع الزخارف البديعية

تحدثنا عن أهمية علم البديع في هذا العصر ، وقلنا عنه إنه عصر البديع،
وأشرنا الى ظهور فن البديعيات بعد ذلك كمظهر مستحدث من مظاهر الأغراض
الشعرية. لن نأتى على ذكر الانواع البديعية كلها، إذ ليس قصدنا استقصاءها.
وسنكتفي منها بذكر أبرز ما فيها من محسنات معنوية ولفظية .

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٩٣ .

(٢) المسحِل : العزم الشديد الصارم .

(٣) الولي : المطر يسقط بعد المطر .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢١ ، والديوان ص ٨١ .

(٥) رواية الديوان « قرن » والمثب رواية الخريدة .

(٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٥ ، والديوان ص ١٩٧ .

الحسنات المعنوية

أشار ابن حجة في خرائته الى الشاعر المعنوي الذي يهيم بإبرار معانيه ونوشيحها ببعض الزخارف الملائمة . واصطلح على سميها بالمحسنات المعنوية كالورية ، والطباف . وحسن التعليق ، ومراعاة النظر .

التورية

كثرت التورية في هذا العصر حتى غدت هدف كل شاعر . وقد كثر التأليف حولها . نذكر من ذلك كباب الصفدي (فض الختام عن النورية والاستخدام) وكتاب ابن حجة (كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام) وكتاب ابن خاتمة (رائق التحلية في فائق التورية) . يضاف الى هذه الكتب بعض الابحاث المختلفة الموجودة في شروح البديعيات كبديعية ابن حجة والنابلسي وغيرهما .

دعاها البلاغيون بأسماء شتى : منها الإيهام ، والتوجيه ، والتخيير والمغالطة ، والإشارة ، وهي ان يؤتى بلفظ يدل على معنيين : احدهما ظاهر قريب ، وهو غير مقصود ، وثانيهما خفي بعيد ، وهو المراد المطلوب .

تحدث ابن حجة عن أهمية التورية ، وذكر أنها « من أعلى فنون الأدب ، وأعلىها رتبة ، وسحرها ينفت في القلوب ، ويفتح بها أبواب عطف ومحبة (١) » . كما نوه بعد ذلك بفضل المتأخرين من حذاق الشعراء وأعيان الكتاب ، وأشار الى أنه « سموا الى أفق النورية ، وأطلعوا شمسها ومازجوا بها أهل الذوق السليم لما أداروا كؤوسها (٢) » .

(١) ابن حجة : الخزائن ، ص ٢٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤١ .

ميز ابن حجة في مذهب التورية ثلاثة اتجاهات فنية انتشرت خلال ثلاثة قرون متوالية في مصر والشام . ففي القرن السادس برز المذهب الفاضلي وكان إمامه القاضي الفاضل . وفي القرن السابع برز المذهب الانصاري . وكان إمامه الشرف الانصاري . وفي القرن الثامن برز المذهب النبائي . وكان إمامه جمال الدين بن نبانة المصري . وقد استطاع ان يوحد المذهبين المصري والسامي في مذهب شعري موحد . وسنقصر في هذه الدراسة على المذهب الانصاري . موضوع بحثنا الآن ، وننوه بالتعراء الذين نهجوا نهجه ، ممن جاؤوا بعده ، كمجير الدين بن تميم ، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي . ومحبي الدين بن قرناص الحموي ، والنساب الطريف شمس الدين بن العفيف . وسيف الدين بن المسد ، والوداعي علاء الدين علي بن الكندي وغيرهم كثير . نبدأ بإمام المذهب السامي شرف الدين الانصاري ، فنختار من محاسن تورياته قوله :

اندي حبيبا منذ واجهته
عن وجه بدر التم اغنانني
في خده خالان لولاهما
مايت مفتونا بعمان^(١)
وقوله :

لنا من ربة الخالين جارة
تواصل تارة وتصد تارة
وتعلقني بما يحلي سلوتي
ولكن ليس في جوفي مرارة^(٢)
وقوله :

يانظرة ما جلت حسن طلعتيه
حتى انقضت وادامتني على وجل

(١) ذكر ابن نغرى بردي ان الشاعر كان مع الناصر يوسف في عمان عندما انشده هذين البيتين ، فاعترض عليهما ابن العجمي احد كتاب الدرج ، وقال هذان البيتان ما تخدم فيهما التورية ، ولا يتفق ان يكون المراد الا اسم المكان ، ودخول حرف الجر مانع من فرضه . وقد رد عليه شرف الدين ردا مفحما في قصة تكفي بالاشارة اليها . (المهمل السامي) (مخطوط) ج ٢ و ٣٣٠ .

(٢) مصوبة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٣٠ ، والديوان ص ٥٧١ .

عائبتُ إنسانَ عيني في سرعته فقال لي «خلق الإنسان من عجل» (١)

وقوله في مغل رومي :

سبحان مورثه من حسن يوسف ما لم ينبق في الحجر لي والصبر من حصص
أقام للشعراء العذر عارضه فكملهم في ديبب النمل من قصص (٢)

وقوله موريا في (سطرى) و (سهم) من متنزهات دمشق :

قالوا : أما في جلق نزهة ؟ تنسك من أنت به مقري
يا عاذلي دونك من لحظه سهماً ومن عارضه سطر (٣)

وممن اتبع هذا المذهب مجبر الدين بن تميم (٤)، وقد حاول أن يبعد التعبد والإغراب عن التورية . ذكر ابن حجة أنه « أجاز رقيق التورية من غلظ العفاده (٥) » ، ومن أسهر توريانه التي أخذها منها غيره من الشعراء قوله في وصف دولاب الناعورة :

أيا حسنها من روضة ضاع نشرها فنادت عليه في الرياض طيور
ودولابها كادت تعد ضلوعه لكثرة ما يبكي لها ويدور (٦)

ومنها أيضا قوله ، وقد تلاعب به الناس :

وساقية تدور على الندامى وتنهرهم لسرعة نرب خمرة

(١) المصدر السابق ، ل ٦٧ ، والديوان ص ٤٠٠ .

(٢) المصدر السابق ، ل ٤٥ ، والديوان ص ٢٨٧ .

(٣) المصدر السابق ، ل ٣٨ ، والديوان ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٤) محبر الدين محمد بن يعقوب بن علي بن محمد بن تميم الاسعدي ، سبط فخر الدين ابن تميم . كان أدبيا مجيدا ، وفد أقام في حماه ، وخدم ملكها المنصور ، وكان حنديا في حاسيته برع في ضمن الشعر وأحسن نظمه في المقاطيع الصعرة دون التصانيد . توفي بحماه سنة ٦٤٨ هـ ، ابن بفرى يردي : المنهل السافي (مخطوط) ج ٣ و ٣١٤ ، والكتبي : فواب الوفيات ، ج ٢ ص ٢٤٢ ، وابن حجة : الخزائن ، ص ٢٧٧ ، وفيها وفاته سنة ٦٨١ هـ .

(٥) ابن حجة : الخزائن ، ص ٢٥٨ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٦٠ .

سنشكرُ يومَ لهوٍ قد تقضى بساقيةٍ تقابلنا بنهرٍ (١)
ومن شعراء هذا المذهب الذهبي (٢) وهو « ممن أبدر في أفق النورية ونظم
عفود لآلها (٣) » ، ومما قاله في هذا الباب :

وتنبهت ذاتُ الجناح بسحرةِ بالواديين فنبتُ اشوافي
ورقاء قد أخذت فنون الحزن عن بعفوب ، والألحان عن إسحق
فامت تطارحني الفرام جهالة من دون صحبى بالحيمى ورفاقى
اتى باريني جوى وصبابة وكابةً وأسىً وفيضَ مآقٍ
وأنا الذي أملى الجوى من خاطري وهى التي تملى من الأوراق (٤)

ومن الشعراء أيضا محبي الدين بن قناص (٥) ، وهو « ممن أحبا مدارس
من رسوم التورية » (٦) ، ومما قاله :

ووجنة قد غدت كالوردِ حمرةُها واشبه الأسّ ذاك العارضِ النضيرُ
كأنّ موسى كليم الله أقبسَها ناراً وجراً عليها ذيله الخضر (٧)

ومن الشعراء الذين اعتنقوا مذهب التورية الشاب الظريف ، ومما أنشده
على لسان الكأس :

(١) ابن حجة : الخزانه ، ص ٢٥٨ ، والكتبي : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٢) الذهبي : بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي ، وكان والده عتيق يلدرم صاحب
بل باشر . برع في النظم ، وانصل بالملك الناصر بن العزيز فمدحه ، كما مدح جماعة من
الامراء ، وكان له دكان يعمل فيه صائفا ، وله فيها قصص على العادة فيه خوام وحلي ،
وقيل : انه هو الذي علم الناس (المخيش) بدمشق ، وهو نلبيس الذهب للفضة ، وجعله
شريطا . توفي بدمشق سنة ٦٨٠ هـ (ابن نفري بردي ، المنهل الصافي (مخطوط) و ٣٦٣ ،
٣٦٤ ، وابن حجة : الخزانه ، ص ٢٧٧) .

(٣) ابن حجة : الخزانه ، ص ٢٦٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(٥) ابن قناص : محبي الدين ، ابراهيم بن محمد بن هبة الله بن قناص الحموي ، له
ديوان شعر مشهور . توفي سنة ٦٧١ هـ (ابن نفري بردي : المنهل الصافي (مخطوط)
ج ١ و ٣٢) .

(٦) ابن حجة : الخزانه ، ص ٢٦٧ .

(٧) ابن حجة : الخزانه ، ص ٢٧٠ .

أدورُ لتقبيل الثنايا ولم أزلُ أجودُ بنفسي للندامي وأنفاسي
واكسو اكفاء الشربِ ثوباً مذهباً فمن أجلِ هذا لقبوني بالكاسي (١)

ومما قاله ايضاً :

قامت حروبُ الزَّهرِ ما بينَ الرياضِ السندسيَّةِ
وانتِ بأجمعِها لتف زوَّةُ الوردِ الجنيَّةِ
لكنَّها انكسرتْ لأنَّ الـ وردَ شوكتُه قويَّةُ (٢)

ومن الشعراء سيف الدين المشد (٣) ، ومما قاله :

وشادنِ أوردَ في هجره لهيبَ حرِّ الشوقِ والفرقةِ
اصبحتُ حرانَ إلى ريقه فليت لي من قلبه رِقَّةُ (٤)

ومنهم علاء الدين الوداعي (٥) ، وقد ذكر أنه توجه من دمشق الى البلقاء
لزيارة صاحب له يلقب بالشمس ، فلما وصل إلى مكانه وجده قد توجه
إلى حسان ، فكتب إليه :

(١) ديوان الشاب الظريف ، ص ٤٦ ، وابن حجة : الخزائن ، ص ٢٧١ .

(٢) ديوان الشاب الظريف ، ص ٨٦ ، وابن حجة : الخزائن ، ص ٢٧١ .

(٣) الأمير سيف الدين علي بن عمر بن قزعل بن جلدك الركناني الباروقي ، ولد بمصر
سنة ٦٠٢ هـ ، ونشأ بدمشق ، وتولى فيها شد الدواوين للملك الناصر يوسف بن العزيز
مدة من الزمن ، وتوفي سنة ٦٥٦ هـ ، ودفن بسفح قاسيون . (ابن شاعر : فوات الوفيات ،
ج ٢ ص ٧٩ ، وابن حجة : الخزائن ، ص ٢٧٧) .

(٤) ابن حجة : الخزائن ، ص ٢٧٦ .

(٥) الوداعي : علاء الدين علي بن المظفر بن ابراهيم الكندي الوداعي ، المعروف بكاتب
ابن وداعه . ولد سنة ٦١٠ هـ وكان عالي الهمة في تحصيل العلوم ، سمع الحديث ، وضيع
من الادب ، ثم بولى عدة ولايات ، وكب بديوان الانشاء في دمشق ونولى مشيخة دار الحديث
النفسيه ، وجمع الذاكرة الكنديه ، وهي يزيد على خمسين مجلده ، وله ديوان شعر في ثلاث
مجلدات ، ونوف بسنائه سنة ٧١٦ هـ ، ودفن بالمزة . (ابن نوري بردي : النجوم الزاهرة ،
ج ٩ ص ٢٣٥ ، وابن حجة : الخزائن ص ٢٧٧ ، وابن شاعر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ١٠٩) .

اتبت' إلى البلقاء (١) أبني لقاءكم فلم أركم' فازداد شوقي وأشجاني
فقلت' لى الأقوام' : من' انت' قاصد' لرؤياه؟ قلت: الشمس، قالوا: بحسبان (٢)

ومن تورياته المنهورة قوله :

رو' بمصرر وسكانهها شوقي وجدد' عهدي الخالي
وارو لنا ياسعد' عن نيلهها حديث صفوان بن عسال (٣)

تلك هي الإمامة عامة ببعض شعراء المذهب الانصاري في مدرسه التورية السامية . وقد حاولنا من خلالها أن نختار نواهد توضح لنا الاساليب المختلفة التي اخذ بها ارباب هذا المذهب البدعي الهام انفسهم . ولاحظنا تنافس الشعراء في اختراع التوريات وتوليدها . ورغبناهم في إيجاد صور جديدة لم يسبقوا إليها . واختراع معان غريبة لم تعرف من قبل وفقاً لموازين النقد البلاغي في هذا العصر . فاذا ما أفلح الشاعر في رسم الصورة أو الوصول إلى المعنى المبكر ، فسرعان ما يتهافت عليه الشعراء الآخرون يتناقلونه ، ويتلاعبون به ، كأنهم يدورون في حلبة سباق . وسبب هذا كله ظهور معان مشتركة تنحدر من مصدر واحد ، وقد عرفت في مذهب التورية وحدها ، واصطلح البلاغيون على تسميتها بأسماء خاصة ، فقالوا مثلاً : تورية الدور (٤) وتورية الراوق والصليب (٥) ، وتورية السيف (٦) .

(١) البلقاء : ذكر ياقوت انها واحة بين دمشق ووادي القرى ، قصبتها عمان ، وفيها مرى كثيرة ومزارع واسعة ، ويضرب المثل بجوده حنظلها . (معجم البلدان ، ج ١ ص ٤٨٩) .

(٢) ابن حجة ، ص ٢٨٤ ، وابن شاعر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ١١٠ حبان : يلاحظ أن الشاعر يرى بهذه الكلمة ، نالغنى الاول هو اسم المكان ، والثاني اشارة الى قوله تعالى « الشمس والقمر بحسبان » أى بحساب . سورة الرحمن ٥٥/٥ .

(٣) ابن حجة : الخزائن ، ص ٢٨٢ ، وابن شاعر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ١١٠ .
(٤) ابن حجة : الخزائن ، ص ٢٦٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٦٥ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٧٢ .

ونورة الشامات (١) ، وتوربة النبت والرعى (٢) ، وغير ذلك من المعاني
المختصرة المشتركة التي تداولها شعراء المذهب الشامي من انبعاث السرف
الانصاري .

الطباق

هو الجمع بين المتضادين سواء أكان بين لفظين من نوع واحد ، أم
من نوعين مختلفين (٣) . فإذا جاوز الطباق ضدن كان مقابلة (٤) وقد
نبلغ إلى الجمع بين عشرة أضداد . خمسة في الصدر . وخمسة في العجز ،
إذ إن علماء البديع يرون أنه كلما كثر عددها كانت أبلغ (٥) . ولو
أمكن للساعر أن يحمل بيته أكثر من ذلك ل زاد عددها عما وصل إليه .

والمقابلة نوعان : مقابلة معنوية ، ومقابلة لفظية . فأما ما كان منها
في المعنى فهو مقابلة الفعل بالفعل (٦) . وهي كثيرة بالقرآن الكريم . وأما
ما كان منها باللفظ فقد بلغ إلى الجمع بين عشرة أضداد .

عرف شعراء هذا العصر عناية من سبقهم بالطباق والمقابلة ، فنهجوا
نهجهم . وغالوا في تكلفه وتصنعه . وبخاصة منهم شعراء القرنين السادس
والسابع الهجريين ، فقد عرف كثرا في شعر ابن القيسراني كما في قصيدته
التي مدح بها عماد الدين زنكي ، وجاء فيها قوله :

فيا ظفراً عمّ البلادَ صلاحه بمنّ كان قد عمّ البلادَ فسادهُ
فما مُطلقٌ إلا وشدّ وفاقه ولا مُوثقٌ إلا وحلّ صِفادهُ
إلى أينَ نا أسرى الضلالة بعدَها لقد ذلّ غاويكم وعزّ رشادهُ (٧)

(١) المصدر السابق ، ص ٢٧٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٤ ، والفزويني : الإيضاح ، ج ١ ص ١٨ .

(٣) خالف قدامة البلاغيين في نقده فتمتته بالتكافؤ (نقد الشعر ص ١٤١) .

(٤) ابن رشيق : العمدة ، ج ٢ ص ١٥ .

(٥) ابن حجة : الخزائن ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٦) العسكري : الصناعيين ، ص ٢٣٧ .

(٧) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٥٥ .

التي يقوم عليها مذهب التطييف والنجس . أحد المذاهب الادبية الهامة
في هذا العصر .

حسن التعلييل

أجمل المحسنات البدعية المعنوية . فيه حسن وإبتكار ، إذ يكشف عن
طبع شاعري أصل وروح شعرية مبدعة . وذوق فني رفيع . وقد فطن
إليه من شعراء هذا العصر المتأخرون منهم . بعد أن أعجبوا بما ورد منه
في الشعر العربي القديم والقرآن الكريم دون تكلف أو تصنع . ونحسب
أنه استمد كثيرا من مؤثرات أجنبية .

عرفه القزويني بقوله : هو أن تدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار
لطيف غير حقيقي (١) . وهو على أربعة أقسام باعتبار الوصف المعلن : ثابت
فصد بيان علته ، فاما أن يظهر له في العادة علة . أو يظهر له علة غير المذكورة .
وغير ثابت . وهو إما ممكن في ذاته أو غير ممكن إلا بالادعاء .

وجذب بالذكر أن القزويني شرح بالتفصيل أقسامه الأربعة ، ومثل
لكل منها بما اختاره من شواهد مأثورة . بيد أنه في شاهد القسم الرابع ذكر
أنه كمنى بيت فارسي ترجمته :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق (٢)

هل يعني هذا القول أن حسن التعلييل مستمد من البلاغة الفارسية ،
والأفهل ضاقت اللغة وبلاغتها حتى يجعل شاهد حسن التعلييل الرئيسي
ترجمة بيت فارسي ؟ مهما يكن من أمر فلن نجزم بما ذهبنا إليه من القول ما لم
نملك بينة أخرى تؤكد ذلك التأكيد كله .

بحسب هذا النوع البدعي الجديد إلى لفظ رشيق وأسلوب رقيق ومعنى
دقيق ودراية تامة في إيراد العلة المقبولة ، والأغدا مظهرها من مظاهر التكلف ،

(١) القزويني : الإيضاح ، ج ١ ص ١٦٩ .

(٢) القزويني : الإيضاح ، ج ١ ص ١٧٤ .

فيزيد المعنى سوءاً وفساداً ، ويبدو حينئذ الخيال مبهماً . فمن شعراء العصر الذين وشحوا شعرهم بحسن التعليل ابن القيسراني ، ومما قاله :

ولاه من قلبه صخرة في زند قلبي أبداً قادحته
تالله هل في خدّه حمرة ؟ أم حمرة ؟ أم حمرة ؟ لافحه ؟
لو لم تكن مقلته في الحشا جارحة ما سُميت جارحة
تمضي صلاتي كلّهما باسمها فلا نل عن سورة الفاتحة (١)

ومن ذلك قول الشواء الحلبي (٢) :

ومعذّر نقش الجمال بوجهيه خطاً غدا بدم القلوب مضرجاً
لما نيفن أن سفناً جفونيه من نرجس جعل العذار بنفسجا (٣)

ومن ذلك قول ابن الساعاني . وقد مر بنواحي صيداء فرأى مروجاً
كثيرة نباتها النرجس ، واتفق أن هرب بعض الاسرى منها . فلحقته الخيل .
ورده من الموضع الذي كان فيه :

لله صيداء من بلاد لم تبق عندي همساً دفيناً
نرجسها حليلة الفيافي قد طبّق السهل والحزوناً
وكيف ينجو بها هزيم وارضها تثبت العيونا (٤)

نظن مما مر معنا من شواهد حسن التعليل أن هذا النوع مسنّح
في البلاغة العربية ، وأنه ثمرة من ممار النصنع البديعي ، ونتيجة لامتزاج

(١) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) أبو المحاسن ، شهاب الدين يوسف بن اسماعيل بن علي بن أحمد بن الحسين بن إبراهيم ، الملقب بالشواء الحلبي ، وهو كوفي الأصل . ولد بحلب سنة ٥٦٢ هـ ، وكان أحد ادباء عصره متقناً للعلمي العروض والقوافي ، وله ديوان شعر كثر يدخل في أربع مجلدات ، وقد عرف عنه أنه كان يقع له في النظم معان بدعة ، يسكبها في مقطعات سرعبة صنعة مؤلفه من بيتين أو ثلاثة . نوه ابن خلكان كثيراً بذكره ، وأشار إلى أنه كان بينهما مودة ، وأنه كان من الغالين في التشيع . توفي بحلب سنة ٦٣٥ هـ ، ودفن بمقبرة باب انطاكية (ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ص ٤١١ ، ٤١٢ ، والطايع : اعلام النبلاء ، ج ٤ ص ٣٩٨) .

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ص ٤١٢ .

(٤) ديوان ابن الساعاني ، ج ١ ص ١٦٨ .

الثقافة العربية بغيرها من الثقافات الاجنبية ، لاننا سوف نجد أن بعض الفنون البديعة كان معروفاً في اللغات الاخرى قبل وجوده في اللغة العربية .

مراعاة النظر

هذا النوع البديعي الجديد مظهر من مظاهر الزخارف البديعية في هذا العصر وكان معروفاً على نطاق واسع بدليل أنه سمي بأسماء معددة : منها التناسب ، والمؤاخذة (١) . والنوافق ، والأثلاف (٢) . واعتبره ابن حجة من المناسبات البديعية . وقال : « نعم هذه غابة الغايات التي تفقد عندها فحول الشعراء » (٣) .

وفي الاصطلاح أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه ، لا بالضاد (٤) . ليخرج الطباق ، وكبلاً يكون تنافر بين الاجزاء ، ولعل سبب التسمية ما نراه في هذا الجمع من رعاية النظر لنظيره في النعوت والوصاف .

نمّة نوع آخر من مراعاة النظر يسمى تناسبه الاطراف وهو أن يختم الكلام بما يناسب اوله في المعنى . اكثر بعض شعراء العصر من استخدام مراعاة النظر في اشعارهم ، نذكر منهم ابن الساعاتي . ولا نقالي ان قلنا : انه كان إمام الشعراء في هذا الباب من ذلك قوله في وصف يوم قضاه في أسبوط :

للتّـ يومٌ في سيوطٍ وليلةٌ	صَرَفُ الزمانِ بأختها لا يفلطُ
بتنا وعمرُ الليلِ في غلوائيه	وله بنورِ البدرِ فرعٌ أشمطُ
والطلُّ في سلكِ الفضونِ كلؤلؤٍ	تظلمُ بصافحهُ التّسيمُ فيسقطُ
والطيرُ نقرأ والفديرُ صحيفةٌ	والريحُ تكتبُ والغمامةُ تنقطُ (٥)

(١) ابن الاثير : المثل السائر ، ج ٢ ص ٢٩٢ .

(٢) المسكري : الصناعتين ، ص ٤٠١ .

(٣) ابن حجة : الخزانة ، ص ١٣٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٣١ .

(٥) ديوار ابن الساعدي ، ج ٢ ص ٤ .

وَقَوْلُهُ أَيْضًا فِي وَصْفِ مَجْلِسِ شَرَابٍ بِالنَّزْبِ ، وَقَدْ جَاءَ فَجَاءَ مَطَرٌ
وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ :

لِلَّهِ يَوْمُ النَّزْبَيْنِ وَوَجْهُهُ
وَكَأَنَّمَا فَنَنْ الْأَرَاكِتِ مِنْبِرٌ
وَالرَّعْدُ يَشْدُو وَالْحَيَا يَسْقِي وَغَصَبُ
وَكَأَنَّمَا السَّاقِي يَطُوفُ بِكَاسِيهِ
بَكَرٌ بِهَا تَقَعُ الْقَلِيلُ وَمَعْجَبٌ
حَمْرَاءُ حَارِبًا الصُّرُوفُ بِصَرْفِهَا
وَالْقَطَرُ نَبْلٌ ، وَالْفَذِيرُ سَوَابِغٌ
طَلَّقَ وَغَرُّ اللِّهْوِ ثَفَرٌ أَشْنَبُ
وَهَزَارُهَا فَوْقَ الدَّوَابَةِ يَخْطُبُ
سَنْ الْبَانِ بِرَقَصٍ وَالْخَمَائِلُ تَشْرَبُ
بَدْرُ الدُّجَى فِي الْكَفِّ مِنْهُ كَوَكَبُ
تَقَعُ الْقَلِيلُ بِجَذْوَةٍ تَتَلَهَّبُ
فَرْجَاهَا بِدَمِ الْهَمُومِ مُخَضَّبُ
مَوْضُونَةٌ وَالْبَرْقُ سَيْفٌ مَذْهَبُ (١)

وَمِنْ مَرَاعَاةِ النَّظِيرِ قَوْلُ مَجِيرِ الدِّينِ بْنِ تَمِيمٍ :

لَوْ كُنْتُ تَشْهَدُنِي وَقَدْ حَمِيَ الْوَعْيُ فِي مَوْقِفٍ مَا الْمَوْتُ فِيهِ بِمَعْزَلٍ
لَتَرَى أَنَابِيْبَ الْقَنَافَةِ عَلَى يَسَدِي تَجْرِي دَمًا مِنْ تَحْتِ ظِلِّ الْقَسْطِلِ (٢)

وَيُظْهِرُ أَنَّ ابْنَ حُجَّةَ كَانَ مِنَ الْمُعْجِبِينَ كَثْرًا بِهَذَا النَّوعِ الدِّيْعِيِّ . فَبَعْدَ
أَنْ أورد هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ قَالَ : « انْظُرْ أَبْهًا التَّمَأْمُلُ إِلَى حَسَنِ مَا نَاسِبٍ بَيْنَ
الْأَنَابِيْبِ وَالْقَنَافَةِ ، وَالْجَرِيَانِ وَالْقَسْطِلِ . . . فَإِنِّي أَنَا مُحَقِّقٌ أَنَّ الْأَمِيرَ مَجِيرَ
الدِّينِ بْنِ تَمِيمٍ مِنْ فَرَسَانَ هَذَا الْمَبْدَانِ (٣) » .

يَلْحَقُ الْبَلَاغِيُّونَ بِمَرَاعَاةِ النَّظِيرِ نَوْعًا سَمَوْهُ « التَّفْوِيفُ » (٤) ، وَجَعَلَهُ
الْبَدِيعِيُّونَ مُسْتَقْلًا عَنْ غَرِهِ . فَلَقَدْ مَرَّتْ مَعْنَا بَعْضِ شَوَاهِدِهِ فِي شُعْرِ ابْنِ
السَّاعَاتِيِّ ، وَهُوَ أَنَّ يُؤْتَى فِي الْكَلَامِ بِمَعَانٍ سُنَى مُتَلَائِمَةٍ فِي جَمَلٍ مُتَسَاوِيَةٍ
الْمُقَادِيرِ (٥) ، وَيَكُونُ فِي الْجُمْلَةِ الطَّوِيلَةِ أَوْ الْمُتَوَسِّطَةِ أَوْ الْقَصِيرَةِ . وَيَرَى

(١) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ ، ج ٢ ص ١٦٨ .

(٢) ابْنُ حُجَّةٍ : الْخَزَائِنُ ص ١٣٣ .

(٣) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ ، ص ١٣٣ .

(٤) الْفَوِيفُ مُشْتَقٌّ مِنْ قَوْلِنَا : فَوَفَ الثَّرْبُ ، وَمِنْهُ الثَّرْبُ الْمَفُوفُ . وَهُوَ مَا فِيهِ مِنْ

مَخْطُوطٍ بَيْضٍ ، وَالْمَرَادُ نَلْوِيْنُهُ وَنَقْشُهُ .

(٥) ابْنُ حُجَّةٍ : الْخَزَائِنُ ، ص ١١٢ .

البديعيون أنه كلما قصرت الجملة غدت أصعب مسلكا ، وأشد عقادة ، وهي - في نظر أصحاب هذا المذهب - منتهى البلاغة وآلة الإبداع .

المحسنات اللفظية

خلصنا في ختام حديثنا عن مراعاة النظير الى القول ان من شعراء هذا العصر من كان يسلك في مذهبه البديعي السبيل المعنوي ، ومنهم من كان يسلك السبيل اللفظي . فيؤدي به الى الإبهام والتعقيد والاعراب .

هاجم ابن حجة في معرض حديثه عنه أرباب المذهب اللفظي ، وذكر أنه كان يود لو يستغنى عنه . ولكن شروع المعارضة ملزم به ، ورأى ان الفرصة سانحة ليشرح رأيه في الصراع بين الالفاظ والمعاني ، ويبين بعد ذلك أسباب العقادة في المذاهب الفنية المعاصرة ، ثم قال : « وتأملته فوجدته نوعا لم يفد غير ارشاد ناظمه الى طرق العقادة ، والتساعر اذا كان معنويا ، وتجشم مشاقه ، تقصر يده عن النطاوول الى اختراع معنى من المعاني القريبة ، وتجنوه حسان الالفاظ ولم يعطف عليه برقة ، وتأنف كل قربنة صالحة أن تسكن له بيتا (١) » .

ومن أهم المحسنات اللفظية التي أخذ بها هؤلاء الشعراء الجناس . والاقتباس وحسن النخلص والابتداء .

الجناس

هو نوعان : لفظي ومعنوي ، فالاول ما تشابهت فيه الكلمتان لفظا واختلفتا معنى . وهو قسمان : تام وغير تام ، فالاول ما اتفق فيه اللفظان في انواع الحروف ، وأعدادها ، وهئتها ، وترتيبها . وغير التام ما اختلف فيه اللفظان في أعداد الحروف (٢) .

(١) ابن حجة : الخزائن ، ص ١١١ .

(٢) القزويني : الايضاح ، ج ١ ص ٢٢٨ .

أما الجنس المعنوي فهو على ضربين . نجنيس اضمار ، ونجنيس اشارة ، وقد ذكر ابن حجة أن هذا النوع « طرفة من طرف الادب عزيز الوجود جدا (١) » .

اختلفت نظرة البلاغيين الى الجنس وبيان قيمته الفنية كأحد مقومات الفنون الاسلوبية ، فمنهم من أبدى إعجابه به ، ومنهم من عده « من أبواب الفراغ وقلة الفائدة » وهو مما لا بشك في تكلفه (٢) .

شفف قسم من ادباء العصر بهذا النوع البديعي فكان في القرن السادس الهجري يؤلف والطباق مذهباً أسلوبياً خاصاً ، يتصنعه الشعراء كثيراً ، وقد تعددت انشارات العماد الكاتب في الخريدة الى ذلك ، فذكر في معرض ترجمته لابن القبراني « صاحب التطبيق والنجنيس » (٣) . ونعت إحدى قصائده بقوله : « مجنسة سلسة ، للقلوب مختلصة ، وللعقول مفترسة » (٤) ، ونعت أخرى بقوله : قطعة مجنسة في لطافة الهواء . مالكة ريق الاهواء ، خلصت من كلفة التكلف ، وصف متربها عن قذى التعسف (٥) . ومما يوضح لنا غلبة التصنع الجناسي ما جاء في جواب ابن قسيم جواباً على كتاب بعث به الى ابن منير الطرابلسي ، وجاء فيه قوله :

بعثت الكتاب فأهلاً به يسر النواظر تنميته
غريب الصناعة نجنيسه نفيس البضاعة تطبيقه (٥)

أما في القرن السابع الهجري فقد أهمل الطباق بعض الإهمال . واشتدت العناية بالجناس ، حتى إن ابن الأنير نوه به ، فذكر أنه « غرد سادخة في وجه الكلام » (٧) . كما كثرت حوله المؤلفات من أبواب هذا المذهب ، نذكر منها

-
- (١) ابن رشيقي : العدة ، ج ١ ص ٢٩٧ .
 - (٢) ابن حجة : الخزائن ، ص ٤١ .
 - (٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٩٦ .
 - (٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٢١ .
 - (٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٩٨ .
 - (٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥٩ .
 - (٧) ابن الأنير : المثل السائر ، ج ١ ص ٤٥٩ .

مثلا كتاب « جنان الجناس » ، ومؤلفه الصفدي من رجال القرن الثامن الهجري ، وقد وضع فيه أسس المذهب البديعي السائد في هذا العصر ، وجاء في مقدمته : « الحمد لله الذي رفع في فن البديع جناب جناسه ، وملك من شاء من البشر قياد قياسه ، وأعلى مقداره للادب الى ان قاس المسك الاذفر بأنفاسه » (١) . ثم ختم مقدمته بقوله : « وانا اعلم ان الوافف بلاتة : اما عالم معاند يجعل محاسنه مساوية او جاهل بمواقع فضله فبستوي عنده حسنه وقبح غيره ، او عالم خال من الحسد سلك محجة الانصاف ، واعترف بقيمة الدرة لغواصها » (٢) . ونوه خلال هذه المقدمة بأهمية الجناس ، وذكر انه اساس كلام المتكلم ، وقال : « ومتى طاف بالبلاغة متكلم كانت اركان كعبته ، وحجابه حجازه ، ومتى كان السحر الحلال باباً كان في الحقيقة اليه مجازه » (٣) .

غير ان بعض ادباء هذا العصر اوضح ان الاعتدال في المذهب الجناسي افضل ، فقد كرهوا الاكثار منه . ذكر السهاب محمود انه « يحسن إذا قل واتى في الكلام عفوا من غير كد ولا استكراه ، ولا بعد ولا ميل الى جانب الركائة » (٤) . وعلى الرغم من ان التصنع الجناسي بلغ الذروة ، الا ان هناك فئة ثانية أعرضت عن الجناس اعراضا كلياً كما رأينا عند شعراء المعاني ، واتخذت لها مذهباً خاصاً . هو مذهب التورية والانسجام ، او مذهب السحر الحلال كما اصطلح على تسميته .

اشار ابن حجة الى شواهد كثيرة على ذلك ، وتحدث عن جماعة هذا المذهب المعنوي ، وقد وقفت تعارض هذا الاتجاه ، ومما قاله في هذا الصدد : اما الجناس فإنه غير مذهبي ، ومذهب من نسج على منواله من أهل الادب وكذلك كثرة اشتقاق الالفاظ فان كلا منهما يؤدي الى العمادة ،

(١) الصفدي : جنان الجناس ، ص ٦ ، ٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(٣) الصفدي : جنان الجناس ، ص ٧ .

(٤) ابن حجة : الخزائن ، ص ٢٠ .

والتقييد عن اطلاق عنان البلاغة في مضمار المعاني المبتكرة (١) .

لن نحدث عن أنواع الجناس الكثيره التي شققها علماء البلاغة ، وتكلفها الشعراء وغيرهم ، فهي متنسبة الفنون ، اذ انهم لم يكتفوا بالانواع المعروفة ، وانما كنروها حتى نيفت على العنصرين .

فمن الشعراء الذين شغفوا بالجناس مذهبا ابن الفيسراني ومما قاله بنفزل :

سقى الله بالزوراء من جانب القرب مها وردت عين الحياة من القلب
عفائف إلا عن معارقة الهوى ضعائف إلا في مغالبة الصب
عقائل تخشاها عقيل بن عامر كواعب لاتعطي الذمام على كعب (٢)

ويقول في القصيدة نفسها :

ولما دنا التوديع قلت لصاحبي حنانيك : سريبي عن ملاحظة السرب
إذا كانت الاحداق نوعا من الطبأ فلانسك أن اللحظ ضرب من الشرب
فمالي إذا ناديت يا صبر منجدا خذلت ، ولبي إن دعا حرقه لبي
إذا لم يكن في الحب عندي زيادة ترجى ، فما فضل الزيارة عن غب (٣)

هذا بعض ما في القصيدة من تصنع جناسي ، وسوف نعرض من بعض انواعه الرئيسية ما يوضح لنا شطرا من اساليبه التعبيرية ، ولا سيما منه التام وغير التام ، والافتصار عليهما دون سائر فنونه فمن التام البسيط قول ابن الساعاتي :

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٢٤ .

(٣) المصدر السابق : ج ١ ص ١٢٤٤ .

أمهى الفتونُ سيوفَ الحاظِرِ المها فاطعتهنَّ لما نهى عنه النهى (١)

ومنه قول ابن قسيم الحموي :

يبرينُ أفئدةَ الرجالِ بما حوتْ غطافهنَّ وليس من (٢) يبرين (٣)

ومن التام المركب قول التمام الظريف :

إنَّ الذي منزلهُ مِن سحرِ دمعسي أمرعا

لم أدر مِن بعدي هل ضيغَ عهدي أم رعى ؟ (٤)

ومنه قوله أيضا :

اسرعْ وسرَّ طالب المعالي بكلِّ وادٍ وكلِّ مهمَّة

وإن لحا عاذلُ جهولُ فقلْ له : يا عدولُ مهْ مهْ (٥)

ومنه قول ابن عنين :

خبروها بأنه ما تصدَّى لساور عنها ولو ماتَ صدا (٦)

ومن غير التام قول الشرف الانصاري :

لعيني كلَّ يومٍ منه عبْرَةٌ تصيرني لأهلِ العشقِ عبْرهُ (٧)

ومنه قوله :

أقسمتُ ما في ضروبِ السكرِ أبلغ من سكري بريقٍ له أحلى من الضربِ (٨)

ومنه قوله :

(١) ديوان ابن الساعاني : ج ١ ص ١٢٤ .

(٢) يبرين : قرية من نواحي عزاز .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٧٨ .

(٤) ابن حجة : الخزائن ، ص ٢٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٧) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٣٧ ، والديوان ص ٢٢٦ ؛

(٨) المصدر السابق ، ل ٦ ، والديوان ص ٩٢ .

وفي الوصفين من كحل وكحل . حوت حسن البداوة والحضارة (١)
ومنه قول ابن الساعاتي :
يُبَحُّ فؤادي قد هدر ونهد لها وبمنعه نهد (٢) . وما تطبع الهند (٣)
ومنه قول ابن عنين . وقد اجتاز بالزبداني لزبارة صدقه السهاب
الساغوري . فلم يجده . فتناول لوحاً من أحد الصبيان . وكتب فيه :
أتيتُ فما حظيتُ لسوء بختي بخدمة سبدي ، ورجعتُ خائبُ
إمامٍ ما تيممناهُ إلا رجعتُ بالرفائب والغرائب (٤)
تلك هي مقتطفات من الجناس . وقد لاحظنا من خلالها أن السعراء
اعتنقوا هذا النوع البديعي سعياً وراء التصنع اللفظي . وسوف يتضح لنا
ذلك في معرض حديثنا عن الاقتباس .

الاقتباس

هو أن يتضمن الكلام شيئاً من القرآن والحديث لا على أنه منه ، وهو على
ثلاثة أقسام : مقبول ، ومباح ، ومردود .

أما الاقتباس المقبول فهو ما كان في الخطب والمواعظ والعهود والمدح
النبوية ، وأما المباح فهو ما كان في الأغزال والرسائل والقصص ، وأما المردود
فهو ما كان على لسان الله ، ويحرم أن ينقله المتكلم إلى نفسه ، أن يعرضه في
معرض الهزل والمجون (٥) .

-
- (١) المصدر السابق ، ل ٣٠ ، والديوان ص ٢٠٠ .
(٢) نهد : اسم قبيلة الفتاة التي ينزل بها الشاعر .
(٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ١ ص ٥٩ .
(٤) ديوان ابن عنين ، ص ١١٩ .
(٥) ابن حجة : الخزائن ، ص ٤٤٢ .

أكثر الشعراء من الاقتباس في قصائدهم ، وساعدهم على ذلك امران :
اولهما الثقافة الدينية التي كان المنفون نالونها منذ حداثهم ، كما رانا في
معرض ذكر الحياة العامة ، وثانيهما الأحداث الكبرى المعاصرة .

يرى الدكتور جودة الركابي ان الاقتباس في هذا العصر أصبح نوعاً من
الضرورة في الشعر الذي بمجد الانتصارات الاسلامية في الحروب الصليبية (١) .

لم يغال شعراء القرن السادس الهجري في استخدام الاقتباس ، نذكر
منه مثلاً قول ابن القيسراني يمدح نور الدين :

كأنّي بهذا العزم لأفـل حـدة

وأقصاه بالاقصى وقد «قضي» (٢) الأمر» (٣)

وقد أصبح البنت المقدس طاهراً

وليس سوى جاري الدماء له طهراً (٤)

أما شعراء القرن السابع الهجري فقد بالغوا في استخدامه ، وكان على
رأسهم الشرف الانصاري ، فمن ذلك قصبته التي جاء فيها قوله :

قسماً بـشمس جبينه «وضحاها» (٥) ونهار مبسمه «إذا جلاها» (٥)

وبنار خديه المشعشع نورها وبليل صدغيه «إذا يفتشاها» (٦)

لقد ادعيت دعاوياً في حبه صدقت و«أفلح» فيه «من زكاها» (٧)

(١) الركابي : Poesie Profone P . 270 .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٥٨ .

(٣) سورة مريم ١٩ \ ٣٩ .

(٤) سورة الشمس ٩١ \ ١ .

(٥) السورة نفسها ٩١ \ ٣ .

(٦) السورة نفسها ٩١ \ ٤ .

(٧) السورة نفسها ٩١ \ ٩ .

فنفوسٌ عدّالي عليه وعذري قد ألهمت بفجورها « تقواها » (١)
 فالعذرُ أسعدُها يقيمُ دليله والعدلُ منبعثٌ له « أشقاها » (٢)
 يامنُ بخوفنّي كلامٌ وشاتيه مهلاً فما أنذرتُ « منْ بخشاها » (٣)
 وإراكَ مرتقباً لساعةٍ سلوتي دعها فـ « فيمَ أنت من ذكرها » (٤) (٥)

لاحظنا أن الشاعر استخدم في هذه القصيدة فواصل سب آيات من سب
 عشرة آية يؤلف سورة الشمس ، وقد صرح بها في سطر بيته الأول ، ولاحظنا
 أيضاً أنه ختم قصيدته ببيتين اقتبس فيهما آيتين من سورة النازعات .

أعجب التلعفري بهذا الأسلوب من الاقتباس ، فنظم مقطوعة مناسبة على
 ذات الوزن والروي . ويكاد يكون المطلع هو نفسه . وإنما يميز عنه أنه ختمها
 بأقباس بعض الآية من سورة البقرة :

قسماً بنمس جبينها « وضحاها » وبليل طرتها « إذا يشاها »
 إن النفوس كغيرها لا تنتهي أبداً ولا تهوى القلوب سواها
 لما رتتْ نحو السماء بطرفها ورات « ثقلب » طرفٍ من يهاها
 قالت محاسنٌ وجهها لمحبتها : « لنولينك قبلةً نرضاها » (٦) (٧)

نلاحظ أن هذا النوع من الاقتباس مردود عند البلاغيين كما رأينا ، إذ
 جاء في القرآن الكريم على لسان الله تعالى ، ونلاحظ أيضاً أنه مهد لاقتباسه
 هذا باستخدامه لفظة « ثقلب » من الآية نفسها ، بيد أنه نقلها من ثقلب

(١) السورة نفسها ٩١ / ٨ .

(٢) السورة نفسها ٩١ / ١٢ .

(٣) سورة النازعات ٧٩ / ٤٥ .

(٤) السورة نفسها ٧٩ / ٤٤٣ .

(٥) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٨٩ ، والديوان ٥١٥ ، ٥١٦ .

(٦) سورة البقرة ٢ / ١٤٤ .

(٧) ديوان التلعفري ، ص ٥ ، ٦ .

الوجه كما في أصل التنزيل الى قلب الطرف ليستقيم له المعنى الذي اراده .
ومن ذلك أيضا قول الشرف الانصارى :

إن دمعته عيني فمن أجلها بكى على حالي من لا بكى
أوعني إنسانها في الهوى « يا أيها الإنسان ما غرّكا » (١) « (٢) »
وقوله أيضا :

بانظرة ماجلت لي حسن طلعتيه
حتى انقضت ، وادامتني على وجلي
عابنت إنسان عيني في سرّعه
فقال لي : « خَلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ » (٣) « (٤) »

ومن ذلك قول محيي الدين بن قرقاص :

إنّ الذين ترحلوا نزلوا بعينٍ باصرة
أنزلتهم في مقتلتي « فإذا هم بالساهرة » (٥) (٦)

لم يقتصر الاقتباس على القرآن والحديث ، وإنما تجاوزهما الشعراء الى
بعض مسائل الفقه ومصطلحات علوم اللغة والنحو والعروض والقوافي والتصوف
والمنطق وغير ذلك . فمن الاقتباس المنطقي قول الشهاب الظريف :

للمنطقيين اشتكى أبدأ عين الرقيب فليتّه هجعا
صادرها من أحبه فأبى أن نختلي ساعةً ونجتمعا

(١) سورة الانفطار ٨٢ \ ٦ .

(٢) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصارى ، ل ٦٤ ، والديوان ص ٣٨١ .

(٣) سورة الانبياء ٢١ \ ٣٧ .

(٤) مصوره مخطوطة ديوان الشرف الانصارى ، ل ٦٧ ، والديوان ص ٤٠٠ .

(٥) سورة النازعات ٧٩ \ ١٥ .

(٦) ابن حجة : الخزائن ، ص ٤٤٣ ، ١

كُتِبَتْ غَدَتْ دَائِمًا وَمَا انفصلتْ مائة الجمع (١) والخلو (٢) معا (٣)

ومن الاقتباس المنطقي الجدلي قوله ايضا :

وما بال برهان العذار مسلما ولزمه دور . وفيه تسلسل
وعندي ان الشمس بالصور آذنت وسكري اراه من محياك يقبل (٤)

اما الاقتباس النحوي فقد بالفوا فيه كثيرا . وانسع مجالهم فيه حتى
غلب على غالبهم النوجيه (٥) . فمن هذا النوع قول ابن القبراني :
أبا جعفر اشرقت دولة اضاء لها يدرك الكامل
فأما نصبت لرفع اسمها فأتكما الفعل الفاعل (٦)

وقوله في مدح نور الدين :

تلك الصوارم أي أفعال العدا ما سكنت حركاتها بجوازم (٧)

ومن شعراء القرن السابع ابن عنين ، وقد بالغ في استخدام الاقتباس

النحوي وروى عنه أنه مرض ، فكتب الى الملك المعظم هذين البيتين :

انظر إليّ بعين مولى لم يزل يولي الندى وتلاف قبل تلافسي
انا ك(الذي) احتاج ما يحتاجه فاغنم تنائي والدعاء الوافي (٨)

فجاءه الملك المعظم بعوده ، ومعه ألف دينار ، وقال له : أنت (الذي) ،

(١) شرح ابن حجة فول الشاعر « مائة الجمع والخلو معا » فذكر أن هذه القصيدة

موجودة مستعملة ، وذلك قوله : العدد اما زوج واما فرد ، فهذه المعني مائة الجمع ،

نار الروجية والعردية لانجتماع ، ومائة الحلو ، فان العدد لا يخلو من احدهما ، (الخزائن ،

ص ٤٥٢) .

(٢) ابن حجة : الخزائن ، ص ٥٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

(٥) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٠٩ .

(٦) العماد الكاتب : الخيدة ، ج ١ ص ١١٤ .

(٧) ديوان ابن عنين ، ص ٩٢ .

وأنا (العائد) ، وهذه (الصلة) (١) .

وكتب الى صدر جيهان :

لِمَ أَخَّرْتَنِي وَقَدِمْتَ غَيْرِي ؟ أنا حالٌ وغيريَ استفهام ؟ (٢)

وكتب الى ابن شكر :

وَلَأَنْتَ إِنْ رَفَعَ امْرَأُ مِنْ غَيْرِهِ كالمبتدأ سبباً ارتفاعك معنوي (٣)

وله أيضا :

فداؤك كلِّ منْ أمسى لبخلٍ ندادٌ ، كأنه علمٌ منادى (٤)

وله في عامل صرف عن عمله :

وَلَا تَنْضَبِنْ إِذَا مَا صَرَفْتَ فلا عدلٌ فيكَ ولا معرفته (٥)

ومن الاقتباس النحوي فول ابن الساعاتي :

نصبتَ رماحَ الخطِّ وهي خوافضٌ وما انتصبتَ إلا لأتلكَ فاعلٌ (٦)

وقول التسواء الحلبي :

وَكُنَّا خَمْسَ عُمُرَةٍ فِي التَّسَامِ على رغمِ الحسودِ بغيرِ آفه

فَقَدْ أَصْبَحْتَ تَنُونًا وَأَضْحَى حبيبي لا تفارقه الإضافه (٧)

وقول الشاب الظريف :

يَا سَاكِنًا فَلَبِىَ الْمَعْنَى وليس فيه سسوالك ثسان

(١) أعجب أحد شعراء القرن الثامن الهجري ، وهو الشاعر جمال الدين بن نيانة المصري بهذا الاقتباس . فقال مشيراً الى قول ابن عنين السابق ذكره :
مولاي دعوه مُعْجَبٌ
أنا كالذي هو فائلٌ
يتدعى به - مُسَكَّلَدٌ
في شعره : « أنا كالذي »

١ ديوان ابن سانة المصري ، ص ١٧٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٢٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٩ .

(٦) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٧) ابن خنكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ص ٤١٢

نمّة نوع آخر من الاقتباس يدعى التضمين (١) . ولعل أول من فطن اليه ابن المعتز ، وعده من محاسن البدع ، قسماه حسن التضمين (٢) ، وهو أن يودع الشاعر في شعره بعض ما يسلحه من شعر غيره يبياً تاماً أو نصفه أو ربعه ، بعد أن يمهّد له بروابط منلأمة ، نجعله منسجماً مع ما قبله وما بعده . أما ابن الاثير فقد سمى الاقتباس من القرآن تضميناً ، وذكر أنه فسمان : كلي وجزئي ، فالكلي أن نذكر الآية أو الخبر بجملتهما . والجزئي أن ندرج بعض الآية أو الخبر في ضمن الكلام (٣) . لم يفرق ابن الاثير بين الاقتباس والتضمين ، وإنما جمعها معاً في باب التضمين .

برى علماء البلاغة أن أحسن التضمين مما صرف فيه البيت عن معناه الاصلي لبلائم المعنى الجديد ، وبخاصة إذا كان المعنى في غرض جديد غير الغرض الذي وضع لاجله . وهم يجيزون عكس البيت المضمن ، فجعل صدره عجزاً ، وعجزه صدرأ ، وقد تحذف صدور قصيدة بكاملها ، وبتنظم الشاعر المضمن صدوراً جديدة للفرس الذي اختاره . وقد تكون طريقة التضمين على عكس ما ذكر (٤)

عرف التضمين في هذا العصر على شكل واسع ، واتخذته جماعة مذهباً خاصاً بها ، وكان على رأسها الامير مجير الدين بن تميم الذي شغف به كثيرأ ،

(١) سماه ابن حجة « الادداع » وذكر أن هذا النوع يلب عليه التضمين ، والتضمين عبره ، فانه معدود من المبوب ، وهو أن يكون البيت موضعاً في معناه على البيت الذي بعده ، كما هو معروف عند العرب (ابن حجة : الخزائن ، ص ٣٧٧ ، وابن الاثير : المثل السائر ، ج ٢ ص ٢٤٢) .

(٢) ابن المعتز : البدیع ، ص ١١١ .

(٣) ابن الاثير : المثل السائر ، ج ٢ ص ٢٤١ .

(٤) ابن رشيق : المعجزة ، ج ٢ ص ٨١ .

وقد ذكر ابن حجة انه « أتى فيه بالعجائب والفرائب » (١)، وأعرف بأن
نصف شعره مفسس من شعر غره :

أطالع كل دوان أراد
أضمن كل يب فيه معنى
ولم ازجر عن التضمين طيري
فتمعري نصفه من شعر غيري (٢)

أشار ابن نفري بردي الى مذهب التضمين في هذا العصر في معرض ترجمته
للساعر المذكور . وذكر انه « في التضمين الذي عاناه فضلاء المتأخرين آبه . في
صحّة المعاني والذوق اللطيف غاية ، لانه يأخذ المعنى ويحل تركبته . ونقله
بألفاظه الاولى الى معنى ثان . حتى كأن الناظم انما أراد به المعنى الثاني » (٣) .
فمن تضامنه المشهور قوله في زهر اللوز :

أزهر اللوز انت لكل زهر
لقد حسنت بك الأيام حتى
من الأزهار يأتينا إمام
كانك في فم الدهر (٤) ابنسام (٥)
ومنها قوله :

أفدي الذي أهوى بفيه شارباً
أبدت لعينى وجهه وخیاله
من بركة راقته وطابت مشرعا
« فأرتنى القمرين (٦) في وقت معا » (٧)

ومنها قول الشاب الطريف :

جلا ثفراً ، وأطلع لي ثنابا
لأي شيء كسرت قلبي ؟
يسوق بها المحب إلى المنايا
ومما التقى فيه ساكنان (٨)

(١) ابن حجة : الخزائن ، ص ٢٨٦ .

(٢) ابن نفري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٣١٤ . توجد نسخة مخطوطة
من ديوان الشاعر المذكور بخط الصفدي في مكتبة جامعة القاهرة .

(٣) ابن نفري بردي : المنهل الصافي ، ج ٢ و ٣١٤ .

(٤) اليب الثاني المضمن من شعر أبي الطيب المنسي .

(٥) ابن حجة : الخزائن ، ص ٣٨٨ .

(٦) عجز البيت الثاني مضمن من بيت أبي الطيب المنسي ، ومصدره : « راسقت
مسر السماء بوجهها » .

(٧) ابن حجة : الخزائن ، ص ٢٧٨ .

(٨) ابن حجة : الخزائن ، ص ٤٥٢ .

وانشد نغره ينفى افتخاراً : « أنا ابنُ جلال (١) وطلاعُ الثنايا » (٢)

لم يقتصر الشعراء على اقتباس الشعر القديم ونظمينه، وإنما تجاوزوه - كما فعلوا في الأقباس - إلى غيره . ولم يجدوا غضاضة في أخذ أقوال مأثورة وحكم مشهورة كما في قول الشاب الظريف :

قالوا : غداً نندمُ عن لثمه في خدّه إذ يقلبُ السكرُ
فقال لى مسممه ، دعههم « اليوم خمر » (٣) وغداً امر » (٤)

ومن التضامين المشهورة في هذا العصر قول أسامة بن منقذ لما نبت به دمتق ، ففادها مجها إلى مصر . وقال مخاطب معين الدين أثر :

لكنّ ثِقَاتَكَ ، ما زالوا بِغَيْثِهِمْ « حتى اسنوت عندك الأنوار والظلم » (٥)
لكنّ رأيك أدناهم وأبعدني « فليت أتا بقدر الحب نقتسم » (٦)
وما سخطت بعادي إذ رضت به « وما لجرح إذا أرضاكم ألم » (٧)
ولست أسى على الترحال من بلدٍ « شهب البزاة سواء فيه والرخم » (٨) (٩)

حسن الابتداء

اهتم البلاغيون الأقدمون بمطالع الكلام . وبخاصة منها الفصائد الشعرية

(١) ضمن الشاعر عجز بينه الثاني صدر بيت سحيم بن وتيل .

(٢) ابن حجة : الخزائن ص ٢٨٨ م .

(٣) ضمن الشاعر عجز بيته الثاني بعض قول امرئ القيس للرسول الذي ابلغه مقل أبيه : « نيعني أبي صغيراً ، وحيلني دمه كبيراً ، لاسحو اليوم ، ولا سكر غدا ، اليوم خمر وغدا امر » .

(٤) ابن حجة : الخزائن ، ص ٢٨٨ .

(٥) ضمن الشاعر عجز بيته بعجز بيت المنبي ، وصدده « وما انتفاع أخي الدنيا منه طره » .

(٦) ضمن الشاعر عجز بيته بيت المنبي ، وصدده « ان كان يجمعنا حب لثمه » .

(٧) ضمن الشاعر عجز بيته بعجز بيت المنبي ، وصدده « ار كان سرهم ما مال حاسدنا » .

(٨) ضمن الشاعر عجز بيته بعجز بيت المنبي ، وصدده « وشر ما قصته راحتي قص » .

(٩) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ١٤٦ - ١٤٨ .

لأنه أول ما يطرق السمع من الإنسان ، واشترطوا على الشاعر التقيد بكثير من الشروط ليحيده كل الإجادة . وبعده عن الإبهام والتعمد . كما طلبوا منه أن يجعله مناسباً لفرضه وموافقاً لمغضى الحال (١) .

ولعل ابن المعتز أول من فطن إليه ، ونبه عليه في بدعه وعده من محاسن الكلام والشعر ، وسماه « حسن الابتداء » (٢) .

أما البديعون في هذا العصر فقد بالغوا في العناية بمطالعهم ، وأنفقوا في تجريدتها ، وخصوا بها أنفسهم دون غيرهم من الشعراء ، واختاروا لها تسمية جديدة سموها « براعة الاستهلال » (٣) .

فرق ابن حجة بين الأمرين بدقة ، فقصر التسمية الأولى على الأقدمين ومن جاء بعدهم ، والناتية على المتأخرين والمولدين . يؤكد ذلك وبوضوحه قوله : « وقد فرع المتأخرون منه براعة الاستهلال بالنظم والنثر ، وفيها زيادة على حسن الابتداء ، فانهم شرطوا في براعة الاستهلال أن يكون مطلع القصيدة دالاً على ما بنيت عليه ، مسعراً بغرض الناظم من غير تصريح ، بل بإشارة لطيفة تعذب حلاوتها في الدوق السليم ، فإذا جمع الناظم بين حسن الابتداء وبراعة الاستهلال كان من فرسان هذا الميدان » (٤) .

لاحظنا أن شعراء العصر عنوا بالابتداء والاستهلال ، نخص بالذكر منهم الشرف الأنصاري ومما قاله ابتداء :

ويلايَ مِنْ غمضيَ المتردِّ فيكَ ومن دمعِي المردِّدْ

(١) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ١٩١ ، والعسكري : الصاعنين ، ص ٤٣١ ،

وابن الأثير : الملل السائر ، ج ٢ ص ٢٣٦ ، والفروني : الإيضاح ، ج ١ ص ٢٤٠ .

(٢) ابن المزي : البديع ، ص ١٣٣ ،

(٣) ابن حجة : الحزانة ، ص ٨ ،

(٤) ابن حجة : الخزانة ، ص ٨ .

با كامل الحسن ليس يُطْفئ نارِي سوى ريقِك المبرّد^(١)
ومن ذلك قوله :

أهلاً بطبفكم وسهلاً لو كنتَ للأغفاء أهلاً
لكنّه وافى وقد حلف السهادُ عليّ ألاّ
إنّ لم تزوروا فاجمعوا بحياتيكم في النوم شملاً^(٢)

ومن ذلك قول ابن عنين في مطلع قصيدة له :
ماذا على طيفِ الأحبةِ لو سَرى ؟ وعليهم لو سامحوني في الكَرى ؟
جنحوا إلى قول الوشاةِ وأعرضوا واللهُ بعلم أنّ ذلك مُفسرى^(٣)

ومن ذلك قول الشاب الظريف في مستهل قصيدته النى بعث بها الى
أبيه ، وقد طبعه بطابع رمزي صوفي :
أبدأً بذكرِك تنقضي أوقاتِي ما بين سَماري وفي خلواني
يا واحدَ الحسنِ البديعِ لذاته انا واحدُ الأحرانِ فيك لذاتي^(٤)

حسن التخلص

عرف عن شعراء العرب الاقدمين أنهم كانوا يستهلون قصائدهم بالنسيب،
فيذكرون الديار والاطلال ، ويبكونها ويسبكونها ، ويتحدثون عن وجدهم
وتشوقهم وما الى ذلك ، ثم ينتقلون بعدئذ الى ذكر غرضهم الخاص دون أن

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٢٠ ، والديوان ص ١١٧ .

(٢) ابن حجة : الخزانة ، ص ٦ .

(٣) ديوان ابن عنين ، ص ٣ .

(٤) ديوان الشاب الظريف ، ص ٢٣ .

بمهدوا له ، وإنما يكتفون بذكر بعض الاساليب التقليدية المعروفة عندهم (١) .
وجد علماء البلاغة فراغاً في ذلك ، وعدوه نقصاً في هيكل القصيدة العربية
فسماه بعضهم طفراً وانقطاعاً (٢) . وسماه آخرون افتضالاً (٣) .

حاول الشعراء أن يوجدوا سبباً ينتقلون به من مطالعهم الى أغراضهم
التي تعنيهم ، ويظهر أن أول من أشار اليه وبين حسنه ابن المعتز ، فقد عده
من محاسن الشعر . وسماه « حسن الخروج » (٤) . وسماه غيره « التخلّص
والتوسل » (٥) .

وجد المحدثون من شعراء هذا العصر الباب مفتوحاً أمامهم ، فتسابقوا
الى حسن التخلّص ، واكثروا منه (٦) ، وتصرفوا فيه فأبدعوا ، وأظهروا كل
غريزة (٧) .

وضع ابن حجة أهمية هذا النوع البديعي ، فذكر أنه « نوع من السحر
يدل على رسوخ القدم في البلاغة » (٨) . ومن شعراء هذا العصر الذين عنوا
بحسن التخلّص ابن قسيم ، ومما قاله بعد استهلاله بالنسيب :
ألوم دهرأ ما لحادثيه نهى على ولا له أمر ؟
أم كيف أشكو صرف نائبة ونوال نصر الله لي نصر ؟ (٩)
ومما قاله التترف الانصاري في مطلع نبوية استهالها بالنسيب ، وخلص
منه إلى مدح الرسول (ص) .

(١) ابن رشيقي : العمدة ، ج ١ ص ٢١٠ ، والعسكري : الصنائع ، ص ٤٥٢ .

(٢) ابن رشيقي : العمدة ، ج ١ ص ٢١٠ .

(٣) ابن الأثير : المل السائر ، ج ٢ ص ١٥٩ ، وابن حجة : الخزائن ، ص ١٥٠ .

(٤) ابن المعتز : البديع ، ص ١٠٩ .

(٥) ابن رشيقي : العمدة ، ج ١ ص ٢٠٨ .

(٦) العسكري : الصنائع ، ص ٤٥٤ .

(٧) ابن الأثير : المل السائر ، ج ٢ ص ٢٥٩ .

(٨) ابن حجة : الخزائن ، ص ١٥٠ .

(٩) العماد الكاتب : الحريدة ، ج ١ ص ٤٥١ .

ويلايَ من غمضي المشرّدْ فبكْ ومن دمعى الردّدْ
 يا كاملَ الحسن لبسَ نطفى ناري سوى ريقك المبرّدْ
 اكسبني نشوةً بطرفِ سكرتْ من خمرةٍ فعربّدْ
 غصنْ نقا حلَّ عقدَ صبري بلينِ خصرِ بكادِ يُعقدْ
 فمنْ راي ذلك الورشاحَ الـ صائمَ صلتى على محمدْ (١)
 ومما قاله يمدح الملك الناصر بعد استهلاله بنصيب يحدث فيه عن ربة
 الخالين :

وفالوا : قد خسرتَ الروحَ فيها فقلتْ : الربحُ في تلك الخسارة
 بأسرٍ نظيرةٍ أسرتْ فؤادي كما نشأ اللهبُ من الشرارة
 وبفتكْ طرفها ، فيقولُ قلبي : أشنَّ ، ترى ، صلاحَ الدينِ غارة ؟
 إذا ما حج بيتَ نداءه وفدّ رمى في قلبِ حاسدهِ جماره (٢)

تلك هي صورة عن التصنع البلاغي في هذا العصر ، المعنوي منه واللفظي ، وقد حرصنا على رسمها بصدق وأمانة ، واستطلعنا من خلالها ان نعرض لاتجاهين سادا المذاهب الشعرية المعاصرة ، لكن الذي يجدر التنبيه عليه هو ان الاتجاه الاول الذي ساد في القرن السادس الهجري كان لفظيا ، ظهر على اتمه في مذهب التطبيق والتجنيس ، والاتجاه الثاني الذي ساد في القرن السابع الهجري كان معنويا ظهر على اتمه في مذهب التورية والانسجام .

وسواء في ذلك الاتجاهان اللفظي والمعنوي ، فهما سبيلان في التصنع البديعي الذي ساد هذا العصر ، فنحن في عصر البديع ، ولان لكل زمان بديعا .

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٢٠ ، والديوان ص ١٤٧ - ١٤٩ .

(٢) المصدر السابق ، ل ٣٠ ، والديوان ص ٢٠١ - ٢٠٣ .

الفصل الثاني

هيكل القصيدة العربية

تؤلف القصيدة العربية هيكلًا شعريًا كاملاً لا يتجزأ ، على الرغم من تعدد الموضوعات التي يعالجها الشعراء ، وقد مر معنا موقف النقاد في حسن التخلص ، ومحاولتهم إبعاد الانقطاع الكائن بين جزئين من أجزاء القصيدة التقليدية ، وملء هذا الفراغ بإيجاد حسن التوصل أو حسن الخروج .

أورد ابن رشيق قول الحاتمي في وحدة هيكل الشعر العربي ، وأشار إلى موقف المحدثين من كل خلل يطرأ عليه ، ومما قاله : « إن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر ، وبأينه في صحة التركيب ، غادر بالجسم عاهة ، نتخون محاسنه ، ونعفى معالم جماله ، ووجدت حذاق الشعراء وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون في مثل هذه الحال احتراساً يحميهم من شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجة الإحسان (١) .

قد يكون هذا الأمر صحيحاً لو قصرناه على المحدثين من الشعراء الذين عناهم الناقد ، ولكن المتأخرين منهم ، وهم شعراء هذا العصر ، بذلوا كل جهودهم للمحافظة على صون هيكل القصيدة العربية التقليدي ، ولكنهم

(١) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ١١١ ، ١١٢ ؛

أسقط في يدهم أمام التيارات الشعرية القادمة من المغرب الأندلسي والمشرق
الفارسي .

فمن الأندلس وصلهم نمط جديد يتعارض مع الهيكل التقليدي من
الموشحات والأزجال . . .

ومن المشرق وصلهم نمط آخر يتعارض كذلك مع الهيكل التقليدي من
الموالسما والدوبت . . .

حاول الشعراء بعد هذه التطورات الطارئة على الأساليب الشعرية أن
يطيعوا شعرهم بطابعها ، ويسخدموها في معالجة أغراضهم الخاصة سعياً
وراء الكسب وزلفى لدوي الجاه والسلطان .

أغلب الظن أن نجاحهم مشكوك فيه ، لأن الأساليب الجديدة مظهر هام من
مظاهر الحياة الشعبية ، وهي في حقيقتها الأمر النعير الصادق عن نفسية
الشعب المنطلقة لما فيها من أفراح وأتراح وآمال وآلام .

كان لا بد لهذه التطورات الجديدة في هيكل القصيدة العربية من أن تتبعها
أنماط جديدة في التعبير ، كان لها أنرها في بنية الألفاظ والتراكيب ، والخروج
الأوزان الشعرية المعروفة ، والتحرر من وحدة القافية .

الألفاظ والتراكيب

اهتم العرب بقدسية الحرف ورمزيته ، وجمال الكلمة وشرف التعبير
وبلاغة التركيب . وبخاصة منها ماورد في الشعر ، وأجود الكلام عندهم السهل
المتنع (١) والبليغ الموجز ، واشتروا في اللفظ ، أن يكون شريفاً عذباً ، وفخماً

(١) العسكري : الصناعتين ، ص ٦١ .

سهلاً (١) ، وكرهوا أن يكون وحشياً بدوياً ، ومبتذلاً سوقياً (٢) ، أو يشوبه شيء من كلام العامة والعاث الحشوية (٣) .

هاجم العسكري أرباب التكلف ، ونبههم بالجهل ، وذكر أنهم لا يسنجدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكد الذهن وأنهم « يستحقرون الكلام إذا راوه سلساً عذباً وسهلاً حلواً » (٤) . أما التراكيب فقد اشتروا فيها الانسجام ، فتكون كل كلمة موضوعة مع أختها ومقرونة بلفقها (٥) .

تلك هي النظرية العربية في البلاغة والبيان عندما كانت القرائح صافية ، واللسنة فصحة ، لاتلوها عجمة أو لحن . جاء هذا العصر ، وتتابعت فيه الأسر الحاكمة من غير العرب ، ووطئت أرض البلاد جحافل غازية من الغرب والشرق ، وقد لاحظنا تطورات جديدة في اللغة وأساليبها .

ففي اللغة نشهد وفراً في الألفاظ التي تسربت إليها ، إذ إن الأحداث الكبرى التي شهدها هذا العصر كانت عاملاً من عوامل هذا الوفرة اللغوية في الألفاظ العربية المعربة . وفي الأساليب نشهد انحداراً نحو الانسجام والسهولة المتناهية وعدم التحرج من استخدام التعابير العامية في كبر من الأغراض المعروفة ، فلا غرابة إن رأينا ابن منير الطرابلسي يكثر الفحش في شعره ، ويستعمل فيه الألفاظ العامية (٦) ، ولا غرابة أيضاً إن رأينا الناب الطريف يشتهر أمره بين الناس ، لا لسبب ، وإنما لأن « أكثر شعره » بل كله رقيق

(١) لسكري : الصناعين ، ص ١٤٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٦) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج ٢ ص ٩٧ .

الألفاظ ، سهل على الحفاظ ، لا يخلو من الألفاظ العامية وما تحلو به المذاهب الكلامية (١) .

ويلاحظ في ديوان ابن عنين بعض الألفاظ الشائعة والتراكيب العامية المنتشرة ببلاد الشام في هذا العصر ، مثل « العواني » و « العلق » و « النصب » و « دق حنك » و « ما قصر » و « ذقن » (٢) .

أما الصورة التامة في هذه الفنون الشعرية المستحدثة التي أتينا على بحثها من قبل ، وذكرنا أن مصدرها الرئيسي كان الأغنية الشعبية ، واعتمدنا في ذلك على النظرية الجديدة الهامة التي صرح بها أستاذي الدكتور عبد العزيز الأهواني . ففي الموشحات والأزجال كثير من الألفاظ والأساليب العامية ، وهي مستمدة من هذه الطوائف المختلفة الكثيرة ، وقد يصعب في بعض الأحيان على العربي الصميم أن يفهم لغات بعض الشعوب الواقعة تحت سيطرة الحكم الإسلامي .

ذكر أن أسامة بن منقذ اجتاز بقرية له تسمى « لغى كوم » من أعمال « بالوا » (٣) ، وجميع فلاحيهـا أرمن لا يعرفون العربية ، فأنشد :

نزلت بأرض « بالوا » وهي حصن	علا ، حتى تمنطق بالنجوم
بروم ، لا تلائمهم طباعي	وما العربي ذو إلف برؤم
سلامتهم « هزار باريك » (٤) ماذا ؟	شبيه سلام خزان النعيم

(١) ابن شاعر : قوات الوفيات ، ج ٢ ص ٢٦٢ .

(٢) ديوان ابن عنين ، ص ٨٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٣٨ .

(٣) سماها ياقوت « بالو » وذكر أنها قلعة حصينة ، وبلدة من نواحي أرمينية بين

أرزن الروم وبلاد (معجم البلدان ، ج ١ ص ٣٣٠) .

(٤) هزار باريك : معناها في اللغة الأرمينية ألف تحية مقرونة بتمني الخير ، وأصل

معني « هزار » ألف ، و « باريك » المقصود منها « باريف » وهي التحية .

الإدب في بلاد الشام - ٤١

وإنّ كلمتهم قالوا : « اشكديم » (١) ولست بعالمٍ معنى « اشكديم »
وما تسوى « لقي كوم » وإن هي سجا ليلي بها ، وصفا نسيمي
وبرد مياها وجنى جنان تحبط بها ، وبانعة الكروم
مقامي بين قوم إن تداعوا سمعت دعاء أصداً وبوم (٢)

تلك هي صورة واضحة عن التفاعل اللغوي في هذا العصر بين اللغة العربية
ولفات الطبقة الحاكمة ، والشعب المحكومة التي كانت نعيش في أطراف البلاد
أو تقع تحت الحكم الإسلامي، ومن المحم عليها أن تستمد منها قليلاً أو كثيراً
من مختار ألفاظها وأساليبها التعبيرية بحكم عاملي الزمان والمكان والعرق .

استمدت اللغة العربية من اللغة الفارسية كثيراً من ألفاظها قديماً وحديثاً
وظهرت بشكل جلي في شعر هذا العصر ، فمن ذلك قول السهّاب الشاغوري
في وصف دمشق :

مدينة أحسن بها مدينة كأنما الجنّات من رذّاقها (٣) (٤)
وقوله أيضاً :

وشادن ، صبغة شرّبوشيه (٥) في لونها والفعل ، كاللّهْذَم (٦)

وقوله في قصيدة أخرى لم ترد في مصورة ديوانه :

يا مطلعَ البدر فوق الفصن معتدلاً يلوح ما بين شرّبوش وطوقِ قبا (٧)
يبدو أن جل الألفاظ الدخيلة على الشعر القديمة منها والحديثة، كانت بشكل
عام ذات صلة ماسة بالحياة الاجتماعية والسياسية . من ذلك مثلاً قول

(١) اشكديم : ضبطها « جهكديم » ، ومعناها في اللغة الأرمنية لست ادري .

(٢) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ١٥٩ .

(٣) رذّاق : السواد والقرى ، وهي معرب « رستا » .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢٤٨ .

(٥) الشرّبوش : قلنسوة طويلة ، وهي معرب « سربوش » : ذكرها ادبي شير في كتابه

« الالفاظ الفارسية المعربة » وذكرها دوزي في معجمه (ج ١ ص ٧٤٢) .

(٦) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢٥٩ .

(٧) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٤ .

عرقلة يصف القمر في حاله : كونه بدرًا وهلالًا ، وهو مستمد من أسماء المأكولات المعربة المعروفة في هذا العصر :

أما ترى البدرَ في السماءِ وقد حاولَ من بعد تمّهِ نقصَه
بيننا تراه كخشكنانكة (١) حتى تراه كأنّه قرصه (٢) (٣)

ومن ذلك قوله في وصف أطباق الططماج :

الاربّ طاهِ جاءنا بعد فترةٍ بأطباقٍ ططماج (٤) اشفّ من الثلج
وقد غارتِ السيخات (٥) فيها كأنها يغالق (٦) تركّ في طوارق (٧) إفرنج (٨)

ومن ذلك قوله في طغريل السيف :

قالوا : يسبكّ طغريلُ ، وتهملهُ ؟ فقلتُ : أخشى على عِرْضِي من الواشي
كنا نحاذرُ منه ، وهو مرشحة (٩) فكيف لا نتقيه ، وهو جوباشي (١٠)

كان للألفاظ العامية مكان لدى بعض شعراء العصر ، كما رأينا ذلك مراراً ويظهر أنهم لم يكونوا يتحاشونها ، فمن ذلك قول عرقله في غلام كمراني :

وكيف يراني الرقباء
ع من سقم بجثمانني ؟

(١) الخشكنان : في العرب للجواليقي نوع من الحلوى (ص ١٣٤) ، وعند دوزي الخشكنانكة (ج ١ ص ٣٧٣) ، وعند الخفاجي : معروف تكلمت به العرب قديما (شفاء الغليل ، ص ٨٧) .

(٢) القرصة : حلوى من العجين والنشاء والسكر (معجم دوزي ، ج ٢ ص ٣٢٨) .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢١١ .

(٤) الططماج : عند الخفاجي نوع من الطعام معروف (شفاء الغليل ، ص ١٥١) .

(٥) سيخات : جمع سيخ ، وهي سكين كبيرة ، مستعمدة من أصل فارسي (معجم دوزي ج ١ ص ٧١١) .

(٦) يغالق : نوع من السلاح عرف به الأتراك .

(٧) الطوارق : نوع من الأتراك (معجم دوزي ، ج ١ ص ٤٠) .

(٨) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ١٩٠ .

(٩) المرشحة : ما يوضع تحت السرج وعلى ظهر الدابة ليتمص العرق .

(١٠) المصدي السابق ، ج ١ ص ٢١١ .

وجسمي مثل ما يحوي كمران (١) الكمراني (٢)

يضاف الى ماتقدم التكلف اللغوي والأسلوبى أحياناً ، كان نجرد كلمات القصبدة من حروف معينة زيادة في التصنع، فيتجنب الشاعر مثلاً بعض الأحرف كالسين والطاء . أو على العكس يعتمد ألا تخلو كلمة من صاد أو سين . نذكر من ذلك قصيدة ابن قسيم وقد حاول ألا تخلو كلمة من صاد ، وكلمة بعدها من سين ، ولم يرق للعماد الكاتب ذلك، فنعت ما جاء فيها من التكلف تعسفاً:

تُصْغِي لِتَسْمَعِ اصْطَخَا بَ لِسَانِهِ الصَّمَّ السَّوَادِرْ
وَصَلَّ السَّجَّاحَةَ بِالصَّبَا حَةَ سَالِبٍ بِالصَّوْتِ سَاجِرْ (٣)

واقترح فخر الدين الرازي على ابن عنين أبياناً، في كل كلمة منها سين فقال:

مَرْسَى السَّيَادَةِ سَدَّةٌ سَيْفِيَّةٌ مَحْرُوسَةٌ مَسْعُودَةٌ التَّاسِيسُ

ومنها :

أَنْسَتْ مِنْ أَسْتَارِ سَدَّتِهِ سَنَا قَبَسَ فَسَقَتْ نَفِيسَةً لِنَفِيسِ
وَسَقَيْتُهَا سَلْسَالِ سِحْرِ مُسْكِرٍ لِلْسَّامِعِينَ وَسَقَتْهَا كَعْرُوسِ (٤)

واقترح عليه أخرى مثلها ، تشتمل كل كلمة على الحاء ، فقال :

حَيَّا مَحَلَّ الْحَاجِبَةِ بِالْحِمَى وَالسَّفْحِ سَفْحٌ مَدْلَحٍ سَحَّاحِ

ومنها :

فَلْأَحْسِمَنَّ الْحَاسِدِينَ بِمَدْحَةٍ لِمَدْحٍ نَحْوِ الْحَبَا مُرْتَاحِ
مُتَحَمِّلٍ حَيْفَ الْحَمِيمِ لِحَاجَةٍ فَدَحَتْ وَحْتَفٍ لِلْحُسُودِ مُتَبَاحِ (٥)

(١) الكمران والكمر : حزام من جلد ، واللفظة الثانية هي المعروفة في بلاد الشام (معجم دوزي ، ج ٢ ص ٥٠٣) .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢٢٦ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٤٧ .

(٤) ديوان ابن عنين ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

ومن هذا التكلف القصائد العواطل ، وهي القصائد التي يتجنب الشاعر فيها كل الحروف المعجمة ، ويقتصر فيها على الحروف المهملة . نذكر من ذلك قول الشاعر الانصاري ، وقد افترح الملك الامجد عليه نظم قصيدة عاطلة من النفيط ، فاستهلها بقوله :

مولته لعهودِ اللهورِ مدَّكرٌ لولا مدامعه ما أهمل المطرُ
لكلِّ ممكورة لو رأى ساحرُها سحرُ سحرٍ أطاعوه وما سحرُوا(١)

يلاحظ أن بعض الشعراء يتكلفون هذا النوع من التصنع اللغوي والتكلف الأسلوبى سعيًا وراء الإغراب والتعقيد لظهور مفرداتهم ، ووضع منافسيهم موضع التعجيز والتحدي ، وأن بعضهم الآخر كان مكرهاً على سلوك هذه الطريق استجابة لطلب ممدوحهم . وسواء أكان هذا أم ذاك ، فلا شك أن القصائد الموجهة ، والقصائد العواطل ، مظهر من مظاهر الكلف والتصنع في العصر الذي ندرسه ، بيد أنها بطبيعة الحال ، قليلة العدد ، إذ لا نعثر في معظم الأحيان للشاعر إلا على قصيدة واحدة أو اثنتين على أبعد تقدير والخطأ كل الخطأ أن نقوم الأدب بالشاذ النادر .

(٢)

الأوزان الشعرية

المعروف قديماً أن أكثر الأبحر الشعرية شيوعاً ودورانياً عند العرب هي الطويل والبسيط والكامل ، وقد استخدموها بكثرة في أغراضهم . والمعروف أيضاً أن بعضها الآخر كالخفيف والسريع والوافر والمنسرح تتميز بخفتها ورشاقتها كما صرح بذلك الخليل بن أحمد نفسه (٢) .

ومن المؤكد بعد ذلك أن الدراسات الموضوعية حول الأغراض والمعاني الشعرية وعلاقتها بالأوزان العروضية ، ما زالت كما عرفت عند الاقدمين ،

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الانصاري ، ل ٣٦ ، ٣٧ ، والديوان ص ٢٣٠ .

(٢) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ١٤٤ .

وهي كما نرى ، بحاجة ماسة للبحث ، إذ إنه يبرز ناحية أساسية في مفهوم الشعر العربي .

ولعل أول من أسار الى هذا الاتجاه النقدي في البحث العروضي هو أبو العلاء المعري في رسالة الففران ، فقد أورد أبياتاً تنسب للخليل بن أحمد ، وهي من البحر المجتث ، وذكر « أنها تصلح لأن يرقص عليها » (١) .

توجد أربعة أبحر شعرية معروفة، هي المجتث والمقتضب والمضارع والهزج لا تستعمل تامة ، وإنما قرر العروضيون أن الجزء فيها واجب لا محالة : تنتهي من قصة مجتث الخليل لنقول إن أبا العلاء أول ناقد عروضي لفت نظرنا إلى الأمر الهام بالنسبة للبحر المجزوء الرافعة، سواء منها أكان الجزء فيها واجباً كما في الأبحر المذكورة آنفاً ، أم كان فيها جائزاً ، وذلك فيما عدا ذلك .

أشار العسكري الى العلاقة بين المعنى من جهة ، والوزن والقافية من جهة أخرى ، وطلب من الشاعر أن يسعى وراء المعاني أولاً ، ثم يطلب لها وزناً يتأتى فيه إيرادها وقافية يحتملها . فمن المعاني ما يتمكن من نظمه في قافية، ولا يتمكن منه في أخرى . كما أن العسكري لم يقتصر على الملائمة بين اللفظ والمعنى ، وإنما أدخل القافية الموازية التي تسهم الى حد كبير في موسيقى القصيدة بالإضافة الى الوزن (٢) . يضاف الى ما تقدم معنا أن قدامة عرض لانتلاف المعنى والوزن ، واشتراط أن تكون المعاني مستوفاة ، ولم يضطر فيها لاقامة الوزن أن ننقص منها أو نزيد عليها (٣) .

تلك هي صورة عن الأوزان الشعرية التي عرفها الشعراء المعاصرون ، فمنهم من حافظ عليها، ومنهم من ضاق بها ذرعاً، فحاول الإفلات من قودها . حاول الشعراء المحافظون أن ينظموا معانيهم ضمن الأوزان التقليدية في الأبحر الستة عشر المعروفة ، فنجدهم في الغالب يستخدمون الأبحر الطويلة

(١) المعري : رسالة الففران ، ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٢) العسكري : الصناعات ، ص ١٣٩ .

(٣) قدامة : نقد الشعر ، ص ١٩٥ .

في المدح والرثاء وغيرهما ، والأبحر الخفيفة في الأغزال والخمریات وغيرها ، بيد أننا لا نجزم بما تقدم معنا ، إذ لا نستطيع قصر بحر معين على غرض معين ، وكذلك فإن لكل شاعر نهجه وأسلوبه في استخدام الأبحر الشعرية .

أما الشعراء المجددون فقد نظموا في الأبحر المعروفة ، ولكنهم تركوا لأنفسهم العنان ، لينطلقوا من قبود الأوزان في بعض الأحيان .

لم تكن هذه المحاولات جديدة في الشعر العربي ، فقد عرف عن المولدين والمحدثين منهم أنهم كانوا يزيدون أعاريض بعض الأبحر مما لم يرد عن العرب ، كما فعل أبو العتاهية بزيادة عروض جديدة على البحر الخفيف ، فلما اعترض عليه قال قولته المشهورة : « أنا أكبر من العروض » ، وله أوزان أخرى لا تدخل في العروض (١) .

اتجه الشعراء بفطرتهم وسليقتهم الشعرية نحو بعض الأعاريض ذات الوزن الموسيقي ، فاقترضوا من البحر المنسرح على المقطوع الضرب لا تساقه وعذوبته في الوزن واللحن (٢) ، كما حاولوا كذلك أن يفلتوا من قود الوزن والروي ، وذلك بالابقاء ، ولو من حيث التكل ، على الوحدة المعروفة في القصيدة العربية ، فنظموا القصائد التي عرفت باسم « ذوات الأوزان » ، وهي نوع جديد ، تتألف كل قصيدة فيه من عدد غير محدود من الأبيات ، وكل بيت فيها يتكون من اجزاء ، يترك أمرها للشاعر نفسه ، وهي تتبع البيت الأول في قوافيها وعددها ، ويستترط في الجزء الأخير من الأبيات أن يكون على روي البيت الأول كما هو الحال في نظام القصيدة التقليدي .

والمهم في القصائد ذوات الأوزان قراءتها ، فهي أما تقرا قراءة عادية ، فلا نجد بينها وبين القصيدة التقليدية أي فرق ، اللهم إلا التصنع والتكلف ، وأما أن تقرا قراءة خاصة بصورة أفقية أو غير أفقية ، وفي كل وجه من وجوه القراءة نجد قصيدة جديدة ، بقافية جديدة ، وأسلوب جديد .

(١) أبو الفرج الأسيهاني : الإغاني ، ج ٤ ص ١٥ .

(٢) محمود مصطفى : أهدى سبيل ، ص ٧٠ .

ذكر صلاح الدين الصفدي أن الشعراء نظموا في هذا النوع قديماً وحديثاً ، واكثروا منه « واحسنه ما لم تظهر الكلفة عليه ، ويكون عذباً منسجماً » (١) .

لا نعرف على الضبط متى ظهرت القصائد ذوات الاوزان الكثيرة ، فمن قائل : إن لأبي العلاء قصيدة تقرأ على عدة وجوه ، لكن الصفدي شك في نسبة ذلك إليه ، وذكر أن أقدم ما عرف من هذا النوع قول أبي الحسين أحمد بن سعد الكاتب الأصفهاني ، وكان بعد العشر والثلاثمائة (٢) .

انتشر هذا النوع من القصائد الشعرية في بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجريين ، وأقدم ما وصلنا ثلاثة أبيات لابن قسيم الحموي ، وهي على خمسة اوزان وخمس قواف .

قل للامير أخي الندى والنائل الهطال للشعراء والقصاد
لا زلت تنتهك العدا بالذابل العسال في الأحشاء والأكباد
ووقيت من صرف الردى والنازل المقتال بالأعداء ووالحساد (٣)

كما أثر عن حكيم الزمان عبد المنعم الجلياني السابق ذكره أنه كان يألف كثيراً هذا النمط من النظم ، وقد لقيه ياقوت في دمشق ، فوقفه على أشياء كثيرة من قصائده ذوات القوافي المنعددة ، وذكر أنه « كان عجباً في عمل الأشعار التي تقرأ القطعة الواحدة بعدة قوافٍ ويستخرج منها الرسائل والكلام الحكمي مكتوباً في خلال الشعر ، وكان يعمل من ذلك دوائر وأشجاراً وصوراً (٤) » .

بلغ هذا الفن الشعري ذروته على يد الشاعر البعلبكي صلاح الدين القواس (٥) وله قصيدة مشهورة سائرة ، اسمها ذات الاوزان ، يقال إنها تقرأ

(١) الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٣ ق ١ و ٨٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ق ١ و ٨٩ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٤٤٤ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ١٥٧ .

(٥) صالح بن أحمد بن عثمان ، صلاح الدين القواس ، الشاعر البعلبكي ، ولد سنة ٦٣٨ هـ وكان رجلاً صالحاً ، يعبر الرؤيا ويفرّها ، وقد صحب فقراء المصوفة ، وحفظ أقوالهم وطاق في البلاد ، وقد توفي سنة ٧٢٣ هـ (الصفدي : أعيان العصر (مخطوط) ج ٣ ق ١ و ٨٨) .

على ثلاثمائة وستين وجهاً وهي قوله :

داءٌ نوى بفؤادٍ شفه سقمٌ	لحنتي من دواعي الهم والكمد
بأضلعي لهبٌ تذكو شرارته	من الضنى في محل الروح من جسدي
يوم المنى ظل في قلبي به ألمٌ	وحرقتي وبلائي فيه بالرصد
توجَّعي من جوى شبت حرارته	مع العنا قدرتي له فيه ذوالحسد
أصل الهوى ملبسي وجداً به عدمٌ	لمجنبي من رشا بالحسن منفرد
تتبَّعي وجد من نزهو نضارته	لما جنى مورثي وجداً مدى الأمد
هدى القوى حسن كالبدر مبتسمٌ	لفتنتي موهن عند النوى جلدي
مودعي قمرٌ تسبي إشارته	إذا رنسا ساطع الأنوار في البلد
مهدي الجوى مولع بالهجر منتقمٌ	ما حيلتي قد كوى قلبي مع الكبد
لمصرعي معتدٍ تحلو مرارته	يا قومنا آخذٌ نحو الردى بددي
قلبي كوى مالك في النفس محتكمٌ	لفقتي وهو سؤلي ومعتدي
مروعي سارٌ لا شطت زيارته	لما انثنى قاتلي عمداً بلا قود ^(١)

لو قرأنا الأبيات المذكورة قراءة عادية لوجدنا أنها من البحر البسيط، ولو قرأنا التفعيلة الأولى من مطلع شطر أول كل بيت لوجدنا أنها من بحر الرجز . وهكذا تختلف أعاريضها بحسب توجيهها . بيد أنني على الرغم من كل ذلك لست قانعا بقراءتها على مئات الأوجه ، إلا إذا أعرضنا عن المعنى ، وعشنا بالالفاظ كما نشاء ، وفي هذا - كما نرى - منتهى التكلف العروضي والتعسف اللفظي والمعنوي . ويبدو أن ذوي الذوق السليم في هذا العصر لم يرضوا البتة عن هذا التصنع الغريب في الأوزان ، وإنما عدوه ضرباً من الهذيان . يقول ابن الأثير في المثل السائر : « رأيت رجلاً أديباً من أهل المغرب ، وقد تغفل في شيء عجيب ، وذلك أنه شجر شجرة ، ونظمه شعراً ، وكل بيت من ذلك الشعر يقرأ على ضروب من الأساليب اتباعاً لشعب تلك الشجرة وأغصانها ، فتارة تقرأ كذا ، وتارة تقرأ كذا ، وتارة يكون جزء منه هاهنا ، وتارة يقرأ

مقلوباً ، وكل ذلك الشعر وإن كان له معنى يفهم ، إلا أنه ضرب من الهذيان ، والاولى به وبأمثاله أن يلحق بالسُعْبُده والمعالجة والمصارعة ، لا بدرجة الفصاحة والبلاغة » (١) .

كانت القصائد ذوات الاوزان محاولة عقيمة للانطلاق من فيد الاوزان ، لانها لا تحقق لشعرائها النتيجة المرجوة ، ويلتفتون الى المغرب ليأخذوا منه الموشحات والأزجال ، ففبها ما يبتغون من تحرر الاوزان والقوافي . أما الموشحات فيجندونها « تنقسم قسمين : الأول ما جاء على أوزان أشعار العرب ، والثاني ما لا وزن له فيها ، ولا إمام له بها (٢) » . وأما الأزجال فقد وجدوا فيها منفساً كما رأينا ، ففي الاوزان حرية ، وفي القوافي انطلاق ، وفي اللغة والتعبير رخص ، حتى : قبل : صاحب الف وزن ليس بزجال .

ويلتفتون بدورهم الى المشرق الفارسي ، فيأخذون منه الرباعي وينسجون على منواله ، والى بغداد فيأخذون منها المواليا ، وهو من البسيط ، إلا أن له ضروباً متعددة تخرجه عن وزنه الاصلي .

ليست محاولة اقتباس الاوزان بجديدة في الشعر العربي ، فمن قبل انفسوا بحري المضارع والمقتضب ، وسلكوهما في البحر الستة عشر المعروفة ، ولكنهم تنسجم مع النوق العربي ، فلم يستسغها الشعراء العرب ، وبقيت شواهدا نادرة في الشعر العربي .

تلك هي نظرة عامة على المجالات المختلفة للتحرر من قيود الاوزان ، ونمة اساليب أخرى أحدثها المولدون من قبل : هي البحور الجديدة التي استنبطوها من عكس دوائر البحور التقليدية المعروفة ، ويظهر أن هذه المحاولة لم تلق النجاح .

(٣)

دراسة القوافي

القافية ركن هام من أركان القصيدة العربية لأنها شريكة الوزن في الاختصاص

(١) ابن الاثير : الملل السائر ، ج ٢ ص ٣٥٤ .

(٢) ابن سناء الملك : دار الطراز ، ص ٣٣ .

بالشعر (١) ، وقد أهتم بها الأقدمون كثيراً ، فمنهم من جعل البيت كله هو القافية ، ومنهم من اتسع في ذلك ، فجعل القافية القصيدة كلها (٢) .

تحدث النقاد عن جمال القافية وانسجامها مع المعاني ، وكرهوا فيها اللين والضعف ، حتى أن عبد الملك عاب على ابن قيس الرفعات قوافي قصيدته ، فقال له : « أحسنت إلا أنك تخنثت في قوافيك » (٣) .

اهتم الأقدمون أيضاً بالتصريح في مطلع القصيدة ، كما صرعوا في غير المطلع ، إما للدلالة على قوة الطبع وإما للإشارة إلى الانفصال من غرض آخر ، حتى كثر بشكل غريب ، وغدا مظهراً من مظاهر التكلف الذي لاغناء فيه .

شهدنا في هذا العصر محاولات الانطلاق ، ولا شك أن الشاعر يجد المجال أرحب في الإفصاح عن نفسه والتعبير عن شتى معانيه ، وذلك حين تتعدد القوافي الشعرية في القصيدة الواحدة . وأغلب الظن أن شرط القافية الموحدة وجد قبل الإسلام بعرون ونصف القرن تقريباً ، وأنه إنما قصد الشعر على عهد هاشم بن عبد مناف ، وكان أول من قصده مهلهل وامرؤ القيس كما يزعم الرواة (٤) ، ومن الطبيعي أن يقف الباحث والناقد من أمثال هذه الأخبار موقف المتشكك أو المنكر .

اتسعت الحياة في العصر العباسي ، وتأثر الشعراء بالأساليب الشعرية التي عرفوها عند الأمم الأخرى ، وراوا حاجتهم للانطلاق من أسر القافية الموحدة ، وحاول أحدهم أن يفلت منها ، فنظم قصيدة ، بيد أنه لم يفلح في محاولته لأن النفوس لم تنهياً بعد لمثل هذه الانطلاقة الجريئة في الشعر العربي . ونمة محاولة أخرى قام بها طلحة بن عبيد الله العوني ، وكان يعتمد في شعره الإقواء والإيطاء ، وهما من عيوب القافية . سمي الناس هذا النوع الغريب

(١) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ١٢٩ .

(٢) لمصدر السابق ، ج ١ ص ١٣١ .

(٣) العسكري : الصناعين ، ص ٥٠ .

(٤) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ١٦٤ .

ب « القواديسي » تشبها لها بقواديس البسانية (١) ، لارتفاع بعض قوافيه في جهة وانخفاضها في الجهة الثانية (٢) .

لم تجد هذه المحاولة الفردية استحساناً عاماً لدى الشعراء والنقاد ، إذ إن الذين قاموا بها لم يكونوا من الاعلام المشهورين ، حتى اذا جاء المحدثون آمنوا بضرورة الانطلاق من عبودية القافية، وكان من ثمره ذلك ظهور المزدوجات والمسمطات . أما المزدوجات فقد أكثر الشعراء المحدثون من الأراجيز المنسجورة واستخدموها في نظم علوم اللغة والنحو والقراءات وغير ذلك ليسهل عليهم حفظها ، ويجمع شتاتها ضمن قصيدة أو أرجوزة واحدة . لقد أكثروا في الأراجيز المنسجورة من الازدواج ، وهو أن يتحد كل بيتين من مشطور أي بحر القافية ، ويؤتى بعدهما بغيرهما من قافية أخرى - وأول من نظم فيه أبو العتاهية وبتار الذي كان يعتقد أنه قد سبق العروض . فأرجوزة أبي العتاهية ذات الأمثال الحكمية مظهر من مظاهر هذه الانطلاقة الجريئة ، إذ فيها أربعة آلاف مثل ، عبر عنها في مزدوجته المذكورة . وهكذا أصبح هذا الأسلوب الشعري الجديد مستخدماً في نظم القصص والاساطير والحكم والأمثال والمواعظ وغير ذلك بالإضافة إلى ما ذكرناه من العلوم المختلفة .

لم يرق للنقاد المحافظين هذا الأسلوب الجديد، فاستصغروا شأنه وسموه حمار الشعراء .

أما المسمطات فقد سبقت دراستها في بحث الفنون الشعرية المستحدثة، ورأينا أيضاً أنها مظهر من مظاهر الإفلات من وحدة القافية في الشعر العربي .

نلك هي بعض محاولات السابقين من الشعراء المحدثين ، أما المتأخرون المولدون منهم ، فقد جروا على سنن من سبقهم في القصائد التقليدية والفنون المستحدثة . ففي القصائد نراهم يتقيدون بوحدة القافية ، ويحاولون أن يتصنعوها في بعض الأحيان ، فقد التزموا أن تكون كل قافية أو الكلمة الأخيرة

(١) البسانية : هي الناعورة أو الساقية .

(٢) ابن رشيق : العبد ، ج ١ ص ١٥٤ .

التي توجد فيها صفة لون واسمه كما في القصيدة التي بعث بها ابن الساعاتي الى القاضي الفاضل (١) . والقصيدة مؤلفة من تسعة أبيات والالوان التي ختمها بها هي على التوالي : بيضاء ، وخضراء ، وصفراء ، وغبراء ، وشهباء ، وغراء ، وحمراء ، ودهماء .



نخلص من دراسة الاساليب والمذاهب الفنية الى القول إن الشعراء قد بذلوا في مذاهبهم المختلفة جهداً ذهنياً جباراً ، حتى يكاد يطفئ في بعض الأحيان على عواطفهم وشعورهم ، فكانوا يبدلون كل طاقاتهم وإمكاناتهم الاسلوبية في اقنناص المعاني والاغراب فيها ، لتكون لهم الصورة مزخرفة كما يريدونها . ولو تتبعنا فعاليتهم الذهنية ، وراقبناها بدقة تامة لرأينا أنهم كانوا ينقادون وراء المعاني، كما تتداعى في اذهانهم، أو كما تستدعيها خواطرهم، وتستوحبها قرائحهم ، وانهم كانوا عبيد الفاضلهم وتراكيبهم واساليبهم ، يستلهمونها وينقادون إليها ويتبعون سننها .

هكذا استطعنا من خلال عرضنا الأغراض التقليدية والفنون المستحدثة ان نرصد جانباً كافياً مما أخذوه من معاني القدماء ومما طوره منها ، أو مما ابتكروه من معان جديدة أو صور غريبة، أبدعتها قرائحهم ، ودبجتها براعتهم .

لاحظنا — بالإضافة الى ذلك — علاقة ما مر معنا بالحياة النقاوية وغيرها في هذا العصر، ورأينا آثار الاساليب التعليمية المنهجية المتبعة في تطور الاساليب الشعرية وطبعها بطابعها الخاص .

كما لاحظنا من خلال دراستنا أعلام الشعراء أن ابن القيسراني وابن منير الطرابلسي كانا يعنيان بالجناس والطباق وسائر الفنون البديعية، وأن الشرف

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ص ٢٨٨ .

الانصاري والشاب الظريف كانا يعنيان بالتورية والانسجام ، وإن أسامة وابن قسيم كانا من أصحاب الشعر الذاتي والوجداني ، وأن عرقله والتلعفري كانا من شعراء الخمر والمجون ، يضاف الى ذلك أن الشعراء كانوا يتوخون ارضاء اذواق الصفوة المختارة من عشاق الشعر في بيئات علمية خاصة ، نخص بالذكر منهم السلاطين والامراء والقضاة وكتاب الدواوين وأصحاب الرسائل . فلا بدع إن رأينا ظهور الفنون الشعرية المستحدثة في الاوساط الشعبية أو في بيئات زهدية تصوفية ، أو في بيئات ماجنة عابثة، وكان بالطبع ظهورها نتيجة حتمية ، اقتضاها الفراغ الكبير الذي أحدثته اتجاهات الشعر التفليدي نحو طبقة معينة من الناس ، هي في معظم الاحيان الطبقة الحاكمة التي بيدها الامر والسلطان . ولا تكون مغالين إن قلنا إن الشعراء الجدد استطاعوا أن يسدوا بعض الفراغ الحادث ، فكان حقاً صورة من صور الحياة الادبية في هذا العصر . وطبيعي جداً أن نجد أنفسنا أمام هذين التبارين المتعارضين ، ولكن يستحيل أن ينفصل أحدهما عن الآخر لاننا لاحظنا بعض التأثير العامي والاسلوب الشعبي في شعر الاعلام الكبار من شعراء هذا العصر كما توضح أمامنا ذلك بكل دقة وتفصيل .

يبقى علينا أخيراً أن نذكر مدى هذا التداخل بين التيار الجديد ، وبين السنن الموروثة لدى الفصحاء ، فقد لاحظنا أن هذا المدى يختلف بين بيئة وأخرى وبين شاعر وآخر ، وكنا وضحنا كل ذلك وخلصنا إلى القول إن شعر هذا العصر كان متعدد النزعات متباين الاتجاهات ، وكان على هذا الشكل صورة واضحة عن الحياة .



الباب الثالث
الكتابة والكتاب في بلاد الشام

أعلام الكتاب

قدمنا بحث الشعر على النشر ، وبيننا سبب هذا النقديم ، وقلنا : إن الشعر ديوان العرب . يعبرون به عما يعرض سبلهم في حياتهم . أما النشر فكان لغة الدواوين . وبه تسير أمور الدولة إذ كان السلاطين يعتمدون كل الاعتماد على كبار الكتاب لتولوا وزارتهم ، ويتصدروا دواوينهم ، وينوبوا عنهم في إنشاء الكتب الى الأفطار المختلفة . ولسنا بمبالغين إن قلنا : إن النشر ضرورة حتمية اقتضتها طبيعة الحكم ، واساليب الحياة السياسية والدينية والفكرية . بيد أنه كان أضيق نطاقاً من الشعر . فلا غرابة إن رأينا النشر محدود المدى من حيث الكثرة ، ورأنا بالتالي قلة الكتاب في هذا العصر بالنسبة إلى هذا العدد الضخم من الشعراء .

يضاف الى ما ذكر أننا نشهد جمع الصناعتين : الشعر والنشر ، وهذا امر متعارف عليه ، فكان يتحتم على الشاعر أن يجيد النشر ، وعلى الكاتب أن ينظم الشعر أو يكون له به إلمام ، على الرغم من أن هذا العصر عصر تخصص ، لكن الموسوعية في مفهوم الأدباء ، والرغبة في جمع فضيلتي الشعر والنشر تقريباً من ذوي السلطان ساعداً بلا شك على ذلك ، وسوف نرى أن أعلام الكتاب كانوا شعراء مجيدين كالقاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن سناء الملك والشهاب محمود وغيرهم ، وأن أعلام الشعراء كانوا كتاباً حاذقين كابن القيسراني وابن منير الطرابلسي وأسامة بن منقذ وغيرهم .

لعلنا نتساءل عن بواعث الجمع بين صناعتي الشعر والنشر ، ويبدو لنا أن مفهوم البلاغة والإبداع فيهما كانا العامل الرئيسي في ذلك ، سئل ابن

المتفّع عن البلاغة في الكلام فقال : « اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون بالسكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً ، ومنها ما يكون ابتداءً ، ومنها ما يكون جواباً . ومنها ما يكون في الحديث ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون خطباً . ومنها ما يكون رسائل ، فعامة هذه الأبواب الوحي فيها ، والإشارة الى المعنى والإيجاز هو البلاغة » (١) .

لاحظ ابن الأثير أن قلة النثر بالنسبة للشعر ترجع إلى أن العرب كانوا يعنون بنقل الشعر وروايته وتدوينه ، لكن عنايتهم بالنثر تضاءلت كثيراً لأسباب أفصح عنها بقوله : « ولا نجد الكلام المنثور في كلامهم إلا يسيراً ، ولو كثر فإنه لم ينقل عنهم ، بل المنقول عنهم هو الشعر ، والكلام المنثور بالنسبة إليه قطرة من بحر » (٢) . هذا عن العرب الأولين قبل شوع الكتابة ، فلما شاعت وكثرت رأينا النثر أكثر من ذي قبل ، ولكنه يبقى أقل من الشعر كثيراً .

يتحتم علينا بعد هذه المقدمة أن نعرض للنثر في هذا العصر فنبداً بذكر اعلام الكتاب ، ثم نخلص من ذلك إلى دراسة النثر دراسة موضوعية .

سوف نتحدث في باب النثر عن سبعة اعلام . وقد ترجمنا لأربعة منهم في هذا الفصل هم : الخطيب الحصكفي ، والعماد الكاتب وابن الأثير الكاتب ، والتشهاب محمود . كما أشرنا في الفصل الثاني الى ثلاثة آخرين : هم ابن ظفر الصقلي وابن غانم المقدسي وابن محرز الوهراني ، وذلك خلال دراسة الفنون النثرية .

(١) ابن رسي : العمدة ، ح ١ ص ٢٤٣ .

(٢) ابن الأثير : المثلي السائر ، ج ١ ص ٨٥ .

الخطيب الحصكفي

(٦٠ - ٥٥١ هـ = ١٠٦٨ - ١١٦٥ م)

القبيلة الأوق

حياته وأثره

(١)

مراحل حياته

ولد معين الدين ، أبو الفضل ، يحيى بن سلامة بن حسين بن عبد الله ،
الملقب بـ « الخطيب الحصكفي » (١) ، في مدينة طنزة (٢) ، سنة ٤٦٠ هـ .

نشأ وترعرع في حصن كيفا (٣) ، وإليه نسب ، ثم قدم بفساد
واشتغل في الأدب على الخطيب النبريزي ، وبرع في فقه المذهب الشافعي
والفرائض . ولما استكمل ثقافته الأدبية والدينية قفل راجعا الى بلاد
النمام ، فنزل ميفارقين ، واستوطنها ، وولى الخطابة فيها (٤) ، وصار
إليه أمر الفتوى ، فكان مفتي تلك البلاد في عصره (٥) . وجدير بالذكر أنه
اختار ميفارقين ليقم فيها لأنها اشهر مدينة بديار بكر (٦) ، ولأنها كانت

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٥٦١ .

(٢) بليدة بجزيرة ابن عمر من ديار بكر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ص ٤٣) .

(٣) بلدة وقلعه عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر

(ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٢٦٥) .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٢٣٧ ، وياقوت : ارشاد الأريب ج ٢٠

ص ١٨ ، والعماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٤٧٢ ، والسبكي : طبقات الشافعية

ج ٤ ص ٣٢٢ ، وابن الوردي : تنمية المخسر ، ج ١ ص ٦٠ والسدهي سر النبلاء

(مصورة) ج ١٢ ل ٢١٨ .

(٥) الذهبي : سير النبلاء (مصورة) ج ١٢ ل ٢١٨ ؛

(٦) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ص ٢٣٥ ؛

عكف على عمله في هذا البلد ، وذاع صيته في البلاد ، والغرب أنه «مافارق ميفارقين؛ بل كان منزله محط رحال المسترشدين المسعفين» (١) . وكان العماد الكاتب يرغب أن يكون أحد هؤلاء المسنفدين . لكنه لم يتيسر له لقاءه : كتبت أحب لقاءه ، وأحدث نفسي عند وصولي إلى الموصل في شرح عمري ، وأنا سفف بالاستفادة ، كلف بمجالسة الفضلاء للاستزادة . فعاق دون لقاءه بعد الشقة ، وضعفي عن تحمل المشقة » (٢) .

كثرت تلامذته ، واستغل عليه العلماء ، وانتفعوا به ، وأصبح منزله كعبة العاصدين المسنفدين ، فتناقلوا أخباره ورسائله ، وذاعت شهرته في غير بلاد السام وتجاوزتها إلى غيرها من الأمصار .

عرف الأقدمون منه تنسيعه ، وتناقلوا شعره في مدح آل البيت ، فذكر العماد منه « قصيدة شيعية شائعة ، رائقة رائعة » (٣) ، فالتشيع « في شعره ظاهر » (٤) كل الظهور .

أما التصوف فقد انضج لنا من شعره ونثره أنه كان بكثرت استخدام المصطلحات الصوفية المعروفة . وقد أشار العماد إلى قصيدة كتب بها إلى كمال الدين السهرودي وهي « منتملة على معاني أهل التصوف » (٥) ، ولم يكن ذلك ليقصر على القصيدة المذكورة ، وإنما تراه منتسرا في رسائله بشكل واضح .

ويظهر أن هذين الاتجاهين ألبا من حوله عليه اعداءه وحساده ، وقد عرض بهم في الرسالة التي أنساها على لسان القصار والصيد . وكب بها إلى بعض القضاة ، واستخدم فيها التعبير الرمزي ، وأتى فيها على ذكر من وقعوا في سيرته : « أكون خائناً ، وأحلف مائناً . فأجمع بين الحين والحين » .

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ١٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٧٥ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٥) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٤٩٥ .

والخيانة ، وانسلخ من الديانة ؛ لكن ' تقوّل علىّ فما نسبته ' إلى (١) .

لم يزل على رئاسته وجلالته وإفادته حتى وافه منبته بحسن كبفا
سنة ٥٥١ هـ (٢) .

(٣)

آثاره الأدبية

يبدو أن للحصكفي تصانيف كثيرة ، لا يعرف عنها إلا القليل ، وقد
ذكر الذهبي أنه « صنف التصانيف وله ديوان خطب ، وديوان نظم
وترسل » (٣) .

اطلع العماد خلال وجوده في مصر على بعضها ، فقال : « نم وفع
الىّ قطعة كبيرة من شعره ورسائله ، وذلك بمصر ، ولمحتها ، فرأيت
فيها كلّ ملحّة ، ذكية من نشرها بأطيب نفحة ، فنسخت منها ما نسخ
فخر مساجيله ، ورسخ فضله على ممائليه » (٤) .

توجد في دار الكتب المصرية نسخة مخطوطة من نثر الحصكفي ، وتضم
بعض شعره ، ونظن أنها هي نفسها التي أطلع عليها العماد ، واقتبس منها .
وله بالإضافة إلى ديواني خطبه ورسائله ، ديوان شعر (٥) وهو مفقود .

بضاف إلى هذه التصانيف مؤلفات أخرى نحوية ولفونية ، منها « عمدة

(١) المصدر السابق ، ح ٢ ص ٥٢٦ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٥١٥ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ،
ج ٢ ص ٢٣٩ ، والذهبي : سر النبلاء (مصورة) ج ١٢ ل ٢١٨ .

(٣) الذهبي : سر النبلاء (مصورة) ج ١٢ ل ٢١٨ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٤٩٤ .

(٥) ياقوت : ارشاد الأريب ، ج ٧ ص ٢٨١ .

الاقتصاد» (١) في النحو والصرف ؛ وقصيدة في اللغة أسمها « الضادبة » تشمل على الكلمات التي تقرأ بالضاد . وما عداها نقرأ بالظاء . وهى متروحة شرحاً وجزأ ، وأولها قوله :

خُذْ من الضاد ما نداوله الناس ، وما يكون عنه اعياض
وهذه القصيدة ما تزال مخطوطة (٢) .

عثرنا على نص القصيدة المذكورة في رسائله بغير شرح . وقد ذكر انه نظمها في آسد سنة ٥٠٧ هـ . وانه جمع فيها أكثر ما نطق به الناس من حرف الضاد الجارية في اللغة العربية (٣) .

كما تضمنت رسائله أبياتاً نجمع التهور والأناج نظمها سنة ٥٢١ هـ (٤) ، وأبياتاً أخرى افترحها عليه طاووس الحرمين . تنقط جميع حروفها ، فتحاشى ذلك لأنه لا يكون إلا مكلفاً (٥) .



-
- (١) السكي : طبقات الشافعية ، ج ٤ ص ٣٢٢ .
 (٢) الزركلي : الاعلام ، ج ٩ ص ١٨٤ .
 (٣) رسائل الحصكفي ، (مخطوط) و ١٣١ .
 (٤) رسائل الحصكفي ، و ٢٤٨ .
 (٥) رسائل الحصكفي ، و ١٦٠ .

القسم الثاني

نثره ومذهب الفني

(١)

فنون نثره

لا شك أن الخطيب الحصكفي يمثل مرحلة هامة من مراحل تطور النثر الفني في هذا العصر بعد أبي العلاء المعري ، وقد أنار إلى ذلك الأستاذ الدكتور شوقي ضيف في معرض حديثه عن تصنعه وتعقده ، فذكر أن نثره « ينساق جملة في طريق أبي العلاء ، وحتى ما عند أبي العلاء من تساؤم نجده عند الحصكفي ، وقد أهّل له تشييعه ، كما أهلت له وظيفة الخطابة ، وما تجر إليه من وعظ ديني » (١) . يؤيد هذا القول ما نلاحظ من تشاؤم في الرسالة التي سماها الكدرية ، وقد تخيل فيها حواراً جرى على لسان قطاتين تتناجيان ، إحداهما أسيرة « كدر البين متسار بها ، وأبهم الحين مساربها ، عضها بالسخط ولم تخط ، وغضها بالسجن ولم تجن ، تصبح كالكمة بضيق القبة » وتانيتهما طليقة « سقطت خيالها » وانكرت حالها « (٢) » .

نلاحظ أن الحصكفي حاول في رسائله المخلفة أن يتصل بمشاهير أدباء عصره ، وكان يتخذها في بعض الأحيان ذريعة بعرب فيها عما في نفسه من تأملات وخواطر ، وهكذا نستطيع أن نبين في نثره الفني غرضين اثنين . أما أولهما فهو نثره العام ، وكان يرسل به أسدقاءه ، نذكر من ذلك

(١) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص ١٥٢ .

(٢) العباد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٥٢٨ .

رساله المعروفة بالصورية (١) . وقد كتب بها عند دخوله آمد إلى الشيخ أبي الحسن بن سعيد بن بكرون بسندعى بها الفاظه . ونظهر أن هذا النوع من الرسائل كان صورة عن الصلة الأدبية بين أدباء العصر . كما كان أكبر الأدباء ينطق بلسان جماعته بدليل أنه ذكر في مطلع الرسالة المذكورة أن ابن بكرون فسر أكثر الفاز الرسالة « . واجابه عنها برسالة شحنها الفاز حسب اقتراح الجماعة ليكون بينهم يتحاجون بها يجد منها وبهزل أيضا » (٢) . ومن ذلك رسالته الى افستح بها جواب اسامة بن منفذ . وقد ابتداء بمكاتبه يتشوق بها إليه . ويستدعي الفاظه (٣) .

أما نثره الذاتي فنلاحظه في بعض الرسائل التي أنشأها لنفسه ، نثير من ذلك إلى الرسالة التي وضعها بغير نقط (٤) أنشأها في شهر سنة ٤٩٧ هـ ، وبظهر أنه كان بتكلفها لبرز معدته في العتب بأساليب النثر المختلفة ، وجاء فيها قوله :

« ميم عراه الملل ، وما عداد الأمل ، حرس الله سموه ، وأدام علوه ، وحاطه وكلاه ، وأكرمه ورعاه . وما أحال العهد - والله - دهر ، ولا كدر صحتة الموده أمر . ولا أعلم حالا أحل الصدلها ، وطل الدم الحرام طلتها ، وما لمؤمله بعده سواه ، ولا عمدته إلاه ، حل محل الروح ، والدمع أماره الطموح ، أطاع حاسدا أكمده الله ، أم صار ملك حدسه وهواه » .

نلاحظ أن الحصكفي في هذين الفنين يبتعد شوطاً بعيداً عن العاطفة الإنسانية ويقلب عليه النصنع الذي كان نمرة الإجهاد الفكري .

(٢)

مذهب الفسني

سلك الحصكفي في كل رسائله وخطبه الأسلوب المسجع ، وتكلف

(١) رسائل الحصكفي ، و ٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، و ٥٦ .

(٣) المصدر السابق ، و ٢٤٨ .

(٤) المصدر السابق ، و ١٢٢ .

مخلف الصور البيانية والزخارف البدعية. وقد أعجب القدماء كل الإعجاب بهذا الن صنع في النثر العربي . إذ إنه يعد دلالة على الم فة الفنية في صوغ الأساليب وتعقدها وتقاس مكانة الأدب ومقدرته . بما يتفوق به من هذا المجال .

وصف العماد أسلوبه ، وتحدث عن صاحبه ، فذكر أنه « علامة الزمان في علمه ، ومعري العصر في نثره ونظمه » بل فضل المعري بفضله وفهمه ، وبذ الحريري برقة طبعه ، وقوة سجمه ، وجوده شعرد . وغزارة أدبه ، وانفراده بأسلوبه في الشعر ومذهبه . له الترصيع البديع والنجيس النعيس . والنطيق والتحقيق ، واللفظ الجزل الرقيق ، والمعنى السهل العميق والتقسيم المستقيم . والفضل السائر المقيم . والمذهب المذهب والقول المذهب والفهم النهم ، والفكر البكر ، والقافية الشافية . كأنها العافية . والمعيسة الصافية . والروي الروي ، الجامع في الوزن بين د والحزن ودر المزن . تود الشعرى أنها شعار سعره . والنثره أنها نثار نثره ، والزهرة أنها كوكب سمائه ، والمستري أنه مستري ثنائيه ، غنيت الغانيات عن قلائدهن بفرائده ، وأحبت الخصور أن توضح عوض مناطقها بدر منطقته ، وحسدت عيون الفواني عيون معانيه ، وغبطت أحداق الحسان أحداق محاسنه وحدائق قوافيه » (١) .

كما وصف العماد أيضاً أسلوبه في معرض ذكر أحد كتبه التي أعجب بها . وكان مؤلفه قد بعث به إلى مؤيد الدين بن الأنباري ، وجاء في وصفه : « كأنه الوشي المدبج ، والروض المبهج ، والديباج الخسرواني رونقا وجمالا ، والعضب الهندواني فرنداً وسقالاً . يجمع در النظام ودر الفمام ، ودراري الظلام في سلك الكلام ، وتعرب عرييته عن الغريزة الغزيرة ، والروبة الروية ، والذكاء الذكي ، والبيان الوائلي ، والخاطر الخطير ، والفضل الكثير ، والحكم المحكمة ، والفصاحة المفحمة ، بحروف للظرف ظروف ، ومعان للطف مفان ، وفصول للحسن فصوص ، وكلمات عذاب جزلة ،

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٧٢ .

كَلِمَاتٍ عِذَارِي جَنَلَةٍ ، وَالْفَاظُ سَاحِرَةٌ ، كَالْحَظِّ فَاتِرَةٌ « (١) ،

نلاحظ أن العماد بنسب من خلال وصف أسلوبه العام والخاص إلى أمور ثلاثة هامة ، ينصنعها في مذهبه الفني وهي السجع الجناس والإغراب .

أما السجع فإننا نلاحظ أنه كان يكثر من ضربه القصير ، كما في قوله :

« للقلوب من دون أستار الفيوب ، أطال الله بقاء القاضي ، حواس سلمت مطالعها وعدمت موانعها ، فلا يوقر سامعها ، ولا يعنى طامعها لأنها صفت فوصفت ، وسرحت فشرحت ، فهي تستمد القوى من أنوار ذواتها . وتلقاها من فيض أدواتها ، وتلك لأهل الأحوال وأنا منها على الأقوال . وأخرى تطالعها الأنوار من مظانها في مكانها ، وتتصل بها القوى لدى مساكنها من معادنها ، لأنها قصرت فنصرت ، وحصرت فبصرت » (٢) .

استخدم الحصكفي هذا النوع من السجع لأنه في عرف أرباب البلاغة أوعره مذهباً ، وأبعده متناً ولا . وكلما قلت الألفاظ كان أحسن لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع (٣) . فمن سجعه الذي تكلف فيه تقليل الألفاظ فواصله قوله : « ما كل عبرة نسفح . عن زفرة تلفح ، قلبى الوطيس . وتحن العيس ، وعندى اللالعج ، ونرزم النواعج ، فعد عن دفع النفاق ، ودعوى الإشفاق ، إنما كمون الداء ، حيث تنفس الصعداء » (٤) .

وأما الجناس فقد تصنعه وتكلفه . ليظهر براعته ومقدرته ، وقد أشار العماد في تقديم رسالة القصار والصيد إلى أنها مقامة مصنوعة مجنسة على الفضل والبراعة مؤسسه (٥) ، ويقول في مستهلها . « كنت لفرط

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٧٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٩٧ .

(٣) ابن الأثير : المل السائر ، ج ١ ص ٢٤٠ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٥٠٠ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥١٥ .

الهام في بعض الأبيام ، وصدري ضيق ، وفؤادي شيق ، فاجتزت في الخروج بعض المروج ، ودجلة قد نسلسل ماؤها . وصلصل حصباؤها ، وصفا شفقها وطفا غلفها . وسما حبابها ، وطما عبابها ، وغدا نونها ، وبدا مكنونها ، فوقفت أني على بارها . وأكاد بالدمع أبارها . أسفا على طيب المشاهد بتلك المعاهد » (١) .

نلاحظ تكلف الجناس في هذه المقامة بشكل واضح : ولم يكن الحصكفي يقتصر على الجناس العادي البسيط . وإنما « بجنح إلى الجناس الصناعي الملحق الذي تستخدم فيه الصور المعقدة » (٢) . أشار العماد إلى مقطع من رسالة له في التجنيس المنعكس ، وذكر أن كل كلمة فيه مستتقة من أختها « فالنفس بعقود التدرّع حالبه . ولعقود التعذر حائلة ، ومن الودائع المعجزة مالية ، وإلى الدواعي المزعجة مائلة ، وفي بحار الحمد رأسه . وفي رحاب المدح سائرة . نجمح إلى مواصلة القمر . وتحجم عن مفاولة القمر ، لتكف بإظفار الأمل ، وتفك بأظفار الألم ، فهل كامل يعني ومالك يعين ، ومقتصد يدني ومتصدق يدبن ، فالرغبة إلى الشهب من القرية في الشبه ، رغبة من قصد بالإلهام . مواقع السحاب الهام . وورد شريعته الإفهام لظماً بالإبهام » (٣) .

يلاحظ أن كل فاصلة قصيرة مسجوعة . يعبث بها تصنع البديع المنعكس ، فكل كلمة في السجعة الثانية مستتقة ومولدة من السجعة الأولى ، ويستمر على هذا الأسلوب في كل هذا المقطع من الرسالة المذكورة .

لم يكتف الحصكفي بما بلفه في أسلوبه من تكلف لفظي وسجعي ، وتصنع بديعي جناسي ، وإنما تجاوزه إلى المزيد من التعقيد في أسلوبه . فأنشأ خطبة أهمل فيها الحروف المنقوطة ، ومما قاله في مستهلها : « ألا مسدد أراد وصل الآراد ، ودوام مواصلة الأوراد . وأعد صلاة الأسحار ،

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥١٥ .

(٢) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص ١٥٣ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٤٩٧ ، ٤٩٨ .

لحصول صلة المحار ، وحاول دار السلام ومحل الإكرام ، دار سر أهلها ودأ مأكلا ، لا هم ولا هرم ، ولا علل ولا ألم (١) .

أوضح الأستاذ الدكتور شوقي ضيف « انه كان يتأثر بالحريري . كما كان متأثر بالمعري ، إذ نراه نغله في صنع رسالة سنية ، وأيضاً فإنه صنع رسالة ألفها من الحروف المهملة ، وليس ذلك كل ما نلاحظه عند الحصكفي من تأثر بالحريري ، فإن في رسائله رسالة فقهية . وقد فلد بها المقامة الفقهية عند الحريري وهي التي تسمى المقام الطبية » (٢) .

أما الرسالة السنية التي فلد بها المعري ، فقد كتب بها من حصن كيفا إلى قاضي آمد أبي على سعيد بن أحمد بن الحسن بن إسماعيل سنة ٥٠٩هـ ، واستهلها بقوله : « باسم السميع الساتر ، أسأل الله ممسك السماء . ومرسل الماء ، الحسن الأسماء ، حراسة مجلس سيدنا الرئيس ، السيد السيد النفيس ، فنفي سكرى بسلاف الأسي ، متماسكة لسوى بسوف وعسى » (٣) .

وأما الرسالة الثانية التي أنشأها بغير نبط ، فقد أوردنا بعضها فيما تقدم معنا من نثره ، واستهلها بقوله : « مما عراه الملل ، وما عداد الأمل ، حرس الله سمود ، وأدام علوه ، وحاطه وكلاه ، وأكرمه ورعاه » (٤) .

أما الإغراب فكان صفة مميزة نالته تميز بها تصنعه في مذهبه الفني ، فهو يتكلف استعمال غرائب الألفاظ ونواردها في نثره ، كما فعل في إحدى مقاماته ، فادخل فيها مائة وأربعين كلمة غريبة (٥) . وهو يتكلف الإغراب في الأسلوب ، فيخلق صلة بين الشعر والنثر ، فهو كلام منشور إن قرئ طرداً ، وكلام منظوم إن قرئ عكسا ، كما ورد في رسالة القصار والصيد :

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ .

(٢) سوفى ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٣) رسائل الحصكفي ، و ١٠٩ ، ١١٠ .

(٤) المصدر السابق ، و ١٢٢ .

(٥) المصدر السابق ، و ٥٠ .

« ثم إن الشيخ رجع ، فنثر بعد الإنشاد وسجع ، وذكر كلمات استغريتها ، واستعدتها منه وكتبها ، وهي : الأيام تكدر ، لكن المرء يقدر ، أحلام سعودها ، دار المين وعودها . فقلت : أراك قد تكلفنها ، ففيم هكذا الفتها ؟ قال : لأنها در منظم إن قلبت . وشعر منظوم إن قلبت . وشحنتها بزينتين ، وصححتها كل بيت من قرينتين » (١) .

لو قلبت ، فقرئت عكساً لكاتب — كما قال — قصيده من بحر المجت ، مؤلفة من اثني عشر بيتاً :

يَقْدَرُ المرءُ لكنْ تَكْدُرُ الأَبْسامُ
وعودها المين دارٌ سعودها أحلامٌ (٢)

هكذا نلاحظ أن العماد الكاتب كان يحاول أن يجعل معانيه مرتبة ، وكان يغلب عليه في أسلوبه الحجة والمنطق . أما الانفعال العاطفي ، والصور الذاتية فكانا يتضاءلان كثيراً في أدبه .



ننتهي من دراسة نثره الفني ومذهبه الأدبي لنؤكد أنه كان يمثل مرحلة تطورية في أسلوب التصنع . ونؤكد من خلال ذلك أنه كان نقطة تحول وانطلاق في النثر العربي نحو التعقيد والتصنع الشديدين .

هكذا كان صلة وصل بين السابقين واللاحقين . وقد استطاع بما تعمده من تكلف أن يسير قدماً في الطريق التي مهدها له من قبله المعري والحريري ، وهو بدوره ينشق الطريق لمن جاء بعده كالقاضي الفاضل وابن سناء الملك والعماد الكاتب .

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٥٢١ .

(٢) جاء في هامش الخريدة تعليق الاساذ الدكتور شكرى فيصل ، وهو قوله : « مؤول الى أن يكون قصيدة مؤلفة من اثني عشر بيتاً ... والى ذلك الإشارة في قوله بعد : « وأت في عدة النقا » مسفيداً من الآية الكريمة : « ولقد أخذ الله ميتاق بنى اسرائيل ، وبعضنا منهم اثني عشر نفياً » هامش ١٠ ص ٥٢١ .

العماد الكاتب

(٥١٩ - ٥٩٧ هـ = ١١٢٥ - ١٢٠١ م)

القيس الأول

حياته وأثاره

(١)

مراحل حياته

في أصفهان ، ولد عماد الدين ، أبو عبد الله ، محمد بن محمد بن حامد بن آله (١) ، المعروف بابن أخي العزيز (٢) ، يوم الاثنين ناني جمادى الآخرة سنة ٥١٩ هـ (٣) .

نال العماد ثقافته الأولى ، وأتقن العربية والفارسية ، لكنه لم يطل فيها مقامه ، لأن السلاجقة قتلوا عمه عز الدين ، فاستدعى الخليفة الرشيد أباه صفى الدين ليوليّه الوزارة ، فتعلل عليه (٤) لأنه كان يخاف شر

(١) ضبطها ابن حلكان بفتح الهمزة وضم اللام (وفيات الأعيان ، ج ٤ ص ٩٧) ، وضبطها بروكلمان بعد الهمزة وضم اللام (Brok. Sl : 532) . وضبطها السبكي بضم الهمزة واللام (طبقات الشافعية ، ج ٢ ص ٧٤) ، واختار الأساذ الدكتور شوفي ضبط في مقدمه للسم المصري من الخريدة الرأي الثالث (خريده العصر ص ٤) واختار الأساذ محمد بهجت الأثرى في مقدمته للتسم العراقي من الخريدة رأي ابن حلكان (الخريدة ، قسم شعراء العراق ، ج ١ ص ٩) . وهي لفظة فارسية معناها العقاب .

(٢) نسب العماد الى عمه المرير ، وكان مقدماً في العهد السلجوقي ، لكن السلطان محموداً قبض عليه بهمدان ، وصادر أمواله . وبض عليه مرة ثانية بالعراق ، وحبس بقلعة بكرت ، وصل فيها ، وقد حاول الأمير نجم الدين واخوه أسد الدين شيركوه الدفاع عنه ، لكنهما لم يفلحا في انتقاده من السوب .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ج ٢ ص ٢٣٠ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة : قسم شعراء العراق ، ج ١ ص ٣٤ .

السلاجقة الذين لم يتورعوا عن إلحاق الأذى بعمه وأبيه ، وصادروا أموالهما ، فلما أطلق سراحهما قرر والده أن يرحل بأسرته إلى بغداد ليعين في حماية الخليفة المقتفي سنة ٥٣٤هـ ، وكان ابنه العماد إذ ذاك في الخامسة عشرة من عمره ، وهو ينحدر من سلالة أسرة فارسية عربية ، كان سرواتها يتولون في أصفهان وغيرها أهم المراتب السياسية والعلمية . وغريب جداً أن ينسبه ابن العوطى في مجمع الآداب إلى فريس . ثم يأتي الأستاذ محمد بهجت الأنري . فينابعه على رآيه ويقول : « فإذا صح ما ذكره ، ولا إخاله إلا صحيحاً . كان هذا البيت في الصميم من النسب العربي » (١) .

نلاحظ أن الناقد المذكور يشك حيناً . ثم تبني شكه ويخال أن نسبه عربي ، وليس بصحيح البتة .

دخل المدرسة النظامية المشهورة ، وتفقه فيها . ونعف علوم اللغة العربية ، واشتغل في إفليدس (٢) . أشار العماد إلى هذه المرحلة من حياته فقال : « اجتمعنا في بغداد في المدرسة النظامية سنة ست وثلاثين شريكين في الفقه موسومين بالإعزاز عند شيخنا ابن الرزاز » (٣) . وكان العماد قد أشار أيضاً إلى وصوله إلى بغداد واستقراره فيها بقوله : « وكان وصولي إلى بغداد في الأيام المفتوبة وفي ظلها المنسأ ، وفي فضلها المربى وفي جوارها حصل الأمن ، ووصل المن ، وبخدمتها عرفت ، وبنعمتها تعرفت . وفي جنايبها حلا الجنى ، وعلا السنا » (٤) . كما انتسب للمدرسة الثقتية (٥) . وقد أقام بها « ثلاث سنين للتفقه » (٦) .

هكذا أنفق العماد أيام شبابه في بغداد مكباً على التحصيل والدرس

(١) العماد الكاتب : الخريدة : قسم شعراء العراق ، ج ١ ص ١٠ .

(٢) الصد والساق ، ج ١ ص ٣٦ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة : ج ٢ ص ٢٣٠ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء العراق ، ج ١ ص ٣٦ .

(٥) نفع على شاطئ دجلة ببغداد تحت دار الخلافة ، بناها ثقة الدولة بن الدريني ، وهو من أركان دولة المقتفي ، وسلمها إلى الشيخ شرف الدين يوسف الدمشقي .

(٦) العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء العراقي ، ج ١ ص ١٤٥ .

في أشهر مدارسها ، وكان ينقل في حلقات العلماء سعيًا وراء المعرفة والتعلم . وصف دأبه وجده في المراحل الأولى من حياته بقوله : « وكنت مع صفري كبر الهمة ، كثير الاهتمام بإنات أبيات تنشد ، وتطلب ضالة فاضل تنشد ، أوتر سماع ما يؤثر عنهم رواية ، واختار كتب ما أسنحسنة حديثاً ونظماً وحكاية » (١) .

بدا له بعد استكمال ثقافته أن يعود إلى أصفهان صحبة أبيه سنة ٥٥٢ هـ « عقيب انكشاف كربة الحصار برحيل محمد شاه عن بغداد » (٢) ، وقد صرح الخليفة بعقيده أسنحسها كثيرا ، وكانت سبله إلى المستقبل الذي ينتظره .

وصف العماد حياته في هذه المرحلة بقوله : « ووليت بعد ذلك الأعمال الجليلة ، ووليت بواسط نيابة وزيره معين الدين بن هبيرة ، فأنحدر إليها الخليفة مع الوزير ، وأنا هناك في دست التصدير ، فخرجت للاستقبال وجئت أسمى معفرا خد الضراعة ، موغراً حيد الطاعة ، فلما بصر بي الإمام أمسك عنانه فوقف ، واسنوقف موكبه الشريف وشرف ، فلم يبرح حتى وصى الوزير بي ، وعرفه بمتي ومحتدي وحسبي » (٣) .

كان العماد إذا موضع نقّة الوزير المذكور ، فأضاف له الهمامية من أعمال واسط ، ثم ناب عنه في البصرة سنة ٥٥٧ هـ . بقي العماد على عمله حتى وفاة مولاة الوزير وأعوانه ، فأخذ يستعطف الخليفة المستنجد بالله ، وكتب إلى عماد الدين بن عضد الدولة ابن رئيس الرؤساء ، وكان إذ ذاك استاذ الدار المستنجدية ، ومدحه بقصيدة ، فأمر بإطلاق سراحه وتوفير أرزاقه (٤) .

خرج العماد من سجنه ، وأقام مدة في عيتس منكدر ، ورأى أن يترك

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٤٧٣ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٣٠ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، نسّم شعراء العراق ، ج ١ ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٢ .

بغداد ولا سيما بعد أن سدت في وجهه سبل الرزق ، فوجهه إلى بلاد الشام ، وبلغ دمشق في شعبان سنة ٥٦٢ هـ في عهد حكم نور الدين (١) .

أشار العماد إلى ذلك ونوه بفضله ، وقال : « لما وصلت إلى دمشق سعى لي بكل نجاح وفتح عليّ باب كل منح » (٢) .

تعرف عماد الدين بادیء الأمر بقاضي دمشق ومدير أمورها كمال الدين ابن الشهرزوي ، فأنزله بالمدرسة النورية الشافعية عند باب الفرج (٣) ، وأكرم وفادته ، وكان يحضر مجالسه ، ويناقشه في بعض مسائل الخلاف والفروع ، ولما سمع الأمير نجم الدين والد الملوك الأيوبيين بقدمه سعى إليه ، وأسرع للقائه لأنه كان يعرفه من قبل ، وكان صدق عمه العزيز ، وهو الذي حاول إنقاذه بعد أن اعتقل في قلعة تكريت ، فسر العماد بقدمه ، ومدحه بقصيدة ، وتعرف صلاح الدين ، وكان هذا التعارف بدء مودة بينهما ، فأجبه وغدا أثراً لديه يلزمه في مجالسه الخاصة .

عرض كمال الدين على نور الدين أمر العماد ، فعدد عليه فضائله ، ونوه بذكره عنده ، وأهله لكتابة الإنشاء في الديوان بدمشق ، قدم له قصيدة في مدحه فرتبه منشئاً عوضاً عن كاتبه أبي اليسر شاکر بن عبد الله المعري سنة ٥٦٣ هـ ، وكان الكاتب المذكور قد استعفى من الخدمة ولزم بيته . أشار العماد إلى ذلك بقوله : « فلما توليت كتابة نور الدين ، وجئت في صحبته إلى حلب سنة ثلاث وستين ، في زمن الشتاء الكالح ، والبرد القارح والقر النافح ، كتبت إلى الشيخ ابن أبي عصرون (٤) أياتاً » .

ويظهر أن العماد تهيب دخول ديوان الإنشاء بادیء الأمر لأنه لم يتعود أساليب كتابة الإنشاء الخاصة ، وقد وصف حاله يومئذ ، فقال : « فيقيت

(١) الذهبي : سير النبلاء (مخطوطة مصورة) ج ١٢ ل ٧٩ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٣٢٤ .

(٣) النعماني : المدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٢٠٨ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ٢ ص ٣٥٢ .

متحيراً فيما ليس من شأني ولا وظيفتي ، ولا تقدمت لي به دراية (١) .
 بيد أن ثقافته الواسعة ، وتمكنه من الكتابة ، وتقته بنفسه ، جعلته يجيد
 كل الإجازة ، فينال اسنحسان سادته وإعجابهم ، ولا سيما أنه كان
 ينشئ بعض الرسائل الهامة باللغة الفارسية (٢) فيجيد فيها كل الإجازة
 كما يجيد اللغة العربية نفسها .

علت منزلة العماد لدى نور الدين ، وصار مدبر أمره ، فلما وجه
 أسد الدين إلى مصر للمرة الثالثة صحبه ، كما سيره رسولا عنه الى المستنجد
 بالله ، وناب عنه في المثل بين يديه . فوض إليه بعد عودته التدريس
 في المدرسة النورية الشافعية سنة ٥٦٧ هـ وقد دعيت فيما بعد باسمه
 لكثرة إقامته بها وتدرسه فيها (٣) ، كما كانت له حلقة خاصة بجامع
 دمشق للمناظرة .

زاد نور الدين رتبته ، فجعله مشرفاً عاماً على الديوان سنة ٥٦٨ هـ
 بالإضافة الى عمله في ديوان الإنشاء والتدريس في المدرسة النورية ، وقد
 بقي في هذه المنزلة الرفيعة حتى وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ هـ .

خلف الصالح إسماعيل أباه نور الدين ، وكان حدناً ، فاضطرب أمر
 ملكه ، وعبثت به جماعة أوصيائه ، وكان العماد غير راض عن تصرفه
 وبخاصة بعد أن جردوه من وظائفه ، ولم يبقوا له إلا الكتابة في الديوان ،
 ولم يكتفوا بذلك ، بل أخذوا يضايقونه ويتهددونه ، وأكرهوه على التخلي
 عما بيده ، فقرّر أن يسافر إلى بغداد على الرغم من مرضه ، واضطر
 أن يتوقف في الموصل بعد أن بلغ به المرض مبلغاً حمله على البقاء فيها
 والإخلاد الى الراحة .

وسرعان ما جاءت الأخبار عن خروج صلاح الدين بجنده من مصر ،

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ص ٧٤٠ .

(٢) الذهبي : سير النبلاء (مخطوطة مصورة) ج ١٣ ل ٧٩ .

(٣) النعماني : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ١١٦ .

فثنى عزمه عن متابعة السبر ، وعاد ادراجه سنة ٥٧٠ هـ ، وكان السلطان إذ ذاك على حصار حلب ، وما لبث حتى أدركه ، واجتمع به في قلعة حمص ، ومدحه بقصيدة طويلة ، وبقي يلزمه في حلقه ونرجاله ، وينشده في كل مناسبة غر قصائده ، ويذكره ملمحاً ومصرحاً بصدائقه القديمة .

يظهر أن السلطان تجاهل بادئ الأمر صديقه العماد ، إذ إن منافسيه ، زينوا له أنه يطمح إلى منصب القاضي الفاضل نفسه ، بيد أنه لم يكف عن سعيه ، واتخذ من ابن مصال المصري شفيعاً له لدى القاضي الفاضل نفسه ، وكان من أعيان الأمراء الأيوبيين ، وأقرب الناس إلى صلاح الدين ، فدخل عليه القاضي الفاضل ، وعرض عليه أمره ، وبتن له محاسنه ، ولا سيما أنه يجيد اللغة الفارسية ، وديوان السلطان بحاجة إلى من هو مثله في حاشيته ، فقبل رايه ، ورسم باستكنايه ، وأصبح في منزلة مرموقة لأنه أصبح الوزير الثاني ينوب عن السلطان في بلاد الشام ، فكان القاضي الفاضل ينقطع بمصر لمهمات ، فيسد العماد في الخدمة مسده (١) .

حفظ العماد جميل القاضي الفاضل ، وقد نوه بذكره في الفتح القدسي عندما أقبل إلى بلاد الشام : « وفي هذا الشهر كان قدوم القاضي الاجلّ الفاضل ، رب الفضائل والفواضل من مصر ، فأشرقت المطالع ، وأشرقت الصنائع ، وبشرت المطالب بنجاحه ، وغزرت المواهب بسماحه ، وغابت بحضور مكارمه المكاره ، ونزع بلبسة أفضاله لباس الخمول ذو الفضل النابه ، وأعاد روح السلطان بإعادة الروح إلى سلطانه ، وسر بمكانه ، واقترن إحسانه بإحسانه ، وظهرت في وجهه به الطلاقة ، وفي قلبه العلاقة ، وروى رايه بري رايه ، وتلقن آيات النصر من نص آيه ، وانتعش عشاري بمقدمه ، وانتقش خط فخاري بكرمه ، وحلى عطلى ، وحيا املي ، وقوى عملي ، ووضع منهاج مناي ، وصح مزاج غناي ، ونبه قدري ، ونوه بذكري ، وسعى في رفع رتبتي ، وزيادة راتبتي ، وسن غربي ، وأسنى غاربي ، وأقرني وقربني ، واستكملت الخطوط بالخطوط ، كما كان استكتبني ، فعشت ونعشت ، وفرشت بساط الغنى فرشت ، ولولا أنني

قويت به لأقويت ، ولولا أنه أولاني عارفته لما عرفت و لا توليت ، فانا شاكر -
نعمه عمري ، وعامر كرمه بشكري « (١) .

بقي العماد في هذه المكانة الجليلة حتى وفاة مولاه صلاح الدين سنة
٥٨٩ هـ ، فكتب من بعده لابنه الملك الأفضل نور الدين علي ، أكبر أبنائه
الذي تولى الملك مكانه ، وكان يملك دمشق ، وما يتبعها من البلاد بالإضافة
إلى الطراز الأخضر الساحلي .

تحدث العماد الكاتب عن الملك الأفضل وأشاد بمكانته عنده ، وأشار
إلى حاجته وافتقاره إلى معرفته وأدبه ، ومما قاله : « تولى الملك الأفضل
بدمشق مقام أبيه ، وقام بالأمر بعزم تأتية ، وحزم تأتية ، وعز تأتية ،
فعرف افتقاره إلى معرفني وفقرني ، وإلى عطل الملك ومحل من غزارة
حلب دري ونضارة حلب دري ، فكتبت له ، وحليت من الملك عطله ،
ووشيت الكتب ووشعتها ، وحليت الرتب ووسعتها ، وهززت اليراعة ،
وهجرت الجماعة ، ولزمت القناعة » (٢) .

يلاحظ أن العماد اقتصر في عمله على الكتابة ، لأنه رأى الدسائس
والمؤامرات تكتنف البيت الأيوبي المالك في دمشق ، ولا سيما أن الملك
الشاب اتخذ ضياء الدين بن الأثير وزيراً له ، وأوكل إليه كل شيء من
أمر الدولة ، ولعله كان يريد الانفراد بالسلطان وإبعاد الأمراء وأكابر الدولة
عن أمور الملك ، وساعده في متابعة هذه الخطة أنه رآه راضياً عنها ،
ففارقه قسم كبير من أمراء أبيه بعد طردهم إلى أخويه : الظاهر ملك حلب ،
والعزيز ملك مصر .

لم يرض العماد بالبقاء في عمله بعد تجريده من معظم وظائفه الهامة
التي كان يشغلها منذ زمن بعيد ، وآثر الارتحال ، فاستأذن ملكه بالذهاب

(١) للعماد الكاتب : الفتح القدسي ، ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٥٦ .

إلى مصر ، فوافق على ذلك ، وحمله رسالة الى أخيه . وهكذا يدخل العماد للمرة الثانية ، ويؤنر الإقامة فيها والإخلاق إلى السكينة في أواخر حياته

كان الخلاف يشتد بين الأخوين ملكي مصر والشام ، وساءت الأمور بينهما ، فقرر العزيز أن يقوم بحملة بمساعدة عمه العادل سنة ٥٩٢ هـ لعزل أخيه وطرد وزيره ابن الأثير .

وجد العماد الفرصة المناسبة للعودة إلى دمشق صحبة هذه الحملة ، ويظهر أنه قرر في هذه المرة اعتزال العمل الديواني ، والعكوف على التصنيف والتأليف ، بعد أن استلم الملك العادل دمشق نيابة عن العزيز .

وبدا له أن يرحل إلى مصر للمرة الثالثة صحبة الكامل محمد ، إذ إن إياه الملك العادل استدعاه إلى مصر ليستنيبه عنه سنة ٥٩٨ هـ ، ولكن سرعان ما انتشر في هذا العام الوباء والجوع ، فهرب العماد مع من هرب إلى بلاد الشام .

بلي في أواخر عمره بابل شكر ، وقاسى منه مهانات كثيرة (١) ، ولا نعرف على الضبط سبب هذه العداوة الشديدة ، لكنها كانت عاملاً من عوامل شقائه في ختام حياته الحافلة .

لم يلبث إلا قليلاً بعد عودته حتى وافته منيته بدمشق ، يوم الاثنين في مستهل شهر رمضان سنة ٥٩٧ هـ ، ودفن خارج باب النصر بمقابر الصوفية .

(٢)

آثاره الأدبية

لم ينشغل العماد الكاتب في حياته الحافلة بالأعمال الرسمية كل الانشغال ، فينصرف عن التصنيف ويعزف عن التأليف ، وإنما عكف على إنجاز ما فكر فيه أو ما أتمه في أواخر حياته . وله مؤلفات متعددة نثرية وشعرية ، فمن آثاره النثرية :

(١) الذمبي : سير النبلاء (بصودة) ج ١٣ ل ٨٠ .

١ - خريدة الفصر وجريدة العصر : لا شك أن هذا الكتاب ألهم مصدر رئيسي من مصادر بحثنا ، وهو أحدث كتب ثلاثة أرخت القرن السادس الهجري ، فقد انان منها ، وهما « زينة الدهر » للحظري الوراق (المتوفى سنة ٥٦٨ هـ) و « وشاح الدمية » للبهقي (المتوفى سنة ٥٦٥ هـ) ، ولم يبق إلا كتاب خريدة القصر ، يمد الباحثين بأشياء كثيرة هامة عن هذا العصر الذي نؤرخه . ومما يجب أن نشير إليه أن الكتاب المذكور حلقة من سلسلة كتب تناولت التاريخ الأدبي في مختلف عصور اللغة العربية ، وقد ذكر ابن خلكان أن العماد جعل كتابه خريدة القصر ذيلاً على « زينة الدهر » للحظري الوراق المار ذكره ، والحظري جعل كتابه ذيلاً على كتاب « دمية الفصر وعصرة أهل العصر » للباخرزي (المتوفى سنة ٤٦٧ هـ) ، والباخرزي جعل كتابه بدوره ذيلاً على « يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر » للثعالبي (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ) والثعالبي جعل كتابه ذيلاً على كتاب « البارع في أخبار السعراء المولدين » لهارون بن علي المنجم (المتوفى سنة ٢٨٨ هـ) . أما الذين جاؤوا بعده ، فقد تابعوا هذه السلسلة من المؤلفات ، تكتفي بالإشارة إليها . ولعل إيمانهم بوحدة التاريخ الأدبي في العالم الإسلامي كله ، هو الذي حفزهم على هذا التأليف الموسوعي الذي أغنى أدبنا كل الفناء .

مهما يكن من أمر فجدير بالذكر أن العماد تحدث في مقدمة كتابه عن البواعث التي حثته على تأليفه ، فذكر أن الباعث الأول هو ذكر الشعراء المعاصرين لعمه عز الدين لأنهم « ما فيهم إلا من أم قصده ، وطلب رفده ، ووفد عليه بمدحه ، واسترفده من منحة » (١) ، كما ذكر أنه أراد بهذا الكتاب إحياء ذكرهم ، إذ إنهم خصوا عمه بمدح كثيرة مجموعة في مجلدات كثيرة ، نهبا العدو عندما نكبه . غير أنه لم يقتصر على الشعراء الذين وفدوا على عمه ، وإنما وجد من واجبه أن يكون جامعاً لمشرق العالم الإسلامي ومغربيه على السواء . ورأى ضرورة تخليد هذه الفترة الهامة من

(١) العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء العراق ، ج ١ ص ٧ ، ٨ .

التاريخ الإسلامى ، ومما قاله : « لما رأيت الفضل في عصرنا هذا قد ضاع عرفه ، كما أنه ، وإن زان ضعفه فقد زاد ضعفه ، لفساد أمره ، وكساد سعره ، وهبوط نجمه ، وسقوط رسمه ، وحط حظه ، وقلة عناية أهله بحفظه ، آثرت أن آثر من مآثر أهل العصر ما يخلد آناهم ، ويجدد منارهم » (١) .

ذكر العماد في الخريدة أهل عصره ، وأهل عصر آبائه وأعمامه (٢) ، « من الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة » (٣) . وقسمهم بحسب أقاليمهم إلى أربعة أقسام : تحدث في القسم الأول منها عن شعراء العراق وأدبائه ، لأنه « مزكى عرقه ، ومنشأ حقه ، وموطن أهله ، ومجمع شمله » (٤) . وتحدث في القسم الثاني عن شعراء العجم وفارس وخراسان ، وفي الثالث تحدث عن شعراء الشام والموصل وجزيرة بني ربيعة وديار بكر وما يجاورها من البلاد ، والحق به شعراء الحجاز وتهامة واليمن ، وفي الرابع تحدث عن شعراء مصر وأعمالها وبلاد المغرب والأندلس ، وابتدأ فيه بذكر مصر لامتزاجه بأهلها ، وابتهاجه بفضلها (٥) .

يلاحظ في هذا التقسيم أن العماد قصر كل قسم على عدة أقاليم إلا الأول فقد قصره على واحد . لم يكن تقسيمه موضوعياً ، لأنه لم يكن صورة عن الحياة السياسية والاجتماعية في هذا العصر .

حكم سلاطين الدول الثلاث المتتابعة مصر والشام ، وكانتا تؤلفان أوثق وحدة فكرية شاملة في تاريخهما القريب والبعيد ، وكان من حقنا على العماد ، وهو الوزير الأول في عهد نور الدين ، وناني اثنين في عهد صلاح الدين ، أن يجعل تقسيمه للحياة الفكرية صورة صادقة عن الحياة السياسية .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢ ، ٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٧ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٧٥ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء العراق ، ج ١ ص ٨ .

(٥) العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ص ٢ .

٢ - السيل على الذيل : وهو ذيل خريدة القصر السابق ذكره ، اطلع عليه ابن خلكان ، ونفى ما كان معروفاً عنه أنه كان ذيلاً على الذيل لابن السمعاني ، وقد سماه مرة « السيل » (١) ، وثانية « السيل والذيل » (٢) ، وثالثة « السيل على الذيل » (٣) .

٣ - نصره الفترة وعصره القطرة : يدور موضوعه حول تاريخ السلاجقة ووزرائهم ، وهو في الأصل تاريخ فارس لشرف الدين أنوشروان اسمه « فتور زمان الصدور » ، وصدور زمان الفتور » (٤) وقصد منه مؤلفه التشفي والانتقام ممن أورد ذكرهم . ترجم العماد هذا الكتاب من اللغة الفارسية ، وأضاف عليه ما وجده ناقصاً من بدء العهد السلجوقي ، واستهله بوزارة عميد الملك أبي نصر الكندري (٥) ، ثم وصله بمبتدأ أنوشروان ، فتحدث عن السلاجقة حتى دخول السلطان طغرل سنة ٤٤٧ هـ ، وانتقل إلى ذكر من جاء بعده حتى وفاة السلطان أرسلان (٦) .

٤ - كيمياء السعادة : ترجم العماد هذا الكتاب خلال وجوده بمصر من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية سنة ٥٧٦ هـ ، وهو من تصنيف الإمام أبي حامد الغزالي ، وذلك لنلبية طلب القاضي الفاضل . يقول العماد : « وفي هذه السنة بمصر عربت كيمياء السعادة ، تصنيف الإمام أبي حامد الغزالي في مجلدين ، وفزت من تعريبه وعلم ما فيه بسعادتين ، وذلك بأمر فاضلي لزماني امتثاله ، وشملني في إتمامه إقباله (٧) .

(١) ابن خلكان : وفیات الامیاء ، ج ١ ص ٥٣ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٧٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٧٥ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء العراق ، ج ١ ص ٧٤ .

(٥) زیدان : آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ٢ .

(٦) زیدان : آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ٦٢ .

(٧) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٢٠ .

٥ - الفتح القسبي في الفتح القدسي : وهو كتاب هام ، تحدث فيه عن انتصارات صلاح الدين ، واستهله بعام فتح بيت المقدس ، وختمه بوفاء محرره . يثن العماد في مقدمته أهمية الفتح القدسي في التاريخ الإسلامي ، وذكر مخالفته للمؤرخين القدامى الذين يتخذون من الهجرة الأولى بدء تاريخهم ، وقال : « وأنا أرخت بهجرة نابعة هي هجرة الإسلام إلى بيت المقدس » (١) . ثم أورد بعد ذلك سبب تسميته وذكر أنه عرضه بعد الانتهاء منه على القاضي الفاضل فقال له : « سمه الفتح القسبي في الفتح القدسي ، فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة فس وبلاغته ، وصاغت صيغة بيانه فيه ما يعجز ذوو القدرة في البيان عن صياغته » (٢) .

٦ - انبرق الشامي : وهو في سبع مجلدات ، وقد استهله بالتحديث عن حياته ، فذكر نشأته ورحلته من العراق إلى الشام ، واتصاله بنور الدين ، ثم بصلاخ الدين من بعده ، ومكانته عندهما ، وتعرض لبعض الفتوح في بلاد الشام وأطرافها (٣) . وختمه بقصيدة طويلة رثى بها صلاح الدين ، عددها مائتان واثنان وثلاثون بيتاً (٤) .

وصفه ابن خلكان بأنه من الكتب الممتعة ، وذكر أنه سماه « البرق الشامي لأنه شبه أوقاته في تلك الأيام بالبرق الخاطف لطيبها وسرعة انقضائها » (٥) ، ولا يعرف منه الآن غير الجزء الخامس ، وهو مخطوط بأكسفورد (٦) .

صنف العماد في أواخر حياته كتاباً أخرى تصور اضطراب الأمور بعد موت صلاح الدين ، نذكر منها كتابه « عتبي الزمان في عقبى

(١) العماد الكاتب : الفتح القدسي ، ص ٥ .

(٢) باقوت : ارشاد الأريب ، ج ١٩ ص ١٩ .

(٣) أبو شامة : الروشتين ، ج ٢ ص ٢١٥ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٧٥ .

(٥) بروكلمان : Brock. S. I. P. 549

(٦) أبو شامة : الروشتين ، ج ٣ ص ٢١٤ ، ٢٢٨ ، ٢٠٠

الحدثان « (١) ، و « نحلة الرحلة وحيلة العظلة » (٢) ، و « خطفة البارق وعطفة الشارق » (٣) ، وله من الآثار الشعرية ديوان كبير في أربع مجلدات كبيرة (٤) ، وقيل في مجلدين (٥) ، وهو مفقود الآن . لكن الذي استرعى انتباهنا وجود ديوان صغير آخر ، أشرنا إليه في بحث الفنون الشعرية المستحدثة ، و « جميعه دوبيت » (٦) ، وهو مفقود ، وقد طلب نور الدين منه أن يعمل دوبيتات في معنى الجهاد على لسانه (٧) .

بقي لنا من هذا الديوان ثلاث قطع شعرية في معنى الجهاد أوردها أبو شامة في الجزء الأول من الروضتين ، وقطعة رابعة في رثاء صلاح الدين ، أوردها في جزئه الثاني ، وقد تعرضنا لكل ذلك من قبل بالتفصيل .

يضاف إلى ما تقدم أن العماد جمع رسائله الديوانية التي انتأها باسم الملوك الأيوبيين في مجموع خاص سماه « رسائل بين الملوك الأيوبيين » (٨) ، وهو مخطوط في مكتبة نور عثمانية ، وفي معهد مخطوطات الجامعة العربية نسخة مصورة عنه .



-
- (١) ياقوت : ارشاد الأريب ، ج ١٩ ، وأبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٢٣١ .
 (٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٢٣ ، وبروكلمان : Brock. S. I. P. 549
 (٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٧٥ ، والنعمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٤١١ ، وأبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٢١٥ .
 (٤) المصدر السابق ، ص ١٠ .
 (٥) ياقوت : ارشاد الأريب ، ج ١٩ ص ٢٠ .
 (٦) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٠٧ ، وياقوت : ارشاد الأريب ، ج ١٩ ص ٢٠ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٧٥ ، والنعمي : الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٤١١ .
 (٧) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٠٧ ، و ج ٢ ص ٢١٤ .
 (٨) توجد هذه المصورة في معهد مخطوطات الجامعة العربية (ميكروفيلم) رقم ٤١٩ أدب .

القسم الثاني

شعره ومذهب الفتي

(١)

فنون نشره

يلاحظ أن نشر العماد الكاتب ينقسم إلى ثلاثة أنواع : النشر الديواني ،
والنشر الأدبي ، والتاريخ المسجع .

النشر الديواني

تحدثت عن تهيب العماد الكاتب دخول ديوان الإنشاء ، وبقائه متجبراً
فيما ليس من شأنه ولا وظيفته لأنه لم يسبق له به دراية ، ولكنه ما إن بدأ
الكتابة حتى فتح الله له أمامه سبلها ، ففاق المتقدمين .

أورد العماد الكاتب كثيراً من رسائله الديوانية في مختلف تصانفه التي
وصفها وبخاصة التأليف التاريخية .

نذكر من ذلك بعض ما جاء في رسالته التي كتبها إلى الديوان العزيز
في بغداد للبشارة بفتح بيت المقدس وبعث بها مع الرسول ضياء الدين
الشهروزي :

« وقد رجع الإسلام الغريب منه إلى داره ، وخرج قمر الهدى به من
سراره ، وذهبت ظلم الضلالة بأنواره ، وعادت الأرض المقدسة إلى ما كانت
موصوفة به من التقديس ، وأمنت المخاوف فيها وبها ، فصارت صباح
السرى ومناخ التعريس ، وقد أقصي عن المسجد الأقصى الأقصون من الله
الأبعدون ، وتوافد إليه المضطقون الأقربون والملائكة القربون ، وخرس
الناقوس بزلج المسيحين ، وخرج الفسدون بدخول المصلحين ، وقال

المحارب لأهله : مرحباً وأهلاً ، وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ، جمع الإسلام فيه شملًا ورفعت الأعلام العباسية على منبره ، فأخذت من بره أوفى نصب ، وتليت بالسنة عذبها : نصر من الله وفتح قريب ، وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين دنس المتركين ، وبعد أهل الأحاد من قربها بقرب الموحدين « (١) » .

لن نتحدث عن أساليب الرسائل الديوانية ، فلها مكانها من هذا البحث ، ونكتفي بالقول هنا إنها كانت ذات نمط موحد تقليدي ، يتقيد به كتاب الدواوين والموقعون .

النثر الأدبي

أوردنا في بحثنا نصوصاً مختارة كثيرة من تراجم الخريدة ، وقد أنشأها العماد بأسلوب واحد متشابه ، واستخدم في بعضها التعبيرات نفسها . كما لفظت نظرنا شدة تصنعه في نشره الأدبي فنراه يتكلف مختلف أنواع السجع والجناس والطباق وغيرها ، وسوف نوضح ذلك بالتفصيل لدى دراسة مذهبه الفني .

التاريخ المسجع

أوردنا أيضاً نماذج مختارة في وصف كثير من الأحداث الكبرى ، وقد لاحظنا أن العماد استخدم أسلوبه المسجع في مصنفاته التاريخية بشكل يلفت النظر ، كما في كتابيه « الفتح القدسي » و « البرق الشامي » ، وغايته من ذلك وصف الحوادث المعاصرة بأسلوب أدبي مسجع ، كيما تجتمع للقارئ متعتان بآن واحد : متعة معرفة الأحداث الكبرى المعاصرة ، ومتعة الاطلاع على براعته الفائقة في تصنع الأسلوب المسجع . عبر العماد عن هذه الحقيقة بقوله في مقدمة الفتح القدسي : « هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون إلى الفرر المتجلبة ، وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلى

(١) العماد الكاتب : الفتح القدسي ، ص ٥٨ ، ٥٩ .

السير المتحلية ، يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول ، ويكون حفظ المستخبر أن يسمع والأديب أن يقول ، فإن من الالفاظ ما صار معدناً من معادن الجواهر التي نولدها ، ومن غرائب الوقائع ما صار به لساناً من السنة العجائب التي نوردها « (١) » .

أما المستخبرون الذين يستنرفون إلى السير المتحلية ، فلم يعجبوا بصنيع العماد ، وقد عبر أبو شامة عن ذلك . وذكر لنا « أن العماد في كتابيه طول النفس في السجع والوصف ، يمل الناظر فيه ، وبذهل طالب معرفة الوفائع عما سبق من القول وينسيه ، فحذفت تلك الأسجاع إلا قليلاً منها ، استحسنتها في مواضعها . ولم نك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع ، وانتزعت المقصود من تلك الرسائل الطوال ، والأسجاع المفضية إلى الملل ، وأدت أن يفهم الكلام الخاص والعام » (٢) .

نذكر مثلاً أن العماد أنشأ فصلاً متعددة في الأسطول المصري حين مجيئه من مصر ، وكانت عدته خمسين شينياً ، وقد وصفه في أحد فصوله بقوله : « ولما رأينا امدادهم في البحر متضاعفة ، وجمعهم متكاثفة ، استدعينا الأسطول المصري المنصور ، فجاءها فجأة ، وامتد اسطراً على طرس البحر أعيت متأملها قراءة ، وأقبلت جواربه جوارح من قنائصها القوامص ، وصدمت شوانيه شواني السنة ، فعادت مراكبهم وهي نواكص ، وطارت غرباناً بين أحبة الكفر أعداء الإسلام ناعبة ، واطردت على طرائد الفرنج فطردها غالبية لا لغبة ، وظفرت أول يوم الورود بسفن للعدو معمرة ، والهبت في الماء على أهل النار كل نار للنكال مسعرة ، وانقطعت طرق الفرنج البحرية ، فاستطالت بها أساطيلنا فذهبت وجاءت وعملت ما شاءت ،

(١) العماد الكاتب : الفتح القدسي ، ص ٣ .

(٢) أبو شامة : الروستين ، ج ١ ص ٥ .

وتبعثهم مراراً وبالفنائم فاءت ، وأعشت أعين الرائيين كلما تراءت ، فضاقت بها العداة ذرعاً ، ولم تجد من بعدها مطمئناً ولا مرعى » (١) .

نكتفي بهذا القدر من عرض فنونه النثرية الثلاثة ، وسوف نوضح ما أوجزناه ، وما أشرنا إليه في بحثنا عن مذهبه الفني واتجاههم الأدبي .

(٢)

مذهبه الفني

اهتم العماد بالتصنع في معظم فنونه النثرية ، وعني بأسلوبه كل العناية كما هو معروف في هذا العصر ، وكنا قد ذكرنا أنه تقف علومه الأولى ببغداد في مدرستيها المشهورتين ، النظامية والثقتية ، وثقف أصول مذهب التصنع عن كبار أساتذته الذين تتلمذ عليهم . ومعروف عنه منذ صباه ولوعه بفن المقامات ، وبخاصة منها مقامات الحريري ، فقد ذكر عنه أنه لقي ابنه زين الإسلام بالمشان ، وسمع « عليه من مقامات والده أربعين مقامة » (٢) .

وكان معجباً كثيراً بالقاضي الفاضل ، يجله ويفضله ، لأنه الذي أفسح له السبيل من جديد بعد موت مولاه نور الدين ، وأظهر من الحذب عليه ما بعده مزيد ، فلا غرابة إن رأيناه يسهم مع مولاه في التقيد بالتصنع مثله ، ويسير بالمذهب الفاضلي خطوات جديدة إلى الأمام ومما قاله عنه : « فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت بها الصنائع ، يخترع الأفكار ، ويفترع الأبتكار ، ويطلع الأنوار ، ويدع الأزهار » (٣) .

تلك هي نظرة العماد إلى القاضي الفاضل الذي جعل لهذا المذهب مدرسة خاصة في البيان ، وكان فيها التلميذ النجيب الذي اختاره لأنه رآه أنجب من يأتنيه على متابعة السير بالأسلوب العربي في الطريق التي

(١) العماد الكاتب : الفتح القدسي ، ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء العراق ، ج ١ ص ٢٨ .

(٣) العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ص ٣٦ .

مهدّها له من قبل . وصف العماد بكل وضوح مذهبه في التصنع الأسلوبى في معرض حديثه عن رسالة بعث بها إلى القاضي الفاضل شكره فيها على إهدائه له تسع مجلدات من أشعار أهل المغرب ، ومما قاله : « وأنا مورد رسالة جامعة مانعة ناصعة ، قد وفيتها حقها من التجنيس ، والتطبيق والترصيع ، والمقابلة ، والموازنة ، والتوشيع » (١) .

يلاحظ في قوله إشارته إلى ألوان النصنع البديعي التي أخذ بها العماد نفسه في أدبه ، شعره ونثره ، وكل ما ذكره إنما هو بعض الألوان البديعة المعروفة التي كثر استخدامها في هذا العصر البديعي . ولو طالعنا كتاب الخريدة أو غيره لرأيناه يستخدم الفنون المذكورة ، وبخاصة الجناس والطباق في أسلوبه المسجع .

تحدث السبكي في طبقاته عن تكلفه الجناس والطباق وغيرهما في خريدته فقال : « ولقد فنح سمعي فوائح أبواب الخريدة ، لما يكثر فيها من الجناس ، ورد العجز على الصدر ، ولكن قد يقع له الجناس المطبوع » (٢) .

لاحظ الأقدمون التكلف الذي ظهر في أسلوبه ، وقد تحدث الصفدي عن هذا الأمر ، وذكر أنه كان يتضايق من الوزن الشعري في نظم القصائد (٣) ، لأنه يحول بينه وبين مبتغاه من الجناس بصورة خاصة . وجدير بالذكر هنا أنه كانت لشعره أهمية كبرى بالإضافة إلى نثره ، فقصيدته في فتح بيت المقدس تعد من روائع الشعر العربي ، كذلك مرثيته لصلاح الدين ، وعدد أبياتها اثنان وثلاثون بعد المائتين ، وقد سجل انتصارات صلاح الدين ، والغريب أنه كان يكثر في نثره من الجناس بخلاف الشعر .

ثمة مظهر آخر من مظاهر التصنع في الأساليب ، وهو ما يسميه البلاغيون « ما لا يستحيل بالانعكاس » . فمن ذلك ما ذكر عن العماد أنه

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٤ .

(٢) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٤ ص ٩٨ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٩٨ .

قال ذات مرة للقاضي الفاضل ، وهو راكب على فرسه : « سر فلا كما بك
الفرس » ، فأجابه : « دام علا العماد » (١) ، وهذا الأسلوب عرف في هذا
العصر وهو كما نرى ، يقرأ طرداً وعكساً .

نخلص مما تقدم معنا إلى القول إن العماد لم يكن نائب القاضي الفاضل
في بلاد الشام فحسب ، وإنما كان أحد أقطاب المدرسة البيانية الفاضلة
وكان من أنصارها المتشددين . وهذا يؤكد بمنتهى الوضوح أن هذا العصر
شهد وحدة أدبية كانت مرآة صادقة تعكس الوحدة السياسية القائمة ، ودليل
ذلك أن العماد ألح إلى ذلك في إحدى رسائله « فالخادم عراقي المنشأ والمربي ،
مصري المنحى والملجأ ، نصريّ العلاء ، فاضليّ الولاء » (٢) .

يلاحظ أن العماد يعبر عن الوحدة الأسلوبية في هذا العصر ، ويؤكد
بالمالي أن الأقاليم الجغرافية في العالم العربي لم تحل أبداً دون وحدة
أدبية ، ودون وجود مذهب بياني خاص ، هو نفسه في دمشق ، وفي القاهرة ،
وفي بغداد ، وفي غيرها من العالم العربي والإسلامي .

ونحن لن نأتي بجديد إن قلنا إن العماد الكاتب كان ركناً أساسياً في
مدرسة القاضي الفاضل ، وإنهما يمثلان معاً الوحدة الفكرية والتصنع
الأسلوبي في أدب هذا العصر ، وكلاهما كان معجباً بصاحبه يتباريان في مضمار
الإنشاء الديواني ، ويتعاونان في وضع أسس مذهب أدبي امتد أثره إلى زمن
بعيد جداً في أساليبنا النثرية في المشرق والمغرب على السواء .



(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٧٥ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ص ٥٢ :

ابن الأثير الكاتب

(٥٥٨ - ٦٣٧ هـ = ١١٦٣ - ١٢٣٩ م)

القنصل الأول

حياته وآثاره

(١) مراحل حياته

ولد الوزير صاحب أبو الفتح ، ضياء الدين ، نصر الدين ، نصر الله بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد النيباني ، الحراني (١) ، المعروف بابن الأثير الكاتب ، يوم الخميس العشرين من شعبان ، سنة ٥٥٨ هـ في جزيرة ابن عمر (٢) ، الواقعة أقصى الشمال الشرقي من بلاد الشام .

وهو أصغر أبناء الأثير الثلاثة بعد المبارك وعلي ، قضى طفولته الأولى في هذه الجزيرة ، وتحول عنها مع أبيه وإخوته (٣) ، فانتقل إلى الموصل ، ونشأ فيها ، وتلقى علومه الأولى ، فحفظ القرآن الكريم ، وروى الأحاديث

(١) المقرئ : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ١١٥ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ١٦١ ، وابن تنري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٣١٨ ، وابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص ١٣٦ ، والذهبي : سير النبلاء ، (مصورة) ج ١٣ ل ٢٢٧ ، ومقدمة المشل السائر ، ج ١ ص ٣ - ٣٢ .

(٢) بلدة فوق الموصل ، لها رساق مخصب واسع الخيرات ، شبه الهلال ، ثم ضل هناك خندق ، أجري فيه الماء فأحاط بها الماء من جميع نواحيها (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ١٢٨) .

(٣) الذهبي : سير النبلاء (مصورة) ج ١٣ ل ٢٣٧

النبوية الشريفة ، وقد أشار إلى ذلك بقوله : « وكنت جردت من الأخبار النبوية كتاباً يشتمل على ثلاثة آلاف خبر ، كلها تدخل في الاستعمال ، وما زلت أواظب على مطالعته مدة تزيد على عشر سنين ، فكنت أنهى مطالعته في كل أسبوع مرة ، حتى دار على ناظري وخطري ما يزيد على خمسمائة مرة ، وصار محفوظاً لا يشذ عني منه شيء (١) » . كما نال حظاً وافياً من اللقطة والنحو والبيان ، وحفظ كثيراً من دواوين الشعر ، يؤكد ذلك قوله « ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وانفدت شطراً من العمر في المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحراً لا يوقف على ساحله ، وكيف ينتهي إلى إحصاء قول لم تحصى أسماء قائله ، فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده ، وتتشعب مقاصده » (٢) .

ويبدو أن ابن الأثير رأى أن يختار عدداً محدوداً من الشعراء ممن يعجب بهم فيحفظ دواوينهم ، وذكر أنه عدل إلى هذه الطريقة نظراً واجتهاداً ، وقد أوضح لنا كل ذلك في كتابه الوشي المرقوم : « وكنت حفظت من الأشعار القديمة والمحدثة ما لا أحصيه كثرة ، ثم اقتصرت بعد ذلك على شعر الطائيين : حبيب بن أوس وأبي عبادة البحتري ، وشعر أبي الطيب المتنبي ، فحفظت هذه الدواوين الثلاثة ، وكنت أكرر عليها بالدرس مدة سنين حتى تمكنت من صوغ المعاني ، وصار لي الإدمان خلقاً وطبعاً » (٣) .

استكمل ابن الأثير ثقافته الأدبية في وقت مبكر ، وعكف على الاستزادة من المعارف بعد ذلك ، لكنه لم يرتحل إلى مكان آخر ليلقى غير الدين عرفهم من علماء الموصل ، ولا نعرف عنه أنه ولي عملاً هناك بعد بلوغه العشرين من عمره ، وبظهر أن والده كان في بسطة من العيش واليسار أفسحاً أمامه إتمام نحصيله وإغناء ثقافته قبل أن يتحمل وحده أعباء الحياة .

(١) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ١٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٦٨ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٥٨ .

ذكر الذهبي أنه « كان بينه وبين أخيه عز الدين مقاطعة ومجانبية شديدة » (١) ، فترك الموصل في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٧ هـ (٢) ، وقصد بلاد الشام ليلتحق بخدمة الناصر صلاح الدين ، وتم له ما أراد على يد الفاضل الذي نوه بذكره في حضرته ، فوافق على طلبه ، والحقه بخدمه في شهر جمادى الآخرة من العام نفسه .

توفقت عرا الصداقة بين الملك الأفضل نور الدين علي ، أكبر أبناء صلاح الدين ، وهو المتنازل إليه في أيام أبيه ومن بعده (٣) ، وابن الأثير ، ويبدو أنه كان يهدف من وراء هذه الصداقة إلى أمر بعيد ، إذ إنه كان يطمح إلى الوصول للوزارة والرئاسة ، فهو عارف أن الأمر صائر حتماً إلى مولاه عاجلاً أو آجلاً . وذلك حينما يخلف أباه في الملك . ولم يمض على وجوده في خدمته غير خمسة أشهر فقط حتى رأينا الأفضل يطلب إلى أبيه أن يلحقه بخدمته لحاجته إليه ، فاستشاره في أمره ، وخيره بين الإقامة عنده أو اللحاق بابنه ، على أن يبقى عليه المعلوم المقرر له . لكنه سرعان ما فضل الانتقال إلى خدمة ابنه ، فالتحق به في شوال من العام نفسه ، وأصبح وزيراً له ، ولما بمض بعد عام واحد على خروجه من الموصل ، وتحقق بسرعة ما كان ينتظره ، فتوفي صلاح الدين وصار ابنه « السلطان الأكبر » (٤) ، واستقل بملك دمشق ، واستغل بلهوه (٥) . آلت الأمور كلها إلى وزيره ضياء الدين ، فاستقل بالوزارة ، وأصبح بيده الأمر والنهي ، وصار الاعتماد عليه في تصريف شؤون المملكة كلها . استبد ابن الأثير بالحكم بعد أن لزم مولاه الأفضل الزهد بعد اللهو (٦) ، وأقبل على

(١) الذهبي : سير النبلاء (مصورة) ج ١٣ ل ٢٣٧ .

(٢) ابن خلكان : وفیات الاميان ، ج ٢ ص ١٥٨ .

(٣) ابن تفری بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ١٢٠ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٦ ص ١٢٠ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٦ ص ١٢٠ .

(٦) القبري : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ١٢٩ .

العبادة ، وأصبح وزيره الأمر الناهي ، فاختلفت أحواله غاية الاختلال ، وكثر شاكوه من المتظلمين (١) .

وفي ابن الأثير الكاتب يقول النهاب فنيان الشاغوري :
متى أرى وزيركم وماله من ورر ؟
بقلعه الله فذا أوان فلح الجزر !

هكذا يسهم وزيره في ضباع ملكه بسوء سياسته . فأساء معاملته الناس وحسن له طرد أمراء أبه وأكابر أصحابه ، وأنار عليه أن يستجد أمراء غيرهم ، فنفروا منه . وفارقه جماعة من كبارهم . منهم فخر الدين جهاركس ، وفارس الدين ميمون القصري ، وشمس الدين سنفر الكبير ، والتحقوا بخدمة أخيه العزيز ملك مصر (٢) . فرحب بغدومهم وأكرمهم غاية الإكرام تأليفاً لهم وتقريباً .

لم يرض القاضي الفاضل وهو في دمشق ، عن سيرة الأفضل ، وساءته سيرة وزيره وألمته المعاملة التي يلقيها كبار الأمراء الصلاحية ، وهم الذين شيدوا دعائم الدولة الأيوبية ، فغادر دمشق أيضاً مثلهم وقصد القاهرة ، فخرج العزيز إلى لقائه ، وأجل قدومه وأكرمه (٣) .

بدأت الوحشة بين الأخوين سنة ٥٩٠ هـ ، « وأخذ الأمراء بالإغراء بينهما ، وحسنوا للعزيز الاستبداد بالملك ، والقيام مقام أخيه ، فبلغ ذلك الأفضل » (٤) .

اجتمعت الأمراء الصلاحية ، واجمعت أمرها على أن يكون الأمر كله للعزيز فاضطربت أحوال الأفضل كثيراً ، وببدو أنه « همّ بمراسلة أخيه واستعطافه ، فمنعه من ذلك وزيره وعدة من أصحابه ، وحسنوا له محاربته ، فمال إليهم » (٥) .

-
- (١) المصدر السابق ، ج ١ ق ١ ص ١٢٤ .
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ق ١ ص ١١٥ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ق ١ ص ١١٥ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ق ١ ص ١١٦ .
(٥) المصدر السابق ، ج ١ ق ١ ص ١١٦ .

خرج من القاهرة الملك العزيز يريد الشام لينتزعها من أخيه الأفضل ، فهاجمه سنة ٥٩٢ هـ ، وافق مع عمه الملك العادل على الاستلاء على دمشق لتكون له ، ونكون الخطبة والدعاية للعزيز ، ثم لهما ما أراداه ، فاسنوليا عليها . وتركها له صرخد ، فارتحل عن دمشق وانتقل إليها . أما وزيره ابن الأثير فقد همّ أعداؤه بقتله لإساءته معاملتهم ، لكن حاجبه محاسن بن عجم ، أخرجه مسخفياً في صندوق مففل عليه (١) . فنجاً بروحه من غضبة الناس .

استدعي الأفضل إلى مصر فيما بعد ليلي نيابة ابن أخيه الملك المنصور ، فطلب وزيره ابن الأثير ، فلما صار إليه صحبه إلى مصر ، وبقي في خدمته حتى جاء الملك العادل ، فأخرج الأفضل من مصر ، وعوضه بالدبار المترقية سنة ٥٩٦ هـ ، بيد أن ابن الأثير لم يخرج صحبته ، لأنه خشى على حياته أيضاً من جماعة كانوا يقصدونه ، فخرج متستراً ، وله في خروجه مستخفياً رسالة مسهبة ، شرح فيها حاله ، وهى موجودة في ديوان رسائله . تخلف ابن الأثير عن ملكه مدة من الزمن حتى تمكن من الوصول إليه سالماً بعد استقراره في سميساط ، فرجع إلى خدمته ، ويظهر أنه اختلف معه في بعض شأنه ، ففارقه سنة ٦٠٧ هـ ، وكان هذا الفراق آخر عهده به .

اتصل ابن الأثير بالظاهر غازي ملك حلب ، لكنه لم يجد في خدمته ما يرغبه في البقاء عنده طويلاً ، إذ اختلف معه أيضاً ، واضطرب أمره وخرج مغاضباً ، وقرر العودة إلى الموصل ، فانتقل إلى إربل أولاً ، ثم إلى سنجار ، وفضل أخيراً الإقامة في الموصل نهائياً سنة ٦١٨ هـ (٢) ، ليكتب الانشاء فيها لصاحبها ناصر الدين محمود بن مسعود بن أرسلان شاه ، والأتاك يومئذ الأمير بدر الدين أبو الفضائل لؤلؤ . ذكر ابن الفوطي أنه « ورد إلى بغداد مراراً في رسائل من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل » (٣) ، وأشار إلى أنه ورد عام وفاته رسولاً من قبله ، فمرض في بغداد ، وتوفي .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٦٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥٨ .

(٣) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص ١٣٦ .

يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٦٣٧ هـ (١) ، وصلي عليه من الفد بجامع القصر ، ودفن بمقابر قريش في الجانب الغربي .
في صحن مشهد موسى بن جعفر (٢) .

(٢)

آثاره الأدبية

خلف ابن الأثير تصانيف أدبية هامة ، على الرغم من اشتغاله في أمور الوزارة ، ومما أصابه في حياته من عدم الاستقرار في بعض فتراتنا ، وقد تحدث عن رسائله ومكاتباته ، وذكر أنها تقع في عدة مجلدات (٣) .

أهم تصانيفه كتابه « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » ، وهو في مجلدين « جمع فيه فأوعى ، ولم يترك شئاً يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره » (٤) . وجدير بالذكر أن ابن الأثير لم يتعبد آراء من سبقه ، وإنما اختط لها طريقاً جديدة ، فأبدى آراءه فيها بكل صراحة وجراة ، وتصدى لمن سبقه أو عاصره ، فبيّن مثالبهم ، وحاول أن يضع للنثر أسلوباً جديداً ، يعتمد في أصوله على كل ما يبعد الكتاب عن التقليد الأعمى ، ويخفف من غلوئهم في التصنع والتكلف .

يظهر أن اطلاعه على الأساليب النثرية في غير اللغة العربية ، قد أفسح أمامه هذا المجال الهام ، وبؤكد لنا ذلك اطلاعه على اللغة السريانية والفارسية واليونانية . يقول : « واعلم أن هذين القسمين من الكتابة قد وردا في غير اللغة العربية ، ووجدتهما كثيراً في اللغة السريانية فإن الإنجيل

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٦١ ، وابن نوري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٣١٨ ، وابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص ١٣٦ .
(٢) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص ١٣٦ .
(٣) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ٢ ص ٣١١ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٥٩ .

الذي في أيدي النصارى ، قد أتى منهما بالكثير . ومما وجدته في لغة
الفرس (١) » .

أحدث هذا الكتاب ثورة أدبية كبرى بين طبقة المتقنين ، وأثار نقاشاً
أدبياً حاداً بين المؤيدين الذين تعصبوا له ، والمعارضين الذين هاجموا هجوماً
عنيفاً ، أعجب به في بادئ الأمر أدباء الموصل ، وفضلوه على أكثر الكتب
المصنفة في هذا الفن ، وأوصلوا نسخاً منه معدودة إلى بغداد ، وأساعوه
بين طبقاتها المثقفة ، وتداوله كثير من أهلها سنة ٥٣٣ هـ .

ولم يرض الكتاب في بغداد عن انتشار هذا الكتاب في حاضره الخلافة
العباسية ، فتنقصوه وأظهروا مثالبه ليشنوا الناس عن الاشتغال به ،
والتهافت على نسخه والاستفادة منه . ويظهر أن الوزير مؤيد الدين العلقمي
انتدب صديقه عز الدين بن أبي الحديد ليتصدى لمؤاخذته والرد عليه ،
فقراه ، ونقده في خمسة عشر يوماً ، وهو مشغول في أعماله الديوانية ،
وجمع ما فيه من مؤاخذات في كتاب سماه « الفلك الدائر على المثل
السائر » (٢) . ولما فرغ منه قدمه وتقرب به إلى الخزانة الإمامية المستنصرية .

تناول نقد هذا الكتاب والتعليق عليه كتاب آخرون في هذا العصر والعصر
الذي يليه ، منهم الركن السنجاري (المتوفى سنة ٦٤٠ هـ) ، والصلاح
الصفدي (المتوفى سنة ٧٦٤) وغبرهما .

ومن تصانيفه « الموشى المرقوم في حل المنظوم » (٣) ومما قاله في مقدمته
« ولما ألفت كتاب المثل السائر قصرت فصلاً منه على ذكر هذه الطريقة ،
وأيت فيها بالمعاني الجليلة التي تفتقر إلى الفهم الدقيق » (٤) .

(١) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٢١٥ .
- (٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٥٩ .
(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥٩ .
(٤) ابن الأثير : الموشى المرقوم ، ص ١ .

ومنها « ديوان الترسل » (١) ، وهو في عدة مجلدات (٢) ، و « المختار من ديوان الترسل » (٣) وهو في مجلد واحد (٤) ، و « المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء » (٥) ، و « الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور » (٦) ، وهو مخطوط ، و « البرهان في علم البيان » (٧) ، وهو مخطوط أيضاً ، كما يضاف إلى ما ذكر مجموع اختار فيه من شعر أبي تمام والبحري وديك الجن ، وهو في مجلد واحد كبير (٨) .

-
- (١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٥٩ .
 (٢) يوجد الجزء الثاني من هذا الديوان في الجامعة الأميركية ببيروت ، وقد كتب سنة ٦٥٦ هـ .
 (٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٥٩ .
 (٤) يوجد مخطوطة هذا الكتاب من رسائله في مكتبة أحمد الثالث باستنبول ، كتبت سنة ٦٥٥ هـ وفي معهد المخطوطات العربية نسخة مصورة (ميكرو فيلم) ، وقد قام أخيراً الدكتور أنيس القدسي ، فحررها وحققها ونشرها .
 (٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٥٩ .
 (٦) الزركلي : الأعلام ، ج ٨ ص ٣٥٤ .
 (٧) المصدر السابق ، ج ٨ ص ٣٥٤ .
 (٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٥٩ .

الفصل الثاني

نثره ومذهبه الفني

(١)

فنون نثره

لا شك أن ابن الأثير كان يحمل في عصره راية التجديد في النثر الفني ، ولقد أحدث ثورة أدبية كبرى بكتابة المثل السائر ، إذ إننا لا نجد كتاباً نظيره ، أحدث مثل هذه الضجة في الأوساط الأدبية والدبوانية في التسام ومصر والعراق .

خالف الأساليب المتبعة التي عرفها الناس في مدرسة التصنع النثرية ، وهاجم روادها الكبار أمثال الحصكفي والقاضي الفاضل والعماد الكاتب وغيرهم .

يلاحظ أن فنون نثره متعددة ، وأبرزها نثره الديواني ، ونثره الذاتي والإخواني ، ونثره التأليفي . أما نثره الدبواني فيضم مكاتباته الرسمية ، وتقاليد الكثرة ، كما في التقليد الذي أنشأه لخطابة المسجد الجامع (١) ، والتقليد الذي أنشأه لنصب الأشراف العلويين (٢) ، والتقليد الذي أنشأه لمنصب الحسبة (٣) ، وتوقيعاته الدبوانية (٤) ، كما في التوقيع الذي كتبه عن الملك العادل نور الدين أرسلان شاه لأولاد بعض أصحابه لإبقاء ما كان له من الإقطاع ، وتوقيعات أخرى مختلفة (٥) .

(١) رسائل ابن الأثير ، ص ١٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

أما نثره الذاتي فيضم كنبه الإخوانية الكثيرة ، ورسائله الذاتية التي أنشأها في مناسبات خاصة اعترضته في حياته كالتهنئة بشعبان ، ورمضان، وعيد الفطر ، وعيد الأضحى ، وأعياد النوروز والمهرجان وغيرها (١) . وكان يحاول في بعض الأحيان أن يعرب فيها عما يجول في خاطره من معان غريبة أو مولدة ، وأوصاف مبتكرة أو مأخوذة ، نشير من ذلك إلى رسالة له في صيد السمك (٢) ، ورسالة في صيد الفهود (٣) ، ورسالة في الصبد بالفهود والبزاة (٤) ، ورسالة في صيد الشواهين (٥) ، ونشير منها أيضاً إلى كتابين ، بعث بهما عاشق إلى معشوق (٦) ، ورسالة في وصف مجلس شراب في زمن الربيع (٧) ، ورسالتين تضمنتا وصف شمعة (٨) ، وغير ذلك كثير .

وأما نثره التأليفى فقد قصره على كتابه حسن التوسل ، وأرسل أسلوبه على سجيته دون تكلف أو تصنع إلا ما ندر ، كما سنرى تفصيل ذلك في حديثنا عن مذهبه الفني واتجاهه الأدبي الجديد .

(٢)

مذهبه الفني

عبر ابن الأثير عن مقاصده الخاصة والعامة في مختلف فنونه النثرية باستخدامه أسلوبين : الأسلوب المسجع ، والأسلوب المطلق .

-
- (١) المصدر السابق ، ص ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٩ .
 - (٢) المصدر السابق ، ص ١٩٥ .
 - (٣) المصدر السابق ، ص ٩٧ .
 - (٤) المصدر السابق ، ص ١٠٠ .
 - (٥) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .
 - (٦) المصدر السابق ، ص ٢١٩ ، ٢٢١ .
 - (٧) المصدر السابق ، ص ٧٢ .
 - (٨) المصدر السابق ، ص ٩١ ، ٩٢ .

النثر المسجع

أستخدم الأسلوب المسجع في نثره الديواني وكتبه الأخوانية ، إذ إنه كان رئيس الكتاب والوزير صاحب ، وهو المفوض في إنشاء الرسائل إلى العمال والنواب والملوك والسلاطين والخلفاء ، وكان يعتمد إتقانها ، وبخاصة الكتب التي يبعث بها إلى الديوان العزيز في بغداد لينحدي بها المنشئين من كتاب الخليفة . ولم يكتف بتحديثهم ، وإنما عارض وتحدي القاضي الفاضل نفسه ، إذ كانت بينهما مكاتبات ومجاوبات ، ويظهر أن العلاقة بينهما كانت بادئ الأمر علاقة حب ومودة ، فنحن نعثر على ثلاث رسائل بعث بها إلى القاضي المذكور : الأولى كتبها في التعزية بأخت القاضي الفاضل (١) ، والثانية كتبها جواباً على كتاب ورد منه (٢) ، والثالثة كتبها جواباً على رسالة وردت منه يسأله فيها أن يرسل إليه شيئاً من مكاتباته (٣) ، وهي بشكل عام تصور لنا وجهاً من وجوه العلاقة بين الكاتبين الكبيرين . أما الوجه الآخر من وجوه العلاقة بينهما فيتجلى لنا في المنافسة الأدبية التي ظهرت بينهما فيما بعد ، وقد لمحناها في الكتاب الذي بعث به إلى معين الدين بن سكينه شيخ الشيوخ ببغداد جواباً على كتاب ، كان المذكور قد أرسله إليه وضمنه ضرباً من الوصف والمدح والإطراء ، وقال لابن الأثير فيه : إنك في الكتابة كفلان الكاتب يعني به القاضي الفاضل . ويظهر أن هذا التشبيه لم يكن ليرضي غروره ، فعرض بذلك في الجواب قائلاً : « أما تشبيهه إياي بفلان الكاتب ، فرب كلمة لصاحبها : دعني ، ولقد وضعني بقوله هذا ، وهو يرى أنه رفعتني . لكن بغفر له ذلك لسلامة قصده ، ويحمل على أنه اشتبه الذهب والنحاس على نقده ، وما أراد إلا أن يبلغ بفضيلتي فوق طوقها ، فلم يبلغ بها طوقها ، وقد تأسيت في هذا المقام بضرب الله مثلاً

(١) رسائل ابن الأثير ، ص ١٩٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .

ما بعوضة فما فوقها . ولو انصفني لقال : إن الحى خير من الميت ، وفرق بين خاطر يضيء زيتة ، وخاطر يضيء بلا زيت ، في طلعة البدر ما يغيبك عن زحل . وإن قبل : إن الأول أفضل من الآخر فإن الأواحر هاهنا أفضل من الأول . وقد علم أن ذلك الرجل رزق دولة سيفها أفصح من كتابه ، وخطبها أعظم أن بفتقر إلى تزوير خطابه ، فكان يقول عنها بعض ما يرى ، ولا فضل للقلم إذا جرى بحكاية ما جرى . فتفضل بامولاي ، وأعطني دولة كذلك حتى أخطب عنها خطابة تكسوها فوق مجدها مجداً ، وتكره السنة الأعداء أن تنطلق لها حمداً ، وتتمثل على وجهها غرّة وفي جيدها عقداً . ولو نظرت إلى كلمي حق النظر لعلمت أنني لم أترك لأحد من الفصحاء بقية ، وإن جئ إليك بكلم غيري فألقها وقل : والله لقد جاءكم بها بيضاء نقية » (١) .

أقر ابن الأثير بذلك في معرض آخر من رسائله فقال : « وعرض على كتاب كتبه عبد الرحيم بن علي البيسانى عن الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى ديوان الخلافة ببغداد ، وضمنه ما أبلاه في خدمة الدولة من فتح الديار المصرية ومحو الدولة العلوية وإقامة الدعوى العباسية ، وشرح ما فاساه في الفتح من الأهوال . ولما تأملته وجدته كتاباً حسناً ، قد وفى الخطابة حقها ، إلا أنه أخل بشيء واحد ، وهو أن مصر لم تفتح إلا بعد أن قصدت من الشام ثلاث مرات ، وكان الفتح في المرة الثالثة . وسألني بعض الأخوان في ذلك كتاباً إلى ديوان الخلافة معارضاً للكتاب الذي أنشأه عبد الرحيم ، فأجبتّه إلى سؤاله ، وعددت مساعى صلاح الدين » (٢) .

قال الذهبي : « وله يدٌ طولى في الترسل ، كان يجاري القاضي الفاضل وبعارضه ، وبينهم مكائبات ومجاوبات » (٣) .

(١) رسائل ابن الأثير ، ص ٣١٢ ، ٣١٣ .

(٢) ابن الأثير : الملل السائر ، ج ١ ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) الذهبي : سير النبلاء (مصورة) ج ١٢ ل ٢٢٧ .

لم يكتف بمعارضة القاضي الفاضل وإنما أخذ بمعارضة مشاهير كتاب الديوان العزيز ببغداد وغيرهم ، وهو إنما بهدف إلى إيجاد نظرية جديدة في السجع العربي ، فهو يؤكد لنا أولاً السجع غير منهي عنه سرعاً (١) ، وإنما المنهي عنه هو الحكم المنبوع في قول الكاهن سطيح ، ويطلب منا الاعتدال منه في مقاطع الكلام ، وأن يتوخى فيه معرفة سره ، وهذا الذي بنى عليه صرح نظريته الجديدة في البسان العربي ، بقول مخاطبة القارئ : اعلم أن للسجع سرّاً ، هو خلاصته المطلوبة . فإن عربي الكلام المسجوع منه . فلا يعتد به أصلاً . وهذا شيء لم ينبه عليه أحد غيري . وسأبيته هاهنا ، وأقول فيه قولاً هو أبين مما تقدم ، وأمثل لك مثلاً إذا حذونه أمنت الطاعن والعائب ، وفيل في كلامك لبلغ الساهد الغائب . والذي أقوله في ذلك : هو أن نكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين منستمة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه أخوها . فإن كان المعنى فيهما سواء ، فذلك هو السطويل بعينه ، لأن التطويل إنما هو الدلالة على المعنى بالفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها . وإذا وردت سجعان تدلان على معنى واحد ، كانت إحداهما كافية في الدلالة عليه . وجل كلام الناس المسجوع جار عليه . وإذا تأملت كتابة المفلقين ممن تقدم كالصابي وابن العميد وابن عباد وفلان وفلان ، فإنك ترى أكثر المسجوع منه كذلك ، والأقل منه على ما أشرت إليه . ولقد تصفحت المقامات الحريية والخطب النباتية ، على غرام الناس بهما ، وإكبابهم عليهما ، فوجدت الأكثر من السجع فيهما على الأسلوب الذي أنكرته (٢) .

والظاهر انه أراد من تعريضه بفلان وفلان القاضي الفاضل نفسه وغيره من الكتاب الفاضليين المعروفين في هذا العصر . لم يكتف بذلك ، بل أورد رسائل مخنارة من نثر ابن عباد والصابي ، ويبين صحة ما ذهب إليه في نظريته الجديدة لئلا يتهم بالتعصب والتحامل أو محاولة الوضع من قيمة غيره ، وإنما ذكر ما ذكره لبيان موضع السجع الذي يثبت على المحك ، وذكر أن هذا النوع المسجع لم يكن مفصوداً لذاته في الزمن القديم ، وذلك إما

(١) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ١٩٦ .

(٢) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ١٩٨ .

لمكان عسره ، أو لانه لم يتنبه له (١) . وخلص من كل ذلك إلى التحدث بالتفصيل عن السجع وأقسامه وفنونه ، وسوف نشير إلى ذلك في الفصل المقبل .

استخدم ابن الأنبر الأسلوب المسجع الجديد في رسائله الديوانية وتقاليده السلطانية التي أنشأها ، وقد وجد للصابي تقليداً كتب للناصر صلاح الدين من الخليفة المستضيء بالله ، فعرض عليه ، فوجد فيه « كلاماً نازلاً بالمرّة (٢) » وسأله بعض أخوانه بمدينة دمشق أن يعارضه بتقليد في معناه ، فأنشأ تقليداً معارضاً ومتحدباً : « وقد قللك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمينية غوراً ونجداً ، وما اشملت عليه رعية وجنداً ، وما انتهت إليه أطرافها براً وبحراً ، وما يستنقذ من مجاورها مسالمة وقهراً ، وأضاف إليها بلاد الشام ، وما تحتوه من المدن الممدنة والمراكز المحصنة » (٣) . وهو بعد هذا وذاك معتد بأسلوبه ومعانيه ، يعرض بذلك حيناً ، ويصرح حيناً آخر ، كما يظهر في الرسالة التي بعث بها إلى الديوان العزيز : « ودولته هي الضاحكة ، وإن كان رعاياها خير أمة أخرجت للناس ، ولم يجعل شعارها من لون السباب إلا تفاؤلاً بأنها لا تهزم ، وأنها لا تهزم ، وأنها لا تزال محبوبة من أبنكار السعادة بالحب الذي لا يسلي ، والوصل الذي لا بصرم . وهذا معنى غريب اخترعه الخادم للدولة وشعارها ، وهو ما لم تخطه الأقلام في صحفها ، ولا أجالته الخواطر في أفكارها » (٤) .

نلاحظ أن ابن الأنبر مفرور كل الفرور ، يرى أنه فوق الكتاب جميعاً بأسلوبه المسجع الجديد ، وأنه بلغ فيه درجة الاجتهاد ، فأصبح متبوعاً لا تابعاً . ولم يكتف ابن الأنبر بتحدي الصابي ، وإنما أراد أن يظهر نفوقه على القاضي الفاضل ، فقد ذكر الذهبي أنه كان يجاري القاضي الفاضل

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٥ .

(٣) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٥٩ .

ويعارضه ، وبينهما مكاتبات ومجاولات (١) ، وقد وقفنا عند ذلك طويلاً في مستهل هذا البحث .

استخدم أسلوبه المسجع في وصف حياته الخاصة ، فقد وضع رسالة شرح فيها حاله ، وهو مستخف من أعدائه ، وصور خروجه مستتراً لثلاث تدركه العيون (٢) .

نثره المطلق

لم يلتزم أسلوبه المسجع في كل فنونه ، وإنما قصره على السلطانيات والأخوانيات وغيرها من الرسائل التي انشأها ، بيد أنه لم يحجم عن التخلي من السجع كلياً أو جزئياً في بعض تصانيفه وإيماناً منه أن البلاغة في الأسلوب وليست في السجع كله أو في التحرر منه تماماً ، وإنما يجدر بالمنشئ أن يستخدم السجع في أماكنه الخاصة المناسبة ، ويتخلى عنه في أماكن أخرى ، وذلك جرياً على الأسلوب القرآني الذي جمع بين هذين الاتجاهين .

لاحظنا أنه استخدم هذا الأسلوب المطلق في أهم تصانيفه كما رأينا ، وهو المثل السائر ، ومما قاله : « وبلغني عن الشيخ أبي محمد عبد الله بن الخشاب النحوي ، رحمه الله أنه كان يقول : « إن الحريري رجل مقامات » ، أي : أنه لم يحسن من الكلام المنثور سواها ، وإن أتى بغيرها لا يقول شيئاً ، فانظر أيها المتأمل إلى هذا التفاوت في الصناعة الواحدة من الكلام المنثور ، ومن أجل ذلك قيل : شيئان لا نهاية لهما : البيان والجمال » (٣) . هذا شاهد بيّن على أسلوبه المطلق ، ونراه في مواطن أخرى يجمع بين الاتجاهين ، دون أن يكثر منه أو يتكلفه ، إذ إنه يشترط في الأسلوب أن يكون فيه اللفظ

(١) الذهبي : سير النبلاء (مخطوطة) ج ١٣ ل ٢٣٧ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٥٩ .

(٣) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

تابعاً للمعنى (١) ، وهذا تطور خطير في الأسلوب العربى في هذا العصر .
تحدثنا عن نظريته الجديدة في السجع العربى وعن راسه في العلاقة
بين المبنى والمعنى ، وأشرنا من خلال ذلك إلى معارضته اساليب الاعلام
من الكتاب .

يرى ابن الأثير « أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع
الكلام (٢) » ، ثم يستطرد قائلاً : « وينبغي أن تكون الالفاظ المسجوعة
حلوة ، حادة ، طنانة ، رنانة ، لا غنة ، ولا باردة » (٣) . ويشترط فيه
شرطاً آخر « وهو أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ ، فإنه يجيء عند ذلك
كظاهر مموه على باطن منوه » (٤) . وهو بعد هذا يعتقد أنه يجب ألا
يستخدم السجع في الكلام كله كما يفعل كتاب عصره ، وقد تحدث عن
وجود السجع في القرآن ، وذكر أنه تضمن أيضاً غير المسجوع ، لأن ورود
غير المسجوع معجزاً ابلغ في باب الإعجاز من ورود المسجوع ، ومن أجل ذلك
تضمن القرآن القسمين جميعاً (٥) .

أهمل ابن الأثير استخدام غرائب الالفاظ كما رأينا عند الحصكفي وغيره ،
وهذا في نظرنا تطور جديد أيضاً في الأسلوب العربى ، فقد نسب المفريين
في الالفاظ إلى غلظ الطبع وفجاجة الذهن (٦) ، ورد على القائلين إن العرب
كانت تسنعملها ، وقال : « رأيت جماعة من الجهال ، إذا قيل لأحدهم :
إن هذه اللفظة حسنة ، وهذه فبيحة أنكر ذلك ، وقال : كل الالفاظ حسن ،
والواضع لم يضع إلا حسناً ، ومن يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة
الفصن ولفظة العسلوج ، وبين لفظة المدامة ولفظة الخنشليل ، وبين لفظة
الأسد ولفظة الفدوكس ، فلا ينبغى أن يخاطب بخطاب ، ولا يجاب

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٦ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٦ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٧ .

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٨ .

(٦) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ١٥٠ .

بجواب « (١) » . ويخلص بعد ذلك إلى القول : « ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأذن نفمة لذيدة كنغمه أوتار ، وصوتاً منكراً كصوت حمار ، وأن لها في الفم حلاوة كحلاوة العسل ، ومرارة كمرارة الحنظل » (٢) .

تفيد ابن الأثير بما اعتقده ، فلم بغرب في كتابته ، ولم يعقدها ، وإنما بقيت على الرغم مما فيها من سجع واضحة كل الوضوح ، وبعيدة عن الإغراب والتعقيد اللذين نلحهما في نثر الحصكفي وتابعيه .

آمن ابن الأثير إذا بالتصنع المنسجم مذهباً في أسلوبه ، ولكنه كره فيه التكلف ، إذ إنه يؤمن « أن الكلفة تذهب برونق الصنعة » (٣) ، وقد استغرب ما رآه عند قوم سلكوا في منشور الكلام طرقةً خارجة عن موضوع علم البيان ، وهي بنجوة عنه لأنها في واد وعلم البيان في واد آخر (٤) .

يقول في هذا الصدد : « فممن فعل ذلك الحريري صاحب المقامات ، فإنه ذكر تلك الرسالة التي هي كلمة معجزة وكلمة مهمة ، والرسالة التي حرف من حروف الفاظها معجم ، والآخر غير معجم ، وكل هذا ، وإن تضمن مشقة من الصناعة ، فإنه خارج عن باب الفصاحة والبلاغة ، وهذا الكلام المصوغ بما أتى به الحريري في رسالته يأتي ومعانيه غثة باردة ، وسبب ذلك أنها تستكره استكرهاً وتوضع في غير مواضعها ، وكذلك الفاظه فالفظة تجيء مكرهة أيضاً ، غير ملائمة لأخواتها » (٥) . يوضح لنا هذا الرأي أن ابن الأثير غير راض عن مذهب التصنع الذي أخذ به كبار كتاب العصر ، وهو إنما يحاول أن يرجع إلى مذهب التصنع المنسجم البعيد عن الإغراب والتكلف . كما نلاحظ أنه كان يجنب الناشئين من الكتاب الوقوع في مذهب

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٩ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٥٣ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥٣ .

التصنع ، وبوصيهم بالابتعاد كلياً عن أساليب الكتاب الكبار المتقدمين ، وبطلب إليهم الاقتصار على « حفظ القرآن الكريم ، وكثير من الأخبار النبوية ، وعدة من دواوين فحول الشعراء ممن غلب على شعرهم الإجادة في المعاني والألفاظ حتى يسقيهم على طريقة يفتتحها لنفسه ، وأخلق بتلك الطريق أن تكون مبتدعة غريبة ، لا شركة لأحد من المتقدمين فيها ، وهذه الطريق هي طريق الاجتهاد ، وصاحبها يعد إماماً في الكتابة » (١) .

تلك هي مميزات مذهبه الفني كما أراده أن يكون ثورة عارمة على أئمة المترسلين المتقدمين كابن العميد وابن عباد والصابي ، وإزاء على الحريري صاحب المقامات وابن نباتة خطيب الخطباء ، وثورة على اعلام الكتاب الكبار الذين عرفهم كالحصكفي والفاضي الفاضل والعماد الكاتب وغيرهم من كتاب الدواوين في الديوان العزيز ببغداد .

يقابل كل ذلك محاولة منه يائسة في العودة بالكتاب إلى المناهل الصافية مما لم تعبت بها الزخارف البديعية أو الصور المتكلفة ، وحاول أن يدخل على الأسلوب العربي الجدل المنطقي ، والتفريق العلمي ، وهذان واضحان كل الوضوح في مناقشاته المطولة .

أحدث هذا المذهب الجديد ثورة أدبية كبرى في دمشق والقاهرة وبغداد ، فألفت كما رأينا مختلف الكتب للرد عليه ومهاجمته ، إذ إنه كان يتحداهم ، ويعتد بأسلوبه العتيد ، وينسب القصور والضعف إليهم ، بله السابقين المتقدمين الذين لم يسلموا من تجريجه .

ويؤكد ما نذهب إليه قوله : « وهداني الله لابتداع أشياء لم تكن قبلي مبتدعة ، ومنحني درجة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها تابعة ، وإنما هي متبعة ، ولقد مارست الكتابة ممارسة كشفت لي عن أسرارها ، وأظفرتني بكنوز جواهرها إذ لم يظفر غيري بأحجارها » (٢) .

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥٣ .

(٢) أبي الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٧٧ .

مهما يكن من أمر هذا الغرور والاعتداد والتحدي ، فمما لا شك فيه أن مذهبه الأدبي كان مطبوعاً بطابع ذاتي ، يرفده عنصر شخصي أصيل ، كان يهدف إلى تحرير الأسلوب العربي في هذا العصر وإطلاقه من قيود الصنع والنكلف مع المحافظة على الصنعة المطبوعة والتصنع المنسجم الذي لا يختل معه المعنى ، ولا يتعقد فيه الأسلوب .

لا غرابة إن رأينا هذه الثورة عليه تعلن في بغداد ومن ديوان الخليفة بالذات ، وكان من نتائجها أن انقسم الأدباء قسمين : القسم الأول منهم مؤيدوه من أدباء السام والموصل ، والقسم الثاني منهم معارضوه الذين عرض بهم ، ونسب كتابتهم إلى الوهن والضعف ، وسماهم جماعة من متخلفي الصناعة ، يجعلون همهم مقصوراً على الألفاظ التي لا حاصل وراءها ولا كبير معنى تحتها ، وذكر أنهم أحوج من صبيان المكاتب إلى التعليم (١) .

نخلص مما تقدم معنا إلى التأكيد أن ابن الأثير حاول أن يثير ثورة أدبية كبرى ، فتم له ما أراد ، وسار بالنثر الفني في غير مجراه المعروف ، ولكن طغيان التصنع بعده أفقد النثر عنصراً هاماً من عناصر تطوره في سبيل أسلوب أصلي وأدب جديد أمثل .



الشهاب محمود

(٦٤٤ - ٧٢٥ هـ = ١٢٤٧ - ١٣٢٥ م)

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ حياته وآثاره

(١)

مراحل حياته

ولد أبو الشفاء ، شهاب الدين ، محمود بن سلمان بن فهد بن محمود (١) في شهر شعبان سنة ٦٤٤ هـ بدمشق الفيحاء .

عكف منذ طفولته على طلب العلم ، ثم لقي بعدئذ مشاهير علماء عصره ، فأخذ عنهم ثقافته الدينية والأدبية . اشتغل في النحو على ابن مالك وتأدب بالمجدد بن الظهير ، ولأزمه ، وسلك طريقه ، وحذا حذوه في الشعر والنثر ، فبرع في الأدب وتضلّع من الفقه ، وفاق أقرانه في عصره حتى اختير ، وهو شاب ، ليلي قضاء الحنابلة ، على الرغم من صغر سنه بعد أن أجازاه يوسف بن خليل .

(١) ابن تفرج بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٣٤١ ، وابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٢٤ ، وابن تفرج بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٢٦٤ ، وابن شاعر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٣٥٨ ، والنعمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ص ٢٣٦ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٢٠ ، وزيدان : آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ١٣٢ ، والزركلي : الاعلام ج ٨ ص ٤٨ ، وبروكلمان : (Bröck 2 . 52,42)

عرف الشهاب محمود بحسن الخلق ، فكان هادئ الطبع ، وجسم التواضع ، وعرف بالمقدرة والعلم ، فعين لكتابة الإنشاء ، وهو في الثلاثين من عمره تقريباً ، لأنه « كان من أئمة الكتاب ، ورأس البلغاء في عصره ، وكانت له معرفة بأيام الناس وتراجمهم ومعرفة بخطوط كتاب الخط المنسوب ، وكانت بينه وبين أهل عصره مكاتبات ومراجعات » (١) .

استمر على كتابة الإنشاء في دمشق حتى سنة ٦٩٢ هـ ، وقد أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه « حسن التوسل » ، فقال : « جعل الله لي في كتابة الإنشاء رزقاً ، باشرت بسببه من وظائفها ما باشرت ، وعاشرت من أجله من أكابر أهلها وأئمتها من عاشرت » (٢) .

أعجب به صاحب الوزير شمس الدين بن السلول ، وأحبه كثيراً ، فنقله إلى مصر عقب موت محيي الدين بن عبد الظاهر ، فكتب بها في ديوان الإنشاء ، فتقدم ببلاغته وبديع كفايته وإنشائه (٣) ، حتى أصبح صاحب ديوان الإنشاء عند السلطان بيبرس البندقداري سنة ٧٠٨ هـ . بقي مستمراً في منصبه حتى وفاة شرف الدين بن فضل الله ، فأعيد إلى دمشق سنة ٧١٧ هـ ، وولي مكانه ، نظر ديوان الإنشاء وكتابة السر فيها .

ترجم له الشاعر جمال الدين بن نباتة المصري في كتابه « سجع المطوق » (٤) ووصف مكانته في الشام ومصر ، ومما قاله : « كتبت الأنداء براعته وكتبت بمصر والشام يراعته ، فكلا الإقليمين أثبت لأقلامه فضلها ، وكلتا الجنتين آتت أكلها ، حلت بهذا حلة ثم بهذا حلة ، فطاب الواديان كلاهما ، لا زالت هم فضائله تبقي صعوداً ، ونعبي جاحداً ، وتتعب حسوداً ، وتعلم الشهب من سنانه وسناه أن ليس كل شهاب محموداً » (٥) .

(١) ابن تفردي بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٣٤٣ .

(٢) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ٢ .

(٣) ابن شاکر : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٢٥٨ .

(٤) ذكرنا في كتابنا « ابن نباتة المصري » أنه ترجم في كتابه « سجع المطوق » للفضلاء الذين قرطوا كتابه « مجمع الفوائد » وأورد بعد ذلك نبذة من مكاتباته . ينظر في كتابنا المذكور آنفاً ، ص ١٣٩ .

(٥) ابن نباتة المصري : سجع المطوق (مخطوط) و ٦٦ .

لم يفتر الشهاب محمود بما بلغه من منزلة سامية ومكانة مرموقة في دواوين الإنشاء قرابة خمسين عاماً ، وإنما كان دمث الخلق مستقيماً في عمله ، أحسن معاملة الناس جميعاً ، فاحبوه واحترموه ، كما كان « مجباً لأهل الخير ، ومواظباً على النلاوة والأدعية والنوافل » (١) . فلا عجب إن رأينا تنكر نائب السلطنة بدمشق يحترمه ويجله شأنه في ذلك شأن من سبقه ، فلم يعرف عنه أنه عزل أو طرد من عمله طوال حياته المديدة ، ولكن شأنه شأن كل ذي نعمة أن يكون محسوداً على ما حباه الله به من منزلة تطمح إليها الأبصار . وقد توضح لنا ذلك في عتابه لعلاء الدين بن غانم حين بلغه أن جماعة الدبوان يذمونهم ، وهو حاضر لا يرد غيبته (٢) .

أقام بعد عودته من مصر في منصبه نمانية أعوام إلى أن توفي ليلة السبت الثاني والعشرين من شعبان سنة ٧٢٥ هـ ، في منزله (٣) ، ودفن في تربته التي أنشأها في سفح جبل قاسيون بالقرب من اليفمورية .

(٢)

آثاره الأدبية

أشار الأقدمون إلى أنه كان شيخ صناعة الإنشاء في عصره ، وأن نشره كثير جداً يبلغ أضعاف نظمه (٤) ، وذكروا أن له « تصانيف تملأ الأذهان فهماً ، وتسع فنون الآداب علماً » ، ومواقع أقلام تخرس الأفواه ، والأفواه توسعها رشفاً ولثماً » (٥) .

أشهر تصانيفه بدون شك « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » (٦) ، وقد أشار إليه ابن نباتة ، ونوه به في كتابه « سجع المطوق » (٧) ، وذكر أنه نقل منه رسالة البندق ، وأوردها كاملة في كتابه المذكور (٨) .

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ ص ٣٢٤ .

(٢) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٣٤٢ .

(٣) هو منزل القاضي الفاضل نفسه في دمشق ، ويقع بالقرب من النطفانيين .

(٤) ابن تغري بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٣٣٢ .

(٥) ابن نباتة : سجع المطوق (مخطوط) و ٢٨ .

(٦) ابن شاعر : نوات الوفيات ، ج ٢ ص ٣٥٨ ، وابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤

ص ٣٢٤ ، وزيدان : آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ١٢٢ .

(٧) ابن نباتة : سجع المطوق (مخطوط) و ٦٩ ، و ٧٠ .

(٨) المصدر السابق ، و ٦٩ ، و ٧٠ .

استهل الشهاب محمود مقدمة الكتاب المذكور بالتحدث عن مكانته في كتابة الإنشاء ، وذكر العوامل الشخصية التي حدثت به إلى تأليف الكتاب المذكور ، ومما قاله في خطبته : « أما بعد ، فإنه لما جعل الله لي في كتابة الإنشاء رزقاً ، باشرت بسببه من وظائفها ما باشرت ، وعانرت من أجله من أكابر أهلها وأئمتها من عاشرت ، ورأيت من مذاهبها في أساليبها ما رأيت ، ورويت عنهم من فواعدها بالمجاورة والمحاوره ما رويت . واطلعت فيها بكترة المباشرة على طرائق ، والجتت فيها باختلاف الوفائع إلى مضائق أي مضائق ، ونشأ لي من الولد وولد الولد من عاناها ونرشح لها من بني من لم أرض بالتلبس بصورتها دون التحلي بمعناها ، فأجبت أن أضع لهم ، ولمن يرغب في ذلك ، في هذه الأوراق من فصولها قواعد ، وأفهم لهم فيها على ما يسع الجهل به من أصولها وفروعها شواهد ، ليأتوا هذه الصناعة من أبوابها ، ويعلموا من طرقها ما هو الأخص بأوضاعها والأولى بها ، وسميته « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » (١) . تحدث بعد ذلك عن أمور كلبة (٢) ، لا بد للترشيح لهذه الصناعة من التصدي لها والاطلاع عليها ، وعن أمور خاصة (٣) في علوم المعاني والبيان والبديع ، تم ختمها بذكر بعض ما يتصل بخصائص الكتابة (٤) : كالاقنباس والاستشهاد ، والحل . وشفعها بمجموعة فيمة من رسائله ، اختارها مما أنشأه بحكم عمله الرسمي ، أو مما أنشأه « رياضة للخاطر لصعوبة مسلكه (٥) ، وهي تبرز لنا مختلف فنون نثره .

من تصانيفه « مقامة العشاق » (٦) ، وهي مفقودة ، ومنها أيضاً

(١) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢ - ١١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٦) ابن تفردي بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ، ج ٢ و ٣٤٢ ، وابن شاعر : فوات

الوفيات ج ٢ ص ٣٥٨ ، والزرقي : الأعلام ، ص ٤٨ .

« منازل الاحباب ومنازه الالباب » (١) ، وهي في الهوى العذري ، وما زال مخطوطاً (٢) . وله أيضاً كتاب « ذيل على الكامل لابن الاثير » (٣) ، وهو مخطوط (٤) ، و « الذيل على ذيل الفطرب اليونيني » (٥) ، وهو مفقود .

يضاف إلى هذه التصانيف النثرية تقاليد الرسمبة وتواقيعه الكثيرة ورسائله الإخوانية التي كان ينشئها ، وقد أشار الصفدي إلى أنها تدخل في ثلاثين مجلدة (٦) ، جمع منها بعض الفضلاء الراغبين مجلدين (٧) ، أما قصائده فكثيرة تدخل في ثلاث مجلدات ، ولم تجمع في ديوان شعر مستقل ، وأما المقاطيع فقليلة (٨) .

أفرد التهاب محمود من شعره المدح النبوية ، وجمعها في ديوان خاص سماه « أهنا المنايح في أسنى المدائح » (٩) ، وعدد أبياته ألفا بيت وثلثمائة وخمسة وسنون بيتاً ، وقد سمعه أستاذة يوسف بن خليل من لفظه ، وذكر الذهبي أنه لم يخلف في معناه مثله .



(١) ابن تفردي بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ، ج ٣ و ٣٤٢ ، وابن شاعر : فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٥٨ ، والزركلي : الاعلام ، ج ٨ ص ٤٨ ، وزيدان : آداب اللغة العربية ج ٢ ص ١٣٢ .

(٢) توجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة في برلين ولندن والمتحف البريطاني ودار الكتب المصرية .

(٣) زيدان : آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ١٣٣ ، والزركلي : الاعلام ج ٨ ص ٤٨ .

(٤) توجد منه نسخة مخطوطة في برلين .

(٥) الزركلي : الاعلام ، ج ٨ ص ٤٨ .

(٦) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ ص ٣٢٥ .

(٧) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٣٢٥ .

(٨) ابن تفردي بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ، ج ٣ و ٣٤٢ ، وابن حجر :

الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٢٥ .

(٩) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ ص ٣٢٥ ، وابن شاعر : فوات الوفيات ج ٢

ص ٣٥٨ ، وزيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ١٣٣ ، والزركلي : الاعلام ج ٨ ص ٤٨ .

القسم الثاني

نثره ومذهبه الفني

(١)

فنون النثر

أجمع معاصرو الشهاب محمود على أنه كان رأس بلغاء عصره (١) ،
وشيوخ صناعة الإنشاء (٢) دون منازع . وذكروا أنه أربى على كثير ممن
تقدمه ، وأصبح المنظور إليه في البلاد الشامية والمصرية على السواء (٣) ،
وقد بقي في ديوان الإنشاء بدمشق والقاهرة قرابة نصف قرن من الزمن ،
لأن له خصائص ليست لغيره .

أشار الشاعر جمال الدين بن نباتة المصري إلى هذه المنزلة الكبيرة التي
عرف بها الشهاب في الأوساط الثقافية والسياسية في كتابه (سجع المطوق)
الذي ترجم فيه الشاعر لكل من زكى كتابه (مطع الفرائد ومجمع الفوائد)
ومما قاله :

« ما أبرع محاسنه ، وأبدع فنونه ، التي كم بها عن الفكر محاسنه ،
وما شئت من عربية تفرّد فيها فكره الدّرب ، وانتسبت زهرتها إليه انتساب
ريحانة لابن معدي كرب ، وجاورت من فكره لث غاب أشب ، اذ جاورت

(١) ابن تفردي بردي : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٣ و ٣٤٢ .

(٢) ابن كثير : البدايه والنهاية ، ج ١٤ ص ١٢٠ .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ ص ٣٢٤ .

من غيره جحر ضب^١ خرب ، ولغة هو جوهري تنكيته ، ومعاني نطق هو المفصح فيها ، تطوي الطائي فلا ينفع عندنا ذكرى حبيب ، ولا يستحسن عبث الوليد ، وتصانيف تملأ الأذهان فهما ، وتسع فنون الآداب علما ، ومواقع أقلام نخرس الأفواه والأفواه توسعها رشفاً ولثماً . كتبت الأنداء براعته ، وكتبت بمصر والشام يراعته ، فكلا الإقليمين اثبت لأفلامه فضلها ، وكلتا الجنتين آتت أكلها « (١) » .

ولا بد لنا في هذه الدراسة من عرض فنونه النثرية المختلفة ، لكي ندرك خصائصه المميزة التي أشار إليها ابن نباتة وغيره ، ونقرر بعد ذلك مذهبه الفني واتجاهه الأدبي .

كتب الحروب والفتوح والتهاني

أشار الشهاب محمود إلى الكتب التي كان ينشئها في أوقات الحروب إلى نواب الملك عنه ، وإلى مقدمي الجيوش والسرايا ، وذكر أنها تتميز بالإيجاز والألفاظ البليغة ، فمن ذلك قوله : « أصدرناها إليه نحته على الركوب بطليعة أعجل من السيل ، وأهول من الليل ، وأيمن من نواصي الخيل ، وليكن كالنجم في سراه وبعد ذراه ، إن جرى فكسهم ، وإن خطر فكرهم (٢) » ، وإن طلب فكالليل الذي هو مدرك ، وإن طلب فكالجنة التي لا يجد ريحها مشرك ، حتى يأتي على عدو الدين من كل شرف ، ويرى جمعهم من كل طرف « (٣) » .

وأشار إلى الكتب التي كان ينشئها في أوقات الحروب إلى نواب الملك يعلمهم بالحركة للقاء عدوهم ، وقد ذكر أنها تتميز بالبسط في القول في وصف العزائم ، فمن ذلك قوله إلى بعض نواب الثغر عند حركة العدو : « أصدرنا ومنادي النفير قد أعلن بيا خيل الله أركبي ، ويا ملائكة الرحمن

(١) ابن نباتة : سجع المطوق (مخطوط) ورقة ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) الرهمة : بالكسر المطر الضعيف الدائم الصغير القطر والجمع رهم ورهم ، والرهمة أشد وقعا من الديمة وأسرع ذهابا .

(٣) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ٩٣ .

أصحابي ، وياً وفود التأييد والظفر أقربي ، والعزائم قد ركضت على سوابق
الرعب إلى العدا ، والهمم قد نهضت إلى عدو الإسلام ، فلو كان في مطلع
الشمس لاستقربت ما بينها وبينه من المدى « (١) .

أما كتب التهاني والفتوح ، فيستترط فيها السُهاب محمود أن يبسط
الكلام في مضمونها ، فتتصف بالإطناب في الأوصاف ، وبخاصة إن كان
المكتوب إليه ملكاً صاحب مملكة . فمن ذلك رسالة كتبها « في جواب ابن
الأحمر ، صاحب حمراء غرناطة من الأندلس : « أما بعد حمد الله . . . فينا
أصدرناها ، ونعم الله بنا مطبفة ، ومواقع نصره عندنا لطيفة ، ونبيدي لعلمه
الكريم ورود كتابه الجليل مسفراً عن لواصع صفائه ، مبيناً بجوامع وده
ووفائه ، مسرفاً بلآلئ فرائده ، محدقاً بروض كرمه الذي سعد رأي
رائده ، بما بلغه من أنباء النصر التي سارت بها إليه سرعان الركبان .
وذلت بعز ما تلي عليه منها عباد الصليبان ، وطبق ذكرها المشارق والمغارب ،
ومزقت أعداء الله التتار ، وهم في رأي العين أعداد الكواكب ، وخلطت التربة
بدمائهم حتى لم يَبَحْ بها التيمم ، ومزجت بها الفرات حتى ما تحل لتسارب ،
فإن التتار المخدولين أقبلوا كالرمال ، واصطفوا كالجبال ، وندفقوا كالبحار
الزواخر ، وتوالوا كالأمواج التي لا يعرف لها الأول من الآخر ، فصدمتهم
جيوشنا المنصورة صدمة بددت شملهم ، وعلمت الطير أكلهم . . ونحن
على ما نحن عليه من الأهبة لغزوهم في عقر دارهم ، وانتزاع مواطن الخلافة
وغيرها من ممالك الإسلام من نيوبهم وأظفارهم ، مستنصرين بالله على من
بقي في خط المشرق منهم ، قائمين فيهم بفرض الجهاد الذي لولا دفاع الله
لم يمتنع خط المغرب عنهم « (٢) .

نلاحظ أهمية هذا النص ، إذ إنه يوضح لنا بجلاء علاقة المشرق بالمغرب
وموقف الأخير من الأحداث الكبرى الطارئة في فترة اكتشافها الحروب في
الشرق والغرب على السواء ، كما يوضح لنا تصميم المسلمين على دحر التتار
 وإرجاع الخلافة العباسية إلى بغداد .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٤ .

(١) الشهاب محمود : حين التوسل ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

كتب التقاليد والتواقيع والمناسير

تحدث الشهاب محمود عن هذا النوع من الإنشاء في عصره ، وأشار إلى كثرة ما أنشأ منها ، فقال : « وفي أيدي الناس مما كتبت فيه شيء كثير » (١) . فمن تقليد كتبه لصاحب سيس بإقرار على ما قاطع النهر من بلاده قوله في خطبة التقليد : « الحمد لله الذي خص إيماننا الزاهرة باصطناع ملوك الملل وفضل دولتنا القاهرة بإجابة من سأل بعض ما أحرزته لها البيض والأسل ، وجعل من خصائص ملكنا إطلاق الممالك وإعطاء الدول . . . وبعد ، فإنه لما آتانا الله ملك البسيطة ، وجعل دعوتنا بأعنة ممالك الأقطار محيطة ، ومكن لنا في الأرض ، وانهضنا من الجهاد في سبيله بالسنة والغرض ، وجعل كل يوم تعرض فيه جيوشنا من أمثلة يوم العرض ، وأظلتنا بوادر الفتوح ، وأظلت على الأعداء سيوفنا التي هي على من كفر بالله وكفر بالنعمة دعوة نوح ، وأيدنا باللائكة والروح ، على من جعل الواحد سبحانه ثلاثه ، فانتصر بالأب والابن والروح . . . » (٢) .

تطالعنا هذه الرسالة ببعض المعاني الدينية التي كانت معروفة في أدب هذا العصر ، وقد حاول الكاتب أن يبرز لنا من خلالها صورة جمعت بعض المعاني الإسلامية والنصرانية .

الطرديات

يرى الشهاب محمود أن الكاتب يكون مقيداً في نشره الرسمي بقيود يجب عليه أن يراعها ويطبقها في إنشائه ، غير أنه حينما يتحدث عن الطرديات من ذكر أوصاف الخيل والجوارح والسلاح وآلات الحرب وأنواع الرياضات من لعب الكرة والصيد ورمي البندق ، كان يشير إلى أن الكاتب مطلق العنان ليمرزه مهارته وبراعته بالأسلوب الذي يشاء .

(١) المصدر السابق ، ص ١١٠ .

(٢) الشهاب محمود : حسن النوسل ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

أورد في طردياته رسالة البندق ، وهي تشتمل على أنواع من الأوصاف وفنون النظم والنثر ، يستعين بها الكاتب على ما يشاء من إنشاء قدمه في أي نوع أراد من الطير الواجب . ومنها قوله : « فبرزنا ، وشمس الأصيل تجود بنفسها ، وتشير من الأفق الغربي إلى جانب رسمها ، وتغازل عين النور بمقلة أرمده ، وتنظر إلى صفحات الورد نظر المريض إلى وجوه العود ، فكانها كتيب اضحى من العراق على فرق ، أو عليل يقضي بين صحبه بقايا عمر بالرمق ، وقد اخضلت عين الورد لوداعها ، وهمّ الروض بخلع حليته الموهبة بذهب شعاعها (١) .

عرفنا الطرديات في أدب هذا العصر كثيراً ، ولم تكن من مبتكراته ، فقد ألم بها السابقون وتفنن فيها من بعدهم اللاحقون ، ولم تكن قاصرة على النثر ، وإنما تجاوزته إلى الشعر .

الأخوانيات

انتشرت الأخوانيات في هذا العصر شعراً ونثراً ، وقد عدّها الشهاب محمود من الكتب التي يكون الكاتب فيها مطلق العنان ، مخلى بينه وبين قوته أو ضعفه .

أورد من أخوانياته صورة كتاب إلى إنسان يتضمن مخاطبته تزويج أمه (٢) . وذكر أنه عمله رياضة للخاطر لصعوبة مسلكه ، وأورد منها ما أنشأه إلى من هزم هو وجيشه (٣) ، وما أنشأه في ذم المهزوم وذم جيشه (٤) ، وما كتبه على لسان المهزوم نفسه (٥) ، وكل ذلك فعله تجربة للخاطر ورياضة للفكر ، وأنهى لنا ما اختاره من أخوانيات بذكر رسالة أنشأها لما بلغه أن بعض نواب السلطنة جاءه ولد ، وهو مسافر في الصعيد « فاقترح عليه أن

(١) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١٠٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١١٨ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١١٩ .

يكتب على لسان المولود إلى والده ، فقال : « يقبل الأرض ابتداء بالخدمة من حين ظهر إلى الوجود ، وشوقاً إلى امتطاء صهوات الجياد بين يدي سيده قبل المهود ، وتمنياً أن يكون أول شيء يقع عليه نظره من الدنيا وجه مولانا الذي تعلو بنظره الجودود ، ويتمن برؤية كواكب السعود ، وينهي أنه نجعل التسوق على صفره ، وكان كمال المسرة به أن يقع نظر مولانا الشريف عليه قبل البشرى بخبره ، لنلقى عليه اشعة سعادة مولانا في ساعة ظهوره ويكسى قبل أن تلقى عليه الملابس من إشراق محياه الكريم حلل نوره ، ويكون أول ما يلج مسامعه صوت مولانا يحمد ربه على الزيادة في خدمه ، وتكنير من يضرب بين يديه في الحرب بسيفه ، ويقف في السلم أمامه على قدمه ، فإن من يكون نجل مولانا تنطق بالنجابة مخايله ، وتدل على السجاعة سماته قبل أن تدل عليه شمائله ، والهلال سيصير في أفقه بدرأ منيراً ، والشبل سيعود كأبيه أسداً هصوراً ، والله تعالى يهب العبد عمراً ، ويبلغ به من طاعة مولانا ما يجب عليه ، ويرزقه عملاً صالحاً ينقرب به إلى ربه ، وإليه بمنته وكرمه » (١) .

نلاحظ في أخوانياته أنه كان يوخى إيجاد المعنى الغريب والموضوع المبتكر ، أما الشعور الإنساني النبيل ، وأما العاطفة المتقدمة ، فنجدتهما يتضاءلان كثيراً في نثره .

بحثنا فنون نثره الأربعة ، واستعرضنا خلال ذلك بعض الشواهد المختارة من أدبه ، واستطعنا من خلالها أن نتعرف على أسلوبه ، ونذكر مميزاته الفنية كما سنوضحها في بحث مذهبه الفني .

(٢)

مذهبه الفني

أوردنا في باب الشعر بعض قصائد الشهاب محمود في وصف الحروب التترية ، وقد رأينا أنه كان شاعراً مجيداً ، شأنه في ذلك شأن العماد

(١) المصدي السابق ، ص ١٢٠ .

الكاتب ، إذ جمعاً الصناعتين ، فكان شاعر المعارك التتيرية ، بينما كان العماد شاعر المعارك الصلاحية .

كما اتضح مما تقدم معنا أن الشهاب محموداً كان شيخ الكتاب وإمام البلغاء في عصره بالشام ومصر ، وقد قال عنه معاصروه : « أنه لم يكن بعد القاضي الفاضل مثله » (١) ، وذكروا عنه أنه كان يقيم في دار القاضي الفاضل نفسه بدمشق قرب باب الناطقين (٢) .

جرى الشهاب محمود في إنشائه على سنة من سبقه من الكتاب ، وعلى رأسهم العماد الكاتب وابن الأثير الكاتب ، فاستخدم الأسلوب المسجع ، وضمنه دون تكلف وتصنع ما راقه من الزخارف البديعية والصور البيانية . أما السجع فقد لاحظنا أنه كان يستخدمه في أسلوبه خلال رسائله وكتبه الرسمية والذائية ، كما رأينا منه شواهد مختارة ، بيد أنه ، كابن الأثير من قبله ، كان يحاول أن يتحرر من قبود السجع في بعض تصانيفه ، وقد لاحظنا ذلك في كتابه حسن التوسل ، ما عدا خطبة الكتاب ففد جاءت كالعادة مسجعة . أما الفنون البلاغية ، فقد نعتها بالأمور الخاصة ، لأنها « من المكملات لهذا الفن ، وإن لم يضطر إليها ذو الذهن الثاقب ، والطبع السليم ، والقريحة المطاوعة ، والفكرة المنقحة ، والبديهة المجيبة ، والروية المتصرفة » (٣) . وهو يرى أن الأديب والكاتب العاريين من هذه الفنون قاصران عن أدنى رتب الكمال ، لأنهما يجيدان ولا يدريان (٤) .

أشار الشهاب محمود في الأمور الخاصة إلى « الإبداع » : « وهو أن يأتي في البيت الواحد من الشعر أو القرينة الواحدة من النثر عدة ضروب من البديع بحسب عدد كلماته أو جملة ، وربما كان في الكلمة الواحدة المفردة

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٢٠ ، والنعمي : الدارس ، ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٢٠ ، والنعمي : الدارس ، ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٣) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١١ .

ضربان من البديع ، ومتى لم تكن كل كلمة بهذه المثابة ، فليس بإبداع » (١) .

يلاحظ أن الكتاب لم يكنفوا بالزخارف البديعية التي عرفناها في هذا العصر في أساليبهم ، وإنما أضافوا إليها تصنعاً بدعياً جديداً ، سموه فن الإبداع ، وقد ابتكر ابن أبي الإصبع هذا المذهب الجديد ، واستخرجه من تدبره قوله تعالى : « وفيل ، يا أرض ابلي ماءك ، يا سماء أقلعي ، وغيض الماء ، وقضي الأمر ، واستوت على الجودي ، وقيل بعداً للقوم الظالمين » (٢) فهذه الآية سبع عشرة لفظة ، تضمنت واحداً وعشرين ضرباً من البديع غير ما تكرر من أنواعه فيها (٣) . ننتهي من ذلك لنقرر أن مذهبه الأدبي يعتمد على الأسلوب المسجع الموشى بالزخارف البديعية ، بيد أنه تصنع فيها ، فكان لنا من ثمرة ذلك فن الإبداع .



(١) المصدر السابق ، ص ٨٨ .

(٢) هود ٤٤/١١ .

(٣) الشهاب محمود : حسي التوسل ، ص ٨٨ .

الفصل الثاني

الفنون النثرية

استوفينا فيما مر معنا ذكر الكتاب الأعلام في القرنين السادس والسابع الهجريين ، وأشرنا إلى فنونهم النثرية المختلفة ، ومذاهبهم الأدبية المتشعبة ، ورأبنا أن لكل كاتب شخصيته الفنية المميزة وأسلوبه الأدبي الذي مكنه من التعبير عما يريد على الرغم من التصنع الذي تعمد به . يقول الدكتور شوقي ضيف : « ويظن كثيرون أن النثر جمد في هذا العصر جموداً شديداً لما ساد في بعض جوانبه من تكلف في تحرير معانيه ، ومن سجع مثقل بأصداف البديع وخاصة في الرسائل الديوانية . . . كل ذلك لم يحل بين كتاب الدواوين وبين التعبير عن واقع الحياة السياسية تعبيراً كانوا فيه السنة ناطقة عن أهل مصر والشام ، وعن أهوائهم السياسية ومطامحهم الحربية » (١) . ولا بد لنا بعد هذه الدراسة المستفيضة من الوقوف عند الفنون النثرية لبحثها بحثاً موضوعياً ، يوضح معانيها العامة ، ويجلي خصائصها الخاصة . وينبغي علينا توضيحاً لما قدمنا أن يشتمل بحثنا عن الفن الخطابي ، ومختلف ضروب النثر : من ديواني ووجداني ووصفي وغيرها مما هو معروف في هذا العصر .

(١) انظر مقالة الدكتور شوقي ضيف عن (عصر احياء التراث العربي وتجديده) ، المجلة : العدد ١٢٢ (شباط) ١٩٦٧ .

القسم الأول

الفن الخطابي

عرفت الخطابة عند العرب منذ أقدم عصورهم ، ونبغ فيهم خطباء لسن ، وقد حبروا خطبهم ، واتبعوا فيها أساليب مختلفة ، وكانوا يشترطون في الخطيب المفوه شروطاً كثيرة تعتمد غالباً على شخصيته وعلى قوة بلاغته . هكذا نرى بعض الكتاب يتحدثون عن الفن الخطابي ، ويشيرون إلى صفات الخطيب المصقع ، كما هو معروف عند الجاحظ وغيره .

تطورت الخطابة كبقية الأنواع الأدبية المعروفة ، وأبرز ما نلاحظه أنها اتجهت اتجاهين اثنين : الاتجاه الديني الذي عرفناه كمظهر من مظاهر إقامة الشعائر الدينية ، والاتجاه السياسي الذي ظهر ونما بتأثير الأحداث الكبرى والظروف الاجتماعية قديماً وحديثاً .

(١)

الخطب الدينية

أسهمت الخطب الدينية ، ولاسيما الخطب الجمعية منها ، بدور هام في الدعوة إلى الجهاد ، وحث الناس على التضحية والبذل والفداء ، وذلك لإنقاذ البلاد وثغورها وتحريرها من حكم الفرنجة والتتار .

ذكر ابن سداد قاضي صلاح الدين ومؤرخ سيرته أنه كان يقصد بوقعاته أيام الجمع ، ولا سيما أوقات صلاة الجمعة ، تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر ، فربما كانت أقرب إلى الإجابة (١) .

(١) ابن سداد : النوادر السلطانية ، ص ٦١ .

تتميز الخطب الدينية بأسلوبها التقليدي الخاص ، فهي تبدأ بحمد الله ، ويشعر الخطيب بإلقاء الخطبة الأولى موجهاً كلامه إلى الناس ، ثم يجلس ليستريح بعض الوقت ، ويتأهب ليقوم بعد قليل للخطبة الثانية ، كما جرت العادة ، ويدعو بعد ذلك للخليفة أولاً ، وللملك أو السلطان ثانياً ، ثم يختتم خطبته بالدعاء لسائر المسلمين .

أبرز خطباء هذا العصر في هذا المضمار محبى الدين بن الزكي^(١) ، قاضي دمشق ، وهو الذي تولى إلقاء خطبة الجمعة بعد فتح بيت المقدس ، وقد ذكر عنه أنه اجتمع عدد كبير من المصلين ، وحضر السلطان إلى قبة الصخرة ، وكانت جماعة من العلماء والأكابر قد رشحوا أنفسهم للخطبة في جمعة الفتح نظراً لأهميتها كخطبة خالدة في التاريخ الدني والسباسب ، ومنهم من عرض للسلطان يطلب منه ذلك ، ومنهم من صرح ، والسلطان صامت لا يبدي سره . ولما حان وقت الخطبة نص على القاضي محبى الدين (١) ، وهو يومئذ قاضي القضاة بدمشق ، وقدمه لهذا الأمر الجليل ، فرقي المنبر ، وهو متشح بالاهبة العباسية السود ، وكانت زي الخطباء الدينين في هذا العصر . خطب في الناس خطبة بليغة ، فاستهلها بما اختاره من آيات بينات تضمنت ذكر الحمد لله ، ثم الحمد المطول ، حتى بدأ الخطبة الأولى ، فأنمها وجلس ، ثم قام وخطب الثانية كما جرت العادة ، ثم دعا للخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، واختتمها للبطل الناصر صلاح الدين يوسف .

أعجب القدماء بهذه الخطبة البديعة البليغة الهامة ، ونرى وفاءً منا للبحث أن نورد ما وقع بين أيدينا منها كاملاً :

« فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين » (٢) .

(١) أبو العالي محبى الدين محمد بن أبي الحسن علي بن محمد القرشي ، المعروف بابن الزكي يصعد نسبه الى عثمان بن عفان الفقيه الشافعي قاضي القضاة . ولد بدمشق سنة ٥٥٠ هـ وتوفي سنة ٥٩٨ هـ بدمشق ودفن بسفح جبل قاسيون (ابن خلكان : وفاته الأعيان ج ١ ص ٤٧٠ ، وابن تفردي بردي : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨١) .

(٢) النمل ١٩/٢٧ .

« الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ، وجعل الفلك والنور ،
ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » (١) .

« وقل : الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ،
ولم يكن له ولي من الدنّ وكبره كبراً » (٢) .

« الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عوجاً ،
قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنّه ، ويبشّر المؤمنين الذين يعملون
الصالحات أن لهم أجراً حسناً ما كثين فيه أبداً ، وينذر الذين قالوا اتخذ
الله ولداً ، ما لهم به من علم ، ولا لأبائهم ، كبرت كلمة تخرج من
أفواههم ، إن يقولون إلا كذبا » (٣) .

« قل الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أمّا
يُشركون » (٤) .

« الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، وله الحمد في
الآخرة ، وهو الحكيم الخبير . يعلم ما يلج في الأرض ، وما يخرج منها ،
وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور » (٥) .
« الحمد لله فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلاً » (٦) .



الحمد لله معزّ الاسلام بنصره ، وملدّ الشرك بجهده ومصرف
الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذي
قدّر الأيام دولاً بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على
عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله القاهر فوق عباده فلا

(١) الأنعام ١/٦

(٢) الاسراء ١١١/١٧

(٣) الكهف ١/١٨ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .

(٤) النمل ٥٩/٢٧

(٥) سبأ ١/٣٤ ، ٢ .

(٦) فاطر ١/٣٥

يُمانعُ ، والظاهرُ على خليفتهِ فلا يَنزَعُ ، والأمرُ بما يشاءُ فلا يَراجعُ ،
والحاكمُ بما يريدُ فلا يدافعُ .

أحمدُهُ على إظهارِهِ وإظهارِهِ ، وإِعزازِهِ لأوليائِهِ ونصرِهِ لأنصارِهِ
وتطهيرِ بيتِهِ المقدسِ مِنْ أَدناسِ الشُّركِ وأوضارِهِ ، حَمْدُ مَنْ استشعرَ
الحمدَ باطنُ سرِهِ وظاهرُ جَهارِهِ .

وأشهدُ أنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ وحدهُ « لا شريكَ له » (١) الواحدُ الأحدُ ،
الفردُ الصمدُ ، الذي « لم يلدْ ولم يولدْ ، ولم يكنْ له كفوًا أحدٌ » (٢)
شهادةً من طهرَ بالتوحيدِ قلبه ، وأرضى بهِ ربّه .

وأشهدُ أنْ محمداً عبدهُ ورسوله ، دافعَ الشُّركَ ، وداحضَ الإفكَ
« الذي أسرى بعبدهِ ليلاً من المسجدِ الحرامِ » (٣) إلى هذا المسجدِ
الأقصى ، وعرَّجَ بهِ مِنْهُ إلى السَّمواتِ العِلا إلى « سِدرةِ المنتهى » عندها
جَنَّةُ المَأوى ، إذ يَفشى السِدرةُ ما يَفشى ، ما زاعَ البصرُ وما طفى (٤) .

صلى اللهُ عليه ، وعلى خليفتهِ أبي بكرٍ الصديقِ ، السابقِ إلى الإيمانِ ،
وعلى أميرِ المؤمنينِ عمرِ بنِ الخطَّابِ ، أولِ مَنْ رَفَعَ مِنْ هذا البيتِ شعارَ
الصُّلْبَانِ ، وعلى أميرِ المؤمنينِ عثمانَ بنِ عفَّانَ ذي النُّورينِ جامعِ القرآنِ ،
وعلى أميرِ المؤمنينِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ ، مزلزلِ الشُّركِ ومكسرِ الأوثانِ ،
وعلى آلِهِ وأصحابِهِ والتابعينَ لهم بإحسان .

أيُّها الناسُ ، ابشِروا برضوانِ اللهِ الذي هو الغايةُ القصوى والدرجةُ
العليا لما يَسْرُهُ اللهُ على أيديكم مِنْ استردادِ هذه الضالَّةِ مِنَ الأُمَّةِ
الضالَّةِ ، وردِّها إلى مقرِّها من الإسلامِ ، بعد ابتدالِها في أيديِ المشركينِ
قريباً من مائةِ عامٍ ، وتطهيرِ هذا البيتِ الذي أذنَ اللهُ أنْ يُرْفَعَ ويذكرَ
فيها اسمُهُ ، وإمطرةِ الشُّركِ عن طرقِهِ بعد أن امتدَّ عليها رواقُهُ واستقرَّ

(١) الأسماء ١٦٣/٦ .

(٢) الأَخْلَام ٣/١١٢ ، ٤ .

(٣) الإسراء ١/١٧ .

(٤) النجم ١٤/٥٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .

فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد فإنه بنى عليه ، وإنه أسس بالتقوى من خلفه ومن بين يديه ، وهو موطن أبيكم ومعراج نبيكم محمد عليهما السلام وفبلنكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام ، وهو مقر الأنبياء ، ومقصد الأولياء ، ومقر الرسل ، ومهبط الوحي ، ومنزل نزل الأمر والنهي ، وهو أرض المحشر ، وصعيد المنبر ، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين ، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله (ص) بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله ، وكلمته التي القاها إلى مريم ، وروحه عيسى الذي شرفه الله برسالتيه ، وكرمته بنبوته ، ولم ينزحزحه عن رتبة عبوديته ، فقال تعالى : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله (١) » ، وقال : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم » (٢) ، وهو أول القبلتين ، وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا نشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الوطنين إلا عليه ، ولولا أنكم ممن اختاره من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم في شرفها مبار ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية ، والوفعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوح العمرية ، والجوش العثمانية ، والفتكات العلوية . جددتم للإسلام أيام القادسية ، والوفعات اليرموكية ، والمنازلات الخيرية ، والهجمات الخالدية ، فجزاكم الله عن محمد نبيه أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بدلتموه من مهجكم ، مقارعة الأعداء ، وتقبل منا ومنكم ما تقربت به إليه من مهراق الدماء ، وأتابكم الجنة فهي دار السعداء ، فاقدروا - رحمكم الله - هذه النعمة حق قدرها ، وقوموا لله بواجب شكرها ، فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة ، وترسيخكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء ، ونبئت

(١) النساء ١٧١/٤

(٢) المائدة ١٩/٥

بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقرَّبون ، وقرَّ به عيننا الأنبياء والمرسلون ، فإذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدس في آخر الزمان ، والجند الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة من الرسل قواعد الإيمان ، فيوشك أن تكون التَّهاني به بين أهل الخضراء ، أكثر من التَّهاني به بين أهل الفراء .

ليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه ، ونص عليه في خطابه ، فقال تعالى : « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى (١) » ؟

ليس هو البيت الذي عظَّمته الملل ، وأثنت عليه الرسل ، وثبت فيه الكتب الأربعة المنزلة من إلهكم عز وجل ؟

ليس هو البيت أمسك الله - عز وجل - فيه الشمس على يوشع لأجله أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب ؟

ليس هو البيت الذي أمر الله تعالى موسى أن بأمر قومَه باستنقاذه ، فلم يجبه إلا رجلاً ، وغضب عليهم من أجله والقاهم في التيه عقوبة العصيان ؟

فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل ، وقد فضَّلهم على العالمين ، ووفَّقكم لما خذل عنه أمم مما كان قبلكم من الأمم الماضية ، وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته (كان) و (قد) عن (سوف) و (حتى) .

فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم جنداً ، وشكر لكم المنزلون على ما أهديتهم إلى هذا البيت من طيب التوحيد ، ونشر التقديس والتحميد ، وما أمطتم فيه عن طريقه من أذى الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاسد الخبيث ، فهو الآن يستغفر لكم أملاك السموات ، ويصلي عليكم الصلوات المباركات .

فاحفظوا - رحمكم الله - هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم ، ومن اعصم بعرونها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ، ومواقف الردى ، ورجوع القهقري ، والنكول عن العدا ، وخذوا في انهزام الفرصة ، وإزالة ما بقي من الغصة ، وجاهدوا في الله حق جهاد ، وبيعوا أنفسكم - عباد الله - في رضاه ، إذ جعلكم من عبادِهِ ، وإياكم أن يستدلّكم الشيطان ، وأن يتداخلكم الطفیان ، فيخيل إليكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد . وبخيولكم الجياد ، وبجلادكم في مواضع الجلال . والله « ما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم » (١) .

واحذروا - عباد الله - بعد أن شرّفكم بهذا الفتح الجليل ، والمنح الجليل ، وخصكم بهذا النصر المبين ، وألق أيديكم بحبله المتين ، أن يقترفوا كبيراً من مناهيه ، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه ، ف « تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً » (٢) ، و « الذي آتيناه آياتنا ، فانسلخ منها ، فاتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين » (٣) .

والجهاد الجهاد ، فهو أفضل عبادتكم ، وأشرف عاداتكم ، انصروا الله ينصركم ، اذكروا الله كثيراً يذكركم ، اشكروا الله يزدكم ويشركم ، جدّوا في حسم الداء ، وقطع شأفة الأعداء ، وتطهير بقية الأرض التي اغضبّت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر ، واجتثوا أصوله ، فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية والملة المحمدية .

الله أكبر ، فتح الله ونصر ، وغلب وقهر ، واذلّ الله من كفر ، واعلموا - رحمكم الله - أن هذه فرصة فانتهزوها ، وفريسة فناجزوها ، ومهمة فأخرجوا إليها هممكم وأبرزوها ، وسيروا إليها سرايا عزماتكم وجهزوها ، فالأمور بأواخرها ، والمكاسب بدخائرها ، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخلول ، وهم مثلكم أو دون ، فكيف وقد أضحى في قبالة

(١) الأنفال ١٠/٨ .

(٢) النحل ٩٢/١٦ .

(٣) الأصراف ١٧٥/٧ .

الواحد منهم منكم عشرون ، وقد قال تعالى : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » (١) .

اعانتنا الله وإياكم على اتباع أوامره ، والازدجار بزواجه ، وأيدنا - معشر المسلمين - بنصر من عنده « إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمَنْ ينصركم من بعده » (٢) .

* * *

اللهم ، وادِّمْ سلطانَ عبدك الخاضع لهيبتك ، الشاكر لنعمتك ، المعترف بموهبتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، والمحمي عن دينك الدافع ، والذاب عن حرمك وحرمة رسولك الممانع ، السيد الأجل الملك الناصر ، جامع كلمة الإيمان ، وقامع عبدة الصُّلْبَان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مطهر البيت المقدس . أبي المظفر يوسف صلاح الدين بن أيوب ، محيي دولة أمير المؤمنين .

اللهم ، عمِّ بدولته البسيطة ، واجعل ملائكتك براياته محيطة ، واحسن عن الدين الحنيفي جزاءه ، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه .

اللهم ، أبقِ للإسلام مهجته ، ووقِّ للإسلام حوزته ، وانشر في المشارق والمغارب دعوته .

اللهم ، فكما فتحت على يديه البيت المقدس بعد أن ظننت به الظنون ، وابتلي المؤمنون ، فافتح على يديه داني الأرض وقواصيها ، وملئته صياحي الكفر ونواصيها ، فلا يلقى منهم كتيبة إلا مزقها ، ولا جماعة إلا فرقها ، ولا طائفة بعد طائفة إلا أحرقها بمن سبها .

اللهم ، ذلِّل معاطس الكفار ، وأرغم به أنوف الفجار ، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار ، وأثبت سرايا جنوده في سبيل الأقطار .

(١) الأنفال ٦٥/٨ .

(٢) آل عمران ١٦٠/٣ .

اللَّهُمَّ ، ثَبَّتْ الْمَلِكُ فِيهِ وَفِي عَقْبِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، وَاحْفَظْهُ فِي بَنِيهِ
وَبَنِي أَبِيهِ الْمُلُوكِ الْمِيَامِينَ ، وَاشْدُدْ عَضْدَهُ بِقَائِهِمْ ، وَافْضِرْ بِإِعْزَارِ أَوْلِيَائِهِ
وَأَوْلِيَاءِهِمْ .

اللَّهُمَّ ، فَكَمَا أَجْرَيْتَ عَلَى يَدِهِ فِي الْإِسْلَامِ هَذِهِ الْحَسَنَةَ الَّتِي تَبْقَى عَلَى
الْأَبَامِ ، وَتَتَخَلَّدُ عَلَى مَرُورِ التَّهْوِيرِ وَالْأَعْوَامِ ، فَارْزُقْهُ الْمَلِكُ الْأَبْدِيَّ الَّذِي
لَا يَنْفَدُ فِي دَارِ الْمُتَّقِينَ ، وَاجِبْ دَعْوَتَهُ وَدَعَاءَهُ فِي قَوْلِهِ : « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ
أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدِي » ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ،
وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١) « (٢) .



وجديرٌ بالذكر أن خطيب الفتح محيي الدين بن الزكي خطب بالبست
المقدس بعد هذه الخطبة ثلاث خطب في الموضوع نفسه ، وكلها من إنشائه .
تطرق الخطباء في خطبهم إلى معان ومواضيع دينية شتى ، فمن ذلك
خطبة انتأها الشهاب محمود في وصف الرمي بالنشاب ، وفيها يقول :
« وبعد : فإن الرمي أفضل ما أعد للعدا ، وأكمل ما أفيض به على أهل الكفر
رداء الردى ، وأبلغ ما يبعث إلى المقاتل من رسل المنون ، وإنفع ما يقتضى
به في ألوغى من أعداء الدين الديون ، وأسرع ما تبلغ به المقاصد فيما يرى
قريباً وهو أبعد ما يكون ، ومن شرف قدره الذي دل عليه كلام النبوة أن
النبي (ص) نبه على أنه المراد لقوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم
من قسوة » (٢) ، ومما يرفع قدر السهم على غيره ويفضله ، ما روي عنه
صلى الله عليه وسلم من أنه يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه
يحتسب في صناعته الخير ، وراميّه ، ومنبله . ومن خصائص القوس أنها
عقيم ذات بنين ، صامتة وهي ظاهرة الأنين ، لها كبد وهي غير مجوفة ،
ويد لا تملك شيئاً وهي في الأرواح متصرفة ، ورجل ما ثقلت قدماً ، وقبضة

(١) النمل ١٩/٢٧ .

(٢) ابن راسل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢١٨ - ٢٢٨ ، وأبو شامة : الروضتين ،

ج ٢ ص ١١٠ ، وابن شداد : الأملق الخطيرة ج ١ ص ٢١١ - ٢٢٠ .

(٣) الانفال ٦٠/٨ .

ما عرفت أثراً ولا عدماً ، فهي نون ما الف ألماء ، وهلال ما سكن السماء ، وقافية ما باشرت الدماء » (١) .

نلاحظ أن الخطب الدينية تميزت بالنقسيـم المنطقي ، فهي تبدأ عادة بحمد الله ، وتتلوه الخطبتان : الأولى فالتانة ، وتختتم بالدعاء وإقامة الصلاة . كما نلاحظ أن الخطباء كانوا يلجؤون إلى الأسلوب المسجع ، وهذه الظاهرة التقليدية هي التي طبعت بها الخطب الدينية في هذا العصر .

(٢)

الخطب الحربية

لا شك أن الأحداث الكبرى في هذا العصر استدعت ازدهار الخطب الحربية لإنارة الحمية في قلوب الجند ، وهي تمتاز بالإيجاز والبعد عن التكلف والسجع وغير ذلك من الزخارف الأسلوبية المعروفة في هذا النوع من الخطب الحماسية . ويظهر أن الظروف الطارئة والحوادث المفاجئة كانت تستدعي إنشاء الخطب الحربية وارتجالها لتلبي الأغراض التي أنشئت من أجلها والدواعي التي قيلت خلالها . ذكر القاضي بهاء الدين بن شداد أن السلطان أمر جنده بالانتقال إلى الخروبة ، وكان من جملة ما سمعهم ، فخطبهم قائلاً : « باسم الله ، والحمد لله ، والصلاة على رسول الله . اعلّموا أن هذا عدو الله وعدونا ، قد نزل بلدنا ، ووطئ أرض الإسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليهم ، إن شاء الله تعالى ، وقد بقي العدو في هذا الجمع اليسير ، ولا بد من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك ، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ، ليس وراءها نجدة ننتظرها سوى الملك العادل ، وهو راحل ، وهذا العدو ، وإن بقي وطال أمره إلى أن ينفتح البحر ، جاءه مدد عظيم ، والرأي كل الرأي عندي مناجزته ، فليخبرنا كل منكم ما عنده في ذلك » (٢) .

(١) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ح ٢ ص ٣٠٤ ، وأبو شامة : الروضتين ، ح ٢ ص ١٤٦ .

تلك هي أنماط من فن الخطابة في هذا العصر ؛ بعضها مسجع ، وبعضها مطلق ، وبعضها التزم السجع حيناً ، ونجرد منه حيناً آخر ، وذلك طبقاً للظروف الطارئة التي يكون فيها الخطيب ، فإن سبق له إعدادها جاءت مسجعة ، وإن أرنجلها جاءت جامعة للأسلوبين معاً .

ظهرت في هذا العصر الخطب التدريسية ، نشير من ذلك إلى الخطب التي كان الفقهاء يفتتحون بها مواسم الدراسة في المساجد أو المدارس التي يسند إليهم التدريس أو التحديث فيها ، وظهرت أيضاً الخطب الدفاعية ، ولنا في مناقشات ابن تيمية خلال مجالس الحكم التي عقدت من أجله لمناقشته ومناظرته خير شاهد على أهمية هذا النوع من الخطب المستحدثة في هذا العصر .



القسم الثاني

النشر الديواني

تحدث القلقشندي عن ديوان الإنشاء والمكاتبات ، فذكر « أنه لا يتولاه إلا أجلّ كتاب البلاغة ، ويخاطب بالأجل ، وكان يقال له عندهم : كاتب الدست الشريف » (١) ، وهو الذي تسلم إليه المكاتبات الواردة مختومة ، فيعرضها على الخليفة أو السلطان ، ويتولى حفظها والإجابة عنها .

يشتمل النشر الديواني على كتب التقاليد والتواقيع والمناشير ، وكتب الفتوح والتهاني ، وكتب الجهاد والنفير . ازدهر هذا النوع من النشر لأنه لغة التخاطب بين الحكام وعمالهم ونوابهم ، ولأن الأحداث الكبرى التي مرت على البلاد في هذا العصر استدعت تطور النشر الديواني ، وسوف نعرض في هذه الدراسة لمختلف أنواعه المعروفة .

(١)

كتب التقاليد والتواقيع والمناشير

انتشرت هذه الكتب بين أيدي الناس ، واحتفظوا بها لأهميتها ، إذ إنها مظهر من مظاهر الصلة بين الحاكم والمحكوم ، وقد أشار الشهاب محمود إلى هذا النوع من النشر الديواني ، وذكر أن في أيدي الناس مما كتبه فيه الشيء الكثير (٢) ، ثم تحدث لنا عن هذا النوع من النشر ، فهو يرى أن

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٢ ص ٤٩٠ .

(٢) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١١٠ .

« الأحسن فيها بسط الكلام ، وتعتبر كثرته وقلته بحسب الرتب » (١) .
 وطلب أن براعى فيها أمور كثيرة : منها براعة الاستهلال ، ومراعاة المناسبة ،
 وما تقتضيه الحال ، واختيار الكلام والمعاني ، فإنه مما يسّيع ويذبح ، ولا
 يعذر المقصر في ذلك بعجلة ولا نسيق وقت (٢) .

يقسم التقليد عادة إلى أربعة أقسام متقاربة المقادير : فالأول مخصص
 لخطبة التقليد ، وهى حمد الله على إنعامه ، وتكون مطولة لا تقل عن سائر
 أقسام التقليد ، والثاني مخصص لذكر مواقع الإنعام في حق المقلد ، وذكر
 الرتبة وتفخيم أمرها ، والثالث « في أوصاف المقلد ، وذكر ما يناسب تلك
 الرتبة ، ويناسب حالة من عدل وسياسة ومهابة ، وبعده صيت وشجاعة
 إن كان نائباً ، ووصف العدل والرأي وحسن التدبير والمعرفة بوجوه الأموال ،
 وعمارة البلاد واصلاح الأحوال ، وما يناسب ذلك إن كان وزيراً ، وكذلك
 كل وتبة بحسبها » (٣) ، والرابع مخصص للوصايا التي يجب على المقلد
 أن يوصي بها المقلد .

نذكر من ذلك كتاب السلطان صلاح الدين إلى الخليفة لضم الموصل
 بعد موت صاحبها غازي بن مودود بن زنكى ، وهو من إنشاء العماد الكاتب :
 « قد عرف اختصاصنا من الطاعة والعبودية ، للدار العزيزة النبوية ، بما
 لا يختص به أحد ، وامتدت اليد منا في إقامة الدعوة الهادية بمصر واليمن
 والمغرب ، بما لم تمتد إليه يد ، وأزلنا من الأقاليم الثلاثة ثلاثة أدعياء ،
 وخلفناهم للردى حيث دعوا بلسان الغواية خلفاء ، ولا خفاء أن مصر إقليم
 عظيم ، وبلد كريم ، حتى أنقذها الله من عبيد بني عبيد ، وأطلقها بمطلقات
 أعنتنا إليها من عناء كل قيد ، وفيها شيعه القوم ، وهم غير مأموني السرّ
 إلى اليوم ، وطوائف أقاليم الروم والفرنج بها مطبقة ، فمن حقها أن يتوافر
 عسكريها ، فلو حصل ، والعياذ بالله ، بها فتق لأعضل رتقه ، واتسع على

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠١ .

البراقع خرقة ، واحتجنا لحفظ بلاد الشام ونفور الإسلام إلى استصحاب
العسكر المصري إليها ، وله خمس سنين في بَيْتِكارها (١) ، منتقماً من كفارها ،
متحملاً لمشاقها ، على غلاء أسعارها ، وإنما أخرج إلى ذلك أن بلاد هذا الثغر
قد اقتطعت عنه ، وعساكرها أخذت منه « (٢) » .

وجاء في توقيع أنشأه خالد بن القيسراني ، ابن الشاعر المتقدم ذكره ،
لنور الدين بإلغاء الضرائب التي كانت تؤخذ من المواطنين بغير وجه حق ،
ومما قاله : « وقد علمتم معاشر الرعايا ، وفقكم الله ورعاكم ، ما كان مرتباً
من المظالم المجحفة بأحوالكم ، والمكوس المستولية على شطر أموالكم ، والرسوم
المطبقة عليكم في أرزاقكم ، والمؤن التي تساهمكم في منافع أملاككم . واستمرار
ذلك عليكم ، إلى أن فوض الله عز وجل إلينا تدبير أموالكم ، واسرعنا على
كبيركم وصغيركم ، فأمرنا بإزالة ذلك عنكم أولاً ، فأولاً ، وقد كان بقي من
رسوم الظلم ومعالم الجور في سائر الأعمال بولاياتنا ما أمرنا بإزالته الآن ،
واضفنا إلى ذلك ما كنا اسقطناه أولاً ، رافة ولطفاً ، وتخفيفاً عليكم وعطفاً ،
« الآن خفف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفاً (٣) » (٤) » .

وجاء في تقليد كتبه الشهاب محمود لسلامس بمملكة الروم حين ورد
كتابه قبل حضوره قوله بعد خطبة التقليد : « وليعلم أن جيوشنا في المسير
إليه ، متى قصد عدواً سابقت خيولنا خيالها ، وجارت جيادنا ظلالها ، وأبت
سناكبها أن تجعل غير جماجم الأعداء نعالها ، وها هي قد تقدمت وأقدمت ،
ونهبضت لإنجاده ، فلو سامها أن تخوض البحار في سبيل الله لخاضت ،
أو تصدم الجبال لصدمت » (٥) » .

وجدير بالذكر أن كتب التواقيع وغيرها كانت تجهز إلى البلاد كلها ،

(١) بَيْتِكار : لفظة من أصل فارسي ، ومعناها الحرب (Dozy. S. Dic Vol I.P 136)

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب : ج ٢ ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٣) الأنفال ٦٦/٨ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٥) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١١٤ .

وتحمل منها نسخ كثيرة لتوزع فيها ، وهي صورة طبق الأصل عن التوقيع الأصلي . ويلاحظ أنها توضح لنا بعض مظاهر الحياة الهامة ، وهي بنصوصها تسجل لنا مظهراً من أدب هذا العصر وعلاقته الوثيقة بالحياة السياسية ، بيد أنها تبدو بعيدة الصلة عن الحياة النفسية والعاطفية بعض البعد ، فهي ذات طابع رسمي وظبفي أكثر منها ذاتية أو تأملية ، بيد أننا يجب ألا نفقدها أهميتها ، إذ إننا نعرف منها صورة الحاكم المثالي كما يفترض أن تكون ، وصورة القاضي النزيه العادل ، وصورة الخطيب المفوّه ، وهكذا نستطيع أن نتبين بدقة أهمية كتب التقاليد التي توضح الآداب السياسية والسلوك الأمثل الذي يجب أن يتمسك به الإنسان الفاضل .

(٢)

كتب التهاني والفتوح

شهدت بلاد الشام في هذا العصر أحداثاً سياسية وحربية كبرى ، لم تشهد لها مثلاً من قبل ، وكانت الفتوح تتوالى ، وتشهد البلاد الاحتفالات بما تحرزه الجيوش من ظفر ، وكانت كتب التهاني المبسرة بهذه الفتوح تحملها الركبان إلى كل مكان .

جاء في كتاب السلطان صلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن قوله بعد فتح اللاذقية بإنشاء العماد الكاتب : « وهذه اللاذقية مدينة واسعة ، وخطة جامعة معاقلها لا ترام ، وأعلاقلها لا تُستام ، وهي أحسن بلاد الساحل وأحصنها ، وأزيدها أعمالاً وصناعاً وأزينها ، وما في البحر مثل مينائها ، ولا للمراكب الواردة إليها مثل مرساها ، وهي جنة كان يسكنها أهل الجحيم ، وطالما مكثت بالكفر دار بؤس ، فعادت بالإسلام دار نعيم » (١) .

وجاء في كتاب صلاح الدين إلى الخليفة الإمام الناصر لدين الله بإنشاء عمادي قوله بعد خطبة الكتاب ، وذكر الفتوح التي أفاءها الله على المسلمين :

(١) ابن واصل : مغرر الكروب ، ج ٢ ص ٢٦٠ .

« وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، سخرها الله على الكفار ، فترى فيها القوم صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وإذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خاوية ، ورأيتها إلى الإسلام ضاحكة ، وكانت من الكفر باكية » (١) .

ثم قال : « وقد أصدر هذه المطالعة ، وصليب الصليبوت مأسور ، وقلب ملك الكفر الأسير بجيشه المكسور مكسور » ، والحديد الكافر الذي كان في يد الكفر يضرب وجه الإسلام ، قد صار حديداً مسلحاً يعوق خطوات الكفر عن الإقدام ، وانصار الصليب وكبارهُ ، وكل من العمودية عمدته والدير دارهُ ، قد أحاطت به القبضة ، وغلق رهنه ، فلا يقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وطبرية قد رفعت أعلام الإسلام عليها ، ونكصت من عكا ملة الكفر على عقبها ، وعمرت إلى أن شهدت يوم الإسلام وهو خير يومها ، وقد صارت البيع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر ، وصارت المذابح مواقف لخطباء المنابر ، واهتزت أرضها لموقف المسلم فيها وطالما ارنجت لموقف الكافر » (٢) .

نلاحظ أن النثر كالشعر يصف لنا الأحداث الكبرى ، ويبرز دقائقها ، وهو كما رأينا يغلب عليه الطابع الديني والحربي .

لم تكن التهاني لتقتصر على الفتوح ، وإنما كانت تبعث لأغراض مختلفة ، نذكر من ذلك ما كتبه ابن الأثير في صدر كتاب بعث به إلى الملك الأفضل بهنئه بملك مصر سنة ٥٩٥ هـ ، وجاء فيه قوله : « المملوك يهنئ مولانا بنعمة الله المؤذنة باستخلاصه واحتبائه حتى بلغ أشده ، واستخرج كنوز آبائه ، ولو أنصف لهناً الأرض منه بوابلها ، والأمة بكافلها ، وخصوصاً أرض مصر التي خست بشرف سكناه ، وغدت بين بحرين من فيض البحر وفيض يمناه » (٣) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، وأبو شامة : الروستين ، ج ٢ ص ٨٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٠٣ - ٢٠٥ ، وأبو شامة : الروستين ، ج ٢ ص ٨٩ .

(٣) الصديقي السابقان .

كانت هذه الكتب تسيّر إلى الجهات في أيام الحرب إثر الفتوح والظفر ،
وفي أيام السلم للتهنئة بملك أو سلطان أو ما إلى ذلك .

(٣)

كتب الحرب والنفير والجهاد

أسهم كتاب هذا العصر في وصف الحروب ، وكان لكتاب الإنشاء أوفر نصيب في هذا المضمار ، نورد من ذلك مثلاً ما ذكره العماد الكاتب في وصف الأساطيل المنصورة التي استدعاهما السلطان من مصر ، ومما قاله : « فجاءت كالفتح بالفلك المواخر ، وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجاً ، وأفواج تراحم أفواجاً ، ندب على البحر عقاربها ، وتحف كقطع الليل سحائبها ، والحاجب لؤلؤ مقدمها ومقدمها ، وضغام غايتهما وهمامها ، فطفق يكسر وبكسب ، ويسل ويسلب ، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه ، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه » (١) .

ومن ذلك أيضاً قول ابن الأثير الكاتب في وصف القتال : « وأقبلت احزاب الكفر ، وهي معتصمة بصليبيها ، ورفعته على أعواد عالية كهيئة خطيبها ، ولم تعلم أن الله كتب عليه الهوان بعد تلك الكرامة ، وأنه ذو شعب أربع ، والتربيع نحس في حكم النجامة ، وكيف نرجو بكفرها ظهوراً ، ولها منه معنى الاختفاء ، وللإسلام معنى السلامة » (٢) .

ومن ذلك قوله أيضاً في وصف النفير للجهاد : « فسرنا في غمامة من الكتائب ، تظللها غمامة من الطيور الأشائب ، فهذا يضمها بحر من حديد ، وهذا يضمها بر من صعيد ، وما مرت ببلد إلا أزالته أرضه من سمائه ، والبست نهاره ثوب ظلماته ، وبدلت أحراره بعبيده ، وحرائره بإمائه » (٣) .
نخلص من ذلك إلى القول إن هذا النوع من النثر شأنه شأن سابقه ،

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢١١ .

(٢) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٩١ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٨ .

فهو يعتمد أكثر ما يعتمد على الوصف الدقيق ، وإيراد كل صغيرة وكبيرة ، بيد أنه يفتقر إلى الحرارة العاطفية ، وينقصه الشعور الذاتي ، وبنضال فيه الانفعال النفسي ، وهي التي سوف نجدها في بحث النثر الوجداني والذاتي .

(٤)

كتب الوثائق العربية

لاحظنا في الكتب التاريخية وثائق هامة مترجمة كانت مظهرًا من العلاقات السياسية بين الدول الإسلامية والأجنبية المجاورة ، وقد ترجم هذه الكتب المتبادلة الكتاب المختصون في ديوان الإنتماء ، وقد رأينا أعلام الكتاب في هذا العصر كالعماد الكاتب وابن الأثير يجيدون الإنشاء في بعض اللغات الأجنبية المنتشرة في هذا العصر كالفارسية وغيرها .

نذكر من ذلك كتاب « كافيوس » الأرمني صاحب قلعة الروم إلى الناصر صلاح الدين : « كتاب الداعي المخلص كافيوس ، مما أطلع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الملك الناصر ، جامع كلمة الإيمان ، رافع علم العدل والإحسان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، من أمر ملك الألمان ، وما جرى له عند ظهوره . وهم أجناس متفاوتة وخلق غريبة ، وهم على قصد عظيم ، وجد وسياسة هائلة ، حتى إن من جنى منهم جناية ليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة ، وقد حرموا الملاذ على أنفسهم ، وكل ذلك كان حزنًا على بيت المقدس ، ولقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة ، وحرموها على أنفسهم ، ولم يلبسوا إلا الحديد ، حتى أنكر عليهم الأكابر ذلك : وهم من الصبر على الدل والشقاء والتعب في حال خظيم » (١) :

وكان بين الناصر صلاح الدين وملك القسطنطينية مراسلة ومكاتبة ، وكان لديه رسول من قبله ، ولما مات أنفذ رسولاً آخر ، وحمله رسالة إليه

(١) ابن واصل : مغرر الكروب ، ج ٢ ص ٢٢٠ - ٢٢٢ .

يقول فيها : « من إيساكْيوس ، الملك المؤمن بالمسيح الإله ، المتوج من الله ، المنصور العالي أبداً ، أففقوس المدبر من الله ، القاهر الذي لا يقلب ، ضابط الروم بذاته أنكلوس ، إلى النسب سبطان مصر صلاح الدين والحمية والمروءة . وقد وصل خط نسبك الذي أنفذت إلى ملكي ، وقرانه من أن رسولنا توفي ، وحزنا عليه ، حيث إنه توفي في بلد غريب ، وما قدر أن يتم كل ما رسم له ملكي ، وأمره أن يتحدث مع نسبك ، ويقول في حضرتك ، ولا بد لنسبك أن تهتم بإنفاذ رسول إلى ملكي مع رسول المتوفى ، والقماش الذي خلفه ، ويوجد بعد موته لنعطيته أولاده وأقاربه ، وما أظن أنه يسمع من نسبك أخباراً ودية ، وأنه قد سافر في بلاد الألمان ، ولا عجب فإن الأعداء يرجفون بأشياء مكذوبة على قدر أغراضهم ، ولو تشتهي أن تسمع الحق فإنهم قد تأذوا وتعابوا كثيراً أكثر مما تعب فلاحو بلادك ، وقد خسروا من المال والدواب والرجال ، ومات منهم وقتلوا ، وبالشدة قد تخلصوا من أيدي أجناد بلادتي ، وقد ضعفوا بحيث أنهم لا يصلون إلى بلادك ، فإن وصلوا ضعفاً بعد شدة كبيرة ، لا ينفعون جنسهم ، ولا يضرّون نسبك . وبعد ذلك : كيف نسيت الذي بيني وبينك ؟ كيف ما عرفت للكي شيئاً من المقاصد والمهمات ؟ وما ربح ملكي من محبتك إلا عداوة الإفرنج وجنسهم » (١) .

وقف صلاح الدين على هذه الترجمة ، وأكرم الرسول ، وأحسن مثواه ، وكان شيخاً عارفاً بالرومية والفرنجية .

نخلص من كل ذلك إلى أن نقرر أن النثر الديواني يختلف في أساليبه قوة وضعفاً ، وسجعاً وانطلاقاً ، بحسب الموضوع المطروق أولاً ، وبحسب المنشئ أو المترجم نانياً . وسوف نعرض لكل ذلك خلال حديثنا في الفصل المقبل عن الأساليب النثرية ومذاهبها الأدبية وانجاهاتها المتباينة .

يضاف إلى ما تقدم أن الكتاب كانوا يكتبون هذه الرسائل بحكم واجبه الديواني كعمل منوط بهم ، ويكاد يكون عقيماً أن نعثر في هذه الرسائل

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية ، ص ١١٥ - ١١٧ .

على حرارة تنبض بها ذواتهم وعواطفهم ، إذ إن النفوذ العقلي والتصنع البلاغي كانا بارزين فيها كل البروز حتى ليستحيل علينا أن نجد بين سطورها العاطفة الصادقة والشعور الإنساني المتقد . كان هم الكتاب أن يظهر براعتهم البيانية ، ومهارتهم الأسلوبية لكي يشعروا السلاطين والحكام أنهم وحدهم الذين يقام بالاعتماد عليهم دعائم الملك والسلطان ، وأن أساليبهم هي التي ملكتهم البلدان ، وهم في ذلك يحاولون الهيمنة على عقولهم ليعتقدوا أنهم سحرة البيان وأربابنه .



القسم الثالث

النشر الوصفي

يتضمن النشر الوصفي كتب التاريخ المسجع ، وكتب التراجم والرحلات وأوصاف الرياضات المعروفة في هذا العصر ، وشتى الأوصاف الأخرى ، وهو - على الغالب - مسجع الفواصل متوازن الفقرات .

(١)

التاريخ المسجع

لاحظنا أن بعض الكتاب قد استخدموا الأسلوب المسجع في التصانيف التاريخية ، نذكر مثلاً العماد الكاتب ، وقد صنف كتابين مسجوعين : أحدهما الفتح القدسي ، وثانيهما البرق النامي ، وسبق لنا أن ذكرنا رأي أبى شامة القدسي في هذا المسجع ، ورأينا أنه يمل القارئ ، ويخرجه عن الحوادث التاريخية التي يتقصاها ، وأشرنا إلى أنه حذف معظم الأسجاع ، وأبقى منها ما استحسنته لكي يفهم الكلام الخاص والعام .

يبدو أن الكتاب ، أصحاب مذهب الأسلوب المسجع ، حاولوا أن يطبعوا مؤلفاته بطابعها الخاص ، بيد أن الآخرين من المؤرخين ، وهم الكثرة ، لم يلتزموا المسجع هذا الالتزام ، وإنما تركوا لعنانهم القلم ، فكان أسلوبهم طليقاً في معظم الأحيان :-

(٢)

التراجم والرحلات

رأينا أن أغلب كتب الرحلات والتراجم كانت لا تلتزم الأسلوب المسجع المعروف في هذا العصر ، فنرى مثلاً القاضي ابن شداد يؤرخ ترجمة موله صلاح الدين في النوادر السلطانية بأسلوب طليق مجرد من أي زخارف بديعية أو تصنع بياني . نذكر منه قوله : « وكان الله قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيت ، وحبه الجهاد ، فأحببته لذلك ، وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين ، وهو يوم دخول الساحل ، وجميع ما حكيتُه إنما هو روايتي عن أثق به ممن شاهده ، ومن هذا التاريخ ما سطرت إلا ما شاهدت ، أو أخبرني به من أثق خبره يقارب العيان » (١) . ونجد الأمر نفسه عند أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار وقد رأينا أنه تحرر مثله من قيود السجع وتكلف الزخارف البديعية .

كانت الترجمة الذاتية ذات شأن كبير في أدب هذا العصر ، فقد كثرت الرحلات في المشرق والمغرب ، وقد حاول الرحالة أن يعرضوا لنا جانباً من حيواتهم ، وبصوروا لنا ما حصل لهم ، وكانت هذه المؤلفات بحق كسباً أدبياً كبيراً لتراجم الذاتية ، نشر من ذلك إلى رحلة ابن جبير ، وهي ذات أهمية كبرى ، إذ هي صورة عن الحياة الاجتماعية ، وهي تعد صورة واقعية صادقة عن مراحل حياة الرحالة الكبير . يضاف إلى ذلك كتب المتصوفة ، فهي في الحقيقة تحتوي على جانب كبير من تراجم التصوف وذكر أحوالهم المادية والروحية ، ويبدو ذلك واضحاً عند ابن عربي في ترجمان الأشواق وغيره من مؤلفاته الصوفية .

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٧١ .

(٣)

أوصاف الرياضات والطرديات

تحدث الشهاب محمود بالتفصيل عن هذا النوع من النثر الذاتى ، وذكر أنه « مما يحسن بسط الكلام فيه ، ويكون الكاتب مطلق العنان ، مخلى بينه وبين فصاحته ، موكولاً إلى اطلاعه وبلاغته » (١) .

يتضمن هذا النوع وصف الخيل والجوارح والسلاح وآلات الحرب ، وأنواع الرياضات المختلفة من لعب الكرة ورمي البندق ، ولا نبالغ إن فلنا : إن الرياضة الأخيرة أصبحت مع الزمن موضوعاً رئيسياً في أدب هذا العصر ، طرقة الكتاب والتعراء على السواء . أورد الشهاب محمود رسالة في البندق « تشتمل على أنواع من الأوصاف ، وفنون من النثر والنظم ، يستعين بها الكاتب على ما يشاء من إنشاء قدمه في أي نوع أراد من الطير الواجب » (٢) . يقول في مقدمتها : « الرياضة نبعث النفس على مجانبة الدعة والسكون ، وتصونها عن مشابهة الحمام في الركون ، وتحضها على أخذ حظها من كل فن حسن ، وتحثها على إضافة الأدوات الكاملة للسن ، وتأخذ بها طوراً في الجِد وطوراً في اللعب ، وتصرفها عن ملاذ السمو في المشاق التي يستروح إليها النصب » (٣) . ثم ينتهي من هذه المقدمة ليصف لنا بروزه للصيد في وقت الأصيل ، فيتحدث عن الطبيعة والجداول والطيور والنسائم ، يستطرد بعد ذلك ليعرض مجموعة منها ، وقد « أصبحت أشلاؤها على وجه الأرض كفرائد خانها النظام » (٤) .

(١) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ٩٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

أختار هذه الرسالة صديقه جمال الدين بن نباتة المصري أمير شعراء
المشرق ، وأوردها كاملة في كتابه « سجع المطوق » (١) :

(٤)

المقامات الغنية

يبدو أن فن المقامات لم يزدهر كثيراً في هذا العصر ، ولم يهتم به
أدباؤه ، ولم يستخدموه في المعاني والأغراض التي أنشئ من أجلها على
يد الهمداني والحريري . كما أن قلة النصوص التي وصلتنا عن هذا الفن
تحول بيننا وبين الحكم عليه حكماً موضوعياً قائماً على البحث والدراسة .
ومن بين المقامات التي وصلتنا بعض ما جاء في « مقامة مرصعة نصف فيها
الحال بعد وقعة حلب مع التتار » (٢) ، وقد ألفها الشيخ جمال الدين عمر
ابن الحسين الرسعني ، وذكر فيها وقعة حلب المذكورة ، وعدها ابن الوردي
من أحسن ما قيل في ذلك : « هذا وقد نزلت فنون البلاء بالشام ، وهملت
عيون العناء كالقمام ، وصار شام الإسلام كالوشام ، وعرام الأنام في عزام ،
وخفيت آثار المآثر ودرست وأطفئت أنوار المنابر وطمست ، وحلبت العيون
ماءها على حلب ، وسكبت الجفون دماءها من الصلب ، والنف عليها الختل
والاختلال ، واحتف بها القتل والوبال ، واختطف من أعبانها عرائس الشموس
والأقمار ، واقتطفها من أغصانها نفائس النفوس والأعمار ، فستر سفور
السرور ، ونشر ستور السرور ، وتخربت الدور والقصور ، ونحرت الحور
في النحور ، وجرت عيونها على أعيانها ، وهمت جفونها على شبابها ، بدموع
جرت نجيعاً ، لفظوع طرت سريعاً ، ونما الطفيان والغش في روضة الشام ،
وسما العدوان في عش بيضة الإسلام ، ورفعت الصلبان على المساجد ،
ووضعت الأديان والمعابد ، حتى بكى على الوجود الجلمد ، وشكا إلى المعبود
السرمد ، ولما تعظم العدو وتكبر ، وتقدم بالعتو وتجبر ، وبسط سيفه على

(١) ابن نباتة : سجع المطوق (مخطوط) و ٦٩ .

(٢) ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج ٢ ص ٢١٥ .

الخافقين ، وهبط خوفه على المشرقين ، أطلع الله طلائع اللواء المظفر ، وأبدع مطالع السناء الأنور ، وخفقت السرايا والبنود ، وشرقت الآيات والسعود بانجذاب الكفار إلى كنعان ، وانسحاب الفجار إلى الهوان » (١) .

نلاحظ في هذا النص الذي اقتطفه ابن الوردي في مقامة الرسعني الطويلة أن هذه المقامة لم تحتفظ من صفات المقامات إلا بأسلوبها المرصع المملوء بالزخارف البديعية والصور البيانية. أما البطل الأسطوري والراويّة التقليدي والفصة المحبوبة ، فلا نجد لها أثراً أبداً .

وجدير بالملاحظة والذكر أن الحسن بن صافٍ (المتوفى سنة ٥٦٨ هـ) أنشأ مقامات حذا فيها حذو الحريري ، وإن الشاب الظريف أنشأ مقامات العشاق ، وفيها يصف حبه وخروجه لرياض والتقاءه بعاشقين وحدينه معهما ، وقد استهلها بقوله :

« لم أزل مذ بلغت سنّ التمييز ، أتولّع بنظم الأراجيز ، ومذ شبّ عمري عن الطوق ، منفرى بالفرايم والتوق ، أعتمد خلع العذار ، في حبّ السالف والعذار ، وأهيم بالشّمول والشّمائل ، وأشرب في زجاجة صفراء كالأصائل ، وأقدم على رشف ثغور البيض ، وأنوجه لضمّ أعطاف السّمير ، ولا أتوجّع لضيم أعطاف السّمير ، وأتنزّه في كلّ نادٍ ووادٍ ، وأتنزّه عن كلّ معاندٍ ومعادٍ ، فخرجت بعض الأيام إلى الفياض ، وولجت بين حياضٍ ورياض ٠٠٠ » (٢) .

واختتمها بقوله :

« فما بقي أحد حتى رقّ له ، وودّ لو حمل جدّه وثقله ، ثم عزّمتنا على التفريق ، وذهب كلّ من الجماعة في طريق ، فأبّت وقد ملّيت وملّيت »

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٢) الشاب الظريف : مقامات العشاق ، ص ١ .

من الطرب ، ودُهِشْتُ لما شهدتُ في يومي من العجب » (١) .

يضاف إلى ذلك مقامة الشهاب محمود التي صنفها باسم « مقامة العشاق » (٢) . ذكر صاحب كشف الظنون أنه تأثر بمقامات العشاق للكتاب الظريف ، ونسج على منوالها (٣) . كما كثر التأليف حول شرح المقامات ، نشير من ذلك إلى شرح ابن ظفر لمقامات الحريري المعروف بـ « المطول في شرح المقامات » ، وكتابه الآخر الذي سماه « التنقيب على ما في المقامات من الغريب » (٤) .

يضاف إلى ذلك أيضاً شرح مقامات الحريري لعبد الكريم البعلبكي (المتوفى سنة ٦٠٠ هـ) ، وقد شرحها « شرحاً جيداً في الغابة » (٥) .

أما سائر الأوصاف فكثيرة ، نعر عليها في الرسائل النثرية ، وكان الكتاب يحاولون أن يبرزوا فيها مقدرتهم . يقول ابن الأثير في وصف الربيع : « فصل الربيع هو أحد ميزاني عامه ، والمستفيد لسامه من حامه ، وقد وصف بأنه ميعاد نطق الأطيوار ، وميلاد أجنة الأزهار ، والذي تستوفى به حولها سلافة العقار ، فإذا سلت السحب فيه سيوفها ، كان ذلك للرضا لا للغضب ، وإذا خلعت على الأرض غلالها الدكاء ، ليست منها ديباجة منسوجة من الذهب » (٦) .

ويقول الشهاب محمود في وصف حصن : « فد تفرط بالنجوم ، وتقرطق بالغيوم ، وسما فرعه إلى السماء ، ورسا أصله في التخوم ، تخال الشمس إذا علت أنها تنتقل في أبراجه ، ويظن من سما إلى السها أنه في ذبالة سراجيه ،

(١) المصدر السابق ، ص ١٣ .

(٢) ابن شاعر الكتبي : فوات الوفيات ج ٢ ص ٥٦٥ .

(٣) السيوطي : بنية الوعاة ، ج ١ ص ٦٠ .

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ٢ ص ١٧٨٦ .

(٥) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ٢ ص ١٧٨٩ .

(٦) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ١٠٧ .

لا يعلوه من مسمى الطير غير نسر الفلك ومرزومه (١) ، ولا يرمق مبرجاث بوجه غير عين شمسه ، والمقل تنطرف من أنجمه ، وحوله من الجبال كل شامخ ، تتهبب عقاب الجو قطع عقابه ، وتقف الرياح حسرى إذا توقلت في مصابه ، ونخاف العيون إذا رمقته سلوكه مادونه من المحاجر ، وبتخيل الفكر صورة الترقى إليه ، ثم لا يبلغها حتى تبلغ القلوب الحناجر ، وحوله من الأودية خنادق لا تعلم منها الشهور إلا بأنصافها ، ولا تعرف فيه الأهلة إلا بأوصافها (٢) . نكتفي بصورتي الربيع والحصن الوصفيتين لنبدل على شدة عناية كتاب هذا العصر برسم الصور المختلفة بدقة تامة ، ومبالتهم في معانيها ، وذلك كله ضمن إطار فني من التكلف اللفظي المسجع والتصنع البديعي المزخرف . هكذا كان النثر الوصفي ، شأنه شأن الديواني ، تنعدم فيه الأصالة الذاتية والنبضات الوجدانية ، نستثني من ذلك بعض كتب التراجم التي تكاد تكون غريبة بين أقرانها .



(١) مرزومه : أي أسده ، والمقصود هنا برج الأسد .

(٢) الشهاب محمود : حسن التومل ، ص ١٠١ .

الفصل الرابع

النشر الذاتي والوجوب الذاتي

لا شك أن النشر الديواني كان يحل الصدارة في نشر هذا العصر وذلك لضرورته وحاجة الدولة إليه في شؤونها وأعمالها . ولا يعني ذلك أنه لا يوجد نشر ذاتي ، يعبر فيه الكتاب عن وجدانهم وعواطفهم مجردين عن كل صلة بالمنفعة أو الضرورة .

اشتراط الشهاب محمود في ذلك شروطاً متعددة نذكر منها ما جاء في قوله : « فأما الكتب الإخوانية ، والكتب التي تعمل رياضة للخاطر ، فيما يقلّ وقوعه لاحتمال أن يقع ، أو فيما تمتحن به قوة القريحة ، ويعتبر به تصرف الفطنة ، ويسبر به غور الذهن ، ويعلم به استعداد الفكر ، فإن الكاتب في ذلك مطلق العنان ، مخلى بينه وبين قوته فيه أو ضعفه ، لكن على كل حال يراعى كل مقام بحسبه » (١) .

ونرى توضيحاً لهذا النوع من النشر أن نتحدث عنه خلال دراسة الرسائل الإخوانية ، والخواطر التأملية ، والقصص الوعظية .

(١)

الرسائل الإخوانية

يبدو موضوع هذه الرسائل حول التحدث عن الصداقة والصلة بين الإخوان والأقرباء والأصدقاء ، وتمتاز بالعتاب والاعتذار والحب ، إذ إن

(١) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٨٦ .

الكاتب يحاول أن يظهر شعوره ، وبمرعب عما في قلبه من حب ومودة ، وبزبل ما علق في نفس صديقه من ريب ١ وما حدث من جفاء وقطيعة .

كتب ابن الأثير في فصل كتاباً يتضمن معاتبة أخ لأخوته ، وجاء فيه قوله « جرحوا قلبي ، وحبهم بذهب بألم الجراحة ، وطرفوا عيني ، وهم يزيدون في نظرها ملاحه ، وإذا صدرت الإساءة عن الأحباب لم يكن وقرها وقرأ ، وأصبحت وهي منسبة إذا تجددت الإساءة بالذكرى ، وما منهم إلا من سبط دمي بدمه ، ولحمي بلحمه ، ولولا أن الأسماء معارف الأشخاص لكان اسمي وارداً على اسمه ، وكيف أحسن عليهم ، وقد جعلني الله لهم على اللين ؟ أم كيف أذود النفس عنهم وهي مشتقة منهم ، وآدم بين الماء والطين ، ومتى أوئل من شجرتي أغصاناً كهذه الأغصان ، وقد أصيبت جرثومتها بالجداد ، ولهذا قيل : إن الأخوة يتعذر الاعتياض عنهم ولا يتعذر الاعتياض عن الأولاد » (١) .

وكتب الحصكفي إلى أسامة بن منقذ رسالة يتسوق فيها إليه سنة ٥٢٦هـ ، ويستدعي الفاظه : « أناط من الفاظ حضرة الأمير مؤيد الدولة سعد الملك شرف الأمراء بين السور العاصم وسور المعاصم ، أدخر ذا الشرف للباس ، وافتخر بالشرف من اللباس ، سور ضرب وله باب بين أهل الرحمة وأهل العذاب ، وسور حلت عندها الأبواب ، وتحلت بها الأحباب ، وهلا زدت هاء فازددت بها بهاء ، ففلت بين سورة فضلها لا يكذب ، وسوره كل ملك دونها يندبذب ، فالحق بمن بنر به خطبب إباد ، وأسببق ممدوح إلى ثمامة زياد ، ولما نبهني من رقدة الدهول ، ونبهني عن وحدة الخمول ، رفعتني النباهة ونفتتني الانتباهة . فلبيت نداءه عجلا ، وقد جعلت فدائه مرتجلا : 'أسامة' أعدل أن أسام تجلدي ؟ متى لم تكن لي مرشداً يابن مرشد ؟ (٢)

يلاحظ أن الرسائل الإخوانية كانت منتشرة على نطاق واسع ، على

(١) رسائل الحصكفي (مخطوط) و ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

(٢) رسائل الحصكفي (مخطوط) و ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

الرغم مما فيها من تصنع بلاغي وتكلف لفظي ، فإننا نحس بالعاطفة الصادقة والشعور الإنساني النبيل الذي يربط بين الصديقين أكثر مما عرفنا في الرسائل الماضية . ويلاحظ من طرف آخر أن العاطفة كانت تحاول أن تبرز من خلال هذه الرسائل ، إلا أن التصنع والتكلف كانا يحجبانها عنا قليلاً ، فيحاول الكاتب من خلال هذا الجهد الفني الذي كان بذله أن بصعدها . وهكذا نجد العاطفة تتفاوت بمقدار ما يغلب النصنع على الكاتب لكن هذا لا يعني أنها انعدمت تماماً ، فنكون بذلك قد ظلمناه .

(٢)

الخواطر التأملية

حاول الكتاب من خلال هذا النوع من الكتب الإخوانية أن يروضوا خواطرهم فيما بقل وقوعه أو فيما تمتحن فيه قوة القريحة ويعلم به استعداد الفكر (١) ، وقد ترك الكتاب العنان لأنفسهم ، وعبروا عما في نفوسهم ، ولكنهم لم ينخلوا عن الأسلوب الذي عرفناه في النثر الديواني .

أشار الشهاب محمود إلى بعض خواطره التي دونها رياضة للخاطر لصعوبة مسلكه في الكتاب الذي أنشأه إلى إنسان تخيله ، يتضمن مخاطبته في تزويج أمه (٢) ، وفي الكتاب الذي أنشأه إلى من هزم هو وجيشه (٣) ويتضمن إقامة عذره ووصف اجتهاده ، ويحثه على معاودة عدوه والأخذ بثأره ، وفي الكتاب الذي أنشأه أيضاً في ذم المهزوم وتقريعه (٤) ، وفي الكتاب الذي أنشأه على لسان المهزوم ، يتضمن الاعتذار ، ويصف الاحتفال بأخذ الثأر ، ومما قاله : « إلى فلان أتبع الله ما ساءه من أمرنا مع العدو بما يسره ، وبلغه عنا من الانتصاف والانتصار ما يظهر من صدور الصفاح

(١) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١١٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١١٨ .

والسنة الرماح سره ، وأراه من عواقب صنعه الجميل بنا ما يتحقق به أن كسوف الشمس لا نال طلعتها ، وأن سرار القمر لا يضره (١) . كان من المفروض في مثل هذه الخواطر أن يبعث الكاتب فيها حرارة العاطفة ، بيد أنه رضي لنفسه طرافة الموضوع وغرابته ، أما العناصر الذاتية والساملات الباطنية فتكاد تضيع بين فقرات الأسجاع .

(٣)

القصص الوعظية

ظهر نوع جديد من النثر الوجداني التأملّي في هذا العصر ، التزم في بعض فصوله السجع أحياناً . أشار العماد الكاتب إلى هذا النوع من القصص الوعظية عرضاً خلال ترجمته للمذهب الدمتقي ، ومما قاله فيه « له الفصول المسجوعة ، والكلم المطبوعة بكل حسن ، وكلامه بضاعة وعاظ دمشق وقصاصها ، ونثره كالدر النظيم يرصعه بالنطق الإيادي ، في نطاق كلام العبادي » (٢) .

ويظهر أن قصاص دمشق ووعاظها لم يوردوا مواعظهم مجردة ، وإنما كانوا يوردونها في معرض قصص رمزية رائعة ، فقد أشار العماد الكاتب إلى رسالة للمذهب الدمتقي اسمها « النسر والبلبل » ، وهي طويلة جداً ، تحدث فيها الكاتب عن كثير من الأوصاف ، وأورد حواراً جميلاً بين هذين الطائرين اللذين يمثلان القوة والضعف ، ومن هذا الحوار الجميل ووصف الطبيعة ، كان المذهب يضمن وعظه في رسالته . نذكر منها قوله : « فيينا هو صاف الأجحة عليها ، ينظر من الأفق بعين التعجب إليها ، إذ سمع صوتاً من بلبل سحريّ على وكر شجريّ ، يرجع قراءة مكتوب غرامه ، ويتلو آيات حزنه من مصحف آلامه . . . فقال : هذه غريبة أخرى من غرائب القدر ، وعجبة ثانية لم ترها العين ولا هجست في الفكر ، وكاسات

(١) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٢٤٦ .

خمر تدار في الخمر ، وعقود سحر تحل في السحر ، ونعمة لم أسمعها من ذي منقار ، والحنان ما رأي مثلها لسار ولا قار ، كأنها ما قيل عن مزامير داود ، وتسايحهم في الركوع والسجود ، أو معبد والفريض ، يتباريان في الطويل والعريض ، أو إسحق الفريد ، يعدل عوده عند الرشيد ، أو هزج شدة العجم ، أو رجة حدة العرب في الظلم ، أو أصوات رهبان الصوامع ، أو تلاوة من تتجافى جنوبهم عن المضاجع ... ثم هوى إلى القرار ، لينظر من النافخ في الزمار ، فرأى البلبل يتلو سور بلباله ، في محراب وباله ، ويرجع سجع الحانه ، في ربع أحزانه (١) .

قصة وعظية جميلة أوردتها العماد ، وانتهى منه بذكر بعض الوصايا والحكم الوعظية ، وختمها بقوله : « وأتم هذه الرسالة بفصل وعظي ليس من شرط الكتاب » (٢) .

يتضح لنا أن الأدب الوعظي قد ازدهر في هذا العصر كل الازدهار ، وقد ذكر أن صلاح الدين تقدم إلى الواعظ زين الدين بعد صلاة الجمعة في بيت المقدس عام الفتح الأغر ، فجلس عنده ، واستمع مع الناس إلى ذكر الفتح ، وفضائل الأرض المقدسة والصخرة ، وما ورد فيها من الأخبار والآثار « فجلب بعباراته العبرات وأشار العمل بمعسول الإشارات » (٣) .

ولما بلغ الناصر داود اتفاق عميه الكامل والأشرف على خلعه وأخذ دمشق منه بعد اتفاقهما مع الفرنجة وتسليمهما القدس إليهم ، طلب من سبط ابن الجوزي ، « وكان واعظاً ، وله قبول » (٤) أن يعمل مجلس وعظ ، ففعل ما أمره به ، وذكر فيه فضل بيت المقدس ومصيبة المسلمين بتسليمه

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٤٦ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٥٣ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٢٨ .

(٤) ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج ٢ ص ١٥٠ .

إلى الفرنجة ، وانشد قصيدة من شعر دعبيل ، فارتفع بكاء الناس وضجيجهم (١) .

يجب أن نفرق بين الواعظ والقاص ، فقد تحدث ناج الدين السبكي عن الواعظ وطلب منه أن يذكر الناس بأيام الله ، وينبئهم بأخبار السلف الصالحين وما كانوا عليه ، وخلص إلى القول : « واعلم أن الكلام إذا لم يخرج من القلب لم يصل إلى القلب » (٢) .

ووصف القاص ، وذكر أنه « من يجلس في الطرقات ، وبذكر سيئاً من الآيات والأحاديث وأخبار السلف » (٣) ، وذكر أنه ينبغي ألا يذكر إلا ما يفهمه العامة ، ويشتركون فيه من الترغيب في الصلاة والصوم وإخراج الزكاة ونحو ذلك .

يؤكد لنا هذا القول أن الفن القصصي استقل في هذا العصر عن الوعظ الديني ، لأن الوعاظ كانوا يعتقدون مجالسهم في المساجد وغيرها ، أما القصص فكانوا يجلسون في الطرقات ولا يذكرون إلا ما تفهمه العامة .

عرف الأدب القصصي إذاً في هذا العصر ، ولقي رواجاً كبيراً لدى العامة أكثر منه لدى الخاصة ، وقد أشار ابن الأثير إلى ذلك في معرض حديثه عن ابن الخشاب البغدادي ، وكان إماماً في علم العربية ، فقليل : إنه كان كثيراً ما يقف على خلق القصص والمنسعبدين ، فإذا اتاه طلبه العلم لا يجدونه في أكثر أوقاته إلا هنالك ، فليم على ذلك ، فأجابهم « لو علمتم ما أعلم لما لمت ، ولطالما استفدت من هؤلاء الجهال فوائد كثيرة ، فإنهم تجري ضمن هديانهم معان غريبة لطيفة ، ولو اردت أنا وغيري أن نأتي بمنلهما لما استطعنا ذلك » (٤) .

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥٠ .

(٢) السبكي : معيد النعم ، ص ١١٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٣ .

(٤) ابن الأثير : المتل السائر ج ١ ص ٥٧ .

أمر هام جداً جدير بالبحث والنظر ، بيد أننا لا نملك من آثار هؤلاء القصص والوعاظ والمشعبين ما يمكننا من دراسة هذا الفن القصصي الشعبي الذي أعجب به منذ القدم ابن الخشاب البغدادي وابن الأثير الكاتب دراسة موضوعية ، نبين أصوله واضحة على الوجه الأتم في هذا العصر ، وعلى الرغم من هذه الصعوبات فإننا نستطيع أن نلقي بعض الضوء على هذا الفن القصصي من خلال عرض كتابين اثنين ، نهنئ إلى أهميتهما استاذي الكريم الدكتور عبد العزيز الأهواني ، أحدهما : « سلوان المطاع في عدوان الأتباع » (١) لابن ظفر الصقلي ، أحد أدباء القرن السادس الهجري ، وبانيهما : « كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار » (٢) لابن غانم المفدي أحد وعاظ القرن السابع الهجري .

سلوان المطاع في عدوان الأتباع

صنف ابن ظفر (٣) كتابه هذا سنة ٥٥٤ هـ لأحد قواد صقليّة ، « سائد السادة وقائد القادة أبي عبد الله محمد بن القسم بن علي بن علوي القرشي » (٤) .

-
- (١) ترجم المستشرق الإيطالي أماري ميكليه (Michele Amari) هذه القصة إلى اللغة اللاتينية وطبعها في فلورنزا سنة ١٨٥١ م .
- (٢) ترجم المستشرق الفرنسي دوتاسي (Garcin de Tassy) هذه القصة إلى اللغة الفرنسية وطبعها بعنوان (Les oiseaux et les Fleurs) في باريس سنة ١٨٨٢ م .
- (٣) حجة الدين : أبو عبد الله ، محمد بن أبي محمد عبد الله بن محمد بن ظفر الصقلي ، ولد بحزيرة صقلية ، وكانت نشأته في مكة ، ثم تنقل في البلاد ، ورحل إلى مصر وأفريقية ، وأقام في المهديّة مدة من الزمن ، شهد فيها حروب الفرنجة الذين أخذوها عنوة من المسلمين وهو مقيم فيها فاضطر إلى الارتحال عنها إلى مسقط رأسه في صقلية لقرىها من مكان وجوده ، لكنه قفل عائداً منها إلى مصر ثانية وقصد بعدها بلاد الشام فوصل حلب ، وحل مقيماً في مدرسة ابن أبي عمرو ، فلما جرت فيها العتنة الكبرى بين السنة والشيعة ، نهبت كتبه فيما نهب ، فنقص حماة ، ولقي فيها قبلاً كبيراً ، فهرع إليه طلبه العلم ، ونشط للتأليف بعد أن أجري عليه راسب من ديوانها ، وبقي مقيماً فيها حتى وفاته سنة ٥٦٥ هـ (السيوطي : بنية الوعاء ، ج ١ ص ٥٩ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٦٦٠ ، وياقوت : ارشاد الأريب ، ج ٣ ص ١٠٢ ، والدلجي : الفلاحة والمفلوكون ، ص ١٠٣) .
- (٤) ابن ظفر : سلوان المطاع ، ص ٣ .

وقد ذكر حاكم مدينة أسيوط وخطيبها أبو البركات محمد بن علي بن محمد الأنصاري أنه قرأ هذا الكتاب على مؤلفه « من أصله بخطه بثغر حماة ، صانه الله وحماه » ، في شهر رجب سنة ٥٦٥ هـ « (١) .

يحتوي هذا الكتاب على خمس سلوانات : السلوانة الأولى في التفويض ، والثانية في التأسي ، والثالثة في الصبر ، والرابعة في الرضا ، والخامسة في الزهد . صدر المؤلف كل سلوانة بذكر ما ورد في موضوعها من الآيات القرآنية ، وشفعها بذكر الأحاديث النبوية الملائمة ، ضمنها ذكر منشور الحكم وموزونها ، لكن أهم ما في هذا الكتاب القصص الشائقة والسير الجميلة التي كان يتمثل بها في سلواناته المختلفة ، ويستهلها بهذا العنوان المسجع « روضة راقية ، ورياضة فائقة » (٢) على الرغم من أن أسلوبها كان في أغلب الأحيان حراً طليقاً ، عدا الحكم والأمثال وخطبة الكتاب ، فقد التزم فيها السجع . أما سائر القصص بما فيها من سرد وحوار ، فقد كانت بعيدة عن هذا التكلف ، وجاء الأسلوب حراً طليقاً .

أما موضوع القصص فيختلف بحسب السلوانة التي يتحدث عنها ، وهي بشكل عام وعظية تستهدف النصيح والإرشاد ، وتقدم للقارئ ثمرة الحكم وتجارب الحياة . ويظهر أنه كان يستهدف نصيح الملوك وإرشادهم ليسلكوا في حياتهم سواء السبيل . ففي سلوانة الصبر قوله : « والنوع اللائق بكتابنا منها هو صبر الملوك » (٣) . وفي خطبة الكتاب قوله : « نفثت في صورها أرواح الأخلاق الزكية ، وكسوت جسومها حلل الآداب الملوكية ، وتوجت رؤوسها بتيجان الهمم الأدبية ، وقلدت عوانقها سيوف المكاييد الحربية » (٤) .

(١) ابن ظفر : سلوان الطاع ، ص ٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١ ، ٢٣ ، ٣٨ ، ٦٨ ، ٨٨ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٣٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١ .

وجدت الطبقات الشعبية أيضاً إلى هذا الكتاب سبيلها ، إذ آنست منطلقاً ومتنفساً جديداً في هذه القصص المسلية التي لا تقتصر موضوعاتها على الملوك والطبقة الحاكمة ، وإنما تجاوزتها إلى آفاق أخرى ، حتى إن أحد العلماء نظمه شعراً (١) لكثرة الإقبال عليه . نعتقد أن من أسباب شيوع هذا الكتاب وانتشاره تلك الروح القصصية التي يندر أن نجد لها نظيراً في أدب هذا العصر ، فلقد استطاع أن يورد أنماطاً شتى من هذا الفن في السلوانة الواحدة ، بله القصص المتعددة التي تحتوي عليها كل سلوانة . ويلاحظ أن بعض القصص يدور على لسان الحيوانات أو حولها ، كما هو الحال في كتابه كليله ودمنة ، ولكنه يتميز عنه أنه كان ذاتياً يختار القصة أو وصف الحيوان من خلال تجاربه الشخصية (٢) وواقعه الخاص . أما أشهر القصص المذكورة فهي قصة « الجرذ والفأر والربوع الهرم » (٣) ، وقصة « الكلبين والذئب » (٤) ، وقصة « الثعلب والأقوى » (٥) ، وقصة « الفرس والخنزير » (٦) ، وقصة « الدب والقردة » (٧) ، وقصة « الفيلين » (٨) . وكان في معظم الأحيان يجعل قصصه مترابطة فيما بينها ، كما هو حال أسلوب قصة ألف ليلة وليلة .

نلاحظ في هذا الكتاب أيضاً أنه كان يستمد عناصر سلواناته من مصادر متعددة منها الإسلامية والنصرانية والفارسية واليونانية ، وهي تدل بشكل عام على موسوعية الثقافة العربية والحضارة الإسلامية في هذا العصر .

-
- (١) ذكر ابن قفري بردي أن القاضي تاج الدين عبد الله بن علي السنجاري (المتوفى سنة ٨٠٠ هـ) نظم شعراً كتاب سلوان المطاع (النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ص ١٦٣) .
- (٢) اعتمد أسامة بن منقذ في حديثه عن البحر في كتابه الاعتبار على ما أورده ابن ظفر عند رؤيته له مع صاحبه (الاعتبار ص ١١٢) .
- (٣) ابن ظفر : سلوان المطاع ، ص ٧٨ .
- (٤) المصدر السابق ، ص ٧٦ .
- (٥) المصدر السابق ، ص ١٧ .
- (٦) المصدر السابق ، ص ٥٠ .
- (٧) المصدر السابق ، ص ٩٦ .
- (٨) المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

استمد من التاريخ الإسلامي كثيراً من قصصه ، نذكر منها مثلاً قصة اجتماع رؤساء قريش في دار الندوة للتشاور في أمر النبي (ص) ، وقد جاءهم إبليس في صورة شيخ أعرابي من أهل نجد (١) ، وقصة عثمان بن عفان « وهو محصور في الفتنة » (٢) ، وقصة الأمين والمأمون (٣) ، وقصة عبد الملك بن مروان حين خروجه لقتال عبد الله بن الزبير (٤) . كما استمد من الحديث النبوي الشريف ، فقد أورد حديث ابن مسعود في زهد الملوك ، وجاء فيه خبر ملك قديم ، أعرض عن ملكه متزهداً ، وساح في الأرض حتى أتى الليل ، وشرع بضرب اللبن ويفتات من ذلك ، فلما سمع به الملك الذي كان بأرضه ترك ملكه أيضاً ولحق به . وقد أورد المؤلف ما ذكره لنا ابن مسعود : « لو كنت بمصر لأربنكم قبرهما بالنعث الذي نعتهما لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٥) .

يضاف إلى ذلك ما استمده من الجاهلية كما في قصة عدي بن زيد رسول ملك الفرس إلى الروم (٦) ، والخبر الذي أورده عن زهد النعمان ابن المنذر (٧) .

استمد المؤلف من التاريخ الفارسي أيضاً كثيراً مما أورده من قصص في كتابه ، نذكر من ذلك إشارته إلى الصحيفة الصفراء المعلقة في أعظم هياكل الفرس (٨) ، ونخص بالذكر قصة سابور بن هرمز عندما دخل بلاد الروم منكرراً ، وحيلة وزيره في إنقاذه خلال توجهه قيصر إلى احتلال جنديسابور حاضرة ملكه (٩) ، وقصة كسرى أنوشروان وطعمه في أرض من

-
- (١) المصدر السابق ، ص ٦٢ .
 - (٢) المصدر السابق ، ص ٨٨ .
 - (٣) المصدر السابق ، ص ٢٣ .
 - (٤) المصدر السابق ، ص ١٢ .
 - (٥) المصدر السابق ، ص ١١٧ .
 - (٦) المصدر السابق ، ص ١٣٣ .
 - (٧) المصدر السابق ، ص ١٢٣ .
 - (٨) المصدر السابق ، ص ٦٤ .
 - (٩) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

النجوم الهندية (١) ، وكان في معظم الأحيان يشير إلى ذلك كأن يقول :
« ذكروا عن الفرس » أو « وذلك فيما ذكره المعنون بأخبار ملوك الفرس » (٢)
أو « وقد دوّن الفرس أخباراً عجيبة نادرة » (٣) .

استمد المؤلف أيضاً من النصرانية بعض قصصه وأقواله ، فهو يحدثنا
عن الأب لوقا (٤) ، وعن المطران والبطريق (٥) ، وأبرز ما لاحظناه قصة
راهب من « الرهبان » وكان متبتلاً في قلالية له بظاهر اللاذقية ، وكان
شيخاً فانياً (٦) ، وقصة الراهب وراعي البقر (٧) ، وقصة ملك من ملوك
اللان كان كافرأً عتياً والتحدث عن إيمانه بشرائع المسيح عليه السلام
بوساطة وزبره (٨) .

واستمد من اليونانية أيضاً ، نشير من ذلك إلى قصة ملك من ملوك
اليونانيين وابنته التي أصيبت بهياج المرة السوداء (٩) ، وقصة ملك « من
ملوك اليونانيين » قام من منامه في بعض الغدوات ، فأنته قنة كانت قيمة له
تلبسه ثيابه ، فلبسها ثم ناولته المرأة ، فنظر فيها فرأى شيبة في لحينه ،
فقال : هاتي المفراض يا جارية ، فأنته ، فقص الشيبة ، فتناولتها وكانت
أديبة لبيبة ، فوضعتها في كفها ، وأصغت إليها أذنها ساعة ، والملك ينظر
إليها ويتأملها معجباً ، فقال لها : ما تصنعين ؟ فقالت : أسمع لما تقول هذه
الشعرة التي عظم مصابها بمفارقة الكرامة العظمى حين سخطها الملك وكرهها
وأقصاها ، فقال لها الملك : ما الذي سمعت من قولها ؟ فقالت : زعم قلبي

-
- (١) المصدر السابق ، ص ٦٨ .
 - (٢) المصدر السابق ، ص ١١٢ .
 - (٣) المصدر السابق ، ص ١١٦ .
 - (٤) المصدر السابق ، ص ٥١ .
 - (٥) المصدر السابق ، ص ٤٧ .
 - (٦) المصدر السابق ، ص ٩٧ .
 - (٧) المصدر السابق ، ص ١٣١ .
 - (٨) المصدر السابق ، ص ١٢٧ - ١٣٠ .
 - (٩) المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

أنها سمعها تقول كلاماً لا يجترىء لساني على النطق به لاتقاء سطوة الملك ، فقال لها : قولي آمنة ما لزمتم أسلوب الحكمة . . . » (١) .

ذلك بعض ما لاحظناه في هذا الكتاب الهام ، وجدير بالذكر أنه روى كل قصة دون أن يلتزم أو يتعمد الأسلوب المسجع المعروف في عصره ، وإنما اقتصر منه على ما أورده من الأمثال والحكم أحياناً ، وكذلك الأمر نفسه في خطبة الكتاب . وتلك ظاهرة هامة نسجلها لهذا الكاتب الذي خالف أساليب الوعاظ والفصاح الذين أسرنا إليهم من قبل ، فكان حقاً صاحب مذهب أدبي خاص في أدب هذا العصر . والمهم أن نذكر أن هذا الكتاب اشتهر به فذاع بين الناس كيراً ، وفريء في حلقات العلم ونظم شعراً ، كما أثر عن السلطان أبي حمو موسى بن يوسف الزياني أنه لخص هذا الكتاب ، وزاد عليه فوائد كثيرة وأموراً جرت له مع معاصريه من ملوك بني مرين وغيرهم ، وصنعه برسم ولي عهده أبي تاشفين ، وسماه « نظم السلوك في سياسة الملوك » (٢) .

أشار المؤلف في كتابه المذكور إلى كتاب قصصي آخر، يظهر أنه أكبر منه ، سماه « درر الغرر »، وضمنه « أنباء نجباء لأبناء » ، وقد ذكر أكثر من مرة (٣) ، وتحدث عن محاوره ضمنها كتابه ، ونوه بخبرين نادرين رواهما في الكتاب المشار إليه (٤) .



-
- (١) ابن ظفر : سلوان المطاع ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .
 (٢) المقرئ : أزهار الرياض ، ج ١ ص ٢٤٩ .
 (٣) ابن ظفر : سلوان المطاع ، ص ٩٣ ، ١١٦ .
 (٤) هذا الكتاب مطبوع بصورة مستملة .

كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار

صنف الشيخ الواعظ ابن غانم المقدسي (١) كتاباً هاماً سماه « كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار » ، وقد أعرب في مقدمته عن غرضه في تأليفه ، فقال : « وقد صنفت كتابي هذا مترجماً عما استفدته من الحيوان برمزه ، والجماد بغمزه ، وما خاطبتني به الأزهار بلسان حالها ، والشحابر عن مقار ارتحالها . . وجعلته موعظة لأهل الاعتبار ، وتذكرة لدوي الأبصار والاستبصار » (٢) .

استهل الكاتب قصته الرمزية الفريدة بوصف حاله ، وما أقل ما تحدث الكاتب عن أحوالهم ، وذكر أن فكره أخرجه يوماً ينظر « ما أحدثته يد القدم في الحدث ، وأوجدته الحكم البالغة للجد لا للعبت » (٣) ، وانتهى إلى روضة قد رق نسيمها ، وغنى عندليبها ، وتمنى أن يصطحب في هذه الخلوة الفكرية والعزلة النفسية صديقاً حميماً ، فناداه لسان حاله : « أتريد نديماً أحسن مني ، أو مجيباً أفصح مني ؟ وليس في حضرتك شيء إلا وهو ناطق بلسان حاله ، مناد على نفسه بترحاله » (٤) . فأول ما سمع

(١) عز الدين ، عبد السلام بن أحمد بن غانم بن علي بن عساكر بن حسن الأنصاري المقدسي ، وقد اشتهر أمره بالوعظ ، وطبق في الأفاق ذكره ، وهو ينزع في أسلوبه إلى مدرسه وعظمية ظهرت في هذا العصر ونسجت على منوال ابن الجوزي وأمثاله . لقي قبولاً كثيراً عند الناس ، وقد حضر وعظه في المجلس الذي عقده مرة تجاه الكعبة كثير من الناس بالإضافة إلى الصفوة من العلماء الكبار أمثال تقي الدين بن دقيق العيد ، وتاج الدين الغزاري وابن العجيلي وغيرهم . توفي بالقاهرة سنة ٦٧٨ هـ (اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ص ١٩٠ ، وابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ص ٣٦٢ ، وابن كثير : البدايه والنهايه ج ١٣ ص ٢٨٩ ، وبروكلمان : ج ١ ص ٤٥٠ ، والزركلبي : الأعلام ، ج ٤ ص ١٢٨) .

(٢) ابن غانم : كشف الأسرار ، ص ٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣ .

ه مهمة النسيم ومجاوبة الشحارير لها ، وأبصر الورد يخبر عن طيب وروده ويقول : « فيينا أنا رافل في حلل النضارة ، اسنلبنني يد من الأزاهير إلى ضيق القوارير ، فيذاب جسدي ، ويحترق كبدي ، وبمزق جلدي ، ولا يقام بأودي (١) » ، فأجابه الترجس من حاضره ، وناداه النيوفر طالبا إليه ان يأخذ العبرة من اصفاره والرضا بما قسم له . ثم ينتقل ابن غسانم ليحدث لنا عن مروره بين اشجار الروضة ، ويصف لنا تمايل شجر البان وطربه دونها ، فحنقت عليه ، ولامته على كثرة تمايله ، وعنفنه على عجه بشمائله ، فأجابه البان على لومها ، وختم إجابته بقوله : « واعلم أن خالقها أحد ، وصانعها صمد ، وموجدتها بالقدرة قد انفرد ، لا يشاركه في ملكه أحد ، ولا يقتقر هو إلى أحد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » (٢) . وينهي الكاتب قصة البان المتمايل بذكر اتفاقه مع الورد قائلا له : « إذا صحّ الائتلاف ، ورضيت لنفسك بالتلاف ، فليس للخلاف خلاف ، فيقطع على حكمه الوفاق ، ويقتطف من بين الرفاق ، فتصعد أنفاسنا بالاحتراق ، وتقطر دموعنا بالإشفاق ، فإذا فنيانا عن صور أشباحنا بقينا بمعاني أرواحنا » (٣) .

ينتقل الكاتب بعدئذ ليتحدث عن إشارة البنفسج ، وقد تنفس الصعداء ، ثم يذكر لنا تأوه المنثور (٤) ، وفصاحة الياسمين الذي تمثلت فيه شخصية المؤلف اللغوية ، فتحدث عن اسمه « فأول اسمي ياس ، وآخره مين ، والياس شين ، والمين شين » (٥) ، وأورد بعد ذلك إشارة الريحان والأقحوان ، ووقف عند الخزامى ، وقد شهد ما تكابده الأزهار قيذاً والتزاماً ، فتحدث

(١) المصدر السابق ، ص ٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٩ .

بلسان حاله قائلاً: « ما لي والزحام ؟ أنا أوافق الوحش في النِّقار (١) ، وسكنى البوادي والفغار ، رضيت بالبر الفسبح ، وقنيت بمجاورة الشيخ ، لا ينشق نشري إلا من له شوق صحيح وذوق صريح ، ومن هو على زهد المسبح وصبر الذبيح . فأنا رفيق السواح في الفدو والرواح ، فأفوز بالأجور ، وأسلم من حضور أهل الفجور ، ومن يفترف المعاصي بالفجور ، لا أحضر على منكر ، ولا اجلس عند من يشرب ويسكر ، فأنا الحر الذي لا يباع في الأسواق ، ولا ينادى علىّ بالتفاق في بيوت النِّفاق ، ولا يحضرني الفساق ولا ينظرني إلا من سمر على ساق ، وركب على جواد العزيمة وساق » (٢) .

ووقف آخراً عند الشقيق المزرّج بدمائه ، واختتم إشارته بقوله : « فلما رأيت باطني محشواً بالعيوب ، وقلبي مسوداً بالذنوب ، علمت أن الله لا ينظر إلى الصور ، ولكن ينظر إلى القلوب » (٣) .

وختم المؤلف بعد هذا الوصف الرائع والحوار الحي حديثه بوصف السحاب الذي كان يشهد كل هذه الحوادث على مسرح الطبيعة ، فسمع العتاب ، ووعى الخطاب فسح دمه ، وساح في الرحاب ، وقال مخاطباً أزهار الرياض : « سبحان الله ! أينكر فضلى عليكم ، وأنا الباعث طلي ووبلي إليكم ؟ وهل أنتم إلا أطفال وجودي ونسل وجودي ؟ » (٤) .

أما القسم الثاني من هذه القصة فقد تحدث فيه المؤلف عن الاطّار قائلاً « فبينما أنا مصغ إلى منادمة أزهارها على حافات أنهارها ، إذ صاحت فصاحة أطبارها » (٥) . وأول ما صوت الهزار ، وتحدث بلسان حاله قائلاً :

(١) النِّقار : جمع نقرة ، وهي الوهدة الصغيرة المستديرة في الأرض .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١١ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٢ .

« أنا العاشق الولهان .. وأنا أنوح حزناً لا طرباً ، وأبوح ترحاً لا فرحاً ، ولا أجد روضة إلا نُحت على اضمحلها ، ولا خضرة إلا تبلبلت على زوالها ، لأنني ما رأيت قط صفو إلا تكدرت ، ولا عيشة حلوة إلا تمرمرت ، فقرأت في تمثال العرفان : كل من عليها فان » (١) . أجابه البازي وناداه (٢) ، ورأى الكاتب ، وهو مستغرق في لذة كلامه ، ومعتبر في حكمه واحكامه « حمامة قد جعلت طوق العبودية في عنقها » (٣) ، فسألها عن حكمة تطويقها ، فأجابته أنها المطوقة طوق الأمانة المقلدة تقليد الصيانة (٤) ، ثم انفلتت إلى شكر الله تعالى وتسبيحه .

وتحدث الكاتب بعد ذلك عن خطاف كان ينظر إليه ، فسأله عن سبب مفارقتة أبناء جنسه ، ورضاه البقاء في البيوت بحبسه ، فلما سمع البوم جوابه اعترضه ، وطلب منه ألا ينق بمقالة الخطاف ، وأعلمه أن السلامة في العزلة ، وينهي الكاتب مقال البوم بفصل وعظي كمادته (٥) ، والتفت الكاتب في روضته فرأى طاوساً ، قد شرب من خمرة العجب كؤوساً ، فخاطبه قائلاً : « ويحك ! كم بينك وبين البوم من الحظ المقسوم ، أنت أيها العاني نظرت إلى الصور وهو نظر إلى المعاني » (٦) . فأجابه : « يا عاني ! يا من بالشماتة نعاني ! لا تظهر لي الشماتة ، وتذكر الحزين ما فاته ، فقد قيل في الخبر : ارحموا عزيز قوم ذل ، وغني قوم فقر . أين كنت يا مسكين ، وأنا في الجنان أطوف بين الظلال والقطوف ؟ أدور دورها ، وأزور حورها ، واتخلل قصورها ، وشرابي التسبيح ، وطعامي التقديس ، حتى ساق لي القدر إبليس ، وعوضني بالخسيس عن النفيس ، ولو كنت لمرادي الكاره ، ولكن القضاء والقدر يوقع في المكاره .. ولقد كان إبليس يسعى في حلل حبه

(١) المصدر السابق ، ص ١٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٦ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٦ .

وخليل قربه ، فما تركه شؤم رأيه حتى تاه على آدم بعجبه ، فأوقعني في الخطية ، وما أطلعني على ما له في الطوية ، غير أنني كنت له دلالة ، وكانت الحية في دخوله محتالة ، فأخرجت معهم من دار الهوان والإذلال ، وهذا جزاء من عاشر الأندال (١) .

ورأى الكاتب الى جانب الطاوس درة ليست ثياباً خضراً ، فخاطبت بفصاحة لسانها الطاوس ، ثم انتقل فتحدث عن الديك ، وأورد ما قاله له : « هأنذا في نادبك أناديك ، وأنت في تعاميك وتعاشيك . جعلت الأذان لي وظيفة ، أوقف به من هو نائم كالجيفة » (٢) ، وأورد بعده حديث البط إلى الديك ، ثم ذكر نداء النحلة ، ووقف عند الشمع والفراش ، وصورها تصويراً رائعاً ، فقد سمع النحل استغاثة شمعه ، فأصاح بسمعه ، فإذا هو يحترق بالنار ، ويبكي بدموعه الغزار ، ويقول : أيتها النحل ، أما يكفيني أن رميت ببيني ، وفرق بينك وبينني ، وأنت في الوجود أبي وفي الإيجاد سببي » (٣) . ويحوم الفراش حول الشمع ، ويذكر مصابه ، ويحدثه قائلاً : « بالله العجب ! أبذل نفسي في هواك ، وتسومني سوم عداك » (٤) . ويرق الشمع للفراش العاشق ، ويخاطبه : « أيها العاشق الصادق ، لا تعجل فإني موافق » (٥) . وبينما كان المؤلف في سبحات فكره يستمع إلى خطاب الشمع ، سمع فجأة صوت غراب ينطق ، فكدر عليه خلوته في روضته ، وختم بعد ذلك القسم الثاني من حديث الطيور بإشارة الهدهد قائلاً : « فلما كدر الغراب على رقتي ، وحذرني مقتي ، انصرفت من حضرتي إلى خلوة فكرتي ، فهتف بى هاتف من سماء فطرتي : أيها السامع منطق الطير ، المتأسف على فوات الخير ، تالله لقد صفت الضمائر ، واهتدى السائر ، وما ضل الحائر » (٦) .

-
- (١) المصدر السابق ، ص ١٦ .
 - (٢) المصدر السابق ، ص ١٨ .
 - (٣) المصدر السابق ، ص ٢١ .
 - (٤) المصدر السابق ، ص ٢١ .
 - (٥) المصدر السابق ، ص ٢٢ .
 - (٦) المصدر السابق ، ص ٢٤ .

وأما القسم الثالث من كشف الأسرار فقد نحدث فيه المؤلف عن بعض الحيوانات ، إذ انتقل إليها بعد حديثه عن الهدهد فائلاً : « ناداني كلب على الباب يلتقط على المذابل ما سقط من دقبق اللباب : يا من هو وراء حجاب محجوباً عن الأسباب ، ويا مسبلاً كتاب الإعجاب ، تأدب بآدابي ... » (١) . واستطرد الكاتب يحدثنا بلسان كل حيوان يختاره ، فيورد حديث الجمل إليه ، وطلبه منه تعلم الصبر والجلد ، وحديث الفرس إليه ، وطلبه منه تعلم صدق الطلب وحسن الأدب لبلوغ الأرب ، وحديث الفهد وطلبه منه تعلم الألفة والأخلاق الصلغة ، وعلو الهمة وسمو العزمة ، ومرافبة المطلوب ومجالسة المحبوب ومراوغة الصبر (٢) ، ويطلب من المؤلف أن يخالف طبيعة الأسد والفرس .

يورد بعد ذلك حديث دودة القز ، وقولها : « تالله ليست الرجولية بالصور والهيكل ، والفحولية بترك المشارب والمآكل ، كلا ! ولا الإيثار ببذل الآثار ، وإنما الجود من جاد بوجوده ، ثم أثر بحياته موجوده » (٣) .

ويتخيل المؤلف العنكبوت تخاطب دودة القز التي قالت : إن بيتها أو هن البيوت ، وإن حبلها مبتوت ، وتذكر أن فضلها عليها مذكور في سجل الكتاب (٤) ، ويختتم القسم الثالث بإشارة النملة ، وقد نادته ، وطلبت منه أن يعتبر بها ، ويتعلم منها قوة الاستعداد وتحصيل المعاش والزاد .

تلك هي فصول القصة الثلاثة ، لاحظنا من خلال عرضها أن الشاعر قام برحلة خيالية ، ودخل فيها روضة غناء ، فاستمع فيها إلى أحاديث أزهارها ، ثم أشار إلى السحاب وهو يبكي ، ثم انتقل إلى حافات أنهار هذه الروضة الفكرية الحية ، فاستمع إلى أطبارها ، حتى إذا انتهى من

(١) المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٣) ابن غانم : كشف الأسرار ، ص ٢٨ .

(٤) إشارة الى قوله تعالى : « كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت

لهبت العنكبوت لو كانوا يعلمون » . العنكبوت ٢٩/٤١ .

حديثه عنها انتقل فجأة ليصحو من حلمه على صوت كلب على الباب، وسرعان ما أغفى قليلاً ليتابع حلمه ، فيستمع إلى حكم الحيوانات وهي تحدثه ، وكان النمل آخر المتحدثين .

لاحظنا في هذه القصة الرمزية عبقرية ابن غانم المقدسي ، فقد وفق في تسلسل حوادثها في فصولها الثلاثة ، كما تخللها حوار شيق بين الأزهار والطيور بالإضافة إلى الحوار الشخصي بينه وبينها .

يضاف إلى ما تقدم ذكره أن المؤلف استمد عناصرها الأولى وحكمها المنثارة من القرآن الكريم والحديث النبوي ، ومن التصوف والزهد اللذين انتشرا في هذا العصر كثيراً . وإن كنا نؤاخذ المؤلف على شيء فإننا نأخذ عليه استخدامه الأسلوب المسجع الذي لم يتقيد به سابقه ابن ظفر .

القول النفيس في تغليس إبليس

ثمة كتاب آخر للمؤلف المذكور ، وهو - على الرغم من صغره ، إذ لا يتجاوز عشرين صفحة - بالغ الأهمية ، لأنه لم يكتف بعرض فكرته عن إبليس كما انطق بها الطاوس في قصته السابقة ، وإنما أعجبه هذا الموضوع الذي راق لابن الجوزي من قبله أن بضع كتاباً فيه أسماه « تغليس إبليس » ، وفرق بين الكتابين ، فالأول يتحدث فيه مؤلفه عن كثير من الأمور الصوفية التي تخرج عن الدين بسبب إيجاء إبليس وتضليله ، أما كتاب ابن غانم هذا فيدور حول محاورات ومناظرات جرت بينه وبين إبليس كما تخيلها ، وقد استهله ذاكرة أنه نظر في دائرة الشقاء والسعادة ، فإذا هي دائرة على خط الأمر ومركز السعادة (١) ، ثم شرع يوضح لنا السبيل الذي سلكه قائلاً : « لما كان إبليس أول من أيس من رحمة الله تعالى ، ولبس على عباد الله ، ودنس الطريق إلى الله بمعصية الله تعالى ، أحببت أن أوقفه موقف الجidal ، وأناقشه بلسان الحال الذي لا يدنس محال ، فأناظره

(١) ابن غانم : تغليس إبليس ، ص ٣ .

بلسان الحقيقة لسلوك الطريقة ، فإذا أفلس ، ومن الخير إبليس ، علم متابعه ومبايعه حجبته الزائفة ، فيتجنبه من يجري مجراه ، ويسري مسراه ، فإن كان نفذ حكم الله فيه ، وجرى عليه فلم الشقاوة ببعده من الله ، لكن شياطين الإنس وأبالسة الجن أشد بأساً وأصعب مراساً « (١) » .

انتقل المؤلف بعد هذه المقدمة ليتحدث عن لقائه إبليس ، وذكر أنه أوقفه موقف الجدال ، ونازله في معارك النزال ، وابتدعه قائلاً : « يا لعين ! اسلك سبيل العدل في الجدال ، والإنصاف في السؤال ... » (٢) . فأجابه إبليس ، وطلب منه أن يورد ما عنده من أقوال ، فاستجاب له المؤلف ، وقص عليه قصته المشهورة منذ قديم الأزل ، وندد بعصيانه ربه ، وأخذه على إغوائه البشر وسعيه في ضلالهم ، فأثار سخطه عليه ، ولم يتمالك نفسه عند سماعه مقال المؤلف ، « فتميز هناك تميز الذيب ، وتغير تغير المريب » (٣) ، فرد عليه رداً قوياً ، يقارعه الحجة بالحجة والقول بالقول ، ثم أنشده بعض شعره ، وقال له : « أنا صفوة الملائكة المقربين يا هذا ، انظرن أني أخطأت التدبير ، أو رددت التقدير ... ؟؟ ولقد لقيت موسى على عقبة الطور ، وهو بما أوتي مسرور ، فقال لي : ما منعك من السجود ... ؟ فقلت : منعني من السجود الوارد ، نوديت الدعوى لمعبود واحد ، ولو سجدت لأدم لكنك مثلك ، لأنك نوديت مرة واحدة : « انظر إلى الجبل » ، فنظرت ، وأنا نوديت مرة : اسجد لأدم ، فما سجدت لدعواي بمعناي ... فقال لي موسى : هل تذكره الآن بعد طردك ؟ فقلت : يا موسى ! لا أعرف غيره ، ولا أذكر غيره أبداً ، ولو عذبني بنار الأبد . يا موسى ! أنا في الخدمة أقدم ، وفي الفضل أعظم وفي العلم أعلم ، أنا أعلمهم بالسجود ، وأقربهم إلى الوجود ، وأوفاهم بالعهود ، وأدناهم إلى المعبود ، ولكن سيدي قال : لي الاختيار ولا لك ، فقلت : سيدي ! لك الاختيارات كلها ، فاختاري إليك ، فإن أهبطنني فأنت الرفيع ، وإن أخطأت في المقال فأنت السميع ، وإن أردت أن أسجد له فأنا المطيع » (٤) .

(١) المصدر السابق ، ص ٧ ، ٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٩ ، ٢٠ .

تلك هي نظرة عامة على هذه القصة الرمزية الفريدة في نوعها . وقد تناولت موضوعاً دينياً هاماً وشيقاً ، ولو أن ابن غانم وسع مداها المسرحي لكان لنا منها اثر أدبي عظيم ، ولا سيما أنه أوتي عبقرية قصصية حية ، تظهر لنا في هذا التصوير الجميل والتخيل الموفق . ولا يمنعا ذلك أن نسجل له توفيقه في اختياره المعاني الدينية التي عرضها في قصته هذه ، يضاف إلى ذلك خيال خصب أمد به هذه الصور التي مرت معنا ، وحوار موفق حي يبرز لنا موهبته القصصية .

ننتهي مما تقدم معنا لنؤكد أخيراً أن الأدب الوعظي قد ائمر أطيب الشمار على يد الواعظين الكبارين : ابن ظفر الصقلي وابن غانم المقدسي ، وأنه نشأ بعيداً عن قصور السلاطين والأمراء ، واستمد معينه من مصدرين اثنين : أولهما حاجة الفئات الشعبية المختلفة لأدب جديد حي يعبر عن مشاعرها الخاصة ، ويقدم لها آثاراً قصصية ، تسد به الفراغ الكبير الذي كانت تعانيه في حياتها الضيقة ، وثانيهما اتصال هذا الأدب بالدين والزهد والتصوف ، وكان الفن الوعظي هو السبيل الهام الذي جعله يتطور هذا التطور الكبير ليصبح بعد ذلك أدباً قصصياً جميلاً ، تقبل عليه الفئات الشعبية ، وتستمتع إليه في حلقات خاصة بعيدة عن قصور الأمراء وحلقات العلم في المساجد وغيرها ، وإنما تجدها منتشرة في الطرقات والمجتمعات العامة .

(٤)

المنامات الأدبية

ظهر في هذا العصر فن المنامات الأدبية ، وكان الفضل في ابتداعه يعود إلى محمد بن محرز الوهراني (١) أحد أدباء المغرب الذين ارتحلوا إلى

(١) محمد بن محرز بن محمد الوهراني ، أصله من وهران ، وقد زار دمشق في أيام نور الدين ، وتنقل مدة ثمر بصقلية وقدم الديار المصرية في أيام صلاح الدين ، وزار بغداد ، ثم أقام في دمشق ، قولي خطابة مسجد داريا وبقي فيها حتى وفاته سنة ٥٧٥ هـ . له مجموعة (الرسائل) المرونة بـ « منشآت الوهراني » وهي في تسعة كرايس و (المنامات) ، وقد طبعت مناماته ومقاماته ورسائله مجموعة . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١٨ ، ومجلة المجمع العلمي العربي المجلد ٤٠ ج ١ ، والزركلي : الأعلام ج ٧ ص ٢٢١) .
الإدب في بلاد الشام - ٤٦

المشرق في عهد حكم السلطان نور الدين والسلطان صلاح الدين .

كان ابن خلكان أقدم من ترجم للوهراني . ومما قاله فيه : « أحد الفضلاء الظرفاء قدم من بلاده إلى الديار المصرية في أيام السلطان صلاح الدين ، وفنه الذي يمتّ به صناعة الإنشاء . فلما دخل البلاد ورأى بها القاضي العاضل وعماد الدين الأسفهاني الكاتب وتلك الجلبة علم من نفسه أنه ليس من طبفتهم ، ولا تنفق سلعه مع وجودهم . فعدل عن طريق الجد وسلك طريق الهزل » (١) .

كما أشار أسناذي الدكتور عبد العزيز الأهواني إلى أهميته فنوّه به ومما قاله في تصديره كتاب (منامات الوهراني) :

« يكاد ركن الدين الوهواني أن يكون مجهولاً لدى جمهرة المناديين في العصر الحاضر ، والمتخصصون في تاريخ الأدب العربي لا يعرفون عنه إلا القليل ، ولا يجدون فرصة مناحة للاطلاع على شيء من آثاره الأدبية . وعذر هؤلاء جميعاً أن ما وصل إلينا من آثار الوهراني لا يتجاوز عدداً محدوداً من الرسائل والمنامات والمقامات » (٢) .

لفت نظرنا إلى هذا الأديب لأول مرّة الدكتور صلاح الدين المنجد في بحثه الفيم عن الوهراني ورفعنه عن مساجد دمشق . وأشار إلى أن المؤلف جمع في كتابه (جليس كل ظريف) الكثير من رسائله ومناماته وفصوله الهزلية .

يهمنا في هذه الدراسة أن نعف عند منامه الكبير فقد أعجب به ابن خلكان كل الإعجاب وقال : « لو لم يكن فيها إلا المنام الكبير لكفاه » (٣) ، فقد ذكر الأقدمون أنه سلك فيه مسلك أبي العلاء في رسالة الففران لكنه كان

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥١٨ .

(٣) معجمه (منامات الوهراني) ص ٥٦ .

الطف مقصداً وأعذب عبارة ، وجمع فيه أنواعاً من المزاح والأدب . وخلاصة هذا المنام أن الوهراني تخيل في حلمه يوم نفخ في الصور ، فقامت القيامة ، ونادى فيها المنادي ليوم العرض أمام الله ، وجاء دوره فقام من جده ، واتجه نحو هول يوم المحشر ، فرأى الناس هناك ، واستنطاع أن ينعرف على كثير ممن عاصرهم ، أو لقيهم في الحياة الدنيا ، أو ماتوا قبله ، فأظهر سخرته منهم ، وتحدث عما يحاسبون عليه في هذا المحشر العظيم .

ولا بأس أن نقف عند بعض ما جاء في هذه الرقعة الهامة التي كتبها الوهراني باسم مساجد دمشق لترفع إلى مسجد بني أمية الجامع . وقد استهلها المؤلف بقوله :

« لما تحكمت يد الضياع في مسجد الضياع . وارتج باب العدل وأغلق ، ونبذ كتاب الله وخلق ، فزعت المساجد إلى جامع جلق . وهو يومئذ أميرها . عليه مدار أمورها ، فلما وصلوا إلى بابه ، واجتمعوا تحت قبته ومحرابه ، فكانت الرقعة مسطورة على هذه الصورة » (١) .

أما هذه القصة فقد ذكر المؤلف ما تلفاه المساجد من جور العمال ، وتضييع الأعمال ، ونهب الوقوف ، وخراب الحيطان والسقوف ، وانتقل بعد ذلك إلى كلام جامع المزة حين ابتدر للمقال حتى أنهى كلامه وجلس ، « فبرز بعده مشهد برزة ، متوكئاً على مسجد الأرزة ، وهو بصلصل ويصول ، ويلطم وجهه ويقول . . » (٢) .

أشار مسجد دمشق عليهم أن يبعثوا بشكواهم إلى قاضي القضاة شرف الدين ابن أبي عصرون قائلاً « والرأي عندي أن تكتبوا للشخ قصة ، ولا تتركوا في صدوركم غصة ، وأن تجعلوا في الكتاب أنواعاً من العباب ، فإن المنام رايه برايكم ، وإلا فالسلطان من ورائكم . أقول فولي هذا ، واستغفر الله العظيم لي ولكم » (٣) .

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد الأربعون : ج ١ ص ٢٤٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٩ .

اطلع قاضي القضاة على هذه الرقعة ، وقرأ ما انطوت عليه ، وشتم المساجد ، وقلب الرقعة ، وكتب على ظهرها رداً غنياً يهجو فيه مسجد دمشق الجامع ، فلما وقف عليها ، ورأى ما فيها من رقاعة قاضي القضاة رفع أمره إلى السلطان « فلما وقف نور الدين على كتابه ، وتجرع اليم عتابه ، التفت إلى المساجد ، فرتى لهم ، وسدد أحوالهم ، وأسرها يوسف في نفسه ولم ييدها لهم » .

ثم نظر إلى ابن أبي عصرون فأنزله واعتزله ، وحجبه عن بابه واختزله ، والقاء في سجن الصدود ، وخلوه فيه إلى يوم الخاود ، وقرأ عليه : « لا بعداً لمدن كما بعدت نمود ، والسلام » (١) .

هذا بعض ما جاء في هذه الرقعة النقدية الهامة ، وكان الكاتب الوهراني موفقاً كل التوفيق في هذا الأسلوب الجديد الذي اختطه لنقد بعض ما لا يعجبه في مجتمعه ، وقد ذكرنا في حديثنا عن ابن عنين أنه استطاع بمهارته النقدية وقوته في أسلوبه الهجائي كما في مقراض الأعراض أن يصور هذه الأمور من الزاوية نفسها التي صورها الوهراني المذكور .

أشار أستاذي الدكتور الأهواني إلى أهمية هذا الأسلوب بقوله :

« وفي الحق إن منامات الوهراني ومقاماته وأسلوبه يضيف إلى النثر العربي ثروة ، ويفتح للدارسين آفاقاً ويقدم للقراء مادة شيقة ممتعة لا تقل عما اشتهر من عيون النثر العربي » .

ولم يقتصر على ذلك وإنما ذكر أيضاً أننا « لا نكاد نجد في النثر العربي القديم نصوصاً فيها ما في كتابات الوهراني من حبوية وذكاء ولمحات تعبر عن شخصية الكاتب ، وتصور في دقة وبلاغة بعض جوانب الحياة الفكرية والاجتماعية في عصر من عصور التحول في المجتمع العربي » (٢) .

إن الوهراني كان نقطة تحول في الموضوعات التي اخنارها والمعاني التي عرضها بأسلوب جديد ، خرج فيه عما تألفه الناس في عصره من صنعة وتصنع وتصنيع .

(١) المصدر السابق ، ص ٢٥٤ .

(٢) مقدمة (منامات الوهراني) ص ٧٠ .

الفصل الثالث

المذاهب الفنية والأساليب النثرية

لاحظنا خلال حديثنا عن الفنون النثرية والخطابية تفاوت ما فيها من تصنع بلاغي ، وأدركنا من خلال كل ذلك بنية النثر الفني : وتوضحت أمامنا سبله المختلفة واتجاهاته المتباينة . وسوف نجمع في هذا الفصل شمل ما تقدم معنا ، فنوضح بدقة المذاهب الأدبية التي طبعت النثر الفني بطابعها الخاص .

القسم الأول

المذاهب الأدبية

لفت نظرنا خلال بحثنا ظهور ثلاثة مذاهب أدبية في هذا العصر ، ظهر أولها في القرن السادس الهجري ، وكان على رأسه الخطيب الحصكفي ، وظهر ثانيها في القرن السابع الهجري ، وكان على رأسه ابن الأثير الكاتب ، أما المذهب الثالث فقد شهدنا ظهوره ونظوره خلال القرنين المذكورين .

يبقى علينا الآن ، ونحن في مستهل هذا الفصل ، أن نجمل بحث النثر ،

ونذكر أهم ما تميز به من خصائص أسلوبية ، وذلك لندرك النيارات الأدبية المختلفة التي طبعت أدب هذا العصر بطابعها الخاص .

(١)

المذهب الحصكفي

لا شك أن الخطيب الحصكفي كان صاحب مدرسة كبرى أسهمت في تطوير النثر العربي ، وأثرت تأثيراً كبيراً في التصنع البلاغي والتكلف البديعي اللذين طبعوا الأساليب البانبة بطابعها الخاص ، كانت هذه المدرسة بطبيعة الحال ذات صلة وثيقة بما سبفها وبما لحقها من مدارس أدبية ومذاهب فنية ، فهي منحدره من أسلوب المقامات ، أخذت منها ما فيها من إغراب وسجع وتعفيد . جرى الكتاب على اختلاف اتجاهاتهم وبخاصة منهم كتاب الدواوين في هذا المضمار ، وكان من أبرز رواد هذه المدرسة القاضي الفاضل والعماد الكاتب وغيرهما من أعلام كتاب القرن السادس الهجري .

(٢)

المذهب الأثري

ظهرت المدرسة الأثرية في القرن السابع الهجري ، وكان ظهورها تطوراً حتمياً ، وضروره استلزمته طبيعة الصراع الأدبي بين القديم والجديد .

أما سبب ظهورها فيرجع في حقيقة الأمر إلى هذا التقليد الأعمى للأسلوب الحصكفي ، وقد لاحظ ابن الأثير رائد هذا المذهب تفليد كتاب الدواوين في دمشق والقاهرة وبغداد لهذا الأسلوب المتكلف والمفرق في إغرابه وتعقيده وتصنعه ، حتى خرج به عن كونه إحدى وسائل التعبير ، وغدا مظهراً من مظاهر العبث اللفظي بين أيدي صغار الكتاب وكبارهم من الأعلام المنشئين .

اعتمدت هذه المدرسة الجديدة على محاولة هدم أركان المدرسة الحصكفية التي مثلها في هذا العصر القاضي الفاضل والعماد الكاتب ، فهي تحاول بعد

هذا الهدم أن توجد نظرية جديدة في جوهر السجع العربي ، وتمعرض على طبع البيان العربي كله بطابع التصنع السجعي ، حتى إن العماد الكاتب استخدمه في تصانيفه التاريخية كما رأينا ، وتطلب الحد من استفحاله والاقتصار منه على ما يلائم الطبع وما تقبله النفس وتشترب على كل كاتب أن يتبعد عن كل أساليب الكلف والتعميد والإسراف في الإغراب .

أحدثت هذه المدرسة ضجة كبرى في عهد رائدها ، ووجدت لها أنصارها . ولكن لم يتسن لها مع الأسف أن تتابع طريقها أو نجد لها أتباعاً بعد وفاته صاحبها ، وذلك لأن الطبائع البشرية تبقى زمناً طويلاً محافظة على ما ورثته قبل أن تقبل على الأساليب الجديدة ، ولو قيس الله لهذه المدرسة من أكمل ما بدأه مؤسسها لرأينا أن الأسلوب العربي شرع يتحرر شيئاً فشيئاً ، ويسير في طريق الانطلاق من عبودية السجع والإغراب والتكلف . مهما يكن من أمر فقد ظهر والشهاب محمود . وكان سبيلاً وسطاً بين المدرسين المذكورين اللتين تصوران لنا بعض مظاهر أدب هذا العصر .

(٣)

المذهب الظفري

أحدث ابن ظفر طفرة جديدة في الأساليب التعبيرية العربية ، فلقد تحرر في قصصه ومواعظه من السجع المعروف في هذا العصر وافتصر منه كما رأينا على خطبة كتابه سلوان المطاع وما ورد في قصصه من الحكم والمواعظ . أما سرد القصص والحوار فقد أطلق المؤلف لنفسه فيه العنان ، وهذا بدفعنا لمخالفة معظم الذين أرخوا آداب هذا العصر ، أو لحوا إلى ذلك من خلال دراساتهم ، فذكروا أن الأسلوب المسجع كان وحده المعروف والمنتشر في هذا العصر . لقد تحدثنا عن ابن الأثير ، وأشرنا من خلال بحثه إلى اعتقاده أن ورود غير المسجوع في القرآن معجزاً أبلغ في باب الإعجاز من ورود المسجوع نفسه ، وهذا تطور جذري خطير في الأسلوب العربي . هكذا نشهد اثنين من الأدباء يؤلفان كتابين هامين ، يعرضان فيهما عن

استخدام السجع إلا في النادر ، ونظن أن ابن الأثير قد اطلع على كتاب ابن ظفر المذكور ، فلا غرابة إن رأيناه بعد ذلك يحاول في كتابه المثل السائر أن يدافع عن الأسلوب الحر الطليق ، كما ورد في القرآن إلى جانب الأسلوب المسجعجنباً إلى جنب .

كان ابن ظفر حقاً رائداً من رواد هذا المذهب الجديد ، ولو قيض الله له من عني به وسلك سننه لكان لنا فن قصصي رائع ، إذ إن الثقافة الموسوعية التي اتسم بها هذا العصر كانت على استعداد كبير لكي ترفد هذا الأدب بعناصر أجنبية كثيرة من فارسية ويونانية وسريانية ، وهي كما نعلم غنية بهذا الفن ، وما فيه من أساطير وقصص دينية كثيرة ، مهما يكن من أمر ، فإننا نسجل لابن ظفر أنه كان أحد الرواد الأوائل الذين أسهموا بنصيب كبير في تحرير الأسلوب العربي وفي ظهور الفن القصصي .



القِسْمُ الثَّانِي

التصنع البلاغي

(١)

تصنع الصور البيانية

استخدم الكتاب في هذا العصر كسابقيهم مختلف الصور البيانية المعروفة من تشابيه واستعارات وكنيات ، وقد أشار إلى ذلك الذبن تحدثوا عن اساليب الكتابة والترسل ، فلم تقتصر على الشعراء كما وضحنا ذلك في مكانه من هذا البحث ، وإنما تناولها الكتاب ، ولم يقلوا عنهم تصنعاً إن لم يتفوقوا عليهم فيها .

التشبيه

تحدث الشهاب محمود في كتابه حسن التوسل عن التشبيه ، وذكر أنه « ركن من أركان البلاغة لإخراجه الخفي إلى الجلي وإدناؤه البعيد من القريب » (١) . ولا يهمننا هنا أن نتحدث عن التشبيه كفن بلاغي ، وإنما نريد أن نعرف تطوره في هذا العصر من خلال نظرة البلاغيين ومفهوم الكتاب . إن التطور الذي طرأ على التشبيه ظاهر كل الظهور ، وذلك أن الكتاب كرهوا التقسيمات الكثيرة التي فرعها عنه البلاغيون ، فهذا مثلاً ابن الأثير ينقد تقسيم علماء البيان وتفريقهم بين التشبيه والتمثيل ، وجعلهم لكل

(١) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١٢ .

منهما باباً منفرداً « وهما شيء واحد من أصل الوضع » (١) ، ووقف الشهاب محمود ابضا الموقف نفسه من هذه التقسيمات ، فأشار إلى المأخرين الذين صنفوا في التشبيه سبعة أنواع ، وقال : نحن نوردها . وإن لم تكن كلها منها » (٢) .

لم يقتصر النقد البلاغي على علماء البلاغة وحدهم ، وإنما نعداهم إلى الكتاب أنفسهم . فنقدت نسبهاهم . قال ابن الأثير : « إن من شرط بلاغة التشبيه أن ينسب الشيء بما هو أكبر منه وأعظم . ومن هنا غلط بعض كتاب أهل مصر في ذكر حصن من حصون الجبال منسبها له فقال : « هامة عليها من الغمام عمامة » وأنملة خضبها الأصيل فكان الهلال منها قلامة : وهذا الكاتب حفظ شيئاً ، وغابت عنه أشياء ، فإنه أخطأ في قوله أنملة ، وأي مقدار من أنملة بالنسبة إلى تشبيه حصن على رأس جبل . وأصاب في المناسبة بين ذكر الأنملة والقلامة وتنبيهها بالهلال » (٣) . كما انتقد بعض الشعراء والكتاب الذين أكثروا من التشبيه ، فأشار إلى ابن المعتز وابن وكيع ، وقال : « إنما أكثروا من ذلك ، لا سيما في وصف الرياض والأشجار والأزهار والثمار ، ولا جرم أنهما أنيا بالغت البارد الذي لا يثبت على محك الصواب » (٤) . كما يعنف أنه من بين أنواع البيان مسووع المذهب ، وهو مقل من مقاتل البلاغة ، وفلما أكر منه أحد إلا عشر (٥) . ولا شك أن ابن الأنير كان على حق في نقد الذين بالغوا وأوغلوا في تصنع الصور البيانية ، ويرى أيضاً أن التنبيه لا يخلو من أربعة أقسام : إما تنبيه مفرد بمفرد ، وإما تنبيه مركب بمركب ، وإما تنبيه مركب بمفرد . فمن تنبيه مفرد

(١) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٣٨٨ .

(٢) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١٦ .

(٣) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٣٩٥ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٩٤ .

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٩٤ .

بمفرد قول الشهاب محمود في كتاب انشأه إلى مقدم سرية : « أصدرناها إليه نحثه على الركوب بطلبة أعجل من السيل واهول من الليل ، وإيمن من نواصي الخيل ، وأقدم من النسر ، وأوقع على المقاصد من الغيث المنهمر ، وأروع في مخاللة العدا من الذئب الحذر ، على خيل تجري ما وجدت فلاة ، وتطبع راكبهما مهما أراد منها سرعة أو أناذ تتسئم الجبال الصم كالوعمل ، وإذا جارتها البروق عدت وراءها تمشي الهوينى كما بمشي الوجي الوحل . وليكن كالنجم في سراه وبعد ذراه ، إن جرى فكسهم ، وإن خطر فكهرهم ، وإن طلب فكالليل الذي هو مدرك ، وإن طلب فكالجنة التي لا يجد ريحها مشرك ، حتى يأتي على عدو الدين من كل شرف ، ويرى جمعه من كل طرف » (١) .

ومن تشبيه المركب بالمركب قوله في رسالة يصف البر والمسير : « لم أزل أصل الذميل بالذميل ، وألف الضحا بالأصيل والأرض كالبحر في سعة صدره ، والمطايا كالجواني راكدة على ظهره ، فمكان الركب فيها كمكانهم من الأكوار ، ومسيرهم فيها على كرة لا تستقر بها حركة الأدوار » (٢) .

ومن تشبيهاته في كتاب كتبه إلى ديوان الخليفة ، ذكر فيه نزول العدو على ثغر عكا سنة ٥٨٥ هـ : « وأحاط بها العدو إحاطة الشفاه بالتفور ، ونزل عليها نزول الظلماء بالنور ، لقد اصطدم من الإسلام والكفر ابنا شمام (٣) ، والتقى من عجاجتهما ظلام ، وعند ذلك أخذ العدو في التحيز إلى جانب ، وكان كحاجب على عين فصار كعين في حاجب ، وإذا تززع البناء فقد هوى ، وإذا قبض من طرف البساط فقد انطوى » (٤) .

(١) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ٩٣ .

(٢) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٤٠٥ .

(٣) ابنا شمام : شمام اسم جبل لباهله ورد ذكره في شعر جرير ، وله وأسان يسميان ابني شمام ، ورد ذكرهما في شعر لبيد .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٠٧ .

ومن ذلك قوله في تشبيه المفرد بالركب في فصل من كتاب يتضمن استنجاداً: « وهو إذا استصرخ أصرخ بعزم كالسهاب في رجمه ، وهم كالقوس الممتلىء بنزع سهمه . ويرى أن صريخه لم يخب ، وأنه إذا لم يجبه بالسيف فكأنه لم يجب ، فهو مغري جواده وحسامه ، ومسمع العدو صرير رمحه قبل قعقة لجامه » (١) .

ومن هذا النوع قوله في كتاب إلى بعض إخوته يذم الفراق : « والفراق شيء لا كالأشياء ، وصاحبه ميت لا كالأموات ، وحي لا كالأحياء ، وما أراه إلا كنار الله الموقده التي تطلع على الأفئدة ، وما يجعل صاحبها في ضحاح منها إلا تواتر الكنب التي تقيه بعض الوفاء ، وتقوم له وإن لم يسبق مقام الإسقاء » (٢) .

أما القسم الرابع فهو تشبيه المركب بالمفرد فإنه قليل الاستعمال بالنسبة إلى الأقسام الثلاثة الآتية الذكر .

الاستعارة

تحدثنا في باب الشعر عن الاستعارة ، ووفيناها حقها من البحث مما يهمننا أمره ، ونتحدث عنها الآن في باب النثر ، فقد عقد ابن الأثير فصلاً طويلاً فيها ، تعرض لكثير من أمورها ، وذكر خلال ذلك أنه ورد في كتابه ما استخرجه من قواعد ، لم يسمع فيه قولاً لغيره (٣) ، ثم أورد بعد ذلك شواهد مما تصنعه من الاستعارات في رسائله الكثيرة .

نذكر من ذلك ما جاء في رسالة ، سأل به بعض أصدقائه أن يصف له غلامين تربيين كان يهواههما ، وكان أحدهما يلبس قباء أحمر ، والآخر قباء أسود ، ومما قاله : « إذا تشعبت أسباب الهوى كانت لسره أظهر ، وأضحت أمراضه خطراً كلها ، ولا يقال في أحدهما هذا أخطر ، وقد هويت بدرين على

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤١٢ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤١٢ .

(٣) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٣٥٥ .

غصنين ، ولا طاقة للقلب بهوى واحد ، فكيف إذا حمل هوى اثنين ؟ ومما سيجاني انهما يتلونان في اصباغ الثياب ، كما يتلونان في فنون التجرم والعتاب ، وقد استجدا الآن زباً لا مزيد على حسنهما في حسنه ، فهذا يخرج في ثوب من حمرة خده ، وهذا في ثوب من سواد جفنه ، ولا أدري من دلهما على هذا العجيب ، غير انه ليس فتنة المحب أهدي من حبيب « (١) » .

أشار ابن الأنثري إلى أن هذا الفصل بجملته مما تواصله الناس واغروا بحفظه (٢) ، وإن صح ما يزعمه ، فهذا يعني أن التصنع البلاغي ، ولا سيما الاستعارة ، أغرى الناس بتواصله وحفظه ، ولعله يقصد الطبقة المختارة من المثقفين الذين كانوا يغرمون بهذا النوع من التكلف البياني ، وهذا بالطبع أدى إلى حصول تباين في الأذواق بين المولعين بالصنعة والمعجبين بالقصص الوعظية ، وسوف يتضح صدق نظرتنا لدى عرضنا الزخارف البديعية .

(٢)

تصنع الزخارف البديعية

أشرنا في حديثنا عن الشعر إلى علم البديع وازدهاره في هذا العصر ، وذكرنا أن الزخارف البديعية طفت على الأدب شعره ونثره ، وليس من باب العبث اللفظي قول ابن حجة : « إن لكل زمان بديعاً تمتع بلذة الجديد » (٣) .

يبقى علينا الآن أن نوضح أهم ما في نثر هذا العصر من زخارف بديعية طبعت النثر بطابعها الخاص . بيد أن الكتاب لم يكتفوا بما بلغه الشعراء من تصنع لهذه الزخارف البديعية ، وإنما أغرقوا في هذا التصنع ، فأوجدوا فناً جديداً سموه فن الإبداع (٤) .

تحدثنا عن هذا المذهب في معرض دراستنا لمذهب الشهاب محمود الأدبي ، وقلنا آنئذ : إنه استخرج ذلك من اتجاه ابن أبي الإصبع خلال

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٧٥ ، ٣٧٦ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٧٦ .

(٣) ابن حجة : الخزائن ، ص ٥ .

(٤) الشهاب محمود : حسي التوسل ، ص ٨٨ .

تبيان ما في بعض الآيات القرآنية من ضروب البديع . هكذا تصنع الكتاب الزخارف البديعية المختلفة في أساليبهم التعبيرية ، وسوف ندرس منها أبرز ما ينصل باب النثر خاصة من محسنات بديعية ، لفظية ومعنوية .

السجع

أعجب العرب بالسجع منذ جاهليتهم الأولى ، فكثرت في أمثالهم وخطبهم ونثرهم ، وغدا مظهراً من مظاهر طقوسهم الدينية ، ولما أنزل الله القرآن الكريم على نبيه رأوا السجع في كثير من فواصله وفقراته ، فقلدوه في نثرهم ، وبلغ بهم إعجابهم حداً يجعلهم يكترون من استخدامه ، « حتى استعملوه في منظوم كلامهم » (١) .

أما في هذا العصر فقد روى ابن الأثير أن بعض أصحابه من أرباب هذه الصناعة تنقصه وعابه ، فاعترض على ذلك ، لأنه لا يرى لهذا الرأي الحر وجهاً مقبولاً عنده ، « وإلا فلو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم » (٢) .

انتشرت الأسجاع انتشاراً كبيراً ، وغدت ضرورة أسلوبية لا بد منها عند أرباب البلاغة ، لأنهم جعلوها من مقومات النثر الرئيسية في هذا العصر . يقول أبو يعقوب السكاكي أحد علماء البلاغة الأفاضل في هذا العصر : « ومن جهات الحسن الأسجاع ، وهي في النثر كالقوافي في الشعر » (٣) . كما عدّه البلغاء فضيلة من فضائل الكلام على شرط البراءة من التكلف ، والخلو من التعسف (٤) .

أبرز من بحث السجع في هذا العصر هو ابن الأثير ، وقد حاول أن يوجهه كما رأينا وجهة جديدة ، ليتفوق على من سبقه من الكتاب . بدأ بالسجع ، فعرفه بقوله : « وحده أن يقال : تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد » (٥) وجاء بعده النهاب محمود ، فذكر « أن كلمات

(١) العسكري ، الصناعتين ، ص ٢٦٤ .

(٢) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ١٩٣ .

(٣) السكاكي : مفصاح العلوم ، ص ٣٢٨ .

(٤) العسكري : الصناعتين ، ص ٢٦١ .

(٥) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ١٩٣ .

الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأسجاع موقوفة عليها ، لأن الغرض أن يجانس بين الفرائن وبزواج بينها ، ولا يتم ذلك إلا بالوقف » (١) .

فسم ابن الأثير السجع إلى ثلاثة أقسام : أولها أن يكون الفصلان مساويين ، لا يزيد أحدهما على الآخر . وأمثلة كثيرة في القرآن الكريم ، وهو أنشرف السجع منزلة للاعتدال الذي فيه ، فمن ذلك قول الشهاب محمود في رسالة البندق : فبرزنا وشمس الأصيل تجود بنفسها ، وشير من الأفق الغربي إلى جانب رسمها . . إلى حدائق ملنقة ، وجداول محتفة ، إذا خمش النسيم غصونها اعنقت كالأحباب . وإذا ركب من المياه متونها انسابت في الجدول انسياب الحباب . ورفضت في المناهل رقص الأحباب ، وإن لنم نفور توّرها حيثه بأنفاس المعشوق . وإن يفظ نواعس ورّفها غنته بالحن المسوق ، فنسيمها دان ، وشميمها لعرف الجنان عنوان ، ووردها من نرجسها غيران ، وطلها من خدود الورد منبت ، وفي طرر الرياح حيران ، وطائرها غرد وماؤها مطرد ، وغصنها تارة يعطف النسيم إليه فنعطف ، وتارة يعندل تحت ورقائه فتحسب أنها همزة على الف . مع ما في تلك الرياض من توافق المحاسن ونباين السريّ ، إن كلما اعتل النسيم نشر الروض ، وكلما خر الماء سمنح القضييب » (٢) .

والقسم الثاني أن يكون الفصل الثاني أطول من الأول قليلاً ، وإلا استكره وعد عيباً ، فمن ذلك قول ابن الأثير في وصف صديق : « الصديق من لم يعتض عنك بخالف ، ولم يعاملك معاملة حالف ، وإذا بلفته أذنه وشاية أقام عليها حد سارق أو قاذف » (٣) . فالأولى والثانية أربع لفظات في كل منهما ، لأن الأولى « لم يعتض عنك بخالف » ، والثانية « ولم يعاملك معاملة حالف » ، وجاءت الثالثة عشر لفظات .

والقسم الثالث من السجع أن يكون الفصل الآخر أقصر من الأول ، وقد عده ابن الأثير عيباً ، وسبب ذلك أن السجع يكون قد استوفى أمده

(١) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ٤٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

(٣) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٢٣٩ .

في الفصل الأول بحكم طوله ، ثم يجيء الفصل الثاني قصيراً عن الأول فكون كالشيء المبثور (١) . وبظهر أن ابن الأنير لم يرقه هذا التقسيم ، ورأى أن ينظر إلى السجع نظرية كلية ، فاقصر منه على ضربين : أحدهما سماه السجع القصير ، وهو أن تكون كل واحدة من السجعتين مؤلفة من الفاظ قليلة ، وكلما قلت الألفاظ كان أحسن لقرب الفواصل من سمع السامع ، وهذا الضرب أوعر السجع مذهباً ، وأبعده متناولاً ، ولا يكاد يقع استعماله إلا نادراً (٢) . والضرب الثاني سماه السجع الطويل وهو أكثر استعمالاً وأسهل متناولاً .

تحدثنا من قبل عن نظرية ابن الأنير الجديدة في السجع العربي ، وأشرنا من خلال ذلك إلى السر الخاص الذي اكتنفه ، وهو خلاصته المطلوبة ، وذكرنا أنه صرح بأن هذا الشيء لم ينبه عليه أحد غيره ، وذلك أن تكون كل واحدة من السجعتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه اختها . وقد نظر في كتابة المفلّحين ممن تقدموه كالصابي وابن العميد وابن عباد والحريري والخطيب ابن نباتة وغيرهم ممن عرض به من معاصريه ، ورأى أن القليل النادر من سجع بعضهم وقع لهم عرضاً ، لكنه عرف هذا السر فكان له الفضل في اكتشافه .

يبقى علينا بعد أن عرضنا للسجع ، وبيننا من خلال ذلك كل أقسامه العامة أن نتحدث عن مبنى الفواصل المسجعة ، وما يطرأ عليها من تصنع ، ولا سيما الكلمتين الأخيرتين في فواصل السجعتين . ونرى توضيحاً لذلك أن نتحدث عن السجع المرصع والمتوازي والمطرف والمتوازن .

أما السجع المرصع فهو أن تكون الألفاظ مستوية الأوزان متفقة الأعجاز (٣) أو متقاربته (٤) وقد اشتق اسمه من ترصيع العقد ، وذلك أن

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤٠ .

(٣) الشهاب بحمود : حسن التوصل ، ص ٥٠ .

(٤) السكاكي : مفتاح العلوم ، ص ٢٢٩ .

يكون في أحد جانبي العقد من اللآلئ مثل ما في الجانب الآخر ، وكذلك نجعل هذا في الألفاظ المنشورة من الأسجاع (١) . فمن ذلك قول ابن الأثير في جواب كتاب إلى بعض أخوانه : « قد أعدت الجواب ولم أستعمر له لفظاً ملفقاً ، ولا جلبت إليه حسناً منمقاً ، بل أخرجته على رسله ، وغنيت بصقال حسنه على صقله ، فجاء كما تراه غير ممشوط ولا مخطوط ، فهو يرفل في أثواب بذلته ، وقد حوى الجمال بجملته ، والحسن ما وشته فطرة النصوصير ، لا ما حشته فكرة الزوير » (٢) . والترصيع ظاهر كما نرى في قوله : « وشنه فطرة التصوير » و « حشته فكرة التزوير » . ومنه قوله أيضاً في تثقيف الأولاد في فصل من نثره : « من قدّم أود أولاده ، ضرّم كمد حساده » (٣) . ف (قوم) بإزاء (ضرّم) ، و (أود) بإزاء (كمد) ، و (أولاده) بإزاء (حساده) .

وأما السجع المتوازي فهو أن يراعى في الكلمتين الأخيرتين من القرينتين الوزن مع اتفاق الحرف الآخر منهما . فمن ذلك قول المهذب الدمشقي في رسالة النسر والبلبل : « كأنما أجنحته ركبّت من العواصف ، واستلبت من البروق الخواطف ، وأخذت من رمز الألفاظ ، واستعيرت من غمز اللاحاظ » (٤) . وقوله أيضاً في الرسالة نفسها : « السلام عليك من طائر صغير حقير ، يظهر في صورة كبير خطير ، وشاد ظريف طريف ، بغير أليف ولا حليف » (٥) .

وأما السجع المطرف فهو أن يراعى الحرف الأخير في كلتا قرينتيه من غير مراعاة الوزن . من ذلك قول أسامة في رسالة بعث بها إلى الناصر صلاح

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٤ .

(٢) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٢٦٥ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٥ .

(٤) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٣٤١ .

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٤٧ .

الدين ، وقد طلب القاضي الفاضل من العماد أن يأخذها ويوردها في الخريدة :
« المملوك لبعده عن خدمة مولاه قد أنكر الزمان ، فما هو الذي كان ، وأوهت
الأيام ما أبقت من بسير قوته ، واسترجعت ما أعارته عن ضعيف نهضته ،
وأذاقته طعم الاغتراب ، وأدخلت عليه الهم من كل باب ، فهو في زاوية المنزل
عن كلمات الناس فيه بمعزل » (١) .

التزم الكتاب في أسجاعهم لزوم ما لا يلزم ، وعد ذلك « من اشق الصناعة
مذهباً وأبعدها مسلكاً » (٢) . فمن ذلك قول ابن الأثير في صدر كتاب
يهنئ فيه الملك الأفضل بملك مصر : « المملوك يهنئ مولانا بنعمة الله المؤذنة
بإستخلاصه واحتبائه ، وتمكينه حتى بلغ أشده واستخرج كنز آبائه ،
ولو أنصف لهذا الأرض بوابلها ، والأمة بكافلها ، وخصوصاً أرض مصر التي
خصت بشرف سكناه ، وغدت بين بحرين من فيض البحر وفيض يمناه (٣) .
لا شك أن تصنع السجع أبرز ما في النثر من فنون البديع ، وعليه كان
اعتماد جل الكتاب ، إذ كل كلام يخلو منه ، ولا يأخذ كاتبه منه بحظ قليل
أو كثير ، خارج في عرف نقاد هذا العصر عن أساليب البلاغة الصحيحة .
ولم يكن السجع كل شيء ، فإن الكتاب كانوا يعتمدون تكلف الطباق والجناس
والتوازن والوزن وغيرها من فنون البديع .

الجناس

تحدثنا في باب الشعر عن الجناس ، وذكرنا أهميته الكبرى كأحد
مقومات المذهب الأدبي في عرف الأدباء ، لأنهم كانوا يعتقدون أنه « غرة
سادخة في وجه الكلام (٤) » ، فلا غرابة إن رأينا الكتاب أيضاً يتكلفونه
ويتصنعونه ، لأنه لا بد منه ليحوز على رضا البديعيين من علماء البلاغة ،

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٤٦ .

(٢) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٢٦٧ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٨ .

(٤) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٢٤٦ .

بله أذواق العصر النبي كانت تقدر مكانة الأديب بما يجري في أسلوبه من هذا التألق البديعي ، وكنا قد لاحظنا أن الحصكفي الخطيب كان يتصنعه ليظهر براعته ومقدرته ، وقد أشرنا إلى ذلك في رسالة القصار والصيد وأوردنا ما فيها من صور الجناس المختلفة والمنكلفة . فمن الأسلوب المجنس قول ابن منير الطرابلسي في رسالة له : « إلامَ لعب والتسيب يجد ؟ وعلام أخلق والدهر يجد ؟ أما انظر المصارع في سواي ، والمقصود به (١) شواي » (٢) . ومنه قول ابن الأثير في مطلع كتاب بعث به إلى بعض أخوانه : « الكنب وإن عدها قوم عرضاً من الأعراض ، وتقالوها حتى قالوا هي سواد في بياض ، فإن لها عند الأخوان وجهاً وسيماً ، ومحلاً كريماً ، وهي حمائم القلوب إذا فارق حميم حميماً » (٣) . وذكر لنا أنه مضى على هذا النهج من الجناس إلى ختام الكتاب . ومنه قوله أيضاً في وصف كريم : « وقد جعل الله حرمة ملقى الجفان ، وملتقى الأجفان ، فهي حمى لمن جنى عليه زمانه ، وجار لمن بعد عنه جيرانه » (٤) .

وصف ابن الأثير بعض ما أورده من سجعه أن « عليه خفة الطبع لا ثقل التطبع » (٥) ، ولكننا لاحظنا في أسجاعه ثقل التطبع لا خفة الطبع ، ومرد ذلك أن ابن الأثير بدرك في قرارة نفسه أن التصنع والتطبع قلما يجتمعان ، كما رأينا أكثر من مرة في مثله السائر .

الطباق

تحدثنا أيضاً عن الطباق في باب الشعر وذكرنا أهميته الكبرى في المذاهب الفنية في هذا العصر ، بدليل أن علماء البلاغة سموه البديع (٦) .

-
- (١) شواي : جمع شواة ، وهي جلدة الرأس .
 - (٢) العماد الكاتب : الخريدة ، ج ١ ص ٩٤ .
 - (٣) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ٢٥٦ .
 - (٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٦ .
 - (٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٥ .
 - (٦) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٧٩ .

ذكر ابن الاثير ان هذا النوع من الكلام لم تخصص به اللغة العربية دون غيرها من اللغات ، وأشار إلى انه وجد في لغة الفرس ، وأن « أول كتاب الفصول لأبفرط في الطب قوله : العمر فسير والصناعة طويلة ، وهذا الكتاب على لغة اليونان » (١) .

أوردنا قريبا من هذا المعنى في حديثنا عن الكناية في باب الشعر ، وهذا يؤكد لنا أن الادب العربي في هذا العصر كان على صلة بالثقافات الأخرى المعروفة كالفارسية واليونانية والسريانية وغيرها .

اقترن الجنس والطباق في مذهب أدبي واحد ، أشار إليه العماد الكاتب كثيراً في خريدته ، وأورد شواهد كثيرة ثرية وشعرية من آداب هذين القرنين .

نذكر من ذلك قول ابن الاثير في صدر كتاب بعث به إلى بعض أخوانه : « صدر هذا الكتاب عن قلب مقيم وجسد سائر ، وصبر حليم وجزع عاذر ، وخاطر أدهسنه لوعة الفراق فليس بخاطر (٢) » . ومن ذلك قوله يصف المسير من دمشق إلى الموصل : « ثم نزلت أرض الخابور فغربت الأرواح وشرقت الجسوم ، وحصل الإعدام من المسار والإنزال من الهموم ، وطالبتني النفس بالعود والقدرة مفلسة ، وأويت إلى ظل الآمال والآمال مشمسة » (٣) . ومن ذلك قول بعض الأخوان : « صدر هذا الكتاب عن قلب مأنوس بلفائه ، وطرف مستوحش لفراقه ، فهذا مروع بكآبة إظلامه ، وهذا ممتنع ببهجة إشراقه ، غير أن لقاء القلوب لقاء عنيت بمثله خواطر الأفكار ، وتتناجى به من وراء الاستار ، وقد أخذ الطيف المسلم في المنام ، الذي يمويه بقاء الأرواح على لقاء الأجسام » (٤) .

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٨١ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٨١ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٨١ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٨١ .

نكتفي بهذا القدر من عرض ما يتصل بالتصنع البلاغي في هذا العصر ونخلص من كل ما نقدم معنا إلى القول : إن الأساليب النثرية في الشعر العربي شهدت نضج العلوم البلاغية ، وكان حظها كالشعر منها كبيراً جداً ، فاستمدت منها صورها البيانية وزخارفها البديعية في عصر أضيف إليه البديع ، فكان بحق عصر البديع .



القسم الثالث

بنية النشر الفني

طبع النشر الفني في عصر البديع بطابع خاص ، وظهر لنا ذلك في بنيته ونرى ، توضيحاً لذلك أن تقوم بدراسة الألفاظ والتراكيب ، ومنتقل منها لنبين الرسائل وأقسامها وأساليبها .

(١)

الألفاظ والتراكيب

لاحظنا أن بعض الكتاب كان يميل إلى استعمال غرائب الألفاظ ، لكن الذين تصدوا للتحدث عن خصائص الكتابة وشرائطها تطلبوا من الكتاب أن يختاروا الفاظهم وينمقوا أساليبهم وتراكيبهم ، واشترطوا على الكاتب أن تكون اللفظة مما رقت حروفها ، وحلا جرسها وطلبوا منه أن ينجب منها « ما بضيق به مجال الكلام في بعض الحروف كالشاء والذال والخاء والشين والصاد والطاء والظاء والغين ، فإن في الحروف الباقية مندوحة عن استعمال ما لا يحسن من هذه الأحرف » (١) .

برزت في هذا العصر مشكلة الألفاظ والأساليب العامة بشكل جلي ، ولا سيما أن الأدب الشعبي كان أظهر في هذه الفترة منه في غيرها ، ووقف الأدباء حيارى أمام هذه الألفاظ المستحدثة والمولدة ، وبحث بعضهم هذا الأمر الهام ، إذ ليس من المعقول أن يتخلوا البتة عما تولده العامة من معان جديدة للألفاظ العربية الفصحى .

(١) ابن الأنبار : المثل السائر ، ج ١ ص ١٧٨ .

ذكر ابن الأثير أن من أوصاف الكلمة ألا تكون مبتدلة بين العامة ، وذلك ينقسم إلى قسمين : الأول ما كان من الألفاظ دالاً على معنى وضع له أصل في اللغة ، فغيرته العامة . وجعلته دالاً على معنى آخر ، وهو ضربان : الأول ما يكره ذكره ، والثاني أنه وضع في أصل اللغة لمعنى ، فجعلته العامة دالاً على غيره ، إلا أنه ليس بمستقبح ولا مستكره ، كتسميتهم الإنسان ظريفاً إذا كان دمك الأخلاق حسن الصورة ، أو اللباس ، أو ما هذا سبيله . والظرف في أصل اللغة مختص بالنطق فقط (١) .

والقسم الثاني مما ابتدئته العامة ، وهو الذي لم نغيره عن وصفه ، وإنما أنكر استعماله لأنه مبتدل بينهم ، لا لأنه مستقبح ، ولا لأنه مخالف لما وضع له .

وقف ابن الأثير عند هذا القسم وناقشه ، وأبدى فيه نظره ، وذكر أنه إن كان عبارة عما يكثر تداوله بين العامة ، فإن من الكثير المتداول بينهم الفاظاً فصيحة ، وقد نطق بها القرآن في مواضع كثيرة منه ، وجاءت في كلام فصحاء العرب . وخلص أخيراً إلى القول إنه ترجح في نظره أن المراد بالمبتدل من هذا القسم إنما هو الألفاظ السخيفة الضعيفة ، سواء تداولتها العامة أم تداولتها الخاصة (٢) .

أورد المقرئ الفيومي في المصباح المنير ذكر بعض ما أنكر على العامة استعماله في أماكن كثيرة من معجمه ، نذكر من ذلك مثلاً ما أورده في بحث النسب « وقول العامة شفعوي خطأ ، إذ لا سماع يؤيده ، ولا قياس يعضده » (٣) . وتحدث في الفصل ذاته عن « قول العامة : الأموال الزكاتية والخليفيتية بإثبات التاء خطأ ، والصواب حذفها وقلب حرف العلة واواً » (٤) . وأشار في معجمه إلى استعمال لفظة مقراض بالمفرد « كما تقول

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٨١ .

(٢) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ١٨١ .

(٣) الفيومي : المصباح المنير ، ج ٢ ص ٢٣١ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٣٢ .

العامة» (١) وأورد في معجمه أيضاً آراء أهل العلم في كثير من الألفاظ التي يكثر تداولها بين الناس بعد أن غيروا معانيها أو اطلعوها على غير ما وضعت له ، نذكر من ذلك قوله حول اختلاف اللغويين في كلمة النزهة ، فنقل أولاً قول ابن السكيت في فصل تحدث فيه عما تضعه العامة في غير موضعه ، ثم شفعه بقول ابن قتيبة « ذهب بعض أهل العلم في قول الناس : خرجوا ينزهون إلى البساتين ، أنه غلط وهو عندي وليس بغلط لأن البساتين في كل بلد إنما تكون خارج البلد ... » (٢) .

نلاحظ في هذا العصر - بالإضافة إلى المشكلة السابقة - اتجاهين لدى الكتاب ومن خلالهما تتمثل الصراع بين القديم والجديد . أما انصار القديم فقد حمل عليهم ابن الأثير ، ونعنيهم بأنهم جماعة من مدعي هذه الصناعة يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذي يعز فهمه ، ويبعد متناوله ، وإذا رأوا كلاماً غامض اللفاظ يعجبون به ، ويصفونه بالفصاحة وهو بالضد من ذلك ، لأن الفصاحة هي الظهور والبيان ، لا الغموض والخفاء (٣) .

وأما انصار الجديد فهم الذين ضاقوا ذرعاً بهذه القيود ، وكان ابن الأثير على رأس هذه الجماعة التي عزفت عن الغموض والخفاء ، ورات أن الألفاظ يجب أن تكون رقيقة جزلة ، ولكل موضوع ألفاظه الخاصة به .

استخدم كتاب هذا العصر كثيراً من الألفاظ العامية كما مر معنا ، أو المعربة مما طرأ على اللغة العربية الفصحى ، واقتبسته من اللغات الأخرى . وكانت الحروب المتواصلة في هذا العصر وأحداثه الكبرى والعلاقات التجارية المتبادلة التي كانت تربط بين الأمم المتنازعة أو المتباعدة وغير ذلك ، من أهم العوامل التي ساعدت على امتزاج الثقافات المختلفة ، وأدت بالتالي إلى انتشار كثير من الألفاظ العامية والأساليب المعربة في النثر الفني .

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٩٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٣) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ص ١٦٨ .

لو تصفحنا كتاب الاعتبار أحد تصانيف أسامة لوجدنا فيه كثيراً من الألفاظ المعربة ، نذكر منها قوله : « هذا رجل برجاسي (١) (أي تاجر) لا يقاتل ولا يحضر القتال (٢) » وقوله : « ووراءهم السواهمين (٣) الكوهية » (٤) ، وقوله : « فرأى ظل تركشة (٥) أجفل منه فرماه وانفلت » (٦) ، وقوله : « فقبض في يده مثل البرجم (٧) » (٨) ، وقوله : « وما سمعت وما رأيت أن في السباع الببر (٩) » (١٠) .

ومن ذلك قول نور الدين في كتاب بعث به إلى الخليفة الفاطمي العاضد : « ويعلمه أنه ما أرسلهم ، واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات (١١) الفرنج ، ليس لها إلا سهام الأتراك » (١٢) . ومنه قول العماد الكاتب : « وله خمس

(١) لفظه مأخوذة من اللغة الفرسية وتدل على الطبقة الوسطى من الناس (Bourgeoisie) .

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٤١ .

(٣) الكوهية : وهي من أصل فارسي ، ومعناها الجبل ، ويظهر أن أصلها القوهية ، وفي المعرب « قيل هي منسوبة إلى قوهستان ص ٢٦٤ » .

(٤) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٦٢ .

(٥) تركشة : وهي من أصل فارسي ، ومعناها الكنانة وجعبة السهام . وعند دوزي تركاش (ج ١ ص ١٤٥) ، وعند الخفاجي « تركش جعبة مفتر السهام ، عربيه المولدون وتصرفوا فيه ، وهو عامي » (ص ٦٥) .

(٦) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ٢١٤ .

(٧) البرجم : وهي من أصل فارسي ، ومعناها ذئب عجل البحر .

(٨) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٥٩ .

(٩) الببر : وهي من أصل فارسي ، ومعناها الفهد المخطط ، ويقول الخفاجي : إنه جنس من السباع (شفاء الغليل ص ٤٠) ، وعند دوزي (ج ١ ص ١٤٥) .

(١٠) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١١٠ .

(١١) القنطاريات : وهي من أصل يوناني ، ومعناها الرياح أو نوع منها (دوزي

ج ٢ ص ٤١٢) .

(١٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٨٢ .

سنين في بيكارها (١) « (٢) . ومنه قول ابن غانم في كشف الأسرار « مارستان التقوى » و « إهليلج (٣) الالتجاء » (٤) .

تلك هي صورة عن الألفاظ الكتابية المعربة منها والعامية ، نأثرت بها أساليب النثر ، فأينها تنطبع بطابع العصر فلا غرابة إن عثرنا في الأدب : شعره ونثره على السواء ، على ألفاظ استحدثت لها الطبقات الشعبية مدلولات جديدة لكي توسع مدى التعبير في الأسلوب العربي ، وهذا أسلوب معروف في سائر اللغات ، لأن دواعي الحياة وضرورتها تتطلب إيجاد معان جديدة للألفاظ تنسجم معها .

أما التراكم فقد تحدثنا عن أساليب الكتاب بالتفصيل ، وشرحناها بوضوح لدى دراسة الكتاب الإعلام وبيان مذاهبهم الأدبية ، وأوردنا بعض مظاهر التصنع البلاغي والتكلف البدعي اللذين طبعهما هذا النثر الفني بطابعهما الخاص .

(٢)

مقادير الرسائل

تختلف مقادير قطع الورق المستعملة في دواوين الإنشاء في المكاتب والولايات الصادرة عن النواب بالممالك ، وقد ذكر القلقشندي أن المقادير المستعملة بالممالك الشامية في هذا العصر لا تخرج عن أربعة مقادير : المقدار الأول ، وهو قطع الشامي الكامل ، وهو الذي يكون عرضه عرض الطومار الشامي الكامل في طوله ، وفيه يكتب عن النواب لأعلى الطبقات

(١) بيكار : وهي من أصل فارسي ، ومعناها الحرب (دوزي ج ٢ ص ١٣) .

(٢) ابن واسل : مفرح الكروب ، ج ٢ ص ٩٥ .

(٣) إهليلج : ذكر الفهومي أنها بكسر الهمزة واللام الأولى ، وأما الثانية فتفتح ،

وهي معربة ، وفي لغة أخرى نثر الف : هليلج (المصباح المنير ، ح ٢ ص ١٨٩) .

(٤) ابن غانم : كشف الأسرار ، ص ٢٤ .

من أرباب التوقيع . والمقدار الثاني قطع نصف الحموي ، وعرضه درجة عرض نصف الطومار الحموي ، وطوله بطول الطومار ، وفيه يكتب للطبقة الثانية من أرباب التوقيع . والمقدار الثالث قطع العادة من الشامي ، وعرض درجة سدس الذراع بذراع القماش المصري في طول الطومار أو دونه ، وفيه يكتب للطبقة الثالثة من أرباب التوقيع والمراسيم الصادرة عن النواب إلى السلطان فمن دونه من أهل المملكة وغيرهم (١) . كما أشار القلقشندي إلى أن نائب الشام ونائب الكرك قد جرت عادتتهما بصدور المكاتبات عنهما في الورق الأحمر دون غيرهما من النواب ، وهذا يوضح أهمية الإقليم الشامي بالنسبة لغيره من الأقاليم . يضاف إلى ذلك أن مقادير الورق تختلف أيضاً بحسب نوع الخط ، وكان الكتاب يراعون ترك بياض في أول الدرج وحاشيته ، ويناسبون ما بين السطور من بعد ، ويختلف مدى الحاشية وما بين السطور بحسب الشخص الذي يكتب إليه ، فتارة تضيق وتارة تتسع .

(٣)

بنية الفنون النثرية

تختلف الأنواع الأدبية والفنون النثرية : من خطب ومقامات ورسائل ديوانية ورسائل أخوانية في هيكلها العام . ففي الخطب نجد كل خطبة تتألف من أربعة أقسام : أولها يقتصر فيه الخطيب على حمد الله ، فنجد مثلاً في مطلع خطبة الفتح التي ألهاها الخطيب بحضور الناصر صلاح الدين أنه قد استنفذ تقريباً ما جاء في القرآن من آيات ورد فيها ذكر حمد الله ، فكانت عدتها نماني مرات ، لم يذكر فيها كلمة من إنشائه ، وإنما اقتصر على تلاوة آيات مختارة ليؤدي من خلالها معنى الحمد . لم يكن هذا الأسلوب عاماً إذا جرت العادة أن ينشئ الخطيب فاتحة حمد الله في مستهل الخطبة إما بدعاء تقليدي معروف أو يستخدم دعاء مبتكراً في تحميد جديد . والقسم

(١) القلقشندي : صبح الأمشى ، ج ٦ ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

الثاني وهو الخطبة الأولى ، وتكون مستهلة بقوله : « أيها الناس » ويتحدث فيها عن أمور الناس وشؤونهم العامة ، مما يهم أمر المسلمين جميعاً ثم يمضي فاصل زمني ، يستريح خلاله الخطيب ، والقسم الثالث وهو الخطبة الثانية ، فلا تخرج في معانيها عن الأولى ، لكنها تكون في العادة أكر توضيحاً وتبياناً ، والقسم الرابع وهو الدعاء للخليفة أولاً ، وللسلطان أو الحاكم أو النائب نائياً ، وينتهي هذا الدعاء بتعميمه على سائر المسلمين .



أما الرسائل الديوانية : من تواقع ومناشير وتقاليد ، فيحسن فيها التطويل ، وتعتبر كثرتها وقتها بقتلها بحسب الرتب (١) ، ويرى الشهاب محمود انه يجب أن يراعى فيها أمور كثيرة ، منها براعة الاستهلال بذكر الرتبة أو الحال ، وعدم المبالغة في مدح المتولي الجديد وذم المذلول ، ويطلب من المنشئ أن يتخير الكلام والمعاني ، فإنه مما يتسع ويذيع ، إذ لا يعذر المقصر بعجلة ولا ضيق وقت (٢) . ويرى أن يكون الكلام في التفليد على أربعة أقسام متفاوتة المقادير ، فالربع الأول مقصور على الخطبة ، والثاني ذكر موقع الإنعام في حق المقلد ، وذكر الرتبة وتضخيمها ، والثالث في أوصاف المقلد ، وذكر ما يناسب تلك الرتبة من عدل وسياسة ومهابة وبعد صيت وشجاعة إن كان نائباً ، ووصف العدل والرأي وحسن التدبير والمعرفة بوجوه الأموال وعمارة البلاد وصلاح الأحوال ، وما يناسب ذلك إن كان وزيراً ، وكذلك في كل رتبة بحسبها ، والرابع في الوصايا ، وهذه هي القاعدة في ذلك (٣) .

جرى كتاب الإنشاء في مكاتباتهم على أفراد البسملة في سطر واحد تبجيلاً لاسم الله تعالى وإعظماً له وتوقيراً ، وقد ذكر أبو هريرة أن الرسول (ص) « نهى أن يكتب في سطر بسم الله الرحمن الرحيم غيرها » (٤) .

(١) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١٠٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٩ ، ١١٠ .

(٤) القلقشندي : صبح الامنى ، ج ٦ ص ٢٢٤ .

وتتلو الحمدلة البسملة طلباً للتيمن والبركة ، فقد روى أبو هريرة أيضاً :
« كل امرئ ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجزم » (١) ، بيد أن الكتاب
زادوا كثيراً من ذكر الحمد فكرروه « المرات المتعددة إلى السبع في الخطبة
الواحدة » ، وقد يستعمل الحمد بصيغة الفعل « فإني أحمد الله إليك » (٢) .

ذكر القلقشندي أن له في الاستعمال ثلاث صيغ ؛ أولها « يحمده » ،
وثانيها « نحمده » ، وثالثها « أحمده » ، ولكل منها استخدام خاص
في صناعة الإنشاء .

أضاف في هذا العصر المناخرون تعابير التشهد في الخطب والرسائل ،
واعتمدوا في ذلك على حديث البيهقي أن الرسول (ص) قال : « كل خطبة
ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء » (٣) .

تجاوز البسملة والحمدلة والتشهد لنقف عند عبارة التخلص الماثورة :
« أما بعد ف . . » (٤) ، ونادراً ما يخلو منها الكلام .

يضاف إلى ذلك في بعض الأحيان عبارة الاستثناء بالمشيئة الإلهية ،
فيكتب « إن شاء الله تعالى » . ذكر القلقشندي « أنها أول خاتمة تكتب
من خواتم المكتوب فمحطها من الدرج إلى أسفل المكتوب في وسط الوصل
مكتنفة ببياض عن يمينها وشمالها ، وبينها وبين السطر الآخر من المكتوب
كما بين سطرين أو دونه » (٥) .

جرت عادة الكتاب في كتابتها بأن تكتب بقلم الرقاع كما في القطع الصغير ،

(١) المصدر السابق ، ج ٦ ص ٢٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٦ ص ٢٢٥ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٦ ص ٢٢٦ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٦ ص ٢٣١ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٦ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

وكانت تكتب معلقة مسلسلة وفق صورة تقليدية معروفة . وإن كانت بقلم كالثلاث كتبت واضحة مبينة ، وتكون وفق صورة تقليدية معروفة .

تلك هي أهم الأساليب العامة في الخطب والمقامات والرسائل الديوانية ، وضحنا جزئياتها من قبل ، وبيننا مميزاتها وخصائصها الكلية .



أما الرسائل الإخوانية أو الوجدانية فإنها تتخلى عن كثير من هذه الأمور المبعة ، وقد ذكر الشهاب محمود أن الكاتب في ذلك مطلق العنان مخلى بينه وبين قوته أو ضعفه (١) .

يلاحظ أن طابع الإجلال والاحترام في آداب المخاطبة والكتابة يظهر بجلاء ووضوح في مخاطبة الأصدقاء والأقرباء للدلالة على صدق الأخوة والولاء . فالمفروض مثلاً في رسالة ابن إلى أبيه أن تكون معبرة عن الحب والعاطفة والمودة دون أن تحجب وراء الستار التقليدي من آداب المخاطبة ، وقد لاحظنا في الرسالة التي أنشأها الشهاب محمود باسم مولود إلى والده القائب طابع العبودية للسيد المولى ، لا للأب الرحيم العطوف .

مهما يكن من أمر ذلك فإنها في نظرنا تعبر عن الشخصية الذاتية في أدب هذا العصر ، وتصور المفاهيم الاجتماعية السائدة والتيارات الأدبية المعروفة في هذا العصر أيّاً كان شكلها أو طابعها .



(١) الشهاب محمود : حسن التوسل ، ص ١١٦ .

خاتمة البحث

نخلص مما تقدم معنا في حديث النشر بعد حديث الشعر إلى القول : إن أهم ما يتميز به هو أن بعضه كان مقصوراً على طبقة الحكام وتابعيهم ، ولذلك كان الكتاب على صلة ونيقة بهم إذ إنهم كانوا مصدر رزقهم ، وكانوا يحاولون أن يظهروا براعانهم لبشعروهم بعقريتهم ، وأنهم لا غنى لهم ، وأنهم وحدهم الذين تقام عليهم دعائم الملك والسلطان ، حتى إننا نجد مثل صلاح الدين يقول : إنه لم يقم دولته بسيف الناس ، وإنما أقامها بقلم القاضي الفاضل .

نحن نعتقد أن هذا النوع يفتقد بعض الأصالة الذاتية ، ويفتقر إلى حرارة العاطفة الإنسانية الحية ، فقد تشابه الكتاب في تكلف الأساليب وتصنعها ، ولكننا بالإضافة إلى ذلك نحس بنسبء قلوبهم يحاول أن يبلغ قلوبنا ضمن أساليب التصنع المعروفة . إنها المشاعر المكبوتة تريد لنفسها الانطلاق والتخلص من عبودية الألفاظ والأساليب . فلا غرابة بعد ذلك كله إن شهدنا ميلاد أدب قصصي وعظمي جديد بعيداً عن القصور والدواوين ، يستمد وجوده من الطبقات الشعبية التي أقبلت عليه لأنه منها وإليها ، وقد حاول هذا الأدب الجديد أن يتخلى عن التصنع متابعاً الخطأ التي بدأها بعض الكتاب ليحرروا أسلوب الدواوين ، ولكنهم لم يبلغوا ما يصبون إليه ، حتى قام بعض الأدباء والوعاظ ، فسلخوا في قصصهم هذه الطريق ، واستطاعوا أن يخلفوا لنا آثاراً أدبية مختلفة لها أهميتها الكبرى في أدب هذا العصر . أضيف إلى ذلك فن المناومات الأدبية الذي ظهر على يد الأديب المغربي الوهراني ، وقد وقفنا عند هذا الفن الذي يتميز بالطابع الإنساني ، ووضّحنا أهميته لأنه يذكرنا بالمعري ورحلته السماوية في رسالة الففران ، والغريب بعد ذلك كله أن يضل كثير ممن أرخوا آداب هذا العصر ، فيحكموا على النشر الديواني وحده ، وأما النشر الوجداني الذي يتمثل لنا في هذا الأدب القصصي العظمي الجديد وغيره مما مرّ معنا على الرغم من كثرته ، فيهملون أمره لعدم وجوده بين أيديهم أو عدم القيام بتحقيقه ونشره .

هكذا كان النثر ، شأنه في ذلك شأن الشعر نفسه ، كما رأينا ذلك من قبل ، وهذا الأدب جدير بعناية الباحثين المنصفين ، لا هؤلاء الذين يجردونه من أية قيمة ، فلا يقيمون له وزناً ، وإنما يجعلونه عقيماً يمثل الجذب والانحطاط ، وينعتونه بأدب الظلام والتأخر ، وهم بالنسبة يهتمون أمره ، ويتجاهلون خطره ، وهو الذي خلّد لنا أجمل الملاحم وأهم الأحداث في تاريخنا البعيد ، ووسّى كتبنا القديمة بأرق الشعر وأعذب الموشحات الصوفية ، وزينها بأجمل النثر الوجداني والفصص الوعظية ، وكما لاحظنا عناية القدماء بالديباجة والأساليب ، وهذه الظاهرة معروفة في أدبنا منذ أقدم عصوره ، وهي أصيلة فيه ولا تقلل من أهميته في نظرنا ابداً ، فنحن نعرف جيداً أن المذاهب الأدبية نفسها في الآداب الأجنبية القديمة والمعاصرة تعتمد أول ما تعتمد على هذه النظريات الأسلوبية ، بيد أن نقادهم على تفاوت آرائهم النقدية والأدبية ، لم ينعتوا آدابهم بالعقم والجمود ، ولم يسموها بالتأخر والانحطاط كما فعل أدباؤنا ونقادنا ، وإنما رأوا في ذلك مذاهب فنية وتيارات أدبية اقتضاها التطور الزمني والتدرج الحتمي في بيئات مختلفة ، ومجتمعات متباينة امتزجت بها الثقافات المختلفة من شرقية وغربية .

هكذا نجد الأمر نفسه في أدب هذا العصر الذي كشفنا عن بعض صفحاته المطوية وجوانبه المنسية وأبرزناها لأول مرة كما هي في نوبها القشيب ، وقد لاحظنا فيه كثير من الآداب العالمية الأخرى تيارات أدبية ومذاهب بيانية ، لها مفاهيم خاصة ، ونظرات عميقة تتناول مختلف مظاهر الحياة الفكرية ، رزينا وماجنا ، وقد استطاع أن يعطينا مرآة صادقة عما في جوهره وعرضه . هذه الصورة التي حاولنا إبرازها من خلال دراسة الأدب في بلاد الشام ، هي الحياة الإنسانية الحقيقية المتمثلة في الأدب الذي نؤرخه شعره ونثره ، فهو أدب الحياة الإنسانية ، ولا أدب بغير الإنسان والحياة .

الفهرس

- ١ - فهرس مصادر البحث .
- ٢ - فهرس أعلام الأشخاص .
- ٣ - فهرس أعلام المناطق الجغرافية .
- ٤ - فهرس أعلام الطوائف والقبائل والشعوب .
- ٥ - فهرس محتويات الكتاب .

الفهرس الاول فهرس مصادر البحث

(١)

المصادر المخطوطة والمصورة

- ١ - ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي المتوفى سنة ٨٧٤ هـ) .
* المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ١١١٣ تاريخ ، وهو مؤلف من ثلاثة أجزاء . طبع منه القسم الاول من الجزء الاول .
- ٢ - ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ) .
* رفع الامر عن فضاة مصر . مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٠٥ تاريخ .
- ٣ - الحريري (أحمد بن علي) .
* الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملامين مخطوطة بخط المؤلف نفسه في المكتبة الوطنية ببائيس رقم ٢٢٣٤ مجموع .
- ٤ - الحصكفي (معين الدين أبو الفضل يحيى بن سلامة المتوفى سنة ٥٥١ هـ) .
* رسائل الحصكفي . مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٥٢٦ ادب .
- ٥ - الذهبي (أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان المتوفى سنة ٧٤٨ هـ) .
* سير النبلاء . مصورة مخطوطة موجودة في المجمع العلمي العربي بدمشق رقم ٢٠٩ .
- ٦ - الرجوي (محمد بن مرزوق الرجوي) .
* بلوغ الأمل في بعض أحوال فن الرجل . مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١١٨٢ .
- ٧ - سبط ابن الجوزي (يوسف بن قزعلي بن عبيد الله أبو المظفر شمس الدين المتوفى سنة ٦٥٤ هـ) .
* مرآة الزمان في معرفة الخلفاء والأعيان . مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٩٢٧٦ ج .
- ٨ - الشهاب الشافوري (فتیان بن علي بن فتیان بن ثمال المتوفى سنة ٦١٥ هـ) .
* ديوان الشهاب الشافوري . مصورة مخطوطة بالمجمع العلمي العربي بدمشق .
- ٩ - الشرف الانصاري (عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن المتوفى سنة ٦٦٢ هـ) .
* ديوان الشرف الانصاري . مصورة مخطوطة ، تم الحصول عليها وتصويرها من استنبول ، وهي النسخة الوحيدة المخطوطة الموجودة في مكتبة ولي الدين المشيومة التي مكتبة بياربند الثاني رقم ٢٦٦٩ .

- ١٠ - **الصفدي** (صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي المتوفى سنة ٧٦٧ هـ) .
 * **أعيان العصر** . مصورة مخطوطة موجودة في دار الكتب المصرية رقم ١٠٩١ تاريخ ،
 ويوجد منها الجزء الثالث والسادس والسابع ، وكل جزء مؤلف من قسمين .
 * **الشعور بالعور** . مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ١٨٣٤ تاريخ .
- ١١ - **أبن عساكر** (نقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة بن عبد الله بن الحسين بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ) .
 * **تاريخ دمشق** . مخطوطة بدار الكتب الظاهرية بدمشق رقم ٣٣٦٦ - ٣٣٨٤ .
- ١٢ - **العماد الكاتب** (عماد الدين محمد بن محمد بن محمد بن حامد المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) .
 * **رسائل بين الملوك الأيوبيين** . مخطوطة مصورة (ميكروفيلم) في معهد المخطوطات
 بالجامعة العربية رقم ٤١٩ أدب ، وهي مأخوذة من مكتبة نور عثمانية .
- ١٣ - **أبن القيسراني** (أبو عبد الله ، شرف الدين محمد بن نصر المتوفى سنة ٥٤٨ هـ) .
 * **ديوان ابن القيسراني** . مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٤٨٤ أدب .
- ١٤ - **أبن مبارك شاه** (أحمد بن مبارك شاه المصري ، ويسمى محمد بن حسين بن إبراهيم بن سليمان السيقي يشبك الحنفي الصوفي المتوفى سنة ٨٦٢ هـ) .
 * **سفينة ابن مبارك شاه** . مخطوطة مصورة (ميكروفيلم) في معهد المخطوطات بالجامعة
 العربية ، رقم ٤٧٥ و ٤٧٧ أدب .
- ١٥ - **الناصر** (داود بن المعظم بن العادل المتوفى سنة ٦٢٦ هـ) .
 * **الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية** . مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية
 رقم ٢٢٩٣ أدب .
- ١٦ - **أبن نيسابة** (جمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن نيسابة المتوفى سنة ٧٦٨ هـ) .
 * **سجع المطوق** . مصورة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٣٣٨٣ أدب .
- ١٧ **النسواني**
 * **دفع الشك والمين في تحرير الفنين**، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٣٢٥ أدب بمصور .
- ١٨ - **النواجي** (أبو عبد الله محمد شمس الدين بن بدر الدين المتوفى سنة ٨٥٩ هـ) .
 * **عقود اللال في الموشحات والأزجال** . مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٧١٠٠ أدب .
- ١٩ - **اليونيني** (قلب الدين موسى بن محمد بن أبي الحسين المتوفى سنة ٧٢٦ هـ) .
 * **ذيل مرآة الزمان في معرفة الخلفاء والأعيان** . مخطوطة بالمكتبة الاحمدية المضمومة
 الى مكتبة الأوقاف بحلب رقم ١٣١٢ .

(٢)

المصادر المطبوعة

- ٢٠ - ابن الأثير (جمال الدين علي بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ) .
* الكامل في التاريخ . طبع مطبعة التحرير ١٣٠٣ هـ بالقاهرة .
- ٢١ - ابن الأثير الكاتب (ضياء الدين نصر الله بن الأثير المتوفى سنة ٦٢٧ هـ) .
* المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر . طبع مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة
سنة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م .
* رسائل ابن الأثير . حققها ونشرها الدكتور أنيس المقدسي طبع مطبعة دار العلم
للملايين ببيروت سنة ١٩٥٩ .
- ٢٢ - الألفساني (الأستاذ سعيد الألفساني) .
* في أصول النحو طبع مطبعة جامعة دمشق سنة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م .
- ٢٣ - أسامة بن منقذ (مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد المتوفى سنة ٥٨٤ هـ) .
* الاعتبار . تحقيق فيليب حتي . طبع مطبعة جامعة برنستون بالولايات المتحدة
الأمريكية سنة ١٩٩٣ م
* ديوان أسامة بن منقذ . تحقيق الدكتور أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد . طبع
المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٥٣ م .
* لباب الآداب . تحقيق أحمد محمد شاكر . طبع المطبعة الرحمانية بالقاهرة
سنة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م .
- * المنازل والديار . حققه ونشره المستشرق الروسي أنس خالدوف ، وصدر عن
دار النشر للآداب الشرقية . طبع في موسكو سنة ١٩٦١ م .
* البديع في نقد الشعر . حققه الدكتور أحمد أحمد بدوي والدكتور حامد عبد
المجيد ، ونشرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي في القاهرة سنة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .
- ٢٤ - ابن أبي أصيبعة (مولى الدين ، أبو العباس ، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس
الخرزجي المتوفى سنة ٦٦٨ هـ) .
* ميون الأنباء في طبقات الأطباء . طبع المطبعة الوهبية بالقاهرة سنة ١٣٩٩ هـ - ١٨٨٢ م .
- ٢٥ - الأمدى (أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الأمدى المتوفى سنة ٣٧١ هـ) .

* الموازنة بين أبي تمام والبحتري . طبع بالقاهرة .

٢٦ - أنخل جنثالث بالنشيا .

* تاريخ الفكر الأندلسي . ترجمه حسن مؤنس ، وطبع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة سنة ١٩٥٥ م .

٢٧ - الأهواني (للدكتور عبد العزيز الأهواني) .

* الزجل في الأندلس . نشره معهد الدراسات العربية العالية بجامعة الدول العربية . طبع مطبعة الرسالة بالقاهرة سنة ١٩٥٧ م .
* ابن سناء الملك ومشكلة الغم والابكار في الشعر . طبع مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة سنة ١٩٦٢ م .

٢٨ - ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس المتوفى سنة ٩٣٠ هـ) .

* مدائع الزهور في وقائع الدهور . طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٣١١ هـ .

٢٩ - يسدوي (الدكتور أحمد أحمد بدوي) .

* الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام . طبع مكتبة نهضة مصر بالقاهرة .
* الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام . طبع مكتبة نهضة مصر بالقاهرة .

٣٠ - ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن إبراهيم الطنجي المتوفى سنة ٧٧٩ هـ) .

* تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . طبع المطبعة الأزهرية بالقاهرة سنة ١٣٢٦ هـ .

٣١ - بيلي (الدكتور أحمد بيلي) .

* حياة صلاح الدين الأيوبي . طبع المطبعة الرحمانية بالقاهرة سنة ١٣٤٥ هـ .

٣٢ - بيطار (الشيخ محمد بهجت البيطار) .

* حياة شيخ الإسلام ابن تيمية . نشره المكتب الإسلامي بدمشق للطباعة والنشر سنة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م .

٣٣ - التلعفري (شهاب الدين محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة الشيباني التلعفري

المتوفى سنة ٦٧٥ هـ) .

* ديوان التلعفري . طبع مطبعة المعارف ببيروت سنة ١٣٢٦ هـ ، وطبع في المطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٣١٠ هـ .

- ٣٤ - **التميمي** (محيي الدين أبو محمد عبد الواحد علي التميمي المراكشي) .
* المعجب في تلخيص اخبار المغرب . طبع مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ .
- ٣٥ - **ابن تفرج بردي** (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تفرج بردي المتوفى سنة ٨٧٤ هـ) .
* النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . طبع مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م . الطبعة الأولى .
- ٣٦ - **بیمور** (أحمد بن اسماعيل تیمور المتوفى سنة ١٣٤٨ هـ) .
* اليزيدية ومنشأ نحلته . طبع المكتبة السلفية بالقاهرة . الطبعة الثانية سنة ١٣٥٢ هـ .
- ٣٧ - **الجاحظ** (أبو عثمان عمرو بن بحر المتوفى سنة ٢٥٥ هـ) .
* الحيوان . تحقيق عبد السلام محمد هارون . طبع مكتبة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٥٧ هـ .
- ٣٨ - **ابن جبير** (أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير المتوفى سنة ٦١٤ هـ) .
* رحلة ابن جبير . طبع المكتبة العربية ببغداد سنة ١٢٥٦ هـ - ١٩٣٧ م .
- ٣٩ - **الجرجاني** (عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ) .
* أسرار البلاغة . تحقيق محمد رشيد رضا . طبع دار المنار بالقاهرة سنة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٧ م . الطبعة الرابعة .
- ٤٠ - **الجوالقي** (أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد الخضر الجوالقي المتوفى سنة ٥٥٤ هـ) .
* العرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم . تحقيق أحمد محمد شاكر . طبع مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٦١ هـ . **الطبعة الأولى** .
- ٤١ - **ابن الجوزي** (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) .
* تلبیس ابلیس . طبع مطبعة النهضة بالقاهرة سنة ١٩٢٨ م .
- ٤٢ - **حاجي خليفة** (مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة وبكاتب جلبي المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ) .
* كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . طبع المطبعة البهية باستنبول سنة ١٣٦٠ هـ .
- ٤٣ - **حبشي** (حسن حبشي) .
* نور الدين والصليبيون . حركة الافاقة والتجمع الاسلامي في القرن السادس الهجري . طبع دار الفكر العربي بالقاهرة سنة ١٩٤٨ م - ١٣٦٧ هـ .
- ٤٤ - **ابن حجر** (شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ) .
* الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . طبع مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية في الهند بحدید آباد سنة ١٣٥٠ هـ .

- ٤٥ - ابن حجة (يعى الدين أبو بكر المعروف بابن حجة الحوي المتوفى سنة ٨٣٧ هـ) .
* خزانة الأدب . طبع المطبعة الخيرية بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ . الطبعة الأولى .
- ٤٦ - حسين (الدكتور محمد كامل حسين المتوفى سنة ١٩٦١ م) .
* دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ، طبع دار الفكر العربي بالقاهرة سنة ١٩٥٧ م .
- ٤٧ - حسين (محمد أحمد حسين) .
* أسامة بن منقذ . طبع مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٤٦ م .
- ٤٨ - الحلي (صفى الدين أبو الفضل عبد العزيز بن سرايا الحلي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ) .
* العاقل الحالي والمرخص القالي . عني بتصحيحه ولهام هونرباخ Wilhelm
Hoener Bach طبع مطبعة فرانتز شتاينر ويسبان بألمانيا سنة ١٩٥٥ م
بإشراف مجمع العلوم والآداب ، لجنة الاستشراق ، المؤلف رقم ١٠ .
- ٤٩ - حمزة (الدكتور عبد اللطيف حمزة) .
* الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والملوكي الاول .
* أدب الحروب الصليبية . طبع مطبعة الاعتماد بالقاهرة سنة ١٩٤٩ م .
- ٥٠ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ) .
* المقدمة . طبع المطبعة البهية بالقاهرة .
* العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي
السلطان الأكبر ، طبع المكتبة التجارية بالقاهرة ، ودار الطباعة الخديوية ببولاق
سنة ١٢٨٤ هـ .
- ٥١ - ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد المتوفى سنة ٦٩١ هـ) .
* وفيات الأعيان . طبع المطبعة الميمنية بالقاهرة سنة ١٣١٠ هـ .
- ٥٢ - ابن الخياط (أحمد بن الخياط الدمشقي المتوفى سنة ٥١٧ هـ) .
* ديوان ابن الخياط . طبع المجمع العلمي العربي بدمشق . المطبعة الهاشمية
سنة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م .
- ٥٣ - الخفاجي (شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ) .
* شفاء النليل فيما في كلام العرب من الدخيل . طبع المطبعة الوهبية بالقاهرة
سنة ١٢٨٢ هـ . الطبعة الأولى .
- ٥٤ - الدلجى (شهاب الدين أحمد بن علي الدلجى المتوفى سنة ٨٣٨ هـ) .
* الفلاحة والفلكون . طبع مطبعة الشعب بالقاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .
- ٥٥ - دوايت م . دونالدسن .

- * عقيدة الشيعة . طبع مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٦٥ هـ . - ١٩٤٦ م .
- ٥٦ - ابن رشيقي (أبو علي الحسن بن رشيقي القيرواني المتوفى سنة ٤٥٦ هـ) .
- * العمدة في محاسن الشعر وآدابه . طبع مطبعة حجازي بالقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م . صدر عن المكتبة التجارية الكبرى . الطبعة الاولى .
- ٥٧ - زامباور .
- * معجم الانساب والامرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي . ترجمه للعربية زكي محمد حسن وحسن احمد محمود . وطبع مطبعة جامعة القاهرة سنة ١٩٥١ م .
- ٥٨ - الزركلي (خير الدين الزركلي) .
- * الاعلام . طبع مطبعة كوستا توماس وشركاه بالقاهرة سنة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م .
- ٥٩ - ابن الساعاتي (بهاء الدين أبو الحسن علي بن رستم بن هرذوز المتوفى سنة ٦٠٤ هـ) .
- * ديوان ابن الساعاتي . تحقيق أنيس المقدسي . طبع المطبعة الاميركانية ببيروت سنة ١٩٣٨ م .
- ٦٠ - سبط ابن الجوزي (يوسف بن علي قزعلي بن عبد الله المتوفى سنة ٦٥٤ هـ) .
- * مرآة الزمان في تاريخ الاميان . الجزء الثامن من سنة ٤٩٥ هـ الى ٦٥٤ هـ حققه الدكتور جيمس ريشارد جويت (Games Richard Jwett P,H,O)
- ونشرته جامعة شيكاغو سنة ١٩٠٧ م
- ٦١ - السبكي (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١ هـ) .
- * طبقات الشافعية الكبرى . طبع المطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ .
- * معيد النعم ومبيد النقم . طبع دار الكتاب العربي بالقاهرة سنة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .
- ٦٢ - ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى الاندلسي المتوفى سنة ٦٨٥ هـ) .
- * الفصول اليلانة في محاسن شعراء المائة السابعة . تحقيق ابراهيم الأبياري .
- طبع دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٤٥ م .
- ٦٣ - سعيد عبد الفتاح عاشور .
- * دراسات في الحياة الاجتماعية في مصر في عصر سلاطين المماليك . طبع مكتبة النهضة بالقاهرة سنة ١٩٥٩ م .
- ٦٤ - ابن سهل (أبو اسحق ابراهيم بن سهل الاشبيلي الاندلسي المتوفى سنة ٦٤٩ هـ) .
- * ديوان شعر ابن سهل . تحقيق بطرس البستاني . طبع مكتبة صادر ببيروت سنة ١٩٥٣ م .
- ٦٥ - السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي المتوفى سنة ٦٣٦ هـ) .
- * مفتاح العلوم . طبع المطبعة الادبية بالقاهرة سنة ١٣١١ هـ . الطبعة الاولى .

- ٦٦ - ابن سناء الملك (أبو القاسم هبة الله بن جعفر بن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ هـ) .
* دار الطراز في عمل الموشحات . تحقيق الدكتور جودة الركابي طبع المطبعة الكاثوليكية
ببيروت سنة ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م .
- ٦٧ - السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ) .
* حسن المحاضرة . طبع المطبعة الشرقية بالقاهرة سنة ١٣٢٧ هـ .
* بنية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . طبع مطبعة السعادة بالقاهرة
سنة ١٣٢٦ هـ . الطبعة الاولى .
- ٦٨ - ابن شاكز (محمد بن شاكز بن أحمد الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ) .
* فوات الوفيات . طبع مطبعة بولاق بالقاهرة سنة ١٨٨١ م .
- ٦٩ - ابن شداد (بهاء الدين بن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ) .
* النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية . طبع مطبعة صبيح بالقاهرة سنة ١٣٤٦ هـ .
- ٧٠ - ابن شداد (عز الدين ، أبو عبد الله ، محمد بن علي بن ابراهيم ابن شداد المتوفى
سنة ٦٨٤ هـ) .
* الأعلاق الخطرة . طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٥٣ ، وصدر عن
المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية .
- ٧١ - الشرف الأنصاري : (عبد العزيز بن محمد المتوفى سنة ٦٦٢ هـ) .
* تحقيق الدكتور عمر موسى باشا . منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق
١٩٦٧ م - ١٣٨٧ هـ .
- ٧٢ - الشهاب محمود (شهاب الدين أبو الشاء محمود بن سلمان الحلبي المتوفى سنة ٧٢٥ هـ) .
* حسن التوصل الى صناعة الترسل . طبع المطبعة الوهية بالقاهرة سنة ١١٩٨ هـ .
- ٧٣ - الصابوني (أحمد الصابوني المتوفى سنة ١٣٢٤ هـ) .
* تاريخ حماة . طبع المطبعة الأهلية بحماة سنة ١٩٥٦ م . الطبعة الثانية .
- ٧٤ - الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك المتوفى سنة ٧٦٤ هـ) .
* الوافي بالوفيات . تحقيق هـ . ريتز . طبع مطبعة الدولة باستنبول سنة ١٩٣١ م .
* جنات الجناس في علم البديع . طبع مطبعة الجوائب باستنبول سنة ١٢٩٩ هـ .
الطبعة الاولى .
- ٧٥ - ضيف (الدكتور شوقي ضيف) .
* الفن ومذاهبه في الشعر العربي . طبع مطبعة دار الكتب ببيروت سنة ١٩٥٦ م .
الطبعة الثالثة .

- الترجمة الشخصية . طبع دار المعارف بيروت سنة ١٩٥٦ م .
- ٧٦ - الطباخ (محمد رافب بن محمود بن هاشم الطباخ الحلبي) .
- اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء . طبع المطبعة العلمية بحلب سنة ١٣٤٣ هـ .
- ٧٧ - الطرابلسي (الدكتور أمجد الطرابلسي) .
- النقد واللغة في رسالة الفران . طبع مطبعة جامعة دمشق سنة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥٩ م .
- ٧٨ - ابن ظفر (حجة الدين أبو هاشم محمد بن أبي محمد بن ظفر الصقلي المتوفى سنة ٥٦٥ هـ) .
- سلوان المطاع في عدوان الانباع . طبع مطبعة جمعية الفنون ببيروت سنة ١٣٠٠ هـ .
- ٧٩ - ابن عربي (محيي الدين بن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ) .
- ديوان ابن عربي . طبع دار الطباعة بيولاقي سنة ١٢٧١ هـ بالقاهرة .
- فصوص الحكم . تحقيق الدكتور أبي العلاء فغيفي . طبع دار احياء الكتب العربية في القاهرة سنة ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م .
- ٨٠ - عرقلة الكلبي (حسان بن نمر المتوفى سنة ٥٦٧ هـ) .
- ديوان عرقلة الكلبي . تحقيق أحمد الجندي . مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .
- ٨١ - عزاي (عباس عزاي) .
- تاريخ الأدب العربي في العراق . طبع المجمع العلمي العراقي في بغداد سنة ١٩٦١ م - ١٣٨١ هـ .
- ٨٢ - عسوا (الدكتور عادل عسوا) .
- منتخبات اسماعيلية . طبع مطبعة جامعة دمشق سنة ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م .
- ٨٣ - ابن عساكر (ثثة الله أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ) .
- التاريخ الكبير المعروف بتاريخ دمشق . الاجزاء الخمسة الاولى منه بتحقيق الاستاذ عبد القادر بدران ، والجزءان السادس والسابع بتحقيق الاستاذ أحمد عبيد . طبع مطبعة روضة الشام بدمشق سنة ١٣٢٩ هـ .
- تاريخ مدينة دمشق . تحقيق الدكتور صلاح الدين النجد . مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٥٤ م جزءان .
- ٨٤ - العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) .
- كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر . تحقيق الاستاذين علي محمد الجاوي ومحمد

ابو الفضل ابراهيم طبع دار احياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م .
الطبعة الاولى .

٨٥ - ابن العفيف (شمس الدين محمد بن عفيف الدين المعروف بالشاب الظريف المتوفى
سنة ٦٨٨ هـ) .

✽ ديوان الشاب الظريف . طبع المطبعة الاهلية ببيروت .
✽ ديوان الشاب الظريف . تحقيق شاكر هادي شكر . مطبعة النجف - النجف
الاشرف ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .
✽ مقامات العشاق . نشرت هذه المقامات كاملة في ملحق مطبوع مع ديوان التلعفري .
طبع المطبعة الادبية ببيروت سنة ١٣١٠ هـ .

٨٦ - عفيفي (الدكتور ابو العلاء عفيفي) .
✽ اللامتية والصوفية واهل الفتوة . طبع دار احياء الكتب العربية بالقاهرة
سنة ١٣٦٤ هـ - ١٠٤٥ م .

٨٧ - ابن العماد (ابو الفلاح عبد الحي بن العماد المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ) .
✽ شذرات الذهب في اخبار من ذهب . طبع مطبعة القدس بالقاهرة سنة ١٣٥١ هـ .

٨٨ - العماد الكاتب (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) .
✽ خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء مصر . تحقيق الدكتور شوقي ضيف
والاستاذ احمد امين والدكتور احسان عباس . طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة
والنشر بالقاهرة سنة ١٩٥١ م .
✽ خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام . تحقيق الدكتور شكري فيصل .
نشره المجمع العلمي العربي ، وطبع في مطبعة المكتبة الهاشمية بدمشق سنة
١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م .

✽ خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء العراق . تحقيق الدكتور جميل سعيد
والاستاذ محمد بهجت الأثري . طبع مطبعة المجمع العلمي العراقي ببغداد سنة
١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م .

✽ الفتح القسي في الفتح القدسي . طبع المطبعة الخيرية بالقاهرة سنة ١٣٢٢ .
✽ تاريخ دولة آل سلجوق . طبع مطبعة الموسوعات بالقاهرة سنة ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠ م .

٨٩ - ابن عشرين (ابو الحاسن شرف الدين محمد بن نصر الله بن نصر بن عشرين المتوفى
سنة ٦٣٠ هـ) .

✽ ديوان ابن عشرين . تحقيق خليل مردم . طبع مطبعة دمشق سنة ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م .
صدر من المجمع العلمي العربي بدمشق .

٩٠ - ابن عثانم (عز الدين بن عبد السلام بن احمد القدسي المتوفى سنة ٦٧٨ هـ) .

- ✽ كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار. طبع المطبعة الزاهرة بالقاهرة سنة ١٢٩٠ هـ .
- ✽ القول النغيس في تغليس إبليس . طبع في القاهرة سنة ١٢٧٧ هـ .
- ٩١ - الفارقي (أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق الفارقي) .
- ✽ تاريخ الفارقي أو تاريخ ميافارقين وآمد . تحقيق الدكتور بدوي عبد اللطيف عوض . طبع الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٧٩ هـ .
- ٩٢ - فتیان الشافوي (فتیان بن علي الأسدي المتوفى سنة ٦١٥ هـ) .
- ✽ ديوان فتیان الشافوي . تحقيق أحمد الحندي . مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .
- ٩٣ - أبو الفداء (المؤيد عماد الدين اسماعيل بن أيوب المتوفى سنة ٧٢٢ هـ) .
- ✽ المختصر في أخبار البشر . طبع دار الطباعة العامة باستنبول سنة ١٢٨٦ هـ .
- ٩٤ - ابن فضل الله (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله المتوفى سنة ٧٤٩ هـ) .
- ✽ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار . طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٢ هـ .
- ٩٥ - ابن الفسرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات المتوفى سنة ٨٠٧ هـ) .
- ✽ تاريخ ابن الفرات . تحقيق الدكتور قسطنطين زريق والدكتورة نجلاء مر الدين . طبع المطبعة الأميركانية ببيروت سنة ١٩٣٩ م .
- ٩٦ - ابن الفوطي (كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن الفوطي المتوفى سنة ٧٢٣ هـ) .
- ✽ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة . تحقيق الاستاذ مصطفى جواد . طبع المكتبة العربية ببغداد سنة ١٣٥١ هـ .
- ٩٧ - الفيومي (أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي المتوفى سنة ٧٧٠ هـ) .
- ✽ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير . طبع المطبعة الوهبية بالقاهرة سنة ١٣٠٠ هـ .
- ٩٨ - القزويني (جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني المتوفى سنة ٧٢٩ هـ) .
- ✽ الإيضاح ، تحقيق الاستاذ مر الدين التنوخي . طبع مطبعة جامعة دمشق سنة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .
- ٩٩ - ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد المتوفى سنة ٥٥٥ هـ) .
- ✽ تاريخ أبي يعلى حمزة بن القلانسي المعروف بذييل تاريخ دمشق . طبع مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٩٥٨ م .
- ١٠٠ - القلقشندي (أبو العباس أحمد القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ هـ) .
- ✽ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٣٢ هـ - ١٩١٥ م .
- ١٠١ - ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ) .

- * البداية والنهاية . طبع مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٥٩ هـ .
- ١٠٢ - كرد علي (محمد بن عبد الرزاق بن محمد المتوفى سنة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٣ م) .
- * خطط الشام . طبع المطبعة الحديثة بدمشق سنة ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٥ م .
- ١٠٣ - مبارك (الدكتور زكي بن عبد السلام بن مبارك المتوفى سنة ١٣٧١ هـ) .
- * التصوف الاسلامي في الأدب والأخلاق . طبع مطبعة الرسالة سنة ١٣٥٧ هـ .
- ١٠٤ - ابن المعتز (عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ) .
- * البديع . طبع مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالداهرة سنة ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م .
- ١٠٥ - أبو شامة المقدسي (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الملقب بابي شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ) .
- * كتاب الروضتين في أخبار الدولتين . طبع مطبعة وادي النيل بالقاهرة سنة ١٢٨٧ هـ .
- * ذيل الروضتين . طبع مكتب نشر الثقافة الاسلامية بالقاهرة سنة ١٣٦٦ هـ .
- ١٠٦ - المقري (شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني المتوفى سنة ١٠٤١ هـ) .
- * ازهار الرياض في أخبار عياض . حققه الأساندة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي . طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م .
- ١٠٧ - المقرئ (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المتوفى سنة ٨٤٥ هـ) .
- * السلوك لمعرفة دول الملوك . طبع مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٣٤ م .
- * المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . طبع مطبعة وادي النيل بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ .
- * اغانى الامة بكشف الغمة . تحقيق الاستاذين محمد مصطفى زيادة وجمال الدين محمد الشيبان . طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٥٩ هـ .
- ١٠٨ - مسعود (الدكتور محمد مندور المتوفى سنة ١٩٤٦ م) .
- * النقد المنهجي عند العرب . طبع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة سنة ١٩٤٨ م .
- ١٠٩ - موسى باشا (الدكتور عمر موسى باشا) .
- * ابن نباتة المصري أمير شعراء المشرق . طبع مطابع دار المعارف بالقاهرة سنة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .
- ١١٠ - النعيمي (عبد القادر محمد النعيمي المتوفى سنة ٩٢٧ هـ) .
- * الدارس في تاريخ المدارس . تحقيق الاستاذ جعفر الحسني . طبع مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م . صدر عن المجيع العلمي العربي .

- ١١١ - نورمان هـ . بينز
 * الامبراطورية البيزنطية ، تعريب الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد .
 طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٥٠ م .
- ١١٢ - نيكلسون (الدكتور د . ١٠ . ليكلسون) .
 * الصوفية في الاسلام ، تعريب الأستاذ نور الدين شريعة . طبع مكتبة الخانجي
 بالقاهرة سنة ١٩٥١ م - ١٣٧١ هـ .
- ١١٣ - ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل الحموي المتوفى سنة ٦٩٧ هـ) .
 * مفرج الكروب في اخبار بني ايوب . تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال . طبع
 الجزء الاول في القاهرة سنة ١٩٥٣ م ، الجزء الثاني بالطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٩٥٧ م .
- ١١٤ - ابن الوردي (عمر بن مظفر بن عمر بن محمد أبي الفوارس المتوفى سنة ٧٤٩ هـ) .
 * تنممة المختصر في اخبار البشر . طبع المطبعة الوهبية بالقاهرة سنة ١٢٨٥ هـ .
- ١١٥ - الوهراني (ركن الدين محمد بن محرز المتوفى سنة ٥٧٥ هـ) .
 * منامات الوهراني ومقاماته ورسائله . تحقيق ابراهيم شعلان ومحمد نفش ومراجعة
 الدكتور عبد العزيز الاهواني . طبع دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة
 سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م .
- ١١٦ - اليافعي (عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي المتوفى سنة ٧٦٨ هـ) .
 * مرآة الجنان وعبرة اليقظان . طبع دائرة المعارف النظامية ببحر آباد سنة ١٣٣٧ هـ .
- ١١٧ - ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي
 المتوفى سنة ٦٢٦ هـ) .
 * ارشاد الأريب لمعرفة الأديب المعروف باسم معجم الأدباء . تحقيق المستشرق
 د . بن مرغوليوث . طبع مطبعة هندية بالقاهرة سنة ١٩٢٥ م .
 * معجم البلدان . طبع دار صادر ودار بيروت سنة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م .

(٣)

المجلات الدورية

- ١١٨ - مجلة المجمع العلمي العربي - دمشق . المجلد ٤ ، الجزء الاول سنة ١٩٦٥ م - ١٣٨٤ هـ .
- ١١٩ - محاضرات المجمع العلمي العربي . صدر عن المجمع بدمشق .
- ١٢٠ - المجلة - القاهرة المجلد ١٦٧ شباط ١٩٦٧ .

(٤)

المصادر الأجنبية

BIBLIOGRAPHIE

121 - Brockelman :

- * Geschichte des Arabischen Literatur Weimar et Berlin 1828
- 1202. 2 vol

122 - R. Dozy :

- * Supplement aux dictionnaires Arabes 2 Vol . Leide 1927 .
- * Dictionnaire détaillé des noms des vetements chez les Arabes
- Amsterdam 1845

123 - Hartwig Derenbourg :

- * Ousama Ibn Mounkïdh 2 Vol. Paris Ernest Leroux Editeur
- 1889 .

124 - Jawdat Rikabi :

- * La poésie Profane Des Ayyubides et ses principaux Representants :
- Damas . Librairie Orientale et Americaine O-P . Maisonneneuve et co . 1949 .

125 - E. I :

- * Encyclopédie de L'Yslam . Version Francaise . Leide 1913-1938 4 Vol .
- * Supplement . I Vol .



الفهرس الثاني

فهرس أعلام الأشخاص

٧١٣ .

ابن الأثير الكاتب « ضياء الدين بن نصر الله
بن محمد » ١٠ ، ٤٤ ، ١٤١ ، ١٥٧ ،
٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٦٠٥ ، ٦٢١ ، ٦٤٩ ،
٦٥٨ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ،
٦٩١ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ،
٧٠٠ ، ٧٠٢ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧١٩ ،
٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٧ ، ٧٥٠ ،
٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ،
٧٧٦ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ،
٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٦ ، ٧٨٨ ، ٧٩١ .

أثير الدين أبو حيان ٣٨٣ .
أحمد « الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين » ٨٢ .
أحمد أحمد بدوي ٤١٦ .
أحمد « أبو الفضل » ١٣٤ .
أحمد بن الأزرق « الفارقي » ١٤٥ .
أحمد بن بدر « النابلسي » ٤٤٨ .
أحمد بن تيمية « تقي الدين » ٧٥ ، ٩٢ ،
٩٨ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ٧٣٢ .
أحمد بن حسن الموصل ٥٣٩ ، ٥٥٠ .
أحمد بن الحسين « المتنبي » ٢٣٧ ، ٢٦٣ ،
٣٣٢ ، ٣٥١ ، ٦٩٠ .
أحمد بن الرقاعي ٩٢ ، ٩٤ .
أحمد بن سعد الكاتب الأصفهاني ٦٤٨ .
أحمد بن الظاهر بالله محمد « المستنصر
بالله » ٨١ .
أحمد بن عبد الله « أبو العلاء المعري » ١٣٥ ،
١٧٣ ، ٣٤٩ ، ٤٠٢ ، ٦٤٦ ، ٦٤٨ ،
٦٦٣ ، ٦٦٥ ، ٦٦٨ ، ٧٧٠ ، ٧٩٩ .
الإدب في بلاد الشام - ٥٢

(١)

أبق « مجير الدين بن محمد » ٢٣ ، ٢٦ ،
٣٦ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٨٨ ، ١٩٦ ،
آدم ٩٩ ، ١٩٢ ، ٢٠٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،
٢٣٤ ، ٣٢٧ ، ٤١١ ، ٤٤٤ ، ٤٥٤ ،
٥١٩ ، ٧٦٤ .
آصف ١٨٩ .
آق سنقر « قسيم الدولة » ١٧ ، ١٨ ،
١٩ ، ٦١ .
الأمدي « الحسن بن بشر بن يحيى » ١٨٥ .
الأمدي « سيف الدين علي » ١٥٠ ، ٣٢٥ .
ابراهيم الخليل ٣٧٩ ، ٣٩٥ ، ٥٤١ ، ٥٤٣ ،
أبو ابراهيم « الشريف » ٨٧ .
ابراهيم بن أبي الدم « شهاب الدين » ١٤٤ .
ابراهيم بن غنائم ١٥٣ .
ابراهيم بن فارس « كمال الدين » ١٢٣ .
ابراهيم محمد القيسي ١٨٨ .
ابراهيم بن موسى « الموصل » ٣٧١ .
الابرنس « صاحب الكرك » ٤٣٣ ، ٤٤٣ ،
٤٤٤ ، ٤٤٥ .
أبرواز ١٧٨ .
أبسطراط ٧٨٨ .
أبليس ١٩٢ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٧٥٨ ، ٧٦٤ ،
٧٦٧ ، ٧٦٨ .
أبي بن كعب ٥٠٤ .
ابن الأثير المحدث « مجد الدين المبارك بن محمد »
١٣٥ ، ٦٨٩ .
ابن الأثير المؤرخ « علي بن محمد » ١٨ ،
٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ٦٨٩ ، ٦٩١ ،

الأهري ١٣٤ .
 أسامة بن منقذ ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٣ ، ٩٠ ،
 ١٠٤ ، ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٨ ، ١٧٢ ،
 ١٩٢ ، ٢١٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ،
 ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،
 ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ،
 ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ،
 ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣٢٧ ،
 ٣٣٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ،
 ٦٣٣ ، ٦٤١ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٦٤ ،
 ٧٤٣ ، ٧٥٠ ، ٧٩٣ .
 اسحق ٦١١
 اسحق « مطرب الرشيد » ٧٥٣ .
 أسد الدين « شيركوه » .
 الأسد « ولد ابن مالك » ١٤٠ .
 الأسعدي ٥٢٦ .
 الاسكندر ٣٠٥ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥ .
 اسماعيل « خازن بيت المال » ٣٣ .
 اسماعيل « اللبيح » .
 اسماعيل « المؤيد أبو الفداء صاحب حماة »
 ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ، ٣٠٧ ، ٥٦٥ ،
 ٥٧٠ .
 اسماعيل « الصالح » .
 اسماعيل « المؤيد سيف الاسلام ملك اليمن »
 ٣٥ ، ٧٣٦ .
 اسماعيل بن جعفر الصادق ٨٦ .
 اسماعيل بن بوري بن طفتكين ١٨٨ ، ١٨٩ .
 اسماعيل بن بختيار ٢٢٣ .
 اسماعيل « تقي الدين بن عبد الله الأنماطي »
 ١٢٨ .
 اسماعيل « مجد الدين الواسطي » ٦٦ .
 اسماعيل « أبو الفضل » ١٩٢ .
 الأشراف « محمد بن صلاح الدين » ،

أحمد بن عبد الله « النقي » ٨٧ .
 أحمد بن علي « الحريري » ٤٧١ .
 أحمد بن علي « القلقشندي » ١١٦ ، ٧٣٣ ،
 ٧٩٥ ، ٧٩٧ .
 أحمد بن علي « المقرئ » ٤٧ ، ٥٩ ، ٦٧ ،
 ٦٨ ، ٩٤ ، ٩٧ .
 أحمد بن علي « المقرئ الفيومي » .
 أحمد بن مجاهد « أبو بكر » ١٢٢ .
 أحمد بن منير الطرابلسي ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٨٦ ،
 ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،
 ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ،
 ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٣٨ ، ٢٥٩ ، ٢٨٩ ،
 ٢٩٦ ، ٣٤٧ ، ٤٠٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ،
 ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ،
 ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٤٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ،
 ٤٦١ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٨٩ ، ٤٩١ ،
 ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٥٠١ ، ٥٠٥ ،
 ٥١١ ، ٥١٣ ، ٥١٧ ، ٥٢٧ ، ٥٣١ ،
 ٥٩٥ ، ٦٠٤ ، ٦٢١ ، ٦٤٠ ، ٦٥٣ ،
 ٦٥٧ ، ٧٨٧ .
 أحمد بن نفاذ « نشو الدولة » ٥٣٠ .
 أحمد بن يوسف « الحلبي » ١٢٣ .
 ابن الأحمر ٧١٥ .
 الاختري ٤٢ ، ١٦٤ ، ٤٢٣ .
 الأخطل ٢١٩ .
 أخطل بن نمارة ٥٦٢ .
 أرتق ٧٧ .
 أرسطو ، رستاليس ١٤٩ ، ٣٠١ ، ٣٩٧ ،
 ٤٠٠ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ .
 أرسلان « السلطان » ٦٨٠ .
 أرسلان شاه « نور الدين » ٧٨ ، ٦٩٧ .
 أرغواش المنصوري ٥٥ .
 أرط « أرنولد » ٤٢ ، ٤٦٢ .
 أريبانوسي « البابا » ٦١ ،

- ابن الأنباري « سديد الدولة » ١٦١ ، ١٧٣ .
 أنر « معين الدين » ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٩٠ ،
 ١٨٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٤٢ ، ٢٦٣ ،
 ٤١٤ ، ٦٣٣ .
 أنكلوس . ٧٤٠
 أنوشوان « شرف الدين بن خالد » ٢٣٠ .
 ٦٨٠
 أنيس المغدي ٢٦٦ ، ٢٧١ .
 الأوحيد . ٣٠٤
 أوريانوس « البابا » ٦٠ .
 أوك « صاحب جبيل » ٤٢ .
 الأيادي ٧٥٢
 ابن آياس ١٠٢
 أيد غدي ٨٣
 أيلغازي بن أرتق ٧٧
 أيدمر الظاهري ١١٦
 إيساكوس ٧٤٠
 أيوب « نجم الدين بن شاذي » ٣٢ ، ٣٤ ،
 ٣٦ ، ٣٧ ، ١١٦ ، ٢٢٩ ، ٦٧٣ .

(ب)

- الباجريتي ٩٣
 البخارزي ٦٧٨
 الباغسياني « صلاح الدين بن محمد أيوب »
 ٢٠ ، ٧٣ ، ١٠١ .
 ابن بانا ٣٠٠
 الباقر « محمد بن علي »
 بايازيد ٣٣٣
 البحتري « أبو عبادة » ١٨٤ ، ٢١٣ ،
 ٢١٨ ، ٤٠٢ ، ٦٩٠ ، ٦٩٦ .
 البخاري ٥٥ ، ١١٣ ، ١٢٨ ، ١٣٠ .
 بخيمار السلار ٢٢٣
 بدر الجمالي ١٥٩

- الأشرف « برسبائي » ٢٦ .
 الأشرف « صلاح الدين خليل » ٥٣ ، ٤٧١ ،
 ٤٧٢ ، ٤٧٣ .
 الأشرف « عيسى » ٣٠٦ .
 الأشرف « موسى بن محمد » ٤٥ ، ٤٦ ،
 ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٧ ، ٣٠٤ ، ٣٠٩ ،
 ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ .
 الأشرف « صاحب حمص » ٥١ .
 ٢٦٢ ، ٥٩٠ ، ٧٢٠ ، ٢٧١ .
 الأصفهاني « أبو الفرج » ٣١٣ .
 ابن أبي أصيبعة « موفق الدين أحمد »
 ١٤٧ ، ١٥٢ ، ٤٣٩ ، ٥٧٥ .
 ابن أبي الأصبع « زكي الدين » ١٤٢ ،
 ٧٨٦ ، ٧٩٩ .
 الأفضل « أخو المنصور ملك حماة » ٣٢٩ .
 أفقتوس ٧٤٠
 الأصور الدجال ٢٢١ .
 الأفضل « نور الدين علي » ٤٣ ، ٤٤ ،
 ٦٩ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ،
 ٢٧٦ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٧٣٧ ،
 أفلاطون ٣٩٧ .
 أقليدس ٦٧١
 الب أرسلان « صاحب حلب » ٧٧ .
 الأمجد « بهرام شاه » ٣٣٢ ، ٣٣٩ ،
 ٤٨٦ ، ٦٤٥ .
 امرؤ القيس ٣٦٣ ، ٥٥٠ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ،
 ٦٥١ .
 الأمشاطي « أحمد بن عثمان » ٥٦٧ ، ٥٦٨ ،
 ٥٧٣ .
 أميران « عز الدين » ٩٠٩ .
 أمين الدين بن أبي بكر الأربلي .
 أمين الدين كمشتكين ١١١ .
 الأمين « ولد هارون الرشيد » ٧٥٨ .
 ابن الأنباري « مؤيد الدين » ٦٦٥ .

- اليوسيري ١٤٢ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ .
 بيبرس « الطاهر وكن الدين » ٥١ ، ٥٢ ،
 ٦٦ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٨٢ ،
 ٨٤ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١٤٦ ،
 ١٥٠ ، ٤٨٠ ، ٤٧٩ ، ٤٧٨ ، ٤٠٩ .
 بيبرس البندقداوي « ركن الدين الجاشنكير »
 ٥٥ ، ٧٠٩ .
 بيسدرا ٥١ .
 ابن البيطار « ضياء الدين بن عبد الله بن
 احمد المالقي » ١٣٥ ، ١٥٢ .
 بيسلوتي الكريتي ٦٠ .
 البيهقي ٦٧٨ .

(ت)

- تاج الدولة تنش « صاحب دمشق » ١٩ ،
 ٧٧ .
 تاج الدين عبد الوهاب « ابن بنت الامر » .
 تاج الدين السبكي ٦٨ ، ٧٢ ، ٨٨ ، ١١٨ ،
 ١٢٢ ، ٧٥٢ .
 تاج الملوك بوري ١١٥ ، ١٦٠ .
 أبو ناشقين ٧٦٠ .
 تتر ١٩٠ ، ٥١٣ ، ٥١٤ .
 التلعفري « محمد بن يوسف » ٣٥٦ ، ٣٥٨ ،
 ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ،
 ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ،
 ٣٧٧ ، ٣٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ،
 ٤٩٣ ، ٥١٢ ، ٥١٩ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ،
 ٥٤٩ ، ٥٧٦ ، ٥٧٨ ، ٦٢٧ ، ٦٥٤ .
 أبو تمام « حبيب بن أوس » ١٨٤ ، ٢٢٦ ،
 ٤٧١ ، ٦٩٠ ، ٦٩٩ .
 ابن نفري بردي ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٧١ ، ٤٠٦ ،
 ٤٦٩ ، ٤٧٣ ، ٦٣٢ .

- بدر الدولة « الأمير » ٢٠٨ ، ٢١٠ .
 بدر الدين بيبري ٥٢ .
 بدر الدين بن جماعة « محمد بن ابراهيم »
 ١٣٨ ، ٣٢٧ .
 بدر الدين محمد « ولد ابن مالك » ١٣٨ ،
 ١٣٩ ، ١٤١ .
 البديع الاسطرلابي ٢٦٥ .
 الربيعي ١٠١ .
 البراونه ٤٨٠ .
 ابن برّي ١١٢ .
 برغش « شرف الدين » ٢٨ .
 بركات « أبو طاهر الخشوعي » ١٢٨ .
 بركبارق « ركن الدين بن ملكشاه » ١٩ .
 البرنس « صاحب انطاكية » ٢٦ ، ١٦٤ ،
 ١٩٥ ، ٤١٧ ، ٤٢٣ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ،
 ٤٣١ ، ٤٦٢ .
 برهان الدين السنجاري ٨٢ .
 ابن بسام ٥٣٦ .
 بشار بن برد ٦٥٢ .
 ابن بطوطة ١١٦ .
 بطليموس ٣٠١ .
 ابن بقي ٣٦٣ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ .
 أبو بكر الصديق ١٥٠ ، ٧٢٥ .
 ابن بكرون ٦٦٤ .
 بلدوين ١٥٩ .
 بلقيس ١٨٩ ، ٥٢٠ .
 بهاء الدولة ٢٥٧ .
 بهاء الدين بن التاج ٣٢٩ .
 بهاء الدين زهر ٣٧٢ .
 بهاء الدين سونج ٧٨ .
 بهاء الدين عيّاك ١١٠ .
 بهاء الدين بن يوحنا ٤٠٩ .
 بهروز « محاهد الدين » ٣٦ ، ٣٧ .
 بويدي بن طفتكين « تاج الملوك » ١٨٨ ، ٤٦٢ .

- جنكيز خان ٦١ ، ١٢٣ .
- جلال الدركزيتي ٩٥ ، ٩٦ .
- جلال الدولة ملكشاه ١٨ ، ١٩ .
- جلال الدين بن صدقة ١٦١ ، ١٧٢ .
- جمال الدين الحلبي ١٠٢ .
- جمال الدين ريحان ٣٢ ، ٣٣ .
- جمال الدين الساجي « محمد بن يونس » .
- جمال الدين المالكي ٩٤ .
- جمال الدين محسن ٤٧ .
- جمال الدين المصري « يونس بن بدران » .
- ٣١ ، ٣٢١ .
- جمال الدين المقدسي ١١٤ .
- ابن جنثي ١٣٥ ، ١٤٠ .
- جودة الركابي ٥٧٤ ، ٦٢٦ .
- ابن الجوزي « محبي الدين يوسف بن عبد الرحمن » ١٠٤ .
- ابن الجوزي « أبو الفرج عبد الرحمن بن علي » .
- ١٠٦ ، ٧٦٧ .
- جوسلين ٢١ ، ١٦٤ ، ٤٢٣ ، ٤٦٢ .
- جوهر ٣٨ .
- الجوهري ٣٧٥ ، ٧١٤ .

(ح)

- الحامي « محمد بن الحسن » ٢٥٠ ، ٣٩٩ ،
- ٦٠٦ ، ٦٣٨ .
- ابن الصاحب « أبو عمرو جمال الدين » .
- ٦٥ ، ١٤٢ .
- الحافظ لدين الله « الخليفة الفاطمي » .
- ٢٤٣ .
- الحاكم بأمر الله « الخليفة الفاطمي » .
- ٨٨ ، ١٠٩ .
- ابن حجة الحوي « تقي الدين ابر بكر » .
- ١٤١ ، ٢٠٥ ، ٣٣٣ ، ٣٤٠ ، ٣٥٣ ،

- تقي الدين بن الصلاح ١١٢ .
- تيرتاش « حسام الدين بن نجم الدين ايلغازي » ٢٢٥ .
- تنكر ١٠٠ ، ٧١٠ .
- السنوخي « عز الدين » ٣٥٤ .
- توفيق بن محمد ١٥٩ .
- توران شاه « الملك المعظم أخو نجم الدين أيوب » ٣٨ ، ٤٠ ، ٥٢ .
- توران شاه « الملك المعظم نجل الملك الصالح نجم الدين أيوب » ٤٧ ، ٤٨ ، ٢٢٩ .
- توما ٥١٩ .
- ابن تيمية « تقي الدين أحمد » .

(ث)

- ثعلب ٣٧٤ .
- الثعالبي ٦٧٨ .

(ج)

- الجاحظ ٧ ، ٨ ، ١٥٧ ، ٤٠٠ ، ٥٩٣ ،
- ٧٢٢ .
- جاولي ١١٥ .
- جبريل ٤١١ .
- ابن جبير ٣ ، ٧ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١٠٥ ،
- ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١١٨ ،
- ٧٤٣ .
- جريس ١٦٦ ، ١٩٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ ،
- ٥٤٨ ، ٥٤٣ .
- الجزار « أبو الحسين » ٣٥٣ .
- جعفر اليرمكي ٥٨٠ .
- جعفر الصادق ٨٥ .
- جعفر بن أبي طالب ٤١٢ .
- جفري ٤٢ .

- حماد الدياس ٩٨ ،
- حمزة التميمي « أبو يعلى » ١٤٦ .
- حمزه بن حبيب الكوفي « أبو عمارة » ١٢٣ .
- حمزة بن عبد المطلب ٤١٢ .
- بنت الحميصية ٤٧ ، ٥٤٦ .
- ابن حنسل ١١٣ .
- أبو حنيفة ٨٤ ، ١١٣ ، ٥١٨ .
- حنين ابن اسحق ٤٠٤ .
- حياة بن قيس الحراني ٩٤ .
- حبلر « متصوف » ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠١ .
- حيدر « لعب علي بن أبي طالب » ١٩٠ .
- أبو حيّان « انير الدين » ١٠٧ ، ١٣٩ ، ٣٨٣ .

(خ)

- ابن خاتمة ٦٠٨ .
- الخانون « ست الشام » ١١٤ ، ١١٥ .
- الخاتون « عصمة الدين بنت معين الدين أنر » ١١٥ .
- خانون بنت يونس ١٢٩ .
- أبو خاشة « امام مكة » ٥٤١ .
- خالد بن القيسرائي ٣٠ ، ٧٣٥ .
- خالد بن الوليد ١٥٨ ، ١٥٩ .
- ابن خالويه ١٣٥ .
- ابن الخباز العامري ٤٠٦ .
- خترخان بن قراجا « صمصام الدولة » ٧٨ .
- خسروشاه ٣٣١ ، ٤٧٧ .
- ابن الخشاب البغدادي ٧٥٤ ، ٧٥٥ .
- الخصيب ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ .
- الخضر ٤٤٥ ، ٦١١ .
- الخضر « الفطاف بن مظفر الدين بن صلاح الدين » ٢٧٧ ، ٢٧٨ .
- الخطيب التبريزي ٦٥٩ .

- ٣٥٤ ، ٣٦٦ ، ٤٠٣ ، ٥١٤ ، ٥٦٩ ،
- ٥٧١ ، ٥٨٣ ، ٥٨٩ ، ٥٩٥ ، ٦٠٦ ،
- ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ،
- ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٣٦ ، ٧٨١ .
- ابن الحرستاني ١١٣ ، ٣١٠ .
- جمال الدين الأصمعي ١٦١ ، ١٧ ، ٤٢٢ .
- ابن حزمون الاندلسي ٥٥٧ .
- حسام الدين الجوندار ٥١ .
- حسام الرازي ٣٨٦ .
- الحريري « القاسم بن علي » ٦٦٥ ، ٦٦٨ ،
- ٦٦٩ ، ٦٨٦ ، ٧٠٣ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ،
- ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٨٤ .
- حسان بن نمر « عرقلة الدمشقي » .
- الحسن بن صاف ٧٤٦ .
- الحسن بن علي ٨٦ ، ٣١٧ .
- الحسن بن عمار ١٠٩ .
- الحسن بن عدي « شمس الدين الملقب بتاج العارفين » ٩٨ ، ٩٩ .
- الحسن بن نجاة « عز الدين الاربلي » .
- حسن بن نزار ١٣٧ .
- حسن بن النقيب ٤٧٩ .
- الحسن بن هبة « أبو البركات » ١٢٤ ، ١٢٨ .
- الحسن بن وضاح « أبو صادق » ١٣٧ .
- الحسين الأسد « مسند دمشق » ١٢٨ .
- الحسين بن علي ٨٦ ، ٢٢٧ .
- أبو الحسين « تلميذ شرف الدين الانصاري » ٣٢٧ .
- الحصكفي « يحيى بن سلامة » .
- الحطيئة ٢٠٤ .
- الحظيري الوراق « أبو علي سعد » ٤٠٤ ،
- ٦٧٨ .
- الحلواني « أحمد الدعاة » ٨٧ .
- الحلواني « أبو الوفاء » ٩٨ .
- حماد الخراط ٢١٨ .

- الذهبي « أبو عبد الله محمد » ١٣٠ ، ١٣٤ ،
 ٢٧٥ ، ٦٦١ ، ٦٩١ ، ٧٠٢ ، ٧١٢ .
 الذهبي « بدر الدين يوسف بن لؤلؤ »
 ٦٠٩ ، ٦١١ ، ٧٠٠ .

(د)

- رابعة المدوية ٣٤٩ ، ٣٥٠ .
 الراشد « الخليفة العباسي » ٢١ ، ٢٢ -
 ابن الرزاز .
 رشأ بن نظيف ١٠٩ .
 ابن رشد ١٤٩ .
 رشيد الدين القافقي ١١٦ .
 رشيد الصوري ١٥٢ .
 الرشيد المصري ٣٢٤ .
 ابن رقيق ١٤١ ، ٢٥٠ ، ٥١٣ ، ٥١٧ ،
 ٥٣١ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٧ ، ٥٩٠ ،
 ٥٩٣ ، ٦٠٣ .
 رضوان بن تثنى ٧٧ .
 رضوان بن علي ٢٦٤ .
 ابن رفاعة السعدي « أبو عبد الله » ١٢٤ .
 رفيقة الحجار « ست الوزراء » ١٢٩ .
 الركن السنجاري ٦٩٥ .
 الرمثاني « علي بن عيسى » ٦٠٦ .
 ابن رواحة الحموي ١١٦ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ،
 ٦٠٦ .
 ابن الرومي « علي بن العباس » ٢٧٦ .
 ريموند ٤١ .

(هـ)

- زيان بن العلاء « أبو عمر » ١٢٢ .
 الزبيدي « أبو عبد الله » ١٣٠ .
 الزججاني « أبو القاسم » ٥٨٤ .

- الخفاجي « أحمد بن محمد » ٤٠٥ .
 ابن خلدون ٥٩ ، ٦٧ ، ٩١ ، ٥٨٠ .
 ابن خللكن « شمس الدين » ٨٣ ، ٨٤ ،
 ١٠٧ ، ١١٤ ، ١٣٨ ، ١٤٧ ، ١٦٩ ،
 ١٩٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ،
 ٢٩٦ ، ٣٠٣ ، ٣١٧ ، ٣٢٣ ، ٥٧٥ ،
 ٦٧٨ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٧٧٠ .
 ابن خليل .
 الخليل بن أحمد ٣٧٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ .
 خليل الدين بن نجم الدين أبوب ٤٩ .
 خليان ربيرا ٥٣٨ .
 الخوارزمي ٣٦٣ ، ٥٥٠ .
 ابن الخطاط ١٥٩ ، ١٨٤ .

(د)

- داود « النبي » ٤٥٣ ، ٧٥٣ .
 داود « كمال الدين الشهرزوري » .
 ابن دحية ١٠٧ .
 ابن الديلمي ٢٩٧ ، ٣٠٧ .
 ابن أبي الدر ٢٣٥ ، ٥٢٣ .
 الدر كويني « جلال » .
 ابن دويد ٢٩٨ .
 دعبيل الخزاعي ٧٥٤ .
 ابن دفرخوان ٥١٣ ، ٥١٧ .
 ابن دقيق العيد « تقي الدين » .
 ابن دمرتاش ٨٥ ، ٥٧٧ .
 الديمياطي ٣٢٧ .
 الدولعي « خطيب صلاح الدين » ٣٠٠ ،
 ٣١١ .
 ديك الجن « عبد السلام بن رغبان » ٦٩٦ .
 ديثان اليهود « عبد السيد بن المهدي » .
 أبو ذر الغفاري ٨٦ .

(س)

- الزوزور ٢٨٥ .
 الزركشي ٣٣٤ .
 زرياب ٥٣٧ .
 ابن الزروق ٢٨٥ .
 ابن الزكي « محمد بن علي » ٣١٠ .
 زكي الدين بن محي الدين ٣٠٦ .
 الزمخشري ١٢٢ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ٣٧٤ ، ٤٠٢ .
 رمرّد خاتون ١٢٧ .
 ابن الزملكاني ١١٤ .
 زنكي « الانابك عماد الدين » ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٠١ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢٢٥ ، ٢٤٠ ، ٢٥٧ ، ٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٢ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٦١٤ .
 زنوبيا ٤٩ .
 زهر الدولة الجيوشي ١٥٩ .
 ابن زهر ٥٣٤ ، ٥٤٥ .
 زهرة خاتون « بنت الملك العادل » ١١٣ .
 زينب ٣٩٣ .
 زينب بنت زين العابدين ٩٥ .
 زينب بنت علي الصالحية ١٢٩ .
 زيد بن أرفم ٨٦ .
 زيد بن الحسن الكندي ٣٧ ، ٣٢٥ .
 زيد بن علي ٨٥ .
 زين الاسلام بن الحريري ٦٨٦ .
 زين الدين بن حليم ١٨٩ ، ٦٠٤ .
 زين الدين الصوفي ٩٢ .
 زين الدين المزي « أبو بكر » ١٢٨ .
 زين الدين الواصف ٧٥٣ .
 زين الدين يوسف ٩٦ .
 سابور بن هرمز ٧٥٨ .
 سالم بن مالك ٢٤ .
 ابن الساعاتي « علي بن محمد » ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٣٤ ، ٤٣٧ ، ٤٤٩ ، ٤٨٥ ، ٤٨٩ ، ٤٩٣ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥٠٨ ، ٥١٥ ، ٥٢١ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٩٩ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٥ ، ٦٥٣ .
 السبكي ١١٤ ، ٦٨٧ .
 سبط ابن الجوزي ١٢٢ ، ١٤٤ ، ٢٢٥ ، ٢٦٦ ، ٣٢٧ .
 سب الشام « أم محمد صفية » .
 سب الشام « الخاتون بنت صلاح الدين » .
 ست العرب « أم الخير بنت يحيى الدمشقية » ١٢٩ .
 ست الوزراء « ربيعة الحجار » .
 السخاوي « أبو الحسن علم الدين بن علي » ١٣٧ ، ١٤٠ .
 السديد ٢٨٥ .
 سديد الدولة الأنباري ١٧٢ .
 ابن السديد الأنباري ٢٢٦ .
 سرجوار « ملك قبرص » ٧٥ .
 السراج المخار « عمر بن مسعود » ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٤ ، ٥٥٦ ، ٥٦١ .
 السراج الوراق ٣٤ .
 سمادة الأعمى ٤٢٧ .
 سعد بن مالك ١٦١٣ .
 سعد الدين بن كمشكين ٣٣ .
 سعيد بن أحمد ٦٦٨ .

- سنقر الأشقر « شمس الدين » ٥٣ ، ٦٩٢ .
- ابن سنيّ الدولة ٨٣ .
- سيويو ١٣٦ ، ١٣٩ ، ٢٣٩ ، .
- سيف الاسلام « اسماعيل صاحب اليمن » .
- سيف الدين قلاوون ٥٢ .
- سيف الدين بن المشد ٣٥٤ ، ٦٠٩ .
- ابن سهل الاندلسي ٥٥٨ .
- السهروردي ١٠٣ .
- سهر القلماوي ٥ .
- ابن السويدي « ابراهيم بن محمد » ٥٨٠ ، ٥٨١ .
- ابن سيدا ١٣٤ .
- سيف الدولة الحمداني ١٤٩ ، ٢٦٣ .
- سيف الدين « غاري بن زكي » .
- سيف الدين « علي بن السار »
- ابن سيدا ٣٩٧ ، ٣٩٨ .
- السيوطي ٨٢ ، ٨٤ ، ١٢٠ ، ٣٥٦ ، ٥٨١ ، ٥٩١ .

(ش)

- شاذان بن جبرائيل القمي ٨٦ .
- شاذي ٣٥ .
- الشاطبي ١٢٣ .
- الشافعي « شهاب الدين فتيان بن ثمال » .
- الشافعي ٨٤ ، ١١١ ، ١٣٠ ، ١٣٩ .
- شاكر بن عبد الله « أبو اليسر المغربي »
- ٦٧٣ .
- ابن شاعر الكتبي ٣٢٥ ، ٣٨٨ .
- أبو شامة القدسي ٣١ ، ١١٣ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٦٩ ، ١٩٧ ، ٢٣١ ، ٤٤٠ ، ٦٨٥ ، ٧٤٢ .
- شاوور بن مجير الدين « أبو شجاع أمير

- أبو سعيد « ملك التتار » ٥٩ .
- ابن سعيد الاندلسي ٢٦٥ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٧١ ، ٥٦١ .
- سعيد بن علي « رشيد الدين البصراوي »
- ٥٨١ .
- أبو سفيان « أحمد الدعاء » ٨٧ .
- سقراط ٣٩٧ .
- سقمان بن أرتق ٧٧ .
- السسكاكي « أبو يعقوب يوسف » ١٤١ ، ٥٩١ .
- ابن السكيت ٧٩٢ .
- سكتة بنت الحسين ٨٦ .
- سلا ٥٥ .
- سلامس ٧٣٥ .
- سلامش « الملك العادل » ٥٢ .
- سلامة بن يحيى ١٩١ ، ٢١٦ .
- سلطان بن منقذ « أبو العاكر » ٢٢ ، ١٩٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٥٦ .
- السلفي ٢٢٥ .
- السليك ٣١٣ .
- سليم بن أيوب ١٢١ .
- سليمان الحكيم ٣٠٢ ، ٥٢١ .
- سليمان بن بليمان الهمداني ٢٥٨ .
- سليمان بن علي « غيف الدين » ٣٧٨ .
- السمعاني ٢٤٠ .
- ابن السمعاني ٦٨٠ .
- ابن سناء الملك ٢٨٥ ، ٣٠٣ ، ٣٥٣ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤٧ ، ٥٤٩ ، ٥٦٦ ، ٦٥٧ ، ٦٦٩ .
- سنان « صاحب مصيف » ٤٠ .
- سنجر الحلبي ٥٢ .
- سنجر الشجاع ٥٤ .
- سنجر « علم الدين » ١١٦ .

- شهاب الدين بن لثائم ١٣٨ ،
 شهاب الدين بن فضل الله ٣٨٠ ، ٣٩٤ ،
 شهاب الدين « محمود بن سلمان » .
 شهده بنت كمال الدين بن العديم ١٢٩ .
 الشهرزوري « بهاء الدين » ٢٠ .
 الشهرزوري « ضياء الدين » ٦٤ ، ٧٩ ،
 ٨٠ ، ٣٢٤ ، ٦٨٣ .
 الشهرزوري « كمال الدين » ٢٢ ، ٣٢ ،
 ٣٣ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ،
 ١٣٢ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٩٨ ،
 ٦٦٠ ، ٦٧٣ .
 الشهرزوري « أبو حامد محيي الدين
 محمد » ٧٨ .
 الشهرزوري « القاضي الأوحى داود » ٨٠ .
 شوقي ضيف ٥ ، ١٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٨ ،
 ٧٢١ .
 شيث ٢٢٣ .
 شيركوه الكبير « أسد الدين » ٢٤ ، ٢٧ ،
 ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ،
 ٦٤ ، ١٩٥ ، ٢٢٩ ، ٦٧٤ .
 شيركوه الصغير « أسد الدين » ٤٤ .

(ص)

- الصابي ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٦ ، ٧٨٤ .
 صالح الأحمدى الرفاعي ٩٢ .
 صالح بن أحمد « صلاح الدين القواس
 البلعكي » ٦٤٨ .
 الصالح « اسماعيل بن نور الدين » ١٧ ،
 ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٦٤ ، ٧٩ ،
 ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٦٧٤ .
 الصالح « اسماعيل بن العادل » ٦٥ ، ٧٤ .
 الصالح « نجم الدين أيوب » ٤٧ ، ٤٩ ،
 ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ٣٣٩ .

- الجيش ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
 ٢٢٩ .
 شجرة الدر ٤٧ ، ٤٨ .
 ابن شداد « بهاء الدين يوسف » .
 شرف الدين الأنصاري « عبد العزيز بن
 عبد المحسن » .
 شرف الدين المتكفي ١٥٠ .
 شرف الدين بن أبي عمرو « عبد الله » .
 شرف الدين « علي بن مسافر » .
 شرف الدين بن فضل الله .
 الشريف الوسوي « ابن مفر » ١٩٠ ،
 ٢٠٥ ، ٥١٤ .
 الشقيري ٥٦٣ .
 شطلي بن عيبة « بدر الدين » ٧٣ .
 شعيب ٤٤٤ .
 ابن شكر ٣٢٠ .
 شمس الدين بن محمد ١٤٨ .
 شمس الدين الأيلي ٣٧٩ .
 شمس الدين بن أبي الفتح ١٢٨ .
 شمس الدين بن أبي مضاء البلعكي ٣٠ .
 شمس الدين بن جعوان ١٣٨ .
 شمس الدين جكرمش ١٩ .
 شمس الدين بن دانيال ٣٥٤ .
 شمس الدين الدهان « محمد بن عمر » .
 شمس الدين بن السلوس ٧٠٩ .
 شمس الدين بن الصائغ ٥٧١ .
 شمس الدين بن أبي عمر ١١٤ .
 شمس الدين الفارقي ١١٤ .
 شمس الدين بن محمد ١٤٨ .
 شمس الدين بن المقدم ٣٢ ، ٣٣ ، ٦٤ .
 شهاب الدين الحارمي ٣٢ .
 شهاب الدين بن العجمي ٣٢ .
 شهاب الدين العزازي ٣٦١ ، ٣٦٢ ،
 ٥٤٩ ، ٥٥٠ .

. ٣٠٢

- طفنكين بن أيوب « سيف الاسلام » ٤٤ ،
 ٣٠٣ ، ٣١٣ ، ٣١٦ ،
 طنرل « السلطان » ٦٨٠ ،
 طفريل « سيف الدين » ٢٢٩ ، ٦٤٢ ،
 ابن الطفيل ١٤٩ ،
 طلائع بن رزيك « الملك الصالح » ٢٢٦ ،
 ٢٢٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٨ ،
 ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ،
 طلحة بن عبد الله العوني ٦٥١ ،
 الطوسي « نصر الدين » ١٤٨ ،
 ابن أبي طلي ١٤٤ ، ١٤٧ ،

(ظ)

- الظاهر بالله « الخليفة الفاطمي » ٢٤٣ ،
 ٢٥٥ ،
 الظاهر « ركن الدين بيرس » ،
 الظاهر غازي « ملك حلب » ٤٤ ، ١٠٣ ،
 ١١٢ ، ٢٦٦ ، ٦٩٣ ،
 الظاهر محمد بن الناصر « عم الخليفة
 المستعصم » ٨١ ،
 الظاهر « الخليفة الفاطمي » ٧٢ ، ٢٢٧ ،
 ابن الظاهري ٣٢٧ ،
 ابن ظفر الصقلي « محمد بن عبد الله » ،
 ظفر بن بختيار ٢٢٣ ،

(ع)

- عائشة بنت عيسى ١٢٩ ،
 العادل بن السلار ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،
 العادل « سيف الدين أبو بكر محمد »
 ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٩ ، ٧١ ،
 ١١٢ ، ٢٦٤ ، ٢٧٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،

. صبيح العظمي ٤٨ ،

- صخر بن مسافر ٩٨ ،
 صدر جيهان ٣٢٠ ،
 صدر الدين البكري ١٠٧ ،
 صدر الدين بن سليمان ٨٣ ، ١١٦ ،
 صدر الدين بن سنيّ الدولة ١١٤ ،
 صدر الدين بن الوكيل ٩٤ ،
 ابن صدقة « جلال الدين » ،
 الصغدي « صلاح الدين خليل » ٩٤ ، ١٣٤ ،
 ٢٣٣ ، ٣٥٠ ، ٣٨٣ ، ٤٠٣ ، ٥٢٩ ،
 ٥٥٨ ، ٦٠٨ ، ٦٤٨ ، ٦٨٧ ، ٦٩٥ ،
 ٧١٢ ،

- صفوان بن عسال ٦١٣ ،
 صفي الدين بن القابض ٢٦٩ ، ٢٧٨ ،
 ٤١٣ ،

- صفي الدين الحلي « عبد العزيز بن سرايا » ،
 صفية بنت أحمد « ست الشام » ١٢٩ ،
 صفية الكردية ٢٣٧ ، ٦٠٤ ،
 صلاح الدين الاربلي ٣١٩ ،
 صلاح الدين النجد ٧٧٠ ،
 صندل المقتفوي « عماد الدين » ٣٠ ،

(ض)

- ضرغام بن سوار ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٢٩ ، ٧٣٨ ،
 ضياء الدين « الشهرزوري » ،

(ط)

- أبو طاهر بن عوف الاسكندراني ٨٠ ، ١٢٥ ،
 طاووس الحرمين ٦٦٢ ،
 الطرطوشي ١٢٥ ،
 طرنتاي ٥٣ ،
 طفنكين « ملك دمشق » ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٢٢ ،

- عبد بن الأبرص ٢٧٧ .
عبد الله بن أبي المجد ٢٢٥ .
عبد الله بن قيس الرقيات ٦٥١ .
أبو المتاهية « اسماعيل بن القاسم »
٣٤٩ ، ٦٤٧ ، ٦٥٢ .
عثمان الرومي ٩٤ .
عثمان بن الصلاح « تقي الدين » ١٢٦ .
عثمان بن عفان ١٥٠ ، ٤٤٢ ، ٧٢٥ .
٧٥٨ .
عثمان كوهي ٩٤ .
العجمي ٢٥٠ .
ابن العديم « كمال الدين » ١٤٥ .
ابن العديم « مجد الدين » ١٢٢ .
ابن عربي « محيي الدين » ١٨٤ ، ٣٧٩ ،
٥٠٦ ، ٥٢٥ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ،
٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ،
٥٥٨ ، ٥٦١ ، ٥٦٣ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ،
٧٤٣ .
أبن عرفة ٣٢٥ .
عزلة الدمشقي « حسان بن نمير » ٢١٦ ،
٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ،
٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ،
٢٩٥ ، ٤١٣ ، ٤٨٩ ، ٤٩٨ ، ٥٠٠ ،
٥٠٢ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩ ، ٥١٧ ،
٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٩٩ ،
٦٠٤ ، ٦٠٧ ، ٦٤١ ، ٦٥٤ .
عدي بن زيد ٧٥٨ .
عدي بن مسافر « شرف الدين أبو الفضائل »
٩٤ ، ٩٨ ، ٩٩ .
عز الدولة ١٧٢ ، ٢٥٧ .
عز الدين الأربلي « الحسن بن نجا » ١٥٠ .
عز الدين بن أمسينا ٣٦٣ .
عز الدين بن أيبك « المعز » .
عز الدين جردبك ٢٩ ، ٣٨ ،

- ٦٧٣ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ .
عبد الله الجماعلي ١٤٩ .
عبد الله بن الحثاب « أبو محمد النحوي »
٧٠٣ .
أبو عبد الله بن رفاعة ١٢٤ .
عبد الله بن الزبير ٧٥٨ .
أبو عبد الله الصيرفي ١٢٨ .
أبو عبد الله الطليطي ١٣٦ ، ٢٣٩ .
عبد الله بن عامر « أبو عمران » ١٢٣ .
عبد الله بن عبد الظاهر « محيي الدين »
٥٣ ، ٣٨٠ .
عبد الله بن علي « شرف الدين » ١١٥ .
عبد الله بن عمر « الموفق الأنصاري » ٤٧٩ .
عبد الله الفاتولة ٩٣ .
عبد الله بن كثير ١٢٢ .
عبد الله بن محمد بن عطاء « شمس الدين »
٨٣ .
عبد الله بن محمد بن اسماعيل ٨٧ .
عبد الله بن المعز ١٤١ ، ٢٥٠ ، ٤٠٣ ،
٥٩٠ ، ٦٣٦ ، ٧٧٨ .
عبد الله بن مسعود ٧٥٨ .
أبو عبد الله نافع ١٢٢ .
عبد الله بن هبة ٧٩ .
عبد اللطيف « محتسب صلاح الدين » ٣٠٠ .
عبد اللطيف حمزة ٤١٦ .
عبد الملك بن مروان ٦٥١ ، ٧٥٨ .
عبد المنعم بن عمر « أبو الفضل الجلياني »
حكيم الزمان « ٤١٦ ، ٤٣٥ ، ٤٤٠ ،
٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ،
٤٤٩ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٦٤٨ .
عبد النبي « حاكم اليمن » ٣٩ .
عبد الوهاب « تاج الدين بن بنت المعز »
٨١ ، ٨٢ .
أبن العبري ١٤٤ .

- علم الدين القاسم بن أحمد ١٢٣ .
- علي الثعلبي « سيف الدين » ١٥٠ .
- علي الحريري ٩٣ .
- علي بن الحسين « زين العابدين » ٨٥ .
- علي بن الحسين « الأصفهاني » .
- علي بن حمزه « الكسائي » ١٢٣ .
- علي الخيمي ١٧٣ .
- علي بن الدايدة « شمس الدين » ٣٣ .
- علي بن السلار « سيف الدين » ٧٢ .
- علي بن أبي طالب ٩ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١٥٠ ، ٣٨٧ ، ٧٢٥ .
- علي بن عبد الوهاب « جمال الدين » ١٣٣ .
- علي « ابن عريف النحاسين » ١٥٣ .
- علي بن قزصل ٤١٠ .
- علي بن مالك « أمير جعبر » ١٦٧ ، ٢٢٥ .
- علي بن محمد « ابن الساعاتي » .
- علي بن محمود الشكري ١٤٩ .
- علي بن مسلم ١٣٢ .
- علي بن مقاتل « علاء الدين » ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧١ ، ٥٧٣ ، ٥٨١ .
- علي بن هبة « ابن النقاش » ١٥٢ .
- علي بن يونس « القفطي » ١٤٧ .
- عماد الدين ٤١ .
- عماد الدين « زنكي » .
- عماد الدين عقد الدولة ٦٧٢ .
- عماد الدين بن يونس ١٢٧ .
- العماد الكاتب « محمد بن محمد » .
- عمارة اليميني ٣٩ .
- عمر بن بختيار السلار ٢٢٣ .
- عمر بن الحسن « جمال الدين الرسغني » ٧٤٥ ، ٧٤٦ .
- عمر بن الخطاب ٤٣ ، ١٩٠ ، ٢٦٨ ، ٤٢١ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤٥ ، ٧٢٥ .
- عمر الخيام ٢٢٤ ، ٢٣٤ ، ٢٥٢ ، ٥٢٠ ،

- عز الدين بن حامد ٦٧٠ .
- عز الدين بن أبي الحديد ٦٩٥ .
- عز الدين بن زنكي ٣٤ .
- عز الدين سامة ٤٥ .
- عز الدين عبد الرحيم ٣٢٧ .
- عز الدين بن عبد السلام « عبد العزيز » .
- العزيز « عزيز مصر » ٢٢٩ ، ٢٧٧ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ .
- العزيز عثمان « عماد الدين » ٤٤ ، ٢٦٩ ، ٢٦٧ ، ٦٧٢ ، ٦٧٧ .
- ٢٧٢ ، ٣٠٨ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٥٨٦ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ .
- العزيز عثمان بن يوسف ٢٧٧ ، ٢٨٤ ، ٣٠٣ .
- العزيز محمد « ملك حلب » ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٤ ، ٦٩٢ .
- ابن عساكر « فخر الدين علي » ٧٠ ، ١١٠ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ٢٠٨ ، ٢٩٨ .
- عسكر الحموي ١٣٣ .
- العسكري « أبو هلال الحسن بن عبد الله » ١٤١ ، ٢٥٠ ، ٥٩٠ ، ٥٩٤ ، ٦٤٠ ، ٦٤٦ .
- ابن العطاش ١٣٨ .
- عصمة الدين « الخاتون بنت معين الدين أنر » .
- عصمة الدين « زوج المنصور الاول » ٣٢٧ .
- ابن العفريت ٥١٣ .
- عقيل بن أبي طالب ٤١٢ .
- عقيل المنجي ٩٨ .
- علاء الدين الأوتاري ٤٨١ .
- علاء الدين بن العطاش ١١٧ .
- علاء الدين بن شائم ٧١٠ .
- عيلم الدين السخاوي ١٢٣ .

• ٣٢٩

- الفالب علي ٧٤
- ابن فنام المقدسي « عبد السلام بن أحمد »
- الفريض ٧٥٣
- ابن غزال ١٥٢
- الفزالي « أبو حامد » ١٣ ، ١٤٩ ، ٥٦٣ ، ٥٦٥ ، ٦٨٠
- غياث الدين ٣٦٤

(ف)

- الفائز بن العادل ٢٦٤
- الفارابي ١٤٩
- فارس الدين ميمون ٦٩٢
- ابن فارس ٣٧٤
- فاطمة « ابنة الرسول » ٣١٧
- فاطمة بنت أحمد ١٢٩
- فاطمة بنت عساكر ١٢٩
- فتح بن أسد الدين شيركوه ٢٢٩
- الفتح بن خاقان ٢١٢
- فتيان بن فعال « شهاب الدين الشافري »
- ٢٨٨ ، ٣٠٧ ، ٤٤٦ ، ٤٦٦ ، ٤٨٥
- ٤٨٩ ، ٥٧٤ ، ٦٠٧ ، ٥٧٨ ، ٦٢٥
- ٦٤٢
- فخر الدين بن عساكر ٥٥ ، ٧٠
- فخر الدين جهاركس ٦٩٢
- فخر الدين الرازي ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٦٤٤
- فخر الدين « ابن شيخ الشيوخ » ٤٧
- ابن الفرات ٣٨١ ، ٣٨٣
- الفردوس ٣٩٨
- فروخ شاه « عز الدين » ٢٨٩
- الفرزدق « همام بن غالب » ١٦٦ ، ١٩٠
- ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٢١٩ ، ٥٣٣
- فرعون ٢٢٩

• ٥٢٥

- عمر بن السبكي « شرف الدين » ٨٣
- عمر بن سعيد « ضياء الدين » ١٢٩
- عمر بن عبد العزيز ٨٥
- عمر بن علي البدوي ١٥٢
- عمر بن مسعود « السراج المحار »
- عمر بن الورد ١٢٧ ، ١٤٠ ، ٤١٠ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦
- ابن عمرو ١٣٧ ، ١٤٠
- عمرو بن كلثوم ٤٠٢
- عمار بن محمد ١٨٧
- ابن العميد ٧٠١ ، ٧٠٦ ، ٧٨٤
- عنتر العبيسي ٤٠٢
- ابن عثيمين « محمد بن نصر الله »
- عوج بن عناق ٢٢١
- ابن عوف الاسكندراني ٨٠ ، ١١٢
- العويس ٣٩ ، ٧٩
- عيسى بن مريم « المسيح » ٩٢ ، ٢١٣
- ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٣٤ ، ٤٢٥ ، ٤٣٥
- ٤٧٤ ، ٧٤٠ ، ٧٥٩
- عيسى « ولد ابن الساعاتي » ٢٧٤
- عيسى اسكندر معلوف ٦٩
- عيسى بن ربيعة ٧١
- عيسى بن العادل « المعظم شرف الدين »
- عيسى بن مهنا ٧١

(غ)

- غازان ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٧٥ ، ٤٨١
- غازي بن غياث الدين « الظاهر بن صلاح الدين ملك حلب »
- غازي بن زنكي « سيف الدين » ٢٤ ، ٢٥
- ٣٢ ، ٣٤ ، ١٦٣ ، ٧٣٤
- غازية خاتون « أم المنصور بنت الكامل »

- أم ثروة « فرية بنت أسامة » ٢٤٧ ، ٢٤٨ .
- الفضل البانياسي ١١٢ .
- ابن الفسوطي ٦٧١ ، ٦٩٣ .

(ق)

- قابيل ٤١١ .
- قازان ٣٣٩ ، ٤٧٧ .
- القاسم بن أبي بكر « أمين الدين » ١٢٣ .
- القاسم بن قبرة ١٢٣ .
- القاضي الفاضل « عبد الرحيم بن علي » .
- قايمار بن عبد الله « صارم الدين » ١١٣ .
- قبحق ٥٥ .
- ابن قتيبة « عبد الله بن مسلم » ٣٩٩ ، ٧٩٢ .
- قدامة بن جعفر ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٦٠٦ .
- قراجة الساقى ٣٦٠ .
- قراقوش ٣٩ .
- ابن قرناص « محيي الدين » ٣٥٤ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٦٠٩ ، ٦١١ ، ٦٢٨ .
- ابن قزمان « أبو بكر » ٥٦٢ ، ٥٦٨ .
- القزويني « جلال الدين محمد بن عبد الرحمن » .
- قس بن ساعدة ٦٨١ .
- ابن قسيم « مسلم بن الخضر » .
- قطب الدين مسعود « النسابوري » ١٣١ .
- قطر « المظفر سيف الدين » .
- قطلوشاه ٥٥ ، ٥٦ ، ٧٥ ، ٩٢ .
- قلاوون « المنصور » ٥٢ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٧١ ، ٧٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ .
- قلج ارسلان ٣٢٧ .
- القلقشندي « أحمد بن علي » .
- قلندر يوسف ٩٥ .
- القمص ٤٤٤ ، ٤٦١ .
- قيسي بن ذريح ٢٦٣ ، ٥٨٦ .

- قيس بن الملوح ٢٦٣ ، ٥٨٦ .
- قيصر ٣٠٥ ، ٤٤٧ ، ٤٥٧ ، ٧٥٨ .
- القيسراني « محمد بن نصر » .

(ك)

- ابن الكازروني ١٠٢ .
- الكاشغري ١٢٩ .
- كاغيلوس الأرمني ٧٣٩ .
- الكامل « محمد بن العادل » ٤٥ ، ٤٦ ، ١٢٥ ، ١٥٢ ، ٣٠٤ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ .
- كتبنا « العادل المنصوري » ٥٤ ، ٦٢ ، ٦٦ .
- كتبنا « أحمد قواد التتار » ٣٣٩ ، ٤٤٧ .
- ابن كثير « اسماعيل بن عمر » ٩٧ ، ١١٤ .
- كربوقا ١٩ .
- كركر ٥١٩ .
- كركيس ٥١٩ .
- كريمة « أم الفضل بنت عبد الوهاب » ١٢٩ .
- الكسائي « علي بن حمزة » .
- كسرى أنوشروان ٣٠٥ ، ٤٤٧ ، ٧٥٨ .
- كعب بن زهير ١٧٢ ، ٦٢٣ .
- أم كلثوم « بنت الرسول » ٨٦ .
- ابن كليب ٣٢٥ .
- كمال الدين « الشهرزوري » .
- كمال الدين « الوزير » ١٦٤ .
- كمال الدين بن يونس ١٥٠ .
- الكند ٤٤٣ .
- كونراد الثالث ٢٤ .
- كي ٤٢ .
- كيخسرو ٤٧٤ .
- كيقباز ٤٧٤ .

(ل)

- لاجين « حسام الدين » ٥٤ ، ٦٢ ، ٦٦ .

- مجد الدين التونسي ٩٤ .
 مجد الدين « قاضي الطور » ١١٣ .
 المجد بن الظهير ٧٠٨ .
 مجد الدين مرشد ١٧٢ .
 مجير الدين بن تميم « محمد بن يعقوب »
 ٣٥٤ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٠٩ ،
 ٦١٠ ، ٦١٩ .
 محاسن بن عجم ٦٩٣ .
 محمد بن ابراهيم ٨٣ .
 محمد بن اسماعيل ٨٧ .
 محمد بن ايوب « صلاح الدين التوتان » ٢٠٨ .
 محمد البلخي ٩٦ .
 محمد بهجت الانري ٦٧١ .
 محمد بن تيمرك ٢٨٠ .
 محمد ، احمد ، المصطفى ، الرسول ، النبي
 ٩ ، ٤٩ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ١١٣ ، ١٢٢ ،
 ١٢٤ ، ١٤٦ ، ١٨٣ ، ٢٠٧ ، ٢٢٣ ،
 ٢٣٤ ، ٢٦٧ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ،
 ٤٠١ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤١٧ ،
 ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٣٠ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ،
 ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ،
 ٤٦٧ ، ٤٧١ ، ٤٧٨ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ،
 ٧٢٦ ، ٧٣٠ ، ٧٥٨ ، ٧٩٣ ، ٧٩٦ .
 محمد بن ابراهيم « بدر الدين جماعة »
 ١٢٢ ، ١٣٨ .
 محمد الباقر ٨٥ .
 محمد بهجت الانري .
 محمد بن بوري ٢٣ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ٢٢٣ ،
 ٢٢٤ .
 محمد بن جرير « الطبري » ١٤٢ .
 محمد بن جعوان ١٢٩ .
 محمد بن حسان « المهلب الدمشقي » .
 محمد بن حامد « صفى الدين » ٦٧٠ .
 الادب في بلاد الشام - ٥٣

- ابن لاون « ليون الثاني » ٣٩ .
 لانوكدار ٩٢ .
 لؤلؤ « بدر الدين » ٩٩ ، ٦٩٣ .
 لؤلؤ « الحاجب » ٧٣٨ .
 لؤلؤ « ملوك الب أرسلان » ٧٧ .
 اللبودي « نجم الدين محمد » ١١٧ ، ١٥٠ ،
 ١٥٢ ، ١٥٣ .
 لبسد العامري ٢٧٧ .
 ابن لقمان ٤٨ .
 لوقا ٧٥٩ .
 لويس السابع ٢٥ .
 لويس التاسع ٤٨ .
 لين بول ٥٩ .

(م)

- المامون بن هارون الرشيد ٧٥٨ .
 مؤنة خاوند « بنت الظفر » ١١٥ .
 مؤيد الدين العرضي ١٤٨ .
 مؤيد الدولة بن الصوفي ١٨٩ .
 مؤيد الدين العلقمي ٦٩٥ .
 مارية « جارية الانصاري » ٣٤٣ ، ٣٤٩ .
 مارية « معشوقة القيسراني » ٤٨٦ ، ٤٨٧ .
 مالك بن انس ٨٤ ، ١٢٥ .
 ابن مالك « علي بن مالك بن سالم » .
 ابن مالك « محمد بن عبد الله » ٧٠٨ .
 مالك بن انس ٨٤ ، ١٢٥ .
 مالك بن سالم العقيلي ١٦٧ .
 مانجو بردي ٦١ .
 مانع بن عيسى ٧١ .
 ابن مبارك شاه ٥٧٠ .
 المسرد « محمد بن يزيد » .
 ابن مجاور ٢٧٣ ، ٢٨٢ .
 أبو المجد « قاضي السويدي » ١٩٤ .

محمد بن زكي الدين « محيي الدين » ٨٠ .

محمد شاه ٦٧٢ .

محمد بن الظاهر بيبرس ٥٢ .

محمد بن عباس « عماد الدين » ١١٧ .

محمد بن عبد الرحمن « جلال الدين

القرظيني » ١٤١ ، ٥٩١ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ،

٦٠٣ ، ٦١٦ .

محمد بن عبد الرحمن « البفداي » ٥١٨ .

محمد بن عبد الله « ابن ظفر الصقلي »

١٢١ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ٦٥٨ ، ٧٤٧ ،

٧٥٥ ، ٧٦٧ ، ٧٦٩ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ .

محمد بن عبد الله بن مالك « جمال الدين »

١٠٧ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ،

١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ .

محمد بن عبد الله بن أبي عمرو « أبو حامد

محيي الدين » ٨٠ ، ٨١ .

محمد بن عبد الوهاب السعدي ١٢٩ .

محمد بن عفيف الدين سليمان « الشاب

الظريف » ٣٥٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ،

٣٨٠ ، ٣٨٣ ، ٣٩٠ ، ٤٨٨ ، ٥٠٦ ،

٥١٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٥٨ ، ٥٧٧ ،

٦٠٩ ، ٦١١ ، ٦٢٤ ، ٦٢٨ ، ٦٣٢ ،

٦٣٣ ، ٦٣٥ ، ٦٤٠ ، ٦٥٤ ، ٧٤٦ ،

٧٤٧ .

محمد بن علي « أبو البركات الأنصاري »

٧٥٦ .

محمد بن علي « الباقر » ٨٥ .

محمد بن علي « جمال الدين » ١٦١ ، ١٦٢ .

محمد بن عمر « شمس الدين الدهان »

٥٥٦ ، ٥٥٩ ، ٥٦١ .

محمد بن أبي القسم « أبو عبد الله » ٧٥٥ .

محمد بن قلاوون « الناصر » .

محمد كامل حسين ١٢ .

محمد بن محرز « الوهراني » ٦٥٨ ، ٧٦٩ ،

٧٧٠ ، ٧٧١ .

محمد بن محمد « العماد الكاتب » ٣٠ ،

٣١ ، ٧١ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٦١ ، ١٦٤ ،

١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ،

١٧٣ ، ١٨٥ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ،

٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ،

٢٣١ ، ٢٤٨ ، ٣٠٠ ، ٤٠٤ ، ٤٢٤ ،

٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ،

٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠ ، ٤٥٤ ،

٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٤ ،

٤٦٥ ، ٤٦٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٧٥ ،

٥٧٨ ، ٦٠٧ ، ٦٢١ ، ٦٤٤ ، ٦٥٧ ،

٦٥٨ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ،

٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ،

٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ،

٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ،

٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ،

٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٩٧ ، ٧٠٦ ، ٧١٨ ،

٧٣٤ ، ٧٣٦ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٢ ،

٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٧٠ ، ٧٧٤ ، ٧٨٦ ،

٧٨٨ ، ٧٩٣ .

محمد بن مسعر ٦٨ .

محمد بن المسيب ٣٠٧ .

محمد بن ملكشاه ٣٦ .

محمد مندور ٤٠٣ .

محمد بن منقلد ٢٤٣ .

محمد بن نصر « ابن التيسراني » ١٥٨ ،

١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ،

١٧٢ ، ١٨٤ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ،

١٩٥ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،

٢٠٨ ، ٢١٩ ، ٢٣٨ ، ٢٥٩ ، ٢٨٩ ،

٢٩٦ ، ٤٠٥ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ،

٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ ،

- ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٧ ، ٣٣٩ ، ٣٥١ ،
٦٢٩ .
المعمار ٥٨٢ .
المبدي ٢٢٠ .
معين الدين بن سكيئة ٦٩٩ .
معين الدين « وزير الصالح أيوب » ٦٥ .
المقتفي بالله ٢٢ ، ٦٧١ .
المقري الفيومي ٧٩١ .
المقريزي « أحمد بن علي » .
ابن المقفع ٦٥٨ .
ابن مقلة ٤٩٩ .
مكرم « محدث » ١٧ .
مكين الدين « المحتسب » ٢٩٣ .
ابن ملكداد ٢٣٥ ، ٥٢٣ .
ملكشاه « جلال الدولة » .
المنصور الأول « محمد بن عمر ملك حماة »
٤٤ ، ٤٥ ، ١٤٤ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ .
المنصور الثاني « محمد بن محمود ملك حماة »
٥١ ، ٧١ ، ٣٠٩ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ،
٣٣١ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٥١ ، ٣٦٠ ،
٣٨١ ، ٣٨٥ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٧ ،
٤٧٨ ، ٥٥٦ .
المنصور بن العزيز عثمان ٦٩٣ .
المنصور « قلاوون » .
المنصور « نور الدين بن العزيز أيبك » ٥٠ .
منفريد بن فريديريك ١٤٦ .
ابن منك ١٢٨ .
متكوثر ٥٤ .
ابن منير الطرابلسي « أحمد بن منير » .
المهدي ١٧١ ، ٤٣٠ ، ٤٤٨ .
المهلب الدمشقي ٧٥٢ ، ٧٨٥ .
المهمل « عدي بن ربيعة » ٦٥١ .
مهنّا بن عيسى ٧١ .
مهنّا بن مانع ٧١ .

- مسلم بن الحجاج ١٢٨ .
مسلم بن الخضر « ابن قسيم الحموي »
١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،
٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٥٩ ،
٤١٤ ، ٤٤٧ ، ٤٨٩ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ،
٤٩٩ ، ٥٠٥ ، ٥٠٩ ، ٥١٥ ، ٥٢٢ ،
٥٢٣ ، ٥٢٥ ، ٥٢٧ ، ٥٧٦ ، ٥٩٥ ،
٦٠٢ ، ٦٠٤ ، ٦٢٤ ، ٦٣٦ ، ٦٤٤ ،
٦٤٨ ، ٦٥٤ .
مسلم بن الوليد ٢٧٧ ، ٤٠٤ .
ابن مصال المصري ٦٧٥ .
ابن الطران « موفّق الدين » .
أبو مضر « والد الشريف الموسوي » ١٩٠ .
المظفر « سيف الدين قطز » ٥٠ ، ٥١ ،
٥٢ ، ٦١ ، ٧١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٤٧٤ ،
٤٧٦ .
المظفر الأول « تقي الدين عمر بن شاهنشاه »
ملك حماة « ٣٩ ، ٧٩ ، ٩١ ، ١١١ ،
٢٧٧ ، ٢٨٢ ، ٣٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٦٦ .
المظفر الثاني « تقي الدين بن المنصور الأول »
محمد ملك حماة « ١٤٤ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ،
٣٢٩ ، ٣٣٨ .
المظفر الثالث « تقي الدين محمود بن المنصور »
الثاني محمد ملك حماة « ٥٣ ، ٣٣٢ ،
٣٣٨ ، ٤٧٤ .
معاوية بن أبي سفيان ٨٥ ، ١٩١ .
معبد ٧٥٣ .
المعتمد ١٩٤ ، ٤٧١ .
ابن معدي كرب ٧١٣ .
المر « الخليفة الفاطمي » ٧٩ ، ١١٢ .
المر « عز الدين أيبك » ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٠ .
المعلم عيسى « شرف الدين العادل » ٤٤ ،
٧٠ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ٢٦٤ ،
٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ١١٦ ، ٣١٧ ،

- ناصر الدين الحراني ٢٨٦ .
- نافع « أبو عبد الله » ١٢٢ .
- ابن نبالة « عبد الرحيم » .
- ابن نبالة « جمال الدين محمد » ٣٣٣ ،
- ٤٠٣ ، ٥٦٥ ، ٦٠٩ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ،
- ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧٤٥ .
- نجم الدولة ٢٥٧ .
- نجم الدين بن سوار ٥٠٦ .
- نجم الدين بن صدر الدين ١١٤ .
- نجم الدين الكاتب ١٥٠ .
- نصر بن أسد الدين شيركوه ٢٢٩ .
- نصر الدين جقر ٢٠ .
- نصر بن العباس ٢٤٤ ، ٢٥٥ .
- أبو نصر الكندري ٦٨٠ .
- النصير الحماني ٣٥٤ .
- نظام ٥٤١ .
- نظام الملك ١٨ ، ١٠٩ .
- نعم ٣٦٥ .
- النعمان بن النضر ٧٥٨ .
- النعماني ١١٢ ، ١١٣ .
- ابن النفيس « علاء الدين » ١٥٢ .
- ابن النصار الكاتب ٢٢٦ ، ٢٢٨ .
- أو نواس ، النواصي « الحسن بن هانيء »
- ١٩٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ،
- ٢٩٦ ، ٣٦٨ ، ٤٠٣ ، ٤٨٣ ، ٤٨٦ ،
- ٥١٣ ، ٥٢٠ ، ٥٥٨ .
- نور الدين « محمود بن زنكي » .
- نور الدين بن شيركوه ١٩٥ .
- نوح .
- النووي « يحيى بن شرف » .
- النيسابوري ٢٩٨ .
- ابن نيسان « بهاء الدين » ٢٢٥ ، ٤١٣ ،
- ٦٠٧ .
- نيكلسون ٩٢ .

- مهيار الديلمي ٢٦٣ ، ٥٥٠ ، ٥٨٦ .
- مودود بن المبارك ٢٨٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ .
- مودود بن صلي ٢٧٤ .
- مسورون ٥١٦ .
- موسى الكلبي ٢٣٤ ، ٢٨٣ ، ٣٩٠ ، ٦١١ ،
- ٧٢٧ ، ٧٦٨ .
- موسى بن جعفر .
- موسى بن عبد القادر الجبلي ١٢٩ .
- موسى الكاظم ٨٦ .
- موسى بن محمد « قطب الدين اليونيني »
- ١٢٨ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٥١٦ ،
- ٥٢٨ .
- موسى بن يعمور ٤٨ .
- موسى بن يوسف الزياتي ٧٦٠ .
- الموصلي « إبراهيم بن موسى » ٣٢١ .
- موفق الدين بن قدامة ١٣٢ .
- موفق الدين بن المطران ١٥٠ ، ١٥٢ ، ٣٠٠ .
- ابن الموفق البعلبكي ٣٢٦ .
- ميلياس فيليكروسا ٥٣٦ .

(ن)

- النافذة الديباني ٤٠٢ .
- الناصر حسن ٨٣ ، ٩٧ .
- الناصر لدين الله « الخليفة العباسي » ٤١٢
- ٤٣٧ ، ٧٣٦ .
- الناصر « صلاح الدين يوسف بن أيوب » .
- الناصر « صلاح الدين يوسف العزيز محمد »
- ١١٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ،
- ٣٥٢ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٤ ، ٤٨٥ ،
- ٦٣٧ .
- الناصر « صلاح الدين داود بن المعظم »
- ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٧٠ ، ٧٤ ،
- ٧٥٣ ، ١٥٠ .

(هـ)

- هابيل ٤١١ .
- هاروت ٤٩٣ .
- هاشم بن أحمد ١٦٠ .
- هاشم بن عبد مناف ٦٥١ .
- ابن هارون ٣٢١ .
- هارون الرشيد ٥٨٠ ، ٦٧٠ .
- هارون بن علي ٦٧٨ .
- هبة الله بن أحمد « الأكفاني » ١٢٨ .
- هبة الله بن البارزي « شرف الدين » ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٤٢ .
- ابن هيرة « معين الدين » ٦٧٢ .
- أبو هريرة ٧٩٦ ، ٧٩٧ .
- الهمداني بديع الزمان « أحمد بن الحسن » ٧٤٥ .
- هنفري بن هنفري ٤٢ .
- هولوكو ٥١ ، ٧٥ ، ٩٢ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ٣٣١ .
- أبو الهيجاء السمين ٣٨ .

(و)

- واصل بن عطاء ٨٥ .
- ابن واصل « محمد بن سالم » ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ١٠٨ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٥ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٣ .
- الوداعي « علي بن المطهر » ٥٧٧ ، ٦٠٩ .
- ابن وكيع ٧٧٨ .
- ابن الوكيل ١١٣ .
- الوليد بن عبد الملك ٢٢٧ .
- الوهراني « محمد بن محرز » .

(ي)

- ابن ياسين « أبو الفضل الحلبي » ١٤٨ .
- ياقوت الرومي الحموي ١٣٣ ، ١٤٨ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٨٩ ، ٣٥٧ ، ٦٤٨ .
- يحيى البياسي « أبو زكريا » ١٥٢ .
- يحيى بن سلامة « الخطيب الحصفكي » ٦٥٨ ، ٦٦١ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٨٧ .
- يحيى بن محمد « نجم الدين اللبودي » .
- يحيى بن شرف « محيي الدين النووي » ١١٣ ، ١٢٧ .
- يحيى بن يوسف الصرصي ١٠٦ .
- يزيد بن معاوية ٩٩ .
- اليسع بن عيسى ٩٠ .
- يعقوب الحكيم ١٥٢ .
- يعقوب البهي ٢٢١ ، ٢٣٠ ، ٤٢٠ ، ٤٤٥ ، ٦١١ .
- ابن يعيش « أبو البقاء » ١٣٧ ، ١٤٠ .
- ينال بن حسان « قطب الدين » ٣٤ ، ٤٢٥ .
- يوحنا ٥١٩ .
- يوحنا بن بطران ١٥٢ .
- يوحنا الثاني ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ .
- يوسف بن اسماعيل « الثواء الحلبي » .
- يوسف الصديق ٢١ ، ٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٦٧ ، ٣٣٧ ، ٤٢٠ ، ٤٣٥ ، ٦١٠ .
- يوسف بن خليل ٧٠٨ ، ٧١٢ .
- يوسف بن أبي الزهر « جمال الدين » ١٢٨ .
- يوسف بن أبي سعيد « السامري » ١٥٢ .
- يوسف بن شداد « بهاء الدين » ٤٣ ، ٩١ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١٢٥ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ٢٢٨ ، ٧٢٢ ، ٧٣١ ، ٧٤٣ .
- يوسف فيروز ١٨٨ .

٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ،
 ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ،
 ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ،
 ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ،
 ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ،
 ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٣ ، ٤٦٥ ،
 ٤٦٦ ، ٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٥٣٠ ، ٥٧٦ ،
 ٦٠٦ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ،
 ٦٧٩ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٧ ، ٦٩١ ،
 ٧٠٠ ، ٧٠٢ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٩ ،
 ٧٣٤ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤٣ ، ٧٥٣ ،
 ٧٧٠ ، ٧٨٥ ، ٧٩٥ .
 يوشع بن بدران « الحاكم المصري » ٣٢١ .
 اليونيني « موسى بن محمد » ٧١٢ .
 اليونيني « أبو الحسن » ١٣٨ .

يوسف بن الوليد « بدر الدين الذهبي » .
 يوسف بن نجم الدين أيوب « الناصر صلاح
 الدين » ٢٩٠ ، ٣٠٠ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ،
 ٣٧٠ ، ٣٨٠ ، ٤٠٠ ، ٤١٠ ، ٤٢٠ ، ٤٤٠ ،
 ٤٥٠ ، ٤٦٠ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٦٩ ،
 ٧٠٠ ، ٧١٠ ، ٧٣٠ ، ٧٩٠ ، ٨١٠ ، ٨٥٠ ،
 ٨٩٠ ، ٩٠٠ ، ٩١٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٨ ، ٩١١ ،
 ٩١٢ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩٢٣ ، ٩٢٤ ،
 ٩٢٦ ، ٩٣١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ،
 ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ،
 ٩٦٦ ، ٩٥٧ ، ٩٤٨ ، ٩٥٧ ، ٩٦٦ ،
 ٩٦٨ ، ٩٧٠ ، ٩٧٣ ، ٩٧٦ ، ٩٨١ ،
 ٩٨٩ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠ ،
 ١٠٠٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٣٠ ، ١٠٤٨ ،

الفهرس الثالث

فهرس أعلام الطوائف والقبائل والشعوب

(أ)

- ٤٨٠ ، ٥٥٦ ، ٦٠٧ ، ٦٧٥ ، ٦٨٢ .
- أهل الأحد ٦٨٤ .
- أهل الحميرين ١٢٦ .
- أهل الماء « الخمسة الفر من آل البيت »
- ٤١١ .

(ب)

- البارونية ٤٢ .
- بختيار « بنو بختيار » ٢٢٣ .
- البرامكة ٥٥٧ ، ٥٨٠ .
- برج أوغلي ٦١ .
- بكر .
- البوذية ٩٣ .
- البيت « آل أو أهل أو بنو البيت النبوي »
- ٨٦ ، ٨٨ ، ٤١٢ .
- بهرام ٣٢٤ .

(ت)

- التتر والتتار ٧ ، ١١ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،
- ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٣ ،
- ٧٠ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٩ ،
- ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،
- ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٤١٥ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ،
- ٤٧٦ ، ٤٨٢ ، ٥٠٢ ، ٧١٥ ، ٧٤٥ .
- الترك والأتراك ٩٠ ، ١١٦ ، ١٨٢ ، ٢٢٢ ،
- ٢٣٦ ، ٢٩٣ ، ٣١٨ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ،
- ٣٨٤ ، ٣٩٠ ، ٤٣٢ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ،
- ٤٤٥ ، ٤٧٢ ، ٤٧٥ ، ٤٨١ ، ٤٨٨ ،
- ٤٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥١٥ ، ٦٤٣ ،
- ٧٩٣ .
- نوخ ٧٠ ، ٣٢٤ .

- آري ٦١ .
- أبي « بنو أبي » ٧٢ .
- الأحمديه ٩٢ ، ٩٥ .
- الأرمن ٣٩ ، ٦١ ، ٤٧٣ ، ٦٤١ .
- الأساحم ٤٤١ .
- الاستبارية ، الاستبار ٤٢ ، ٤٢٦ ، ٤٤٤ ،
- ٤٦٤ ، ٤٦٥ .
- الأسباط ٥١٤ .
- بنو إسرائيل ٧٢٧ .
- أسد ٧٠ .
- الاسماعيلية السبعية ٤٠ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ،
- ٩٦ ، ١٨٦ .
- الأصفر « آل أو بنو الأصفر » ١٧٧ ، ٤٤١ ،
- ٤٤٢ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ .
- الألمان ٤٦ ، ٤٤٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ .
- الامامية الاثنا عشرية ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ .
- الأمويون ، بنو أمية ٣٥ ، ٨١ ، ٨٦ ،
- ٩٨ ، ١٩١ .
- الانصار ٢٩٧ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ .
- الانكليز ٢٧١ ، ٤٤٩ .
- أوس ٣٢٤ .
- إياد ٧٥٠ .
- الأيوبيون « آل أو بنو أيوب » ٨ ، ٣٥ ،
- ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ،
- ٦١ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٩ ، ٨٤ ،
- ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٥٤ ،
- ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٤٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ،
- ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٢٨٧ ، ٣٠٥ ، ٣١٥ ،
- ٤٧٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٢ ،
- ٣٣٧ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ،

٤٥٦ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٨٠ ،
٤٨١ ، ٤٨٨ ، ٥٠٢ ، ٥١٦ ، ٦٤١ ،
٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٥٨ .

(ز)

زبيد ٧١ ، ٧٢ .
الزكيون ٨ ، ٣٤ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٧٨ ،
١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١٤٥ ، ١٥٤ ،
١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٨٨ ،
١٩٣ ، ٢٠٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٤٧ ،
٤١٥ ، ٤٦٩ .
الريدة ٨٨ .

(س)

السلاجقة ٢٠ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٧٧ ، ٨٧ ،
٨٨ ، ١٠٩ ، ٦٧٠ ، ٦٨٠ .
السلار « بنو السلار » ٥٩٤ .
سنان ٥١٥ .

(ش)

شاذي « آل شاذي » ٢٢٩ .
الشافعية ٧٩ ، ٨٥ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ،
١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .
شيبان ٣٥٧ .
الشيعة ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ،
٩١ ، ١٨٦ ، ٢٠٦ ، ٢٢٧ ، ٤١٢ .

(ص)

الصقلاب ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ .
الصليبيون ٧ ، ١١ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٣١ ،
٣٦ ، ٤١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٨٩ ، ١٤٦ ،
١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٧٩ ، ١٩٤ ، ٢٠٥ ،
٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٩ ، ٤٧١ ،
٤٧٤ ، ٤٨٢ .
الصوفية ، المتصوفة ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ،
٩٤ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ،
١٠٤ ، ١٨٨ ، ٣٧٩ ، ٣٩٠ ، ٥٤٠ .

تيسم ١٩٠ .

(ث)

ثعلبة ٣٥٧ .
ثمود ٧٧٢ .

(ج)

الجركس ٦١ .

(ح)

حارثة « بنو حارثة » ٧٢ .
الحرافيش ٩٣ .
حرب « آل حرب » ٣١٧ .
الحلوانية ٣١١ .
الحنابلة ٨٥ ، ٧٠٨ .
الحنفية ٨٥ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٥ ،
١١٦ .
الحيدرية ٩٦ .

(خ)

خاقان « بنو خاقان » ٤٩٠ .

(د)

الداوية ٤٢ ، ٤٤٤ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ .
الدروزية ٨٨ .

(ر)

ربيعة .
الرافضة والرافض ٨٥ ، ٨٨ ، ٩١ ،
٢٠٧ .
الرفاعية ٩٢ ، ٩٥ .
الزواذية ٣٥ .
الروم ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٤٣ ، ٥٢ ، ٥٣ ،
٦١ ، ٨١ ، ٩٣ ، ١٤٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ،
٢٣٤ ، ٢٤٠ ، ٢٢٤ ، ٣٣١ ، ٣٧٦ ،
٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ .

- ٥٤٨ ، ٥٦٦ ، ٥٧٨ ، ٧٤٣ .
الصوفي « بنو الصوفي » ٢٤٣ .

(ط)

- طفتكين « آل طفتكين » ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ،
١٦٨ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ٢٢٤ ،
٢٢٨ .
طبي ٧١ .

(ع)

- عامر ٣٩ ، ٤١ ، ٦١ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٢ ،
١٤٥ ، ٤٠٦ ، ٤١٢ ، ٤٢٠ .
عبيد « بنو عبيد » ٧٣٤ .
العجم والأعاجم ٢٠ ، ٤٣ ، ٥٣ ، ٩٧ ،
٣١٥ ، ٣٣٧ ، ٣٩٨ ، ٤١١ ، ٤٥٥ ،
٤٧٣ ، ٥٢٠ ، ٥٩٤ ، ٦٧٩ ، ٧٥٣ .
العدوية « بنو عدوي » ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ،
١٠٠ ، ١١٠ .
العرب ، الأصراب ، العربان ، الأعراب ،
٣٥ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٦٠ ، ٧١ ، ٧٢ ،
٨١ ، ١٠٧ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٨ ،
١٤٩ ، ١٥٧ ، ١٦٥ ، ١٧٩ ، ٢٣٦ ،
٣٣٧ ، ٣٨٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٧ ،
٣٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩ ، ٤١١ ، ٤٣٢ ،
٤٥٥ ، ٤٧٣ ، ٤٨٧ ، ٤٨٩ ، ٤٩٨ ،
٥٧٤ ، ٥٩١ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٦٠٥ ،
٦٣٥ ، ٦٣٩ ، ٦٤٥ ، ٦٤٧ ، ٦٥٠ ،
٧٠٤ ، ٧٢٢ ، ٧٥٣ ، ٧٨٢ ، ٧٩١ .
عقبة « آل عقبة » ٧٠ .
عقيل بن عامر ١٧٢ ، ٦٢٣ .
الملويون ، الملوية ، آل علي ١٠٤ ، ٢٠٦ ،
٦٩٧ .

(غ)

- غالب « بنو غالب » ٢٩٨ .
الغرابية ٨٨ .
الغساسنة ٧٠ .

(ف)

- الفاطميون ، آل فاطمة ٣٩ ، ٧٧ ، ٧٩ ،
٨٧ ، ٩١ ، ١٠٩ ، ١٣٦ ، ١٨٦ ، ٢٣٩ ،
٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٣١٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ،
٤١٢ ، ٤١٩ ، ٤٢٥ .
الفرس ٦١ ، ٣٩٧ ، ٤٣٦ ، ٥٧٤ ، ٥٨٠ ،
٦٠٥ ، ٦٩٤ ، ٧٥٩ ، ٧٥٨ ، ٧٨٨ .
الفرنج ، والفرنجة ، والافرنج ١١ ، ١٩ ،
٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ،
٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ،
٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ،
٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٧ ،
٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٧٧ ،
٧٨ ، ١٢٤ ، ١٣٦ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ،
١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،
١٨٧ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٣٠ ،
٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،
٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٦ ،
٢٦٨ ، ٢٨٩ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٤ ،
٣٧٦ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ،
٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ،
٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ،
٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ،
٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ،
٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ،
٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ،
٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ،
٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٩ .

النسابة ٥٦١ ، ٥٧٣ .
النسول والفضل ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٢ ، ٤١٥ ،
٤٧٩ .

اللامتية ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٤ .
المالك ٨ ، ١٢ ، ٢٨ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ،
٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ،
٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٧ ،
٧٠ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٨٢ ،
٨٤ ، ٩١ ، ٩٨ ، ١٠٨ ، ١١٦ ، ١٥٤ ،
٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٨٥ ، ٤٠٩ ، ٤١٥ ،
٤٦٩ ، ٤٧١ ، ٤٧٣ .
منقلد « آل منقلد » ١٠٤ ، ١٣٦ ، ١٦٠ ،
١٧٢ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ٢٤٠ ،
٢٥٦ .

المواصلة ٤٢٦ .
الموحدون ٥٦٣ ، ٦٨٤ .

(ن)

النجار « بنو النجار » ٢٩٧ .
النصرية ٨٨ ، ١٠٤ .
نعمان ٣٦٥ ، ٤٨٥ .
نهد « بنو نهد » ٩ ، ٢٨٣ ، ٤٨٥ ،
٤٨٦ ، ٦٢٥ .

(هـ)

الهديانية ٣٥ .
هلال ٢٨٣ ، ٤٨٥ ، ٥١٥ .

(و)

الواسطيون ٥٧٩ .
ويسره الجلاح ٢٢٠ ، ٢٢٣ .

(ي)

يأجوج ٤٤١ ، ٤٤٤ ، ٤٦٥ .
اليزيدية ٩٩ ، ١٠٠ .

٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٨٢ ،
٤٨٦ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٥٠٢ ،
٥٣٣ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٤٣ ، ٧٣٤ ،
٧٥٤ ، ٧٩٣ .
فضل « آل فضل » ٧١ ، ٧٢ .

(ق)

قريش ٦٧١ ، ٦٩٤ ، ٧٥٨ .
قربطة ٤١٠ .
قضاة ٧٠ .
القنجاك ٦٢ .
القنسدريه ٩٥ ، ٩٦ .

(ك)

الكرج ٥٤ .
الكرد والاكرد ٣٥ ، ٦١ ، ٦٨ ، ٩٥ ،
٩٨ ، ٩٩ ، ٤٢٢ ، ٤٨٨ .
كتعان .
كلب ٧٠ ، ٢٢٠ .

(ل)

اللاسين ٥٠ ، ٦٠ .
اللان ٤٤٢ ، ٧٥٩ .

(م)

المالكية ٦٥ ، ٨٥ .
المجوس ٩٤ ، ٤٤٥ .
المرايطون ٥٦٣ .
مزين « بنو مزين » ٧٦٠ .
مسة « آل مسرة » ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ .
مدحج ٧١ ، ٧٢ .
المتولسة ٨٥ .

الفهرس الرابع

فهرس أعلام المناطق الجغرافية

أم القرى ٤٤١ .

اثب ١٦٤ ، ٤٢٣ .

الاندلس ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٢٧ ، ٥٣٦ ،

٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ،

٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٦٣٩ ، ٦٧٩ ، ٧١٥ .

انطاكية ٢٤ ، ٢٦ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٧ ،

١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ،

١٩٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٤١٧ ، ٤٢٣ ،

٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦ ، ٤٨٦ .

انطرسوس ٥٣ ، ٤٢٤ .

أهواز ١٧٧ .

ايلساء « بيت المقدس » ١٦٦ .

(ب)

باب البريد ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٩٢ ، ٤٨٤ .

باب البلد ٤٥ .

باب الحديد ١٦٤ .

باب الصغير ٢٩٠ ، ٣٠٧ .

باب فارس ٤٢٩ .

باب الفرائيس ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٨ .

باب الفرج ١١٧ ، ٦٧٣ .

باب الناطقين ٧١٩ .

باب النصر ٣٢٨ ، ٦٧٧ .

باب زويلة ٣٨ .

بابيل ٢٨٢ ، ٤٩٣ .

بادية الشام ٨٧ .

بالس ١٦٧ .

باناس « بانياس فرع بردى » ٣٦٦ .

بارين « يعبرين » ٢١ ، ٢٢ ، ٤١ ، ١٦٢ ،

١٩٤ ، ٤١٧ .

بالوا ٦٤١ .

(١)

آسيا ٦٠ ، ٦٣ ، ٤١٥ ، ٤٧٤ .

آمد « السوداء » ٢٣ ، ٣٦ ، ١٤٥ ، ٢٢٤ ،

٢٢٥ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧٧ ، ٤١٣ ،

٦٦٢ ، ٦٦٨ .

أبريسم ٣٩ .

الأجرع ٥٤٩ .

أحد ٤١٠ ، ٦٦٤ .

أذربيجان ١٩ ، ٤٣ ، ٣٠١ .

أربيل ٦٦٣ .

الأردن ٤٣٣ ، ٤٤٣ .

أرتون ١٠٢ .

أرواد ٥٣ .

اسبان ٤٤٣ .

استنبول ٣٣٣ .

أسعار ٨٦ .

اسكندرونة ٤ .

اسكندرية ٣٨ ، ١١٢ ، ١٢٥ ، ٣٢٥ ،

٤٦٣ .

اسوان ٢٤٥ ، ٤٣٢ ، ٥٠٦ .

أسيوط ٦١٨ ، ٧٥٩ .

اشبيلية ١٠٧ .

الأصرمان ٤٦٢ .

أصفهان ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ .

اضم ٣٦٣ ، ٥٤٩ .

أفامية ١٨ ، ٢٠٧ ، ٤٦٧ .

أفريقية ٣٩ .

أقبادرند ٥٢ ، ٤٨٠ .

أكسفورد ٦٨١ .

ألمانيا ١٤٨ .

- ٤١٢ ، ٤٣٧ ، ٤٥٨
- بيت سوا ١٢٦
- بيت القار ٩٨
- بيت قولنا ١٢٦
- بيت لهيا ١٢٦
- بيت المقدس « القدس »
- السيرة ٢٣ ، ٤١
- بيروت ٤٥ ، ٥٣
- بيسان ٢٦٧
- بيمارستان القلعة ٥٥
- اليمارستان النوري ١١١ ، ١١٧ ، ١٥٣
- بين القصرين ٤٠

(ت)

- تل أعفر ٣٥٦ ، ٣٥٧
- تل باشر ٤٦٢
- تل حطين ، التل « حطين »
- تل خالد ٢٦٦
- تل راهط ٣٠٢
- تل السلطان ١٩
- تل عقاب ٧٣
- تدمر ٨٧ ، ١٨٦
- تلمسان ٣٧٩
- تكريت ٣٦ ، ٣٧ ، ٦٧٣
- التكية السليمانية ١٥٣
- تهامة ٦٧٩
- تيماء ٤١٠ ، ٤٤٤

(ث)

- ثور « ثورا قرع يردى » ٢٢٧ ، ٣٦٦

(ج)

- جامع الأربعة ٧٧١

- بانياس « بلتياس » ٢٢ ، ٣٣ ، ٢٢٨
- البحر الأحمر ٤٠٩
- البحرين ٩٤
- البراق ٢١٢
- بردى ٢٢٣ ، ٢٤٨ ، ٢٨٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦
- ٣٧٣ ، ٤٨٦
- برقة ٣٩
- برزخ ٢٨٣
- برزخ سيناء ٤٠٩
- برزة ١٢٦
- برزية ٤٢٧
- بركة الحبش ٤٣١ ، ٤٧٧
- البصرة ٢٠ ، ٨٩ ، ١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦
- ٦٧٢
- بصري ٢٢٣ ، ٤١٠ ، ٤٥٢ ، ٤٨٤
- بعلبك ٢٦ ، ٣٦ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ١١٠
- ١٢٦ ، ٢٢٣ ، ٣٢٦
- بغداد ، بغداد « مدينة السلام » ١٩
- ٢٢ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤١
- ٥٠ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٩
- ١٠٦ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٦٥ ، ١٨٩
- ٢٢٤ ، ٢٢٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩
- ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٢ ، ٤٠٦
- ٤٢٧ ، ٤٧٧ ، ٥١٤ ، ٥٣٤ ، ٥٣٦
- ٥٨٠ ، ٦٥٩ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣
- ٦٨٣ ، ٦٨٨ ، ٦٩٣ ، ٦٩٥ ، ٦٩٩
- ٧٠١ ، ٧٠٧ ، ٧١٥ ، ٧٧٤
- بفراس ٤٢٩
- البلاط ١٢٦
- البلطيق ٦٢
- البلقاء ٧٢ ، ١٢٣ ، ٦١٣
- بيت الاحزان ٤٢٠
- بيت اوانس ١٢٦
- البيت الحرام ، البيت المتبق ٣٨٩

الجامع الأزهر ، الأزهر الشريف ٩٤ ، ١٠٨ .
الجامع الأموي ، مسجد بني أمية الجامع ،
جامع دمشق ، جامع جلق ، مسجد
دمشق ٦٥ ، ٧٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٤ ،
١١٧ ، ١١٨ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ،
١٥٣ ، ١٦٠ ، ٢٦٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،
٢٩٨ ، ٣١١ ، ٥١٥ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ .

جامع القسطنطينية ٨١ .

جامع القصر ٦٩٤ .

الجامع الكبير ١٩٦ .

جامع المزة ٧٧١ .

جامع النرب .

جبال قريظة ٤١٠ .

جبال الهكارية ٩٨ .

جبل جوشن ٨٧ ، ١٩٦ .

جبل الشيخ ٨٦ .

جبل الصالحية ٨٢ .

جبل عامل ٨٦ .

جبل العلوين ١٩٢ .

جبل لبنان ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

جبل العبد ١٩٢ .

جبل القطم ٧٤ ، ٢ .

جديا ١٢٦ .

جزائر ٤٤١ .

جزائر البحر ٧٣٨ .

الجزيرة العربية ٣١٦ .

الجزيرة « في النيل » ٣٨ ، ٢٨٣ .

الجزيرة ، جزيرة ابن عمر ، جزيرة بني

ربيعة ، البلاد الجزرية ١١ ، ٢٠ ،

٢٤ ، ٣٢ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٧١ ، ٣٠٠ ،

٤٧٩ ، ٦٧٩ ، ٦٨٩ .

جسر ابن شوّاش ٢٩٢ .

جسر الحادي ١٩٥ ، ٤٢٣ ، ٤٢٩ .

جسور ٢٤ ، ٤٤ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٩٥ ،

٢٢٤ ، ٢٢٥ .

جلق ١٩٦ ، ٢٣٢ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ،

٢٨٠ ، ٣٠٤ ، ٣٣٠ ، ٤٤٣ .

جنديسابور ٧٥٨ .

جيحان ٤٨٠ .

جيرون ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ،

٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٤٨٤ .

(ح)

حاجر ٢٨٧ ، ٣٦٥ ، ٥٩٦ .

حامرم ٢٦ ، ١٦٤ ، ٢٤٦ ، ٤١٩ ، ٤٢٩ ،

٤٣٠ .

الحبشة ، الاحبوش ٢٤٥ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ،

٤٧٨ .

الحجاز ٤٣ ، ٥٢ ، ٦١ ، ٧٢ ، ٣٠٤ ،

٣٣٢ ، ٤١٠ ، ٤٧٨ ، ٦٢٢ ، ٦٧٩ .

حجر الذهب ١١٥ .

الحجر المثلث ٣٣٧ .

الحجرة النبوية ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤٢١ .

حجون ٢٦٧ ، ٤٢٠ ، ٤٣٤ .

حجيرة ١٢٦ .

الحديثة ٨٢ .

حران ١٩ .

حرمستا ١٢٦ .

الحرمان ٣٤ ، ٨٩ ، ١٢٢ ، ٤٢١ ، ٦٦٢ ،

٧٢٦ .

حسبان ٧٢ ، ٦١٣ .

حطين ٤٢ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ،

٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٦٤ .

حطيم « حطين » ٤٥٣ .

حطيم ٣٩٣ .

حامب « الشهداء » ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٥ ،

٢٦ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٤١ ،

٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ،

- الخروبة ٧٣١
- الخزر ٤٤٥ ، ٤٤٦
- خلاط ٤٣
- الخليل ٤٦
- خنصرة ١٠
- خوازم ١٢٣ ، ٣٠١ ، ٣١٨

(د)

- دار البطيخ ٢٧
- دار الحديث الاشرفية الجوانية ١١٣ ، ١٢٧ ، ١٢٨
- دار الحديث الاشرفية البرانية ١١٣ ، ١٢٧ ، ١٢٨
- دار الحديث الناصرية ١١٤
- دار الحكمة ١٠٩ ، ١٨٦ ، ٢٣٩
- دار الخلافة ٨١ ، ١٠٦ ، ١٦١
- دار الزكي ٢٢٦
- دار الطواويس ٩٠
- دار المعدل « دار الكشف » ٦٣ ، ٤٢٧
- الدار العزيرة ٣٠ ، ٧٣٤
- دار العقيقي ١١٦
- دار العلم ١٣٦
- دار الكتب المصرية ٦٦١
- الدار المستنجدية ٦٧٢
- دار الندوة ٧٥٨
- دار الهندسة ١٥٢ ، ١٥٣
- داريا ١٢٦
- دجلة ٢٢٤
- درب الفاخوري ١٩٦
- درب الفواخير ٧٥
- درب الكشك ٣٢٣
- درسدن ١٤٨
- دماوند ٨٧
- دماوند ٨٧

- ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨
- ٨٧ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١١٢
- ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٢٩
- ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٥٩
- ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨
- ١٦٩ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤
- ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢١١ ، ٢٢١ ، ٢٥٥
- ٢٦٦ ، ٢٧٧ ، ٢٢٢ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨
- ٣٥٩ ، ٤٢٣ ، ٤٢٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٢
- ٤٨٥ ، ٥٥٧ ، ٦٧٣ ، ٦٧٦ ، ٧٤٥

الحلة ٤٨٤

حلوان ١٢٣

- حماة ١٨ ، ٢٢ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥١
- ٥٣ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٧٨ ، ٨٧ ، ٨٩
- ٩١ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١١١
- ١١٥ ، ١٢١ ، ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٤٥
- ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٦٢
- ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٥
- ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٩ ، ٢٥٥ ، ٢٢٣
- ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩
- ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٠
- ٣٦١ ، ٣٧٦ ، ٣٨٥ ، ٤٢٤ ، ٤٦٧
- ٤٧٤ ، ٥٥٦ ، ٧٥٦

- حمص ١٨ ، ١٩ ، ٢٩ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٥١
- ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٢ ، ٧٨ ، ١٠٦ ، ١١٠
- ١٩٥ ، ٢١٣ ، ٤٤١ ، ٥٠٠ ، ٦٧٥

• حناك ٤٧٥ ، ٤٧٦

• حوران ٢٩٨ ، ٤٣١ ، ٥٠٠

(خ)

- الخابور ٤١ ، ٧٨٨
- خانقاه سيد السعداء ٣٧٨ ، ٣٧٩
- خراسان ٩٤ ، ١٢٧ ، ١٣٧ ، ٢٦٤ ، ٤٠٣
- ٤٣٦ ، ٦٧٩

دمشق ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٧ ،
 ٣١ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ،
 ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ،
 ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٠ ،
 ٧٥ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ،
 ٨٧ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
 ٩٩ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١١ ،
 ١١٢ ، ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ،
 ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ،
 ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،
 ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ،
 ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،
 ١٩٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ،
 ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
 ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،
 ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،
 ٢٤٧ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،
 ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ،
 ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ،
 ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ،
 ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،
 ٣٠٧ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ،
 ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٥٧ ،
 ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٥ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ،
 ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ،
 ٤٢٧ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ،
 ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٧١ ، ٤٧٥ ، ٤٨١ ،
 ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣٠ ،
 ٥٣٢ ، ٥٧١ ، ٥٧٦ ، ٥٩١ ، ٦٠٤ ،
 ٦١٠ ، ٦٣٣ ، ٦٤٢ ، ٦٤٨ ، ٦٧٣ ،
 ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٨٨ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ،
 ٦٩٣ ، ٧٠٢ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ،
 ٧١٣ ، ٧١٩ ، ٧٢٣ ، ٧٥٢ ، ٧٧١ ،
 ٧٧٤ ، ٧٨٨ .

(٣)

ذو سلم ٥٩١ .

(ج)

رأس العين ٢٣
 راوية ٨٦ .
 الربوة ١٢٦ ، ٢٩٢ .
 رحا ب ١٢٣ .
 الرحبة ١٨ ، ٣٧ ، ٤٤ ، ٥٢ .
 رضوى ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٤١٠ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ .
 الرقة ٢٣ ، ٢٤ ، ٤١ ، ١٦٢ ، ٤٥٢ .
 الرها ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٦٠ ، ٦١ ،
 ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٨ ،
 ٢١٠ ، ٤٢٢ .
 رواد ٤٣١ .
 السروج ٥٤ .
 الروضة «في النيل» ٢٨٣ .
 روض الحمي ٣٠٢ .

الشام ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٨ ،
 ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ،
 ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ،
 ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ،
 ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ،
 ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٠ ،
 ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ،
 ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ،
 ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ،
 ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ،
 ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،
 ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ،
 ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ،
 ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،
 ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،
 ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ،
 ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،
 ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،
 ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩٢ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،
 ٢٠٨ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،
 ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ،
 ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ،
 ٢٤٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ،
 ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،
 ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٧ ، ٢٩٥ ،
 ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ،
 ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٢ ، ٣٢٦ ،
 ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ،
 ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ،
 ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٧ ، ٣٨٦ ،
 ٣٩٥ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩ ،
 ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ،
 الأدب في بلاد الشام - ٥٤

رومية ٢٤ ، ٤٢٣ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ .

(ج)

- راوية الجبل ٩٤ .
- الراوية القلندرية ٩٦ ، ٩٧ .
- الزيداني ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ .
- زبيد ٣٩ .
- زرع ٢٩٨ .
- زروود ٤٢٧ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ .
- زمزم ٢٨٧ ، ٣٩٣ ، ٤١٢ .
- زوراء ١٧٢ ، ٢٩٣ ، ٦٢٣ .

(س)

- ساحة القلعة ٢٢٥ .
- السبعين ١٩ .
- سروج ٢٣ ، ٤١ .
- سطرى ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٣٦٥ ،
 ٣٦٦ ، ٣٧٣ ، ٤٨٤ ، ٦١٠ .
- سلح ٥٩١ .
- سلمية ١٠ ، ٧١ ، ٨٧ ، ١٨٦ .
- سيماط ٦٩٣ .
- سنجار ٢١ ، ٤١ ، ٣٥٦ ، ٤٦١ ، ٦٩٣ .
- سنبر ٣١٤ ، ٤٨٧ .
- سهم ٦١٠ .
- السودان ٣٨ ، ٣٩ .
- السويداء ١٩٤ .
- سورية ١٠ .
- سوق البقل ٢٧ .
- سوق الخواصين ٢٤ ، ٢٠٣ .
- سيمكان ١٧١ .
- سيس ٧١٦ .
- سيناء ٢٦٧ ، ٤٠٩ .

(ش)

- الشافور ٢٨٨ ، ٢٩٠ .

٧٥٣

صرخد ٢٢٣ ، ٤٥٣ ، ٤٨٤ ، ٦٩٣ .

الصرفند ٨٦ .

الصعيد ٤٧٩ ، ٥٠٧ ، ٧١٧ ، ٧٣٨ .

صفد ١٢٥ ، ٢٦٧ .

صفة بقراط ٥٥ .

صفة العافية ٥٥ .

صفين ٢٤ ، ١٩١ .

مقلية ٣٩ ، ٤٤٥ ، ٧٥٥ .

الصقليتان ١٤٦ ، ١٥٠ .

صنعاء الشام ١١٥ ، ١٢٦ .

صنعاء اليمن ٣٦٢ .

صور ٤٤ ، ٥٣ ، ٨٦ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧ .

صيداء ٤٥ ، ٥٣ ، ٦٥ ، ٨٦ ، ٥٩٧ ،

٦١٧ .

الصين ٣٢٩ ، ٤٧٧ .

(ض)

الضريح « قبر الرسول » ٢٦٩ ، ٤٢١ ،

٤٥٨ .

(ط)

طبرية ٤١ ، ٤٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٧ ، ٤٣٤ ،

٤٣٥ ، ٧٣٧ .

طرابلس الشام ٥٣ ، ٦٠ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ،

١٣٦ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٣٩ ، ٤٢٤ ،

٤٦٩ .

طرابلس الغرب ٣٩ .

الطراز الاخضر الشامي ١١ ، ٢١ ، ٥٣ ،

٦٠ ، ٨٩ ، ١٥٩ ، ٢٨٩ ، ٤٢١ ،

٤٣٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٦٧٦ .

طرطوس ٤٤٥ ،

طرميس ١٢٦ .

طنزة ٦٥٩ .

طور سيناء ، الطور ، ٧٦٧ ، ٧٩٩ ،

٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩ ،

٤٤١ ، ٤٤٩ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦ ،

٤٦١ ، ٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨ ،

٤٨١ ، ٤٨٤ ، ٥١٨ ، ٥٢٨ ، ٥٣٥ ،

٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤٣ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ،

٥٥٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٦ ،

٥٦٧ ، ٥٧٤ ، ٥٨٠ ، ٥٩٠ ، ٦٠٦ ،

٦٠٩ ، ٦٤١ ، ٦٤٨ ، ٦٥٥ ، ٦٥٩ ،

٦٦٠ ، ٦٧٣ ، ٦٧٥ ، ٦٧٧ ، ٦٧٩ ،

٦٨١ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩١ ، ٦٩٣ ،

٦٩٧ ، ٧٠٠ ، ٧٠٧ ، ٧٠٩ ، ٧١٤ ،

٧١٩ ، ٧٢١ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٤٥ ،

٧٩٥ ، ٨٠٠ .

شبهتان ٣٦ .

شغجب ٥٦ .

الشقيف ٦٥ .

الشرف الاعلى ٢٩٢ .

الشرف القبلي ١١٢ .

شرف الميدان ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

شمام ٧٩ ، ٧٠٧ .

شهرزور ٣٦ .

الشوبك ٤٤ .

الشيخ « جبل » .

شيزور ١٨ ، ٢٢ ، ١٣٦ ، ١٦٠ ، ١٨٨ ،

١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،

٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،

٢٥٧ ، ٥٢٣ ، ٦٠٤ .

(ص)

الصالحية ٥٥ ، ٨٢ ، ١٤٠ .

صخرة بيت المقدس ، قبة الصخرة ،

الصخرة الشرفية ، الصخرة العظمى ،

الصخرة الفراء ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٣١٩ ،

٤٣٧ ، ٤٤٢ ، ٤٤٧ ، ٦٨٤ ، ٧٢٣ ،

- عين جالوت ٥٠ ، ٧١ ، ٣٢٨ ، ٣٣٩ ،
 ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ،
 عين شرماء ١٢٦ .

(غ)

- عرباطه ٧١٥ ،
 غزوة ٤٤٠ ، ٤٤١ ،
 غزوة ٣٠١ ،
 الغسور ٤٦ ،
 غرطة دمشق ٥٥ ، ٣٠٢ ،
 الغوطان ٢٣٣ ، ٢٨٠ .

(ف)

- فارسي ٩٤ ، ١٦٢ ، ١٩٩ ، ٢٣٥ ، ٤٠٦ ،
 ٤٢٩ ، ٥٢٥ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ،
 فارسكور ٤٨ ،
 الفرات ١١ ، ٢١ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٦ ،
 ١٦٧ ، ٤١١ ، ٤٢٤ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ،
 فدايا ١٢٦ ،
 فنك ٢٤ ،
 فلسطين ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٩ ، ٤٧٦ .

(ق)

- القادسية ٤٤٥ ، ٧٢٦ ،
 قارا ٧٥ ،
 قاسيون ٩٥ ، ٣١٣ ، ٣٦٦ ، ٣٨٠ ، ٥٢٧ ،
 ٥٧١ ، ٧١٠ ،
 القاهرة ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥١ ،
 ٦٢ ، ٦٥ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ٩٢ ،
 ١٠٠ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٢ ،
 ١١٤ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٨٦ ، ٤٢٤ ،
 ٢٢٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٦٩ ،
 ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٠ ، ٣٠٣ ، ٣١٩ .

- ٤٣٤ ، ٥٤٨ ، ٧٦٨ ،
 طيبة ٤١٢ .

(ع)

- العاصي ١١١ ، ١٥٤ ، ٢٠٧ ، ٣٤٣ ، ٤٨٦ ،
 عالج ٢٢٧ ، ٤٨٤ ،
 شامل « جبل » ،
 عانة ٨٢ ،
 عدن ٣٩ ، ٣٠٢ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ،
 العراق ٢٠ ، ٢١ ، ٣٥ ، ٩٤ ، ١٦٤ ،
 ١٦٥ ، ١٦٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٥ ،
 ٢٩٢ ، ٣٠١ ، ٤٠٥ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ،
 ٤٤٢ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٦٨١ ، ٦٩٧ ،
 العراق ١٢٢ ،
 عرقات ٤٥٨ ،
 العريش ١١ ، ٢٠ ، ٥٥ ، ٣٣١ ، ٤٧٧ ،
 المريية ٥٢ ،
 عزاز ١٧٧ ، ٤٥٣ ،
 عسقلان ٢٦ ، ٤٣ ، ١٩٦ ،
 عقاب « تل » ،
 العقبة ٤٠٩ ،
 العقبة ٥٥ ،
 العنقل ٤١٠ ،
 العتيق ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ،
 ٤٨٤ ، ٤٨٥ ،
 عسكا ٤٤ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ،
 ١٥٩ ، ٢٤٥ ، ٢٥٦ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ،
 ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٧٧٩ ،
 عمان ٣٢٢ ، ٤٩٧ ، ٦٠٩ ،
 عمورية ١٦٤ ، ١٩٤ ، ٤٧١ ،
 العونية ٩٦ ،
 عيذاب ٤٠٩ ،
 عيليب ٥٣ ،
 عيناب ٢٦٦ ، ٤٦٢ .

- قصر الحمراء ٧١٥
- القصر المنيف ٢٩٢
- القصر ٥٥ ، ٣٩٢
- قلعة برزبة ٤٢٧
- قلعة بصرى ١١١
- قلعة الجزيرة ١٠١
- قلعة جعبر ١٦١ ، ١٦٣ ، ٢٢٥
- قلعة حارم ٢٤٦
- قلعة حلب ٥٦ ، ١٠٣
- قلعة تكريت ٣٦ ، ٦٧٣
- قلعة حماة ٩١
- قلعة حمص ٣٧ ، ٦٧٥
- قلعة دمشق ٤٠ ، ٥٥ ، ٦٥ ، ٢٨
- ١١٠ ، ١٣٢ ، ٢٩٥ ، ٣١١ ، ٤٤٦
- قلعة الروم ٥٣
- قلعة صرخد ١١١
- قلعة القاهرة ٦٢ ، ٧٤ ، ٩٢
- قلعة منبج ٤٢٤
- قلعة الرقب ٤٦٩
- قلعة مصياف ٤٠
- قلعة الموصل ٣٣
- قورس ٤٥٣
- قوص ٤٣٢
- القويق ٥٩٦
- قيسارية ١٥٩

(ك)

- كاظمة ٢١١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٣٦٤
- ٤٨٤ ، ٤٨٥
- كربلاء ١٩١
- الكعبة المشرفة ٤٩٩ ، ٦٢٢
- كفر بطنا ١٢٦
- كفر سوسة ١٢٦

- ٣٢٦ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩
- ٣٨٠ ، ٦٨٨ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٧١٣
- ٧٧٤
- نبة الصخرة « الصخرة »
- قبرص ٧٥
- القبلة
- القبلتان « أولى القبليتين » ٨٩ ، ٤٢١
- ٧٢٦
- نبية ١٢٦
- القدس ، البيت المقدس ، بيت المقدس
- ١١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١
- ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٦٠
- ٧٧ ، ٨١ ، ١٠٦ ، ١٤٦ ، ١٥٩
- ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٩٨
- ٢١٠ ، ٢٢٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩
- ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٧
- ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٤١٨ ، ٤٢١ ، ٤٢٢
- ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧
- ٤٢٨ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦
- ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢
- ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧
- ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٥ ، ٤٥٧
- ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥
- ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٨٢ ، ٦٢٦ ، ٦٨١
- ٦٨٣ ، ٦٨٧ ، ٧٢٣ ، ٧٢٥ ، ٧٢٩
- ٧٣٠ ، ٧٣٩ ، ٧٥٣
- قرون حماة ٣٤
- القسان « كنيسة » ١٧٧
- القسطل ١١٩
- القسطنطينية ٢٤ ، ٨١ ، ١٧١ ، ٧٣٩
- القصر ٩٠ ، ٢٩٢
- القصر « أحد قصور الخلفاء الفاطميين »
- ٢٤٥
- القصر الأبلق ١٥٣

- ما وراء النهر ٨٣ ، ٣٠٢ ، ٣١٣ ، ٣١٥ .
- المحلة الكبرى ٢٧٤ .
- المدرسة الاسديّة ١٢٧ .
- المدرسة الامينيّة ١١١ .
- المدرسة التقوية « نظامية الشام » ٧٠ .
- ١١٢ .
- المدرسة الخاتونية البرانية ١١٥ .
- المدرسة الخاتونية الجوانية ١١٥ .
- المدرسة الدخاوية ١١٦ ، ١٥٢ .
- المدرسة الرشالية ١٠٩ .
- المدرسة الرواحية ١٢٧ .
- المدرسة الشافعية البرانية ١١٤ .
- المدرسة الشافعية الجوانية ١١٤ ، ١١٥ .
- المدرسة صاحبة ١١٢ .
- المدرسة الصالحة ٦٥ .
- المدرسة الصلاحية الدمشقية ٧٠ .
- المدرسة الصلاحية المقدسية ١١١ .
- المدرسة الصلاحية القاهرية « تاج المدارس » ١١١ .
- المدرسة الظاهرية البرانية ١١٢ .
- المدرسة الظاهرية الجوانية ١١٦ ، ١٥٣ .
- المدرسة العادلية الكبرى ١١٢ ، ١٣٧ .
- المدرسة العادلية الصغرى ١١٢ ، ١١٣ .
- ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٧ .
- المدرسة اللبودية النجمية ١١٧ ، ١٥٢ .
- المدرسة المظفرية ١١٢ .
- المدرسة المعظمية ١١٣ .
- المدرسة الناصرية بالقدس ١٢٧ .
- المدرسة الناصرية الجوانية ١١٤ .
- المدرسة النظامية ٦٧١ ، ٦٨٦ .
- المدرسة النورية الكبرى ١١٠ ، ٦٧٣ .
- ٦٧٤ .
- المدرسة النورية الصغرى ١١٠ ، ٦٧٣ .
- ٦٧٤ .

- كفر طاب ٧٢ ، ٤١ ، ٢٢٤ .
- كفر لا ٤٥٣ .
- كربلاء ١٩١ .
- الكرك ٣٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٧٢ ، ١٥٢ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٧٩٥ .
- كليمنت ٦٠ .
- الكنانة « مصر كنانة الله » ٢٥٨ .
- كنيسة بربارة ١٨٠ .
- كنيسة السيدة ١٨٠ .
- كنيسة القرايين ٧٥ .
- كنيسة القيامة ٧٤ ، ٤٤٣ .
- كنيسة مريم ٧٥ .
- كنيسة الناصرة ٧٥ .
- كنيسة البعابة ٧٥ .
- كنيسة اليهود ٧٥ .
- كوثر ٢٩٢ .
- الكوفة ٨٥ ، ٨٩ ، ١٢٢ ، ٢٩٧ .
- كيون ٤٦٢ .
- كيفا ٤٧ ، ٢٤٦ ، ٢٦٢ ، ٦٥٩ .

(ل)

- اللاذقية ١٨ ، ٧٣٦ ، ٧٥٩ .
- لاقانية ١٢٦ .
- لالش ٩٨ .
- اللجون ١٠٠ .
- لبنان ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ .
- لمبح ٤٨٥ ، ٥٤٩ .
- لفي كوم ٦٤١ .
- لوبية ٤٤٥ .
- اللوى ٣٦٩ ، ٤١٠ .

(م)

- مارددين ١٩ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

٨٧ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ،
 ٩٩ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،
 ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،
 ١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٩٦ ، ٢٢٦ ،
 ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،
 ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ،
 ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ،
 ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ،
 ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،
 ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،
 ٣٥٣ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ،
 ٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ،
 ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٦٩ ،
 ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٨٠ ، ٥٣٩ ،
 ٥٤٠ ، ٥٥٠ ، ٥٦٣ ، ٥٦٦ ، ٥٧٤ ،
 ٥٨٠ ، ٥٩٠ ، ٦٠٦ ، ٦٠٩ ، ٦١٣ ،
 ٦٣٣ ، ٦٦١ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٩ ،
 ٦٩٣ ، ٦٩٧ ، ٧٠٠ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ،
 ٧١٤ ، ٧١٩ ، ٧٢١ ، ٧٣٤ ، ٧٣٧ ،
 ٧٣٨ ، ٧٤٠ ، ٧٥٨ ، ٧٧٨ ، ٧٨٦ ،
 مصياف « قلعة » .
 المعبد « جبل » .
 المرة « معرة النعمان » ٢٢ ، ٤١ ، ٦٨ ،
 ٧٨ ، ٣٤١ ، ٦٦٨ ،
 معهد المخطوطات العربية ٦٨٢ ،
 المنسوب ٣٩ ، ٤٠ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ١٠٦ ،
 ١٠٧ ، ١١٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ ، ٤٧٦ ،
 ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٤١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ،
 ٥٧١ ، ٥٩٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ،
 ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٧ ، ٧١٥ ، ٧٣٤ ،
 ٧٤٣ ، ٧٦٩ ،
 مقرى ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٢ ، ٤٨٤ ،
 المعلم ٢٧٤ ، ٣١٧ ،
 مكتبة نور عثمانية ٦٨٢ .

المدرسة الدنيسرية ١١٧ ،
 مدين « يثرب » ١٢٢ ، ٤١٠ ، ٤٢١ ،
 ٤٤٤ ، ٧٧٢ ،
 مراغة ١٤٨ ،
 المرج الأخضر ٢٩٢ ،
 مرج دمشق ٧١ ،
 مرج الصفر ٥٦ ،
 المرج ٤٧٦ ، ٤٧٥ ،
 المرقب ٥٣ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ،
 مرقية ٤٢ ،
 المزة ٩٩ ،
 مسجد الأروة ،
 المسجد الأقصى ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٧٧ ،
 ٨١ ، ١٧١ ، ٢٩٦ ، ٣١٩ ، ٤٢٣ ،
 ٤٤١ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٦٢٦ ،
 ٦٨٢ ، ٧٢٧ ،
 مسجد بني النجار ٢٩٧ ،
 المسجد الحرام ٧٢٦ ، ٧٢٧ ،
 مسجد الضياع ٧٧١ ،
 مسجد القدم ٤٦٣ ،
 مسجد الوزير ١٨٨ ،
 سرايا ١٢٦ ،
 المشان ٦٨٦ ،
 المشعر ٤٤٧ ،
 المشهد « في حلب » ١٩٦ ،
 المشهد ٤٥٤ ،
 مشهد برزة ٧٧١ ،
 مشهد موسى بن جعفر ٦٩٤ ،
 مصر ١١ ، ١٢ ، ٢٠ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ،
 ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ،
 ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ،
 ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ،
 ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ،
 ٧٠ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ،

٢٨٣ ، ٣١٧ ، ٣٦٥ ، ٤٠٩ ، ٤١١ ،
٤٢٥ ، ٦١٣ .

(هـ)

• هاب ٤٥٢ .
• هراة ٣٠١ .
• الهكارية « جبال » .
• الهلال الخصيب ٧٠ .
• الهماية ٦٧٢ .
• همدان ٤٥ ، ٤٣٢ .
• الهند ٣٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ،
٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ،
٤٥٧ .

(و)

• وادي القري ٤٨٤ .
• وادي الشقراء ١١٥ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٧٣ .
• واسط ٢٠ ، ٥٧٩ ، ٦٧٢ .
• الوجه القبلي ٦٥ .

(ي)

• يبرين ٤٨٥ ، ٦٢٤ .
• يثرب « المدينة المنورة » ٢٦٨ ، ٤٢١ ،
٤٣٨ .
• يحصور ٤٢٤ .
• يزيد « فرع بردى » ١١٤ ، ٢٢٧ ، ٢٤٨ .
• اليمسوبة ٧١٠ .
• اليمين ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٤ ،
٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ،
٦٧٩ ، ٧٣٤ ، ٧٣٦ .
• اليونان ٣٤ ، ٣٩٧ ، ٤٤١ ، ٧٨٨ .

• مكة المكرمة ٣٩ ، ١٢٢ ، ٢٤٥ ، ٢٦٧ ،
٢٦٨ ، ٣١٧ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٣٤ ،
٤٣٧ ، ٥٤١ .

• منبج ١٨ ، ٣٤ ، ٥٢ ، ٨٨ ، ٤٢٤ .
• المنصورة ٤٨ ، ٥١ .

• منين ١٢٦ .
• منية عبد الله ٤٨ .
• الموصل ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٣٣ ، ٣٤ ،
٣٦ ، ٤٧ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٢٧ ،
١٥٠ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،
٢٥٧ ، ٣١٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٤٥٦ ،
٦٦٠ ، ٦٧٩ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩٣ ،
٦٩٥ ، ٧٠٧ ، ٧٣٤ ، ٧٨٨ .

• الميدان الأخضر ٣١ .
• ميس ٨٦ .
• ميفارتين ١٩ ، ٤٥ ، ١٤٥ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ .

(ن)

• نابلس ٤٦ ، ٤٢٥ ، ٤٢٢ .
• ناصرية الجبل .
• نجد ٧١ ، ٢٨٧ ، ٧٥٨ .
• نشاور ٩٤ .
• نصيبين ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٤١ .
• النقا ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ .
• النهران ٤٣٦ .
• النوبة ٣٨ ، ٣٩ .
• نوى ١٢٧ .
• النرب ١٢٦ ، ٢٢٢ ، ٢٣٣ ، ٢٩٢ ،
٥٢١ ، ٦١٩ .
• النريان ٢٧٩ ، ٥٢١ ، ٦١٩ .
• نسابور ٣٠١ .
• النيل ٥١ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ .

الفهرس الخامس
فهرس التصويبات المستدركة

الصفحة	السطر	الصواب أو الاستدراك
١٨	٦	نظام الملك
٢٥	١٩	Conrad
٢٧	٦	دار البطيخ
٣٢	٤٤	غازي بن زكي
٩٤	٥	حياة بن قيس
٩٩	١٧	شرف الدين بن الحسن
١٠٧	١٠	وأبا حيان
١١٤	٢٠	وأما الشامية البرانية فهي من أكبر المدارس وأكثرها فقهاء
١٢٩	٢	موسى بن عبد القادر
١٢٩	٩	وست العرب بنت يحيى بن قايمساز أم الخير الدمشقية ، وزينب
١٢٩	٩	وزينب بنت علي بن أحمد
١٣٥	١٩	خالويه
١٣٩	٥	أبو حيان المغربي
١٤٩	٢	علي بن محمود
١٦١	٣	سديد الدولة
١٦٤	١٢	ويلاحظ في هذه القصيدة ان الشاعر سطا على معاني أبي تمام في قصيدته التي خلد فيها فتح عمورية
٢٠٣	١	ووصف السوالف وقد خاطت رقية على وجناته
٢٠٩	١٨	منتقاه
٢١٠	٤	أغراض
٢٢٣	١٩	بقليبي
٢٢٤	١	الشيبي
٢٢٤	٥	نور الدين
٢٢٤	١٧	يا صاح
٢٢٥	٦	إيلغازي

الصفحة	السطر	الصواب أو الاستدراك
٢٢٦	٦	المتوقى
٢٢٦	١٨	الخصيب
٢٢٩	١٤	يسر
٢٢٩	١٨	دار الحكمة
٢٢٤	١٧	العادل بن السلار
٢٤٤	١٨	نصر بن عباس
٢٦٠	٦	بعث بها
٢٧٨	١٤	الظافر مظفر
٢٨٤	٢٠	عبد العزيز
٢٨٤	٢٠	إلا على
٨٩٢	٨	لا رضوى
٢٩٢	١٠	فيكف عن
٣٢٠	١٧	جيهان
٣٢٨	١٤	فما لنبي أيوب ملك مساجل
		ولا في بني أيوب ملك يساجله (٢)
		ملك يساجله (٢)
٣٤٧	١٥	مع لقبه
٣٧٩	١٣	شمس الدين
٤١٩	١٢	ومن كان
٤٢٤	١٢	والاستشارة
٤٧٥	٢٤	يجري بسعدك
٤٧٥	ها ١	حناك
٤٨٧	١٣	البروق ابتسامها
٥١٠	١٧	ليسكبوا
٥١٨	٨	المتنزهات
٥٤٠	١٠	ابن سناء الملك
٦٠٧	١	الفرنج
٦٤١	٤	المنتشرة
٧٠٩	١٠	السعلوس

الفهرس السادس

فهرس محتويات الكتاب

٧	مقدمة الطبعة الثانية
٩	مدخل البحث
	الباب الأول : إلمامة عامة (١٥ - ١٥٤)
١٧	الفصل الأول : التطورات السياسية والوحدة العربية
١٧	القسم الأول : الزكيون
١٨	(١) آق سنقر قسيم الدولة
١٩	(٢) عماد الدين زكي
٢٢	١ - فتح بارين
٢٣	ب - فتح الرها
٢٤	(٣) نور الدين محمود
٣٢	(٤) الصالح إسماعيل
٣٥	القسم الثاني : الأيوبيون
٣٦	(١) نجم الدين أيوب
٣٧	(٢) أسد الدين شيركوه
٣٨	(٣) صلاح الدين يوسف
٤٢	١ - معركة حطين
٤٣	ب - تحرير بيت المقدس
٤٤	(٤) خلفاء صلاح الدين
٤٧	القسم الثالث : المماليك
٥٠	(١) المظفر قطز
٥١	(٢) الظاهر بيبرس
٥٣	(٣) المنصور قلاوون
٥٣	(٤) الأشرف خليل
٥٤	(٥) الناصر محمد

٥٨	الفصل الثاني : المظاهر الاجتماعية العامة
٥٩	القسم الأول : فئات المجتمع
٦٠	(١) الطبقة الحاكمة
٦٣	(٢) رجال الدين
٦٦	(٣) طوائف الشعب
٧٠	(٤) الأعراب
٧١	أ - آل فضل
٧٢	ب - آل مرة
٧٢	ج - آل عقبة
٧٣	(٥) أهل الذمة
٧٦	القسم الثاني : الحياة الدينية
٧٧	(١) المذاهب السنية
٨٥	(٢) طوائف الشيعة
٨٨	(٣) فرق المتصوفة
٨٥	أ - القلندرية
٨٨	ب - العدوية
١٠١	القسم الثالث : أخلاق العصر
١٠١	(١) الخمر والحشيش
١٠٣	(٢) الزندقة
١٠٣	(٣) الإباحية
١٠٤	(٤) الأعياد
١٠٥	الفصل الثالث : التيارات الفكرية والعقلية
١٠٥	القسم الأول : ازدهار النهضة العلمية
١٠٦	(١) العوامل الخارجية
١٠٧	(٢) العوامل الداخلية
١٠٧	القسم الثاني : دور العلم والمساجد
١٠٩	(١) دور العلم في هذا العصر

- ١١٧ (٢) المدرسون والمعيدون والفقهاء
 ١١٨ (٣) أساليب التعليم
 ١١٩ (٤) الإجازات العلمية
 ١٢٠ القسم الثالث : نواحي الثقافة العامة

- ١٢١ (١) علوم الدين
 ١٢١ أ - القرآن الكريم
 ١٢٤ ب - الحديث الشريف
 ١٣٠ ج - الفقه الإسلامي
 ١٣٣ (٢) علوم اللغة العربية
 ١٣٣ أ - اللغة ومعاجمها
 ١٣٥ ب - النحو والصرف
 ١٤١ ج - البلاغة والعروض
 ١٤٢ (٣) العلوم التاريخية والاجتماعية
 ١٤٤ أ - التاريخ العام
 ١٤٥ ب - التاريخ الخاص
 ١٤٧ ج - التراجم والطبقات
 ١٤٧ د - الجغرافية والفلك
 ١٤٩ (٤) العلوم العقلية والعملية
 ١٤٩ أ - الفلسفة والمنطق
 ١٥١ ب - الطب والهندسة

الباب الثاني : الشعر والشعراء في بلاد الشام (١٥٥ - ٦٥٦)

- ١٥٧ الفصل الأول : أعلام الشعراء
 ١٥٨ شعراء القرن السادس
 ١٥٨ (١) ابن القيسراني :
 ١٥٨ القسم الأول : حياته وأثاره
 ١٦٨ أ - مراحل حياته

- ١٦٨ ٢ - آثاره الأدبية
- ١٧٠ القسم الثاني : شعره ومذهبه الفني
- ١٧٠ ١ - أغراض شعره
- ١٧٠ ١ - أحداث كبرى
- ١٧٢ ب - التجديد في معاني الغزل والنسيب
- ١٧٦ ج - الشغريات
- ١٧٤ ٢ - مذهبه الفني
- ١٨٦ (٢) ابن منير الطرابلسي
- ١٨٦ القسم الأول : حياته وآثاره
- ١٨٦ ١ - مراحل حياته
- ١٩٧ ٢ - آثاره الأدبية
- ١٩٧ القسم الثاني : شعره ومذهبه الفني
- ١٩٨ ١ - أغراض شعره
- ١٩٨ ١ - أحداث كبرى
- ١٩٩ ب - غزل ونسيب
- ٢٠٣ ج - ثورة وهجاء
- ٢٠٤ ٢ - مذهبه الفني
- ٢٠٦ (٣) ابن قسيم الحموي
- ٢٠٦ القسم الأول : حياته وآثاره
- ٢٠٦ ١ - مراحل حياته
- ٢٠٩ ٢ - آثاره الأدبية
- ٢١٠ القسم الثاني : أغراضه ومذهبه الفني
- ٢١٠ ١ - أغراض شعره
- ٢١٠ ١ - أحداث كبرى
- ٢١١ ب - مدائح تقليدية
- ٢١١ ج - الغزل والنسيب
- ٢١٤ د - الخمريات

٢١٦	هـ - مطارحات إخوانية
٢١٨	و - الوصف
٢١٨	٢ - مذهبه الفني
٢٢٠	(٤) عرقلة الدمشقي
٢٢٠	القسم الأول : حياته وآثاره
٢٢٠	١ - مراحل حياته
٢٢٤	١ - رحلة الشاعر
٢٢٨	ب - ملدح الأيوبيين
٢٣١	٢ - آثاره الأدبية
٢٣٣	القسم الثاني : شعره ومذهبه الفني
٢٣٣	١ - أغراض شعره
٢٣٣	١ - النسيب والفزل
٢٣٤	ب - الخمريات
٢٣٧	ج - فلسفة الشاعر الخمرية
٢٣٨	٢ - مذهبه الفني
٢٣٩	(٥) أسامة بن منقذ
٢٣٩	القسم الأول : حياته وآثاره
٢٣٩	١ - مراحل حياته
٢٤٨	٢ - آثاره الأدبية
٢٥١	القسم الثاني : شعره ومذهبه الفني
٢٥١	١ - أغراض شعره
٢٥١	١ - شعره الذاتي
٢٥٧	ب - وصف الأحداث الكبرى
٢٦٢	٢ - مذهبه الفني
٢٦٤	شعراء القرن السابع
٢٦٤	(١) ابن الساعاتي
٢٦٤	القسم الأول : حياته وآثاره

٢٦٤	١ - مراحل حياته
٢٦٦	أ - حياة الشاعر في بلاد الشام
٢٦٦	ب - حياة الشاعر في مصر
٢٧٥	٢ - آثاره الأدبية
٢٧٦	القسم الثاني : شعره ومذهبه الفني
٢٧٦	١ - أغراض شعره
٢٧٦	أ - مدح وأحداث
٢٧٩	ب - طبيعة ووصف
٢٨١	ج - نسيب وغزل
٢٨٤	د - أغراض شتى
٢٨٦	٢ - مذهب الفني
٢٨٨	(٢) الشهاب الشاغوري
٢٨٨	القسم الأول : حياته وآثاره
٢٨٨	١ - مراحل حياته
٢٩٠	٢ - آثاره الأدبية
٢٩١	القسم الثاني : شعره ومذهبه الفني
٢٩١	١ - أغراض شعره
٢٩١	أ - طبيعة دمشقية
٢٩٣	ب - نسيب تقليدي
٢٩٥	ج - مدح مختلفة
٢٩٦	٢ - مذهب الفني
٢٩٧	(٣) ابن عنين
٢٩٧	القسم الأول : حياته وآثاره
٢٩٧	١ - مراحل حياته
٢٩٩	أ - في عهد صلاح الدين
٣٠١	ب - مع الشاعر في منفاه
٣٠٧	٢ - آثاره الأدبية

٣٠٦	القسم الثاني : شعره ومذهبه الفني
٣٠٩	١ - أغراض شعره
٣٠٩	١ - سخرية وهجاء
٣١٣	ب - وصف البعاد والحنين
٣١٤	ج - مدح ونسيب
٣١٨	د - الأحاجي والألفاظ
٣٢٠	٢ - مذهبه الفني
٣٢٣	(٤) الشرف الأنصاري
٣٢٣	القسم الأول : حياته وآثاره
٣٢٣	١ - مراحل حياته
٣٢٣	٢ - آثاره الأدبية
٣٣٥	القسم الثاني : شعره ومذهبه الفني
٣٣٥	١ - أغراض شعره
٣٣٥	١ - مدح وأحداث
٣٣٩	ب - نسيب وغزل
٣٤٧	ج - الزهديات
٣٥٠	٢ - مذهبه الفني
٣٥٦	(٥) التلعفري
٣٥٦	القسم الأول : حياته وآثاره
٣٥٦	١ - مراحل حياته
٣٦٠	٢ - آثاره الأدبية
٣٦٢	القسم الثاني : شعره ومذهبه الفني
٣٦٢	١ - أغراض شعره
٣٦٢	١ - المدح
٣٦٤	ب - الوصف والطبيعة
٣٦٧	ج - النسيب والغزل
٣٦٨	د - الخمريات التلعفريّة

- ٣٧١ ٢ - مذهبه الفني
- ٣٧٨ (٦) الشاب الظريف
- ٣٧٨ القسم الأول : حياته وآثاره
- ٣٧٨ ١ - مراحل حياته
- ٣٨٣ ٢ - آثاره الأدبية
- ٣٨٤ القسم الثاني : شعره ومذهبه الفني
- ٣٨٤ ١ - أغراض شعره
- ٣٨٤ أ - مدح مختلفة
- ٣٨٥ ب - أغزال وخمریات
- ٣٩٣ ٢ - مذهبه الفني
- ٣٩٦ الفصل الثاني : أغراض وفنون
- ٣٩٦ القسم الأول : المذاهب الشعرية المعاصرة
- ٣٩٦ (١) آراء في الشعر
- ٤٠٠ (٢) المدرسة التقليدية وتطورها
- ٤٠١ (٣) المدرسة الحديثة واتجاهاتها
- ٤٠١ أ - مذهب التورية والانسجام
- ٤٠٣ ب - مذهب التطبيق والتجنيس
- ٤٠٥ ج - مذهب الفنون الشعرية
- ٤٠٧ القسم الثاني : الأغراض التقليدية وتطورها
- ٤٠٨ (١) المدائح والنبويات
- ٤٠٨ أ - المدح النبوة
- ٤١٣ ب - المدح الشخصية
- ٤١٥ (٢) الملاحم والأحداث
- ٤١٥ أ - ملاحم الزنكيين والأيوبيين
- ٤١٧ ١ - الصراع الديني
- ٤٢١ ب - استشارة وتحريض
- ٤٢٨ ج - تبشير ومهان وفتوح
- ٤٣٢ د - ملحمة حطين الخالدة

- ٤٣٥ هـ - تحرير بيت المقدس
- ٤٥٠ و - أبطال الفتوح
- ٤٦٠ ز - وصف الفرنجة الصليبيين
- ٤٦٦ ح - وصف النفور والحصون
- ٤٦٨ ط - أناشيد الجهاد الرباعية
- ٤٦٩ ٢ - ملاحم سلاطين المماليك
- ٤٦٩ أ - النسر والحروب الصليبية
- ٤٦٩ ب - الشعر والحروب التتيرية
- ٤٨٣ (٣) النسيب والفضل
- ٤٨٣ أ - التطور في معاني النسيب
- ٤٨٧ ٢ - التجديد في معاني الفضل
- ٤٨٨ أ - أوصاف الحبيب
- ٥٠٣ ب - أحوال المحب
- ٥٠٦ ج - عثرات الحب
- ٥٠٧ العذول والرقيب
- ٥١٠ الواشي والكاشح
- ٥١٣ د - الفضل المذكر
- ٥١٨ (٤) الخمريات والمجون
- ٥١٨ أ - بواعث انتشار الخمريات
- ٥٢١ ب - وصف مجالس الخمر
- ٥٢٢ ج - المدرسة الخمرية الشامية
- ٥٢٥ د - الخمريات والمجون
- ٥٢٧ (٥) المطارحات والشتوبات
- ٥٢٩ أ - المطارحات الأخوانية
- ٥٢٩ ب - الشتويات الشامية
- ٥٣١ (٦) أفراس مختلفة
- ٥٣١ أ - الأحاجي والألفاظ
- ٥٣٢ ب - الهجاء
- ٥٣٣ ج - الرثاء

القسم الثالث : الفنون الشعرية المستحدثة

٥٣٤

(١) الموشحات الشرقية

٥٣٦

١ - مقدمة في نشأة الموشحات

٥٣٦

ب - ظهور الموشحات الصوفية

٥٣٩

ج - موشحات ابن عربي

٥٤٠

د - الموشحات في بلاد الشام

٥٤٨

هـ - موشحات السراج المحار

٥٥١

١ - الموشحات الغزلية

٥٥١

٢ - الموشحات المدحية

٥٥١

و - موشحات الشاب الظريف

٥٥٨

ز - موشحات شمس الدين الدهان

٥٥٩

(٢) الأزجال العامية

٥٦٢

١ - انتشار الأزجال في بلاد الشام

٥٦٣

ب - أزجال شهاب الدين الأمشاطي

٥٦٧

ج - أزجال علاء الدين بن مقاتل

٥٦٩

د - تطور الأزجال في بلاد الشام

٥٧١

(٣) الرباعيات أو الدوبيتات

٥٧٤

١ - رباعيات الشاغوري

٥٧٥

ب - رباعيات العماد الكاتب

٥٧٥

(٤) المواليات الشعبية

٥٧٩

١ - نشوء المواليات وانتشارها

٥٧٩

ب - مواليات ابن السويدي

٥٨١

ج - مواليات البصراوي

٥٨١

(٥) المسمطات والخمسات

٥٨٣

١ - تسمية المسمطات

٥٨٣

ب - مسمطات أسامة

٥٨٤

ج - مخمسات أسامة والأنصاري

٥٨٦

الفصل الثالث : الأساليب والمذاهب الفنية

٥٨٩

(١) الشعر والبديع

٥٩٠

(٢) البديعيات النبوية

٥٩٠

القسم الأول : التصنع البلاغي

٥٩٢

(١) تصنع الصور البيانية

٥٩٢

أ - التشبيه

٥٩٤

ب - الاستعارة

٦٠٢

ج - الكناية

٦٠٥

(٢) تصنع الزخارف البديعية

٦٠٧

أ - المحسنات المعنوية

٦٠٨

أ - التورية

٦٠٨

ب - الطباق والمقابلة

٦١٤

ج - حسن التعليل

٦١٦

د - مراعاة النظر

٦١٨

٢ - المحسنات اللفظية

٦٢٠

أ - الجناس

٦٢٠

ب - الاقتباس

٦٢٥

الاقتباس من القرآن والحديث

٦٢٦

الاقتباس من المنطق والفلسفة

٦٢٨

الاقتباس من النحو والصرف

٦٢٩

حسن التضمين

٦٣١

ج - حسن الابتداء وبراعة الاستهلال

٦٣٣

د - حسن التخلص

٦٣٥

القسم الثاني : هيكل القصيدة العربية

٦٣٨

(١) الألفاظ والتراكيب

٦٣٩

(٢) الأوزان الشعرية

٦٤٥

(٣) دراسة القوافي

٦٥١

٦٥٥	الباب الثالث : التسمية والكتاب في بلاد الشام
٦٥٧	الفصل الأول : أعلام الكتاب
٦٥٩	كتاب القرن السادس
٦٥٩	(١) الخطيب الحصفلي
٦٥٩	القسم الأول : حياته وآثاره
٦٥٩	١ - مراحل حياته
٦٦١	٢ - آثاره الأدبية
٦٦٣	القسم الثاني : نشره ومذهبه الفني
٦٦٣	١ - فنون نشره
٦٦٤	٢ - مذهبه الفني
٦٧٠	(٢) العماد الكاتب
٦٧٠	القسم الأول : حياته وآثاره
٦٧٠	١ - مراحل حياته
٦٧٧	٢ - آثاره الأدبية
٦٨٣	القسم الثاني : نشره ومذهبه الفني
٦٨٣	١ - فنون نشره
٦٨٣	١ - النشر الديواني
٦٨٤	ب - النشر الأدبي
٦٨٤	ج - التاريخ المسجع
٦٨٦	٢ - مذهبه الفني
٦٨٩	كتاب القرن السابع
٦٨٩	(٣) ابن الأثير الكاتب
٦٨٩	القسم الأول : حياته وآثاره
٦٨٩	١ - مراحل حياته
٦٩٤	٢ - آثاره الأدبية

- ٦٩٧ القسم الثاني : نشره ومذهبه الفني
- ٦٩٧ ١ - فنون نشره
- ٦٩٨ ٢ - مذهبه الفني
- ٦٩٩ ١ - النشر المسجع
- ٧٠٣ ب - النشر المطلق
- ٧٠٨ (٤) الشهاب محمود
- ٧٠٨ القسم الأول : حياته وآثاره
- ٧٠٨ ١ - مراحل حياته
- ٧١٠ ٢ - آثاره الأدبية
- ٧١٣ القسم الثاني : نشره ومذهبه الفني
- ٧١٣ ١ - فنون النشر
- ٧١٣ ١ - كتب الحروب والتهاني والفتوح
- ٧١٦ ب - كتب التقاليد والتواقيع والمناسير
- ٧١٦ ج - الطرديات
- ٧١٧ د - الإخوانيات
- ٧١٨ ٢ - مذهبه الفني
- ٧٢١ الفصل الثاني : الفنون التثريّة
- ٧٢٢ القسم الأول : الفن الخطابي
- ٧٢٢ ١ - الخطب الدينية
- ٧٣١ ٢ - الخطب الحربية
- ٧٣١ الخطب الحربية
- ٧٣٣ القسم الثاني : النشر الديواني
- ٧٣٣ ١ - كتب التقاليد والتواقيع والمناسير
- ٧٣٦ ٢ - كتب التهاني والفتوح
- ٧٣٨ ٣ - كتب الحرب والنفير والجهاد
- ٧٣٩ ٤ - كتب الوثائق المعربة

٧٤٢ القسم الثالث : النثر الوصفي

- ٧٤٢ ١ - التاريخ المسجع
٧٤٣ ٢ - التراجم والرحلات
٧٤٤ ٣ - اوصاف الرياض والطرديات
٧٤٥ ٤ - المقامات الفنية

٧٤٩ القسم الرابع : النثر الذاتي والوجداني

- ٧٤٩ ١ - الرسائل الإخوانية
٧٥١ ٢ - الخواطر التأملية
٧٥٢ ٣ - القصص الوعظية
٧٥٢ ١ - نشوء الوعظيات

٧٥٥ ب - سلوان المطاع في عدوان الاتباع

٧٦١ ج - كشف الاسرار عن حكم الطيور والازهار

٧٦٧ د - القول النفيس في تفليس إبليس

٧٦٩ ٤ - المنامات الأدبية

٧٧٣ الفصل الثالث : المذاهب الفنية والأساليب النثرية

٧٧٣ القسم الأول : المذاهب الأدبية

- ٧٧٤ ١ - المذهب الحصكفي
٧٧٤ ٢ - المذهب الاثري
٧٧٥ ٣ - المذهب الظفري

٧٧٧ القسم الثاني : التصنع البلاغي

٧٧٧ ١ - تصنع الصور البيانية

٧٧٧ أ - التشبيه

٧٨٠ ب - الاستعارة

٧٨١ ٢ - تصنع الزخارف البديعية

٧٨٢ أ - السجع

٧٨٦ ب - الجناس

٧٨٧ ج - الطباق

٧٩٠	القسم الثالث : بنية النشر الفني
٧٩٠	١ - الألفاظ والتراكيب
٧٩٤	٢ - مقادير الرسائل
٧٩٥	٣ - بنية الفنون النثرية
٧٩٩	خاتمة البحث
٨٠١	الفهارس
٨٠٢	فهرس المصادر والمراجع
٨٤٠	فهرس أعلام القبائل والطوائف
٨٤٤	فهرس أعلام المناطق الجغرافية
٨٥٧	فهرس التصويبات المستدركة
٨٥٩	فهرس محتويات الكتاب

آثار المؤلف المطبوعة

الدراسات الأدبية :

- ١ - ابن نباتة المصري - أمير شعراء المشرق
منشورات دار المعارف بمصر .
سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية رقم ٣١
الطبعة الأولى سنة ١٩٦٣ . الطبعة الثانية ١٩٧٢ .
- ٢ - ابن النقيب - شاعر الطبيعة الدمشقي في العصر العثماني .
منشورات المكتبة العباسية بدمشق سنة ١٩٧٠ .
- ٣ - الأدب في بلاد الشام - عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك .
الطبعة الأولى - دار الفكر الحديث - دمشق سنة ١٩٦٧
الطبعة الثانية - المكتبة العباسية - دمشق سنة ١٩٧٢

المخطوطات المحققة :

- ٤ - آداب المؤاكلة - لبدر الدين الفزي .
مطبوعات مجمع اللغة بدمشق سنة ١٩٦٧ .
- ٥ - آداب العشرة - لبدر الدين الفزي .
مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦٨ .
- ٦ - ديوان صاحب شرف الدين الأنصاري .
مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦٧ .
- ٧ - مطلع الفوائد ومجمع الفرائد - لجمال الدين بن نباتة المصري .
مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٧٢ .